كينيزي مراد

حياة أميرة عثمانية في المنفى

ترجمة عن الفرنسية
حافظ الجمالي

بيع الدار

طبع بمدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

حياة أميرة عثمانية
في المنفى

الطبعة الثانية ١٩٩٦

عـنـوان الكـتـاب باللغـة الافـرنسيـة

KENIZÉ MOURAD

DE LA PART
DE LA
PRINCESSE MORTE

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	آخر الفقرة الثالثة	في ذلك	في نظراته؟ عندئذ تذكرت. لم يكن ذلك كابوساً. فتقوقعت في سريرها واسترسلت في البكاء
٢٥	٧	يكون في	يقارب
٢٦	١٨	بأحسن الصبر	صابراً
٢٧	١٨	جماعات	أسراب
٣٣	قبل الأخير	تحتفظ	تتذكر الغثيان
٤٤	أول سطر	أما	أمام
٤٦	١٨	حتى يريد	حتى ليريد
٧٧	١٢	الحزين	الحزن
١١٦	٥	بحركات كبيرة	بحركات كثيرة
١٢٢	١٢	مدّعيات	مزاعم
١٥٥	١٩	تحمل	تضع
١٦٣	١٠	من ذلك	(تحذف: من ذلك)
٢٢٠	١٧	سيقام فيه	أقيم فيه
٤٢٧	١٧	تعانيه	تعانينه
٧٠٠	١٩	مما يظهر	فيما يظهر
٧٢٩	٤	الخطر	الحظ
٧٣١	٥	فإن الأمور	بدأت الأمور
٧٣١	٨	**Coyncine**	**Capucine**
٧٣١	١٢	الذين يقفون أمامهم	التي يقفان أمامها
٧٣٢	١٧	بأمرك (الكوماندانور)	الكوماندانور بأمرك

٧٣٤	الكلمات الأجنبية **Kabarett** في الألمانية، يقابلها **Cabaret** في الفرنسية، أي الملهى. وكلمة **Platz** بالألمانية هي **place** بالفرنسية أي الساحة. وربما وجد بعض التحريف في الكلمات المكتوبة باللغة الأجنبية.

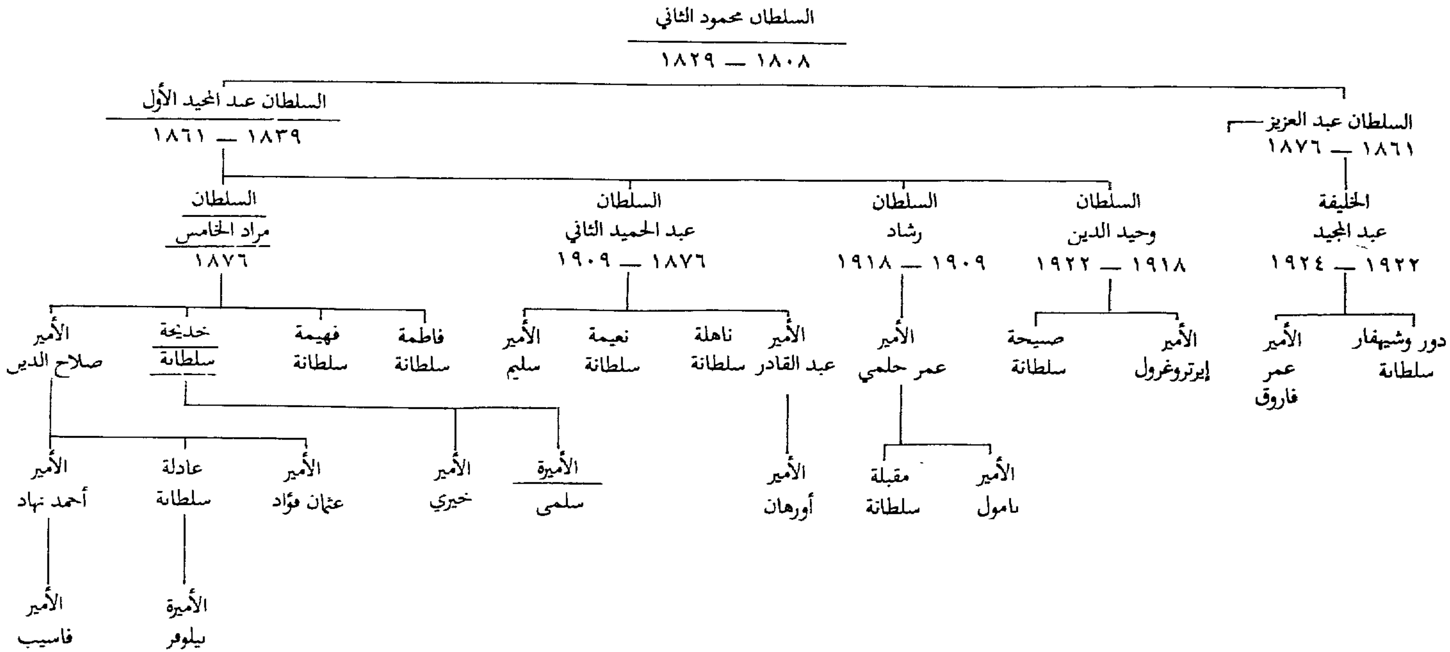
بدأت هذه القصة في كانون الثاني / يناير / عام ١٩١٨ في استامبول، عاصمة الأمبرطورية العثمانية، التي جعلت العالم المسيحي يرتجف هلعاً، خلال عدة قرون.

ولقد تغلبت الدول الغربية على هذه القوة وغدت تتنازع على حطام هذه الأمبراطورية المكتهلة، وكانت تسمى منذ زمن طويل باسم « رجل أوروبا المريض ».

ولقد تعاقب على العرش في هذه السلطنة ثلاثة أخوة خلال اثنين وأربعين عاماً، وهم السلطان مراد الذي خلع، وحجزت حريته بأمر من أخيه السلطان عبد الحميد، الذي أطيح به، هو نفسه، على يد من سُمّوا بجمعية « تركيا الفتاة »، وأحل محله السلطان رشاد.

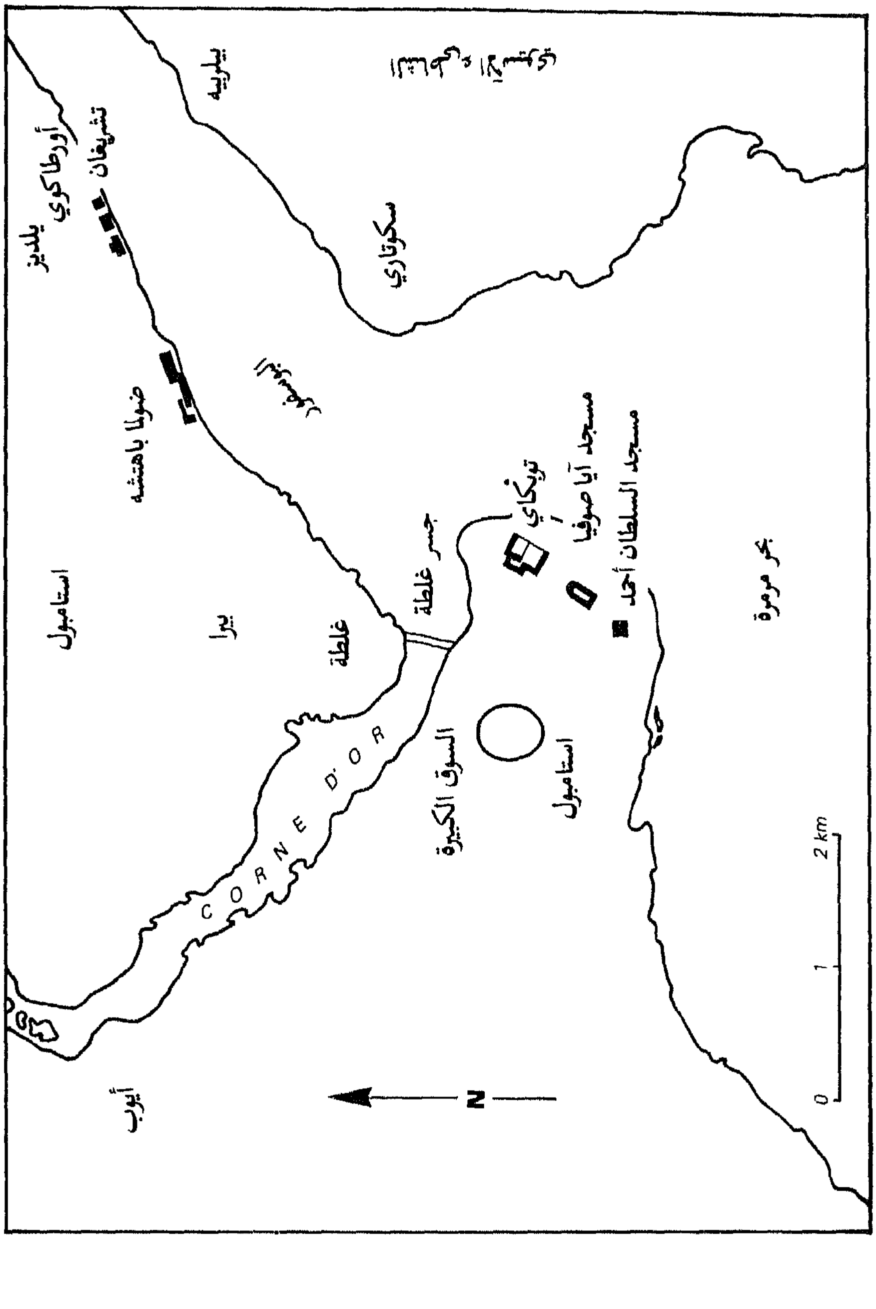
واليوم، لم يعد السلطان رشاد إلا ملكاً دستورياً. أما السلطة الحقيقية، فهي في يد الثلاثي، الذي جرَّ البلاد إلى الحرب إلى جانب ألمانيا.

أواخر ملوك الأمبراطورية العثمانية



القسم الأول

تركيا


أورطاكوي
تشريغان
يلديز
بيلربيه
سكوتاري
ضولما باهتشه
استامبول
بيرا
غلطة
جسر غلطة
طوبكابي
مسجد آيا صوفيا
مسجد السلطان أحمد
بحر مرمرة
السوق الكبيرة
استامبول
CORNE D'OR
أيوب
N
0
1
2 km

١

مات العم حميد ! مات العم حميد !

هكذا كانت بنت صغيرة تركض في البهو الرخامي الأبيض من قصر أورطاكوي ، المضاء بشمعدانات من الكريستال ، وتردد هذه الجملة ، كأنما تريد أن تكون أول من يذيع النبأ السعيد ، وينقله إلى أمها .

ولقد كادت ، من فرط سرعتها ، أن تقلب على الأرض سيدتين كبيرتين ، عصابات شعرهما مثقلة بالأحجار الكريمة ، مما يشير إلى ثرائهما ومرتبتهما .

وعلـقّـت إحداهما قائلة : ما أوقحها ! على حين أن الأخرى ، الغاضبة هي أيضاً ، كشفت عن سخط أكبر ، عندما قالت : « ماذا تريدين ! إن السلطانـة [1] تدللهـا بشكـل مفـرط ، إنها وحيدتها . وهي رائعة الحسن ، وهذا أمر متفق عليه . ولكنني أخشى أن يسبب لها هذا فيما بعد مشاكل مع زوجها . إن عليها أن تتعلم كيف تضبط سلوكها : إنها في السابعة من العمر ، ولم تعد طفلة ، لا سيما إذا كانت أميرة . » .

ولكن البنـيّـة التي لم تكترث لشكاوى الزوج المفترض ، واستمرت في عدوها . وأخيراً

(١) السلطانة لقب يطلق على بنات السلاطين . والسلطانة المشار إليها هنا ، هي خديجة بنت السلطان مراد المعزول ، وأم سلمى .

وصلت ، بعد أن أرهقها الجهد إلى الباب الضخم ، باب الحرملك ، الذي يقوم على حراسته خصيان سودانيان ، على رأس كل منهما طربوش فاقع الحمرة . ففي هذا اليوم كانت الزيارات قليلة ، وقد جلسا معاً ليتحدثا على راحتهما . ولكن لما لمحا « السلطانة الصغيرة » نهضا على عجل ، وفتحا المصراع البرونزي ، وأحاطا سلامهما بالكثير من الاحترام ، مخافة أن تشي بما كانا عليه من خمول . لكن الفتاة كان في بالها شيء آخر مختلف جداً ؛ ومن غير أن تنظر إليهما ، اجتازت العتبة ، ووقفت لحظة أمام المرآة الفينيسية ، لتتحقق من حسن ترتيب خصل شعرها الأحمر ، وثوبها الحريري الأزرق ، ثم لما راقها منظرها ، دفعت الستارة البروكار ودخلت إلى الصالة الصغيرة ، التي اعتادت أمها أن تبقى فيها بعد الظهر ، بعد الحمّام .

وخلافاً لرطوبة الممرات ، كانت هذه الصالة دافئة دفئاً حسناً ، بفضل المنقل الفضي الذي يسهر عبدان على إبقاء ناره مشتعلة . وكانت السلطانة المتمددة على الديوان ، تنظر إلى سيدة القهوة الكبيرة ، تصب سائلها في فنجان موضوع في كؤيس مطعّم بالزمرد .

وكأنما داخل البنيّة فورةٌ من الكبرياء ، فتجمدت وأخذت تتأمل أمها وهي في قفطانها الطويل . ومن عادة السلطانة (الأم) ، متى ظهرت بين الناس ، أن تتقيد بالموضة الغربية ، التي أدخلت إلى استامبول ، منذ نهاية القرن التاسع عشر . أما في بيتها ، فإنها تؤثر أن تعيش على « الطريقة التركية » . ففي هذه الحال لا نراها تستخدم مشدات البطن ، ولا الأكمام المنفوخة ، ولا التنورات الضيقة ، بل تضع على جسمها الثياب التقليدية ، بمتعة ظاهرة ، وتتمدد بشكل مريح على الصوفات اللينة التي تفرش بها صالات القصر الكبرى .

ـــ اقتربي ، يا سلمى السلطانة .

بهذه الكلمات تخاطب الأم ابنتها الصغيرة ، ذلك أن البلاط العثماني لا يقبل إهمال تقاليده ، ويخاطب الآباء أبناءهم ، مضيفين إليها كل ما لهم من ألقاب ، حتى ينشأ الأبناء ، منذ أصغر العمر ، على تقاليد المرتبة التي يملكونها بحكم مولدهم ، ويشعروا بكامل حقوقها وواجباتها . وعلى حين أن الخادمات ينحنين للسلام ، هذا السلام أو التحية العميقة ، التي ترتفع فيها اليد اليمنى من الأرض ، إلى موضع القلب ، ثم إلى الشفتين فالجبهة ، كتأكيد لعواطف الوفاء ، في الظاهر والباطن ، فإن سلمى تقبّل بسرعة أصابع الأميرة المعطرة ، وتحملها إلى جبهتها ، كإشارة احترام ، وأخيراً ، بلغ بها الهيجان أقصى حدوده ، ولم تعد تصبر على حبس الكلام أكثر من ذلك ، وهتفت تقول :

أيندجيم[٢] ، إن العم « حميد » قد مات !

وظهر شيء من البريق على العينين الرماديتين ـــ الخضراوين . مما حمل البنيّة على الظن بأن ذلك الألق علامة نشوة ، ولكن سرعان ما انطلق صوت شديد البرودة يعيدها إلى النظام ، إذ تقول :

ـــ كأنك تشيرين إلى حلالة السلطان عبد الحميد ، على ما أظن . فليقبله اللّه في جنانه . لقد كان سلطاناً عظيماً . ولكن من أين جاءك هذا الخبر الحزين ؟

ـــ أهو خبر محزن ؟ قالت البنية ذلك مندهشة ، وهي تنظر إلى أمها . أو محزنٌ موتُ هذا العم الكبير الشديد القسوة ، الذي أزاح أخاه عن العرش ، أخاه الذي هو جد سلمى ، وأشاع أنه مجنون ؟

والحقيقة أن مرضعتها كثيراً ما روت لها قصة مراد الخامس ، وهو أمير محبّب ، كريم ، استقبل الشعب عهده بمظاهر فرح كبيرة ، لأنه كان يتوقع أن يقوم بإصلاحات كبيرة . ومن المؤسف أن « مراد الخامس » لم يحكم إلا ثلاثة أشهر ... ذلك أن أعصابه الرقيقة قد هُزّت هزاً عنيفاً بدسائس البلاط ، والاغتيالات التي رافقت وصوله إلى السلطة . فأصيب بانهيار نفسي عميق . لكن الطبيب النمساوي ، المختص الكبير ليديرسدورف Liedersdorf كان قد أكد أنه إذا خلد إلى الراحة ، فسيبرأ خلال عدة أسابيع . لكن المجموعة التي كانت حوله ، لم تحسب أي حساب لهذا الرأي . فخلع مراد ، وحبس مع أسرته كلها في قصر تشيراغان .

ولقد عاش السلطان ثمانية وعشرين عاماً في هذا الأسر ، محاطاً باستمرار بجواسيس أخيه الذي كان يخشى تدبير مؤامرة ، تهدف إلى إعادته إلى العرش . وكان عمره ستاً وثلاثين سنة ، عندما دخل سجنه هذا ، ولم يخرج منه إلا عندما مات .

وفي كل مرة كانت سلمى تفكر في هذا الجد البائس ، كانت تشعر وكأنها تقمصت روح شارلوت كوردي ، هذه البطلة التي حكت لها مربيتها الفرنسية ، الآنسة روز ، قصتها . وها هو اليوم الذي مات فيه السفاح في سريره .

ومن المستحيل أن تكون الأيندجيم قد شعرت ببعض الأسى ، وهي التي بقيت خمسة وعشرين

---

(٢) أيندجيم : يا أمي العزيزة المحترمة .

عاماً سجينة في قصر تشيراغان، ولم تستطع استعادة حريتها إلا عندما قبلت ذلك الزوج الفظيع، الذي فرضه السلطان عبد الحميد.

فلِـم إذن تكذب؟

لكن هذه الفكرة الكافرة نبهت سلمى فجأة، وجعلتها تتخلى عما كانت تعيش فيه من أحلام. إذ كيف استطاعت أن تتخيل للحظة واحدة أن هذه الأم الكاملة إلى هذا الحد، تتدنى بنفسها إلى الكذب؟ إن الكذب أمر يناسب العبيد الذين يخشون العقاب، ولكن هل يناسب سلطانة؟ ومع حيرتها هذه، أجابت أخيراً:

ــ كنت أمر في الحديقة. وسمعت الأغوات[٣] يقولون ذلك.

وفي نفس اللحظة ظهر في العتبة خصيٌّ، سمين بعض الشيء. وعلى يديه قفازان أبيضان، وعلى جسمه ذلك الثوب الأسود الكلاسيكي، ذو الياقة الشبيهة بياقة لباس الضباط؛ أي ما كان يسمى بالاستامبولين. وبعد أن انحنى أمام سيدته مرات ثلاثاً، اسْتوى واقفاً، ويداه متصالبتان تواضعاً فوق بطنه، ليقول بصوت حاد:

ــ سيدتي السلطانة العظيمة الاحترام...

فقاطعته الأميرة قائلة: إني أعلم. إذ لقد كانت سلمى أسرع منك. فقل ذلك لأختي، الأميرة فهمية، والأميرة فاطمة، وكذلك أخبر أبناء الأخوة، الأميرين نهاد وفؤاد، أني أنتظرهم هنا هذا المساء.

ومنذ أن مات أخو خديجة، الأمير صلاح الدين، أصبحت وهي في الثامنة والأربعين من عمرها أكبر أولاد مراد الخامس. لكن ذكاءها وشخصيتها يفرضان الاحترام والطاعة داخل الأسرة، التي أصبحت هي سيدتها التي لا نزاع حولها.

وولدت في ذلك اليوم العصيب، شخصية لا تنحني لشيء ــ وها قد مضى على ذلك اليوم اثنتان وأربعون سنة ــ حيث فهمت أن أبواب قصر تشيراغان قد أغلقت عليها إلى الأبد، إنها

---

(٣) الأغوات خصيان بلغوا بعض العمر، وكسبوا لهذا السبب حق الاحترام. وكان في كل منزل لأمير أو حتى في كل منزل لبورجوازي، حتى نهاية الأمبراطورية عام ١٩٢٤. يستخدم بعضاً من هؤلاء ليؤمنوا الخدمة بين أجنحة النساء والعالم الخارجي.

شخصية تكـوّنت ببطء، ومتابعة عنيدة. وهي التي كانوا يلقبونها بكلمة «البرق»، ذلك أنها كانت تحب أكثر من كل شيء أن تعدو في حديقة قصرهم كورباليدير، أو أن تتنزه بالقايق[٤] على شاطىء البوسفور، والريح تسفع وجهها، ومع أنها لم تكن تحلم إلا بالفضاء اللا متناهي والبطولة، فقد وجدت وهي في عمر السادسة أنها أصبحت سجينة.

وعبثاً بكت، وطال صراخها، ومـزّقت يديها بالقرع على الأبواب البرونزية، ولكن هذه ظلت موصدة. وعندئذ أصابها مرض شديد، وساور أهلها الخوف على حياتها. أما الطبيب الذي استدعي على عجل، فقد ظل ينتظر ثلاثة أيام حتى أذن له السلطان عبد الحميد بالدخول إلى قصر تشيراغان.

ولقد عالج الطفلة بالعلق، وأمرها أن تشرب جُـرعاً من منقوع الأعشاب المرة. فهل كانت هذه الأدوية الحصيفة، هي التي أنقذتها أو أن ذكر أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، على حبات مسبحة العنبر، التي كانت سيدتان معمرتان من حاشية القصر تتلوانها ليلاً ونهاراً، هي التي كان لها الفضل في ذلك؟ غير أن البنية السجينة لم تلبث أن استعادت وعيها بعد أسبوع واحد. وعندما فتحت عينيها، رأت وجه أبيها الجميل جداً، واللطيف جداً، ينحني عليها. ولكن لِـمَ كان كل هذا البؤس في ذلك؟ غير أن البنيّة السجينة لم تلبث أن استعادت وعيها بعد أسبوع واحد. وعندما فتحت من جديد تسترسل في البكاء.

وعندئـذٍ تقلص وجه السلطان مراد، وبدا شديد القسوة. وقال:

ـــ يا سلطانة خديجة، أتظنين أن أسرتنا كان في وسعها أن تحكم إمبراطورية بهذا الاتساع، منذ ستة قرون، لو كُنا نقف أمام أي صعوبة نتوجع ونتألم؟ وإنك لشديدة الاعتزاز بنفسك، فليمدك هذا بما يكفي من الكرامة.

غير أنه أضاف، مع ابتسامة ناعمة، جاءت لتخفف قسوة اللوم، قوله:

ـــ لئن كانت إبنتنا الصغيرة تنقطع عن الضحك، فمن عساه يبهج هذا القصر؟ إننا سنخرج منه يا عزيزتي الغالية، فلا تخشي شيئاً، وعندئـذٍ سنقوم معاً برحلة كبيرة.

وهتفت البنيّـة تقول بفرح شديد:

---

(٤) نوع من القوارب التي تستعمل للنزهات القصيرة في البحر.

ـــ آه . يا بابا ، أسنذهب إلى باريس ـــ ذلك أنه لم يحدث قط أن غادرت أميرة من الأسرة المالكة أرض تركيا ـــ حتى ولا إلى الضواحي القريبة من استامبول ، فاسترسل السلطان في الضحك .

ـــ أو أصبحت امرأة صغيرة منذ الآن ؟ حسناً أعدك يا زهرتي بأن نمضي إليها حالما نخرج من هنا .

هل كان يعتقد ذلك حقاً ؟ أو كان الأمل ضرورياً لكي يستمر في العيش... العيش؟

وتلاشت نظرة السلطانة ، بينما كانت تتذكر ... فخلال الثمانية والعشرين عاماً من الأسر ، عاش السلطان مراد موته يوماً بعد يوم .

وكان الليل قد بدأ يهبط ، عندما دخلت عربتان بضجة كبيرة في الفناء الداخلي للقصر ؛ أي الفناء المطل على أجنحة النساء . فنزلت من إحداهما ، صبية لطيفة ، مثقلة بما عليها من حلي ذهبية ، وهي ترتدي شرشفاً من الحرير البنفسجي ، هذا الغطاء الواسع الذي يحجب كل الأشكال . أما من الأخرى فتنزل سيّدة مكوّرة، ترتدي شرشفاً أسود ، من أكثر الشراشف كلاسيكية . ويتضام الشرشفان لحظة قبل أن يسرعا إلى داخل القصر ، مسبوقين ومتبوعين بخصيان باللباس الرسمي .

والقصر ، على ما هي الحال في أكثر قصور الأمراء والأميرات ، بيت قديم من الخشب المحفور ، وذلك نوع من الحيطة في بلدة معرضة للهزات الأرضية . وهو بلون أبيض وسط حديقة حافلة بالنوافير ، والورود والسرو ، ويشرف على البوسفور الذي يضيئه الغسق في هذه الساعة . أما مطلاته ، وسلالمه ، وشرفاته ، ومصاطبه ، فإنها تجعله يبدو بصورة بيت من الدانتيل .

وكانت أمينة سر السلطانة تنتظر هاتين الزائرتين عند أول السلم ، المؤدي إلى أبهاء الطابق الأول . وكانت تلبس ثوباً من الساتان تعلو أزراره حتى العنق ، وعلى رأسها ذلك الغطاء التقليدي المصنوع من الموسلين ـــ ذلك أن المرأة الشريفة لا يسعها حتى في منزلها أن تظل عاريةَ الرأس ـــ وكانت تمسك بيدها العصا الطويلة ذات المقبض الذهبي ، وهذه علامة مميّزة لمن هو في مثل مرتبتها .

ولم تكد تنحني أمام السليطانتين ، حتى رفعتها هاتان ، وهما تقبلانها . وتعتبر هذه

الكالفات[٥] في البيوت الكبيرة كأعضاء كاملي العضوية في الأسرة. وما من شيء يقف دون أن يتقيدن بالبروتوكول، بل إنهن لأوثق الأمينات عليه. ولكنهن يعتبرن، على كل حال، أن صور الاحترام التي يقابلن بها من قبل الأميرات كنوع من المكافأة العادلة على إخلاصهن:

وعلى حين أن السلطانتين ، المستعينتين بعبدين، يخلعان ثيابهما المزعجة، فإن الكالفا العجوز كانت تهتز طرباً.

ـــ الحمد للّهعلى أن لبوتيَّ[٦]، ما زالتا، كل يوم، أروع من ذي قبل. ومع نظراتها المصادقة على ما تقول، نراها تمعن النظر في فطمتها الرفيقة العذبة، التي تلبس ثوباً من التفتا العاجية اللون، يُبرز حسن عينيها السوداوين وكذلك تتأمل فهيمتها المتألقة، التي تبرز قامتها الناعمة من داخل ثوب دي ذيل، تناثرت عليه صور الفراشات. وكأنما قد أتي به مباشرة من عند أدلر موللر، أحسن خياط في فيينا ـــ أما روائع باريس فإنها لم تعد تصل، مع الأسف، منذ أن خطر ببال الدولة، في آب / أغسطس / عام ١٩١٤، ذلك الخاطر السيء بإعلان الحرب على فرنسا.

وتعانقت الأختان بالأيدي، وهما تضحكان. وأخذتا ترتقيان السلم، عندما فاجأتهما عاصفة صغيرة زرقاء، انقضت عليهما، وكادت أن تقلبهما على قفاهما. وتوقفت عندهما مباشرة، وغمرت أيديهما بالقبل.

ـــ ديجديم[٧] ستجعلينني أموت! هكذا قالت فهيمة بكل ما فيها من حنان، وهي تضم سلمى بين ذراعيها، على حين أن الكالفا تدمدم غضباً، مستاءة مما تفعل سلمى.

لكن صبياً ضخماً شاحب اللون، يتبع العاصفة. فينحني، بلا فخفخة، أما خالتيه. إنه خيري، أخو سلمى. ومع أنه أكبر منها بسنتين، فهو مع ذلك عبدها المخلص، وكان دوماً يتأذى مما تجرؤ على فعله، ولكنه لا يقوى على مقاومتها.

وفي أعلى السلم كانت السلطانة خديجة قد تقدّمت. إنها تبدو أطول من أختيها، ولها مشية منزلقة، شهوانية، مغرية، وعلى شيء كبير من العظمة. ونراها نفرض نفسها على أكثر الناس بعداً. وعندما يتحدثون في الأسرة عن السلطانة، على الرغم من أن الأخوات كلهن سلطانات، فإنهم إنما يتحدثون عنها هي، بصورة مؤكدة.

---

(٥) وهن نساء مكلفات بخدمة القصر.

(٦) مؤنث الأسود: ويعنى بهذه الكلمة هنا سيدات القصر من الأسرة المالكة.

(٧) ديجديم. تعني العزيز الغالي، وتستخدم خاصة مع الأطفال.

وتجمدت فاطمة، أمام أختها الكبرى، من غير أن تخفي إعجابها، ولكن فهيمة، المستاءة، والتي هي تبعاً لمعايير الموضة، الأجمل بين أخواتها، أسرعت فقضت على السحر.

ـــ مادا يحدث يا أختي العريزة حتى تستدعينا بمثل هذه السرعة؟ لقد اضطررت لإلغاء الأمسية التي دعيت إليها لدى سفير النمسا ـــ هنغاريا. تلك الأمسية التي كنا نقدّر أنها ستكون مسلّية جداً.

ـــ إن الذي يحدث، هو أن عمنا السلطان عبد الحميد، قد قضى نحبه. هكذا قالت السلطانة بلهجة أكثر رسمية من المألوف، لا سيما وأنها لم تقرّر بعد السلوك الدي عليها أن تعتمده في هذه المناسبة. واكتفت فهيمة برفع حاجبيها.

ـــ ولم يكن لموت هذا... الطاغية، أن يحملني على العدول عن حضور البال (حفلة الرقص).

ـــ برافو يا خالتي! فما أحسن ما قلت!

لكن صوتاً جهيراً جعلهن يرتعشن. إذ لقد دخل عليهن من الخلف، رجل بدين في الخامسة والثلاثين تقريباً من العمر، هو الأمير نهاد. وهو الابن الأكبر للمرحوم الأمير صلاح الدين. وكان يصحبه أخوه الأصعر منه، الأمير فؤاد، الذي يبدو جميلاً في لباسه الرسمي، لباس اللواء، الذي لا يتركه أبداً. وهذا «اللواء الأمير» على ما يريد أن يسمى، بحكم أنه يقيم وزناً أكبر للقب اللواء، الذي كسبه في ساحات المعارك، منه للقب الأمير، كان قد عاد منذ ستة أشهر من الجبهة الشرقية، حيث جرح جرحاً خطيراً. وهو يقضي الآن فترة نقاهة فرحة في استامبول، مستغلاً سمعته كبطل، أمام السيدات، دون حياء.

وبعد أن انحنيا أمام السلطانات، تبعاهن إلى البهو الأخضر، حيث قامت كالفات صغيرات السن بإشعال المئة والسبعة والثلاثين مصباحاً، في ثريا من الكريستال.

وتسلل خيري وسلمى على رؤوس أصابع أقدامهما، وراءهن.

وكانت خديجة، المبتسمة، تنتظر أن يستقر كل من هؤلاء في مكانه. فهي تعرف أنه ليس من السهل أن تربح اللعبة. وهذا ما يسرها ويروقها.

ــ أردت هذا المساء أن أجمع مجلس الأسرة ، لنقرر ما إذا كان علينا أن نحضر غداً مراسم تشييع السلطان عبد الحميد .

« وتبعاً للتقاليد ، يجب على الأمراء أن يمشوا وراء الموكب الجنائزي الذي سيجتاز المدينة . أما الأميرات فإن عليهن أن يقمن بزيارة مواساة لزوجات المرحوم وبناته ، وفجأة يصبح صوتها عميقاً ، لتقول : أرجوكم ألا تضعوا في حسابكم عواطفكم الشخصية ، بل الصورة التي نقدمها عن أنفسنا إلى الشعب » .

وتقطع فهيمة الصمت ، أول من يقطعه ، لتقول :

ــ إن هذا كله كورنيلي بعنف(٨) ، أما أنا ، على كل حال ، فلن أذهب . لقد أفسد عليّ عمي العزيز ، خمسة وعشرين عاماً من حياتي ، ولكنه لن يفسد عليّ بعد الآن أي يوم آخر .

وقالت فطمة ببعض الخجل :

« أليست هذه ، على العكس ، مناسبة للعفو عن الآخرين . إذ لقد كفر المسكين عن إساءته بأكثر مما ينبغي ، فقد انتزع منه العرش ، بدوره ، وسجن عشر سنوات . أولا نستطيع أخيراً أن ننسى ؟ » .

ــ ننسى !

وبدا أن الأمير نهاد ، قد ازداد احمرار وجهه ، في مقعده . وخشيت سلمى ، لفترة ما ، أن يختنق . وكان ينظر جاحظ العينين إلى خالته الشابة ، وقال :

والوفاء إذن ؟ للسلطان مراد ، جدّي الذي أسيئت سمعته ، وقبر حياً ؟ والوفاء لأبي ، الذي قضى عليه الوهن العصبي (النوراستينيا) . فإذا نحن شاركنا في التشييع ، عنى ذلك تبرير من أسرف في اضطهادنا . فلنتغيب ، ولننشر بذلك إلى الأذى غير القابل للتعويض، والذي ألحقه بأسرتنا ! إن هذا ما ينتظره موتانا منا .

ــ يا أخي ، أرجوك لنكف عن جعل الموتى يتكلمون ؛

واتجهت الأنظار كلها إلى الأمير فؤاد الذي كان يتلذذ بتدخين سيكارة .

---

(٨) أصبح البلاط العثماني منذ القرن التاسع عشر ، فرنسي الثقافة . وهذا التعبير « كورنيلي بعنف » مستمد ومنسوب الشاعر كورني ، الكلاسيكي ، الذي كانت نظرته إلى الحياة مثالية ، يغلب فيها الواجب على العاطفة .

ـــ لما كنت الأصغر سناً هنا ، فإني أطلب منكم معذرتي إذا بدا أني أقدم نصيحة . ولكن السنين التي قضيتها على الجبهة مع جنودي ، وهم أُناس بسطاء من الأناضول وإزمير ، وشواطئ البحر الأسود ، علمتني شيئاً واحداً : فعلى الرغم من نقائصنا ، فإن الشعب يُجلنا ، ولن يفهم أن نكون مشتتي الأهواء أو متنازعين . ولئن حل عبد الحميد محل مراد ، وأن يكون هو قد عُوِّض عنه بأخيه رشاد ، فإن هذه أشياء أو أحداث عرضية . والمهم أن تكون أسرتنا كتلة واحدة حول السلطان . والشعب الذي يعاني عذاب هذه الحرب ، بشكل خاص ، بحاجة إلى نقطة استناد قوية . ومنذ ستة قرون ، ونقطة الاستناد هذه ، هي أسرتنا العثمانية . ويجب أن تبقى فيها ، وإلا فإننا قد نأسف على ذلك .

وفي هذه اللحظة ، ظهر أحد الخصيان ، يعلن عن وصول رسول من السلطان .

وكان هذا الرسول سودانياً عظيم الهامة . ومع أنه عبد ، فقد نهضوا جميعاً ، لا احتراماً لشخصه ، لأنه غير موجود بالنسبة إليهم ، ولكن تعبيراً عن الاحترام للكلام الذي هو حامله .

ـــ إن جلالته الإمبراطورية ، السلطان رشاد ، أمير المؤمنين ... وظل الله على الأرض ، وخاقان البحرين ، الأسود والأبيض ، وسلطان البرين ، يرسل إلى أفراد أسرته الأمراء هذه الرسالة : بمناسبة موت أخينا المحبوب جداً ، السلطان عبد الحميد الثاني ، ندعو الأمراء والأميرات من أسرة جلالة السلطان مراد إلى الاشتراك في المأتم ، في الأماكن والطريقة المحدّدة بالأعراف . فليكن السلام معكم ، وليتولكم الله جل وعلا بلطيف عنايته ! .

وهنا نراهم يتقبلون الأمر الصادر . وليس من شك في أن رسالته ليست بدعوة ، بل هي أمر .

وما كاد الرسول يغادر المكان حتى دمدم الأمير نهاد ، رافعاً كتفيه وقائلاً :

ـــ ليحدث ما يحدث ، فلن أذهب .

وتتدخل السلطانة خديجة لتقول بلهجة اللائم .

ـــ يا نهاد ، أظن أن (فؤاد) على حق . فالموقف خطير . وعلينا أن نبقي على وحدة الأسرة .

ـــ وحدة الأسرة ! آه . لنتحدث عنها ، يا خالتي العزيزة . إنها أسرة لم تنقطع منذ ستة قرون عن الاقتتال من أجل السلطة . فكم قتل جدّنا مراد الثالث « قاهر الفرس » من إخوته ؟ إنهم تسعة عشر فيما أظن . وكان أبوه أكثر تواضعاً ، إذ لم يقتل إلا خمسة .

وأجابت الخالة :

ــ لقد كان ذلك مبرراً بضرورات الحكم . وقد حدث مثل هذا في كل الأسر الحاكمة . لكن الذي حدث في أوروبا ، أن الملوك لم يكن لهم إخوة بهذا العدد . وأنا لا أحقد في هذا على السلطان عبد الحميد . ففي تلك الظروف الصعبة التي كانت فيها إنكلترا وفرنسا وروسيا تريد اقتسام أراضينا ، كان يجب بلا ريب أن يوجد رجل مثله ، لكي يدير دفة الحكم . ولقد استطاع خلال ثلاث وثلاثين سنة أن ينقذ الأمبراطورية من شرور الدول ، التي كانت تريد تمزيقها . أما أبي . المفرط في حرصه على الشرف ، والشديد الحساسية ، فربما لم يكن قادراً على أن ينجح في ذلك . وأخيراً ، أليست مصلحة البلاد أولى بالرعاية من سعادتنا الشخصية ؟

وعندئذ تبادلت فهيمة السلطانة والأمير فؤاد غمزة عين ساخرة . ذلك أن كبراهم كانت دوماً امرأة تحرص على الواجب . ولكن من يهتم اليوم بهذه المبادئ الكبرى ؟ أما فهيمة فتريد قبل كل شيء أن تتمتع ، وهي تقبل على المتعة إقبالاً عنيفاً بحكم شعورها أنها أضاعت في الأسر أجمل سني حياتها . إنها من المرح ، والخفة ، بحيث لقبت بلقب « السلطانة الفراشة » . وقد جعلت من الفراشات رمزاً لها ، وجعلت أثوابها تزين كلّها بهذا الرمز . إنها فنانة ، عازفة على البيانو بدرجة الكمال ، بل لقد يحدث أن تؤلف بعض القطع الموسيقية . وما من شيء تكرهه مثل « الجدّية » والمسؤوليات .

ويشبهها في هذا ابن أختها ، فؤاد : فلديه نفس الظمأ إلى الحياة ، ولكنه يتميّز عنها بحس مرهف ، بالواقع وحقائقه . ولما كان شديد الوعي لمصالحه ، فإنه يعرف كيف يضحي بالقليل لكي يربح الكثير . أما المواقف الصعبة ؛ فإنه يتخلص منها بما لديه من سحر وإغراء . وفي هذه اللحظة نراه لا يقاوم الرغبة في مناكاة السلطانة خديجة .

ــ إذا كنت أفهم سيادتك (أفنديميز) ، فإنه ليس علينا فقط أن نحضر المراسم ، بل لعل علينا ، كذلك ، أن نذرف فيها بعض الدموع ، لنكون في مستوى الموقف .

ــ يكفيكم أن تحضروها . ولكن تذكروا هذا ، يا فؤاد ، وأنت يا نهاد ؛ فلئن وصلتما إلى العرش يوماً ما ، فانسجوا على مثال السلطان عبد الحميد لا على مثال جدكم السلطان مراد . إذ لا تملك المرأة في آن واحد أن يكون لها ولد ، وأن تحتفظ بعذريتها .

وعندما انفجرت ضاحكة من سحنتهما المندهشة ــ إذ إنهم لن يتعودوا أبداً على خشونة كلماتها ــ نهضت لتختم الاجتماع .

٢

في صباح اليوم التالي ، ما كادت السلطانة خديجة تستيقظ من نومها ، حتى استولت عليها رغبة مفاجئة في المضيّ إلى السوق لتشتري بعض « الشرايط » . والعادة هي أن الباعة النساء من الأغارقة أو الأرمن ، هن اللواتي يأتين إلى القصر ليعرضوا أشياءهن ، إذ لا يحسن بالأميرة أن تتردد على هذه الأماكن الشعبية ، حتى ولو بقيت بعيدة عن الأنظار في عربتها المغلقة أحسن إغلاق .

ولكنها اليوم لا تريد الانتظار .

فاستدعت زينيل ، خصيّها المفضّل . وهو ألباني طويل القامة ، ذو بشرة شديدة البياض . ويجب أن يكون في الأربعين من عمره ، وتلاحظ السلطانة بشيء من المتعة أن سمنته الجديدة ، تريق عليه هيبة الباشا .

وتتذكر الآن ذلك المراهق المرعوب الذي وصل منذ خمسة وعشرين سنة إلى قصر تشيراغان ، حيث كانت تعيش سجينة مع أبيها ، وإخوتها . وكان قد أرسل إليهم من قبل رئيس الخصيان لدى السلطان عبد الحميد ، الذي وجد في إرساله هذا ، وسيلة مناسبة للتخلص منه . ذلك مع أنه كان موهوباً بشكل خاص ــ لأنهم كانوا يعلمون ويثقفون الأطفال الذين يهيئونهم لخدمة البلاط الملكي ــ ويتميّز بالذكاء والحيوية ــ فإنه فيما بعد بدا عصيّاً جداً على نظام الحريم القاسي .

ومع ذلك ، فإن زينيل هذا سرعان ما تلاءم مع صورة الحياة في قصر تشيراغان . فهل كان مثلاً يشعر بأنه أكثر حرية ، مع هؤلاء المساجين ؟ وتذكر خديجة أنه كان يتبعها إلى كل مكان . وكان شديد الانتباه لأصغر حركاتها ، على حين أنه كان يتجاهل أختيها الأميرة فهيمة والأميرة فطمة . ولقد اختارها هي وحدها ليقوم بخدمتها .

ولما كانت قد تأثرت بإخلاصه ، فقد ازدادت اعتماداً عليه ، بصورة تدريجية ! وكانت تقدر رهافته ، وتقـدّر بشكل خاص كتمانه الأسرار والأحاديث ، وكان بهذا يتميّـز عن الخصيان الآخرين ، الكثيري الهذر ، كالعجائز من السيدات .

أما الآن ، وفي قصر أورطاكوي ، فقد جعلت منه عينها التي ترى ، وأذنها التي تسمع . وهي ترسله بانتظام إلى المدينة لكي يتسقط الإشاعات ، وأحاديث المقاهي . فينقل إليها الانتقادات والرغبات التي تشيع في أوساط الشعب العادي في استامبول ، الذي ضاق صدره بهذه الحرب التي تتطاول ، وبصعوبات الحياة اليومية .

وهكذا ، فعلى الرغم من أنها حبيسة دائرة الحرملك ، فهي أكثر إطلاعاً على العواطف الشعبية ، من أكثر أعضاء الأسرة الإمبراطورية ، الذين كثيراً ما يأتون إليها للاستشارة ، لأنهم يعترفون لها بثقب الفكر وسلامة النصائح .

وقد عمدت حديثاً ، مكافأة منها لولاء زينيل الذي لا تشوبه الشوائب ، إلى ترقيته إلى المنصب العظيم ، منصب « رئيس الخصيان » ، مما أثار الكثير من التعليقات الضاغنة لدى الخصيان الأكبر عمراً منه .

ويراها الإنسان تفكر ، وهي تلاحظ العبد الذي ينتظر بأحسن الصبر ، وبعينين موجهتين إلى الأرض ، جملة الأوامر التي تصدرها إليه . ولكن ماذا تعرف عنه ، فيما عدا مزاياه كخادم استثنائي الفضائل ؟ وما هي حياته خارج القصر ؟ وهل هو سعيد ؟ إنها لا تملك أية فكرة عن ذلك ، وترى أن هذا الأمر لا يعنيها .

ومن أعماق صمتها تتجه إليه ، وتقول له أخيراً :

ـــ يا آغا أريد أن تجد لي عربة من عربات الأجرة . وبأسرع ما يمكن . وينحني الخصيّ ، مخفياً دهشته . ذلك أن عربات القصر المغطاة والمكشوفة ، وهي خمس ، في أحسن حال ! وبطبيعة

الحال، فإن هذه العربات تحمل الشارات السلطانية ... فهل ترغب سيدته أن تمضي، مجهولة الهوية، في الوقت الذي كان فيه زوجها خيري بك، في رحلة خارج المدينة؟ وزينيل هذا معتاد على نزوات النساء، فلطالما لاحظها بين نساء الحرملك، حيث كان يخدم لمدة أربعة عشر عاماً. لكن سلطانته هذه مختلفة! فأنب نفسه على أنه شك فيها، ولو للحظة، وأسرع ليجد لها عربة أجرة.

وساعدتها إحدى الوصيفات (الكالفات) على وضع الشرشف الأسود على جسمها، استعداداً للخروج. لكنها في هذه اللحظة فوجئت بسلمى التي كانت تنتظرها على الباب، لتقول لها متوسلة:

ــ أيندحيم، أرجوك أن تأخذيني معك!

ــ ولكن كيف يكون ذلك أيتها الأميرة؟ وتمارينك على البيانو؟ كنت أعتقد أن عليك أن تتدربي على عزف أنغامك!

ــ سأقوم بذلك لدى العودة، وأعدك بذلك!

وكان في عيني البنيّة من البؤس والتوسل، ما جعل أمها لا تملك لها رفضاً. فهي نفسها قد عانت الكثير من حياتها المنزوية، بحيث أنها ترغب الآن أن تهب ابنتها الحرية الممكنة، في حدود المواصفات المقبولة، وأحياناً فيما هو أكثر من ذلك على ما تقول الألسن الطويلة.

وخرجت العربة المغطاة، ذات النوافذ المستورة بشبك خشبي ناعم، من الفناء الداخلي للقصر، بسرعة معتدلة. أما زينيل، ومهابته العظيمة، فقد جلس إلى جانب السائق. وكان ذلك اليوم يوماً جميلاً من أيام الشتاء: واخز البرد من جهة، ومشمساً من الجهة الأخرى. وكان يحوم في السماء جماعات من الحمام، على مقربة من المساجد ومن القصور المطلة على البوسفور.

وتدمدم السلطانة خديجة قائلة: «استامبول، يا عزيزتي العظيمة» وعيناها نصف مغلقتين، كعاشقة طال عليها بُعدُ حبيبها، فهي لا تكل من التأمل فيها. وسلمى، إلى جانبها، فاغرة الفم، تعد نفسها، متى أصبحت كبيرة، بأن تخرج مرة كل أسبوع على الأقل، حتى ولو أدى ذلك إلى الكثير من التقولات.

واجتاز الركاب من جسر غلطه، ما يسمى بالقرن الذهبي، وهو شريط ضيق من البحر بين شاطئي العاصمة. أما السوق فإنها تقوم في المدينة القديمة، غير بعيدة عن قصر توبكابي المهيب،

والمهجور من قبل الأسرة المالكة، منذ ستين سنة، وذلك عندما بنى السلطان عبد المجيد، لتخليد ذكراه، قصر ضولمة باهتشه. وهكذا فإن السلطانات والأمراء، المقيمين وراء جدران السراي الرطبة، لا يموتون من السل.

أما الشوارع، فتقوم فيها حركة غير مألوفة. وبعد عدة أمتار، تقف العربة مضطرة. ويظهر وجه زينيل الطويل من خلال الباب.

ـــ يا صاحبة السعادة، لم يعد في وسعنا أن نتقدم. فمن هنا يجب أن يمر الموكب الجنائزي.

وترتسم ابتسامة هادئة على محيا السلطانة.

ـــ أحقاً هذا؟ لقد نسيت ذلك. إذن فسننتظر ريثما يمر.

وألقت سلمى نظرة باتجاه أمها، إن هذا هو فعلاً ما كانت تفكر به: فالشرائط لم تكن إلا ذريعة! فأيندجيم لا تهتم كثيراً بزينتها! والشيء الذي كانت تريده، هو أن ترى موكب الجنازة، ولما كانت التقاليد تقضي بأن لا تحضره الأميرات، فقد وجدت هذه الحيلة للحضور.

وكان هنالك جمهور كبير من الناس قد تجمع، على دهشة كبيرة من السلطانة. فقالت في نفسها: «يا بؤسهم، إن الناس لقليلو المتع، في أيام الحرب هذه، حتى يكفي أي شيء، لإخراجهم من منازلهم».

وفجأة يسود الصمت. إذ لقد ظهر الموكب في أعلى الشارع.

كان النعش مسبوقاً بفرقة عسكرية موسيقية بالاستامبولية السوداء. ومرت الجنازة ببطء، محمولة على أكتاف الجنود. ويتبعها الأمراء، مشاة على الأقدام، بترتيب الأعمار، وعلى صدورهم أوسمة من الماس. ويأتي بعدهم الأصهار (الداماد) أزواج الأميرات، ثم الباشوات في زيهم الاستعراضي الموحّد، ثم الوزراء بالريدنجوت المزين الجوانب بمطرزات الذهب. وأخيراً، وعلى نفس مستوى الوزراء في هذه الاحتفالات الرسمية، يأتي ألكيسلر آغا، حارس أبواب السعادة، ورئيس الخصيان السود، في القصر.

وعلى جانبي الموكب، وعلى طول الثلاثة الكيلومترات التي تفصل جامع أياصوفيا، عن الضريح الذي سيقبر فيه السلطان، ينتشر الجنود في لباسهم الرسمي في وضعية التأهب. ومن الواضح كل الوضوح، أن حكومة تركيا الفتاة، التي أزاحت السلطان عبد الحميد عن العرش، منذ

عشر سنوات ، وتحت رعاية السلطان رشاد ، هي التي بيدها مصائر الأمبراطورية . ولقد شاءت أن يكون الاحتفال بدفن السلطان ضخماً . وفي وسع المرء أن يبدو طيباً مع الموتى .

أما الطيب ... فإن الرجل الذي يحتفل بدفنه اليوم ، لم يعرفه قط ... وكانت الدموع تغشّي نظرة السلطانة . وفجأة ترى نفسها قبل أربعة عشر عاماً ، في تلك الليلة الشديدة البرد التي قبر فيها أبوها السلطان مراد ، بأمر من السلطان عبد الحميد ، بصورة سريعة جداً . إذ لم يصحبه إلى القبر إلا بعض خدمه الأوفياء . أما الشعب الذي كان يحبه حباً جماً ؛ فإنه لم يسمح له بالإعراب عن أسفه .

وترتجف خديجة . ذلك أن العظمة التي تحيط بالموكب الجنائزي ، لذلك الجلاد ، أثار كراهيتها من جديد . وما دام عبد الحميد قد أذل ، فلعلها قد سامحته ، ذلك أن حبسه الطويل قد كفـرّ عن ذنوبه في عينيها . لكن هذا الاحتفال الفخم ، يعيد إليه المجد ، وهو مجد مسروق من أخيه . فحتى في الموت كان حميد يسحق « مراد » . وبعد عشر سنوات من الأسر الغامض ، يبدو هذا الاحتفال بالدفن ، وكأنه يردّ إليه الحياة .

وشعرت السلطانة بأن طعماً مراً يملأ فمها . أهو الغيرة ؟ وهل تغار من ميت ؟... إنها تفهم الآن ما هي الرغبة التي دفعتها إلى تجاوز الأعراف ، من أجل حضور هذا الاحتفال الجنائزي . ولقد كانت تظن أن هذا منها ليس إلا من قبيل الفضول : والحقيقة أنها أرادت الشعور بالانتقام . فلقد جاءت تلاحظ وتستنشق وتتذوق موت الرجل الذي كان يقتل أباها ، يوماً بعد يوم ، خلال ثمانية وعشرين عاماً .

وما من مرة اعتقدت أن قلبها لا يزال يكن كل هذا الكره ...

وكان الموكب قد حاذى العربة . وحاولت خديجة أن تلاحظ بعينيها وجود أبناء أخيها . أما نهاد فإنه لم يحضر ، لكن الشاب فؤاد الملفوف بثيابه الرسمية الجميلة ، فإنه يُمـثّـل الأسرة تمثيلاً حسناً ، ولقد انقاد لنصائحها . ولكنها وهي التي تعرف دوماً ما يجب أن تفعله ، لم تعد قط واثقة من أنها كانت على حق .

وفجأة نـدت من الحضور صرخات . وحاولت السلطانة داخل عربتها أن تكبت ابتسامة . إن هذا هو السبب الذي جعل الناس كثيرين في الاحتفال : إذ قلما يهتم الشعب باللياقات التي تمنع إحاطة الميت بالصخب . ولهذا جاء يحيـي الطاغية التحية التي يستحقها !

ولما كانت شديدة الانتباه ، فإنها أصغت بأذنها ، داخل هذا الصخب ، إلى ما بدا لها أنه

تأوهات وشهقات بكاء ولكن هذا مستحيل، ويجب أن تكون أساءت السمع! ومع ذلك... فقد كان ما سمعته قائماً فعلاً. فتجمدت في مقعدها، وعلا وجهها شحوب كلون الموت. وما ذلك الذي ظنت أنه صرخات كره، بدا فعلاً أنه صرخات تألم ويأس. فاشتد فيها الاستياء. وماذا؟ أهذا الشعب الذي كان في الماضي يهزأ بالطاغية، يبكي عليه اليوم؟ أو نسي تلك السنوات السوداء التي كانت فيها الشرطة ودوائر المخابرات تحكم حكماً مطلقاً؟ أو نسي كم صفق للانقلاب الذي قام به رجال تركيا الفتاة، وأطاحوا فيه بالسلطان عبد الحميد، وأحلّوا محله أخاه «رشاد»؟ فهزت رأسها باحتقار، كأنها تقول: «حقاً إن ذاكرة الناس قصيرة».

وبدا وجه امرأة من نافذة، وهي تتألم، وتتوجع، وتقول:

ــ أيها الأب. لِـمَ تتركنا وتتخلى عنا؟ ففي زمانك كان لدينا خبز نأكله. أما اليوم فنحن نموت جوعاً!

وانضمت أصوات أخرى بعضها إلى بعض، لتقول:

ــ أين تمضي؟ لا تتركنا وحيدين.

وعندما سمعت السلطانة كلمة «وحيدين» ارتجفت. فماذا يريد هؤلاء الناس أن يقولوا؟ أو ليس لديهم ملك، هو السلطان الطيب رشاد؟ فهل يكونون قد فقدوا الثقة به؟ أو تراهم قد حزروا ما يعرفه كل إنسان في البلاط، وهو أن السلطان رشاد ليس إلا ألعوبة بين أيدي الأسياد الثلاثة الحقيقيين، أنور، وطلعت، وجمال؟

إن هؤلاء لم يروا أن يستشيروا السلطان، منذ أربع سنوات، عندما زجوا بتركيا في الحرب، إلى جانب ألمانيا، عام ١٩١٤. ومنذ ذلك الحين وهم يراكمون الأخطاء، وتزداد الهزائم التي يحاولون إخفاءها. ولكن مئات من الجرحى، تأتي كل يوم من الجبهة، وتطول الطوابير أمام المخابز، في الحين الذي تمتلئ فيه الشوارع بالمتسولين.

وتتنهد السلطانة. فمع السلطان عبد الحميد قضي على آخر رمز من رموز «تركيا» القوية والمحترمة. وعلى الأرجح فإن هذا ما يبكي عليه الشعب. فغمرها حنان الشوق، ولم تعد فيها الشجاعة، لاستبقاء وهم زيارة السوق (البازار).

فقالت لزينيل:

ـــ لنعد إلى القصر .

فنظر الخصي إليها بحزن . إنه يفهم الاضطراب الذي تعانيه السلطانة ، وهو يعلم كم هي بحاجة في هذه اللحظة إلى كلمة تواسيها ، لكن وضعه لا يسمح له إلا بالسكوت ، فينحني ، وينقل بكلام موجز ، أمرها إلى سائق العربة . وبدأت العربة طريق العودة إلى القصر ، على غير عجل .

والآن تبدو الشمس وهي تهبط على البوسفور . ومن خلال النوافذ الزجاجية العالية ، كانت خديجة تتأمل النهر ، وعلى الجانب المقابل ، في القارة الآسيوية ، كانت تتأمل قصر بيليربي Beylerbé ولم تستطع أن تكبت ابتسامة تجاه سخرية القدر هذه : فهناك ، ومقابل منزلها تماماً ، كان سجّانها القديم ، والذي أصبح سجيناً بدوره ، قد عاش السنوات الأخيرة من حياته .

ويدّعي أصحاب الألسنة الطويلة أنها اختارت أن تعيش على مقربة من السلطان المخلوع لكي تتأمله على راحتها . إن هذا غير صحيح : ففي هذا القصر ، قصر أورطاكوي ، كانت تسكن من قبل بمدة غير قصيرة . ولقد انتقمت لنفسها ، وهذا صحيح ، ولكن بطريقة أخرى .

ولقد أُخبرت بأن (القايق) جاهز : وكان قد حان الوقت تمضي إلى تقديم تعازيها لأسرة الميت . وباستثناء الاحتفالات الرسمية التي يحاولن فيها عدم التعرف بعضهن على بعض ، فإن هذه أول مرة تلتقي فيها الأسرتان .

وتجتاز السلطانة خديجة الحديقة ، متبوعة بأختيها وابنتها ، لكي تتجه إلى الجسر المبني من الحجر الذي نبتت عليه الطحالب فيما بعد . وكانت هذه النسوة الأربع يلبسن اللباس الأبيض ، لون الحزن ، أما اللون الأسود المعتبر كلون الشؤم ، فإنه محرَّم في البلاط العثماني .

وساعدهن الخصيان ، فصعدن إلى القارب اللطيف ، بعد أن حياهن المجدِّفون العشرة الذين يلبسون ، على ما كانت عليه الحال أيام سليمان الرائع ، قمصاناً واسعة من الباتيستا وسراويل قرمزية اللون . والمجدِّفون لا يكونون إلا عشرة ، عندما يستقبل الأمراء والأميرات . أما الوزراء فحصتهم ثمانية مجدفين . وأما السلطان فإنه يستخدم عادة (قايق) فيه أربعة عشر مجدفاً .

وعندما كان القايق يسبح فوق الماء ، كانت السلطانات يرفعن حجبهن لكي يتمتعن بالنسيم العليل ، إذ ما من إنسان هناك لكي يراهن . أما المجدّفون فعليهم أن يخفضوا عيونهم ، وإلا فإن التسريح عقوبتهم . وفي الماضي كان هذا العقاب هو الموت .

أما سلمى التي اعتلت مقدمة القارب، فكانت تتأمل بإعجاب حركة الأسماك، التي كان يبدو أنها تتبع القايق: وهي تحب هذه العادة، عادة الأوشحة الموسلين الزرقاء، المطرزة بصور الشبابيط والتروبية، بخيوط من الفضة، تطريزاً يخدع البصر ويوهمه بأن هذه المطرزات أسماك حقيقية.

ووصلت الأميرات إلى قصر بيلربي، وقد دُخّن قليلاً بهواء البحر، فواكبهن الخصيان في البهو الكبير ذي السقوف المزينة بأشكال هندسية خضراء وحمراء، وذي الجدران المكسوة بمرايا دمشقية مطعمة بالصدف. وكان هذا القصر قد بني في القرن الماضي بأمر من السلطان عبد العزيز، الذي أراد له زينة شرقية فخمة ليتميز بها من الـدرُجات الآتية من أوروبا. ويروى أنه عندما جاءت أوجيني دو مونتيجو، التي كان يحبها حباً شديداً، أقامت فيه قبل أن تمضي لتدشين قناة السويس، فأمر السلطان بأن تطرز الناموسية، التي تنام تحتها الأمبراطورة بألف حبة من اللؤلؤ الناعم.

ودخلت الأميرات، تتقدمهن سيدة المراسم، إلى قاعة من المخمل الأرجواني اللون. وهذا هو بهو السلطانة الوالدة، وهو لقب يعطى لأمهات السلاطين. ولما كانت أم السلطان عبد الحميد قد ماتت، فإن زوجته الأخيرة مشفقة كادين، هي التي تتصدر مكانها، وتبدو رقيقة نحيلة في المقعد المصنوع من الخشب الثقيل المذهب، الذي تجلس عليه. وقد ظلّت حتى النهاية إلى جانب السلطان المخلوع. وكان يوم التعزية هو يوم فخارها، فهي تتلقى المكافأة العادلة على إخلاصها.

أما حولها، فكان يوجد نساء من مختلف الأعمار، يجلسن على وسائد وأرائك من البروكار، وكن يتوجعن إذ يذكرن فضائل المرحوم، وأعماله الطيبة. ومنهن من يبكين بجلبة، ومع ذلك فإنهن ينقطعن عن ذلك ليلاحظن القادمات الجدد.

وعندما ظهرت السلطانات الثلاث، دمدم الحضور دمدمة الدهشة. لكن «الكادين» تبتسم، وهي أذكى من أن يخفى عليها السبب السياسي لهذه الزيارة. ومع ذلك فإنها لا تقلل من شأن هذه البادرة العظيمة. فنهضت على عجل، لاستقبالهن، إذ حتى في ذلك اليوم، الذي وصلت فيه إلى قمة الفخار والتشريف، لا تنسى الاحترام الواجب للأميرات بالدم. ومهما يكن الأمر فإنها، ككل زوجات السلطان، ليست إلا امرأة من الحريم، تميزت عن غيرها بحظوتها لدى السلطان الشديد القوة.

أما سلمى الغارقة في تقديم احتراماتها الصغيرة، فإنها تقبل يد النساء المتميزات اللواتي يحطن بالزوجة العزيزة. وكانت تتهيأ للسلام على سيدة قميئة جداً جالسة على يمينها، ولكنها أمام نظرات البغض العنيفة التي ركّزت عليها، لم تجد بداً من التوقف. فماذا أتت من السوء؟

وبحكم ما اعتراها من الاضطراب ، نظرت إلى أمها التي كانت تدفعها بحزم إلى الأمام .

ــ سلمى ، هيا سَلِّمي على خالتك ، السلطانة نعيمة ، ابنة المرحوم السلطان عبد الحميد .

ولكن البنيّة تراجعت وهي تهزّ خصل شعرها الحمراء ، لتثير أكثر العجب والاستغراب . فأزاحتها عنها أمها إزاحة مفاجئة ، والتفتت إلى الأميرة قائلة :

ــ أرجو أن تعذري هذه الطفلة ، فحزنها على فقد عمها لا بد أن يكون قد رفع حرارتها .

لكن السلطانة نعيمة ، التي قابلت هذا الكلام بشيء من الاحتقار ، أزاحت وجهها ، كما لو أنها لم تكن تستطيع أن تتحمل رؤية تلك التي تكلمها . وعندئذ انتصبت خديجة بقامتها الطويلة ، وألقت على الجماعة الحاضرة نظرة ساخرة ، ومضت لتجلس على يسار « الكادين » التي دعتها إلى الجلوس بجانبها . فانتصرت . أما ما ظهر من عامية ابنة عمها ، فقد كان بمثابة الاحترام . وما من شخص هنا يخفى ذلك عليه . وهكذا فإن الجرح بعد أربع عشرة سنة ، ما يزال ينزف ، كما كان الأمر من قبل !

وعندما كانت خديجة تصغي إلى الأرملة التي تقص للمرة الألف ، تفاصيل موت جلالته ، كانت تتذكر ...

وصحيح أن كمال الدين باشا كان وسيماً ، وهو زوج نعيمة المهذب ، الرقيق الحاشية . وكانت ابنتا العم قد تزوجتا في العام نفسه ، قبل سبعة عشر عاماً . وعلى حين أن السلطان اختار لابنته المفضلة نعيمة ، التي ولدت يوم تتويجه ، ضابطاً لامعاً ، فإنه فرض على خديجة موظفاً غامضاً ، بشعاً بقدر ما هو محدود .

وكان الزواج هو الوسيلة الوحيدة للخروج من القصر والسجن ، الذي كانت خديجة محبوسة فيه منذ الطفولة . وفي عمر الواحد والثلاثين ، كانت قد يئست من الحياة . وكانت مستعدة لكل شيء ، لكي تصبح حرة . ولكنها لم تتوقع اختياراً مُحِطاً بالإنسان إلى هذه الدرجة . وظلت خلال عدة أسابيع تغلق باب غرفتها بعناد على زوجها . الذي ذهب يشكو أمرها إلى السلطان . وأخيراً ، أرهقتها المقاومة ، وقبلت ما قُدِّر لها .

وما تزال ترجف عندما تتذكر الليلة الأولى .. ولا تزال تحتفظ بالغثيان الذي لصق بجسمها ، من ذلك .

وكان القصر الذي أهديته من قبل السلطان ــ كما هي الحال مع كل أميرة تتزوج حديثاً ــ ملاصقاً لقصر ابنة عمها نعيمة . وتعودت خديجة أن تزور السيدة الشابة ، قريبتها . وكانت تقدم لها نصائحها ، كأخت كبرى ، وتوصل إليها بواسطة زينيل ، بعض الهدايا الصغيرة . وسرعان ما جعلت منها صديقة . وكانت نعيمة تعشق زوجها الأنيق ، المتفتح ، أكبر العشق . فهل من انتقام منها أفضل من أن تسرقه منها . وأية وسيلة أوثق من هذه لكي تجرح جلادها ، وجلاد أبيها ، ذلك الأب الذي كانت تحبه حباً جماً ، عندما تجعل ابنة السلطان تيأس من الحياة بهذه الصورة ؟

وبهدوء ، وصبر ، قامت خديجة ، كما لو أنها تقوم بواجب العدالة ، بإغواء كمال الدين . وكان ذلك سهلاً عليها ، لأن نعيمة القليلة الحذر ، حرصت ، خلافاً للتقاليد ، على أن يلتقي زوجها ، أفضل صديقاتها . وكانت خديجة جميلة ، فوقع الباشا في غرامها ، وصارحها بحبه لها ، في رسائل غرامية عنيفة ، كانت تحتفظ بها بعناية .

وخلال هذا الوقت ، كانت نعيمة التي أمضتها لا مبالاة كمال الدين ، وأرهقتها ، ترفض الطعام ، وتدع نفسها للهلاك . أما خديجة التي كانت تتلقى ما تسره إليها تلك البائسة ، فقد انتهت إلى القناعة بأن اللعبة دامت بمقدار ما يجب وأكثر . وكان كمال الدين يزداد إلحاحاً ، أما واصف زوجها ، الذي سمح لنفسه بأن يكون غيوراً ، فقد كان يُصمّ أذنيها بلومه . فجعلت من رسائل كمال الدين حزمة ، ونادت زينيل وأمرته بأن يُسلمها إلى السلطان ، مدعياً بأنه عثر عليها بالمصادفة . وكانت تحرص على الانتقام ، وعلى حريتها . ولم يكن لمثل هذه الفضيحة إلا أن تؤدي إلى الطلاق .

والآن ، وبعد أن مضى أربعة عشر عاماً ، لا تزال خديجة دهشة من سذاجتها . فكيف خطر لها أن بالإمكان إيقاع عبد الحميد في شرك المناورة .

وتعود فترى بالذاكرة ذلك اليوم الذي استدعاها السلطان فيه إلى القصر ، وكان يمسك بيده رسائل الباشا . وكان في وسعها أن تقرأ في عينيه الصغيرتين السوداوين ، ما يكنه من النقمة ، لكنها كانت ترى بصورة خاصة تلك السخرية ، التي أثرت فيها تأثيراً أكبر وأكبر . وكان البلاط كله ينتظر الحكم . فقد نفي كمال الدين باشا إلى بروسة العاصمة القديمة ، وهي على بعد ١٠٠ كم تقريباً من استامبول . ولكن ماذا سيفعل السلطان بالسيدة الشابة ؟ أوَستنفى هي أيضاً ، بدورها ؟ لئن قلنا ذلك ، فإننا بالتأكيد لا نعرف عبد الحميد معرفة جيدة . فهو لم يلمها أي لوم ، واكتفى بالضحك الساخر منها و .... أعادها إلى زوجها .

ولن تتخلص خديجة من زوجها إلا بثورة عام ١٩٠٨ ، التي خلعت السلطان عبد الحميد

وجاءت بأخيه الطيب ، السلطان رشاد . ولما كان هذا لا يأبى على قريبته هذه شيئا ، فقد سمح لها بأن تطلق زوجها .

ولم يكن لأحد أن ينتظر من نهاية جميلة لمثل هذه القصة الرومانتيكية ، غير الاحتفال بعرس كمال الدين والأميرة . فلما تحرَّر الباشا ، الذي كان غرامه قد حلّـق إلى الأوج ، عاد بسرعة إلى استامبول . ولقد استقبل ببرودة كبيرة من قبل السلطانة ، التي صرّحت له بأنها لم تقع في غرامه قط .

وبعد ذلك بسنة ، وخلال نزهة في « مياه آسيا الحلوة »[1] التقت خديجة بديبلوماسي جميل ، فوقعت في حبه ، وقررت الزواج منه .

وكان ذلك الديبلوماسي هو خيري رؤوف بك ؛ أي أنه هو أبو سلمى وخيري الصغير .

الليل يلف قصر بيلربي . والبوسفور ينشر رطوبة باردة ، والأشباح تهاجم بهو السلطانة الوالدة . وبصورة غريزية ، بدأت النساء يتهامسن .

وقام بعض العبيد ، على رؤوس أصابعهم ، لكي يشعلوا المصابيح الموضوعة في شمعدانات من الكريستال الأخضر ، منثورة في زوايا القاعة ، الأربع . فكأنها تجعلنا نفكر بأشجار كبيرة ملأى بالأوراق .

وشيئاً فشيئاً تستفيق السلطانة من حلمها . فلقد أزف الوقت للعودة . وبنظرة منها أشارت إلى أخواتها أن الزيارة دامت بما فيه الكفاية . لكن الكادين تسرع ، وتأبى إلا أن ترافقهن حتى باب البهو .

ولكن السلطانة نعيمة لا تنظر إليهن حتى وهن يخرجن .

أما سلمى فإنها لن تفهم قط لماذا لم تلمها أمها ، في طريق العودة ، على أنها لم تحيّ خالتها ، ولماذا أقبلت عليها أمها بصورة مفاجئة لتضمها إلى صدرها ، وتقبلها .

---

(١) نهر صغير في ضواحي استامبول .

٣

وانتهى صوت منغم ، عذب ومُـلِـحٌّ ، بأن يجعل سلمى تستفيق من نومها . فتفتح عينيها ، وتبتسم للمراهقة التي تمس العود بريشتها ، على مهبط السرير . وهذه عادة شرقية ، للحذر من يقظة مفاجئة ، ذلك أن الروح ، على ما يقولون ، تمضي إلى عوالم أخرى . ويجب أن نمنحها الوقت الكافي للرجوع بالتدريج إلى الجسم .

وتحب سلمى هذه اليقظات على أنغام الموسيقى ، ذلك أن غناء هذا العود يبدو لها كوعد بالسعادة لبقية اليوم الذي بدأ به .

وفي ذلك الصباح ، شعرت بأنها فرحة بشكل خاص : إنه البيرم . العيد الأكبر في الإسلام ، الذي يستعيد ذكرى تضحية إبراهيم بابنه لله ، وعلى كل إنسان أن يرتدي ألبسة جديدة ويتبادل الهدايا مع الآخرين . والمدينة كلها تدوي من ضجيج الألعاب ، وصرخات البهالين ، وباعة السكاكر . وفي كل زاوية من زوايا أي شارع ، يزدحم الأطفال حول مسارح الدمى .

لكن الاحتفالات تكون أعظم ما تكون في قصر ضولمة باهتشه . حيث يستقبل السلطان ، لمدة ثلاثة أيام ، عظماء دولته وكل أفراد أسرته .

وأبت سلمى كأس الحليب الصباحي ، المفروض أن يحفظ لها بشرة حلوة ، وقفزت من السرير . ومضت متعجلة إلى الحمام ، حيث تقوم عبدتان بتهيئة حمام الورود لها ـــ وهذا الأخير أناقة

من الأناقات يحتفظ بها لكبرى المناسبات، ذلك أن السلطانة تخشى أن تنمّي لدى بنتها، حب الإغراء المبكر.

ومن أباريق الفضة يسيل الماء الفاتر على جسد الطفلة الأبيض. وبعد أن تنشفها العبدتان بالموسلين الأبيض، ترشان على جسمها وشعرها رذاذاً من تويجات الورود، وتمسدانها لمدة طويلة. وعندما تستسلم لأيديهما الناعمة، تتذوق سلمى العبير اللذيذ، وتقنع نفسها بأنها ستكون وردة.

وبعد نصف ساعة، وبعد أن تلبس ثوباً جديداً مطرزاً على الطريقة الإنكليزية، تمضي مسرعة إلى جناح أمها. وعندما تدخل إليه تجد أباها خيري رؤوف بك قد سبقها. إذ لقد عاد مساء البارحة من رحلة إلى أراضيه، عودة مقصودة لحضور الاحتفالات التي تقام في قصر ضولمة باهتشه. ويستقبل عندئذٍ سلمى، ويداعب لها شعرها مداعبة خفيفة، ذلك أن من غير المقبول ذوقاً أن يقبِّل الأبوان أبناءهما. فتحمر سلمى من الغبطة. وتحضن أباها بعينيها، فما أكثره هيبة في الريدنجوت الرمادي، وطربوشه الأرجواني! ولكن ماذا يفعل لكي يبقي شاربيه متجهين بعنادٍ إلى السماء؟

وخيري بك هذا ذو قامة متوسطة. ونحيف جداً. ومن عادته أن يظهر بمظهر التميّز والضجر، الشائع بين رجال الطبقة المختارة. وتراه كسولاً، نعساً، تعوّد النجاح مع النساء، ولكنه محروم من كل طموح شخصي. ورأى نفسه ذات يوم ينساق إلى الزواج من سلطانة، دون أن يبحث عن ذلك. ولما كان بعيداً عن الحمق، فإن الثناء والمدائح التي يتلقاها بحكم لقبه، كداماد[1] ترهقه، ولكنه يكره كل جد من أجل أن يصل إلى وضع محترم، من عمله هو. وفي الماضي كان شاباً مطمئناً وحالماً. أما اليوم فإنه رجل متعب من كل شيء. وحتى أولاده. فإنه قليل الاكتراث بهم. ولعلهم يُسَلونه قليلاً، ولا سيما سلمى التي تحسن استخدام سحرها. أما زوجته...

وها إن هذه دخلت بهوها الصغير، فنهض خيري بك، ليقبل لها يدها، وبعد أن قال لها ما تقضي به الأعراف في هذه المناسبة من تمنيات وتهانٍ، قـدّم لها علبة مجوهرات من المخمل وتقضي الأعراف أن يقـدِّم الرجل لزوجته بمناسبة بيرم، وكذلك بمناسبة عيد ميلاد السلطان، هدية ما لامرأته. فإذا لم يفعل ذلك، فإن هذا إشارة إلى قرب الطلاق. ويتنهد الداماد داخل نفسه. ولكن

---

(١) داماد: لقب يعطى لأزواج الأميرات.

من حسن الحظ أن سكرتيره يفكر بكل شيء! وكان داخل العلبة عقد عظيم من الياقوت الأزرق، بل الشديد الزرقة. وتدمدم الأميرة قائلة:

ــ وأي ماء[٢] رائع!

وينحني لها الرجل بهدوء

ــ لا شيء عظيم الجمال بالنسبة إليك، يا سلطانة!

لقد قام سكرتيره بكل ما يجب أن يقوم به. ولكن أنى له، في مثل أيام الحرب هذه والتضييق من المخصصات المدنية[٣]، أن يدفع ثمن هذا كله؟ لابأس. فالأرمني الذي يقدم للأسرة منذ زمن طويل حاجاتها من هذا النوع، يمكنه أن ينتظر دفع الثمن مدة ما. وعلى كل حال، فإنه ليس عليه، وهو في عمره هذا أن يتعلم البخل.

ثم إنه سحب من جيبه الأخرى علبة مجوهرات ثانية، أصغر من الأولى ــ وهذه اختارها هو ــ ووضعها بين يدي سلمى. إنها مشبّك، وهو عمل دقيق يمثل طاووساً، له ريش مزين بالزمرد. وكان ينتظر بعض الشكر، ولكن فرح سلمى الطاغي، حيّره: أوَهي صغيرة إلى هذا الدرجة، حتى تقيّم هذه الهدية إلى مثل هذا الحد؟ أو لعلها تريد أن تقلد أمها؟

ولما كانت القضية، آخر الأمر، لا تهمه كثيراً، فإنه لا يلاحظ أن سلمى تنظر إليه أكثر مما تنظر إلى المشبّك، وعيناها تتألقان بالفرح: فهذه هي المرة الأولى التي يقدِّم لها أبوها فيه هدية نسوية.

ولكن السلطانة، تبدو قلقة، فتخاطب زوجها قائلة:

ــ يا صديقي، ستتأخر عن السلاملك[٤].

فيوقفها زوجها بإشارة منه، قائلاً:

---

(٢) في الشرق العربي اصطلح الناس على القول ماء الألماس، أو ميّة الألماس، على كل المجوهرات المصنوعة من الماس.

(٣) مبلغ يعطى لأفراد العائلة المالكة للإنفاق على حاجاتهم الشخصية.

(٤) السلاملك: تعبير يشير إلى صلاة الجمعة في مسجد أيا صوفيا حيث يكون على الحاضرين جميعاً أن يأخذوا مكانهم قبل مجيء السلطان.

ـــ وماذا يهمني من السلاملك . إن هذه الشكليات تمرضني . وأنا لا أعرف ما إذا كنت سأحضرها أم لا .

ولكنه يعرف جيداً أنه سيذهب إليها ، وهي تعرف ذلك جيداً . ولكنه لا يستطيع إلا أن يثير زوجته . فمع مضي السنين ، أصبح لا يتحمل دوره هذا المصطنع . أما الطلاق ، فإنه ليس بموضع بحث . إذ لا يطلق الإنسان زوجته وهي سلطانة ، فهي وحدها لها هذا الحق ، إذا وافق السلطان على ذلك .

وعلى كل حال فإن خيري بك لا يملك ما يلومها عليه . فهي زوجة كاملة ، ولكنها أميرة إلى أقصى الحدود ... ومضجرة إلى حد الموت . هكذا كان يفكر ، دون أن يعترف أنه مسحوق بشخصية أقوى من شخصيته ، مما يحيله هو إلى مجرَّد ظل .

وكانت سلمى لا تزال تتساءل بعد مدة طويلة من ذهاب أبيها ، لماذا كان يبدو تعيساً حزيناً . كانت جالسة على مقعد خشبي ، تهز فيه رجليها في الفراغ ، منتظرة أمها ، وهي تلوم نفسها على أنها لم تحاول أن تواسيه . ولكن ماذا كان في وسعها أن تقول ؟ إن من الأرجح ، أنه كان سيسخر منها !

وأخيراً أصبحت السلطانة جاهزة . وهي ترتدي ثوباً أُغني بلآلىء ناعمة ، أُحيط ذنبه بفرو السمور (زيبلّين) . أما خصل شعرها الأصحر ، الذي جُعل كأهداب حلزونية ، فإنها مزدانة بأحجار كريمة . وعلى صدرها تتألق نجمة الماس المهداة من « نظام التعاطف »[٥] إلى بعض السيدات القليلات العظيمات ، وكذلك العقد الذهبي الثقيل المطلي بما يمثّل شعار الأمبراطورية ، والمخصّص للأمراء والأميرات وحدهن .

أما خصل شعر سلمى الحمراء ، فإنها تهتز طرباً . إذ إن أمها ستكون دوماً أجمل النساء .

وساعدتهما الكالفات . فصعدتا إلى العربة المكشوفة ، المخصصة للاحتفالات الرسمية والتي يسوقها سائق يرتدي الجاكيتة الهنغارية المخططة عرضانياً ، والزرقاء اللون ، والمطعمة بالفضة . وقرقع السوط ، فتحركت العربة لتجتاز الكيلومترين ، اللذين يفصلانهما عن القصر الملكي .

ويمتد قصر ضولمة باهتشه ، المفروش كله بالرخام الأبيض ، يمتد بكسل على طول البوسفور . ويلاحظ الإنسان فيه كل أساليب العمارة ، من كل العهود وكل البلاد ، بنظام فوضوي غني . فهناك

---

(٥) l'ordre de la Compassion .

نجد الأعمدة الإغريقية، والأقواس الموريسكية، والغوطية، أو الرومانية Romans، كما نجد الزخرفة المثقلة تغمر الواجهات بباقات الزهر، وأكاليله، والورود، والرصائع، المزينة بنعومة بالأرابسكات المذهبة. لكن «الطهوريين» ، يجدون ما يسمونه «بحلوى العروس» شيئاً بشعاً جداً. ولكن الكثرة، والكرم، والأناقة الخيالية، والجهل البريء، بكل قواعد الزخرفة القانونية، تجعل ذلك كله، قريباً إلى النفس، كما لو أن طفلاً وضع كل أنواع الزينة المتباينة، التي وجدها في خزانة أمه؛ لكي يبدو أجمل مما هو. وهذا لا يفهمه إلا الشعراء، والشعب التركي شاعر.

وعندما دخلت سلمى القصر، تجمّدت أمام وابل الذهب والكريستال. وكثيراً ما كانت قد زارته من قبل، ولكنها في كل مرة تقف فاغرة الفم أمام كل هذه الأثقال من الفخفخة. فالشمعدانات والثريات تدوي بآلاف وريقاتها البراقة، وسلّم الشرف مصنوع من «البكراة Baccarat»[٦]. وكذلك المواقد الضخمة ذات الجوانب المقصوصة قصة الماس، والتي تشع بجملة أضواء متقزحة، يتغير لونها في مختلف ساعات النهار.

وتحب البنيّة الصغيرة هذا البذخ. فهو يشدّ عزمها عندما يُدخل في روعها أن قوة الأمبراطورية لا تغلب، وأن ثروتها لا تنفد، وأن العالم جميل وسعيد. هنالك طبعاً هذه الحرب، التي يتحدث عنها أصدقاء أبيها، ثم هؤلاء الرجال والنساء، ذوو النظرات المحمومة، الذين يتزاحمون حول شبك قصرها، لكي يطلبوا الخبز. إلا أنهم يظهرون في عيني سلمى وكأنهم يسكنون كوكباً آخر، فالحرب بالنسبة إليها ليست إلا كلمة في الفم الثرثار، لدى الأشخاص الكبار.

وبعد مجموعة الخصيان التي استقبلتهما، ها نحن الآن أمام مجموعة من الفتيات، كلهن رائعات ـــ ذلك أن البشاعة شيء محرَّم في القصر ـــ يحطن بهما لمساعدتهما على التخلص من حجبهما، على حين أن (القهوجية)، التي ترتدي بنطالاً واسعاً وقميصاً صغيراً فضفاضاً، مطرزاً بالشركسيات، تقدم لهما قهوة معطرة بالهال، لكي يستريحا من عناء الرحلة.

ولما كان الحرملك[٧] السلطاني، بعيداً عن المؤثرات الخارجية، ومصوناً عنها، فإنه يحتفظ بعاداته القديمة حرصاً شديداً، بحكم أن الكالفات يراقبن بلا هوادة تربية المستجدات. وإذا

---

(٦) البكرا: نوع من الزجاج الثقيل الفرنسي الأصل (من قرية بكرا).

(٧) الحريم، أو الحرملك: هو المكان الدي تقيم فيه نساء القصر. وقد يوجد بينهن عدة زوجات أو محظيات. وقد لا يوجد إلا زوجة واحدة، كما كانت الحال، في الغالب، في تركيا القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، وبطبيعة الحال فقد كانت محاطة بخدمها وحشمها.

ما نظرن بحكم الفضول وبعض الرغبة في التسلية إلى الثياب المجلوبة من فرنسا ، والتي تلبسها السلطانات الزائرات ، فإنهن لا يشعرن أحداً برغبة في تقليدهن . أو ليس القصر بأعلى من كل « درُجة » !

وظهرت سيدة المراسم ، التي تبدو فخمة في جاكيتتها الطويلة ، المطرزة بالذهب ، كعلامة على وظائفها العليا . ولقد جاءت لتبحث عن الأميرات ، وتقودهن إلى السلطانة الوالدة ، أم السلطان . إذ إن كل زيارة إلى القصر تبدأ ، أو يجب أن تبدأ بهذه السيدة العجوز ، التي هي الشخصية الثانية في المملكة بعد ابنها .

وتجلس السلطانة في جلالها ، في بهو مفروش بالحرير البنفسجي ، ويتألف أثاثه من مقاعد ثقيلة ، من الطراز الفيكتوري . ويدعي العارفون أنها كانت جميلة جداً ، ولكنها مع تقدم العمر ، والإقامة الطويلة ، في جناح الحريم ، أصبحت ضخمة . ولم يبق منها إلا عيناها الزرقاوان الرائعتان ، اللتان تشهدان على أصلها الشركسي .

وتحيي سلمى وأمها ، العبدة القديمة ، بكل احترام .

وكأكثر نساء الحرملك السلطاني ، كانت هذه السيدة قد بيعت للقصر ، وهي طفلة صغيرة ، وكان أبواها يريدان بذلك أن يمنحاها أفضل الشروط للصعود الاجتماعي . وكانت الإشاعات قد ملأت الأرض ، فيما يتصل بالتربية المرهفة ، التي تتلقاها الإماء في القصر . وأولئك الذين علا بهم الحظ فجعلهم يحتلون منصب الصدر الأعظم ، من الرجال ، أو زوجات أوائل للسلاطين ، أصبحوا قصصاً تثير الخيال إلى الدرجة التي لم يعد ضرورياً معها أن ينتزع الأطفال من الأسر المحزونة . بل لقد أصبحت الأسر هي التي تتوسل لقبول هؤلاء الأطفال .

ولم يقـدَّر للسلطانة فاليدي أن ترى أسرتها مرة أخرى . وتتساءل سلمى عما إذا كانت قد أسفت أحياناً على فراقهم . وقد عُهد بها إلى سيدة الكالفات الأولى . فعلّمت ، كرفيقاتها ، الشعر ، والقيثار ، والغناء ، والرقص ، وبإلحاح خاص ، أُكّـد على تعلم حسن التصرف . وعندما قـدَّروا أنها أصبحت فتاة لائقة ألحقوها بخدمة السلطان .

وتتذكر هذه السيدة العجوز ذلك اليوم ، الذي وقعت فيه عين السلطان عليها وأعجبته . وكثيراً ما تشير إلى ذلك في أحاديثها . وأصبحت نتيجة ذلك غوزدي Geuzdé ؛ أي تلك التي تلفت نظر السلطان . وحصلت على حق التفرد بغرفة لها على حدة . واشـتُـري لها فساتين جديدة من

الحرير . وكان من حظها أن السلطان لم يتعب منها ولم يزهد بها ، وأعاد طلبها مرات كثيرة . وحصلت منه على لقب « إقبال » أو المحظية ؛ فنقلت عندئذ إلى غرفة أكبر . ووضع في خدمتها ثلاث كالفات وحان عليها الوقت لكي تحمل بولد .

وكثيراً ما سمعت سلمى حديث سيدات عجائز في القصر ، يقصصن كيف أن هذه الشركسية الجميلة ، عندما ولد ابنها رشاد ، رفع من شأنها وأعطيت لقب « الكادين » الثالثة . ولم يكن يكفي للارتقاء عن مستوى الإماء ، أن تكون الفتاة جميلة ، بل إنها كانت بحاجة إلى الذكاء والعناد ، لكي تحظى بهذه المرتبة المرغوبة والمحسود عليها . ذلك أنه كلما علت الفتاة في مراتب الحريم ، ازدادت الخصومات واشتد التنافس ، وكبرت الأخطار . وفي هذه القمم ، يصبح الصراع عنيفاً بلا رحمة . وكان أبناء هاته الكادينات ، في الواقع ، كلهم أمراء ، من الأسرة المالكة . وكان العرف يقضي بأن يتربع أكبرهم سناً على العرش . ولكن خلال القرون الستة التي عاشتها الأسرة العثمانية ، كثيراً ما رأى الناس ، الأبناء الأوائل يختفون ، كضحايا للحوادث ، أو مرضى بأمراض غريبة .

ولم تترك هذه الكادين لأحد حق رعاية طفلها ، لأنها كانت تعرف جيداً نماذج من المرضعات أو الخصيان ، أغروا من قبل فتاة منافسة أخرى ، وقتلوا الولد بصورة ما . ولقد أقسمت أن يكون ابنها سلطاناً ، وأنها ستكون السلطانة الوالدة . وكانت حياتها كلها مركزة على هذه الغاية . وكان عليها أن تنتظر عمر الثامنة والسبعين لكي يتحقق لها هذا الأمل .

أما الآن فإن الطموح الذي رافقها خلال ستين سنة من الديبلوماسية والمؤامرات ، قد فارقها ، ولم تعد شيئاً آخر غير امرأة عجوز متعبة .

وأخذت السلطانة الأم وليدة ، بيدها الشديدة البياض ، تدغدغ بضربات خفيفة خدها ، مما يشير إلى الكثير من العطف ، كما كالت المديح للسلطانة خديجة على مظهرها الجميل . ثم إنها عبّت نفساً طويلاً من نارجيلتها الذهبية ، وأغمضت عينيها وانتهت المقابلة .

وكانت هذه هي اللحظة المناسبة لزيارة الكادينات ، اللواتي يستقبلن كل منهن زائراتها ، في جناحها . وهذه الأجنحة قصور صغيرة داخل القصر ، تملأ أفناءها مجموعات من الخصيان والسكرتيرات ، والأمينات المشرفات على التمويل والتموين ، وكالفات كبيرات أو صغيرات ، وكان الإيتكيت يقضي ، قبل كل حفلة ، أن يتم اللقاء عندهن .

وفي هذه السنة ، ولأول مرة ، كان على سلمى أن تمر بتجربة البروتوكول (أو اختباره) . وكان

قلبها يخفق أما النظرات التي ستقيّمها بلا تسامح. وقامت الأميرة الصغيرة بالمرور على المجموعة المشرِّفة، وقاست بعناية عمق ما يجب أن تقدمه من التمنيات لكل إنسانة، تبعاً لمقامها. وتقدَّر الأهمية هنا نتيجة معادلة معقدة. تضع في حسابها المولد، والرتبة، والعمر. ويحتاج ذلك إلى معرفة كاملة ودقيقة بالبلاط وأعرافه.

وعندما لاحظت سلمى أن البسمات حولها تنطلق، تنفست نفس الارتياح ... لأنها اجتازت الاختبار بنجاح.

وفجأة علت ضجة: فالسلطان قد عاد من صلاة السلاملك. وستبدأ مباشرة حفلة تقبيل اليد.

وعندئذ تزهد النساء بالإشاعات والحلوى. وتسرع كل واحدة، بمقدار ما يتيح لها مقامها، إلى البهو الدائري الذي يقع فوق قاعة العرش. ومن هناك، ستحضر النساء، وهن مختبئات وراء المشربيات، إلى مشهد من أعظم مشاهد السنة وأدعاها إلى التسلية. أما سلمى المحصورة بين سيدتين ضخمتين جداً، فإنها تجد صعوبة حتى في التنفس، ولكنها تأبى أن تتخلى عن مركزها هذا في الملاحظة، ولو دفعت لها كل أموال الدنيا.

ورأت، وهي تنظر من حوالي الثلاثين متراً تحتها، غابة من الطرابيش الأرجوانية، والريدنجوتات السوداء أو الرمادية، التي تزينها ألوان الزيّ العسكري. ولما كانت قد بهرت بآلاف المصابيح الموجودة في قاعة العرش — وهي أكبر قاعة من نوعها في أوروبا كلها — على ما يقال — فإنه كان عليها أن تنتظر مدة طويلة قبل أن يتاح لها التعرف على بعض الوجوه.

وكان السلطان يجلس في صدر القاعة، ويبدو كشكل كهنوتي في عرشه الذهبي الواسع، المرصع بالأحجار الكريمة. ويقف على يمينه أمراء الأسرة، باللباس الرسمي الفخم، تبعاً للمرتبة والعمر.

ورفعت سلمى نفسها بالوقوف على رؤوس أصابع رجليها. وحاولت أن تلاحظ ابن عمها المفضل فاسيب، الأكبر منها بعامين، لكن البعد بينها وبينه كان بحيث لا تستطيع ملاحظته. وكذلك فإنها لا تميّز أباها، الذي يجب أن يكون على يسار السلطان، بين الدامادات، والوزراء المتحلين بما حصلوا عليه من الأوسمة. ومقابل السلطان مجموعة العسكريين من فرقاء وألوية، وضباط

عالي المقام ، في الثياب الاحتفالية . أما في الأبهاء المرتفعة ، فنجد عناصر السلك الديبلوماسي ، كما لو أنها غربان تتربص الفرائس ، وهي في أفخر الثياب .

ويأتي كل واحد من الحضور بدوره ، ويتقدم باتجاه العرش ، ويركع ثلاث مرات (أو يسجد) على الأرض ، ثم ينهض لا ليقبّل يد السلطان ، إذ ليس من حق أحد أن يمسها ، ولكن ليقبّل رمز السلطة ، وهو بطرشيل étole من المخمل الأحمر ، المزين بأشكال بلاطية من الذهب ، يمسك به رئيس المراسم .

ثم يأتي كبار الموظفين ، الذين يمثّلون مختلف الوزارات ، بالريدنجوت الأسود . ثم يأتي بعدهم ، مبهورين بكل هذا البذخ ، وجهاء القوم الذين أُريد لهم أن يكافؤوا على ولائهم ، الذي بدا بشكل متميّز . ولما كان هؤلاء جميعاً في أشد حالات التأثر من التشريف الذي يحاطون به ، وكذلك من الخوف من سوء رعاية تقاليد المراسم المقدسة ، فإنهم يقبلون البطرشيل ، ثم يخرجون متراجعين إلى الوراء ، متعثرين أحياناً ، على مرأى من عيون الحضور الساخرة .

ويسود الصمت فجأة . ويحبس كل إنسان أنفاسه ، ذلك أن أعلى سلطة دينية في المملكة ؛ أي شيخ الإسلام ، الذي يضع عادة ثوباً أبيض طويلاً ، وعمامة من البروكار ، يتقدم باتجاه السلطان . وهذا بدوره ينهض تكريماً له ، حتى يستقبله . ويأتي وراءه كبار العلماء ، وفقهاء الدين ، بثياب خضراء ، أو بنفسجية ، أو سمراء . ويتبعهم ممثلو المذاهب الدينية في المملكة ، مثل بطريرك الروم الأورثوذكس والبطرك الأرمني ، اللذين يلبسان لباساً أسود ، وكبير أحبار اليهود ، الحاخام ، الذي يتمتع بوضع خاص ، منذ أن جعلت السلطنة من نفسها ، في القرن السادس عشر حامية لهذه الطائفة المضطهدة في أوروبا .

وخلال الحفلة التي دامت زهاء ثلاث ساعات ، كانت الأوركسترا الأمبراطورية ، ببذلة بيضاء يلبسها كل فرد من أفرادها ، وفي صدرها ، مقدمة حمراء وذهبية ، تعزف « موسيقى » عسكرية عثمانية ، وسمفونيات حماسية لبيتهوفن . وكان يديرها الموسيقي المشهور لانج بك وهو رئيس أوركسترا فرنسي وقع في حب الشرق .

وكانت النساء وراء مشربياتهن (أي الحواجز الخشبية المثقوبة ثقوباً كثيرة بصورة فنية) ، يضحكن ملء قلوبهن ، فيري بعضهن بعضاً رئيس القوى الألمانية ، الجنرال فون ساندرس . ذلك الجنرال الذي تجعله يبوسته وتعاظمه شبيهاً بكاريكاتور للضابط الروسي . وكذلك الماركيز الجذاب بالا فيشيني ، سفير النمسا وهنغاريا ، الذي كثيراً ما يصادف في استامبول مساءً راكباً حصانه

الأشقر . ويقول الناس إنه يعرف كل شيء ، فإذا أخبر بشيء بدا مندهشاً كأنه لا يعلم شيئاً . إنه ديبلوماسي كامل .

والحقيقة ، إن هؤلاء السادة الثلاثة الحقيقيين للبلاد ، هم الذين تحب النساء أن تراهم : الوزير الأول الكبير المرهف ، طلعة باشا ، الذي له جسم الثور ، والذي تدل يداه الحمراوا اللون على أصله المتواضع ، والقصير الشاحب اللون جمال باشا ، وزير البحرية الذي يخفي تحت المظاهر الأليفة ، قسوة صارمة ، على ما يقال . فلقد أرسل عام ١٩١٥ إلى سورية ، فقمع الثورة التي التهبت مطالبة بالاستقلال ، بعنفٍ لا حـدَّ له ، لقب من أجله « بجلاد الشام » .

ولكن نجم المجلس كان بالتأكيد الوسيم أنور باشا . وهو رجل لطيف ، نحيل ، ووزير للحربية ، ورئيس الثلاثي المشهور . ويقال إنه قادر على إغراء النساء جميعاً . أما شجاعته فلا حـدَّ لها . وكذلك غروره ... ويظن أنه عبقرية عسكرية ، ولكنه في هذه الأشهر الأولى من عام ١٩١٨ ، حيث يتراجع الجيش على كل الجهات ، فقد سمعة الرجل الذي كان يطلق عليه تهكماً لقب نابوليونيك ، وبدأت تذبل يوماً بعد يوم . وتطول الألسن لنقد ذاك الذي عبده الناس يوماً ما .

وتهـمِـسُ إحدى السيدات قائلة : إنه لشيء مخجل أن يقيم هذه الاستقبالات المكلفة في هذه الأيام الشديدة الضيق .

وتقول أخرى : إن هذا الإبن لموظف صغير ، لمسرور من أنه تزوج أميرة ، سروراً تجاوز به كل الحدود .

وحقاً فإن بطل ثورة تركيا الفتاة ، كان قد تزوج السلطانة ناديا ، ابنة أخ السلطان رشاد . وهو جد فخور بامرأته ، حتى يريد أن يريها للناس جميعاً ، وهو يستمر في قلب هذه الحرب ، بإقامة حفلات يبلغ فيها الإسراف غايته . وعلى حين أن الناس ، حتى في القصر الملكي ، قد ضيقوا على أنفسهم ، فإنك ترى مائدته غنية جداً . ولكن الأسرة قد تسامحه على هذا كله ، لو أنه لا يلعب هو نفسه دور الأمبراطور ، مصدراً الأوامر باستمرار إلى الملك العجوز ، فيذله ويذل الأسرة كلها معه .

وتتألم الأميرات فيقلن مستنكرات :

ـــ انظروا كم ان جلالته مريض ، وحصياته تجعله يتألم ألماً لا يطاق . ولكن أنور باشا أرغمه مع ذلك ، منذ عدة أشهر ، على الذهاب إلى المحطة لاستقبال القيصر غليوم الثاني .

والحقيقة أن ما يسوءهن ليس التعب الذي يسببه للباديشاه بالدرجة الأولى ، بل الإذلال الذي

يذيقه إياه : وأصلاً فإنه ما من سلطان تحرك من قصره لاستقبال أحد من الناس، ملكاً كان أو أمبراطوراً.

وبصورة خاصة، فإنهن لسن على وشك نسيان شنق الشاب الجميل صالح باشا، زوج منيرة السلطانة، إحدى بنات أخ السلطان الأثيرات عنده. فلقد اتهمه بالتآمر على تركيا الفتاة، وقضى بشنقه. وجاءت السلطانة تقبل رجلي السلطان، وتوسل هذا الأخير إلى أنور باشا لتخفيف هذا الحكم على الداماد، ولكن عبثاً. وكان على السلطان رشاد، أن يصادق على الحكم، وقلبه محطم. ويقال إنه عاد إلى التوقيع ثلاث مرات، بسبب الدموع التي كانت تشوش عليه الرؤية.

وهكذا كانت التعليقات والانتقادات تأخذ سبيلها بين الناس، وكانت سلمى تصيخ السمع، بكامل أذنيها لما يقال، عندما انقطعت الموسيقى فجأة. فنهض السلطان، وأنهى الاحتفال. وترك قاعة العرش ببطء، متبوعاً بالأمراء، وحيا الهاتفين التقليديين من العلماء الذين يقولون: «أيها الباديشاه، كن متواضعاً، وتذكر بأن الله أكبر منك».

وكانت السيدات يستعجلن باتجاه القاعة الكبرى الزرقاء، حيث سيأتي الباديشاه ليزورهن. وجاءت سيدات المراسم فقضين على كل واحدة منهن بالجلوس في المكان المناسب لها عمراً ومرتبة، على حين أن أوركسترا الحريم، وهن حوالي الستين من الموسيقيات الفتيات، يتخذن مكانهن في الممر المجاور. وعندما ظهر السلطان، مسبوقاً بالخازنة الكبرى، بدأت الموسيقى تعزف لحناً لتحية القادم، أُلِّفَ لهذه الغاية.

ومن خلال أهداب عينيها، المخفضتين نصفياً، بدأت سلمى تتفحص هذا الرجل العجوز ذا الشعر الأبيض، الذي تشي نظرته الزجاجية، وشفتاه الثخينتان بطيب قلبه. وكان قد أجلس أمه بجانبه وبدا يبتسم بكل هدوء.

وتفد بعدئـذٍ السلطانات وبنات السلطانات، اللواتي يسمونهن باسم «السلطانة خانم». وكانت ذيولهن الطويلة تدمدم فوق السجادات الحريرية، وتقف كل منهن أمام السلطان وتحييه ثلاث مرات بانحناءات رشيقة من جسمها، وتنسحب لتجلس على يمين السلطان. ثم تأتي الكادينات والوصيفات اللواتي يجلسن إلى يساره. وأخيراً يأتي دور سيدات القصر والكالفات القديمات، اللواتي بعد أن يحنين الهامة حتى الأرض أمام السلطان، يذهبن فيجلسن في آخر الصالة.

ومتى انتهت هذه التحيات، يظهر عبدان يمسكان بين أيديهما، قماشاً من المخمل مملوءاً

بقطع ذهبية سُكّت في السنة نفسها . وتأتي الخازنة الكبرى فتغرف ملء يديها من هذه القطع ، وتنثرها باتجاه الأوركسترا ، والكالفات الصغيرات اللواتي يجمعنها ، وهن يباركن عالياً للباديشاه ، على كرمه .

وعندئذ تبدأ فترة المحادثة . فيرجو الباديشاه قريباته ، وزوجاته بأن يجلسن . ويبدي قلقه على صحتهن ، ويقول لكل منهن كلمة طيبة . على أن العرف يقضي بعدم توجيه الكلام للباديشاه ، أو تجاوز المسألة المطروحة ، وبالتالي فسرعان ما تخبو حرارة الحديث . وعلى حين أن هؤلاء السيدات ينتظرن وهن جالسات بصورة مستقيمة على أطراف كراسيهن ، يبدأ السلطان بالسعال سعالاً خفيفاً ، وعندما تلقي سلمى نظراتها عليه ، تلاحظ ، على أكبر دهشة منها أنه يبدو خجلاً . وبعد أن يسود الصمت فترة تظن كل سيدة أنها لن تنتهي ، يبدأ الملك بالحديث عن حماماته . فهو هاو لهذه الطيور التي يستوردها من أوروبا . ويحسب أن مثل هذا الحديث قد يكون ممتعاً بالنسبة للسيدات . ثم يتكلم على وروده الحلوة التي يقطعُها ، عندما يمضي من حديقة قصر الهامور Ilhamour الصغير ، موضحاً أنه لا ينبغي أن يقطف منها أكثر من وردة واحدة من كل شجيرة ، حتى لا يؤذيها . إنه رجل ذو رقة بالغة .

ويحكى أن الشيء الوحيد الذي يخرج به عن طوره هو أن يضع أحد السفراء الأجانب ، رجلاً على رجل ، في حضرته . وعندئذ يقول متألماً : إن هذا الكافر حشر لي رجليه في أنفي . ولكنه يكظم غيظه بقراءة سورة ما من سور القرآن ، لأنه تقي جداً ، وهو عضو في جماعة صوفية ، ولكنه لا يتحدث عن هذا أبداً .

وأخيراً ، وعندما ينهي الحديث عن الحمامات والورود ، ويقتنع أنه استنفد كل المواضيع التي تهم مجموعة حلوة كهذه ، فإنه ينهض ، ويحيي بمودة هؤلاء السيدات . ويعود إلى جناحه .

وهنا تكون مجالات التوتر قد ذهبت ، فتنطلق الأميرات وهن مسرورات في هذه الصالونات الصغيرة ، ويتمتعن بالتقائهن ، وتهنىء كل منها قريبتها على حسن انتقائها للباسها وزينتها ، ويتساررن في شؤونهن . ذلك أن منهن من لم يرين الأميرات الأخريات ، منذ البيرم الماضي ، على أن بينهن الكثير مما ينبغي التحدث فيه . وفي البهو الصغير ، كانت هنالك سلطانة شابة تعزف المازوركا الدارجة يومئذ . على حين أن بنات عمها كن يجرّبن ، وهن غارقات في الضحك ، أن يرقصن . وعلى جوانبهن ، كانت بعض الأميرات منهمكات في لعبة النردية . وأما لدى الكادين الأولى ، فقد نظمت مسابقة شعرية

حول موضوع معيّن : وكان الشعر باستمرار في موقع الشرف في البلاط العثماني ، ومع الأيام كان من بين السلاطين الكبار ، من تعاطاه بموهبة حقيقية .

ولكن البهو الذي يجمع أكثر الحاضرات كان ذاك الذي تقوم فيه الميرادجو ، أو الحكاءة . وهي أحسن من هن من نوعها . وهي لذلك تستدعى لكل المناسبات . إنها تجلس على الأرض ، وذقنها بين يديها ، وسلمى تنظر إليها . لا بد أن عمرها مئة سنة على الأقل ! ولكن شيئاً فشيئاً ، تتلاشى التجاعيد ، وتستقيم الأكتاف ، وتلمع العينان بألق متوقد كاب . إنها لم تعد قط تلك الحكاءة المتقدمة في السن ، بل هي ليلى الجميلة ، التي يهيم بها المجنون الشاب إلى درجة الموت ، وهي صوتها الساخن ، ونظراتها الشبيهة بنظرات الغزالة ، وإغراؤها الساحر ، إنها تلك التي تحمل العشاق ، من جيل إلى جيل ، على الحلم والبكاء .

ويهبط الليل . وهذه هي ساعة النزول إلى الحدائق للتمتع بالألعاب النارية التي يقدمها السلطان للشعب . وكانت المروج الخضراء قد فرشت بالسجاد والوسائد . والإماء يتقدمن بطعام العشاء على أطباق من الفضة المذهبة . وتشارك الأوركسترا فتعزف بشكل ناعم كونسرتو لموزار .

وفجأة ، ينطلق صراخ ، يرتجف له الحضور . فإذا بأميرة صبية ، اكتسى وجهها بلون الموت ، وهي تشير إلى حقول الأورطانسيا ، التي بدأت في الليل تتحرك . وتتقدم نحوها .. ولكن عندما انحنت هذه الحقول ، فهم الناس أن هؤلاء هم أقزام القصر ، وأنهم غطوا بباقات ضخمة ، جاءوا ليقدموا احتراماتهم للسيدات .

لكن الحاضرات اختلفن في تقييم هذا المشهد ، غير أن الإجماع انعقد حول شراب الورد ورقائق اللوز والعسل ، التي حضّرها صانعو الحلوى في القصر ، والتي لا مثيل لها في كل الشرق الأدنى .

وعندما انطلقت أخيراً تلك الأسهم النارية إلى السماء ، ولوحظ ارتسام الهلال والنجمة ، شعاري تركيا الخالدة ، قال الناس بعضهم لبعض : ما من عيد قط كان أنجح من هذا !

وعندما قطعت سلمى البوسفور الذي أضاءه نور القمر ، في القايق الذي أعاد أهلها إلى قصر أورطاكوي ، كانت تفكر بأن ذلك اليوم كان جميلاً ، وأن الحياة حلوة . فكيف يمكن أن نصدق طيور الشؤم ، التي تتنبأ بانسحاق أمبراطورية بمثل هذا الغنى وهذه القوة ؟

٤

كان الطقس حاراً في استامبول . وفي هذه الأيام الأولى من شهر تموز / يوليو / لا تستطيع نسائم البوسفور ترطيب المدينة . وكان قد جاء البارحة رسول من قصر ضولمة باهتشه ، ما لبث أن رحل ، حتى استدعت خديجة سلمى .

ــ غداً ستذهبين مع خيري إلى قصر ابنة عمك ، الأميرة سعدية . وسيكون أحفاد جلالته والأميرة مقبلة وأخوها ناموق ، حاضرين أيضاً .

وكادت التكشيرة أن ترتسم على وجه سلمى ، لكنها كبتتها . فهي لا تحب سعدية التي ما تزال في السادسة . ولكن شعورها حاد بوزنها وأهميتها . أما أبوها عبد المجيد ، فيصرخ أمام كل من يريد الاستماع إليه ، أن ابنته هي الأجمل والأحلى ، وفي كل اجتماع للأسرة ، يصف الأطفال جميعاً ، ويلاحظ ، باعتزاز ، أن ابنته ليست الأجمل فقط ، بل هي الأطول قامة أيضاً . وتعرف أيندجيم هذا كله ، فلماذا إذن يرسلونها إلى هناك . ومن حسن الحظ أن حديقة الأمير الواقعة على مرتفعات الشاطيء الآسيوي ، مكان ممتاز للعبة « الطميمة » . وعلى كل حال فإن أحداً لا يضجر ، مع وجود مقبلة .

ولكن ماذا تعمل إذن الآنسة روز ؟ ولهذا تجتاز سلمى الممر ، وتمر جيئة وذهاباً أمام باب

مربيتها. وهي لا تفهم كيف أن هذه تضيع كل هذا الوقت في العناية بأناقتها وشكلها... لكي تحصل أخيراً على نتائج تافهة!

وعلى الرغم من عيوبها الصغيرة، فإن سلمى تحب «آنستها الفرنسية» حباً جماً، لا سيما وأن هذه المسكينة لا تملك عليها أية سلطة. ولما كانت تجهل عادات المجتمع التركي، فمن باب أولى، أن تجهل عادات البلاط، وبالتالي فإنها «تؤخذ» بمعسول الكلام الذي تقوله الصغيرة، تلك الصغيرة التي تفعل بها كل ما تشاء.

ولقد وصلت الآنسة روز إلى استامبول قبل بداية الحرب؛ أي في عهد كانت فيه العلاقات بين فرنسا والأمبراطورية لا تزال حسنة بدرجة كافية. ولما كانت قد قرأت روايات بيير لوتي وكلود فارّير، فإنها كانت ترى تركيا وسكانها بعينين مندهشتين، معجبتين، وتعتقد أنها تفهمهما. وقد استجابت لإعلان صغير وجدته لدى أخوات نوتردام دوسيون، حيث ربّيت. وكان لهذه الرهبنة في استامبول دير مزدهر كان يبحث عن أستاذ للفن. ولما كانت الراغبة الوحيدة، فإنها عيّنت مباشرة.

وقد احتاجت هذه الفتاة الريفية، ذات الثامنة والعشرين من العمر، إلى شجاعة كبيرة كي تنفي نفسها بعيداً عن أهلها، بهذه الصورة. وكان هنالك ضابط جميل في سلاح الفرسان، المعسكر في مدينتها، يتودد إليها ويعدها بالزواج. وقبلت أن يقبلها.. مرات عديدة، ويداعبها بعض الشيء، واستمر ذلك حتى جاءتها رسالة مجهولة المرسل، يخاصر فيها الخائن فتاة جميلة، رائعة، هي زوجته، ومعها ولدان. ولقد بكت طويلاً، وأقسمت على ما أوصتها به أمها أكثر من مرة، أن لا تثق بأي رجل. ولما حانت الفرصة، تركت الأهل والوطن، كما لو أنها تدخل في الرهبنة.

ولكن الآنسة روز كانت إنسانة لا تبرأ من رومانتيكيتها. وفي استامبول وقعت في حب رجل فرنسي، هو أستاذ في ثانوية «غلطه سراي». وهذا لم يكن متزوجاً، ولكنه يحب التنقل بين العشيقات. وعندما اكتشفت أنه كان يغازل اثنتين من زميلاتها، أصابها المرض من جراء ذلك.

وكانت «فهيمة» السلطانة الفراشة، هي التي أنقذتها. إذ لقد لقيتها خلال استقبال في سفارة فرنسا، وكان واحداً من هذه الاستقبالات الكبيرة التي تسبق السفر للاصطياف. وكانت الأميرة تبحث عن أستاذ للغة الفرنسية لابنة أختها. فرأت الآنسة روز فرصة غير مأمولة، لمعاشرة

العالم المؤنق ، الذي طالما طمحت إليه ، وهي العازبة المكتهلة ، بصورة مبكرة . وهكذا أصبحت « الآنسة الفرنسية » للسلطانة الصغيرة .

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة . وبدأت سلمى تيأس ، عندما شهدت مربيتها تصل إليها ، وعلى رأسها قبعة واسعة بنفسجية اللون ، مزينة بعصافير من الكناري ، ينسجم لونها مع ما زُيـن به ثوبها الموسلين من براعم دهبية .

وكان زينيل ، الذي لا يؤثر فيه شيء ، ينتظرهما على الجسير . وكان مصحوباً بحيري ، الذي بدا في أفضل أناقته ، في حلته الزرقاء البحرية ، والذي كان شعره الأسود ، المفصول بخط فارغ لا عيب فيه ، ينشر رائحة البريانتين . « لا بد أنه صب على رأسه كل الزجاجة ! » على ما لاحظت سلمى المنزعجة . أيظن إذن أنه بهذه الصورة سيملك على سعدية قلبها ؟ ومن قبل كان ما لدى أخيها من تعلق بابنة عمه ، أحد مواضيع خلافهما ، العديدة .

وساعدهم المجدفون ، فركبوا القايق الذي سينزلق عما قريب ، ويبلغ الشاطئ الآسيوي . وهناك يجدون عربة مكشوفة ، على أكبر مسرة من سلمى ، التي عندما كانت تخرج مع السلطانة ، كانت محكومة بركوب العربات المغلقة . غير أنهم وجدوا أن ابنة لم تراهق بعد ومعها مربية مسيحية ، لا ينبغي لهما الركوب في عربة مغلقة ، وفي وسعهما ، على راحتهما ، أن يشما رائحة الشمس والهواء فوق الطريق الممتلىء بالحصى ، الذي ينتهي إلى المسكن الصيفي للأمير .

وكانت سعدية في انتظارهما . وكانت ترتدي ثوباً من الدانتيل الزهري ، وشعرها الأشقر قد جعل ضفائر متوازية ملفوفة ، وكانت تهبط ، بهدوء ، السـلّـم لتستقبل مدعويها ، عندما ظهرت فجأة بنت صغيرة مدورة الشكل ، ذات عينين حادتين ، فصدمتها لتندفع نحو سلمى . إنها مقبلة ، السعيدة بأن ترى ابنة عمها ، التي ترى فيها أختاً لها في الخبث والشيطنة . وكان أخوها الأصغر ناموق يمضي بهدوء خلفها .

وبعد نقاش دام بضع دقائق ، تقـرّر أن يلعبا لعبة الاستيلاء على بيزنطة .

وفي هذه اللعبة سيكون ناموق بطبيعة الحال هو السجين ، ولكن من الدي سيلعب الدور الحلو ، دور السلطان الفاتح ؟ فيتفق على السحب بالقرعة ويشاء الحظ أن يعيّـن سلمى .

وتعارض سعدية قائلة :

ــ إن هذا مستحيل. إنك لاتستطيعين أن تلعبي دور السلطان! بل إنك أنت لست بسلطانة!

فقفزت سلمى استياء.

ــ ماذا تريدين أن تقولي؟ إني سلطانة، مثلك تماماً! وقالت بنت العم:

ــ كلا، بصوت ناعم. إن أبي يقول إن أباك ليس أميراً، وإذن فلست أنت إلا مجرد سلطانة خانم.

وفي هذه الحال ربما خنقت سلمى سعدية بسرور، لكنها تتجمد عاجزة عن الجواب.

لكن الوقحة على حق: فأبوها ليس إلا «داماد». وفي البيت في أورطاكوي، كل الناس يسمونها، السلطانة الصغيرة، ولكنها لمحت، من غير أن يكون قد أشار إلى ذلك أحد، أنهم قدموا عليها بعض الأميرات الأصغر منها، لدى احتفالات قصر ضولمة باهتشه. وشعرت من غير أن تفهم، بأنواع كثيرة من الفروق الصغيرة. لكنها أحست فجأة اليوم، بحكم الإهانة، بضعف مكانتها.

وأصبحت السماء رمادية، وارتجفت الأشجار بتأثير الهواء الخشن، وفجأة بدا لها المستقبل كئيباً بشكل مميت. فما هي إلا خانم سلطانة. ومهما تفعل، فستمر بعد الأخريات. وبدا الأمر كما لو أنهم قطعوا لها جناحيها...

وتفكر بالسلطانة أمها التي يلقبونها بلقب «جيهانكير»، أي «قاهرة العالم» من شدة تأثير عظمتها، وفجأة يُثيرها ظلم الموقف. أو ليست أمها بأعلى وأرقى من أكثر الأمراء في الأسرة؟ أو تكون عاجزة عن أن تنقل نبل دمها، لمجرّد أنها امرأة؟ إن هذه الفكرة تبدو لها سخيفة بقدر ما هي غير محتملة.

وترفع رأسها، وتثبت النظر في سعدية بكل التعالي الذي تستطيع أن تبديه. وتبحث عن كلمة أخيرة، وما من أحد يبدو لها قاسياً مثلها. ولما كانت تغمرها الحيرة، فقد التفتت نحو أخيها خيري. وكان هذا قد اختفى. وأخيراً لمحته في الطرف الآخر من الممشى، غارقاً في تأمل كتلة من الورود. فقالت في نفسها: «كم هو جبان». ولكن موقف أخيها لا يدهشها، بل الذي يدهشها هو أنها بدلاً من أن تبدي استنكارها لما فعل، فإنها لم تعد تشعر في ذلك إلا بالإحباط.

غير أن مقبلة التي بقيت في جوار سلمى ، لا تعرف ماذا تقول ، وما من مرة وجدت نفسها في وضع مربك كهذا . وأخيراً تغامر بهذه الكلمات :

ـــ وماذا لو أننا نلعب لعبة الطميمة ؟

وينحاز الجميع إلى هذا الاقتراح .

وكان بعد ظهر ذلك اليوم شديد الحيوية والنشاط . ذلك أن مقبلة وسلمى اللتين لبستا فساتين بسيطة من البركال (وهو نسيج قطني) تبحثان عن المخابئ الأكثر غرابة ، والأصعب على الوصول ، وتتسلقان الأشجار ، أو تختبئان في المستنقعات التي لا تجرؤ ابنة عمهن على الاقتراب منها ، خوفاً على ثيابها ، وبالتالي لا يمكنها أن تتبعهما إلى هناك . ولما كانت هذه مستاءة من هذا السلوك ، فقد ظلت تكرر القول : « ليس لكما الحق ! إن الأميرة لا تتصرف بهذه الصورة » ، مما يحملهما على الضحك إلى درجة ذرف الدموع .

ولكن الأعمال العدائية تتوقف ، والجو يهدأ حول مائدة « العصرونية » وتتردد على الشرفة أصداء ضحكاتهم المرحة . إذ لقد نسي الجميع المشاحنة .

وكان الوقت متأخراً عندما ظهر الأمير عمر حلمي ، أبو ناموق ومقبلة ، في الحديقة ، بلباسه الرسمي الفخم .

وتندهش مقبلة ، فتقول :

ـــ أنظري ، ترى لِـمَ يظهر أبي في هذا اللباس ؟ فليس هذا اليوم بيوم عيد !

ونظرت إليها سعدية كما لو أنها تقيّـمها تقييم المستاء ، وتقول :

ـــ كيف ؟ ألا تعرفين ؟ إن جدك السلطان رشاد قد مات . وأصبح أبي هو الأمير الوارث المرشح للعرش !

لكن مقبلة الضاحكة دوماً ، بدت وكأنها ضربت بالسوط . وكأنها لم تصدق ، فنظرت إلى ابنة عمها وبدأت الدموع تنفر من عينيها ، وتنزل على خديها . فغضبت سلمى ، واتجهت إلى سعدية لتقول لها .

ـــ هيا اذهبي من هنا ، يا طاعون !

وهزت الطاعون كتفيها، وأدارت لهما ظهرها، كما لو أنها تسخر منهما.

وقبر السلطان رشاد الرقيق، في المسجد الصغير، مسجد أيوب، بعيداً عن الترب الفخمة، حيث يستريح سابقوه. وكان قد اختار هذا المكان الهادئ والظليل، لأنه كان يريد أن يستمر في سماع تغريد الطيور، وضحك الأطفال.

وبعد عدة أيام سيتوج السلطان وحيد الدين، آخر الإخوة الأربعة الذين تتابعوا منذ اثنتين وأربعين عاماً على العرش. وقد حرص أنور باشا رئيس حزب تركيا الفتاة الذي يملك السلطة، أن يكون التتويج فخماً، وأن يكون الاستعراض العسكري استثنائياً للتأثير في عقل الشعب المرهق بهذه الحرب التي لا تنتهي.

ولكن لئن تأثر الشعب بشيء، فبالقنابل الذي اشتهى سلاح الجو البريطاني أن يقذفها على العاصمة، في ذلك اليوم خاصة. أفكان ذلك نوعاً من التحذير للسلطان الجديد؟ وكان هذا خلال الاحتفال كله، يبدو كئيب الهيئة. وعندما جاءت الأسرة، في اليوم التالي، لتهنئه، استقبلها بهذه الكلمات المرة:

ـــ ولكن بم تهنئونني؟ إن العرش الذي أجلس عليه هو عرش مفعم بالأشواك!

وهذه كلمات لا تؤثر في أحد. فوحيد الدين معروف بتشاؤمه، بل إن الأطفال أطلقوا عليه لقب «البوم». ذلك أنه يبدو دوماً كمن يريد أن يعلن عن خبر سيء. وكالعادة كان يبالغ ويقول: إن الجيش يعاني من الصعوبات. ولكن هذا أمر عابر، وقد عرفت الأمبراطورية أياماً سوداء أخرى. ثم إن الحليف الألماني هو من القوة بحيث...

والحق أن الجيش كان يعاني من صعوبات جمة. وإذا لم نقل شيئاً عن مئات الألوف من الهاربين من صفوفه، مما يمكن أن نوهم الناس بأننا نجهله، فإن آلافاً كثيرة من الجرحى، كانت تملأ المشافي. واستولت السلطة على كثير من المباني لإيوائهم فيها.

وكانت خديجة السلطانة تمضي كل أسبوع لزيارة مستشفى هازيكي Haseki، في مركز المدينة، لكي تحمل إلى الجنود المرضى أو الجرحى، شيئاً من الدعم المعنوي وبعض الهدايا الصغيرة. وحتى ذلك الحين، لم تكن قد أخذت معها سلمى، خوفاً من أن تتأثر بهذه المناظر تأثراً سيئاً. ولكن البنت أصبحت في السابعة والنصف، وتفهم الكثير من الأشياء. ومن ناحية أخرى، فإن السلطانة من أنصار الرواقية، (الصبر على المكاره). ولما كانت، منذ أبكر العمر، قد عاشت

أقسى التجارب ، وخرجت منها سليمة ، فإنها ترى أن لا شيء يساوي التجربة والاختبار ، في تعديل الطبع وتثقيفه . ولقد رأت في النساء الجميلات من بنات الطبقة الممتازة في استامبول ، تلك الآثار السيئة للتربية الضعيفة ، المرخية للعزم ، فلم يَعد في وسعها ألا تحرص على صيانة سلمى منها .

وعندما أخبرت زوجها بعزمها هذا ، فإن هذا الرجل ، اللا مبالي في العادة ، غضب غضباً شديداً .

ـــ إنك تريدين إفساد حياة هذه الصغيرة . وسيكون لديها الوقت ، فيما بعد ، لترى ألوان الشقاء ، وربما لتعيشها أيضاً ـــ من يدري ؟ فدعيها إذن تعيش هادئة .

ولكن السلطانة ترى أنها الحكم الوحيد فيما يتعلق بتربية ابنتها ، كما هي كذلك في كل ما يتعلق بشؤون البيت . وإذا هي تركت لزوجها أن يهتم بتنشئة ولدهما خيري ـــ ذلك أن الصبيان ، في ديار الإسلام ، إنما يربون بدءاً من السابعة من العمر ، على أيدي الرجال ـــ فإنها ستقبل ما تقضي به التقاليد طبعاً ، ولكنها تشك في أن تكون هذه التربية ناجحة . ذلك أن جبن كبير أولادها يجرح كبرياءها . ولطالما حاولت أن تهز الخمول ، وأن تضرب على أوتار العزة الشخصية لهذا الصبي ، ولكنها انتهت إلى الزهد بالأمر ، لأنها أدركت أن كل واحدة من محاولاتها تحمله على زيادة الانكفاء على نفسه في كل مرة .

أفيمكن أن يكون ابنها شديد الخوف منها ؟ وعندما لامت نفسها على قسوتها ، فإنها جربت الرقة ، وأقنعت نفسها أن ما تعتبره ضعفاً في الطبع ، لم يكن أكثر من حساسية مفرطة . فخيري كان فناناً ! والشيء الوحيد الذي يهمه خارج شخصه ، هو الكمان . فعينت له خديجة السلطانة أفضل مدرس موسيقي في البلد ، وهو من فيينا . غير أنه كان ينبغي أن تجابه الحقيقة : فخيري كان يحسن العزف ، إذا شاءه ، ولكن ينقصه هذا الهوى الذي ينشيء كبار المهرة في هذا الفن .

ومن حسن الحظ أن يكون الأمر شيئاً آخر مع سلمى ، فخديجة تجد فيها قوة شبابها وشجاعتها . أما خيري ، فيبدو أنه يميل لأبيه . وانتهت هي باليأس من ابنها وزوجها معاً .

ومع ذلك فإن الله وحده يعرف أنها أحبت خيري رؤوف بك ، بكل ما في المرأة من عنف في الحب ، إذا كانت في الثامنة عشرة من عمرها ، وبكل مطالب المرأة التي كانتها في الثامنة والثلاثين عندما لقيته . ولربما كانت قد أسرفت في مطالبته بما لا يستطيع . وهكذا فإن أحلامها كمراهقة وحيدة ، وكامرأة أُسيء إليها من زوجها الأول الذي كانت تكرهه ، قد نقلتها إلى زوجها الثاني .

ولكن سرعان ما وصلت إلى الشك في كل ما كان يفعله ، كما لو أنها بعد أن زينته بكل المواهب التي تتوق إليها ، عادت فوجدته محروماً منها جميعاً . وكانت تقول لنفسها أحياناً ، إنها غير منصفة ، وتقوم بجهد للتقرب إليه . وكان باستمرار يقابل هذه المحاولات بصمت المستغرب الساخر إلى حد ما .

أما اليوم فإنها لم تعد تطلب منه شيئاً . ومنذ أن ولدت سلمى ، انقطعت كل علاقة سليمة بينهما . ومع ذلك فإنها لا تظن أنه يخونها ، وبدلاً من أن تسعد بذلك ، ترى أنها تحتقره ، واضعة هذا الوفاء على حساب الكسل واللا مبالاة . فكأن لعلاقاتهما طعم كأس من الماء الفاتر . ولكن خديجة كانت قد تجاوزت فترة الشوق . وكل ما هنالك أنها عندما تراه ، تندهش . فمن هو إذن هذا الذي أحبته ؟

وخلال ذلك ، وذات صباح حار من أيام تموز / يوليو / ، مضت السلطانة هي وابنتها إلى المستشفى . وكانت سلمى قد قضت نهار البارحة بصنع حزم صغيرة كهدايا للجرحى . وقامت إحدى الكالفات بتهيئة مناديل الشاش الزهرية . وفي كل واحد منها ، وضعت علبة من التبغ ، وحلوى وبعض النقود ، ثم غُـلِّفت بشريط جميل من الساتان الأزرق . وهنالك مئات من هذه العلب ، تملأ حتى القمة ، جملة السلال المزينة بإطار من القماش الملون . وهذه تقدم انطباعاً أجمل ، وسلمى سعيدة جداً ، لا تكاد تهدأ ، من فرط الفرح ، بعملية غير مألوفة من هذا النوع .

وكان لا بد من عربتين . أما الأولى ، فقد احتلت مكانها فيها السلطانة خديجة وابنتها . وأما في الثانية فقد ركبت الخادمات المكلفات بحمل الهدايا . ولكي يصل الجميع إلى المستشفى ، لا بدّ من المرور على جسر غلطه ، على القرن الذهبي ، والأحياء القديمة من استامبول .

وحوالي الجسر ، كان على العربات أن تبطىء من شدة كثافة المارة . والمدينة ، التي يقوم فيها البيع والشراء هي غلطه ، الواقعة على أطراف المرفأ . وهناك تقوم المصارف ، وشركات الملاحة والبيوت التجارية الكبرى ، ولا سيما الصيارفة وأصحاب الدكاكين من كل الأنواع . ولدى تقاطع المدينة « الفرنجية » التي يعيش فيها النصارى ، بالمدينة الإسلامية القديمة ، يجد الإنسان مكان تلاقي كل الأجناس في الأمبراطورية .

فهناك آباء أغاريق يحاذون يهوداً من ذوي الشعر الطويل ، يلبسون قفاطين مطرزة ، وهناك أتراك كهول بالبناطيل الواسعة والعمائم إلى جانب شباب على آخر طراز ، يلبسون الريدنجوت على الطريقة الأوروبية ، وفوقه الطربوش الأحمر المزين بشرابة سوداء كبيرة . ومن وراء نوافذ العربة ، كانت

سلمى لا تعرف أين تضع نظراتها . وعلى جانب الجسر ، كان هنالك ألباني كبير بلباس أزرق حاد ، يبرم شاربيه بهيئة من يريد الخصام ، في الحين الذي تمر فيه أمامه أرمنيات جميلات ، لون بشرتهن بلون الحليب . وهناك أيضاً جماعات من البلغار ، يعرفون من كتلهم الضخمة ، وقبعاتهم المصنوعة من الفرو ، يتنزهون مع بعضهم ، إلى جانب بعض المسلمات المغطيات بملاءات ملونة ، احتشدن هناك لشراء بعض الحاجات ، وكل هذا يؤلف جمهوراً غير متجانس ، ولكنه غير مبال بتنافر أجزائه .

أما قطع الجسر فإنه أمر ملحمي . إذ يصرخ سائق العربة بألف صورة ليجد لنفسه ممراً بين عناصر هذا الخليط من العربات ذات المقاييس المختلفة ، التي يصدر عنها نفس الصرخات ، في فوضى فرحة . وعبثاً نحاول . فالعربات الأنيقة المفتوحة ، والعربات المغلقة الفخمة ، أصبحت محصورة وسط هذا الزحام من العربات التي تجر باليد ، والعربات المأجورة ، والعربات التي تجرها الثيران ، على حين أن الحمالين ، المطويين قسمين ، تحت أثقال ضخمة ، يتقدمون في هذا الزحام ، دافعين من أفواههم صرخات « هان » ضخمة . أما باعة الماء فيرفعون كؤوسهم بعضها على بعض ، وباعة البوظة أو المشروبات ، ممن يلبسون ثياباً عجيبة محشوة بزجاجات ذات ألوان مشهية ، يستفيدون من هذه الوقفة الإرغامية ليأتوا فيقدموا خدماتهم للمسافرين العطاش . وسلمى ، الفرحة بهذا كله ، والتي لا تريد أن يفوتها شيء ، ظمأى إلى شراب من بطيخ إزمير ، ولكن أمها تعقد حاجبيها محتجة بالحذر الصحي ، وضبط النفس . وعليها أن تكتفي برؤية الأطفال كلهم حول الباعة ينعمون بما يشتهون . وهكذا عرفت أن معنى « نبل الولادة » لا يشتمل دوماً على المزايا وحدها .

وأخيراً يصل الركب إلى استامبول القديمة [1] . ولقد يقول الإنسان هذه مدينة أخرى ، وبلاد أخرى . فبعد حركة غلطه الصاخبة ، تقدِّر الأم والذين معها قيمة الهدوء في الحارات الضيقة ، التي تحيط بها بيوت جميلة من الخشب ، من ذوات المصاريع المغلقة ، والجدران العالية ، التي يعلوها السرو . وحيثما ذهبت وجدت قناطر من الحجر ، وسلالم لولبية تؤدي بك إلى مساحات ظليلة . وهنا على مقربة من أحد المساجد ، مدّ قهوجي قماشاً مشدوداً بحبال ، يحتمي في ظله رجال صامتون يحتسون قهوتهم ، مأخوذين بلعب لا ينتهي بالطاولة ، أو هم يحلمون وهم يدخنون النارجيلة .

وأبعد من ذلك تقوم سوق صغيرة . وهناك باعة سمان يعتلون عرشهم فوق أهرامات الخضار والفاكهة ، ويقدمون لربّات البيوت المحجبات بمناديل سوداء ما يحتجن إليه من بضاعتهم . وتحت شجرة من الأشجار يجلس الكاتب الشعبي ، مع مجموعة أقلامه ، وأمواسه ، ومحبراته ، ويكتب

---

(١) كانوا يطلقون هذا الاسم على الحي القديم من استامبول .

عروض حال للناس بوقار، على حين أن سيدات عجائز، يجلسن على الأرض ويحزرن المستقبل، برمي عظيمات على قطعة من سجادة قديمة. وهنالك أيضاً متسولون، لكنهم أبداً لا يطلبون الصدقة من الناس. ويكتفون بأن يقبلوا ما يلقى إليهم من المارة من حين إلى حين، مقتنعين، بما ورد في تعاليم الدين، من أنه إذا أكرم الله بعض خلقه بالثروة، فعليهم أن يتقاسموها مع الفقراء والمعوزين.

وبعد ساعتين من بدء الحركة، وصل الركب سالمين، ووقفت العربات جامدة في فناء المستشفى. ولم تنتظر سلمى أن يأتي زينيل ليفتح لها الباب، بل قفزت منه قفزاً على الأرض. فهي متلهفة لرؤية المحاربين الشجعان «كما يسميهم خالها فؤاد».

والمستشفى بناء كبير، رمادي اللون، بُني في القرن السادس عشر، بأمر من السلطان سليمان الرائع. ودخلت السلطانة وابنتها متبوعة بخادماتها، في البهو الكبير، حيث كان ينتظرهم مدير المستشفى. وانحنى بأكثر ما يستطيع أمام السلطانة، وألح عليها أن تمر بمكتبه لبعض الاستراحة وتناول القهوة قبل زيارة المرضى. ولكن السلطانة أبت ذلك عليه، على أكبر فرح من سلمى. وتحمل هذا الرجل الصغير سوء حظه بقلب طيب وكان قد أشاع في كل مكان أنه على أفضل ما يجب مع الأسرة المالكة. فجعل من واجبه الآن أن يصحب السلطانة في زيارتها إلى القاعات.

وما إن دخلت الجماعة في الممر الأول حتى شعرت البنت الصغيرة أن حلقها تملكته رائحة حامضة حلوة، تنتزع منها قلبها. فتعض على أسنانها قائلة: لا مجال لأن أكون مريضة! ولكن كلما تقدم الزوار قليلاً، زادت الرائحة ثقلاً، وقلَّ احتمالها. وتفكر البنيّة قائلة: «ما أغرب هذه الأدوية!». ولم تفهم القضية إلا عندما وصلت إلى الممر الثاني، وأصابها الرعب. ففي الأرض، وفي كل الزوايا، كانت هنالك سطول صغيرة مفعمة بضمادات لطخت بالدم وفضلات الإنسان. وهناك رجال متمددون على فراش، أو على مجرّد غطاء، وهم يئنون. وبعضهم ينادي أمه. وآخرون رؤوسهم مقلوبة، وعيونهم مغمضة، يبدو أنهم يتنفسون بصعوبة. وفي هذا الممر الذي لا هواء فيه، لا يوجد أقل من مئة. وإلى جانب بعض المتميزين نجد امرأة — هي أخت؟ أو زوجة؟ تسند عنقاً، أو تعطي كأساً من الماء، أو تطرد الذباب الذي أغراه الدم.

وشرح المدير القضية فقال:

— إن هذه الفضلات تبقى هنا ليلاً ونهاراً. ونحن نتسامح بذلك، لأنه ليس عندنا من عناصر الخدمة ما يكفي للقيام بواجب هؤلاء المساكين.

فالممرضة، وهي فتاة ترتدي صدرية بيضاء، طويلة، وشعرها مرصوص بوشاح أبيض، هي الوحيدة التي تخدم كل غرف هذا الممر. وهي تقسم وقتها بين إعطاء الأبر، وأخذ الحرارة، وتوزيع الأدوية القليلة التي لا تزال جاهزة. وليس لديها أي وقت لراحتها الشخصية. ومع ذلك فإنها لا تزال تحتفظ بالبسمة، وتجد كلمة مواساة لكل مريض. وسلمى التي لم تعد لديها إلا رغبة واحدة، هي الهروب من هذا المكان، تشعر فجأة بالخجل: إن عليها أن تقاوم.

وبعد أن اجتازت الأم وابنتها بعض الأمتار، التي بدت لها وكأنها لا تنتهي، دخلتا في قاعة كبيرة. وهنا، تصبح الرؤية أوضح. فلوحظت نوافذ عالية تثقب الجدران المطلية باللون الأزرق لاستبعاد «العين»، كما أن الأسِرَّة تمتد على صفوف طويلة. وكان المرضى قد ناموا على الفُرُش مباشرة، لأن الأغطية انتزعت منذ مدة طويلة لتحل محل الضمادات المفقودة — وبين هؤلاء ممن هم، في أكثر الأحوال في أول الشباب — من يئنون من الألم.

وأحياناً يندو عن بعضهم صرخات تثقب هذه الأغنية الجنائزية، ولكن ما من إنسان يعير لذلك انتباهاً: فكل واحد منطو على نفسه، ويحاول أن يستجمع قواه في نضال يائس ضد الموت.

ثم إن أغلب المرضى يتقاسمون الأسِرَّة الضيقة، اثنين اثنين. ومع ذلك فهم محظوظون لأن الموشكين على الموت، أولئك الذين لا ينتظر منهم إلا النفس الأخير، وضعوا تحت الأسِرَّة، خوفاً من أن يفقدوا المستشفى محلات ثمينة. وفي كل صباح، يتكرر الشيء نفسه؛ إذ ترفع الجثث لردها إلى أسرها، أو يلقى بها في الحفرة العامة. ويؤتى من جديد بالجرحى الذين لا يرجى بقاؤهم أحياء، فيوضعون تحت الأسرة، وهكذا... على حين أن القادمين الجدد يوضعون في مكانهم.

وترتجف سلمى، مقسمةً بين الغثيان والاستغراب. وتتساءل: «أين هم إذن محاربونا الشجعان؟». وهي لا تستطيع أن تربط بين الجنود الذين أعجبت بهم في الاستعراضات، وبين هذه المخلوقات التي يشتد منها الأنين. وكأنها تحب أن تبكي، ولكنها لا تعرف ما إذا كانت تبكي بداعي الشفقة، أو بداعي خيبة الأمل. فالشجاعة أمام الموت، والفرح بأن يهب الإنسان حياته للوطن، أكل هذه العواطف التي يكثر الجنرال — الأمير من الحديث عنها، ليست إلا كذبة كبيرة؟

وتحسُّ عندئذٍ بأن أمها تضغط على يدها، وتقول:

— هيا، يا بنيتي الحلوة الصغيرة، تشجعي، أنا هنا. غير أن هذا الحنان اللامألوف يدخل إلى نفسها الاضطراب أكثر وأكثر أيضاً، فتتوسل قائلة: أيندجيم! أرجوك لنمضِ.

فتهز السلطانة رأسها بوقار حزين، وتقول:

ـــ يا سلمى، إن هؤلاء الرجال في نهاية البؤس، أولست قادرة على منحهم شيئاً من المواساة؟

وتود سلمى لو أجابت بكلا، وأنها لا ترغب بعد الآن في رؤيتهم، وأنها تحتقرهم لتألمهم بهذه الصورة التي زال منها الخجل... إنهم حيوانات! وفجأة ترى بأنها لم تعد تشعر لا بالشفقة ولا بالخوف، ولكن فقط بغضب هائل ضدّ هؤلاء الجرحى، وضد الجنرال ـــ الأمير. بيد أنها تسمع نفسها تجيب:

ـــ بلى، أيندجيم.

وتبدأ بتوزيع هداياها الزهرية والزرقاء. وتجد خديجة أمام كل سرير كلمة مواساة مناسبة. أما الأقل ضعفاً بين هؤلاء، فيشكرونها بابتسامة. وبعضهم يتمسك بها، كما لو أن وجود هذه السيدة الجميلة الرصينة في عالمهم المرعب، يمكن أن يدفع عنهم الموت. والبعض الآخر، يحوِّلون رؤوسهم عنها.

وتتابع سلمى، وهي ممتلئة حقداً، وعيناها مثبتتان على أحذيتها البيضاء، فتشعر فجأة بأنها اختطفت: ذلك أن رجلاً شدّها إلى سريره وهو يدمدم القول: «تعالي، يا طفلتي الحبيبة»، وعلى وجهه سمات الضياع. فبدأت سلمى تصرخ، مرعوبة. فأسرعت أمها وأنقذتها مباشرة. ولكن بدلاً من أن تبعدها عنه، أبقتها بجانبه، وأحاطتها بيدها الحامية.

ـــ إن هذا الجندي المسكين يظن أنك ابنته. فدعيه يتأملك، فلعل لحظته هذه هي آخر سعادة له في هذه الدنيا.

أنا ابنته؟ فتتصلب ـــ ترى كيف يتجرأ؟

ومرت دقيقة، كأنها زمن طويل. ثم إنها بصورة غير محسوسة، وأمام النظرات المفعمة حباً لهذا الأب المستعار، بدأت تشعر بذوبان عدائها، وتشاركه في البكاء رغماً عنها.

وبعد شهرين من ذلك التاريخ، أُذيع نبأ الهزيمة في ١٩١٨/٩/٣٠. إذ إن الأمبراطورية

العثمانية كحلفائها ألمانيا والنمسا ـــ هنغاريا ـــ طلبت الهدنة .. وأخيراً انتهت الحرب ، والشعب الذي استنفدت قواه ، بدأ يتنفس .

وسلمى الآن سعيدة : إذ لم يعد مجال لزيارة المستشفيات ولا رؤية الجرحى ، ولا الموتى . إن هذه المناظر المرعبة التي تؤرقها منذ زيارتها الأخيرة للمستشفى ، ستنساها أخيراً . وستعود الحياة إلى سيرتها كما كانت ، غير مبالية ، كما كان أمرها من قبل ، ولكن لِمَ تبدو أمها في مثل هذه التعاسة ؟

٥

وأولئك الذين سعدوا بالهدنة ــ وكانوا يقولون « السلام » بدأوا يفقدون فرحهم ، عندما تقدم أسطول المنتصرين ، بعد ثلاثة عشر يوماً ، وذات صباح بارد ، كثير الضباب ، من شهر تشرين الأول / أكتوبر / ، واجتاز الدردنيل ، ومضى منه إلى البوسفور .

هنالك ستون قطعة بحرية ، إنكليزية وفرنسية وإيطالية وإغريقية ــ وكانت مشاركة هذه الأخيرة غير واردة في اتفاقات الهدنة ــ ولكن تركيا يومئذ أضعف من أن تحتج ، لا سيما وأن البلاد فقدت حكومتها . ذلك أن الثلاثي الذي جرّها إلى الحرب ، هرب في نفس اليوم الذي أعلنت فيه الهدنة . وكانت القطع البحرية ، المسبوقة بطرادات ، تقترب من الشاطىء في صمت مهيب . وببطء دخلت في القرن الذهبي ، حيث ألقت المراسي ، ووجهت مدافعها إلى قصر السلطان ومقر الباب العالي ، الذي هو مقر أعضاء الحكومة .

وكانت السلطانة واقفة وراء النوافذ تنظر إليها . وتقول في ذات نفسها « لقد سقطنا إلى الحضيض » . فلأول مرة منذ أن استولى أجدادها على المدينة ، أي منذ خمسمئة سنة تقريباً ، تراها احتلت من جديد . وهذه الأمبراطورية التي أرعبت أوروبا خلال خمسة قرون ، تجد نفسها الآن تحت رحمة أوروبا . وهي سعيدة أن أباها مات ، وعلى أقل تقدير ، لم تقع هذه النكبة في أيامه .

ولم تذهلها عن أفكارها هذه إلا سلمى ، التي جاءت تدلها على نقطة بعيدة ، قريباً من غلطه .

ـــ فماذا يجري هناك ، أيندجيم . إن المرء ليظن أن هناك معركة أو قولي عيداً .

وحقاً فإن المشاهد لينطبع في نفسه أنه أمام صخب كبير . واستدعت السلطانة من يحمل إليها منظاراً كبيراً ، هو ذكرى من عم (أو خال) كان أميراً للبحر . فتشاهد منظراً، جعلها مذهولة : فعلى الأرصفة ، من ناحية المدينة المسيحية ، كان هنالك جمهور متعدد الألوان يهز أعلاماً .

وتلاحظ خديجة وجود الأعلام الفرنسية والإنكليزية ، والإيطالية . ولكن أكثرها أعلام زرقاء مخططة بالبياض ـــ وهي أعلام إغريقية !

لم تصدق ما ترى ، فسوّت المنظار ، ثم أعادته إلى مكانه بحركة غاضبة ، قائلة : الخونة . إنهم يرحبون بقدوم العدو !

وتشعر فجأة أنها متعبة لدرجة الموت ، وتتساءل ، « ولكن لماذا ، لماذا » . إن أغاريقنا عثمانيون[1] ، كالآخرين ! وهم مسيحيون . ليكن ، ولكنهم يملكون كامل الحرية في ممارسة طقوس دينهم ، وبطركهم هو أحد الشخصيات الأعظم أهمية في الأمبراطورية . وفي الواقع ، فإنهم أكثر حظاً من أتراك الأناضول ، الذين ينهكون أنفسهم في فلاحة أرض غير معطاءة . وعندما استقلت اليونان منذ تسعين سنة ، كان لهم كامل الحرية في الرحيل ، فآثروا البقاء هنا ، حيث تزدهر أحوالهم . أما الأرمن واليهود ، فإنهم سادة التجارة والمال . وماذا يريدون أكثر ؟

والحقيقة أنها تعرف جيداً مادا يريدون . ولكنها تأبى أن تصغي لهذه المطالب الخارجة عن الحدود . إنهم يريدون العودة ستة قرون إلى الوراء . وطرد الأتراك من تراقيا الشرقية ، واستامبول خاصة ، لكي يعيدوا أمبراطورية بيزنطة . وهم يعتمدون على المحتل لكي يساعدهم في تحقيق أحلامهم .

وفي بضعة أيام ، عينت قيادة موحدة للقوى المحتلة . أما من الوجهة النظرية ، فإن الأتراك يحتفظون بإدارة المدينة . وأما المرفأ ، والترامواي (الحافلات الكهربائية) ورجال الدرك ، والشرطة فهم

---

(١) كانوا يطلقون اسم العثماني على كل سكان الأمبراطورية ، سواء أكانوا أغارقة ، أم من البلغار ، أم من العرب ، أم من الأتراك ، أم من أية قومية أخرى . أما كلمة التركي فكان يحتفظ بها للناس الذين هم من العرق التركي .

تحت مراقبة الحلفاء. ويشرف الفرنسيون على مراقبة المدينة القديمة، والبريطانيون على البيرا Pèra[٢]، والإيطاليون على قسم من شواطئ البوسفور.

ثم إن الأحياء المسيحية في غلطه وبيرا، تزهو بحيوية جديدة. فالفنادق والحانات ملأى ببحارة وجنود يتكلمون بصوت أعلى من ذي قبل. وينفقون مبالغ لم يقبضها القيمون عليها منذ زمن طويل. أما الضباط فإنهم يترددون على البارات الأنيقة، حيث تقوم لاجئات روسيات، طردتهن الثورة البولشيفية، بتقديم المشروبات إليهم. ثم إن فناء البيرا بلاس، الفندق الأنيق، وهو أحد الفنادق القليلة، التي تملك الكهرباء— حافل بضباط من كل الأنواع، بل إنه ليلاحظ بينهم بعض رجال السيخ من جيش الهند، بعماماتهم التقليدية على رؤوسهم. وبعض الفرسان المغلفين بجبتهم الحمراء الفاقعة.

وستقرر الإدارة بسرعة استعادة «حفلات الشاي الراقصة»؛ وسنرى العسكريين الوسيمين يراقصون الجميلات من المجتمع البيروتي، في رقصة الفالس، على مرأى من الأمهات السعيدات من هذه المجموعة من الفرسان اللامنتظرين الذين جاءت بهم الهزيمة.

وفي الطرف المقابل، في المدينة الإسلامية، لا نجد إلا الحزن. فلا يخرج الإنسان من بيته إلا في أدنى الحدود، خوفاً من أن يزعجه الجنود الذين كثيراً ما يكونون سكارى، أو على الأقل حتى لا يكون عليه في الأرصفة الضيقة أن يمحي أمام المنتصر. وإنه لإذلال جارح، بالنسبة إلى الأتراك، الذين تعودوا أن يغلبوا الآخرين من الشعوب، أن يغلبوا على يد هؤلاء. ويتجنب الإنسان أكثر ما يتجنب، أن يمضي إلى بيرا Pèra لشراء حاجاته كالعادة سابقاً، إذ لا يمكن أن نرى بلا استنكار وحقد، ذلك التعاظم الغالب، لدى الأقليات المسيحية، التي كنا نظن، حتى ذلك الحين، أننا نعيش معها في أحسن التفاهم. وأسوأ من ذلك أن الإنسان يغامر بأن يتلقى الأذى إذا هو لم يحيّ الأعلام الإغريقية، التي تتماوج في الحي كله. وإذا كان مما لابد منه أن يجتاز الإنسان بيرا، فإن عليه أن يطيل الطريق، ويلف، ويدور، حتى لا يدخل إلى قلب الحي الإغريقي، ولا يتعرض للإهانة.

غير أن المستقبل يبدو أكثر سوءً: إذ يتحدث الناس، بقلق عن تعيين الجنرال فراشي

---

(٢) وهذه تسمية أوروبية لبيوغلو (ابن بيو).

ديسبيري Franhet d'Esperey . وهو المعروف بسلاطته وعنفه ، لقيادة قوى الحلفاء . وتقول الإشاعات إنه يريد أن يجعل من استامبول عاصمة فرنسية ، وجعل سكانها الأتراك عبيداً .

وخلال ذلك ، كانت الحياة تستمر على عادتها في قصر أورطاكوي ، ولكن سلمى تقاوم رغباتها . ولم يعد يسمح لها إلا بربارات الأوابد الإغريقية أو البيزنطية . وكانت السلطانة قد سمحت لها منذ زمن طويل بهذه « النزهات الثقافية » على الرغم من المشكلة التي أثارتها بين المحيطين بها ، فهي تريد أن تقدم لابنتها تربية كاملة ، وهي كخليط غريب من الحرص على التقاليد ، ومن حرية الفكر ، شديدة الوعي لمرتبتها بحيث لا تعبأ بالأقاويل والإشاعات . ومن عادتها أن تقول : « إن القواعد ، نحن الذين نقررها » .

وفي يوم ٨ / ٢ / ١٩١٩ ، كما هي الحال في كل أربعاء ، كان على سلمى أن تخرج مع الآنسة روز . وكانتا قد قررتا الذهاب لرؤية دير آكاتالبتوس ، الذي بُـني في القرن السابع ، على يد البطرك كيراكوس الثاني . ولكن هذا الأربعاء ، كان يوماً استثنائياً ، إذ كان ينتظر أن يصل إلى العاصمة الجنرال الفرنسي . وكانت السلطانة قد فكرت بإلغاء الزيارة ، خوفاً من الجمهور ، غير أن البنت الصغيرة أبدت من الأسى واليأس ما جعل أمها تقبل ما لم تكن تقبل . وأخيراً ، فإن الدير موجود في المدينة القديمة ، على مقربة من مسجد شيزادي . وكان على الموكب أن يمضي من جسر غلطه ليتجه إلى بيرا ، حيث توجد السفارة الفرنسية . فليس هنالك إذن من خطر للتقابل في الطريق .

وذهبتا في عربة مغطاة ، مصحوبتين بزينيل ، الذي كانت من بعض مميزاته العديدة أن يواكب السلطانات في نزهاتهن .

وانتهت زيارة الدير بسرعة . إذ خلافاً لعادات سلمى في طرح ألف سؤال وسؤال ، بدا أنها هذه المرة حريصة على العودة بسرعة . ولكن في اللحظة التي كان على العربة فيها أن تتخذ طريق أورطاكوي ، نادت السائق لتقول له :

ــ امض إلى بيرا ، بسرعة !

ولكن هذا الأخير أوقف العربة ، ونزل زينيل من المصعد الأمامي ، ووقف على باب العربة ، ليقول :

ــ إن هذا غير ممكن ، أيتها الأميرة ... إذ سكون تجاه الموكب ...

ــ صحيح هذا ، وأنا أريد أن أراه . بهذا ردّت سلمى بلهجة صارمة .

ــ لكن السلطانة أمك لا يمكن أن تسمح بذلك ...

ــ وهي أيضاً لم تسمح بالنزهات التي قمنا بها في المدة الأخيرة بعد زيارات المتاحف ..

والحقيقة أن سلمى استطاعت ، مرتين أو ثلاثاً ، أن تقنع مرافقيها ، بإطالة مدة زيارة الأوابد القديمة ، بنزهات كانت تقوم بها حولها . فاتخذت عندئذٍ وضع الغاضب وقالت :

ــ إني لأتساءل ماذا يمكن أن يحدث لو أني تحدثت لها في ذلك ... فقطب الخصي حاجبيه ، واضطربت الآنسة روز في مقعدها . فهما يعرفان أنهما أخطآ بنزولهما عند رغبة سلمى ، لكن هذه الزيارات كانت بريئة ، وكانت تسرهما بقدر ما تسر سلمى : ولم يخطر ببالهما قط أن هذه الشيطانة يمكن أن تضحك عليهما : فإذا هي فضحت هذه الشقاوات الإضافية ، فستعاقب حتماً . ولكن الآنسة روز ستسرَّح بلا ريب ، لأنها خانت الأمانة التي وضعتها السلطانة بين يديها . أما زينيل ... فإنه لا يجرؤ أن يفكر بخيبة الأمل التي ستشعر بها سيدته تجاهه . وهو لا يتحمل أن تفسد العلاقة المتميزة ، التي نسجتها بينهما السنون بأمور تافهة من هذا النوع . وهو يعرف مدى ما تصل إليه خديجة السلطانة في ثورة شكوكها ، وكانت الخيانات التي أثرت في حياتها خلال الأسر كثيرة ، بحيث أنها لم تعد تمنح ثقتها إلا لبعض الأشخاص القلائل ، الذين لا تنتظر منهم إلا الوفاء كله .

إلا أنه كان كبير الضعف تجاه الصغيرة . فهي الولد الوحيد الذي أحبه إلى هذه الدرجة . ومع أنه كان غاضباً منها ، فقد كان معجباً بها أيضاً ــ ولقد ناورت هي للحصول على الأمرين معاً مناورة جيدة ــ فقرّر أن ينصاع لرغبتها .

وقال لها :

ــ وإذن فلن نبقى إلا بضع دقائق ، متبادلاً غمزة عين مع الآنسة روز .

ــ بلى ، خمس دقائق فقط ، شكراً يا آغا ، وتمنحه أحلى بسمة لها .

وتصل العربة ، بصعوبة إلى بيرا ، من خلال الأزقة الملأى بمجموعات من الناس الفرحين . وأخيراً تصل إلى الشارع الكبير الذي سيمر فيه الموكب .

وكانت المخازن مغلقة ، والبيوت الجميلة المبنية بالحجر مزينة بالأعلام . أما على الأرصفة ــ وهذه الطريق هي الوحيدة في استامبول المحفوفة بالأرصفة ــ فكان هنالك جمهور متحمس

يُلـوِّح بأعلام صغيرة، يمكن التعرف فيها على أعلام إغريقية، وكذلك أيضاً على أعلام أرمنية. والأرمن أقلية تطالب بدولة مستقلة، في شرق الأناضول، وكانت مظاهراتها تقمع قبل ذلك بقسوة كبيرة. ولكن الأرمن كانوا يساعدون، خفية، من قبل بريطانيا، وفرنسا، وروسيا ـــ التي كانت ترى في هذا وسيلة لإضعاف الأمبراطورية ـــ وهم يعتقدون أنهم سينالون مطالبهم، مع انتصار الحلفاء.

وعلى حين أن العربة كانت تقف على طرف طريق مجاور ـــ ذلك أن من الأفضل أن لا يلاحظ الإنسان في عربة تحمل الشارات الأمبراطورية ـــ، فإن سلمى والآنسة روز، المتبوعتين بزينيل، الوحيد الواعي للخطر، يشقون طريقهم. وما من إنسان يخطر في باله أن هذه البنت الصغيرة، ذات الجدائل الحمراء، وهذا السيد العتيق المظهر في لباسه الاستامبولي، الذي انقضت أيام دُرجته (موضته)، هما مسلمان. أما الفتاة الشقراء التي تصحبهما فتبدو مباشرة فرنسية خالصة.

وفجأة تقرع الطبول، ويبدأ عزف الأبواق. ها هو الجنرال يبدو أكثر فخامةً مما كان الناس يتخيلون، بقبعته الحمراء، وقميصه الفضفاض، وهو على ظهر حصان أبيض رائع. وينفجر الجمهور تصفيقاً. أما معنى الحصان الأبيض فلم يخف على أحد: ذلك أن السلطان محمد الثاني المنتصر عام ١٤٥٣، دخل إلى بيزنطة على حصان أبيض، وعلى حصان أبيض يعود جنرال مسيحي جداً، فيملك المدينة.

ولقد نظمت الحفلة تنظيماً دقيقاً لتؤثر بفخامتها في شعْـب كان سلفاً مؤيداً. وكان في مقدمة الموكب، ضباط من رجال الدرك في أزهى ثيابهم الرسمية. وعلى بضعة أمتار منهم، كان الجنرال، العالي الرأس، والذي يمسك برسن حصانه رجلان كثيفا الشعر، والمتبوع بحامل علمه، ورجال حاشيته، ثم على بعد مناسب منه، بكتيبة من الخيالة dragons، الذين يحملون رماحهم الطويلة، ومجموعة من الخيالة في بزاتهم الزرقاء، ومجموعة من المشاة. ووراءه يأتي الجنرال البريطاني Milne، محاطاً بحاشيته الإيكوسية، ثم الجنرال الإيطالي، الذي ترافقه كتيبة من الـ bersaglieri ذوي القبعات المزينة بريش الطوويس. وأخيراً، وكخاتمة للموكب، نجد كتيبة إغريقية من الأوزون، في تنانير قصيرة بيضاء، وقلانس حمراء ذات شراريب pompon، وهم لا يستطيعون إلا الرد على تحية إخوانهم في العرق، الذين يأتون لتحريرهم من الأتراك.

وما كاد الموكب يتجاوز قليلاً مجموعة البيوت، التي تقف بحذائها سلمى، وزينيل، والآنسة

روز ، حتى سمع صراخ امرأة ، غطّي عليه حالاً بشتائم وسيل من الضحك . وهتف صوت حاد يقول : « ولكن قوليه إذن ، فهو لن يجرح لسانك ! » ثم تزايدت الصرخات حدة ، وجاءت مجموعة من الشباب المتطرفين في الحماسة ، ولاحظت سلمى باستغراب ، امرأة بملاءة سوداء ، تحاول أن تدافع عن نفسها ضد نصف دزينة من النساء الشريرات ، ويقلن لها : قولي يحيا فينيزيلوس(٣) . وكان حول هؤلاء رجال يشهدون المشهد ، بوضع الساخر . فلن يضعوا إذن يدهم على امرأة ـــ ولا بد أن فيهم حس الترف ـــ ولكن إذا كانت زوجاتهم يردن تعليم فن الحياة لِـ (موز)(٤) ، فليس عليهم هم أن يمنعنهم من ذلك .

وكانت سلمى على وشك طلب النجدة ، عندما ضغطت الآنسة روز بقوة على يدها ، وقالت بلهجة التهديد .

ـــ إني أمنعك من أن تنبسي ببنت شفة ، وإلا فإننا نحن الذين سيقتلوننا !

فاستكانت البنت الصغيرة ، الدائخة ، وهي لا تفتأ مع ذلك تقول : « يا إلهي ، أنقذها ، أرجوك ، أنقذها ! » .

وتدخل الإله في صورة رجال من البحرية الفرنسية ، كانوا يبحثون عن بار . فلما سمعوا الضجة ، لم يتأخروا عن إنقاذ هذه المرأة ، التعيسة . مع شتائم كيلت لها على أنها غامرت بلا وعي بالمرور في مثل هذا الحي .

وعادت سلمى ، هي وملكاها الحارسان ، إلى العربة . فأسرع سائق العربة الذي كان ينتظرهم بقلق كبير ، إلى ضرب حصانيه بالسوط . وهكذا سيكونون في القصر ، في الساعة المناسبة تماماً لتناول « العصرونية » .

وانتهت تلك المأساة على صورة مناسبة ولكن سلمى تشعر بالخجل . فلأول مرة في حياتها بدت جبانة . وعبثاً قالت لنفسها ، إنها لم تزد على أن انصاعت لتعليمات الآنسة روز ، وإن صراخها كان سيجعل حياة زينيل في خطر ، ذلك أنها في أعماقها ، كانت تشعر بأنها خافت .

وأرغمها ما في خلقها من الاستقامة على ملاحظة هذه الصورة الجديدة لنفسها ، وجهاً

---

(٣) فينيزيلوس : المولود عام ١٨٦٤ والملقب بالكريدي الكبير ، كان آنئذ رئيساً للوزراء .

(٤) موز : مختصر كلمة تطلق احتقاراً على المسلم .

لوجه : صورة الخائفة ! ولكن عزة نفسها لا تتحمل ذلك ، وهي التي لا تحلم إلا بأعمال بطولية ، ولا تجد في ذاكرتها إلا المنجزات الضخمة للسلاطين ، أجدادها . ولقد تصرفت بطريقة تدعو إلى الاحتقار . وخلال ليال كثيرة ، كان ذلك كابوساً دائماً لها . وبطبيعة الحال فقد كانت تبحث عن مبررات لتصرفها هذا ، ولكنها لم تجد أي مبرر .

وأخيراً ، فإن التعب والزمن سيقضيان على صور قلقها هذه ، وعذابها ، وستكون للحياة ولذائذها الغلبة . ولكنها لن تنسى أبداً كيف أن امرأة من الشعب أبدت من الشجاعة والعـزّة ، أكثر مما أبدته منها حفيدة سلطان .

٦

وبقدر ما كان يبدو مجتمع الآستانة في الأشهر الأخيرة للحرب ، وعندما كان كل شيء ينذر بالهزيمة مجتمعاً أعمى ، غير مبال ، كان ، منذ احتلال العاصمة ، يمتلئ بالتشاؤم واليأس . فما من حديث إلا عن إساءات العسكريين : كعنف الإنكليزي الذي كان من فوق حصانه ، يعمل سوطه ، في المار الذي لم ينتظم بالسرعة المناسبة ، ووقاحة الجندي الإيقوسي الذي يرفع تنورته ، أمام السيدات ، وسكر الفرنسيين والإيطاليين ، ولا سيما عامية السنغاليين . وعند الأتراك ، أن هذا هو الإهانة العظمى . ذلك أن سوداً ، أي عبيداً ـــ إذ إنهم لم يكونوا في الأمبراطورية العثمانية إلا كذلك ـــ يتصرفون كسادة ويلقون أوامر عليهم ، وهم مضطرون للانصياع إليها ! ففي كل مكان تقال قصص عن الإساءات ، وهتك الأعراض ، تضخمها الإشاعات الشعبية . وأصبح الشعب يخشى بقوة أذى هؤلاء الأوروبيين ، الذين طالما ظُـن أنهم « جد متمدنين » .

ورداً على هذا الاستياء العام ، فإن السلطانة خديجة فكرت بتنظيم واحدة من « هذه الدعوات إلى الحمام » ، التي يُـعلى من شأنها في استامبول . والتي يدعو الناس بعضهم بعضاً إليها ، كما يدعو الناس بعضهم بعضاً في أوروبا إلى حفلة شاي . ولم تضع لذلك إلا شرطاً واحداً : فليس على مدعوة أن تتحدث عن هذه الأحداث ـــ ذلك أننا لن نصل مع ذلك إلى حدّ السماح للمحتل بأن يفسد كل شيء . وفي مثل هذه الأحوال البائسة تصبح التسلية نوعاً من التحدي أو ما يشبه الواجب الوطني تقريباً .

وعلى الرغم من صور التضييق، التي بدأ الناس يشعرون بها في كل مكان، فإن السلطانة حرصت على أن يكون في حفلتها من البذخ، مثل ما كان لها من قبل. إذ تستقبل المدعوات في البهو الكبير، من قبل كل العناصر النسوية في القصر؛ أي من حوالي الثلاثين «كالفا»، الكبيرات أو الصغيرات، اللواتي عليهن أن يحيين المدعوات بوابل من الورود. وبعد أن يساعدن على خلع الشرشف (الملاءة)، يأخذن بيدهن إلى الأبهاء الصغيرة، المزينة بالمرايا والأزهار، المجاورة للحمام. وتتولى إحدى العبدات أن تجدل لهن شعورهن بأشرطة ذهبية أو فضية طويلة، وتعيد هذه الجدائل بشباك إلى أعلى رؤوسهن؛ ثم إنها تلفّـها بمنشفة حمام كبيرة مطرّزة تطريزاً ناعماً، وتضع في أقدامهن خفافاً مطعمة بالصدف.

فإذا أُنِّقن بهذه الصورة، فإنهن يمضين إلى الصالون الدائري إلى حيث تستقبلهن السلطانة، وتقـدّم لهن القهوة بالهال، على نحو ما يشربها العرب، لإعادة النشاط في أيام الحر الشديد، ثم يتبادلن المجاملات ويهنئن بعضهن بعضاً بأدوات الزينة الفضية أو الذهبية، التي تحملها كل منهن. والحقيقة أن هذه الحفلات مناسَبـةٌ لإخراج الأباريق وزجاجات الروائح العطرة، والصناديق التي توضع فيها هذه الأشياء، والتي تتلقاها كل زوجة جديدة في حفلة عرسها.

وتتّجه المدعوات عندئذٍ إلى القاعات الساخنة، وكل واحدة منهن تحيط بها عبدتان مكلفتان بتحميمها، وتمسيدها، ونزع ما على جسمها من شعر، وتعطيرها من الرأس حتى القدمين. وهناك نجد ثلاث قاعات من الرخام الأبيض ذوات النوافير، التي يصدر منها الماء، تتتابع كل منها بعد الأخرى، أما الأخيرة فإنها تكون شبه مظلمة، لكثرة ما فيها من البخار. وهناك يبقين ساعات، قبل أن يعدن فيتلاقين في مسبح الماء البارد الموجود في قاعة للراحة، مزدانـة بنباتـات خضراء، وبصوفات. وهناك حيث يكن متمددات بلذة عنيفة، يتذوقن شراب البنفسج أو الورد، التي تقدمها كالفات صامتات؛ ويكون هناك وراء بعض الستائر أوركسترا تقدم موسيقى ناعمة، خفيفة.

وهذه هي لحظة المسارّات والكشف عن كل ما قيل وسمع. وما دام الجسد والروح قد خفّا، فإن كل واحدة تدع لنفسها أن تحلم، تاركة رقبتها أو رجليها للتمسيد البطيء، الذي تقوم به إحدى العبدات. وفي مثل هذا الجو من الشهوانية المؤنقة، تشعر حتى أكثر النساء بشاعة، أنهن مقبولات ومرغوبات.

وجال في خاطر سلمى أنها في الفردوس . ذلك أن قواعد التربية الفيكتورية الدقيقة ، التي لُقِّنت لبنات الأسر الكريمة العثمانية ، تلغى تماماً في الحمام ، بنوع من الترخيص الغريب . ففي مثل هذه الصميمية ، تغرق الطبيعة الشرقية ، الكريمة ، المستعدة للدة ، والمتحررة من المستبقات ، بمقدار ما هي متحررة من كل شعور بالإثم ، أو لنقل تسقط حواجز التهذيب المستورد ، والدي ظل سطحياً كطلاء خارجي .

يقوم بين هؤلاء النسوة المستسلمات لأجسامهن ، الحريصات على راحتهن نوع من التواطؤ السعيد ، المؤلف في آن واحد ، من الميل الجنسي ومن الفرح الطفلي . فتراهن يعجبن ببعضهن ، وبتلاصقن ، ويقبلن بعضهن بعضاً ، وتأخذ كل منهن بالأخرى من الخصر ، بصورة عاطفية . أما سلمى التي طاش سهمها بعض الشيء ، برائحة المسك الرومي ، فإنها تحلم عندما ترى هده الأثداء الحلوة الثقيلة ، وهذه البطون العاجية التي تبدو غاية في الحلاوة والرقة . ترى هل يمكن أن ينشأ لها هي يوماً من الأيام ثديان ؟ وكانت في كل مساء ، تداعب جسدها في سريرها وتشد صدرها ، لكي تحمل تدييها على الطهور .

وما هي إلا مدة يسيرة حتى اتخذت المحادثة ، في مثل هذا الوضع من الارتخاء ، صورة حرة بعض الشيء ، وخوفاً من أن تأمر السلطانة ابنتها بترك القاعة ، تصاغرت هي في راويتها بقدر ما تستطيع ، حباً في البقاء مع هؤلاء النسوة .

وتتحدث امرأة شابة عن زوجها ، وهو موظف كبير في وزارة الخارجية . فهو رجل حديث يأخذها معه إلى كل الاستقبالات الرسمية . وتروي أنها رافقته ، ذات ليلة ، إلى عشاء دعت إليه السفارة السويسرية ، وهي إحدى السفارات القليلة ، التي ظلت على الحياد .

ـــ فلم يكن هناك إلا أوروبيات ، أنيقات جداً ، ولكن بلباس يكشف عن الصدور والظهور كشفاً خجلت منه عنهن ، والأدعى إلى الاستغراب ، هو أنه ما من واحد من الرجال الحاضرين أعار ذلك انتباهاً . فهم يمشون بين هؤلاء النساء المعروضات بهذه الصورة دون أن يبدو عليهم أي اهتمام .

ـــ ولكن هذا معروف ، فالغربيون لا يملكون رغبات قوية ، على ما تقول السيدة المجاورة لها ، التي تبدي مظهر الخبير العليم ، ولهذا فإن نساءهن يستطعن التنزه وهن نصف عاريات

فيضحك الجميع .

ـــ ما شاء اللهـــ والحمد للهـــ إنه لا يمكن أن نقول مثل هذا عن رجالنا . فهم لا يستطيع
أن يلمحوا ساعداً ، أو كعب قدم ، من غير أن يُـجَـنّـوا به !

وتتنهد امرأة سمراء جميلة ، وتقول :

ـــ كم يجب أن تكون هؤلاء الأوروبيات بائسات . فلو كنت مكانهن لمت من الأسى .

ـــ ولكنهن لا يعين ذلك ... فهن يحسبن أنهن حرات ، ويقلن إن رجالهن متسامحون ، ·
حين أنهم غير مبالين .

وتشير سيدة نحيلة قصيرة ، ممن يدعين أنهن من المثقفات إلى أن :

ـــ هذا ربما ينشأ عن دينهم . فالنبي عيسى ـــ الذي يعتبرونه كإله ، ذلك أنهم يؤمنون ب
آلهة ، أو لنقل بثلاثة : هم الآب والابن والروح القدســـ هذا النبي كان يبتعد عن النساء ،
يتزوج قط . وأهم الفرق المسيحية ؛ أي الفرقة الكاثوليكية ، تعتبر أن الطهارة الجنسية هي أعلى د
الكمال . ولهذا فإن رهبانها يبقون عزاباً ، وكذلك بعض فتياتهن اللواتي يسمونهن راهبات .

وأمام هذه الكلمة يصرخن جميعاً : عازبات ؟ كما لو أنهن لا يصدقن . إذ إن العزوبة بال
إليهن هي اللعنة . أوَليس أول واجب من واجبات المرأة أن تنجب ، أوَلم يكن للنبي نفسه
زوجات ؟ إن هؤلاء المسلمات لا يرين أن الجنس شيء يتصل بفكرة الخطيئة ، بل العكس تم
وأشعار الغزالي ، الشاعر الصوفي الذي عاش في القرن الحادي عشر ، معروفة لدى كل واحدة .

ثم إن الغزالي نفسه هو الذي يؤكد أنه إذا كان محمد ، خلافاً لعيسى ، له زوج
عديدات « فذلك لأنه كان يجد نفسه في درجة عالية من الروحانية ، بحيث أن أشياء هذا العا
تكن تمنع قلبه من أن يكون مع الله . وكان يأتيه الوحي ، على حين أنه كان نائماً إلى ج
عائشة » .

وحقاً فإن غرائب المسيحيين تظل موضوع حديث لا ينتهي .

وتتابع المثقفة حديثها فتقول :

ـــ ويقال إن الناس في روما كانوا يأكلون لحم البشر .

ـــ يأكلون لحم البشر ؟ .

وعرت رجفة هزت أجساد الجميع .

ـــ بلى ! ففي كل صباح كان كهنتهم يستحضرون الإله ، بقراءات طقسية ، في قطعة خبز ، ويأكلونها .

وتقابل المدعوات هذا الكلام بدهشة واستغراب وتلاحظ إحداهن :

ـــ ربما كان هذا مجـرَّد رمز .

ـــ هذا ما كنت أحسبه . ولكن لا . إنهم يقسمون أن إلههم كائن في هذا الخبز ، لحماً ودماً ، فيعروهن من ذلك رجفة .

ـــ ويجرؤون على القول إننا متعصبون !

وتخلص المثقفة إلى القول ، بصورة الجزم القاطع .

ـــ إن القضية هي دوماً على هذه الصورة . فالأقوياء لا يفرضون قوانينهم علينا ، بل يفرضون كذلك أفكارهم .

وكأن شيئاً من الحزين يرين الآن على الحضور . فكيف حدث أن وصلن إلى الحديث في السياسة ؟ وهذا على الرغم من أن الجميع تعاهدن على تجنب كل موضوع مزعج .

وكانت هذه اللحظة هي التي اختارتها إحدى الأميرات لكي تقول ، بلهجة غريبة :

ـــ هل تعرفن آخر خبر ؟

فاتجهت جميع الأنظار إليها ، وقلن

ـــ قوليه بسرعة ، لا ترهقينا بالانتظار .

وعندما هيمن عليها الشعور بأهميتها ، بدأت تقول :

ـــ حسناً ، ها كن : إن روز دور ... الوردة الذهبية .

ولمعت عيون المدعوات من جديد : فماذا عساه أن يكون روز دور قد فعل ؟

ـــ إن روز دور قد طلب يد صبيحة السلطانة .

فتكاثرت علائم الاستغراب .

ــ كيف ؟ أيتزوج بنت جلالته ؟ إن هذا مستحيل ! فانزعجت أن يستطعن وضع كلامها موضع الشك .

وانتصبت

ــ إن هذا خبر مؤكد جداً . وأنا علمت به من أم صبيحة ، الكادين نفسها !

فوصل التهيج إلى قمته : أفتتزوج الجميلة صبيحة ، الإبنة المفضلة للسلطان وحيد الدين ، اللواء الشاب ، بطل غاليبولي ، الذي أنقذ ، في أشد ساعات الحرب ، استامبول من يد البريطانيين ، الذين كانوا يهاجمون الدردنيل ! ولكن الجميع يعتبرن أن روز دور هو وجه أسطوري . ذلك أنه تحدّى رأي رؤسائه ، وتحدى جيشاً أوروبياً أكثر عدداً ، وأفضل عدة . فلقد استطاع ، بجرأته ، وثقته المطلقة بنفسه وبرجاله ، أن يتغلب على وضع أجمع الخبراء كلهم ــ في استامبول وفي الجبهة ــ على أنه ميئوس منه . وقد جعل منه هذا النصر ، الذي يعود إلى عبقريته العسكرية ، مشهوراً ، لا سيما وأنه بعد عدة أشهر ، عندما واجه الجيش الروسي ، استعاد مدينة بيتليس وموش ، فحقق بذلك النجاحات التركية الوحيدة ، بين مجموعة من الهزائم .

أما الجيل الجديد ، الذي خاب أمله بحكم أخطاء سياسييه ، وهزائم ألويته المتقدمين في العمر ، فإنه رفعه إلى السماء . وجُنت النساء به . وذلك لا لأنه شجاع فحسب ، بل لأنه وسيم ومغرور arrogant . فالبشرة ناصعة ، وكراسي الخدود عالية ، والعينان زرقاوان ترميان بشرر عيف ، ولكنهما تستطيعان أن تصبحا أحياناً في غاية الرقة ، والشعر أشقر رائع ، وهذا ما وهبه لقبه . وهو من مواليد سالونيك ، ويقولون إنه من أصل ألباني . وكان أبوه موظفاً صغيراً في الجمارك . أما هو فإن عليه سمة الأمير ، ويبدو رشيقاً في بزته العسكرية المحكمة التفصيل . ثم إنه مقتنع قناعة عميقة بتفوقه ، وتشع من شخصه قوة وطاقة وحشيتان تقريباً .

وعندما عاد إلى استامبول منذ نهاية الحرب ، صار يرى في البلاط . ويحب السلطان أن يستشيره حول الوضع المعنوي للجيش ، وأن يستمع إلى آرائه المتميِّزة عن آراء الآخرين . ولقد علا تقديره له منذ عام ١٩١٧ ، عندما ذهب ، وهو ما يزال ولياً للعهد ، إلى ألمانيا ، لرد الزيارة إلى القيصر ، وكان العقيد الشاب مرافقه العسكري .

وعندما يأتي إلى القصر ، كانت الأميرات ، المختبئات وراء المشربيات (الشمعدانات) ، ينظرن

إلى الضابط الوسيم الذي يمر ، وعليه أكاليل المجد ، ولقد حلمت أكثر من واحدة منهن أن تصبح امرأته ، بل إن سلطانة صبية تجرأت فكتبت إليه رسائل بريئة وغرامية ، وكانت توصلها إليه بواسطة أحد العبيد . لكن هذا القاسي القلب لم يتنازل مرة ليجيب ، فأوقعها ذلك في المرض ، من شدة الحزن . أتراه كان يظهر بمظهر اللا مبالي ، لأنه كان يطمع ببنت السلطان ، وهو من أصل متواضع ؟ ولكن هذا غير مهم . ففي تركيا ليس هنالك من أرستقراطية ، خارج الأسرة الملكية . وفي وسع الإنسان أن يصل إلى أعلى المراتب ، بالاعتماد على مزاياه وحدها . وكثيراً ما تتزوج الأميرات بالباشاوات أو الوزراء ، الذين يريد السلطان تشريفهم ، بشكل خاص . أو لم تتزوج نادية السلطانة ، قبل خمس سنوات ، من أنور باشا ، وزير الحربية ، الذي كان أبوه مستخدماً في مؤسسة السكك الحديدية ! وروز دور لا يقل شأناً عن أنور .

وسرت في الحمام ريح هيجان فرح . فكل هؤلاء النسوة ، اللواتي كن حتى ذلك الحين ، متمددات بكسل على الدواوين ، نهضن الآن ، وأحَطْن بالأميرة . أما هذه الأخيرة ، السعيدة بنجاحها ، فقد تركت من حولها ينتزع منها كل التفاصيل ، واحداً بعد آخر .. وآخرها قولها : كلا إن السلطان لم يجب بعدُ . ولكنه سيرد ، وكما تعلمن فإنه يزن قراراته ويتأملها طويلاً .

ــ ولكن أخيراً ، ماذا قال السلطان للباشا ، تماماً ؟

ــ لقد قال : إن ابنته ما تزال صغيرة ، وإنه سيفكر .

ــ أصغيرة ، صبيحة السلطانة ؟ ولكن عمرها لا يقل عن عشرين سنة !

وعندئـذٍ خفضت الأميرة صوتها ، ودمدمت تقول :

ــ يبدو أن السلطان يتردد . ولا شك أن الباشا هو أفضل لواء في جيشنا ، ولكنه شديد العنف ، ويكثر من الشراب . ثم إنهم يقولون ، إن له آراء تميل به إلى الحكم الجمهوري .

واعترت المجموعة رجفة المذعور .

ــ أو هو جمهوري ، هذا الروز دور ؟ إن هذا مستحيل ! وعندئـذٍ لم تعد الأميرة تتحمل ، فالتفتت إلى جارتها ، لتقول :

ــ عفواً يا سيدتي ، ولكن من هو هذا الروز دور ؟

ــ كيف ، يا سلطانة ، ألا تعرفين ! قالت ذلك مندهشة . ولكنه هو اللواء مصطفى كمال !

٧

« الجيش اليوناني يحتل إزمير ــ وبعد بعض المعارك الدامية ، عاد الهدوء » .

وتنهد خيري رؤوف بك ، واسترخى جسمه على مقعد الأكاجو ، ليقول :

ــ لئن كانت الصحافة الأجنبية هي التي تكتب ذلك ، فيجب أن يكون هذا صحيحاً .

وكمثل الكثيرين من أبناء جيله ، ومحيطه ، كان الداماد شديد الإعجاب بأوروبا ، وليس لديه إلا الازدراء ، لما يسميه « بالتركيات » ، ولا سيما صحافة بلده ، بل إنه لا يقرؤها ، ويكلف من يرسل إليه كل يوم نصف دزينة من الصحف الفرنسية والإنكليزية . إن هذا هو وجهة نظر العدو . فليكن ، ولكنه في رأيه أكثر موضوعية من وجهة نظر الصحف المحلية ، الخاضعة للرقابة . وينسى أن هذه غير مفروضة إلا من قبل المحتلين ، هؤلاء الأوروبيين الذين ما أكثر ما يعجب بهم . وعنده أن هذه تفاصيل ، ذلك أن الاعلام ، في تركيا ، كان دوماً ، على كل حال ، تحت المراقبة ، سواء أكان ذلك خلال السنوات الثلاث والثلاثين من حكم السلطان عبد الحميد ، أو خلال السنوات التسع من ديكتاتورية أنور باشا ، فيما بعد .

أما أن الصحافة في البلاد « الحرة » خاضعة لرقابة في مثل هذه الصرامة ، ولكن برهافة أكبر ــ من حيث أن الحكومات قد فهمت أن المنع أو البطش ، لم يكونا خطرين فقط ، بل بلا جدوى ــ فإنه لا يريد أن يفهم ذلك . ويعتبر أنهم نمامون ، أولئك الذين يقولون : إن الديمقراطيات قد

أصبحت سيدة من يحسن التلاعب بالأخبار وتزويرها . ففي أوروبا ، على ما تروي هذه العقول الفاسدة ، لا تسجن السلطة مديري الصحف ، بل يدعونهم إلى العشاء ، ويصارحون « بالمشكلات الحقيقية » على أفضل وجه . وعندما « يدللونهم » بهذه الصورة ، فإنهم يصلون في أكثر الأحيان إلى استبقائهم في نوع من الحياد المحابي .

لكن هذه الملاحظات تستفز خيري بك . وعلى فرض أنه صدقها ، فإن هذا لا يغيِّر شيئاً من قناعته بأن سلام تركيا ، إنما يمر من باب « تغريبها » . وكثيراً ما يقول : « يجب أن نأخذ من أوروبا ورودها ، ولتذهب الأشواك غير مأسوف عليها » . وهو يجب أن يعلن تعلقه بنظريات الفلاسفة العقلانيين والمثل العليا ، التي أشاعتها الثورة الفرنسية . ولكن إذا كان مستعداً للترخيص للشعب ببعض الحقوق ، فإن من العسير عليه أن يهبها الشعب لنفسه .

ولاحظ وهو يتصفح صحفاً أخرى ، افتتاحية في الصفحة الأولى للصحيفة اليومية الكبيرة «Le Journal» مؤرخة في ١٧/٥/١٩١٩ وإلى جانبها تماماً مقال حول « قضية لاندرو Landru » ـــ لقد اكتشفت الضحية العاشرة ، التي أدخلت إلى الفرن ـــ . ثم إن الصحفي Saint Bric ، يحلل نزول الحلفاء على ساحل إزمير ، وينتقده بشدة : « إذ إن الهدنة لا تسمح للحلفاء إلا باتخاذ تدابير متعلقة بالنظام . غير أن الأخبار الأكثر تحيّزاً لم تستطع الإشارة إلى أي حادث جدّي (...) . وإذن فنحن نجد أنفسنا تجاه عمل سياسي مقرّر سلفاً . وأكثر من ذلك أنه عمل سياسي ذو أهمية ضخمة : فاحتلال إزمير ليس إلا حكماً بالموت على السلطنة العثمانية » .

ـــ أية شجاعة ! فالدفاع عن المغلوب ، من قبل صاحب رأي ، ضد حكومته نفسها ، ذلك هو ما يسمى بالحرية ، وما يسمى بالنزعة الإنسانية ! وهذا ما يعجب به خيري بك . مهملاً ، في حماسته ، ملاحظة النتيجة التي انتهى إليها المقال : « إن موت الرجل المريض » يدعنا غير مبالين ، لو لا أنه ينذر بنهاية النفوذ الفرنسي في الشرق . وحقاً فماذا ستكون حصتنا إذا نحن حوصرنا بالانتدابين الهائلين ، لبريطانيا العظمى ، وللولايات المتحدة ؟ » .

ويسمع خيري بك من يقرع باب المكتب قرعاً خفيفاً . ويظهر رأس صغير أحمر من خلال شق الباب .

ـــ ولكن هذه ابنتي الحلوة ! فعلى شرف ماذا ، أستحق هذا التكريم . أدخلي إذن .

وعندما يكونان لا ثالث لهما ، بعيدين عن السلطانة ، والخدم ، فإنه يخاطبها خطاباً عادياً ، بعيداً عن مراسم المراتب . وفي كل مرة ، يخفق قلب الصغيرة أكثر ، بسبب هذه الإلفة المتواطأ عليها . ويرفعها الأب ليضعها فوق ركبتيه ، ويحدِّق بها ، وفي النظرة شيء من السحر .

ـــ وإذن ، فماذا هناك ، وماذا تريدين أن تطلبي مني هذه المرة ؟

وتحتج سلمى . وقد جرحها أن تُحزَر بهذه السرعة ، على حين أنها قضت صبيحة اليوم كله في تهيئة مشروع معركتها ، وتقول :

ـــ ولكن يا بابا ، أؤكد لك . . .

فينفجر ضاحكاً ، بينما كانت تنظر إليه بإعجاب : فكم هو مختلف عندما يكونان معاً ، وكم هو مرح ، دون أي أثر لتلك الهيئة المرهَقة ، التي يحملها حيثما ذهب . وهي تحبه ، بسبب هذه السعادة التي تراها فيه عندما يراها . فتحني رأسها جانباً ، وتتخذ سماتها هيئة المداعب الجذاب .

ـــ بابا ، كنت تقول البارحة ، إن الأطفال في أوروبا يربون بحرية أكبر ، وهم بالتالي أفضل استعداداً لمجابهة الحياة .

فيقطِّب حاجبيه ، ويقول في نفسه : ماذا ستخترع لي أيضاً ؟

ـــ بلا ريب

وتتابع سلمى قائلة :

ـــ أو لا نحس أن من الضروري لفتاة أن تفهم العالم ، الذي تعيش فيه ؟

ويعض خيري بك شفتيه . ترى أين التقطت هذه الفكرة . لقد التقطتها ، على الأرجح من واحدة من هذه الروايات الفرنسية ، التي تراها لدى مربيتها ، ولا بد أنها حفظتها عن ظهر قلب .

ـــ ولكن يا سلمى ، لست بعد بصبية .

فتنظر إليه نظرة اللائم ، وتجيب .

ـــ تقول الآنسة روز ، إن المهم ليس العمر ، بل النضج .

وهذا ما كان يتوقعه . إنها الآنسة روز ، وليس مؤكداً أن هذه الفتاة العانس ، المنزوعة الدماغ ، هي المربية المثالية . ويجب أن يتحـدَّث بذلك إلى زوجته .

ــ ولكن لنخلص من هذا إلى الواقع : فماذا تريدين ؟ قال لها هذا وهو مستاء بعض الشيء ، مستعيداً بالغريزة وضع المتباعد .

فثبتت فيه عينيها الكبيرتين المتوسلتين ، وهي تقول :

ــ إني أريد أن أصحبكم إلى مظاهرة مسجد السلطان أحمد .

ــ إلى ....

وكاد خيري بك أن يختنق .

ــ ولكنك مجنونة ! سيكون هنالك عشرات الألوف من الناس ، من كل الأنواع ، سينهقون ما اللّه به عليم . لن تذهبي إذن وأنا كذلك . فليس لدي أية نية في الاختلاط بهذا النوع من البشر .

فامتلأت عينا سلمى بالدموع .

ــ ولكن ، يا بابا . إنها مسألة هذه المذابح المخيفة في إزمير . ويقول زينيل ، إنه يجب أن نفعل شيئاً ما .

ــ زينيل يقول ... ؟ آه ، برافو ! إن هذه الطفلة تصغي إلى الخدم أكثر مما تصغي إلى أهلها ، على ما يبدو . وأنا أريد أن أعرف ما تقوله السلطانة أمك ، في هذا الأمر ؟

ــ أيندجيم ، لقد خرجت ...

ــ من المؤكد إذن أنك انتظرت خروجها ، لكي تأتي لتطلبي مني هذا ــ ويتلعثم فلا يجد الكلمات المسعفة ــ الطلب اللا معقول .

ــ ولكن بم هو غير معقول ، يا صهري العزيز ؟

وكانت فاطمة السلطانة ــ الأخت الصغرى لخديجة ، تقف على العتبة ، مصحوبة بخصيّ . ومنذ بضع لحظات كان هذا الأخير يحاول عبثاً إثارة انتباه الداماد ، لكي يعلمه بهذه الزائرة . فلقد مرت السلطانة على غير ميعاد ، لكي ترى أختها ، ولما لم تجدها ، سألت عن ابنة أختها .

وصرحت قائلة :

ــ كنت أفكر أنا نفسي بالمشاركة في هذه المظاهرة في عربة مغلقة ، ولن ننزل منها ، بطبيعة الحال . ففي أيام هذه المحنة ، أراني ميالة إلى .. بل إني بحاجة إلى الذهاب لأصلي مع شعبي ، ذلك أن هذه مظاهرة دينية .

فنهض خيري بك ، حالاً ، وانحنى لزائرته . وكان ثائراً لأنه فوجئ وهو غاضب . بل إنه لم يعد يعرف أبداً ، لِـمَ فارق سكينته المعهودة له . أفيكون ذلك لأنه أراد أن يؤكد سلطته على الطفلة ؟ أم لأنه ساءه أن يكون الاستيلاء على إزمير قد أثر فيها أكثر مما أثر فيه .

ولكن بمقدار ما كان الأمر يعني أن نصلي وندعو ، فإن القضية أصبحت من شأن النساء . وفي وسعه ألا يرى أنه معنيٌّ .

ــ ولكن هل أنت واثقة ، يا سلطانة ، أن هذه المظاهرة ستكون صلوات وأدعية ، وليست واحدة من هذه المظاهرات التي لا يمكن ضبطها ؟

ــ إني متأكدة يا داماد ، فقد اتخذت كل التدابير .

فيهز رأسه ، غير مقتنع .

ــ حسناً ، ستأخذين الطفلة . ولكن لكي نزيد من الاطمئنان ، خذي معك زينيل أيضاً . فلا يعرف المرء أبداً مع هذه الجماهير غير المثقفة ، ماذا يمكن أن يحدث . إذ لسنا في فرنسا !

ومسجد السلطان أحمد ، الذي يسمى « بالمسجد الأزرق » ، لأنه مستور الجدران بالخزف الزوردي ، إنما يقوم في وسط المدينة القديمة ، قريباً من قصر توبوكابي . ولا بد للوصول إليه من المرور بمتاهة من الأزقة الصاخبة ، الملأى بحوانيت لأصحاب الصناعات ، ودكاكين ، ومقاه ملأى بروادها من الصباح حتى المساء .

ولكن في يوم الجمعة هذا ، كان يخيِّـم على الناس نوع من صمت الأموات . فالمخازن مغلقة ، والنوافذ محجوبة . وفي كل مكان يخفق العلم العثماني . والسواري مغلفة بالسواد . وتتقاطر الجموع من كل زقاق . وتتجمع كلها في موكب طويل يتقدم ببطء ، ووقار ، ضارباً الأرض بقدم عنيفة ، جادة . وترى في الموكب أناساً من كل الأعمار ، ومنهم الكهول الذين يمشون بعناء ، ومنهم رجال نشيطون ، قد احمرّت عيونهم من كثرة البكاء . وهناك أيضاً جنود ، من مشوهي الحرب ، ممتلئو الصدور

بالأوسمة ، لا يكادون يحبسون دموعهم إلا بعناء . ثم إن أطفال المدارس ، بكامل الصفوف ، وضعوا على سواعدهم شريطة سوداء ، وعليها كلمة إزمير ، مكتوبة باللون الأخضر . فهنالك النساء ، بصورة خاصة اللواتي يلزمن البيت عادة ، ولكن في هذه المرة خرجن بالألوف . وكثيرات منهن رفعن الحجاب . وهن يمشين ، شاحبات اللون . والعيون تلمع بالتحدي .

وفجأة تظهر طائرات بريطانية ، تطير على بعد قليل من سطوح البيوت ، لكي تخيف الجماهير . ولكن عبثاً . فما من رجفة ، ولا من خوف ، بل كـلّ ما هنالك بعض بسمات الاحتقار ، وكأن الناس يقولون : فلتقتلنا هذه الطائرات . وأية أهمية لذلك ، إذا كانت بلادنا تدخل في مرحلة النزع !

وفي وسع الإنسان أن يلاحظ الحقد في العيون . ولكن الذي يلاحظ أكثر ، هو اللا فهم ، واليأس الذي يشعر به الإنسان عندما يتخلى عنه الناس جميعاً . فلقد خان القوم أولئك الذين كانوا قد وثقوا بهم . فلِم هٰذه الهجمات ؟ إذ لقد انتهت الحرب منذ سبعة أشهر ، ووقعت تركيا على اتفاق الهدنة ، وسلّمت السلاح ، وسرحت الجيش . وهي تنتظر ، « صابرة » ، أن يقرر المنتصرون في باريس أو لندن مصيرها .

أما السلطنة العثمانية ، فإن من المعروف أنها لم تعد موضع بحث : فلقد فقدت ممتلكاتها الأوروبية ، في البلقان ، وكذلك فقدت ليبيا ، والشرق الأدنى . ذلك أن الأشقاء المسلمين الذين عقد الأمل عليهم ، قد تخلوا عنا . وبدلاً من أن ينضم حسين إلى السلطان مليكه ، فإن شريف مكة العجوز هذا ، رفع لواء التمرد ، منحازاً ضد الباب العالي ، إلى طرف الإنكليز الذين وعدوه بإنشاء مملكة له .

ولقد كانت الكارثة كاملة . وكفت سبع سنوات للقضاء على أمبراطورية أسست خلال سبعة قرون .

« ويقول الناس الأميل إلى الفلسفة ، إن هذا ، أخيراً ، ليس إلا عودة سليمة إلى طبيعة الأشياء . فهذه الشعوب التي ملكنا عليها أمرها ، تستعيد الآن حريتها . أو هي تعتقد ذلك على الأقل . ذلك أن الانتداب الفرنسي ، والإنكليزي ، والإيطالي ، لن تكون أرحم من السلطة العثمانية المسايرة ، في استامبول . وستعرف ذلك عما قريب » .

ويتقبل الأتراك ، بشيء من الخضوع للقدر ، فقدانهم أمبراطورية بهذا الحجم ، هي خليط له من العادات والأعراف والمعتقدات ، ما يجعله غريباً عن الأتراك . ولكن الذي لا يحتملونه ، وهذا الذي

يجد الشعب أنه مستعد للحرب من أجله حتى الموت، هو ذلك العدوان على سلامة أرضهم نفسها؛ أي الأرض التركية، تلك الأرض المسكونة، والمزروعة، والمبنية من قبل الأتراك أنفسهم؛ أي من قبل فلاحي الأناضول الجفاة، أحفاد القبائل البدوية الكبيرة التي أتت من آسيا الوسطى في القرن التاسع.

أما الحلفاء الذين أسكرهم نصرهم، فقد أساؤوا تقدير قوة المقاومة لهذا الشعب، الذي اختلط عليه أمره: وظنوا أن كل شيء مسموح لهم. وفي الواقع فإن لويد جورج، الوزير الأول، البريطاني، هو الذي قبل، خلافاً للفرنسيين والطليان، مطالب الحكومة الإغريقية. وسمح لها بالاستيلاء على إزمير. والحقيقة أن إنكلترا تريد أن تشد اليونان إليها، لكي تجعل منها قاعدة أمنية في وسط هذا العالم الإسلامي، الذي لا يمكن التنبؤ بما سيصدر عنه، والذي يخفي، فيما يقال، ثروات نفطية ضخمة، كما أنه يفصل هذه البريطانيا عن ممتلكاتها في الهند، جوهرتها المكنونة.

لكن العربة لا تتقدم، وتقرر السلطانة فطمة، أن تمشي هي وابنة أختها على الأقدام، مصحوبتين بزينيل. وقبلت سلمى فوراً، بفرح. فهي تخجل من أن تبقى قاعدة تشاهد كل هؤلاء الناس الذين يمشون، ويمشون، كما لو أن عليهم ألا يقفوا، وكما لو أنهم كانوا يستعدون إلى الذهاب، الآن، ومن هنا، إلى استعادة إزمير.

وأخيراً يصلون إلى مسجد السلطان أحمد، الذي بدا أسود من كثرة الناس. ولكن أحداً لا يسمع صوتاً، ولا ضجة ـــ فيما عدا خفقان الأعلام في الهواء.

وفجأة، ومن علياء مآذن المسجد الأزرق، كان الأئمة في لباسهم الأسود يطلقون الدعوة إلى الصلاة: «اللّٰه أكبر». وعندئذٍ، يعود إليهم الأذان من الهضبات السبع، كما لو أنه الصدى: «اللّٰه أكبر». وكان ذلك كما لو أن سماء استامبول، قد اهتزت، فجأة، والتهبت بالصلاة وكررت مئات الألوف من الصدور المخنوقة كلمة «الله أكبر»، إرحمنا يا رب، تكراراً مخنوقاً بشهقات البكاء!.

ولم تعد سلمى ترى شيئاً. كانت الدموع تجري على خديها. وتكاد تختنق. أمن التعاسة، أم من السعادة؟ إنها لا تدري. فما من مرة قبل الآن شعرت بمثل هذا الاضطراب العميق في صدرها. وكأنما شعرت أنها لم تعد سلمى مطلقاً، بل هي جزء من هذا الجمهور الذي تحس أنها تنصهر فيه، وتتفجر، وتموت. ومع ذلك فإنها تحس بأنها أكثر حيوية من أي يوم مضى.

ووقفت سيدة نحيلة شابة على منصة ، ارتجلت ارتجالاً . وتنظر إليها سلمى كما لو أنها في حلم . وهي لا تضع حجاباً ، ولكنها ترتدي ثوباً أسود . وبصوت منفعل ، بدأت بإعادة ذكرى إزمير إلى الأذهان ، إزمير ، تلك المدينة الهادئة والمخضوضرة ، حيث عاش الأغارقة والأتراك ، قروناً وقروناً ، في أحسن التفاهم ، رغم اختلافهم بعضهم عن بعض . وكان لا بد من هذه الحرب ، على ما تقول ، ومن مؤامرات الأجنبي ، لكي يقوم كلٌّ من هذين الطرفين ضد الآخر .

ــ وإنه لسهل جداً على المحرضين أن يؤججوا الأهواء ! يكفي أن نحرق كنيسة ، أو أن نقتل مسلماً ، وفي الحال تعود المخاوف المتوارثة . والأحقاد القديمة ، التي كان الناس يظنون أنها نُسِيت ، بقوة مخيفة ، أما أولئك الذين يفهمون المناورة ، ويحاولون تجنب المأساة ، فإنهم لا ينجحون في إسماع صوتهم ، وينتهون إلى إغلاق أفواههم ، خوفاً من أن يتهموا بالجبن والخيانة .

« فاعلموا ، يا أصدقائي ، أن الاستيلاء على إزمير ليس إلا بداية تقسيم بلادنا تركيا . فالإغريقي فينيزيلوس ، يطالب بكل البلاد التي تحيط ببحر إيجة ، وكل جزرنا ، وحتى بعاصمتنا استامبول . فماذا سيبقى لنا من بلادنا ؟ أبعض الأراضي الصحراوية في وسط الأناضول ، أم مجرد محافظة مراقبة من كل الأطراف : أو قل لا شيء » !

« ترى أنحني الهامة ؟ يا أخواتي ، ويا إخوتي ؟ أجيبوني : أنقبل هذا النوع من القتل ؟ » .

ومدَّت ، وهي محطمة من الأسى ، يديها نحو الجمهور اللاهث . فإذا نحن أمام زمجرة واسعة . كأنها الرعد القاصف المتتابع . وإذا بأغنية عميقة تنطلق من طرف الساحة إلى طرفها الآخر : « كلا ، كلا ، لن نقبل ، وسننقذك ، يا تركيا الجميلة ، يا تركيا الحبيبة ، يا تركيا ، خطيبتنا الصغيرة ، يا تركيا ذات الأثداء الملأى بحليب أمنا ، تركيا ، طفلتنا الضعيفة اليوم ، ونقسم لك على هذا ولن ندعك أبداً تموتين » .

ــ وتسأل سلمى ، وعيناها حمراوان من البكاء ، داخل العربة التي تنقلهم إلى القصر : ترى من هي هذه السيدة .

وتجيبها خالتها قائلة :

ــ إنها خالدة أديب الكبيرة ، وهي كاتبة شهيرة ومتحمسة ، ومدافعة عن حقوق المرأة . فكم عرفت كيف تهز هذا الجمهور . وكم هو مؤسف أن يكون لدينا القليل من الرجال مثلها !

وقطبت البنيّـة الصغيرة، حاجبيها وهـي منطويـة على نفـهسا. وهكـذا كانت امـرأة تستطيع... وقليلاً فقليلاً تألق وجهها. إنها ستكون على هذا النحو فيما بعد. فبلادها، وشعبها، إنما تعيش هي من أجلهما.

وعرفت سلمى هواها.

٨

وعندما عادت سلمى من المظاهرة، تلاقت مع أخيها خيري. فتخبره، وعليها سمات الجديّة:

ـــ لقد تقرَّر، أن نمضي جميعاً إلى الحرب، حتى النساء والأطفال.

ـــ فيفتح خيري عينيه بقوة، إذ ليست لديه أية رغبة في الحرب. ولكنه مع ذلك لا يقبل بذلك أمام بنت. ويتخذ سمات من لا يهتم بالأمر أبداً، ويسأل:

ـــ متى سنسافر؟

ـــ اسكت. فما لإنسان أن يعرف ذلك. إذ إن السلطان يناقش هذا الأمر مع وزرائه..

ولا تحسب سلمى أنها تكذب، بل هي تستبق الأمور قليلاً. إذ يبدو لها بديهياً، بعد ما رأته في ساحة السلطان أحمد، أن الأتراك سيمضون إلى استعادة إزمير. وليست المسألة إلا مسألة أيام. ومضت بعزم، لتسبق خيري وتصل إلى أبيها، حتى تنقل له الخبر.

وكان الداماد مستقراً في القاعة الأمبراطورية، حيث يستقبل بعض الأصدقاء، وبعض زملائه من وزارتي الخارجية والمالية. فيستقبلون سلمى استقبالاً باشاً، وهم يعرفونها جميعاً. فهي كثيراً

ما تنطلق إلى جناح خيري بك. ذلك أنها ما تزال أصغر مما يجب لكي تخضع لسجن الحريم. فيخاطبها أبوها قائلاً:

ــ وإذن، أيتها الآنسة الوطنية. كيف كانت هذه المظاهرة؟

ولما كانت تعي النظرات المثبتة عليها، فإنها بدأت تروي ما حدث بكل عناية، دون أن تهمل أي شيء من التفاصيل. وعندما وصلت إلى حديث خالدة أديب ودعوتها إلى النضال، بدأ هؤلاء السادة يضحكون.

ــ وفيم تتدخل هذه المطالبة بحق الانتخاب للمرأة؟

ــ وهل طلبت إلى النساء أن يذهبن إلى الجبهة بالحجاب، أو بغير الحجاب؟

فسكتت سلمى، مجروحة. ولكن الحاضرين لم يعودوا ينتبهون إليها، وعاد القوم إلى الحديث فيما كانوا فيه من قبل.

ــ إذا أنا قلت لكم ان الشعب بلغ أشد الإرهاق! وإنه لن يمضي أبداً ليحارب؟ أو تعرفون كم كان عدد الهاربين من الجيش في تموز / يوليو / عام ١٩١٨. كان خمسمئة ألف. ولا يمكن لوم هؤلاء، لأنهم كانوا يموتون من الجوع والأمراض. ولم يكن لديهم لا أحذية ولا ذخائر. وليس الموقف الآن بأفضل مما كان. فلقد تلفت المحاصيل على أرضها. والمجاعة قائمة في كل مكان. وصدقوني أن الشيء المهم ليس أن نلعب دور دون كيشوت، لكي نحاول استرداد إزمير، بل هو فلاحة الحقول. فإذا لم يحدث هذا، فإن من المؤكد أنه لن يكون هنالك تركيا غداً.

ــ ويجب الاعتراف بأننا أسأنا الاختيار. قال هذا ديبلوماسي، أنيق جداً في «بونجور» الريدنجوت الرمادي اللؤلؤي على ما تقضي به «الموضة». بيد أن الألمان كانوا يظهرون بمظهر من لا يُغلب! وأخيراً، فإنه لم يبق لنا الآن إلا محاولة التفاوض للوصول إلى أفضل معاهدة سلام، ممكنة. أما العودة إلى حمل السلاح، فذلك أحلام. والشجاعة الحقيقية هي أن نكون واقعيين.

وتنتبه سلمى إلى كل ما يقال. ومن يعرف أوضاع البلاد أكثر من أبيها، ومن أصدقائه. بيد أن الجماهير المتحمسة التي رأتها بعد ظهر ذلك اليوم، كانت تريد أن تحارب.

ولم تعد هذه البنيَّة تفهم شيئاً. وتشعر فجأة بأنها متعبة.

وها هي تلتف على نفسها في مقعدها . أما ضجيج المحادثة فإنه لم يعد يصل إليها إلا من خلال الصخب الغامض لجمهورٍ كان يردد القول : « إزمير ! اللهأكبر ! » .

ولكنها شُـدّت فجأة من نعاسها بصوت أجش . ذلك أن رحلاً قصيراً ، أقرب إلى السمنة ، كان قد وصل لتـوّه . وسأل الحاضرين .

ـــ هل تعرفون آخر خبر ؟ إن جلالته قد أرسل مصطفى كمال إلى الأناضول .

فتفتح سلمى عينيها جيداً ، وكانت الدهشة تقرأ على كل الوجوه .

ـــ إلى الأناضول ؟ ولكن لماذا ؟ هكذا سأل الحاضرون .

ـــ أما من الوجهة الرسمية ، فقد تم ذلك لتهدئة الأقسام الداخلية من البلاد . فمنذ نهاية الحرب ، كان الناس يتقاتلون كثيراً هناك ، أو بتعبير آخر ، كانت عصابات النهب تتكاثر . ثم إن المواطنين من ذوي الأصل الإغريقي ، الذين ترك لهم المحتل أسلحتهم ، يفرضون إتاوات على القرى التركية ، والجنود الأتراك الذين شكلوا العصابات ، يفرضون الإتاوات على القرى الإغريقية . وأكثر من ذلك أن الجنرال كره بكير ، صديقك ـــ وأشار بغمزة إلى ضابط شاب ـــ مجنون تماماً . إنه يتجاهل الهدنة ، ويأبى أن يُسـرِّح جنوده ، وأقام مقر قيادته في ارظروم ، ومعه ست فرق ! وقد انضم إليه بعض الجبليين ، وكذلك بعض أنصار أنور باشا وطلعت . والخلاصة ، إن الإنكليز غاضبون ، وهم يهددون بإرسال جيوشهم لإعادة النظام .

وهتف أحدهم قائلاً :

ـــ أترى هؤلاء الإنكليز في جبال الأناضول . إن أتراكنا ، سيأكلونهم بلقمة واحدة !

وتابع السيد القصير ، الذي هو موظف في وزارة الدفاع ، حديثه ، فقال :

ـــ إن السلطان يخشى أن يدخل الإنكليز إلى داخل البلاد ، فلا يخرجون بعد ذلك منها . ولهذا فقد تعـهَّـد هو بإعادة البلاد إلى السلم . وباعتباره خليفة المسلمين ـــ ذلك أنه لم يعد رئيس الدولة إلا باللقب ـــ فقد وعد الإنكليز بأن يقضي على الفوضى .

ويُـعرب السادة الحضور عن شكوكهم .

ـــ ولكن هل الإنكليز موافقون ؟

ـــ إنهم يريدونه أن يحاول . وليست لهم أية رغبة في قتل جنودهم . ففي إنكلترا سيكون هذا سيء الأثر على الناس ، ذلك أن الحرب انتهت !

ومنذ أن دار الحديث حول مصطفى كمال ، هذا الروز دور الذي يحمل الأميرات على الحلم به ، فإن سلمى استيقظت كل اليقظة . وهي الآن تتابع المحادثة بكل انتباهها .

ويسأل خيري بك : ما هي صلاحيات مصطفى كمال .

ـــ إن السلطان عيّنه مفتشاً عاماً للمنطقة الشمالية ، وحاكماً للولايات الشمالية . وله صلاحيات غير محـدّدة بدقة ، ولكنها بحكم ذلك يمكن أن تكون واسعـةً جداً . وهذا اختيار حسن . فهو بلا ريب ، بحكم سمعته كبطل ، الشخص الوحيد الذي يستطيع فرض احتـرام مقـررات العاصمة .

وقاطعه رجل شاحب اللون ، هو موظف كبير في القصر ، كان حتى الآن يبدو عازفاً عن المشاركة في الحديث ، قائلاً :

ـــ ياعزيزي ، إنك رجل ساذج . إن هذا أسوأ اختيار كان يمكن أن يقوم به جلالته . وعندما قدمنا له قائمة الجنرالات القادرين على السفر إلى الأناضول ، أوضحنا له أن كمال رجل طموح وماهر ، وأنه بدلاً من الانقياد للأوامر ، فقد يقف ، بالعكس ، على رأس التمرد . وأصر السلطان على اختياره .

ـــ وهذا بدقة ما يخشاه الإنكليز ، على ما اعترف به السيد الذي يعمل في وزارة الدفاع . فالقائد الرئيسي ، الجنرال مَيْـلن غاضب . وقد وقّع على تعيين مصطفى كمال معاونه ، لأنه كان في مهمة خارج العاصمة . وعندما عاد ، حاول إلغاءه ، لكن كمال كان قد سافر . وتصـوَّر أن الجنرال أرسل وراءه طوربيدات ؛ أي هذه السفن الحربية السريعة جداً . ولكن كان ذلك بعد أن فات الأوان . وطار العصفور بعيداً !

وانفجر الجميع ضاحكين للعبة الحلوة ، التي لعبت على هؤلاء الإنكليز العظماء .

وقال الرجل الشاحب اللون :

ـــ فيما بيننا ، يا محمد بك ، هل تحسب أن جلالته عهد لمصطفى كمال بمهمة أخرى غير

تهدئة المنطقة ؟ إن ذلك مخاطرة كبيرة : وتذكر أن المادة ٦ من الهدنه تقرر أنه في حالة التمرد ، يستطيع المحتل أن يستولي على استامبول نهائياً ، ويقصي على السلطنة .

ويتنهد محمد بك ، ويقول :

ـــ من يعرف بماذا يفكر السلطان . إنه شديد الكتمان للأسرار ! وكل ما أستطيع نقله إليك هو كلماته الأخيرة لكمال . وهي نفس الكلمات التي قالها لي أول مرافقيه العسكريين . وكان ذلك في نفس اليوم الذى احتلت فيه إزمير : « يا باشا ، أنت قمت حتى الآن بخدمات كبيرة للدولة . ولكن إنس ذلك كله . إن هذا من التاريخ الماضي . أما الخدمات التي ستقوم بها الآن ، فهي أعظم من كل الباقي . يا باشا ، إنك تستطيع إنقاذ البلاد[1] » .

وقطب الضابط حاجبيه .

ـــ ماذا يعني ذلك : « يمكنك إنقاذ البلاد » ؟ إنه يمكن تفسير هذه الكلمات بصورتين : أولاهما هدىء المنطقة أنت نفسك ، حتى لا يتدخل المحتل . أو : إجمع القوى التي تجدها في الأناضول ، وقم أنت على رأس حركة المقاومة .

ـــ الحقيقـة ، وسط بين التأويـلين ، كما هي الحال في كل الأشيـاء . وإن لي الشرف بأن يكون طبيب أسناني هو طبيب أسنان جلالته ، الذي يحب ، بعد جلسة التطبيب ، أن يتناقش مع هذا الجلاد العجوز . حسناً ، فهل تعرف ماذا يقول : « باشا الأسنان » ؟ إنه يرى أن جلالته يضع حديدتين في النار . فمن جهة أولى ، تراه يبدي أكثر المرونة تجاه المحتل ، آملاً أن يحصل على أفضل معاهدة صلح ممكنة ، ومن الجهة الأخرى ، لا يكون ضد قيام التمرد في الأناضول . ولهذا اختار بين عدد كبير من الجنرالات الأكفاء ، مصطفى كمال باشا . فجلالته يريد أن يبرهـن للمحتلين بأن الشعب التركي ليس بين أيديهم كلياً . وليس بالذي يقبل أن تفرض عليه الشروط كيفما كانت . فإذا اتسعت الاضطرابات في الأناضول ، فستكون دعماً ثميناً في مفـاوضات الصلح .

ويسأل موظف المالية ساخراً :

ـــ وعصب الحرب ؟ إن تنظيم أية مقاومة ، مهما تكن متواضعة ، يحتاج إلى المال . وأنا حيث

---

(١)   انظر اللورد كينروس : آتاتورك .

ينبغي لكي أعرف أن صناديقنا فارغة. فمنذ أشهر لا يتقاضى موظفو الدولة إلا نصف، وأحياناً ثلث أجورهم!

ويشير محمد بك، بلهجة من يريد أن يقول سراً:

ــ يقال إن كمال قد حصل على مبلغ هام من الليرات الذهبية. بل إن الجنرال مَيْلن قد دُهش بذلك، عندما لاحظ أن تركيا على حافة الإفلاس. وهو يريد ويحرص على أن يعرف من أين جاء هذا المبلغ. ويقال في البلاط ــ وليس لدي أي برهان على صحة ما يقال ــ أن حلالته باع، سراً، كل ما لديه من أحصنة عريقة، كي يستطيع أن يقدم لكمال ٥٠،٠٠٠ ليرة ذهبية.

وفي هذا المجلس يُتساقى الكونياك، على حين أن خادماً، يرتدي قفطاناً أزرق طويلاً، يمر على الحاضرين بما معه من «السيغار» وكـلٌّ من هؤلاء يشرد في أحلامه. فالمغامرة محفوفة بالأخطار، حقاً، ولكنها تستحق أن تجرَّب، حتى ولو لم يكن لها من نتيجة أخرى، غير رؤية ما سيكون عليه وجه الجنرال مَيْلن، التي لم تعد عجرفته محتملة. وفجأة ينتصب ذلك السيِّد، ذو «البونجور» الرمادي اللؤلؤي، ليقول:

ــ ولكن إذا كان كمال قد سافر إلى الأناضول، فماذا عن أمر مشروع الزواج مع صبيحة السلطانة؟

ويجيب الداماد، وهو يبتسم ابتسامة ناعمة.

ــ آه، الزواج ... حسناً، إن السلطان لم يقل، لا، ولكن صدقوني لن يقول أبداً: نعم. والحقيقة أنه لا يفكر بإعطاء ابنته المفضلة، لرجل مغرم، بهذه الدرجة، بالخمر، والنساء، لا سيما وأنه أسـرَّ إلى أقرب الناس إليه، بأنه لا شيء في العالم يحمله على قبول أنور باشا ثانٍ، يفرض عليه سياسته.

وتفكر سلمى وهي تعود إلى غرفتها وتقول: «مسكين هذا الروز دور «الوردة الذهبية»! وأنا الذي كنت آمل أن يصبح عضواً في الأسرة ....».

وظلت تفكر، وهي تعد أصابعها. فخلال خمس سنوات أو ست، ستكون في عمر تصلح فيه للزواج ... ولماذا لا يكون ...؟ وفجأة يظهر لها فاسيب Vassip ابن عمها، الذي طالما حلمت بالزواج منه، تافهاً. أما الروز دور، فإنه أكثر إغراءاً بما لا يقاس! لا سيما وأنه جنرال كبير، بطل.

وستساعده ، وسيدفعان بالعدو إلى خارج تركيا . وسوف تنظم النساء ، وستكون خالدة أديب ثانية !

ونامت سلمى ، تلك الليلة والابتسامة ملء شفتيها .

٩

إن أروع الإماء اللواتي يزيّـنَّ قصر خديجة ، هي غولفيليس ، بلا منازع . فهي ناعمة ، ممشوقة القوام ، صدرها عال . فإذا رأيتها ، بشعرها الذي يشبه لونه لون الحنطة الناضجة ، وعينيها الكبيرتين بلون العناقية Pervenche[1] ، رأيت النموذج المفضل للجمال الشركسي .

وكانت يتيمة في عمر الثامنة ، عندما اشتراها أحد التجار ، الذي كان يقـدّر أنه سيبيعها للقصر بسعر عال جداً . وكان يرى أنها خلال بضع سنوات ستصبح واحدة من نفائس الحريم . ولكنه قـدَّر ما قـدّر دون أن يضع في حسابه ثورة ١٩٠٩ . فعندما خلع السلطان عبد الحميد عن العرش ، وحَـلَّ أخوه من أبيه رشاد محله ، فإن الملكية المطلقة ، أصبحت ملكية دستوريـة . وكان بين أوائـل الإصلاحات المعلنة على يد رجال تركيا الفتاة ، الذين كانوا يحرصون على الحداثة ، إلغاء العبودية .

ففتحوا أبواب الحريم ، وأعلنوا ، في كل أنحاء الأمبراطورية ، أن في وسع العائلات أن تأتي لتبحث عن بناتها وأخواتها . وقلائل هم الذين تقدموا . ولكن عدداً قليلاً جداً من النساء الشابات ، وافق على ترك ظل القصور المذهب ، لكي يستعيد حرية بيت الفلاح المتواضع . ولما كن قد تعودن على الحياة الرفيعة المستوى ، والمؤنقة ، فإنهن كن يرتجفن إذا واجهتهن فكرة العمل ، والحياة البليدة العامية التي تنتظرهن هناك .

---

(١) جنس زهر من الفصيلة الدفلية .

وخلال بضعة أشهر ، وقبل أن تعُود الأشياء إلى مجراها الطبيعي ، كانت نقابة باعة الإماء ، قلقة جداً . وبولانت آغا ، سيد غولفيليس ، فضل المفاوضة السرية ، على المغامرة بالاتصال المباشر بالقصر .

وكان يعرف الخصيّ الأول لبنت السلطان مراد الكبرى ، تلك التي تزوجت حديثاً ، واستقرت في قصرها الجديد . وسرعان ما تمت الصفقة ، وكل من الرجلين كان مقتنعاً بأنه يقدم خدمة عظمى إلى اليتيمة .

وهكذا دخلت غولفيليس في حاشية خديجة السلطانة . وكانت أجمل من أن يفكر أحد بتعليمها فن الخدمة المنزلية ، أو بإيذاء عينيها بتعليمها الحساب . وقررت رئيسة الكالفات الكبرى أن تُعلّم الموسيقى والغناء ، وكذلك فن تنسيق الزهر . وشيئاً فشيئاً أصبحت خبيرة بتنسيق باقات كانت تفرح القصر كله ، وكسبت واحداً من أهم المقاعد في أوركسترا الحرملك ، ذلك أنها كانت تعزف بالقيثارة . وعندما بلغت السابعة عشرة من العمر أصبحت أجمل مما كان يتوقعه التاجر العجوز .

وكانت السلطانة التي كانت تؤثرها على غيرها ، كثيراً ما تراها تفكر : لئن دخلت في خدمة جلالته ، فيمكن أن تصبح إحدى محظياته ، ومن يدري؟ فقد تصبح زوجة له . ولكنها تستطيع أيضاً أن تبدّد في ذلك شبابها ، دون أن تُختار . ذلك أن السلطان كان قد أصبح كبير العمر ، وفي هذه الأيام ، كان ما يشغله هو السياسة ، لا النساء . ولكن بقاءها هنا ، في هذا العالم ، النسوي حصراً ، كان إهانة للطبيعة . ومن الطبيعي لمخلوقة في مثل هذه الروعة ، والتي أحسن خلقها للحب ، أن تجني ثماره . وعلى ذلك فقد كان يجب أن يبحث لها عن زوج .

وذات يوم ، عندما كانت تخرج من غرفتها ، اصطدمت سلمى بغولفيليس وهي غارقة في الدموع . فأقلقها ذلك ، وألحت عليها بالأسئلة ، ولكن الأمة الصبية ، المتعثرة باليأس ، عاجزة من الكلام . فانتهت البنيّة إلى الجلوس بجانبها وأخذت يدها . وعندما هدأت غولفيليس شيئاً فشيئاً ، مسحت دموعها ، وقالت :

ـــ إن السلطانة تريد أن تزوجني ، بلهجة حزينة بائسة .

وتذكرت سلمى القصص الحزينة التي كانت ترويها لها مرضعتها ، فغامرت بالسؤال :

ــ لعله كهل وقميء ؟

ــ كلا ، إن عمره لا يزيد على الثلاثين ، وهو وسيم ، لقد رأيته من وراء المشربيات .

وعندئـذٍ لم تعد تفهم الصغيرة . وقالت لها ، مشفقة

ــ لا بد إذن أنه فقير جداً ؟

ــ كلا . إنه غني ، وله وضع جيد في وزارة المالية ، بل إن الداماد أباك هو الذي أشار به على السلطانة ، ولكن . . .

وعادت تبكي ، وقالت :

ــ لا أريد أن أتزوج . فهنا بيتي ، وأسرتي . فـلِـم أتركها لأمضي إلى رجل غريب ؟

فتأثرت سلمى من قولها هذا ، وأحاطتها بذراعيها .

ــ لا تحـزني يا غولـفيليس . فأنا سأقول هذا لأيندجيم . وأنا واثقة أنها لا تريد أن تسبب لك ما يحزنك .

وكفارس يمضي ليحارب من أجل حسنائه ، مضت البنيّـة إلى أجنحة السلطانة .

ولم تكن السلطانة وحدها . فأمامها ، على السجادة ذات الزخارف الزهرية ، يُـرى ميميجيان آغا ، الصائغ الأرمني ، وهو جالس القرفصاء وسط علب للمجوهرات من المخمل ، من مختلف المقاييس .

فتناديها أمها وتقول :

ــ تعالي ساعديني يا سلمى

وسلمى تحب المجوهرات حباً جماً . فتقترب منها ، وعيناها متألقتان ، وتقرر أن تؤجل الحديث عن غولفيليس إلى وقت آخر .

فتقول لها أمها :

ــ إني في سبيلي إلى اختيار هدية لصبيحة السلطانة . إذ قد حُـدِّد أخيراً موعد زواجها .

وسعدت سلمى بهذا النبأ ، لأنها شديدة الحب لهذه القريبة ، الشابة . ولكنها تتساءل عما سيكون رأي مصطفى كمال الذي يقاتل في الأناضول . ذلك أنه ليس هو الزوج المختار ، بل هو خلافاً لكل التقاليد ، ابن عم لصبيحة ؛ أي أمير عثماني .

ولقد أقامت هذه القصة القصر وأقعدته : والقضية ، بما هي فضيحة ومتع ، قضية حب . والأمير عمر فاروق من أكثر رجال الأمبراطورية إغراءً . فهو طويل القامة ، أشقر ، بوجه ناعم وحازم ، وعينين زرقاوين مشدودتين إلى الصدغين . وله هيئة وأناقة يحاول عبثاً أن يقلدها كل شباب المجتمع الراقي . وكان ضابطاً من الحرس الأمبراطوري ، لملك بروسيا ، حليف تركيا . ولقد قضى مدة الحرب في ألمانيا على الجبهة الغربية . وعندما عاد إلى استامبول ، عيّـن مرافقاً عسكرياً للسلطان ، وهكذا تعـرّف إلى صبيحة الجميلة .

وكان ذلك مفاجأة سريعة . ذلك أن عمر فاروق ليس رجل التدابير الوسطى ، فصرح لأبيه أنه سيتزوج هذه الفتاة ، أو أنه سينتحر . وكان كل من حوله يعرف أنه سيفعل .

ولكن السلطان لم يكن موافقاً على هذا الزواج . لأنه يقلب القاعدة التي تقضي بأنه لا يتزوج أعضاء الأسرة العثمانية فيما بينهم . وقد أصبحت هذه القاعدة معمولاً بها في القرون السابقة ، بعد ملاحظة الانحطاط ، الذي أصاب الأسر المالكة في أوروبا . وبصورة خاصة ، لأن فرعي الأسرة لم يكونا على ما ينبغي من الود منذ مات السلطان عبد العزيز ، الذي يؤكد أولاده أنه قتل خلسة ، بمؤامرة من فرع السلطان عبد المجيد . وهكذا فإن هوى عمر بصبيحة ، كاد يصبح درامة مونتيجو ـــ كابوليه ، على الصورة التركية .

ولقد انتظر البلاط شهرين ، بقلق بالغ ، قرار السلطان . وتناسى الأمير عبد المجيد ، الذي لا ولد له غير عمر فاروق ، تناسى كرامته وأحقاده ، وأكثر من زياراته للقصر . وأخيراً فإن السلطان تسامح مع ابنته ، لأنه كان يريد سعادتها . وكان يفكر فوق ذلك أن الأحوال الصعبة ، التي تمر بها الأسرة الحاكمة تقتضي منها الاتحاد . وبطبيعة الحال فإن زواج فاروق بصبيحة سيضع حداً لخصومة مضى عليها أكثر من أربعين سنة .

وكانت سلمى الجالسة وسط هذه المجوهرات ، التي تعرفها جيداً ، لأنها طالما رأتها على أمها ، مترددة في اختيارها : فهي تريد لصبيحة ، أجمل الحلي ، ولكنها تعرف أيضاً أن الفتاة لا تحب الحلي الثقيلة الأثيرة لدى من هن أكبر سناً . وانتهت أخيراً باختيار عقد من الزمرد على شكل النفل ذي

الأربع وريقات ، تناثرت فيه قطع من الماس تصوِّر حبات الندى ، ومعه إكليل ، وحلق ، وأساور ، عليها ذات النوع من الزخرفة .

وتهتف السلطانة قائلة :

ـــ عظيم ما اخترت ، فهذا يلائم كما ينبغي لون بشرة صبيحة الرقيقة . والآن قولي لي ما هما المجموعتان اللتان تحبينهما أقل من غيرهما ؟

وبعد بضع دقائق من التردد . أشارت سلمى إلى علبتين : في إحداهما تلمع قطعة حلي تجمع بين الياقوت الأحمر واللؤلؤ ، أما في العلبة الأخرى ، ففيها عقد طويل من أحجار الفيروز ، ومعه سوارتان وخاتم ضخم .

فقالت الأم :

ـــ حسناً يا ممجيان آغا ، وهي تضحك . كان من الصعب عليّ أن أقرر ، ولكن إصبع البراءة قدَّم حكمه . أما التفاصيل فناقشها مع زينيل .

وعندئذٍ يقدِّم « الجواهري » مباركته ببعض الكلمات . ويمسك بالعلبتين ، ويدخلهما في حقيبة من الجلد القاتم . ثم قدم تحياته ، وودَّع الأميرة ، مستأذناً بالانصراف .

وتنظر إليه سلمى وهو يخرج ، فلا تصدق عينيها .

ـــ أيندجيم ، لِمَ حمل مجوهراتك ، وأين هي التي اشتريتها اليوم ؟

والحقيقة أن زيارات ممجيان آغا ، التي تباعدت في الأيام الأخيرة ، كانت دوماً مناسبة لمشتريات عظيمة .

فشدت السلطانة ابنتها إليها ، ونظرت إليها بوقار .

ـــ يا سلمى ، إني لم أشتر شيئاً ... بل إني بعت المجوهرات التي أشرت إليها ... أترين ؟ فالحرب ثم الاحتلال ، جعلا الأشياء غالية جداً . ولدينا هنا ستون أمة يجب الإنفاق عليهن . وحقاً فأنا أستطيع أن أتخلص من نصفهم عدداً . ولكن إلى أين يذهبن ؟ وكثيرات هن اللواتي يقمن عندي منذ الطفولة . أما الأخريات فقد كبرن لدى أبي . وكن دوماً وَفيّات لنا . ولا يطاوعني قلبي في الاستغناء عنهن . ولهذا فأنا أبيع مجوهراتي . وعلى كل حال ، فإن لدي الكثير منها !

ـــ ولكن إذن ، يا أيندجيم ، نحن فقراء .

وشعرت سلمى بأنها مسحوقة . إذ لقد رأت في الطريق أطفالاً ، شاحبي اللون ، كانوا يبيعون شرائط الأحذية ، وخيطاناً ودبابيس ، موضوعة في علبة من الكارتون ، مربوطة بأعناقهم . وقالت لها الآنسة روز إن هؤلاء « فقراء صغار » . فأعطتهم بعض قطع النقود وابتعدت عنهم بسرعة ، خجلاً من نظراتهم الطامعة والحزينة ، التي كانوا ينظرون بها إلى ثوبها الجميل ، وخصل شعرها المعتنى بها . وقد آلت على نفسها أنها لن تكون أبداً ، أبداً فقيرة . وبعد قليل ، اطمأنت وهي تفكر أن الإنسان يولد إما غنياً ، وإما فقيراً ، كما يولد أبيض أو أسود . وأن العالم مقسم على هذه الصورة ، وأنها ، لحسن الحظ ، في الطرف الأفضل .

أما الآن ، فإن حديث أمها يغرقها في مهاو من المخاوف : فعندما تزول المجوهرات ، أيكون عليها عندئـذٍ أن تذهب لتبيع الدبابيس في الطرقات ؟

وتطمئنها أمها قائلة :

ـــ ولكن لا ، أيتها الحمقاء الصغيرة ، فنحن لسنا فقراء . وبالمقابل فإن حولنا عدداً يتزايد من هؤلاء . ولهذا قررت منذ الغد أن أصنع « فقرا مين تشور باسو » أي حساءُ للفقراء .

لكن سلمى تجهل ماذا عساه أن يكون حساء الفقراء .. وبالمقابل فإنها تعرف أنه سيكون هنالك غداً ، استقبال كبير في قصر ضولمة باهتشه ؛ إذ يحتفل بأول عيد سنوي لجلوس السلطان على العرش . ولقد قضت ساعة لاختيار الثوب الذي سترتديه .

وتقول لأمها ، قلقة :

ـــ أيندجيم ، هذا الحساء ... سيكون قبل أو بعد الاحتفال ؟

ـــ لن يكون هنالك احتفال ، إذ إن جلالته يرى أن البلاد التي خربت واحتلت ، لا مجال فيها لأن يتمتع الإنسان بالهناء . ولقد ألغى كذلك الأسهم النارية ، والإضاءات وضربات المدافع ، التي تطلق عادة بمناسبة عيده السنوي . وهذا المال الذي يُوَفَّر ، سيساعد على تخفيف بعض ألوان الشقاء . ومنذ الآن لن نحتفل إلا بالأعياد الدينية .

وشعرت سلمى بخيبة الأمل ، فخفضت رأسها . وكانت قد أملت بأن ترى ابن خالتها

فاسيب . وهي لا تريد أن تُحمّله الأسى . ولكن يجب أن تصارحه بقرارها في الزواج من روز دور . وبمناسبة الزواج ، خطر في بالها سؤال يجب أن تسأل أمها عنه ...

ـــ أيندجيم ، غولفيليس بائسة جداً ، إنها لا تريد الزواج . أفلا يمكن الإبقاء عليها معنا ؟

وبدا أن السلطانة قد فاض بها الكيل .

ـــ إنك الشخص الرابع الذي يحدثني عن غولفيليس ! وقد قررت أن أزوجها . وكذلك اثنتين أو ثلاثاً من أجمل إمائنا . وأنت أصغر مما يجب لتفهمي . ولكن اعرفي أن هناء المرأة ، هي أن يكون لها زوج وأبناء . وستجهز غولفيليس بصورة جيدة ويمكنها أن تأتي لترانا متى أرادت . فإذا انقضت عليها بضع سنين أخرى ، كبرت ، فلا يؤمل أن نجد لها زوجاً مناسباً . وأنا قد لا أكون موجودة لأساعدها .

« لا أكون موجودة ؟ » . ولماذا يكون على مجرى الأشياء ، أن يتغيّر فجأة ؟ إن سلمى لم تعد تفهم شيئاً من كلمات أمها . ولكنها ترى أن من الأناة ألا تكثر في الإلحاح . وأصلاً ، فإن السلطانة قد نهضت ، ومضت ، ومعها كالفا ، إلى الحمام .

وفي اليوم التالي ، جاء عدد صغير من الخدم ، وهو يقاوم الهواء البارد جداً ، الآتي من البحر الأسود ، ليعمل أمام شباك القصر العالية . وكانوا قد حملوا معهم صفائح خشبية عريضة ، وبدؤوا يثبتونها بعضها على بعض ، ثم يضعونها على مناصب أو حوامل . وهكذا فقد أنشؤوا طاولتين بصورة سريعة . وغطوها بقماش رمادي اللون . ثم وصل تباعاً جملة من التابلكار ، وهم خدم يحملون على رأسهم صواني عليها أوان كبيرة من القصدير ، وضعوها على الطاولات ، إلى جانب سلّات ملأى بقطع ضخمة من الخبز .

لكن هذا الإعلان عن كرم السلطانة ، سرعان ما انتشر ، في الحي ، وما كاد مساعدو الطباخين يصلون ، محمّلين بقدورهم ، حتى كانت المجموعات الأولى من الناس قد وصلت ، وبدأت تتقدم خجلة . ومنعاً لوقوع أي حادث ، أمرت السلطانة أن يخدم الرجال على طاولة ، والنساء والأطفال على طاولة أخرى . بيد أن سلمى على أكبر دهشة منها ، منعت من النزول ، وهي تشاهد المنظر ، متخفية في زاوية الشرفة . ولم يكن هناك تزاحم بين القادمين ، وكل ما كان هو بعض صور الاستغراب القلقة من القادمين الأخيرين . لكنهم سرعان ما يطمئنون ، عندما يلاحظون أن

خدام الموائد يعـوّضون عن الأطباق الفارغة، بحسائيات، مملوءة حتى أعلاها بكمية كبيرة من الخضار ذات الرائحة الذكية ومعها قطع لحم شهية .

وكان شحاذو استامبول الخالدون، يأتون بأعداد كبيرة، ولكن سلمى لاحظت حضور الكثير من الجنود، بثياب الجندية المرقعة . ومنذ أن سـرِّح الجيش، قبل سنة من ذلك التاريخ، كان هؤلاء مشردين، بلا مال، ولا عمل، في هذا البلد الذي هدمته ثماني سنوات من الحرب المستمرة (هي حرب البلقان، ثم الحرب العالمية الأولى) . ثم إن بينهم لاجئين من داخل البلاد، يعرفون من نوع ثيابهم . إذ لقد تركوا قراهم، التي نهبت من قبل عصابات وطنية، إغريقية أو أرمنية، تريد أن تبرهن «للحلفاء» أن العيش مع الأتراك مستحيل .

ثم إن هناك... الفقراء الجدد، الذين يعرفون من ثيابهم النظيفة، ومن سيماهم القلقة . وهؤلاء صناع، أو مستخدمون صغار، كانوا حتى الحرب، يكسبون حياتهم بصورة متواضعة . أما اليوم فإنهم فقدوا عملهم، تبعاً لإفلاسات عديدة أو لخراب بعض المعامل النادرة . لكنهم استنفدوا وفوراتهم . وأمام ارتفاع الأسعار التي زادت من حدتها سوق سوداء معـمّمـة . وجدوا أن يستعينوا بالإحسان العام . وهؤلاء هم الذين تتألم سلمى عليهم أكثر من غيرهم: إذ إنهم يبدون متضايقين أشد الضيق من وضعهم وينظرون خلسة إلى الجهات المختلفة، حتى يطمئنوا بأن أحداً من معارفهم لا يرى ما صاروا إليه من الانحدار .

ولما انتهى توزيع الطعام، بدأ الخدم بفك الخشبات والركائز (أو الحوامل)، وحينئـذٍ رأت سلمى رجلاً يمسك بيده بنتاً صغيرة . كان هذا الرجل طويلاً جداً، وقد ارتدى بنطالاً واسعاً وقميصاً من القماش الرمادي، على طريقة الموجيك . وعندما اقترب من مساعد الطباخ، طلب منه بلغة شبه تركية، ما إذا بقي له قطعة من الخبز .

وأجابه هذا:

ـــ كلا! فقد انتهى الأمر اليوم، دون أن يعيره أية نظرة . ولماذا لم تأت في الوقت المناسب؟ إنه ليس لك إلا أن تعود غداً!

وترى سلمى الرجل يهز رأسه، ويستند إلى الـشبـاك . ويبدو وكأنه على وشك أن يفقد الوعي . وبشيء من الجهد، يخرج من جيبه حزمة من الروبلات .

ـــ أرجوك، إن هذا من أجل ابنتي الصغيرة . ذلك أنها لم تأكل شيئاً منذ يومين .

ونظر الخادم إلى الروبلات بعين ساخرة ، وردّ عليه متذمراً :

ــ وماذا تريد أن أفعل بمزق الورق هذه ؟ لقد قلت لك إن هذا انتهى اليوم . والآن إمض ، وإلا فإنني سأدعو الحرس .

فاصفر وجه الرجل لما تلقاه من شتيمة . فجمع قواه ، وتهيأ لمغادرة المكان ، عندما استوقفه صوت ناعم :

ــ انتظر أيها السيد !

وكانت سلمى هي التي تظهر ، قافزة على السلم بأسرع ما يمكن ، ووجهها محمر من الغضب ، فتنهر مساعد الطباخ قائلة :

ــ إحمل بعض اللحم والحلويات والجبن ، حالاً .

وأصيب الرجل برعدة ، وغاب عن الأنظار باتجاه المطابخ . وعندئـذٍ فقط ، اتجهت سلمى إلى محميها . كان للرجل وجه ناعم ، تؤطره لحية شقراء . وعيناه الزرقاوان تبتسمان .

ــ شكراً يا آنسة . وأنا أقدم نفسي : الكونت فالنكوف ، ضابط في سلاح الفرسان في جيش القيصر . وهذه هي ابنتي تانيا .

وحارت سلمى في أمرها . ونظرت إلى البنيّـة . ويجب أن تكونا من نفس العمر . ولكن الروسية الصغيرة تبدو شديدة الخجل ، ورقيقة جداً ، بحيث يظن أن سلمى أكبر منها بكثير .

وقالت سلمى :

ــ إنني سلمى السلطانة . تعالوا !

وفي الحديقة ، وعلى بضعة أمتار من شِباك الحديد ، هنالك كشك من المرمر الأبيض ، المحلى بالورود . حيث يستريح الزوار أحياناً قبل الدخول إلى القصر . وإلى هناك تقود سلمى ضيوفها . وما كاد الجمع يصل حتى ظهر الخادم . متبوعاً « بسفرجي » يحمل ما يكفي من الطعام لعشرة أشخاص . وكان واضحاً أن الخادم يريد أن يُصفح عنه . ولكن السلطانة الصغيرة ، غير مستعدة لنسيان خشونته . ولكن ماذا كانت تقول أمها ؟ لقد تذكرت . كانت تقول : إن الضعفاء متى ملكوا ذرة من السلطة ، أصبحوا مستبدين .

وكأن الضابط حزر أفكارها، فتدخل قائلاً:

ـــ دعي هذا الشخص المسكين. إنه لا يفهم حتى ما تؤاخذينه عليه. وكان، على كل حال، يطيع الأوامر عندما أنهى الخدمة، في الساعة الحادية عشرة.

فترتجف سلمى: ذلك أن التسامح الذي يعرب عنه الضابط، يبدو لها وكأنه أعلى درجات الاحتقار. وصحيح أنها كانت تسمع دوماً من يقول: إن الأرستقراطيين الروس يعتبرون أقنانهم كحيوانات.

وتجيب الروسي، وهي منزعجة منه:

ـــ إنه يفهم جيداً، أيها السيد.

وانتهى الأمر بهم جميعاً إلى الكلام بالفرنسية، التي يملكونها جميعاً. فيروي لها الضابط كيف أن آخر كتيبة قيصرية، يقودها الجنرال فرانجل Wrangel، سحقت في شبه جزيرة القرم، وأنه نجح في الوصول إلى سان بترسبورغ، حيث كانت زوجته وابنته تنتظرانه. ولكنه لم يجد إلا بيتاً منهوباً، مخروباً. وقصَّ عليه الجيران موت زوجته، التي قتلها «الحمر». أما الطفلة فقد كانت في أمان لدى خادمة قديمة كانت عندهما.

ـــ وكانت الصدمة مخيفة، هائلة، ذلك أني كنت مغرماً بزوجتي الشابة. وأردت الموت. ولكن الخادمة، أعادتني إلى الواقع عندما وضعت ابنتي بين ذراعيّ. ولقد وجدت لنا ثياب رعاة البقر، وبهذا النوع من التنكر، استطعنا القيام بمسيرة كبيرة، باتجاه الحدود التركية.

وفي أكثر من مرة كاد يفتضح أمر الكونت، لأن يديه البيضاوين، وأساليبه في التعامل كانت تلفت الأنظار. ولكن الفلاحين، إما بدافع الرشوة ـــ ذلك أنه أنفق خلال رحلته هذه، آلافاً من الروبلات ـــ وإما لأنهم كانوا متعبين من كل هذا الدم، ولأنهم أشفقوا على البنية. تركوه يمر حراً.

ولقد حكى عن الجوع، والعطش، والخوف... وسلمى تصغي إليه والدموع في عينيها. وسرعان ما أصبحت لا تسمع ما يقول: فلقد رأت نفسها في قصرها والنار تشتعل فيه، محاطة برجال يزأرون: «تحيا الثورة!». وأصابها الرعب مما تخيلت، فتنادي أباها وأمها، فلا يجيبها أحد. وعندئذٍ تفهم أنهما ماتا. وأنها أصبحت وحيدة. فتبدأ تركض وتركض على طريق لا ينتهي. وكان الرصاص يقرقع في أذنيها. وخلال كل هذا الوقت، ورغم مخاوفها، لم تكن تنقطع عن التساؤل: لم يريدون قتلها.

وبدأت تبكي بشهقات ضخمة . فتأثر الضابط من تعاطفها ، فيقطع حديثه ويقول لها :

ــ إن قلبك طيب ، أيتها الطفلة ، وسيرد لك الله إحسانك .

وخجلت البنيّة من هذا الوهم ، ومن أنانيتها ، فمسحت دموع عينيها . وقالت له :

ــ إنكم لا تأكلون شيئاً ، بعد أن لاحظت أنهما لم يمسا الطعام إلا مساً خفيفاً .

ــ لقد طال علينا الجوع خلال شهر كامل ، وقلما تناولنا الطعام ، فكأنما نسينا عادة تناوله .

ــ وإذن فستحملون كل هذا معكم !

وبإشارة منها ، غلّف الخادم كل هذا الطعام بقماش أبيض ، ووضعه في سلة من القصب .

ولكن سلمى تبقى مهمومة . فتسأل :

ــ ماذا ستفعلون الآن ؟

إن الله سيتدبر الأمر .

ــ الله ؟ وترسم سلمى بوجهها إشارة اللاقناعة . وتقول بدلاً من الله ، فإن من الأفضل أن تمضي لرؤية السلطانة . فتقول :

ــ انتظروني لحظة ، من فضلكم .

وعندما وصلت إلى البهو الصغير ، الذي كانت فيه أمها ، قوبلت بجفاف من ناحيتها .

ــ وماذا ، يا سلطانة ؟ إني أُعلَم بأنك تستقبلين الأجانب في جناح الحديقة ؟

ودمدمت سلمى كلامها وقالت خجلة :

ــ كنت أريد أن أكلمك عن ذلك ، أيندجيم ، ولكنهما كانا على وشك الموت من الجوع .

وتروي لها القصة كلها .

ــ أيندجيم . ألا يمكننا أن نساعدهما ؟

فعادت السلطانة إلى هدوئها ورقتها . وقالت :

ـــ إني أتمنى ذلك ، ولكن هناك مئة ألف لاجيء روسي في استامبول . وكذلك يأتي اللاجئون الأتراك من الأناضول ، والولايات الإيجية ، بالآلاف ، كل يوم وعلـيّ أن أهتم بهؤلاء أولاً . وإني لمتألمة من هذا ، يا بنيتي . ولكني لا أستطيع أن أفعل شيئاً أكثر من هذا .

وتقف سلمى مكبوتة : فهذه أول مرة ترى فيها أمها ترفض الإحسان . ولا ريب أن كل شيء ينقلب من السيء إلى الأسوأ .

وبكل هدوء وصمت ، قبلت يد السلطانة ، وجرت إلى غرفتها . وهناك اختارت أجمل ثوب عندها ، وأحذية نظيفة ملمعة . ولعبتها الكبيرة التي جاءتها من أكرانيا ، ثم مضت إلى حيث كانوا ينتظرونها .

وقبلت الروسية الصغيرة الهدايا بابتسامة فيها من الحزن ، ما جعل سلمى تشعر بانقباض صدرها .

ووقفت وراء الشباك ، تراقب ابتعادهما ، ابتعاد تانيا وأبيها . ويد الواحد في يد الآخر . ولكنها شعرت باضطراب كبير في نفسها ، من جراء عجزها هذا .

١٠

وفي صباح يوم ١٦/٣/١٩٢٠ ، عندما استفاق سكان الآستانة ، رأوا ما لم يُصدقوا فيه أعينهم : ففي ليلة واحدة ، تحولت بلدتهم إلى معسكر ضخم حداً . وكانت هناك مصفّحات خوب الشوارع ، وفي كل تقاطع طرق ، كانت هنالك مراكز فيها جنود مسلحون بالرشاشات . يرفسون الناس . أما مراكز الشرطة ، ووزارات الحربية ، والبحرية ، والداحلية ، ومحافظة المدينة ، ونادي الضباط ، فإنها كلها محتلة . وكان بعض الجنود الإنكليز ، الذين تساعدهم كتائب من العوركاس gourkhas الهنود يخيّمون في المحطّة ، والجمارك ، وعلى أرصفة غلطه . وحتى الحدائق العامة ، وجوانب مسرح « الحقول الصغيرة » ، كانت مفعمة بجنود « كثيري الشعر » معزّزين بكتائب من الخيالة . ثم إن كتيبة من السنغال تحيط بالسراي القديمة وتحاصرها ، كما أن هناك عناصر أخرى أقامت الحراسة أمام قصور كل الشخصيات الهامة . وفوق ذلك فإن دوريات مؤلفة من أربعة رجال هم دركي فرنسي ، وشرطي إيطالي ، وآخر بريطاني ، ورابع عثماني — يتبع هؤلاء وهو يجرّ رجليه جرّاً — احتلت الشوارع . وكانت بضربات من عصيّاتها تفرق أقل التجمعات شأناً ، على حين أن عناصر من الشرطة العسكرية تفتش البيوت ، وتوقف الأتراك ، الذين يشتبه بأن لهم صلة ما مع متمردي الأناضول .

أما الجنرال « تيم » المعروف بروتوكولياً تحت اسم السير شارل هارينجتون . قائد القوات البريطانية ، فقد استطاع إقناع السلطات الفرنسية والإيطالية المترددة جداً حتى ذلك الحين . بأن

الوقت قد حان لوضع حدٍ لمقاومة أهالي استامبول، تلك المقاومة الخفية، على كونها ناجعة.

وحقاً ففي كل ليلة تختفي أسلحة وذخائر من معسكرات الحلفاء، على كونها محروسة حراسة جيدة. ثم إن ضباطاً وجنوداً أتراكاً، يغادرون العاصمة للانضمام إلى جيش مصطفى كمال الصغير. ولكن ينبغي أن يُهيمَن على هذه المدينة الحرون. ولما كان المندوب السامي الإنكليزي قد ادّعى أنه اكتشف مؤامرة تهدف إلى ذبح كل الأوروبيين؛ فقد تقـرّر أن تخضع استامبول لاحتلال نظامي، بدلاً من ذاك الوجود العسكري الرمزي.

وحتى لا يخامر الشك أحداً في جديّة قراراته، فإنه أمر بوضع ملصقات كبيرة في كل الشوارع، كتبت فيها كلمة الموت بحروف سوداء. فالموت لمن يخبّىء عنده متمرداً. والموت لمن يسرق الأسلحة، والموت لمن يقدّم أية مساعدة، مهما كانت، لهذا الخارج على القانون المدعو مصطفى كمال.

لكن قصر خديجة السلطانة يظل في غليان. فقد بعث بكل الخدم من الرجال لتسقّط الأنباء، بعضهم وراء بعض. فيعودون ومعهم تفاصيل مرعبة: فالجنود ينبشون حتى القبور ليبحثوا فيها عن السلاح، وقد قتل ستة عشر شاباً من البواقين، إذ اعتبرتهم سلطات الاحتلال من العسكريين. وأوقف عشرات من أعضاء المجلس النيابي، المعروفين بوطنيتهم، كان بينهم رؤوف باشا، الوزير السابق للبحرية، والأمير المصري سعيد حليم، وهو صديق قديم للأسرة. ومن المرجح أن يساق هؤلاء إلى مالطا، منفيين، وتبحث الشرطة أيضاً عن خالدة أديب التي تلهب بكتاباتها وأحاديثها الوطنية مشاعر الناس، إلهاباً خطراً.

وسلمى التي تصغي لكل حديث، تتذكر، بهيجان، تلك المرأة الجميلة، العاطفية، التي طالما جعلتها تبكي لدى قيام المظاهرة أمام مسجد السلطان أحمد. ولأول مرة تشعر أنها تكره كرهاً حقيقياً، كل هؤلاء الأجانب الذين يتصرفون، ببلدها هي، وكأنهم أسيادها.

ويأتي خصـيّ بالصحف. وهي كلها تنشر، في الصفحة الأولى ذلك البيان المشترك للمندوبين السامين، الإنكليزي والفرنسي والإيطالي. وهو يقول: «إن رجال المنظمة المسماة وطنية، يحاولون عرقلة الإرادة الطيبة الموجودة لدى الحكومة المركزية. ولهذا فإن قوى الحلفاء تجد نفسها مضطرة لاحتلال القسطنطينية احتلالاً مؤقتاً».

وتفكر سلمى وتقول في نفسها : «أي هوس في الاستمرار على إعطاء اسم مسيحي لهذه المدينة ، التي أصبحت منذ خمسة قرون تسمى باسم استامبول» .

«ولا يريد الحلفاء القضاء على سلطة السلطنة ، ولكن يُـريدون تعزيزها» . هكذا يقول البيان . وهم لا يريدون انتزاع القسطنطينية من الأتراك . ولكن إذا كان هنالك اضطرابات ومذابح ، فإن هذا القرار سيتغير على الأرجح . وعلى كل إنسان ، يجب أن يساعد على بناء تركيا جديدة ، على أنقاض الأمبراطورية القديمة ، أن يطيع السلطنة» .

وتكاد السلطانة أن تتميَّـز من الغيظ .

ـــ أإطاعة السلطنة ؟ أية مسـخـرة ! كما لو أن هنالك أحداً يمكن أن يجهل أن الباديشاه هو رهينة بيد المحتلين ، وأنه لا يستطيع القيام بأية حركة ، من غير أن يهدّدوه بالخلع ، وتسليم استامبول للإغريق !

وما من مرة رأت سلمى أمّها في مثل هذا الغضب . فتستنتج من ذلك أن الموقف يجب أن يكون خطيراً . ولعلها تحصل على إيضاحات أوسع لدى أبيها .

وهذا ، كما هي العادة ، يجلس في غرفة التدخين ، محاطاً ببعض الأصدقاء . وكأنهم جميعاً مصابون بكارثة . فوزاراتهم محتلة ، وعدد من زملائهم موقوفون . وكما هي الحال لدى السلطانة ، هنالك خدم يغدون ويروحون ، حاملين معهم آخر الأخبار .

ويندهش القوم .

ـــ ها ، إني لم أكن أعرف أن (س) هو كمالي أيضاً !

ـــ ربما لم يكن كذلك ، ولكن الإنكليز مستاؤون جداً ، من تسرب الأسلحة وسرقتها ، حتى أنهم ليتهمون كل الناس .

ـــ ليسوا على باطل . فاحزروا بماذا أجاب الحراس الأتراك ، حراس أكبر مستودع ، ذلك الضابط الإنكليزي الذي طلب إليهم إيضاح كل هذه السرقات من الأسلحة والذخائر . لقد أقسموا جميعاً أن المسؤولية تقع على الماعز ، التي ترعى في المرج ليلاً ، وتنطح الأبواب التي توجد عليها أختام الشمع ، فتحطمها . وشعر الضابط ألا جدوى من سؤالهم عما إذا كانت الماعـز هي التي تأكل أيضاً الذخائر .

ويضحك الجميع ملء أفواههم .

ــ ولكن هذا لا يمنع أن تعـزّز التدابير الأخيرة شعبية كمال . ومنذ هذا الصباح ، صار هذا المجنون ، محبباً لديّ .

ــ ولكن هل هو مجنون ؟ إن خيري بك يغضّن عينيه بهيئة الحائر . فجلالته ليس من هذا الرأي ، بل إن الإنكليز يشتبهون بأمر الباديشاه ، ويرون أنه يشجعه ، في الحين الذي يضحك عليهم لكسب الوقت ، ثم إن وزير خارجيتهم لم يشعر أن العلاقات بين مصطفى كمال ، وبين السلطان ، كانت حميمة إلى هذه الدرجة .

وفيما عدا الضرورة الحاسمة ، فإن أحداً لم يعد يغامر بالخروج . أما سلمى في زاويتها فتغلي من عجزها عن الصبر ؛ فالأمور تجري دوماً هكذا ، فمتى حدث شيء هام ، يحبسونها في البيت . ولا يعود هنالك أي مجال للحديث عن زيارات أثرية ، للإفلات من المراقبة : فباب القصر مغلق ، والمناقشة ممنوعة ، بل إن الفيضان الهائل من الزيارات التي لا تنقطع ، والتي كانت تنعش الحرملك ، حاملة إليه حصته من الأخبار والإشاعات اليومية ، قد انقطع . ويبدو أن الحياة قد توقفت .

ولقد حاولت الآنسة روز أن تسلّي البنيّـة ، مقترحة أن تحمل إليها بعض الأغاني الفرنسية . فأصابها من ذلك شر . ذلك أن سلمى وجدت في اقتراحها هذا مفرجاً لسوء مزاجها ، فصرّحت لها بأوضح ما يمكن أنها تكره الفرنسيين والإنكليز وكل هؤلاء الأجانب ، الذين يمنعونها من الخروج من بيتها .

وذات ليلة ، عندما كانت تتقلّب في فراشها ، مكرّرة مآخذها واتهاماتها ، سمعت صوت أقدام في الممشى . وبجانب غرفتها ، همس أحدهم بكلمة : أسكت . وبقفزة واحدة ، نهضت البنية . ولما فتحت باب غرفتها قليلاً ، استطاعت أن تلمح زينيل ، وفي يده مصباح ، يسبق شخصاً مغطى بجبة طويلة . ويتجهان ... نحو جناح أمها ! وعلى ضوء سراجها الليلي ، نظرت إلى المنبه الجميل الذي حمله إليها الجنرال الأمير ، من سويسرا ، ورأت أن الساعة هي الثانية عشرة والنصف . تُـرى من يمكنه أن يأتي لمقابلة السلطانة في مثل هذه الساعة المتأخرة ؟

وتركت غرفتها ، وقلبها يخفق ، وبدأ بالتلمس ، لاجتياز الممر . وهي مقسمة بين الفضول والخوف : والأفضل ألا تفكر بالعقاب الذي تنتظره ، إن هي اكتُشفت . وفي الوقت نفسه نراها

تؤنب نفسها : فماذا؟ أهي التي تحلم بأن تكون بطلة ، وأن توازي خالدة أديب ، ترتجف لمجرد التفكير بغضب الأم !

وتنفست بعمق ، وسيطرت على خوفها ، وتابعت السير . وفي آخر الممر ، ومن خلال ستارة البروكار التي تعزل البهو الصغير ، تلاحظ تسرب بعض النور . فتقترب ، وتسمع أنهم يتكلمون بصوت خفيض . فاختبأت بين طيات الستارة . وكشفت ما يكفي منها ، لكي تثبّت عينها . ولكنّ ما تراه يدهشها .

هنالك رجل ، ما يزال شاباً ، جالس على مقعد ، قريب من السلطانة : ويهمس وهو يريها بعض الأوراق ، التي تلاحظها بدقة . ومن حين لآخر ، يرفع رأسه ، وينظر فيما حوله ، كما لو أنه مزعوج . فتتفحصه سلمى . وترى أنه ليس من الأسرة ، وكأنه لم يحلق ذقنه جيداً ، والريدنجوت غير مكوي . ثم إنه ليس من أصدقاء أبيها . فمن عساه أن يكون؟ ولماذا تستقبله أمها في جناحها الخاص . حيث لا رجل آخر إلا زوجها ، أو أحد أفراد الأسرة ، له الحق في الدخول . وفي زاوية من هذا البهو نلاحظ زينيل ، وعيناه في الأرض ، وكأنه ليس مرتاحاً .

وفجأة تقف السلطانة . وتشير إلى الخصي . وتطلب من الزائر أن يتبعه . ولم يكن لسلمى إلا ما يكفي من الوقت للاختفاء بين طيات الستارة . فيمر الرجلان أمامها ، ويتجهان إلى السلم اللولبي الذي يمضي إلى الطابق الثالث . ولم يتوقفا ويستمران في الصعود . وتسمع صرير باب السقيفة الثقيل . وبعد بضع دقائق يعود زينيل وحده . وتندهش سلمى أكبر الاندهاش : أفتخبىء أمها أجنبياً ، في جناح القصر المخصص للنساء؟

وانطفأ ضوء البهو الصغير . لا بـدّ أن السلطانة مضت لتنام . وخلسة عادت الصغيرة إلى غرفتها ، مندهشة ، ومفتونة : وأخيراً فإن شيئاً ما يحدث في هذا القصر الكئيب ! أما في ذهنها المفرط التهيج ، فإن الأسئلة تتزاحم ، ولا تصل إلى جواب عن أي منها : فلئن كان هذا الرجل يختبىء ، فلأنه رجل سوء . ولكن ما الذي يجعل أمها إذن تحميه ؟ وهل ستحدث البابا في ذلك؟ لا بـدّ أنه سينظر نظرة سيئة جداً إلى استقبال الأميرة لرجل غريب ، في غيابه .

ولقد ذهب خيري بك لقضاء عدة أيام لدى أصدقاء ، في اسكودار . على الشاطئ الآسيوي . وقد أخذ يكثر من الذهاب إليهم في هذه الأيام ، بل إن سلمى سمعت الكالفات العجائز يدمدمن بأن هذا الوقت ، مع كل ما يجري فيه ، في المدينة ، ليس بالوقت المناسب لترك السلطانة وحدها .

وتنظر إلى المنبه : إنها الساعة الثانية فقط . فكم يبطىء الزمن في سيره ! ذلك أنها تتعجل مجيء الصباح لتسمع الأخبار .

وكانت قد بدأت تهدأ وتنساب إلى النوم ، عندما سمعت طرقات عنيفة تقرع الباب الخارجي ، مما جعلها ترتعد وتعود إلى اليقظة بعنف ، فتجري إلى النافذة وتلمح على أضواء الفناء الداخلي ، ثلاثة عناصر من الشرطة التركية ، يقومون بحركات كبيرة ، على حين أن حرس القصر يحاولون تهدئتهم . ويأتي بعد ذلك خصيان ؛ فتظن سلمى أنها تسمعهم يشرحون أن سيد البيت غائب ، وأن عليهما أن يرجوا رحيلهم مباشرة . ذلك أنهم موجودون ، في الناحية التي تسكنها النساء . فيعتذر رجال الشرطة ، ولكنهم يعلنون أنهم مضطرون للإلحاح : إذ قيل لهم إن شقياً خطيراً دخل إلى القصر . ولديهم الأوامر بالبحث عنه .

ووقف الخصيّان ، الشاحبا اللون أمام الباب ، وأعلنا عزمهما على الدفاع عن حرمهم ، على حين أن الحرس كانوا يترددون : ذلك أن مهمتهم هي حراسة القصر . ولكن ماذا يجب أن يفعلوا تجاه شرطة الدولة ؟

وفجأة يدوي صوت قوي ، ليقول :

ــ ماذا يجري ؟

كان صاحب الصوت هو السلطانة . فقد ظهرت على العتبة ، وكان على وجهها حجاب معتم يخفي وجهها نصف إخفاء .

وسألت عناصر الشرطة ، وهي تزنهم بعينيها ، وتقول : منذ متى أصبح المسلمون يقتحمون مدخل الحرملك ؟

لكن الضابط الذي يقود المجموعة ، والذي توقف لحظة ، ينحني لها ويقول :

ــ صدقي ، سيدتي السلطانة ، أنني أول المستائين مما أفعل . ولكن وجد من رأى مجرماً يدخل إلى بيتكم ، فأمر الصدر الأعظم الداماد فريد ، بالبحث عنه هنا .

وابتسمت السلطانة ، وعلى وجهها أمائر الاحتقار . وقالت :

ــ أهذا الرجل الألعوبة يجرؤ أن يأمر بشيء ! إعلموا أنه ليس لدي من أمر أتلقاه ، من أحد ، إلا من جلالته . فآتوني برسالة موقعة من الباديشاه ، وعندئـذٍ أحني الهامة لها .

لكن الضابط الذي حار في أمره ، تمتم قائلاً :

ــ ولكن يا سلطانة ...

ــ لا تلح أيها الضابط . فأنت لن تدخل . فذلك يمس بشرفي ..

ولما كانت تراه متردداً ، أمرت أحد حراسها بأن يعطيها مسدسه .

ومن شرفتها ، رأت سلمى رجال الشرطة قد أسندوا بندقيتهم إلى كتفهم ولكن قبل أن يُتاح لها الوقت لتصرخ ، تدخلت السلطانة قائلة :

ــ لا تخشوا شيئاً ، بلهجة هازئة ، فأنا لن أشهر سلاحاً على جندي تركي . ولكني ما دمت حية ، فإنكم لن تدخلوا أجنحة الحريم .

وكانت تلهو بالمسدس ، بصورة لا مبالية ، وهم ينظرون إليها : فلا يجرؤون على الفهم .

وعندئذٍ تضحك ضحكة باردة ، وتوضح :

ــ إن عليكم أنتم الاختيار . أيها السادة ، فماذا تفضلون ؟ أغضب الداماد فريد ، أم غضب السلطان عندما يعلم إلى أي درجة من التطرف أوصلتموني ؟

فلاح على وجه الضابط نوع من الإعجاب ، أضاء وجهه . إذ لم يحدث له أن التقى مرات كثيرة برجال من نوع هذه المرأة . ودمدم قائلاً :

ــ أرجوك يا سلطانة أن تسامحيني .

وبلهجة من فهم الموقف حق الفهم ، أضاف قائلاً :

ــ إني أعلم أن رجلنا هنا . ولكن حتى ولو أُنزلت رتبتي ، فلن أزعجك أكثر .

وغاب الرجل في ظلمة الليل ، ضارباً الأرض بنعليه .

وفي الصباح ، اندفعت سلمى نحو أمها . وكانت هذه جالسة أمام طاولة زينتها ، تقلّب بلا انتباه مجلة Chiffons ، مجلة الموضة الباريسية المشهورة ، على حين أن أمةً من إمائها تمشّط شعرها الطويل وسألت سلمى أمها :

ــ هل نمت جيداً ، أيندجيم ؟

ـــ على أفضل وجه يا غالية ، وأنت ؟

ـــ نمت نوماً سيئاً بما فيه الكفاية . إذ لقد سمعت ضجات غريبة .

لكن سلمى المتعطشة إلى معرفة الكلمة الفصل في هذه القصة ، قررت أن ترغم أمها على البوح بالسر . لكن ذلك كان عبثاً ، فبعد أن استغربت الأم قائلة : أحقاً ؟ بلهجة اللامبالاة الكاملة ، عادت إلى قراءاتها . ودارت سلمى أيضاً بضع دقائق في الغرفة . وعندما لاحظت أنها لن تحصل على شيء ، خرجت خائبة . وهكذا فإنه ليس لأمها ثقة بها ، وهي تعتقد أنها لا تكتم السر . ثم إنها ما تزال تعتبرها طفلة ، على حين أنها صارت في التاسعة . حسناً ، ستحاول استقصاء الخبر وحدها !

وكانت الساعة هي الحادية عشرة : والشيخ الذي يأتي كل صباح ، ليدرّسها القرآن ، اعتذر عن درسه . فأصبح لدى سلمى ساعتان من الحرية . فقالت للآنسة روز ، التي تقلق على برنامج عملها ، بأنها ستبقى في مكتبها الصغير ، لكي تدرس فيه الكتاب المقدس . وما كادت المربية تخرج ، حتى تركت هي الغرفة . وبعد أن اطمأنت إلى أن الممر خالٍ ، تسلّلت بسرعة إلى السلم ، الذي يؤدّي إلى السقيفة . وكانت تمشي على رؤوس أصابعها ، حابسة أنفاسها . ولكن بمقدار ما تجهد لتكون حركتها صامتة ، كان يبدو لها أن التلبيسة الخشبية القديمة للأرض ، كانت تزداد قرقعة .

وعندما وصلت إلى باب المستودع ، ترددت . فهل يجب أن تقرع الباب ؟ إذن سيكون ذلك أكثر تهذيباً . وأخيراً فقد سعلت بقوة ، ثم دفعت الباب بأكبر بطء ممكن .

وكانت السقيفة من الظلمة بحيث لم تميّز فيها شيئاً ، فتقدمت بحذر ، وخلال ذلك سمعت صوتاً جعلها ترتعد :

ـــ لا حركة . وإلا فإني أطلق النار !

وكانت عيناها قد تعوّدت الظلمة ، فحزرت وجود شكل غامض . يجلس القرفصاء على بعد عدة أمتار . وكان ذلك رجلاً يوجه مسدّسه باتجاهها . ولكن الصوت يرتجف ، ما من شك إذن ، أنه أكثر خوفاً منها ! فانتعشت بهذه الملاحظة ـــ وما من لحظة تخيلّت فيها أنه يمكن أن يطلق النار ـــ فتطمئنه سلمى بكثير من الشهامة .

ـــ لا تخف ـــ فإني لن أؤذيك أبداً .

وينظر إليها الرجل، حائراً. ثم بدأ يضحك عندما لاحظ غرابة الوضع. فاهتز جسمه كله بموجة من الفواق، جعلته يضحك ضحك من لا يريد التوقف عن الضحك. ولقد توقعت سلمى كل شيء إلا هذا الضحك، الذي يبدو على الأقل في غير محله، بالنسبة لشقي تبحث عنه الشرطة. وعندما توقف أخيراً عن الضحك، سأل القادمة:

ـــ من أنت

لا ريب أن اللاوعي ينضاف إليه سوء التربية. فكيف يسمح هذا الإنسان لنفسه أن يخاطبها بلا تكلف. فانتصبت البنيّة، وخاطبته قائلة بخبث:

ـــ أنا ابنة خديجة السلطانة، التي كنت لديها هذه الليلة.

وتتوقع هي أن تراه ينهار، ولكنه يكتفي بملاحظة خبيثة يقول معها:

ـــ وهكذا فقد كنت تراقبيننا، إني لم أعهد الأميرات في مثل هذا التجاوز على واجبات «السريّة».

وتفكر سلمى، وتقول: «أي رجل فظ!». ولكن المحادثة لم تتخذ المجرى الذي كانت تتوقعه. وبدلاً من أن تكون باحثة وحاكمة، وجدت نفسها في وضع المتهم. حقاً إن الأشخاص الكبار، لا يحتملون؛ فهم يرون أن كل شيء مع الأطفال مسموح به. وعليها أن تعود فتصبح سيدة الموقف. فتتخذ وضعها الأكثر قسوة وتقول:

ـــ إن الشرطة تبحث عنك. فلماذا؟ ومن أنت؟

فاتسعت عندئـذٍ بسمة الرجل، لتريق على وجهه بعض النور الذي يبرز في عينيه.

ـــ إن هذا تحقيق جدّي! ويسعدني أن أجيبك، أيتها الأميرة. فاتخذي لك مكاناً، واجلسي، أرجوك.

وبكل ما يستطيع من الاحترام المناسب لمقام الأميرة، يعيّـن لها كومة من الخرق، موجودة إلى جانبه، لتجلس عليها.

وتفكر سلمى: «إنه يسخر مني». ولكن هل تستطيع الآن أن تلومه على أنه يبدي بعض

المبالغة في الأدب واللياقة؟ ومن جهة أخرى، فإنها لا تريد أن تغضبه: فهي شديدة الرغبة في الاستماع إلى قصته. فتجلس بحذر، على حين أنه ينظر إليها بكثير من الانتباه.

ــ لقد أصبحت الآن ناعمةً بدرجة كافية، والله يعلم أنك كنت طفلة قبيحة.

وفي هذه المرة، تطرّف الرجل أكثر مما يجب! فاشتد احمرار وجهها حتى بلغ الجبين، وأخذت تبحث عن جواب لاذع. ويستعيد الرجل حديثه، دون أن يظهر عليه أنه لاحظ استنكارها:

ــ لقد عرفتك، عندما كان عمرك سنة واحدة. وكنت المرافق العسكري لخالك الأمير صلاح الدين. وبعد أن مات، مضيت أحارب في الجبهة القوقازية: وقضيت ثلاث سنين كالكابوس في حرب لم تكن حربنا...

وشعرت سلمى بأنها نسيت وجوده. فهو يتكلم بصوت منخفض وهي تجد صعوبة في فهم ما يقول.

ــ ولقد غلبنا، وتقاسم أعداؤنا الأمبراطورية. وهم الآن يريدون حذفنا من الخريطة، كما لو أن تركيا أصبحت شيطاناً يجب القضاء عليه بأي ثمن، خوفاً من أن ترفع رأسها ثانية. وخلال ثلاثة قرون كانوا يرتجفون هلعاً منا. واليوم يريدون الانتقام. ولكنهم مخطئون. إنهم يتجاوزون الحد وهم يرغموننا على مباشرة النضال الأخير؛ فبعد الآن ما من شيء سنفقده.

وتتساءل سلمى، لِمَ لا يستطيع الكبار أبداً أن يجيبوا ببساطة على أسئلة بسيطة؟

وبصوت صغير واضح، كررت عليه السؤال:

ــ إن الشرطة تبحث عنك. فماذا فعلت؟

فينظر إليها الرجل. إنها صغيرة جداً، فماذا عساها أن تفهم؟

وجال في خاطره أن يسألها هذا السؤال:

ــ أسمعت الناس يوماً ما يتحدثون عن الجنرال مصطفى كمال؟

ــ بطبيعة الحال.

فهل يعتبرها بلهاء؟

ـــ حسناً، فأنا أحد مساعديه، ومكلف بالاتصال بالضباط الراغبين بالانضمام إلى المقاومة في الأناضول. فأساعدهم على مغادرة استامبول، في ثياب تنكرية متنوعة، وبالطرق الآمن ما يمكن. ولكنهم علموا بأمري. والبارحة أحاط الإنكليز بالبيت الذي كنت أختبىء فيه. فاستطعت الهرب عن طريق الشرفات. ولما لم أكن أعرف إلى من ألتجىء، تذكرت أن الأمير صلاح الدين، كان يقول ان تركيا، بالنسبة لأمك، تعلو على كل شيء. فلعلها تؤويني عندها. وكنت أحسب أن الشرطة لن تجرؤ أبداً على الدخول إلى قصر السلطانة. ولكني أخطأت في هذا الظن. وفي هذه الليلة نجحت الأميرة بإبعادهم. ولكنهم سيعودون؛ فهم يعرفون أني هنا. وانظري!

ويرفع الستارة عن كوة إلى جانبه، في الحين الذي كانت فيه سلمى تتفحصه. ويشير إلى عشرة رجال من الشرطة، واقفين على مدخل الحرملك. ويقول:

ـــ هنالك مثل هذا العدد أمام المدخل الآخر. وهم ينتظرون الأمر باقتحام البيت. ويجب أن أغادركم بأسرع ما يمكن. ولكن كيف؟

وبعد بضع ساعات، خرجت مجموعة من النساء (بالملايات) السوداء، من الحرملك، باتجاه السوق، يحملن سلالاً كبيرة من القصب ويتناقشن بحماسة عن المكان، الذي يمكن أن يجدن فيه أفضل الخضار، والفواكه الألذ طعماً. ومن غير أن ينظرن إلى الشرطة، يمررن بجانبهم، ويأخذن أول طريق على اليمين، وهن يتابعن هذرهن.

ويعلق أحد رجال الشرطة قائلاً:

ـــ إن اللهأعطى النساء لساناً طويلاً كذنب الشيطان، ودماغاً ضخماً كحبة الأرز.

فضحك الجميع، باحتقار زاد فيه أنهم سيئو المزاج هذه المرة؛ إذ لقد قضوا صبيحة ذلك اليوم يواجهون الهواء الشديد البرودة، لكي يراقبوا الداخلين إلى القصر والخارجين منه. وعبثاً. فما من إنسان خرج منه إلا هذه المجموعة من العقاعق العجائز. ولكن كم من الوقت سيكون عليهم أن يبقوا خلاله هنا؟ إنه زمن طويل ولا شك، ذلك أن المسألة حرجة، والأميرة ذات الشخصية القوية، تهدد بأن تجعلها فضيحة، وهذا ما ترغب قيادة الحلفاء باجتنابه. ولكن أنى للإنسان أن يتنازل، من غير أن يصبح عرضة للهزء؟ وكان رجال الشرطة وهم يعضون على أسنانهم يستعرضون أفكاراً تعيسة.

أما مجموعة النساء فقد توقفت أمام أحد الرواقات، ليساعدن أكبرهن عمراً على إصلاح

ملاءتها (شرشفها) . وهن يخفينها بحشمة عن أنظار المارة . وفجأة ظهر ما يشبه الرجفان وسط هذه الحجب ، وانكشف رجل لا بـدَّ أنه أتى من داخل البيت . وعادت النساء دون أن يبدو عليهن أنهن أعرنه انتباهاً ، فحملن السلال من جديد ، وابتعدن وهن يضحكن ضحكات عالية . ويجتاز الرجل الطريق ، ويضيع بين المارة .

أما الرصيف فإنه أصبح من جديد خالياً . أما فوق الأرض ، وأمام الرواق ، فتقوم كومة صغيرة سوداء ، هو شرشف المرأة العجوز .

وبعد ثلاثة أسابيع ، تلقت سلمى بطاقة غريبة كُتبت عليها هذه الكلمات : « إن فأرة القبو عادت إلى مأواها وهي تشكر جنياتها المحسنات » .

ومن شدة فرحها طارت لتخبر أمها بالخبر السعيد . فرفعت هذه حاجبيها .

ـــ من أين يمكن أن تأتي هذه الكلمة الغريبة ؟ ليس لدي عنها أية فكرة ، ولا أنت طبعاً .

ونظرت إلى ابنتها نظرة المتواطئ ، وشعرت سلمى بأنها في منتهى السعادة : فهما منذ الآن ، تتقاسمان سراً حقيقياً ، هو سر ، إن صدقنا مدعيات المحتل ، قد يجلب الموت . وتفكر بخالدة أديب التي انضمت إلى المقاتلين الوطنيين في الأناضول ، ولديها الشعور بأن بطلتها تبتسم لها .

١١

كانت العربة تتقدم وهي تتهزهز على الطريق الترابية. **وفي كل لحظة يخشى الإنسان أن** تنقلب، ولكن في كل مرة أيضاً، كان السائق وهو يوقف بعنف أحصنته، **أو يضربها بقوة تخرج الدم** من جلدها، يعيد التوازن إلى العربة في آخر لحظة.

وفي الداخل، كانت سلمى، التي أسندت جسمها إلى خالتها، فطمة السلطانة، تضحك من فرط السرور. وإن هذا لأبعث على المسرة من الألعاب المنصوبة في حديقة القصر، أيام بيرم. وهذه المرة هي المغامرة الحقيقية: ذلك أن البنية وخالتها بعيدتان الآن عن مركز العاصمة، في ضواح شبه خالية. ولو وقع لهما حادث، فستضطران إلى قضاء الليلة بكاملها حيث هما. ومن يعلم، فقد تضطران إلى طلب المأوى، لدى واحد من هذه البيوت المتواضعة التي لم ترها البنيّة قط، إلا من بعيد، ولو أنها حَلِمت دوماً بالدخول إليها.

وكثيراً ما حاولت، خلال النزهات، أن تجر الآنسة روز إلى هذه الحارات الفقيرة، التي كانت تستهويها، ولكن الأمر انتهى بروز إلى الاستياء.

ـــ ماذا تريدين أن تري؟ الوساخة أو الشقاء؟ وفي وسعي أن أؤكد لك أنه ليس هنالك ما يدعو إلى المسرة!

وأمام هذا العنف اللامألوف لدى هذه الفتاة العانس، الكثيرة الصبر، **عادة، سكتت**

سلمى ، مندهشة : أما ما تريد أن تراه ، فهي لا تعرف ما هو بالضبط . ولكنها تشعر أن هناك ، بعيداً عن الشرنقة الفخمة التي كبرت فيها ، وأن في هذا الشقاء الذي يخيفها إلى هذا الحد ، يعيش الناس ، مع دلك ، حقاً . وكثيراً ما كانت خلال نزهاتها في المدينة ، تنظر من النوافذ المشبكة لعربتها المغطاة ، أطفالاً نصْف عراة يتبع بعضهم بعضاً وهم يصرخون . وهي تكاد أن تحسدهم . ذلك أن الألعاب العنيفة القاسية ، تغريها أشد الإغراء . وهؤلاء الأطفال يبدون لها أكثر إغراءاً من أبناء عمومها وأحوالها . حتى ليقال إنهم يتنفسون هواءً أكثر حيوية .

ولقد حاولت أن تشرح هذه المشاعر لغولفيليس التي أصبحت صديقتها . ولكن الأمة الشابة نظرت إليها ، وهي تفكر لتقول لها :

ـــ إن هذا هو العكس تماماً ، أيتها السلطانة الصغيرة . فليست الثروة هي التي تخنق الحياة ، بل هو الفقر .

ولكن سلمى غير مقتنعة . ولئن كان الأمر على هذه الصورة ، فَلِـمَ كانت عيون الأطفال الفقراء أكبر ، ونظراتهم أعنف من أبناء الأغنياء ؟

ولكن العربة تجري الآن على طريق مرصوف ، تحيط به أشجار السرو ، وعلى سلمى أن تقتنع ؛ فالحادث الذي سيقع ليس موعده اليوم . وتقترب العربة من الزاوية ، الذي هو غاية النزهة . ومن شدة الفضول لم تعد سلمى تستقر في مكانها . فهذه هي المرة الأولى التي تأخذها فيها خالتها إلى هذا المكان المقدّس ، الذي تزوره هي كل أسبوع منذ سنوات ، إذ إنه إذا كانت خديجة ، بين الأخوات الثلاث ، هي صاحبة العقل ، وفهيمة هي الفنانة ، فإن فطمة هي الصوفية . وعندما كانت في أول صباها ، كانت تقضي أياماً كاملة في التأمل والحلم ، في هذه النصوص المقدسة . ولكن زواجها هو الذي ثبتها على هذه الطريق . أما زوجها رفيق بك ، فإنه عضو في فرقة صوفية للدراويش الدوارين ، التي أُسّست في القرن الثالث عشر على يد جلال الدين الرومي . ولما كانت هذه الفرقة مفتوحة للنساء ، فإن فطمة بطبيعة الحال انخرطت فيها .

ومنذ أزمنة قديمة ، كانت تركيا ممتلئة بهذه الفرق الصوفية على ما قالته لسلمى . ويطلق على كل عضو فيها اسم الصوفي ، المشتقة من كلمة الصوف ، التي تعني ذلك القماش الأبيض الذي يرتدونه كعلامة على الطهارة ، والنقاء ، والعزوف عن هذا العالم . وهو عزوف لا ينفي العمل ، بل العكس ! ولقد حدثتها عن فرق الانكشارية ، هؤلاء الرهبان الجنود ، الدين كانوا ، خلال قرون يشكلون قوة الجيش العثماني . ولقد استؤصلوا تماماً في القرن الماضي على يد السلطان محمود . ذلك

أنهم أصبحوا كالهيكليين Temliers في فرنسا، جنوداً، أكثر مما هم رهبان. وكانت قوتهم تشكل خطراً يهدّد العرش.

وتصغي سلمى لحديث خالتها بانتباه. ولكنها لا تفهم جيداً معنى الصوفية، على أنها سعيدة لأن خالتها تراها كبيرة بالدرجة الكافية، لكي تحدثها هذه الأحاديث. إذ يبدو لها هذا، على كل حال أمتع من القراءة اليومية في القرآن التي ترغم عليها. وهي لا تعرف العربية وصوت الشيخ الرتيب يغريها بالنوم. ولكن لا سبيل إلى الخلاص منه. ويجب أن يقرأ القرآن بلغته الأصلية، على نحو ما أوحى به الله إلى نبيه محمد، إذ إن قيمة الكلام الإلهي، على ما هو مأثور، أعلى قيمة من العقل البشري، المحدود على كل حال.

وبالمقابل فإن سلمى طالما حلمت بأن ترى «هؤلاء الدراويش المشاهير، الدوارين». فهم أناس يصلون وهم يرقصون، في الحين الذي تعلمت هي فيه أن الرقص شيء غير سليم، وهي لا تنسى غضب أمها عندما فاجأتها ذات يوم، وهي تحاول ممارسة رقص البطن، بصحبة أمة صغيرة. وقد دفعت ثمن هذه الجرأة ثلاثة أيام من البقاء داخل غرفتها.

وبديهي أن رقص البطن ليس مناسباً، وبالتأكيد لن يمضي الدراويش... فتمنع نفسها من الضحك. وبالمقابل فإن البولكا والمربعيات أو الـ quadrilles، التي ترقصها الأميرات فيما بينهن، رقصات مقبولة جداً. وتحاول سلمى أن تتخيل أولئك الرجال «المقدسين» وهم يرقصون على آيات القرآن، على أنغام البولكا الخفيفة، وعندئذٍ تبدو لها الصوفية فجأة مغرية جداً.

وبعد أن اجتازت العربة شباكاً من الحديد المصنّع، توقفت في حديقة مظللة. وكان المنزل الخشبي المتواضع العائد للشيخ، يختفي تحت عرائش اللبلاب. أما بعد هذا البيت، ووراءه بعض الشيء، وفي مقبرة صغيرة، فتقوم فطمة السلطانة بلفت نظر ابنة أختها إلى عشرة قبور، تعلوها عمائم من الحجر المنحوت نحتاً دقيقاً. وهذه هي قبور الشيوخ القدماء. فوقفتا عندها لتقرآ الفاتحة على أرواح الموتى الذين دفنوا فيها. ثم تابعتا المشي في طريق تحيط به الورود. وفي الأخير تماماً، تنتصب التيكي Tekké[1]، وهي بناء جميل من الحجر تعلوه قبة خضراء. وهناك تتم الاحتفالات. وتخفت فطمة تحت شرشفها وغطت سلمى بوشاح طويل وأخذت بيدها نحو باب الزاوية، زاوية المعبد، الذي هو المدخل المخصص للنساء. ومن هناك أخذت السلم الضيق لتصلا إلى بهو دائري محاط بمشربيات، حيث يجد الإنسان نساءً من كل الأعمار، تغطيهن أغطية فاتحة اللون، وهن يقمن بعباداتهن، على سجادة الصلاة الخاصة بكل منهن.

(١) أو التكية، أو الزاوية بلغتنا نحن.

وقطبّت سلمى أنفها للروائح المنبعثة من كل ما هو مغلق ، ممتلئٌ بالعرق ، وأخذت تبحث بعينيها عن مكان حر ، عندما جاءت امرأة مكتنزة ، واندفعت لتقبل يد فاطمة السلطانة . إنها زوجة الشيخ وألحّت أن تأخذ الأميرتين إلى المكان المخصص للشخصيات المتميزة . وجربت فطمة أن تقنعها بأن لا حاجة لذلك ، وهي مستاءة ضمنياً من أن ترى التسلسل الاجتماعي يظل معمولاً به حتى في مكان كان يجب أن يستغنى عنه فيه . لكن مضيفتها لن تفهم ذلك بيسر ، وحتى لا تجرح مشاعرها ، قبلت ، متنهّدة ، هذا البعد الإرغامي عن الناس .

وكانت سلمى قد ألصقت وجهها بشباك الحديد ، لتتأمل من الأدنى إلى الأعلى ، بهو الاحتفالات ، وهو مقطّع بأعمدة من الخشب المحفور . وحوالي البهو ، ومن وراء درابزينات ناعمة ، كان يجتمع المؤمنون . وفي الوسط ، كان هنالك مكان واسع ، فارغ ، ينفتح على المحراب ؛ أي هذا النوع من الجدار الذي يشبه جزءً مفرغاً من أسطوانة كبيرة ، كرغبة لا ترتوي أبداً . وهو يشير إلى جهة مكة .

وفجأة يصبح الصمت أكثر كثافة . ذلك أن الدراويش قد ظهروا ، ملتفين بثياب بيضاء اللون ، غطيت بجُبُب سوداء ، كما غطيت رؤوسهم بطرابيش طويلة من نوع خاص ، صنعت من اللباد . وجاء الشيخ آخر من جاء . وانحوا جميعاً أمام المحراب ، في الحين الذي بدأ فيه إنشاد رتيب النغم ؛ إذ إن هناك مراهقاً ينشد أناشيد في مديح النبي ، مستمدة من قصيدة حب قديمة . ثم بدأ صاحب القيثارة ينشيء نغماً عنيفاً وواضحاً ، مقطعاً بضربات طبول .

وعندئذٍ يضرب الشيخ الأرض ، فيتقدم الدراويش ، ليدوروا ببطء ، ثلاث مرات ، في القاعة . وهذه المرات الثلاث تشير إلى مراحل الصعود الثلاث إلى الله : طريق العلم ، ثم طريق الحدس ، وأخيراً طريق الحب . فإذا انتهى ذلك خلعوا الجبب السوداء ، التي ترمز إلى القبر ، فيبدون عندئـذٍ بيضاً متألقي البياض . إنهم نفوس مطهرة ، تقوم بالدوران ، بصورة بطيئة أول الأمر ، ويدهم اليمنى مرفوعة إلى السماء ليستقبلوا المنن الإلهية ، واليد اليسرى متجهة إلى الأرض ، لكي ينقلوا بها هذه النعم إلى الأرض .

وفي هذه اللحظة ينضم الشيخ ليشارك في الرقص ، فيتسارع النغم ... فهو يُمثل الشمس بتألق علمه ، والآخرون من الدراويش يمثلون الكواكب ، التي تدور حول نفسها ، وحوله ؛ أي حول الشمس ، متّحدين بهذه الصورة مع قانون الكون . ويتسارع دورانهم أكثر فأكثر ، على الصوت النقي جداً ، صوت الناي . هذه القيثارة المصنوعة من القصب التي تروي ، لمن يريد أن يسمعها ،

قصة الأسرار الإلهية. إن كل كيانهم مستسلم، وموجه إلى مرحلة الحلول الصوفي؛ أي الاتحاد مع الحقيقة العليا.

وسلمى تتأملهم، وهي مسحورة بالموسيقى وبدوران الثياب البيضاء. فتحس بالحاجة الملحة لأن تدخل فتدور معهم، والانصهار في الرقص السحري. لكن عليها أن تبقى مختبئة وراء المشربيات. وفجأة تشعر بالحاجة إلى البكاء: كأن شيئاً أساسياً يجري الآن هنا، وهي عنه مستبعدة، فتنظر وهي في هذا العجز، إلى ما حولها. فالله بالتأكيد ليس في هذه الغرفة الخانقة، بل هو في هذا المعبد المضاء بأشعة الشمس التي تغيب، إنه مع هؤلاء الدراويش الذين يرقصون وهم سكارى من فرط السعادة.

وعندئذٍ تضم بقوة شباك المشربية، والدموع تكاد تعميها. إذ ليس لهم الحق في منعها عن التنفس، ولا الحق في نفيها عن الحياة!...

وحتى ذلك الحين، كانت تتحمل أن تسرق منها شوارع استامبول، وحدائقها، وجماهيرها. أما اليوم فإنها تشعر أنهم يسرقون الله. فتكاد تختنق من شدة الاستنكار، والتعاسة، والتمرد العاجز...

وقليلاً فقليلاً يصبح صوت الناي همساً، وتتباطأ العاصفة. ثم إن التويجات البيضاء تعود فتنغلق على نفسها، وينتهي الاحتفال.

وانسحب الشيخ إلى غرفته، لكي يستقبل أنصاره. وعلى أكبر دهشة من سلمى، كانت النساء مقبولة لديه، والوجه مكشوف. ذلك أن المعلم يقدِّر أنه في هذا الجو، القائم على البراءة الفرحة الناشئة عن الرقص المقدس، ما من رغبة غير طاهرة، يمكن أن تتسرب إلى النفس.

وتدفع فطمة السلطانة ابنة أختها، الخائفة بعض الشيء، نحو الرجل القديس، وهو جالس على وسائد واطئة. ويقوم أحد أنصاره، بكل احترام، بمسح العرق عن جبينه. وسواء أكان نحيفاً، أم قصيراً، فإن في وسعه أن يكون كائناً من كان. أما الألق الذي كان يبدو أنه يشعّ منه خلال الاحتفال، فقد تبدّد. وبدا للطفلة أنهم خدعوها. فهي الآن في غرفة مفروشة بلا ذوق، وتجاه إنسان عادي جداً، بين مجموعة من الأوفياء، من ذوي النظرات الثاغية.

لكن خالتها تومىء لها. إذ يجب أن تتقدم لتقبل يده. فتصدر عنها حركة تراجع سرعان ما تجاوزتها. وعلى كل حال فإنها حتى الآن كثيراً ما قبلت الأيادي، سواء أكانت خشنة أم ناعمة، عصبية أم رخوة، بخيلة أم كريمة، شهوانية خبيثة، أم ضعيفة ونشيطة.، وأيادي تحبها وتحترمها، أم

أيادي تمنت لو عضتها، بدلاً من تقبيلها . بيد أنها عندما وقفت خاشعة بين يدي هذا الشيخ، استقر في ذهنها أنها تساهم في كذبة أخطر من كل صور النفاق الاجتماعية، التي رُبيّت عليها منذ الطفولة .

وكانت اليد بانتظارها، موضوعة على وسادة من المخمل، ناعمة وبيضاء، تكاد تخلو من التجاعيد . وتنحني سلمى لتتناول اليد، فإذا بها تنقلب، مقدِّمة راحتَها . فنظرت إلى خالتها، وهي في حيرة من أمرها، فهمست هذه لها بالقول :

ـ قبِّلي هذه الراحة . فهو شرف كبير . ذلك أن الشيخ ينفتح لك ويريدك قريبة من قلبه .

ومسّت بأطراف شفتيها هذه الراحة . وعندما نصبت رأسها راعها ذلك النور الشديد، الذي يشع من عيني هذا العجوز، إنه نور بلغ من الشدّة ما حال دون أن ترفع بصرها عنه . أما بقية القاعة فقد ظلت معتمة . وفجأة شعرت بالخوف .

فجمعت كل قواها، ونهضت متمايلة . وفيما يشبه الضباب، لمحت خالتها، فتعلقت بساعدها . أما فطمة السلطانة؛ فإنها لم تشعر بشيء . ترى هل حدث شيء ما؟

والآن فإن الشيخ ينظر إلى البنيّة بالبسمة الطيبة، التي تصدر عن جدٍّ مفعم بالتفهم والتسامح . ويدعوها، بصوت حار، إلى الجلوس على ديوان، على مقربة منه، حيث كان يوجد طفلان آخران من قبل . وتبتسم فطمة السلطانة، لأنها سعيدة بهذا الاستقبال : فالشيخ لا يقرّب منه إلا أولئك الذين يحبهم؛ أي أولئك الذين يشعر أن في نفوسهم مزايا حقيقية .

وكانت الغرفة تمتلىء قليلاً فقليلاً بالزائرين . والظاهر أنهم يعرفون بعضهم بعضاً، ويتحادثون فيما بينهم، سعداء بالتقائهم . وفجأة ينفتح الباب، ويدخل أربعة ضباط أتراك بالثياب الرسمية ويتقدمون .. فأزاح الجمهور لهم المجال لكي يمروا، وتتعرف سلمى فيهم على بعض الراقصين، الذين كانوا قبل بضع لحظات يدورون في المسجد . وبعد أن قبّلوا يد الشيخ، جلسوا على وسائد، أمامه تماماً

وتعرض زوجة الشيخ، التي تساعدها خادمتها، ضيافة خفيفة من اللبنيّات والسكريات . فتنتعش المحادثة، ويناقش الحضور بعض نقاط في العقيدة . ويستغرب شاب وجود الشر في العالم الذي خلقه إله لا حدود لطيبه . ويقدم كل واحد رأيه . ويلاحظ أن الضباط يضطربون في مقاعدهم . وأخيراً وبعد أن عيل صبرهم، تدخل أحدهم في الحديث، فقال :

ـــ ما سبب الشر ؟ وهل هذه هي المشكلة ؟ الواقع أن الشر موجود ! بل إنه مدعوم من رئيس ديننا ، الذي هو شيخ الإسلام الجديد !

فسكت الجميع ، واتجهت الأنظار إلى الضابط الذي تابع كلامه :

ـــ إن بلادنا في أيدي الكفرة . وسلطاننا خليفة المسلمين ، رهينة لديهم . أو ليس واجبنا كمؤمنين أن نحرّره ونحرّر تركيا ، حتى لا تكون الكلمة العليا في الإسلام بين أيدي المسيحيين ؟

ويثبِّت نظرات عينيه على الشيخ الذي يقبل قوله بكل رصانة . ويقول :

ـــ إن الحق معك ، يا بنيّ ، إن هذا أول واجباتنا .

ويتابع الضابط كلامه ، فيقول :

ـــ وإذن فلماذا يدين شيخ الإسلام الجديد ، إدانة علنية ، هذا النضال الوطني الذي يقوم به مصطفى كمال في الأناضول ؟ ولماذا أصدر هذه الفتوى ، التي يجعلنا بموجبها خونة ، ويأمر الشعب بحمل السلاح ضدنا .

وعندئـذٍ أصبح الصمت ثقيلاً . وصار كل واحد ينظر إلى الشيخ الذي يتنهد .

ـــ إنك تقول إن سلطاننا ليس حراً ، وهذا صحيح . ولا بد أن شيخ الإسلام كذلك .

ويستنكر الضابط هذا الوضع ويقول :

ـــ لقد كان في وسعه على الأقل أن يأبى الكلام .

ـــ صحيح أنه كان يمكن أن يكون ... شجاعاً ! ولكن لعله يقـدِّر بنزاهة ، كعدد غير قليل من مواطنينا ، بأن النضال الوطني لا يأتي بخير ، ولا يعطينا شيئاً آخر غير معاهدة صلح أقسى ، تفرض علينا .

ـــ سنكسب ، أيها المعلم ، فليس لنا من خيار آخر ! أما الضابط الذي يبدو وكأنه الأكبر عمراً ، فإنه ينهض ويستشهد الحاضرين ، عندما يقول :

ـــ منذ احتلال استامبول المفروض كعقوبة ، نلاحظ أن الأنصار يفدون إلينا من كل أطراف البلاد ، وحتى النساء والفتيات ، يتركن أسرهن لكي يأتين ليُعنين بجرحانا . ومنهن من تخاطر بحياتها كل يوم لكي تسلم الرسائل ، أو لتنقل بعض الذخائر المخبأة في أقمطة مواليدهن . ثم إن هناك

مواطنين على طول الطريق، المؤدية من استامبول إلى مقر قيادتنا العامة في سينوب، يستقبلوننا، ويطعموننا، ويخبؤننا. وبين هؤلاء نجد عدداً كبيراً من فرقنا الصوفية التي لا يخطر ببال المحتل أن يمضي لينقب في مقراتها.

ويبتسم بعد ذلك، وينحني للشيخ.

ـــ إن هذا، على ما تعلم، يا شيخنا، لتشجيع كبير لنا. وسلمى التي تسمع هذا كله، لا تكاد تصدق أذنيها. وهكذا فإنها موجودة في أحد مراكز النضال الوطني. فهؤلاء الدراويش الدوارون، وهؤلاء المؤمنون الصوفيون، وهذا الشيخ الذي يبدو لها محبباً أكثر فأكثر، هم... وتبحث عن الكلمة التي سمعتها البارحة لدى أبيها... كلمة متآمرين. ولهذا الاسم هالة من المغامرة والبطولة تغريها. أو متآمرون كذلك خالها رفيق وخالتها فطمة؟ وهي التي تعرف الآن سر هذا المسجد، أتراها تصل إلى هذا اللقب المشتهى؟ إنها ترتعد من المسرة. وفجأة تصبح الحياة مثيرة، مشهية.

ولكن أفكارها تنقطع بوصول خادم ينبيء أن الصناديق حُمِّلت على عربات الشوفان، وأن ثياب التنكر التي حُضِّرت للسادة الضباط جاهزة.

فيقول الشيخ، وهو يلتفت إلى الرجال الأربعة.

ـــ شيء ممتاز. ستسافرون نحو منتصف الليل؛ أي في الساعة التي يبدأ النعاس فيها بالاستيلاء على الحرس المراقبين. وهناك درويش من عندنا يدلكم على آمن الطرق.

وتتيه سلمى في أعماق الحلم: أصناديق؟ وإذن فهي أسلحة بالتأكيد! وإلى جانبها أبطال حقيقيون يحاولون الوصول إلى الجبهة! فتشعر بأنها فخورة بوجودها حيث هي. وتنظر معجبة إلى هؤلاء الرجال؛ فما أجمل سيماءهم! لا بد إذن أن نربح الحرب!

وكما لو أنه لم يجر أي شيء غير مألوف أو غير عادي، عادت المحادثة من جديد. ويروي الضباط وهم يضحكون، كيف أن الأسلحة تنتقل إلى الأناضول، رغماً عن الإنكليز وفي حضورهم.

ـــ إن الشعب التركي يساعدنا. ولكن تصوروا أن الجنود الفرنسيين والإيطاليين يساعدوننا أيضاً. فهم يزيدون غضباً من البريطانيين، الذين يختطفون لأنفسهم كل فوائد النصر، لهم ولمحمييهم الأغارقة: كإزمير مثلاً، التي أعطوها لهؤلاء، وكان الإيطاليون موعودين بها. أما الفرنسيون فقد بدؤوا يفهمون أن الإنكليز بعد أن اقتطعوا لأنفسهم حصة الأسد، ولا سيما العراق ونفطها، يريدون الآن

إحكام الخناق على تركيا، فلا يدعون للفرنسيين منها إلا منطقة كيليكيا. ويقال إن حكومة كليمنصو غاضبة جداً، حتى إنها تدرس إمكانية دعم مصطفى كمال، خفية. فهو يريد منع إنكلترا من السيادة على الشرق الأوسط، إرادة لا تنازل عنها. والنتيجة العملية هي: أن هؤلاء الشجعان يغضون النظر عندما يأتي الليل، فيدعوننا ندخل إلى مستودعات الأسلحة، بل إن موظفاً فرنسياً، يُدعى دولاكروا، وصل حديثاً، وقد وعدنا أن ينبئنا عن الليالي التي يكون فيها الحرس البريطانيون في شوق إلى القيام بنزهة.

كل هذا والحضور يصغون متعجبين، وفجأة تنطلق الضحكات. ويهتف بعض الشباب بطيش:

ـــ لتعش فرنسا. ولكنهم سرعان ما يكفون عن هتافهم بنظرات الشيخ العنيفة إليهم.

ـــ ولكن قولوا لنا كيف تجتاز الأسلحة والذخائر، البوسفور لكي تصل بعد ذلك إلى الأناضول.

ـــ إن جمعية مالكي المراكب (المسماة بالقايق) تعيرنا مراكبها ونحن نمر ليلاً. وعلى الرغم من أنهم جميعاً تقريباً من الأرمن، فإنهم يقدمون لنا مساعدات ثمينة. (بهذا يجيب أحد الضباط).

ويقول رجل له ذقن كثيفة بيضاء.

ـــ وما هو الشيء المستغرب في ذلك؟ إننا ما نزال نحتفظ بكثير من الأصدقاء الأرمن، ولا سيما في استامبول، حيث تعيش الطائفتان منذ قرون بلا مشاكل. وهم يعرفون جيداً أن مذابح عام ١٩١٥، شرق البلاد، كانت جزئياً، حصيلة ما قامت به قبائل كردية كانت تتنازع على نفس الأراضي مع الفلاحين الأرمن. وبديهي، أنه ما دام يجب القضاء على الأمبراطورية العثمانية، فإن الصحافة الأوروبية جعلت عناوينها الكبرى تدور حول أمر «بقتل عام للناس» صادر عن استامبول. وكان ذلك الأمر في الحقيقة أمراً بنقل الناس إلى منازل أخرى، وأراض أخرى، وهو أمر لا إنساني بدرجة كافية، عندما يفكر الإنسان بالنساء والأطفال الذين ماتوا من الجوع والأمراض، خلال الطريق.

وسأل أحد المراهقين، وهو محمر الوجه من جرأته:

ـــ ولماذا صدر الأمر بنقلهم ونفيهم.

واستنكر السؤال ذلك الشيخ ذو اللحية البيضاء، وقال:

ـــ أو تظن أن حكومة، مشغولة بالحرب، تنقل أناسها من أرض إلى أخرى، إذا لم تكن هنالك دواع قاهرة؟ لقد كان الأرمن يعيشون في منطقة استراتيجية هامة، على طول حدودنا مع روسيا التي كنا في حرب معها. وكانت العناصر المتطرفة، ولنقل الوطنية، تطالب بالاستقلال بطبيعة الحال، وجاء الروس فوعدوهم به، فسهلوا لهم انتقال جيوش القيصر، وهدوهم إلى مواقع الأتراك. وهكذا أصبحت حدودنا الشرقية، طريقاً سلطانية للغزاة. ولهذا أمر طلعة باشا بهذا النقل المأساوي، منعاً لدخول العدو.

فسكت الحاضرون. وكل منهم غارق في أفكار سوداء. وفجأة دوى صوت الشيخ قائلاً:

ـــ إنك متفائل، يا جمال بك. إن هذه أقلية تساعدنا. والحقيقة أن أكثر الأرمن كانوا يدعمون المحتل، لأنهم كانوا يأملون دوماً، بالحصول على الاستقلال. وهم ينشئون لأنفسهم بذلك أوهاماً، هؤلاء المساكين. فالمحتل يستخدمهم. ولكن ما إن تنقطع الحاجة إليهم، حتى يدعهم وشأنهم.

وتظل سلمى تتابع النقاش، فلا يفوتها شيء منه. ذلك أن مأساة الأرمن، التي حدثتها عنها الآنسة روز ذات يوم، أثرت فيها وآلمتها أكبر الألم، لا سيما وأن واحدة من أفضل صديقاتها، وهي حفيدة وزير، كانت أرمنية. وكانت قد فكّرت بسؤال أمها، لكي تقدم لها شرحها لهذا الأمر. ولكن ما كادت تبدأ الكلام، حتى امتلأت عينا السلطانة بالدموع. وكانت هذه أول مرة ترى سلمى فيها أمها تبكي، مما جعلها تضطرب نفسياً أكبر الاضطراب.

ـــ عفواً، عفواً أينديجيم. بهذا دمدمت الصغيرة وهي تقبل يدي أمها، وهربت، وقررت في نفسها ألا تأتي أبداً على طرح هذه المشكلة مرة أخرى.

وهذه هي المرة الأولى التي بدأت فيها سلمى تفهم أن شيئاً خطيراً جداً قد جرى في بلدها، فلا أحد يتحدث عنه. وعندما كانت صغيرة، كانت تقبر الأشياء التي كسرتها، ظانة أنها بذلك حذفت المشكلة. فقالت في نفسها: إن الكبار يتصرفون أحياناً كما لو أنهم أطفال.

ومـرّت الخادمة بصينية، تقـدّم منها للمدعوين كؤوس زهورات ذات لون عسلي. ويصنع هذا بالاعتماد على أعشاب الحديقة. فهو خليط يهيأ بصورة خاصة لجماعة المسجد، ويسمونه «مشروب الصفاء».

لكن الشيخ يبقى قلقاً .

ــ يقال إن مصطفى كمال صديق للحكومة البولشفية ، وأنه قد يكون هو شيوعياً . فهل هذا كلام صحيح ؟

فيبتسم أحد الضباط ، هازئاً . ويقول :

ــ كمال ليس أكثر شيوعية مني ! وأفكار المساواة ، على ما أستطيع تأكيده لكم ، لا تهمه مطلقاً . إنه على الأصح من نوع « الديكتاتور » . ولئن كان يتقرب من السوفييت . فذلك لأنه بحاجة لمساعدتهم : فنحن ينقصنا المال والذخيرة . وقد تعهدت الدولة السوفييتية بأن تقدم لنا ستين ألف بندقية ، وحوالي المئة شاحنة ومليوني ليرة ذهبية . فاعترفوا أن إنقاذ الخلافة بذهب هؤلاء الملحدين ليس بأمر عادي !

فيضحك الحاضرون جميعاً . لكن الشيخ غير مستريح . ويلحّ على الموضوع قائلاً :

ــ إن البولشفيك مهرة ، وهم يحاولون إقناع المسلمين في روسيا أن الشيوعية والإسلام هما مثل أعلى واحد . ويبرهنون على ذلك ببعض آيات من القرآن ، حول المساواة بين الناس ، فوق الأرض التي لا يملكها أحد إلا الله . على أن ثمراتها تعود لذلك الذي يعمل فيها . ولقد نقلوا عدواهم إلى شمال فارس ، حيث بدأ بعض الملّايات بتكرار هذه الأفكار التخريبية . ويبدو أن بعض الشيوخ في الأناضول ، القريبين من كمال باشا ، يرددون هذه الترهات .

وبدأت لهجته هنا تصبح قاسية .

ــ قولوا باسمي للجنرال بأنه ما من فرقة صوفية ستدعمه إذا هو ترك الأفكار الشيوعية تتسرّب إلى شعبنا ، حتى ولو كان في ذلك إنقاذ لتركيا .

ــ لا تخف ، يا شيخنا ، ذلك أنه إذا صار للشيوعيين أهمية أكبر مما يجب ، فإني مقتنع أن كمال باشا سيكون أول من يقضي عليهم .

فهز الشيخ رأسه كما لو أنه قد اقتنع ، ومضى يرشف ببطء مشروب الصفاء . ولقد تأخر الوقت ، والمسألة الأعظم أهمية ، والتي تخطر ببال الجميع ، لم يطرحها بعد أحد . وأخيراً فإن الضابط الشاب الذي أظهر أكبر الاستياء من تصرف شيخ الإسلام ، تشجع وقال :

ــ يا شيخنا ، قل لنا ، ماذا تراه في أحلامك ؟ أترانا نربح الحرب ؟

وبدا الشيخ مبـدّداً في أفكاره ، فتتساءل سلمى عما إذا كان قد سمع السؤال . وبعد عدة لحظات ، وكما لو أنه كان في حالة غيبوبة ، يقول بصوت أصم :

ــ إن الحرب ستكون طويلة . وتركيا ستطرد الكفرة ، ولكنها ستغلب على يدهم .

فسمعت دمدمة بين الحاضرين .

ــ كيف ؟ اشرح لنا ماذا يعني كلامك هذا ؟

ــ لاأعرف عن الموضوع أكثر من هذا . أما من الوجهة العسكرية فسننتصر ، ولكن أوروبا ، بدءً من هذا الانتصار ستصبح السيد الحقيقي .

وسكت ، كأنه منهك .

ويسأل أحد الضباط

ــ ولكن عندئـذٍ ، أيجب علينا أن نمضي لنقاتل .

فانتصب الشيخ ، وهز رأسه بهيئة من عيل صبره . ويقول :

ــ ولكن لِـمَ كل هذه الأسئلة . إن واجبكم اليوم هو أن تفعلوا كل شيء لتحرير الأرض . أما غداً ، وبعد عشرات السنين ، فإن أبناءنا وأحفادنا سيكون عليهم ، على الأرجح ، أن يشنوا على الأجنبي ، حرباً ، أهم من هذه ، وأساسية .

وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل قليلاً ، عندما عادت سلمى وخالتها إلى القصر ، حيث كانت خديجة السلطانة تنتظرهما ، مع أختها فهيمة . وكانتا في نقاش كبير . ذلك أن السلطانة تلوم أختها الأصغر منها على حضورها استقبالات السفارة الفرنسية بانتظام . وتقول :

ــ ألم يعد فيك أدنى حياء ! إنهم يحتلون بلادنا . فهل نسيت ذلك . فكيف تسمحين لنفسك بأن تمضي إلى هناك لتستعرضي جمالك عند العدو ؟

وترد فهيمة على أختها قائلة على سبيل التصحيح :

ــ ياعزيزتي ، أولاً لست أنا الوحيدة من أسرتنا ، في مثل هذه الحال . بل إن بعض أمرائنا يذهبون بانتظام إلى الصالونات الفرنسية . وأي شر ينشأ عن هذا ؟ قولي لي . أما إذا شئنا أن نعيش

عيشة الزهّاد ، فهل تظنين أن البلاد ستتحرر بسرعة أكبر . واللذة عند فطمة ، هي أن تذهب إلى مسجد فرقتها . أما لذتي هنا فهي الذهاب إلى البالات . فماذا تفعل هي ، وماذا تفعلين أنت ، أكثر مني ، لخير تركيا .

فيجيب صوت صغير

ـــ نحن ، نحن نتآمر

وتتجه فوراً ثلاثة أزواج من العيون . نحو سلمى ، التي خافت من جرأتها نفسها . وتمنت لو أنها تحت التراب بمئة متر . ترى أية حشرة لسعتها ، هذه التي تعرف ، بصورة عامة ، كيف تحصن لسانها ؟

وتنظر فهيمة إليهن بهيئة الساخرة

ـــ أتتآمرون ؟ إن هذا جميل . حسناً . تصوروا أني أنا أيضاً ، أتآمر ، وعلى الأرجح ، بصورة أنجع منكم . إنني أشتغل بالديبلوماسية العليا . وأبرهن للمسؤولين الفرنسيين الذين يرسلون كل يوم تقاريرهم إلى باريس ، أن الأتراك قوم متمدنون ، وهم أصدقاء لبلدهم ، وأننا فهمنا أخطاءنا الماضية ، ولا سيما ذلك التحالف المشؤوم مع ألمانيا ، وأننا غداً ، عندما نملك أعنة السلطة ، سنكون الحلفاء الأوفياء لفرنسا !

وتتردد سلمى : فخطاب خالتها يبدو لها مقنعاً . ولكن خديجة السلطانة ترفع كتفيها .

ـــ سيفعل الفرنسيون ما يرون أنه الأفضل بالنسبة إليهم . وابتساماتكم ليست هي التي تحملهم على تغيير رأيهم ، يا أختي . وبالمقابل ، فإن الشعب التركي الذي يراك تذهبين إلى الرقص لدى من يضطهدهـــم ، قد يحاسبك يومـــاً ما على ذلك ، أنت وكل أسرتك !

١٢

ـــ حسناً يا عزيزتي ، وبرافو لهذه المرة . إن جلالته أظهر الحزم ؛ فقد أصدر حكمه على كمال بالموت ! وبالموت على من بدأت البلاد تعتبر أنه بطلها ، والوحيد الذي يجرؤ على رفض أوامر المحتل ، والوحيد الذي أعاد تكوين جيش ، وجيش يحارب ! إن هذا أمر لم يسمع به ! ولعل الناس توقعوا أن الباديشاه ، يمنحه وساماً ... ولكن لا ، فالسلطان لا يصغي إلا لصهره ، الداماد فريد ، هذا الخادم لمصالح إنكلترا . وهذا ما يدعو للتساؤل عن المصالح التي تريد حكومتنا أن تخدمها ، أتلك التي لبريطانيا ، أو تلك التي تخص الشعب التركي .

واصفر لون خديجة السلطانة لهذه الإهانة . فمنذ عدة أسابيع وزوجها يشاحنها مرة بعد مرة ، كما لو أنها المسؤولة عن أعمال السلطان . فماذا يريد فعلاً ؟ أن تتنكر للسلطان ؟ وهو يعلم أنها لن تفعل ذلك أبداً ، لا وفاءً أعمى للأسرة ، ولكن لأنها مقتنعة بأن الباديشاه الذي تعرف ذكاءه ومهارته ، يلعب لعبة مزدوجة ؛ فإدانة كمال الموجود على مئات الكيلومترات ، بعيداً عنه ، هو عمل رمزي محض ... ثم إن جيش الخلافة المرسل من استامبول لمحاربة الكماليين ، ليس في الحقيقة إلا عصبة من المتطوعين الذين لا يخضعون لنظام . وبعد بضعة انتصارات رنانة ، نراه الآن يمر بالهزيمة بعد الهزيمة . وما هذه التدابير إلا كذر للرماد في العيون ، وغايتها أن يحمل الإنكليز على الصبر .

وبالمقابل فإن السلطان يود أن يتخلص من الصدر الأعظم ، الداماد فريد . فمنذ زمن غير قليل ، عرف تماماً من هو زوج أخته . ولكن هذا الإنسان مفروض عليه من قبل البريطانيين .

وخديجة تبذل جهدها لكي تحتفظ بهدوئها ، وترى أن من المنافي لكرامتها أن تبدو متأثرة بهجمات زوجها .

وتبدأ ردّها فتقول :

ـــ إصغ إلى ما روته لي صبيحة السلطانة ، التي كنت أتغدى معها قبل البارحة . فعندما استدعي الداماد فريد ، لتشكيل الحكومة ، ذهبت إلى السلطان أبيها ، وقالت له : « إني لم أعد أفهم . لقد كنت عظيم السرور برؤيته يترك الوزارة ، منذ ستة أشهر فقط ؟ » . وأجابها السلطان : آه ، يا صبحة ، لو أنك تعرفين .. فأنا لا أملك من الأمر شيئاً .

فغضن خيري بك إحدى شفتيه ، تغضيناً يعبر عن الاحتقار .

ـــ ليكن ، فعمك لم يعد يملك أية سلطة . ولكنه يستطيع أن يتنكر لحكومة « الكراكوز » هذه !

أما سلمى الموجودة في زاوية من البهو الصغير ، فكانت لا تنقضي دهشتها . فهي لم تكن تعرف أن أباها مشغوف بالسياسة إلى هذا الحد ، وهو الذي كان فيما مضى يهدئ النقاش الذي يُثار بين أصدقائه ، بكثير من المرح والمزاح . وإنها لتشعر أن حقده لا ينصب على السلطان نفسه ، بل على زوجته . فتنظر إلى أمها . ولكن هذه تظل صامدة تثبّت نظراتها على عيني زوجها .

ـــ خيري ، أتصدق حقاً ، أن على السلطان أن يبرر نفسه ؟ وفي رأيي أن الباديشاه يسكت لكي يخدِّر حذر العدو ، ويترك لكمال ما يكفي من الوقت ، لكي يعزز جيشه . ذلك أن وزن هذا الجيش هو رصيدنا الأساسي في محادثات السلم ، التي تهيأ الآن . وليس للحلفاء أية رغبة في العودة إلى السلاح . فإذا هم وجدوا مقاومة قوية في الأناضول ، فسيكونون مضطرين للتخفيف من غلوائهم .

ويهز خيري بك كتفيه بغضب .

ـــ كالعادة ، لديك جواب جاهز لكل سؤال : والحقيقة أن سلوك السلطان لا يعذر .

وعندئذٍ ، نظرت إليه خديجة السلطانة ، كأنها تزن شخصه .

ـــ ولكن يا صديقي ، إذا كنت تفكر بهذه الصورة ، فلماذا لا تمضي لتحارب مع الجنرال . وهناك تستطيع أن تبرهن على شجاعتك ووطنيتك .

وتسمع قرقعة جافة ــ بين يدي الداماد، البيضاء. إذ لقد انكسرت عصا العاج فيها. وقد رمى بالبقايا تحت رجلي السلطانة، وخرج دون أن يقول كلمة.

إلا أنهما في غمرة المناقشة، نسيا سلمى، التي تصاغرت كل التصاغر على مقعدها. ياالله، كم تحتقر وتكره هذه المجابهات، المتزايدة عدداً، بين أبيها وأمها. وليتهما كانا يختصمان! ولكنهما في سخريتهما الشديدة البرودة يصلان إلى الأسوأ. ويبدو لها أن جداراً يقوم بينهما، لكنه يزداد ارتفاعاً كل يوم.

أما أن تعرف أياً من الاثنين هو على حق، فهذا لا يهمها. وكل ما تتمناه هو أن يسكتا، ويتوقفا عن تمزيق بعضهما، وعن تمزيقها هي..

ويصعد زينيل، وقبضتا يديه مشدودتان، يصعد الشاطىء الغربي من البوسفور الذي ينزل بهدوء، من خلال البساتين واليااليات[1] باتجاه القرن الذهبي. وكانت السماء تمطر رذاذاً، وكان القمر الضعيف يهب المساجد والقصور نوعاً من الألق الغامض.

ويمشي الخصيّ، ذاهلاً عن جمال المدينة التي تملؤه عادة بعواطف متناقضة من الاعتزاز من جهة أولى، ومن الشوق من الجهة الثانية إلى جبال ألبانيا الخشنة، يمشي غير عابىء بالطراوة المعطرة لتلك الليلة الربيعية، ويتقدم، ثم يقف، ويعود أدراجه، وهو غارق في أشد صور الاضطراب.

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة. وكان علي محمود أن ينتظره. ولكنه لم يعد قلبه يشدّه إلى لقائه. فيختنق مما يشعر به من استنكار وغضب مقتول بالعجز.

وكما يجري كل مساء بعد العشاء، تقدم باتجاه باب السلطانة لكي يسألها عما إذا كان بها من حاجة إلى خدماته، أو إذا كان في وسعه أن يكون حراً.

ولكن صوتاً جاداً، على العتبة، سرعان ما عرفه، وهو صوت خيري رؤوف بك، استوقفه مباشرة. فتجمد في مكانه، وأصغى قلقاً، واستعد للتدخل إذا ما انفجر ذلك العنف الذي كان يشعر أنه يتصاعد تدريجياً في كلمات الداماد.

وكان يغامر في ذلك بموقعه في القصر، ذلك أنه، بعد كل شيء، ليس إلا خادماً. فمن يعطيه الحق بالوقوف بين سيدته وزوجها...؟ ويتذكر سيدته. وتعلو شفتيه ابتسامة. فقد تعود أن

---

(١) اليالي: بيت من الخشب المحفور.

يسمي السلطانة بهذا الاسم، متذوقاً ذلك الالتباس اللذيذ الكامن في الكلمة الفرنسية★، هذه اللغة الرائعة، لغة التأنق والتحبب! وما من مرة تجرأ على النظر إليها بعينيه، ولكن أحلامه ... ومن يملك أن يمنع عنه الأحلام؟

وفي ذلك المساء. تخفى وراء ستارة المخمل، وانتظر، وقلبه خافق. ولكن الداماد لم يتح له فرصة البرهان على إخلاصه، تحت نظرات السلطانة الساحرة. فهرب...

هذا «العديم الكرامة!»، يثير غضب زينيل وهو ينتزع بعصبية أوراق غصن من المانوليا. ترى كيف وقعت السلطانة في حب رجل بهذه التفاهة، وكيف تتحمل وقاحته، على حين أن وجوده كله متعلق بها؟

ومن بعيد، كان جرس كنيسة من كنائس بيرا قد بدأ قرعه. وبصورة آلية عدّ زينيل القرعات: إنها الساعة الحادية عشرة. ويتخيل وجه محمود في قلقه، وأصابعه الدقيقة، ضارباً بها، جزعاً، تلك الطاولة الرخامية في المقهى الذي تعوّدا الالتقاء فيه. وهذا المقهى هادئ، يُظلله مسجد السليمانية. ولقد اختاره زينيل لأن الذين يختلفون إليه ليسوا إلا سكان الحي الذي هو فيه. وما من إنسان يستطيع التعرف عليهما.

وهما يلتقيان فيه مرة أو مرتين في الأسبوع. ولكن الخصي تصيبه أحياناً أزمة من أزمات الاكتئاب، إما لأن السلطانة وجّهت إليه كلمة خشنة، وإما لأنها بدت غير مبالية به. وعندئذٍ يلغي موعده. ومحمود لا يقول شيئاً. أما من أجل حبيبه، فهو دائماً حر.

والآن يجب الاستعجال، والنزول إلى حي غلاطة (غلطة) الذي تلاحظ من بعيد أنواره الحمراء والزرقاء، ثم اجتياز الجسر، في هذه الساعة التي يعج فيها الصاخبون. وأخيراً فقط، وبعد أن يكون قد تجاوز هذه «العاميات» يصل إلى الأزقة الهادئة في استامبول القديمة.

غير أن الشجاعة فارقته... أو قل إنه لم تعد له الرغبة الكافية. ويشعر بأنه مرهق، تعب، من ذكرى هذا الجسم الفتي المطيع. وهاتين العينين الساذجتين، وهذه الأيدي المداعبة. ترى لماذا يحبه هذا الصبي بهذه القوة؟ أما هو فيشعر تجاه محمود بالحنان، بالعاطفة الرقيقة. أما الحب، والهوى... بين بشر مثلهم! ... فهذا شيء يبدو له تافهاً.

ويتردّد. فإذا هو لم يذهب إلى الموعد، فإنه سيعذّبه والمسكين لا يستحق ذلك. ولكن إذا

★ كلمة maitresse الفرنسية، تعني المعلمة، والعشيقة أيضاً. وهذا هو الالتباس المقصود هنا.

هو ذهب إليه؟... ولما كان مغموراً في ذلك المساء بصورة سيدته، فإنه سينطبع في نفسه أنه خانها. وسيرتد أثر ذلك، على محمود. وهو يعرف هذا من نفسه.

الأفضل إذن أن يعود أدراجه.

ويمضي زينيل في طريقه إلى قصر أورطاكوي، غاضباً على نفسه، وعلى الفتى، وعلى الأرض كلها.

وفي اليوم التالي صباحاً، كان الجو نرجسياً. وهذا ما يطلق على اللون الزهري الذي تضفيه السماء على المناظر الطبيعية، بعد المطر.

وكانت خديجة السلطانة قد قررت أن تذهب مع سلمى لزيارة مسجد أيوب، حيث قبر حامل علم الرسول الذي قتل عام ٦٧٠، في أول حصار للقسطنطينية على يد المسلمين. وهناك أيضاً نجد سيف السلطان عثمان، مؤسس الدولة العثمانية، وهو سيف يتقلده كل سلطان جديد يوم تتويجه. وهكذا فإن المسجد الصغير، القائم في نهاية القرن الذهبي، يعتبر، من وجهين، رمزاً لنضال الإسلام ضد المسيحية. وفي مثل هذا الوقت من المذلة والكوارث، كثيرون أولئك الذين يذهبونمن الأتراك لزيارته، بحثاً عن الشجاعة والأمل.

وتحب سلمى هذا المعبد المختبىء داخل الخضْرَة. وتحب بصورة خاصة تلك المقبرة، التي تحيط به وتمتد حتى قمة الهضاب المشرفة على البحر. إنه واحد من أقدم معابد المدينة. وكل حجرة من حجارة القبر هي بذاتها عمل فني. وهذه الأحجار المرتفعة باتجاه السماء، بعضها نحتت عليه عمائم احتفالية، تزداد علواً بمقدار ما تزداد قدماً، وبمقدار ما يكون الميت شخصية هامة. وبعضها الآخر أحدث عهداً، ولا توجد عليها إلا طرابيش بسيطة. أما قبور النساء، فهي مزيّـنة بقرون الغزارة الناعمة. ثم نجد فيه أيضاً حجارة دقيقة جداً، مزينة بطربوش أو بطوق من الزهر: وهنا توجد قبور الأطفال: ولاحظت سلمى أنها كثيرة جداً.

وخلال ما هو أكثر من ساعة، تجولت السلطانتان في المماشي، أما البنت فتحلم، على حين أن أمها تُـمِـر حبات المسبحة المصنوعة من حجارة المرمر، ذاكرة أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين. ومن حين لآخر، تقفان أمام قبر إحدى الشخصيات المشهورة أو أحد الأصدقاء. أما خديجة السلطانة فتتلو على روحه الفاتحة. وأما سلمى، الواقفة إلى جانبها، فإنها تحبس أنفاسها، محاولة بكل قواها أن تلتقط الرسالة التي يجرب الميت — وهي تُحسّ ذلك — أن ينقلها إليها.

ولكنها لا تنجح . فيحزنها ذلك وينطبع في ذهنها أنها خانت واجباً مقدساً وهي تقنع نفسها أنها ذات يومٍ ، إذا هي عنيت بالأمر بدرجة كافية ، فستنتهي إلى أن تسمع ما يريد الموتى أن ينقلوه إلى الأحياء .

ويبدو لها أن الاتصالات بين العالمين ، طبيعية ، ذلك أنها طالما هُدهدت بقصص مرضعتها ، وهي سوادنية سمينة ، اعتادت أن تتحادث مع الأشجار والأزهار ، التي هي تجسيد جديد لأرواح الموتى ، على ما تؤكده المرأة الطيبة . ولئن كانت الأكثرية بينها خيِّرة ، فإن منها من تريد إرغامها على القيام بأعمال سيئة . وعندئذٍ تكون مرغمة على الصراخ بصوت عال ، لإخافتهن .

وتمر سلمى وأمها لدى خروجهما من المقبرة ، على المقهى الذي كان بيير لوتي يأتي إليه بحثاً عن الإلهام ، وهو بيت بسيط جداً ، أُحيط بشرفةٍ تعطرها رائحة الياسمين . ومنه يمكن أن نتأمل المياه الملونة بألوان قوس قزح ، وهي مياه القرن الذهبي .

وتدمدم خديجة قائلة :

ــ هو على الأقل لم يَخُنّا . أما أصدقاء الأيام الحلوة ، فيُديرون لنا ظهورهم ، لكنه هو يستمر بلا كلل في الدفاع عن قضية تركيا . وهو أحد الأشخاص النادرين ، الذين يقدسوننا ويحبوننا ، ذلك أنهم قلّما اعتادوا أن يفهمهم الأوروبيون بحيث يردونه له مقابل الواحد مئة . وما من أجنبي في تركيا ، يُحَبُّ بقدر بيير لوتي .

وعندما عاد سائق العربة ، فنزل إلى المدينة ، وجد أكبر الصعوبة في توجيه العربة ، في الطريق الغاصة بمن فيها . فالناس يتجمعون حول صغار باعة الصحف ، مظهرين ما يدل على أكبر الاضطراب .

ــ ولكن ماذا يجري أيضاً ؟

وتطلبت السلطانة ، القلقة ، من زينيل أن يستطلع الأخبار بسرعة . وما هي إلا دقائق قليلة ، حتى عاد الخصيّ ، ومعه صحيفة مؤطرة باللون الأسود . ومن شدة الجزع ، انتزعتها منه بيديها ؛ فرأت على الصفحة الأولى ما يضعُه الحلفاء من شروط لتوقيع معاهدة السلم مع تركيا . فتقرؤها بسرعة ، وتعود فترتمي على وسائد العربة ، قائلة :

ــ إنهم مجانين ! وما يطلبونه ليس إلا قراراً بالإعدام ، يريدون أن نوقعه ...

وظلت السلطانة، خلال ما بقي لقطع الطريق، مجمـدّة، لا تتحرك، ورأسها مستلق إلى الوراء، وعيناها مغمضتان، وسلمى الخائفة، تتأملها دون أن تجرؤ على القيام بأية حركة.

أما الأيام التي تلت، فقد كانت سوداء، مبكية. فشعب استامبول، متأثراً تأثراً بالغاً من الصدمة، وهو لا يستطيع أن يصدق ما أصابه. فأكثر الناس تشاؤماً لم يتخيّـلوا قط أن الحلفاء سيفرضون على البلد شروطاً دراكونية بهذا العنف. وكان المطلوب هو بكل بساطة، تجزئة تركيا.

فتراقيا الشرقية تصبح لليونان، وكذلك مدينة إزمير الغنية، ومنطقتها كلها. أما شرق تركيا، فيصبح أرمينيا، وتستقل منطقة الأكراد. وأما جنوب الأناضول فيصبح مناطق نفوذ لكل من فرنسا وإيطاليا، بحيث لا يبقى لتركيا إلا هضبة الأناضول، مع نافذة تطل على البحر الأسود، بالإضافة إلى استامبول، وهي منطقة محصورة، محاطة ببضع عشرات من الكيلومترات المربعة. ولكن حتى هذه المنطقة المحصورة ليست مستقلة. وكذلك المضائق التي تؤلف طريق وصولها إلى البحر: فكل هذه يجب أن توضع تحت الوصاية الدولية، وتخضع العاصمة العثمانية للرقابة العسكرية والمالية للحلفاء.

وأصبح الوضع في المدينة متوتراً. واشتدت المظاهرات. وأولئك الذين كانوا منذ عدة أشهر، يدعمون سياسة المرونة، والتفاوض، لم يعودوا يجرؤون على التفوه بأية كلمة. وبالمقابل، فإن أنصار مصطفى كمال والنضال المسلح، لجماعات طليعية صغيرة، قد أصبحوا الأكثرية الكبرى. وفي كل يوم، وتحت مختلف صور التنكر، كان الوطنيون بالمئات يصلون إلى الجبهة. وبطبيعة الحال فإن الصحف المراقبة لم تكن تعطي قراءها أي معلومات عن حوادث الأناضول، ولكن الناس جميعاً لا يتحدثون إلا عن المعارك التي تدور فيها، وعن نجاح الكماليين. وفي قلب الحي القديم، أصبح البازار مصدر الأخبار الأول. وكان الباعة أمام دكاكينهم، وحول كأس من الشاي يتبادلون بكلمات مغطاة آخر الأخبار، التي يأخذونها من الفلاحين الذين جاؤوا ليبيعوا محصولاتهم، أو عن المتطوعين الذين يؤمنون الاتصال بين المنطقة المحتلة، والأراضي المحررة على يد الجماعات الوطنية. وكل إنسان عندما يقوم بمشترياته، يلتقط محصوله من الإشاعات.

وفي قصر خديجة، كان الخصيان يؤمنون الاتصال مع الخارج، عندما ينقلون، بالدقة، كل الأقاويل، والإشاعات. وذات يوم، وحول منتصف حزيران / يونيو / وصل زينيل وعيناه تبرقان، ليقول:

ـــ إن الكماليين سحقوا جيش الخلافة، بل إنهم تجاوزوا مركزاً بريطانياً متقدماً، ووصلوا إلى

توزلا Tuzla . وليسوا الآن إلا على مسافة ٣٠ كم من هنا . ويبدو أن لديهم العزم على دخول استامبول ، خلال أسبوع ، أي في آخر أيام بيرم ، من أجل عيد السكّريات .

وتكبت السلطانة رجفة كادت تعتريها . وتسأل :

ـــ كيف عرفت ذلك ؟

ـــ إنني أخذت الخبر من سائق رئيس تحرير جريدة علمدار ، الذي أخذه هو عن زوجته ، التي هي أفضل صديقة لبنت أخت الصدر الأعظم . ويبدو أن هذا الأخير قلق جداً ، لا سيما وأن الإنكليز يلومونه على أنه جعل منهم أضحوكة بما سماه « جيشه الذي لا يقهر » جيش الخلافة ، والذي لم يقاوم شهرين .

وارتسم في عيني خديجة السلطانة ، بارقة سخرية . ولكن شعورها بالانتصار ، سرعان ما أخلى المجال للقلق . فإذا اقترب الكماليون أكثر ، فإن الجيوش العدوة لن تبقى مكتوفة اليدين ! وسنكون في الحرب مرة أخرى ، ولعلها أشد عنفاً وضراوة مما كانت عليه من قبل ، ذلك أنها ستتضاعف بحرب أهلية . وهي لن تجري بعد الآن ، على جبهة بعيدة ، فتقتل عسكريين ، كما هو قانون كل حرب ، بل ستجري هنا ، داخل العاصمة نفسها . وتتخيل خديجة معارك الطرقات والمدينة المقذوفة بالقنابل ، وعشرات الألوف من الموتى ، بين نساء وأطفال . فترتجف . وعندما كانت تتمنى النصر للكماليين والقوى الوطنية ، فإنها لم تفكر قط بهذه الحقيقة . وفجأة أخذت تأمل بأن الكماليين سيردّون على أعقابهم قبل أن يبلغوا ضواحي استامبول . ولكنها تراجع نفسها مباشرة . فماذا ؟ أتفكر إذن كما يفكر الخونة ! ومن الأفضل بالتأكيد أن نموت من أن نعيش مـذَلّـين تحت جزمة الأجنبي ! بالتأكيد ...

فأغمضت عينيها لترى استامبول مهـدّمة ، وهي مدينتها الغالية . وكذلك قصر توبكابي الذي سكنه خمسة وعشرون سلطاناً ، ومثله الأكشاك الرخامية ، وبحيرات البورسلين والمرمر ، ومهدمة أيضاً ضولمة باهتشه ، الحلم الأبيض الذي ولد من البوسفور ، ومحروقة تلك المساجد الألف ، زهو مدينة الخلفاء ، والخانات والمدارس القرآنية القديمة ؛ أي كل هذه الروائع التي نشأت خلال القرون ، وسيبيد هذا الانسجام ... وينسى هذا السحر ... وتفهم خديجة ، على دهشة منها ، أن هذه التوقعات تُـروّعها ، أكثر من خسارة الأرواح البشرية .

لكن سلمى لا تشارك أمها في هذا القلق . فكل شيء بالنسبة إليها بسيط ؛ فمصطفى كمال سيأتي لطرد الجيوش الأجنبية . وستعود للسلطان سلطته ، ويصدر قوانين ، غايتها أن تعود تركيا

فتصبح مزدهرة، كما يصبح الناس سعداء. ومن الأرجح أن يعيّـن مصطفى كمال، صدراً أعظم، لأنه يحسن مكافأة الخدمات الوفية.

وخالدة أديب؟ إن سلمى تعود فترى المرأة ذات الثوب الأسود، التي كانت تخطب في الجماهير، مساء الاستيلاء على إزمير. وعندها أن خالدة هذه تجسّـد فكرة الحرية. ستعمل إذن في حقل المرأة، وستلغي هذه الملاءات البغيضة، وهذه المشربيات الخانقة، وتفتح نوافذ العربات، وأبواب الحريم. وستساعدها سلمى. وهما معاً، ستؤسسان عالماً جديداً، لا يضيـق به صدر الإنسان أبداً. ويكون في وسع النساء أن تصبح ملوكاً أو سلاطين، كما هي الحال في إنكلترا.

أما الأيام التالية، فإن استامبول ستعيشها في جو محموم، مارة بالتوالي من الحلم إلى الكابوس. أما الناس الذين أصبحت أعصابهم، على سطح جلودهم، فيصابون بنوبات ضحك أو غضب، حتى من غير سبب. وأما في الشوارع، فإن بعض السيدات يبعن خلسة، بعض الشارات التي تحمل الأعلام الوطنية، فيضعونها على قفا الريدنجوت، بانتظار النصر. والمدينة كلها واجفة تعيش في أوجع التوقعات، ولكن الأخبار تبقى هي نفسها: ففي توزلا يتهيأ الكماليون للمعارك القريبة.

ويصل عيد السكريات دون أن تصل جيوشهم إلى مسافات أقرب. وفي مقر أورطاكوي، خليط من الخيبة، والسلوى، إلا سلمى التي تأكل، من شدة الغبن، لعبتها الكبيرة من الأقدام إلى الرأس، تلك اللعبة المصنوعة من السكر والتي قدمتها لها أمها، وعليها أن تلزم السرير، بسبب سوء الهضم.

ـــ أيتها السلطانة الصغيرة، إن كمال باشا لن يأتي... فقد رماه الأغارقة بست فرق. وجيوشه أقل عدداً، وأدنى عـدَّة. وهي تتراجع على كل الجبهات.

وماذا؟ أكان يكفي أن تلازم السرير لمدة أربعة أيام، حتى يتغـيَّـر وجه العالم! لقد كانت مريضة، فضعف انتباهها، وأهملت دعواتها. وها إن الله يتخلى عنهم، وجيش كمال الذي لا يغلب، يتراجع مهزوماً! وتشعر سلمى بأنها خينت: إما من الله أو من الكماليين، أو من الأغارقة. وليس ذلك واضحاً. ولكن من المؤكد «أنهم» استفادوا من غيبوبتها!

وتعلقت باليد الضخمة، يد النونو التي حملت إليها هذا الخبر الفاضح.

ــ على ركبتيك ، إلى جانبي ، يا دادا . نريد أن ندعو وندعو ، ونصلي ونصلي حتى نرغم الله على الإصغاء إلينا . إنه الرحمن ، الرحيم ، العظيم ، الكريم . فلا يسعه أن يكون بمثل هذا الظلم .

ولنسرع ، بالوضوء ، لكي نطهر القلب ، وبالسجادة الصغيرة لكي نعيِّن مكان الصلاة . وهكذا تقف جنباً إلى جنب تلك السوداء السمينة ، وهذه البنت النحيلة الحمراء ، وتبدآن معاً بترداد الجملة التقليدية : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ... لا حق إلا الله ، ولا شيء يتم بدون إرادة الله ... » .

وإذن ، فالله يفضِّل على الشعب التركي الطيب هؤلاء الأغاريق التجار ، المهذارين ، وهؤلاء الإنكليز الذين لا طعم لهم والمغرورين ؟ إن سلمى لا تستطيع أن تصدق ذلك . وها هي راحتا اليدين مفتوحتان باتجاه السماء . وبهذه الحركة التي تعبر عن الخضوع لله ، والتي تمثل في هذه اللحظة ، توسلاً تهتز له الجوانح ، لا تنقطع سلمى عن تكرار قولها :

ــ أيها الإله القادر على كل شيء ، إنني أدعوك أن تساعدنا ، وتحقق النصر لمصطفى كمال باشا !

وكانت دموعها تجري بغزارة جعلت ياقتها المكشكشة البيضاء مبللة كلها .

ولكن هناك سؤالاً ، كان يعذب البنيّة . فلا إله إلا الله ، على ما علمها الشيخ ، وإله المسلمين وإله المسيحيين واحد . فإذا ما تضرّع أطفال المسيحيين إلى الله بنفس القوة التي يتضرع فيها أطفال المسلمين ، فسوف يعيي الله ، أن يختار بينهم ! ويجب أن نجعل الميزان يميل إلى « الجهة الصالحة » .

ومنذ اليوم التالي جمعت سلمى أطفال الإماء والعبيد . وكانوا خمسة عشر من الصبيان والبنات . وكانت هذه المجموعة تجتمع خمس مرات في اليوم ، في زاوية الحديقة ، على مقربة من حقل الورود ، الذي ينثر روائحه الذكية في آخر شهر حزيران / يونيو / عادة . وبعد أن يكون الأطفال قد وضعوا سجادات الصلاة الحريرية ، على طبقة العشب الأخضر ، ليصلوا بكل خشوع ، باتجاه مكة ، وراء السلطانة الصغيرة ، التي تؤم الصلاة وتتلو الآيات المقدسة المطلوبة ، بأكبر التقى .

بيد أن الأيام تمرُ ، وهي تحمل بانتظام لا يتغير ، حصتها من الأخبار السيئة . وهكذا تتأكد هزيمة القوى الوطنية ، وتفوق الأغاريق ، تفوقاً ساحقاً ، وتتساقط المدن واحدة بعد أخرى ، مثل أخيشار وباليكيسير وبانديرما ... وأخيراً بروسة ! إن العاصمة الأمبراطورية القديمة ، والمدينة المقدسة

التي تؤوي قبور السلاطين الأُوَل ، هذه الآية الفنية الرائعة التي تمثل أنقى صور الفن الإسلامي ، وحيث المساجد والقصور تفخر بشجاعة وقوة الفرسان الذين جاؤوا من الشرق ، منذ ستة قرون ، بروسة هذه تسقط في يد الكفرة .

وكان سقوطها هذا ، بالنسبة إلى الشعب التركي ، صدمة مريعة كصدمته بعد سقوط إزمير . وكان الناس مخطئين ، عندما أفرطوا في تعليق الآمال على مصطفى كمال ! ومن جديد تتجه الأنظار إلى السلطان الخليفة . ولا بد أنه سيردّ ، وأن يهب أبناءه تشجيعاً ونظاماً . ولكن أبواب ضولمة باهتشه تظل مغلقة ، ويستمر الصمت يجوب أبهاء القصر الرخامية .

وتغلي سلمى استياءً . فأدرنة وتراقيا كلها محتلة ، والفرق اليونانية مستمرة في التقدم . فلماذا لا يعلن السلطان الحرب عليها ؟

ولا تجيب أمها عن أي واحد من هذه الأسئلة . ومن شدة اليأس فقدت البنيّة الشهية والرغبة في اللهو . وقليلاً فقليلاً ، تهمل جلسات الصلاة التي كانت قد نظمتها ، وأصبحت تلجأ إلى الأحلام والقراءات ، أو تطلب من إحدى الكالفات العجائز أن تروي لها قصة كبار السلاطين ، بدءً من محمد الفاتح ، المنتصر وهو في الثامنة عشرة على أمبراطورية بيزنطة ، حتى سليم الرهيب ، وهو محارب عنيف كان يعود ، متى لقي حبيب قلبه ، فيصبح شاعراً ، ويقول : « إن الأسود كانت ترتجف تحت أظافري القوية الشديدة التمزيق ، عندما شاء القدر أن يجعل مني العبد الضعيف لمراهق له عيون الغزلان » .

وهي تحب أن تسمع كيف أن السلطان أحمد الثالث ، كان يطير من الفرح على يد صديقه نديم الذي كان ينشد أشعاراً ، ويكافئه بملء فمه باللؤلؤ اللطيف . وهي تطرب لسماع قصة الأعمال العظيمة للسلطان سليمان الرائع ، الذي قاد الجيش العثماني حتى أبواب فيينا ، وتطلب أن يشرح لها كيف أن خلفه السلطان محمود ، بما كان له من عقل واضح ، أدخل الحداثة إلى تركيا . فهؤلاء السلاطين ، بقيمتهم كمحاربين ، وألقهم ، أو مهارتهم أغدقوا الشرف على اسم بني عثمان . أما الآن فإن كل شيء يبدو مختلفاً . والباديشاه يعتصم بالصمت . وازدادت سلمى ألماً ، عندما سمعت وهي تمر أمام المطابخ ، طباخين يتجرؤون على القيام بتعليقات غير كريمة ، خلاصتها أن السلطان خائف .

وذات صباح ، جمعت من جديد أطفال القصر . وكان بينهم صبيان وبنات الأمناء ، والسكرتيرية ، وكذلك أولاد سائقي العربات ، والشوّائين ، والبوابين ، الذين تسكن أسرهم في بيوت صغيرة مختبئة في آخر الحديقة غير بعيدة عن الأبنية المخصصة للمطابخ . ذلك أن المطابخ في البيوت

التركية المحترمة، موجودة في أقصى مكان في البناء، حتى لا تفوح الروائح فتزعج أهل المنزل. ومن باب أولى أن يكون الأمر كذلك في القصور الملكية، وما يتفرع عنها.

وكان هؤلاء الأطفال جميعاً في خدمة سلمى، وخاصة جلنار، الترترية السمراء، العنيفة في غضباتها كما هي عنيفة في حماستها، ولكنها لم تكن تحتمل قط كلمة نقد توجه إلى أميرتها، ثم سيكربولي؛ أي «قطعة صغيرة من السكر»، الشقراء، الزهرية اللون كلها غمازات. وأحمد خاصة، أصغر أبناء السكرتير الخاص لخيري بك، ولم يكن عمره إلا إحدى عشرة سنة، ولكن كان محباً، عاشقاً للسلطانة الصغيرة، منذ الأيام التي يتذكّر فيها وجوده. ومتى رآها يحمرّ، ويفقد عقله، مما يثير عصبية الفتاة التي جعلت منه إنساناً لحمل الشقاء. ولكن كلما أمعنت في السخرية منه، آملة أن تجد بعض المقاومة، أمعن هو في النظر إليها بهيئة الحزين الخاضع، وأمعن في حبها.

وفي ذلك الصباح، وأمام جمعيتها بكامل عناصرها، أعلنت سلمى وقررت أن أيام الصلوات قد انقضت، وأن علينا منذ الآن أن نلعب لعبة الحرب. فمن الجهة الأولى، يقوم الأتراك ـــ وعلى رأسهم السلطان ـــ أي هي بطبيعة الحال ـــ ومن الجهة الأخرى يقوم الإغريق. فيصفق الأطفال جميعاً لنظام العمل اليومي هذا، ويتفرقون في الحديقة للبحث عن غصينات رفيعة ومرنة لتكون السلاح الذي يستخدمونه. ولكن عندما آن أوان اختيار عناصر الفريقين، فوجئت سلمى بصعوبة غير متوقعة. إذ ما من أحد رضي أن يكون في «معسكر الأغارقة». ولم يجد المديح، ولا الوعود ولا الوعيد شيئاً، فما من شيء يمكن أن يقنعهم. وكادت أن تبكي من الغضب. فبدأت ترسم على الأرض، وعصاها في يدها، بعض طفحات الغضب المفاجئة، عندما سُمع صوت ناعم يحملها على رفع رأسها، فيقول:

ـــ أنا أريد أن أمثل دور الإغريقي.

وكان القائل أحمد، الذي يثبت عليها عينيه الطيبتين الوفيتين. فشعرت سلمى بلفحة من الاعتراف بالجميل: فهو لا يكتفي بأن يقبل البغيض ليروقها، بل إنه يرد إليها سلطتها عندما حطم حركة العصيان. فابتسمت له بكل السحر الذي كان في إمكانها أن تغري به.

ـــ حسناً، ستكون الجنرال بارافيسكو بولوس. ولكن أين جيشك؟

وكان الجيش، آخر ما يهتم به الصبي. فهو سعيد بأنه أخيراً استطاع أن يرضي سلطانته

بأن يحارب طواعية وحده ، ضد الآخرين . وعلى كل حال فإن القضية ليست في أن ينتصر الأغاريق على الأتراك ، وأقل من ذلك أنه هو أحمد ، سينتصر على التي يحبها .

لكن سلمى لا تفهم الأمر هكذا . فالنصر المفرط السهولة ليس بنصر فتهتف ، وهي تُـمرُّ نظراتها الآمرة على أفراد المجموعة :

ــ من يريد أن يكون إغريقياً مع أحمد .

وعلى أكبر دهشة منها ، تقدمت فتاتان وصبي سمين متفخ الخدين . ويقولون :

ــ إذا كان أحمد إغريقياً فسنكون أغارقة معه .

وتتأمل سلمى فيهم ، بحيرة . فـلِـمَ هؤلاء الذين لم يغـيِّـر رأيهم الوعد ولا الوعيد ، ينضمون تلقائياً إلى جانب أحمد ؟ ومن أين جاءته هذه السلطة عليهم ؟ أمن بساطته ، أم من لطفه ؟ إن هذا غير معقول . ذلك أن هذه ليست بصفات القائد . إلا أن الذين انضموا إليه هم الأكثر امحاءً بين المجموعة ... فأغضبها ذلك ، وانطبع في ذهنها من غير أن تقول شيئاً ، أنهم يعطونها درساً .

وفي هذه اللحظة كان الأطفال جميعهم ينظرون إليها ، منتظرين أن تعطي إشارة بدء المعركة . وحتى لا يقال بأن الأتراك انتصروا على الإغريق بعددهم ، فإنها عمدت إلى جعل جيشها من أربعة عناصر فقط ، وعنيت ــ وهذا صحيح ــ بأن تختار الأعظم قوة . وأخيراً وعندما صار كل شيء جاهزاً للهجوم ، انتصبت بكامل عظمتها ، وشعرها الأحمر اللامع في ضوء الشمس ، ورفعت عصاها ، وهتفت :

ــ الله أكبر

وهجمت ، مع عناصر جيشها ، على العدو .

ومنذ اللحظة الأولى ، كان واضحاً أن الجيش الإغريقي ليس في المستوى المناسب . ولا شك أنه يدافع عن نفسه بشجاعة ، ولكن أنى للفتاتين الصغيرتين ، وللولد السمين أن يقاوموا أولئك الذين اختارتهم سلمى ؟ ثم إنهم أغارقة ، وطبيعي أن يكون نصيبهم الانسحاق . وهكذا فبعد أن أبدوا مقاومة مبدئية ، جاؤوا واستسلموا في جو الصراخ والهتافات المؤذية لهم .

ولكن أحمد وحده ظل يقاتل ، بعنف لم يخطر في بال أحد من المجموعة أن يظنه قادراً عليه . وكان جنود سلمى يحيطون به دون أن يستطيعوا خرق دفاعاته . وكانت عصاه تدور ضاربة على الخد

أو على الرجل ذاك الذي يقترب منه أكثر مما يجب . وفي تلك اللحظة نسي أحمد أنه يُمثّل دو
الجنرال بارافيسكو بولوس ، إذ لم يكن آنئذٍ إلا الفارس الذي يقاتل ، لكي يستحق إعجاب حبيبته

ولكن سلمى لم تعد سلمى ، بل هي السلطان الشديد القوي المتين ، وظل الله على الأرض ولا يمكنه أن يقبل هزيمة جيوشه على يد هذا الجنرال الإغريقي . فتركت أسراها واندفعت إلى الهجوم وحطمت خطوط الدفاع ، ووقفت وجهاً لوجه أمام العدو . وكانت في أوج الغضب . آه ، من هـ البارافيسكو بولوس . إنه يريد الاستيلاء على تركيا ، ورد شعبها إلى العبودية ! وجيشه يحرق القرى ويقتل النساء والأطفال . ويعتقد أنه سينتزع مني استامبول ، ويقلب نظام السلطنة ! .. آه . سيرى هذا الكلب ، هذا الكلب ثلاث مرات ، ما يستطيع أن يفعله تجاه البادیشاه وجيشه التركي . فحتى الآ كان السلطان يتحلى بالصبر . أما الآن فقد تجاوزوا الحدود ، هؤلاء الأغاريق . وسوف يندمون ! . وتضرب سلمى بعصاها ، وتضرب بكل قواها التي تضاعفت عشر مرات من شدة الاستنك والغضب ، وكل الغبن ، والحقد المتراكمة منذ أشهر ، وسيتحرر الأتراك منهما أخيراً ، بحملة ذا عنف لا حدّ له .

ترى هل كان ذلك لأن ذراعها المتعب يؤلمها أو لأنها ، فجأة ، تلاحظ أن صمتاً غير مألوف حلّ محل هتافات الحاضرين ؟ وفجأة تجمدت سلمى . وكان بين رجليها الجنرال بارافيسكو بولوس يصرخ من الألم . وبيديه الصغيرتين الداميتين يحمي رأسه ، على حين أن ثيابه الممزقة ترينا جسداً فـ جروح طويلة .

ــ هل أصبحتِ مجنونة ؟

وعندئذٍ كانت السلطانة تقف أمام سلمى . والوجه ممتقع اللون .

- وهي لا تبدو غاضبة ، ولكنها مستغربة ، متعجبة ، كما لو أنها اكتشفت في ابنتها شيطا يسكنها . وفجأة يعود إلى سلمى وعيها . فهي ليست السلطان وليس الذي أمامها الجنرال بارافيسك بولوس ، الذي يتألم هنا ، غير واع ، بل هو صديقها أحمد . وقد قتلته . فالدموع تخنقها وهي تنحن لتكون قريبة منه . فألصقت خدها على وجه الطفل ، المتقد ناراً ، ومسّت بنعومة شعره ، وهزهز بكلمات رقيقة ــ مما أقنع أحمد أنه قد مات نهائياً ، وها هو الآن في الجنة .

وكان الأطفال ينظرون إلى هذا المشهد ، محزونين . فأهلهم سيجلدونهم بالسياط . ومن يدري فقد يحبسونهم في الغرفة المظلمة . وحتى فكرة أن السلطانة الصغيرة المزهوة بنفسها ، ستعاقب

وأنهم سيحتفلون بجنازة أحمد احتفالاً رائعاً، ويأتون له بأفضل وأعظم النواحات في المدينة، لن تُكفي لمواساتهم. ثم لماذا قبل هذا الغبي بأن يقتل. لقد قاتل في البداية كأسد. ولكن عندما هجمت عليه سلمى، فإنه بدلاً من أن يدافع عن نفسه، نظر إليها، وترك سيفه يهوي على الأرض. أما هي، المندفعة بحلمها، فإنها لم تكن تدرك ذلك، وتستأسد بضرباتها المتدافعة على المحارب الذي بات من غير سلاح.

ويعود صوت الأم مُـدَوياً من جديد، ليقول:

ـــ يكفيك ما تصنّعته حتى الآن، فاصعدي مباشرة إلى غرفتك.

ولم تكن لتصغي لشروح سلمى التي جربت، وهي تشهق من البكاء، أن تفهم أمها أنها لم ترِدِ قتل أحمد، بل قتل الجنرال بارافيسكو بولوس. وهي لا تعرف إلا شيئاً واحداً، هو أن ابنتها ضربت ابن خادمهم، الذي لم يكن يستطيع أن يردّها أو يدافع عن نفسه. وهذا العمل المشين يجب أن يعاقب بلا شفقة، لأنه يتعلق بشرف العائلة.

وأُخبر طبيب القصر العجوز، فجاء بسرعة، وفحص «الجثة» التي وجدها بحالة سيئة، ولكنها حية؛ فأوصى بالراحة التامة، وبمرهم يؤتى به خصيصاً من الهند، وسرعان بعد ذلك ما يقف الصبي على قدميه.

وكان على سلمى في الأيام التالية أن تبقى حبيسة غرفتها. وحُـرِمت كتبها كلها، ولم يترك منها إلا القرآن. ولم تعد ترى إلا الخادمة التي تأتيها بوجباتها من الخبز اليابس، الذي يعطى عادة للخيول. وحتى هذه المرأة نفسها كانت مأمورة بأن لا توجه إليها الكلام. ولما كانت متأثرة، على كل حال، لقلق سلمى، على أحمد، فقد وافقت على هز رأسها، مطمئنة. وهكذا قضت أسبوعين في هذه الحال. ذلك أن السلطانة تريد أن يكون العقاب نموذجياً.

وذات صباح، أوقظت سلمى بفعل غناء رتيب غير مألوف. فأصاخت السمع، فعرفت غناء المؤذنين الجنائزي، الذي ينقل من مئذنة إلى أخرى، خبر حزن وطني. وعندما أطلت من النافذة، رأت عن بعد ذلك الجمهور الذي يتزاحم في الطرقات. ترى ماذا حدث؟ وهل مات السلطان؟

أما الأمة التي تأتي إليها بالخبز، فقد كانت دامعة العينين، وفي هذه المرة، لم تجد صعوبة في

الجواب . فالسلطان لم يمت ، ولكن الذي حدث أسوأ وأسوأ . فالمفوضون العثمانيون المرسلون إلى فرنسا ، لم يستطيعوا التخفيف من غلواء الحلفاء . واضطروا إلى التوقيع ، في سيفر ، على معاهدة غريبة من نوعها ، كان الحديث يدور حولها منذ ثلاثة أشهر ، دون أن يتخيَّل أحد لحظة واحدة ، أنه يمكن عقدها . إنها معاهدة تنص على تجزئة تركيا تجزئة كاملة .

وكان نهار الحزن هذا نهار تحريرها . إذ ترى السلطانة أن ابنتها قد عوقبت عقاباً كافياً وأن الحوادث ، على كل حال ، هي من الخطورة بحيث أن كل ما عداها تافه لا قيمة له .

١٣

ويأتي الربيع ، ويذهب قباب استامبول ، بعد أتعس شتاء عرفته سلمى في حياتها . ذلك أن المدينة ، بعد المظاهرات الهامة التي تبعت توقيع معاهدة سيفر في ١٠/٨/١٩٢٠ ، انطوت على نفسها في حزنها وذلها . وعلى الرغم من إقالة حكومة الداماد فريد ، الإنسان المكروه بالإجماع ، فإن ذلك لم يخرجها من سكينتها إلا قليلاً . وكان هذا السيد القصير ، الممتلىء ، المتفاخم ، ضحية ميله للإنكليز . ولا مجال لأن يسامحه الشعب على توقيعه المعاهدة المشؤومة ، وأقل من ذلك أنه حاول أن يحمل السلطان على توقيعها .

وفي العاصمة ، كانت الحياة تصبح صعبة أكثر فأكثر ، على حين أن الجنود الفرنسيين والطليان ، الذين رأوا أن الاحتلال سيطول ، عادوا إلى مألوف عاداتهم وأصبحوا يختلطون بالناس في شيء من التلاطف ، أما الإنكليز فقد ظلوا مقيمين على يبوستهم . وبحجة المحافظة على النظام ، يضاعفون التدابير المزعجة ، فهي تتكاثر على الشعب المسكين ، الذي لا يفهم منها شيئاً . وآخر ما كان من هذه ، هو برهان على حب أبناء « آلبيون » للحيوانات ، جعل المدينة كلها تستغرب وتندهش : فالإمساك بدجاجة من رجليها ، وهو سلوك أكثر سادية من أمثاله ، يعاقب بغرامة قدرها ١٠ ليرات ، وهي مبلغ ضخم بالقياس إلى أجر العامل الذي يبلغ ٨٠ ليرة شهرياً . فإذا احتج التركي المسكين على ذلك ، فعليه عندئذٍ أن يدفع ٢٠ ليرة ، وهكذا يرتفع المبلغ حتى يخرس ، بعد أن

يفرغ جرابه من المال ، ويقتنع أن هؤلاء الإنكليز هم بين أمرين ، فإما أنهم مجانين تماماً وإما أنهم أنذل الأنذال على وجه الأرض .

والواقع أن أكثر هذه التجاوزات إنما تنشأ عن المشرقيين (Levantins ؛ أي الأوروبيين الكاثوليك ذوي الأصل الإيطالي أو الفرنسي ، المقيمين في استامبول) . ولما كانوا يسكنون استامبول منذ مدة طويلة ، فإن بعضهم لبسوا في ظل الاحتلال ، اللباس العسكري البريطاني ، بغية معاونة الحلفاء . ولما كانوا يرفعون بسرعة إلى رتبة رائد ، أو مقدّم ، فإنهم يستفيدون من سلطتهم الجديدة ، لكي يقوموا تحت ظل المملكة المتحدة وألوانها ، بخدمة مصالحهم الشخصية الصغيرة ، وزيادة ثروتهم .

واستولى وهن العزيمة على الناس . ففي أوائل شهر كانون الثاني / يناير / ، كان هؤلاء يظنون أن كل شيء سيتغير . واستطاع عصمة باشا ، وهو زميل لمصطفى كمال ، أن يوقف تقدم الأغارقة ، في الأناضول ، قريباً من نهر إينونو . وكان ذلك أول انتصار للقوى الوطنية . فاحتفل الناس جميعاً به ، وفي كل بيت ، بحماسة كبيرة . وخلال أيام وأيام بقيت استامبول تترقب ، باعتبار أن هذا النصر هو بداية الهجوم المعاكس . ولكن ما من شيء حدث بعد ذلك ، وعادت المدينة إلى غيبوبتها .

وكانت القوى الكمالية أضعف من أن تستطيع متابعة نصرها هذا . ومنذ عدة أشهر ، كان عليها ، لا أن تقاتل ضد الأغاريق ، فقط ، ولكن ضد عصابات من الفلاحين الأتراك . ذلك أن الاستبعاد عن جماعة المسلمين الذي أفتى به شيخ الإسلام ، زرع الشك في القلوب . وعبثاً نادى مصطفى كمال بأنه يحارب من أجل السلطان الخليفة ، إذ لم يُصدّق ذلك إلا جزئياً ، وكثيرة هي القرى التي كانت تأبى التعاون معه .

وتخيّل كمال باشا ، طمعاً في كسب ثقة الشعب ، أن يستقدم إلى جانبه ولي العهد ، المعروف بتعاطفه مع الوطنيين . ولكن الأمير عبد المجيد رجل حالم ، فنان ، وليس برجل يصلح للعمل . ولقد تردّد ، وطلب النصح ... وأخيراً فإن الإنكليز سمعوا بهذا المشروع ، ووضعوا حداً لتأجيلات الأمير ، فأرسلوا إليه حوالي المئة جندي ليحاصروا بيته .

وفي ذلك الحين قرر ابنه عمر فاروق أن ينضم هو نفسه لكمال في الأناضول . وكان هذا الأمير قوي العزيمة ، طموحاً ، يتحرق على أن يلمع اسمه من خلال الدفاع عن البلد . ولكنه وهو المغرم

بصبيحة ، زوجته الشابة ، الحامل يومئذ ، مضطر لانتظار ولادة الولد . وعندما سافر ، بسرية تامة ، كان قد حَـلَّ الربيع .

وسلمى معجبة جداً بخالها « الرعد » وبهذا يلقبه الأطفال . ذلك أنه مشهور بغضباته بقدر ما هو مشهور بجمال هيئته . وكَمْ تحب أن تكون رجلاً لتصحبه إلى الأناضول ! ولهذا فإنها تنظر باحتقار إلى أخيها خيري الذي يستمر في أكل السكاكر ، والعزف على الكمان ، دون أن يساوره أي اضطراب .

وتشعر سلمى بالضجر ... ففي القصر تمضي الأيام ببطء . وتضاءلت المناسبات الاجتماعية . وحقاً فقد بدأت أفضل العائلات ، تشعر بالضيق ؛ فهي لا تتلقى أجور الملكيات الزراعية الموجودة في أراضي الأمبراطورية التي أصبحت مستقلة ، ولا أجور العقارات التي يسكنها مسيحيون . فقد نسي هؤلاء ، منذ بدء الاحتلال ، دفع هذه الأجور . وحتى خديجة السلطانة نفسها لا تستطيع أن تبقي صورة حياتها المألوفة إلا ببيع بعض المجوهرات . ولم تعد سلمى تستغرب رؤية ميميجيان آغا يزور بيتهم بانتظام ، ويغادره ومعه علبة مجوهرات تحت إبطه .

ولحسن الحظ فإن الخياطات عدن مع فصل الربيع . ومن الضروري تجديد ما في الخزانة من ثياب ، ولا سيما ثياب سلمى التي غدت تنوراتها القصيرة جداً ، تجعل عجائز الكالفات يقطبن الجبين . ذلك أن البنية على وشك أن تبلغ الأحد عشر عاماً ، وهذه الحاشية تحاول أن تقنع السلطانة بأنه قد آن الأوان لجعلها تضع الشرشف . ولكن خديجة صرخت وقالت :

ـــ سلمى ما زالت طفلة !

ترى هل كانت تعتقد ذلك فعلاً ، أو أنها كانت تحاول أن تصون ، إلى أطول مدة ممكنة ، حرية ابنتها ؟ ولكنها صـرَّحت بأقوى ما تستطيع ، أن السلطانة الصغيرة لن تحمل الحجاب إلا في الثانية عشرة . وكان في وسع الألسن الطويلة أن تهذر دوماً .

وكانت حجرة الخياطة ، المغطاة الجدران بقماش من الكريتون الأبيض ، وبالمرايا العالية ، تعج حيوية . ثم إن الخياطات ، الإغريقيات عادة ، قد جلبن آخر مجلات الأزياء في باريس ، مع موديلات الخياط لافيريير ، وأكواماً من الأقمشة الرائعة . ولأول مرة طلب من سلمى أن تشارك في الرأي في اختيار ثيابها . فزادها ذلك حيوية ، وجعلها تقلب النماذج ، وتنتقل من واحد إلى آخر ، وتضع على جسمها ، هذه القطعة من القماش أو تلك ، دون أن يستقر رأيها على شيء . ولكن ليس لهذا من

أهمية، فلديها ما يكفي من الوقت لتناقش، وتلمس، وتقارن، وتختار، وتقـرِّر حتى في التفاصيل، ثم أن تغيِّـر رأيها بعد ذلك. إذ أنه ليس أمامها من تسليات كثيرة غير هذه. وكلما طال التردد وجدت الخياطات لذة أكبر، لأنهن ينتقلن عندئـذٍ من الدور العادي للمنفـذات، إلى دور الناصحات، والحكم. ولن يكن بعد ذلك قليلات الفخر بأن يقلن لزبائنهن الأخريات المأخوذات بأقوالهن:

ــ إن السلطانة وابنتها لا تثقان إلا بي. أرأيت الفساتين اللاتي كن يرتدينها، في الاستقبال الأخير؟ إنني أنا الذي أوحيت لهن بشكله، ولونه.

وعلى أن سلمى كانت تتخيل الموديلات الأكثر مناسبة لها، فإنها كانت تنظر خلسة إلى هؤلاء النسوة. فهن تسع، اثنتان منهن تفصلان الفساتين، وثلاث خياطات، وأربع مطرزات. ومنذ زمن طويل كان القصر والبنيات يعرفنهن جميعاً. وكن ينادينهن كلاً، باسمها، فهي إذن تعرف ما هن فيه من هموم صحية، كما تعرف أسماء أولادهن، وعمر كل منهم. وليس هنالك إلا موضوع واحد لا يناقشنه مطلقاً، وهو الحرب. وسلمى تتحرق إلى سؤالهن لماذا شاء أغارقة استامبول أن يقلبوا ظهر المجن لمواطنيهم الأتراك. ولكنها لا تجرؤ على طرح هذا السؤال.

وكانت الشمس قد انحدرت إلى المغيب، عندما أحنت الخياطة الأولى رأسها، وغمزت بعينيها غمزة مهنية، وبدأت تأخذ الأقيسة ولكن عن بعد، ذلك أن من المحظور أن يَـمـسّ الإنسان أحداً من أعضاء الأسرة المالكة. وعندما يتعلق الأمر بخياطة الثياب التقليدية الواسعة، فإن هذا لا يثير أية مشكلة. أما بالنسبة للفساتين الأوروبية، التي ينبغي أن تخاط على مقاييس الجسم بدقة، فإن هذا العرف يثير مصاعب كبيرة، وكثيراً ما تكون السلطانة مرغمة على تغيير موضع الدبابيس بيدها، مما يجعلها ترغي وتزبد داخلياً، ضد هذه العادة المزعجة، من غير أن تجهل أنها ضرورية. ففي مثل هذه الأيام المضطربة، يكون من الضروري، أكثر من أي وقت آخر، أن نصون الأعراف، فهذا أساس جوهري للاحترام، كالشخصية نفسها. والآن ما دامت القدرة قد فقدت، فإن الاحترام يظل الأساس الأخير للعرش.

ومنذ بعض الوقت، تعودت سلمى أن تختلي بنفسها لكي تحلم. والزاوية التي تفضلها لهذا، هي كشك من الخشب الزهري، محاط بدرابزين محفور حفراً فنياً رفيعاً، يسمونه «جناح البلبل»، لأنه يقوم في زاوية من الحديقة، حيث تعـوّد هذا الطائر أن يبني عشه. وهي لا تمل ولا تكل من

سماع زغاريد هذه الروح الظمأى إلى الحب ، والتي تزعم الأسطورة ، أنها ، وقد أيأستها لا مبالاة الوردة ، قضت حياتها وهي تشدو ، محاولة أن تغويها .

وكان الطقس لطيفاً . وسلمى المتمددة على طول الكيليم (أي السجادة التركية) ، تتسلى بتغضين عينيها وتحاول أن تروض الشمس ، وهذه لعبة تحظرها الآنسة روز كما تحظرها مربيتها ، اللتان تدعيان أنها تنتهي إلى إفساد الحدقة . وعندما فتحت عينيها لاحظت زولاً يبتعد باتجاه القصر . ومع أنها ما تزال مبهورة ، ولا تميّـز ما تراه بوضوح ، فإنه يبدو لها أن هذا الشخص هو العم ــ الرعد القاصف ! ولكن هذا مستحيل ، فالعم القاصف في الأناضول . وهو يحارب إلى جانب مصطفى كمال . أما زوجته ، التي توجد حالياً لدى خديجة السلطانة ؛ فقد جاءت لتقرأ لها رسالة الأمير عمر فاروق ، الأخيرة . وبقفزة واحدة ، نهضت البنـيّـة ، وبدأت تتبعه على رؤوس أصابع قدميها .

وعندما وصلت إلى البهو الأزرق ، سمعت صوتاً حاداً يقول :

ــ إنه لم يردني ، وهذا كل شيء !

وحقاً فإن الرجل هو الأمير فاروق ، ويداه وراء ظهره ، وهو يمضي إلى الغرفة ، ووجهه ينم عن الحزن ، أما سؤالات زوجته الخجلى ، وخالته ، فيبدو أنها تثيره إلى أبعد مدى . وفجأة يصـرِّح قائلاً :

ــ لقد كنا في أكمل السذاجة ، عندما اعتقدنا أن كمال سيقبل مساعدتنا لإنقاذ تركيا . أما مساعدة الشيوعيين ، وعصابات الأشقياء ، فنعم ! ولكن لا مساعدة أمراء الأسرة المالكة ! ففكروا ... إن الشعب يعرف جيداً أن أسرتنا هي التي بنت أمجاد هذه البلاد . فإذا تركنا كمال نحارب ، فربما أنقصنا من أمجاده . ولقد دعانا عندما ظن أنه انتهى ، إلا أن معركة إينونو ، وتحالفه مع البولشفيك ، أنقذاه من ورطته . وهو يرى الآن أنه ليس بحاجة إلينا . ويظن الكثيرون أنه يحاول أن يظهرنا كخونة ، حتى يقضي علينا ذات يوم ، ويستولي على السلطة . ولكنه لن يصل إليها غداً !

وأخذ الاستنكار والاستياء يبلغان منه كل مبلغ ، فضرب على منضدة صغيرة بقبضة يده ، فانهارت هذه من أثر الضربة .

ومن غير أن يعير أي انتباه لذلك ، تابع كلامه ليقول :

ــ إن الشعب التركي يحبّنا . وليتك رأيت الاستقبال الذي هيأه لي أهالي إنيبوغلو ، عندما نزلت على الشاطىء . كان هؤلاء الناس الطيبون يبكون من شدة الفرح ، تماماً كما لو أن السلطان هو نفسه الذي جاء ليحارب معهم . وخلال الأيام التي قضيتها بينهم بانتظار جواب كمال عن عرض

خدماتي ، كانت مجموعة من الفلاحين من كل القرى المجاورة ، تأتي لتراني ، وتلمسني ، وتقت
بأن الباديشاه لم يتخل عنهم ... ولم يكونوا يملون من سماعي ، أروي كيف أن المركب ، الذي حمل
من استامبول ، فتّش من تحت لفوق من قبل الإنكليز ، وكيف قضيت ست ساعات ، مخبأ
خزانة ، ومسدّسي في يدي ، مقرراً ، فيما لو اكتشفت ، أن أحرق دماغي بدلاً من أصبح سجينهم

ـــ وإذن ، فيا إلهي ، لِمَ عدت ؟

إنه الجنرال الأمير عثمان فؤاد ، الذي وصل منذ بضع دقائق ، والذي لا يستطيع أن يكظ
غيظه . فهو لا يحب القصص التي لا يكون هو بطلها .

وبهدوء وبطء ، يلتفت عمر فاروق ليحدّق في وجه ابن عمه ، ويقول له ببرودة كبيرة .

ـــ وأنت ، أيها الأمير ، لماذا لم تسافر ؟

وتكهرب الجو ، فتتدخل خديجة السلطانة ، قائلة :

ـــ أرجوكم .

والتفتت إلى الأمير فاروق ، بعد أن اتخذت سمة المعجبة جداً .

ـــ وإذن ، يا صاحب السمو ، ما الذي جرى ؟

ـــ وبعد بضعة أيام ، تلقيت رسالة من أنقرة ، وفيها كان الجنرال ، يشكرني بأحسن صه
التهذيب واللياقة على أني جئت ، ويثني على شجاعتي . ولكنه أضاف يقول : إنه لا يريد أن أرك
المخاطر ، وأن علي أن أحتفظ بنفسي لمصائر أعلى ، خدمة لمصلحة الشعب العليا ؛ أي أن ذلك ك
طريقة مهذّبة ، ولكنها واضحة ، لرفض مساعدتي ، وإعادتي إلى بيتي .

وتتنهد زوجة الأمير الشابة ، لتقول :

ـــ إني خائفة . فالباشا بلا ريب عبقرية عسكرية . ولكنه كذلك شيطان من أكبر شياط
الطمع والطموح . وتؤكد حكايتك مخاوف أبي السلطان . فعندما أرسله جلالته إلى الأناضول ، و
به . أما الآن فإنه يعتقد أنه قادر على أن يفعل كل شيء .

وكان الصمت يتثاقل ، في البهو الأزرق . ولما كانت حكاية الأمير فاروق قد أوقع

الاضطراب في نفس خديجة السلطانة ، فإنها تتساءل عما إذا كان السلطان وحيد الدين ليس على حق ، وأن مصطفى كمال ، الذي دافعت عنه دوماً ، لم يكن في سبيله إلى أن يخونهم جميعاً .

١٤

في الأشهر الأخيرة، تغيّرت السلطانة الصغيرة تغيراً كبيراً. إذ لقد أصبحت مراهقة. ومن خلالها، كانت الإماء يمتدحن هيَفها ورشاقتها كسروة فتية، ولون بشرتها الأبيض كالقمر. ولقد قرّرت السلطانة أن تعلمها، عدا البيانو، العزف على القيثارة، مما يتيح لها أن تعرض محاسن ذراعيها اللذين يعدان بأن يكونا غاية في الجمال. وسلمى تتلذذ بهذا الثناء، وتبدأ باكتشاف ما فيها من سحر وتجرّب ما لديها من مفاتن في إغراء أحمد، الذي أصبح بعد أن كادت تقتله، أفضل أصدقائها.

وكانت الخمسة عشر يوماً التي قضتها في العقوبة، في غرفتها، امتحاناً حاسماً. إذ أنها بعد أن بكت كثيراً، وثارت على هذا الجزاء الذي كانت تعتبره ظالماً، صارت تجد فيه نوعاً من اللذة، هو أن تظل وحدها، غير مفهومة، ضد كل الناس. وخلال ساعات طويلة، روت لنفسها القصص العائلية لشهداء الإسلام والصوفيين الذين أدانهم، هم أيضاً، مجتمع لم يكن يفهمهم. وكانت المشابهة التي تجدها بين موقفهم وموقفها قد ردّت إليها الشجاعة، وأتاحت لها تجاوز المحنة.

ولقد احتاجت إلى أن تستدعي إلى جانبها كل هؤلاء الأبطال، ذلك أنها كانت في سبيلها إلى أن تفقد تلك التي كانت، حتى ذلك الحين، تقدسها أكثر من كل شيء؛ أي أمها. ذلك أن أمها التي كانت تبدو لها على درجة عالية من الكمال، والتي كانت ترى أنها، بالقياس إليها، ضئيلة جداً، حكمت عليها حكماً ظالماً وبغير حق... بل إنها لم تحاول حتى أن تفهمها... وعبثاً قلبّت

سلمى هذه المشكلة في ذهنها، وأعادت التقليب، من كل الوجوه. وإذن فلا بد أن واحدة من الاثنتين كانت على خطأ. وكانت تعلم أنها لم تكن هي المخطئة. ومن الغريب أن هذه النتيجة التي كان عليها أن ترضيها، كانت تزيد تعاستها أكثر فأكثر. فكانت تعيسة كما لم تكن في أي يوم من الأيام، وتقريباً يائسة.

وذات ليلة، رأت حلماً. وكانت فيه، في زنزانة مظلمة، وفي كل حركة من حركاتها، كانت تصطدم بحديد هذه الزنزانة. وفجأة تسمع صوتاً يقول لها: «لماذا لا ترفعين هذه العصابة الموجود على عينيك. فإذا رفعتها فأنك سترين ما حولك بوضوح ولن تعودي لتتألمي منها».

ولكنها سألت نفسها: كيف أرفع هذه العصابة؟ إنها أصبحت جزءاً منها، وملتصقة بحدقتيها التصاقاً يُوشك، إذا هي انتزعتها، أن تقتلع معها عينيها. وكانت تبقى فريسة لكل هذا الاضطراب: ترى أيكون أفضل أن أبقى إلى ما لا نهاية في الظلام، دون أن أستطيع الحراك، أم أن أتخلص من هذه العصابة، وأغامر بأن أصبح عمياء؟ وأخيراً فإنها اختارت الحل الثاني ووضعت يدها على العصابة. وعلى أكبر دهشة منها، ذهبت العصابة، من أول لمسة، وبدأ العالم يظهر لها كما لو أنها لم تره كذلك من قبل، مضيئاً وفي متناول اليد.

وفي اليوم التالي شعرت سلمى بأنها أصبحت أفضل حالاً، إلى الدرجة التي لم تعد فيها تفهم كيف أنها، خلال أيام كثيرة، استطاعت تحمل مثل هذا الكابوس. كان العالم يظهر لها مضيئاً ولم تعد بحاجة إلى عيني أيندجيم لكي ترى.

وكانت أمها الشديدة القوى، مخطئة. وسلمى لم تمت من جرّاء ذلك. وكان هذا الاكتشاف يفتح آفاقاً من الحرية اللا متناهية.

ومرة أخرى استطاع الكماليون أن يردوا الأغارقة، على مقربة من نهر إينونو الصغير. وتوقفت المعارك مؤقتاً. واستامبول تسمح لنفسها، من خلال هذه الانتصارات الصغيرة، أن تحتفل من جديد. وكان ذلك في منتصف نيسان / أبريل /. كان الضياء شفافاً والهواء ناعماً حريرياً كشفتي مراهق. أما على واجهات القصر، على امتداد البوسفور، فقد كانت عناقيد «الجهنمية glicines» تنشر أريجاً فيه من التغرير ما يطيش منه الإنسان. ومن وراء جدران الحدائق والبساتين، كان الزعرور والياسمين يعطّران الشوارع، ويخدّران الحواس.

وعاد الناس يتنزهون في «المياه الأسيوية الحلوة» وكانت المراكب (الكاييك)[1] المفروشة بالمخمل المطرّز بالذهب الذي شحب لونه بعض الشيء، تنزلق، صامتة، على النهر الصغير، غوكسو Göksu، كما كان شأنها في أيام ألقها. والعلامة الوحيدة على ذلك الزمن الذي كان الناس فيه، هو أن المجدّفين كانوا أقل عدداً، لأن الكثيرين منهم التحقوا بكمال في الأناضول.

وكان النهر من الضيق، بحيث أن المراكب، عندما تتلاقى، تكاد يمس بعضها بعضاً. ومن مركب إلى آخر، كان الناس يتبادلون تحية، أو كلمة لطيفة. وأحياناً كانوا يتشجعون، فيحاول شاب أن يرنو ببصره إلى إحدى الجميلات. فإذا كانت هذه جدّية، فإنها سرعان ما تختفي وراء مظلتها. وإلا فإنها تنظر إلى البعيد، بعيون حالمة. وعندئذ يأخذ الشاب الزهرة التي تزيّن عروته ويحملها إلى فمه. فإذا ابتسمت الفتاة، مما يشير إلى حرية كبيرة في العادات، فإن الشاب يغامر بأن يرمي الزهرة لتقع في حضنها. ولكن لا بد، قبل الوصول من ذلك إلى مثل هذه الحركات الجريئة، أن نلاحظ مجموعة من صور الإشارات المقنّنة بدقة، في التعامل بين الصبايا والشباب. فإذا لعب الطّامح بقطعة من السكر، فهذا يعني: «إن قلبي يرغب فيك رغبة حارة»، وإذا لعب ببرقوقه، فهذا يعني: «إني في أشد الأسى»، وإذا وضع بين يديه منديلاً من الحرير الأزرق، فهذا يعني: «إنني عاشقٌ إلى أبعد الحدود».

لكن الهدوء لا يدوم إلا مدة قصيرة. ففي ١٣ حزيران /يونيو/ ١٩٢١ وصل الملك قسطنطين اليوناني إلى إزمير، ومعه خمسة وثمانون ألف جندي. ويتعمد ألا ينزل في مرفأ المدينة، بل في المكان الذي نزل فيه الصليبيون قديماً. وكان هدفه أن يسحق أنقرة، قلب المقاومة، ويستولي على استامبول. أوليس الله معه؟ وكانت هنالك نبوءة مشهورة تروى عن البابا جوهانس، تؤكد أن الملك المسيحي جداً، سيدخل المدينة، أي القسطنطينية على ما ظلت تسمى لدى الغرب، ويطرد منها البرابرة. ولما كانت هذه النبوءة تقوّي من عزمه، فإنه قام يوم ١٣/٨/١٩٢١ بهجومه الكبير ضد أنقرة.

وهجم الرعب على المدينة. ذلك أن الأغارقة الأكثر عدداً والأفضل عُدداً، يتقدمون بسرعة، والجيش التركي يتراجع باستمرار. وها إن قسماً من سكان العاصمة الكمالية، وحتى من النواب، يستعدون لمغادرة المدينة والرحيل عنها. أما مصطفى كمال الذي امتلأ قلبه بغضب شديد، أمام هذا

(١) يقال الكاييك، أو القايق، كما نريد.

الجبن، فإنه يقضي (وهو يعلن حقه في الصلاحيات الكاملة، ويعتبر نفسه القيادة العليا للجيش، وهو لقب كان حتى ذلك الحين، يحتفظ به للسلطان) بتعبئة كل الفلاحين في الأناضول، ويقوم بمصادرة الرجال والنساء لمساعدة الجيش الوطني. وكانت خطته تقضي بإيقاف زحف الأغاريق على صقارية، وهي آخر خط من خطوط الدفاع الطبيعي، على أقل من ١٠٠ كم من أنقرة.

أما في استامبول، فإن الشعب فقد كل أمل. وبالمقابل، فإن الإشاعات المتناقلة في الأحياء الإغريقية ــ المشرقية، لبيرا، تدّعي أن مصطفى كمال قد سُجن، وبدأ الناس يتشاربون الشمبانيا. ثم إن المطاعم والكباريهات لم تكن تفرغ قط. وبصورة خاصة. فإن كاباريه الوردة السوداء، وهي أفخم ما هو من نوعها في المدينة، حيث يقوم بخدمتها منفيات روسيات ــ أو لاجئات ــ وهنّ أميرات أصيلات على ما يقال ــ ويقدِّمن ما يُشرب، وعليهنّ هذه السمات المتميّزة، ويرقصن الفالس، حتى الصبح مع الزبائن.

وخلال اثنين وعشرين نهاراً واثنتين وعشرين ليلة، استطاعت القوى الكمالية الثبات في مواقعها. وكانت المعركة عنيفة وباعثة على اليأس، وكل من الطرفين يعلم أن مستقبل البلد يتعلق بها. وفي ١٠/١١ كان الجيش الإغريقي يتراجع هارباً؛ فنجت تركيا.

وعم الابتهاج كل أنحاء الوطن. ففي استامبول، امتلأت المساجد بالناس.. واحتفل الشعب، من غير اهتمام بالمحتل، بالنصر، احتفالاً ضخماً. ولم يعد الناس يمرون بالشوارع، ملتصقين بجنباته، بل أصبحوا يمشون حتى في وسطها، والجبينُ عالٍ. وعندما يقابل الإنسان جندياً بريطانياً، ينظر إليه نظرة السخرية، كما لو أنه يقول له: «أما أنت فلم يعد مقامك بطويل!».

ولكن الحرب لم تنته مع ذلك. وفيما عدا العاصمة، فإن نصف البلاد ما زال محتلاً. أما في الخارج، فإن الحكومات تبدأ بأن تفهم أن الرياح قد غيَّرت اتجاهها... وأرسلت باريس، دون أن تضيع لحظة واحدة، سفيرها الجذاب، فرانكلان بويون، الملقب بأمير المشرقيين «Le Prince des Leveantins»، وذلك لإجراء محادثات مع مصطفى كمال. وكان يحمل بين ما حمله بعض عشرات الصناديق من أفضل الكونياك ــ وبدأت السفارات تعرف مواطن ضعف الرجل العظيم، لا سيما وأن بويون يحمل معه وعداً برحيل القوى الفرنسية من مقاطعة كيليكيا، وكذلك عرضاً للصلح، على أكبر غضب من لندن.

وكانت الأشهر تمضي، وكمال باشا يعزز جيشاً دون أن يستعجل، وأمامه كان الأغارقة يتهيأون.

وكان الرأي العام في أثينا ، يبدي المعارضة لاستمرار الحرب . أما في الخنادق فإن العزائم تهن وهناً كبيراً .

وأخيراً ، وفي ٢٦ آب /أغسطس/ ١٩٢٢ ، وعلى حين أنه لم تطلق أية رصاصة منذ سنة تقريباً ، علم الناس أن الجيش التركي قام بهجومه ، على نداءات القادة : «أيها الجنود، إلى الأمام ، إن هدفكم هو البحر المتوسط» . وتقدم الجيش باتجاه إزمير : وتراجعت قوات اليونان بحالة الفوضى والاضطراب .

ولم يكن أهالي استامبول ليجرؤوا على تصديق ذلك . ولكن سرعان ما عُـلم أن مدن آيدين ، ومانيزا ، وأدزاك ، قد تحرّرت . وعندئذ انفجرت الحماسة ، إلى أقصى مدى .

أما السلطان وحيد الدين فإنه ، في قصره ، يلديز ، حيث يسكن ، بعيداً عن عظمة ضولمة باهتشه ، يمضي أيامه في الصلوات . ولا يقطعها إلا لكي يرسل سكرتيره الخاص ، بحثاً عن الأخبار : فإلى أين وصل تقدم القوى الوطنية ؟ وهل تقدمنا على طريق إزمير ؟ وهل نحن حقاً في حالة من يربح ؟

وأما مكاتب الصحف ، فقد استولت عليها الجماهير . ولم يعد بالإمكان أن يخرج أحد لتوزيع الصحف المطبوعة حديثاً ، بل أصبحت ترمى من أعلى الشرفات . وتوقفت الحياة كلها ، فلا تجري إلا دقيقة بعد دقيقة ، مع تقدم الكماليين .

وأخيراً ، وفي ٩ أيلول ، علم أن جيوش الجنرال ، قد اقتحمت إزمير ، وأن الجنود الإغريق قد هربوا منها لا يلوون على شيء . أما في الشوارع فقد أضيء كل مكان ، وزين باللافتات والأعلام . وكان الناس يتعانقون ، وهم يشهقون باكين من الفرح . والآن ، وبعد اثني عشر عاماً من الكوارث والذل ، استطاع الشعب التركي أن يرفع رأسه . وفي هذه المرة كان النصر كاملاً ، والحرب قد انتهت فعلاً .

ومن مئذنة إلى مئذنة ، كان المؤذنون ينشدون ما يمجدون به العظمة الإلهية . وتتابعت في المساجد الاحتفالات بالنصر ، دون انقطاع . أما الاحتفال الأعظم فقد تم في مسجد أياصوفيا ، حيث ذهبت سلمى وأمها في ذلك النهار نفسه الذي تم فيه تحرير إزمير . وهناك ظلّتا ، وكل واحدة تضم الأخرى بين الجماهير المحتشدة ، ظلّتا ساعات ، في حالة الجمود ، وهما تبكيان .

وبعد خمسة عشر يوماً من ذلك التاريخ غادر الأسطول الإغريقي مياه استامبول ، وأعلن عن الهدنة بتاريخ ١١ تشرين الأول /اكتوبر/ ، ووقعت بناءً على طلب من قوى الاحتلال ، هذه المرة .

١٥

في هذا اليوم ، كان مزاج سلمى سيئاً . فقد احتفلت البارحة بعيد ميلادها الثاني عشر ، أي في أبأس يوم من أيام حياتها .

ذلك أنها وجدت بين الهدايا العديدة التي قدِّمت لها ، علبة كبيرة كتلك التي تتلقى فيها أمها ، أثوابها من باريس . ورفعت الغطاء ، كالمحمومة ، مغلقة عينيها ، ثم فتحتهما ... لتجد شرشفاً من الحرير ، فيروزي اللون ، ومعه وشاح من الموسلين .

فانقبضت حنجرتها ، وفاضت عيناها بالدموع . فأدارت ظهرها لما وجدته ، وعلى الرغم من إلحاح الكالفات اللواتي يهنئنها بالصعود إلى مرتبة المرأة ، فإنها رفضت ، بكل حسم ، أن تجرب هذا السجن المتنقل .

وإنها الآن لعاتبة على والدتها ، أنها خضعت للأعراف ، لا سيما وأن استخدام الشرشف كان في طريقه إلى الزوال ، إن لم يكن في المدن الصغيرة ، ففي العاصمة على الأقل . وكانت الأنيقات من الفتيات أو النساء قد حَـوّلن هذا الثوب الفضفاض إلى ثوب من قطعتين متلائمتين فيما بينهما ، ثم دفعن الحجاب بأناقة إلى طرف الرأس ، ولم يعد إلّا زينة لها أطيب الآثار .

واستاءت الكالفات ، وقلن لها :

— إنهن بغايا ونساء سيئات السلوك ، بل وأسوأ من ذلك ، هن مثقفات ، أو ثوريات ، كهذه

الخالدة أديب وزميلاتها. وبحجة تحرير المرأة ... تتنزه الواحدة منهن، وليس على وجهها شيء. وأكثر من ذلك أنهن يضعن تنورات تكشف عن الكعب، وحتى عن ربلة الساق (بطة الرجل)! أما السلطانة، فلا يمكن أن تنحط إلى هذا المستوى، وعليها أن تصون الأخلاق وتقاليد الإسلام.

الأخلاق! وما شأن الأخلاق في هذا كله؟ ولماذا يكون الكشف عن الوجه والشعر أسوأ على المرأة منه على الرجل؟ إن سلمى لا يفارقها الغضب من هذا.

وعادت إلى القرآن، بحماسة من يعتنق الدين حديثاً، فهي تفهم الآن العربية، بدرجة كافية، وتقضي أياماً في البحث عن الآيات المتعلقة بالنساء. وما من آية، ما من آية، على وجه الإطلاق، ورد فيها، ما يدل على أن المرأة يجب أن تحجب وجهها، وحتى شعرها، على حين أن المشايخ يقولون: إنها خطيئة أن تكشف عنهما. والأمر الذي يوجبه القرآن، إنما هو اللباس المتواضع. بل إن النبي نفسه، لم يكن يطلب من عائشة أن تحتجب. وكان يصحبها معه إلى «عشاءات» كانت تتحدث فيها بحرية مع الرجال. أما سكينة، حفيدة محمد، فكانت تأبى بعناد أن تضع الحجاب، وتقول: «إنها لشتيمة لله. ولئن كان قد وهبني الله الجمال، فليس ذلك من أجل أن أخفيه!».

وكانت المدينة، حول سلمى، قد بدأت تدوي بدوي الحرية. فلأول مرة، منذ زمن طويل، يتنفس أهالي استامبول تنفساً حراً. وفي وسع النساء أخيراً أن يرين الحياة وجهاً لوجه.

وفي هذه الحماسة الفرحة التي تجعلهن يرتعدن، أصبحت مراهقتنا تشعر بثنايا جسمها كله، كموجة عاصفة، تصطدم بالسدود المغلقة التي تنظم آداب الظهور بين الناس، أو كسيل جارف يتحطم على الجدران المغطاة بالحرير، جدران القصر، وعلى تهذيب الكالفات المرهف، وابتسامة أمها المتسامحة. فتكاد تختنق.

وكانت سلمى تجتر مآخذها، وهي جالسة في زاوية من البهو الأزرق. على حين أن السلطانة، الجالسة إلى مكتبها، كانت تنهي إحدى رسائلها، وهي تحاول، بتصنع، أن لا ترى سوء المزاج لدى ابنتها.

وفجأة سمعت خطوات خيري بك المتعجلة، وكان قد ظهر في البهو، حتى من دون أن يعلن عن قدومه، وهو يبدو في أشد الاضطراب. ولأول مرة، وعلى مدى أربعة عشر عاماً من الحياة الزوجية، تراه يهمل تحية زوجته، ويدمدم قائلاً:

ـــ إنه لشيء لا يمكن أن يصـدّق ، لا يصـدّق أبداً .

فأقلق كلامه السلطانة . فسألته بنظراتها عما هو فيه ، بينما كان يسترخي ليجلس على الكرسي .

ـــ تصـوَّري أن رجال الجمعية في أنقرة ، قد صوتوا على إلغاء السلطنة !

فارتعدت خديجة .

ـــ أتريد أن تقول إنها صوتت على إقالة جلالة السلطان وحيد الدين ؟

ـــ كلا . إنها صوتت على إلغاء السلطنة كلها !

قال ذلك وهو يشـدِّد على كل مقطع من مقاطع كلماته ، على حدة .

ـــ ومنذ الآن لن يكون هنالك من سلطانٍ في تركيا ، وسيبقى فقط خليفة ، هو رئيس ديني خاص مجـرَّد من كل سلطة سياسية . فانظري !

قال هذا وهو يمد إلى زوجته مجموعة من الصحف ، ظهر فيها الخبر بالحروف الكبيرة . فتنظر إليها وتتصفحها بنظراتها ، وتهز كتفيها .

ـــ إن هذا مستحيل ! فما من إنسان يقبل هذا القرار . ذلك أن السلطة الدينية والسلطة السياسية لا تقبلان الانفصال في الإسلام .

وردّ خيري بك الذي أثاره ما يلاحظه لدى زوجته من اطمئنان هادىء ، بجفاف :

ـــ وهذا بالضبط ما اعترضت به أكثرية النواب . فالمحافظون ، وحتى المعتدلون بعيدون عن مشاركة كمال رأيه في هذا الأمر . إنهم يريدون ملكية دستورية ، تراقبها القوى الوطنية .

ـــ لئن كانوا الأكثرية ، فلِـمَ لم يزيحوه ؟

ـــ سؤال وجيه ... لكن كمال استخدم القوة في التغلب على معارضتهم . فقد صعد على المنبر و .. أنا أقرأ لك الكلمات التي استخدمها : «إن من الضروري أن يقبل كل منكم في هذه الجمعية ، بوجهة نظرنا هذه (أي إلغاء السلطنة) . فإذا لم تقبلوا ، فإن وقائع الحقيقة التي لا محيد

عتها، لن تتغير، ولكننا قد نشهد سقوط بعض الرؤوس»[١]. وفوراً سكت المعارضون، لأنهم يعرفون أن الباشا لا يمزح وأن كثيراً من الرؤوس سقطت فعلاً منذ الحرب الأهلية، بل إن أحد النواب المعارضين مضى إلى حد القول: «اعذرونا، فقد كنا نبحث في القضية من راوية أخرى. ونحن نعرف الآن إلى أي رأي يجب أن ننحاز». ولما كانوا قد أرهبوا، فقد صوتت الجمعية بعد عدة ساعات على إلغاء الملكية، وبالإجماع.

وكانت سلمى تسمع هذا كله، وهي حائرة. لم يعد إذن هنالك من سلطان. فماذا يعني ذلك؟ يعني أن البلد التي لا سيّد لها يفعل فيها كل إنسان ما يريد؟ هذا مستحيل! أو هي بلد يحكمها مصطفى كمال؟ ولكن عندئذ... وفي ذهنها، يبرز أمل: لئن أصبح هذا هو السلطان الجديد، فلربما، إذن، لن تكون مرغمة على ارتداء هذا الشرشف البغيض؟ فلطيفة هرون، زوجته، لا تحمله أبداً، حتى ولا صديقتها خالدة أديب، ولا واحدة من النساء اللواتي يُحطن بها. إنهن حُـرّات، بارتداء الثياب التي تعجبهن والخروج من البيت، بكل حرية.

وفجأة، تبدأ سلمى بأن تتمنى بجنون أن يكون الخبر الذي نقله أبوها صحيحاً، أي أن لا يكون هنالك من سلطان بعد الآن في تركيا، وأن يصبح كمال سيد البلاد. والشيء المزعج، بطبيعة الحال، هو أن أمراء الأسرة، الذين يمضون وقتهم في انتظار أن يصبح كل منهم سلطاناً، لن يعرفوا ماذا يفعلون بوقتهم عندئذ. وهذا المسكين العم فؤاد، وهذا العم «الرعد» سيصابان بخيبة. وسعدية! وعندئذ تنتاب سلمى رغبة في الضحك، لا تقاوم. فابنة عمها ستنزعج بصورة مخيفة، وهي التي منذ أصبح أبوها أميراً وريثاً، لا تتوقف عن «اتخاذ أوضاع». وتتظاهر سلمى بأنها تستخدم هذا التعبير الفرنسي، الذي تستخدمه خالتها، السلطانة الفراشة، لكي تصف ما يضحك من سلوك زوجات البارزين الذين تلقاهم في الاستقبالات. وهي لا تعرف لماذا يقال: «اتخذ أوضاعاً» أو ر بالفرنسية[٢] بدلاً من X أو Z. ولكنها تجد الكلمة أنيقة جداً!

وتدخل السلطانة الفراشة إلى البهو، مرتدية ثوباً رمادياً، كما لو أنها تريد أن تبرز ما بها من كآبة. ولكن سلمى تلاحظ أن عينيها تتألقان، وأن خديها ورديان جداً، كما لو أن دور ناقل الأخبار، مهما تكن هذه كئيبة، يبهجها. وكانت قد وصلت من قصر يلديز الذي زارت فيه الزوجة الأولى للسلطان. فقالت:

---

(١) انظر كتاب اللورد كينروس: آتاتورك.

(٢) r هي حرف من جهة وكلمة air من جهة أخرى، أي أوضاع.

ـــ إن الكادين قلقة جداً. فقد جاء الحاكم الجديد رفعة بك بعد هذا الظهر، لكي يعلم الباديشاه، بتنحيته عن العرش. وقد أجابه جلالته، بأنه لن يتخلى أبداً عنه. ويتساءل الناس جميعاً الآن عما سيحدث. ذلك أن مصطفى كمال ليس بالشخص الذي يقبل التحدّي.

فما هي وسائل الضغط التي سيستخدمها؟ إن جلالته يتوقع كل شيء... بل لقد وجد من قال له إن حياته في خطر.

وقال خيري بك:

ـــ إنهم قادرون على اغتياله، واغتيالنا جميعاً. فأصدقاء كمال، البولشفيك، لم يتردّدوا في قتل الأسرة المالكة كلها عندهم. ولم يكن لدى هؤلاء المتوحشين أية شفقة حتى على الأطفال!

ولكن سلمى لا تصدق ما تسمعه أذناها. فماذا؟ أهذا هو الروز دور الباشا، الذي طالما دعت له أسرتها بالخير، وصلّت من أجله؟ أو سيقتلهم؟ إن هذا مستحيل. وكانت أمها منحازة لهذا الرأي، مما خفّف من بؤسها كثيراً. فقالت مستاءة:

ـــ إن الموقف خطير بدرجة مناسبة، من غير أن نحاول المبالغة فيه. ومن جهة أخرى، يا صديقي، دعني أقل لك إن أتراكنا أكثر تمدّناً من هؤلاء الموجيك!

وتئن السلطانة الفراشة قائلة:

ـــ ستلغى إذن القوائم المدنية، فكيف إذن سيمكننا أن نعيش منذ الآن؟

وردّت خديجة السلطانة بقولها:

ـــ ستشترين كمية أقل من أقمشة الدانتيل. وهذا كل شيء! وعلى كل حال، فإني أشك أن يكون لك بها من حاجة...

ولكي تقطع السبيل على كل تعليق، ألهت نفسها بشغلها في التطريز.

وترك توفيق باشا، آخر صدر أعظم، منصبه بعد يومين ومضى ليسلّم أختام الدولة إلى السلطان. وقام رفعة بك بالإشراف على أمور المدينة فانتقلت الشرطة والدرك إلى إمرته، على حين أن مختلف الوزارات بلّغت الأمر بالتوقف عن العمل. وأصبح هو ممثل الحكومة الشرعية في أنقرة. وحباً

بإرضاء الشعب الذي لم يكن يفهم حتى كلمة الجمهورية ، فإن النظام الجديد أطلق على نفسه اسم « ملكية الشعب .. » .

ثم بعد عدة أيام ، قتل علي كمال . وكان هذا الصحفي الكبير قد قام بحملة ضد الكماليين . فأوقف لدى حلاقه ، ثم اقتيد إلى إزمير لمحاكمته . ولكن لم يتح له الوقت ، ذلك أن الشعب الثائر قضى عليه .

وأثار الخبر الاستياء الكبير لدى حاشية السلطان . وذلك لأنهم يعتبرون علي كمال رجلاً شريفاً لم يفعل شيئاً غير الدفاع عن أفكاره . لكن الأهم من ذلك هو أن شنقه بهذه الطريقة كان البرهان على أن الشرطة منذ الآن لن تغامر بحماية أحد من الغضب الشعبي ، ولا سيما رجال العهد القديم . أما داخل قصره ، فإن السلطان نفسه لم يعد يشعر بالأمن . ذلك أن الجمعية الوطنية الكبرى ، في أنقرة ، قررت محاكمته بتهمة الخيانة العظمى ، وبعض نواب هذه الجمعية ، كانوا يطلبون « لصديق الإنكليز » عقوبة الإعدام .

وكان عدد كبير من الخدم قد هربوا ، وحتى هيئة الأركان الشخصية للسلطان بدأت تهجره . ويوماً بعد يوم ، كان قصر يلديز يصبح أكثر فراغاً .

لكن الضربة الأقسى ، للباديشاه ستكون بلا ريب ذلك الهروب السري ، الذي قام به ذاك الذي كان يسيء نصحه ، أي آخر صدر أعظم ، الداماد فريد . وعندما جاؤوا ليخبروا السلطان بذلك ، فإنه ما زاد على أن ضحك ضحكة مرة ، وقال :

ــ وهكذا ، فإنه لم يملك حتى الشجاعة الضرورية ، لكي يقول لي : إلى اللقاء .

وهبطت كتفاه أكثر بقليل من قبل .

وقـرّرت خديجة السلطانة ، يوم الجمعة التالي أن تمضي لتحضر الاحتفال بالسلاملك ، في مسجد الحميدية . ذلك أن الباديشاه أذاع أنه سيذهب لحضوره كالعادة ، وأنه لدى نزول المصائب ، فهي تحرص على مؤازرته .

وعندما كانت تتهيأ ، مع سلمى ، الملتفة بملاءتها ، للركوب في العربة الخضراء القاتمة ، التي تحمل شعار الأسرة المالكة ، تجرأ محمد ، السائق ، وهو رجل ضخم الهامة ، بشاربين محترمين ، أصله من الجبل الأسود ، تجرأ على القول ، إنه قد يحسن في مثل هذه الأيام الصعبة ، أن تؤخذ عربة عادية بدلاً من العربة السلطانية . ونظرت إليه السلطانة نظرة مرعبة ، وقالت له :

ـــ لقد كنتَ فخوراً جداً منذ بضعة أسابيع ، بأن تكون سائقاً في البلاط . والآن أنت خائف . فاذهب إذن ، ولن أمنعك . وسيدفع لك المحاسب أجورك .

وحاول الرجل أن يبرِّر موقفه ، قائلاً :

ـــ عفواً ، يا سيدتي السلطانة . إن لديَّ أطفالاً صغاراً ، وليس لي لحق في أن أجعلهم يتامى .

وهدأت الأميرة ، وقالت :

ـــ حسناً ، يا محمد ، عد إلى بيتك ، ولكن إئتني قبل ذلك بالسائق الآخر .

فاحمر الرجل خجلاً ، وبدأ يدمدم بكلامه أكثر من ذي قبل .

ـــ ذلك ، يا صاحبة السمو ، لأن له أماً مُسِنّة ليس لها من معين غيره . وها هو قد مضى .

وانطلق الشرر من عيني خديجة :

ـــ ومن دون أن يعلمني ؟

ـــ إنه لم يجرؤ على ذلك . فقد خَجِل . ولقد كنتِ دائماً على جانب كبير من الطيب .

وإذن فهكذا يُعترف للإنسان بطيبه . ففي مثل هذا المستوى ، تصبح الأمور مضحكة !

ـــ والآن لم يعد لدينا من سائق كما أرى . ومن حسن الحظ أن زينيل هنا . ويستطيع أن يقوم مقام السائق .

وهنا قامت بحركة كبيرة لتعيد تصحيح موقع وشاحها على شعرها . وبدت السلطانة كأعظم مما كانت في أي يوم آخر . وصعدت إلى المركبة السلطانية .

ولم يكن موقع المسجد ليبعد عن القصر إلا بمقدار كيلومترين . ويقضي العرف بأن تحضر السيدات هذا الاحتفال ، وهنّ في عرباتهن الواقفة في الفناء الخارجي . وعندما وصلت سلمى وأمها ، انفتحت لها أبواب قصر يلديز ، وبدا السلطان في عربة مكشوفة ، يَشدّها حصانان يمشيان بانتظام . ووراءها يمشي على الأقدام ثلاثة من المرافقين ، وأربعة سكرتيرية وبعض الخصيان السود ؛ وما من وزير ، ولا ذي منصب عالٍ معهم . وتنظر سلمى حولها ، وهي متهدمة ، وتقول : أهذا سلاملك ؟ وتتذكر الاحتفالات الفخمة في الماضي ، عندما كان الوزراء والباشوات بأوسمتهم وبثيابهم المذهبة ، والأمراء ، والدامادات ، وكبار الموظفين ، يمشون وراء عربة السلطان ، على صوت النشيد الملكي . أين

هي إذن فرقة البواقين الموسيقية؟ وأين هم الرمّاحون الجميلون بثيابهم الزرقاء، ومختلف فرق الجيش التي تقيم السياج حول الموكب، وهي في وضع التأهب، هاتفة هتافها التقليدي: «ليطل الله عمر باديشاهنا»؟

لم يكن هنالك من هذا كله إلا بعض جنود الحراسة، يلتزمون الصمت.

أما السلطان وحيد الدين، في ثيابه العسكرية، كجنرال، ومن دون أي وسام، فقد نزل ببطء من عربته، كما لو أن مجرّد الحركة تقتضي منه جهداً ضخماً، إنه وصل إلى درجة كبيرة من الهزال ويبدو مرهقاً كثيراً حتى إن سلمى تتساءل عما إذا كان مريضاً، فلا تتعرف عليه إلا بصعوبة، فخلال عدة أشهر أصبح كهلاً مسناً.

واتجه، ونظراته تائهة في ذات نفسه، إلى المسجد. وفي هذه اللحظة دوى صوت المؤذن. فوقف السلطان: إنه يصغي إلى الصوت الذي يدعو المؤمنين إلى الصلاة: «باسم حارس الدين، خليفة المسلمين...».

ولأول مرة منذ قرون، لم يذكر لقب سلطان الدولة العثمانية.

ودخل وحيد الدين إلى المسجد، وعنقه داخل بين كتفيه الضيقتين، كما لو أنه يشعر بالبرد.

وبقيت سلمى وأمها، في العربة التي نقلتهما إلى قصرهما، متأثرتين من منظر السلطان المأساوي والحزن اللامتناهي للمنظر. بقيتا صامتتين، فكل كلام هنا يبدو غير لائق.

ولم تكونا إلا على عدة مئات من الأمتار، من القصْر، عندما برز من جانب الطريق رجلان. ففوجىء الحصانان بهما، فانحرفا قليلاً، وكان على زينيل أن يشدّ عليهما بكل قوته، لكي يضبط حركتهما. وتجمدت العربة في مكانها وهي تَصِرّ. وعندما كان أحد الرجلين يوجه مسدسه إلى رأس الخصي، كان الآخر، الذي يرتدي بنطالاً ممزقاً، وجاكيتة عسكرية، يقترب من نافذة العربة المشبكة، ويقول، مخاطباً من كان في العربة، ولا يستطيع أن يراهما:

ـــ يا أيها الخائنتان، عما قريب سنقتلكما. وليعش مصطفى كمال!

وتجمع بعض المتسعكين ليرقبوا المشهد، منذهلين، عندما دوى صوت يقول:

ـــ إلى الوراء أيها الأوغاد!

وكان ذلك الرجل في الستين من عمره تقريباً ، لكنه عملاق ، يرتدي بنطالاً فضفاضاً ، وجاكيتة قصيرة ، مما يلبسه الفلاحُـون في الأناضول . وكان وجهه يقطر غضباً .

ـــ أيها الخنازير الخبثاء ! كيف تجرؤون على مهاجمة نساء الأسرة العثمانية التي تدين لها بلادكم ومصطفى كمال نفسه ، بكل شيء؟ اطلبوا منها العفو عنكم حالاً ، وإلا فإنني سأمزقكم إرباً .

ويحبذ الجمهور ما قاله الرجل ، ويبدأ الإحاطة بالرجلين . ففوجىء هذان الأخيران ، وهما بلا ريب من الوطنيين الذين وصلوا حديثاً إلى العاصمة ، وترددا فيما يفعلان ، فينتهز زينيل هذه الفرصة ، ويضرب الحصانين بقوة ، ويدفع بهما رملاً .

ولقد جرى كل ما جرى بسرعة لم تترك لسلمى حتى فرصة الشعور بالخوف . ولكن الرجل تلفظ بلكمة طعنتها في القلب : أيها الخائنتان . وهذا التعبير المفعم بالاحتقار والبغضاء ، هو مما تعرفه جيداً ، لأنها طالما سمعته يتردد بمناسبة الحديث عن الرعايا العثمانيين من ذوي العلاقة مع المحتل . ولكنها هي ، سلمى ، وأسرتها ، أيصح وصمُهما بالخيانة؟ .. أمّا انه وجد من يَـرُدّ هذه الشتيمة لصاحبها في وجهه ، فإن هذا يُشوّشّها تشويشاً عظيماً .

فرفعت عينيها نحو أمها . وكانت هذه متجمدة في وضع كهنوتي ، ونظراتها متجهة إلى بعيد .

ـــ أيندجيم ، لماذا أطلقوا علينا ....

وقد دهشت أن تسمع صوتها ، الخشن ، المرتجف ، كما لو أنه نَـفَـس يموت . فلا نصل الكلمة إلى حدود الشفتين . فتقوم بجهد ، وتقول :

ـــ .... يطلقون علينا اسم « الخونة » ؟

فارتجفت السلطانة . ونظرت إلى ابنتها نظرة فيها من التعاسة ، ما جعل البنت تخجل ، كما لو أن السؤال عن الشتيمة كان تجديداً لها . فخفضت عينيها ؛ وعندئذ جاء صوت أمها ، شديد العذوبة ، ليقول :

ـــ تعلّمي يا سلمى ، أنه عندما تقفين ، فإن هنالك دوماً ضعفاء ، لكي يزمجروا ويركلوك بأرجلهم . ولكن اعلمي أيضاً ، أنه مهما تكن نقاط ضعف الأسرة العثمانية وأخطاؤها ، فإنها لم تخن قط . بل إن فكرة كهذه ، فكرة سخيفة . ذلك أن عظمة تركيا هي عظمتنا ، وخيانتها يعني خيانة أنفسنا .

وعندما وصلنا إلى القصر ، وجدنا خيري بك مصحوباً بالجنرال الأمير عثمان فؤاد . وعندما روتا لهما الحادث ، بدا عليهما الهم . ودمدم خيري بك ، قائلاً :

ـــ كنت أتوقع هذا من قبل ، وليس هو إلا البداية ، أما الأمير فإنه يقطّب حاجبيه ، ويقول :

ـــ ياعمتي العزيزة ، اسمحي لي أن أوصيك بأن تكوني أكثر حذراً . ففي المدينة في هذه الأيام ، بعض المشاحنات يثيرها إما الوطنيون ، الذين يطالبون برحيل الإنكليز حالاً ، وإما الإنكليز الذين يبحثون عن مبرر لإعلان الحكم العرفي . وهم قلقون من هذه الاضطرابات التي يثيرها الكماليون ، ويعتقدون أن السلطان نفسه في خطر . وهكذا فقد طلب جلالته من الجنرال هارينجتون ، قائد القوات البريطانية التي ما زالت موجودة ، أن يضاعف له الحراسة .

وعجبت السلطانة ، وقالت :

ـــ أيطلب السلطان حماية إنكليزية ؟ أولا يوجد أتراك أوفياء ، إذن ؟

ـــ وكما تعرفين ، ياعمتي ، فإن الشرطة والدرك قد أصبحا تحت سلطة الكماليين ، بعضهم لأنه مقتنع ، وبعض آخر لأنه خائف .

ولكن الأميرة لاتصغي إليه . فالتفتت إلى زوجها وسألته ، متوقفة عند كل مقطع :

ـــ أليس هناك من أتراك أوفياء لنا ، يا خيري ؟

وبدأ هذا يلهو بمسبحته ، ذات الحبات العنبرية ، وعلى سحنته مظاهر الحزن والكآبة . إذ أنه منذ تلك المشاحنة التي كسر خلالها عصاه ، قلما رئي إلى جانب السلطانة . فهو يبقى في جناحه ، يتحدّث أحاديث طويلة مع أصدقائه ، وهم من كبار الموظفين ، الذين فقدوا بحكم صلاتهم مع الأسرة المالكة ، كل مواقعهم ودخولهم ، في أقل من أربع وعشرين ساعة . ولم تعد له رغبة في النقاش ، ولكن سؤال زوجته المباشر ، اضطره إلى الجواب ، وهذا مايفعله وهو ينظر متفحصاً بانتباه ، أظافره المجمّلة .

ـــ إن الموقف الآن ، أمر يبدو معه أن أفضل ما نعمل ، هو الانحناء للواقع ، فإن لم نفعل ، فستشتعل الحرب الأهلية . ولكن البلاد رأت خلال أحد عشر عاماً ما يكفي من الدم ... وأظن أنه

حتى أولئك الذين يشكّون في كمال ، يعترفون بجميل ما فعل ، إذ أنقذ تركيا . وهم يريدون الآن تجنب إضافة مآسٍ جديدة .

فتحملق الأميرة في وجه زوجها ، مع ابتسامة ظنت سلمى أنها تقرأ فيها الكثير من الاحتقار

١٦

وفي يوم الجمعة التالي ، كانت السماء تمطر مطراً غزيراً على استامبول . وكانت سلمى تعتقد أن أمها ، وهي معها ، لن تذهبا بالتأكيد إلى السلاملك . وليس موضوع بحث من جهة أخرى ، أن تذهب فتتنزه في الحديقة ، وكان النهار ينبىء بأنه سيكون مضجراً . فتثاءبت طويلاً ، دون أن تضع يدها على فمها . وما من إنسان في البهو ، وهي تنتهز الفرصة لتتذوق لذة القدرة على مخالفة القوانين المقدسة للياقة . وفجأة يظهر زينيل ، راكضاً باتجاه أجنحة السلطانة . فتستغرب سلمى ذلك . إذ لم يحدث قط أن رأت الخصيّ يتصرف بهذه الدرجة من قلة اللياقة . لكن هذا الوضع اللامألوف جعل سمنته الخفيفة ، وخديه الطريين كالوليد الكبير ، ينتفضان . ولما كانت مقسّمة بين الرغبة في الضحك وبين القلق ، فقد نهضت بقفزة واحدة ، وقالت له :

ـــ يا آغا ، ماذا يجري؟

غير أنه لم يسمع . فبدأت بدورها تعدو وراءه ، وتصل لاهثة ، إلى عتبة البهو الصغير في الحين الذي كان فيه زينيل ، المترنح ، ينحني في تحيته الثالثة .

ـــ أيتها السلطانة المحترمة جداً .

وتراه يلهث ويدير عينين يائستين .

ـــ أيتها الأميرة المحترمة جداً ...

ويفتح فاه، ولكن الأصوات تنحبس في حلقه؛ وفجأة تراه ينفجر شاهقاً من البكاء.

فتشير السلطانة بأن يؤتى له بمقعد، ويرطب وجهه بالماء، ماء النعنع المعطر؛ وتنتظر بهدوء أن يعود إلى طبيعته. وخلال ذلك كانت بعض كبار الكالفات اللواتي خالجهن الشعور بأن هناك خبراً هاماً، تسلّلن خفية إلى البهو الصغير، على حين أن سلمى، التي جلست فوق مقعد بسيط من الساتان، تعض شفتيها من فقدان الصبر.

واستطاع الخصي، بعد بضع دقائق أن يستعيد هدوءه. فوقف وصالب كفيه على البطن، وخفض بصره، وتمتم، وكل أعضائه ما تزال ترتجف، قائلاً:

ــ إن جلالته... قد... هـرب!

فانتصبت السلطانة واقفة، و قالت له:

ــ أيها الكذاب! كيف تجرؤ؟

ولم تستطع أن تكمل جملتها، إذ أنها هي الأخرى يتملكها الإحساس بالاختناق. وحتى الإماء، والكالفات، المندهشات، لا يفكرن في تقديم المساعدة إليها. وجاء صوت صاف يفسد الصمت ويقول:

ــ قل ما عندك، يا آغا، أرجوك.

وكانت سلمى، الجريئة وحدها بين كل هؤلاء النساء، والموشكة على السقوط على الأرض، تريد أن تعرف. فيقول:

ــ إن جلالة السلطان، قد ترك استامبول هذا الصباح، برفقة ابنه، الأمير إيرطو غرول، وتسعة عناصر من حاشيته. وقد ركبوا البحر على متن بارجة بريطانية اسمها «مالايا».

ثم حنا رأسه، بعد أن بـلّل بالدمع استمبوليته الجميلة المصنوعة من الجوخ الأسود.

وتستاء سلمى وتقول: كم هو مخجل! ترى كيف استطاع أن يفعل بنا هذا؟ وإذن فقد كان الطباخون على حق، عندما كانوا يقولون إن السلطان بدأ يخاف. وعندما كنت أنقل أحاديثهم إلى أيندجيم، انزعجت وغضبت وقالت إن الطباخين لا يمكن أن يفهموا إلا سلوك الطباخين، وليس سلوك السلطان. بيد أنهم هم الذين كانوا على حق.

لقد سلك السلطان سلوك الطباخين ، وبدأت تدور في غرفتها ، راكلة قطع الأثاث الناعمة من الغضب . وتقول :

« ماعساها أن تكون هيئتنا الآن . وبم سيفكر الناس ؟ أسَيَرَون أننا جبناء؟ وإذن فلن أخرج قط من غرفتي ! » .

وبعد ربع ساعة على هذه الحال ، وبعد أن هدأ غضبها ، خرجت على رؤوس أصابع رجليها . فرأت أن القصر هادىء ويبدو لها أنها تسمع مع ذلك همسات في كل زاوية ـــ همسات تنقطع لدى اقترابها .

وتلتقي بمجموعة كالفات يتصنّعن عدم رؤيتها ، فتقول : « إنهن لا يجرؤن بعد الآن على النظر إليّ ، إنهن خجلات عني ! » .

وتشعر أنها تشتهي أن تصرخ بهن ، وتقول :

ـــ ولكن انظرن إليّ ! إنني لم أتغيّر . وأنا لم أكن لأهرب . فأنا أنا . لِمَ تخجلن مني ؟

ولكنها لا تجرؤ على ذلك ، فتتصلب وترغم نفسها على المشي برصانة ، ورأسها عال ، كما ينبغي للأميرة أن تفعل ، حتى ولو كانت ، داخلياً ، تشعر بأنها مضيّعة كآخر من جاء من الإماء . وإذا هي لم تحط بالتشريف والاحترام اللذين كانت ترى حتى الآن أن من الطبيعي أن تحاط بهما ، فإنها تشعر بأنها شبه عارية .

وفي اليوم التالي ، لم يكن في صحف استامبول إلا تفاصيل وتعليقات على ذلك « الهرب » . وكانت السلطانة متمدّدة على الديوانة ، في الحين الذي كانت فيه إحدى الإماء تمسّد لها عنقها . فطلبت من زينيل أن يقرأ لها كل مقالة ، من أول صفحة إلى آخر صفحة ، وآخر سطر . وكان الخصي يجرِّب أن يقفز فوق الكلمات العدائية ، والجمل المشينة . لكن السلطانة لم تخدع بهذا القفز . وأنّبته تأنيباً حمله ، خلافاً لعواطفه ، على الانقياد لما تريد .

ويمكن القول : إن كل المخبرين ، بعد أن أبدوا عظيم استنكارهم ، لهذا « الهروب غير اللائق » ، على مركب إنكليزي ، يبرهن بصورة لا تدحض ، على التواطؤ الذي كان قائماً بين الباديشاه وبين أعداء تركيا ، وكل المخبرين قالوا إن السلطان حمل معه في حقائبه ، مجموعة من الجواهر ، العائدة للدولة . ثم إن حاكم استامبول ختم على أبواب قصر يلديز بالشمع الأحمر ، بغية القيام بجرد دقيق لما يمكن أن يكون قد سرق . ومن الصحفيين من ادّعى أن السلطان حمل معه مخلفات النبي محمد

(ﷺ) . وكانوا يرون أنه إذا فقدت هذه المخلفات ، فإن تركيا تفقد الحق بتتويج خليفة المسلمين . وبذلك تضيع هيمنتها على العالم الإسلامي ، تلك الهيمنة التي كانت تملكها منذ خمسة قرون .

ونظرت سلمى ، محزونةً ، إلى أمها ، وقالت لها : ليس من الممكن أن يكون السلطان قد تصرّف على هذا النحو ، أليس كذلك ؟ بيد أنه لا يمكن أن تكون الصحف كلها قد انخدعت ، أو كذبت ... وتشعر بأنها مرهقة ، وجسدها يؤلمها كما لو أنها قد ضُربت ضرباً مبرحاً . وتفكر أن تترك البهو الصغير كيلا تسمع شيئاً ، بل إنها لا تملك القوة على الحركة . فتغلق عينيها ، داعية بكل جوارحها أن يُعدم هذا اليوم ، وألا يكون كل ما سمعت إلا حلماً سيئاً . ولكن صوت زينيل ، الرتيب ، القاسي ، يستمر في تعداد المفاسد التي تعزى إلى الهارب ، وسلمى تشد بقوة على قبضتيها وجفونها لكي تقاوم هذا المخرز الذي يدخل أكثر فأكثر إلى رأسها . فلماذا ؟ لماذا إذن تلحّ أيندجيم على أن تقرأ لها كل هذه الأشياء الشنيعة ؟

وفجأة ، ساد الصمت ، وسلمى تلاحظ ، بعد أن فتحت عينيها ، نسيم آغا ، الخصيّ الأسود المفضّل لدى السلطان وحيد الدين ، الذي كان يدخل عليها . ترى لماذا لم يسافر مع سيّده فانتصبت السلطانة ، وفي نفسها بصيص من الأمل في النظرات .

ــ تبارك الله الذي أرسلك ، يا آغا !

قالت هذا وهي ترجو الآغا أن يجلس ، بغية أن تظهر للخادم الوفي ، اعترافها بجميله . لكنه يحرص على أن يبقى واقفاً : ففي أيام الشقاء بالضبط ، وعندما تكون الأسرة المالكة هدفاً للاحتقار والنميمة ، يحرص هو أن يبرهن على احترام أكبر . وعندئذ توقفت خديجة السلطانة عن الإلحاح ، مظهرة امتنانها من نعومة سلوكه ، ومن الدرس اللا إرادي الذي لقنّـها إياه : ومع كل اضطرابها فإن عليها أن تتصرّف في الماضي .

ويقصّ الخصي ، ودموعه تغرغر في عينيه ، ما يلي :

ــ إن السيد ناداني في مساء اليوم السابق لسفره ، وأسَـرّ إلي بسرّه الكبير ، وأمرني بأن أهيىء له بعض الحقائب . وتجرأت ونظرت إليه ، ورأيت أن عينيه كانتا حمراوين . فقال لي : « كن مقتصداً ، وخذ قليلاً من الأشياء » فأخذت سبع « بدلات » فقط . وكذلك ، على ما أمرني به ، ذلك اللباس الرسمي الفخم الذي لبسه يوم تتويجه . وكان قد طلب إلى عمر ياور باشا ، أن يقوم بحساب المال الذي يملكه ، وقال لي وهو يضحك ، وكما لو أنه يبكي : « ستأتي إلينا خلال بضعة أيام . ولكن

كن مستعداً ، يا نسيمي ، للكثير من العذاب ، وذلك لأن الله يشهد أنه ليس لديَ الكفاية من الموارد لأعول بها أسرتي . ولكن أقسم لي على أنه ما من إنسان سيعرف ذلك ، إذ أن الشعب يقيس شرفنا بمقياس أموالنا » .

وفكرت سلمى قائلة في نفسها : « ما أغرب هذا ، إذ تقول : أيندجيم أنه ليس للشرف علاقة بالثروة » وأما جواب السلطان فإنه يجعلها حائرة : فإذا كان على حق مثلاً فماذا؟ وتتذكر تلك النظرة الذليلة لذلك الضابط الروسي ، وابنته الصغيرة ، اللذين طردهما الخادم الذي كانا يطلبان منه الخبز . فارتعدت : أفهذا هو الذي ينتظرهما؟

ويتابع الخصيّ كلامه ، فيقول :

ــ إنك تتذكرين ، إفنديميز ، تلك المحبرة الذهبية ، وحامل السجائر المطعم بالياقوت ، اللذين اعتاد الباديشاه استعمالهما؟ ففي اليوم السابق لسفره ، أمر ياور باشا أن يردّهما إلى الخزانة ، وأن يأتيه بالوصل . ودهش لذلك زكي بك والكولونيل ريشار ماكسويل ، اللذان كانا هناك ، وأشارا على جلالته أن يأخذ معه بعض الأشياء الثمينة ، لكي يستطيع أن يعيش في الخارج . فرأيت سيّدَنا يشحب لونه ، وردّ على الكولونيل بلهجة شديدة البرودة : « إن ما معي يكفيني أما الأشياء الموجودة في القصر ، فإنها ملك الدولة ! » ، ثم التفت إلى زكي بك ، وترك لغضبه أن يفجر ، وقال : « من الذي رخص لك أن تكلمني بهذه الصورة؟ أتريد أن تلوث شرف الأسرة العثمانية؟ إعرف إذن أنه لم يوجد في أسرتنا من هو سارق . فامض الآن إلى سبيلك ! » ولم يكن يملك يوم سفره إلا ٣٥ ألف جنيه استرليني ، ورقاً »[(١)] .

ــ هذا صحيح تماماً . وفي وسعي أن أؤكده .

والتفت الحاضرون جميعاً . ذلك أنه ظهر في العتبة الجنرال الأمير عثمان فؤاد ، مصحوباً برجل طويل القامة ، في ثياب الضابط . وهذا الأخير هو الذي تدخل وقال هذا ، بصورة قليلة الاحتفال بالبروتوكول . فذهلت الكالفات . وصرن ينظر بعضهن إلى بعض : ترى هل يجب أن ينسحبن؟ لكن الفضول كان أقوى من المواضعَات الاجتماعية . فاكتفين برد الأغطية على وجوههن .

وبحركة آلية ، بحثت السلطانة ، في الديوان ، عن قطعة الموسلين لكي تحجب عن ناظر الأجنبي شعرها الغزير . وعندما لم تجد ذلك ، هزت كتفيها بصورة غير ملحوظة ! وأخيراً ، ما أهمية

---

(١) مذكرات نسيم آغا .

ذلك ! فالأحداث أخطر من أن تُـصِـرَّ على الشكليات . وفوق ذلك ، فإنه بدا لها أنها تعرف الرجل الذي خجل من جرأته ، وانزوى في آخر القاعة ، وعيناه تنظران إلى الأرض . وكانت سلمى هي التي أنقذتها من حيرتها . فقالت :

ــ أيندجيم ، تذكّـري فأر المستودع !

ذلك أن المراهقة بقيت بعض اللحظات ، قبل أن تعرف من هو هذا الرجل . لأن الشخص القوي الذي يصحب خالها لا يشبه في شيء ذلك الهارب الذي كانت أسرتها قد آوته في منزلها . ولقد عرفته من عينيه ، العميقتي الخضرة في لونهما ، والمحاطتين بأهداب سوداء طويلة ــ كعيني فتاة ، على ما فكرت به في ذلك الحين .

أما الأمير فؤاد فقد ذاب خجلاً ، وقدَّم كل ما يستطيعه من الاعتذار .

ــ أرجو أن يتسع صدرك ، يا سلطانة ، لهذا التدخل ، لكن القصر كان خاوياً ، ولم نجد أحداً ليخبر بقدومنا . ولدى صديقي ، العقيد كريم ، تفاصيل غريبة جداً حول سفر جلالته ، فأحببت أن يقولها لك هو بنفسه .

وتبتسم السلطانة ، وهي تتسلى بسحنة الأمير ، المندهشة ، وتقول :

ــ لقد كنت على حق ، يا ابن أخي . فأنا والعقيد يعرف كل منا الآخر ، من زمن طويل .

إنها مغرمة بأن تصدم الناس ، وهذا هو انتقامها الخفي من القواعد الصلبة للمجتمع العثماني ، وهي قواعد قـدَّرَت دوماً أن من الضروري اتباعها ، ولكن من المهم أن يعرف الإنسان كيفية الخروج عليها . فتدعو الرجلين إلى الجلوس ، وترسل إحدى الإماء للبحث عن شراب ما لهؤلاء الناس الذين يأتون إليها في زيارة أخيرة .

والأميرة نفسها تجد قانون الضيافة هذا ، قانوناً مثيراً ، إذ أنه حتى في الظروف العصيبة جداً ، يبدو فوق كل اعتبار . « فالطقوس ، والبطء ، يبدوان كوسائد من المخمل ، ضرورية لتخفيـف الصدمات » على ما قالته لها أمها ذات يوم . لكن المراهقة ترمي عرض الحائط بهذا التصور للوجود : والذي تريده هي ، وتحرص عليه ، من الحياة ، ليس وجهها الناعم ، العسلي ، بل زواياها الخشنة ، وإبرها التي تحرّضها وتثيرها .

أما الضابط ، فقد بدا متضايقاً . وقال :

ــ على الرغم من أني ضابط في الجيش الوطني ــ وحَكّ حنجرته ــ ولا أتنكر لأي شيء في المعركة التي خضناها، فقد كنت أريد أن أقول لك، يا سلطانة، اننا كثيرون أولئك الذين يأسفون على إلغاء الملكية. ومنذ زمن طويل، كنا نشك في نيات كمال باشا. ولكن كان علينا أن نختار إما البلد، وإما الملكية. وكان ذلك صعباً. ذلك أننا كضباط عثمانيين، كنا أقسمنا يمين الولاء للسلطان. واستقال بعض منا. وأنا على الرغم من الصلات التي تشدّني إلى أسرتكم، فقد قررت البقاء. فتركيا بحاجة إلى كل جنودها.

ويشعر الإنسان أن العقيد (كريم) كان قد حضّر خطابه بعناية، ولكنه ليس مع ذلك مرتاحاً. وكان الصمت، في البهو الصغير، يزداد كثافة. وكانت الكالفات يحبسن أنفاسهن، في حين أن السلطانة تعبث بخاتمها. وفجأة، ترفع رأسها، لتقول:

ــ أعتقد، يا سيادة العقيد، أنك لم تأت لتحدثني عن حالاتك النفسية.

فترتعد سلمى. إذ ما من مرة رأت أمها بمثل هذه الشدة في الوخز، تجاه إنسان ثانوي. ولكن ربما كانت لا ترى الآن أن العقيد رجل ثانوي، بل كممثل للسلطة الجديدة. وربما كانت هذه الصفة هي التي تستحقها باحتقارها؟

فاحمرّ وجه العقيد، وحسبت سلمى أنه على وشك النهوض للرحيل. وأجاب العقيد بقوله:

ــ الحقيقة، يا سيدتي السلطانة، أن ذكرى طيبك الماضي، هو الذي دفعني إلى المجيء. وألاحظ الآن أني أخطأت، وأن بعض الأشياء، للأسف، لا يمكن أن تنسجم فيما بينها.

فعضّت السلطانة خديجة شفتيها. ذلك أن الجرح مال بها عن العدالة. ولكن الآن، وقد حدث الأذى وتم، فإنها لن تمضي إلى حد الاعتذار! واكتفت بالقول:

ــ إنني أصغي إليك.

وعلى الرغم من أنها أرادت، بهذه الكلمات، أن تلطّف الجو، فإن هذه قرعت الأسماع كأمر ملكي.

ولما كان الأمير فؤاد ديبلوماسياً، فقد تناول هو الكلام، قائلاً:

ــ هيا، يا صديقي، فنحن نتحرّق شوقاً إلى حديثك.

وتغلب العقيد على رغبته في ترك القصر ، وتربع على مقعده . وقال :

ـــ بمحض المصادفة ، كان الملحق البحري للسلطان واحداً من أصدقائي في الطفولة . وفي هذا الصباح جاءني ، مضطرب النفس . وبناءاً على ما رواه لي ، أستطيع أن أؤكد لك بأن أنقرة هي التي دفعت بالسلطان إلى الهرب .

وثارت موجة من التمتمات بين الحضور : تُرى أيهزأ بنا هذا الرجل . ومن غير أن ينتبه العقيد إلى ذلك ، تابع حديثه قائلاً :

ـــ منذ أن رفض جلالته التخلي عن العرش ، جرّبت الحكومة الكمالية ، كل وسائلها لإرعابه . فأشاعت أن الجمهور قد يشنقه ، بل لقد أمروا حاكم استامبول ، رفعة بك ، بتنظيم مظاهرات عدائية حول القصر . فرفض ذلك . وكانوا يريدون أن يدفعوا بهذا العجوز المرهق بأربع سنوات من الاحتلال ، إلى النهاية . وجرّبوا عليه كل أنواع الضغط والتهديد . وقد نجحوا في ذلك . فهرب الملك يُمثّل ربحاً عظيماً لهم . إذ لم يعد هنالك من حاجة لإقامة دعوى بالخيانة العظمى ، وهي دعوى قد تؤلب أكثرية الرأي العام عليهم . وعندما هرب السلطان ، فإنه لم يتهم نفسه فقط في عيون الشعب ، بل لقد جرَّ العار على جميع أسرته . وهذا مما يسوّي مشكلة السلطنة ، من دون أن يكون على الكماليين أن يلوثوا أيديهم(٢) .

وتدخلت السلطانة فقالت وعيناها تبرقان :

---

(٢) يروي اللورد كينروس في كتابه أتاتورك ، وهو المترجم لحياة مصطفى كمال ، أن الملحق العسكري الذي عيّن للسلطان لكي يتجسّس عليه ، رآه في الساعة السادسة صباحاً ، من ١٧ نوفمبر ١٩٢٢ ، رآه يخرج من الحديقة من باب جانبي ، ويركب عربة صحيّة إنكليزية ، فطار صوابه ، وعدا (بالشحاطة) مسافة كيلومتر ونصف الكيلومتر ، قبل أن يجد عربة حملته بأقصى سرعة ، إلى قصر الصدر الأعظم ، على مسافة أربعة كيلومترات من هناك . (ولم يستغرق هذا كله ، أكثر من نصف ساعة) .

وعلى أكبر دهشة من الملحق ، فإن الحاكم قال له بأن يعود لنومه ، وأنه هو نفسه يتكلف مهمة الإبراق لمصطفى كمال ، ويعود لنومه أيضاً . ونحن نعرف ، من جهة أخرى ، ومن خلال برقية أُرسلت من السفارة ، للندن ، أن البارجة مالايا ، التي ركبها السلطان ، لم تبحر إلا في الساعة الثامنة و ٤٥ دقيقة .

وعندما نقرأ رواية اللورد كينروس ، يبدو واضحاً أن الكماليين ، ساعدوا على هروب السلطان ، بالاتفاق مع الإنكليز . إذ بين اللحظة التي أخبر فيها الحاكم ، وبين إبحار المالايا ، مدة ساعتين وربع الساعة ، لم يحدث أثناءهما شيء للبحث عن السلطان .

ــ إن مصلحة أنقرة واضحة، ولكن مهما كانت الضغوط، فإنه لم يكن للباديشاه أن يهرب.

وزاد الأمير الجنرال على ذلك بقوله:

ــ لقد أساء إلى شرفنا جميعاً.

ومن المفارقة العجيبة أن عائلة الباديشاه تدينه، وأن الضابط الكمالي، هو الذي يدافع عنه.

وتابع العقيد كلامه، قائلاً:

ــ عندما هرب السلطان، فإنه على الأرجح، قد تجنب إثارة حرب أهلية. وكان رفعة بك قد أنذره: «إذا لم تتنازلوا، جلالتكم، عن العرش، فإن الدم سيسيل من جديد». ولعل الباديشاه يفكر أيضاً، من حيث هو خليفة للمسلمين، أن ينشىء حلفاً من البلاد الإسلامية، ويعود ثانية؟ وعلى كل حال، فإنه قد تركنا، مقتنعاً بأنه ما من فرد من الأسرة العثمانية يَقبل أن يأخذ مكانه، ويكتفي بلقب الخليفة.

وتدع خديجة السلطانة لفمها حق الابتسام الذي يعبِّر عن الشك وتقول:

ــ أحقاً؟ سنرى ذلك عما قريب. ولكني أخشى أن يكون الباديشاه قد صنع لنفسه أوهاماً. فأمراؤنا ليسوا كلهم بأبطال!

وفي اليوم التالي، سيقبل ولي العهد عبد المجيد، ما عرضته الحكومة الكمالية عليه، أي أن يصبح خليفة بدلاً من وحيد الدين. وفي يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٢، تُـوِّج في قصر طوبكاي، أمام مخلفات النبي المقدسة، بحضور وفد من حكومة أنقرة.

ـ١٧ ـ

كان الرماد قد خبا منذ مدة طويلة، في المنقل الفضي الكبير. ولن يعود العبيد إلى إشعاله إلا في هذا المساء، ساعة المضي إلى النوم. ذلك أن الفحم في شهر كانون الثاني / يناير / من عام ١٩٢٣، أو في السنة الأولى للاستقلال، قد أصبح نادراً. وسواء كنا في الأكواخ أم في القصور، فإن استامبول كلها ترتجف من البرد.

وعلى الرغم من أن السلطانة تعارض في التميز عن الناس، فإن خيري بك أخذ على نفسه أن يتحدث عن ذلك لبعض الأصدقاء الذين ظلوا على وفائهم له، في الوزارات. ولكن عبثاً. ولئن كان الناس في الماضي يتشرفون بتقديم خدمة ما للأسرة المالكة. فما من إنسان يغامر اليوم بأن يقدِّم لها أيسر الخدمات.

وكانت سلمى المدثرة بقفطانها المبطّن بالزبلين جالسة لا تتحرك. وعلى البساط الحريري لغرفتها، وضعت بنعومة، ثلاثة شراشف هي، الزهري، والأخضر، والزمردي. ولما كانت من طبيعة حالمة، فقد أطالت في تأملها لها. ولم تعد تكرهها قط، بعد أن قررت التضحية بها، بل إنها أصبحت تجدها جميلة... فيما هو من نوعها.

وتسمع خطوة خفيفة، فإذا هي بنيّة رقيقة شقراء تنزلق إلى غرفة سلمى. إنها سيكربولي، أحسن وأفضل صديقة لها، بعد أن تركت جلّنار، الترترية الغريبة الأطوار، قصر أورطاكوي، وغادرته إلى القصر الملكي، قصر يلديز.

وكان ذلك منذ أشهر عديدة. ولكن كلما عادت سلمى إلى التفكير فيه، ارتجفت غضباً. ذلك أن رحيل جلّنار قد تقرر في غضون بضع ساعات، ولم تعلم به إلا في اليوم التالي. بل إن الصديقتين لم تستطيعا أن تتلاقيا للوداع. وكانت السلطانة والكالفات، يجبن عن أسئلة مراهقتنا حولها، بنفس الجواب دوماً: وخلاصته أن هذه الجلّنار كان لها الحظ في اختيار الكادين لها. فلقد لاحظتها ذات مرة، وعبّرت عن الرغبة في أن تكون في معيتها، ووعدت بأن تبحث لها عن زواج جميل. وبعدُ، فإن جلّنار كانت قد بلغت الرابعة عشرة. وكانت امرأة. فماذا يمكن أن تتمناه لها أكثر من هذا؟

وتكرّر سلمى هذا القول ساخرة، وواقفة على كل حرف من حروفه.

ــ بلى. ماذا يمكن أن نتمناه أكثر من هذا. حسناً... فهذا!

وبحركة احتفالية شهرت المقص الذهبي.

وتتمتم سيكربولي، مذعورة:

ــ أيجب هذا حقاً؟

ــ يجب.

وكان تردّد صديقتها قد قضى على آخر ما لديها من شكوك. وفعلاً فإنها تنحني على الشراشف الثلاث. وتمزقها بضربات مقص كبير. وتثقبها من جانب إلى جانب: «خذي هذا لك، ولك، ولك! فسيعلمكن هذا أن تتجرأن، وتبقين عليّ سجينة!».

وتشجعت سيكربولي، فاقتربت منها لتساعدها. وقامت الاثنتان، صامتتين، واعيتين بأنهما ترتكبان إثماً ضرورياً، بتمزيق القماش الرقيق.

ــ كم القضية طويلة. فما خطر ببالهن قط أن هذا الأمر يحتاج إلى كل هذا الوقت.

وهمست سلمى تقول:

ــ لنسرع، فقد يدخل علينا داخل ويمنعنا من إنهاء عملنا.

وتركتا المقص. وبدأتا بأيديهما الأربع بالتمزيق، عجِلتين عصبيتين. وفجأة تنقلبان ضاحكتين، بعد أن خفف عنهما ذاك الذي لا يمكن إصلاحه، والعودة المستحيلة إلى الوراء. آه

ما أحلى صرصرة الحرير الذي يُمـزّق ، وكم هو مؤثر ضجيج الحرية الجاف والحامض! وبين أرجلهما عندئذ قطع من القماش المختلف الألوان . إنها أشرطة عيد...

وتقول سلمى :

ـــ علينا الآن أن نحزمها حزمتين : واحدة لخالدة أديب ، والثانية للطيفة خانم ، وأظن أنَّهما ستكونان مسرورتين جداً!

وكانت سلمى تحتفظ دوماً بإعجاب خاص ، لخالدة أديب ، هذه المرأة النحيفة الشابة ، التي جمعت حولها الجماهير الحزينة ، يوم استولى الأغارقة على إزمير . وهي تحتفظ من مظاهرة الجماهير ، في ساحة السلطان أحمد ، بذكرى كلها انبهار . وكانت في التاسعة . ولقد انطبع في ذهنها أنها جاءت في ذلك اليوم إلى هذه الدنيا .

ولكن من جديد ، كانت لطيفة ، النشيطة ، زوجة مصطفى كمال ، هي التي حظيت بانتباه كلتا المراهقتين . فهما تتبعان بهوى عنيف ، كل مبادرة من مبادراتها ، التي تفصّـل الصحف النسائية في الحديث عنها ، وتأتي الآنسة رور فتحملها خفية إليهما .

فقد قـرّرت لطيفة خانم أن « تحرّر أخواتها » ، وهي تقدم لهن المثال الذي يجب أن يحتذى . ولما كانت أول امرأة تحضر اجتماعات الجمعية الكبرى ، فقد أدهشت الناس باستقبالها النواب في مكتب زوجها ، المجاور لقاعة الاجتماع . فهل يلومها أحد على أنها تعمل في الميدان السياسي؟ إنها تجيب عن ذلك بدفقة ضحكات ، تعني أن النساء لهن ، منذ الآن ، الحق ، وحتى الواجب ، واجب المساهمة في مصير بلدهن .

ـــ ولكن النساء كن دوماً يساهمن في مصير بلدهن! بهذا دمدمت خديجة السلطانة التي يثيرها الجانب المتحذلق من زوجة الغازي . ولكنهن لم يشعرن بالحاجة إلى الصراخ به من أعلى المآذن! وخلال قرون وقرون كانت كادناتنا ، المتخفيـات وراء المشربيـات ، يتابعـن منـاقشات الديوان[1] . وكثيراً ما أثّرن بنصائحهن للسلاطين ، في سياسة الأمبراطورية . وكل امرأة ، في الشرق ، تعرف كيف تؤثر في قرارات زوجها . ولكن لها من الحكمة ما يحول دون أن تتباهى بذلك . وهذه اللطيفة خانم إنما تسلك سلوك الغربيات اللواتي لا يشعرن بوجودهن إلا إذا ظهرن في كل مكان ، وأسمعن الناس أقوالهن . وهذه الصورة من السلوك ، هي التي يأخذ بها الأطفال والشعوب البدائية .

(١) أي مجلس الوزراء.

فتهز سلمى رأسها، حائرة، بائسة. فكيف لا تفهم أمها هذا؟ أما أن تكون لطيفة خانم مغرورة، فما أهمية ذلك؟ إن المهم هو أن تنسف العادات القديمة، وأن تحطم القضبان الحديدية، وأن تدخل شيئاً من الهواء في هذا العالم المغلق، عالم الحريم! **أولا تختنقين، ياأيندجيم، كما أختنق أنا، أم أنك استسلمت؟ استسلمتِ... لا، إن هذه الكلمة لا تنسجم مع الكبرياء الملكية. أولا يمكن أن تكون الأيندجيم قد أصبحت فيلسوفة، مع مرور الزمن؟ أما أنا، فإني شابة، وأريد أن أعيش.**

وتشعر المراهقة، من أعماقها، بحكم تدفق قواها، وعظم طموحها، إنها خلقت لشأن عظيم، حتى لتكاد ترتعد من ذلك، مثل الحصان الأصيل الذي يرتجف عند الفجر، أمام المروج التي تمتد أمامه على مدى النظر.

وتسأل سيكربولي:

ـــ ماذا سنكتب؟

وهكذا جاء صوت صديقتها ليعيدها إلى الأرض. بلى. ماذا ستكتبان لبطلتيهما؟ أتكتبان أنهما ليستا إلا في الثانية عشرة من العمر، ولكنهما تنتظرانهما منذ مدة طويلة، وأنهما مستعدتان لكل شيء لمساعدتهما؟ وأنهما لم تعودا تطيقان البقاء محصورتين في حظيرة الحريم، على حين أن الحياة تغلي حولهما، وأنهما تريدان الخروج، والمشاركة في المعركة... وإلا... وإلا... فإنهما ستموتان!

وتندهش سيكربولي، فتكرر القول:

ـــ ستموتان.

ويأتي الجواب من سلمى حاداً، وبنظرة قاسية:

ـــ بالتأكيد.

فما تطلع عليه منذ أشهر كثيرة عن طريق أحاديث البائعات اللواتي يتابعن المجيء إلى القصر، وما تقرؤه في الصحف التي تأخذها من الآنسة روز، كل ذلك يخرجها عن طورها. فبلدها في سبيله إلى التحول. واستامبول في طريقها إلى أن تعيش ثورة، وسلمى مرغمة على البقاء جالسة، تطرّز!

فعندما أعربت، ذلك اليوم، عن رغبتها في الدراسة في واحدة من هذه المدارس الجديدة التي

أنشأتها جمعية خالدة أديب ، فإن السلطانة قذفتها بنظرات نارية . ولقد تجرأت ، فألحّت على مطلبها ذاك ، محتجة بأن مستوى الدراسة ، على ما يبدو ، حسن جداً ، أما أيندجيم فإنها لم تتنازل بجواب . ولكن سلمى لا تيأس ، فلقد وصلت دوماً إلى غاياتها . وعما قريب ، ستأتي خالدة أديب ولطيفة خانم ، لتكلما أمها في هذا الشأن ؛ وبانتظار ذلك فإن عليها أن تتهيأ .

ولقد قرأت سلمى ، مع صديقتها ، وأعادتا قراءة تاريخ هؤلاء النسوة الجريئات اللواتي تميّـزن في النضال من أجل الاستقلال . وهما تعرفان الآن كل تفاصيل حياة مونيفر صايمة ، المعروفة أكثر باسم « الجندي صايمة » التي منحت وساماً لشجاعتها الاستثنائية ، وتعرفان مغامرات مقبولة ، التي سافرت يوم عرسها نفسه إلى الجبال مع زوجها لتنضم إلى المقاومة معه . وتعرفان الأعمال العظيمة التي قامت بها رحمية ، والتي منها أنها كانت على رأس كتيبة من الفرقة التاسعة ، وهاجمت المقر العام للقيادة الفرنسية . وكان الهجوم ناجحاً ، ولكنها لقيت فيه مصرعها .

أما الصورة التقليدية للمرأة ، الرقيقة واللامسؤولة ، فإنها تبدو لهما متأخرة عن أوانها ، وتراجعت لحساب صورة هؤلاء البطلات ، المجهولات أو المشهورات ، اللواتي لولاهن ، على ما يؤكد مصطفى كمال ، لم تكن تركيا لتكسب الحرب .

ولقد قالت لطيفة خانم إن « الحرب قد انتهت ، ولكن النضال مستمر » . وفي الواقع ، فإن كل يوم يحمل إلينا قسطه من التجديدات التي تتابعها سلمى وسيكربولي بحماسة .

والأكثر من هذا ليس هو الانتصار على الإغريق ، بل هو معركتهما هذه .

ولقد أصدر المدير العام للشرطة أمراً ، حذف بموجبه الستائر ، والمصاريع الخشبية التي كانت تفصل بين النساء والرجال ، في القطارات ، والحافلات ، ومختلف وسائل المواصلات النهرية والبحرية . والآن ، فإن لكل زوجة الحق ، في أن تجلس بجانب زوجها ، دون خوف من غرامة تفرض عليها . والأمر كذلك في المطاعم والمسارح . ولكن قليلاً من الأسر تجرأ على الاستفادة من هذه الرخصة الجديدة ، خوفاً من أن يُشتمن ويضربن من قبل المحافظين التقليديين الذين يعلنون أن هذا كله هو ضد الإسلام .

ولكن الفضيحة الحقيقية ، كانت في ذلك القرار الذي أصدرته جامعة استامبول . وجاء فيه أن الدروس منذ الآن ، ستكون مختلطة . وحتى ذلك الحين كانت قاعات التدريس مفصولة بحواجز كثيفة كانت تستر تواضع الفتيات القلائل اللواتي كن يتابعن الدراسات العالية . ومنذ الآن

فصاعداً ، تواجه الأسر المسلمة ، مشكلة عويصة : فإما قطع دراسة بناتها ، أو الحكم عليهن نهائياً بعدم الزواج . ذلك أن الشبان الأكثر تقدمية ، أي أولئك الذين يدافعون بقناعة وحماسة ، عن حرية المرأة ، يعودون إلى التقاليد ، عندما يتعلق الأمر بشيء جدّي ، كالزواج على رأي أمهاتهم . وهؤلاء يختزن ، بعناية وحب ، فتاة تقليدية لا يستطيع رجل مهما كان أن يتباهى بأنه رأى وجهها .

وفي الأفق صار لون الشمس شاحباً . وكانت الساعة قد بلغت الساعة الخامسة . ونهضت سيكربولي ، وعليها أن تعود إلى أمها . وبقيت سلمى وحدها ، تتأمل الخرق المتعددة الألوان المجموعة بعناية في حزمتين . وقد بدأت الأشباح تهاجم الغرفة . وهكذا فبالقرارات الحلوة المتخذة بعد الظهر بدأ يختلط اللا يقين والشكوك ...

ــ ولكن ماذا هناك ، يا دجيجيم ؟ إنك تبدين محزونة جداً !

ــ أوه ، بابا !

وتناست سلمى كل بروتوكول ، وقفزت لتكون بين ذراعي أبيها . فمنذ أسبوع لم تره .

وفي هذه الأيام الأخيرة ، تضاءلت زيارات الداماد للحرملك ، أكثر فأكثر . ففي الماضي ، عندما كانت تريد سلمى أن تكلم أباها ، فإنها كانت تجد كل المبررات لتنزلق إلى أجنحة خيري بك . ولكن منذ ذلك اليوم الذي بلغت فيه الثانية عشرة ، لم يعد لها الحق في اجتياز ذلك الباب الثقيل الذي يفصل عالم النساء عن بقية العالم .

وعبثاً ثارت وغضبت ، وقالت إنها تريد أن ترى البابا ، ذلك أن الكالفات والخصيان وقفوا في وجهها وقفة حازمة قائلين : « يا أميرة انظري قليلاً ، فأنت لم تعودي طفلة ! » .

لم تعد طفلة ! ترى ماذا كان يعني ذلك ؟ أيعني أنها كبرت أكثر مما يجب لكي تكون بحاجة إلى حب أبيها ! وحقاً فإنه لم يعن قط بها . ولكن مجـرّد الجلوس إلى جانبه عندما كان يقرأ أو يتناقش مع أصدقائه ، كان يبدو لها ميزة ثمينة حداً ... وكانت تبقى صامتة ، تتأمله . وكان ما أجمله . كانت تحب فيه كل شيء ، وحتى هذه السخرية التي كانت تغضبها ، كانت تبدو لها علامة على حكمة عليا ، وحتى هذه اللا مبالاة التي كانت تظن أنها سمة من سمات عظمته : فهي بحاجة إلى حضوره : فمجـرّد النظر إليه ، كان يملؤها سعادة .

وفي هجمة من هجمات الثقة ، أخذت يده .

ــ بابا ، أرجوك ، ألا يمكن أن تطلب من الأيندجيم ...

فتصلبت يده ، ورانت على عينيه اللتين كانتا ضاحكتين منذ قليل ، غشاوة ثقيلة . فأجابها بصوت شديد البرودة :

ــ اعرفي ، يا آنسة ، أني لست ناقل أخبارك !

وشعرت بأنها تلقت كتلة من الرخام في وسط صدرها . فانقطع نفسها ، وضغطت على كتفيها ، وخفضت رأسها ، وتساءلت لِمَ هو في مثل هذه القسوة ؟ وماذا قالت ؟ وفجأة فهمت : فأية غبية بدت . والغريب أنها تعرف جيداً أن أبويها ، منذ أسابيع ، لا يتبادلان الكلام إلا عن طريق زينيل ! بل إنها غضبت وانزعجت ، من كلفاتين صغيرتين كانتا تعلقان على هذا الوضع ، بصوت عال ... وها هي الآن تبدو غبية ، بدلاً منهما . فكم كان في البداية حسن المزاج ! لقد جاء عمداً لكي يراها ، فأفسدت هي كل شيء ...

وعاد صوته ، فأصبح أكثر نعومة :

ــ ولكن إذا كان لديك ما تقولينه لأبيك ، فهو جاهز للإصغاء إليك .

فسكتت . ولو أنها فتحت فمها ، فلا ريب أنها ستشهق بكاء ، وهو لا يكره شيئاً كالبكاء . بيد أنه لا بد لها من الكلام ، وإلا فإنه سيعتقد أنها واجدة عليه ، أو أنها انحازت لأيندجيم . وهذا غير صحيح . فهي لم تنحز لأحد ، وهي تحبهما كليهما ، ولكن بصورة فيها من الاختلاف ما يجعلها تظن أن هناك « سلميين » تحبان . وكثيراً ما فكرت بهذا الأمر : فعندما تبتسم لها أمها ، فإنها تشعُرُ بأنها قادرة على اكتساح العالم ؛ وعندما يبتسم لها أبوها فإنها تنسى العالم ، وتذوب سعادة ، كعجينة من الفواكه ، تذوب تحت اللسان . وهي لا تعرف لِمَ ، ولكنها تعرف فقط أنها لا تريد الاختيار بين هاتين البسمتين .

وبجهد ما استطاعت أن ترفع رأسها . وبعينين لامعتين ، تتفحص ذلك الوجه الطويل الكثير الشحوب ، والشفتين الرقيقتين ، ومئات الانثناءات الصغيرة التي تنشىء ما يشبه النجوم في زاوية الجفنين . وتتأمله وكأنما كانت تريد أن تتشبع منه ، كلها ، وأن تستبقيه في نفسها إلى الأبد .

أما هو فقد أخرج سيكاراً ، وغمزها غمزة بعينه ، كما لو أنه متواطىء معها .

ــ هيا ، دجيجيم ، قصّي عليّ عذابك الكبير .

ــ بابا، أريد الذهاب إلى المدرسة!

ــ أفهم ما تريدين... ولكنهم بالتأكيد قالوا لك إن هذا ليس بالمكان الذي ترتاده الأميرات، أليس كذلك؟

وتلح سلمى دون أن توضح الإشارة إلى السلطانة.

ــ ولكن ــ يا بابا ــ كل الناس يذهبون إلى المدرسة. بل إن ثريا آآغوغلو دخلت إلى كلية الحقوق. وقد نشرت صورتها الصحف كلها، وهنأها كمال باشا! وقال: «إن مستقبل تركيا يتعلق بتحرر النساء، وان بلداً نصف شعبها يظل حبيس البيوت، هو بلد مشلول نصفياً!».

وبحركة أليفة، بدأ خيري بك يداعب شاربيه.

ــ هوم!... إن هذه واحدة من النقاط التي لا يخطىء فيها هذا الشقي!

ولا يهم سلمى الآن أن تبرز الشتيمة التي وجِّهت إلى بطلها. ذلك أن المهم، هو أن يكون أبوها موافقاً.

ــ وإذن فهل أستطيع أن أذهب إليها.

ــ أين؟

ــ ولكن، يا بابا، إلى المدرسة.

ــ قولي لي، منذ متى يقرِّر الآباء صور تربية بناتهم... ولا سيما إذا كانت الأم سلطانة؟ لا تلحِّي عليّ في هذا، فأنا لا أملك فيه شيئاً.

ــ بل تستطيع، لو كنت تريد. فقط لو كنت تريد!

وأصبح وجه سلمى شبه قرمزي من الغيظ والغم. وقالت:

ــ لم أعد أستطيع أن أتحمل هذا، يا بابا. فكل شيء يتغير في بلدنا، وكل شيء يعيش. وما من أحد غيرنا يستمر في نومه، كما لو أنه لم يحدث شيء. أريد الخروج من هذا القصر، الخروج.

فخيَّم على وجه الداماد شيء من التعاسة. وقال متنهداً:

ــ اهدئي يا سلماي. ربما خرجت بأسرع مما تتخيلين. وأكبر ما أخشاه أن تأسفي على ذلك.

ولكن لا خالدة أديب، ولا لطيفة خانم، أجابت عن الرسائل التي وصلتهما عن طريق وضعها في سلة إحدى البائعات المتواطئة معهما.

وفقدت سلمى وسيكربولي كل أمل. أما الشراشف، فإن السلطانة لم تعن حتى بالسؤال عنها، أين ذهبت. وكل ما فعلته هو أنها طلبت من الخياطات أن يخطن شراشف جديدة، وبلون أسود.

أما في قصر أورطاكوي، فإن الحياة ظلت على ما كانت عليه في الماضي، ولكن مستوى الحياة أصبح أكثر بساطة. ذلك أن الحاكم الجديد ألغى مخصّصات الأمراء، ولم يعد يقدم إلا تعويضاً تافهاً توافق عليه الجمعية الكبيرة. وما من أحد يتألم، ذلك أن الأهل والأصدقاء، الذين فقدوا مخصّصاتهم، أصبحوا هم أيضاً يعانون نفس الصعوبات؛ بل إنهم ليجدون في ذلك مادة للمزاح. وكما تقول خديجة السلطانة بسخرية: «من الأفضل أن نصبح فقراء جداً، بدلاً من أن نصبح أغنياء جداً».

ولقد اضطرت إلى الاستغناء عن بعض الخادمات. ولكن يبقى أطفال البيت، والعبيد الذي يشكلون جزءاً لا يتجزأ من الأسرة منذ البداية. والشيء الوحيد الذي حزّ في نفسها حقاً، كان الاستغناء عن تقديم «حساء الفقراء» لا لسبب اقتصادي ــ فقد كانت لا تتردد في الاكتفاء على مائدتها بصحن وحيد بدلاً من أن تشعر أن من حولها يعانون من الجوع ــ ولكن الحكومة لا تنظر بعين الرضى إلى مظاهر الكرم هذه: إذ ليس على أعضاء الأسرة المالكة بعد الآن أن يبرزوا في المجتمع. وهكذا فإن السلطانة أمرت بأن يُعان، خفية، كلُّ هؤلاء الذين يأتون فيقرعون عليها الباب. وهم عديدون.

وفي هذا العام، ١٩٢٣، أصبح الوضع في استامبول وفي تركيا كلها، مأساوياً. فبعد أن عانى الشعب من حرب دامت عشر سنين، ومن الاحتلال، فإنه أصبح لا يحتمل شروطه، من شدة الشقاء، فكيلو الخبز الذي كان يكلف، قبل الحرب، قرشاً واحداً، أصبح الآن بتسعة، وانتقل سعر اللحم من ٦ إلى ٨٠ للأوقية. وفي مثل هذا السعر أصبح مقصوراً على بعض المحظوظين، وصار الناس يموتون بالمئات من الجوع والبرد.

وازدادت الصعوبات خطورة بالفوضى التي تسود في أنقرة، حيث استقرت الحكومة الجديدة. وكل ما كان قائماً من سلطات في استامبول، تركّزت الآن واستقرت في هذه البليدة الكبيرة، الموجودة وسط الأناضول، والتي يريد مصطفى كمال أن يجعل منها عاصمة. وهو يريد من ذلك أن يدير ظهره للماضي، وأن يبني بلداً حديثاً، على مثال الشعوب الأوروبية الكبرى، وخاصة على مثال فرنسا الجمهورية والعلمانية التي ما زالت منذ قرن على الأقل، تؤثر في الأنتيلجنسيا التركية تأثيراً كبيراً.

وكون النظام جمهورياً وعلمانياً، هو نقطة الضعف فيه! ذلك أنه إذا كان قائد الجيش، ورئيس المجلس الوطني، المحاط بهالة النصر، قوياً جداً في هذا الحين، فإن الكثيرين من رفاقه في النضال، قلقون من نزعاته «الاستبدادية». وهم لا ينسون كيف فرض عليهم إلغاء السلطنة، على حين أن الرأي العام كان ينتظر قيام ملكية دستورية، صدرها الأعظم مصطفى كمال.

والواقع أن المجلس الوطني بكامله، ولا سيما رفاق الساعة الأولى، كان يحذر من الغازي. وقد تجمّعوا حوله خلال الحرب، معترفين بتفوقه العسكري. ولكن الآن عندما يجب أن ننشيء حكومة شرعية، قانونية، فإن النواب قلما يهمهم أن يضعوا على رأسها، رجلاً جرّبوا، على حسابهم، عنفه وقلة وجدانه.

ففي هذا الربيع، أصابهم الرعب من اغتيال شكرو بك، ذلك أن هذا النائب الذي يُمثل طرابزون، وأحد أبرز قادة المعارضة البرلمانية، كان كثيراً ما يتصدّى لكمال، وكان يدعو بشكل خاص إلى جعل الخليفة عبد المجيد، يستعيد بعض ميزاته الزمنية (أو الدنيوية). وفي ذات يوم عثر عليه مخنوقاً. وسرعان ما اكتشف القاتل، الذي هو «عثمان الأعرج» رئيس حرس الغازي. ولكنه سيقتل، قبل أن يحاكم ويعترف بما جرى، إذ قُتل في احتكاك له مع رجال الدرك.

وأثار هذا الحادث هيجاناً كبيراً. واتهم الناس مصطفى كمال صراحة بأنه أزال من الوجود خصماً سياسياً. وخاف النواب، واعتبروا أن هذا الأمر تحذير لهم.

ولما شعر مصطفى كمال أن المعارضة تتصاعد، حتى داخل مجموعته البرلمانية، بدأ يعمل على إنشاء قاعدة سياسية صلبة لنفسه. وكانت اللجان التي أنشئت عام ١٩١٩، داخل البلاد، للقيام بمهام النضال الوطني، متعلقة به، لأنه قائد الجيش، فقد حوّل هذا التنظيم شبه المسلّح إلى حزب سياسي، هو «حزب الشعب» الذي جعل له فروعاً حتى في كل قرية. ولهذا فإنه قام بجولة في

مختلف أنحاء البلاد التركية: وكان يقول لممثلي هذه اللجان: «إن البلاد مملوءة بالخونة، فكونوا يقظين. إن لكم أنتم، أعضاء حزب الشعب، أن تحكموا».

وفي استامبول، خلال ذلك، غامر بعض الصحفيين ممن ينتقدون الديكتاتورية الجديدة، بالتنبؤ بالعودة قريباً إلى نظام السلطنة. وعندما عاد مصطفى كمال إلى أنقرة، أنبأهم أنهم إن استمروا فيما يقولون، فإنهم يعرّضون أنفسهم للشنق. وهكذا أصدر أمره بمنع كل خطاب سياسي، بل إنه حاول أن يلغي الحصانة البرلمانية، لأنه لا يستطيع تحمل معارضة النواب الذين يرى أنهم بين أن يكونوا رجعيين أو أغبياء. ولكنه أخفق في هذه النقطة الأخيرة. ذلك أن «الأغبياء» لن يدعوه ينشر الغصن الذي هم جالسون عليه.

ولما تجاوز الأمر الحدود المعقولة، فإن الصدر الأعظم أو رئيس الوزراء، رؤوف باشا، أحد أقدم أصدقائه، تقدّم باستقالته. وابتعد عنه رحمي، وعدنان، ورفعة بك، وعلي فؤاد، وقره بيكير والأشخاص الكبار، من رجال النضال الوطني. فرأى كمال أن أكثريته تذوب أمام عينيه: إذ لم يعد أحد يحتمل قسوته، ولا لهجته كمعلم مدرسة. ولحسن حظه فإن الجيش كان منقاداً له، وكان حزب الشعب قد بدأ يمد فروعه إلى سائر أنحاء البلاد.

وخاصة، خاصة، أن السلم قد وُقِّع.

ففي ٢٤ تموز / يوليو / عام ١٩٢٣، وبعد مفاوضات طويلة امتدت على مدى ثمانية أشهر، كان يشترك فيها عصمة باشا، مندوب تركيا، والوزراء المفوَّضون الغربيون، ختم مؤتمر لوزان أعماله، بنجاح كبير: فقد فقدت تركيا أمبراطوريتها، ولكنها أصبحت منذ الآن شعباً حراً. وهذا شيء يعرف الشعب أنه مدين به بالدرجة الأولى لمصطفى كمال!

وتتذكر سلمى دوماً مشهد رحيل جيوش الاحتلال. إذ لقد صحبت أمها إلى قصر «ضولمة باهتشه» الذي يجب أن يتم فيه الاحتفال العسكري. وكانت مع بنات أعمامها وخالاتها وعماتها يتزاحمن وراء النوافذ العالية المطلة على الساحة التي تحاذي البوسفور. وكانت شمس أكتوبر تلهو على البحيرات الرخامية. وكان الجمهور على جانبي النهر، يغطي الشواطىء.

وفي العاشرة والنصف قام فريق من المشاة الأتراك، مسبوقاً بالفرقة الموسيقية التابعة لسلاح البحرية، باحتلال موقعه في الساحة. وكان يحمل العلم الأحمر الذي يتوسطه الهلال الأبيض والنجمة، مرفوعاً إلى أعلى مدى.. وبعد بضع دقائق جاء رجال الكتيبة ٦٦، من الجيش الفرنسي،

رافعة بفخر علمها الممزق في المعارك، ثم جاءت الكتائب الإيطالية والبريطانية، واصطفت جميعها أمام الأتراك. أما على الطرف الآخر، فقد كان رجال السلك الديبلوماسي، في ثيابهم الرسمية، واقفين على أقدامهم، كما لو كانوا جنوداً في وضع التهيؤ.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف يظهر المندوبون السامون، لدول الحلفاء، أي الجنرال بيليه Pellé، والجنرال هارينجتون Harington، والماركيز دوغاروني Marquis de Garroni، وهم شاحبو اللون في ثيابهم العسكرية المذهّبة. وتقدم حاكم استامبول، بقدم ثابتة، من غير أن يستطيع إخفاء هيجانه، لاستقبالهم.

وعندئذ صدحت الموسيقى. فعزفت الأناشيد الوطنية، البريطانية، والفرنسية والإيطالية. وأخيراً عُـزِف النشيد الوطني التركي، بموسيقى عالية، عندما كان العلم الكبير الأحمر والأبيض يرتفع في الجو. وبدأت الفرق الأوروبية تتقدم ببطء لتحيته. وأخيراً يتركون المكان، بكل كرامتهم، ليبحروا.

وكانت السفن الحربية، بعضها بعد بعض، يعزف كلٌّ منها نشيده الوطني، وتبتعد عن الأرض التركية التي كانوا قد جاؤوا لاحتلالها منذ خمس سنين. وكان الجمهور الصامت، يتبعها بالأعين حتى تغيب عن النظر، كما لو أنها نقاط سمراء فوق مياه البوسفور الزرقاء...

وفي فرجة إحدى النوافذ في قصر ضولمة باهتشه، كانت ترى مراهقة تمسك بيد أمها، ووجه كل منهما مبتل بالدموع. فابتسمت كل واحدة منهما للأخرى.

وبعد بضعة أيام، انهالت ضربات المدافع فجأة، فقذفت بسلمى إلى آخر سريرها. وهذا تماماً ما كانت تخشاه. «فهم» تظاهروا بالرحيل. والآن «هم» يعودون معزّزين! وبقدميها الحافيتين، قفزت إلى النافذة، وتفحصت الأفق: فلم تر أية باخرة حربية، ولكن كان هناك بعض الكوائك أو المراكب التركية، وبعض سفن الصيد الخفيفة تتجول فوق البوسفور، في ضوء الصباح الشفاف. بيد أن طلقات المدافع تستمر، منتظمة، لا تلين. وتشعر سلمى بالاستنكار يحرق لها وجهها. فتأخذ قفطانها بسرعة، وبعد دقيقتين، كانت في غرفة أمها.

فطمأنتها هذه بقولها:

ـــ لا، دجيجيم، ليس هؤلاء بإنكليز، ولا بفرنسيين، ولا بطليان، وكذلك ليسوا بأغاريق، والشكر لله! بل إنها الجمهورية التركية تعلن عن نفسها.

وتستغرب سلمى المندهشة ، والآسفة فجأة على أنها لم تصغ كما ينبغي لدروس الآنسة روز ، فقالت :

ــ الجمهورية ؟ كما في فرنسا ؟

وتتحرك شفتا السلطانة لترسم علامة ارتياب ، وقالت :

ــ إن كثيرين من الأتراك يظنون أن الجمهورية هي الحرية ، والمساواة ، والعدالة . وأنا خائفة جداً ، مع الأسف ، ألا يكون هنالك شيء من هذا كله . فقد علمت منذ قليل ، أن رؤوف بك غاضب : إذ لقد اتخذ القرار في بضع ساعات . بل إنه لم يخبر بذلك ، كما لم يخبر حوالي المئة من نواب المعارضة . وتراه يعلن أن هذا انقلاب جديد لكمال ، الذي حمل النواب على انتخابة رئيساً للجمهورية .

وهذا ما ستكتبه فيما بعد صحافة استامبول . فعناوين الصحف ليست برقيقة على المحرك لما سماه الكثيرون ، انقلاباً حقيقياً : « فقد أدخلت الجمهورية عندما كان يوجه المسدّس إلى رأس الأمة » .

« أدستور كتب في عدة أيام ، بيد مصطفى كمال وبعض الإمّعات ، هو هذا الذي يسمى بالدولة التركية الجديدة ؟ » . « إن السلطات التي منحت للغازي أكبر من كل ما أعطي منها لأي سلطان ! » . ومن الصحف من يشبه مصطفى كمال بالثلاثي المقدس لدى المسيحيين ، فهو في آن واحد ، الأب ، والابن ، والروح القدس . وهو يجمع في الواقع كل السلطات : إنه رئيس للجمهورية ، وكذلك رئيس للحكومة ، ورئيس للبرلمان ، وقائد للجيش ، ورئيس للحزب الوحيد في تركيا . أما بالنسبة لمن كانوا يحلمون بملكية دستورية ، ولمن كانوا يريدون ديمقراطية على الطريقة الغربية ، فقد كان ذلك صدمة . وهم يعرفون أنه ما من شيء بعد الآن ، ولا إنسان ، يستطيع الوقوف ضد قرارات الغازي .

وبالمقابل ، فإن الحماسة هي التي يعلو صوتها في الشوارع . فالشعب يحتفل بالخبر بالموسيقى . وتقوم مسيرات بالمشاعل في كل الشوارع . ولا يعرف الناس ماذا تعني « الجمهورية » ، ولكنهم ينتظرون منها كل شيء . بل إن مساجين السجن المركزي تظاهروا على هتافات : « تحيا الجمهورية ، تحيا العدالة ! » وطالبوا بإطلاق سراحهم فوراً .

أما سلمى فليس المهم عندها أن تكون تركيا جمهورية أو ملكية ، إذ إن مصطفى كمال

سيكون على كل حال رئيساً لها. وبالمقابل، فإن بعض قرارات هذا الغازي الذي ما زالت تسميه « روز دور »، بدأت تزعجها وتثيرها. ولا سيما هذه النزوة التي أُعلن معها أن أنقرة هي العاصمة بدلاً من استامبول الأرستقراطية. وكان الناس يتحدثون عن ذلك منذ مدة طويلة. ولكن ما كان هنالك من يصدّق ذلك، إذ أنى لهذه القرية الضائعة في الهضبة الأناضولية القاحلة، أن تعوِّض عن المدينة الفخمة، التي هي فخر الأمبراطورية؟ إن استامبول ماسة ثمينة وضعت في نقطة التقاء القارتين، وهي ملتقى كل الثقافات، وكل الحضارات. وكانت قد أصبحت الملتقى الوحيد للعالم بين الشرق والغرب، فضلاً عن أنها ولدت من نبوءة لأبولون قبل ثلاثة عشر قرناً من الهجرة. ولكن الأسئلة بالنسبة لمصطفى كمال أشياء كمالية. وهو يفضل عليها الأجوبة. وفي ١٣/١٠/١٩٢٣ فقدت استامبول وضعها الذي استقرت عليه منذ عشرات القرون، ذلك الوضع الذي جعل منها واحداً من أهم مراكز العالم.

وفي هذا الوقت بالذات، قرّر أبو أحمد أن يترك مكانه كسكرتير للداماد ــ وكان ينظر لهذه الوظيفة أيام « الكمالية المنتصرة » نظرة سيئة ــ وأن يقبل عملاً جديداً في أنقرة. ومنذ أشهر كانت سلمى لا ترى أحمد، أي منذ اليوم الذي بلغت فيه الثانية عشرة. ولكنهما يتكاتبان برسائل طويلة، قبل زينيل أخيراً أن ينقلها، ذلك أنه لا يستطيع أن يرفض أي طلب لسلطانته الصغيرة، ومع ذلك فإنها عندما جاءت ترجوه أن يهيء لها مقابلة مع هذا المراهق، فإنه اكتفى برفع حاجبيه، وقال لها:

ــ إنك تاج رأسي، أما هذا، فأنت تعرفين أنني لا أستطيع إليه سبيلاً.

فردّت قائلة:

ــ يا آغا، أنت الوحيد الذي يستطيع مساعدتي. فهو مسافر، ويجب حتماً أن أراه مرة أخيرة!

ولقد طال بكاؤها في ذلك، حتى قبل الخصيّ بتدبير الأمر، فهو يحبها كثيراً، يحب ابنته الصغيرة، وهو بحاجة كبيرة لأن تحبه. فبسمة واحدة منها تغمره بالسعادة... ذلك أنها شبيهة ببسمة السلطانة.

وقد تم الوداع بين الاثنين في جناح العندليب. ووقف زينيل كحارس على الباب، وأتاح لهما البقاء ربع ساعة.

وكان أحمد قد لبس أجمل ما عنده. وكان ينظر إلى حذائه، وهو شاحب اللون.

فقالت في نفسها:

«أي خاطر جاءني حتى أطلب أن أراه. بل ليس عليه لوائح المسرور بهذا اللقاء... فلو كنت أعرف... ومع ذلك فإنه يكتب لي رسائل جميلة... فلماذا لايقول شيئاً؟... ولكن انظر، هاهو يحمر الآن... إن المسكين لم يملك التتابع في أفكاره قط! وإني لظالمة... وإنه لبائس... ولكني أنا أيضاً بائسة. وأخيراً فإنه هو الذي يتركني... ياإلهي ما كنت أعتقد أن ربع الساعة سيكون بطيئاً إلى هذه الدرجة... كلمني، ياأحمد، كلمني، وإلا فإنني سأنفجر...».

ــ أحمد

ورفع الطفل رأسه. وكان يبكي.

ــ أحمد أرجوك، لا تبك. إني أمنعك عن ذلك!... وأولاً، فإنني أنا التي يجب أن تبكي!

ــ أنتِ، ولِمَ أنت، ياأميرتي.

ــ لأنك تتخلى عني!...

«لم يكن عليّ قط أن أقول هذا، كم يبدو أحمد حزيناً... إنه يصمت، بل إنه لا يحاول حتى أن يبرّر نفسه... ولكن كيف يستطيع ذلك؟ سيكون معناه أن يتهم أباه... والأمور تجري دوماً على هذه الصورة، فالكبار يتكلمون باستمرار عن مبادئهم، ولكن عندما يكون ذلك في مصلحتهم، فإنهم ينسونها! يالحسن الحظ أن الأيندجيم ليست كذلك... ولا البابا... بطبيعة الحال...».

ــ لا تكن حزيناً ياأحمد، فلسوف يكون لك أصدقاء كثيرون في أنقرة وستنساني.

ــ أأنا، ياأميرتي، أنساك ...؟

وينظر إليها كما لو أنه يؤنبها تأنيباً فيه من القوة ما يجعلها تخجل، تخجل من هذا الألم الذي سبّبته له والذي لا تملك أن تشاركه فيه. غير أنها عندما علمت بنبأ سفره، شعرت كما لو أنها ضربت بحجر على قلبها: أفهذا هو الحب. بل إنها حلمت أنه يقترح عليها أن تهرب معه... وكانت قالت لنفسها أنها ربما قبلت ذلك منه...

وبدلاً من ذلك، يبقى جالساً يبكي... بل إنه لم يأخذ يدها بيده. فتشعر بأن حنجرتها تنقبض، لا لأن أحمد سيذهب، ولكن لأنها تفهم فجأة... أنها لا تحبه.

وبحركة من يدها رفعت شريطة المخمل الأزرق التي تربط شعرها ، وقدمتها إليه . فأشرق وجه أحمد ، وبدا أنه سعيد جداً بها ، حتى لقد ضاقت به ذرعاً ، وبدا لها أنها تكذب . ولكن هل تستطيع أن تقول له إن هذا الشريط ليس ، بعد كل شيء ، إلا شريطاً ؟ ومن جهة أخرى ، ماذا تعرف هي عن هذا الأمر ؟

وبعد عدة أيام ، تفقد سلمى عزيزتها غوليفيليس . وكانت بعد سفر أحمد آخر صديقة كبيرة لها . ولقد وصلت ذات يوم باكية ، ضامّة وليدها إلى صدرها . أما زوجها ، وهو موظف في المالية ، فإن عليه أن يمضي إلى أنقرة . لكن غوليفيليس تأبى أن تذهب معه ، وقد جاءت لتتوسل إلى « أمها بالتبني » أن تستبقيهما عندها ، هي وصغيرها .

وبقيت السلطانة ساعات مع غوليفيليس لتقنعها أن عليها اتباع زوجها . وسلمى الجالسة قرب غوليفيليس ، تنتظر من أمها لحظة ضعف غير محتملة .. حتى بدا في الأفق شفق أحمر : وكان على هذه العروس الشابة أن تعود إلى بيتها .

وطرحت سلمى فكرة إقامة حفلة على شرف هذه الشركسية ، بغية تحريك هذا الجو الحزين : كأن تُنـزّه في عربة تجرها الثيران ، فوق نهر أيوب ، مع كل صديقاتها في الحرملك ، مع « سيران » في الريف المطل على القرن الذهبي .

وهذه آخر أيام الخريف ، والنور يلهو خلال الأوراق المحمرة ، وسالف العروس[٢] ، التي تحيط بالطرق الحجرية . وكانت الثيران ، ذات الجبهة المطلية بالحناء ، والقرون المزدانة بعقود من اللآلىء الزرقاء ، استبعاداً لعيون السوء ، تجر العربات ذات الألوان الحارة ، والمزينة بعقود وطاقات من الأزهار الحلوة الأريج : حتى ليخطر بالبال أنها العربات الريفية التي يملكها سيد فلاح ، من قديم الزمان .

وكانت النساء ، في الداخل ، ووراء الستائر الحريرية ، متمددات على وسائد ثخينة . وكن يهذرن ويضحكن ، كما لو أنهن في الأيام الخالية الحلوة . وكانت ملكة العيد وحدها صامتة ، ضائعة وسط كل هذا المرح . وكانت سلمى ، تلطى بها . وخطر لها أن تضع يدها بيد صديقتها . ذلك أن

(٢) سالف العروس amarande ، نبات للزينة .

نظرة الأمة الفتية كانت تقبض لها قلبها . وكأن لها من أحمد عينيه المحزونتين ، عينين تقولان: « لا لقاء بعد الآن » وفي الحين نفسه كانت الشفتان تتمتم « إلى القريب العاجل » ...

ومضى هذا النهار الذي وعدت البنيّة نفسها فيه بالكثير من المتعة ، كحج إلى مرج الأموات . وكانت تلوم نفسها على أنها ألحّت ، وكانت تتمنى لو احتفظت من غوليفيليس بصورة الخفة ، واللامبالاة . ولكن السحر انقضى . وعلى الرغم من الأحاديث المازحة ، والوعود ، فغوليفيليس ستعود بعد سنة لتقضي بعض الأيام في استامبول ، وعندما تصبح سلمى كبيرة ستذهب بالتأكيد إلى أنقرة ــ وكانتا تعرفان أن كلاً منهما فقدت الأخرى ــ وبقناعة مثيرة ، كانت دموع كل منهما تقول : « لن نلتقي أبداً » .

ويعيش السلطان عبد المجيد ، في قصر ضولمة باهتشه ، عيشة هادئة .. ولقد بلغ الخامسة والخمسين من عمره ، وظلت أساليبه في التعامل رقيقة . وهو يقسم وقته بين الفن ، والموسيقى ومطالعة كتب الدين . ولا يحاول أن يلعب أي دور سياسي ، ولكنه ، وهو الشديد التقوى ، يحمل مهمته ، كأمير للمؤمنين ، على محمل الجد ، باعتباره مسؤولاً عن ٣٥٠ مليون من المسلمين .

ونراه لا يخرج إلا مرة واحدة ، كل أسبوع ، لصلاة السلاملك . ولقد حرص على أن يعيد لهذا الاحتفال فخامته القديمة . ولهذا فهو يمضي كل يوم جمعة ، بحاشية كبيرة إلى مسجد أياصوفيا ، أو إلى مساجد أخرى هامة في المدينة ، تحف به مفرزة من الفرسان . وقد يحدث أن يترك عربته ، ويمتطي صهوة حصان أبيض . ويتجمع الناس على الطريق الذي يمر به ، ويهتفون بحياته . وإن له لسمة المزهو بنفسه ، بلحيته البيضاء الطويلة ، وعينيه اللتين تملكان لوناً بنفسجياً غريباً .

وربما اجتاز الخليفة البوسفور في مركبه الملكي ، الأبيض المذهب ، ليذهب فيصلي في مسجد أسكودار الكبير . بل إنه لبس مرتين أو ثلاثاً معطف السلطان محمد الفاتح ، ولفته العالية . ذلك السلطان الجد ، الذي كان في الثامنة عشرة من عمره عندما استولى على بيزنطة عام ١٤٥٣ .

لكن هذه التظاهرات ، والشعبية الحقيقية التي يتمتع بها الخليفة ، قد أثارت سيد تركيا الجديد ، إثارة عميقة . لا سيما وأنه يستقبل في قصره السفراء وأصحاب المراكز الرفيعة من الأجانب ، كما يستقبل رجال السياسة الأتراك ، وبصورة خاصة رؤوف باشا ورفعة بك ، بطل معركة الاستقلال ، اللذين يستمران في مخاطبته على أنه صاحب الجلالة . بل إن رفعة بك مضى إلى حدّ أنه أهدى

جلالته حصاناً أصيلاً رائعاً ، وهذا ما كتبت عنه الصحف بكثير من التفاصيل ، كما أنها تروي تفاصيل كل أعمال الخليفة وحركاته .

وكان عبد المجيد ، من غير أن يريد ذلك ، يجذب إليه ، كالمغناطيس كل المستائين في البلاد ، وهم كثيرون . فمنهم من كان من الأسر الكبيرة ، أو الجنرالات المتقاعدين ، أو الموظفين المعزولين ، وكبار رجال القصر القدماء ، ورجال الدين خاصة .

وحقاً فإن مصطفى كمال أهمل ، بعد انتصاره ، كل مظاهر التعلق بالدين . ولقد أثار حديثاً استنكار كافة المسلمين عندما طرد شيخ الإسلام ، وضربه بقرآن على ظهره . ويقال إن النساء في أنقرة يُرغَمن على الخروج بدون حجاب ، وإن هذا الأمر سيطبّق عما قريب في كل أنحاء البلاد . وآخر فضيحة هي تلك التي أمر فيها الغازي أن يقام له تمثال ... إذ ما من سلطان تجرأ على عمله ، من حيث أن تمثيل الشخص الإنساني ممنوع في الدين ، الذي يعتبر هذا العمل نوعاً من الوثنية .

وقليلاً فقليلاً ، وباسم الإسلام ، تتجمع المعارضة . ففي المساجد والساحات العامة بدأ الخوجات والمشايخ يخطبون ضد « حكومة الملحدين هذه » . وصارت النشرات والكاريكاتورات توزّع ، من هذه الجوامع نفسها ، التي كانت في الماضي ، تساعد كمال في نضاله من أجل الاستقلال . وكما كان يهاجَم الغازي في استبداده ، فإنه كان يهاجم على فساد أخلاقه . وعندما ساءته غيرة لطيفة خانم ، طلقها وعاد إلى سابق عاداته كرجل أعزب ، ومنذ ذلك الحين تراه يقضي لياليه في البارات ، يلعب ويسكر ، بل إنه ليُرى مع العاهرات .

ثم إن انتحار فكرية ، في هذا الخريف من عام ١٩٢٣ ، لم يساعد على الإعلاء من نفوذه . ذلك أن هذه القريبة الشابة ، التي كانت في الماضي عاشقة ، بجنون ، لهذا الجنرال الوسيم ، عادت إلى أنقرة ، منذ أن علمت بطلاقه . وكانت مستعدة لتقبل كلّ شيء ، من هذا الرجل الذي تعبده . ولكن كمال رمى بها خارج البيت وعُثر عليها في اليوم التالي ، ميتة في حفرة : فقد قتلت نفسها برصاصة من مسدّس .

والآن فإن الملكيين ورجال الدين ليسوا وحدهم في المعارضة ، بل إن ديمقراطيين كثراً ، أرهقتهُم كل هذه التجاوزات ، يتطلعون جميعاً إلى الخليفة . وعلى كل حال ، فإن عبد المجيد يمكن أن يكون ملكاً دستورياً كاملاً : فهو رجل حكيم وشريف ، وليس له من قوة الشخصية ما يجعله يدخل في صراع مع وزرائه الممكنين .

ويشعر مصطفى كمال بأن الخطر يقترب منه. وحتى هذه اللحظة، لم يجرؤ على مجابهة الشعب بإلغاء الخلافة، التي كان يصفها بين جماعته، بكونها «ورماً خلّفته القرون الوسطى». ولكنه يعلم أنه لن يكون السيد المطلق إلا إذا هو قضى عليها.

والغريب أن عبد المجيد نفسه هو الذي قدَّم له المبرِّر، عندما طلب زيادة في مخصصاته التي، كما قال، لا تسمح له بأن يقوم بأعباء منصبه كخليفة بصورة مقبولة. وبكل وقاحة يجيب كمال بقوله: «إن على الخليفة أن يعيش عيشة متواضعة، وإن الخلافة نفسها ليست إلا بقية من بقايا التاريخ، لا شيء يبررها».

ومنذ ذلك الحين، بدأت الحرب بين الطرفين. وبدأت الصحافة بدفع من الغازي، بمهاجمة الخلافة: «فبماذا تنفعنا الخلافة؟ إن هذه وظيفة تكلّف الشعب غالياً، ويمكن أن تستخدم كمستند لإعادة السلطنة!». لكن الصحف المعتدلة تعترض على ذلك، وتقول: «إن الخلافة كنز لا يقدَّر بثمن، بالنسبة لبلادنا. فإذا نحن ألغيناها، فإن تركيا بعشرة ملايينها ستفقد كل أهمية في العالم الإسلامي، كما أنها ستكون بالنسبة لدول أوروبا دولة صغيرة لا قيمة لها».

وفي يوم ١٩٢٣/١٢/٥، انفجرت القنبلة، على صورة رسالة من الآغاخان، نُشرت في ثلاث صحف في استامبول. وفيها يحتج رئيس الطائفة الإسماعيلية على الإساءات التي تُوجّه إلى أمير المؤمنين ويطالب بأن يُضمن له وضعٌ يؤمّن له احترام كل الشعوب اسلامية وثقتها.

وهذه الرسالة ليست بالأمر العظيم، ولكنها أرسلت من لندن. والمناسبة أجمل مما نتوقع بكثير! فينادي مصطفى كمال بوجود مؤامرة، ويدين الآغاخان، كعميل للقوى الأجنبية التي تحاول أن تقسم الشعب التركي. فأوقف مديرو الصحف التي تجرأت على نشر الرسالة، وأحيلوا على المحاكمة. وصدر قانون ضد «الخيانة» يقضي بأن كل من يتظاهر ضد الجمهورية، لمصلحة النظام القديم، يعاقب بالإعدام. ثم إن القائم بالشؤون الدينية، الذي غامر بالدفاع عن الخليفة، رأى (الكمال) يصرِّح أنه إذا عاد إلى مثل ذلك، فسوف يشنق. وأوقفت مجموعة من الضباط، والموظفين. حتى ليظن الإنسان أننا على أبواب انقلاب.

ولكن عبد المجيد، في قصره، يلتزم الصمت، ليترك للعاصفة أن تهدأ، لكن الغازي قرّر الانتهاء منه، فطلب من حكومة استامبول منع الاحتفال بصلاة يوم الجمعة. فإذا أراد الخليفة أن يصلي في المسجد، فليس عليه إلا أن يستأجر عربة توصله إليه، أما المرافقة بمفرزة من الفرسان، فقد أُلغيت، وصودر المركب الملكي. ثم إن مخصصات الخليفة قد اختصرت إلى الدرجة التي

لا يستطيع معها، لا تعيين أمناء سر، ولا مستشارين. أما أصدقاؤه الأوفياء، الذين يريدون البقاء، رغم كل شيء، فأنهم يوصون «حرصاً على حياتهم» أن يتركوا القصر بأسرع وقت.

ومضى شهران. ومضى مصطفى كمال للإشراف على المناورات السنوية الكبرى، في منطقة إزمير. فعاد الأمل إلى المقربين من الخليفة، ولكن ذلك لم يكن إلا إنذاراً. والحقيقة هي أن الغازي ذهب ليستشير القادة العسكريين. وبعد عدة أيام من المناقشات، استطاع إقناعهم أنه يجب وضع حد للسلطة الدينية للأسرة العثمانية.

ولما كان الجيش معه، فإنه يستطيع أن يضرب. أما المجلس الوطني فهو يعلم أنه يملك أمره بين يديه. وكما هي العادة، فإن نواباً كثيرين، تمرّدوا، ولكنهم لن يجرؤوا على عصيان أوامره. وعدا ذلك، فإنه كان قد أخذ حذره، فدعا رؤوف باشا، معارضه الأكبر شأناً، أمام اللجنة المركزية لحزب الشعب، وأرغمه على أن يقسم يمين الولاء للجمهورية ولرئيسها، تحت طائلة الطرد من البرلمان، والنفي من تركيا. ولما كان رؤوف باشا ورفعة بك، يعلمان ماذا يهيأ لهما، وعجزهما عن تجنبه، فقد تركا أنقرة.

وفي يوم ١٩٢٤/٢/٢٧، وُجِّهت الضربة الأخيرة فأدانت المجموعة الكمالية ما يحاك من مؤامرات من أنصار العهد القديم، وقضت بإلغاء الخلافة. وفي اليوم الثالث من أيار، وبعد أسبوع من الاحتجاجات والمشادات، انتهى البرلمان بالخنوع. وصوت برفع اليد لا على طرد الخليفة عبد المجيد فوراً، بل على طرد أفراد الأسرة العثمانية جميعاً.

وكان علينا جميعاً أن نرحل في غضون ثلاثة أيام!

أما الجنرال الأمير عثمان فؤاد، فإنه لم يعد يطيق نفسه من شدة التأذي والاستنكار. فجاء هذا الصباح في الساعة التاسعة إلى جناح خديجة السلطانة، ذلك أنه علم أن الخليفة وزوجتيه وأولاده، قد ركبوا قطار الشرق السريع، باتجاه سويسرا.

وجاء حاكم استامبول، ومدير شرطتها في قلب الليل، إلى قصر الخليفة، الذي كان يقرأ في مكتبته، على مارواه لي حاجبه. بل إنهما كانا قد أحاطا بجنودهما القصر، خشية أن يهرب! وكان الخليفة يحتفظ بكامل كرامته، وكل ما طلبه هو أن يسمح له بعدة أيام لكي ينظم أموره. غير أن «البهائم» رفضوا! ذلك أن خوفهم كبير من ردّ الفعل الشعبي، بل إنهم حرَّموا على الصحف أن

تنشر الخبر قبل أربع وعشرين ساعة. وكان على الأمير أن يرحل في أسرع وقت ممكن. ولم يترك له إلا حدٌّ أدنى من الوقت، ليحزم حقائبه.

«وفي الساعة الخامسة جمع العاملون في القصر كلهم في البهو الكبير. وكان الجميع يبكون. وكان الخليفة متأثراً جداً. فصافح بعض الأيدي وقال: «إني لم أسيء قط إلى شعبي، ولن أسيء إليه أبداً. وبالعكس، فإنني سأدعو الله دوماً أن يرفع من شأنه، حتى أموت وبعد الموت أيضاً».

«وعندئذ جاء رئيس مكتب الأمن، ودفعه إلى عربة، لم يأخذوه بها إلى المحطة الرئيسية سركيدجي، بل إلى محطة صغيرة تقع على مسافة خمسة وعشرين كم منها، تجنباً لكل مظاهرة».

وكانت سلمى تصغي، وفمها مفتوح. فهي لا تفهم شيئاً من هذا كله. فخلال سنوات كان الناس يخشون جيوش الاحتلال: وكان الناس يتوقّعون كل شيء من جانب الإنكليز والأغاريق! والآن وقد كسبنا الحرب، فإن الأتراك هم الذين يطردون الخليفة، ويريدون أن يطردونا... لقد أصبحوا مجانين! ومن المؤكد أن هذا سوء تفاهم! وكالعادة صارت أيندجيم هي التي تهدىء العم فؤاد. وستشرح له، وترتب كل شيء... وكانت المراهقة، بعينيها، تسأل أمها، ولكن أمها أخفت وجهها بيديها، وبصعوبة ما استطاعات سلمى أن تسمعها تقول:

ـــ المنفى؟... هذا غير ممكن...

أما الجنرال الأمير فكان في البهو الصغير المزيّن بأزهار النرّجس، يدور كالأسد المستعد للانقضاض.

ـــ لقد جُرّدنا من جنسيتنا، ومُنعنا من أن تطأ أقدامنا أرض الوطن مرة ثانية. وأموالنا مصادرة. كل ما هو من حقنا الآن، هو أن نحمل معنا حاجاتنا الشخصية. آه! كدت أنسى شيئاً، فقد قررت الحكومة الكريمة منح كل منا ألف ليرة ذهبية، بحيث نستطيع العيش بضعة أشهر! هاكِ، ياعمتي العزيزة، جلية الموقف. فنحن مطرو.ون كالمجرمين! ولا سيما أولئك الذين من بيننا وهبوا دمهم لتركيا.

قال هذا ووضع يده على صدره المزدان بالأوسمة التي نالها في ساحة القتال. وكانت شفتاه ترتجفان. وتشعر سلمى أنها تكاد تبكي. ورأسها يدور بها. لا. حقاً إنها لا تفهم... فالسفر؟ لماذا؟ وأين؟ ولأية مدة...؟ وكان العم فؤاد قد قال: إلى الأبد.

ـــ ولكن ماذا يعني قوله: «إلى الأبد».

وندت منها صرخة من غير أن تريدها . فنظرت إليها أمها ، فكم هي شاحبة اللون ...

ــ أيندجيم !

وارتمت سلمى على أرجل السلطانة .

ــ ليس هذا بصحيح ؛ قولي لي إن هذا غير صحيح . فعلى ماذا يلوموننا ؟... أرجوك ، يا أيندجيم ، ويا عمنا فؤاد ، أجيبوني ! ماذا يحدث ؟

ــ يحدث أن مصطفى كمال ...

فانتصبت سلمى واقفة ، وقد سُرِّي عنها

ــ الباشا ؟ وإذن فما من شيء قد ضاع ، يجب أن نمضي لنراه ، ونشرح له أنهم خانوه ، وأننا قط لم نعمل ضده ! تذكّري ، أيندجيم ، كنت تقولين إنه وطنيّ كبير ... وخلال الحرب ، كنت كل مساء تطلبين منا أن ندعو له بالنصر ... والضابط الذي خبأناه ... يجب أن نذهب إلى أنقرة ، وأن نقص على الباشا كل شيء . وأنا واثقة أنه سيفهم !

ولكن لماذا تدير لها أُمّها ظهرها . ولِمَ العم فؤاد يرفع كتفيه ؟ أوما من إنسان يصغي إليها ؟

ويقول الجنرال الأمير :

ــ سلطانة ، تذكري أنه ليس لدينا إلا ثلاثة أيام .

وبسرعة ينحني ، ويترك البهو الذي هو فيه .

هنالك ضباب ... وسلمى لا تذكر إلا ضباباً من الأنين ، والجنون ، والدموع ، والصغائر ، والإخلاص ، والوفاء اللا منتظر ، والخيانات أيضاً ...

وخلال ثلاثة أيام ، تاهت البنيّة ، ورُدّت على أعقابها من غرفة إلى أخرى من قبل الخادمات والخصيان الذين ينتزعون الثياب المعلقة من أماكنها ، ويطوونها ، ويضعونها في الحقائب ويختصمون فيما بينهم ، وخلال ثلاثة أيام حاولت أن تهرب من هذا الضجيج وهذه الفوضى ومن تأوهات الكالفات ، وبخاصة من الآنسة روز الباكية التي تتبعها من مكان لآخر ، لكي تواسيها . وفي مثل

هذه (الشوشرة)، لم تعد تعرف قصرها، قصر الدانتيل الهادىء. فكأنها ليست في بيتها. وكأن الضجيج استبعدها عنه قبل الأوان.

وانتهى ذلك معها إلى أن تحبس نفسها في غرفتها، ونظرت إلى كل من هذه الأشياء الأليفة التي تحبها لكي تنقش صورتها في نفسها، ولكي لا تنساها. ولكنها لم تعد تستطيع أن تراها، لأنها غدت غامضة. كما لو أن الحياة فارقتها... وهكذا، فعندما قامت خادمتان بحمل الحقيبة الكبيرة، ورجتاها أن تختار ما تريد حمله، فإنها لم تزد على أن ترمي في أعماقها كتاب الشعر ودفاترها؛ أما الباقي فقد قالت لهن أن تختارا لوحدهما. ولما كان خيري يشكو من أن حقيبته صغيرة جداً على ملابسه ولعبه، فقد تركت له نصف حقيبتها.

ومع ذلك فإن بعض الصور من داخل هذا الضباب تطفو على السطح، كجزيرات صغيرة من الألوان: مثل صورة الخياطات المنحنيات على أرواب أمها، واللواتي يخفين في تضاعيفها بعض الحلي: ويقلن إن للسلطانة الحق في حملها معها، ولكن لا يعرف أحد، ما إذا كان أحد رجال الجمارك يُبرز الكثير من قوة الوجدان! بل يبدو لها أنها رأت زمردة تختفي في جيب إحداهن... ثم زينيل، زينيل الطيب، الواقف فوق صندوق، يصرخ بكل الناس، وينقد الجميع، ويهزّ ساعديه كما لو أنه رئيس أوركسترا. وأخيراً صورة أمها في وسط هذه الفوضى، وهي تمر من جديد، باسمة، وتواسي وتهدىء.

ـــ لا تخافوا شيئاً، يا أولادي، إنها ليست أكثر من زوبعة تثور ثم تهدأ بعد بضعة أشهر. وعندئذ سيستدعينا الشعب.

ولكن الشعب، في الوقت الحاضر يصمت. ذلك أن الحكومة قامت بما هو ضروري للجمه. فقد أقامت في كل المدن الكبرى محاكم استثنائية، لها الحق في إصدار الحكم بالإعدام، وعمّمت «قانون الخيانة» على كل أولئك الذين قد يناقشون قضية طرد الخليفة والأمراء من البلاد.

وخلال ثلاثة أيام تتابع الأصدقاء لزيارة قصر أورطاكوي، وعلى الأقل أولئك الذين تجرؤوا على تحدي المراقبة. وخلال ثلاثة أيام أيضاً، تساءل أهل البيت، أين يذهبون؟ إذ لم يحدث مرة قبل اليوم أن أميرة عثمانية خرجت من بلدها. وبين «القديمات» قليلات هن اللواتي خرجن من قصورهن.

ولقد اقتُرح أول الأمر الذهاب إلى فرنسا، إلى نيس حيث الطقس لطيف كما هو في استامبول، وحيث السماء، على ما يبدو، تظل زرقاء صافية، وحيث البوسفور يسمى البحر

الأبيض المتوسط . ولكن الأميرة اختارت أخيراً بيروت « لأنها قريبة جداً ، ولأننا نستطيع العودة منها بسرعة ! » .

وتساءلت سلمى عما يفكر به أبوها حول هذا الموضوع . فمنذ جاء هذا الخبر لم تره مطلقاً . ويخيّـل إليها أنه غارق ، ذلك المسكين ، في نخل كتبه ، والنظر في أوراقه ... وخالجتها فجأة رغبة حادة في أن تراه ، إذ لم تعد تطيق الوجود مع كل هؤلاء النسوة اللواتي يقبّلن يدها ، بهيئة المحزونات الكئيبات .

ولم يعد هنالك حرس على باب الحرملك . فعادت سلمى ومرّت في البهو ، صادمة الكالفات . واندفعت نحو أمها .

ــ أيندجيم ، بابا ، أين هو بابا ؟

وبرقة غير مألوفة ، تداعب السلطانة شعر ابنتها وتقول لها :

ــ كوني شجاعة ، يا سلماي . فقد خُيِّـر الدامادون بين الرحيـل مع زوجاتهم ، أو الانفصال عنهن ، والبقاء هنا . وأبوك لن يأتي إلينا بعد الآن .

فرنّت الكلمات في الفراغ ... وهو فراغ ، يعمّق مجراه ، ويزداد برودة ، داخل صدرها ، وداخل بطنها ، وحتى آخر نقطة من أصابعها ... « لن ... يأتي ... بعد الآن » .

الساعة هي الثامنة صباحاً ، وضوء النهار شفاف في يوم الجمعة ٧/٣/١٩٢٤ .

وفي القطار الذي ينقلهم بعيداً عن استامبول ، كانت سلمى ، ملتفة على نفسها فوق المقعد ، تنظر إلى بلدها الذي يتركها ... أي إلى غابات الصنوبر التي تمر أمامها ، وإلى الأنهار المتألقة ، والنساء في أغطيتهن البيضاء وسط حقول اللفت .

وأمام عينيها ، كانت السماء تمطر رذاذاً .

القسم الثاني

لبنان

١

في وسعها أن تصفعني بقدر ما تستطيع ، فلن أخفض عيني . وتكفي شكوى واحدة ، وتكون قد انتقمت ، ولن يكون بها حاجة إلى الضرب ، وقد تعفو . إنني لن أُقدِّم لها هذه الفرصة . فذلك معناه ، أنها على حق .

وفي ساحة اللعب ، وحول المرأة التي تلبس الثياب السوداء ، وحول الفتاة ذات الخصل الحمراء ، كانت الطالبات يزدحمن ، صامتات . وهذا الذي بدأ كأنه وليمة ــ يكاد ينتهي إلى مأساة ــ وأخيراً سنرى هذه الوقحة تبكي . والأم أشيليه تضرب بعنف ــ إنها على وشك أن تقصم ظهرها ... فلماذا لا تصرخ وتبكي هذه الحمقاء ؟ أولا تعلم أن عليها أن تصرخ قبل أن تشعر بالألم . فالراهبات ذوات قلوب رقيقة ، ولا يحتملن سماع الصراخ .

وتوقفت الراهبة ، متعبة . وترفع سلمى ذقنها ، وتكسو وجهها بسيماء الاحتقار ــ كما لو أنها ضحية أمام معذّبها .

ــ ستكتبين لي الدرس مئة مرة !

ــ كلا .

فعمّت الدهشة الطالبات : إنها قوية ، هذه التركية الصغيرة . واصفرّت الأم أشيليه ، وقالت :

ــ إنكِ الشيطان ! وسنرى ماذا تقول عن سلوكك الأم المديرة .

وانطلقت بما تلبس من تنانير وأكمام، وأدارت ظهرها، واتجهت إلى مكتب الراهبة العليا.

واقتربت مراهقة سمراء من سلمى بخجل. إنها أمل، بنت أسرة درزية كبيرة، من هؤلاء الإقطاعيين الذي سيطروا على الجبل اللبناني قروناً وقروناً. وقالت لها، قلقة:

ــ ستُطردين، إذن. فماذا ستقول أمك.

ــ ستهنئني.

ــ ؟ ؟ ؟

ــ إن أمي لا تقبل أن تهان أسرتنا. وهذه التي يقال إنها مدرّسة تاريخ ليست إلا كاذبة!

أويقال عن راهبة إنها كاذبة! إن الطالبات لا يُصدّقن ما يَسمعن. ويبتعد بعضهن لينقلن الكفر الذي لا يصدق، لغيرهن. ولا يَجرؤ أحد على تخيّل ما قد يقع ــ ولكننا حتماً سنتسلى.

وتنظر الأم مارك، في مكتبها المغلّف بخشب قاتم، إلى الصليب الذي علّق فيه المسيح، داعية أن يلهمها الصواب. فهذه حالة تمرد موصوفة. وهي مضطرة إلى الردّ بعنف. ولكن هل تستطيع أن تقسِر هذه الصغيرة على أن تقول السوء عن ذويها؟ وفي العام الماضي، جوبهت بمشكلة مماثلة، بعد الدرس الذي كان يتعلق بالحروب الصليبية! وكان في الصف طالبتان مسلمتان، جاء أبواهما فأخذاهما دون أن ينبسا ببنت شفة.

وهذه المؤسسات، الشبيهة بهذه التي تديرها الأم مارك في بيروت ــ أي مدارس أخوات بيزانسون ــ مفتوحة للأطفال من كل الأديان. وهي لا تهدف إلى هداية «الغنمات الشاردة» ولكنها لا تفقد أبداً الأمل بأن كلام الربّ مثل البذور التي تُرمى في الهواء، وستنتهي ذات يوم بأن تنبت.

ويقرع الباب بثلاث ضربات خفيفة. وتدخل صبية ذات شعر كثيف، ملتهب، فوق ياقة من الدانتيل الأبيض، الذي يُحلّي اللباس الأزرق ــ البحري. وعيناها مخفضتان، والجبهة عنيدة. وتقدّم عميق الاحترام بانحناءة كبيرة.

ــ يمكنكِ أن ترفعي رأسك، يا آنسة.

وتضرب الأم مارك على مكتبها ضربات خفيفة بأصابعها العاجية الطويلة.

ــ إنك ترين، يا ابنتي، أني مترددة. فماذا تفعلين لو كنت في مكاني؟

ولكنها لم تتوقع تلك النظرة المثقلة بالتأنيب، ولا الردّ الجارح، على ما فيه من حسن التهذيب.

ــ ليس لي شرف الحلول محلك، أيتها الأم المحترمة.

ــ «الأم»!

ــ عفواً؟

ــ أمي المبجّلة.

ــ نعم، الأم المبجّلة.

واختارت الأم مارك أن تضع الحذف (حذف حرف ي من «أمي» والاكتفاء بالأم وحدها) على حساب الجهل باللغة الفرنسية، وتابعت كلامها بلهجة ناعمة، قائلة:

ــ إن الأم أشيليه تطلب طردك. وتؤكد أن في سلوكك خطراً على النظام في الصف.

وتسكت سلمى. وتفكر بأمها. مسكينة أيندجيم. فبعد خيري الذي يأبى أن يذهب إلى المدرسة، لأن رفاقه يسمونه «صاحب الحمرنة Annesse» بدلاً من «صاحب السمو Altesse». وها هي الآن تسبب لها مشكلات جديدة. وعندما خطر لها ما ستعانيه أمها من ذلك، ضعُف عزمها.

ــ أيتها الأم المحترمة ــ ماذا تفعلين لو أنهم أرغموك على حفظ ــ وهنا يضعف صوتها ــ على حفظ أن جدّك كان مجنوناً... وعمك الكبير كان شيطاناً مغرماً بدم الآخرين... وعمك الآخر ضعيف العقل، والأخير جباناً ؟

وتنظر الأم مارك من جديد إلى الصليب الذي عليه المسيح. ثم استدارت إلى المراهقة، وعيناها تلمعان.

ــ إن سيدنا يسوع المسيح قد صُلب، لأن معاصريه كانوا يرون فيه «دجالاً». فأحكام الناس، كما ترين، تعكس حدودهم: فليس هناك من تاريخ، بل هنالك وجهات نظر. والوحيد

الذي يعرف الحقيقة ، هو الذي لا يملك وجهة نظر ، لأنه غير محدود بشيء . فهو في كل مكان ، إنه الله .

وباعتبارها حفيدة متأخرة لأسرة عظيمة من أيام الصليبيين الذين حاربوا ، ووهبوا حياتهم للحقيقة ، فإن الأم مارك تضطرب كما لو أنها قد خانتهم . ورأت أن تستعجل الخلاص من هذه القصّة ، ولكن صوتها يضطرب قليلاً عندما تنطق بحكمها :

ــ إنك لن تحضري بعد الآن دروس التاريخ ، وستدرسين البرنامج وحدك . وأعتقد أنه ليس من الضروري أن أشير إلى هذا الحادث أمام السلطانة .

ــ أوه ! شكراً يا أمي المبجّلة !

وباندفاع طبيعي ، قبلّت سلمى يد الراهبة العليا ، وحملتها إلى جبينها كما كانوا يفعلون في البلاط العثماني .

وتمتمت الراهبة ، مندهشة :

ــ امضي بسلام ، يا بنيتي !

ومن غير أن تفكر سلمى ، وحسب العادة الإسلامية ، أجابت :

ــ رافقتك السلامة ، يا أمي !

وبدا للأم مارك أن المسيح ، من صليبه ، يبتسم لها .

وإذا قارنا بيروت بالعاصمة العثمانية ، وجدناها مدينة حلوة في المحافظات ، يسكنها حوالي المئة ألف نسمة ، تزيّنها بيوتٌ بيضاء ذات سقوف من القرميد الأحمر ، ومحاطة بحدائق كثيرة الظلال .

وفي الغرب ، في حي رأس بيروت ، حيث استقرت السلطانة ، يمكن للإنسان من الشرفة أن يرى البحر ، ذا اللون الأزرق الشديد الزرقة حتى إن سلمى صُدمت منه أول الأمر ، كما يُصدَم الإنسان مما يبدو له من سوء الأدب لدى إنسان ما . ولكن البنيّة فهمت تدريجياً أن كل بيروت كانت على صورة البحر المتوسط ، ضاحكة ، ممتلئة حيوية ، على نقيض استامبول وبوسفورها ، اللذين كان شفوفهما المتقلب والمغمور بالأحلام والأشواق ، يُثير الرغبة في البكاء من شدة الرقة .

ثم إن السيدة اللبنانية التي أجرّتهم بيتهم الجديد «تعشق تركيا والأتراك!» — ككل سكان الحي، على ما تؤكد هي.

وبزهوٍ ما تعظّم لهم شأن بيتهم المجمّل بأشجار التين والنباتات دون أن تشير إلى المزاريب التي تهرّب ما يجري فيها من الماء، وتملأ الجدران ببقع كبيرة من العفن، ولا إلى النوافذ التي لا ترى حرجاً في مرور الهواء، منها، بكامل الحرية.

وتشرح لهم:

— أن الأسر السنية تسكن في رأس بيروت، تلك الأسر التي كانت في عهد العثمانيين، وحتى مجيء الفرنسيين، سادة المدينة، خلال أربعة قرون.

«أما هنا فتسكن عائلة الغندور، التي كانت تملك إدارة حصر التبغ والتنباك. وأسرة البلطجي، التي تسيطر على المرفأ. وهناك نجد بيت الداعوق، وبيهم، والصلح. وهم جميعاً أغنياء جداً! ثم إنهم يتكلمون اللغة التركية، كما يتكلمون العربية، وأحياناً نراهم يفخرون بوجود دم تركي في عروقهم، عن طريق جدّةٍ شركسية أو استامبولية».

وتضيف أن هذا المجتمع الراقي السني، على أفضل حال مع الأسر الرومية الأرثوذكسية، التي تشكل أقلية عظيمة القوة. وهذه جميعاً تستقبل الزوار، تقريباً كل يوم. فيلعب الرجال بالورق والبوكر، وتلعب النساء بالبيناكل. وفي آخر ما بعد الظهر، يتنزه الناس على الأحصنة، في الهضاب المجاورة، ولا سيما في الربيع عندما يتعطر الجو برائحة الزعتر والزعرور.

وتهز السلطانة رأسها، بأدب، فتفهَم صاحبة البيت أن في ذلك دعوة إلى متابعة الحديث، فتسرع إلى إيضاح أن هذه الأسر: أي السرسق، والطراد، والتويني، وكلهم من أصحاب المصارف، هي التي تقدم أجمل الاستقبالات.

— ويلتقي عندهم كل أهل بيروت، من مسيحيين ومسلمين. والمسيحيون هنا هم الذين يتبعون الطقوس الإغريقية، ذلك أن الموارنة، باستثناء بعض الأسر المقيمة هنا منذ أجيال كثيرة، قلائل في بيروت. وما تزال أكثريتهم تسكن في الجبل، وهم فلاحون حريصون على أرضهم وكنيستهم.

وخلافاً لأكثرية اللبنانيين، فإن أكثرية الموارنة لا يعتبرون أنفسهم عرباً، على ما تقول، بل هم

فينيقيون ، من أحفاد أولئك الذين أنشؤوا أمبراطورية بحرية ، سيطرت عدة قرون على البحار ، حتى سُحِقَت على يد بطليموس ، أحد قواد جيش الاسكندر .

وكبرهان على أصلهم المختلف ، يقولون أنهم لم يتكلموا العربية إلا مع القرن السابع عشر ، وقبل ذلك كانوا لا يتكلمون إلا الآرامية .

والواقع أن الانتداب الفرنسي الذي استبعد استامبول عن السلطة على المنطقة ، أنشأ لبنان الكبير ، وجعل بيروت عاصمة له . وبطبيعة الحال فإنه سيستند إلى المسيحيين الموارنة الذين كانت فرنسا تحميهم منذ عام ١٨٦٠ ، لا سيما وأن أكثرية هؤلاء رُبُّوا في الإرساليات المقيمة في لبنان ، وهم يتكلمون الفرنسية بكل طلاقة . وعندما قدّم لهم مراكز عديدة في الإدارة الجديدة ، وتسهيلات مختلفة لمساعدتهم على إنشاء مراكز تجارية ، فإنه شجعهم بالتدريج على السكن في المدينة . وسيصبحون قاعدته الأكثر ولاءً . وسينشىء هؤلاء المدنيون الجدد ، بيوتهم في الأشرفية ، لأن الأرض فيها شبه عذراء ، وإذن فهي أرخص من غرب بيروت ، حيث يوجد البحر كما توجد بيوت حلوة جداً . ثم إنهم في هذا الحي أقرب إلى جبلهم الذي تركوا فيه أسرهم ، واحتفظوا ببيت صغير ، وقطعة بسيطة من الأرض .

وهكذا فإن مختلف أحياء بيروت ستؤلف ، لأسباب عملية وعاطفية ، جزراً ثقافية ودينية . وهي جزر قابلة جداً للنفوذ : فخلال السنين ، صارت العائلات المارونية التي « نجحت » ، تأتي لتسكن في الحي الأنيق الذي هو حي الصنائع والفنون ، في قلب رأس بيروت ، في الحين الذي سيقام فيه منذ مئة سنة تقريباً وفوق الهضبة المشجّرة التي تسمى بالأشرفية ، حي سرسق ، آنق حي في المدينة . وفي منازلهم الفخمة المبنية في القرن التاسع عشر ، على الطراز الفلورنسي ، الفينيسي ، يتابع أبناء بطرس الأنيقون ، وليندا سرسق الجميلة ، والإخوان تويني الجذابون ، يتابعون تحت الانتداب الفرنسي الآن ، ما كانوا يفعلونه تحت الحكم العثماني ، من تقديم أروع السهرات .

ولما كانت بيروت واحة بين البحر والجبل ، فإنها مدينة يحب الإنسان فيها قبل كل شيء ، أن يتمتع بالحياة . وعلينا أن نعترف بأن الفرنسيين ، قد حملوا إلى هذه المدينة الريفية حيويةً ، وزهواً جعلاها تشبه باريس في كثير من النواحي .

ولئن كانت الطوائف تتساكن في جو التسامح ، فإنه يسود فيها مع ذلك ما يسمى بالاستبعاد الجماعي . فالأسر الكبيرة ، التي ترى هبوط هؤلاء الفلاحين من الجبل ، بمساعدة الفرنسيين ، كما

ترى اغتناءهم في بضع سنين، تلاحظ أنهم من «حديثي النعمة»، لا تقاليد لهم، ولا حسن تصرف، وتضيق بهم ذرعاً.

ثم إن الهوّة تكبر بين البيروتيين القدماء، والبيروتيين الجدد. بيد أن الإدارة الفرنسية لا تشجّع المارونيين وحدهم، بل إنها بحاجة كذلك إلى دعائم قوية لدى الطائفة الإسلامية. وهي تعلم أنه لا يمكنها أن تنتظر من البورجوازية السنية العليا، الكثير من الحماسة، وذلك لأنها عندما أنشأت لبنان، فصلته عن المملكة العربية التي وعد بها الإنكليز العرب والتي كان عليها أن تضم سورية ولبنان وفلسطين. وعدا ذلك فإن الانتداب اضطر لكي يثبّت وجوده إلى الضغط على المصالح الاقتصادية لهؤلاء السنيين الأغنياء. ومع ذلك فإن العلاقات تظل سليمة، وأحياناً جيدة بين الطوائف. فقد كان اللبنانيون دبلوماسيين دوماً. أما فيما بينهم (بين السنيين خاصة) فإنهم يتهمون فرنسا بأنها أساءت إلى ثروة البلاد، وبصورة خاصة، عندما عوّضت عن الليرة الذهبية، بليرة ورقية تعتمد على الفرنك. وهم مستاؤون، بشكل خاص، من أن أعظم المراكز نفوذاً في السياسة، والقضاء، والجيش، قد أعطيت للمسيحيين. وبالمقابل فإن هناك طبقة بورجوازية متوسطة، سنية، لم تكن تكلّف في عهد العثمانيين بوظائف هامة. فصار الفرنسيون يعتمدون على بعض هذه الأسر، ويشجعونها ليكسبوا إخلاصها.

وإلى هذا المجتمع البيروتي، المشرف على تحولات عظيمة، بتأثير سادته الجدد و «أصدقائه» وصلت السلطانة خديجة، مصحوبة بولديها، وزينيل، وكالفاتين.

وهنا حصلوا على نجاح كبير نشأ عن فضول الناس أولاً، وعن تعاطفهم ثانياً. وعلى كل حال فإن السلطان مراد الخامس لم يؤذ أحداً، لا لسبب غير أنه لم يحكم، ذلك المسكين، إلا ثلاثة أشهر... أما ابنته البائسة! فلقد بقيت سجينة مع أبيها ثلاثين سنة، ثم عشرين أخرى، مقسمة بين زوج كان على الأرجح يضربها، والآخر كان بالتأكيد يخونها، ثم جاءت الحرب، والثورة، والنفي أخيراً! وهكذا فإن كل سيدات المجتمع المحيطات بها، كن يتألمن لها، وصرن يتسابقن إلى زيارتها.

ولكن إذا كن يتوقعن — وعيونهن سلفاً تتألق لهذا التوقع — كشوفاً مؤثرة، وتفاصيل لم يُسمع بها من قبل حول الصورة التي عوملت بها الأسرة المالكة، أو في أقل الدرجات، بعض التنهدات، والنظرات الحزينة، التي توفر الفرص للإمساك بيد الأميرة، وحلف اليمين لها بأن ستملك صداقتهن الأبدية — فإنهن قد خاب فألهن.

وفي البهو دي الستائر الحريرية الصفراء التي عفا لونها قليلاً، كانت السلطانة تستقبلهن

بالبسمة الأليفة، وبحس الكرامة الخاص بملكة تأتيها رعاياها لتقدم لها احترامها. أما أسئلة الزائرات التي بدأت بأن تكون رسمية، ثم مع الأيام، غدت أكثر فأكثر إلحاحاً على ما يتوقعنه من كشوف ومصارحات، فإنها كانت تجيب عنها بهدوء لا يعرف الاضطراب. وحقاً، فإنه ليس لديها ما يمتعهن أن تقوله؛ فكمال لم يفعل إلا ما قـدَّر أنه واجبه، أما إمكانية قيام ثورة مضادة، وإعادة النظام السابق؟ فذلك خاضع لإرادة الله... ولكن من سيصبح خليفة من جديد؟ إن هذا السؤال الذي يطرحنه، كانت هي على وشك أن تطرحه عليهن... ففي اليوم التالي لرحيل عبد المجيد، كانت الصحف قد أشارت إلى تعيين حسين، ملك الحجاز، لهذا المنصب، من قبل أبنائه هو. أما الآن فيتحدث الناس عن فؤاد ملك مصر. وتقول رداً على مثل هذه الملاحظة: «نحن لسنا على صلة به، ولا أعرف سبباً أكثر منكم عن هذا الموضوع».

وتعود الزائرات حائرات، مع الشعور الغامض بأن السلطانة مكرت بهن، لكن هذا المكر المفترض كان يناقضه ما يُستقبلن به من حفاوة جميلة. ولقد وُجد من النساء، الرفيعات المقام، من دعاها إلى التفضل بزيارتهن، بعد ظهر أي يوم تريده، لحفلة شاي؛ بدعوى أنهن يردن تقديم بعض الصديقات إليها، وكانت السلطانة تعتذر آسفة عن قبول الدعوة، وتقول:

ــ إن هذا لجميل جداً منكن، ولكني لا أخرج مطلقاً. وبالمقابل فإذا شئتن زيارتي، فإني سأسعد دوماً بذلك.

وخلال عدة أسابيع كان البهو لا يفرغ من الزائرات. لكنهن مع الأيام، باعدن بينها. ذلك أن هذه الأميرة التي كان يقال: إنها ذكية، والتي كانت شخصيتها ممتدحة بينهن، ليس لديها ما تقوله! فيزهد المجتمع البيروتي، ويمضي ليتعلق بآخرين، فيما عدا بعض المتحذلقات من ذوات المستوى الأكثر تواضعاً واللواتي واظبن على زياراتها، بغية أن يروين لصديقاتهن المنبهرات، بأن «صديقتهن» السلطانة، كانت اليوم «مزكومة» بعض الشيء أو أنها كانت تلبس ثوباً من الحرير الأخضر كان يهبها حقاً سمتها السلطانية!

وفي الهدوء الذي عادت السلطانة فوجدته من جديد، كانت تضحك بصمت.

ــ لقد لقّـنتهُـن درساً، هؤلاء البلـه، اللـواتي كن يردن التطـاوس، إذ يضعـن على صدورهن سلطانة! أيدعونني! حقاً إنهن لا يرين ما في ذلك من حرج! فهل لأميرة من أسرة ملكية، ومن عمري، أن تتحرك من بيتها؟ فاذكري يا سلمى هذا: إنه ليس لأننا أصبحنا لا نملك المال، يجب أن نغيّـر طريقتنا في السلوك. فأنت أميرة، ويجب ألا تنسي ذلك أبداً.

وتطلق سلمى واحدة من تنهداتها ... «أميرة بلا مال، ماذا يعني ذلك؟ إنني أضحوكة الصف كله. ورفيقاتي يسمينني بصاحبة السمو ذات الكلسات الملقوطة».

ومع ذلك فإنها تكتفي بالجواب:

ـــ إنه يصعب عليّ، ياأيندجيم، أن أنسى ذلك.

وتنظر إليها خديجة مندهشة .

ـــ هل من شيء يزعجك؟ في المدرسة؟

ـــ كلا ياأيندجيم. إن المدرسة سارة جداً.

كان يجب أن توفر العناء على أمها، بأي ثمن. فالسلطانة تظل شامخة الرأس، ولكن، وبمرور الزمن، كانت نظراتها التي كانت ممتلئة حيوية في الماضي، وعميقة، قد غشيها تعبير مؤلم. فهي لا تفهم، ولا تقبل سكوت شعبها.

وفي الصباح والمساء تصغي إلى الإذاعة، وتحاول أن تستمع إلى أخبار تركيا. فحذف المدارس والمؤسسات الدينية، وإغلاق مراكز التجمعات الصوفية، قد أثار استنكارها. وبالمقابل فإنها شعرت بلذة الانتصار عندما سمعت أنهم ينزعون الحجاب بالقوة، ويأمرون الرجال بنزع الطربوش، كرمز على الانتساب للإسلام، تحت طائلة الشنق! ففي هذه المرة، لا بد للأتراك من أن يثوروا!

ولكن الأمر في هذه المرة ظل كما كان في غيرها من المرات، فقد قبل الأتراك ما جرى. ويوماً بعد يوم، كانت الثنية تتعمّق أكثر فأكثر على زاوية شفتي خديجة. وعندما تركت بلدها، كانت مقتنعة بأنها سرعان ما ترى الشعب الذي يرهقه كمال، يستدعي الأسرة المالكة. ولكن ها قد مضت سنة كاملة، والشعب لا يزال صامتاً.

ولا ريب أن المحاكم الاستثنائية قائمة في كل مكان. والمعارضة والصحافة، ما زالتا خاضعتين للرقابة. ولكن السلطانة تتألم، وتقول: الأتراك عشرة ملايين، فهل تمكن مراقبتهم وإخضاعهم؟

ثم إن تخلي زوجها عنها خلّف فيها إحساساً بالمرارة. ولكن الذي يؤذيها أكثر من أي شيء آخر، هو اللا اهتمام الذي تلاحظه لدى شعبها.

ولكن سلمى أقسمت، كفارس شجاع، على حماية أميرتها. فالعبادة التي كانت دوماً

تحيطها بها ، تحوَّلت في الأشهر الأخيرة إلى حنان قلق ، كما لو أنها عندما اكتشفت ما فيها من سرعة عطب ، خشيت أن تصيبها مصيبة جديدة ، فتحطم لها قلبها .

وهكذا ، فإنها عندما انتهت المدرسة ، لم تعد تخرج — وأصلاً فإلى أين تذهب ؟ إنه ليس لها من صديقات — فتعود مباشرة إلى البيت — وهناك تجلس على وسادة ، تحت قدمي السلطانة ، ساعات وساعات ، وتخترع ألف قصة لتحاول بها إلهاء أمها وشغلها عن نفسها : فما من مرة في الماضي قضت مثل هذا الوقت قربها ... وفي قصر أورطاكوي ، كانت المراسم ، والحضور الدائم للكالفات ، تجعل كل علاقة حميمية بين الأم وابنتها مستحيلة . أما المنفى ، فإنه على الأقل ، قرّب ما بينهما . أو قل هكذا كانت تقول ، لكي تعزّي نفسها . ولكنها تعرف أن الأمر ليس كذلك ، وأن السلطانة لم تبد قط لها بعيدة كما هي اليوم .

وذات يوم ، ألغى أستاذ الرياضيات درسه ، لأنه كان مريضاً . فعادت سلمى إلى البيت قبل ساعة من موعدها . فأوقفت على العتبة : وسمعت جلجلات الضحك ! وببطء اقتربت ورأت ... أيندجيم — أيندجيم التي تضحك كما لم ترها تضحك منذ زمان طويل منذ مغادرة استامبول . وكان زينيل جالساً على وسادتها هي ، جاثياً بين قدميها ، وهو سعيد ، يخطب :

فشعرت المراهقة بأن حنجرتها تنقبض ، وأنها خدعت : فأمها لا تريها إلا وجهاً حزيناً . فلِم تجد مع زينيل بهجتها القديمة ؟

وتقدمت ، وهي صفراء الوجه تماماً ، فنهض الخصيّ ، وتوقفت السلطانة عن الضحك ، وسألتها :

— ماذا هنالك يا سلمى ؟ أأنت مريضة ؟

وتتصنع القلق وتقول في نفسها : ولكنني أستطيع أن أموت ما دام زينيل هنا .

أما خيري الذي لم تكن سلمى قد رأته ، فيضحك ، ويقول :

— إنها غيرى . هذا كل شيء . أوَلا تفهمين ، يا أيندجيم ، أن الآنسة لا تحتمل أن تهتمي بأي إنسان آخر غيرها ، حتى بي أنا ؟ وعندما تبتسمين لي ، يمتقع لونها كسفرجلة قديمة !

وتنظر سلمى إلى أخيها نظرة أفعوية . إذ لقد كانت تسيء تقدير قوة الملاحظة لدى أخيها

(الباتابوف) السمين . ولكنه سيدفع الثمن . وبانتظار ذلك ، فإن من الأفضل التخلص من هذا الموقف .

ـــ أأنا غيور ، أية فكرة ! إني لست غيور ! بل كنت مندهشة ... ومسرورة بأن أسمعك تضحكين يا أيندجيم .

وتشعر آنئذ أن صوتها يرن رنة المداجاة . وقطعاً لما قد يحدث ، تدّعي أنها تريد ترتيب كتبها ، وتنسحب إلى غرفتها .

فأقلق ذلك أمها ، وتبعتها إلى غرفتها .

ـــ ولكن ماذا يا سلمى ؟

فطفرت الدموع من عيني المراهقة ، وأجابت :

ـــ أوه ، يا أيندجيم ، إني لشد ما أحبك ، وأكثر من كل شيء . وبي حاجة إلى أن تحبيني ...

ـــ أأكثر من كل شيء . ولكن ، يا سلمى ، إني أحبك ، وكذلك خيري ، أكثر من كل شيء .

ودخلت البرودة إلى اللهجة .

ـــ وبالمقابل ، فأنا لا أحب المساومة على العواطف ، لا من أبنائي ولا من أي إنسان آخر . أما عن الهوى ، ذلك أنك إنما تتحدثين عن هذا ، على ما يبدو لي ، فلقد بدا لي دوماً في غير محله . إلا ما تعلق بهوى بلادي !

وخفضت سلمى رأسها نحو الأرض . وكيف يحدث أن أمها ، الطيبة جداً في العادة ، يمكن أن تبدو أحياناً في مثل هذه القسوة ؟

وكان البابا يقول ، إن الماما عندما تكون غاضبة ، فإنها لا تعي مقدار فظاعتها ! فبابا ... الذي كنت أعبده ، والذي تخلى عني ... ثم هي الآن ، وتعض سلمى على شفتيها : ذلك أنه يجب إخفاء اضطرابها ، مهما يكن الثمن ... آه لو كنت أستطيع أن أحبها أقل ، وألا أكون خرقاء بهذه الدرجة ، أو حريصة هذا الحرص على إرضائها ، أو لو كنت قادرة على أن أبيِّن لها أني قليلة المبالاة . عندئذ قد

تحبني ، وأنا واثقة . ولكن قد يقول الإنسان ، اني ثقيلة عليها ... فكم من مرة لامتني على أني أكاد أخنقها ؟

وتتنفس سلمى بعمق ... فهي لن تترك نفسها تغرق .

ــ أيندجيم . ألم تكوني تحبين أباك بعنف ؟

ــ أبي ...؟

وترتسم بسمةٌ على وجه خديجة ، فتضيئهُ . وفجأة تبدو وكأنها صبية صغيرة .

ــ بلى ، كنت أحبّه بعنف . وكان رجلاً غير عادي . وهو واحد من النوادر الذين يستطيع المرء أن يعبدهم بلا خطأ .

وتنظر إليها سلمى في صمت .

إنه هذا ، أيندجيم ، وبالضبط هذا الذي أشعر به تجاهك فلماذا تأبين ذلك عليّ ؟ وذات يوم ، كنت تقولين : أن يكون الإنسان إلهاً ... فيجب أن يكون هذا جهنم . فكل الأمل ، وكل حب للإنسانية معلّقان على ثنايا ثوبك ، ماأثقل ذلك من وزن ! فقليلاً من اللامبالاة ، إن كان يرضيك ، وشيئاً من الهواء . فلقد كنت ضحكت من إحدى النكات . وإني أفهم الآن كم كنت بريئة ... آه ! إن الإنسان في حالة خطأ دائم ، إما لأنه لايحب بدرجة كافية ، أو لأنه يحب أكثر مما يجب .

٢

ـــ إنهم يقتلون أصحابنا بالمئات .

وجذبت أمل سلمى ، إلى ركن من أركان ساحة اللعب . وكان وجهها أكثر شحوباً مما هو في العادة .

ـــ قام الفرنسيون ، في الجبل ، بإحراق قرى بكاملها ، بلا أدنى شفقة على النساء والأطفال . وسوف يندمون . إن انتقام الدروز ، سيكون مخيفاً !

وهبط بالون على الأرض بين أرجلهما . وتزاحمت طالبتان وهما تضحكان ، للإمساك به . إنها الأيام الأولى للخريف ، والشمس أشبه ما تكون ، بالحرير .

وأخذت سلمى بيد أمل . ذلك أن هذه الدرزية الصغيرة هي صديقتها الوحيدة في مدرسة أخوات بيزانسون ، بل الوحيدة التي تجرأت على كسر العزلة التي كانت تحاط بها . وفهمت المراهقة ما في سلمى من قلق واضطراب ؛ ذلك أنها مرّت ، هي الأخرى ، بمثل هذا ، وهي التي يقول فيها الراهبات : « أمل جميلة ، ذكية ، وكم هو مؤسف أن تكون هذه المسكينة مسلمة ! » . وفي البداية ، لم تكن تريد البقاء . وكانت تبكي كل يوم ، ولكن أباها لم يقبل ذلك منها : فأفضل المدارس في لبنان هي المدارس المسيحية . وتعتبر الأسر المسلمة أن مما يشرّفها أن ترسل بناتها إليها .

وتسأل سلمى أمل ، بنعومة ، قائلة :

ـــ أمل اشرحي لي أرجوك، فاللبنانيون الآخرون قبلوا الانتداب الفرنسي. فلِم يحارب الدروز؟

ـــ إنها مسألة شرف!

وتتألق العينان الزرقاوان.

لم نكن في البداية ضد الفرنسيين، ولكن المندوب السامي، الجنرال ساراي، شتم رؤساءنا.

ففي ربيع هذا العام ١٩٢٥، أتى وفد من سورية ليناقش في وضع الطائفة الدرزية. وكان يحتج على تصرفات الحاكم الفرنسي كاربيّيه Carbillet، التي كانت تقلب التقاليد القديمة، رأساً على عقب. وكان يطالب، كما كان يقضي اتفاق عام ١٩٢١، بتولية حاكم درزي على الجبل.

لكن المفوّض السامي استقبل هذا الوفد ببرودة، وأجابهم، بأنه يحبّذ إصلاحات كاربيّيه كل التحبيذ، وأن اتفاق عام ١٩٢١، أمر قد تجاوزه الزمن، وتعاقبت بعد ذلك الوفود الدرزية، في المجيء إلى بيروت، دون أن تنجح في مقابلة ساراي. ويرى هذا الجنرال اليساري، العقلاني، المعارض لوجود رجال الدين والنزعة الدينية أن الدروز متوحشون، تماماً كسود أفريقيا الذين تعوّد عليهم. وليس لديه من وقت ليضيعه معهم.

وذات يوم، عندما كان يحاول أن يستبعد عنه مجموعة من وجهاء الدروز، محاطة بحوالي المئة من الفرسان، خرج من باب ثانوي، ووجد نفسه وجهاً لوجه معهم على السلالم. واعتبر الدروز أن هذه الإهانة لا تحتمل. فرموا بكوفياتهم على الأرض؛ وقالوا: بيننا وبين الفرنسيين، لا مجال إلا للحرب، منذ الآن. فأمر المفوض السامي مندوبه في دمشق، بأن يستدعي الرؤساء الدروز البارزين، بحجة البحث في مطاليبهم، وأن يوقفهم. فوقع ثلاثة من زعمائنا البارزين في هذا الكمين.

وفي هذه المرة كان ما حدث أكثر من أن يحتمل. ففي ١٧ تموز / يوليو /، انفجر التمرد، بقيادة الرجل الرهيب سلطان باشا الأطرش. فأرسلت إليه بعض الكتائب الفرنسية، لضبط الأمن، فشتتت أيدي سبأ.

ـــ ولم ينته الأمر بعد، على ما قالت أمل وهي تقطّب جبينها، تقطيب من يريد المجابهة الحربية. فوجد بين دروز الشوف اللبناني من انضم إلى دروز سورية. وهم الآن أكثر من خمسين ألف محارب.

وقالت سلمى :

ـــ إنك ترين جيداً أنهم سيكسبون معركتهم . فلم أنت قلقة ؟

وتنهّـدت أمل ، قائلة :

ـــ لأن الحكومة الفرنسية ـــ مثلك تماماً ، بدأت تعتقد أنه يمكننا أن نربح . ولهذا فقد أرسلت الجنرال غاملان على رأس فرقة من الخيالة الشركس ، والمفارز التونسية ، وسبع كتائب من المشاة . وهم مجهّـزون بأحدث مدفعية ، وبدؤوا يقصفون قرانا لجعلها قاعاً صفصفاً . ورجالنا يقاتلون كالأسود . ولكن ماذا بوسعهم أن يفعلوا ببنادقهم ضد المدافع ...؟

فأحاطت سلمى بذراعها كتفي الصبية . ذلك أنها هي أيضاً لا تنسى . فالاحتلال ، والإذلال ، والتمرد ، والعجز ... ثم النصر . وضمت إليها صديقتها بقوة .

ـــ يا أمل ، سوف تربحون الحرب ، كما ربحناها نحن في تركيا ضد الجيوش الأجنبية ! أنا واثقة من ذلك .

نحن ... من نحن ...؟ لقد مرت سنوات وسلمى لا تستطيع أبداً ، أن توفّق بين عقلها وبين ما يبدو لها أنه مفارقة : أي انتصار بلدها ، وطرد أسرتها : لا بد إذن أن التاريخ قد ضلّل ...

وتابعت أمل كلامها فقالت :

ـــ إن الأسوأ من كل شيء آخر ، هو أن الفرنسيين متأكدون من أنهم على حق . فهم يقسّمون منطقتنا ، وشعبنا ، ويـدّعون أنه ، في الحقيقة ...

وانفجرت سلمى قائلة :

ـــ أية حقيقة ؟ أهي الحقيقة التي ترغمهم على قتلكم ، والحقيقة التي أرغمت مصطفى كمال على طردنا ؟ ولطالما ظننت أنا أن هناك سوء تفاهم ، وأنه كان من الواجب أن نشرحه لهم . وكنت أؤاخذ أمي على السكوت ، بدلاً من أن تعلن براءتها بأعلى الأصوات .

ولكن كم كنت حمقاء ! كنت أصغر من أن أفهم ... لا تضحكي ! فأنا لم أتجاوز الرابعة عشرة ، وهذا صحيح . ولكن ما هكذا يكون الحساب .

« لقد كبرت عندما اكتشفت أن النية الحسنة لا تنفع شيئاً . وأن المسألة ليست : « ما هو

الصحيح ؟ » ولكن ، من هو الأقوى ؟ » ومنذ أدركت ذلك ، توقفت عن التألم والتوجع ، وأقسمت أن أكون ذات يوم أنا الأقوى .

ـــ وإذن ، فأنتما تتآمران ؟

واقتربت طالبتان ، ساخرتين ، وهما ماري لور وماري أنييس الجميلتان ، والمتعاليتان ، ومن بنات ضباط كبار في الجيش الفرنسي .

وانتصبت أمل أمامهما ، وقد استعدت للقتال .

ـــ ما أكثركما حصافة ! والواقع أننا كنا نتناقش في الطريقة الأنجع لطردكم من لبنان .

وكانت ماري لور تنظر إليها بشيء من التعاطف .

ـــ أوه ، أوه ! هـوّني عليك ، يا صغيرتي ، فبعد كل حساب ، لولانا ، لكانت بلادكم ما تزال منطقة مستعبدة للعثمانيين !

وتتدخل ماري أنييس قائلة :

ـــ أنهوا أحاديثكم . فحولنا من يستمع إلى ما نقول . ولئن علمت الأمهات أننا نتحدث في السياسة ، إذن لكان عقابنا الطرد من المدرسة .

واحتجت سلمى بلهجة جافة ، قائلة :

ـــ إن هذا لبالغ السهولة أن نهرب الآن بعد أن شتمتمانا !

وهزئت ماري لور من صاحبتها ، وقالت :

ـــ انظري ، إن الأميرة تطلب تعويضاً . حسناً . إني أقترح أن نسـوِّي النزاع فوق ساحة الرياضة . وأنا أترك لكما اختيار الأسلحة : فإما العدو ، وإما القفز .

ـــ القفز ! المظلة .

وكانت ماري لور أطول منها بعشرة سنتمترات ، وسلمى تعرف أنه لن يكون لها أدنى حظ في التسابق بالعدو معها .

وتقع ساحة الرياضة في طرف جانبي من الأبنية الرئيسية، حتى يتسنى للطالبات أن يتمرنن بكل هدوء.

أما على الطرف الأيمن، فتوجد كومة كبيرة من الرمل، فوقها ركائز متشابكة، يمكن أن تثبّت عليها القوائم المعدنية بالارتفاع المطلوب.

وتقترح ماري لور أن يبدأ بمترين؟

ــ جيد جداً.

ــ وإذن فتبدئين أنت، لأنك تعتبرين أنك المشتومة.

وكانت المراهقتان تتحدى كل منهما الأخرى بالنظرات. ولقد نسيتا أمل تماماً، على كونها هي السبب في هذا الشجار. ولكن أتراها السبب أو المبرر؟ الحقيقة أن ماري لور وسلمى تتحرقان على مثل هذه المجابهة. فهما تتشابهان، في الزهو، والعنف واللاتسامح. وكان في وسعهما، في ظروف أخرى، أن تكونا صديقتين. أما الآن فهما متكارهتان.

وحولهما كانت الطالبات يتجمعن، منتبهات.

وتتطوع اثنتان منهما لرفع العوارض على أبعاد متساوية: عشرين فعشرين سنتمتراً. ولديهما القليل من الوقت قبل نهاية الفرصة. وهناك طالبتان للمراقبة.

وأول قفزة كانت كلعبة أطفال.

وتعلن البنت المكلفة بدور الحكم.

ــ ٢٫٢٠ متراً.

وتندفع سلمى، خفيفة. وتتبعها ماري لور، بساقيها القويتين، الشديدتي العضلات.

ــ ثم ٢٫٤٠

هنا يصبح الأمر جدياً. وتقفز الواحدة بعد الأخرى، متجمعة كل منهما حول نفسها، ومتركزة.

ــ ثم ٢٫٦٠، كما تقول الحكم.

ووقفت سلمى على العارضة . وسمعت تمتمة . ولاحظت بين الطالبات المتجمعات هناك ، وجه أمل الصغيرة فأشارت إليها باليد لتطمينها . وهي عصبية بعض الشيء ، إذ أنها لم تقفز من قبل قط ، على مثل هذا الارتفاع . ولكن مع كل هذا الرمل ، لا خوف من مشكلة . فتطوي ركبتيها . مرة ، مرتين ، هوب ! رابحة .

ولم تكد أن تنهض من مكانها حتى هبطت ماري لور وراءها . فتصالبت نظراتهما ، وترددتا لحظة ، ثم تباعدتا .

ــ ٢٫٨٠ متراً .

وبهدوء تسلقت سلمى الدرجات . وشعرت بارتجاف غريب في صدرها . أما تحتها فيسود الصمت . وهناك عشرون زوجاً من العيون تنظر إليها . ولا مجال للتراجع .

فتتنفّس بعمق : وهيا !

وما كادت تنطلق حتى عرفت . وكما لو أنها تضاعفت ــ سجّلت الكسر ، وحرقة ضربة السوط ، والألم اللا محتمل ، وفي الوقت نفسه ، تسجّل نوعاً من الارتياح : لقد انتهى الأمر ، وليس عليها أن تخاف .

وكانت الصرخات تدوي حولها ، وكل شيء يدور . لا ... إنها لن تتقيأ ، إنها ...

أين هي ، وماذا حدث . ولِمَ تغسل لها الأم جان وجهها بالماء المثلج ؟ ولِمَ هذا الوجه المرعوب ؟

وعندئذ شدّها ألمٌ في الساق اليمنى إلى الحقيقة .

ــ لا تتحركي يا صغيرتي ، ستصل عربة المستشفى . ولكن أي سوء تبصر . كان يمكن أن تقتلي نفسك . فلِم قفزت من مكان بهذا العلو ؟

وتردّ سلمى بتقطيب وجهها ، وتقول :

ــ كنت أتدرّب ... كمقدمة للألعاب الأولمبية .

وينقلب وجوه البنات من القلق إلى الإشراق ، وتكثر الضحكات . وكان هذا أكثر مما تتحمله ماري لور .

ـــ إن الحق عليّ ، يا أمي فأنا التي ...

وقاطعتها سلمى بحدّة :

ـــ إنك أنت التي جعلتني أتذوق الرياضة . وكان عليّ أن أفهم أني لست بحيث أضاهيك .

وتنهدت الأم جان قائلة :

ـــ يا طفلتي المسكينة . أترين إلى أين يؤدي الغرور والزهو بالنفس ؟

وأخيراً ، ها قد جاءت عربة المستشفى . وبعد ألف حذر وُضعت البنيّة الجريح حيث ينبغي . وتدافعت بنات الصف ، ليقلن لها : إلى اللقاء . أما أمل فكانت تغص بالبكاء وتشهق ، وتقف إلى جانبها ماري لور شاحبة كل الشحوب .

ـــ إلى اللقاء يا سلمى ، عودي إلينا بسرعة .

وتلتقي نظراتهما ، وتبتسم كل واحدة للأخرى . وتلاحظ سلمى بدهشة أنها سعيدة بأنها كسرت ساقها .

إنه كسر سيء . فقد أمر الطبيب بستة أسابيع تبقى خلالها في البيت بلا حركة . وكانت أمل تأتي ، كل يوم ، بعد الانصراف ، لترى المجروحة . وانقلبت الصداقة التي كانت تجمع بينهما إلى هوى .

ـــ لن أنسى أبداً ما فعلته من أجلي . وفي المدرسة لا تتحدث البنات إلا عن شجاعتك . وهن يقـدِّرن الجميل الذي صنعته بعدم البوح بشيء . لقد لقنتها درساً جيداً .

وتضم سلمى بين ذراعيها ، وتسوّي خصلة شعر على الجبين المبلل بالعرق . وتنثر بعض القبل على يديها ـــ والدفاتر منثورة على السرير ـــ إذ يقـدَّر أن سلمى تتابع الدراسة ، كما أن أمل تلخص لها دروس كل يوم . وهما لا تنتهيان من الحديث فيما بينهما .

وكانت أمل قد فقدت أمها في عمر الثانية . وهي لا تذكر منها شيئاً . وخالتها هي التي ربّتها ، وهي ابنة عم للست نظيرة ، سيدة الدروز .

ـــ لم أر الست نظيرة إلا مرة واحدة في قصرها في المختارة في قلب جبل الشوف . ولكني سأتذكر

ذلك دوماً . كانت تجلس على ديوان واطىء ، لابسة ثوباً أسود بسيطاً ، وشعرها مغطّى بوشاح أبيض ، كالفلاحات عندنا . وكانت عليها سمة الملكة .

وتتذكر أمل أنه كان هنالك نحو من عشرين رئيساً من رؤساء العشائر ، جاؤوا لاستشارة صاحبة قصرهم . وكانوا ، قد تركوا بنادقهم وخراطيشهم التي تشكل كومة كبيرة في مدخل البهو ، احتراماً لها . وهي تذكر وجوههم الخشنة ، المخـدّدة ، تلك الوجوه التي لم تعد نراها الآن في المدن . ومع ذلك فإنهم أمام هذه المرأة الرقيقة ، كانوا يبدون وجلين ، خائفين ، كالأطفال .

ــ وكانت الست نظيرة تكلمهم مطوّلاً ، ثم تكلم كل واحد منهم على حدة . وكانت تطرح السؤال نفسه ، مثبتة عينيها الفاتحتين عليهم . وقد قبلوا جميعاً كلامها ، وجاؤوا أخيراً فقبّل كل منهم طرف ثوبها ، كعلامة أخيرة على تبعيتهم لها . والذي أدهشني هو أنه ما من مرة رفعت صوتها ، ولا قامت بحركة .

وتمتمت سلمى ، حالمة وقالت :

ــ إنها تشبه أمي ، أو التي كانت أمي ، على الأصح . مسكينة أيندجيم . فمنذ المنفى ، تغـيَّـرت كثيراً .

ــ وأبوك ؟

وتحـوَّلت عينا سلمى من لونهما إلى اللون الأسمر الغامق .

ــ لم يعد لي أب .

وتحزن أمل ، وتقول :

ــ غفرانك ، ما كنت أعرف ...

ــ ما من إنسان يعرف ، إلا أنا .

وعادت سلمى بعد شهرين إلى المدرسة على عصوين ، ودخـلت الصف . فاستقبلت بحماسة . وحتى البنات اللواتي لم يكلمنها قط ، تجمعن حولها ، عَـجِـلات .

ومن آخر الساحة ، كانت ماري لور ، تتقدم غير مبالية . وقالت لها :

ـــ إني سعيدة بأن أراك ثانية .

وهي جملة بسيطة . ولكن أحداً لم يخطىء في فهمها : إذ صدرت عن رئيسة الرابطة الفرنسية المارونية ، مما يعني أنها تؤكد المصالحة .

أما بالنسبة إلى سلمى ، فإن النهار مضى كعيد ، وحتى الراهبات كن يقـدّمن لها مختلف صور العناية .

وفي المساء ، اقترحت عليها ماري لور أن ترافقها . وكما هي الحال مع أكثر الطالبـات الفرنسيات ، فإن تحت تصرفها عربة لها سائق ينتظرها على باب المدرسة . و كادت سلمى أن تقبل عندما فاجأت نظرة أمل الحزينة .

ـــ إن هذا لطيف منك . ولكني أحب أن أتنفس الهواء الطلق . وشاءت أمل أن تحمل لي كتبي .

ولم تُخدع ماري لور بالكلام ، فهـزّت كتفيها ، وقالت :

ـــ إني آسفة ، وكنت أظن أن لدينا أشياء نقولها لبعضنا . ثم أضافت : ولكنك على حق ، بلهجة اللا مبالية ، التي لا تحسن إخفاء خيبة أملها . فالوفاء دائماً في المقام الأول !

ورأتها سلمى تبتعد ، وقلبها حزين لأنها رفضت اليد الممدودة ، وكانت تشعر بأنها أخطأت . وعبثاً حاولت أن تفكر في الأمر ، وأن تبـرّر ما فعلت ـــ فهل كانت تستطيع التخلي عن أمل التي كانت إلى جانبها حتى في أسوأ الظروف ؟ وأخيراً تضاءل الفرح بذلك النهار . وحتى الشمس ، فإنها فقدت بعض حرارتها .

وعندما كانت الصبية أمل الدرزية إلى جانبها تسخر مما حدث وتقول : انظري انظري . أفتكون الحميلة اللا مبالية غيرى ؟ وتدع المجال لانطلاق غضبها .

ـــ آه ، أرجوك أن تحفظي لنفسك تعليقاتك !

ولكنها شعرت مباشرة بالندم أمام الوجه الجريح : «ألها أسيء أيضاً ؟ فماذا يحدث لي ؟ ولماذا كانت الصداقة حصرية . ولِمَ يجب ، بأي ثمن ، أن يختار كل منا معسكرهُ ؟

وبعد عدة أيام ، وفي قلب درس الأدب . وعندما كانت الأم تيريزيا تتفنن في أن تشرح لطالباتها أخلاق كورني ، المتعارضة مع لاأخلاقية الشخصيات الراسينية ، ضحايا أهوائها ، انفتح

باب الصف لتظهر منه الأم المديرة، مصحوبة بسيّد متميّزٍ جداً، يحمل طربوشاً على رأسه وعصا ذات يد من الفضة.

ولدى أول ضربة من يد الأم تيريزيا، وقفت الطالبات جميعاً. وفي الضربة الثانية، حاولت كل منهن في المكان الضيق التي هي فيه، أن ترسم بقدر ما استطاعت، تلك الركعة الخفيفة، التي تشير إلى الاحترام، على حين أنهن كن من خلال جفونهن المخفضة نصفياً، يفحصن الأجنبي القادم.

وهمست الأم مارك بصوتها الغنائي قائلة:

ــ أعذرونا على قطع درس، أمي، ولكن سعادته الداماد أحمد نامي بك، حاكم سورية، يشرّفنا بزيارة مؤسستنا. وعدا ذلك فإن إبنة أخته (ابنة أخت زوجته في الحقيقة) بينكن في الصف. فتعالي يا سلمى وحيي قريبك.

وأقبلت المراهقة، محمرّة خجلاً، وتحاول وهي على عصويها، أن تنحني انحناءة الاحترام التي لا بدّ منها، والتي قطعتها عليها ضحكة الحاكم الكبيرة.

ــ كنت أقل خجلاً. وأنت بنت صغيرة! هيا يا ابنة أختي، لا تعقدي الموضوع بكل هذه الحركات، وإلا فإنك ستكسرين ساقك الأخرى.

ويقرص لها خدها قرصة أبوية.

ــ هيا، إحكي لي، ما الذي حدث لك؟

وتمنت سلمى لو اختفت تحت الأرض. فهذه هي اللحظة التي ستلاحَظ فيها من جديد، على حين أنها بدأت بأن تُقبل.

ــ ليس هذا بشيء هام، يا صاحب السعادة.

ــ أكانت هنالك مسابقة؟

ــ بمعنى ما.

وهتف الحاكم وقال:

ـــ برافو ، مضيفاً بخبث لمن يريد أن يسمع من الراهبات : إني ألاحظ هنا جيداً آثار الدم العثماني . فتابعي ، يا ابنة أختي ، حديثك .

ويحمرّ لون سلمى احمراراً شديداً . ومن جهة أخرى ، فكأنما شاء القدر أن يزيد في اضطرابها ، عندما وجدت أن اثنين من المصورين يتبعان سعادته كظله ، ويصورانه حيثما كان ، ويُصوِّرانها معه بطبيعة الحال ، فيتخذ هو ما شاء من أوضاع ، ويضع يداً حامية ، حول كتفي الفتاة ، حتى إنها لتبكي من الغضب لو استطاعت . فكأن كل جهودها ، انتهت إلى الإخفاق : وغداً ، ومهما تفعل ، فإن رفيقاتها سيعاملونها ، كفتاة سليطة ، وقحة .

ولكنها في الغد ، وعلى أكبر دهشة منها ، بدا لها أن رفيقاتها كن متأثرات . ونشرت الجريدة الصباحية L'orient في زاويتها المخصّصة للشؤون العامة ، صورة لسلمى والحاكم مع تعليق عليها هو قولها «الأميرة الشجاعة الصغيرة» . وسأل الأهل بناتهم ، وقد لفت نظرهن وجود بنت أخت الداماد ، الذي تُعلّق عليه ، هذه الأيام ، آمال كبيرة . وحقاً فإن الداماد قد عيّن حاكماً لسورية من قبل المفوّض السامي الفرنسي ، هنري دوجوفنيل . ويرى هذا الأخير أن الداماد ، من حيث أنه عثماني ، وقريب من رؤساء الدروز ، ولكنه كذلك صديق لفرنسا ، هو أفضل من يُعيّن ليفاوض في إيجاد حل لحرب الجبل المريعة هذه .

وكانت الأحاديث حول موائد فطور الصباح ، أحاديث غنية الحيوية . ولقد سأل أكثر من أب ابنته : «لماذا لا تدعين هذه الفتاة الصغيرة ؟ فهذه علاقة لا يصح إهمالها !» . أما الأمهات فإنهن وافقن على هذا الاقتراح ، وقلن إضافة على ذلك : «صحيح أنها مسلمة ، ولكنها أخيراً أميرة ...» .

وخلال أسبوع ، كانت سلمى التي طالما سمعت من رفيقاتها أحاديث رواحهن ومجيئهن ، واستقبالاتهن ، دون أن تدعى قط إليها ، تتلقى نصف دزينة من الدعوات . وكانت تشكر عليها بأدب ؛ وبها رغبة في أن تشتمهن . ولكنها كانت تكتفي بالجواب : إنها ستسأل أمها قبل الردّ .

ومن بعيد ، رأت ماري لور تشير إليها إشارة صغيرة ، كما لو أنها تريد أن تقول : «لا تأخذي هذا كله مأخذ الجد !» . فهذه على الأقل لم توجّه دعوة . وسلمى تعترف بجميلها هذا ، لها .

وأنا ، أنا ، ألا أُوجد ؟ فأنا إذن لا شيء في أعينهن ؟ ولقد ظننت يوماً ما أنني كسبت مودّتهن ! ولكن كم كنت حمقاء !

وبضربات عنيفة من عصويها ، كانت سلمى تُطيّر الحصيات من الطريق ، دون أن تنتبه إلى

أمل التي وضعت يدها بيدها، متسائلة باضطراب: ما الذي يُسيل الدموع، لأول مرة، من عيني صديقتها؟

ــ لا تكوني تعيسة، فأنت تشرفينهن بذلك أكثر من استحقاقهن.

ــ إني أعرف أنهن لا يساوين هذا العناء. ولكن يا عزيزتي أمل، إني بحاجة إلى أن أُحَبّ...

ــ وردّت الصبية خجلى: «أنا أحبك يا سلمى. وأعرف أن هذا ليس بالشيء العظيم».

ــ ولكن بلى، يا أمل. إن هذا كثير وأنا أقدّره حق التقدير!

وتحاول سلمى أن تبتسم، ولكن فمَها المرتجف يهبط بالابتسامة فيجعلها تكشيرة. وتضغط على يد رفيقتها، وتقول: أصحيح يا أمل، أنك تحبينني، ولكن لماذا؟ لأني في هذا الصف مثلك، كبطة عرجاء بين الأوز العراقي؟ لأننا مسلمات أمام المسيحيات اللواتي يكرهننا؟

ومن خلال الدموع التي لا تحاول هذه المرة أن توقفها، تعود سلمى لترى بخيالها قصر أورطاكوي حيث كانت توجد «سلطانة صغيرة» شيطانة قوية الإرادة، تفرض الإعجاب والحب على الأطفال الآخرين. ولكن كم يبدو هذا بعيداً... غوليفيليس وأنت يا أحمد. أتتذكران سلما كما؟ كنتما تحباني. وكان هذا يبدو لي طبيعياً... أما الآن فلم يبق لي أحد. وحتى البابا... كلا، فأنا لا أريد أن أفكر فيه بعد الآن. فتهز رأسها، وتمسح دموعها بظهر إحدى يديها. ولكن ماذا تقول؟ إنه يبقى لي الأهم بكثير، أيندجيم. فهل تحبني أيندجيم؟... بالتأكيد... فأنا ابنتها... ولولا ذلك، أكانت تحبّني؟ وهل تحبني لذاتي؟

وفي الأسابيع التي تلت، كانت بطاقات الدعوة تزداد. ولكن سلمى على أكبر دهشة من أمها، ترفض، حتى مجرد النظر إليها. وكانت تدّعي أن هذه الاجتماعات التي لا تهتم فيها كل واحدة إلا أن تكون صاحبة الثوب الأجمل، والتي يكون فيها الموضوع الأول للحديث هو الكلام بسوء عن الغائبات، هذه الاجتماعات تضجرها.

ولكن السلطانة لا تُلح على شيء آخر. فهي تحزر من خلال عناء ابنتها، وجود جرح في نفسها، ولكنها تعرف أن سلمى لن تتكلم إلا عندما تقرِّر هي. وتفكر: «أهذه البنيّة التي كانت شديدة الثقة بالآخرين، مطمئنة بصورة طبيعية لهم، تصبح الآن حريصة على كتمان سرها في نفسها! وأقول أحياناً لنفسي: إن هذا خطأي أنا، فأنا لا أخصُّ ولديَّ بالكثير من العناية، لا لها، ولا لأخيها خيري... لم تَعُدْ بي شجاعة

على القيام بذلك ... حتى ولا الرغبة ... وعدا ذلك فماذا أستطيع أن أقول لهما؟ وعبثاً بحثت في نفسي، فلا أجد إلا الصمت ..».

وتتأمل سلمى الجالسة بين زينيل والكالفات، نقوش السجادة الأرابسك التي تكاد .... أن ترقص. ولقد سمعت ماري أنييس تقول إن أستاذاً في هذه العصرونيات جاء ليعلّمهن الشارلستون فتتخيل الضحكات، والموسيقى، وكأن ساقيها تمشي عليهما النمل ولكن ماذا يجدي أن تحلم؟ فهي لن تذهب.

وأصلاً، فإنها لا تملك ثوباً مناسباً تضعه على جسمها لمثل هذه الزيارات. ثم إن الزيارة تقتضي أن يُـردَّ عليها بمثلها. فأين نجد المال اللازم لذلك؟

وقد أصبحت الأسرة تعيش على ميزانية صغيرة. وفي كل شهرين أو ثلاثة، وعن طريق ابن عم ميمجيان آغا، يأتي صائغ قضى شبابه في استامبول، وهو مخلص لهذه الأسرة، فتبيعه السلطانة قطعة مجوهرات، تتنازع عليها نساء المجتمع الماروني، اللواتي اغتنين من جديد. لا من أجل جمال الحجرة الثمينة، ولكن من أجل أن يحظين بحمل مخلفات هذه الأسرة العثمانية التي كانت مسيطرة في بلادهن مدة أربعة قرون.

ولكن مقتنيات الأسرة من الحلي ليست مما لا ينفد. ويحدث أحياناً أن تتخذ السلطانة لهجة قاسية، وأن تتكلم عن ضرورة الاقتصاد ــ مما يضحك كل الموجودين في البيت. ذلك أن الأميرة لا تملك أي فكرة عن المال. ولقد رفضت باستمرار أن تراجع الحسابات ــ وتقول: «أتنظرون إليّ كبائعة؟ أو كامرأة قادرة على تقليب القطع النقدية التي تبعث على التقزز؟»

وكان زينيل هو الذي تولى الشؤون المالية للبيت. فهو منذ الآن الرجل الوحيد في الأسرة. ذلك أن خيري في السادسة عشرة من عمره، ليس إلا صبياً يكثر من الحرد. أما وأن السلطانة قد سعدت بخلاصها من هذه المهمة «التي لا تحتمل» فقد تركت له كامل الحرية في التصرف؛ وما من مرة تتقدم بملاحظة ما، أو تقول كلمة حول تواضع المائدة التي كثيراً ما تكون هزيلة. فهي قادرة فقط على التحليق فوق هذه التفاصيل.

وبالمقابل فإنها لا تعرف أن ترفُض شيئاً على الفقراء الذين يقرعون بابها، فكرمها مشهور لدى سكان الحي جميعاً، وما من إنسان يفكر بجعلها تلاحظ بأن الدنيا قد تغيرت، وأن عليها أن تكون أقل

كرماً . ولا سيما سلمى . فلقد رأت دوماً من حولها يعطي للأصدقاء والخدم والعبيد والمعوزين . كانوا يعطون . وكان هذا أمراً طبيعياً ، يؤلف جزءاً من نظام الأشياء . أما اليوم ، فإنه لم يعد هنالك مال. فهل هذا سبب كاف للتغيير ؟ الحقيقة أنها ، كأمها ، لا تستطيع أن ترى عينين تتوسلان من دون أن تستجيب لهما . ذلك أن فعل الخير يسرها أعظم السرور .

وذات يوم ، كانت إحدى رفيقاتها تراها تفرغ ما لديها في حاملة النقود ، في كل مرة يمر بها سائل ويمد إليها يده ، فاستاءت من هذا ، وقالت لها :

ــ ولكن توقفي عن القيام بدور الأميرة !

وفي تلك اللحظة ، دهشت سلمى من هذا القول . أما فيما بعد فقد تساءلت عما إذا كانت تعطي ما تعطيه لتحتفظ بوهم التميّز عن الآخرين ، أو بوضع لم يَعُـد لها أبداً . وقد أقضّـها هذا التساؤل ، بعض الوقت . ثم إنها قالت لنفسها ، إنها لا تزيد على أن تنقاد لغريزتها : وكما أن واجب الجندي أن يقاتل ، وواجب الطبيب أن يُعنى بالمرضى ، فإن من طبيعة الأمير ، على ما ترى هي ، أن يظهر بمظهر أميري .

وجاء موزع « بربري » يحمل رسالة . ولما كان مزهواً بلباسه الأحمر الرسمي الذي يبرز عظمة بشرته السمراء ، فإنه وقف على مدخل البهو ، حين كانت السلطانة تمزّق الغلاف المزين بتاج ذهبي سميك . وتقرأ :

« وصحيح أن « الخديوي » حصل بفضل الإنكليز ، على لقب « ملك مصر » ، على ما كانت تفكر به ، متسليةً ؛ وإذا هو بقي على شروط الطاعة المعروفة ، فلعلّه يصل ذات يوم ، إلى لقب « الأمبراطور » . وكان التسامح الساخر ، الذي كانت تستقبل به ، بوجه عام ، صغائر الغرور لدى أمثالها ؛ قد تلوّن اليوم بشيء من الزهد : وهي غير قريبة من نسيان ما وقع سابقاً ، وهو أن السلطان الكريم قد رفض عام ١٩٢٤ أن يستقبل الأسرة العثمانية المنفية .

وتدل الكتابة العالية والمركّز عليها على شخصية تعي أهميتها ، وهذه بنت أختٍ للملك فؤاد ، هي الأميرة زبيدة ، تمر ببيروت وتحب بهذه المناسبة أن « تَسعَدَ » بمحادثة السلطانة .

« أوَتسعد . فعندما كنا حماتهم ... ولم يمر وقت طويل على ذلك ، أي منذ اثنتي عشرة سنة ، كانوا يطلبون التشرّف باستقبالنا لهم ! ولكن هيا ... سنستقبلها بشكل لائق . ولكنه ليس من المؤكد أنها ستجد فيها ... ما يسعدها ! » .

وأخذت السلطانة واحدة من أواخر أوراقها التي تحمل شعارات الأمبراطورية ، وخطّت ، مع بسمة خبيثة ، بضعة سطور ، تدعو فيها الأميرة إلى زيارتها في الغد ، في ساعة الشاي .

وكان العقد الثقيل المؤلف من حبات الزمرد يتوهج ، وفي المركز ماسة كبيرة كعين السُّمَـانَى تتألق بأشعتها المتنوعة الألوان .

وعلى العتبة وقفت الأميرة زبيدة مبهورة ، حتى ليصعب عليها أن ترفع عينيها عن عنق السلطانة .

ــ ادخلي ، ياعزيزتي ، أرجوك .

وفي الحال تعرّفت زبيدة على اللهجة الأمبراطورية ، حيث يختلط التهذيب المرهف ، والسمو الرفيع ، مع أكبر قدر من الظهور على السجيّة ، هذه اللهجة التي تملؤها وهي فتاة شابـة ، بالإعجاب ، والحقد ، والتي لم تصل ، مع جهودها كلها ، إلى تقليدها .

وعلى الكرسي العالي ، في آخر الصالة ، كانت السلطانة في شكلها القـاتم ، تنتظـر ، بلا حركة .

وبسرعة تعود الأميرة إلى نفسها ، وتنحني بلطف مقدمة أعمق تحياتها وتمنياتها ، واليد على القلب ، ثم على الشفاه ، ثم على الجبهة . وعندما تنتصب واقفة ، ترى نظرة باردة ، كلها تساؤل . ومن المؤكد أن مضيفتها كانت تتوقع ثلاث انحناءات ، كما يقضي بذلك العرف في البلاط العثماني . وفي هذه القاعة الضيقة في بيتها البيروتيّ المتواضع . تبقى السلطانة « سلطانة » أكثر منها في أي وقت آخر . وتعود هذه المرأة الشابة ، بعناء كبير ، فتنقاد لهذا العرف ، موائمة بين تمنياتها وبين المكان الشديد الضيق ، في الوقت الحاضر ، محمـرّة خجلاً منذ البداية بعـد أن أعيـدت بصمت ، ولكن بوضوح إلى مكانها .

وأخيراً تبتسم لها السلطانة ، وتشير إلى مقعد قريب منها لتجلس عليه . ولا تدرك ما وراء ذلك إلا بعد أن جلَست : ذلك أن المقعد الذي تجلس عليه الأميرة أدنى ارتفاعاً من الكرسي العالي الذي تجلس عليه السلطانة ، مما يرغم الأولى على مد عنقها لكي تكلم مضيفتها : ذلك هو مبدأ العرش ومقاعد الدوقات الصغيرة .

وكانت الأميرة التي شعرت بأنها تضيق بجلستها أكثر فأكثر ، تتساءل عما إذا كان يجب عليها

أن تعتبر نفسها مهانة، وأن تعرب عن ذلك. وفي هذه اللحظة بالضبط تتكلم السلطانة بأعذب لهجة في العالم لتشكرها على إضاعة جزء من وقتها الثمين للقيام بزيارة لمسكينة منفية. ترى هل كانت تسخر؟ ولكن ما الوسيلة لاتخاذ موقف يائس، أمام هاتين العينين البراقتين، وهذه الكلمات التي تقطر عسلاً..؟

لكن الساعة التي تلت كانت من أطول الساعات التي عرفتها الأميرة زبيدة في حياتها، فقد جاءت متوّجة بثروتها، وقوتها، لتلاحظ شقاء أسرة كانت دوماً تغار منها، وفي نفسها أن تتألم، وتواسي، بل لتقدم بلطف وذوق، مبلغاً صغيراً خبّىء في أعماق حقيبتها. وها هي الآن تستقبل بنبل وتعاظم كانا أكبر مما عرفته في الأيام التي كانت فيه هذه الأسرة هي الحاكمة.

وتساءلت الأميرة عن الأقاويل التي كانت تذاع عن فقر السلطانة — وحتى عن شقائها على ما كان يقول بعضهم. ترى كيف أُخذت بها وخُدعت إلى هذا الحدّ. وحقاً فإن البيت ليس كبيراً، ولكن حليّ السلطانة، وفخامة الاستقبال، حيث كانت تتتابع المشروبات، والحلوى المقدّمة في آنية من أفخر ما يوجد من نوعها، أي من الفضة المذهّبة، وعلى أيدي ثلاثة من الخدم الذين يتقنون المهنة إلى أبعد حد، كل ذلك لا يدل على الضيق: فماذا تفعل؟ وكان التساؤل مثيراً للغاية، وكان من المستحيل طرحه.

ومنذ أن حانت فرصة طبيعية، عادت الأميرة فقدّمت شكرها، وطلبت الإذن بالانصراف، دون أن تنسى التمنيات — التي قدمتها، ثلاث مرات، دون أن تدير ظهرها، أمام السلطانة الجالسة على كرسيها العالي، والتي تبتسم لها في طيبها العظيم.

أما الشيء الذي لن تسمعهُ الأميرة المنكودة الحظ زبيدة، وما هي بعيدة عن تخيّله، فهو انفجارات الضحك لدى السلطانة خديجة بعد مغادرتها مباشرة.

— حقاً لم تكن تلك المرأة المتصنعة تُصدّق ما تراه عيناها! وأعتقد أني لقّنتها درساً جيداً. ولن نحصل بسرعة على زيارات من هذا النوع. هيا، يا أبنائي، تعالوا، فالحلوى لذيذة جداً!

فجاءت سلمى وخيري وزينيل والكالفتان المتنكرتان بزي القائمات بالخدمة، وجلسوا جميعاً على الطاولة. وتبعهم رجل قصير، أجلسته خديجة إلى يمينها، وملأت له هي بنفسها صحنه. إنه صديقها الصائغ الأرمني الأمين. وسيغادر المنزل بعد ساعة، وفي كيسه الجلدي الكبير، ذلك العقد الفخم، وصحون الفضة المذهّبة التي أعارها للسلطانة بهذه المناسبة.

٣

أرسالة لي؟ وتقول ذلك سلمى مندهشة وتنظر إلى الطابع الذي يدل على أن الرسالة من العراق ... من إذن يمكن أن يكتب إليها. فهي لا تعرف أحداً هناك؟

وكان الموزّع، عادةً، يضع الرسائل في العلبة الخضراء التي يملك زينيل مفتاحها إلا أنه هذه المرة استوقف الفتاة عندما كانت تترك البيت لتذهب إلى مدرستها، وقال لها:

ـــ إن عليك أن تدفعي عشرة قروش. فالطابع الموجود لا يفي بالأجر المطلوب. هاكِ إذن، فوقّعي هنا، شكراً يا آنسة.

وعاد على دراجته مصفّراً في الضياء المذهّب لصباح هذا اليوم من شهر أيار / مايو /.

ورازت سلمى الظرف بفضول واضح، أما الخط العالي، الرقيق، فيبدو أنه مألوف، معروف عندها. ومع ذلك ... وبتعمّد، دسّتْهُ في جيبها. ذلك أنها متأخرة عن امتحان الهندسة.

وتسرع الخطا. وما إن دارت على زاوية الشارع، وأصبح مستحيلاً على الكالفات أن يرينها، من وراء النوافذ، حتى بدأت تعدو: فأسرعي يا سلمى، إنه ليس لديك إلا عشر دقائق قبل أن يقرع الجرس.

وكانت المسألة سهلة . وعندما خرجت الطالبات ، تبادلن أجوبتهن . ولكن سلمى ليست مستعدة الآن للبحث في المثلثات المتساوية الضلعين ، ولا في المتوازيات الأضلاع المستطيلة .

ــ اعذريني ، إنهم ينتظرونني .

وبلا شروح أخرى ، تركت هناك أمل التي تريد التحقُّق من حلولها . فلِم قالت هذا ، وهي التي تكره الكذب ؟ ومن ينتظرها غير هذه القطعة من الورق القابعة في أعماق جيبها ؟ وبدلاً من أن تمشي في طريق البيت . عادت فاتجهت نحو الكورنيش ، على امتداد البحر . ومشت ببطء ، لتتذوق طعم الشمس ، ذلك أن بين يديها الوقت كله . وكانت تأبى ، وهي مبتسمة ، عروض الباعة الصغار الذين يقدّمون « البوظة » والليموناضة ، والذين يجنون الثروات الطائلة في هذا الفصل . ووصلت إلى مكان غير بعيد عن فندق باصول القديم ، وهناك في إحدى الدخلات ، كانت تعرف مكاناً هادئاً .

وجلست على العارضة الخشبية ، وبدأت تلهو بالرسالة . فأفضل لحظة ، هي التي تكون السابقة ، لحدثٍ ما . إذ يمكن أن تتخيَّل الفتاة الأمير الرائع الذي لمحها من بعيد ، والذي يكتب إليها لمصارحتها بحبه . ولكن عندما تفتح الرسالة ، ستلاحظ بصورة لا تتغير ، أن الذي يكتب ، هو ابنة عم أو خالة ، تلوم على أن أخبارنا لا تصلها . أما أبناء العم ، أنفسهم ، فإنهم لا يكتبون أبداً .

وعندئذ تفتح سلمى الرسالة :

بغداد ١ أيار / مايو / ١٩٢٦

ابنتي الصغيرة العزيزة

أرسل إليك هذه الكلمة كما لو أني أرمي بزجاجة في البحر . ذلك أنني ، منذ سنين ، كتبت لك مرات عديدة . تُرى هل ضلّت رسائلي الطريق ، أو أنك أبيت الجواب ؟

إن أباك بائس جداً ، كما تعرفين ، على أنه فقد سلماه الحلوة . وهذا بسببي ، بالتأكيد : فلقد اخترت بلادي ، معتقداً أن بها حاجة إليّ . فأي غرور . . .

وبعد ذلك ، ما من يوم يمضي دون أن آسف على ذلك القرار . فهل تستطيعين فهمي . . . ومسامحتي ؟ إني لأشعر بوحدة موحشة كبيرة ، ولكن أحببت أن أراك تكبرين . لقد كنت طفلة رائعة ، ويجب أن تكوني الآن فتاة جميلة .

ولقد حسبت أنه ربما كنت أنت تحبين أن تري أباك الكهل بعد هذا الزمن الطويل . وأنا الآن

فصل في بغداد . وهي مدينة رائعة ، فهل يروقك أن تعرفيها ؟ إن كان ذلك ، فاكتبي إليّ به ، وأنا أرسل إليك مباشرة بطاقتي سفر لك ولكالفاك . ويمكن أن تبقي إلى جانبي بضعة أشهر أو أكثر إن رغبت بذلك : فما من شيء يجعلني أعظم سعادة .

وأنا أنتظر جوابك بلهفة

أبوك الذي يحبك .

ملاحظة : لا ريب أني أحب أن أرى خيري ، ولكن يجب قبل كل شيء أن ينهي دراسته . وأكلفك بنقل احتراماتي إلى السلطانة . وليحرسها الله ! » .

يا أبي ... ! يا أبي ؟

سلمى مذهولة من الحقد ، من السعادة ... لماذا تفعل بي هكذا؟ وماذا فعلت لك ، أنا؟ إنك تتخلى عني ، ثم تعود فتأخذني ، إنك تحبني ، بل لم تعد تحبني ، بل قد صرت تحبني من جديد . ترى ما أنا وماذا أنا بالنسبة إليك ؟

كان هنالك شبح صغير على المقعد ، يضم الرسالة منحنياً على نفسه تصدر عنه شهقات مرة ولذيذة ... لقد أحببتك كثيراً وكرهتك كثيراً ، لأنك لم تعد تحبني !

وتقلص الوجه وانفتح الفم لصراخ أخرس ، في صمت خانق .

ويمرّ أحد الناس ، فيبطىء في مشيته ، مستغرباً هذه الفتاة التي ينفجر يأسها ، بهذا العنف . أما هي فإنها لا تراه ؛ ولا وجود عندها إلا لهذه الرسالة التي في يدها .

« لقد شعرتَ بغيابي ، واشتقت إليّ ؟ » ـــ وأنا ؟

وهل تساءلت كيف كانت ابنتك الغالية ، تتحمل خيانتك ؟ ذلك أنك خنتني . فمنذ وقت طويل ، كنت تحلم بالغياب عنا ، وكنت أحسّ بذلك . وكان غيابك يزداد أكثر فأكثر . ففي البيت كان كل شيء يرهقك ، وكنت تريد استعادة حريتك . أما الأمر فلم يكن بالنسبة إليك إلا مبرّراً .

يا أبي ...

لقد عتبت عليك ، وخاصةً لأنك تركتنا دون أن تقبّلني ...

فلو أنك تكلمت لكان كل شيء أسهل بكثير.

أوكنت تظن أني لا أفهم؟ أو كنت تسيء معرفتي إلى هذه الدرجة؟ ففي عمر الثالثة عشرة، لا يكون الإنسان طفلاً. وكثيراً ما يعرف الأطفال ما يجري أكثر من الكبار وأفضل، لأن هؤلاء يتعامون لحماية أنفسهم.

أما أنا فلم أكن مصفّحة بغلاف حام. وكنت أريد أن أحسّ بأعصابي، والتعمّق في الأمور من خلال الأكاذيب، والظواهر المضلّلة. وكنت أعرف فقط أن الحياة هي هذا. وأنه ليس هناك من طريق آخر.

وهذا أمر مرهق، وهو يحتاج إلى قوة... وأنا قوية عندما أشعر بأني محبوبة. ولقد انتزعت قوتي عندما تخلّيت عني، دون أن تخبرني.

لقد تألمت كثيراً، يا بابا، لو كنت تعرف...

ومن غير أن تشعر، صرخت سلمى. والشمس تدور وتدور بين دموعها. وتحسّ فجأة بتعب شديد، وبرغبة في الدخول إلى ما تحت الأرض، والاختفاء في أعمق نقطة منها، هادئة.

ولكن كم قضت جالسة على تلك العارضة؟ لقد بدأ البحر يحمرّ عندما عزمت على العودة إلى البيت.

واستقبلتها هتافات مجنونة: «أين كنت؟» و «ماذا حدث؟» «وهل جُرحت». وكانت الكالفتان تدوران حولها كما لو أنها صوص عثر عليه من جديد. وكان زينيل في البهو يحاول للمرة الألف أن يتصل بالشرطة، فأذهلته عودتها، وانفتح فمه، كمستقبل في الهواء، على حين أن خيري ينفجر من الضحك.

ــ كنت أقول ذلك لكم. كانت تتنزه! لم يكن هنالك معنى لكل هذا الذي فعلتموه!

وفهمت السلطانة من خلال نظرات ابنتها، الغريبة، أن شيئاً خطيراً من نوع ما، قد حدث.

ــ ولكن ماذا هنالك يا سلمى؟

ولكن الفتاة لم تسمعها، بل دارت نحو زينيل، ونظرت إليه بقسوة قائلة.

ـــ من الذي أخذ الرسائل التي كان أبي يرسلها إليّ خلال سنتين ؟

فساد صمت مفضوح : إن هذه أول مرة منذ المنفى ، يجرؤ فيها أحدهم على الإشارة إلى خيري رؤوف بك ، أمام السلطانة . ولكن سلمى لم تعد تهتم بالمواضعات . وثار غضبها ، وكرّرت السؤال مرة ثانية مقطعة كلماته :

ـــ من الذي أخذ رسائل أبي ؟ مَن ؟

وببرودة كبيرة ، قاطعتها السلطانة ، قائلة .

ـــ عودي إلى هدوئك ، يا أميرة ، وتوقفي عن اتهام زينيل . فأنا التي أخذت الرسائل ، ومزقتها .

وأُسقط في يد سلمى ، ونظرت إلى أمها .

ـــ أأنت ، أيندجيم ؟ ولكن لِمَ ؟ وكنت مع ذلك تعرفين كم أعاني من صمته !

ـــ كنت ستتألمين أكثر بكثير لو أنك قرأتها !

وعادت السلطانة إلى هدوئها ، وأخذت بيد سلمى .

ـــ كنت ستتمزقين ، يا بنيتي الصغيرة ، وكنت طرحت على نفسك ألف سؤال . واعتقدت أنه كان من الأفضل لك أن يكون الانفصال واضحاً ما دام قد وُجد . وفي البداية كان ذلك قاسياً . وأنا أعرف ذلك . ولكن قليلاً فقليلاً استسلمت لما لا بدّ منه ، وبدأت تنسين .

ـــ أأنسى ؟ أوه يا أيندجيم . كيف اعتقدت أنني أستطيع أن أنسى أبي ؟

وتتردد السلطانة :

ـــ لقد فعلت ما فعلت من أجلك وأنا مستمرة في الاعتقاد بأنني محقة : أنظري ، في أية حال أنت الآن .

ـــ ...بسببك ، وبسبب عمايتك ! كانت عينا سلمى تلتهبان ، فعضّت على شفتيها . ويجب أن لا تقول الكلمات التي لا يمكن ترميم آثارها . ولكن ماذا ؟ أتهرب ... ويبدو لها الباب بعيداً جداً ... أم تدخل إلى غرفتها ، وتغلق الباب عليها ... فهي لا تريد أحداً ، ولا تحب أن ترى أحداً ... وسقطت على الأرض .

ـــ « ستقتل أباك وأمك ! » هكذا كانت تقول الأم بارنابيه، وإنها الوصية السادسة أو السابعة ؟

ـــ حقاً إن رأسك يشبه المصفاة
ـــ نعم، ياأمي أشيليه
ولكن عندما يأتي الجدّ
سيشنقك من الأرحل
وسيُعَلمّك
أن تروي في كل مكان
أن السلطان مجنون

كم أنا ردانة...

برد في الصباح
كصبي شيطان
وحَرٌ في الليل
ومخنوقة في الخزانة(١)

... ماأكثر الناس! من هن هؤلاء النسوة في لباسهن الأبيض وهن يبكين ؟ وهذا الثقب الذي يكبر بلا انقطاع، هل هو ...؟ لا! لاتقبروني. إني لست ميتة. قفوا!

ـــ إن المسكينة لا تعي أنها ميتة.
ـــ ولكنني لست ميتة!
ـــ وهاإن الجنون يداهمها، بزيادة!

وأي بؤس عليها أن تفرضه على أمها الرائعة! إنها لم تكن قط عاقلة.

ـــ ثم إن أباها ميّت من شدة الحزن. وإنها هي التي قتلته.
ـــ بل هذا خطأ! إن أبي يحبني، فأنا صغيرته الغالية.

ولكن ماذا يعنّين الآن؟ «ليحفظ الله الملكة»؟. إن هذا ألطف. ولكن كيف؟ أفهذا ليس من أجلي؟ أولست ملكة؟ ولكن إذا كنت أنا الملكة، لأن أبي هو الملك، أما أمي؟ مسكينة ماما، إنها ماتت وهي صغيرة جداً: ولست أنا الذي قتلتها.

(١) الكلام هنا تعبير عن هذيان سلمى بعد أن فوجئت بأن أمها كانت تحرمها من قراءة رسائل أبيها.

ــ أرجوك يا دكتور، قل لي الحقيقة. هل ستشفى؟

وخديجة السلطانة شاحبة الوجه، فمنذ أسبوع وهي تسهر على صحة سلمى. وتأبى أن تتركها لحظة واحدة. كما لو أن حضورها وحده، يحول دون استفحال المرض.

ــ إني لا أعرف، يا سلطانة. إنها صدمة على جسدٍ هو في الأصل ضعيف. هل من سوابق من هذا النوع في الأسرة؟

ــ لا كهذا تماماً، ولكن أبي، كانت تنتابه نوبات اكتئاب.

ــ عفوك يا سلطانة. يجب أن أعرف الحقيقة. هل كان يمر أبوك بنوبات هذيان.

ــ إني أجهل ذلك يا دكتور ــ وتشعر السلطانة أنها ستصاب بالإغماء ــ لقد كنت صغيرة جداً، عندما كان أبي يمرض، وكانوا يستبعدوننا. ثم إنه شفي فيما بعد.

فانتصب الدكتور من جديد. وانتفخ جذعه، ووضع باهمه على صدريته.

ــ وإذن فإنك لم تعرفي قط ما إذا كان أبوك قد أصابته نزوات جنون، أم لا، وابنتك، فيما ترين، لا تعرف كذلك. إن هذا يفسِّر كل شيء!

ــ إني لا أفهم.

ويصلح الطبيب نظارتيه، ويقول:

ــ إني لا أظن أنك سمعت حديثاً عن الدكتور فرويد. فهو طبيب نفسي نمساوي، قام بثورة في عالم الأمراض العقلية. ولقد درست نظرياته، وقارنتها بملاحظاتي الشخصية، واستخرجت منها بعض النتائج العملية التي أنا مسرور منها. وأعترف بذلك.

ثم يضخم صوته، ويركِّز على كل مقطع بعناية:

فتبعاً للدكتور فرويد، وفي رأيي أنا أيضاً، فإني أظن أن ابنتك تجابه مشكلة لا تعرف كيف تحلّها. وهذه حالة شائعة. وكل إنسان ينتهي منها على طريقته، إما بالإقبال على اللذة، أو العمل، أو بالكحول. ولكن بعض الأشخاص ــ ربما كانوا أكثر حساسية ــ يختارون الهرب عن طريق الجنون.

ــ يختارون؟

ـــ بلى ، يا أميرة ، إذ يمكن القول إن في القضية اختياراً ، حتى ولو لم يكن واعياً . فالقول بوجود درجات مختلفة للشعور ، ذلك هو الأمر الذي تجلّت فيه مهارة الدكتور فرويد .

ـــ ولكن ... ابنتي .

ولما كان الدكتور منصرفاً إلى حديثه ، فإنه لم يسمع السلطانة .

ـــ كنت أقول إذن : ولـِمَ هذا الاختيار لا غيره ، مما هو أكثر معقولية؟ حسناً . إنه قد تكون هنالك جملة بواعث أو أسباب ، يدخل فيها أحياناً تأثير شخص نحبه أو نتماهى معه . ولهذا سألتك عما إذا كانت ابنتك تعرف ما إذا كان جدّها يمر بنوبات جنون . فإذا قلنا : نعم ، على ما هو ممكن جداً ـــ إذ لا يبقى هنالك أي سر مع وجود الخدم ـــ فيمكن أن نأمل بأن التماهي لن يدوم ، لأنه ليس قوياً ، وهو يقوم على الـ « ربما يكون » فقط . فإذا ضعفت التواترات ، فأنا الدكتور أوخان ، أستطيع أن أؤكد لك أن هذا التماهي السيء ، سيزول تلقائياً .

وهنا يصبح صوته أقوى ، ويقول :

ـــ ولكن لك دوراً هنا تلعبينه .

ـــ سأفعل كل ما يطلب مني ، يا دكتور ، قل لي ...

ـــ أرجوك بصورة خاصة ألا تفعلي شيئاً . اذهبي واستريحي ، ودعي للآخرين أن يهتموا بابنتك . إذ أنها في حالتها هذه ، وخاصة في حالتها هذه ، تدرك ما أنت فيه من الاكتئاب ، وهذا يعـزّز شعورها بالذنب تجاهك . فهي لا تعرف كيف ترضيك ، من غير أن تخون أباها ، والعكس بالعكس . ولهذا فإنها تلجأ أكثر فأكثر إلى العالم اللاواقعي : فدعي ابنتك وشأنها .

ـــ أتريد أن تقول إن حضوري بجانبها أمر سيء بالنسبة إليها .

ـــ إني لا أقول ، بل أؤكد . واحتراماتي يا سلطانة .

هذا الطبيب حمار ، وأكثر من ذلك ، إنه شخص سمج ! كيف يمكن أن يؤذي حب الأم ابنتها ؟

ومن شدة الاستياء ، كانت السلطانة تذرع بهوها جيئةً وذهاباً ، وتقول في نفسها :

ـــ عندما أفكر أنهم يعتبرونه أفضل طبيب نفسي في المدينة!.. ولكن ماذا نفعل الآن؟

ويتصـدّى زينيل، فيقول لها دون أن يتجرأ على النظر إليها:

ـــ إن كنت أسمح لنفسي، فأنا أقول باتباع رأيه. وأنا لا أصدق لحظة واحدة، ما جاء في كلامه. ولكن أنت، أنت بحاجة إلى الراحة، وتبدين مرهقة. فلا تخشي شيئاً، إني سأسهر على صحة الأميرة، وأخبرك بأي تغيير قد يحصل.

«عليك أن تكفّري!». وخرجت الأشباح بلا شكل من الجدران البيضاء، وتحيط بسلمى.

ـــ ولكن ماذا فعلت؟

ـــ ها، ها، ها، إنها تسأل ماذا فعلت!

أي ضحك غبي... ولكن يجب ألا نغضبها.

ـــ أقسم لكم ـــ وتناغم صوتها بأكثر ما تستطيع ـــ أنني لا أعرف.

ـــ لن تعرفي ذلك أبداً. إن هذا هو العقاب: أن تعرفي أنك أجرمت جرماً مرعباً، ولكنك تجهلين ما هو.

ـــ إني لا أفهم...

ـــ ومع ذلك فإنه بسيط: إذا كنت تعرفين الخطيئة، وأنك تعاقبين عليها، عندئذ يكون العقاب وسيلة للتكفير. وكما يحاسب السمان، فإنك تضعين في الميزان ذلك الشر الذي أحدثته، وذاك الذي تعانينه، وبعد مدة ما، تقدّرين أنك وفيت ما عليك. إن هذا غاية في السهولة: فبفضل العقاب، يزول الاكتئاب، وينتهي القلق، ويعود العالم إلى أحسن حال. حسناً! ونحن لن نعاقبك، فأنت تستحقين جهنم. وجهنم هي فقدان العقاب.

ـــ لا. أرجوكم، لا هذا، وتتوسل إليهم سلمى وهي في حالة رعب. وتحاول أن تمسك بطرف من الشبح. ولكنها لا تصل إلى القيام بأية حركة، رغم جهودها. وتتألم وتئن قائلة:

ـــ إني أريد أن أموت.

ـــ ولكن ماذا شرحنا لك؟

وتستطيل الأصوات بصفير غاضب.

في عالمنا الصحيح، لا في هذه الغرفة، ولا في هذا البلد، لا يموت الناس. وليس هناك لا حياة ولا موت. ولا حق، ولا باطل، ولا بداية ولا نهاية. وما فعلته، بعد كل شيء، لا أهمية له مطلقاً، ذلك أن في عالمنا، لا خير، ولا شر، وما من شيء هو عدل، ولا شيء هو ظلم. إنه عالم لا متناه، وإذن فبلا قواعد.

وتقاطعهم سلمى :

ــ ولكن إذا كان مافعلته بلا أهمية على الإطلاق ، فإنه يمكنكم أن تسامحوني ؟

ــ إن هذا فكرة ثابتة لديك . فاعرفي أنه حتى إذا أردنا ذلك ، فلن نستطيع . ولدينا ميّزة خاصة بنا ، هي أننا أحرار تماماً . وهذه الحرية هي التي تمنعنا من اتخاذ أي قرار . فنحن كموازين ، ما من شيء له فيها وزن .

وغضبت سلمى ، فغاصت في وسادتها ، واحتجت قائلة :

ــ لامعنى لهذا كله .

ــ ربما ولكن هل تعرفين أنتِ ، كلاماً له معنى في أي يوم من الأيام ؟ فأنى لكلماتكم البائسة ــ وهي كلمات مصنوعة من قبل عقول محدودة ــ أن تبلغ الحقيقة ؟ لا تفكري بذلك ، واستمري في تسْلياتك ، ولا تحاولي أن تخرجي من علبتك ذات الأبعاد الثلاثة . فأولئك الذين حاولوا ذلك ، لم تحتج حتى إلى التدخل بشأنهم . ذلك أن إخوانهم أنفسهم سجنوهم وراء قضبان ، وصرّحوا بأنهم مجانين ، وهذا إن هم لم يصلبوهم أو لم يحرقوهم .

وصدقيني ، إن من الأفضل أن تبقي هادئة في زاويتك . وهذه الزاوية مضجرة ، محدودة ، وهذا صحيح . ولكن اللامتناهي ، كما تعرفين ، هو رتيب أيضاً . ذلك أنه مجال لا ينتهي ، وبلا جدار ، يستند المرء إليه ، ولا باب يغلق ، ثم إن البرد فيه شديد ، وما من غطاء يحيط بك ، وما من شيء يَحُدُّ شيئاً ، وأخيراً فإن هذا اللامتناهي مهلك .

« ... وأخيراً نامت . كم هي حمراء ، مبلّلة ، بنتي الصغيرة المسكينة ! » . وبلطف شدّ زينيل الغطاء ليغطي به سلمى . ويحمي جسمها الرقيق ، لا من برودة غير متوقعة ، ولكن من التأثيرات السيئة التي يشعر أنها تحوم حولها . وعندما كانت تصرخ منذ قليل ، وتتخبط ضد الأشباح ، فإن زينيل ، أخذ القرآن بيده اليمنى ، وفتح الأنوار كلها ، ونظر في الخزائن جميعاً . وعبثاً يقول الناس ، في أيامنا هذه ، إن العائدين ، مخترعات عقول نسوة طيبات ، ذلك أن زينيل يتذكر جيداً أن الناس في قريته في ألبانيا ، كانوا لا يمضون إلى النوم ، قبل أن يضعوا على الباب شيئاً من الخبز ، وبعض الفاكهة ، حتى لا يخطر في بال الأرواح الجائعة ، تلك الفكرة السيئة ، بالدخول إلى البيت . وبصورة عامة ، كان لا يبقى شيء من ذلك في الصباح .

ومسّ زينيل بسبابته البضة ، خدّ المراهقة ، وارتجف من حرأته . وهب أن أحداً فاجأه ، فكيف يشرح له حركة اللااحترام هذه . أتراها لحظة ذهول أم هي رغبة كهل في مَسّ بشرةٍ طرية ؟ وحتى تحت العذاب ، يجب أن لا تقال الحقيقة أبداً ! إنه لسر رهيب ولذيذ يُقضّه ويسحره ، ويجعله حتى في أسوأ الخصومات ، ينتصب كملك ، كإله ، أو كإنسان !

ـــ بابا !

وانتصبت سلمى وهي تزأر، وعيناها بيضاوان من الخوف.

ـــ لا تقتلني ! أبعد هذا الخنجر. فأنا بنت صغيرة. ألا تعرفني؟ انظر ! إني أنتزع هذه البشرة.

وبعصبية تخدش وجهها، دافعة بقوة ذلك الخصيّ الذي يُحاول أن يهدئها.

ـــ انظر، فإني أنا أنا ! أولا تتعرف إلى طفلتك الصغيرة، الصغيرة جداً؟

وتقوقعَت على نفسها وجعلت ركبتيها تحت ذقنها، ويداها مضغوطتان حول الكتفين.

ـــ ألا تزال تراني أيضاً؟ إني أضيّق نفسي بسرعة، وعما قريب، لن أكون إلا صَدَفة يمكنك أن تحملها في جيبك، ولن أزعجك. وأعدك بذلك. ولكنك ستداعبني من وقت لآخر. قل: ألا تفعل؟

ـــ بلى، يا بنيّتي الصغيرة، سأداعبك، فلا تخافي...

وبنعومة لا متناهية، وضع زينيل يده على جبين المراهقة التي تئن.

ـــ إنهم يدخلون مسامير في رأسي، يمنعوني عن التفكير. بابا، لا تتخلَّ عني !

ـــ إنني هنا، جيجيم، فاهدئي، ولن أتخلى عنك أبداً.

و «تلوذ به» مرتجفة بين ساعديه.

ـــ إنني أحبك كثيراً، ولا أحب غيرك !

وكانت عيناه مغشاتين بالهيجان، عندما ضمّها إلى صدره، وبدأ يهدهدها، برقة:

ـــ وأنا، لو تعلمين كم أحبك، كما لو أنه لم يوجد قبلي أب يحب ولده.

يا أبي... الذي كانت الخادمات تهزأ منه سراً: أتراه قد عاشها، أو حلم بها، هذه الليلة المباركة... منذ ست عشرة سنة؟

أما سلطانته فكانت تنام في سرير كبير محاط بستائر من الضباب. وكانت ريح عاتية قد

عصفت به. وأخذته بصورة لا تقاوم، إليها، حبيبته، ملكته. وجاء رجل مجهول اسمه زينيل، أكثر حرية، وأكثر انسجاماً مع نفسه من أي وقت مضى، فوضع شفتيه على الجبين الأبيض. وشعر بشيء يشبه الانبهار... أما بعد ذلك فلم يعد يتذكر شيئاً.

وبعد تسعة أشهر، كانت سلمى تولد من جديد، ودهش الجميع من شبهها بخيري بك. ولكن زينيل بقي صامتاً. وبجسمه كله، أحسّ بنداء يشـدّه إلى هذا الكائن الصغير، كأنه قطعة أخذت من جسمه، أو عرفانٌ جميل.

وكان خلال مدة طويلة يدفع عن نفسه هذه الأخيلة المؤنبة، ولكنها كانت تفرض نفسها عليه بعنف أكبر فأكبر، وفي السنوات الأخيرة خاصة، منذ أن جعل المنفى منهم... أسرة.

واليوم إنها هي، ابنته الصغيرة، التي تهتف به. ومن شـدّة ما اعتراه من هيجان، انفصل عنها قليلاً لكي يتأملها بصورة أفضل.

ـــ يا سلماي! أنت معجزتي، أنت صبحي، وهبة لا تصدق من الآلهة، أنت دمعة ذرفها الله على شقائي...

وتصغي إليه مسحورة.

ـــ زدني أيضاً، يا بابا، قل لي أيضاً أشياء حلوة...

ـــ أيتها الزهرة الصغيرة، شُعاع واحد من الشمس، وها أنت متفتحة أجمل التفتح... هنا، استريحي على كتف باباك. فهل تفهمين الآن؟

فتمتمت بقولها:

ـــ بلى، وعيناها نصف مغلقتين.

ـــ أي عذاب، ولكن ماذا كنت أستطيع أن أقوله لك؟ فما كنت لتصدقيني أبداً. وكان يجب أن تكتشفي سـرّنا، وحدك.

ـــ سـرّنا نحن؟...

وتنطوي على نفسها أكثر أيضاً، وتتنهد ارتياحاً.

ـــ عديني بألا تقولي شيئاً، ذلك أنهم سيعتبروننا مجنونين. أو يؤمن الكَفَــرة بشيء مستحيل على العلي القدير.

ومن شدة الاستياء، انتصب الخصيّ، إن تَـذكّـر هذه الخطيئة يجعل دمه يغلي. وتفتح سلمى عينيها، مندهشة: فكم هو أحمر، فجأة. ترى لِمَ يتكلم بمثل هذه القوة؟

ـــ إنهم يقولون إننا مجانين. ولكن احتفظوا أنتم بحكمتكم، يا ديدان الأرض، الذين يخشون كل ضلال!

وأمسك بيدي سلمى

ـــ يا بنيتي، باركي معي الجنون، فهو الطريق الملكية إلى اللانهاية، إلى النقطة الأخيرة التي يختلط فيها كل شيء، وحيث يكون كل شيء واضحاً... ولنشكر الله على أنه ساعدنا على الحركة، ولنحمده على هذه النقطة من الزئبق التي تدور في رؤوسنا المربعة. فلتتضاعف ولتنفجر بألف شعاع! أبهر النور يا رحمن!

ـــ أي حُـلُـم عجيب رأيته، يا زينيل، لو كنت تعرف...

وسلمى، المتوردة كلها، تتمطى، بمتعة كبيرة.

ـــ كم هي الساعة الآن. إني أموت من الجوع. وهل الطقس جميل؟ صباح الخير، ليلى خانم، هل أستطيع أن أحصل على مربى الفريز؟

ـــ من المُـرَ....

وفتحت الكالفا عينيها بقوة، وتلعثمت بالرد على ما طلب منها.

ـــ أتراك عرفتني؟

ـــ أتراني عرفتك؟... ولكن يا ليلى خانم، أأنت بصحة جيدة؟

ـــ الله، الله!

فهزها الهيجان، واندفعت الكالفا خارج الغرفة.

ـــ يا سلطانة! الأميرة. الأميرة شفيت!

وعلقت سلمى قائلة :

ـــ ما الذي جرى لها ؟ ترى هل كنت مريضة بهذه الدرجة ؟ وماذا كان بي ، يا زينيل ؟

ـــ هُـو ، ما من شيء عظيم ، ولكن... ولكن... مجـرّد (غريب) صغير .

ـــ يا مسكيني زينيل ، كم تسيء الكذب ! وهذا مخجل بالنسبة لرجل في البلاط !

ـــ أيندجيم ، لماذا تنظرين إليّ هكذا ؟

وهنا كانت السلطانة تدخل إلى الغرفة .

ـــ قولي لي ، ماذا جرى ؟

وتتساءل سلمى : لماذا تـضـمُـها أمها بين ذراعيها مع هذا الحنان غير العادي ؟

ـــ نوع من الحـمّـى يا سلمى ، هذا كل شيء .

وتسكت البنت . وما دامت أمها تخفي عنها حقيقة ما جرى . يجب أن يكون ما أصابها خطيراً .

وتحاول ، بأقصى الجهد ، أن تتذكر . فلا يخطر ببالها أي شيء . أي شيء على الإطلاق ، إلا هذا الحلم الذي كان فيه زينيل يقول... ولكن ماذا كان يقول ؟

ولم تقـرِّر سلمى أن تجيب أباها إلا بعد شهرين . وستقول له إنها لا تستطيع السفر إلى بغداد ، بحجة دراستها في المدرسة...

ـــ ولكن ، لماذا لا يأتي هو إلى بيروت ليراها ؟ «إن هذا سيغمرني بالمسرة» على ما كتبت . بالمسرة ؟ ترى هل هذه هي الكلمة المناسبة لوصف هذا الاضطراب في القلب ، وهذه الدموع ؟ أما الكلمات الأخرى ، فإنها لن تكتبها . فهذا «السرور» ببطاقات الدعوة المعـلّـقة بالمئات بما لها من صفة لا شخصية وملتبسة ، سيرى أبوها ما يحب أن يرى فيها .

وبعد بضعة أسابيع تعود إليها رسالتها من العراق ، ومعها كلمة من السفير . فقد استقال خيري بك من عمله ، وترك البلاد . ولم يمر باستامبول . وظل عنوانه مجهولاً .

وهدّها ما تلقته. فبعد أن نظرت إلى الحروف السوداء المكتوبة على الورق الأنيق، العاجي اللون، تقول: تأخرت أكثر مما يجب. فقد سافر، وظن أنها لا تريد أن تراه. ومن جديد أضاعته. ولكن هذه المرة لا تخطأ منه، بل تخطأ منها.

ولكنها لا تشتهي أن تبكي. بل إنها فقط تشعر بالبرد.

٤

في وسعنا، بكل هدوء، أن نلاحظ مرفأ بيروت، من شاطىء مينة الحصن، من فوق صخرة تنهض عمودياً من البحر.

وفي كل خميس، تأتي الباخرة بيير ــ لوتي من استامبول، وتفرغ حمولتها من الركاب. وبعد عدة ساعات، وعندما تكون قد امتلأت بالبضائع والمسافرين، تعود الباخرة البيضاء الكبيرة من جديد إلى العاصمة، وتحمل معها أحلام مراهقة تستند إلى الجانب الصخري، وتتبعها بنظراتها، بعنف، حتى تختفي عند حدود الأفق.

وفي البداية كانت سلمى تنزل إلى المرفأ. وهناك تختلط بالجمهور، وتترك الناس يزحمونها ويهدهدونها، وعيناها مغلقتان، محاولة أن تجد آثار أصوات بلدها، وروائحه. ثم إذا هي غمرت بذلك كله، عندئذ، وعندئذ فقط، كانت تسمح لنفسها بالنظر. ويبدو لها عندئذ أن هذه الوجوه التي رأتها تعرفها، وكانت تتفحصها بحماسة، واحداً بعد آخر، محاولة أن تلتقط في النظرات صوراً تحدثها عن مدينتها، وأن تجد في بسمة ما، ذلك الألق المتشوق، لغروبات الشمس، على القرن الذهبي. وكانت تمسك نفسها بعناء عن سؤال الناس: هل الأهل في استامبول سعداء؟ وأن تطلب قطعة من خبز السمسم، تجاوزت السلة، لتلحظ فيها حراة نبرة، أو وردة ذابلة.

وكان هؤلاء المسافرون، المزدانون بأوهامها، موضوع تأمل من قبل هذه المسكينة. وكانوا يتجاوزونها، مندهشين، ومستنكرين.

أما بعد ذلك ، فقد فضلت أن تلجأ إلى صحور هذا الشاطىء الحالي . وبعيداً عن الجمهور الذي يظل محتفظاً بسـرّه ، وعن هذا الشيطان ذي الجوانب الحسنة الاستقبال والهادئة ، تجد حلمها بصورة أفضل . وخلال أشهر وأشهر ، كانت تعود إليه ، فيما يشبه الحج . فهي لا نريد أن تنسى : بل ليس لها الحق في النسيان .

واستمر ذلك حتى فقدت بييرلوتي ، بالتدريج ، سحرها وأصبحت كغيرها من المراكب ، وأصبح لركابها دلك الوجه العادي المغتبط ، كالمسافرين الذين يفدون من أية نقطة في العالم . وخلال بضعة أسابيع ، سوف تبذل الجهد للقاء هذا الهيجان ، وهذا العذاب اللذين يطمئنانها ويصلانها بسلمى القديمة ، ولكن عبثاً . وبدأت تشعر بأنها حقاً قد فقدت الآن كل شيء عندما فقدت حزنها .

وبعد ذلك . وبعد زمن طويل من نسيانها طريق المرفأ ، بدأت سلمى تتساءل عما إذا كانت تمضي إلى هناك لتغذية عذابها ، أو لتقضي عليه ، ولتتحـرّر مه .

وما من إنسان عندها انتبه إلى هذه النزهـات الأسبوعيـة . وإن يوم الخميس عطلـة ، تـدّعـي سلمـى أنها تقضيها لدى أمـل . وكاست إحـدى الكالفـتين ترافقهـا إليها ، ولا تعـود لتأتي بها إلا في نهاية ما بعد الظهر .

وتعيش أمل في البيت الضخم ، في قلب الحي الدرزي ، وحيدة مع أخيها مروان الذي يكبرها بثلاث سنوات . وكانا طفلين عندما أطاحت بأمهما ذبحة صدرية . وبعد بضع سنين مات الأب ، عندما سقط من على ظهر الحصان . فجاءت عندئذ عمة لهما واستقرت في المنزل الكبير القائم في طريق مار الباس ، لتهتم وتعنى باليتيمين . ولما كانت شديدة التقيد بالتقاليد ، فلقد ربتهما على الطريقة القديمة . ففي المدرسة ما من أحد يعرف أحسن من أمل كيف ينحني للاحترام ، أو كيف تحمـرّ عندما يكلمها من هو أكبر منها . ولكن العمة كبيرة العمر ، وقيلولاتها التي تمتـدّ إلى بداية السهرة ، تترك لليتيمين بعض الحرية .

ولما كانت أمل وحيدة ، فإنها تفهم حاجة سلمى إلى أن تكون وحيدة أيضاً ، بلا رفيق . وما من مرة سألتها عن نزهاتها السـرّية . وكل ما تفعله هو أن تأخذ بيد رفيقتها عندما تعود وعيناها محمرتان ، والجفون منتفخة ، وبلا أية كلمة ، تقبلها .

ولما كانت أمل لا تسألها عن شيء ، فقد شعرت سلمى بالحاجة إلى أن تُـشركها في حياتها .

وغدت تحدثها عن أبيها الذي لم يمت ، على نحو ما أوحى به كلامها ، بل إنه منذ ترك العراق ، يظهر مرة كل بضعة أشهر ، ببطاقة يرسلها من الطرف الآخر للعالم .

ــ وكانت أولى بطاقاته قد جاءت من البرازيل ، والثانية من فنزويلا . والبارحة تلقيت واحدة من المكسيك . ولا أستطيع أن أجيبه عنها ، لأني لا أعرف عنوانه . وهو يعدني بأن يعطيني إياه ، عندما يستقر . أما الآن ، فإنه دائم التجوال ، بسبب أعماله . ويقول لي إن جنوب أمريكا قارة عجيبة ، يجمع فيها الجريئون ثروات ضخمة ، وأنه عما قريب ، سيطلبني لعنده ، وأنه يريد أن يقدم لي من جديد حياة كحياة الأميرات من قبل ... وهو لا يطلب مني أبداً ماذا أريد .

ولكن ما تريده ، هل تعرفه هي نفسها ؟ فكل شيء يبدو لها غير واقعي ، إلى درجة كبيرة ، كهذه الرسائل التي لا تنتظر جواباً ، وهذا الأب الذي لا يُمسَك به ، وهذه المشاريع العظيمة ، وهذه الوعود ...

ــ وأحياناً ، أحب لو أنه يمسك عني رسائله ، حتى لا آمل بشيء ، وأيأس باستمرار ... ولكن إذا هو لم يعد يكتب لي ، فأظن أن ...

وبصوت لا يكاد يُسمع ، أضافت قولها :

ــ أترين يا أمل ، إني أحبه ، وأعرف أنه قادر غداً على التخلي عني ... فأفاجىء نفسي عندما أجد أني أكرهه ، وأتمنى موته .

وبعنف ، أخذت رأسها بين يديها . وقالت :

ــ إنني لا أستطيع أن أحتمل انقطاع حبّه ! إذ لم أعد أعرف أين أنا منه ، ولم أعد أعرف بماذا أفكر !

وأحاط ساعد بكتفيها ، وأحسّت بشفتين غضتين على جبينها . وبقيتا طول ما بعد الظهر ، متعانقتين في الديوان العميق . ولم تقل أمل شيئاً ؛ ولكنها بالغريزة تعرف أن الكلمات لا تزيد على أن تفتّق الجروح ، وأن كل تشجيع ، أمام هذا الألم ، نوع من قلة الحياء ، وكل نصيحة تشبه الشتيمة . ذلك أن كل ما تكون صديقتها بحاجة إليه ، وما ستقدمه لها ، إنما هو حبها .

وعندما جاءت الكالفا ، في أول المساء ، تبحث عن الأميرة فإنها لم تلمح شيئاً . فسلمى مرتاحة ، هادئة . ذلك أن حنان أمل أعاد لها قوتها .

وتوقفت عربة أمام حديقة البيت. تُرى من جاء لزيارة السلطانة؟ ذلك أنها لم تعد تتلقى الكثير من الزيارات منذ أن ثبطت عزم السنوبية Snobisme لدى سيدات المجتمع البيروتي! وسلمى فخورة بأن أمّها رفضت الانزلاق إلى هذه اللعبة، ولكنها تتساءل أحياناً عما إذا كانت لن تدفع ثمن هذا غالياً. ذلك أنها تظل وحيدة.

وهذه السلطانة التي كان قصرُها أورطاكوي، يعجّ بالناس، والتي كانت تقسّم وقتها بين أعمال البر التي تقوم بها، وبين المناقشات السياسية، وبين مجالس الأسرة، وأصدقائها وصديقاتها، والتي كانت تشرف على جيشٍ من العبيد والخادمات وتقوم هي نفسها بحل مشكلة كلٍّ واحدٍ منهم على حدة، ها هي الآن ومنذ سنتين، محصورة في هذا البيت، وليس لها من صحبة غير هاتين الكالفاتين، وغير هذا الخصيّ... وحقاً فإن زينيل أكثر بكثير من خصيّ، إذ لقد أصبح المحاسب، وأمين السر، والمستشار في كل ما يهم الحياة اليومية؛ ولكن هل هو صديق، أو ممن يباح له بما في النفس؟ إن سلمى تعرف أمها، وتعرف أنها حتى إذا أصابها اليأس، فإنها لن تتساهل... تجاه الأدنى. وليست القضية قضية زهوٍ أو عجب ــ فالسلطانة تقدّر زينيل أكثر بكثير مما تقدّر أغلب أمراء الأسرة ــ ولكنها قضية منظومة من القيم، هي من الرسوخ، بحيث أنه ما من كارثة تستطيع هزّها أو زلزلتها: إذ لا يطلب العونُ من أولئك الذين يعتبرون بحكم التقاليد، ممن علينا أن نحميهم؛ فمع هؤلاء يمكن أن نتقاسم الأفراح، ولكننا لا نتقاسم المصائب والأتراح.

وفي قاعة الاستقبال يجلس شخصٌ مهيب، بشعرٍ كله أسود: إنه نائلة السلطانة بنت السلطان عبد الحميد. وكانت الأسرتان لا تتزاوران في استامبول. ولكن المنفى قرَّب بينهما. وما أقلّهم عدداً في بيروت! ذلك أن أكثر الأمراء والأميرات قد تبعوا الخليفة إلى نيس، حيث عاد للتكوّن، بلاطٌ صغير. وإلى هناك ذهب العم فؤاد ــ «إلى بلاد النساء الجميلات» على ما كان قد صرّح به، مغطياً شقاءه بالمزاح ــ والسلطانة الفراشة التي طالما حلمت بأن تعرف الشاطىء اللازوردي. وكثيراً ما كانت سلمى تفكّر بهذه الخالة، المرحة، الأنيقة، التي كانت تدفع بالذوق إلى الدرجة التي كانت معها تجعل فرش عربتها منسجماً مع لون أثوابها، يوم تحتاج إلى التنقل. ترى ماذا فعل الله بها؟ وهل هي سعيدةٌ في فرنسا؟ بل إن مراهقتنا لا تستطيع أن تتخيّل صورة حياتها هناك. أما فهيمة السلطانة فقلما تكتب عن أخبارها. وبالمقابل فإن فاطمة السلطانة، تكتب بانتظام. فلقد استقرت في صوفيا مع زوجها وأولادها الثلاثة، وأصبحت تعيش حياة هادئة، يضيئها وجود شيخٍ عظيم للدراويش، تزوره عدة مرات في الأسبوع، بصحبة رفيق بك. وتكتب عن ذلك فتقول: «إننا نتقدم على الطريق. وأفهم أكثر فأكثر أن ما عدا ذلك قليل الأهمية ...».

والباقي هنا ــ هو المنفى ، والعودة الممكنة ــ وهذا ما كانت تتحدّث عنه خديجة السلطانة وابنةُ عمها الأميرة نائلة . أما أخبار استامبول فسيئة . ذلك أن مصطفى كال أوقف أهم عارضيه ، بحجة اكتشاف مؤامرة ضدّه . وبعد أن حوكموا محاكمة تافهة ، صرّح خلالها القاضي « علي الأصلع » للصحفيين بأن المتهمين كانوا مذنبين حقاً ، نُصبت لهم المشانق ، وتم التنفيذ هذا الصباح ، في ٢٧ آب /أغسطس » ١٩٢٦ . وكانت إذاعة لندن هي التي أشاعت الخبر ، وأوضحت أن الوضع هادىء . أما محاكم الاستقلال ، فإنها تظل عاملة ، في المدن كافة .

وتعبّر السلطانة خديجة عن استيائها ، وتقول : وإذن فمن بين كل الأبطال الذين حاربوا من أجل استقلال تركيا ، لم يبق أحد ؟

ــ وعلى كل حال يبقى الوزير الأول عصمة اينونو . وقد أطلق عليه لقب « سوط الغازي » ، لأنه شديد القسوة على الذين ينحرفون عن الخط . أما أكثر الآخرين ، مثل رؤوف باشا ورحمي والدكتور عدنان وخالدة أديب ، فقد نفوا أنفسهم منذ عدة أشهر . وعندما حل كال الأحزاب رأى هؤلاء أنه لم يبق لهم ما يفعلونه ، وأنهم هم أنفسهم في خطر .

وتنهدت السلطانة . وقالت :

ــ مسكينة تركيا . وماذا أقول عندما أفكر بأن هذه الحكومة مضت إلى حد تغيير اسم الله وأن على الناس في المساجد أن يُصَلّو لِـ « تانري » بحجة أنه اسم أكثر تركية ! ... ولقد انتظرت مدة طويلة ردّ فعل الشعب على هذا ، ولكني ألاحظ الآن أنه مقيّد تماماً .

وهنا ضعف صوتها ، وتابعت تقول :

ــ وأصلَ من هنا إلى التساؤل ، عما إذا كنا حقاً سنعود يوماً ما لديارنا ... وبلادنا ...

وهذه هي المرة الأولى التي تعترف فيها السلطانة بشكوكها . فأخذ الاضطراب بسلمى كل مأخذ ، واقتربت ، فقبّلت يَدَ عمّتها ، وجلست على الوسادة إلى جانب أمها .

ــ أيندجيم ، من المؤكد أننا سنعود . ففي استامبول ، كل الناس مستاؤون ، كالطلاب ، والمثقفين ، ورجال الدين ، والتجار خاصة . وتذكّري ما كتبه ميمجيان آغا إلى ابن عمه : « إن السوق كلّها معادية للنظام الجديد ، وعندما تبدأ السوق بالتحرك ، فإن القادة يكونون في خطر » . سنكون عما قريب في تركيا ــ أيندجيم ــ وسترين .

وكانت المراهقة قد وضعت في نظراتها كل ما تستطيعه من القناعة : إذ يجب ألا تفقد أمها الأمل . فبدأت الأم تداعب بحنان ، شعر ابنتها الأحمر .

ــ إنك على حق يا بنيّتي . وقد تنتابني أحياناً نوبات اكتئاب ليس على الإنسان أن يُعيرها أي انتباه .

وتشعر سلمى بقلبها ينقبض : فإنها تقبل كلامها حتى لا تحزنها ، وكل منهما تمثّل على الأخرى . وفي الحقيقة فإنهما ، كلتيهما ، تعرفان . تعرفان ؟ وتعود فتنتصب ، استياءً ــ فماذا تعرفان ؟ لا شيء ! بل هما بكل بساطة في حال من يقبل الهزيمة . ولكن سلمى ، هي وحدها ، ترفض ! « إذ يجب أن نناضل ، على ما كانت تقوله قديماً أيندجيم . فكل شيء ممكن دائماً » .

ولما كانت قد أصبحت فريسة تهيج حاد ، فقد استوت واقفة . ذلك أنها تشعر بالحاجة الشديدة إلى أن تقاتل ، وفي داخل صدرها حرارة ، إن هي لم تعبّر عنها ، فإنها تختنق بها . ولكن ماذا لو التحقت بخالدة أديب ، ورؤوف باشا ؟ أو لو أنهم جميعاً حاولوا العودة إلى تركيا بهوية مزيّفة ؟ أو لو أنهم نظموا أنفسهم هم والألوف من المستائين ، وقادوا المعارضة للنظام ؟ كل هذا ممكن .

وظلّت سلمى تنشيء خططاً للمعركة ، حتى ساعة متأخرة من الليل . ذلك أنها جلست على مكتبها وبدأت تسوِّد الأوراق التي أمامها ، ورقة بعد ورقة ، لتكتب مذكراتها ! إنها تريد العودة إلى استامبول ، وتريد ذلك أكثر من أي شيء آخر ، وتأبى أن تستسلم !

ومن خلال النافذة المفتوحة كانت تصل إليها رائحة الياسمين المسكرة . فتشمها ملء رئتيها ، وتتنشق الليل الحار ، وتدع النسيم يداعبها ، وتمتلىء كلها بأصوات الجداجد . وها هو جسمها ينحل بالتدريج في الظلمة الزرقاء ، فكأنها في طريقها إلى أن تصبح واسعة واسعة ... وببطء ، ارتفعت إلى مجموعات النجوم ، ولعبت معها ، وأصبحت لعبة لها . ولم تعد إلا جزءاً لا يتجزأ من هذا الجمال .

ولم تستطع سلمى أن تنام هادئة مفعمة بالمسرة إلّا عند الفجر .

وتعيش سلمى الأيام التالية كما لو أنها في حلم . فتبدو لها المشاكل اليومية تافهة ، الآن وقد أصبحت « تعرف » ! ويندهش الناس من رؤيتها في الصف ، وفي البيت ، في مرح متصل ؛ فقد كانت تحزن لأبسط الملاحظات ، وأصبحت الآن كلها « تسامحاً » . وعلى أنها كانت ، في فقدان صبرها ، تُطيح ، بكل القواعد ، وتُمزّقها ، تبدو الآن كما لو أنها تملك الخلود بين يديها . وحتى أمل نفسها

لا تصل إلى حزر ما تخبىء هذه البسمة ذات الرقة غير المعهودة ؛ تماماً كما لو أن صديقتها **لم تعد** هناك .

وفي ذات صباح ، و من غير أن يحدث شيء ينبىء عما سيكون ، استيقظت سلمى **مرهقة ،** مثبّطة العزيمة . ونظرت إلى غرفتها ذات الأثاث العادي جداً ، وفكّرت : «إن الحقيقة ، هي هذا ! » . ودفعة واحدة ، استولى عليها اليأس ، وارتمت على وسادتها وبدأت شهقات البكاء . آه ، كم تكره لبنان . فنحن دوماً أمام هذا البحر الأزرق ، وهذه الشمس العنيدة ، وهذا المرج ! وكم تكره هؤلاء الناس الذين يستقبلونها في « بيوتهم » ، وكل هؤلاء الذين يستطيعون أن يقولوا : « جماعتنا ، بلدنا ، وطننا » من دون أي رغبة في البكاء . وكل هؤلاء الذين يخصّون الآخرين ... وأبداً لن تعود فتجد استامبول ، ولن تخصّ أحداً مطلقاً . ففي كل هذه الأيام ، كانت تكذب على نفسها . إذ لا يمكن أن نناضل إلا إذا كان لنا أرض نقف عليها ، ونحارب فيها وجهاً لوجه ، أرض لنقع فيها ، ومنها سننهض . ولكن عندما لا يكون هنالك ما يثير فيك أي صدى ، وعندما لا تستطيع يداك أن تلمس شيئاً هو لك حقاً ، وعندما يحكم على أقوالك بأن لا تكون أكثر من ضجيج ... فأنى لك أن تحارب ؟ وضد ماذا ، وضدّ من ؟

لقد هدهدت نفسها بالأوهام : والأحلام بالنسبة إلى المنفى ليست بمشاريع حقيقية ، ولكنها محاولات هروب . وقل الآن إن هذه هي التي كانت تظن أنها شجاعة ، وكانت تحتقر الذين يتلاءمون مع « الحقيقة الواقعة » . فهل تكون الشجاعة ، الحقيقية ، على ما يدّعون ، في القبول بالواقع ؟ إنها لم تعد تعرف ، ولم تعد تفهم ماذا تجدي الشجاعة ، ولماذا يجب أن تبتسم ، عندما نكون راغبين في البكاء . وكل ما تعرفه ، أنه حتى الحيوانات نفسها لها وكر ، أو منطقة ، أو حيّز حيوي ، وبدون ذلك تموت .

ـــ ولكن من الذي سرق البسمة من إبنة عمي الحلوة ؟

وكان قد وصل سمو الأمير أورهان ، حفيد السلطان عبد الحميد ، وهو يقود سيّارة من نوع دولاهي ، بيضاء رائعة . إنه يقوم بوظيفة التاكسي ، كما يقول . وهذه طريقة في أن يضع نفسه في خدمة كل الناس ، وبالتالي لا يخدم أي إنسان . كان قصيراً ونحيلاً ، ولكنه ذو قوة هركولية ، ومزاج حاد ، وهو لا يتردّد ، عندما يتخذ زبون ما لهجة لا تروقه ، لا يتردد في أخذه من عنقه ، ورميه خارج السيارة . وهكذا وجد بعضهم نفسه ملقى على الأرض ، دون أن يفهم ماذا كان يحدث له : وكان ذلك فقط لأن سموّه شعر بأنه شُتِم .

وسلمى تعشق هذا الرجل . فهو غريب ، لا يتقيد بالمواضعات ، على نقيض ابن عمه خيري الذي لا يرتدي منذ بلغ الثامنة عشرة من العمر ، إلّا بدلات قاتمة وياقات منشّاة ، حتى في عز الصيف . أما أورهان ، فإنه في العشرين من عمره ، ولا يتخذ موقف الجدّ من شيء . وهو يأبى الكلام عن تركيا ، ويسخر من مزاج ابنة عمه الصغيرة .

ــ إنه دمك السلافي ! فكل هؤلاء الجميلات الأوكرانيات والشركسيات ، اللواتي حلّى بها أجدادنا حريمهم ، نقلن إلينا حبة ! هيا ، ياأميرة ، استفيدي من حريتك . فأنت تعرفين أنك في استامبول تظلين سجينة . هيا أسرعي وجمّلي نفسك ، فأنا آخذك لأنزهك .

ويركبان ، ضاحكين ، في السيارة البيضاء ، تحت بصر السلطانة المتسامحة . فابنتها الصغيرة بحاجة إلى بعض التسلية ، ومع أورهان ، تكون تحت حراسة جيدة .

وأخذ الإثنان طريق دمشق ، الذي يصعد متثنّياً بين أشجار الجيكاراندا ذات الأزهار البنفسجية ، والعندم الهندي ، والعرعر . ولقد طلبت سلمى ، بأعذب صوت لها ، أن تسرع السيارة ، وأن تمضي بعيداً . وهي تعرف أن أورهان يُفضّل أن يقف في عالية . أي في المصيف الأنيق ، على بعدٍ يكاد أن يكون ٢٠ كم من بيروت . ولكنها تعرف أيضاً أنها متى ابتسمت له ، وجعلت أهداب عينيها الطويلة تخفق قليلاً ، فإنه لا يملك أن يرفض لها طلباً . وتنهدت لشعورها بالراحة ، وأنزلت زجاج السيارة وعرّضت وجهها للهواء ، وكانا كلما ارتفعا على الطريق ، ابترد الهواء ، وصفا الضياء وترك الصنوبر والسرو مكانهما لأشجار الخروب ، ذات الجذوع الملساء والأوراق الخضراء البرونزية ، الناعمة الملمس ، حتى ليكاد الإنسان أن يداعب جسده بها .

ولقد تجاوزا بحمدون . وانتصبت أمامهما سلسلة جبال لبنان ، الزرقاء بعض الشيء ، مما عليها من ضباب ، وتميّز فيها في بعض شعاعات الشمس ، قمة جبل صنين الملأى بالثلج .

وقفزت سلمى من العربة ، وبدأت تعدو على الطريق ، في وسط الحشائش العالية ، والغوييات الملأى « بالوزّال » ووجهها يتطلع إلى السماء ، وذراعاها مفتوحتان ، كما لو أنها تريد ضمّ كل هذا الأفق ، وامتصاصه ، وتملكه ، ثم تعدو وتعدو حتى ليقال ، إنها لا تريد أن تقف ، فتسمع من بعيد صوت أورهان ، يناديها ، ولكنها لا تلتفت إليه ، وتريد أن تبقى وحيدة مع هذه الطبيعة التي تردها إلى نفسها ، والأقرب إليها من أعز الصديقات ، هذه الطبيعة التي تستسلم لها دون الخوف من أنها ستتخلى عنها ، والتي تشعر من كل مسامها بأنها تدخل إليها ، وتهبها القوة ، والشدّة .

وارتمت بعنف على العشب، وهي تشم الآن رائحته الطيبة، ورأسها فيما يشبه الدوار، وتصعد إلى ساقيها وبطنها تلك الاهتزازات الحارة للأرض، وهي تشعر بأنها تنصهر فيها. إنها لم تعد سلمى، بل هي أكثر من ذلك، إنها هذا الغصين من العشب، وهذه الوريقات، وهذا الغصن الذي يتمطى لكي يبلغ السحاب، بل هي هذه الشجرة التي تمد جذورها حتى الأغوار العميقة والخفية لولادتها، وهي هدير النبع وماؤه الشفاف الذي ينطلق هارباً، فيبقى دوماً هناك. إنها مداعبة الشمس، ودوران الريح، وهي لم تعد سلمى، بل هي موجودة، فقط.

وعلى طريق العودة لا تنطق الفتاة بأية كلمة، وتحاول أن تحمي فرحها، كأنما هو لهب ضعيف تخاف أن يخبو. وظن أورهان أنها حزينة، فجدَّ يبحث عن طريقة لتسليتها. ويقص عليها مئة قصة لا تسمع منها شيئاً. ولعلها تؤثر أن يسكت. ولكن أنى لها أن تفهمه أن الصمت قد يكون أعز الرفاق، وأكثرهم حرارة وأعظمهم انتباهاً، وأوسعهم كرماً، وأنها في كلمة «الوحدة»[1] ترى «الشمس».

وفيما بعد، وعندما كانت سلمى تذكر هذه الفترة من مراهقتها، كانت تقول: إنها هذه الصلة الرحمية مع الطبيعة التي حمتها من اليأس، وردّتها إلى نفسها. ولولا هذه الانطلاقات في هذا العالم السحري، لما احتملت الانفصال عن كل ما كانت تحبه، ولما استطاعت، على الأرجح، أن تقاوم الاكتئاب اللاذع، الذي كان يهاجم شيئاً فشيئاً، منزل طريق رستم باشا.

وكانت السلطانة تنهار أكثر فأكثر في كل يوم. ثم إن إعادة انتخاب مصطفى كمال لرئاسة الجمهورية، مرة ثانية، في تشرين الثاني / نوفمبر» من عام ١٩٢٧، أصابتها بصدمة لن تبرأ منها. ومنذ الآن، رأت نفسها مرغمة على القول بأن الشعب التركي لن يحارب من أجل عودة الأسرة العثمانية. وتأثرت بذلك صحتها، وازدادت خطورتها. وجاء الطبيب فشخّص لديها مرضاً في القلب. وقالت له مبتسمة: «حقاً يا دكتور، إن القضية قضية مرض في القلب»، وتطميناً لزينيل وللكالفات، قبلت أن تتناول، كل يوم، جملة الحبّات والنقاط التي كانت زجاجاتها مصفوفة على طاولة نومها.

وكان ما يقلق سلمى أكثر من المرض، هو ذلك الانقياد أو المطاوعة اللامألوفة لديها: وهي تشعر جيداً أنها ليست نتيجة الأمل في الشفاء، بل نتيجة اللامبالاة العميقة بالحياة، كأنما هي

---

(١) كلمة الشمس بالفرنسية هي Soleil، وكلمة الوحدة التي تعني العزلة عن الناس هي Solétude، ومن هنا نشأ جناس خاص، لا يمكننا إنشاؤه في العربية.

استقالت منها. وكانت المراهقة تتألم من أجل أمها. وفي الوقت نفسه كانت تحقد عليها أنها لا تقاوم ما بها. وتلك التي كانوا يسمونها «جيها نجير» «غازية العالم» — وإلى هذه الدرجة كانت قوتها لا تنحني في الخصومة — ليس لها الحق في ترك الأمور على عواهنها، ولا الحق في التنكر لنفسها! ولا يجوز لها أن تكشف ضعفها للناس، كأي واحدة من البشر، بل يجب أن تستمر في البقاء «سلطانة». ولئن كان الوثن يبدأ بالتحطم، فإن العالم كله حولها ينهار.

واليوم، في ٣٠ حزيران / يونيو / ١٩٢٨، هو يوم انتهاء الدراسة في المدارس. وقد اجتمعت الطالبات اللواتي سيتركن المدرسة نهائياً في ساحة المدرسة، جماعات، جماعات صغيرة، مع الميرات (الأمهات). وكانت عيونهن تلمع من التأثر الناشيء عن ترك المدرسة، «ليدخلن أخيراً في العالم» كما تلمع كذلك من الهيجان. وكن يقلن: كنا هنا في حالة حسنة، محاطات، مدلّلات، وأحياناً مؤنّبات، ولكننا دوماً محميات. وكانت الراهبات طيبات، حتى أكثرهن قسوة. ومن المحزن أن نتركهن. فالعقوبات، والظلامات، والبكاء، كل هذا قد نُسي تماماً. ولن يحتفظن إلا بالحب لهن، وسيزرنهُنَ كثيراً، ويشكرن، ولا يعرفن ماذا عليهن أن يَقُلن. ويشعرن أنهن ناكرات للجميل، نوعاً ما، بسعادتهن بترك المدرسة. ولكن الأمهات يبدين تفهماً. وينظرن إلينا، وكلهن حنان، ويقلن إنهن فخورات بنا، وإننا منذ الآن فتيات مكتملات... وما من مرة خلال السنوات الماضية كلها، شعرنا بأنهن قريبات منا إلى هذا الحد.

ولكن ماذا يعني أن تكون الواحدة منا في السابعة عشرة من عمرها، وأن تبدأ الحياة؟

بعض الطالبات يتركن لبنان. فماري أنييس تعود إلى فرنسا، أما ماري لور، فتسافر إلى بينوس أيرس، حيث عيّن أبوها ملحقاً عسكرياً.

— بينوس أيرس؟

— أوليس هذا أمراً خارقاً للعادة. ويبدو أنها مدينة بيضاء كلها، ومرحة بجنون!

— بلى، هكذا يبدو...

ومن بينوس أيريس تلقت سلمى آخر رسالة لها من أبيها، منذ أكثر من سنة. وكان يخبرها فيها أنه اكتشف مدينة أحلامه، وأنه قرَّر أن يضع حداً لحياته المتشردة. وهو يبحث عن بيت جميل لأميرته الحلوة، وسيكتب لها متى استقر به الحال. ومنذ ذلك الحين لم تتلق شيئاً من أخباره. فهل كان مريضاً، أو أنه وقعت به كارثة؟ وقد أنشأت حول ذلك جملة فرضيات، تاهت بينها، حتى إنها

تساءلت عما إذا؟ ... كلا . إن هذا ليس بممكن! وإذن فكيف أعود فأجده؟ إنها لم تكن قادرة على طلب النصح من أمها، ولكن مع من غيرها أتكلم؟

وها إن ماري لور نسافر إلى هذه المدينة التي كانت سلمى تجول فيها، بالفكر: ويمكن أن تساعدها. ذلك أن الفتاتين منذ المجابهة، بوم القفزة ـــ المظلة، أصبحتا صديقتين، لا بصورة حميمة، كما هي الحال مع أمل ـــ فهما لم تتسارّا قط ـــ ولكنهما ارتبطتا بعاطفة حقيقية غنية بالاحترام، تماماً كرفاق السلاح، الذين يهتمون بالشجاعة والولاء، أكثر مما يهتمون بالرقة والحب.

وها هي سلمى التي تأخذ بيد ماري لور إلى زاوية من فناء المدرسة، عندما تنتهي من الكلام مع الأم أشيليه، مباشرة. وتنظر وهي بعيدة عنها قليلاً إلى هذا الوجه الأشقر ذي العينين الشاحبتين والجبين الأملس، والفم المتعالي، وتتخيلها كفارس شهم يجتاز المحيط ويعود إليها بأبيها.. وستشرح لها كل شيء.

ولكن ماذا تشرح لها؟ ... أن أباها تخلى عنها، وأنه في بينوس أيريس، وأنه لم يرسل قط عنوانه إليها؟ وأنه لم يعد يكتب قط؟ فتتجمد في عقلها الكلمات. بل إنها ترى منذ الآن عضّ ماري لور على شفتيها، عضة خفية تكاد لا تدرك، ولكن لا من الشفقة، كلا ـــ فهي لا تتوقع منها هذه الشتيمة ـــ ولكن بسبب من سوء الفهم لما يبدو أنه مناشدة لتقديم العون، وخيبة الأمل، تجاه هذا الضعف، وما يمكن أن يكون قلة خجل. فسلمى الخفية، والشجاعة التي كانت ماري لور تحترمها، وسلمى القاسية كالماس، التي كانت ترى نفسها فيها، هذه السلمى، أتكون إذن مجرَّد ضحية؟

ولن تقول سلمى شيئاً لماري لور، لا لمجرّد صون كرامتها، ولكن لأنها أدركت الآن ألّا فائدة من ذلك. فلماري لور قوة أولئك الذين لم يعرفوا الشقاء قط. وهي لا تتحمل الضعف.

وستتساءل سلمى فيما بعد، مرات كثيرة عما إذا كانت على حق عندما سكتت ولم تحدّث ماري لور بشيء. وعلى كل حال فإن ماري لور كانت حظها الأخير.

ولم تسمع بعد ذلك قط بأخبار أبيها.

وقليلة هي التسليات المتاحة في بيروت، عندما تكون الفتاة في سن السابعة عشرة، وتكون في الوقت نفسه أميرة وفقيرة. فبحرع (فقدان صبر) انتظرت سلمى نهاية المدرسة والاستخدام الدقيق للوقت، والثياب الموحّدة، وورقة العلامات، وبحماسة ما تخيّلت ماذا ستفعل أخيراً عندما

تصبح حرة وتبدأ الحياة، الحقيقية. والآن وهي أمام الأفق اللامتناهي للزمن، فإنها تبقى لتتذوقه، وهي شديدة الانتباه لجريانه الساكن، ولهذا الفراغ الغني بكل الممكنات. وتكتشف بدهشة أن التسْلية التي تفضلها، هي ألا تفعل شيئاً. أي ألا تفعل شيئاً، لكي تعيش أكثر، وتحيا الحياة في عريها الكامل، مجرَّدة من كل النشاطات التي تعرقلها، وتفكّرها، وتظل ماثلة كلياً لتموجات العالم، وتذوق الخلود في كل ثانية.

وكانت السلطانة، تراقب السلمى من المقعد الذي تقضي فيه، منذ الآن، أكبر قسم من أيامها... فيؤرقّها ما تراه من هذه اللامبالاة لدى هذه البنيّة التي كانت من قبل، ملأى بالحيوية. ترى هل ورثت، كأخيها، ذلك الطبع الكسول، المعروف لأبيها؟ وإنه ليكفيها من العناء أن تضطر، بحكم صفاء فكرها المألوف، أن يكون خيري، عاجزاً. فلا أقل من أن لا يخيب أملها بابنتها. ذلك أنها حمّلتها كل آمالها، ولا ينبغي لها أن تخيبها. وهكذا فإن السلطانة تلح على أن تجد سلمى ما يشغل وقتها.

ــ ينبغي عليك أن تجدّي في دراسة اللغة الإنكليزية والإيطالية، فلهجتك سيئة جداً. ولقد طلبت من ليلى هانم أن تعلّمك قُطباً أخرى للتطريز. أما الخط العربي، الذي كنتِ موهوبةً له، فألاحظ أنك أهملتِه... انظري يا سلمى: أنت جميلة، ذكية، وأنت أميرة. وهناك مستقبل لامعٌ ينتظرك، فيجب أن تتهيئي له. ولا يجوز أن تبقي بلا عمل.

ولو أن سلمى ملكت الجرأة، إذن لسدّت أذنيها، فهي لم تعد تحتمل هذه الجمل الدائمة: «يجب، ولا يجب». وهي تشعر أنهم يحاولون سرقة حياتها. وفي الأصل، عندما كانت صغيرة، وعندما كانت الآنسة روز تعيد عليها دروسها الفرنسية: «أنت، أنت toi tu es وهذا وذاك Ceci et Cela» كانت تسمع «أنت مقتولة Toi Tuée و Ceci et Cela»، فكأن المخاطب يعرّفك، ويَحدّك، ويُسمِّرك، وانتهى أمرك يا فراشتي الجميلة، وانتهت الحرية. أنت أنت، أنت مقتولة.

ولكن كيف تسيء أمها فهمها إلى هذا الحد. أو لم تكن شابة هي أيضاً؟

ومن حسن الحظ أن زيارات أمل وأخيها مروان كثيرة. فتسرّي عن سلمى بعض الشيء. وتعلق قلب السلطانة بهذين الشابين، من جراء ذلك: فهما مهذّبان بدرجة عالية! وفي مثل هذه المدينة الغريبة، لا تملك أن تتمنى صحبةً لابنتها أفضل من هذه وتراها تحبو مروان أكبر الثقة، ذلك أنه وهو في العشرين من عمره يكشف عن نضج ورجولة، لا تحتاج معها إلى مثل زينيل، كوصيف، عندما تذهب الأسرة إلى نزهة ما في المدينة. وهي تريد أن تخرج سلمى بعض

الشيء ، لأنها قلقة على ما يبدو من حساسيتها المفرطة ، وكثرة صمتها ، وميلها إلى الهروب من الواقع . ولطالما حاولت السلطانة خديجة أن لا تعترف بهذا ، ولكنها ، آخر الأمر ، مضطرة إلى التسليم بما في وضع ابنتها من شذوذ : ولا تذكرها هذه بزوجها خيري بك بقدر ما تذكرها بأبيها السلطان مراد ، عندما تراها تضيع على البيانو ساعات كاملة ، وعندما تشعر أنها تمرّ دورياً من أقصى الحماسة ، إلى أقصى اليأس . وتعترف السلطانة ، بشيء من عصة القلب ، بوجود هذا الخليط من القوة والضعف ، الذي إن لم يجد مجالاً ينساب فيه ، وقضية يتعلق بها ، فلربما اضطرب أمره ، وساء المصير ...

ولهذا فإنها لم تقف ضد حب سلمى للسينما ، وتعلقها بها . وتقول لنفسها إن خيال ابنتها سيجد ما يتغذى به في هذه القصص الرومانطيقية الجميلة ، أكثر مما يجد في الوحدة ، داخل بيت ، كل ما فيه يتحدّث لها عن الماضي . فهذا الفن السابع هو في سبيله إلى أن يأخذ مداه . وهناك شركة هوليودية كبيرة اسمها Warmer Bros ، نجحت نجاحاً ضخماً في إنتاجها فيلماً ناطقاً باسم مغني الجاز ، حيث تجد الممثلين يتكلمون !

وهكذا اعتادت سلمى وأمل ، أن تذهبا إلى السينما كل يوم جمعة في الساعة الثالثة ، في الحفلة المخصّصة للنساء. ويأتي مروان بسيارته إلشيرنار وووكر التي تحمل النسر المذهب الشهير ، فيوصلهما إلى السينما ، ثم يعود بهما عند نهاية الفيلم .

ولكن كثيراً ما تقع أخطاء فنية عند العرض ، وقد يحدث أن هاتين الفتاتين المرهقتين من انقطاع العرض ، تتركان السينما المظلمة وتذهبان فتتنزهان في ضياء الشمس .

وهذا الحي من المدينة ، الذي تجتمع فيه كل قاعات السينما ، هو بذاته مغامرة . وهو يبدأ من ساحة المدافع ، التي أصبح اسمها ساحة الشهداء ، منذ أن قام جمال باشا التركي بشنق أحد عشر معارضاً فيها ، عام ١٩١٥ . وهذا الحي هو أكثر الأحياء حركة ، وكثرة مارة ، في بيروت ، وهو مجمع المقاهي العربية ، حيث تجد رجالاً يضعون الطرابيش على رؤوسهم ، ويقضون ساعات طويلة في لعب الطاولة ، بكل رصانة ، ويدخنون النارجيلة ، ثم إنه المكان الذي تكثر فيه المطاعم والمقاهي الليلية ، أي هذه المحلات التي تتحدث عنها النساء المسلمات في رأس بيروت ، ويقلن إن النساء فيها يرقصن عاريات . وتأخذ سلمى بيد أمل : فمجرّد المشي بجانب هذه المحلات يعني أنك تذوّقْتَ الثمرة المحرّمة . وكان في ذهنهما أن الناس جميعاً ينظرون إليهما ، وتتخذان صورة اللامبالي وهما تقطعان الساحة ببطء ، باتجاه المطعم الفرنسي ، « وهو ملهى مرح جداً » على ما قال أورهان الذي زاره مرة . ويرتاد هذا المطعم أرقى الناس في المجتمع البيروتي . ومتى قُـدِّم العرض ، الذي تقوم به عادةً فرقة أجنبية

آتية من باريس ، يرقص الناس على الشرفة ، المواجهة للبحر ، حتى الخامسة أو السادسة صباحاً . وتلقي سلمى ، برغبة ، نظرة على الإعلان الذي يشير بحروف حمراء كبيرة إلى :

« الآنسة نيني روكامبول ، في رقصها الروكامبولي » أي الخيالي .

وتتنهد سلمى ، وتقول لنفسها :

ــ كم يجب آن يكون هذا الرقص مسلياً !

غير أنها لا تستطيع أبداً أن تمضي إلى مثل هذه المحلّات : ذلك أنه ليس من المناسب لفتاة ، وخاصة إذا كانت مسلمة ، أن تزورها .

وذات يوم عندما كانتا تتنزهان على هذه الصورة ، اتجهتا إلى السراي الصغير ، وهي بناية طويلة من الحجر الأصفر ، لها أبواب ونوافذ ذات أقواس . وهنا يقوم مقرّ الحكومة اللبنانية ، ولكن باستثناء بعض الشواويش (جمع شاويش) الذين يظلون في نعاس دائم ، فإن هذا المقرّ يظل شبه خال . ومن يريد أن يضيع وقته إذا كان من المعروف والمشهور أن كل ما يُقرّر ، إنما يقرّر في الهضبة المشرفة على المدينة ، في السراي الكبيرة ، التي تقوم فيها مكاتب المفوّض السامي ، هنري بونسو ؟

وعندما رأت مجموعة فرحة من العسكريين ، هاتين الفتاتين الجميلتين تتسكعان في الطريق ، بدأت بملاحقتهما . فاحمرتا خجلاً ، وحثتا الخطا ، متظاهرتين بأنهما لا تفهمان الثناء الخفيف الذي يسمعانه من أفرادها . ولم تستطيعا تضليل هؤلاء إلا في تلك الزحمة العجيبة التي تقوم عادة في طرق « سوق الفرنج » . وهذا هو الاسم الذي يطلق على سوق الأجانب ، وهي جنة الخضار والأزهار ، ولكنها في الوقت نفسه سوق لبيع كل البضائع التي تأتي من أوروبا ؛ ولهذا يكثر زوارها من نساء الطبقة البورجوازية اللبنانية ، اللواتي يأتين إليها ، لشراء حاجاتهن ، متبوعات بصبي يحمل سلة على ظهره ، لكن الفتيات يفضلن عليه سوق الصاغة : حيث يوجد صناع صغار ، لهم أيد خفيفة تخلط أصابعها خيوطاً ذهبية ، بأخرى فضّية . وهما تحبان أيضاً أن تتنزها بجانب سوق الطويلة ، حيث تسود طبقة الخياطين ، والحذّائين الأرمن ، الذين لا مثيل لهم في تقليد النماذج الباريسية ، وباعة « الكوريوس » الذين يعرضون عليك أنواعاً من الأشياء التافهة و « الأصلية ! » .

وبدأت الشمس تهبط . وهذه هي الساعة التي تخرج فيها النساء لقضاء حاجاتهن ، أو لمجرّد تنشّق رطوبة الهواء . ويرى الإنسان عندئذ بائع الماء المعطّر ، ماء الزهر ، أو ماء الورد ، وبائع

الدبابيس الصغير ، اللذين يعليان من شأن بضاعتهما ، وهكذا يصبح جو المدينة جوّ عيد ، في كل يوم ، والطقس لطيف .

وها هي سلمى ، بجانب أمل ، تضيع بين الجمهور ، وتتذوق حريتها . لقد نسيت استامبول .

إن عائله أمل ومروان من أقدم العائلات اللبنانية . وهي لا تزال تهيمن على جزء كبير من منطقة الشوف . وهكذا فإن اليتيمين يُستقبلان استقبالاً حاراً في ألمع الحلقات في بيروت . وبدأت (أمل) التي بلغت الثامنة عشرة تخرج ، وهي تود لو اصطحبت سلمى معها : فصديقتها جميلة جداً ... ويكفي أن يراها الناس حتى تنهال عليها الدعوات من كل مكان . ولكن أنّى لنا أن نقنع السلطانة أن أميرة عثمانية يمكنها من دون أن تنزل عن مستواها ، أن تتصل ببعض الأسر العريقة جداً ؟

وأتيحت الفرصة عندما دعت ليندا سرسق إلى حفلة شاي راقصة تقيمها في قصرها في الأشرفية . وقد ناقشت الفتاتان هذا الأمر بصورة مطوَّلة : فحفلة شاي راقصة ، فكرة جميلة ، أقل إثارة للنفور من حفلة راقصة فقط ، لا بد للسلطانة من أن ترفضها بالتأكيد . ثم إن ليندا سرسق هي شبه قريبة ، وعلى الأقل لأن مروان وأمل يسميانها « خالة » : ويمكن أن تعرض فكرة حفلة الشاي ، كما لو أنها اجتماع عائلي !

وعندما وصلت بطاقة الدعوة ، كانت أمل ، كما لو أن الأمر ، بالصدفة ، عند صديقتها ــ

وسألت السلطانة بلهجة الاحتقار :

ــ من عساهم أن يكونوا هؤلاء السرسق ؟ أيكونون تجاراً على ما أقدِّر ؟

وأجابت أمل بلطف :

ــ أوه ، كلا ، يا صاحبة السمو ، إنهم إحدى العائلات الكبيرة ويقومون بأعمال ضخمة في ...

وقطعت السلطانة كلام أمل بجفاف ، قائلة :

ــ إن هذا ما كنت أقوله . إنهم تجار .

ومن حسن الحظ أن السيدة غزاوي كانت موجودة هناك . وهذه لبنانية ولدت في استامبول ،

وتزوجت أحد كبار الموظفين . فشرحت للسلطانة أن « السرسق » هم أحسن من يوجد في لبنان !

ـــ وهم روم أورثوذكس ، بطبيعة الحال ، ولكنهم في مثل النعومة ، التي للسنيين . ففي أبهائهم لا نلتقي إلا بأفضل شخصيات المجتمع اللبناني . ولئن شاءت الأميرة سلمى أن تخرج إلى الناس ذات يوم ، فإنه لا يمكن أن يوجد مكان أفضل من قصر السراسقة . ولكن إذا كانت ، سموّك ، تبتغين إبقاءها في البيت ، فبطبيعة الحال ...

وكانت سلمى مستعدة لتقبيل السيدة غزاوي على دفاعها هذا ، ولكنها كانت مسرورة بتقليب صفحات إحدى المجلات ، وعليها سمة اللا مبالاة ، كأن الأمر لا يعنيها .

وتتـردّد السلطانة خديجة . فالسيدة غزاوي تعرف معرفة كاملة عالمها اللبناني الصغير ، واتضح أن نصائحها ثمينة ، دوماً : ولكن ملاحظتها الأخيرة هي التي هـزّت أركان السلطانة ، ذلك أنها تنسجم مع الهم الذي بدأ يسكنها منذ بعض الوقت ، ويمنعها أحياناً من النوم : ترى ماذا سيكون أمـرُ سلمى ؟

وعندما كانت في المدرسة ، مشغولة بدراساتها ، فإن هذا الأمر لم يكن مطروحاً . ولكن الآن ؟ الآن والمنفى يطول ، والعودة إلى تركيا تبدو مجـرَّد خيال ، فإذن ماذا سيكون أمرها بعد هذا ؟

يجب أن نجد لها زوجاً ، ومسلماً طبعاً ، وغنياً ، وأميراً على الأقل ، وهذه شروط ثلاثة يستحيل الجمع بينها في هذه البيروت ، حيث لا تطمح حتى العائلات السنية بزواج مع بنات الأسرة العثمانية . ولعل ذلك ممكن من جهة الأسرة الملكية المصرية ، أو من الإمارات الهندية ... ؟

وبانتظار ذلك ، فإن السيدة غزاوي على حق . فليس على سلمى أن تبقى قابعة في البيت . ويجب أن تتعلّـم منذ الآن الدخول في المجتمع . ولا تكفي المعرفة التي يمكن أن تنقلها السلطانة إليها ، لتقوم بهذا الدور ، بل إن على ابنتها أن تجابه الواقع . ففي قصر أورطاكوي الذي كان لوحده « بلاطاً » كانت سلمى تستطيع بصورة طبيعية أن تكسب تجربة العلاقات الإنسانية والصفاء الفكري ، الضروريين للأمراء . أما وحدتها في بيتها برأس بيروت ، ما بين زينيل والكالفاتين ، فماذا عساها أن تفهم من العالم الذي ستدعى يوماً ما إلى الحياة فيه ؟

وبكل نعومة ، تستدير السلطانة نحو أمل ، وتقول لها :

ـــ عودي في الغد ، يا بنيّـة . وسأعطيك جوابي .

والحقيقة أنها كانت قد اتخذت قرارها. فسلمى تذهب إلى دعوة ليندا سرسق. ولكن تبقى هنالك مشكلة صعبة: فماذا تلبس؟ إذ ما من مال متوفر لشراء الفستان المناسب. ولكنّ عليها، بين كل هؤلاء اللبنانيات المترعات بالحلي، واللواتي يلبسن أحسن ما تخترعه الخياطة الفرنسية، أن تحتفظ بمقامها! لكنّ لدى السيدة غزاوي رأياً في هذا الموضوع، وهي أمرأة ذات.....

ـــ لئن استطعت أن أسمح لنفسي، يا صاحبة السموّ، فإني أسأل لماذا لا تقوم ليلى هانم التي تملك أصابع الجنيات، بأخذ واحد من أثوابك القديمة، وتطوره لهذا الغرض؟ فهذه الثياب الفخمة المقصّبة لا بدّ أن يسوء حالها إن هي بقيت نائمة في الخزائن.

ويلاحظ الجمع أن هذه الفكرة رائعة الذكاء، فتقوم سلمى عندئذ باختيار فستان حريري لونه أزرق بحري، يبرز لون عينيها.

وخلال ذلك يصل سورين آغا. فيوضع في الصورة. إذ لقد أصبح الأرمني صديقاً للأسرة منذ أن أشار ذات يوم على الأميرة، وضد مصلحته هو، أن تشتري بثمن المجوهرات التي تبيعها له، أسهماً في الشركات، لكي تستفيد من أرباحها. ولقد وضع نفسه في خدمة زينيل في هذه القضية الحساسة. فكسب بإخلاصه ووفائه ثقة كل هذه الأسرة، وكل أفرادها.

وفي هذا اليوم، وفي الساعات التالية لما بعد الظهر، كان يبدو مشغولاً ومهموماً، يذرع البيت جيئة وذهاباً، وهو ينظر إلى الكالفاتين المشغولتين بإصلاح الثوب الحريري. وربما لاحظ الإنسان أنه يريد أن يقول شيئاً، ولكنه لا يجرؤ. وأخيراً غامر، محمرّ الوجه، بالقول:

ـــ عفوك يا سيدتي السلطانة، واغفري لي جرأتي، ولكن الأميرة سلمى جميلة. ويجب أن تكون الأجمل؛ فهل تقبل أن تختار بين الحلي التي أملكها ما ترى أنه الأفضل بالنسبة إليها. كل ما لدي هو بين يديها، في كل المناسبات التي تحتاج فيها إلى الحليّ، وسيكون ذلك شرفاً كبيراً لي!

وتأثرت السلطانة بهذا القول، وابتسمت للرجل القصير، ومدّت إليه يدها التي أمسك بها، متعثراً، وقبّلها بحماسة.

٥

الآنسة أمل الدروزي، والآنسة سلمى رؤوف، والسيد مروان الدروزي!

هكذا قـدّم المعلن القادمين الجدد، وألقى بنظرة حائرة على الفتاة التي تصحب الدروزي. إذ أنه لم يرها قط في «أربعاءات» ليندا سرسق، وليس ذلك مما يدهشه — فالقصر مضياف، وهو يستقبل كل أسبوع، أصدقاء جُـدداً — ولكنه، وهو الذي يمارس مهنته هذه منذ اثنتين وثلاثين سنة، ويفخر بأنه يحزر بالتأكيد هذه الحديثة النعمة، في ثياب الدوقة، أو الدوقة التي لبست ثياب فتيات «الفلهر»، أملاً بأن تبدو أصغر سناً، في هذه المرة يتردد: فهذه المخلوقة تعرف كيف تمشي، وهذا أمر لا شك فيه، بل إن لها في طلتها شيئاً من القوة التي تحمل الإنسان على أن يحزر الدم الأزرق في عروقها، ولكن هذا الثوب ذا الكشكشات الغريبة، يأتي مباشرة من يدي خياطة صغيرة في باب ادريس، ويتعارض تماماً مع عقد الياقوت الأزرق، الذي يبرهن على ذوق غير سليم لمن يأتي إلى هذه الحفلة بعد الظهر!

وكانت المضيفة قد أسرعت إلى القادمين الجدد

— أمل! مروان! أعزائي، ما أعظم فرحي بلقائكم! وصديقتكم الآنسة.... رؤوف. أهلاً وسهلاً بكم. ولما كنت قد جئت إلينا مع أعزائي الصغار هؤلاء، فأنت لدينا في منزلك. كانت أمهما أعز صديقة، لديّ، بل أختي...

وتنهّدت قليلاً ، ونـدت حركة من الشعر الأحمر الشهير ، الذي تنزلق بعض خصله من الوشاح اللامع (اللامي) الذي لا يقل شهرة . وليندا سرسق التي بلغت الأربعين من عمرها واحدة من أكثر نساء بيروت إغراءً ، لا بجمالها بالدرجة الأولى ، بل بروحها وما فيها من سحر وحب للحياة ، تقول ألسنة السوء إنه تضاعف منذ أن ترمّـلت في عمر الرابعة والعشرين . ولكن كل إنسان يعترف لها بقلبها الكبير ، ذلك أن صالونها هو أكثر الصالونات ارتياداً في المدينة .

ــ ولكن اعذروني ، إني أتركك ، فها هو غبطة البطريرك !

وتنطلق مهفهفة لكي تقبل الخاتم الذي يتألق في اليد المعطرة .

ويقول مروان :

ــ لقد أعجبتها ، وأصلاً ــ وأضاف هنا ضحكة صغيرة ــ فإنها تحب الأتراك .!

ولا تفهم سلمى تلك النظرة القاتلة التي رشقت بها أمل أخاها . ولكنها ستفهم ذلك فيما بعد ، عندما تكون هي نفسها قد انطلقت في المجتمع البيروتي ، ذلك أنها ستعْـلم أن ليندا المتوهجة كانت الصديقة الحميمة لجمال باشا ، الحاكم التركي المكلف بحفظ الأمن في لبنان أثناء الحرب .

وكان جمهور أنيق يزدحم في الأبهاء المتلاحقة المزيّـنـة بشجيرات الكاردينيا الزهرية الشاحبة ، وفي الأخير كان هنالك بهو عربي ثمين ، تغني فيه نافورة البحيرة الرخامية ، ألحان الماء ، وتنشىء منه واحة رطوبة ، ثم فتح الخدم المطلات البلورية التي تشرف على حديقة واسعة يَـصعد منها عطر أشجار البرتقال والياسمين العربي والميموزا .

وقاد مروان الفتاتين إلى الشرفة ، وهي مكان مثالي ليستمتع الإنسان ، دون أن يزعجه أحد ، برؤية هؤلاء الحاضرين بألوانهم الغريبة . وبدأ مرشد سلمى يعـرّفها بالحضور .

ــ فهذا السيد النشيط ، الذي يضع قرنفلة في مزررته ، هو نيقولا بطرس ، من عائلة من الروم الأورثوذكس أيضاً ، وهي تنافس عائلة سرسق في فخفخة الاستقبالات . وإلى جانبه الماركيزة جان دو فريج ، وهي نبالة بابوية ، تلقبها ألسنة السوء « بالماركيزة من عهد قريب » . وأبعـدُ منها ، هذا السيد القصير ، وهو هنري فرعون ، رئيس النادي الأدبي ، وهو لا يعطي انطباعاً هاماً ، ولكن لا تنخدعي بالظواهر ، فهو يملك أعظم مجموعة من الأشياء الفنية في لبنان كله ، وسوريا على أغلب الظن ! وهو يشتري قصوراً قديمة في دمشق وحلب ، ويفكك أخشابها ومداخنها ليضعها في أبهائه ــ

أما بيته، القريب من السراي ـــ الكبيرة فهو كهف حقيقي من كهوف علي بابا، وإذا دعي إنسان ما إليه، فإن ذلك شرف كبير له، لأن الرجل قلّما يدعو. وبالمقابل، فإن الإنسان يلقاه، كل خميس، في مكان سباق الخيل. وهو يملك اصطبلاً فيه مئتا حصان، يُحبّ أن يراقب تدريبها، من عرزال مفعم بالخضرة، يتذوق فيها جرعات صغيرة من القهوة برفقة بعض من أصدقائه. ويقال إن السياسة اللبنانية كلها تحاك في هذا العرزال.

وانظري! إن الأميرة شهاب قد وصلت. وهي تنتسب إلى أقدم أسرة أمراء في الجبل؛ وها هي الجميلة لوسي طراد، مصحوبة بجان تويني، هذا الكهل المتميز جداً؛ فقد كان سفيراً للأمبراطورية العثمانية، في عاصمة القيصر الروسي، وهو صديق شخصي لإدوار السابع. وهناك، على اليسار، ذلك الرجل ذو الشعر الأحمر؟ إنه نيقولا سرسق، وهو واحد من وجوه القوم الأصليين، وقد حرص الرسام فان دونجن على تصويره بيده. فإذا انتهينا من هذا، قلنا إنه دُبٌّ بعض الشيء ولكن ليس فيه ما يُخشى منه؛ فهو لا يحب الفتيات.

ويضحك الجميع، دون أن يلاحظوا أن رجلين كانا منذ بضع دقائق، يراقبانهم من الجهة الأخرى من الشرفة، مراقبة المهتم الحريص.

ـــ أقول لك إنها فرنسية! فانظر إلى هذه القامة المشيقة، والخصر النحيل، والبشرة البيضاء، إنها روعة حقيقية!

ـــ إنك لا تعرف من الأمر شيئاً يا أوكتاف! فهذه العيون الناعسة، وهذا الفم البض الشفتين، البريء والشهواني معاً، لا يمكن أن يكون إلا لواحدة شرقية.

ـــ حسناً، فلنتراهن، يا ألكسيس. ولكن لنتراهن، لا على أصل الفتاة، بل على أي منا يكسب مودتها.

ـــ لم أكن أتوقع أقل من ذلك من ضابط فرنسي، فأنت دائماً مستعد للهجوم، أليس كذلك؟ ولكن حذار. لقد لاحظت يدها، فهي غير ذات بعل. وأنا أحذّرك، فالفتيات عندنا... ومع ذلك، فقد يسرها أن تجد اهتماماً بها لدى اثنين من ألمع ممثلي الحلقة... إنك على حق، يا أوكتاف. هيا نجرّب حظنا!

وبكل سهولة ويسر، اقتربا.

ـــ وإذن، يا صديقي مروان!

وبصورة أليفة جداً ، ضربا على كتف الشاب ضربات خفيفة ، وانحنيا أمام أخته ، مع شيء من التردد أمام سلمى .

ــ الآنسة ؟

وتسرع أمل فتقول :

ــ الآنسة رؤوف . يا سلمى إني أقدم لك ابن العم الصغير لمضيفتنا . ألكسيس ، والكابيتين أوكتاف دو فير بزي Verpré .

ويبدأ الحديث ، بحيوية . وهذان العاددان الحدبان ينمتعان خب النكتة ، وجمال الخلقة ، وهذا الأخير لا يفسد فيهما شيئاً . وكانت نظراتهما المعجبه تجعل سلمى شديدة الخفة . ولنذكر الآن أنها كانت قد تردّدت في المجيء ، خجلاً وخوفاً من أن يصيبها الملل ! ويتناول الحديث كل شيء ولا شيء . وبصورة خفيّة يسأل ألكسيس سلمى :

ــ آه : أنت مستقرة إذن في بيروت . وأبوك ديبلوماسي فيها على الأرجح ؟ لا ؟ هل هو ... ميت ؟

ويتحد وضع المتألم .

ــ أرجو أن تعذريني . يجب أن تكون أمك متألمة من الوحدة ، وأنا واثق من أن أمي ستسعد بأن تدعوها إلى حفلة شاي . أفلا تخرج ؟ أم هي مريضة ؟ ما أكثر البؤس ! وهكذا فأنت زهرة حلوة وحيدة ...

ويَحمرّ وجه سلمى . فما من مرّةٍ كلمها رجل بهذه الصورة . والواقع أنها لم تسنح لها فرصة للكلام مع رجل ، غير إخوة صديقاتها ، اللواتي يعتبرنها كأخت . وبدأ قلبها يخفق بسرعة أكثر بقليل . ترى أهذا هو مايسمونه « المناغشة » أو الغزل Fleurt ؟

وهذه هي اللحظة التي يختارها مروان ، غير الشاعر بما يجري حوله ، ليتذكر بأنه لم يقدم احتراماته للخالة إميلي .

ــ انظري يا سلمى ، فهذه السيدة العجوز ، الموجودة في زاوية البهو ، والتي يتجمع حولها الناس ، إنما هي رئيسة جماعة السرسق . وهي تحب أن تقص على الحاضرين ، كيف أنها رقصت ،

وهي لا تزال فتاة، مع نابليون الثالث، أو كانت تراقصه! فإذا أنا وأمل لم نمض لتقبيلها، فستعتبر ذلك جريمة في حق جلالتها. وأنا أتركك الآن في حراسة جيدة. فاعذرينا لحظة.

ويبتسم الكسيس إذ يرى مروان يبتعد ويقول:

ـــ إن هذا المروان رجل لطيف حقاً.

وقالت سلمى:

ـــ بلى، دون أن تدرك الغمزة، مما أضحك أوكتاف كثيراً.

وغامر فقال أيضاً:

أولا ترين، يا آنسة، أن هذه الأمسية تتطاول قليلاً، بل ليس هناك من موسيقى جيدة. فهل تحبين الرقص.

وتردّ سلمى قائلة:

ـــ أحبه كثيراً، ولعلها تفضل أن تُـفـرَم قطعاً صغيرة من أن تعترف بأنها لم ترقص قط، إلا مع رفيقاتها في الصف.

ـــ وإذن فأنا أقترح عليك شيئاً أكثر إمتاعاً من هذا الاستقبال المزعج. سنقوم بتهيئة حفلة لديّ، مع بعض الأصدقاء، ونساء جميلات. ولديَّ آخر الاسطوانات التي ظهرت في باريس. وأنا أضمن لك أنك لن تمـلّـي لحظة واحدة.

وخجلت سلمى ولعنت غرورها، فما الذي أحوجها إلى القول بأنها كانت ترقص، وماذا يمكن أن تقول أمها إذا هي عرفت ذلك؟ لا. لا مجال لحضوره.

وتتلعثم قليلاً، وتقول:

ـــ لا أعرف ما إذا كان مروان وأمل...

فيغمز أوكتاف بعينه.

ـــ أوه! إنهم من (الدقة) القديمة، بل لسنا بحاجة إلى أن نقول هذا لهما. فسنقترح أن نصحبك في العودة، لأن بيتك على طريقنا، وتكون اللعبة قد تمت.

ويشعر الكسيس أنهما يسرعان أكثر مما يجب . ولكن الزمن يفرض ذلك ، إذ سيعود مروان بين لحظة أخرى . فيقـرِّر أن يضرب ضربته الكبرى .

ــ لا تقولي لي ، إنك لست واثقة منا ! ويقول هذا وعليه سمة من جرحت كرامته .

والحقيقة أنه غير منزعج ، من أن ترغمه على الإلحاح في الرجاء. فهو لا يحب الانتصارات السهلة . ولكن يجب كذلك ألا تكون متصنّعة . فلقد تعوَّد هو على معاشرة النساء ، وهذه الفتاة ، بما في عينيها وشفتيها ، إذا كانت ما زالت عذراء ، فإنها على كل حال ليست ببريئة ! ومن حسن الحظ أن الأم عاجزة ، وليس هنالك أب يطلب تقديم الحساب ، كما ليس هناك أدنى مخاطرة .

ــ هيا يا بنيتي الجميلة ، أفلهذه الدرجة لا نعجبك ؟

وتقدم أوكتاف دو فير بري فاقترب من الفتاة ، وبحركة طالما نجحت في الماضي يمـدّ ذراعه الملاطف حول خصرها .

وحالاً ، وبقفزة واحدة ، تخلصت سلمى من يده ، مرتجفة من الاستنكار وقالت له :

ــ اتركني ، يا هذا المقرف !

وإذن فقد كان هذا لطفهما ، وجميل تقربهما . فكيف لم أفهم ذلك من قبل ؟ ولكن كيف لها أن تقدّر أنهما يعتبرانها ... فتاة ... وتشعر بأنها لُـوِّثت ، وأُذلت ، ولديها رغبة في البكاء .

ــ أهذا أنت . إنه لغريب . وماذا تفعلين هنا يا أميرة ؟

وكان على الشرفة سيدة طويلة القوام تتقدم ، فتعرف سلمى بدهشة ، أنها عمتها ، نائلة السلطانة . فكيف حدث لها وهي القليلة الظهور جداً بين الناس ، أن توجـد لدى العائلـة « سرسق » ؟ وكانت الفتاة تجهل أن السلطانة ، عرفت العمة اميلي في استامبول ، وأنها أرادت تكريمها ــ والمرة الواحدة ليست بالعادة ــ بحضور هذه الأمسية . فطار صوابها ــ ولكن ماذا حزرت ؟ ــ فتقوم سلمى بتقديم احتراماتها العميقة ، وتقبل اليد الممدودة إليها ، بينما كان الشابان المبهوتان ، ينحنيان :

ــ صاحبة السمو .

فنظرت إليهما بعين مملوءة بالشك ، ثم قالت بلهجة جافة :

ـــ إني أحرمكما أيها السيدان ، من قريبتي . فقد مضى زمن طويل لم أرها خلاله .

وتأخذ سلمى بذراعيها ، وتستولي عليها بحكم السلطة .

ـــ هل أنت مجنونة ، يا صغيرتي ، ووحيدة في شرفة تكاد أن تكون غير مضاءة ، مع رجلين ليس لهما ـــ وهذا ما أستطيع أن أقوله لك ـــ أية سمعة حسنة ! ولئن كان شرفك رخيصاً عليك ، فإن شرف أسرتنا ، غال عليّ ! وستعدينني أن تتصرفي في المستقبل ، تصرفاً أرعى للكرامة . فإذا لم تفعلي ، فأنا مضطرة إلى إخبار أمك المسكينة ، ونصحها بأن تحبسك في غرفتك ، حتى يجدوا لك عريساً .

ـــ ولكن أخيراً يا سلمى ، لماذا تعرّضيننا لهذه المواقف الحرجة ؟ (قالت ذلك أمل في السيارة التي تعيدهم إلى البيت ، مستنكرة) ولماذا تصرّين على أن نُقدّمك باعتبارك الآنسة رؤوف . لقد كانت الخالة ليندا غاضبة . أما الكسيس ، فقد عاتبني معاتبة شديدة ، ولامني على أنني جعلته أضحوكة . وأخيراً ، وضّحي لي ، لماذا كنت تحرصين على أن لا تكوني معروفة ؟

ولكن سلمى ، المنكفئة على نفسها في زاوية من المقعد ، تنظر أمامها ، بعيون قاسية ، وكانت تؤثر الصمت . لكن أمل تلحّ ، فتقرّر أن تجيبها .

ـــ هل سمعت ، يا أمل ، بهرون الرشيد الذي كان خليفة بغداد في القرن الثامن؟ كان هذا الخليفة يحب التنكر كرجل عادي ، ويتنزه في عاصمته في الليل ، ليستمع إلى رأي الناس بحكومته . ولكنني أظن أنه كان يفعل هذا ، ليبحث عن نفسه بالدرجة الأولى . وكان يصادف أناساً آخرين لا تؤثر في علاقاتهم المصلحة ، ولا النفاق ، ولا الخوف . وكان ينشىء لنفسه أصدقاء يقدرون مزاياه ، وأعداء كانوا لا يتحرجون عندما يذكرون له عيوبه ، وكثيراً من اللا مبالين الذين لا يعيرونه اهتماماً لأنهم لم يكونوا يجدون فيه ما يحلو لأعينهم . وكان يتعلّم أن يعرف نفسه من خلال هؤلاء الناس الذين كانوا لا يعرفونه . وهكذا كان يجد المرآة التي طالما أُبيت عليه .

وفي هذا المساء ، تعلمتُ ، يا أمل ، الكثير ، أنا أيضاً .

وحبست سلمى نفسها في بيتها ، بعد هذه التجربة المؤلمة . وهي ناقمة على الأرض كلها ، أنها لا تحبها ، وهي في هذا تنخدع : فربما لم يكونوا يحبونها ، ولكنهم ، كما نرى ، يعبدونها . وسرعان ما شاع الخبر بوجود هذه الأميرة الشابة ذات العيون الزمردية الطويلة ، المتوحشة بقدر ما هي متعالية . وفي

كل يوم تأتيها بطاقات دعوة موجّـهة من أسماء عظيمة . وفي مثل هذا المجتمع الصغير ، حيث كل الناس يعرف بعضهم بعضاً حتى الفتيان ، فإن وجهاً جديداً هو تسلية عظيمة القيمة .

وكانت الفتاة قد أقسَمت ألا تقبل أية دعوة . ولكنها انتهت بعد بعض الوقت ، ومن طرف الشفاه ، بالقبول : فهي إنها قد بلغت الثامنة عشرة ، وقـرّرت أن تتمتع . وكانت خلال الأسابيع التي انزوت فيها في بيتها قد سنّـت أظافرها . ونراها في مذكراتها تكتب ــ كتكملة للاقتناع ــ إن زمن الطفولة قد انتهى .

ولكي تبرز هذا الانتقال إلى عالم الراشدين ، أخذت موعداً مع الحلاق ، بصورة خفية . وهناك أمرت بكثير من القوة خوفاً من أن تتراجع ، أمرت ذلك الرجل المتألم بأن يقص شعرها الكثيف قصاً قوياً ، « على طريقة الصبيان » تبعاً للموضة الجديدة السائدة في باريس . وبعدة ضربات من المقص ، ها هي الفتاة الرومانتيكية تتحول إلى محاربة ذات طاقية نحاسية ، أو لنقل خليطاً من سرعة العطب والتصلب ، مع هذا القليل من الغموض الذي تدعو إليه روح العصر ، والذي ييأس كل من يقول : إنه يحب « المرأة » .

وعندما عادت إلى البيت قوبلت بالكثير من الاستغراب المخلوط بالهلع . ولكنها لم تبال بلوم أمها ، ولا بنقد صديقاتها الغيورات من جرأتها ، وأقل من ذلك ، من خيبة أمل المعجبين بها . وهي لا تأسف على شيء . وبصورة لا شعورية ، كانت تستبعد الصورة الخرافية ، التي طالما كانت تُلهم الفنانين الذين رسموا العبدة الجميلة التي كان رجل قوي يجـرّها من شعرها الطويل .

والآن ، فإنها مستعدة لمجابهة العالم .

وخلال بضعة أشهر تنشيء سلمى لنفسها مكاناً تغبط عليه ، في المجتمع البيروتي العالي ، لا لأنها الأجمل بين كل هؤلاء النساء ــ فاللواتي يعرن منها ينقدن أنفها الطويل بعض الشيء وذقنها المثلثية الشكل ــ لكن الرجال لا ينظرون إلى هذه التفاصيل . وهم يجمعون على الاعتراف بسحر بسمتها ، الطفلية من جهة ، والمثيرة من جهة أخرى ، وبرقتها الساذجة بعض الشيء ، وعلى مقاربتها المتباعدة نوعاً ما والتي تتردد ما بين الخجل والغطرسة .

وانحازت سلمى إلى طرف اللعب بلقبها ؛ فهذه طريقتها هي ، التي لا تستطيع معها الردّ على الدعوات ، أو تسديد دينها لهؤلاء الأغبياء : أما أن يكون على مائدتهم صاحب أو صاحبة سمو ، فهذا ما يموتون عليه . ويحدث أحياناً أن تفكر بأن السلوك على هذه الصورة يهبط بقيمتها . ولكنها

تسرع وتطرد من عقلها هذه الأفكار المزعجة. وبعد كل حساب، أيمكن أن يكون لديها خيار آخر؟ وعندما تلاحظ أمل ملاحظتها هذه، قائلة، وهي مشغولة البال:

ــ كم تغيّرت يا سلمى، فهل أنت سعيدة؟

تردّ عليها سلمى بقسوة.

ذلك أن من الطبيعي أن تكون سعيدة. ففي كل يوم تختبر قوتها أكثر بقليل. وتعشق أن تغري وتغوي: وما من مرة ظنت أن عملها هذا يملؤها حبوراً إلى هذه الدرجة!

أما السلطانة التي كانت قد دفعتها إلى قبول الزيارات، فإنها بدأت الآن تقلق عليها، إذ أنها لا ترى، بين هذه الشبيبة المذهبة في بيروت أي زوج يمكن أن يناسبها. وما أكبرها فضيحة إن هي غامرت بحب مسيحي، أو شيء كيفما اتفق!

وتسأل الأم، عندما تقص عليها ابنتها أخبار بالاتها:

أحقاً، يا سلمى، لا تجدين بين هؤلاء الشباب شخصاً يناسبك؟ وتطمئنها سلمى، وهي تضحك.

ــ لا تخشي من شيء، أينديجيم، إن لديَّ قلباً من الصخر.

ولكنها لن تقول لها، بأنها أقسمت أنها لن تحب أبداً مخافة أن تتعذب. ذلك أن وراء قناع اللا مبالاة الذي تضعه الأميرة، تختفي المراهقة، ابنة الثالثة عشرة، والتي تخلى عنها الرجل الذي ملأ حياتها يوماً ما، والتي تبكي.

أما بين الجوار فالنقد قائم على السلطانة التي تترك كل هذه الحرية لابنتها. ذلك أن أسر البورجوازية الصغيرة، التي كان نساؤها ما زلن يغطين وجوههن بحجاب أسود، يرين أن تطور العادات بهذه السرعة، مع مجيء الفرنسيين، شيء يهدد فضيلة الفتيان، وتوازن العلاقات القديمة، وجملة المجتمع، في آخر الحساب.

ثم إن بعض النساء يقلن: إن هذه ليست المرة الأولى التي نرى فيها الأوروبيين يدفعون الشعوب التي يحكمونها، إلى الفساد، بغية إضعافها، والسيطرة عليها بسهولة أكبر. فإذا أجبناهن بأن الفرنسيين يعيشون هم أنفسهم بهذه الطريقة ولا يرغمون عليها أحداً، فإنهن يجبننا: بأن المثال، نوع من الإرغام الخفي، على العقول الفتية.

وهؤلاء النسوة يعتبن على السلطانة التي ينبغي لها، بحكم وضعها، على ما يقدّرن، أن تكون أول من يَعمل للمحافظة على التقاليد. وقالت إحداهن لزينيل: «إذا كان مرض السلطانة في قلبها، يمنعُها من مراقبة ابنتها، فلماذا لا تكلفك بذلك أنت؟»... ولو أنها انطلقت على سجيتها لأضافت القول: «وأخيراً، أمن أجل لا شيء، جعلوك خصياً؟».

وقد أجاب زينيل بجفاف:

ـــ إن السلطانة تعرف ما عليها أن تفعل، وأدار ظهره إلى هذه المتمادية في كلامها.

أما في الواقع، فإنه هو أيضاً يرى أن سلمى أصبحت شديدة الانطلاق. وبديهي أنها لا تخرج إلا محفوفة بخيري الذي يأخذ دوره كحام، أو وصي، مأخذ الجد، بأكثر مما يجب، أو بأخواتها وإخوتها الذين تبنّتهم العائلة، مثل أمل ومروان. فما من شيء إذن يمكن أن يحدث لها. وفي البداية كان هو الذي يرافقها إلى بعض حفلات الرقص التي تدعى إليها. وكان يبقى واقفاً على الباب، محزوماً باستامبوليته إلى جانب الخدم، ينظر إلى الأزواج يرقصون. ولكن سرعان ما فهم أن حضوره لا معنى له، عدا ما يجده فيه من مذلة ـــ وهو ليس بخادم. ذلك أن الفتيات كن يراقبن من قبل أمهاتهن، عن كثب، ويجلسن حول حلبة الرقص، ويتناقلن آخر الإشاعات، من غير أن تزوغ عيونهن لحظة واحدة عن ذريتهن الثمينة.

ولكن مبدأ هذه الأمسيات، هو الشيء الذي يستنكره زينيل؛ فهو لا يفهم ولا يقبل هذا الرقص الأجنبي، وهذا التماس الجسدي بين الرجال والنساء، بهذه العلنية. حتى إن دمه ليغلي من مجرّد فكرة أن بعض أيدي الذكور يمكن أن تنساب لتلف ساعد الأميرة، وخصرها. فهي من النقاء بحيث لا تدري ماذا يجول بخاطر كل هذه الذكور، تحت غطاء التربية السليمة. أما هو فيعرف.

وبديهي أنه يريد أن تكون سلمى هي الأجمل، والأكثر من يحتفل بها، ولكنه يريد أيضاً أن تكون الأشرف، والأكثر احتراماً. وعندما يرى هؤلاء الكبار يدورون حولها، فإنه في الوقت نفسه مسرور ومجروح. وهو يحب أن تحاط بالإعجاب، ولكنه لا يحتمل أن تُمَسّ بالسوء. وهو يراها، في عقله، مثل هذه التماثيل الصغيرة اللطيفة للعذراء مريم التي يضعها المسيحيون تحت غلاف زجاجي ويعبدونها. فابنته الصغيرة، ينبغي له أن يحميها، حتى ضد رغبتها. وسيتحدث إليها بذلك.

ومنذ الكلمات الأولى التي قالها الخصيّ، نظرت سلمى إليه، مندهشة. ولكن سرعان

ما غلب الاستنكار على الدهشة : فبأي حق يخاطبها بهذه الصورة . ذلك أنها لم تقبل أي ملاحظة ناقدة إلا من أمها . وأحياناً ـــ ولكن من زمن بعيد ـــ من أبيها . ولكن أتقبلها من زينيل . فمسؤولياته الجديدة ، وثقة السلطانة ، أضاعت له رشده وتجاوز كل الحدود ... فهو ينسى من هو ، ومن هي !

ولن تجيبه ، ولن تشرح له أن هذه الأوضاع الحرة ، إنما هي طريقة في الدفاع عن نفسها ، وإخفاء شدة حساسيتها . ولن تحط من قدرها بالدرجة التي تبرِّر له فيها سلوكها . وما دام قد أعطى نفسه الحق بالحكم عليها ، فقد جعلها هي تخرج من جلدها ، وتخالف مألوف عاداتها معه . وهي تحسّ بأن ما فعله هو نوع من الشتيمة ، وأكثر من ذلك إيلاماً أنها ترى أن في هذا نوعاً من قلة الوفاء من جانب خادم قديم ، يفترض فيه باستمرار أن يكرمها أكبر التكريم ، ويحيطها بأكبر الإعجاب ، ويمنحها أكبر الوفاء .

وبنوع من التحدي ، لبست معطفها ، ووضعت على رأسها غطاءه الأخضر ، وخرجت من البيت ، بعد أن أغلقت الباب بشدة .

ـــ ولكن ماذا يا آغا ؟

ذلك أن السلطانة سمعت من البهو الصغير الذي تقضي فيه بعد ظهرياتها ، وحيث كل شيء في هذا البيت هادىء ـــ سمعت ضجيجاً غير مألوف . غير أن السحنة الممتقعة التي رأتها على وجه زينيل جعلها تتوقع دراما ، أو مأساة . ولكن الخصيّ يتردد ، وعليها أن تأمره بالكلام .

وقصَّ زينيل ، دفعة واحدة ما يسمعه من نقد الجيران ، والهذر ، والتلويحات الخبيثة ، كما أشار إلى شكوكه هو : فهل من حق أميرة عثمانية أن تعيش حياة كحياة أية فتاة أخرى لا على التعيين ، في المجتمع اللبناني . أولا ينبغي أن تحتفظ بشيء من البعد ، وترفض الاختلاط بهذا العالم الذي لا تنتسب إليه ؟ فما من إنسانٍ من هؤلاء الشبان كان يطمع في شرف النظر إليها أو لمحها . وهذا ، على ما يعترف به ، يثيره أكبر الإثارة ، ويستنكره أعظم الاستنكار .

وكان يتوقع أن يُحبَّذ رأيه ، أو أن يُفهم ، في أقل الدرجات ، من قبل السلطانة . وعندما يكون الإنسان فقيراً ، أفيبقى له شيء آخر غير كرامته ؟ ولم يتوقع تلك النظرة الغاضبة ، واللهجة الجارحة ، من ناحيتها قط ، عندما قالت له :

ـــ إنك لا تفهم من هذا شيئاً . أما الجارات فلا تهمني أقوالهن في شيء ، ولم أكن أتخيّل ، وأعترف بذلك ، أنك تُعيرهُن أذناً صاغية إلى هذا الحدّ .

واكتأب رينيل، أكبر الاكتئاب. ولكن السلطانة عادت حالاً لتصبح رقيقة معه!

ـــ يا زينيل المسكين، لقد كنت، مع ذلك، معي في قصر تشيريغان، حيث كنت سجينة. أفلا تتذكر كم كنت تعيسة، إلى درجة الموت؟ وعندما يكون الإنسان، مثلي، قد قضى شبابه حبيساً، فإنه يقدِّر قيمة الحرية. وفي قصر أورطاكوي، كنت حرة، ولكنني لم أخرج أبداً وأريد أن تشعر سلمى بحريتها. ويجب أن تفهم أن حرية بيروت غير حرية استامبول. وعندما تستمتع ابنتي بالحياة، ومن غير أن تتجاوز بعض الحدود ـــ وثقتي بها كبيرة هنا ـــ فأنا سعيدة بهذه المتعة.

لكن خديجة لا تشير إلى المبرِّر الآخر، لتسامحها، وهو على صلة بمرضها. وهي تعلم أنها قد تعيش عشرين سنة، ولكنها قد تصاب بأزمة مفاجئة، تودي بها، بين يوم وآخر. فإذا بقيت ابنتها بريئة، ساذجة، ككل هؤلاء الفتيات المحميات أكثر مما ينبغي، وإذا كانت لا تعرف من هذا العالم شيئاً، فماذا يحدث عندئذ؟ وهكذا فإن المآسي التي مرّت بها منذ الطفولة، وطلاقها، وانهيار الأمبراطورية، والدمار، والنفي، كل هذا أزاح عن السلطانة كثيراً من الأفكار المسبقة. ولا يسوءها أن تتعرض سلمى للتجارب، ويشتد عودها: فإذا جاء يوم وجدت نفسها فيه وحدها، فيجب أن تعرف كيف تجابه الحياة.

٦

فيلاديتين تيدريك إيديريم ! ليكن مباركاً يوم ولادتك ! ولتزهر زمناً طويلاً ورود خـدّيك ، ولتملأ روائح الجنة أنفك ، ولتكن حياتك كلها عسلاً ولبناً !

واجتمعت الأسرة في الصالة التي قامت الكالفاتان بتزيينها بطاقات الخبيزة والداتورا ، لكي تحتفل بالعيد العشرين لولادة سلمى . وكانت الهدايا المقـدَّمة قد صُـفّـت على الطاولة المصنوعة من الخشب المذهّـب ، وأحاطوها ، بعناية ، بالورق البلوري . فقد جاءها من نيرفين وليلى خانم مناديل لطيفة من الباتيستا ، طرزتاها بأرقام سلمى ، وفوقها تاج ، ومن زينيل زجاجة من « الكريب دوشين » من صناعة مييو ، وهي الرائحة التي تفضلها لدى العزيز زينيل . والذي احتاج إلى أن يحرم نفسه من السجائر خلال أسابيع لكي يستطيع شراءها لها . أما خيري ، العملي دوماً ، فقد قدم لأخته علبة من الفواكه المجففة التي يمكن لأهل البيت جميعاً أن يستفيدوا منها . أما السلطانة ... فقد هيأت مانطو من الزيبلين ، وهو روعة تتذكر سلمى أنها رأته على أمها في الماضي ، عندما كانت تذهب إلى « ضولمة باهتشه » ، ووضعته على الفوتوي .

ـــ ولكن يا أيندجيم ، لماذا ؟ (قالت سلمى ذلك محتجة) .

ـــ لم أعد أستعمله يا غالية ، وأكون سعيدة إذا لبسته أنت ، ولطالما حسبت أن من الشتيمة لمثل هذا الفرو الجميل أن نقـدّم له وجهاً ، ممتلئاً بالتجاعيد ، وبالمقابل فإنه متى مسّ بشرة غضة ، عاش من جديد .

وأشعلت نيرفين هانم الشمعات العشرين الموضوعة على قالب الكاتو الكبير، بالشوكولا. وكانت قد نهضت من نومها في الصباح الباكر لكي تهيئه وتصنعه. فهي تعرف كم أن أميرتها شرهة: وما دام هذا عيد ميلادها، فلن تقـدّم لها كاتو اليوم السابق.

وتتأمل سلمى، حالمة تلك «الشُـعَـل» التي تتراقص، وقليلاً فقليلاً تراها تتحول، وتكبر، وتتكاثر. وهي الآن مئات ومئات تتألق تحت ثريات الكريستال في قصر أورطاكوي. وكانوا في أعياد ميلادها، في عهد الطفولة يشعلونها كلّـها، على شرفها. وتعود تفاصيل هذه الحفلات الفخمة كلها إليها الآن، واحداً بعد آخر. وكانت الأوركسترا النسوية التي توقظها على نغمات الموسيقى، بينما كانت الإماء تعنى بها لجعلها أجمل ما يمكن، تستمر في عزف الأنغام التي كانت تحبّـها، ثم يأتي دور الكالفات الصغيرات، الاثنتا عشرة، وقد لبسن ثياباً جديدة قدمتها لهن السلطانة، فيأتين ويواكبنها إلى بهو المرايا، حيث كان أبواها ينتظرانها، هما وكل من كان من الحرملك. وعندما كانت سلمى تدخل، كانت الأوركسترا تبدأ بعزف لحن عيد الميلاد ــ وكانوا في كل عام يؤلفون لحناً جديداً ــ وكانت الكالفات ترمي فوقها آلافاً من زهرات الياسمين الصغيرة التي كانت تعـطّـر الغرفة كلها.

وعندئذ يبدأ توزيع الهدايا التي تكون سلمى قد اختارتها مع أمها السلطانة، لكل واحدة من إماء القصر ونسائه. ذلك أنهم، في المشرق، يعرفون، أن في العطاء من السعادة أكثر من تلك التي توجد في الأخذ، وأن عيد الميلاد يجب أن يكون يوم عيد بالنسبة لكل من يحيط بنا. وأخيراً وعندما تكون مظاهر الفرح، وتوزيع الهدايا، قد انتهت، كانت تأتي أمتان وتسحبان البساط الحريري، الذي كان يخفي في جوفه جبلاً من الحزم، من أشكال وألوان متنوعة.

وكانت سلمى تحتاج إلى ساعتين أو ثلاث لتفتح هذه الحزم، وتنظر في محتوياتها، وكان فيها تلك الهدايا الصغيرة التي تقدمها الكالفات، والحشم، وحتى الإماء الصغيرات. وكان هنالك أيضاً «تلك الحزم ــ الكاذبة» حزم خيري، والهدايا الرائعة التي تقدمها السلطانة ورؤوف بك. وكثيراً ما تتذكر سلمى، بشكل خاص، عيدها الثالث عشر، أو الأخير، قبل النفي. ذلك أن أباها استقدم من باريس، من عند بائع الحلي المشهور كارتييه ساعة صغيرة عجيبة، لم تستطع البنـيّـة أن تفهمها لأول وهلة. وكان الإطار الكريستالي محاطاً بلآلىء وماسات؛ وكانت عقارب الساعة من الماس أيضاً؛ وكان الرقّاص المصنوع من الذهب، والمعلق بين عمودين صغيرين من الكوارتز الزهري، ينعكس في قاعدة من الكريستال الصخري.

وعندما تركت سلمى استامبول، أعطت وقلبها يخزها، أعطت هذه الساعة لغوليفيليس: ذلك أنها كانت لا تريد أن تحتفظ من أبٍ لم يعد يحبّـها بأي شيء. ولكن كم تأسف هي اليوم على هذه الحلية الناعمة التي كانت تحـدّثها عن رقة ذاك الذي لا تستطيع نسيانه. ترى ماذا كان سيقدم لها، وهي في عيد ميلادها العشرين؟

ومن خلال الشعل التي تترنّـح، كانت سلمى ترى نفسها لابسة ثوباً طويلاً له ذيل، وعلى جبينها تاج. كما ترى باقات وأزهاراً نارية، تلهب حديقة قصرها، قصر الدانتيل، وأوركسترات متوارية في الغوييات، تعزف فالسات رومانتيكية. أما هي فإنها تمشي والوجه معـرَّض لنسائم البوسفور، وحولها نساء يلبسن قفطانات مطرزة بالذهب، يهرولن ويضحكن من سعادتها...

وبدأ الشمع يسيل على قطعة الكاتو الشوكولاتية. وبنفخة واحدة قوية، أطفأت سلمى الشموع، وصـفّـقت الكالفات. وهذا يعني، على ما يتنبآن به، أن الأميرة ستتزوج خلال السنة.

أتتزوج إذن؟ ولكن ممن؟ إن سلمى تعرف أن أمها عادت إلى مراسلة بعض أسر الأمراء، الذين كانوا، في الماضي، من أتباع الأمبراطورية، وحزرت الآن أنها كانت موضوع هذه الرسائل، ولكنها تتظاهر بأنها لا تُعنى بهذا الأمر. وعدا ذلك فإنها تجد نفسها أصغر مما يجب للزواج، وبدأت تتذوق لذة المغازلة والمحاوطة. ولا ترغب في وضع حـدٍّ لها، بهذه السرعة!

ومع ذلك فإنه عندما تزوج الأمير أومبرتو الإيطالي، من الأميرة ماري ـــ جوزي، البلجيكية، منذ عدة أشهر، وواكبها ستة ملوك وستون أميرة حتى المذبح، لم يسع سلمى أن تمنع نفسها من الرغبة في مثل ذلك، ولكنها لن تتزوج أبداً زواجاً عظيماً كهذا، على حين أنها في نفس الدرجة من النبل، وأكثر جمالاً بكثير من هذه الماري ـــ جوزي! غير أنها لن تحمل في سـلّـة عرسها شيئاً آخر غيرها هي...

وفي ربيع العام ١٩٣١، كان الإضراب والمظاهـرات تشل مدينـة بيروت. وكان الشارع يصطدم بقوى الشرطة، بحجج واهية أحياناً، مثل الحصول على مقاعد أرخص سعراً للطلاب في السينما. وكان هنالك إضراب عن الحافلات والكهرباء، نـظّـمته لجنة من التجار، والطلاب، والوجهاء، وقيل إنه سيتتابع حتى نهاية شهر حزيران / يونيو /. وعلى سبيل التضامن، فإن البرلمان نفسه يعقد بعض الجلسات على ضوء الشموع. وهكذا فإن الحكومة التي سماها المفوض السامي الفرنسي ستضطر إلى أن تطلب من الشركة صاحبة الامتياز خفض أسعارها. وهي شركة أجنبية، فرنسية ـــ بلجيكية، كأكثر الشركات التي تشرف على الحياة الاقتصادية في لبنان منذ بدأ عهد

الانتداب . وهذه الشركات الأجنبية هي التي كان اللبنانيون آنئذ يضعونها موضع الاتهام ، ويرون أن فرنسا ليست موجودة على أرضهم إلا لفرض الضرائب الثقيلة ، تغذية لجيش من الموظفين العجزة ، وتصدير ما لديها من تضخم عن طريق ربط الليرة اللبنانية بعملتها هي ، أي الفرنك . كما يتهمونها بأنها لم تحترم الدستور الذي أصدرته هي عام ١٩٢٦ ، ومنحته للبلاد . وحقاً فإن المفوّض السامي هنري بونسو الذي حَلَّ محل هنري دو جوفنيل ، ألغى مجلس الشيوخ ، وعزّز السلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية ، وفرض إعادة انتخاب تابعه شارل دباس ، لرئاسة الجمهورية .

ومروان الذي يدرس الحقوق في الجامعة الأمريكية ، يعود إلى البيت كل يوم ، وهو ثائر . وحتى أصدقاؤه المارونيون ، بدأوا يثورون على الوصاية التي فرضتها فرنسا على إدارة شؤونهم . ونراه يتحدث ، بصوت منخفض ، إلى أخته وإلى سلمى عن شخص اسمه أنطون سعادة ، وهو مسيحي لبناني في الثلاثين من عمره ، عاش ما بين البرازيل وألمانيا ، وعاد أخيراً إلى بيروت . وأسس في الجامعة جمعية سرية يجتمع فيها الشبان من كل الأديان : وهم يريدون التحرّر من الفرنسيين وإعادة خلق الأمة السورية الكبيرة التي تضم ، فيما يقولون ، لبنان وفلسطين : إنها سورية الموحّدة ، التي ستنشّط العالم العربي وتقاوم كل تدخل أجنبي .

أما المطالبة بالاستقلال ، ومشكلة الاحتلال حتى ولو أطلق عليه اسم الانتداب ، فإن سلمى عاشت مثل ذلك كله في تركيا ، وتألمت منه بدرجة كافية ، لكي تفهم نفاد صبر أصدقائها . فقد أصبح كل واحد منهم يهوى السياسة . وفي السنة القادمة عندما يحل موعد الانتخاب ، فلربما هوى كل شيء قائم الآن .

لكن أكثر المرشحين لرئاسة الجمهورية هم من الموارنة . ومن أبرزهم ، إميل إدّة ، وهو رجل قصير القامة في السابعة والأربعين من عمره ، ومعروف بسلامته الخلقية وعواطفه المنحازة إلى فرنسا ، وبشارة الخوري ، وهو محام لامع ، أكثر انفتاحاً على العالم العربي ، وأشد نقداً لنظام الانتداب . ويقف ضد هؤلاء جميعاً رجل مسلم هو الشيخ محمد الجسر ، رئيس البرلمان . وهو رجل وسيم ذو لحية بيضاء ، محترم بين أنداده المسلمين والمسيحيين على السواء . وكان نائباً في العهد العثماني ، ونائب حاكم بيروت . وأثناء الحرب قام بخدمات كبيرة للطائفة المارونية ، وأنقذ بطريركها من النفي . وهكذا فإنه مدعوم لا من قبل الشيعة والسنة والدروز فحسب ، بل كذلك من الكثيرين من الروم الأورثوذكس ومن الموارنة . ولما كان المسيحيون منقسمين على أنفسهم ، فإن حظه من النجاح يصبح كبيراً .

ولكن أيُقبل مسلمٌ على رأس الحكم في لبنان؟ ويرى كثيرون من المسيحيين اللبنانيين ،

وفرنسا التي فـصّـلت لهم بلداً على قياسهم بُغية أن يكون لها في الشرق الأوسط حليف موثوق، أن هذا غير معقول، إذ يوشك أن يرمي لبنان في فلك سورية والعرب!

وكانت المشكلة عويصة جداً بحيث احتاج المفـوّض السامي، بعد أن رأى مجلس النواب منحازاً إلى الجسر، ورأى السيد ريمون إدّة يدعمه، لأسباب تتعلق بالاستراتيجية الانتخابية، إلى تعليق الدستور قبل ثلاثة أيام من موعد الانتخابات. وسيبقى على شارل دبّاس الذي يحكم بقرارات، لها قوة القوانين، وموضوعة سلفاً في السراي الكبيرة، رئيساً للبنان لمدة عشرين شهراً.

ولكن الناس، في صيف هذا العام ١٩٣١، لا يتوقعون قيام المفـوّض السامي بحركة كهذه. بل على العكس أصبحت سلطات الانتداب المتجاوزة للحدود المعقولة، موضع بحث في الدوائر العليا، ولا سيما بعد أن نجحت الإضرابات.

وتقضي سلمى ساعات في النقاش مع مروان وأمل. ونراها تستاء أشد الاستياء من موقف الفرنسيين، وملأى بالحماسة للشيخ الجسر، وهو صديق السلطانة يساعدها بأكثر ما يستطيع منذ أن جاءت منفية: وهي لم تنس قط تلك الليلة التي قضاها في قصر ضولمة باهتشه، عندما كانت لا تزال في عمر الرابعة. وكان يصحب أباها إلى الدعوة الموجهة إليه من قبل السلطان عبد الحميد. وتقف سلمى بين أنصار الشيخ الجسر المتحمسين جداً. وظلت تفعل ذلك حتى جاء ابن عمها أورهان مع خيري، إلى شارع مار الياس، وأنّباها بعنف على ما تفعل.

ـــ إن هذا كله أمر لا علاقة له بك، أيتها الأميرة. وليس عليك أن تدخلي فيه.

وعلى الطريق، أمعن أورهان في تأنيبها، لمدة طويلة.

ـــ سلمى، أأضـعْـتِ صوابك. أتريدين أن يطردونا جميعاً مرة جديدة؟ وإلى أين نذهب؟ أرجوك أن لا تكثري من الكلام، وتذكري أننا لسنا في بلادنا.

ترى أكان يمكن أن تنسى ذلك. ولكن عليها أن تعترف أن أورهان على حق. ذلك أن أفراد الأسرة العثمانية ما يزالون يُـنظر إليهم وكأنهم السادة القدماء. فلا يمكن أن يسمحوا لأنفسهـم بالتحـيّـز لأية جهة. «وحتى بين الأصدقاء ينبغي أن تظلي على الحياد، إذ ما من شيء يبقى خافياً على الناس».

وتعرف سلمى أن هذا هو الموقف المعقول، ولكنها ترى صعوبة في قبوله. فلقد ورثت من أمها

السلطانة، ومن كل أسرتها، ذلك الهوى الذي يحملها على الاهتمام بالسياسة، والحاجة إلى النضال من أجل قضية كبيرة. وكان هذا الهوى معروفاً لديها، منذ كانت في التاسعة من عمرها في ساحة السلطان أحمد، مع الجمهور الباكي، فقد عقدت النية عند ذلك على العمل لإنقاذ تركيا. ولكنها لم تعد تعرف ماذا تفعل بهذا الهوى، الآن، عندما لم يبق لها وطن، وعندما أصبحت مجرّد ضيفة.

لم يبق لها إذن إلا العلاقات الاجتماعية، والدعوات التي تتلقاها على العشاء، والبالات حيث يروقها أن تلمع. أما السينما فللنهار. ذلك أنها تكره أن تلعب بالورق أو تلقى صديقاتها لتناول الشاي وتبادل الحديث في إشاعات كل يوم. وليس لديها ما يكفي من المال لكي تقضي وقتها لدى الخياطة، أو لدى الحلاق. ولولا جلسات الريالتو والماجستيك، بعد الظهر، لكانت الأيام طويلة جداً.

ومنذ عشر سنوات، فرضت هوليود نفسها كعاصمة «للفن السابع»، ولقد وصف تشرشل في مقال له في جريدة الـ Reveil، إحدى أهم جريدتين في لبنان، بعد أن تخلى مؤقتاً عن العمل السياسي، وزار الولايات المتحدة، وصف هذه المدينة الجديدة «ككرنفال في بلاد الجن». فالستوديوهات تغطي آلاف الفدادين التي تؤوي آلاف الممثلين ــ الاختصاصيين من ذوي الأجور العالية. وهنالك جيوش من العمال ينون بسرعة ومهارة شوارع صينية، أو لندنية، أو هندية. وقد يجد الإنسان عشرين فيلماً في آن واحد. «والشباب والجمال هما ملكا هذا العالم».

وعلى كل حال، فإن نجوم هذا العالم هن الأمبراطورات، اللواتي يفرضن معايير الموضة النسوية على العالم كله. فإذا ظهرن على الشاشة، ابتهجت الجماهير أكبر الابتهاج. وما من يوم بلغت فيه ملكة ما، مهما كانت شعبيتها طاغية، درجة الشهرة التي بلغتها «الملاك الأزرق» أو «المرأة السماوية la Divine ...».

وتذهب سلمى لرؤية كل فيلم من أفلام هؤلاء. فمارلين تهزها وتغريها. أما في شخصية «لولا» فإن صوتها الأجشّ، وشهوانيتها المضطربة، عندما تغني «إني ملأى بالحب، من الرأس إلى القدمين» كل ذلك كان بالنسبة لفتاتنا اكتشافاً حقيقياً. أوَيمكن أن نحمل الرجال على الافتتان إلى هذه الدرجة؟ ولكنها تجدها أجمل في فيلم «موروكو» عندما سحرت الجندي غاري كوبر، وهي في السموكنغ، واللباس الرسمي جداً، أو عندما تراها في فيلم ماتا ــ هاري، مرة كطيّارة في لباسها الرسمي، ومرة امرأة مشؤومة، تصلح، بحركة أخيرة، حمرة شفتيها الحلوتين بحد سيف الضابط المكلف بإعدامها.

ومع ذلك فإن غريتا غاربو هي التي تستهويها أكثر من كل واحدة أخرى. وهي تحلم بأن تشبهها، فقد نزعت بعض شعرات حاجبيها وزيّنت شعرها مثل غاربو. وخلال ساعات طويلة، نراها تقف أمام المرآة، وتبذل جهدها في تقليد حركاتها الجافة نسبياً، ومشيتها المرتاحة، وتعبيرها اللامبالي، الذي لا يمنع من أن نحزر وراءه لهيباً، تلاحظ سلمى أنه كلهيب هواها هي. وتبعاً لكونها جاءت لترى فيلم Love الحب، حيث تجسد بطلته آنا كارينين، أو المغازلة la Courtisane، أو ماتا ـــ هاري، فإنها تكون مرة بعد مرة سريعة العطب ورومانتيكية، شهوانية، جريئة على مرأى من زينيل المتعجب، والكالفاتين اللتين لا تفهمان شيئاً من هذه الاندفاعات المزاجية.

وذات يوم، وبمناسبة استقبال تم في منزل أسرة طراد، وهي من الأسر التي تملك المصارف، والبارزة جداً في بيروت، تلاحظ سلمى رجلاً في الخمسين من عمره، لم ينقطع عن النظر إليها طيلة العشاء. وعندما انتقل المدعوون إلى الصالة لشرب القهوة، فإنه يقترب منها ويقول:

ـــ لقد نسي أصحاب الدعوة أن يقدمونا لبعضنا. فأنا ريشار مورفي، المدير الفني لمترو غولدوين ماير، وأنا ألاحظك منذ بداية السهرة، فهل أنت ممثلة؟

وسُرّت سلمى لهذا المديح، وفتحت فمها لضحكة خفيفة وقالت:

ـــ هل تدل هيئتي على ذلك؟

ـــ أنت جميلة، وهذا لا ريب فيه، ولكن ليس هذا هو الأهم. ذلك أن لك حضوراً وهذا أمر نادر جداً. فهل فكرت يوماً ما بالدخول في عالم السينما؟

ـــ لن أكون قادرة على ذلك أبداً...

ـــ هيا، لا تكوني متواضعة. فالتحرك أمام الكاميرا، هو مهنة، وهي تتعلّم. ولكن الذي ينقص هوليود، هو هؤلاء الفتيات الشابات مثلك، ممن يمتلئن حيوية، ورقة، مع وجود المستوى الذي ينبىء عن نفسه، بمجرّد النظر. وأريد أن أقول لك شيئاً قلما أقوله: إنك من قماشة الكواكب. فما هو اسمك؟

ـــ سلمى...

ـــ رائع، وخلال سنة سيكون هذا الاسم معروفاً لدى الناس جميعاً، ذلك لأني، يا آنسة سلمى، أريد أن أقود خطاك إلى المجد. فهل تسمحين لي بذلك؟

ولا يقول ريشار مورفي أنه استعلم، وأنه يعرف جيداً من هي سلمى، وأن هذا وحده هو الذي يهمه. ذلك أنه إذا كانت الفتاة حلوة، فإنها، على الأرجح، ستكون ممثلة تافهة. أما المهم فهو أنها أميرة! أميرة في هوليود!... ويكاد من الآن أن يرى عناوين الصحف. فالأمريكيون يجنون بكل ما له رائحة الأرستقراطية. ومع حفيدة لسلطان، وحتى إذا كانت الأفلام تافهة، فإن الـ MGM ستسبق بكثير الكولومبيا، والوارنر والفوكس!

ولكن المسألة ليست بهذه السهولة. إذ لا يمكن للسلطانة المعروفة بطبعها المتصلب، أن تسمح لابنتها بأن تنطلق إلى مهنة، لا بـدَّ أنها تعتبرها معادلة لمهنة المومس. ثم هي في الجانب الآخر من العالم، في هوليوود، هذا المكان المضيِّع! ويبتسم مورفي داخلياً: «فماذا إن هو أخذ الأم مع البنت لتراقبها؟... سلطانة مكتهلة محجّبة في هوليود. إن الضربة ستكون عبقرية... ولكن لا ندع لنفسنا أن تحلم: فإن الصغيرة هي التي يجب إقناعها وإغراؤها، بآمال المجد، إلى الدرجة التي تكون معها قادرة على تجاوز الاستئذان من أمها. فهي في عمر الرشد، أخيراً! وها هو الخطر يمـدّ يده إليها. إن حياتها كلها هنا في الميزان».

وهذا ما حمل ريشار مورفي على العمل لإقناع سلمى. فهو يسكن الآن ضيفاً عند عائلة طراد، وسيدعوها هنا كل يوم إلى حفلة شاي. ولا ينبغي أن يترك لها الفرصة لتعود فتتماسك وهو يعرف التكتيك الذي يجب استخدامه مع هؤلاء الفتيات الطموحات والساذجات. وهو لم يعرف الخيبة قط.

— سلمى، أعتقد أنك أصبحت مجنونة تماماً!

وها هي السلطانة منتصبة على كرسيها، وحاجباها متقطبان، وهي تنظر إلى ابنتها كما لو أنها تحاول الإمساك بالشخص الغريب الذي يكلمها.

وللمرة الثالثة، تعود سلمى فتقدم شرحها للموضوع.

— أيندجيم، أرجوك، حاولي أن تفهمي. فالـ MGM هي أكبر شركة للسينما في العالم. ويريدون أن أعمل معهم. إنهم يعقدون معي عقداً ذهبياً: خمسة أفلام في العام، وفي كل منها أنا البطلة. وهل تعرفين كم يدفعون لي؟ مئة ألف دولار في العام. تخيّـلي إذن. سنستطيع أن نشتري لأنفسنا قصراً، وستكوني براحة حتى آخر أيامك.

ــ إنك طفلة. أفلا تتخيلين فساد الجو المفعم بالممثلين، وما فيه من اللاأخلاقية؟

ــ أوه، ولكنني أعرف كيف أفرض احترامي. وأصلاً فإني أفهمت أصحاب العلاقة أني لن أمثّل أدواراً جريئة، وقد قبلوا.

ــ أدواراً جريئة! ... وقد قبلوا! ... إنه لشيء حسن من جانبهم. وحقاً فإني أرى الآن أني أنا التي أصبحت مجنونة. ولن أناقش لحظة واحدة بعد الآن في هذا المشروع اللامعقول.

ونفرت الدموع إلى عيني سلمى، وهي لا تحاول حتى إيقافها. فنهضت واجتازت الغرفة بخطوات كبيرة غاضبة.

ــ بدأت أفقد الصبر من الحياة التي أعيشها! من حفلات الشاي الراقصة، والدعوات إلى العشاء، والبالات ثم البالات... وها إني قد قضيت أربع سنوات بعد أن غادرت المدرسة. وعمري واحد وعشرون عاماً، والزمن يمضي، ولم أفعل شيئاً بعد بحياتي.

وشعرت السلطانة أن في هذا الانفجار العاطفي الشاب، آثار مرارة، ويأس، يرهقانها. وكانت تفكّر أيضاً بأن ابنتها لا تستطيع أن تكتفي بهذه الحفلات، كشاغل لحياتها.

فقالت بصوت حنون:

ــ هيا، يا سلماي. لا تأخذي الأمور بصورة مأساو والحقيقة أن لك من الشخصية أكثر مما ترضين معه بحياتك هذه. يجب أن نزوجك.

ووقفت سلمى. وقالت بصوت ساخر:

ــ وأين هو الأمير الرائع؟

وردّت الأم من غير أن تفارق هدوءها.

ــ لقد فكرت أنه ينبغي لك ملك.

فنظرت سلمى إلى أمها مذهولة: إذ ليس من عادة أمها أن تمزح! وقالت:

ــ ملك؟ ولكن...

ومن غير أن يبدو على السلطانة أنها لاحظت دهشة ابنتها نابعت كلامها بنفس اللهجة:

ــــ شكراً لله، فما يزال هناك بعض الملوك على هذا الكوكب. والملك الذي فكرت فيه لك، هو زوغو ZOG ملك ألبانيا. ومنذ بعض الوقت، قمت ببعض الاتصالات، السرّية طبعاً. وأنت تعرفين أن أخته تزوجت منذ مدة قريبة، عمك الأمير عابد، أصغر أبناء السلطان عبد الحميد. وهذا مما ييسّر المفاوضات. وأنا لا أخفي عنك أن الملك أحمد زوغو ليس بملك كبير، ذلك أنه لا يحكم إلا ما هو قريب من المليون نسمة. ولكنه ما يزال شاباً، وهو جميل، ويبدو أنه يملك صور التعامل الحلوة، ولا يُعرف له عيب شائن. ثم إنه يتكلم التركية بطلاقة لأنه أتم دراسته في استامبول، وهو يُكِن أكبر الاحترام لأسرتنا.

ومن الناس من يدّعي أن الملك زوغو، أو أحمد زوغو، على الأصح، هو ملك حديث النعمة، وأن أسرته هي من صغار النبلاء، وأنه تُوِّج ملكاً، بنوع من الإنقلاب. وعلى كل حال، فإنه أعاد الأمن إلى نصابه في هذه البلاد الفقيرة التي تمزقت بين مختلف الأحزاب، منذ استقلالها عام ١٩١٣ وعلى كل حال فهو رجل شجاع. ويقال إنه ليس شديد الذكاء. ولكن هذا أفضل، في آخر الحساب: إذ لن يكون ذلك إلا سبباً لزيادة نفوذك عليه.

فما رأيك في هذا؟ أفيرضيك أن تكوني ملكة؟

«أي دور» وقَضَتْ سلمى ليلها بالتقلب في سريرها، مرة لطرف، ومرة لطرف آخر، ذلك أنها أكثر هيجاناً مما تستطيع معه النوم. وفجأة تظهر لها أنوار هوليوود براقة وتافهة: وستكون ملكة، ولكن لا ملكة من السيلولوئيد! ومنذ الغد ستخبر مخرج مترو غولدوين ماير أنها لم تعد مستعدة لتوقيع العقد، وأن لديها ما هو أفضل كعمل! وتتخيل دهشته: سيفتح فاه ليصبح أكبر من فم الأسد الذي جعلته الشركة شعاراً لها، وسيطرح عليها ألف سؤال. وبديهي أنها لن تستطيع أن تجيب بشيء.

وخلال الأسابيع التالية، ستغرق سلمى في كل الكتب، وكل المجلات، التي تتحدث عن ألبانيا. واتفقت مع أمل على القيام بغزو على جميع مكتبات المدينة، لأنها الوحيدة التي حدّثتها عن هذا الموضوع. ستقرآن، وتناقشان، وتُشغفان بالاطلاع. غير أن ما تكتشفانه ليس بالمفرح دوماً. لا شك أن المملكة الصغيرة الجبلية رائعة الجمال: وقد عُرف أبناؤها، وهم فلاحون جفاة وشرفاء كيف يحتفظون بعادات أجدادهم، واحتفظوا بقانون رائع لقضايا الشرف. ولكن إذا كان الهدوء يسود هذه البلاد التي تتنازعها خصومات عنيفة بين أسر إقطاعية كبيرة، فذلك، على ما تقول بعض الصحف، لأن الملك زوغو لا يتردّد في القضاء على أولئك الذين يعرقلون عمله. وهنالك صحف

تُعجب بكرم الملك، وتوضّح أن الهدايا التي يقدّمها لأصدقائه وأسرته، تنشأ إلى حد كبير عن خلطه بين ماله ومال الدولة.

ولكن سلمى لن تصدق من هذا شيئاً. أولا تقول الصحف عن العظماء أسوأ الأشياء؟ أو لم يُقل في السنوات الأخيرة لحكم أسرتها، أن السلطان حمل معه جزءً من أموال الدولة، وكذلك مخلفات النبي (ﷺ)؟ وهكذا فقد تعلّمت أن الصحف كثيراً ما تتحدّث عن أمور موثوقة تماماً، وهي في الحقيقة لا تعدو أن تكون مجرَّد تلفيقات.

وبالمقابل فإنها تسجّل، بانتباه شديد، جملة الأرقام والتفاصيل التي تتحدّث عن فقر المملكة، وعما فيها من تخلف. إذ يجب أن تبنى المشافي والمدارس. ومنذ الآن تتخيل البسمة المطمئنة التي ترتسم على وجوه النساء والأطفال، الذين قرّرت أن تكرّس نفسها لهم. وهي تعرف أن مهمتها ليست سهلة، وأنه يجب تغيير العادات، والاصطدام بالمواقع المكتسبة، ولكنها ستناضل، وتشعر فجأة أنها قوية بالحب الذي يحمله لها شعب كامل.

وبنوع من الاندفاع العفوي، أحاطت بذراعها خصْر صديقتها، لتقول لها:

ــ لن تنسيني. وستأتين مرات كثيرة لزيارتي، أليس كذلك؟

فتعانقها أمل بحنان، وتقول سآتي لرؤيتك طبعاً، أعدك بذلك.

ذلك أنها تقاسم سلمى سعادتها، وكذلك تقاسمها مخاوفها من هذا المستقبل الذي لا تصلان إلى تخيّله على الرغم مما قرأتاه، والمعلومات التي حاولتا التقاطها من هنا وهناك.

ولما كانت من بنات جبل الدروز، فإنها تعرف الجبليين، وتعرف كذلك أنهم ليسوا بأشخاصٍ لينيّ العريكة. أما سلمى فإنها من بنات المدينة، وقد اعتادت على حلاوة المدن التي يحيط بها البحرُ، وعلى بطء الشرق، وطرق تعامله المهذّبة. فكيف سترد على الخشونة التي لم تختبرها قط؟ وبدأت، وهي غارقة في تأملاتها هذه، بمداعبة الخصل الحمراء والكتفين الأكثر نعومة من الساتان. وهي تتساءل الآن عما إذا كانت السلطانة، قد أحسنت الاختيار، وإذا كان هذا المستقبل اللامع سيحمل السعادة إلى تلك التي تحبّها أكثر من أخت. ولكنها لن تقول شيئاً. فلئن كان قدر سلمى أن تصبح ملكة، فعليه أن يتحقق.

ومنذ ذلك الحين، ومنذ أن تعود سلمى إلى البيت، نراها تختلي بزينيل. وخلال ساعات، يتكلمان «على بلادهما» وما فيها من غابات واسعة، وشلالات، وقرى جميلة من الحجارة البيضاء،

جاثمة على طرف الجبل ، وعلى الليالي الطويلة في الزاوية التي فيها النار ، حيث يتسامر الناس حول حكايات فرسان شجعان تحميهم الجن ، وعن المعيزة الرائعة التي نزوجها ابن الملك ، ذلك أنها كانت تخفي تحت صوفها وقرنيها «حساء الأرض» ، وحكاية «الدب النادم» وحكاية «الصوص الساحر» ...

وكان زينيل في الثالثة عشرة من عمره ، عندما أخذه جنود السلطان من قريته في ألبانيا ، إلى عاصمة الأمبراطورية . ولقد حاول النسيان ، ونجح في ذلك جزئياً . ولكنه اليوم يتذكّر كل التفاصيل ، كما لو أنها حدثت البارحة .

وفي رأي الخصيّ أن هذا الزواج هو إشارة من السماء ، تؤكد له قناعته المجنونة ، بأن تلك الليلة ، في استامبول ، وفي قصر أورطاكوي . ستكون السلطانة ... وهو ...

وهكذا فإن بنته الصغيرة تعود إلى أصول دمها . وهي تجهل ذلك ولكن كيانها كلّه ، يشدّها إلى هذه البلاد المجهولة التي جاءت منها . أما هو ، الفلاح الصغير ، الذي كان يعدو بأرجل حافية في الجبل ، والذي كان كثيراً ما يشعر بالبرد ، ودائماً بالجوع ، والذي لم يجرؤ قط على رفع رأسه أمام المختار ، سيصبح ، هو نفسه زينيل ، عم الملك .

وهكذا فإن الفرح والزهو يخنقانه . وتستيقظ فيه الرغبة في الغناء . فتستيقظ ، من أعماق ذاكرته بقايا أغان قديمة ، يغنيها لابنته التي ستصبح ملكته . فيبدأ بصوته الرخيم ، ترديد الكلمات التي كانت أمه تغنيها في الماضي .

أريد أن آتي لعندك ، أيتها الغنمة ذات العينين الكحيلتين
أريد أن آتي لعندك يا (كربوجة)
وأجلس على كرسي ، أيتها الغنمة الصغيرة ،
لأشرب الخمر ، يا (كربوجة)
في كأس زهرية ، يا غنمتي الصغيرة
لكي تسعدي مرة ، ولكل مرة ، يا غنمتي الصغيرة
مرة ولكل مرة ، يا كربوجة

ـــ تابع يا آغا ، تابع !

وعندما يرى أن سلمى معلقة بشفتيه ، فإنه يدهش أن تجد هذه القطع المتناثرة من أغنية لا بقية لها ، شيئاً تحبه ، وتريد متابعته . ويقول في نفسه إنها ، في أعماق قلبها ، تشعر أنها أغانيها .

ومضى شهران . ولا يصل من ألبانيا خبر . وبعد أن أعطت السلطانة موافقتها المبدئية ، فإنها ترفض الآن متابعة الاتصالات . وهذه المفاوضات حرجة بطبيعتها ، وتحتاج إلى وقت . وقد يكون أثر الاستعجال فيها سيئاً جداً .

وأخيراً وصلت الرسالة المنتظرة من زمن طويل ، مختومة بخاتم الأسرة الملكية . وكانت صادرة عن أمين السر الشخصي للملك . وهو شخص في غاية التميّز عرفته السلطانة منذ أن كانت وظيفته في استامبول . وبعد التهاني المعتادة والتمنيات المتصلة بالصحة والسعادة للأسرة الأمبراطورية ، يقول فيها :

« إنك لا تجهلين ، يا سيدتي السلطانة أن الرئيس مصطفى كمال قرَّر قطع العلاقات مع ألبانيا بعد زواج الأمير عابد بأخت جلالته . غير أن الملك مضطر لأسباب تفهمينها ، لإعادة العلاقات مع تركيا . وهكذا فإن الزواج بأميرة عثمانية يفسد نهائياً ذلك التفاهم الضروري بين بلدينا .

ولهذا فإن جلالته ، الشديد الأسف ، مضطر إلى العدول عن هذا المشروع الذي كان يتمناه من كل جوارحه . إلا أن الأماني الشخصية يجب أن تمّحي أمام مصالح الدولة .

وتفضلي ، يا سيدتي السلطانة ، بقبول .... » .

وبطبيعة الحال فقد أطلعت السلطانة ابنتها سلمى على هذه الرسالة ، وهي شاحبة الوجه جداً . فقرأتها سلمى ، وانفجرت ضاحكة ، ومزقتها بهدوء .

٧

إنه الغسق. وكتائب من سحب النور والرماد تصعد إلى الغرب، في صفوف متراصّة. والعصافير المستهامة تدور وتدور في السماء، للحاق بالشمس. وتتنفس الأرض، التي تخلّصت أخيراً من دهس الإنسان؛ فتدع لأعماقها أن تبث النسغ، وتعطّر الجو.

وتقف سلمى في شرفتها متكئة وتُصغي لغناء المؤذن المقطّع بدقات أجراس (كنيسة سان لويس، التابعة للفرنسيين) القريبة من المسجد، والتي تقرع إيذاناً بقداس المساء. وعليها أن تلبس ثيابها لتخرج. ففي هذا المساء دعت أسرة ثابت، وهي واحدة من أغنى الأسر المارونية، في لبنان، إلى عشاء على شرف المفوّض السامي، الكونت داميان دومارتيل. ويقال إن هذا الرجل ديبلوماسي محنّك، ويبدو أنهم يعتمدون عليه، لكي يعيد حكم الدستور الذي علّقه سلفه، تمهيداً لقيام الانتخابات الرئاسية.

وستحضرها زبدة المجتمع البيروتي، السياسية والاقتصادية معاً ـــ وهي واحدة على كل حال. وسيحضر إميل إدّة ونِدّه وصديقه بشارة الخوري، وكذلك الأمير فؤاد أرسلان، النائب الدرزي، ورياض الصلح، النائب السني، وكلاهما يوجه أمرّ النقد للانتداب، فضلاً عن أنهما، هما الاثنين، متيمان بحب الجميلة يمنى الخوري، أخت المرشح للرئاسة. وسيحضر أيضاً كميل شمعون، وهو ذئب شاب في السياسة. ويدعي الناس أنه ليس هنالك رجل أجمل منه في كل الشرق الأدنى، وأنه عندما تزوج من بنت نيقولا ثابت، حطّم الكثير من قلوب الفاتنات.

وتزييناً للحفلة ، دعا أهل المنزل أجمل زهرات المدينة : مثل ايفون بوستروس ومود فرج الله ونجلا حمدان ، وهي درزية حارة ذات عينين شديدتي السواد ، وإيزابيليتا ، الصديقة أو الخليلة القديمة لملك إسبانيا ، ألفونس الثالث عشر ، والتي أصبحت الزوجة النزقة لروبير صباغ ، وكثيرات غيرهن ... وعندما تريد بيروت الإغراء ، فإنه ليس لكرمها حدود ، فهي تقدم لمن اختارته ، أحلى جواهرها ، بكرم ، وتبهره بمرحها ، وتسحره بذكائها البرّاق والمرهف غالباً ، وتستلب عقله بشبكة من ألف صداقة مفاجئة ، بقدر ما هي خالدة ــ أو عابرة ، مما يعني الشيء نفسه ، ذلك أن اللبنانيين ، باعتبارهم شرقيين حقاً وصدقاً ، يعرفون جيداً أن الخلود يقوم في اللحظة الحاضرة وعليها .

والرجل المختار ، هذا المساء ، والذي تريد بيروت أن تنسج حوله شبكتها اللامعة ، هو سيدها الجديد ، وقد دعيت سلمى لتكون واحدة من عناصر هذا البناء العنكبوتي المعدّ للإحاطة به ، وأسره إذا أمكن .

وهي تتسلى بذلك ، على حين أنها منذ سنتين ، ربما كانت تتمرّد رافضة أن تلعبَ دور الأدوات ، لأنها تريد أن تُدعى وتُحَبّ لذاتها ! « هي ذاتها » ... ولكنها لم تعد تعرف اليوم ماذا يعني ذلك ؛ فما أكثر المرايا التي تحطمت ... مرآة أنوار هوليود المتلألئة ، التي كانت تنعكس فيها صورة ملكة هوليود اللامعة ، والمرآة ذات الذهب الشاحب اللون التي كانت تعكس لها صورة الوجه الجميل والرصين ، للملكة ألبانيا الشابة ، وحتى مرايا قصر أورطاكوي ، حيث كانت سلطانة صغيرة تسوِّي خُصَل شعرها ، قبل أن تنطلق إلى غزو العالم .

وبحركة مفاجئة ، رمت سلمى بشعرها إلى الوراء : فهي الآن في الثانية والعشرين من عمرها ، ولم تعد تلك المراهقة التي تئن من بحثها عن الحقيقة ، والتي كانت تظن ، من وراء الأميرة العثمانية ، أنها كشفت الغطاء عن سلمى ... التي بدأت تتساءل ماذا يوجد وراء هذه السلمى ! إن ذلك كاللعبة الروسية : إذا فتحتها ، اكتشفت فيها لعبة أخرى ، وهكذا : ولا يجد الإنسان إلا أغلفة ، أما اللعبة الحقيقية فإنه لن يجدها . ولكن هل هنالك من لعبة حقيقية ؟ ومن يستطيع أن يقول : إن هنالك سلمى حقيقية خارج الأدوار التي اختارت أن تقوم بها ؟ أما هي ، فإنها غير قادرة على ذلك ، وتأبى أن تتابع إرهاق نفسها بالتفكير في هذا البحث اللامعقول .

وإنها لشابة ، وإنها لواحدة من النساء التي يحتفل بها في بيروت ، أكبر الاحتفال ، وهي لا تريد التفكير ــ وأصلاً ، فإن نيرفين هانم ، تقول إن هذا ينشىء تجاعيد في الوجه ــ ، إنها تريد أن تتسلى ، وهذا كل شيء .

ـــ يا إلهي ، يا سلمى ، أمازلت غير جاهزة؟ إنها الساعة التاسعة ! كان ذلك كلام أمل التي دخلت الغرفة ، وهي رائعة بثوبها المحكم التفصيل على قـدّها ، وهو من آخر موضة أطلقها الخياط الباريسي الكبير لوسيان لولونغ Lelong .

ـــ لقد قرعت الباب عليك ، ولما كنت لا تردّين ، فقد دخلت . ماذا يجري؟ هل أنت مريضة؟ إنك تعرفين أن علينا أن نكون جميعاً في بيت ثابت في الساعة التاسعة والنصف ، قبل وصول المفـوّض السامي !

وردت سلمى قائلة :

ـــ وفي حالة التهيؤ العسكري للسلام ، على ما أتخيل . كلا ، يا أمل ، لست مريضة . ولكني راغبة هذا المساء في أن أتأخر .

وتجد سلمى ، أمام لوم صديقتها ، أن تسخر ، فتقول :

ـــ أتأخر لمجرد الإخلاص ، لاحظي جيداً . إن هؤلاء الناس الطيبين ليس لديهم ما يقولونه بعضهم لبعض ، وأنا ـــ بتأخري ـــ أقدم لهم مناسبة للهذر . أوتظنين أنني لن أدعى ثانية؟

وكان في نظرتها من الوقاحة ، وفي صوتها من التحـدّي ما آثرت معه أمل عدم الرد . فهي الآن لم تعد تعرف صديقتها في هذه الغريبة المتشدقة . ذلك أن هذه الفتاة التي كانت من الحساسية على درجة عنيفة ، وسريعة العطب تقريباً ، قد تصـلّبت الآن ، منذ أن تلقت خيبتها المزدوجة ؛ خيبة الزواج بملك ألبانيا ، وخيبة العمل في هوليوود . فهي لم تعد تتكلم على هذين المشروعين ، إلا بسخرية ، لأنها أكثر زهواً بنفسها من أن تظهر للناس خيبة أملها ، كما لو أنها تلوم نفسها على أنها حلـمت . وتلوم أمل على أنها كانت شاهداً على هذه الأحلام ، حتى ليقول الإنسان ، إنها قرّرت ألا تدع نفسها تؤخذ بالجرم المكشوف ، جرم سلامة النيّة ، وآثرت أن تثير وترفض ، حتى لا تدع مجالاً لأحد أن يرفضها .

ولقد أصبحت ، بحكم ذلك ، على درجة عالية من الشعبية ، في هذا العالم حيث كل شيء ـــ الحب ، والمال ، والنجاح ـــ كل شيء يرهق ، لفرط السهولة . فحول سلمى ، يراقب الناس بعضهم بعضاً : فأيهم سيحصل على مودة هذه الفتاة العنيفة؟ ذلك أن برودتها خيالية . وما من إنسان استطاع الادعاء بأنه سرق منها قبلة ، حتى ولا أنه أمسك يدها . والحقيقة ، أنهم ممتنون لها في ذلك .

لأنهم مقتنعون أن لا مبالاتها، ليست إلا أسلوباً تستخدمه لإغرائهم: وبالتالي فإن النصر سيكون أجمل وأجمل.

وتحسب أمل، وهي تتفحص الوجه المغلق، أنهم مخطئون جميعاً. فقد أصبحت لا مبالية حقاً. وحتى عندما تتسلى وتستمتع، فإنها إنما تفعل ذلك بحكم الواجب.

ويقرع الباب. وها هما خيري ومروان يأتيان لتقصي الأخبار. وتلاحظ سلمى، بسخرية، أن خيري تأنق على أفضل صورة: إذ لبس السموكنغ من قماش الشانتونغ السكري. وقرنفلة على المزررة ــ وذلك حتى يثير اهتمام أمل ــ. ذلك أنه أسَرَّ لأخته منذ عدة أيام، قائلاً:

«إنني عاشق! فهل تظنين أنه يروقها أن تكون أميرة؟» وتردّ سلمى بقولها:

ــ أظن أن هذا آخر ما يشغل بالها. وهذا ما حمله خيري على محمل الخبث من جانب أخته.

وعلى ذلك فإنه قرّر أن يبدأ حديث المغازلة. فمنذ أسبوع تراه يرسل كل يوم إلى شارع مار الياس باقة من الورد الأحمر؛ وهو يتوقع في هذا المساء أن يكافأ ببسمة، وسينتهز الفرصة ليطلب منها أن تحتفظ له بكل رقصات الفالس، ذلك أنه متى انتهى العشاء ابتدأ الرقص.

لكن أمل لم تبتسم، وهذا ما وضعه على حساب الخجل الساحر. وعندما جاء مروان، فيما بعد، وأخذه جانباً ليشرح له أن أخته تكره الورد لأن رائحتها تسبّب لها آلام رأس عنيفة، فإنه سيتأثر أكبر التأثر من هذه النعومة، وسيشعر أنه ازداد هياماً بها.

وبالانتظار، يستنكر ما تفعله أخته سلمى، إذ هو يعتقد أنها تفعل ما تفعل رغبة في أن يلاحظها الناس!

ولكنها تردّ قائلة:

ــ ولكن امضوا أنتم، وسألحق بكم. وسيرافقني زينيل في العربة.

ويتردد مروان، فهو لا يحب هذا البريق في عيني سلمى، ويحب أقل من ذلك ضحكتها الجديدة، المركّزة بإفراط، أو السريعة جداً. فقد كان في عزمه هذا المساء أن يكلّمها، ولكنه رأى أنه ربما كان من الأفضل أن يرسل إليها أولاً «سفيراً» كنائب عنه. وأخرج من جيبه حزمة رقيقة.

ــ لقد جئتك بكتاب لفريد الدين عطار، أكبر شاعر صوفي درزي. فإذا قررت أن لا تأتي، فسيكون نعم الصاحب.

ويروي الكتاب «أن كل طيور العالم اجتمعت لتبحث عن ملكها، السيمورغ، الذي اختفى منذ زمن طويل. وما من إنسان يعرف أين يقيم، باستثناء عصفور مُسِنّ جداً. ولكنه لا يستطيع أن يجده وحده، ذلك أن الطريق إليه مملوء بالمهالك. وعليهم أن يذهبوا جميعاً. والحقيقة أن السيمورغ يقيم في القاف، وهو سلسلة من الجبال تحيط بالأرض. ولكي تَصِل إليه، يجب أن نجتاز حواجز ناريّة، ونسْبح في شلالات عنيفة، ونحارب جيوشاً من التنانين الشرسة.

«وقد مضوا بالآلاف، ولكن أكثرهم هلك، خلال الرحلة التي ستدوم سنوات. ولم يصل إلى بلاط السيمورغ في جبل القاف إلا حوالي ثلاثين عصفوراً هم الأكبر حكمة، وذلك بعد مصاعب لا تحصى. وهناك اكتشفوا مبهورين، آلاف الشموس والأقمار والنجوم. وكانوا في ضوء كلٍ من هذه الكواكب يتراؤون (يرى بعضهم بعضاً) ويرون السيمورغ. وظلوا كذلك حتى عرفوا أخيراً أنهم هم السيمورغ، وأن السيمورغ هم. وأنهم الكائن نفسه، وأن ملكهم، أي الإله الذي مضوا ليبحثوا عنه، بعيداً جداً، كان فيهم ...».

وتركت سلمى الكتاب جانباً.

ففي إحدى التكايا في ضواحي استامبول، كانت بنت صغيرة تقبّل راحة يد الشيخ العجوز المفتوحة ... وفجأة صار النور يُغشّيها، وتشعر هي أنها إذا أبقت عينيها مفتوحتين، فسوف تنحل فيه. وهي لا تريد، وتخاف.. فتغلق عينيها، وترى الأشياء قد عادت إلى نظامها المألوف والمطمئن، وحلّت محل تلك الأنوار.

ولقد احتفظت سلمى في قلبها بالأسف على ذلك الانبهار، وبالخجل من خوفها. وهو خجل هي فخورة به رغم المفارقة البادية في ذلك، وهي تغذّيه وتداعبه. ذلك أن مجرَّد الخجل هو البرهان على عظمة النفس التي تحاول أن تتجاوز نفسها بلا انقطاع.

فمنذ مدة طويلة ترى نفسها مشغولة بالبحث عن الوحدة، ولكنها وقفت دوماً على العتبة. فهي تخشى أن تضع فيها إصبعها، فتؤخذ كلّها، وتشعر بأن البحث عن المطلق لا يمكن أن يضع حدوداً، وأن الإنسان يغامر بالضياع فيه، كهذه الآلاف من عصافير السيمورغ التي ماتت قبل أن تبلغ النور.

ولكن ألا نغامر ، إن نحن لجأنا إلى الممارسات الدينية البحتة ، بأن ننسى ما لفقدان الأمن من خصوبة؟ ومروان الذي هو واحد من «العُقّـل» أي أنه أحد المتفقهين في العقيدة الدرزية ، صرّح لها ذات يوم بأن الدين والأخلاق هما أفضل الوسائل لكي لا نصل إلى الله أبداً . «فالوصايا والمحـرَّمات ، على ما كان يقول ، إنما هي جدران عالية ، نقيمها من أجل الوصول إلى السماء ، ولكن كلما ارتفعت أكثر ، ضاقت السماء أكثر ، وما هي إلا لحظات ، حتى لا نرى إلا مربعاً أزرق بشعاً ، ليس له من سمات السماء شيء ، وهو مجرَّد مربّـع أزرق . فهم يحدثوننا عن سلالم من الرخام ، وعرش من الذهب ، أي عن عالمٍ ميت كأخلاقهم . وهم لا يفهمون أن السماء هي الحياة فيما لها من كثرة لا متناهية ؛ وكيف يمكن أن يُسـوَّر طريق اللا نهائي بجدران؟» .

وتشعر سلمى بالدوار الذي يصيبها . فـلِـم حمل إليها مروان هذا الكتاب؟ لقد كانت هادئة مستريحة ، وكانت سكرى بأن الكثيرين يحيطون بها ، ويعبدونها ــ فلِم يُفسـد عليها مروان كل شيء في حياتها؟ أولا يمكنه أن يتركها تعيش ، ككل الناس ، وأن تكون سعيدة؟

سعيدة ... لقد تجـمّـدت هذه الكلمة أمامها ، وأصبحت عامية ، قذرة . وحقـاً فإنها ستندهش باستمرار . وهي قادرة على أن تقص على نفسها ، أي شيء! ولم تسقط بعد إلى هذا الدرك الذي تستطيع فيه أن تكتفي بهذه السعادة ، تلك!

ولقد رأت ، في قصر أورطاكوي كثيراً من النساء ذوات النظرة الخالية من كل قلق ؛ وهـنّ تماماً هؤلاء الأنيقات في صالونات بيروت . أوَهذا الذي توشك أن تغرق فيه؟ .. فترتجف . وتعود إليها كلمات الصوفي الكبير ، جلال الدين الرومي : «لا أفقدني الله وجودَك ، أيها الألم السعيد ، الأثمن من الماء ، والذي هو حرقة النفس التي بدونها ، لن نكون إلا من الخشب الميت!» .

ونزلت سلمى إلى الحديقة الصغيرة . فوجدت الليل شديد الانتباه ، والنجومَ لم تَـعُـد غريبةً عنها ، وتشعر بأنها تعود إلى ذاتها ، بعد غيبة طويلة .

وتهبط العربة الشارع ، بمرح ، ويضرب السائق بكرباجه ، ويثير الحصان ، بطرف السوط . وما هو بالقليل الزهو بنفسه ، مادام في عربته سيدتان بهذا القدر من الجمال . والمارة كلهم ينظرون إليه .

وأمل هي التي فكرت بذلك . فمنذ بضعة أسابيع سمعت ما يقال عن هذه المرأة ، ذات

القوى المدهشة. إنها دلفية أو نبية جديدة، على ما يتمتمون، أو مرسلة من عند الله، أو لعلها شيطان. فقررتا أن تذهبا إليها، دون أن تقولا شيئاً لمروان الذي قد يستاء من هذا العمل.

وعندما وصلتا إلى البيت ذي العوارض المغلقة، جاءهما مراهق نحيف، وأدخلهما دون أن يقول أي كلمة، إلى غرفة مظلمة توجد فيها مجامر عطور تحاول، عبثاً، القضاء على روائح كريهة تختلط فيها آثار العرق، والأنفاس.

القفا عريض، ومرتاح تماماً على السرير العالي الذي تجمّع حوله الأشياع، والمرأة العجوز جالسة. وهي تقطّر نقطة فنقطة شراب المحبة المحيي والمميت، شراب كلماتها، ولحظات صمتها. وتسقط بعض كلماتها، وفيها الحامض، يتلوه الحلو (العسل) من شفتيها الرقيقتين، على حين أن عينيها الملتهبتين تنفذ إلى النظرات، وتثقب الصدور، لكي تصل إلى القلوب.

وفي الظل، وعلى مقربة من الباب، وقفت الفتاتان. ولكن العجوز رأتهما. وبالغريزة فهمت أنهما فريستان من نوع عال. فأشارت إليهما بيدها الربلة أن تقتربا، وتدخلا في الحلقة، حلقة المختارين الذين يحيطون بالسرير. ولكنهما تأبيان، هاتان المتمردتان!

فابتسمت العجوز. وهي تحبهما هكذا: سفيهتين ومغرورتين، كأطفال عراة ينتصبون في النور. وهما النوع الذي تحبه، أي نوع الأطفال اللاواعين الذين يعتقدون أنهم محبوبون من الله. وهؤلاء هم الذين يمنحونها الحياة. وليس لها من نظرة تلقى على شعب العبيد الخاشعين المحيطين بها: إذ لقد افترست هؤلاء حتى الأحشاء؛ وأصبحوا عناصر شبكتها. وهم يذهبون إلى المدينة لينشروا كلامها، وينقلوا إليها فرائس جديدة متعطشة لسماعها، هي، الملهمة.

ولكن بعض الناس المحيطين بالسرير، والجالسين على جوانبه يترددون: فهذه العجوز المسيطرة، الرهيبة والرائعة معاً، تُرى ما هي الأرواح التي تتحكم فيها؟ أهي إلٓهية، أم شيطانية؟ وقليلاً فقليلاً تفرض الفكرة نفسها، بأن هذه الأرواح أخيراً هي نفسها، وأن الله هو النور الذي تخلّص من كل خَبَث، ذلك الخَبَث الذي يُنشيء تفسخه الحار أرواح الشياطين.. والأكثر شجاعة، أو الأقل وعياً، هم الذين يركبون للقيام بالرحلة التي لا عودة منها، والتي ليس لهم فيها إلا قناعتهم الوحيدة، بأنهم سيتبخرون إلى ما لا نهاية ـــ في لهب النار، أو في لعبة الحب الإلٓهي.

وهؤلاء الذين لا يزالون يماطلون، لن يتخلصوا أبداً من القلق الواخز، قلق من يعرف أنه غير قادر على بلوغ السعادة النهائية، أو الشقاء النهائي ـــ وماذا يهم أن يكون الأمر هذا أو ذاك. ولكن

العجوز، تقـدّم لهؤلاء الذين اجتازوا الباب الأول، من أبواب الخوف، أو لم يجرؤوا على اجتيازه، تقـدّم نفس الجائزة الملكية : القلق، إلى الأبد.

وعلى عتبة الغرفة، همست الفتاة الحمراء الشعر لرفيقتها، بعد أن أدارت ظهرها، قائلة :

ــ هيا نذهب، فالنور هنا أسود.

ترى هل سمعت العجوز؟ وعلى كل حال فقد انتَـصَبَـتْ على سريرها، وأطلقت من فمها القاتم تلك البهلة (أو اللعنة) قائلة :

ــ ستخفضين رأسك، أنت المزهوة بنفسك! وخلال ليلتين، ــ وتذكري ذلك ــ خلال ليلتين، سآتي لعندك!.

ومنذ زمن طويل، لم تستمتع سلمى بقدر ما استمتعت هذه المرة. فالبال التنكري لدى جان تويني كان قد أُعـدّ، وموضوعه «الهند الغزلة» وهو عنوان مستوحى من أوبرا «رامو»، وكانت قـدْ لبست حُـلّـة مهراجا جودبور Jodbpurs من الساتان الأبيض، ووضعت على رأسها عمامة بقنزعة. وكانت هذه قد انتزعت من ريش نيرفين هانم ــ وحـلّـت عنقها بعقدٍ فيه ستة حبال من اللؤلؤ الناعم، الذي استعارته من سورين آغا، فلم يعرفها أحد من خلال قناع الذئب الأسود. ولكن عندما رفع الناس الأقنعة، في آخر السهرة، فإنها مرة أخرى، أدهشت الحاضرين جميعاً.

ومع ذلك، فقد كانت على وشك أن تعتذر حتى آخر لحظة. ذلك أن تهديدات الساحرة، كانت تؤرقها، وحاولت جهدها أن تستبعد مخاوفها، ولكنها كانت تعود إليها باستمرار. وقضت أمل النهار كله محاولة إقناعها بأن هذه العجوز لم تكن تملك قوتها إلا من خضوع المحيطين بها : ولما شعرت بأن سلمى متمردة، قالت الكلمات التي خطرت ببالها، لإخافتها.

ــ فكري! لم تكن هذه العجوز لتقبل التحـدّي أمام قطيعها الثاغي! ولكن كيف يمكن أن تأتي لعندك؟ وعلى كل حال فإنها أسمن مما ينبغي لكي تتحـرّك.

ولما كانت سلمى تتردّد، وتخبرها بأن بعض النساء في تركيا كن يملكن قوى شيطانية، غضبت أمل الرقيقة وقالت :

ــ حقاً إنك تخيّبين أملي، إنك مثل نساء قرانا في سرعة التصديق.

ولكن مروان ، الذي أُخبر بما جرى ، وصل إلى إقناع سلمى ، أن من الأفضل لها ألا تبقى في بيتها ، وأن عليها ، بشكل خاص ، ألا تنسى تحذير زينيل والكالفات من فتح الباب ، مهما يكن المبـرّر .

وعزفت الموسيقى ، آخر ماعزفت ، لحناً من نوع التانغو . وكانت الساعة قد بلغت الرابعة ، وغادر أكثر المدعوين المنزل ، وكانت الشموع في الشمعدانات الفضية على وشك الانتهاء ، وتلقي بظلال راقصة على سجادات الزينة المعلقة على الجدران التي بدت وكأنها تتحرك . وكانت سلمى بين ذراعي الجميل ابراهيم سرسق تترك جسدها ينقاد . وهذه أفضل لحظة ، إذ لم يبق إلا حفنة صغيرة من الأصدقاء ، لكي تبدأ سهرة جديدة ، أكثر صميمية .

وأخرج موسى دو فريج قيثارته لكي يرافق هنري فرعون في ألحانه ؛ وكان هذا يملك صوتاً جميلاً ويغني أغاني الحب الدارجة . وكان غابرييل ثابت يروي قصصاً مضحكة . وكانت إيزابيليتا قد جاءت بنقاراتها ، وثوبها الأحمر المكشكش ، لكي ترقص الفلامنكو .

وعندما بدأ النهار بالطلوع ، وقـدّم الخدم فناجين قهوة حارة ، قـرّر الحضور ، آسفين أن يفترقوا ، وما من مرة تأخرت سلمى في الرجوع كهذه المرة . إذ لقد جرت العادة أن يقـرِّر خيري العودة حول الساعة الثانية . ولكن في هذه الليلة ، قبلت أمل بالتواطؤ مع سلمى ، بأن تخصّـه ببعض رقصات الفالس . فنسي بذلك كل مبادئه .

وكانت تقف أمام سور البيت سيارة سوداء من نوع الأحصنة الخمسة ، وكان باب البيت مفتوحاً ، وبقفزة ، اجتازت سلمى البهو وكانت كل الأنوار مفتوحة ، ولكن ليس هنالك أحد . فتصعد على السلم بأقصى سرعة ، وتتجـمّـد أمام غرفة أمها : فقد حدثت مصيبة ، وكانت تعرف ذلك ... إنها الساحرة ..

وتدفع الباب ، وهي ترتجف . وكانت الغرفة مغمورة بنور قاتم . ولم تر سلمى أول الأمر إلا ظهراً عريضاً يلبس الريد نجوت الرمادي . ثم قليلاً فقليلاً بدأت ترى زينيل والكالفاتين ، الذين أشاروا لها بحركة إصبع على الشفتين بأن تسكت . فتتقدم ببطء وتبحث عن أمها بعينيها ، وآنئذ استدار الريد نجوت الرمادي وحـرَّك النظارة الوحيدة التي على عينيه ، لينهـرَ هذا الفتى المعمّـم . ولكن سلمى لا تراه ، فتقترب ، وفجأة تلمح شكلاً متمدداً على الأرض متصلباً ... ميتاً !

فصرخت «أيندجيم» واندفعت نحو أمها . ولكن قبل أن تصل إليها ، كانت هنالك يد قوية تمسك بها .

ـــ الهدوء! ليس هذا الوقت وقت التصنع!

وبعد أن دفعتها بقسوة إلى ذراعي زينيل ، جلس الطبيب القرفصاء وعاد إلى فحصه . وبعد عدة ساعات أو عدة دقائق ، مما تعجز هي عن تحديده ، نهض وطلب أن تغطى المريضة بأغطية إضافية . وقال :

ـــ من المستحيل الآن نقلها من مكانها ، ولكن يجب أن تدفأ ... أن تدفأ؟ ولكن ماذا؟

وتقـدَّم خيري برصانة ، ولأول مرة في حياته ، أعجبت به سلمى عندما قال بصوت هادىء :

ـــ إنني ابنها ، يا دكتور ، فقل لي الحقيقة .

فنظر إليه الطبيب ، وهز رأسه ، وقال :

ـــ إن أمك أصيبت بنوبة قلبية ، خطيرة جداً ، أيها الشاب ، ولحسن الحظ فإن القلب قاوم .

ـــ ولكن .

ـــ أخشى أن تبقى مشلولة .

وأمام البيانو ، كانت سلمى جالسة ، لا تتحرك . فقد عزفت منذ قليل بضع مقطوعات «لشوبير» ، هي المرتجلات الثانية والخامسة ، أي تلك التي تؤثرها أيندجيم ، وكذلك تنويعات ليسبت Lisept على نغمة لـ «هايدن» . أما السلطانـة الجالسة باستمـرار على مقعـد متحـرك ، لا تتحرك منه إلا لكي تنقل على ذراعي زينيل ، إلى سريرها ، فقد أصغت إليها ، والعينان نصف مغلقتين ، في وضع من يشعر بكامل الغبطة .

ومنذ ستة أشهر وهي مشلولة الرجلين ، وما من مرة سمعتها سلمى تتألم ، وما من مرة شعرت بأنها فقدت الصبر ، أو هبطت معنوياً . بل على العكس . فلأول مرة منذ المنفى ـــ منذ أحد عشر عاماً ـــ بدت هذه الأم ، فرحة تقريباً ، كما لو أنها هُـدِّئت ببعض الحبوب .

ومع ذلك ... فأمام هذه المرأة التي اكتهلت ، والمعتمدة على غيرها في حركتها ، تذكر سلمى

بألم تلك «السلطانة». إنها تعود فتراها أميرة باهرة، في ثوبها ذي الذيْل المطـرّز بالزيبلين، والصدر يزينه الشريط الأمبراطوري، ملكة باردة ورائعة، تأبى على الشرطة دخول قصرها، وتخاطر بحياتها من أجل رجل مجهول؛ إلّهة رحيمة، ذات ضعف إنساني، ولا تفهم إلا الشرف، آه، إنها لم تكن رقيقة، ولكن كم كانت تستحق الإعجاب!

ومنذ ستة أشهر، وسلمى لا تخرج، ولم تعد لها أية رغبة في الخروج. وظنت في البداية أن ذلك كان للبقاء مع أمها، ثم خطر ببالها أنها تعـوِّض بذلك عما جنته على أمها: وهي تعلم أن مرضاً في القلب، يعرض الإنسان للأزمات القلبية، ولكنها تبقى في الأعماق، مقتنعة أن الساحرة هي التي انتقمت.

وهي قلقة، بصورة خاصة. فقد أنذرهم الطبيب أن أزمة ثانية «يمكن أن تكون مشؤومة». وببطء شقت الفكرة اللامعقولة، المثيرة، طريقها، وانتهت الفتاة، مدهوشة، إلى فهم الحقيقة، وهي أن أمها يمكن أن تموت، وأن هذه الصخرة التي حملتها، وكانت العنصر الذي لا يتغير في حياتها، يمكن أن يتداعى، ويدعها مترجحة على حافة الهوة. وما من مرة خطرت ببالها هذه الفكرة من قبل. وحتى الآن، كان الموت بالنسبة إليها، هو موت الآخرين. أما موت أمها؟... وكان ذلك كما لو أن أفضل ما فيها يجب أن يموت.

وفي الأيام الأولى، بعدما شاع خبر مرض السلطانة، كتبت إليها بعض صديقاتها، وأخريات جئن لزيارتها. وبعد شهر، وهو فترة راحة تمنح لبؤسها، عدن فدعونها من جديد، ولكن لما كانت لا تستجيب، فقد تعبن منها، ونسينها.

وكان مروان وأمل، وحدهما، يتابعان زيارة شارع رستم باشا، بانتظام. وكانا قلقين من ملاحظة أن سلمى تنكمش على نفسها، وتقضي كل ما بعد الظهر في تأليف ألحان sonatives وبالات حزينة. وذات يوم خـلت السلطانة بمروان وقالت له:

ـــ لا بد لهذه البنيّـة من أن تخرج! أرجوك، جـدْ وسيلة لذلك، وإلا فإنها ستصاب بمرض. ومريضان في هذا البيت أكثر مما يجب ـــ قالت ذلك وهي تضحك ـــ وأنا أحرص على الاحتفاظ بتميزي!

لكن فصل الحفلات الراقصة في الهواء الطلق يكاد أن يبدأ، فنحن في الربيع، وبدأت جيوش

من عمال الحدائق، تعمل في ملكيات حي سرسق، للعناية بالهورتانسيا المستوردة من أوروبا، وقص أسيجة الدفلى والزعرور.

لكن البال الأكثر تفرداً، على الأرجح، والأمتع، أيضاً هو بال الأميرالية الذي يحتفل به كل عام على ظهر السفينة جان دارك، السفينة ـــ المدرسة، الفرنسية. ويختار المدعوون اختياراً دقيقاً. وأمل ومروان موجودان على قائمة المختارين: والحرب الفرنسية ـــ الدرزية، أصبحت ذكرى بعيدة؛ إذ منذ عام ١٩٣٠ حصل الجبل على دستور مستقل. والانتداب الفرنسي حريص في سورية ولبنان على عدم إزعاج سادة الجبل.

وقد عمل مروان ما يجب لكي تدعى سلمى إلى هذه الحفلة، على السفينة ـــ المدرسة. ولقد توقع رفضها، لكنه تظاهر بالاستياء:

ـــ أنت لا تستطيعين أن تفعلي معي هذا! إنه عشاء على المائدة، والأمكنة كلها محجوزة، منذ شهر.

وأضافت أمل ملحة:

ـــ إن حفلة بال على الماء، هي جو آخر مختلف جداً، إنه كرحلة في البحر، ثم إني أريد أن تري ابن عمي وحيد الذي وافق، للمرة الأولى، على النزول من جبله. ثم إنه كذلك قريب بعيد للست نظيرة، وسترين، إنه شديد التفرد، ولكنه ساحر!

وأخيراً أمكن إقناع سلمى بحضور هذه الحفلة.

٨

كانت جان دارك ، في المرفأ المظلم ، المضاء ببعض المصابيح تنفصل عما حولها كشجرة عيد الميلاد المزينة بأطواق من النور . وكان الأميرال واقفاً على الجسر ، محاطاً بضباطه في الثياب الخاصة بالحفلات ... وبعد هؤلاء بقليل نجد الأوركسترا التي سمّوها « بحرية الشرق » وكانت تعزف فاتحة ، الحياة الباريسية « لأوفنباخ Offenbach » .

أما السيدات على أحذيتهن العالية ، وفي أثوابهن الطويلة ، فإنهن يطلقن صرخات خائفة وفرحة معاً . ذلك أنهن يغامرن بالسير على الممشى الضيق ، متبوعات برفاقهن اليقظين . وكان الأميرال ، وهو على أفضل ما يكون ، كرجل استقبالات ، يستقبل ضيوفه ، ويقول لكل منهم كلمة محبّبة ، وهو سعيد . إذ إن الحفلة ستكون ناجحة : ولقد جمع في ٣٠٠ متر مربع ، كل من هو ذو شأن في بيروت ، وكان هنالك ضباط شباب يأخذون على عاتقهم أن يَـدُلّـوا الضيوف على أمكنتهم .

وكانت طاولة الداروزي موجودة على بعدٍ كاف من الأوركسترا . وكانوا قد تأخروا في الحضور . وها إن كل الناس قد جلسوا حول أغطية دمشقية ، تختفي تحت كمية ضخمة من الورود ، والفضيات ، وبورسلينات ليموج ، فاستقبلتهم عبارات التعجب .

ـــ كنا قد قطعنا الأمل من حضوركم !

ــ هذه من العزيزة أمل ! أساعة من التأخر فقط ؟ إنك تحققين تقدماً في هذه الطريق ! هذا ما قاله شاب يتخلّع في مشيته .

ــ وحيد ، إني واثقة بأنك تعفو عني عندما ترى من أحمل إليك : سلمى ، ها إني أقدّم إليك ابن عمي ، واطمئني فهو أقل إزعاجاً مما يبدو عليه .

وينطلق الرجل الطويل ، بنوعٍ من اللا مبالاة المجاملة ، ويبدي عجبه بلهجة مسرحية ترغم المدعوين الآخرين على الطاولات المجاورة على الالتفات :

ــ آه ، يا أميرة ! لو أن أجدادي استطاعوا أن يحلموا بك ، إذن لوفّرنا على عائلتينا عدة قرون من الحروب ، ولكان محاربونا العتاة قد استسلموا مباشرة .

وكانت نظرة العينين الزرقاوين ، المسحورتين نصفياً ، والساخرتين نصفياً ، تحيط بسلمى . وها هو وحيد يغيّر ترتيب الطاولة بسلطته لتكون سلمى على يمينه . إنه يهمل المدعوين الآخرين ، ولا ينظر إلا إليها ، ويكثر عليها من الأسئلة فيما يتعلق بحياتها ، ونشاطاتها ، وتذوقاتها . ويبدو أنه أُغوي إغواءً كاملاً ، فلم يعد يلاحظ ضيق ضيفته التي لم تعد هي أيضاً تملك أن تعدّل من هذا الغزل المفضوح .

ولكن عذاب سلمى لم يطل أكثر من ربع ساعة ، وكأن فضول الرجل قد أشبع فجأة ، واهتمامه قد استنفد ، فأدار وحيد ظهره فجأة لها ، ودخل في نقاش سياسي عنيف مع أصدقائه .

أما جار سلمى الذي على اليمين ، وهو رجل قصير ، رقيق ، متميّز جداً ، فإنه يسرع إلى انتهاز الفرصة التي أتاحوها له . ويبدو أنه لم يحفظ أو لم يسمع جيداً اسم هذه الفتاة الرائعة ؛ ولكن ماذا يهم ! فسوف يستعلم عن ذلك فيما بعد .

ــ اسمحي لي أن أقدّم نفسي ، فأنا شارل القرم ، الشاعر . فهل تحبين الشعر يا آنسة ؟

وتجيب سلمى التي استراحت بعد تلك العاصفة الدرزية ، للرقة ، وحسن الأسلوب ، البيروتيين .

ــ يسمونني « شاعراً فينيقياً » ... فهل قرأت آخر مجموعة لي ، تلك التي سميتها : « الجبل الملهَم ؟ » . فقد حصلت على جائزة ادغار آلان بو .

وأجابت سلمى مجاملة :

ـــ سمعت الناس يتحدثون عنها .

ـــ أفيرضيك أن أنشدك منها بعض المقاطع ؟

وتجيب سلمى ، مندهشة من غرور المؤلفين الذي يتجاوز الحدود .

ـــ بالتأكيد .

فيسعل الشاعر سعلة خفيفة ليجلو صوته ، ثم يبدأ ، وعيناه ضائعتان في أفق الأغطية البيضاء ، بالإنتشاد :

آه ، قل لي كيف
استطاع فلاحونا ، خلال ألفي عام
أن يحتفظوا بالصليب وسط العمامة
بدءاً من بحر الصين ، وحتى المتوسط
في لبنـاننـا وحـده .

يا أخي المسلم ، إفهم صراحتي .
فأنا اللبناني الحقيقي ، النزيه والمتدين
فأنا أكثر لبنانية بمقدار ما ترمز عقيدتي
لقلب البجع ...

وترتجف سلمى . ترى أهذا السيد الشديد التهذيب يمكن أن يكون مثيراً ؟ ولكنها تكتم ضحكتها أمام نظرة الحسير البصر ، الخجلى . فالأمر كله ، أنه لم يفهم من هي .

وأخذ الرجل بغنائية أشعاره ، فأخذ يهز رأسه ، وازداد صوته سعة :

يا لغة الفينيقيين ، لغتي اللبنانية
التي لا صوت لحرفها ، تحت الأقبية المرصّصـة
إنك لغة العهد الذهبي ، أنت التي كانـت
أصلاً لكل ألفباء .

يا لغة بلادي ، هبينا الثقة

اجعلينا نؤمن أيضاً بأنفسنا وبأجدادنا
واحفظي لنا موقعنا
احفظي الثقة بنا
على مائدة الآلهة.

وتتذكر سلمى أنها في صفها كانت ترى بعض المارونيات يرفضن أن يُـوَحَّـد بينهن وبين العرب. وكن يقلن إنهن فينيقيات، منحدرات من هذا الشعْـب الذي هيمن على المتوسط، والذي انقضت حضارته منذ ألفي سنة. فتشعر فجأة بأنها ترغب في أن تتسلى، وأن تنتقم «للعمامات».

ـــ ولكن أيها السيد، إن الفينيقيين، لم يكونوا لا مسيحيين ولا عرباً فيما أعلم!

واحمـرّ وجه الرجل، وأخـذ يشرح لهذه الفتـاة الجاهلـة أن «المسيحـيين ظلـوا أوفيـاء لأصولهم؛ ولئن كان لبنان قد تعرّب، مع الأسف، فإن اللبنانيين الحقيقيين هم...»، فأدارت سلمى وجهها، فتصالبت نظراتها بنظرات وحيد الذي يرمقها بنظرة متواطئة. وهكذا فقد كان يُصغي إليه، وكانت لا مبالاته، قد ذهبت! وشعرت الصبية بقلبها يخفق، بصورة مستغربة. فهذا الرجل يتصـرّف كنذل، وهي مستعدة لأن تسامحه لدى أول بسمة. فما هو الشيء الذي يستهويها في هذا الرجل الواضح النزوات؟ أسماته التي تستعصي على الفهم؟ أم هيئته التي تدل على أنه يسخر من كل شيء؟

وانتهى العشاء، فينزلق الخدم بين الطاولات، سائلين كل مدعـوّ، عما يشتهيه من قهوة أو مشروبات روحية. وتنطلق أوركسترا «بحرية الشرق» التي كانت تعزف حتى تلك الساعة، بهدوء، تنطلق فرحة لتعزف بقوة، لحناً من التانغو الإغريقي.

واندفعت الأزواج الأولى إلى الحلبة، وسلمى تلاحظهم بفضول، وتودّ لو أنها جـرَّبت، إلا أنها وعدت أمها بألا تعرض نفسها في حفلات «تخلّـع المتوحشين». والسلطانة لا تسمح لها إلا برقصات الفالس، وهذا هو الذي يصبح موضوع مزاح بالنسبة لأصدقاء الفتاة، الذين يلاحظون أنه ليس لها الحق إلا في الرقصات «التي تدوّخ الرأس».

والآن تعزف الموسيقى فالساً لشتراوس. وترافق سلمى هذه الموسيقى بضربات موازية لها، بقدمها، دون أن تذهل عن إلقاء بعض النظرات على جارها. ترى هل يدعوها؟ لكنه لا يفكر حتى بالنظر إليها، وقد عاد إلى النقاش مع أصدقائه.

ـــ هل تشرفينني ، يا أميرة ؟

وتنظر أمامها ، فإذا هو ضابط فرنسي ينحني لها . ويبدو عظيم الهيبة في لباسه الرسمي ، وهو رقيق ، برونزي اللون ، له بسمة مجاملة .

ـــ ولكن ألا تذكرينني ؟ لقد تقابلنا في منزل بيت بستروس : وأنا جورج بوي Buis ، نقيب في سلاح الخيالة .

وليس من المألوف أن تقبل الفتاة دعوة من شخص غريب عن المجموعة التي هي فيها ، ولكن لا بأس ، فالرجل مُصرٌّ وشديدُ الرغبة في الرقص ... وهي تحب ذلك ، لكي تبين لوحيد أنها لا تهتم بتقلبات مزاجه .

وبمتعة كبيرة ، تنساق سلمى مع اللحن الموسيقي البطيء . ولكن الأوركسترا تعزف ثلاث فالسات متتابعة . وهي تعلم أن الناس سيقولون فيها الأقاويل ، ولكنها سترقص مع هذا الضابط الجميل حتى النهاية .

وما إن عادت إلى طاولتها ، طائشة بعض الشيء ، حتى استدار وحيد ، كما لو أن نابضاً يحرّكه .

ـــ من الغريب أن يرى الإنسان فتاة مسلمة ، وأكثر من ذلك ، أميرة عثمانية ، تقبل مراقصة ضابط فرنسي . وأنا أحب سعة العقل هذه ، وهذا النوع من النبل في النسيان .

وتحمرّ سلمى خجلا . أما الضيوف الآخرون فبدأوا ينظرون إلى وحيد . وأما مروان الحائر ، فإنه يحاول أن ينقذ الموقف .

ـــ آه ، وحيد بك ، داعية الأخلاق ! إن هذه آخر مكتشفاتك . وكنت أعرف حبك للمزاح ، أما إلى هذا الحدّ ؟ فلا .

ويردّ وحيد ، بكل برودة قائلاً :

ـــ ليس هذا بمزاح .

فيعضّ مروان على أسنانه ، ولكنه لن يشتم صديقه ، ذلك أن التضامن القبلي يمنعه من ذلك . ومن جهة أخرى لا يسعه أن تؤذى ضيفته .

ـــ سلمى ، يا عزيزتي ، أتحبين أن تسعديني أكبر السعادة ، بالرقص معي هذه المرة ؟

وكآلة تتحرك تلقائياً ، نهضت سلمى . أما وحيد ، فإن الاستياء يُلمح في نظراته ، وهو يراهما يبتعدان .

وعلى الطاولة ، عادت المحادثة فاستؤنفت ، فتدفقت الكلمات كالفيضان لإخفاء الضيق . أما وحيد فظل صامتاً ، وبدأ يشرب . ويجب أن يكون في كأسه الرابع أو الخامس من الكونياك ، حين أسقط كأسه على الطاولة ، بدرجة من العنف أدّت إلى كسره .

ـــ يا نادل ، إن هذا الكونياك كريه ، فاحمل إليَّ غيره !

فذهل النادل ، واقترب .

ـــ ولكن ، يا بيك ، إن هذا كونياك معتّق لمدة طويلة ، وليس لدينا غيره .

ـــ أي إنه الوحيد الذي يتفضّلون علينا به .

ـــ لا شك أن أسيادنا يرون أننا قليلو المدنية ، نحن اللبنانيين الآخرين ، فلا نلاحظ الفرق بين الجيد والرديء .

ورفع صوته . واتجهت الأنظار كلّها إليه .

ـــ كونياك سيء ، وحكومة كراكوز ، ودستور لمجرّد الخداع ، وهذا كاف جداً لأشخاص بدائيين ، ولكن أرجو ألا يَـدّعوا مع ذلك أنهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم . حسناً ، أنا أقول لكم أيها السادة ، بأننا تحمّلنا منكم ما يكفي ، ونريد أن تتركونا وشأننا ، وبسرعة ، ذلك أننا لن نطالبكم بذلك دوماً بهذا اللطف !

وخيّم الصمت على القاعة ، وكما لو أن الأمر متعمّد ، توقفت الموسيقى عن العزف . ولا يجرؤ أحد على الحركة ، فانقلب الزعيم الدرزي الشاب على كرسيّه ، بضحكةٍ كبيرة ، ورفع كأسه .

ـــ إني أشرب كأس حرية لبنان ، واستقلال لبنان !

وقالت سلمى لمروان :

ـــ رباه ، إنه ثمِل تماماً !

ــ كلا ، إنه لا يكون ثملاً أبداً ، ولا أعرف إنساناً يقاوم الكحول كما يقاومه وحيد . وكلما ازداد شرباً ، ازداد وضوحَ فكر . وهذا الذي قاله الآن ، نقوله نحن جميعاً ، ما عدا بعض الأسر المدينة بصعودها إلى الانتداب . وقبل الحرب ، وعدتنا فرنسا بالاستقلال . ولكن ماذا تفعل؟ إنها تفرض حدوداً مصطنعة بين سورية ولبنان ، على حين أن هاتين المنطقتين ، كانتا منذ قرون تشكلان وحدة سياسية ، واقتصادية ومالية ، ثم تضعنا تحت الوصاية ! وبديهي أنها وصاية ساذجة كالطفل ، ولكن فقط نحن اللبنانيين الآخرين ، مسالمون ونفضل الحصول على ما نريد بالنقاش ، لا بالحرب . ولكن ها قد مضت خمس عشرة سنة ، ونحن نناقش دون أن نحصل على شيء . وحتى لدى الموارنة ، فإن الناس بدأوا يضيقون ذرعاً .

ــ ومع ذلك ... أيقال مثل هذا الكلام على ظهر باخرة فرنسية؟

ــ إن هذا ، هذا من وحيد ، خالصاً . فهو يعشق الإثارة . وهو يتمتع أكثر فأكثر ، لأنه يعرف بأنهم يظنون أنه سكران ، فيتجنبون إبعاده . وما دام الأمر يتعلّق بتظاهرات كلامية ، فإن الفرنسيين يحترسون من مسّ رئيس درزي بأذى ، فهم غير مستعدين لنسيان الحرب الدموية في الجبل . ومع ذلك فقد كنت أظن أن وحيداً ، هذا المساء سيحافظ على هدوئه . وأظن كل الظن ، ــ وابتسم وهو ينظر إلى سلمى بخبث ــ أننا مدينون لك بهذا الانفجار الصغير .

ــ أتمزح؟

ــ لا أمزح مطلقاً . إذ عندما رقصتِ مع هذا الضابط الفرنسي أثرتِ « وحيد » إثارة كبيرة . وعلى الرغم من مظاهره الحديثة ، فإنه يبقى إقطاعياً كبيراً ، وأكثر حرصاً مما يظن على تقاليده ، وعلى قانون الشرف التقليدي . أما تربيته المسفسطة ، وقراءاته الانتقائية ، فإنها لم تغيِّر فيه شيئاً .

وفي صباح اليوم التالي ، يقرع الجرس على باب بيت رأس بيروت ، وكان على الباب رجل ذو لحية ، يتقلد بندقية ، ويختفي نصفياً وراء طاقة ضخمة من سيف الغراب (الغلايول) الأحمر .

ــ أمرني الرئيس بأن أحمل هذا إلى الأميرة ، متوجّهاً بكلامه هذا إلى زينيل المبهوت أمام هذا المشهد اللا مألوف .

ــ أي رئيس؟

ويردّ الرجل وعليه سيماء الغضب :

ـــ إنه الرئيس وحيد بك .

ثم تخلّص من حمله ، ووضعه بين يدي الخصيّ ، وأصلح وضع بارودته ، وضرب رجليه بالأرض ، وابتعد ، برصانة ووقار .

وبعد أن أنهت كل من سلمى وأمل مشترياتهما من مخزن بيرانجيه الكبير ، الذي هو واجهة باريس ، دخلتا تستريحان بشرب مشروب في الباتيسري السويسرية ، المحل الوحيد في بيروت ، الذي يتاح فيه لامرأة أن تظهر .

وكانت سلمى منذ أذان الظهر تتحرّق شوقاً لجعل الحديث يدور حول وحيد ، فقالت لأمل :

ـــ كم هو غريب الأطوار ، ابن عمك هذا !!

فابتسمت أمل ، وقالت :

ـــ إن لدينا شيئاً من كل شيء ، فمن الناس من يقول : إن وحيد مجنون ، وأنا أظن أنه يخفي لعبته ، وأنه أذكى أفراد الأسرة . وهو ينتسب إلى فرع يـدّعي أنه الفرع الشرعي ، الذي غـيّـب عن المسرح ، منذ قرن ونصف القرن بعد مؤامرات واغتيالات ، وممارسات يومية بين قبائلنا . وله دوماً أنصاره ، القلائل ولا ريب ، ولكنهم أوفياء له أشد الوفاء وكانوا يُـجِـلّون أباه حمزة بك ، أكبر الإجلال ، فهو بطل من أبطال القضية العربية ، وقد قتل عندما كان وحيد دون العاشرة . وكانوا يأملون ، عندما قُتل فؤاد بك ، زوج الست نظيرة ، بدوره ، أن اللقب سيعود إليه ، ولكن الست نظيرة وابنها كمال ، الذي كان طفلاً صغيراً في ذلك الحين ، كانا يملكان قلوب أكثرية أبناء القبيلة . وعدا ذلك ، فإنهم كانوا ، وهم ما زالوا ، مدعومين بحزم من فرنسا .

« ولكن هل يدري أحد ؟ إن المواقف تتغير أحياناً بسرعة ، فلو حدث شيء لكمال ، فإن وحيد يمكن أن يصبح الزعيم . وهكذا فإن الناس جميعاً ، وعلى رأسهم الفرنسيون ، يعاملونه معاملة خاصة » .

وفي الأسابيع التالية ، ستخرج سلمى كثيراً . ومن دون أن تعترف لنفسها بشيء ، فإنها في الحقيقة كانت تريد أن ترى وحيداً مرةً أخرى . وفي الواقع ، فإنه لن يكون هنالك عشاء ولا استقبال

لا تلتقي فيه بالبيك الغني. وفي كل مرة، سيحييها هو بأدب جم، تحيةً مبالغةً شيئاً ما، ولكنه لا يحاول أبداً أن يعيد صورة المحادثة الشخصية التي تـمّـت له في اللقاء الأول.

وفي الأصل، فإنه محاط حيثما كان، بالسيدات، اللواتي تُـغريهن لا مبالاته أشد الإغراء. ولئن رآه بعضهن أميل إلى القماءة، بجبهته التي أخلاها الشعر بصورة مبكرة، وبأنفه الشبيه بأنف النسر، وعينيه الزرقاوين الجامدتين بشكل غريب، فإنهن جميعاً يتفقن على الاعتراف بأن له سحراً كاسحاً، وهن يتأثرن بهذه البسمة الشبيهة ببسمة مراهق خجول، وبهذه النظرة المدهوشة دائماً، والشديدة السعادة لأدنى كلمة محـبّـبـة تقال له، كما لو أنه لا يجرؤ على الاعتقاد بأن الناس يمكن أن يشعروا بشيء من المودة تجاهه. ولكن إذا استطاعت إحداهن، بعد أن تكون أُغريت به، أن تبدو أليفة له بعض الشيء، فإن البسمة تصبح ساخرة، ثم تأتي ملاحظة جارحة، فتعيد المرأة المتطفلة إلى مكانها.

وتشعر سلمى أحياناً بأن نظرته ترهقها. وككل امرأة تريد الإغراء، فإنها تزيد في التظرف تجاه الفتيان المحيطين بها، الذين لا يجرؤون على تصديق سعادتهم.

وذات مساء أخيراً، اقترب وحيد منها، وبصوتٍ حاول جهده أن يجعله مفجعاً، سألها:

ـــ يا أميرة، لماذا تهربين مني؟ أوما زلت تلومينني أيضاً؟ أولم تحزري أن ما ظهر مني من جفاء، ليلة بال الأميرالية، لم يكن صادراً إلا عن غيرة مخيفة؟

ومرة أخرى أيضاً، كانت البسمة الساخرة تكذب جديّـة الأقوال. بيد أن النظرة كانت قلقة، وبدهشة أدركت سلمى أن هذا الصبي الكبير الوقح، شخص خجول، وأنه بحكم خجله هذا يبدو وكأنه يسخر عندما يكون سليم النية.

ولكنها لم تكن تستطيع مقاومة رغبتها في الانتقام.

ـــ أألومك؟ وعلى ماذا؟ على ليلة الأميرالية؟ إنها مضت من زمن طويل. وكنت قد نسيتها تماماً.

ـــ وإذن فلن تأبي عليّ هذا الفالس؟

أتراه يسخر؟ وينظر كل منهما إلى الآخر، وينفجران ضحكاً، فيأخذها إلى الحلبة... يا إلهي، كم هو لا يحسن الرقص!

٩

جاء الصيف ، ودعا الحرّ الناس إلى الهرب ، بجماعات كثيفة ، بعيداً عن مدينة أصبحت خانقة . وكان كل من استطاع ، أو يستطيع ، يمضي فيستقر في الجبل ، في الفنادق الضخمة في كل من صوفر وعاليه وبكفيا ، أو في بيوتهم الفخمة المحاطة بالحدائق المتدرجة المصاطب . حتى إن الحكومة نفسها تنتقل .

ودعت أمل سلمى إلى رأس المتن ، في البيت العائلي القديم الذي يشرف على الوادي . وهذا القصر المتقشف الذي أهمل في القرن الماضي ، عندما اختار جدّ الفتاة ، وهو الوحيد الذي تابع دراسته ، أن يستقر في بيروت ، هذا القصر الذي تقرّر فيه جزء من تاريخ الشعب الدرزي ، لم يعد الآن إلّا مجرد مسكن لقضاء الصيف .

وهنا يعيش الإنسان حياة اجتماعية ريفية ، أكثر حيوية منها في العاصمة . إذ ليس لدى الناس هنا مشاغل كثيرة ، فتراهم ينشطون ليتذوقوا الحياة بلذة أكبر . فيزور الجيران بعضهم بعضاً « بكل بساطة » . وفي النهار يتنزهون في العربة ، على الطرق الجبلية الضيقة ، ويقيمون « سيارين » عظيمة على مقربة من ماء نبع صاف ، أو في واحد من الفنادق القروية التي تستأجر كاملة ، حتى لا ينزعج المستأجرون ، أو أن الإنسان يركب حصانه ، ويمضي به طول النهار ، إن كان يتمتع بروح رياضية ، أو يهوى المغامرة .

ولكن في كل مساء ــ وهذه هي العادة ــ يتلاقى الناس . وهنالك حفلات في كل مكان ، ولما كان الناس يحرصون على أن لا يسيئوا إلى أحد ، فإنهم لا يترددون في قطع عشرات الكيلو مترات من الطرق لزيارة فلان ثم فلان . أما الرقص فإنه يستمر حتى الفجر .

وعندما يأتي الصباح ، فإن الخدم يضعون في كل غرفة فرشاً من القطن . ذلك أن الشكليات يغض النظر عنها في الريف : وفي البيوت من الكبر ما يتسع لكل المدعوين ، وهؤلاء لن يغادروا إلا بعد طلوع النهار ، ثم بعد أن يرتاحوا تماماً ، بعد تناول فطور غني يتألف من العصافير المشوية ، والفول ، والحمّص .

وقصر وحيد قريب من رأس المتن . لكن قلة من اللبنانيين أتيحت لهم فرصة الدخول إليه ، أما أمه التي تسكن هناك طول السنة فإنها تعيش حياة بعيدة عن الناس ، ويقال إن هذا البيت لا يستقبل إلا الفلاحين الدروز المقيمين على مقربة منه وبعض المشايخ الذين احتفظوا بولائهم للأسرة .

وعلى أكبر دهشة من سلمى ، فقد تبيّن لها أن البيك الشاب الذي يقضي أكثر أوقاته لدى أمل ومروان ، لم يدعُهما قط .

وتعلّق أمل على ذلك بقولها ساخرة :

ــ إنه لا يدعونا لأننا لا نضع الحجاب ، وهو يخشى أن نجرح شعور جماعته .

والظاهر أنها تمزح . ولكن سلمى تشعر بأنها تقول الحقيقة . وعلى كل حال ، فإننا لم نلق وحيداً في رأس المتن ، كما رأيناه في هذه الأيام فهل هو يأتي من أجل سلمى ، كما يؤكد مروان ؟ ولكن إذا صحّ ذلك ، فما أغربها من طريقة للتقرب منها ! ذلك أنه قلّما يوجّه إليها الكلام . ولما كان مشغولاً أغلب الوقت بتدريبات التصويب ، أو منهمكاً في مناقشات سياسية لا نهاية لها ، فإنه يبدو وكأنه يُفضل جماعة الذكور . ولكن يكفي أن يتقرّب رجل ما من سلمى ، ويبقى معها أكثر من الوقت الذي تقتضيه المجاملة ، لكي يظهر هو . ومن دون أن يلاحظ النظرات الحانقة التي يُرمى بها ، فإنه يدخل في الحديث ويشارك فيه . بل إنه ليمضي أحياناً إلى حد قطع الحديث ، بقوله :

ــ اعذرني يا عزيزي ، فأنا أريد أن أكلّمك يا سلمى ، ويأخذ بيدها ، بما يشبه القوة ، ويمضي بها .

أما المرة الأولى التي «اختطفها» فيها بهذه الطريقة، فإنها اغتاظت وقالت له:

ـــ ولكن يا وحيد، ماذا يَحدث لك؟ إنك تتصرّف وكأني ملك لك!

ونظر إليها.

ـــ أيكون هذا مزعجاً لك إلى هذه الدرجة.

ولما ظلّت صامتة، فإنه أخذ يدها بحنان وقبّلها في جوف راحتها. فاعتراها من ذلك رعشة، إذ لم تشعر قط بشيء من هذا النوع من قبل. فأغمضت عينيها وفكّرت، وقالت له: بلى سأكون لك.

فأضاف هو بصوت خافت قوله:

ـــ سلمى يجب أن تعرفي كم أنت مهمة بالنسبة إليّ، فلا تلعبي مع هؤلاء الأغبياء.

ومضى مباشرة ليقابل أصدقاءه.

وحذّرت أمل التي كانت ترى سلمى شاردة أكثر فأكثر كل يوم بقولها:

ـــ سلمى، انتبهي، إن وحيد لم يعرف قط ماذا يريد. وأنا لا أريد أن تتعذبي.

لكن المرأة العاشقة تحسب دوماً أنها استثناء، وسلمى تحب لأول مرة، وهذا الدرع الذي صنعته لنفسها في السنوات الأخيرة وهي تنظر حولها بشيء من الشفقة المتعالية إلى ذلك الأذى الذي كان الحب يُسبّبه، تمزّق دفعة واحدة. وبدا لها أنها في حالة عري، وأدهشها أن تكون سعيدة بهذه الدرجة.

وكذلك وحيد، فإنه، من جهته، يبدو وقد دُجّن، ومنذ الآن، عندما يراها، ينسى بسمته الساحرة، ولم يعد في عينيه إلا الحنان. وكثيراً ما ترافقه في رحلات طويلة، غير مبالية بما سيشاع عنها، فيتحدّث هو إليها عن طفولته، وعن أبيه الذي منعه حتى وهو ميت، من أن يعيش، حياة طبيعية، لمدة طويلة.

ـــ أنا لا أتمنى لأحد أن يكون ابن بطل، فما من يوم يمر، إلا ويلقاني شخص محترم، سليم النية، ليقول لي متعجباً: «آه، أبوك أي رجل كان!» وعندما يزنني ويقيّمني، يقول لنفسه: «إن هذا لا يصل حتى إلى حزام أبيه!».

وبحركة أليفة يدخل أصابعه الرقيقة في شعرها .

ــ لقد أضعت مدة طويلة للتخلص من شبحه ، وأحياناً أراني غير متأكد من أني وصلت إلى ذلك .

وفي هذه اللحظات ، يبدو على درجة من الضياع ، تجعل قلب سلمى ينبض ، فتأخذ يده ، وتغرق عينيها في عينيه .

ــ وحيد ، إني أعرف أنك ستنجز مهام كبيرة . والمهم ، هو أن تكون واثقاً من نفسك .

فيبتسم لها معترفاً لها بالجميل ، ويقول :

ــ إنك جد مختلفة عن النساء الأخريات . ويبدو أنك سريعة العطب ، وأنت في مثل هذه القوة ...

وتريد سلمى أن تحتج ، ولكنه لا يفسح لها المجال ، ويقول :

ــ أعرف أنك قوية ، وأنا أحبك بهذه الصورة .

إنه يريدها دفعة واحدة ، بلا تردّد ولا مخاوف ، على حين أنها ترغب في أن تبدو كما هي ، رامية عرض الحائط بشخصها كأميرة وقحة ، واثقة من نفسها . وكلما بدأت تفضي إليه بما هو الشيء الأكثر رقة فيها ، والأشد نزاهة ، تملّص أمامها ، كما لو أنه خائف ... وكما لو أنه يريد أن يكون صخرة ، بلا شقوق ، لكي يحكم بأن مثل هذه الصخرة موجودة ، وأنه يستطيع ، هو أيضاً ، أن يصبح كذلك ذات يوم ...

وعندئذ تصمت ، وتصغي إليه ، مندهشة من أنها تشعر بهذا النوع من المرأة الصابرة ، داخلها ، أفيكون ذلك قوة ، أم ضعفاً ؟

ــ ولكن هل حدّثك ، على الأقل ، عن الزواج ؟

يا إلهي كم هي مزعجة أمل ، في أسئلتها هذه !

ــ إن كنت تحرصين على أن تعرفي ، فإنه لم يقل الكلمة ، ولكن كل أحاديثه ، ووضعه ، يمضيان في هذا الاتجاه .

ـــ ولكنك تعرفين أن الدروز لا يتزاوجون إلا فيما بينهم، باستثناء بعض الحالات الشاذة، وأم وحيد محافظة جداً، ولن تقبل بأجنبية، لا سيما وأنها تحرص على تعزيز شرعية ابنها وذريتها في الحال التي تسمح، ذات يوم، باستعادة السلطة.

ـــ انظري، يا أمل، إن وحيد هو الشخص الأكثر استقلالية بين من لقيتهم، حتى هذا اليوم. أفتعتقدين أنه يدع لأمه أن تتحكم في قراره؟

وتهز أمل رأسها، بعد أن ثبطت عزيمتها.

ـــ إما أن الحب يعميك، وإما، حقاً، أنك لا تفهمين شيئاً من طباع رجالنا!...

وقد ترك هذا الحديث في نفس سلمى انطباعاً سيئاً. فلِم تظل أفضلُ صديقة لها تحذّرها بدلاً من أن تفرح بسعادتها؟ ولِمَ تشك في أن وحيد يستطيع حبها؟ أفتكون غيرى؟ وأمل تعرف البيك الشاب منذ الطفولة ـــ إذ ليس هو بأكبر منها إلا بنحو أربع سنوات. وكان مع أخيها مروان يتقاسمان نفس اللُعب. لا بدّ إذن أنها تحس تجاهه بعاطفة لا شعورية من التملك.

ولا تستطيع أن تمنع نفسها عن نقل هذا الحديث إلى وحيد. فتقول له بلهجة المزاح ما دار بينها وبين أمل وتنبئه بشكوكها. ويستعذب هذا كله، ويجيب بلهجته الواخزة.

ـــ أغيرى هي؟ إنها بالتأكيد كذلك. ولكني أظن أنك تخطئين حول موضوع الغيرة، فهي لا تحبني أنا، يا عزيزتي، ولكن تحبّك أنتِ!

ولو أنه ضربها بكفه على خدّها ساعتئذٍ، إذن لما أحسّت باللطمة.

فتنظر إليه، مذهولة، ويصعد الدم إلى وجهها: ترى كيف يستطيع أن يلمّح بمثل هذه القذارات؟ إنها تحب أمل، وأمل تحبُّها حباً صافياً لا يجيز له أن يُلَوِّثه!

فابتعدت، وهي ملأى بالحقد.

ـــ ربما قال الإنسان إنك تتسلى بتهديم كل شيء!

ويستنكر وحيد، فيجيب:

ـــ آه، لا. لن تذهبي إلى حد لومي على صراحتي! وما أحبه فيك، هو أنك قادرة على مجابهة الحقيقة، وأنك...

ـــ أنني قوية ؟ بلى ، إني أعرف . ولقد ضقت ذرعاً ، من أني قوية ! وأنا بحاجة ، أنا أيضاً ، إلى الرقة ، لا إلى دعس كل ما هو عزيز عليّ ، بحجة الصراحة .

وأدارت له ظهرها ، فهي لن تبقى لحظة أخرى ، مع هذا الرجل . وتريد أن تعود ، ولكن إلى أين تذهب ؟ إنها غير راغبة في أن ترى أمل ، وغير راغبة في أن ترى أحداً ، إنها بحاجة إلى أن تبقى وحدها .

وتترك سلمى رأس المتن في اليوم التالي ، دون أن ترى وحيدها ، وهي مدينة بهذا إلى أمل ، التي أوشكت للحظة واحدة ، أن تخونها . وهي تريد أن تنسى الأحاديث المثيرة ، التي كشف فيها الدرزي عن نفسه ، أكثر بكثير مما لـوّثَ أمل . وكانت تعرفه أنانياً ، ولكنها لم تكن تتخيل أنه قادر على القيام بنمائم تافهة . ونامت ليلتها كلها وهي تبكي غضباً ، ومن خيبة الأمل . والآن ، فقد قـرَّرت . فهي لن تراه أبداً .

بيد أن سلمى شعرت وهي تقبِّـل أمل ، ساعة الرحيل . بشيء من الحرج . فلقد ضمتها بين ذراعيها مع الانطباع اللا محتمل بأنها تكذب عليها . وعندما رفعت أمل نحوها وجهاً قلقاً ، عضت على شفتيها لكي لا تصرخ قائلة : « ولكن انقطعي عن حبي ! » .

ترى أمن أجل جملة ، كان ينبغي ألا تقال أبداً ، ستضيعهما معاً ؟

وكانت سلمى لم تعد إلى بيروت إلا منذ ثلاثة أيام ، عندما جاءها الرجل الذي يتأبط البندقية ، حاملاً معه رسالة :

« لا أستطيع أن أحتمل الانفصال عنك ، ولقد قلت ما قلت كيفما اتفق ، فهل تستطيعين مسامحتي . سأنتظرك في صالة الشاي في فندق سان جورج ، بعد ظهرنا هذا في الساعة الرابعة . أتوسل إليك بأن تأتي .

وحيـدك »

ولكن ماذا يحسب هذا الرحل ؟ أيحسب أنه يستطيع أن يسمح لنفسه بأي شيء ، وأنه يكفي أن يقول « عفواً » لكي تجري إليه ؟ إن هذا لإفراط في السهولة ! فهي لن تذهب إليه بالتأكيد ! وما بينهما هو قصة انتهت الآن . إن ـــ ت ـــ تهت . أضف إلى ذلك أنها لا تشعر بأي شيء نحوه ، بل هي لا تفهم مطلقاً كيف رأت أنه مغرٍ .

وها إنها ستمضي اليوم كله في أعمال البيت، وتغني، برؤوس شفتيها، ومنذ مدة طويلة لم يرَها أحد فرحة كما هي الآن، وتتخيَّل وحيد، وهو يترقبها، وبسمتها على شفتيها: وسيكون بائساً، ويائساً. ولسوف يرهقها برسائله وأزهاره، ولن تجيبه. فهي الآن تعرفه، ولن تدعه يتجاوز الحدود!

وفي الساعة الرابعة، وخمس دقائق، وكانت قد لبست طقماً من الشانتونغ الأخضر، يبرز لونها، دفعت سلمى باب فندق سان جورج ودخلت.

لقد ظن كل منهما أنه أضاع الآخر. ولكن ما من مرة شعرا أنهما أكثر قرباً، فوحيد لم يعد يغرق في أحاديثه الفردية، ولأول مرة يستمع إلى ما تقوله سلمى، فتستسلم إليه، سعيدة.

وأصبحا يتقابلان كل يوم: وتقول لأمها إنها ذاهبة إلى بيت أمل. وخلال ساعات، يمشيان على الشاطىء، شاطىء الرمل الأحمر، ثم يستريحان في أحد هذه المطاعم الصغيرة التي تقف على الأعمدة وسط البحر حيث تقدم المازة والفليفلة المشوية، أو أنهما يصعدان على هضبة السراي الكبيرة، حيث يطلان على بيروت كلها. ومن هناك، يتركان العربة، وينزلان بالحافلة الشديدة الاهتزاز، وتهبط حتى تصل إلى ساحة المدفع. وهما يحبان التسكع في الطرق الضيقة، في المدينة القديمة، حيث لا يريان، بالتأكيد، أي وجه معروف. ويتساران بألف شيء، وينشئان ألف مشروع.

وفي ذات يوم، عندما كانا يعودان من طريق ويغاند، صادفا عدداً من البرانس السوداء، يجرون رملاً، فيجبرونهما على إفساح الطريق لهما. وهؤلاء هم السباهي الخاصون بالمندوب السامي، الذين يركبون ظهور جيادهم الصغيرة العربية، وهم في حدود الثلاثين، يواكبون السيارة الرسمية، في كل رحلاتها. ولم يستطع وحيد إلا أن يشتمهم. وأضاف، بصوت خافت:

ـــ هؤلاء الأغبياء، إنهم لا يقدّرون أننا عما قريب سنتخلص منهم.

أما لهجة كلامه، فإنها تشير إلى التأكيد الكامل، واستغربت سلمى، فسألته بنظراتها. فيتأملها طويلاً وهو يرف بعينيه، ويقول أخيراً:

ـــ إن كنت تعدينني بألا تقولي شيئاً، فغداً مساءً، سآخذك معي، وستفهمين.

وبار الطيران ـــ ذو المقاعد الجلدية، والخشبية القاتمة ـــ هو المكان المفضل لكل المتآمرين في

المدينة. وهؤلاء يهربون من السان جورج منذ أن شاع الخبر بأن بيير، وهو أفضل من يشرف على بار في العاصمة، كان أحد عناصر المخابرات في الشرق الأوسط، والمركز الرئيس لها يقوم في بيروت.

لكن وصول وحيد مع سلمى يلفت الأنظار. ذلك أن الاجتماع في ذلك النهار، اجتماع استثنائي: وكان ممثلو الاتجاهات المختلفة، المعارضة للانتداب، يفكرون بمناقشة القيام بعمل مشترك. وكان الناس ينظر بعضهم إلى بعض، دون أن يعرفوا ماذا يفعلون: فهل من الحكمة أن يستقبلوا فيما بينهم، غريبة؟ ثم كيف يتخلون عن شخص في مثل هذا الإغراء؟ وفي لبنان، ترى المجاملة مغروسة في القلوب: وأخيراً، إذا كان وحيد بك قد رأى أن يأتي بها، فسيكون من باب الشتيمة له، أن يحذروا منها! وهكذا يقرِّبون بعضهم من بعض، ليضعوها في المكان اللائق بها. وجاؤوا بشمبانيا عظيمة، وأخذوا يتناقشون.

وبصوت خافت، أخذ وحيد يعرِّف سلمى بالشخصيات الحاضرة.

ـــ فهذا الرجل ذو الشعر الأجعد، هو ماسوني، أرسله محفله، الذي اتخذ أخيراً قراراً بالوقوف ضد الانتداب. وإلى جانبه، صحفي جاء كمراقب، وهو جبران التويني، مدير جريدة النهار، أول صحيفة لبنانية تقف ضد الانتداب، وهو يعرف جيداً عناصر العالم السياسي الفرنسي، ويمكن أن يكون رأيه ثميناً بالنسبة إلينا. وأمامنا، هذا الرجل ذو الوجه الشديد العزم، هو أنطون سعادة المشهور، مؤسس الحزب القومي السوري المطالب بسورية الكبرى التي يدخل فيها لبنان وفلسطين، ومن الغريب أن نظريته القائلة بوجود سورية طبيعية تعود في أصولها إلى أقدم الأزمنة، زمن الكنعانيين، تستند إلى كتابات أحد الجزويت البلجيك، الأب لامانس. وعلى يمينه اثنان من الداعين إلى الوحدة العربية الكبرى، وعندهما أن وحدة سورية ولبنان ليست إلا مرحلة على طريق الوحدة الكبرى.

وبدأت سلمى التي تهيبت هؤلاء الحاضرين، تتأمل وجوه هؤلاء الأبطال الذين ربما وهبوا حياتهم غداً، من أجل «تحرير بلادهم من الهيمنة الأجنبية». وكانت تتخيل أنهم أقل حرصاً على الظهور بمثل هذه الأناقة، فقمصانهم ـــ ذات الياقة البيضاء المنشّاة ـــ القادمة مباشرة من عند (السُلكا) في باريس، وطقومهم ذات الثلاث قطع، العظيمة الأناقة، تدهشها. وكانت تفضل أن تراهم في هيئة أكثر ثورية. لكن هذه فكرة صبيانية. ولكن بعد كل حساب، نلاحظ أنه لا بدَّ للمتآمرين من أن لا يظهروا كمتآمرين. ولا يمنع هذا من أن ترى هي أن أناقة المكان، والجو المخملي، والسيكار الفخم بيد كل منهم، أشياء لا تتناسب مع المواقف الجذرية التي يتخذونها بعد قليل. وتجد

أن أنطون سعادة وحده يبدو مستعداً للتضحية بكل شيء، خدمة لأفكاره. فبه يمكن أن تثق، وبوحيد بطبيعة الحال. وها هو يتحدث باسم الدروز:

ـــ إننا على صلة دائمة مع إخواننا في سورية، ولدينا أسلحة، بيد أن الكثير من فلاحينا يترددون، فهم يخشون إذا ما ظهرت المملكة العربية السورية للوجود، أن يصبحوا أقلية لا صوت لهم ولا حقوق، غارقين في الأوقيانوس الإسلامي السني. فهم لم ينسوا، بعد كل شيء، أن الانتداب الفرنسي هو الذي منح الديانة الدرزية وضعاً رسمياً. وتقوم الست نظيرة بتذكيرهم بذلك!

ومع ذلك فإنهم يريدون الاستقلال. فالمهم إذن هو أن نُوَحد قوانا كلها، ضد الوجود الفرنسي، فالشعب قد أرهق، والموقف أصبح ناضجاً.

وحقاً فإن إضرابات ربيع ١٩٣٥، كانت قاسية جداً. فالتدهور الاقتصادي والتضخم، اللذان جاءا من أوروبا، أفرغا الجيوب، وقدّما مبررات وحججاً لرجال السياسة. ففي زحلة، انتهى إضراب اللحامين ضد فرض ضريبة جديدة على اللحم، إلى حوادث شغب كثيرة. وقد هاجم المتظاهرون مكاتب الحكومة فتدخلت الشرطة، وأُطلق الرصاص، فأوقع كثيراً من الجرحى. وفي بيروت تطاول إضراب التاكسيات عدة أسابيع، بدفع ودعم، على ما يقال، من الشيوعيين. ثم جاء فحلّ محلّه إضراب «المحامين»، المحتجين على فتح المحاكم اللبنانية أمام المحامين الفرنسيين.

ولكن قضية إدارة حصر التبغ هي التي أثارت استياء البورجوازية أكبر الاستياء، سواء أكانت مسلمة، أم مسيحية. فترخيص إدارة الحصر الذي صادرته فرنسا عام ١٩٢٠، والذي انتهى أجله هذا العام، يجعل الأوساط اللبنانية تلح لكي يعاد إليها، بل لقد نُظم الإضراب عن التدخين.. غير أن المندوب السامي الفرنسي، عاد من جديد فمنح هذا الامتياز لمجموعة فرنسية، ولمدة خمس وعشرين سنة!

ويفرك المتآمرون أيديهم في البار ذي الأنوار الخافتة: إذ لقد بلغ الاستياء من الانتداب قمته، ويكفي أن ننظمه.

أما بقية النقاش، حول: من ندعو؟ وأين نجتمع؟ وأي نوع من أنواع المقاومة ندعو إليه؟ فإن سلمى لم تصغ إليه إلا بعض الإصغاء. ونظرت، معجبة، إلى وحيد، الذي أخذ على عاتقه، مع أنطون سعادة، إدارة العمليات. وهي تفهم الآن لماذا تحبه.

وعندما صحبته في السيارة، قال لها بصوته الخفيض: «إن المعركة ستكون قاسية، فهل أنت مستعدة للقتال معي؟» فتضعُ، بحماسة، يـدَها في يده، تأكيداً لصدق العزم.

وكانت الساعة تشير تقريباً إلى منتصف الليل، عندما عادت سلمى إلى البيت، ودخلت على رؤوس أصابع قدميها، وكانت أمها تنتظرها في الصالون. وبكل برودة تسألها عن صحة أمل، ولكن قبل أن يتاح الوقت لها للردّ، قاطعتها أمها:

ــ وفّري عليَّ كذبك. فهذه هي المرة الثانية التي يقولون لي فيها إنهم رؤوك مع هذا الدرزي. فماذا بينكما؟

وعندئذ لا مجال لسلمى أن تضلّل أمها، ولكنها في الأعماق تخفف عن نفسها، فقد أصبحت لا تطيق الإخفاء.

ــ هنالك، يا أيندجيم، أننا متحابان.

فترفع السلطانة حاجبيها، بفقدان صبر.

ــ ليس هذا سؤالي. فهل يريد الزواج منك؟

ــ بالتأكيد.

وبدت لحظة ما، مترددة. فوحيد لم يتقدم قط بطلب رسمي، ولكن من البديهي أنه يريد الزواج منها!

ــ وإذن فلماذا لم تأت أمه لتحدثني بهذا الشأن!

ــ إنها تسكن بعيداً جداً، في عين الزلفا، وهي قرية في الجبل، وأظن أن صحتها لا تسمح لها بالسفر.

ــ جيد جداً. فغداً تأتيني بهذا الشاب، في ساعة الشاي.

ــ ولكن يا أيندجيم.

ــ ليس هناك من «ولكن». فإما أن تطيعي، وإما أن لا تخرجي من البيت بعد الآن، إلا مصحوبة بزينيل أو بإحدى "الكالفاتين. واعتبري أنك سعيدة إذا أنا استقبلت هذا الشاب. وهذا

حسن، لأنك وصمت نفسك، والله شاهد عليّ بأني كنت حلمت بزواج آخر لابنتي الوحيدة، وعندما أفكر ... أنه درزي! حتى ولا هو مسلم.

ــ ولكن يا أيندجيم، إن الدروز مسلمون.

ــ إن هذا ما يدَّعونه. ولكنهم لا يرعون أركان الإسلام الخمسة. ثم إنهم يؤمنون بالتقمص، مثل الهنود. هيا. غيبي عن وجهي، أو أرفع راية الغضب.

وكانت المقابلة من أسوأ ما يمكن. فوحيد نزيه في مشروع زواجه بسلمى، ولكنه لا يقبل أن يفرض عليه شيء، وعندما تسأله السلطانة عن حياته، ومشاريعه، فإنه يجيب إجابة من يريد الهروب من الجواب، بكلمات مفردة، أو مقاطع من كلمة، حتى ليبدو من خلال ذلك عامياً. وما من مرة ذكر اسم سلمى. وبصورة آلية يداعب الشاة التي جاءت تهرّ على فخذه. وتعض السلطانة شفتيها، وتجد أكبر العناء في احتواء انفعالها.

ولقد حكمت عليه، من أول نظرة: إنه رجل لا يشعر بالمسؤولية، حالم! وهو يكره هؤلاء النسوة اللواتي يتسلطن على أزواجهن، ويسأل عما إذا كان ما يبدو لدى سلمى من طبعها الآن، هو علامة دالة على ما وراءها ... ثم إن هذا البيت لا يشعره بالراحة، بل يرهقه. وهو لم يكن يتوقع الفخامة ... لأنه يعرف أن الأسرة فقدت كل شيء، ولكن أن يجد على الأقل بعض الأشياء الثمينة، تشير إلى عظمته السابقة: كرسوم قديمة، أو فضيات جميلة، تكون بمعنى ما، عنواناً على هويّة. ولم يتخيل هذا الأثاث البورجوازي التافه، ولم يحلم بأن يرى أميرته في مثل هذا الجو ... وعندما أسقط تفاهة المكان على سكانه، فقد شعر بصورة غامضة، أنه خُدع. وعندما أتاحت له اللياقة الفرصة طلب الانصراف، مسروراً بما يفعل.

ويخبر سلمى التي صحبته إلى الباب، أنه مسافر غداً إلى الجبل، وأن هنالك قرارات هامة ... وأن حضوره ضروري. فتندهش، إذ لم يخبرها بذلك من قبل؟ ويجيب:

ــ إنني علمت بهذا قبل قليل. إنه رسالة تلقيتها هذا الصباح ... أرجوك، لا تكوني حزينة. فالشوف ليست في آخر العالم!

ــ ومتى تعود؟

ـــ لاأعرف. وربما خلال ثلاثة أسابيع أو أربعة، على الأرجح. وسأخبرك بذلك، متى عدت.

وتشعر سلمى بأنه يكذب.

ـــ وحيد، أرجوك، قل لي الحقيقة. ألم تعد تحبني أبداً؟

فيضحك، ويبدو من جديد جذاباً، مع بعض السخرية.

ـــ إن لديك فرط خيال، ياعزيزتي. ألا تعرفين كم أنت غالية عليّ؟

وتناول يدها، وبحركة أصبحت مألوفة يوّدع قبلة داخل راحة اليد.

ـــ إلى اللقاء القريب!

ووقفت على العتبة، لتراه يمضي، وتتبعه بعينيها، حتى آخر الشارع.

ولم يلتفت.

ومضى شهر، ولم تتلق سلمى أي خبر. وهي تعلم أن وحيد يكره الكتابة، ولكنها بدأت تقلق: فلعله مريض، أو جريح. ففي هذه الجبال، يسهل على الناس إطلاق الرصاص، ووحيد يضايق الكثيرين من الناس.

إلا... إلا أن تكون أمه قد استولت عليه ثانية، وأقنعته أنه بالدرجة الأولى لقبيلته، وأنها وجدت له خطيبة درزية...

وذات مساء، وخلال عشاء عادت، فلقيت فيه مروان وأمل اللذين كانت قد أهملتهما بعض الشيء في الأيام الأخيرة، وكانت سلمى تستمع مسرورة، إلى آخر حكايات العاصمة وإشاعاتها. فإذا باسم وحيد يذكر، ويجعلها ذلك تنتفض. إنها امرأة شقراء لم تكن قد رأتها قط، تتكلم بصوت عال هابط.

ـــ أسمعتم بالخبر؟ إنه يتزوج.

وتسكت قليلاً، لتتذوق أثر ماقالت، فكفّ الناس عن محادثاتهم.

ـــ ولا يمكن أن تحزروا مع من: مع صبية أمريكية تملك المليارات، وهي ابنة مدير اير آم

Air AM . وهي شركة طيران كبيرة . وبما أنه كان بحاجة إلى المال ، لكي ينطلق في السياسة ، فلقد عرف كيف يتدبر أمره !

وحيد ؟ ... أمريكية . وشعرت سلمى بأن قلبها خرج منها .

وكان مروان أمامها ، ينظر إليها ، متوسلاً ، مُلحاً .

لا تخف شيئاً ، يا مروان ، فأنا أعرف أنهم ينظرون إليّ ، ولن أجعل من نفسي ، مشهداً يستمتعون برؤيته . وأصلاً فإن هذا كله ، مستحيل ، ويجب أن تكون هذه المرأة قد أخطأت الرواية . وهذه أيضاً واحدة من « مزحات » وحيد . فهو مغرم بإطلاق الأخبار الكاذبة ، ليرغم الناس على الهذر ... ولكن ... تقول إنها رأته . فهو في بيروت ، ولم يهتف إليها ... وحيد ، يا وحيدي !

وتغمض سلمى عينيها ، ويصاب رأسها بالدوار . فلا تملك تجميع أفكارها . وفجأة اقتنعت أن ما روته هذه المرأة صحيح .

ورافقها مروان وأمل في العودة ، وهما صامتتان . وماذا يمكن أن يقولا ؟ حقاً إنه لا مجال لأي شيء يقال .

وفي اليوم التالي ، انتظرت سلمى ، طول النهار ، وهي جالسة على مقربة من الهاتف . فهو سيهتف إليها ... ومن المستحيل ألا يطلبها ، وعلى الأقل ليشرح ما جرى ... فلم يكن هناك إلا هاتف واحد من أمل . إذ أكّدت ، مصعوقة ، أن الخبر صحيح ، وأجابت سلمى : شكراً دون أن تعرف على ماذا تشكر صديقتها ، وبخطوات تائهة اجتازت الممرّ ، ودخلت إلى غرفتها .

وتمدّدت على سريرها ، وعيناها مفتوحتان جداً ، وتشعر بأنها تحوم فوق الأرض . ولا شيء يؤلمها ، ولكنها تتساءل لِمَ فعل هذا ؟ وكان يمكن أن تفهم الأمر ، لو أنه تزوج من درزية ، فرضتها عليه اعتبارات سياسية . ولكن هذه الأمريكية ، ما شأنها ... هذه المليارديرة ... فهل يكون رجلاً عامياً يجري وراء مال المرأة ؟ وفي هذه الحال ماذا ينتظر منها ؟ وتتذكر كل كلمة من كلماته ، كما تتذكر لحظات صمته ، خاصة ، ومختلف تفاصيل هذه الأشهر التي قضياها معاً ، يوماً بعد يوم . أويمكن أن يكون قد نسيَها ، وهو لم يكد يبتعد عنها ؟ أم أنه ضحّى بحبهما ، لأنه كان بحاجة إلى المال ، لمتابعة نضاله .

ولو أنه جاء يشرح هذا لها ، فقد كانت على الأغلب ستصدقه ، ولقبلت ... وربما كانت قد فهمت كل شيء ، إلّا هذا الصمت ، وهذا الجبن ، وإلا أن يتخلى عنها دون أن يقول شيئاً .

وتمـلّكها ألم يبدو لها أنه أليف ، كألم جرح قديم ، جرح كنا نعرف أنه سينفتح ذات يوم ، فننتظره بفضول مرضي ، وخضوع هادىء .

وامّـحـى وجه وحيد ... لكن خيري بك ينظر إلى سلمى بلا مبالاة عابثة .

ـــ لماذا نتهم الآخرين دوماً ؟ فلئن تخلوا عنك ، فالأرجح أن ذلك تم بسبب منك !

الأرجح ... ولكنها عبثاً بحثت ، وهي لا تفهم ما الخطأ الذي ارتكبته ، ولماذا تخلى عنها وحيد ، كما تخلى عنها قبله أبوها .

وبم هي مذنبة ؟ وأي قانون تجاوزت ؟ وبقبضة يدها تضرب جبينها : إن هنالك سبباً ولا بد . هنالك دائماً سبب . أو أن العالم هو المجنون ، بلا حدود ، ولا قوانين . وهذا لا تستطيع ، بل لا تريد أن تتصوره ، وتفضل أن تستسلم لهذه البداهة ، الغامضة ، على أنها مطمئنة : فهي التي كانت على خطأ .

ومن على كرسيها ، كانت السلطانة تراقب ابنتها بقلق ، فمنذ أيام كثيرة ، كانت هذه تأبى الطعام . وتبقى حبيسة غرفتها ، أو تمشي في الممرات . ولا بد من أن تتدخل ، قبل أن يداهمها المرض فعلاً .

وتصارحها ذات صباح عندما بدا لها أن الفتاة أقل ذهولاً ، فتقول :

ـــ ألا تظنين أن هذا الشاب قد كذب عليك : وكان عاشقاً ، وهذا مؤكد . ولهذا أنا معجبة به من حيث أنه ملك الحكمة المناسبة ليقطعك عنه .

ويعلو وجـهَ سلمى سيماءُ اللوم ، فترفع عينيها نحو أمها .

ـــ أيندجيم ، ليس لدي استعداد للمزاح .

ـــ إني أكرر عليك القول : إنه كان يحبك . ولكنه لم يكن واثقاً من نفسه بدرجة تسمح له بإرهاق نفسه بامرأة من طينتك . فهو بحاجة إلى امرأة مطيعة ، لا تطرح أي سؤال عليه ، إذا هو غاب عنها ثمانية أيام في مهمة سريّـة ، أو في رحلة صيد مع الأصدقاء ، أو لمعاشرة خليلة ، فإذا عاد استقبلته مبتسمة . وأنت لم تكوني تتحملين القيام بدور الزوجة المجاملة ، هذا ، مدة شهر واحد . إن نساء أسرتنا كـنّ دائماً أفراساً حُـرُناً .

وكانت خديجة تنظر إلى ابنتها ، وهي تتكلم : أما هذه ، فكان وجهها مغلقاً ، وتنظر إلى

أطراف أصابعها . ولكن حتى إذا كان في الكلام بعض الكذب ، فإنه ضروري لإنقاذ ابنتها وجعلها تعود إلى الثقة بنفسها ، فتقول :

ــ إن هذا الشاب قد خاف . ولئن تخلى عنك ، كما تحبين أن تقولي ، فذلك لأنه كان يحبك بإفراط ، لا لأنه لم يعد يحبك .

١٠

وفي ربيع العام ١٩٣٦ ، ربحت الجبهة الشعبية الانتخابات في فرنسا. وشكّلت حكومة برئاسة ليون بلوم. أما في بيروت ، حيث تتابع الأحداث باهتمام ، فإن الناس يتساءلون عما إذا كانوا سيحصلون من هذه المجموعة «الاشتراكية» الجديدة ، على الاستقلال.

ولقد أنجزت خطوة أولى : فمنذ ١٩٣٧/١/٢٠ ، حصلت البلاد على رئيس جديد ، هو إميل إدّة ، وهو الأول الذي انتخب بعد عشر سنوات. ذلك أن المفوّض السامي ، داميان دو مارتيل ، الذي أعاد العمل بالدستور ، على طريقته ، مسمياً هو نفسه رئيس الدولة ، وجاعلاً من البرلمان مجرد مكتب للتسجيل ، أرغم ، بحكم الاستياء العام ، على السماح بالانتخابات.

ولكن هذا لم يعد يكفي اللبنانيين. فمنذ الآن تراهم يشعرون أنهم مستعدون لإدارة شؤونهم بأنفسهم ، وهم لا يتحملون بسهولة تلك التضييقات والحدود المفروضة عليهم. وفي شباط من عام ١٩٣٦ قرّر البطريرك الماروني ، المونسينيور عريضة ، أن يجمع مؤتمراً يضم المطارنة ، فوضع هؤلاء بياناً موجّهاً إلى المفوّض السامي ، يطالبون فيه بالاستقلال الفعلي للبنان ، وبوضع دستور جديد ، خلال المدة الفاصلة ، يضمن حرية الصحافة ، والاجتماعات ، وتأليف الأحزاب السياسية.

ولكن حتى الرئيس إميل إدّة ، على كونه محبّذاً للانتداب — إذ كان يرى أن البلاد ، المقسّمة بين وطنيين لبنانيين ، ووطنيين عرب يطالبون بالوحدة مع سورية ، ليست بعد من الاستقرار بحيث تستغني عن الحضور الفرنسي — كان يصطدم بسلطوية الكونت دو مارتيل.

وتسخر أمل منهما فتقول :

ـــ لئن كان كل منهما يكره الآخر ، فذلك بسبب رئيسكا .

ورئيسكا دو كرشوف ، زوجة قنصل بلجيكا ، روسية بيضاء ، رائعة الجمال ، وقع الكونت في حبها ، وهام بها هياماً كبيراً . لكن الوسط السياسي ـــ الاجتماعي ، الصغير الذي كان على علم بهذا الحب ، كان يتابع بتعطش كبير أطوار تقلباته ، ذلك أن رئيسكا امرأة متقلبة ، وكثيراً ما تغلق الباب في وجه الكونت الذي يصاب باليأس . ولا يجهل هذا كله إلا الزوج اللطيف « روبير تينو » والبشعة جداً ، الكونتيس دو مارتيل .

ولكن إميل إدّه أساء إلى رئيسكا إساءة بالغة . ويقال إن هذه عملت المستحيل لتعزيز ترشيحه ، ولا سيما لدى الكونت دو مارتيل . وحدثت المشكلة . فهذا الناكر للجميل ، لم يدعها إلى الغداء الذي أقامه في اليوم التالي ، لانتخابه ، لكل عظماء بيروت . وهذه أشياء لا تغتفر ، ويتهامس الناس في أن المندوب السامي شعر بأنه شتم وأهين كما أهينت حبيبته الجميلة .

وسلمى تعرف رئيسكا جيداً ، بل إنها عادت فرأت وحيد لأول مرة ، في حفلة عشاء عندها . إذ لم تحبس نفسها ، بسبب حزنها : بل على العكس ، وبدافع التحدي ، كانت تحضر كل البالات . وكانت الصديقات الطيبات اللواتي يتهيأن ليقلن لها بعض كلمات المواساة ، كن يفعلن ذلك لحسابهن . فما بدت الفتاة في يوم ٍ ، متفتحة ، منتعشة كما كانت في مثل ذلك اليوم .

وفي ذلك المساء ، في الحين الذي كانت تأتي فيه متأخرة كالعادة ، وتدخل صالون الكرشوف ، كانت قد رأت ذلك الشخص الطويل الهامة ، الأليف ، مستنداً إلى المدخنة : فشعرت بأن قلبها توقف عن الخفقان ، فرئيسكا التي كانت تتحدث مع وحيد ، استقبلتها بالقول ، وربما ببعض الذهول :

ـــ أظن كلاً منكما يعرف الآخر .

أما حولهما ، فقد توقف الناس عن الكلام ، وبجهد كبير ابتسمت سلمى ، ومدَّت يدها لوحيد ، وقالت له بعد أن تحكمت في رجفان صوتها :

ـــ كل تهانيّ ، لقد علمت بأنك تزوجت .

وامتقع لون الرجل ، وقال كيفما اتفق كلمة شكر دون أن يجرؤ على النظر إليها . وفجأة

وجدته جباناً ، وبلا أفق . وعندئذ التفتت ، ضاحكة ، إلى ذاك الذي كان يقدم لها ذراعه ، ليرافقها إلى غرفة الطعام ، وشعرت بسعادة جديدة ، وبدت لنفسها خفيفة كزغب البط ، وقالت لنفسها : إن الحياة جميلة .

ووصلت أمل بعد هذا الظهر حاملة خبراً ضخماً ، فهي ستخطب لواحد من أبناء عمها آل الأطرش ، أحد أعضاء الأسرة الدرزية القوية ، المعروفة في سورية . وكانا لم ير أحدهما الآخر إلا مرتين ، منذ سنوات ؛ وهي تتذكر فتى طويلاً ، أكتافه عريضة ، وله ضحكة طيبة ، وأكبر منها بثماني عشرة سنة . وعبّرت خالتها عن رأيها فيه ، فقالت : « إنه شجاع كأسد ، وواضح كالذهب » . وكانت هي التي تحرص على السعي لتحقيق هذا الزواج « قبل أن تموت » لا لأنها مريضة « ولكن في مثل عمري ، يجب أن يكون الإنسان مستعداً » . وهم يسكنون في دمشق ، جوهرة الشرق الأوسط ، وقلب العالم العربي ، وشاهد حي على ألق الخلفاء الأمويين .

ــــ وعلى كل حال ، فإنه يجب على الفتاة أن تتزوج ، قالت ذلك أمل ، مع ضحكة خفيفة .

ــــ وأنت يا سلمى ؟

ــــ أنا ؟ ما لك يا أمل ؟ إن العالم مفتوح أمامي . وأقول أحياناً لنفسي إنه يمكن أن أكون ممن يدخلن سباق السيارات ، أو قد أذهب فأعنى بالمجذومين . والمشكلة هي أني أخاف من السرعة ، وأن المرض يصيبني بالهلع ... أما ملكة ؟ فقد جرّبت ، ولكن ذلك لم ينجح ، أو نجمة سينما ، فلم أنجح أيضاً ... أو عاشقة ، فقد كان النجاح أقل ! ... فإذا كان لديك فكرة ما ، فأنا مستعدة لتجريبها .

وسلمى تقول أي شيء كان ، لتغطية اضطرابها ، وتلوم أمل على أنها تركتها . غير أن هذا الزواج ، في الأعماق ، يرغمها على مجابهة وضع كانت تهرب منه ، فقد أصبحت في الخامسة والعشرين وهي الوحيدة من مجموعتها التي بقيت عزبة ، لا لأنها ترغب في الزواج ، فقد غـرِّر بها بالدرجة الكافية . ولأنها مزهوة بنفسها ، أو هي تخشى أن تتألم ، فإنها لا ترغب مطلقاً في تكرار الخيبة . أما أن ترضى بحجز حريتها ، فقط لوضع حد لحياة العزوبة ، فهذا مما هي غير مستعدة لقبوله .

بيد أنها لا تستطيع أن تتابع الحياة على هذه الصورة . وعندما تتأمل في السنوات الأخيرة ، فإنها تشعر أنها كانت تدور في الفراغ ، وأنها شغلت نفسها بالاستقبالات وبألف تفاهة أخرى ، لعدم

وجود ما هو أفضل. وهي راغبة أكثر فأكثر بترك بيروت: وعلى الرغم من مظاهرها كعاصمة، فإنها قرية استنفدت هي ما فيها من وعود.

وليتها، على الأقل، تملك المال... كانت إذن ستقوم برحلات، وتمضي فتزور باريس، ونيويورك، وهوليود! لا وحدها طبعاً، لأن زينيل سيكون معها. ومع الأسف، فإن وضعهم المالي ليس قلقاً فقط، بل على وشك أن يصبح مأسوياً، فالحياة تصبح أغلى فأغلى. وعلى الرغم من توظيفات سورين آغا، فإن عوائدها تتضاءل من شهر إلى شهر.

وقد خطر ببال سلمى أحياناً أنها تستطيع أن تعمل! فهناك بعض السيدات البورجوازيات، على ما يقال، يعملن. وهي لا تعْرف منهن أحداً، ولكنها سمعت الناس يقولون ذلك. فلو أنها اقترحت ذلك على السلطانة... حقاً إنها لا تجرؤ على تخيّل ردّ فعلها. ثم، وعلى كل حال، ماذا تعرف أن تفعل؟

وسألت بلهجة مثيرة:

ـــ هل تعتقدين بأنهم يقبلونني كخادمة؟ فأنا أعرف كيف أطرِّز، وأنشىء باقات زهر رائعة.

فنهضت أمل، وأخذت سلمى بين ذراعيها.

ـــ يا عزيزتي، لا تكوني شديدة المرارة، إن هنا على الأقل عشرة رجال لا يطلبون إلا أن تقبلي بأيٍ منهم زوجاً، أوليس بينهم واحد يرضيك؟

ـــ ولا واحد.

وتخفيفاً مما قد يبدو في جوابها من ادعاء وغرور، أضافت تقول:

ـــ الحقيقة أني أختنق في بيروت. ولي رغبة في أن أمضي إلى الطرف الآخر من العالم، أي أمريكا مثلاً، إذ لا أستطيع العودة إلى استامبول.

وتنظر بعينين لامعتين، إلى صديقتها، وتقول:

ـــ أحب أن أغيِّر نسق حياتي، يا أمل. فالحياة هنا مفرطة الحلاوة. أتذكرين كم كنت

مثالية، وكم كان لديّ من الطموح؟ أما الآن فلم أعد إلا «امرأة تغشى بيوت الناس، في الحفلات والاستقبالات وبدأت الآن أكره نفسي».

وتظاهرت أمل بأنها مُـهتمة بسير حذائها وغامرت بالسؤال:

ـــ أيكون هذا كله بسبب وحيد؟

فانفجرت سلمى ضاحكة.

ـــ ولكن لا ... أي خاطر خطر ببالك! إن وحيد قد سقط من عيني كثوب اهترأ، إلى الدرجة التي أتساءل معها، أهو ذاك الذي كنت أحبّـه أم هو النضال الذي كنت أتخيّـل أن أقوم به إلى جانبه. كلا ... أترين؟ .. إني لست عاطفية ... ولكن أيُّ رجلٍ يتقـدَّم لي لأشاركه حياته في مشروع ضخم، سأتبعه، بلا ريب، إلى آخر العالم ... يعني أني سأتبع المشروع، لا الرجل!

ـــ إني أعبدك. إنك الشخص الأكثر رومانتيكية بين كل من صادفتهم!

ومن غير أن تترك لسلمى الوقت الكافي لكي تغضب، قامت فقبلت سلمى على خدها، ومضت.

وجاء اليوم مروان في سيارته الحمراء، ليصحب سلمى إلى المدينة، في قضاء حاجاتها. فمنذ عدة أسابيع، لم تعد ترى سائقها الرسمي: فأورهان أبحر ... إلى ألبانيا. والحقيقة أن غضب مصطفى كمال دام طويلاً، ثم عادت العلاقات فاستؤنفت: وهكذا فإن الأمير عابد، صهر الملك هناك، فـكّـر بأن ابن أخته هذا يصلح تماماً لأن يكون ضابط مرافقة لجلالته، زوغو الأول، بدلاً من أن يكون سائق تاكسي في بيروت.

وبشوق وحنين رأت سلمى ابن عمها المفـضّـل يسافر إلى هذه الألبانيا التي طالما حلمت بها. وقد ذهبت لتأتي بالكتب والمجلات التي كانت قد اطّلعت عليها بحماسةِ المستجـدّ، منذ أربع سنوات، والتي لم يطاوعها قلبها قط في رميها.

ـــ إن هذا يخفف بعض ما أثقلت به جرار مكتبي ـــ على ما كانت قد قالته وهي تجهد لتبدو لا مبالية، على حين أن زينيل الذي لم ينس الأسف على هذا الزواج الذي لم يتحقق، كان يستنزل غضب السماوات والله، على هذا الطاغية الذي حال بين ابنته الصغيرة، وبين أن يتحقق مشروعها ذاك.

ولكنها في هذه اللحظة من بعد هذا الظهر الخريفي ، رأت أن ألبانيا بعيدة جداً . وما كادا ينعطفان في زاوية الشارع ، حتى خلعت قبعتها ، وألقت رأسها على المسند الجلدي . آه ، كم تحب أن يعبث الهواء بشعرها ! وكم هي على ما يرام مع هذا المروان . فهذا ، على الأقل ، غير متمسك بالمبادىء . أما خيري ، فلو أنه رآها بهذه الحال ، إذن لأراها من آياته عجباً ، ولمضى ينقل لأمّه خبر ما حدث .

ــ لقد طالما حَلِمتُ بأن يكون لي أخٌ مثلك ، وأخي لا يقوم بأي شيء من أجلي ... قالت ذلك وهي تتنهد .

فأجاب مروان محتجاً :

ــ أنت ظالمة ، أفتقدّرين أنت ، إلى أي حد ترهقينه ؟

واستنكرت سلمى :

ــ أأنا ، أُرهقه . أو هي خطيئتي أنا إذا كان بطيئاً كالرخويات ؟

ويبتسم مروان . فهو لن يناقش ، لأنه يعرف أن من المستحيل ، أن يفهَم الإنسانُ العاصف الحيوية ، أن للأصداف مزاياها أيضاً . وفيما يتصل به هو ، فإنه لا يتعاطف مع خيري ، لكنه ذلك اليوم ، وعندما سمع بخبر خطبة أمل ، رآه يحتفظ برباطة جأشه ويتدّرع بكرامته ، بصورة لا يخفي معها بؤسه . وقد أشفق عليه .

وأتم الاثنان قضاء حاجاتهما في باب ادريس ، في مركز المدينة ، ثم إن مروان اقترح أن يذهبا إلى بيت أمل ، حيث يتذوقان أطيب مشروبات بيروت . وعندما وصلا إلى ساحة المدفع ، توقفا بسبب مظاهرة تسير هناك : كان فيها خمسون شاباً تقريباً ، يلبسون الشورت والقمصان الزرقاء ، ويمشون مِشية عسكرية .

فقالت سلمى ، على سبيل الاقتراح :

ــ تعال لنرى .

وعندما نزلا من السيارة ، اختلطا بالصبية الذين ينظرون إلى ما هناك ، وهما يتبادلان التعليقات الساخرة .

ـــ أومرة أخرى، ميلشيات الجميّل؟ فمنذ أن ذهب هذا الرجل، إلى برلين، بمناسبة الألعاب الأولمبية، لم يَعُد هنالك حدٌّ لغروره.

ـــ أتعرفين كيف يسمي رجاله هؤلاء؟ إنه يسميهم الكتائب! والفوهرر بطله. ويدّعي أن منظمته رياضية بحتة، وغاياتها اجتماعية. أما في الواقع فإنه يريد تنظيم الشباب اللبنانيين على طريقة الشبيبة الهتلرية، الشبيبة التقية والقاسية، والمغالية في التعلق بوطنها.

ـــ وماذا يعني ذلك، فنحن جميعاً متعلقون بأوطاننا؟

ـــ لا تخطئي، فبالنسبة لهؤلاء الفتيان، فإن الذين يريدون الوحدة مع سورية، أي نصف الشعب، هم لبنانيون فاسدون. ولهذا فإنهم لا يقبلون عناصرهم إلا من الوسط الماروني، تقريباً، على الرغم من أنهم اجتذبوا بعض المسلمين.

ـــ هذا مضحك. والأفضل أن يساعد أباه في الصيدلية.

ـــ الصيدلية؟ أية صيدلية هذه؟

ـــ تلك التي ترينها أمامك، في مدخل الحي، والخاصة بالموارنة بل إن مكان هذه الصيدلية... المتميّز، هو الذي جعل الناس يلقبون صاحبها الأب جميّل «بملك القميص الإنكليزي»!

فيضحك كل الناس.

ـــ وماذا يقولون؟.. وهذا هو السؤال الذي تطرحه سلمى على مروان.

ـــ لا شيء، تعالي.

فيأخذ بيدها إلى السيارة، وعليه سمة الغمّ.

وفي شارع رستم باشا كانت السلطانة تنتظرهما تجزع. ولكن سلمى، على أكبر دهشة منها، لأنها ترى أن حسن الضيافة لدى أمها يصل أحيانا إلى حد الهوس، سلمى، هذه المرة، تلاحظ أن أمها لا تدعو مروان إلى البقاء لتناول الشاي. وبعد عدة دقائق من الحديث المهذب، استأذن مروان بالانصراف.

وما كاد الباب ينغلق وراءه . حتى دعت السلطانة ابنتها ، وأخبرتها بصوت مرح جداً ، مما هو غير مألوف لديها ، بأنها تريد أن تحدِّثها بأشياء جدّية . وهذا النوع من المقدمات ، يجعل سلمى عادة ، تقف حذرة . ولكن أيندجيم اليوم تبدو على أحسن حال ، مزاجاً .

ــ يجب أن تفكري ، يابنيتي بأن أملك تهتم أسوأ الاهتمام بمستقبلك ... لا ، لا تقاطعيني ! فكل صديقاتك قد تزوجن . وأمل نفسها على وشك الزواج . والحقيقة أني تلقيت في هذه الأيام الأخيرة عدة طلبات ، لم أخبرك بأي منها ، لأني كنت آبى لك أن تكوني زوجة ، لرجل لا على التعيين ، لمجرَّد أنه أرستقراطي . وكنت أريد لك زوجاً لائقاً بمرتبتك ، وبجمالك . ولقد بحثت مدة طويلة ، واليوم ربما ...

وهنا تقطع جملتها ، كالممثل الذي يريد أن يلاحظ آثار ما يقول . ولكن لما رأت سلمى تظل في صمتها ، فإنها تتابع حديثها ، بشيء من التحذلق :

ــ وربما وجدت اليوم ما أبغي .

وكانت تنتظر أن تتلقى من ابنتها سؤالاً ما ، أو على الأقل علامة تدل على الاهتمام . ولكن سلمى ظلت صامتة . لا ريب أن ابنتها تعوَّدت إدهاشها دوماً ، فمرة بالنار ، ومرة بالجليد ، مما لا يمكن التنبؤ به ! فتصاب ببعض الخيبة ، وتعود فتلح :

ــ فماذا ترين في ذلك ؟

وتتنهد سلمى ، وتقول : أيندجيم ، هل يجب حقاً أن أتزوج ؟

ــ أي سؤال . ولكن بالتأكيد يجب أن تتزوجي ، إلا أن تفضلي البقاء عانساً ؟ ولا تقولي لي إنك ما زلت تبكين على ذلك الدرزي ! هيا ، سلمى ، بعض الجد ! إنك لم تعودي في ذلك العمر الذي تتقلب فيه الفتاة تقلبات غير منتظرة . وعليك أن تبني مستقبلك ، وأنت تعرفين جيداً أن هذا ، بالنسبة إلى المرأة ، يمر بالزواج .

وتخرج من حقيبة يدها غلافاً أزرق طويلاً .

ــ هاك الرسالة . وأظن أنه سيهمك . إنه من صاحب السعادة مولانا . شوكت علي ، مؤسس الحركة الهندية لدعم الخلافة . وهو ، على ما تتذكرين ، الذي كان الوسيط في زواج بنات عمك ، نيلوفر ، ودورو شيهفار ، مع أبناء نظام (المهراجا الكبير) من حيدر آباد ، أكبر دول الهند .

ومولانا رجل صموت ، وهو مخلص لأسرتنا . وهكذا فقد اتصلت به . وقد مضى على ذلك ما يقرب من سنة ، بل لقد أرسلت إليه صورتك . ولكن لما لم أتلق خبراً منه ، فقد نسيته تقريباً . وها إني هذا الصباح أتلقى جوابه . فهل تحبين أن تعرفي محتواه ؟

وأجابت سلمى ، بلهجة اللامقتنعة ، إلى الحدّ الذي جعل أمها تلفها بنظرة مستنكرة :

ــ بالتأكيد ، أيندجيم .

ولكن السلطانة تمتنع عن القيام بأي تعليق قد يثيرها ضدها : ذلك أن المهم هو أن تصغي . ثم يجب بعد ذلك أن تقنعها بلقاء الشاب ، على الرغم من أن ذلك لن يكون مهمة سهلة في الحالة النفسية التي هي فيها .

ــ إن سعادته يكلمني عن راجا في الثلاثين من عمره ، غني بطبيعة الحال ، ولكنه كذلك مثقف وعصري . ولقد قضى نصف حياته في إنكلترا ، في إيتون Eton ، ثم في الجامعة في كمبريدج ، ويسمى (أمير) وهو يحكم دولة بادالبور ، غير يد عن الحدود النيبالية : ولكنه يقضي أكثر الوقت في قصره في لوكنوف Lucknov ، إحدى أهم المدن في الهند . ويوضح سعادته أنه من أسرة مشهورة ، تنحدر بخط مستقيم من حظرة حسين (أي حضرة الحسين) ، حفيد النبي . أما أجداده ، فهم من أوائل الفاتحين العرب الذي وصلوا إلى الهند في القرن الحادي عشر .

وماذا أقول لك أكثر من أنه رأى صورتك ، وأنها أغرته ؛ وقد أرسل طلباً بالزواج بالشكل الرسمي . وبطبيعة الحال فقد أجبت بأن عليكما أن تتلاقيا . لكنه ، حالياً ، مشغول بمعركته الانتخابية ، إذ سُمح لأول مرة منذ أن صارت الهند تحت سيطرة الإنكليز ، سُمح بالانتخابات . ويجب أن تجري في آخر السنة ، وسيأتي إلى بيروت ، مباشرة ، بعد ذلك .

وتقول سلمى بلهجة حازمة :

ــ ليس عليه أن يلقى هذا العناء .

ــ أرجوك ، كوني عاقلة ، اقبلي على الأقل ، أن تريه . ولن نتحدّث لأحد حول هذا الموضوع ، بحيث أنه إذا جاء ، ولم يعجبك ، رُدَّ على أعقابه بكل حرية . ولكن ربما حلا لك ؟ إذ ليس من المألوف أن نجد كل هذا الرصيد في شخص واحد . فلأكثر الأمراء الهنود ، عقليات متخلفة جداً ، على حين أن هذا ، قد رُبّـي في أوروبا ...

ـــ أيندجيم ، لقد أسأت فهمي . ولقد قلت : ليس عليه أن يأتي . إذ أنني مستعدة للزواج منه .

ولا شيء يعيد سلمى عن عزمها ، لا تحذيرات السلطانة القلقة من هذا العزم المفاجىء ، ولا رجاءات زينيل ، ولا بكاء الكالفات . إذ تبقى صامدة كالحجر ، وتندهش من قلق الذين حولها ، لا سيما وأن أكثر « الزيجات » التي تمت لأفراد العائلة ، كانت حصيلة ترتيبات مسبقة ، ورغم أن الحالات النادرة الأخرى لم تكن مكللة بالنجاح العظيم ، أليس كذلك ؟

ولا تقف السلطانة على هذه السفاهة الأخيرة ، لأنها تشعر أنها تكاد تفقد أعصابها . ولكي نحصل على تعديلٍ ما في موقفها ، ربما كان من الأفضل أن لا نصدمها . والسلطانة التي لم تطلب قط في حياتها ، الشيءَ نفسه مرتين ، ها هي الآن تبذل قناطير من الصبر ، لكي تحاول إقناعها .

ـــ فكري يا سلمى ، فأنا لم أكلمك عن الراجا إلا لأخرجك من بؤسك ، وأبرهن لك على أن هناك رجالاً يستحقون الاهتمام ... لا لكي تندفعي إلى زواجٍ في الطرف الآخر من العالم ، في بلد لا تعرفين عنه حتى الآن شيئاً .

ـــ لقد فكّرت ، أيندجيم . فإذا أنا بقيت في بيروت ، فسأصاب بالجنون ، إني بحاجة لتغيير صورة حياتي . وكما كنت تقولين لي عند الحديث عن وحيد : يجب ألا نخلط بين الحب والزواج . وها إن كل ما قلته لي عن هذا الراجا ، يبدو مقنعاً ، فلِمَ المماطلة ؟

وتصغي السلطانة خديجة إلى حديث ابنتها ، مسحوقة . فهي تعرف طبيعة ابنتها الهَـوِيّـة ، وحساسيتها المفرطة ، وميلها المزعج إلى الانتقال من جانب إلى آخر ، دون الاهتمام بالنتائج . وهي تخشى أن تفسد حياتها ، بهذه التقلبات المزاجية . ولكنها وهي تستمع إلى المنطق البارد في محاكمات ابنتها ، والتي تتناول الحجج التي قدمتها هي نقطة فنقطة ، ماذا عساها أن تجابهها به ؟

ـــ إذن فليكن ما تشائين ، ما دمت قد اخترت ، وما دمت قد بلغت الخامسة والعشرين ، فإن من واجبك أن تعرفي ماذا تفعلين . ولكن ، على الأقل ، وخلال هذه الأشهر التي يكون فيها الراجا مشغولاً في الهند ، تكاتبا ، وحاولا أن يعرف كل منكما الآخر ، فنحن لن نذيع الخبر ، ولكن تذكري يا سلمى ، شيئاً واحداً : فعندما تتزوجين فإنه لا يسعك العودة إلى الوراء ، وما دمت قد وَعَـدْتِ بكامل حريتك ، فلا بـدّ من الوفاء بالوعد ، حتى ولو رأيت أنك أخطأت .

وكان الراجا يكتب مرة كل أسبوعين ، بانتظام رأت سلمى أنه غير طبيعي ، على الرغم من أن

الأم السلطانة تجده من دواعي التفاؤل . وما يكتبه هو نوع من المذكرات التي يهيمن فيها الحديث عن الحوادث السياسية التي تهز بلداً كالهند مأخوذاً بحمى الاستقلال . ويشعر الإنسان لدى قراءته أن الرجل مهتم قبل كل شيء ، بإطلاع الفتاة على المشاكل الكبيرة القائمة في بلده ، وعلى المصاعب والأفراح التي تحملها إليه مهمته ، كرئيس حكومة ، وهو يركز بشكل خاص ، على أمله هو ، وبعض أصدقائه ، المثقفين مثله في الخارج ، بقمع الظلامية بالتدريج ، وانتزاع الأفكار المسبّقة ، والوصول ذات يوم إلى بناء وطن حديث .

أما عن ميوله ، وعن حياته الشخصية ، فهو لا يتحدث إلا قليلاً . كما لو أن الحديث عنها شيء ثانوي أمام المشاكل التي تتخبّط فيها بلده . وسلمى التي كانت ، في البداية ، تقرأ رسائله ، بفضول ، أميل إلى الشك ، بدأت تهتم بهذا العالم الغريب الذي يصفه لها ، بكل هذا الهوى ، كما أخذت تحلم بالدور الذي يمكن أن تلعبه إلى جانبه ، فيه .

وإنها لممتنة منه على أنه لا يبدو عاطفياً . ففي مثل هذا الزواج ، المرتّب سلفاً لاعتبارات خارجية ، لا مجال للحديث عن العواطف . وهي لا تلقي في روعها أنه أحبها حباً عاصفاً ، من أول نظرة منه إلى صورتها . أما الشيء الذي أغراه ، فهو ، على الأرجح ، وقبل كل شيء ، فكرة الزواج من أميرة عثمانية . ذلك أن مسلمي الهند ينظرون إلى الأسرة الأمبراطورية ، وكأنّها تمثّل الله على الأرض ، أما بالنسبة لمن يعمل أو يريد الانطلاق في السياسة ، فإن الزواج من هذه الأسرة ، ليس بالرصيد اليسير . وأما من ناحيتها هي ، فعليه أن يعرف أن وضعه وثروته ، كانا بالنسبة إليها كفتاة ، عوامل حاسمة .

وبشيء من السخرية ، المخلوطة ببعض الغضب ، تتذكر سلمى تلك المبادىء التي رُبِّيت عليها ، سواء أكان ذلك في أسرتها ، أم لدى راهبات بيزانسون : « فأن يفقد الإنسان ثروته أو موقعه ، فذلك لا شيء ما دام يحتفظ بالشرف » . وحتى هذه الأشهر الأخيرة ، كانت تريد الإيمان بذلك ... وهي مدينة به إلى وحيد : من حيث أنه جعلها تحتك بالواقع — ولو بقسوة .

وانقضى فصل الشتاء بهدوء ، وكانت سلمى تهيىء سفرها . وعلى الرغم من نصائح أمها ، فإنها قد أطلعت بعض صديقاتها على أنها مخطوبة لراجا . وأسرعت الصديقات فقلن ذلك لغيرهن . فالهند ، بثروتها الأسطورية ، وأمرائها ، تحمل الإنسان على أن يحلم كثيراً . وهكذا فإنه لم يعد لأحد أن يتألم عليها ، بل صارت النساء تغار منها ، حتى إنها تلقت رسالة من وحيد يهنئها فيها على خطبتها ،

جاء فيها قوله: «آمل أن تكوني قد سامحتني. وأنت لا تتخيلين كم أن هذا القرار، الذي أملته الضرورة، كان صعباً عليّ، فأنت المرأة الوحيدة التي أحببتها في حياتي، ولن أشفى من الشقاء الذي أصابني من جراء فقدك».

إنه لم يتغيّر: ومرة أخرى لا يتحدث إلا عن نفسه، وببطء أحرقت الرسالة مع بعض الأسى، والكثير من الاحتقار.

وعلى الرغم من أنه كان على الزواج أن يتم في الهند، بسبب المنصب الرسمي الذي يتبوؤه الراجا، فإن السلطانة قـدَّرت أنه، على الأقل، سيأتي إلى بيروت ليأخذ خطيبته. ولكنه شرح في رسائل طويلة، محزونة، كيف أن وضعه السياسي، الدقيق بشكل خاص، يحول دون ترك بلاده لعدة أشهر أيضاً. وكان على الزواج أن يتم في نيسان /ابريل/ فهل كان يجب تأخير موعده؟

ولكن سلمى رفضت التأخير بوضوح ــ رغم إلحاح أمها التي تخاف أن تتركها ترمي بنفسها في مثل هذه المغامرة، حتى من غير أن ترى الرجل الذي سيصبح شريك حياتها. وما دام الراجا لا يستطيع أن يأتي، فلتسافر هي إليه مع زينيل، ومع السيدة غزاوي التي تقـدّمت لتكون السيدة المرافقة. وتشعر السلطانة، خلال ذلك، أن ابنتها الصغيرة خائفة مثلها، من هذا العالم البعيد الذي قـرّرت الحياة فيه، ولكن منذ الآن لا شيء ولا إنسان بقادر على أن يغـيِّـر رأيها.

وستمضي الأيام الأخيرة في حمى التحضيرات النهائية، التي بفضلها ينشغل الناس عن عواطفهم. بيد أن سلمى، لحظة السفر، تدخل إلى الصالون، لكي تودّع أمها. ولم تستطع السلطانة حبس دموعها: إنها مسنة، ومريضة. تُرى هل يقـدَّر لها يوماً ما أن تعود فترى ابنتها؟

وتضم سلمى بين ذراعيها، بأكبر قوة لها، وتقول:

ــ يا غاليتي، هل أنت متأكدة تماماً؟

ــ أوه، أيندجيم!

وتدسّ سلمى رأسها في كتف أمها، فتشعر أنها ترتعد، ولكنها تبقى حيث هي لتتنشق رائحة النرجس التي رافقت طفولتها.

ــ أيندجيم، إنك تعرفين جيداً أنه يجب أن نرحل، وأنه ليس هنالك من حلٍ آخر.

وانتصبت ، ونظرت كل من الامرأتين إلى الأخرى طويلاً ، وبعنف امّـحـت معه السنون ، أصبحتا ، من جديد ، كما في الأزمة الأولى ، مختلطتين إحداهما بالأخرى ، في اكتمال دافىء .

ـــ يا بنيتي الصغيرة ...

وتغمض سلمى عينيها ، ولا سيّما أنها قـرّرت ألا تدع مجالاً لتأثير الحنان ، ووهجه .

وبنعومة ترخي قبضتها ومعانقتها ، وبحبٍ لا مزيد عليه تُـقـبِّـل يدي أمها الجميلتين .

ـــ سأعود ، أيندحيم ، لا تخافي . انتظريني .

ومضت بسرعة ، كما لو أنها كانت تهرب .

القسم الثالث

الهند

١

ـــ ولكن أين هو إذن قطار المهراجا؟

ويبدو لسلمى أنها ما تزال تمشي منذ ساعات في هذا العفن المشمس، وفي هذا الصخب من الألوان والأصوات وفي هذه الفوضى الغريبة التي تهدّد في كل لحظة أن تودي بها، لولا هذا الحاجز القوي، من حولها، والمؤلف من حوالي عشرة حراس في غاية الضخامة، ومن ذوي الشوارب أيضاً. ونحن في شهر آذار / مارس /، والجو حار، ومحطة بومباي تشبه مركز ألعاب فروسية، في حالة الجنون، أكثر منها محطة أولى في شبكة السكك الحديدية التابعة للأمبراطورية البريطانية الفائقة العظمة؛ فهناك تحت القباب القوطية بين تيجان الصلصال الرملي، والأعمدة الفيكتورية المنحوتة نحتاً يملؤها بالأزهار، جمهور صاخب يزدحم، صاماً أذنيه عن النداءات الخنّاء للباعة الصغار، باعة الحمص، وغير مبال بالرائحة الكريهة لأطواق الياسمين المخلوطة ببقايا العرق والبول.

وتشعر سلمى بالاختناق، ولكنها لا تريد أن تكون في أي مكان آخر، مهما كان الثمن: ها هو إذن وطنها الجديد، وبعيداً جيداً تقوم أبهاء الرخام الأبيض ونوافير الماء في فندق تاج محل، حيث أحذت منذ نزولها من الباخرة، لتستريح. وهي تشعر الآن أنها وضعت حقاً رجليها على أرض الهند. فتحاول، وعيناها جاحظتان، أن تسجّل شريط الصور التي تتصادم، تحت الشمس، في خليط عنيف من الألوان: فيها القرمزي في العمائم العريضة لهؤلاء الحمّالين الذين يختفون تحت أهرامات قلقة من الأمتعة: وفيها الأصفر الفخم في ثياب «الزهاد». وفيها الأحمر والذهبي في

« ساريات » الزوجات الحديثات العهد بالزواج ، وكثرة من « المتسولين » الذين يتزاحمون حول البقع البيضاء التي تنشئها الكرتاه (أو القمصان البيضاء المصنوعة من الموسلين) ، كرتاه المسافرين في الدرجة الأولى .

وبدا لها أنها على وشك الانفجار من شدة الجمال ، والبشاعة ... ولم تعد تميّز شيئاً أمام هذا الشقاء المحمول بأشد الروعة ، وهذه الكثرة الساذجة والمفرطة القسوة بآن واحد : أولم تر منذ قليل شيخاً عجوزاً يقع ، والجمهور الجريء يتابع تقدمه ، كما لو أنه يتحرّك في حلم أحد العمبان ؟

ترى ماذا وراء هذه الجباه القاتمة ، وهذه العيون الحادة ، التي تتفحصها ؟ لقد شعرت بالاضطراب ، فالتفتت إلى رشيد خان ، الرجل الثقة لدى الراجا ، والذي جاء لاستقبالها لدى وصولها من بيروت ، كأنما هي تسأله ، ولكنه ابتسم مطمئناً ، أمام سؤالها الصامت (المضمر) — ثم كيف لها أن تصوغ سؤالاً مطلقاً كهذا ؟

وقال :

— لا تخافي شيئاً ، يا صاحبة السموّ ، فالهند صدمة لكل قادم جديد ، ستتعودين .

ثم أضاف ، كما لو أنه يقول لنفسه :

— بمقدار ما يستطيع الإنسان التعوّد على ما لا يقبل التفسير ... وفي آخر الرصيف ، هنالك حرس مدجّجون بالسلاح يلبسون لباسهم الرسمي الأزرق ، الذي يحمل شعار دولة بادالبور ، وهم يقومون على حراسة عربة قطار خاصة جاءت من أجلهم ، وكان حولها عناقيد بشرية تحاول عبثاً أن تأخذها عنوة .

واستولت على سلمى دهشة ، كبتتْها : فقد كانت تنتظر قطاراً كاملاً ، كقطار بنتي عمها نيلوفر ودورو شيهفار ، زوجتي أميري حيدر آباد ، ولم تعد تندهش من أن يخبرها رشيد خان بأن أمامها ثلاثة أيام وليلتين من السفر ، ضرورية لاجتياز ثلاثة آلاف كم ، هي التي تفصل ، بومباي عن لوكنوف : فهذا القطار البطيء الزحف ، والمسمى بشيء من التفخيم ، اكسبريس ، يجب أن يتوقف في كل قرية !

وبصورة غامضة بعض الشيء ، شعرت بإهانة وُجِّهت إليها ، كما حدث البارحة ، عندما لاحظت لدى وصولها أن الراجا لم يكن موجوداً .

وتنظر إلى مرافقها الذي يبتسم ، ملاطفاً ، وهو أبعد ما يكون عن ملاحظة العاصفة التي تختمر ، فتقلقها بلادتهُ أكثر وأكثر : ومن المؤكد أن أمين سر الراجا ، يرى أن كل شيء على ما يرام .

أتراها ضُـلِّلت ؟ لقد كانت تحسب أنها ستستقبل كملكة ــ أوليس خطيبها برئيس دولة ، في مثل مساحة لبنان ؟ ثم إن مندوبه مولانا شوكت علي إلى بيروت حَـدَّثها مطولاً عن الثروة الخرافية للأمراء الهنود ، وعن القصور الكثيرة ، وعن الصناديق المفـعَـمة بالأحجار الكريمة ... وقد جعلها هذا الوصف الذي أعاد إليها ذكرى الفخفخة التي عاشتها في طفولتها ، جعلها تحلم ، وعـزّز قرارها .

وها إن كل شيء يتبخر في غبار هذه المحطة ، على قدم هذه العربة المتمايلة ، وهي العربة التافهة المقـدَّر أنها ستحملها إلى المجد ...

أما داخل العربة ، فإنهم يتمايلون ، ويترجحون . وها إن الخدم المعـمّـمين يندفعون من مرقاة العربة ، متطلعين بفقدان صبر إلى رؤية رانيتهم[1] الجديدة . ومن خلفهم تتكاثر الأصوات الحادة لنساء يكدن يختنقن من الأغطية السوداء التي تلفهن وتحجبهن .

ــ ياصاحبة السمو ، هؤلاء هن حشمك . وقد حرص الراجا على أن يأتين ليكنّ في مرافقتك . ولكن ليس لهن الحق بالخروج ، فلنصعد ، أرجوك ، إن السفر بادىء عما قريب .

وتتنفس سلمى في ظل العربة ، على حين أن القطار يهتز . أما المكان فمريح : ومغطى بخشب الأكاجو الذي رصِّع بنحاس متألق ومصابيح من الكريستال . أما المقاعد المخملية والستائر الحريرية الكثيفة فتبدو وكأنها مصنوعة لإنكلترا القاتمة أكثر مما رُوعي فيها هذا الطقس الشديد الحرارة . ولكن هنا ، كل التجهيزات تأتي من المتروبول الذي يشحن بسخاء إلى مستعمراته كل ما يرى أنه أصبح قديم الدُرجة .

وأمام الفتاة ، هنالك نصف دزينة من النسوة اللواتي افترشن غطاءاً أبيض ، مُـدَّ على ظاهر الأرض ، وأخذن يتفحصن الراني ، ويتبادلن التعليقات بصوت أجش بعض الشيء . أما وقد تخلصن من بُـركـ ... ـتهن ، أي من هذه الخيمة السوداء التي كانت تجعلهن شبيهات بالغربان ، فقد ظهرن في فساتين متعددة الألوان ، وبدت حناجرهن ، وآذانهن ، والسواعد مغطاة بالذهب . وكن ينظرن بدهشة غير راضية إلى يدي سيدتهن العاريتين ، وإلى عنقها المحلى بعقد من دور واحد من اللآلىء .

---

(١) الراني ، أو راني : هي زوجة الراحا في لغتهم.

وتبتسم سلمى، المندهشة بعض الشيء: فكيف تشرح لهؤلاء أن مثل هذا التراكم، لديهن... ولكنهن لا يدعن لها المجال. وبدورة واحدة، خلعن عليها، هذه أساورها، وهذه حلق أذنيها، وها هي الآن مزينة كوثن معبود. ومن سعادتهن، أخذن يصفقن بأيديهن، ويقلن:

ـ روبسورات، باوت روبسورات.. أي هي جميلة وجد جميلة.

وهذه هي الكلمة الوحيدة من اللغة الأردية التي تفهما لأنها سمعتها تُعاد مئة مرة، على طريقها، منذ وصولها. لكن هذا الثناء لا يخفف من استيائها من الشعور بأنهن يلعبن بها كما يلعبن بدمية. إلا أن الحشم يفعلن ذلك بسذاجة جعلتها أخيراً تشترك في الضحك معهن، من جراء ذلك.

ليت أمها كانت تراها! وكالفاتها! ما أكبر الفرق بينهن وبين أولئك النسوة اللواتي عرفتهن في البلاط العثماني، كحشم ونساء مرافقات. أولئك ما كـنّ يجرؤن، ولو كن يعرفنك منذ الطفولة، على العبث بك بمثل هذه الحرية! ومع ذلك فإن مرافقاتها الجـدُد لسن بمسرورات: ذلك أن الطقم الحريري الذي تلبسه سلمى، وهو صناعة باريسية، من أرقى ما هو من نوعها، يبدو لهن، وكأنه يؤذن بشـرّ. أوليس الأبيض لون الأرامل؟ ولقد نهضت أصغرهن سناً، وهي مراهقة ذات خـدّين مدوّرين، واستلت من إحدى الحقائب فستاناً طويلاً، من لون الفوشيا الموشى بالفضة. وعلت تمتمة استحسان، تحية لمبادرتها، وكأنها قالت: هذا هو الثوب الذي يليق بمن ستكون زوجة عما قريب! وعلى الرغم من احتجاجات سلمى، التي يعتبرنها نوعاً من الخجل، يتهيأن لخلع الطقم الذي عليها. ولكن وُجد آنئذ من يقرع الباب. وبلمحة عين، طارت خلية الأزهار العديدة الألوان، إلى هذه «البركات» وحولتها إلى غربان.

وعلى عتبة العربة، كان رشيد خان واقفاً: وكان في عينيـه لوائـح إعجـاب، سرعـان ما احتجب. وبكل احترام يسأل:

ـ هل ترغبين بشيء، يا صاحبة السمو. فمرافقتك السيدة غزاوي، وزينيل آغا يستريحان في العربة المجاورة. وهما يريدان أن يعرفا ما إذا كنت بحاجة إلى شيء ما، منهما...

ـ شكراً خان صاحب.

وتلاحظ أن هيئة سكرتير الراجا تدل على أصله الأرستقراطي، وسلمى، المتعودة منذ طفولتها على عادات القصر، لا تحذر من معاملته كمجـرّد مستخدم.

ــ إني لا أرغب ، إن كان هذا ممكناً ، إلا في شيء من الهدوء .

ذلك أن غرائب هؤلاء السيدات قد أرهقتها ، وهي تطمح إلى أن تبقى وحدها . ولكن أنى لها أن تقول لهن ذلك بدون أن تجرحهن؟ فيبتسم رشيد خان .

ــ سأقول لهن إنك بحاجة إلى أن تنامي .

وعلى الرغم من رفض الحشم ، واستنكارهن ــ إذ من المستحيل أن تبقى الراني وحدها ، كأي بائسة ؛ فإذا هي نامت ، فعليهن أن يكـنّ هنا للسهر على نومها ــ ، فإنه يخرجهن من العربة ، بلطف .

وتتمدّد سلمى بكل طولها ، وتتمطى ، وبعد أن تخلصت من شنوف آذنيها الثقيلة ، ومن العقد الذي كان يثني رقبتها ، ها هي تهز خصل شعرها الحمراء ، وتعرض جبينها المنـدّى إلى المروحة الضعيفة .

ومن خلال النافذة ، كانت تمر الحقول المحروقة بالشمس ، وفيها فلاحون نصف عراة وراء ثور مهزول ، يدفعون سكة محراث بسيط يعود إلى ما قبل التاريخ . أما في القرى التي تسقف فيها البيوت بالقش ، فتلاحظ نسوة سوداً ، مهزولات ، جالسات القرفصاء ، منهمكات بصنع لبنات يلصقنها بالجدران لجعلها تجف ، ثم ينقلنها في سلال عميقة يضعنها بشكل متوازن على رؤوسهن . وسلمى تنظر إليهن وهن ملتفات بسَـوارٍ (ج : ساري ــ لباس الهنديات) من ألوان لامعة ، فتراهن رقيقات ، منتصبات القامة ، يتقدمن بهيئة شامخة ، وتفكر بأن عدداً لا بأس به من الملكات يمكنهن أن يشتهين صورة مشيهن . وأبعد من ذلك ، وإلى جانب بقرات بيضاء ، ذات قرون مصبوغة بالحناء ، تجد جواميس سوداء تمشي متعثرة داخل مستنقع : حتى ليظن الإنسان أنهن خصيان قصر ضولمة باهتشه ، يقومون بالحراسة حول أزهار الحريم البيضاء .

« استامبول ، يا جميلتي ، أأراك يوماً ما ؟ في بيروت كنت قريبة منك . وفي الليل أحلم بأني أعود إليك ، أما اليوم فإني أبتعد ، فأنا ذاهبة لأعيش في عالم غريب ، كما لو أنني يئست من أن ألقاك » .

ومن وراء النافذة ، تصبح الحقول ، ومزارع الأرز غامضة . وبدأت مناظر أخرى ، وقرى جديدة تمرّ لتراها بنت صغيرة ، حمراء الشعر « لطيانة » في زاوية قطار آخر كان منذ ثلاثة عشر عاماً ، يجتاز تركيا ليحملها إلى المنفى ..

وفجأة انتصبت سلمى . فهي لن تئن باستمرار ، كالأميرات العجائز ، خالاتها وعماتها ! إنها

شابة، أخّاذة، ولديها من القوة ما هو أكثر من كل أبناء أخوالها مجتمعين. هؤلاء الذين يمضون أوقاتهم في الشراب، والتأمل في إمكانية ثورة غير محتملة الوقوع، وهي ستربح! ولكن ماذا؟ ليس ذلك بواضح. ولكنها تعْرف فقط أنه يجب أن تعود فتحد مكانها، وما من إنسان أحبرها على ترك عذوبة لبنان، ولطفه، بل إنها هي التي قرّرت أنها بحاجة إلى غرس بعض الجذور، وإنشاء وطن لها، ومملكة تكون فيها ملكة، يحبها الجميع.

ولم تعد تؤمن بحب رجل ما — فما من لحظة شفيت من آثار خيانة أبيها، وما جاء تخلي وحيد عنها إلا ليفتح جرحاً قديماً — إنها تريد أن تُحَبّ من شعب بكامله. إن هذا معنى أن تكون ملكة، لا كما يتخيل السذّج، أي أن تحاط بالثروة والتعظيم: بل أن تحاط بالحب.

وكانت السلطانة تقول، ليست الفخفخة بمفيدةٍ، إلا من حيث أنها تحمل الجمال والأحلام إلى البائسين، كما لو أن جنية طيبة تحنو على عذابهم، لا كهذا الموظف الكئيب، أو كامرأة تعمل في دور الإحسان، وعلى وجهها من الكآبة ما يحلو معه لمن تُساعده أن يقوم هو بمواساتها! ولكن المساكين لا يعون الهدية التي لا تقدّر، تلك التي يقدمونها هم للأمراء: فهم بحاجة إلينا! ويجعلوننا نشعر بأننا ضروريون لحياتهم.

وعلى الرغم من شدة الحر، فإن سلمى ترتعد: ترى كيف سيستقبلها شعب بادالبور؟

ويحاذي القطار الآن الغات Ghats، أي هذه السلسلة من الهضاب التي تقطع الهند من الغرب إلى الشرق. وهنا يصبح العشب أكثر خضرة؛ وتقع العين على قطعان من الأغنام والماعز ترعى، محروسة، براعٍ له عمامة أرجوانية. وبعيداً عن ذلك، في مكان ضائع في وسط الحقول، نجد معبداً صغيراً من الحجر الأبيض، محاطاً بأعلام تتموج على هوى الريح، وهو يتموج كالسراب.

وهذه الآن تلك الساعة التي تسبق الغسق — ساعة الهدوء، والعذوبة، والانطواء على النفس، فقرّبت سلمى وجهها من عوارض الحديد التي تحرس النافذة. وبشراهة تتنفس أوائل نسمات الهواء الرطبة. فهي تتذوق كل لحظة، كل انطباع جديد، وتمتنع عن التفكير بالوجه الذي ينتظرها في آخر الرحلة.

لكن خيبة الأمل التي أحسّت بها، منذ وصولها، عندما لاحظت غياب أمير، لم تتبدد.

أوليس هو أيضاً على عجل، للقائها، أو أنه يكفيه أن تكون سلطانة؟ أوليس هذا الزواج نوعاً من البيع والشراء؟

«وأخيراً، ماذا أستطيع أن ألومه؟ إنني أتزوج ماله [illegible] أنا» [illegible] بعض خصل شعرها. وراودها رغبة في البكاء «إن هذا لأمر سخيف، فنحن لم نلتق قط. وعلى [illegible] [illegible] مهزلة [illegible]

وعبثاً حاولت أن تتعقل، فهي لا تستطيع أن تكبح جماح شهقات البكاء التي [illegible] تشعر أنها وحيدة، وحيدة... وماذا يجدي أن يكذب الإنسان على [illegible]. [illegible] وقحة؟ والحقيقة أنها رومانسكية لا شفاء لها.

ولقد حلمت بهذا الراجا، اللامع والشجاع. واهتزت معه [illegible] [illegible] ما لديه من مشاريع ومطامح وإصلاحات يريدها لبلده. ثم — ولم تخف ذلك — لقد غرّها جماله.

ومن علبة من المخمل، أخرجت رصيعة، وبدأت تتفحصها برصانة. وتلاحظ أن العينين القاتمتي اللون لا تنتهيان من الانشداد إلى الصدغين؛ وأن الأنف الناعم، مقوَّسٌ بعض الشيء، وأن الشفتين البضتين تبدوان ناعمتين فوق حفرة الفم الغريبة بعض الشيء. ومنذ شهرين أي منذ جاءها من عند أمير رسول من بادالبور، وأعطاها هذه الصورة، شعرت بأن شيئاً من رعشات اللذة، يغشى جسمها. وعلى الرغم من أنها كانت تريد أن تكون باردة وحيسوبة، فإنها تعرف الآن أن السحر الغريب الذي ينساب من هذا الوجه، الشبيه بوجه إلّه شرقي، قد استولى عليها وأتم إقناعها.

ولكن لِـمَ اكتفى بأن يرسل سكرتيره؟

كم هو مسكين رشيد خان، لقد كان لطيفاً، وغريباً إلى حد كبير. وعندما وصلت جاءها هو محمّلاً بباقة ضخمة من الزهر، ثم أسمعها دفعة واحدة جملاً من التمنيات، والمباركة بالوصول بالسلامة، باللغة التركية، وكان واضحاً أنه حفظها عن ظهر قلب، لهذه المناسبة. ولكن بدلاً من «التحيات والاحترامات» فإن الذي وضعه على قدمي سلمى هو قلبه الملتهب، وعندما لاحظ تعابير الدهشة على الفتاة، أدرك فوراً أن أصدقاءه لعبوا معه هذه اللعبة. فاحمرّت وجناته بقوة جعلتها هي تضحك، وذاب الثلج بينهما، ومنذ تلك اللحظة أصبحا صديقين.

وردت هذه الذكرى إلى سلمى مزاجها الحسن. فهذا الزواج سيكون ناجحاً جداً: أوليس لديهم كل شيء لكي يجعلوني سعيدة؟

واستمرت الرحلة ستين ساعة... وكانت أيامها خانقة، ولياليها شديدة البرد، وكان على الطريق عشرات من القرى، كلها شبيهة بجماهيرها المتعددة الألوان، وباعتها الصغار، باعة الشاي والفطائر، وبفقرائها، بشكل خاص، أي بالمتسولين، الذين يتعلقون من خلال العوارض، بكـمّ سلمى، ويلقون عليها نظراتهم الحادة. أما هي، فتسأل، والحنجرة منها مخنوقة، تسأل هذه العيون المهووسة الآتية من عالم تجهله، أتراها تنظر نظرات المجانين أو نظرات الحكماء؟ ومن يستطع أن يجيب؟ ورغبة منها في التخلص من هذا الإغراء الذي يأخذ بتلابيبها، تضع في الأيدي الممدودة إليها بعض قطع النقود، أما هم فإنهم يستمرون في تأمل هذه الإلّهة البيضاء المذهّبة، المنبثقة من نيرافانا عليا، ثم يظلّون مسمّرين هناك، مدة طويلة، بعد أن تغيب هي عن الأنظار.

ـــ سنصل إلى لوكنوف، خلال ساعتين.

غير أن القامة العالية، قامة رشيد خان، التي ظهرت من كـوّة الباب، جعلت سلمى ترتعد. فلقد كانت الرحلة من الطول بحيث أنها فقدت خلالها كل معنى للزمن. «أوصلنا إلى لوكنوف إذن؟» وبدأ قلبها يخفق بقوة. فتتوسل إلى سكرتير الراجا بنظراتها، فشعر هو بالتأثر من نظرات هذا الوجه القلق. ومرة أخرى، يطمئنها.

ـــ كل شيء سيجري على ما يرام، سترين.

ما أطيبه من رجل! وتمنحه أعذب بسماتها، لا لتشكره فقط، بل لترى في عينيه تلك الشعلة الصغيرة التي تقول لها: إنها رائعة وتعرف كيف تسحر.

ـــ لعلك تتلطّف بدعوة السيدة غزاوي إليّ بسرعة.

وفي الخارج، كانت أولى شعاعات الشمس ترعش حقول القمح، ولم يعد المجال يتسع للأحلام، إذ ليس أمامها إلا ساعتين حتى تتهيأ: وهي تريد أن تبهر أميرها الساحر. وقلما بقيت سلمى كل هذه المدة لتصفّف شعرها، وتضع زينتها. ولكنها على الرغم من جهود السيدة المرافقة، تجد أنها مخيفة! وقلّما تردّدت أمام الفساتين المنشورة بمقدار ما تردّدت هذه المرة، وكل ذلك لكي تتعجب أخيراً وتقول:

ـــ ولكن أين هو عقلي، إن الساري هو ما يجب أن ألبسه!

والساري، بطبيعة الحال، هو الرداء الوطني لبلدها الجديد: وهي تلبسه تكريماً للخطيب

الذي ينتظرها في المحطة، مع كل حاشيته، وبياناً للصحفيين وللجمهور الفضوليين المجتمعين لاستقبالها، أنها منذ الآن غدت هندية...

ودخل القطار إلى المحطة، أما في الخارج فهناك الضجيج والصراخ المعهودان. ومن قلة الصبر أصاخت بأذنها: وهي تجد عناءً في البقاء جالسة في هذه العربة التي خطر ببال رشيد خان أن يسدل كل ستائرها. وفجأة ثارت ضجة في العربة، أهو أمير؟ وشعرت بأن قلبها يتوقف. لكنه لم يكن إلا الرشيد.

ــ لحظات أخرى أيضاً، يا صاحبة السمـوّ، ريثما يهيئون البردة[٢].

ــ الـ: ماذا؟

ولا يجيب الرجل، وكأنه مزعوج. والسيدة غزاوي تتمتم بجانبها أن هذا كله غير طبيعي، فتسكتها سلمى.

ومنذ أن وصلت هذه اللبنانية إلى الهند، لم تنقطع عن التأفف، لأنها مستاءة، على الأرجح، من أنهم لا يهتمون بها الاهتمام الكافي.

ولكن هاهـنّ النساء الهنديات المرافقات، يظهرن من جديد: أما هنا فإنهن يستعدن كل حقوقهن التي مورين فيها بشكل مخجل، خلال هذه الرحلة، وكوجه الراهبات القديمات اللواتي يستقبلن، بكثير من الطيب، راهبة جديدة، يمددن لسلمى جبة سوداء طويلة (كاغول) شبيهة بتلك التي تغطي أجسامهن من الرأس إلى القدمين.. فاندهشت سلمى مما يفعلن، وسألتهن بنظراتها. ولكنهن يحطن بها، ولا يتركنها.

وتصرخ هي: لا، لا!!!

ولمّـا كانت صرختها حادّة، فقد انطلقت بقوة. فاندفع رشيد خان إليها مسرعاً. وكانت سلمى في زاوية من العربة، ترتجف، من شدة الاستنكار، وتحاول أن تمـزّق هذا الحجاب إرباً إرباً. وكانت النسوة اللواتي يُحطن بها يتشاورن في نوع السلوك الذي يجب أن يلجأن إليه. أما السكرتير، فقد وجد أكبر العناء في الاحتفاظ ببرودة دمه أمامهن. لقد تمت الرحلة على ما يرام، إلا أن هؤلاء الغبيات على وشك أن يفسدن كل شيء! فماذا سيظن القصر إن وصلت الخطيبة باكية!

---

(٢) البردة: وهي ستارة تفصل النساء عن الرجال. لكنها أصبحت تعني كون الإنسان محبوساً أو سجيناً.

ومع أن الرجل في العادة مجامل جداً، فقد أَمَرَهُن، مع ذلك، بصوت قاطع بالخروج. وبعد شيء من التمرّد الشكلي، عدن فخرجن، وفي ذواتهن أنهن جرحن، أو جرحت كرامتهن، دون أن يستطعن الاحتجاج بصوت عال، أنهن يُمنعن من القيام بواجبهن مرةً أخرى، وعندما بقي وحيداً مع سلمى واساها بلطف الحنوّ:

ـــ هذا لا شيء يا صاحبة السمو، فأتوسل إليك أن تهدئي نفسك، ولن تكوني بحاجة إلى وضع هذه البركة (البرقع)[٣]. أفتشعرين بأنك على ما يرام للنزول؟ فكل شيء جاهز لاستقبالك.

ولاحظت سلمى، من باب العربة، أن بِسَاطينْ طويلين، ملوّنين، قد مُـدّا: وفي آخر هذا الممر، كانت هنالك سيارة تنتظر. وهكذا فإن الأميرة نستطيع مغادرة القطار دون أن تُـرى.

ولما كانت مندهشة، فبصعوبة ما رأت رشيد حان ينحني لها.

ـــ إلى اللقاء، يا صاحبة السموّ، وليحفظك الله.

وعندما التفتت، كان هو قد غاب عن الأنظار، وحلّت محلّه سيدة قصيرة سمينة، تقدّمت نفسها بالقول: بيجوم نُصرة. وتملأ يديها بالقبل.

ـــ هوزور، يا صاحبة الشرف، إن هذا أجمل يوم في حياتي، ـــ وقالت ذلك بلغة إنكليزية ركيكة ـــ وكأن سلمى فهمت أن هذه الشخصية المزعجة هي زوجة حاكم دولة بادالبور.

غير أن سؤالاً كان يتردّد على شفتيها، وهي تعلم أن عليها أن تظل صامتة. ولكنها لم تستطيع المقاومة.

ـــ أين هو الراجا؟

ـــ ماذا؟ هوزور! ـــ وبدت المرأة القصيرة، وكأنها منزعجة ـــ سيدتي، لن تستطيعي رؤيته قبل الزواج. ولكن اطمئني ـــ ذلك أنها لاحظت على الفتاة سيماء خيبة الأمل ـــ فحفلات الزواج ستتم بسرعة كبيرة، خلال أسبوع واحد تماماً. وبانتظار ذلك، ستعيشين في القصر لدى الأخت الكبرى لسيدنا، الراني عزيزة.

وفي إحدى زوايا السيارة الضخمة (إيزوتا فراشيني) شعرت سلمى، المجـرَّدة من كل قوة،

---

(٣) في الأصل هذه الكلمة بركة ونظن أنها تحريف لكلمة برقع.

بأنها لم تعد تسيطر على خيبة آمالها . ومن كل السيارة الفخمة البيضاء ، حتى العادمات والأضواء المذهّبة ، لم تلاحظ ، بصورة خاصة ، إلا الستائر التي تغطي النوافذ ، تماماً كما كانت الحال في عربات استامبول المغلقة ، أيام طفولتها . وقليلاً فقليلاً كانت تشعر بأن الغضب يشتد : وهذا الذي كانت تأباه في الثانية عشرة من عمرها ، يجب عليها أن تقبله الآن ، بعد كل سنوات الحرية هذه ، ولا مجال للبحث فيه ، ولكن هذا كله ليس سوى إنذار كاذب : إذ لقد رأت بنات أعمامها ، نيلوفر ودورو شيهفار ، في صورهما ، كل يوم في الصحف ، وهما تُدَشنان المعارض ، أو ترأسان بعض حفلات العشاء ، ولم تحلم بهذا حلماً . فتحاول أن تطمئن نفسها ، وسدّ المنافذ على الرعب الذي بدأ يستولي عليها . إلا أنها تجد صعوبة في التنفس . ولا تملك أن تمتنع عن تذكر نظرة الإشفاق التي كانت تلمحها في عيني رشيد خان ، وصمته المتلجلج ، تجاه بعض أسئلتها . فلأول مرة ، منذ وصلت إلى الهند ، تشعر بأنها أخطأت خطأً فاحشاً .

وتباطأت السيارة قليلاً . فرفعت الستائر بعض الشيء رغم احتجاجات مرافقاتها ، لترى قيصر باغ « حديقة الملك » . إنها مربع كبير من المساحات المعشبة ، والمرتفعات المزهرة — وهي أكبر ، فيما يقال من اللوفر والتويلري معاً — وحولها تقوم القصور الأميرية .

وقيصر باغ ... الحديقة التي نشأت من حلم « واجد علي شاه » ، آخر ملك لمنطقة أود Oudh ، وهو موسيقي وشاعر ، أرغمه الإنكليز على التنازل عن عرشه ، عام ١٨٥٦ ، دون أن يفهم لماذا . ولما كان ميالاً إلى الفنون ، أكثر منه إلى السياسة ، فقد شاء أن يجعل من عاصمته الأعجوبة الثامنة في العالم ، وأن يجعل من قيصر باغ فرساي أخرى له . ولقد أنشأ ، من أجله ، ومن أجل نسائه الأربعمئة ، هذه السلسلة من التريانويات ، من الحجر الأصفر ، وزادها بهجة بشرفات وقناطر مكشكشة ، ومزينة بكثرة برسوم من عجين المرمر الأبيض أو الأصفر الفاتح ، أو تراب سيين Sienne ، على طريقة الروكوكو ، الأصفى ما يكون .

وكان ينبغي أن يكون هذا كله قليل الذوق ، على ما تفكر سلمى ، ولكنه بالعكس ، رائع حقاً . إنه لطيف ومرهف ، على صوة المجتمع ، الذي شاء بدلاً من أن يقاتل ، أن يسترخي ، ويترك نفسه لحكم أولئك الناس ، من لابسي الجاكيتة الحمراء ، والبرابرة الذين جاؤوا من الغرب .

أما قصر بادالبور الذي تسكنه سلمى ، فهو واحد من هذه التريانويات الباروقية [(أي على طريقة فن الباروق baroque) ، أي ذلك الفن الذي يتميّز بالإكثار من التزيينات والألوان ، والمنحنيات غير المتناظرة] .

وتشرح البيجوم نُصرة لسلمى أن هذا القصر هو المسكن المدني، للراجا، وموطىء قدمه في لوكنوف، وهي اليوم مركز إداري بريطاني، تتعلق به نحو من خمسين دولة. وعلى مقربة منا يسكن النواب دالبور، الذي يملك أجمل اسطبل في المدينة. وأبعد منه بقليل راجا ديلواني، المشهور في تنظيم معارك السماني، العجيبة. وأمامنا مهراجا ماهداباد، وهو من عشاق الشعر الكلاسيكي.

وعندما تذكر البيجوم نُصرة أسماء هده الشخصيات الهامة، فإنها تسرّ جداً، كما لو أن مجرَّد تنشق الهواء نفسه معهم، ومعرفة عاداتهم تجعلها كفرد من أفراد أسرهم.

ومن حسن الحظ، أن السيارة توقفت، وكانت سلمى قد أضجرت بهذا الهذر الذي لا ينتهي — وهي على عتبة حياتها الجديدة. فتشعر بالحاجة إلى الخلوة مع نفسها. وأمامها عادت البسط الملونة فانبسطت، وفي الأخير الأخير، وفي ثقب من السور، أمام باب عظيم وقف خصيان أسودان كئيبان جاثيان، يكنسان الأرض بعمامتهما.

هاهم إذن خصيان طفولتها... وشعرت سلمى فجأة بأنها عادت خمس عشرة سنة إلى الوراء. ولو لم تكن أمامها هذه السراويل الواسعة (الشالفارْ) والكرتاه الزرقاء اللون التي تعوِّض عن الاستامبولينيات القاسية، إذن لظنت أنها في قصر ضولمة باهتشه. ولكن ما إن صعدت على السلّم الحجري الهائل، حتى تبدّد هذا الإحساس. إذ تعود الهند، فتفرض نفسها بهذه الشرفات المنحوتة، كالدانتيل، وهذه الشرفات المنفتحة على الفناء الداخلي، حيث تجري المياه من النوافير جرياناً غنائياً، وبصورة خاصة، بهذه المجموعات من النساء اللواتي يتلاصقن ليقبّلن يدي الراني الجديدة، أو ليمسكن بطرف ساريها، بأشد المسكنة والتواضع، في حين أن أطفالاً نصف عراة يحدّقن فيها بعيونهم الواسعة السوداء المكحلة. لكن البيجوم، تدفعهم لأنه لا بد من السرعة، ذلك أن الراني عزيزة تنتظرهما.

وراني عزيزة... هي ابنة حماتها المقبلة، وتريد سلمى أن تعرف المزيد من المعلومات حولها. ونُصرة لا تطلب إلا هذا، فتقول:

— إن راني هي أخت غير شقيقة للراجا. وهما من أميّن مختلفتين. وهي أكبر من أخيها بخمس عشرة سنة. وعندما فقد أبويه، وهو صغير، في حادث يكتنفه الغموض، كانت له بمثابة الأم. إنها سيدة كبيرة، ولديها من الذكاء مثل ما للرجل! وفي عمر الرابعة عشرة، عندما أشرف أميرنا على الموت مسموماً، على يد عمه على الأرجح، عمه الذي كان له حق الحكم كرئيس للدولة، حتى بلوغ ابن أخيه سن الرشد، قرّرت راني عزيزة أن ترسله إلى إنكلترا للدراسة، وأخذت على عاتقها

تسيير شؤون القصر. وكان القيِّمون على الشؤون المالية يخافونها أكثر بكثير مما كانوا يخافون من الراجا العجوز الذي لم يكن يطالب قط بأي حساب، معتبراً أن هذا يحط من شأنه.

وتخفض البيجوم نُصرة صوتها، فتقول:

ـــ وهم يأملون أن يكون سيدنا الشاب أقل محاسبة لهم. فهذا المسكين إنما عاد حديثاً، بعد غياب اثنتي عشرة سنة. وهؤلاء الأوغاد يخططون لاختلاس أمواله. ومن حسن الحظ أن أخته الراني هنا.

«وأنا، لن يحسب حسابي أبداً، إذن» ومن دون أن تعرف سلمى هذه الراني، فإن حدسها يقول: إنها لن تحب راني عزيزة.

وكانتا قد مشيتا أكثر من ربع ساعة، عندما دخلتا إلى غرفة ذات سقف عال: ووجدتا هناك نصف دزينة من النساء، جالسات على الأرض، يثرثرن، وهن يكسرن جوز التنبول betel (من فصيلة الفلفليات) بكسارات من الفضة. فلما وصلت سلمى أثارت موجة من الاستغراب والعجب: إذ أنهن يحطن بها، ويضممنها بين أذرعهنّ، ويُشدن بجمالها. ولما كانت مذهولة، ومطمئنة بحكم حرارة الاستقبال، فقد سمحت لنفسها بالانطلاق مع هذه المجموعة الضاحكة: ثم يفتح لها ستارة أخيرة من الحرير وتُدخل إلى قاعة واسعة مزخرفة بموزاييك من الصدف، وبمرايا على صورة العصافير والأزهار. وهناك وجدت سلمى مجموعة نساء جالسات على سُرُرٍ من الحبال، ذات أرجل من الفضة، وهن يتسامرن، ويمضغن البان pân، أي الحلوى الوطنية التي تُصنع من جوز التنبول ومن بعض أوراق مرّة، أو أنهن ينتشين بشرب نوع من التبغ المعطّر، من أنابيب النرجيلة، الطويلة، المصنوعة من الكريستال. وفي آخر القاعة، وعلى سرير مرتفع، تلمع أرجله الذهبية، في الظل، كانت هنالك امرأة تستريح بين وسائدها، على حين أن عبدين يهزّان فوقها مراوح عريضة من ريش الطاووس.

وعرفت سلمى مباشرة، من خلال تعابير الوجه، أنها أمام الراني عزيزة، وهي ما تزال جميلة: فقسماتها حادّة، وعيناها عميقتان، وفمها متعاظم، لا تبلغ بسمتها أن تخفيه.

ـــ تعالي واجلسي بجانبي، يا بنيتي.

أما الصوت فغنائي، وأما الضمة فباردة. وبلغة إنكليزية ذات لهجة غريبة، تسأل الفتاة عن رحلتها، وهي تتفحصها من الرأس حتى الأقدام.

وانتهت من ذلك إلى القول :

ـــ إنك جميلة جداً ـــ لكن الصوت يرتفع ، كما لو أنها تريد أن تسمع الجميع ما تقول ـــ وعليك أن تتعلمي لبس الغارارا (تنورة طويلة تلبسها المسلمات) . أما الساري فهو لباس أتباع الديانة الهندية . ونحن ، هنا ، مسلمون .

واحمرّ وجهُ سلمى حتى لكأنه كله دم : أوتُذَكّر هي بأنها مسلمة ؟ وهي حفيدة خليفة المسلمين ! فلو أنها صفعتها على وجهها ، لما أذلّتها أكثر مما فعلت .

وتلاقت نظرات الامرأتين : فمنذ هذه اللحظة تعرف كل منهما أنها عدوة الأخرى .

ثم حمل إليهما بعض الحلوى التي صنعت من اللوز والعسل ، وشاي مشرّب بالسكر . « لتحلية حموضة الاستقبال على الأرجح » على ما فكرت به سلمى ، وهي تبلل به شفتيها . وبدأت الراني تسأل عن صحة السلطانة أمها ، وحياتها في بيروت ، فأجابت دون انتباه كبير . وعندما رأت أن الحديث يطول ، غامرت بهذا السؤال :

ـــ عفوك يا سيدتي ، لكنني متعبة من السفر . أفيمكن أن أنسحب إلى غرفتي ؟

فارتفع حاجبا الراني ، كجواب على هذا الطلب .

ـــ ولكن غرفتك هنا ، يا بنيتي ؛ فخلال هذا الأسبوع ، ستسكنين معي . ولكن ماذا بك ، أليست الغرفة واسعة بشكل مناسب .

وحملت الخادمات « غارارا » أخضر ، زمردياً ، فأعفاها ذلك عن الجواب .

خذي هذا ، وغيِّري به ثيابك ، فهذا اللون يناسبك إلى أعلى الدرجات . وأكثر من ذلك أنه لون الإسلام ...

وأجابت سلمى مجروحة :

ـــ إني أعرف ذلك .

ـــ وإذن فأنت تعرفين كذلك أن أسرتنا تنحدر من النبي مباشرة ، عن طريق حفيده الحسين . ونحن شيعة . أما أنت فسنيّة بطبيعة الحال ـــ وتتصنّع آنئذ التنهد ، بصورة مدروسة ـــ ولكننا ، على كل حال ، مسلمون جميعاً !

« هذه الأفعى ، على ماذا تريد أن تبرهن ؟ على أني لست إلا عربية ، وأنها هنا تظل ذات الكلمة العليا ؟ » .

غير أن مزاج سلمى لن يقاوم طويلاً رغبتها في الحمام . فتتذكر أباريق الفضة ، والماء الساخن المعطّر ، والرغوة ذات الألوان الناعمة ، وزيت العنبر في زجاجات الكريستال : أي كل مراسم الحمام ، أيام طفولتها . فما أحلاها لذة بعد قاعة الحمام العادية في بيتها ، في بيروت . فأغمضت عينيها ونسيت حتى المكان الذي هي فيه ، واستسْلَمت لأيدي الإماء الخبيرة ، فانتزع الشعر الفائض من على جسمها ، ودلكت ، وصُفّف شعرها ، وزُينت . ولم تكن مزعوجة من الصورة التي تراها لنفسها في المرآة ، ماعدا أن ... هذه الخصل ! ولكن أين هي إذن السيدة غزاوي ؟

وأجابت الراني ، مطمئنة :

ــ لاتقلقي عليها . لقد أخذت تستريح . وهي تسكن في الجهة الأخرى من البهو ، بعد الفناء التاني من جناح النساء .

ــ كيف ؟ إن هذه مرافقتي ! ويجب أن تبقى دائماً معي !

ــ أوليس لديك ما يكفي من الخادمات ؟ يمكنك أن تحصلي على عشرة ، أو عشرين ، وبقدر ما تريدين . وإن لم يعجبنك ، فسنبعدهن ، ونأتيك بغيرهن .

وشعرت سلمى بأنها على وشك أن تبكي . فالسيدة غزاوي وزينيل هما صلتاها الوحيدتان مع الماضي . وبدونهما تشعر بالضياع . ولكنها تفضل أن تموت في مكانها ، على أن تعترف بضعفها . وهنا تظهر بسمة صغيرة على شفتي الراني ، فتسأل :

ــ أولستِ على ما ينبغي معنا هنا ؟ نحن أسرتك منذ الآن : ويجب أن ننسى الباقي .

وتسكت سلمى . وقد سجّل الخصم نقطةً . فهل في وسعها أن تقضي ثمانية أيام مع هذه المرأة ، وتحت بصرها الثاقب ، السيىء النية ؟ تصبرين إذن ثمانية أيام ، وأمير يكون هنا ، وستشرح له ما يعنيها ، وتساعدها . وبانتظار ذلك ، لعل رشيد خان ... بطبيعة الحال . هذا هو الحل ! فكيف لم تفكر به من قبل ؟

وتنتصب ، وتسأل بصوت تريد أن يكون واثقاً من نفسه :

ــ أيمكن أن نخبر رشيد خان ، بأنني أود أن أكلّمه .

ـــ تُكلمين من ... ؟ اعرفي ، ياأميرة ، أنه إذا كان سكرتير أخي قد ذهب لاستقبالك في بومباي ، فذلك لأنه كان لا بـدّ من رجل لمواكبتك . ولكن لا مجال لك بعد الآن لرؤيته ثانية . فالرجال لا يستطيعون الدخول إلى الزنانا (جناح النساء) .

وبحجة الإرهاق ، نزلت سلمى إلى الحديقة ، وسحبت الوشاح ، الذي كان يحجب عنقها ، بعض الشيء . إنها تختنق . سجينة ، إنها سجينة . وكعمياء رمت نفسها في الفخ . ولكن الوقت ما زال يسمح بالخروج منه . وستعود عن عزمها . إذ ليس في وسعهم ، على كل حال ، أن يحتفظوا بها عندهم ، بالقوة ! وجلست على العشب ، وحاولت أن تسترد أنفاسها . فإذا بيدٍ توضع بيدها .

ـــ لا تخشي شيئاً ، هوزور . فالراني ليست بهذا السوء . إنها تريد فقط الحفاظ على التقاليد . وبدون ذلك فالمجتمع كله سينهار .

وكانت هذه امرأة الحاكم التي لحقت بها ، وعلى وجهها المستدير نظرة حلوة .

ـــ اصبري ، أسبوعاً فقط . إن زوجك المقبل رجل عصري ، كإنكليزي تقريباً ! ومتى كنت معه ، صرت حرة ، ستكونين السيدة الأولى . ولن يكون للراني عزيزة ما تقوله . وهي تعرف ذلك جيداً ولهذا فإنها تبدي المرارة ، أسبوع واحد ، هوزور . لا شك أنك تستطيعين بذل هذا الجهد .

وتفكر سلمى : انها على حق . وإذن فلن أدع نفسي تمّحي ، بسبب هذه المرأة . وبقلب طيّب تبتسم . إلا أن توترات هذا اليوم كانت عنيفة . وعلى شفتيها ، كانت البسمة ترتعش . ونسيت مقامها كأميرة أمبراطورية ، واستسلمت للبكاء .

٢

وخلال الأسبوع السابق للزواج، كانت سلمى على وشك أن تدع كل شيء، مرات عديدة. وكان الذي يثبّتها في موقفها ــ ولعله أعظم تأثيراً من فكرة الأمير ــ هو أن الراني تلعب بها، وتحاول أن تدفع بها إلى النهاية، فقط لتحملها على الرحيل.

وهي بالتأكيد تكرهها. فقررت أن تفاتح بذلك البيجوم نُصرة، وباستثناء الراني، فإن هذه هي الوحيدة التي تتكلم الإنكليزية. وعلى الرغم من مظاهرها المغرورة والتافهة، فإن سلمى اكتشفت لديها حساً سليماً قوياً.

وتردّدت امرأة الحاكم. فإذا هي تكلمت، فقد اختارت معسكرها. ولما كانت أول من استقبلت الفتاة، فإنها تعتبر نفسها حاميتها. لكن الراني قوية، ولا تسامح على شيء. وعلى هذا فبالقرار الذي ستتخذه البيجوم نُصرة في هذه اللحظة، سيتعلق وضعها في المستقبل، هي وزوجها. فهل تكون الأميرة من المهارة بحيث تجتث الراني؟ أوليست الزوجة بأكثر تأثيراً من الأخت؟ ولكن البيجوم تكره أن تغامر بشيء. ومع ذلك، فإن عليها أمام إلحاح سلمى، أن تتخذ هذا الموقف، وتتوكل على الله.

ــ لا ريب أن هذا كله بسبب من بارفان Parvin. قالت ذلك وهي تتنهد.

ــ بارفان؟

ـــ إن بارفان هذه هي ابنة أخت الراني عزيزة . وقد ربّتها الراني في القصر ، كأنها ابنتها هي . وكثيراً ما تساءلت عما إذا كانت تتصرف تجاهها ، بدافع من عواطف الأمومة ـــ وعلى كل حال فقد عدلت عن الزواج لكي تكـرِّس نفسها لأخيها وتهتم بحسن سير الأمور في القصر ـــ أو قولي إن بارفان لم تكن إلا أداة طيّعة تنعّـمها لكي تستخدمها ذات يوم .

ولكنها إذ ترى وضع سلمى الحائر ، مضطرة إلى الإيضاح ، فتقول :

ـــ بلى ! إن كل الناس هنا ، كانوا يعرفون أن بارفان كانت مهيأة لكي تتزوج الراجا . وكان هذا ، برأي الجميع ، اختياراً موفقاً . فالبنت جميلة ، مثقفة ، فضلاً عن أنها من العائلة الأميرية . ولما كانت قد رُبّيت في القصر ، فهي تعرف التراتب والأعراف . ولم تكن لتنشأ هذه المشاكل التي تطرح بصورة لا محيص عنها ، مع زوجة آتية من بيت آخر ، وأسوأ من ذلك ، من مدينة أخرى . وبصورة خاصة ، فإن الراني كانت تعرف أنها من خلال بنت أختها المدينة لها بكل شيء ، ستظل محتفظة بسلطانها كله ... ولكن ها نحن ...

وتتردّد البيجوم ، فهي تخشى أن تجرح سلمى . ولكن لما كانت هذه تحرص على أن تعرف ..

ـــ ولكن ها نحن أمام تدخل مولانا شوكة علي . أوه ، أنا لا أقول ، إن مؤسس الحركة الداعمة للخلافة رجل متميّـز ، ولكن تدخله قلب كل المشاريع . ولأنه يحلم بتعزيز علاقات الطائفة الهندية الإسلامية بالخلفاء العثمانيين ، فإنه يضع في رأسه ، أن يزوجك براجانا ، الذي يعتبره كواحد من الآمال السياسية لجيله . ولا ريب أن هذا شرف كبير لبيت بادالبور . أما بالنسبة للراني عزيزة ، فهذه مصيبة . إذ ليست القضية كلها أن ابنة أختها أزيحت ، ولكن راني بادالبور الجديدة ستكون غريبة ، فلا تستطيع التحـكّـم فيها ، ولا محقها ، كما كان يمكن أن تفعل لو أن الراجا أحـبّ أية امرأة إنكليزية . ولكنك بحكم لقبك ، وشأن أسرتك و ... طبعك السلطوي ، الذي لا تستطيعين إخفاءه رغم عظيم لطفك ومجاملتك ، فإنها تعرف أنك سرعان ما تختطفين منها مكانها .

وأحسّـت سلمى بأن حنجرتها تنقبض . فهي التي كانت تظن أنها منتظرة بلهفة ، ومرحب بها ، تفهم الآن فجأة ، إلى أي درجة توقع الاضطراب ، لا في الراني وحدها ، بل في كل هذا المجتمع الصغير الذي يحلم ويحيا تبعاً لقوانين لم تتغير منذ قرون . ومن جديد ، يلاحقها الإحساس بأنها مستبعدة ، مكروهة . أستكون إذن دوماً ، وفي كل مكان ، تلك الغريبة ؟

ومن حسن الحظ أن زينيل والسيدة غزاوي هما هنا ، ليسلياها . فلقد عادا وظهرا في اليوم

الثاني لوصولها، بتأثير من رشيد خان على ما يبدو. ولكن كيف عرف هذا الأخير أن سلمى طلبتهما؟ وكيف يُعرف كل شيء في هذا القصر الكبير؟

ومنذ الآن يمضي الثلاثة أكثر أوقاتهم في زاوية من هذه القاعة الكبيرة، ويتناقشون باللغة التركية والضحك، مما يثير الراني عزيزة بعنف، لأنها تشعر بأنهم «يحاكرونها» أو يستفزونها. وقد حاول رشيد خان، بواسطة زينيل أن يُهدىء الفتاة ويجعل سلوكها معقولاً.

ــ كل شيء في الهند، يقوم على الصبر، والتسامح. أما الثورة والتمرد، فلا يجديان شيئاً. فأظهري أنك أوسع حيلة من الخصم.

ــ ولكن لأيّ سبب يجب أن أخفي نفسي؟ لقد تعوّدت أن أحارب على المكشوف، على ما فعله الأتراك دوماً!

وارتعش الخصيّ.

ــ إنك تريدين القول: كما فعله الأقوياء، وككل أولئك الذين يستطيعون الأمر، لأنهم الأقوى، على حين أن على الضعفاء، أن يظهروا المرونة، والحكمة، وقلة الشرف أحياناً، من أجل سلامتهم. وليس هذا بمشرِّفٍ. ولكن ليس لهم الخيار. ولست واثقاً أنك أنت، يا أميرة، تملكين الآن هذا الخيار!

وتحسب سلمى أنها تدرك في لهجة هذا الخادم العجوز، نوعاً من التشفي. ولكن لا! وماذا عساها أن تتخيّل في كلامه؟ إن هذا الزينيل يشعر بأنه يتحمل أكثر مما يطيق، هو أيضاً، بحكم هذا الجو المعادي الذي ترعاه الراني.

بيد أن هذه الأخيرة تحسن تدبير أمورها. وتنسى سلمى حقدها عليها، لأنها مشغولة بالاختيار الصعب بين مختلف الحليّ، التي حملها إليها كبار باعة الحلي في البلد. وفي لبنان كانت تشهد اختفاء الجوهرات التي كانت تعجب بها، على أمها، وهي في الأيام الجميلة من حياة الأمبراطورية، واحدة بعد أخرى، وكانت تحسب أنها لن تملك في حياتها ما يقاربها جمالاً. وها هي قصة الجنيّات تتكرر من جديد، وتنفتح لها العلب التي تكمن في داخلها أنهار من الماس الأزرق، واللآلىء، والزمرد، من النوع الصافي جداً، وكلها تنتظر أن تعجبها.

وهكذا تنتقل بينها، من الواحدة إلى الأخرى، مُجَرِّبَةً، مرة العقود، ومرة أخرى، تلك المعلقات الذهبية، دون أن تقف على أيٍ منها. ومن حسن الحظ أن السيدة غزاوي موجودة

لتنصحها. فهذه المرأة ذات روح عملية، وستعرف كيف تقف على الحليّ الأغلى قيمة، والحجارة الكريمة الأكثر جمالاً، متجنّبةً تلك القطع البسيطة التي كانت سلمى، بحكم ذوقها، ونفياً للطمع، تود أن تأخذها.

وتهمس في أذنها بقسوة، قولها:

ــ لا تتصرّفي كالطفلة، يا أميرة. فالحلي بالنسبة إلى المرأة هي ضمانها الوحيد. وكان يجب أن تعرفي هذا من قبل.

وترضى سلمى وهي تتنهد، أن تجرِّب على عنقها ورسغيها ما يشبه أن يكون حسابها في المصرف، بدلاً من هذه الروائع الصغيرة الناعمة التي كانت تناسبها أكثر من غيرها.

وتهمس الراني:

ــ أولا تريدين حقاً، شيئاً آخر، في الحين الذي كانت فيه العلب يتكدس بعضها فوق بعض.

وتجاه هذه اللهجة الساخرة، تتردّد السيدة غزاوي. لكن الفتاة اهتاجت، وقالت:

ــ لست بحاجة إلى أي قطعة من هذه الحليّ، وفي وسعك أن تستعيديها جميعاً.

ــ هدئي روعك، يا صغيرتي. وسواء أرأيت أنك بحاجة إلى هذه المجوهرات، أو لا، فإنك ستحملينها. وأنا لا أريد لزوجة أخي، أن تظهر وكأنها فقيرة مسكينة.

وعندئذ خرجت سلمى عن طورها.

ــ في هذه الحال، قولي لأخيك أن يبحث له عن زوجة أخرى. فأنا لم أعد أتحمل ملاحظاتك المفعمة بالكراهية.

واستدارت نحو زينيل لتقول له:

ــ أخبر رشيد خان، فوراً أن يحجز لي مكاناً في أول باخرة تمضي إلى بيروت، وبانتظار ذلك ليجد لي غرفة في فندق.

وعرفت من المسرّة التي لا تكاد أن تخفى، على وجه الراني، أنه لا يمكن لأحد أن يسعدها سعادة أكبر. وفي حرب الأعصاب هذه، رأت أنها تنفجر. ولكن صار يستوي عندها الماء

والحطب . إذ لم يعد لها من رغبة أخرى غير العودة إلى بيروت ، وإلى بساطة العيش وكرامته في دار أمها . ففي هذه اللعبة ، لعبة النفوذ والمال ، لا حـظّ لها في الوقوف على رجليها .

وفي اليوم التالي عُرف أن الراني عزيزة مريضة ، وأنهم وضعوها في الطرف الآخر من الزينانا ، وأنها لا تريد أن ترى أحداً . ولن تعرف سلمى أبداً ماذا حدث ، إلا ما تعلّـق بأن الراجا غضب ، ولأن أخته اضطرت لمسايرته لأول مرة .

وقد أفاد تمـرّد سلمى ، في رفع نفوذها ومقامها ، أكثر من كل ما كانت قـدّمته من مجاملات كثيرة . فالنساء اللواتي لم يكـنّ يتعرفنّ إلا على الراني ، ويتبـيّـين بصورة عمياء عواطفها الطيبة والسيئة بنفس القوة ، صرن ـــ خلافاً للعادة والتقاليد ، التي تقضي ألا يكون للشابة الزوجة أي صوت في الميدان ـــ صرن ينظرن إليها وكأنها هي سيدتهن الجديدة .

وجاء بعد الصاغة باعة البروكار ، والحرير ، والدانتيل ، يعرضون ما عندهم . وفي البهو كان كل هذا العالم الصغير يشتغل في التفصيل ، والخياطة ، والتطريز . إذ يجب أن يتهيأ جهاز العروس ، خلال خمسة أيام ، وهو عادة يهيأ خلال سنين كثيرة ، بصورة مسبقة ، وأن تُهيأ الغرارات (الملاءات الخاصة بمسلمي الهند) والشيكان كورتاه Chekan Kurtah ، أي هذه القمصان المصنوعة من اللينون الناعم ، الناعم ، والتي يمكن لفرط النعومة أن تدخل في خاتم ، وأن تكون جاهزة تلك الروبوتراه Ruputrah ـــ أي فرو الكتفين المحلّـى بالذهب واللآلىء ـــ التي تخفي الأشكال التي تكون وراءها .

وما من مرة بذلت هؤلاء النسوة ، الكسولات في العادة ، مثل هذا المجهود . ولقد طلبن مساعدة القريبات والجارات ، وتحولت الزينانا كلها إلى معمل ، إذ لا يكفي أقل من مئة مجموعة من الثياب ، كجهاز أساسي . أما بالنسبة إلى أميرة الأحلام هذه ، التي لا يكل أحد من الحديث عن جمالها ، فهل تعتبر ثلاثمئة منها مجموعة كافية ؟ ولكن النساء الأكبر سناً يروين ، مع تكشيرة استصغار ، أن جدة الراجا الحالي ، لم تلبس مرتين نفس اللباس ، وأنها عندما ماتت بعد عشرين سنة من الزواج ، كانت هنالك عشرات من الحقائب من جهازها لم تفتح بعد : أما ثلاثمئة غارارة ، فهذا بؤس كبير !

واشتدت المناقشات : ترى هل كان يجب تأخير الزواج لكي تعامل الراني المقبلة ، كما تستحق ؟ فهذه سلطانة ، حفيدة خليفة ، تشرّفنا بالانضمام إلى أسرتنا ، ويقـدّم لها جهاز واحد ؟ مسكينة . ترى ماذا نعمل ؟ والراجا يأبى أن ينتظر يوماً واحداً إضافياً . فلقد أصبح قليل الصبر .

« كواحد من الإنكليز » . وتشكو العاملات . ولكنهن في الواقع يختنقن من شدة الزهو . ذلك أن هذا الزواج يضع بيت بادالبور على نفس المستوى الذي استقرت عليه أسرة نظام[1] أي الملك الأغنى والأقوى في البلاد . وما من امرأة لا تعرف بالتفصيل ، حياة الأميرتين نيلوفر ودورو شيهفار ؛ وعما قريب سيعرفن كل شيء عن حياة سلمى .

والواقع ، أن الأسرة المغولية طُردت من دلهي ، على يد الجيش البريطاني ، منذ قرنين ، وأن مسلمي الهند يعتبرون الأسرة العثمانية ، كما لو أنها أسرتهم المالكة . ثم إن عظمة الأمبراطورية التركية ، كعظمة سلطنة المغول ، واستهم مدة طويلة وعـزّتهم عن الإذلال الذي يلقونه عندهم . وعندما هـدّدت الخلافة في تركيا عام ١٩٢١ ، فإن الجماهير المسلمة في الهند ، ثارت على المحتل البريطاني ، في حركة من العنف لا سابقة لها . ولقد دعمها غاندي ، وتبعه الهنود في الدعم ، وكان ذلك بداية للمظاهرات الكبرى التي قامت من أجل الاستقلال .

وهنالك فتاة واحدة تبقى بعيدة عن كل هذا الصخب . إنها ممتلئة ، والبشرة من لون الحليب ، والشعر الأسود المزيّـت جيداً ، ينزل على ظهرها حتى منخفض الكليتين . ولهذا فهي تعتبر هنا ، ما اصطلح على تسميته ، باسم « الفتاة الجميلة » ، على الرغم من أنفها المدوّر بعض الشيء ، وذقنها الثقيلة ، ولقد بقيت سلمى مدة طويلة ، قبل أن تفهم أن أهم معيار جمالي ، هو بياض البشرة ، وأن المرأة التي تملك أنعم القسمات ، تعتبر بشعة ، إذا كان لون بشرتها قاتماً . وهذا انتباه كبير يمنح اللون الذي يكشف ــ على ما شرحوه لها ــ نبالة الأصل أو عاميته ، بأكثر من أي شجرة نَسَب . ذلك أنه إذا كان غزاة الهند ، من آريين ، وعرب ، ومغوليين ــ كلهم بيض البشرة ، فإن السكان المحليين كانوا سمرها . ومن هنا جاء التعادل ، الراسخ بقوة في الوعي العام ، وهو أبيض « عرق السادة » . وأسود « عرق العبيد » .

وعلى مرأى من سلمى ، أدارت الفتاة وجهها ، بشكل بيّـن ، بارز .

« ترى ؟ ... بلى حتماً ، ويجب أن تكون هذه ناريان . وفي هذه الأيام الأخيرة ، دُهشت من أنها الوحيدة ، خلافاً لغيرها ، التي لم تـوّجه إلـيّ الكلام . مسكينة هذه الصغيرة ! .. لقد ربيّـت على فكرة الزواج بالراجا الحلو ، وعلى الأرجح فإنها كانت تهواه . وها إن قادمة جديدة ، ليس لها من ميّـزة ، إلا أنها من أصل محترم ، هي التي تحرمها من تحقيق أحلامها ! » .

---

(١) نظام : ملك . ولم يكن في الهند إلا نظام واحد ، هو نظام حيدر آباد .

« وماذا سيكون من أمرها ؟ كانت موعودة لرجل ، ثم اطـرّحها بعيداً ، فمن يريد أن يتزوج بها الآن ، وأيّة أسرة مناسبة ستغامر بطلبها للزواج ، على حين أنها ، كما يقولون « مُـلَـوَّثة » بحكم رغبة إنسان آخر . وفي ذهنهم الضيق ، أنها ليست عذراء تماماً ! » .

وعبثاً ستحاول سلمى أن تتقـرّب من الفتاة ، وأن تبتسم لها ، وبدء حديث معها . فلم تحظ منها بنظرة . والشفقة أمر لا يناسب ذوق بارفان . وتنتهي سلمى بالعدول عما تريد ، مع وعي من أغدقت عليهم النعم ، وأن الناس لا يقـدّرون طيبهم ، حق التقدير .

ومشاغل سلمى كثيرة في هذه الأيام . وعندما كانت تتجول في الممرات ، لاحظت بهلع أنهم كانوا يهيئون غرفة عرسها ، في وسط الزينانا ، تماماً إلى جانب غرفة الراني . وهكذا فإن هذه الأخيرة ، يمكن أن تراقب على راحتها كل حركات العروسين .

ـــ ترى هل الراني التي أتزوجها ، أو هو الراجا ؟

وهكذا انفجرت ذات صباح ، عندما اتجهت إلى امرأة الحاكم .

ـــ أوليس في هذه البلاد مكان للحياة الخاصة . ففي تركيا عندما كانت إحدى السلطانات تتزوج ، كان لها قصرها ، وخدمها ، وكانت مستقلة .

ـــ أرجوك ، هوزور . إن هذه تفاصيل . وكل شيء سيتم على ما يرام . وبفضل من الله ، ليس عندك إلا بنت حماة ، واحدة . ولو أنه كان عندك حماة ، فإن أعظم الأزواج حباً لم يكن ليستطيع عمل شيء ، ضد إرادتها ... ولكن لِـمَ تريدين أن تكوني وحدك ؟ وهل في الحياة شيء أتعس من ذلك ؟ فهنا ، عندما تنشأ لنا مشكلة فإن الأسرة تنضم إلينا في تقديم المساعدة ، وحل المشكلة بالنيابة عنا .

وصرخت سلمى مزعوجة :

ـــ أما هذا فلا ، وعلى الأقل اتركوا لي مشكلاتي .

ورأت البيجوم أن من الأفضل أن تغيب عن وجهها .

والتدليك شيء لا مثيل له لأمراض الروح ، كما هو كذلك بالنسبة لأمراض الجسم . وتقتنع سلمى بهذا مرة أخرى . فهمومها ، تحت الأيدي المرنة والناعمة تتطاير مزقاً ، وتصبح تفاهات . وبلذة كبيرة تترك إماءها يدهنن جسمها بمعجون أصفر ، معـطّـر ، يتألف من حبوب الخردل الممروث

بالحليب، والتوميريك Tumeric وستة أنواع أخرى من البهارات المطحونة جيداً، وبنشارة خشب الصندل وبأنواع نادرة من العطور. وبهذا المعجون يطلى جسمها من القدمين حتى جذور الشعر. ثم يُفرك جسمها به فركاً قوياً، حتى يصبح كل ميليمتر من جسدها كالساتان النقي، وحتى تفوح مسامها كلها برائحة علوية. ولا يسمح لها خلال خمسة أيام بعد ذلك أن تغتسل. وقد ذهبت احتجاجاتها على ذلك، أدراج الرياح. ذلك أنهم قالوا لها يجب ترك المرهم العجيب، الذي يحتفظ به للزوجات الجُدد، حصراً، حتى يدخل في اللحم، ويصفي الدم. وفي صباح يوم الزواج، وعندما يسمح لها بالإغتسال في الحمام، ستخرج منه رائعة، كالفراشة التي تولد في الشرنقة بعد نضج طويل.

وجلست في طقم لها على السرير ذي الأرجل الذهبية، إلى جانب الراني عزيزة، التي عادت هذا الصباح باسمة، لتقول لها: «ما أشدني فرحاً برؤية أميرتي الجميلة!» ولكن سلمى عادت تتقوقع في أحلامها. وكيف يمكن أن تتحمل الأيام الطويلة التي تفصلها عن عرسها، أو تتحمل، بصورة خاصة، تلك النظرات الفضولية والتعليقات المختلفة، من النساء اللواتي يأتين لزيارتها؟ وعندئذ جاء كل من هو عظيم من شخصيات لوكنوف، ليتعرف على السلطانة الشابة التي ستبقى ساعات طويلة، جالسة، لا تتحرك، من أجل هذا الاستعراض، وعيناها لا تنظران إلا إلى الأرض. وفكّرت في البداية أنها ستُجنّ، ثم تذكّرت الاحتفالات الطويلة في ضولة باهتشه، وبدأت تروي لنفسها قصصاً، على نحو ما كانت تفعل خلالها، من قبل، أو على الأصح، تروي لنفسها قصتها هي، ذلك أن كل ما عدا الذي يمر بها الآن، يبدو لها تافهاً. وهي لا تتعب من توقع اللحظة التي ستلتقي فيها بأمير لأول مرة: سيأخذها بين ذراعيه ويقبلها طويلاً حتى تشعر بالدوار. وستكون عيناه كمحيطات قاتمة، وصوته أجش بعض الشيء عندما يقول لها: إنه يحبها...

«راني بيتيا[٢] قد وصلت».

وعندئذٍ تنطلق صرخات فرحة في جوانب البهو. ولكن ماذا يحدث أيضاً. ها هي غائبة في حلمها، مستندة إلى كتف أمير الذي يداعب شعرها. فتغمض سلمى عينيها، وتتعلق بعناد بالصورة اللامعة، فلا تكاد تشعر إلا بيد خفيفة، تأخذها من ذراعها، وبصوت يقول، بلغة إنكليزية صافية:

---

(٢) بيتيا أو Bitia هي فتاة المنزل.

ــ انظري إليّ ، أبا Apa . أنا زهراء ، أختك الصغيرة وجثت على ركبتيها ، فتاة نحيلة تبتسم . فترتجف سلمى . وصحيح أنهم حَـدَّثوها عن أخت للراجا ، أصغر منه بعشر سنين ، موجودة الآن في بادالبور لدى جدتها لأمها ، المريضة . فتفحصت وجهها العريق ، وعينيها الحالمتين . ياالله ، ما أجملها من فتاة . وكم هي شبيهة بصورة أمير . لكن زهراء ، من جهتها ، لا تخفي إعجابها ، وتقول :

ــ إنك جميلة !

ومن فرط الحماسة ، تقبل على يدي سلمى وتملؤها بالقبل . فتصيب سلمى الدهشة . ولكن قليلاً فقليلاً ، وفي جو الحر الذي يفيض عليها ، وفي عاطفة الراحة التي تحل محل ما كانت فيه من توترات ، في الأيام الأخيرة ، تشعر بأنها في هذا العالم الغريب وجدت أخيراً ، صديقة لها .

وفي الأيام التالية ستقوم زهراء ، بما لها من جاذبية ، ومرح ، بتمهيد صعوبات كثيرة أمام سلمى . لقد رُبِّيت على يد معلمة إنكليزية ــ وهذا ما قضى به أمير ، رغم التقاليد التي ترى أن الدراسة المعمقة ، تأتي بالبلاء إلى الفتاة ، وهي مولعة بالأدب الأجنبي . إذ لقد قرأت كيتس Keats ، وبيرون ، وستاندال ، وبلزاك كله ، وعلى الرغم من أنها لم تخرج قط من الزينانا ، إلا في عربة مغلقة تأخذها إلى زينانا أخرى ، فإنه يبدو أنها تعرف الدنيا .

وفوراً أدركت انفعال سلمى ، المحصورة بين هؤلاء النسوة ، وبذلت أقصى مجهود لكي تذهب معها لتتنزها في الحديقة الداخلية ، من دون أولئك المرافقات الكثيرات الهذر . وكان خصـيّ واحد يتبعهما ، على بعد مناسب . فأزاحت سلمى الغطاء الموسلين الذي يعتبر ضرورياً لستر الشعر ، حتى في مثل هذا المكان المعزول ، وعادت تشعر أنها تحيا وتشم رائحة الدنيا .

وفكرت سلمى ، في غمرة اضطرابها ، أن تُـسِـرَّ لهذه المراهقة العجيبة النضج ، بما يشغل بالها من أمير ، ومخاوفها ، وآمالها . ولكن سرعان ما أدركت أن تجربة زهراء ، الناشئة عن قراءة الكتب ، تضمر تحتها في الواقع براءة كاملة . فالفتاة تحب أخاها حباً يشبه العبادة ، وهي مقتنعة أن سلمى يجب أن تكون أسعد امرأة في الدنيا من حيث أنها ستكون زوجته . وهي لا تفهم أن يكون هنالك أي تحفظ ، بل يجرحها هذا إن وُجد من يعرب عنه . ولن تكون سلمى أنانية إلى الدرجة التي تدخل معها الاضطراب إلى قلب هذه الطفلة . فتحتفظ لنفسها بمخاوفها .

وفي هذا الصباح أوقظت سلمى على شعاعات الفجر بضحكِ بعض الفتيات . وكان الجو لا يزال رطباً ، والياسمين ، على طول الشرفة ، يعطر الجو . ولكن لِـمَ هي تعيسة ؟ والنهار جميل !

ابا ، استيقظي ، وهاتي يديك ورجليك لكي نرسم عليها بالحناء كل بشائر السعادة . وافتحي عينيك على أجمل يوم في حياتك !

وكـنّ فرحات ، وبدأن عملهن حول السرير ، وهن يغنّـين أغاني الحب بصوت خفيض ، وهي أغانٍ ينبغي ، تقليدياً ، أن ترافق تجميل الزوجة قبل زواجها . وفي الحين الذي كـنّ فيه يقمن بعملهن بدقة ، ويرسمن على راحتيها رسوم الآرابسك الحمراء . كانت سلمى تنظر إليهن كما لو أنها تحضر مشهداً لا يعنيها ولا يتعلق بها ... وكلما حاولت أن تهتم بالحفلة التي هي بطلتها ، كانت تستولي عليها أكثر فأكثر مشاعر اللاواقعية .

وكما لو أنها في الحلم ، ترى الراني عزيزة تقترب ، وتربط في رسغها سوارة ناعمة من القماش وتنطق ببطء تلك العبارات التي كـرّستها القرون :

ـــ أعطيك هذه السوارة . وهي تحتوي على أرز يحمل إليك الهناء والسعادة ، وعلى عشب يؤمن الخصب ، وخاتم من الحديد ، هو ضمان الوفاء .

وتحركت أوتار قلوب النساء ، فسكتن : إنهن يتذكرن .

وفجأة دوت ضربات ضخمة قرعت على الباب البرونزي الذي يفصل الزينانا عن أجنحة الرجال . وتندفع الفتيات بصرخات الفرح ، وفي يدهن وردة : إنه الخطيب ، وهو يحاول أن يدخل ليخطف الجميلة ، وهن مـكّـلفات بدفعه عنها بضربه بعنف بالأزهار . وبعد محاولة أو محاولتين غير ناجحتين ، يتراجع الخطيب مكللاً بالسخرية ، ويعود إلى أقربائه ومعارفه ، المجتمعين في « الإيمامبارا » العائلية ، وهو معبد من الرخام والموزاييك ، مجاور للقصر ، حيث يحتفل احتفالاً دينياً بالزواج .

ولقد تُركت سلمى وحدها في غرفة تقع فوق بهو النساء . وهناك تستعرض الخطيبة عادة ، وهي محاطة بأعز صديقاتها ، تستعرض ذكرياتها كمراهقة ، وتذرف بعض الدموع على الحياة التي ستتركها . ولكن صديقات سلمى بعيدات و ... هي لم تعد تحب البكاء . وفي الطابق الأدنى ، يصل المدعوون تباعاً . ومن الغرفة ، يسمعونهم يعجبون أمام روعة الهدايا المعروضة في كل واحدة من الصالات الخمس . ذلك أن العادة تقضي بأن يقيِّـم كـلُّ قادم كرمَ أسرة الزوج ، تجاه الزوجة الصبية . فالحلي والفضيات ، والآنية الكريستال ، والحرائر تتراكم ، كأنها أوابد غرور . أما النساء فإنهن يقـدِّرن ، ويزنّ ؛ ذلك أن حفلات الزواج مما يعـلَّـق عليه خلال سنين ، وأجيال : وهنا تقوم أو تتحطم سمعة الأسر .

ترى كم يجب على سلمى أن تنتظر . إنها لا تعرف شيئاً عن ذلك . والسيدة غزاوي ، الجالسة إلى جانبها تضيق ذرعاً ، لا سيما وأن ضجة غسل أدوات المطبخ المشيرة إلى بدء حفلة الطعام ، تصل إليها . وتعبِّر عن ذلك بقولها :

ــ إن هذا مخجل . فكل الناس يستمتعون ، ويحتفلون ، ويتركونك وحدك ! إنهم برابرة . فاعدلي يا أميرة عن هذا الزواج اللا معقول . فما يزال أمامك متسع من الوقت .

ــ اسكتي !

ولم يكن مزاج سلمى يسمح لها بالاستماع إلى شكاوى مرافقتها ، على الرغم من أن أعراف البلد تبدو لها ، هي أيضاً ، غريبة جداً . وتتساءل ، داخل نفسها : « لماذا لا يأتي أحد لمساعدتي على تهيئة نفسي . إذ يجب أن يتم النكاح مباشرة . ومتى سيحممونني ، ويزينونني . وكل هؤلاء النساء مسرورات بالالتقاء ، والكلام مع بعضهن : أمن الممكن إذن أن ينسوا العروس ؟ » ...

ــ استيقظي يا آبا[٣] ، فالمولوي[٤] يصل عما قريب . وزهراء هي التي تقول هذا بصوتها الشفاف .

وتقوم النساء حول سلمى بإسدال ستائر واسعة ، حتى لا يراها الشيخ . ولكن أين هو الخطيب ؟ وبدأت زهراء تضحك من قلق الفتاة .

ــ ما لك ، يا آبا ؟ غداً سترينه .

غداً ؟ إن سلمى لم تعد تفهم ، ولكن لم يعد هنالك وقت لطرح الأسئلة . وتنظر فترى في الجانب الآخر من الستارة ، صخباً عنيفاً ، وهمساً ، وسعالاً . وأخيراً ، ومن داخل الصمت ، يرتفع صوت أجش ، يتلو آيات من القرآن . ثم يتوقف . وفجأة تسمعه يناديها ويقطّع كل كلمة من كلامه ، ويقول :

ــ يا سلمى بنت خيري رؤوف ، وخديجة مراد السلطانة . هل تقبلين بأمير ، بن أمير علي من بادالبور ، وعائشة سليم آباد ، زوجاً لك ؟ هل تقبلين ؟

« كلا ... لا أريده » .

---

(٣) أبا APA هي الأخت الكبيرة .

(٤) المولوي : رجل يشرف على عقد الزواج . والمولوي من يعقد القران .

وتظن سلمى أنها أعلت صوتها فيما قالت. ولكن النسوة بقين كما هن، حولها. وضاقت صدراً، وبدأت تبحث بعينيها عن زهراء: فلا تجد أمامها إلا الراني عزيزة بوجهها القاسي. وعليها أن تجيب. وفجأة تلاحظ أنها حتى الآن كانت تمثِّل، تمثِّل دور الخطيبة، ولكنها في الحقيقة، كانت تحتفظ بقرارها لآخر لحظة، عندما تستطيع أمام الشيخ (المولوي) أن ترى أمير، وتقرأ ما في نفسه من خلال عينيه...

فهل خدعوها!... أو أنها خدعت نفسها وأخطأت؟ فعادت إلى ذاكرتها، ونبشت فيها، وهي غير مصدّقة، وتتذكّر: هذا صحيح... ففي التقاليد الإسلامية الأصيلة لا يجتمع الخطيبان إلا بعد النكاح: وكل منهما يتعهد للشيخ، قبل أن يكون قد رأى الإنسان الذي سيكون زوجه، بأنه يقبله، ويحفظ له الوفاء، ويعامله بالحسنى. أما في البلاط العثماني، فالأمر مختلف، ولهذا فقد كانت تفكر...

ــ سلمى هل تريدين أن تقبلي..... «كزوج».

وعاد الصوت يتكلم، أولا يَدَعون لها لحظة لكي تفكّر؟ وتشعر بأن النسوة حولها يضحكن ملء أفواههن، ويسخرن بنظرات عيونهن. «لعلهن ظننّ أني خائفة؟».

ــ بلى أريده.

أتراها، هي سلمى، التي تكلمت؟ ولقد أعاد الشيخ جملته ثلاث مرات. وثلاث مرات سمعت نفسها تقول: نعم، بصوت المصمم، حتى إن النساء بدأن ينظرن بعضهن إلى بعض وكأنهن يقلن: أي أسلوب غريب يستخدم، لدى فتاة تتزوج!

ولكن الحفلة كلها لم تدم أكثر من خمس دقائق. والآن يسرع الشيخ ليذهب إلى «الإيمامبارا»(٥) حيث ينتظره الخطيب، وأهله، وأصدقاؤه، وهم يلبسون «شرواني» الاحتفال. وتبعته النسوة، بحكم الفضول. ذلك أنهن من خلال سلالم خفية، يستطعن الوصول إلى البهو الدائري، المحاط بمشربيات، تطل على المعبد. ومن هناك يستطعن أن يَرين دون أن يُرين.

ولم يبق إلى جانب سلمى إلا زهراء. فأخذت يدها، بصمت، كما لو أنها كانت تفهم. وبقيتا هكذا ساعات تحلمان: وعندما بدأت الأشباح، بعد تأخر طويل، تعود إلى غرفتها، قامت

---

(٥) الإمام بارا، أو الإيمامبرا: مسجد شيعي، ويكون أحياناً جزءً من القصر أو لاحقاً به.

زهراء فأشعلت مصباحاً من النحاس، وبدأت تنشد، بنعومة، بعض قصائد جلال الدين الرومي، الصوفي، وهي قصائد لم تعد سلمى تسمعها منذ تركت استامبول، ولو أنها تعرف كل بيت من أبياتها:

إن حبك يجعلني أغني كالأرغـن
وأسراري كلها تنكشف لمجرد لمسة من يدك
ذلك هو المعنى العميق لعلاقتي بك
ووجودي المتعب كله يشبه قيثارة
إذ لا وجود بيني وبينك لا أنا ولا أنت
وأي عرق لمست مني، يجعلني أتألم
ومن العدم مضـت قافلتنا، تحمل الحب.
وخمرة الوصل تضيء ظلمتنا، إلى الأبد.
تلك خمـرة لا يحـرِّمها ديـن الـحـب.
وستظل شفاهنا مبتلة حتى فجر العدم.
والحق أننا روح واحدة، أنا وأنت.
ونحن نظهر ونختبيء أنت فيّ، وأنا فيك.

وها هو نور مصباح الزيت يترنح. والجو صامت بشكلٍ غريب، ونامت سلمى بعد أن هدأت نفساً.

«وهذا هو الماء أخيراً!» ولم تعد سلمى تستطيع انتزاع نفسها من هذه الرطوبة التي تنساب فوق جسمها كله. ذلك أنها منذ أيام كانت تحلم بها؛ فتشعر بأنها تحيا من جديد، وترتعش من اللذة. أتراه الماء فعلاً أم هو انتظار أمير الذي يوقعها في الاضطراب على هذه الصورة؟

ومن جديد، عادوا فدهنوا جسمها بالعطور، وألبسوها الغارارا ا حمراء والمذهبة، غارارا المتزوجات. وعلّقوا بعنقها وأذنيها، عدداً كبيراً من الحلي الماسية، ووضعوا في زنديها عشرات من الأساور الذهبية، تملؤها من الرسغ حتى المرفقين. بل إن رجليها أثقلت بسلاسل ذهبية، وكذلك باهماها فقد جعلا يلمعان بالأحجار الكريمة. ولم يعد ينقصها إلا الماسة الوحيدة التي توضع في الأنف الأيمن، والتي لا تكون العروس جميلة إلا بها. ولكنها قبل ذلك ببضعة أيام، عندما جاءت النساء ليثقبن أنفها، صرخت صرخات احتجاج، كانت من القوة بحيث أنهن تركنها، وتخلين عن عملية الثقب.

ولكن الشمس قد علت في الأفق، وها إن سلمى، مزينةً كوثن معبود، وغارقة في غرارتها القاسية من كثرة التطريز، تنتظر. فهي جاهزة. فهل يتفضل راجاها الجميل، بأن يأتي أخيراً؟

ولكن سلمى ليست مستعدة تماماً تماماً. ذلك أن امرأة تقترب منها، ماسكة بيدها، مسكة دينية، وشاحاً من الموسلين الأحمر، مغطى بستارة من الورد والياسمين، فوقها أشرطة مذهّبة. وهذا هو وشاح الزوجة، الذي سيغطي وجهها، طيلة حفلة الزواج. وتشعر سلمى أنها تكاد أن تختنق، تحت هذا الحجاب المثلث، ولكنها تعرف اليوم أنها لا تستطيع أن ترفض هذا الشيء الذي يرمز إلى الصفة العذرية.

وبدأت الفتيات تغني. ثم تأتي يدان قويتان فترفعانها وتنقلانها بنعومة، كأنها صرة صغيرة من اللون القرمزي والمذهب، إلى ما تحزر أنه سيكون الفناء المركزي للزينانا. ومن خلال حجبها ترى كرسي العرض يتبوأ منصة. وبألف عناية يضعونها فيه. وبدءاً من هذه اللحظة، لم يعد يجوز لها أن تأتي بحركة، ولا أن تتنهد أبسط التنهد. إذ يعتبر أنها ليست شيئاً آخر غير الرقة، والضعف، والاستسلام والانتظار.

ثم يزدحم حولها النساء والأطفال. ولما كانت الراني عزيزة راعية الاحتفال العظمى، فإنها ترفع من حين لآخر، قسماً من الحجاب لتسمح للمتفرجات، أن يرين جمال سلمى، ويعجبن به. فيقبلن عليها، ويصطدم بعضهن ببعض، ويقيّمن. لكن سلمى التي اشتد احمرارها من الخجل، تشعر أنها في معرض، بين نخّاسين، يقدرون قيمتها، لا سيما وأن كل امرأة تقوم بعد أن تتفحصّها بوضع بعض القطع الذهبية تحت قدميها، تبعاً للعادة، على أن يكون عددها فردياً، قمعاً للشياطين.

وتبتسم سلمى ابتسامة مسكينة، محاولة أن تدفع الدوار عن نفسها، فتسمع من يقول لها:

ـــ اخفضي عينيك، فالعروس المتواضعة لا ينبغي لها أن تضحك!

والراني عزيزة، في قمة الاستنكار: «إن هذه الحمقاء الصغيرة على وشك أن تفضحنا. أولا تفهم أن من قلة الحياء أن تعرب عن سعادتها، لدى انتقالها من حياة العزوبة إلى الحياة الزوجية. وكذلك فإن من المعيب أن يظهر عليها شيء من البؤس، لما في ذلك من إساءة لأسرتها الجديدة؟» ومع ذلك فإن هذه أشياء بسيطة يسهل فهمها.

ويزداد الحرّ أكثر فأكثر، فتتنفس سلمى بعناء: وهذا الصراخ، وهذا التزاحم، وهذه الروائح القوية المختلطة برائحة العرق، كل ذلك مما لم تعد تحتمله... وتشعر بأنها على وشك الإغماء.

ترى كم ظلّت مغمى عليها؟ إنها لا تعرف. ولكنها عندما استعادت وعيها شعرت بأن رأسها ينفجر من الأصوات الحادة، والضربات الصماء. وأن النهار حولها يشتد ظلاماً. كانت تناضل ضد الغثيان، بأكبر العناء. ففتحت عينيها: ورأت على بعد عدةِ أمتار كتلة ضخمة تتألق في قمتها نقطة، وتغلق مدخل ساحة الزينانا. وفي جو الصمت الكامل، كانت الكتلة الرمادية تميل بهدوء وبطء. وانتهزت فرصة انشغال الناس عنها، فرفعت جانباً من الحجاب. فوجدت أمامها الفيل الملكي، المغطى برسوم متعددة الألوان، وبالبروكار، وعلى أطرافه تثاقلت الأساور الذهبية. ثم ركع بتثاقل، في حين أن شكلاً طويل القامة يظهر من الهودج، ووجه مغطى بحجاب من التول، والياسمين والورود.

... أمير!

وكانت النساء ترش على قدمي الراجا، ذلك الماء الذي تحممت به الخطيبة، ثم انسحبن باحترام. فتقدم بخطوات خفيفة إلى الكرسي العرائسي، حيث تنتظره سلمى، ويجلس بجانبها، مع الحذر من أن يمسّها. أما هي فإنها لا تراه، ولكنها تحسّ بأنفاسه، القصيرة نسبياً. أيكون في مثل حالها من الهيجان؟

ولقد غطوهما بشال واسع، يخفيهما عن أنظار الناس: وفوق رأسيهما كانت تقف امرأة تحمل القرآن، وبين أرجلهما وضعت مرآة. وفي هذه المرآة سيرى كل منهما الآخر لأول مرة.

«أترفع حجابها؛ إنه ينتظر هو أيضاً ليرفع حجابه. وأخيراً سأراه، فمِمّ أخاف؟».

وتتابعت على أنظار سلمى صور مخيفة: فتحت حجاب زوجها، يختفي وجه كوجه القرد، تظهر عليه حبات الجدري... كما لو أنه مخلوق عجيب. وهي تحسّه، وتعرف أنها تحسّه. فكيف لم تحزره من قبل؟ ولهذا رفض أن يقابلها قبل الزواج! أما الصورة. فهي مزيّفة وقد أرسلت لمجرّد الإقناع.

وما من مرةٍ ظهرت لها يدها ثقيلة إلى هذه الدرجة، عندما جمعت كل قواها، لتحملها إلى حجابها. ولما لم يكن أمير ينتظر إلا هذه الإشارة، فإنه أسرع، بحركة خفيفة، فكشف هو حجابه. أما في المرآة فإن وجهه الحار كان ينظر إلى عينين زمرديتين مبللتين بالدموع.

ولم تنتظر سلمى نهاية الصلاة. فما إن شعرت أن الحفلة انتهت حتى وجدت نفسها بين أيدي نساء يمسكنها، ويضعنها على الهودج إلى جانب زوجها.

ومن خلال الستائر التي كانت تحجبها عن الأنظار، ها هي الآن ترى مسيرة المدعوّين: فهناك نواب[٦]، وراجاهات متألقون بما عليهم من حجارة كريمة، فوق فِيَلتهم المجلّلة على ظهورها بما ينبغي لها في الحفلات الرسمية، يتبعهم حملة أعلامهم، وأصحاب الرماح، وخدمهم بثيابهم الرسمية. وتأتي الخيول العربية بعدهم حاملة البورجوازية الصغيرة الآتية من المنطقة كلها. وأخيراً تمر أوركسترا، بلباسها الأحمر وبناطيلها البيضاء، على طريقة الصيادين الذين يلاحقون الفرائس بكلابهم، وكل منهم وضع شعراً مستعاراً، ذُرّت عليه مساحيق ناعمة بيضاء. وكان فيها ضاربو الطبول، والصنوج، والأبواق الطويلة الفضية، وأصحاب القيثارات. وبإشارة من المايسترو بدأ هؤلاء يعزفون سمفونية عجيبة، يخلطون فيها بين الموسيقى المحلية وبين الألحان الآتية من أعماق إيقوسيا. وبعد أن توقف الموكب قليلاً، تحرَّك مصحوباً بهتاف الجماهير التي جاءت لتستمتع بالمشهد. وبصورة عامة فإن اللحظات الأعظم تأثيراً هي تلك التي تترك فيها العروس بيت أهلها لتلتحق نهائياً بالبيت العائلي الجديد، أي بيت زوجها. ولكن سلمى لا تملك هنا بيتاً عائلياً، ولذلك تكتفي المسيرة بالدوران حول الحديقة خمس مرات، لتعوِّض رمزياً عن هذا الذي فات.

ورفعت سلمى الحجاب عن وجهها، وهي على الفيل، بعيدة عن الأنظار الطفيلية وعن النقاد. ونظرت إلى زوجها، مندهشة، سعيدة. وهو أيضاً لم ينس أن ينتهز الفرصة، فتخلص مما وضعوه على رأسه من المزعجات، وابتسم لها كالمتواطىء معها. فغمر الفرح قلب المرأة الشابة: يبدو إذن أنه يفهمها، ويعرف كم هو صعب أن تتحمل هذا كله.

وتوقف الفيل. ثم ركع ببطء، في الحين الذي وضعوا على جنبه السلم الذهبي. أما الخدم والحشم فإنهم (أو إنهن) ينتظرون سلمى، في الطابق الأرضي، لكي يحملوها إلى الأجنحة المخصصة لها. وتحاول هي أن تتخلص منهم، وتريد أن تمشي. ولكن أمير، الذي كان وراءها، يتدخل، قائلاً:

ــ إن عليك أن تحترمي التقاليد!

وكانت هذه أول جملة تبودلت بينهما. ولن تنساها.

---

(٦) النواب: كان الملوك المسلمون في الهند يسمون في العادة نواباً. ولكنهم في مقاطعة الأود، كانوا كثيراً ما يسمونهم «راجا» كالملوك الهنود.

أما الغرفة الزوجية فإنها اختفت تحت كوم الأزهار، وهناك صوان من الفضة، وضعت فيه فواكه، وسكاكر، صفّفت كأهرامات. أما في محارق العطور، الموضوعة في جهات الغرفة الأربع، فيُستهلك المسك والصندل. وفي الوسط، ينبسط السرير، هائل السعة، مزيّناً بالساتان الأبيض، وثنيّات من الدانتيل. وتفكر سلمى قائلة لنفسها: «إنه سرير مناسب جداً لخليلة»، متذكرة عند ذلك أعظم المنتجات الهوليودية.

وكانت النساء حولها يعملن. فغطّينها بقفطان من الحرير. وأخذن يُمَشّطن شعرها الأحمر الذي لا يتوقفن عن الإعجاب به. ويردّدن قولهن: «الشمس الغاربة التي تحيط بالقمر، وتكون في موكبه»، مشيرات بذلك إلى لون بشرتها الأبيض، «الساطع البياض كهذا الكوكب في الليل».

وكانت العروس جاهزة منذ مدة طويلة. فاستندت إلى وسائدها وأخذت تنتظر. ترى ماذا يفعل أمير؟

وكانت النساء جالسات، على الأرض، حول السرير، يتحادثن ويمضغن البان الذي يبصقنه بدفقات كبيرة حمراء في الآنية الموضوعة هنا وهناك. وفي كل مرة، كانت سلمى ترتعش من هذا البصق. إذ لن تستطيع أبداً الاعتياد عليه! والنساء يضحكن «ترى هل يسخرن منها؟».

إن الوقت يمضي — فماذا يعني أن تبقى وحدها في هذا السرير الكبير؟ وفي غمرة هذا الإذلال، كانت سلمى تعض شفتيها: إذ يجب ألا تكشف عن اضطرابها!

وبعد ساعة كاملة، يظهر أمير أخيراً. لقد كان عند أخته، الراني عزيزة، التي كان لديها مشكلة مستعجلة يجب حلّها. ولكن سلمى خلال ذلك مجروحة. وكانت المشكلة مستعجلة. خلقت من لا شيء على الأرجح، لكي تستبقي أخاها، وتبرز سلطتها، علناً، تجاه الزوجة الجديدة! وعلى حين أن النساء كن يخرجن من الغرفة، وهن يتمازحن بسرور، حول الليلة التي ستأتي، كانت هي تبكي وترسل العبرات والزفرات:

ووقف أمير على جانب السرير، ونظر إلى امرأته الشابة، بقلق، وتساءل:

— ماذا هناك يا عزيزتي؟ هل أنت مريضة؟

وكانت سلمى تفوق، ورأسها مختف بين الوسائد.

— إذن سأستدعي طبيباً.

ـــ لا ، لا تستدع أحداً .

واحمر وجهها كثيراً . ثم انتصبت . وإذن فهو لا يفهم شيئاً !

ويتردّد أمير . فماذا يفعل ؟ يبدو أنها غاضبة . ترى هل قال شيئاً أزعجها ؟ لقد كانت تبدو سعيدة جداً منذ قليل . وهو يشتهي أن يضمها بين ذراعيه ، ويواسيها ، ولكنه لا يجرؤ : فمن المؤكد أنها ستدفعه عنها .

« لِـمَ هو هنا واقف ينظر إليّ ؟ إني أشعر ببرد . فلو أنه أخذني إلى صدره ، وقبلني ، وأدفأني ... » .

ويفكر هو في نفسه :

« ... كم أبدو غبياً ! إن المسكينة مرعوبة ، فقط » .

إنها تعتقد ، على الأرجح ، أنني سأنقض عليها ، وأتمتع بحقوقي ... وهي لا تفهم أني أحترمها . فسأنتظر إذن حتى تتعـوَّد علـيّ . ولدي كل الوقت .

وجلس على حافة السرير .

ـــ كان هذا اليوم مرهقاً . وبك حاجة إلى النوم . ولن أزعجك .

ودهشت سلمى ، ونظرت إليه : « أيسخر ؟ وهل هي إلى هذه الدرجة قليلة الإغراء ؟ وهي التي طالما حلمت بهذه اللحظة ... ما أغباني ! بيد أنها كانت تعرف أن هذا الزواج ، ليس بزواج حب : حسناً . إنه يُفهمها بكل بساطة أنها لا تعجبه ! » .

وبشجاعة ترفع كتفيها ، وكأنها لا مبالية ، وتقول :

ـــ حقاً إني منهكة . مساء الخير .

والتفت بالأغطية في الجانب الآخر من السرير . فيتنهد أمير . كان يتمنى ، على الأقل ، أن يرى بسمة ، أن يسمع كلمة فيها عاطفة . تشير إلى أنها تقـدّر رقّته . وبدوره يتمـدّد ، بلطف ، حتى لا يزعجها . فمنذ أشهر وهو يتأمل صورتها ، وينتظر أن يكون بقربها ... ولم يتصور قط أن ليلة عرسه ستكون بهذه الصورة .

٣

وتدخل الشمس من خلال ستائر النوافذ. وحول السرير، أشباح تتحرك، صامتة. فتهمس سلمى وهي ما بين النوم واليقظة:

ـــ أيندجيم؟ ليلى هانم؟

وتجيبها وشوشات وضحكات مخنوقة، وتدريجياً تتذكر: فهي ليست في بيروت في غرفتها الزهرية. بل هي في الهند، ومنذ البارحة هي امرأة متزوجة. ولكن ماذا تفعل هنا هؤلاء الخادمات؟ ولماذا لا يتركنها وحدها مع أمير؟

وتمـدّ ذراعها بوهن، وتتلمس الأغطية.

«أمير!».

ولما استيقظت تماماً، انتصبت واقفة.

ـــ أين هو أمير؟

واقتربت النساء، وهن يتبادلن غمزات العيون والتعليقات المسلّية. وتشعر سلمى أنها تحمـرّ: فكيف استطاعت أن تترك نفسها تتصرف بهذا الشكل؟ في استامبول، كانت الكالفات، يوبخونها على أنها مفرطة الاندفاعات: «ففي السعادة، كما في الشقاء، تبقى الروح النبيلة رصينة»

على ما كنّ يقلن . وكنّ يقدّمن خديجة السلطانة ، كمثل . ولكن البنيّة ، رغم إعجابها بأمها ، لم تكن تستطيع الامتناع عن التفكير بأن الروح النبيلة كان فيها من النبل ، أكثر مما فيها من الروح .

ولقد أقلقها غياب الأمير : فهل هو غاضب ؟ بيد أن البارحة مساءً ، وبعد أن أطفئت الأنوار ، اقترب منها وداعب شعرها . وبهذه الحركة وحدها تبدّد كل التوتر المتراكم . فتنهدت تنهداً عميقاً ، ووضعت رأسها على كتف زوجها . وبقيا مدة طويلة يستمعان ، في السكون والصمت ، لقرقعة المروحة . ثم ... لا بد أنها نامت .

ولكن ماذا فعل هو ؟ ... أظل يداعبها ؟ أو ... ؟ وفجأة تشعر أن أنفاسها تنقطع : ترى بينما كانت نائمة ، أكان يمكنه ؟ وخلسة مدت يدها تحت الأغطية ، ومسّت بطنها ، ومرّت على عضوها . ومن شدة قلقها ، سألت جسمها . فلا تشعر بأي شيء غريب . ومع ذلك ... « يا ربي ، كم يزعجنني ، هؤلاء النسوة ، إذ يدرن حولي ، ولا أستطيع حتى ... » .

أما هؤلاء التبّع ، فليس لديهن مثل هذه الصور من الحياء . فشددن من جهة ومن أخرى ، وأخذن الغطاء العرائسي : فإذا به ناصع البياض .

وثار الاستغراب ، وقيلت تعليقات تعبّر عن خيبة الأمل . واتجهت النظرات جانبياً . واشتدت حمرة سلمى ، فلجأت إلى منضدة زينتها ، وتظاهرت بتجاهلهن . لكنهن ابتعدن عنها ، وهن يصرخن ، وحملن معهن برهان العفة ، إلى جناح الراني عزيزة .

ولما كانت العروس مقسّمة النفس بين الخجل والغضب ، فقد أخذت تنقل ، بصورة محمومة ، جملة الفراشي وزجاجات العطور ، وعلب البودرة من مكانها . ترى ماذا سيفكرون ؟ أنها لم تعجب زوجها ؟ أو أنها ليست عذراء ؟ وهذا أسوأ . فحملها ما هي فيه من الاضطراب على صب غضبها على الدانتيلات التي تغطي طاولة زينتها . وأخذت ، بصورة آلية ، تمزقها إرباً .

ـــ آبا ، ماذا تفعلين ؟

وظهرت زهراء على العتبة ، وأسرعت الخطى باتجاه سلمى .

ـــ ماذا حدث ؟

وسألتها سلمى :

ـــ أين هو أمير ؟

ولما اطمأنت إلى أن هذه هي المشكلة كلها، بدت وكأنها تخفي بسمة. «ليس في الأمر إذن إلا هذا. كم تحبه، ولما يمض إلا ليلة واحدة بينهما» فتجيب:

ــ إنه مضى لرياضته في الركوب على الحصان، كما هي حاله كل يوم بين الساعة ٦ والساعة ٨، قبل أن يصبح الجو حاراً.

ــ ككل صباح!

وأصاب سلمى الامتعاض.

ــ كنت أحسب أنه في يوم عرسه...

وأخذت عيناها تلتهبان. فيستولي على زهراء الاستغراب من جراء ذلك. وتقول:

ــ إن للرجل ملء الحق، إذا كان يريد...

ولكن الأكثر من الاستغراب، كان الإعجاب الذي يجعلها مندهشة: «ما أجملها، كأمبراطورة أوذيت!».

ــ لماذا لا تأتين معي لزيارة الزينانا ــ قالت ذلك لكي تحوِّل مجرى العاصفة ــ فأنت لم تري حتى نصفها.

وتتردّد سلمى. فهي تحب أن تخرج. ولكنها لا تجرؤ، لاقتناعها بأن كل الناس لا يتحدثون إلا بهذا الغطاء الملعون... لا، فحقاً هي لا تشعر بأن لديها من الشجاعة ما يكفي لمجابهة الوجوه الساخرة، أو المشفقة، أو المتّهِمة..

وتلح زهراء فتقول:

ــ إن مدعواتنا سَيَكُنّ سعيدات جداً بلقائك، وهن يسكنّ في الجناح المقابل لأجنحة الراني عزيزة ــ وأشارت إلى هذه بخبث ــ هيا، تعالي!

وأخذت بيد سلمى، ومضت بها من خلال ممرات لا نهاية لها إلى جزء من القصر، لم تكن تعرفه. إنه متاهة من القاعات المفصولة بأفنية داخلية، وبمصاطب، يصل إليها الإنسان بسلالم ملتفة. وأخيراً تصلان إلى بهو دائري ذي أقواس تنفتح على الغرف.

وفي كل غرفة تقيم أسرة . فمنذ متى يعشن هنا ؟ ومن هنّ هؤلاء الجـدّات ذوات الشعر المُـحمـرّ بالحـنّـاء ، وهؤلاء النساء المحاطات بأطفال ؟

وكانت زيارة سلمى لهن نوعاً من الهدية الملكية . فيحطن بها ، ويتنازعنها . أما الأطفال الذين وعوا بدور المخبر الهام ، فقد أطلقوا سيقانهم للريح ، ليبثوا الخبر . وتوافدت نساء أخريات من الأجنحة المجاورة ، في فوضى فرحة . وأخذن يتنازعن على شرف أخذ الراني إلى مكان إقامتهن ، لكي يقدمن لها الشاي . ولو أن زهراء غير موجودة ـــ وهي الديبلوماسية مجسّـدة ـــ لقطع الطريق على هذه الضيافة المستبدة ـــ لكان على سلمى ، المرهقة ، أن تقبل ما يقرب من مئة فطور صباح .

ولكن الفتاة تمضي بها . لتقف على كل غرفة مدة تطول أو تقصر ، تبعاً لأهمية صاحبتها ، المقيمة بها . فلا تدخل الغرفة إلا إذا كانت المرأة الساكنة ، الجالسة على السرير ، قريبة ، أو ممثلة لأسرة نبيلة .

ومن هؤلاء من وصل منذ أيام كثيرة أو قليلة لحضور حفلة الزواج ، ولكن كثيرات يقمن هنا منذ أشهر ، وأحياناً سنوات . وكـنّ قد جئن بمناسبة عيدٍ ما ، وبقين ، لأنهن وجدن أن المكان مناسب لهن ، ولأن القيام هنا بزيارة ، كما هي الحال في الشرق كله ، يتضمن معنى التكريم والتشريف . وكلما طالت الزيارة ، كان الاحترام أو التكريم أكبر . ومن هؤلاء النسوة ، من يستقر بهن المقام طول الحياة ، لأنهن عجائز ، أو أرامل . وفي بداية الأمر ، وعندما يقابلن سيدة البيت ، وهذا ما يحدث كل يوم ، ينبئن عن سفرهن القريب . وعندئذ تستنكر الراني هذا القول ، وتسألهـنّ لماذا ؟ هل هـنّ غير سعيدات ؟ أو لم يُهتم بهـنّ الاهتمام الكافي ؟ ولهذا يبقين أكثر بقليل ، إرضاءً لها . ومتى مضت بضعة أشهر ، يصبحن جزءً من البيت : وسيكون غريباً ، ونوعاً من الشتيمة ، أن يرحلن .

وهناك أيضاً قريبات الأسرة الفقيرات ، مع أطفالهن . وهؤلاء يقمن بكامل الحق . ففي مثل هذه الأسر الأميرية ، حيث الملكية لا تتجزأ ، وحيث الابن الأكبر يرث كل شيء ، كثيراً ما يكون أبناء الأعمام البعيدون ، في حالة الفقر المدقع ، ويكون من واجب الراجا أن يقوم بالإنفاق عليهم . إما لتأمين دراسة الأبناء ، أو لتجهيز البنات . فإذا رغبوا ، في الإقامة الكاملة ، فإن على الراجا أن يضمن لهم الإقامة في هذا القصر ، الذي كان يمكن أن يكون قصرهم ، لو أراد الله .

وسلمى ، بالنسبة لكل هؤلاء النسوة ، تصبح مباشرة بنتاً من بناتهم ، بحكم بساطتها ، ولطفها ، أكثر مما هي راني جديدة . فيضممنها إلى صدورهن ، ويضعن أيديهن على صدغيها ،

ويلححن في جعلها تقبل الجلوس في غرفتهن . ولكن زهراء تظل متصلبة . فلا ينبغي أن نسيء إلى التراتب ، أو نفسد حكم التسلسل .

أما الشاي ، فلا تقبل إلا لدى الراني العجوز ، راني كريمبور . التي يحكم ابنها واحدة من أكبر دول « المناطق المتحدة » ولدى مرضعة أمير ، وهي امرأة « درويشة » بشكل واضح . فأعجبت بها سلمى مباشرة .

ولقد دامت هذه النزهة ما يقرب من أربع ساعات . وبفضل زهراء ، لم ترتكب سلمى كثيراً من الأخطاء ، لأن زهراء كانت تعينها على فهم ما يجب أن تفعله في كل منها . وأنّى لها أن تعرف ، أمام هذا الفيضان من الأسماء ، والألقاب ، وعلاقات القربى ، أو الصداقات القديمة ، كيف نقـدِّم التحية باحترام ، ولمن نبتسم بعاطفة ، ولمن نحني الرأس ، بمودة ؟

وعندما عادت أخيراً إلى جناحها ، سقطت منهكة . إذ لقد لقيت الكثير من المحبة ، والتعاطف والعفوية . فشعرت بالدفء النفسي ، وكم تحب هي أن تُـحب ! إنها لم تر مثل هذا ، منذ بدأ المنفى ...

ولكن أمير لم يعد بعد .

فهو يصـرِّف شؤون الدولة . وكما تقول زهراء : لديه بعض الصعوبات الآن .

كان ينبغي أن تخفف من خيبة أمل سلمى . وبصورة خاصة أن لا تثير مخاوفها . وأن لا تقول لها إن الفلاحين ، في شمالي الهند كله ، بدأوا ، بتشجيع من حزب المؤتمر ، بالتمرد ضد كبار الملاكين ، الذين يقفون في أكثريتهم ضد سياسة غاندي الذي يعتبرونه شيوعياً .

ولكن شؤون الدولة ، في هذا اليوم ، قليلة الأهمية ، في نظر سلمى . ذلك أن الفرح الذي كان يعمر قلبها ، قد تبـدّد : ففي اليوم الثاني لعرسها ، ترى زوجها يتركها ، ويهملها .

وستبقى ، طول بعد الظهر ، وهي تنتظره . ولما كانت مقتنعة بأنه سيعود في ساعة القيلولة ، فإنها تحمّـمت ، وتعطرت كأحسن ما ينبغي . ولكن جاء موعد الشاي ، ولم يظهر بعد . ومن شدة الألم ، تظاهرت بأنها تقرأ . ولن تقبل ، بأي ثمن ، أن تسأل : أين هو ؟

وهبت ريح ناعمة . فقالت سلمى لزهراء .

لنخرج يا زهرا. إن بي رغبة في الدهاب إلى المساجد والإمام بارا.

وسُرّت زهراء بهذه التقوى التي لم تكن تقدِّر وجودها لدى زوجة أخيها، فاستعجلت، وقالت للخصي:

ـــ يا سليم، اذهب واطلب من الراني عزيزة، أن تعطينا أية عربة تريدها... دون أن تفهم لماذا تنظر إليها سلمى نظرة سوداء.

وبطبيعة الحال، لا بد من ساعة تقريباً لكي تكون العربة جاهزة. ورأت الراني، أن رغبة الأميرة «غريبة» ولكنها أوضحت بصوت عال، أنها لا تريد أن ترفض طلباً من أي نوع للعروس الجديدة. إلا أنها تتصرف كما لو أن العثور على عربة بين الدزينة التي يملكها القصر، مسألة شبه مستحيلة. أما السيارات فإن استعمالها لا يمكن إلا بعد الاستئذان من الراجا.

وعندما خرجتا، كان النهار قد بدأ يهبط. فاتخذت القصور والمساجد لوناً ذهبياً، كما أن الأعشاب، المسقية منذ مدة قليلة، كانت تعطّر الجو. وكانت الأقسام المزهرة، والأحجار المقصوصة على صورة حيوانات عجيبة، والبحيرات الرخامية، والأكشاك المضاءة بثقوب في الأعمدة الناعمة، تبدو وكأنها تنتظر زوّاراً من غير المحتمل أن يجيئوا.

وتتقدم العربة ببطء، متجاوزة قبري نواب، تقي خان، وزوجته، ولال باراديري، القصر المصنوع من الحجر الرملي الأحمر، حيث كان ملوك الأود Oudh يستقبلون الأمراء والسفراء، والإمام بارا الصغيرة ذات القباب الأنيقة، وكل هذه القصور الناعمة تبدو كأنها تتفتت كأنغام معزوفة رومانتيكية، من خلال الحدائق الساكنة.

أما «مسجد الجمعة» فيبدو وكأنه يطل من مكان عال على المدينة. ولقد بني على هضبة، وسط حقول السلجم أو اللفت. وأغريت سلمى بهدوء المكان وجماله، فطلبت من زهراء أن تقفا هناك للصلاة.

وتجيبها زهراء:

ـــ إن هذا مستحيل، يا آبا، إذ ليس لنا الحق.

ـــ ليس لنا الحق في الصلاة؟

ـــ ليس لنا الحق في الدخول . فالرجال وحدهم يذهبون إلى المسجد . أما النساء فيصلين في بيوتهن .

ـــ ما هذا الهراء؟ وقفزت سلمى من العربة ، ونسّقت حجابها ، وكإنسان صمّم على الشهادة دفاعاً عن عقيدته ضد تأويلات علماء الدين ، استبعدت الحشم اللواتي أردن الوقوف في وجهها ، وقالت في نفسها : إن من الجميل أن تمنع حفيدة خليفة ، من الدخول إلى مسجد !

وكانت الساحة الخارجية خالية . فقد غابت الشمس وأصبحت السماء الشفافة تحيط بسلمى ، بالرقة والعذوبة ، والعصافير تزقزق ، محتفِلة بقدوم الجو الرطب . وهناك نجمة في السماء تتألق .

ـــ لا إله إلا الله ، يا إلهي ، لأنك أنت اللا متناهي ، والخالد . ولا شيء يوجد بغير إذنك .

فجثت سلمى على ركبتيها . وكانت الكلمات التي طال تكرارها ، تنفجر في إطار هذا الجمال ، وهذا السكون ، وتغمرها بضيائها . فهدأت ، ولم تطلب شيئاً ، وانفتحت للحظة الحاضرة .

ولم تر ولم تسمع الشبح الذي كان يصخب قريباً منها . وفجأة تشعر أنها تشدّ من كمّها . فإذا بها ، أمام ذبابة ضخمة سوداء تكثر من الحركات . فتغلق عينيها . ويعود الهدوء . ولكن المولوي المستنكر ، بدأ يصرخ .

فانتصبت سلمى ، إذ كيف تجرأ هذا الحمار على قطع صلاتها وخشوعها؟

ـــ أتكون أنت شيطاناً . ففي كل البلاد الإسلامية تفتح المساجد للنساء . أو تجهل أن فاطمة بنت نبينا ، كانت تصلي في الكعبة ، إلى جانب الرجال؟ أفما كان محمد ، نبينا الكريم ، يسمح به؟ ثم تجرؤ أنت ، أيها التعيس على معارضته؟

ونظر المولوي ، المندهش ، إلى هذه الشيطانة البيضاء ، هذه الكافرة التي تلوّث بمجرد حضورها ذلك المكان المقدّس . فماذا تقول ، وتصرخ؟

ـــ ترجمي له ، يا زهراء ، ترجمي كل كلمة !

وتهز سلمى وهي في منتهى الغضب ، ذراع الفتاة .

ـــ قولي له انهم بمسكنتهم، ومكرهم، وطيشهم، هو وكل من هم من جنسه يسيئون إلى ديننا. وعدا ذلك، أي حق لهم في أن يوجدوا؟ ففي الإسلام لا يوجد وسطاء بين الله، وخلقه، ولا رجال دين. والهداة الوحيدون المعترف بهم، هم كتابنا المقـدَّس، وحديث النبي. فالمولوية، والملايات، والأئمة كلهم منافقون، دجالون، يستغلون جهل الشعب، ليفرضوا أنفسهم عليه.

ومنذ أسبوع وهي تكظم غيظها. وأخيراً وجدت قضية لا جدال فيها لتفريغ هذا الغضب.

واكتأب المولوي، وتراجع، في الحين الذي كانت فيه تتذوق حلاوة غضبها.

وعندما عادت إلى القصر، صعدت مباشرة إلى جناحها، من غير أن تمرّ بالراني لتحيتها، مما كان مناسبة للمربيات ليستعجلن في إشاعة الخبر، والتعجب من هذه الفعلة النكراء. فوجدت سلمى أمير يروح ويجيء داخل الغرفة.

وسألها بلهجة لم يستطع جهده أن يخفي ما فيها من غيظ.

ـــ أين كنت؟ كنت أنتظرك!

ـــ وأنا انتظرتك يوماً كاملاً. ولقد خرجت ساعة واحدة فقط.

وسكت أمير، متألماً من أن سلمى، أمام الآخرين، لم تنتظره بصبر، كما ينبغي لزوجة شابة أن تفعل. وهو لا يقول إن لديه مشكلات خطيرة. فما هذه بالتي يُتحـدّث عنها لامرأة، وليس متعوداً أن يبـرِّر صورة استعماله لوقته. لكن فقدان الصبر لدى سلمى يسوؤه، كما لو أنه نوع من عدم الثقة.

«... ترى لماذا قالت له ذلك؟ إنه سرعان ما بدا كطفل أُنِّب على فعل قبيح». «لقد قضيت النهار كله وأنا أحلم به. وعندما يكون أمامي، لا أزيد على أن أشتمه. آه. يجب أن أطلب منه الصفح، وأن أقول له كم قاسيت لغيابه!...»، وبانتباه، تثبت نظرها على رأس حذائها... «كيف أفهمه؟ أوليست قلة صبري برهاناً على الحب؟».

ويفكر أمير، ويقول في نفسه: «كم كانت جميلة ليلة البارحة وهي نائمة. إن جمالها جمال طفلي، مختلف عن ذاك الذي نلقاه هنا لدى نسائنا». وكان قد بقي يقظاً يتأمل هذه البراءة، وهذه الرقة. والآن يراها غاضبة وهو لا يعرف لماذا؟ ولقد وُجـدَ من حـذّره، وقال له: إن للأتراك

مزاجاً غضوباً ، على النقيض مما لدى الهنديات من مطاوعة ... ولكن عم يبحث هناك ؟ إنها عصبية فقط . وكل شيء هو جديد عليها . ويجب أن نترك لها الوقت الكافي لكي تتعود ...

لقد صرّف الأمور بسرعة ، ليعود فيرى امرأته الشابة ، سعيداً بما ينتظره من ليلة طويلة معها ، ليلة ، يقترب فيها كل منهما من الآخر ، ويتضامان .

وعلى الرغم منه ينهض ، ويقول :

ـــ إنك متعبة . وأتركك لتستريحي . أفتريدين أن يُقـدّم لك طعام العشاء هنا ، أم تفضلين تناوله لدى أختي ، التي تدعوك إليه ؟

وهنا كانت سلمى على وشك الصراخ : « ولكن إلى أين تريد أن تذهب الآن أيضاً ؟ » إلا أنها عادت فتماسكت ، وتعض شفتيها وتقول :

ـــ سأتعشى هنا . شكراً .

ومضى . أما هي فظلت جامدة ، تنظر إلى الجدار الأبيض أمامها ، أي الجدار الكثيف الذي يفصلها عن أمير . فيصيبها إحساس بوجود ورطة ، وعذاب لا جدوى فيه . ترى لِـمَ كان من الصعب علينا أن نلتقي ؟

ـــ يا أميرتي المسكينة ، يا بلبلي المعبود ، كم يهملونك هنا ، هؤلاء البرابرة !

هكذا تتألم وتتوجع السيدة غزاوي . وكانت قد تنبأت بأن هذا الزواج سيأتي على عكس ما يُنتظر منه ! ولقد عرفت ذلك منذ اليوم الأول . وماذا عساه أن يكون مشتركاً بين حفيدة سلطان ، وبين أناس لا يملكون ما يدفعون به أجور قطار ؟ وتعرف سلمى أن السيدة غزاوي تبالغ ، وتكره الهنود ، وخاصة أولئك الهنود الذي لا يبدون تجاهها الاحترام ، الذي كان لها الحق فيه ، باعتبارها بيضاء . والعادة ، أنها تسكتها . ولكنها اليوم تريد أن يُـوجد من يرثي لحالها .

وكان زينيل واقفاً في زاوية الغرفة ، ويداه متصالبتان باحترام ، على بطنه . وكان يراقبهما . « أي خطأ ارتكبناه عندما جئنا بهذه المجنونة . فهي تسـمّم كل ما تمسك به . وربما جعلت الشمس تتخاصم مع القمر . وكنت قد حذّرت السلطانة . ولكن سلمى ألحّـت . ولقد أحبت هذه المرأة الداهية ، التي حزرت مباشرة نقطة الضعف في هذه الصغيرة : فهي تريد أن تُـمدح ، وأن تُـعبد ، كما

لو أنها ما تزال أميرة أمبراطورة في البلاط العثماني . فإذا لم نوقفها عند حـدّها ، فإن هذه الغزاوي ستصل إلى غاياتها : أي تهديم هذا الزواج ، والعودة بسلمى إلى بيروت . ولكني لن أسمح بذلك . إذ أن سلطانتي ستتحطم من جراء ذلك » . فقالت سلمى :

ـــ لنتعـشَ نحن الثلاثة ، في بهوي الخاص .

وقـرّرت سلمى أن تنسى أمير وأن تتمتع بما يتاح لها . وهذه أول مرة يكون فيها هؤلاء الثلاثة وحدهم ، بعيدين عن الأنظار ، وعن التعليقات الضاغنة ، وأول مرة منذ وصولها إلى الهند ، تشعر فيها بأنها حرة .

ـــ هذا المساء ، لنحاول هذا المساء أن نحتفل . وممنو ع أن يكون الواحد منا حزيناً أو جدياً !

وتصفق السيدة غزاوي ، وتقول :

ـــ برافو ! ها هي أميرتي الشجاعة . « من المؤسف أن هذه المسكينة ليست إلا سنيّـة ، على حين أننا شيعة . . . » ـــ وتقول هذا مقـلّـدة صوت الراني عزيزة .

ويضحك الثلاثة : إن اللبنانية هي مقـلّـدة عظيمة ـــ بالفطرة .

أما العشاء فقد كان مرحاً جداً . وكانوا يتذكرون فيه الذكريات الحسنة . ويضعون برامج رحلات : تبدأ ببيروت لرؤية السلطانة ، ثم بباريس . والآن ، وما دام المال ليس بعقبة ، فإن عالماً من اللذائذ ، ينفتح أمام سلمى . أما أمير ؟ فإنها ستقنعه . فهي عندما تريد أن تسحر إنساناً ، فما من إنسان يستطيع أن يقاومها .

ومن جديد تشعر بأنها شابة ، غير مبالية . بل لم تعد تفهـم لماذا كانت ، منذ قليل تعيسة . . . والآن لا تريد إلا أن تغني وترقص .

ـــ سأضع هنا معزفاً (بيانو) . وسننظم حفلات موسيقية ، وبانتظار ذلك ، هيا ، زينيل ، جئني بقيثارتي !

وهذه آلة ناعمة وعريقة ، قـدّمها لها عازف قيثارة ، أندلسي ، ذات ليلة في الكريستال Christal ، علبة الليل الأنيقة في بيروت . وتعود سلمى إلى عالم أحلامها ، وتتذكر الزمان الذي كان فيه الرجال يستطيعون أن ينحنوا احتراماً لجمالها . كم يبدو هذا بعيداً . . .

ــ لنغن، ولتذهب الكآبة إلى جهنم!

وها هي سلمى واقفة، ورجلها مستندة إلى كرسي. فتعزف بعض الأنغام. ويرتفع صوتها الحار، الأرنّ جيداً: «لي حبّـان: حب بلادي، وحب باريس...» جوزفين بيكر وتينو روسي لم تراهما إلا على شاشة السينما، ولكن مرات عديدة، بحيث أنها تحفظ عن ظهر قلب كل أغانيهما، وكل لحن من ألحانهما. «آه كاتارينيتا بللا[1]، تشي تشي» وهنا أصبح صوتها مداعباً «اصغ إلى الحب يناديك، تشي، تشي، ولم الرفض الآن، آآه، آها آه... آه يا جميلتي، كاتارينيتا!». وكان رفيقاها سعيدين، يصفقان بالأيدي على النغم.

ــ صمتاً.

وها إن وجهين منذهلين، يظهران وراء الستارة، وهما أمتان من إماء الراني. وعندما رأتا الأميرة تغني، فإن عيونهما تجحظ، غير مصدقتين ما تريان. فأشارتا لها بالتوقف.

لكن سلمى، الهازئة، تعود وتغني، بأقوى مما كانت تفعل: «لو أنني كنت عرفت، في ذلك الزمن، آه آه، آها آه، يا جميلتي كاتارينيتا».

فهربتا. وجاءت اثنتان غيرهما تحاولان إسكات سلمى، ثم اثنتان أخريان دون أية نتيجة أخرى غير تمادي سلمى في عزفها، وعلى صورة أقوى فأقوى. ففي هذا المساء تريد سلمى أن تغني، وأن تتحـدّى الأرض كلها!

ــ ماذا يجري؟

ورنّ الصوت، وجمدت سلمى في مكانها. ذلك أن الراني عزيزة قد دخلت، وحملقت فيها.

ــ إني أتسلى، يا أختي. وقد تعـوّدت أن أعزف بالقيثارة وأن أغني. وليس لديك اعتراض، على ما أفترض.

ــ أما أنا فليس لديّ أي اعتراض. ولكن يجب أن تحسبي حساب الجهلة المحيطين بنا. فعندهم أن الموسيقى والغناء علامات على الحياة المنحـلّـة. أما أن يتعاطاهما أشخاص محترفون، ونساء كيفما اتفق، فهذا مسموح به ــ فلوكنوف مدينة مفتوحة للفنون. أما أن تفعل رانيتهم هذا، فإنه يعتبر فضيحة!

---

(١) كاتارنيتا: تصغير لكاترين، وبيلا، الجميلة، باللغة الإيطالية.

ـــ ليأخذهم العجب ، وليفعلوا ما يروق لهم ، فأنا لا آتي أمراً إدّاً .

ـــ إن ما تسمينه « أمراً إدّاً » مسألة نسبية ، يتغير مع تغير خطوط الطول والعرض . فأنا أعيد عليك القول : إن العزف على الموسيقى هو أمر غير مقبول : فإذا فعلته ، فإنك تجرحين الأعراف . ولن يحترمك الناس بعد ذلك . سينعكس عدم الاحترام هذا على أمير نفسه . وهذا مما لا أسمح به .

ـــ وهذا الإنذار واضح : فاختاري : فإما القيثارة ، وإما الزواج .

ـــ هيا . كوني عاقلة ـــ وعندئذ تصنعت الراني عزيزة بعض اللطف ـــ ، فحياتك في طريقها إلى التغيّر . فاعرفي كيف تستفيدين من مزاياها ، الكبيرة حتماً ، وكيف تقبلين بعض ما فيها من محاذير .

وخرجت قبل أن تستطيع سلمى الرد .

ومن ناحية أخرى ، ماذا كان يمكنها أن تقول ؟

وعلى الرغم من أنها تكره الراني عزيزة ، فإن عليها الاعتراف بأنها ، في هذه النقطة بالذات ، يمكن أن تكون على حق . ولكن ماذا كانت تعني عندما أشارت إلى « المزايا الكبيرة » لهذا الزواج ؟ وهل كانت تشير إلى المال ؟ وهل هذا هو السلاح الذي سيشهرونه ضدّها ، مرة ، ثم مرّة أخرى ؟

وطار عندئذ ذلك الفرح بحفلة الغناء . ولم يعد في قلب أحد متسع للهو . وترجو سلمى أصحابها أن يتركوها وحدها . فهي راغبة في النوم .

وتحلم ... أن زوجها الجميل قد تسلّل إلى السرير ، إلى جانبها ، وأنه خلسة قبّلها على الصدغ ، وأنها ، باندفاع ذاتي ، فتحت له ذراعيها واحتمت به ... فما أنعم جسده ، وما أجمل رائحته ! وها هو يداعبها ، ويقبلها على خديها ، وعنقها ، وكتفيها ، هامساً لها أنه يحبها . إنه سريع الاندفاع ، ومؤثر عاطفياً ، كجرو صغير . فتشتهي أن تضحك . وهل يضحك الإنسان وهو نائم ؟ ولكن عندئذ ...

وفتحت عينيها . فإذا أمير أمامها ، منحن عليها ، والوجه متوتر ، يضيئه ثقبان لامعان . إنه يشبه ملاكاً عابساً .

ـــ أمير !

وتمدّ يدها . فهل يراها . وعيناه غريبتان ، غامضتان ، كمرآتين . فلماذا يظل جامداً ؟

وهمست همس الشاكي :

ــ أمير ، أحبّني .

وهي لا تعرف جيداً ماذا تريد أن تقول بهذا الكلام . ولكنها تعرف أنها بحاجة إلى الاطمئنان ، وأن تدفع عن نفسها بالكلمات ذلك الشر الذي تُحس أنه يحوم في الجو .

فأمسك بيديه الطويلتين ، الناعمتين رقبتها . وبدأت أصابعه تلهو على العنق المشيق ، ثم تنطلق ، ببطء ، وتهبط ، وتستبعد الدانتيلات ، وتحيط بالثديين ، وتداعبهما ، و ...

ــ كلا !

وبقفزة واحدة ، انتصبت ، فرأت على صدرها خمسة خطوط حمراء . وتنظر إلى زوجها : إنه مجنون ! لقد تزوجت مجنوناً !

لكن أمير خفض جفنيه . وعندما عاد فرفعهما ، كانت عيناه قد فقدتا ما لهما من بريق معدني ، وكانت هنالك بسمة حارة تضيئهما . فيتمتم خَجِلاً :

ــ عفوك ، يا حبيبتي . إن جمالك أفقدني رشدي ، ولقد انقضى زمن طويل وأنا أحلم بك ...

وأخذها بين يديه ، وهزهزها . وبنعومة ، بل وبخجل تقريباً ، يملأ الخدوش بالقبل .

ــ لا تلوميني ، فهذه العلامات هي علامات الهوى . وقليلات هن النساء اللواتي يستطعن التفاخر بإثارة مثل هذه العواطف ! إنني لخجل ، وفي الوقت نفسه أنا سعيد . فما من يوم شعرت فيه كما أشعر الآن .

وكانت سلمى تلاحظه ، من خلال جفونها الطوالة . ويبدو حقاً ، كأنما داخله الاضطراب ...

وقليلاً فقليلاً ، ولشدة ما دوعبت ، ارتخت منها المفاصل ، وهو ينظر إليها بكثير من الحب ، حتى لقد أخجلها أنها ملأت نفسها بالشك فيه .

وابتسمت له ، وقالت :

ــ أحبك .

فيضمها بقوة إليه ، كما لو أنه يخشى أن يفقدها . وهي بحاجة إلى الحنان . وعندما كانت طفلة ، كانت كالفاتها تؤنبها عندما كانت تندفع ، نحوهن ، لتفعمهن قبلاً . ذلك أن مثل هذه الصور من القرب ، لم تكن مألوفة في البلاط العثماني . وكان أبوها ، في أحسن حالاته ، يكتفي بضربات خفيفة على خدها : أما أمها ، فقد كان تقبيل أطفالها على الجبين ، غاية الغايات في إظهار عواطفها .

وتنزلق سلمى ، بنعومة ، إلى النهر ، لتحملها العاصفة البطيئة . وهبت ريح دافئة ، أفسدت ترتيب خصل شعرها ، ورفعت قميصها ، وداعبت بطنها . وكان الظلام دامساً . لكن بعض النجوم تتراقص أمام عينيها .

لكن ألماً حاداً جاءها ، فأخرجها من حلمها . فإذا فوقها أمير ، والوجه متشنج ، والعينان مغلقتان . فهل يتألم هو أيضاً . وتحاول أن تتملص . ترى ماذا يفعل؟ ولماذا يستمر ؟ إنها تتألم .

وصرخت :

ـــ توقف .

ولكنه لا يسمعها ، فيغشاها الهلع . فتكثر عليه من ضربات يدها ، وخمشات أظافرها ، طمعاً بإزاحته عنها ، ولا يبدو أنه لاحظ من ذلك شيئاً . فلما أصابها الإرهاق عادت فارتمت على وسائدها والدموع تعميها ، انذهالاً ، أكثر منه ألماً : ولأول مرة في حياتها ، كان عليها أن تعنو للقوة .

وبدرت شكوى ، وتوجع : وارتخى أمير . أما سلمى ، فبدأت تحاول ، بعصبية ، أن تتخلص من هذا الجسم الضخم الذي يسحقها . وليس لديها إلا فكرة واحدة : هي الهروب ، والاغتسال ، الإغتسال من الدم والعرق ، ومن هذا التلوث .

فدفعته عن نفسها ، وهرعت إلى الحمام ، وفتحت صنابير الماء ، وغسلت نفسها بغضب ، كما لو أنها تريد أن تنتزع نفسها من هذا العار . أفيمكنها يوماً ما ، أن تتطهر منه ؟ أوهذا هو الحب ؟ كلا . إن هذا مستحيل . فالرجل الذي يحب امرأة ، ينظر إليها ، ويكلمها برقة ، ويسأل عما تشعر به ، ويظل قريباً منها في كل لحظة . وكانت سلمى قد قرأت الروايات الفرنسية الممنوعة . وفاجأت مسارّات النساء المتزوجات ، فيما بينهن ، وهي تعرف .

وكان إحساسها إحساساً بالغثيان . ولكنها لا تشتهي البكاء .

وهذا الدم لا ينقطع عن السيلان . ويخيَّـل إليها أنها لن تقف عن غسل هذا الجسم ، الذي أصبح ، فجأة ، مقرفاً لها ، وأن بها رغبة مجنونة ، لمعاقبته ، واجتثاث ما فيه من أسباب هذه الشناعة .

أتراها ماضية إلى الموت ؟ إن كان هذا الدم نزيفاً ؟ أو إن كان أمير قد قتلها ؟ ولحظة ، وتدع نفسهـا تُعلّـل بالفكـرة اللذيـذة . فأي انتقـام ! وأي جمال : إنها بيضاء في كفنها الأبـيض ، وأمها الغارقة في الدموع ، وسلمى منقبضة القلب برؤيتها تبكي . « اعفي عني ، أيندجيم ، فإني لم أفعل ذلك عامدة ... » كم سيتألمون ... هؤلاء المساكين ...

وخلف الستارة ، كان هنالك صوت قلق :

ــ يا غاليتي ، هل تشعرين بألم ؟

ــ كلا ، كلا ، أنا آتية .

وبسرعة جاءت بالقطن ، وبقميص نوم جديد ، وبخاصة لإخفاء الجرح . فهي لن تمضي ، إلى حد المطالبة بالحب .

وها هو متمـدّد على عرض السرير ، وبلذة شهوانية ، يبتسم لها ، غير واعٍ للمأساة التي أثارها .

ــ هل أنت سعيدة ؟

فتهز رأسها ، وتبعد عينيها ، مما يعزوه هو إلى خجل رائع .

ــ تعالي إليّ ، واجلسي بقربي .

فيشـدّها برقة ، وتطاوعه ، ساكنة ، ملبيّـة ، كما لو أن عضلاتها وأعصابها قد هجرتها ، فيمُـر يده على بطنها . فترتعش . ويضحك مسروراً . ويظن أنه عاد فجـدّد رغبتها .

ــ لحظة ، واتركني أستريح قليلاً !

فتحمـرّ وتتمتم : « ولكنني لم ... » .

فيضحك بقوة أكبر . وكم تكره هذا النوع من الاكتفاء .

ــ إن هذا البطن سيقدّم لنا صبية جميلين ، أليس كذلك ؟

وتشعر بالتعب اللامتناهي . إنها عاجزة عن الإحساس حتى بالألم . ولا تملك إلا ما يكفي للإحساس بما هي عليه منذ الآن : إنها بطن لإنجاب ورثة لدولة بادالبور ... وهي لا تثور ؛ بل إنها لا تفهم ، كيف أنها ، وهي سلمى ، قد وصل بها الأمر إلى هذا . وفيما يشبه الضباب ، تسمع « أناها » القديمة ، تجيب ، كما لو أنها تريد الانتقام :

ـــ أصبية جميلون ... أم بنات حلوات .

وكان الرجل المتمدِّد بجانبها يضحك من جديد .

ـــ بنات ، إن كان هذا يعجبك ، ولكن بعد ذلك ؟

وتحس إحساساً واضحاً أن هذا ليس مزاحاً ، بل أمراً .

وتتأمل ، وهي مفتونة ، هذه العيون التي تتمطى ، بصورة بطيئة جداً ، ولا تقف عن التمطي ، وهذا الوجه الذي يرق ، حتى ليكاد يصبح مثلثي الشكل ... وفجأة تصرخ صرخة : وتجد أمامها الإله كوبرا ، مهدِّداً .

ولما كانت غير قادرة على القيام بأدنى حركة ، فإنها تشعر بالنظرة التي تشدها أو تسحبها ، سحباً بطيئاً لا يكاد يحس به . فماذا تفعل؟ أتقاوم ، أو تختبىء في أعماق ذاتها . فتجمع قواها كلها ، وتضغط قبضتيها ، وتنجح ، وهي ترتجف من شدة الجهد ، في خفض جفنيها . وها هي قد أنقذت .

ومن بعيد بعيد يصل إليها صوتٌ هازىء .

ـــ يبدو أنك مرهقة ، يا عزيزتي . فاسمحي لي أن أنسحب .

ويحني رأسه إحناءة لطيفة . وغاب عن الأنظار .

والكوبرا[٢] ؟ هل اختفت ؟ أوَستصبح مجنونة ؟ ...

---

(٢) الكوبرا ، حية ضخمة تسمى الصّل بالعربية .

٤

وخلال أسبوعين، ستتلقى سلمى، الجالسة على السرير، ذي الأرجل الذهبية، زيارات القريبات، والصديقات، والجارات، والنساء الطيبات اللا متناهيات العدد، والقادمات ليلاحظن عياناً سعادتها. أما اللواتي كنّ قد رأينها قبل الزواج، فإنهن لا يحرمن أنفسهن من الإشارة إلى أنها ازدادت جمالاً إلى حد كبير: «لقد كانت شاحبة اللون جداً، فانظرن الآن خدّيها الورديين، وعينيها اللامعتين، وانتفاخ شفتها. وحتى مختلف أجزاء جسمها، فإنها أصبحت أكثر امتلاء! حقاً إن الحب يصنع المعجزات، وراجاهنا الجميل هو في الحقيقة، ساحر، في هذا المجال!».

ويضحكن، ويتمازحن، ويغبطنها، وهنّ يمضغن البان المغطى بقشرة فضية ناعمة. ويعلقن على مجوهراتها، واحدة، واحدة. وعلى ما حولها. وحقاً فإن من واجب العروس الجديدة أن تعرض أجمل قطع جهازها، وأن تعرض نفسها، بتواضع، للأنظار. وعلى سلمى أن تغيّر ثيابها عدة مرات في اليوم، لإرضاء فضول النساء المفرط.

أما الراني عزيزة، المتألقة، كما لو أن الناس يحتفلون بانتصار شخصي لها، فتأمر وتطلب: وها إن أكواماً من «البالايكي جيلوريان» ــ وهي مخاريط من الكريمة الطرية، المحشوّة بالجوز والمعطرة بالهال ــ والحلوى، والموتانجان ــ وهو مربى مصنوع من لحم الجدي ــ وكل أنواع الحلوى المخصصة لطعام العرس، تقدَّم، مرصوفة بشكل فني، على صوانٍ من الفضة المطلية بالذهب.

وبعد أن توجه الدعوة إلى النساء سبع مرات ــ ولوكنوف تفخر بأنها تطبق التقاليد المعروفة في

الهند، أفضل تطبيق ـــ يقمن ويتناولن الطعام. ويمكن أن يعرف الإنسان من خلال سحناتهن الفرحة، أن طباخي القصر لم يسيئوا إلى سمعتهم.

وتنظر سلمى، بشهية، ولكن دون أي وهم، إلى ما يقـدَّم من هذه الأشياء الرائعة: ولما كانت مفعمة القلب بالسعادة، كزوجة جديدة، فإنها تعتبر أنها فقدت الشهية.

ومن حسن الحظ بالنسبة إليها، أن هذه الاحتفالات ستختصر بعض الشيء، لأن فترة الحزن، في شهر محرّم، ستبدأ قريباً، والحزن هنا هو الحزن على مقتل الحسين، حفيد النبي، عام ٦٨٠، مع أسرته كلها، على يد جيش الطاغية يزيد. وسيبكي المسلمون الشيعة سبعة وستين يوماً على ذاك الذي يعتبرونه الوريث الروحي للنبي محمد ـــ ذلك أن الخلفاء الثلاثة الأوائل، المبجلين جداً لدى السنة، هم مجـرَّد مغتصبين في نظرهم.

وخلال سبعة وستين يوماً، لا تشهد العين احتفالاً، ولا حلياً، ولا ثياباً ملونة، بل تشهد مسيرات جنائزية، ومجالس، أي اجتماعات للصلاة، يقوم خلالها مرتلون، موهوبون للألم، بانتزاع طوفانات من الدموع، يذرفها الحضور، وهم يتذكرون مأساة كربلاء، وفضائل الشهداء. وتشتهر لوكنوف، في الهند كلها، بالجمال الواخز، لهذه الاحتفالات.

وفي هذه السنة، يبدو السير هاري ويغ، حاكم «المحافظات المتحدة» كثير القلق. ذلك أن الفترة الممتدة بين يوم ٩ و ١٠ محـرَّم، التي تصل فيه الاحتفالات إلى قمتها، تقع في موعد الهولي، أي العيد الهندي الكبير، عيد الربيع، أو مهرجان الألوان. وهو يخشى أن تقع الاصطدامات بين الطائفتين.

غير أن سكان لوكنوف أناس مسالمون. فهم يعلنون حبهم للذة، وشكهم في كل ما يؤخذ مأخذ الجد ـــ ولا سيما في السياسة والاضطرابات التي ما زالت تعصف بالهند منذ بضع سنين، لم تصل بعد إلى هنا. والواقع أن عدداً كبيراً من الناس المسلمين يأسفون على وقوع هذا التزامن الذي يحول بينهم وبين المشاركة المعتادة، في المهرجان الهندي، الذي يرشون فيه بعضهم باللون الأحمر والوردي، وهما من الألوان المثيرة للتفاؤل. ثم إن الكثير من الهنود يأسفون لهذا التزامن، لأنه يحرمهم من متابعة مسيرات شهر محرّم، كمشهد في جزء، وكتقديس، في جزء آخر، لشهيد من شهداء العقيدة. أما أن هذه العقيدة ليست عقيدتهم، فأمر غير مهم: فهم مقتنعون أن مختلف الأديان ليست إلا «طرقاً عديدة توصل إلى الحق ذاته».

ولكن الانتخابات الأولى التي ستتم لإقامة حكومات محلية ، كانت قد هـزّت البلاد كـلّـها ، في هذا الربيع من عام ١٩٣٧ على حين أن مؤتمر جواهر لال نهرو ، والرابطة الإسلامية التي يتزعمها محمد علي جناح ، يتجابهان حول تأليف هذه الحكومات . ويمكن لأي حادث ، أن يثير الانفجار .

وهكذا فقد قرر هاري ويغ تطبيق القرار رقم ١٤٤ ــ القاضي بتحريم حمل السلاح والعصي ، وتعزيز الشرطة ، ومنع الاحتجاجات والمسيرات . ولما كان منع الاحتفالات الدينية ، غير وارد ، فقد عمد هذا الرجل لشراء بضعة أطنان من الأسلاك الشائكة ، من الجيش ، ليستطيع بواسطتها تحديد مناطق المظاهرات ، لكلا الطائفتين . وهذه فكرة عبقرية ، كما أكد له مساعدوه الهنود الذين لم ينس استشارتهم .

ويعرف السير هاري الهند معرفة جيدة ، لأنه يمارس فيها وظيفته منذ عشرين سنة . وخلافاً لأكثر مواطنيه الذين يجعلهم الحرّ ، والرطوبة ، وبخاصة هذه المجموعات من الأجساد الهزيلة ، ذات العيون الشديدة اللمعان ، لا يطيقون الحياة ويوقعهم في المرض ، فإنه هو بالذات ، يحب هذه الأرض الغريبة التي وصفها ذات يوم ، عندما جاءه شيطان الشعر « بأنها ماسة سوداء في قلب الأمبراطورية » .

ولئن كان تعيينه حاكماً على لوكنوف ومنطقتها ، شرفاً ودليلاً على الثقة ــ ذلك أن المناطق المتحدة ، مع الله آباد ، مدينة نهرو ، وآليغار ، الجامعة الإسلامية الكبرى ، تقع في قلب الحياة السياسية الهندية ــ فإنه من الناحية الاجتماعية نوع من القبر . وكان السير هاري ، ولا سيما زوجته ، الليدي فيوليت يفضلان بومباي ، أو دلهي ، أو كالكوتا . ذلك أن الإنكليز استطاعوا في هذه المناطق ، أن ينشئوا لجماعتهم ، مركزاً خاصاً بهم ، فيه ما يكفي من الغرائب ، وحتى الهنود ــ أي الذين يترددون عليهم ، وهم أبناء الجامعات البريطانية في أكثريتهم ــ هم أكثر ... أو أقل ... ولنقل أقل هندية !

وبالمقابل فإن لوكنوف ظلت هندية بشكل مخيف . والغريب أنها تفخر بذلك . ويأسف السير هاري على ذلك ، لا سيما وأن هذه المنطقة ، كانت في الماضي مركز الإشعاع الثقافي ، في شمالي الهند ، وحـلّت بذلك محل دلهي التي خُلع ملكها « المغولي الكبير » عن عرشه ، على يد الجيش البريطاني . وقد اشتهرت باحتفالاتها المهيبة التي يظهر فيها الفنانون الأكثر شهرة ، واعتبرت كلؤلؤة الحضارة (غانغا ــ جامني Ganga-jamni) المسماة كذلك تبعاً لاسم نهرين يجتازانها ، هما الغانج

والجامنا ، أي نهر الذهب ونهر الفضة . وهكذا كانت لوكنوف ترمز إلى انصهار التقاليد الهندية والإسلامية ، وشُجعت على ذلك من قبل الطبقة المهيمنة الشيعية .

أما اليوم ، فإنها ليست أكثر من عاصمة لمحافظة ، حتى ولو كان راجاتها ونوابها ، وهم من كبار هواة المباريات الشعرية ، والموسيقية ، يحتفظون لها بألق ثمين ومتخلف .

ولا يحضر السيد الحاكم هذه الاجتماعات التي تطول فيها الموسيقى إلى ما لا نهاية ، والتي تغنّى فيها بعض القصائد المرتجلة ، بصوت وحيد النغمة ، فتسكر الحضور ، الذكور حصراً ، إسكاراً عاطفياً عظيماً .

ولقد أراد السيد هاري ، في بداية إقامته في الهند ، بدافع الفضول ، وكذلك بحكم حسن النية الذي جعل مواطنيه يسخرون منه ، أن يتدرب أو يتثقف ثقافة هندية . وعلى الرغم من أنه يملك معلومات جيدة عن لغة الأوردو ، فإن هذا الشعر يظل مغلقاً عليه ؛ إما لأن التعابير المستخدمة ، أعلى من مستواه ، أو لأن ما فيه من صور ، لا يذكّره بشيء ، أو يبدو له مضحكاً . أما الموسيقى فإنها كانت تجعله شديد الرغبة في النوم .

وسرعان ما تبيّن أنه لا يكفي أن يريد التعرف على الأذواق والاهتمامات ، وطرق الحياة الهندية ، لكي يكسب مودة الهنود ، وأقل من ذلك ، احترامهم ، فهل هذا نتيجة لمئة وخمسين عاماً من الاستعمار ، علّمتهم الإعجاب بالقيم الغربية ، وصور حياتها — حتى ولو كانوا أحياناً وبصورة لا تتوقع ، يثورون على العبودية العقلية ؟ أو نتيجة لنوع من الاعتداد بالنفس ، يجعلهم وربما على حق ، يعتقدون أن الأجانب لا يستطيعون أن يفهموا ما يتفتح في أعماق نفوسهم ، التي غذيت خلال آلاف من السنين بالتقاليد وصور التفكير المختلفة .

« وكل واحد في مكانه » : ذلك هو المبدأ الذي كان ينظم المجتمع الهندي في كل الأزمنة والعهود .

وأوضح مثال على ذلك ، هو نظام الطبقات ، الذي لا مهرب لأي هندي منه ، مهما يفعل . ولقد عدل السير هاري عن فهم هذه « الحتمية القدرية » . فأن يولد الإنسان من طبقة نبيلة ، أو أن يكون رجل دين أو محارباً ، أو أن يولد من فئة « اللامساس » ، كل ذلك إنما هو نتيجة ، تبعاً للفيدا ، أو الكتابات المقدسة ، نتيجة لأعمال قام بها الإنسان في حياة سابقة : وإذن فهذا عدل . وليس التمرد على هذا ، عندئذ ، إلا نوعاً من الكفر ، ولا يمكن أن يؤدّي إلا إلى مصير أسوأ ، كأن

يعود الإنسان فيولد دودة أرض، أو حشرة. وبالمقابل، فإنه إذا عاش الإنسان حياته كعضو من أعضاء طبقة «اللامساس» بصورة وجدانية، وقبول العار والبؤس، برزانة، ضمن لنفسه في حياة لاحقة، طبقة أكبر حظاً.

وهذا الوضع راسخ في العقلية الهندية، بحيث أن المسلمين، الذين تقوم ديانتهم، كالديانة المسيحية، على المساواة — تأثروا بهذه العقلية، ونحن واجدون لديهم نوعاً من تقسيم الطبقات: فالإنسان إنما يكون من الأشراف، أو الأجلاف، تبعاً لكون أجداده من الفاتحين أو من المهتدين من الطبقة المنحطة.

أما مثالية الشاب هاري ويغ وأفكاره الديمقراطية، فليس لها سوق في الهند. ولقد انتهى ويغ هذا إلى الاعتقاد بأنه من الأفضل أن تكون الأمور على هذه الصورة، ضماناً، لاستقرار المجتمع، وإلا فإنه سينفجر.

لكل مكانه: ومن العبث أن يحاول أحد رجال جلالته، أن يفهم هندياً ما، كما كان من العبث في الماضي، أن يحاول السيد فهم العبد. وليس هذا عبثاً فحسب بل هو خطر. ولكن هذا لا يمنع أن تكون العلاقات «ودّية» بمقدار ما يعرف كل واحد، إمكانات اللعبة وحدودها. ومن فضل الله أنهم عديدون أولئك الهنود المنتسبون إلى الطبقة العليا، والذين فهموا جيداً هذا النوع من «معرفة كيف يكون العيش».

ولئن كان السير هاري، في لوكنوف، يفخر بأنه أنشأ لنفسه شبكة هامة من العلاقات الشخصية، خلافاً للكثيرين من زملائه الذين لا يتصلون بالسكان المحليين، خارج علاقات العمل، والاستقبالات الرسمية، ويتجنبون الاتصال بهم. ولما كان ذا عقل منفتح، فإنه يستنكر هذه النزعة العرقية، لا سيما وأن بعض الهنود، إذا وضعت لون بشرتهم جانباً، يمكنك أن تنسى أنهم هنود! وأكثر هؤلاء ارستقراطيون رُبُّوا في إنكلترا مثل راجا جهراباد، رئيس الحزب الوطني الزراعي الذي يجمع كبار ملاكي الأراضي، والذي هو «جنتلمان» كما ينبغي، ويحسن تنظيم رحلات لصيد النمور؛ ومثل نواب ساربور الذي لا يقدم لك في عشاءاته إلا الشمبانيا الفرنسية، أو مثل راجا بادالبور، ذي الذكاء اللامع، الذي نجح بأن يكون عضواً في الجمعية التشريعية، وأن يتزوج في الوقت نفسه أميرة عثمانية!

ويطيل السيد الحاكم سحبته من الغليون ويقول في نفسه: «إن هذا الأمير ما أحسنه من رجل! يجب أن أدعوه، فأنا شديد الحرص على معرفة سلطانته».

ودخل الهودج في الطرق القاتمة، وهو يتمايل بخفة، تبعاً لسرعة خطا الحاملين، ومرونتها. وسلمى تلاحظ: هذه الليلة هي الليلة التاسعة من شهر محـرَّم، ليلة موت الحسين، والمحاربين الأخيرين، في معركة كربلاء. ومضى نصف سكان المدينة باتجاه الإمام بارا الكبير، لكي يتذكروا، ويبكوا، ويصلوا. وآلاف من الأتقياء من القرى المجاورة قد هرعوا إليه أيضاً. ذلك أنه ما من مكان في الهند يحتفل فيه بمحـرّم بمثل هذه الفخفخة والحماسة، كما يحتفل في لوكنوف، مركز الإسلام الشيعي: منذ أن جعل منها ملوك الأود عام ١٧٢٤، الذين هم من أصل إيراني، عاصمة لهم.

وعلى بعد ما يقرب من مئة متر من الإمام بارا الكبير كانت الجماهير المحتشدة كثيرة العدد، إلى الدرجة التي اضطر معها حملة الهودج إلى التوقف. وكانوا قد حاولوا أن يجدوا لأنفسهم طريقاً بالصراخ، وضربات الأرجل، والأكواع، ولكن حق المرور اليوم لا يعمل به؛ فالأمير، وساقي الماء سواء: وكل منهم واحد من المؤمنين. وعلى الراني والبيجوم النبيلة التي ترافقها أن تمشيا على الأقدام.

وسـرّت سلمى بهذه المناسبة، واستعدت للقفز على الأرض عندما وجدت من يذكّـرها بواقع الحال:

بُـركتك، يا أميرة.

واستطاعت البيجوم ياسمين أن توقفها في الوقت المناسب. فأية فضيحة، لو... أنها وسط كل هؤلاء الرجال، كشفت وجهها! فدمدمت، وهي في الوقت نفسه مزعوجة وخجلة، دمدمت تقول:

ــ لقد نسيت، فأنا غير معتادة.

فابتسمت مرافقتها.

ــ ستتعودين على هذا بسرعة، ولا سيما عندما تكتشفين أن بركتنا هذه، هي في الواقع من أدوات الحرية.

أأداة للحرية، يكون هذا السجن من الحرير الأسود، المفتوح على الخارج بهذا المستطيل المشبّك الذي يصل إلى مستوى العيون؟ فماذا تريد أن تقول هذه المرأة المدهشة؟

فأخذت البيجوم بيد سلمى، وقالت لها:

ـــ كوني واثقة . فأنا أعرف كم تصعب عليك هذه الحياة ، ولكن أنا هنا لأساعدك عليها . فهل نكون صديقتين ؟

فتحملق فيها بعنف . والعينان الزرقاوان ـــ الرماديتان تدهشان عندما تكونان في وجه قاتم . فهل هي جميلة ؟ إنها تلفت النظر على كل حال . وهي في الخامسة والثلاثين تقريباً ، طويلة ، نحيفة ، خلافاً للنساء هنا ، اللواتي ما إن يتزوجن ، حتى يتضاعف وزنهن . وهي تقـدِّم للرائي صورة امرأة قوية ، لا تستطيع سلمى أن تعرف ما إذا كانت تغريها أو تقلقها . أما أمير نفسه ، فيبدو أنه يضعها في مقام عال من الاحترام ؛ وهي زوجة أفضل صديق له .

وقام الحمالون بإحاطتهما بسور ، بأجسادهم ، حتى وصلتا إلى الفناء الواسع ، وهو مكان مقـدَّس ، بدءً منه ينفصل النساء والرجال ، كموجتين سوداوين ، ليمضوا إلى الصلاة .

وفي الداخل ، ينتصب الإمام بارا بكل أضوائه . وله واجهة تزينها مئات الأقواس ، وهي تتألق بثرياتها المذهبة ، وشمعداناتها الكريستال . وفي كل عام مرة ، ينتزع القبر من غيبوبته ، وينفض الغبار عنه ، ويُـزَيَّـن ، ويُـجَـمَّـل ، كملك يوم تتويجه . وذلك للاحتفال بانتصار التضحية والموت .

« إمام حسين ، إمام حسين ! » .

ويشتد الانفعال لدى الجمهور الحزين ، أجش كشهقة البكاء ، وحاراً كصرخة حرب . ويضرب الجمهور كله بقبضتيه الصدور في نسق بطيء يتسارع شيئاً فشيئاً ، ويتمـدّد ، ويتحـرَّر : فالأجسام لاهثة ، والوجوه منتشية ، وهوى ينطلق فجأة :

« إمام حسين ، إمام حسين ! » .

وهكذا يتضخم الصخب ، ويتسارع ، وتتقطع أجزاؤه ، ويدور حتى يبلغ خرجات المآذن ، وحتى النجوم ، ويدخل إلى أعمق أعماق القلوب . وترى نادمين يمشون ببطء في طريق تلتهب نيرانها ، كما لو أنهم يمشون على بسط من الحرير . إنها إحدى معجزات الإيمان ، ويحبس الجمهور أنفاسه ، وهو مأخوذ بما يرى .

ويقوم مولانا ، من أعلى منبره ، بفرض الصمت ، ويجمع الحضور كلهم في راحة كفه ، وبصوت قوي يُذكّـر بالهنيهات الأخيرة لحفيد النبي ، وبالمعركة الأخيرة ، والبطولة ، والدم المنبجس من ألف جرح ، ثم بضربة الرمح ، الأعظم إساءة للدين ، والأبعث على الارتياع ... ولما كان الجمهور معلقاً

بشفتيه، فإنه يتنهد، ويتوجّع، وينفجر باكياً، ويكاد يختنق. فيهدهده، ويهدئه، ثم يصلّبه من جديد، ويمضي به إلى أقصى درجات الألم.

وبعد ذلك تظهر جمال مسرّجة بالسواد. فأي بؤس! إنها جمال القافلة الشهيدة، إذ أن كل الرجال ماتوا، حتى إنهم لم يوفروا طفلاً في الشهر السادس من عمره، والنساء، نساء أسرة النبي، أصبحن سجينات...

«يا حسين!» وها قد عاد الانفعال، أصم، وحشياً. وتنهال الأيدي ضرباً على الصدور، وتدخل الأظافر في اللحم، وتصل المأساة إلى أعلى درجاتها ـــ فما من عذاب يوازي أبداً مثل هذا العذاب.

ولقد ناضلت سلمى بكل قواها. وكانت في البداية تتطلع باحتقار: «ذلك هو الهذيان الشيعي، اللامعقول، الهستري. ومن حسن الحظ أنه لا مثيل لهذا عندنا، نحن أهل السنة». ثم تصيح ساخرة: «فلو أن صديقاتي الفرنسيات يرينني!» وتستدعي عونِ كل الذكريات البيروتية الحلوة، لتقاوم بها الرجفة المتسلّلة خفية إلى جسمها، لتضغطه، وتستنفدَ موارد عقلها النقاد، وتدفع اللااحترام إلى حد الكفر. ولكن عبثاً، فهي لم تعد تطيق دفع الدموع التي تسيل من عينيها، وتعميها. ولكن لماذا؟ لماذا؟ وماذا يهمها من أمر الحسين! فهي لم تفكر بتقديسه بشكل خاص، في أي يوم. ولو أن المسيح أو بوذا هما اللذان كان الجمهور يحتفل بهما، بهذه الحماسة، إذن لبكت، على الأرجح، مثلهم... لكنها لم تعد تحاول أن تراقب نفسها، وعدلت عن كل تفكير، فيغمرها الهيجان، ويذهب بعقلها، كطوفان يقذف كل شيء أمامه. وكذلك لم تعد تشعر بأنها أجنبية. فهي جزء من هذا الجمهور، منصهرة في هذا الجسم الكبير الذي يخفق، محمولة إلى بعيد جداً عن نفسها، بسلام.

ويطلع الفجر، ليضيء الوجوه الكامدة، المرهقة. وانتهى العيد، ويجب أن يعود الإنسان ليستريح، خلال بعض ساعات فقط، قبل أن يعود من جديد.

ـــ يا عزيزتي، لا مجال لأن تخرجي. فالليلة الماضية كانت شيئاً مختلفاً. ذلك أنه ما من أحد كان يستطيع أن يراك في الظلام، ليعرفك. ثم لنعترف بأنني قبلت، لأن البيجوم ياسمين كانت ترافقك. فهذه امرأة ذات عقل. وعندما تكون معك أعرف أنه ما من شيء مزعج يمكن أن يحدث. أما اليوم، فلا هي ولا سيدة أخرى من المجتمع تغامر بالسير في الطريق.

ــ ولكن المسيرة على ما يبدو ، عظيمة .

ــ الحق أن مواكب الدول الأميرية ، ودولتنا حاصة ، رائعة . غير أن المشهد يفسده وجود الجماعات المتوحشة ، والمخلوقات البدائية ، التي تعرض نفسها ، تماماً ، وراءها . وأخيراً أقول : إذا كنتِ حريصة على الحضور ، حقاً ، فاجلسي بشكل مريح في الشرفة الرئيسية : فمن وراء المشربية ، يمكنك أن تلاحظي المشهد على راحتك . وستأتي أختي الكبيرة لتنضم إليك ، بالتأكيد . ولأمر لا أفهمه تماماً ، يبدو لي أن النساء يحببن رؤية الدم .

وقبل آن يتاح لسلمى أن تجيب ، ترك الراجا المجلس . فتهز كتفيها . لا ريب أنه لو رآها تبكي ، في الليلة الماضية ، فإنه كان سيظنها مجنونة ! فأي كائن غريب هو . أفحقاً هو غريب عما يثير شعبه ، وقليل الحساسية تجاهه ، بمقدار ما يدع الناس يظنون ؟

لكن الشرفة قد امتلأت بحشم الراني عزيزة . ومنذ الساعات الأولى للصباح ، أقبلن عليها بسرعة ، حتى لا يفوتهن شيء من الاحتفال . وها هن ينتظرن ، وعيونهن تلمع ، والشفة شرهة . وكانت سلمى تودّ أن تُعفى من ذلك ، ولكن مقام الشرف ، المحاذي للراني عزيزة ، يعود إليها ، كواجب ، وعندما تظهر الراني ، بحلتها السوداء ، فإنها لا تستطيع إلا القبول بدعوتها الخرساء .

ومن بعيد ، كأن يأتيهن صوت المزامير الجنائزية . وها هي الفيلة تتقدم مجلّلة بالسواد ، ومعها سحابة من الغبار . وعلى ظهورها يهزُّ حَـمَـلَـةُ الأعلام ، ألوان الدول الأميرية ، وكذلك يهزّون الأعلام التي غنُـمت في حقول المعارك ، لتنقل بورع من جيل إلى جيل .

ثم تأتي مجموعة الجمال ، بخطواتها البطيئة ، وعليها الفرسان ، وهم يحملون الأعلام المقدّسة المطـرّزة بآيات من القرآن ، وفوقها يد برونزية كبيرة مفتوحة . أفتراها يد العباس ، أخي الحسين غير الشقيق ، الذي ذهب ليأتي بالماء للمحاصرين الذين أجهدهم العطش ، فإذا به تقطع يداه الاثنتان ؟ أم تراها الأصابع الخمس لليد نفسها ، من حيث هي رمز للخماسي الشيعي : محمد ، وفاطمة ابنته ، وصهره علي ، وولداه الحسن والحسين ؟ ترى من يستطيع الحواب ؟ وماذا يهم ذلك كله بالنسبة لحماسة الجمهور الذي يزدحم ... ؟

ويلاحظ الإنسان بين ما يراه ، شيئاً له علاقة باللون . فأفراد الجوقة يلبس كل منهم جاكيتة حمراء ، أما العمامة فهي من الموسلين الأسود . ونراهم يمرون ويبسطون شكواهم المأتمية ــ وهي

شكوى رتيبة، ملحة ــ ليفسحوا المجال للزولزيناخ حصان الحسين، الرائع، والوحيد، والمصطبغ سرجه بالدم. وتراه يمشي، والرأس هابط، وهو منهك، وبائس.

وينفعل الجمهور لهذا المشهد، فيندفع ليلمسه، باعتباره آخر رفيق للإمام. ثم يزدحم الجمهور مرة أخرى، يمس «التازيات» العليا... وهي نماذج لقبر الحسين في كربلاء مصنوعة من الشمع الملون، أو من الورق المذهب والفضي، ويمسّ المهد المحمرّ الذي كان فيه ذلك الطفل المقتول، والأعلام المصبوغة بدم الشهداء. فهو بحاجة إلى أن ينفعل بما عانوه أثناء النزاع، ويتصوّر تضحيتهم. وعلى حين أن بعض الحفظة يقلدون ويغنون موت الأبطال فإن الجمهور يئن ويتألم ضارباً صدره بالأيدي أو بالسياط.

ولكن ها هم الآن النادمون، وفيهم الرجال الناضجون، والمراهقون، والأطفال. فتراهم عراة الجذع، يمسكون بأيديهم سياطاً من السلاسل تنتهي بخمسة أمواس أرهف حَدُّها حديثاً.

ووقف هؤلاء، أمام الشرفة.

ويهتف الجمهور

ــ إمام حسين!.

ويجيب:

ــ يا حسين!

وباندفاع واحد، تقع السلاسل على الظهور العارية، فتقص اللحم قصاً، وينبجس الدم.

ــ يا حسين! ثم يضربون أنفسهم أكثر فأكثر بالسياط على نسق الهتاف. فتصبح الجروح أعمق، ويسيل الدم، وينزل الدم على السيقان، ويشكل بقعاً سوداء على الزفت.

ــ يا حسين!

فينهار رجل ويقع، أصفر كالموت، ثم رجل آخر، كطفل تقريباً. وسرعان ما يحملونهما على حمالات مرتجلة. وتتضاعف الضربات، ويجلد النادمون أنفسهم بعصبية، لاهثين، أُعموا وأُصِمّوا عن كل ما هو غير عذابهم، ومحاولتهم اليائسة، في إعدام الجسد، والوصول إلى «الحال» الذي ينشئون فيه وحدة مع الواحد.

ترى هل سيتوقفون عن فعلهم هذا يوماً ما؟ إن سلمى تلتف على نفسها، وأعصابها متوترة، ولا تستطيع أن تزيح بصرها عما تشهد، وفي فمها طعم الدم، وإحساس بالتقزز. ترى هل هي مقبلة على الإغماء؟ وإلى جانبها الراني عزيزة، لا يتحرك فيها شيء، وتغمس شفتيها في كأس من الشاي، على حين أن تبعها، يشرح المشهد، ويعلّق عليه، ويَمُص كمية من السكاكر، ومعاجين الفواكه. وتنهض سلمى، تريد أن تخرج. وبيد قوية وحتى من دون أن تدير رأسها، ترغمها الراني على الجلوس.

ـــ لم ينته المشهد بعد، ويجب أن نرى كل شيء، حتى الأخير.

وقالت ذلك كما لو أنها تصدر أمراً، والعينان نصف مغلقتين، وابتسامة غريبة ترتسم على شفتيها.

أما في الخارج، فإن الجماهير سكتت، وابتعد أولئك الذين كانوا يعذّبون أنفسهم، ريثما يستعيدون أنفاسهم، ويمسحون جروحهم، قبل أن يعودوا إلى احتفالهم المشؤوم، تحت شرفة أخرى، حيث توجد نساء أخريات ليشاهدنهم بفضول، وهنّ يقضمن بعض قطع الحلوى.

ـــ إمام حسين.

وفي هذه المرة، لم نعد تجاه هتافات مجد، ولا حرب، بل نحن أمام همس، وارتجاف طويل، مشوب بالاحترام والخوف. وظهرت مجموعة صغيرة من الرجال، وسيوفها مُشهَرَة. فيسكت الجمهور، بينما كانوا هم يستغرقون في التأمل.

«قيصر، أولئك الذين سيموتون...». فتهز سلمى رأسها. وعلى وجهها علامات الغضب. ترى لماذا تضايقها هذه الجملة؟

وبحركة دقيقة، تضرب السيوف الجماجم، فتجرح فروة الشعر، ويسيل الدم على العيون، والأنف، فيعمي ويخنق. وبصمت ترتفع الأذرع، وتضرب من جديد، فتزداد كمية الدم السائل. فلا يكاد الإنسان يتبيّن من الوجوه شيئاً، غير العينين، اللتين كأنما قد خرجتا من مكانهما أو جحظتا. وانزلق سيف، فذهب بأذن، وأصبحت ثقباً أسود يخرج منه الدم. أما الجماهير المذهولة، فإنها تحبس أنفاسها.

وفي الضربة الثالثة للسيف، انهار رَجُل، ككتلة لا حياة فيها، والوجه على الأرض، والجمجمة مفلوقة.

ويدوي صفير حاد . فإذا بجماعة من الجنود تشق الصفوف بضربات سياطها . واندفعت ، فجرَّدت من السلاح أولئك الناس المخبّلين ، ووضعت القيود في أيديهم ، ودفعتهم إلى عرباتها العسكرية وتحركت هذه قبل أن يفسح المجال للجمهور المندهش ، للقيام بأي رد فعل .

وتعلّق الراني قائلة : كان من الواجب أن يتوقع هؤلاء ما حدث . فقد منعت الحكومة هذه المشاهد ؛ فهنالك موتى أكثر مما يجب في كل عام . ولكن ماذا نستطيع أن نمنع ، على أولئك الذين يريدون أن يموتوا .

إن هذه فلسفة لا معنى لها أبداً ، بالنسبة إلى سلمى التي كبا لونها ، واستبدت بها رغبة التقيؤ ، فمضت إلى المبصقة المرصعة .

ـــ أية فكرة غريبة ، أن يختار هذا المساء لكي يدعونا ! أولا يعرف السير هاري بأن هذا اليوم يوم حزن كبير ؟

وجلست سلمى أمام منضدة زينتها ، فأنّقت زينتها ، وعطّرت ثوبها . وكان مزاجها مزاج العصفور : فهذه أولى طلعاتها منذ زواجها !

وسخر أمير من هذه الدعوة ، قائلاً :

ـــ ربما كان هذا نوعاً من المزاح الإنكليزي ... قال هذا وهو يعقد ربطة عنقه للمرة ﻫ★ .

ففي هذا المساء ، اختار أن يلبس لباسه الأوروبي ، ذلك أن الدعوة ليست استقبالاً رسمياً ، بل هي عشاء بين أصدقاء . وهو يشعر بالراحة أكثر ، مع هذا اللباس . وبالمقابل ، فإن سلمى تضع ساريها ، وهو نوع من الحرير الثقيل الأزرق من بيناريس Bénares أما الغارارا ، مهما تكن فخمة ، فتكون في غير محلها ، لأنها تقليدية أكثر مما يجب ، ولعلها خرجت من دائرة الاستعمال . وفي المدن الكبرى ، أصبح المسلمون المتطورون يهملونها ، لصالح اللباس الهندي ، كاشفين بذلك ، عن أفق واسع ، يقدّره أمير ، من حيث هو رجل حديث ، وعلماني .

ويظهر مسكن الحاكم ، في آخر حديقة كبيرة ، متألقاً بأنواره . وكان على مدخل الدرج حرس معمّمون ، ووجه كل منهم كأنما قدّ من مرمر قاتم ، إنهم يؤلفون سياجاً . وهؤلاء هم السباهي من جيش

★ في الرياضيات : الحرف ﻫ يدل على عدد كبير .

الهند، المنحدرون من أولئك الذين ثاروا عام ١٨٥٧ . في هذا المكان نفسه، في لوكنوف، وذبحوا رجال المعسكر الإنكليزي، مشيرين بذلك إلى بدء المعارك التي ألهبت شمالي البلاد كـلّـه.

وتساءلت سلمى؛ وهي تتأمل النظرات الخالية من التعبير ــ بم يفكر هؤلاء؟ ولمن يمحضون الولاء؟ وكيف يستطيعون عام ١٩٣٧ أن يخدموا تحت إمرة البريطانيين، والبلاد كلها ملتهبة، تطالب بالاستقلال؟

لكن السير هاري ويغ لا يثير أي شك حول هذه النقطة. ويوضح فكرته وعلى فمه، ابتسامة ماكرة:

ــ إن هؤلاء الرجال مخلصون لنا. وأصلاً، فإن الهنود رجال مسالمون، وعندما يتقاتلون، فإنهم يفضلون التقاتل فيما بينهم.

وتندهش سلمى، لأنه ما من رجل بين هؤلاء الحاضرين احتج. بل اكتفوا بالضحك: وهي تشعر بالخجل نيابة عنهم.

وبدأت السهرة بداية حسنة: إذ قـدِّم الكبد المعجون وخمرة السوترن، وطير التدرج المسقي بخمر البورغواني المسكر. ذلك أن السيد الحاكم يحسن الاستقبال، ثم إنه حسن التصرف مع النساء. إلى أبعد مدى. وكانت سلمى قد نسيت تقريباً، أن مصاحبة الرجال، شيء سار جداً، وخاصة عندما تشتعل في العيون تلك الشرارة الصغيرة، فتشعر من جديد أنها امرأة.

ولكن لماذا بدأ الحضور يتحدثون في السياسة؟ إن السير هاري الذي وجدته منذ قليل رجلاً ذكياً، بل ورائعاً، يبدو لها الآن كثير التفاخم، مفرط الثقة بكفاءته. أو لا نراه يتحدث الآن حول شهر محرَّم، ويتجرأ أمام هؤلاء الأمراء المسلمين، بنعت الإسلام كله بالتعصب، لا الشيعة وحدها؟

أما الراجا جهراباد الذي يتباهى بأنه يعرف بصورة أرقى من أي إيقوسي، المصدر الصحيح لأي نوع من أنواع الويسكي، فإنه لم يكذبه، ولكن ما خطب راجا «ديلواني» ونواب «شاربور»؟ إن هذين «الجنتلمانين» اللذين تمـثّـلا كل العـرّات البريطانية ما زالا مع ذلك يلبسان زوجتيهما البرداه التقليدية تماماً. وقد لزما الصمت، ممتعضين، أمام ملاحظة الحاكم السير هاري ويغ.

ــ وأنت يا أمير، أنت الذي أعتبرك أنا فكراً عقلانياً، ما رأيك في الموضوع؟

ـــ إن شعبنا ما زال جاهلاً ، أيها السير ، ولهذا فإنه يغالي في التعلق بدينه ؛ إذ لا مرجع له غيره ليستند إليه ... وأخيراً ، أقول إنه لم يكن له من مرجع آخر ، حتى هذه السنوات الأخيرة .

وسكت . وأية حاجة هناك ، لأن يزيد في الإيضاح ؟

ويتجابه الرجلان بالنظرات . فيتردد الحاكم ، ثم ينحاز إلى الضحك .

ـــ يا عزيزي ، لو أن الذين يطالبون بالاستقلال ، كانوا يشبهونك ، فلن نتردد في الرحيل ، مطمئنين إلى أن بلدينا يبقيان صديقين ، يشتركان في المصالح نفسها ، وفي المثل الأعلى نفسه . أما مع المتطرفين الذين يقودون الآن ما يسمى بالحركة الوطنية ، فإن علينا واجب حماية شعبك من نفسه .

وحنى أمير رأسه ، حنية خفيفة .

ـــ إن هذا لإفراط في الطيب من جانبك ، يا سيدي الحاكم .

ولكن شاباً يجلس في آخر الطاولة كانت سلمى قد لاحظته ، لأنه الوحيد الذي يلبس الشرواني . بدأ يتدخل في الحديث .

ـــ أيها السير . لقد أعجبنا بوجوه الحيطة التي اتخذتها ، لمنع المجابهات الإسلامية الهندية . ولكن هل فكرت بأن عيد الفصح سيأتينا خلال يومين ؟ فهل حُدِّدت مسيراته بأسلاك شائكة ؟

ولقد تكلم الرجل بأكبر الأدب والتهذيب ، وبأشد صور البراءة . لكن الحاكم الذي احمر وجهه ، أجاب بجفاف :

ـــ ليس لهذا أي دخل في الموضوع .

وتعض سلمى شفتيها . وتنظر إلى الشاب الذي يجلس في آخر الطاولة ، وتبتسم له ، وتنطلق إلى النقاش ، بصوت عذب .

ـــ يا صاحب السعادة . أصحيح أن النادمين في إسبانيا ، ينزلون إلى الشارع ، ويضربون أنفسهم حتى يسيل الدم ، احتفالاً بذكرى موت المسيح ، كما يحيون هنا ذكرى موت الحسين ؟

وبدأ السير هاري يتأتأ ، استنكاراً .

ـــ المسألة كلها هي في اللوينات ، يا أميرة . وأخشى أنها تخفى عليك ، في هذه النقطة .

وكانت تلك طريقة رائعة في إغلاق باب المناقشة . ذلك هو مصدر الدم البريطاني البارد : فلديهم قناعة هائلة بتفوقهم ، بحيث لا يشعر أحدهم أنه بحاجة إلى المناقشة . فلو أن الحاضر هنا ، أمام الحاكم ، فرنسي . . . — وتفكر سلمى بأولئك الذين عرفتهم في بيروت — إذن لتفجر . ولما كان أقل ثقة من هؤلاء ، بنفسه ، فلربما قاتل من أجل الإقناع ، وربما كان مضحكاً ، ولكن ما أكثره قرباً إلى النفس ؟

— وكيف رأيتم آخر لعب البولو ؟

— البولو . . . حقاً ، لم نكن نفكر به ، من حيث انشغالهم بمناقشة التوافه . وفجأة ، أخذ الجمع يشارك في الحديث ، حتى لقد نسي الحاكم غضبته المزاجية الأخيرة .

وكان العشاء يوشك أن ينتهي . وكالعادة انسحب الرجال إلى قاعة التدخين ، وانسحبت النساء إلى البهو الصغير ، حيث قدمت الليدي فيوليت البابونج .

وفيما عدا سيدة البيت ، ما كانت هنالك امرأة بين هؤلاء النسوة ، تعرف من هي هذه الشابة الرائعة ، ذات اللهجة الفرنسية ، الذي أبدى تجاهها الحاكم أرقى صور الاحترام . وعلى كل حال فقد دعاها « أميرة » وهذا يكفي لـيَـرَوها « ساحرة » . ويجب أن ندعوها . فليس لدينا هنا إلا القليل من التسليات .

وكانت هنالك سيدة صغيرة شقراء ، أكثر جرأة أو أكثر فضولاً من غيرها ، فغامرت بهذا السؤال :

— أمن زمن بعيد يا أميرة — وكم هي حلوة هذه الكلمة إذا لفظت ! — تركـتِ فرنسا ؟

ودهشت سلمى ، ونظرت إليها ، وأجابت :

— ولكني لم أذهب قط إلى فرنسا .

وعندما لاحظت دهشتهن جميعاً ، أضافت قائلة :

— أعتقد أن لهجتي هي التي تحمل على هذا الظن . والحقيقة أني رُبّيت في بيروت .

وتنهدت امرأة وقالت :

— آه ، بيروت ، إنها باريس الشرق الصغيرة . وحقاً فلقد نجح الفرنسيون بتمدين هذه

المدينة. فلعل أباك، على الأرجح، هو أحد كبار الموظفين، أو هو ديبلوماسي، أو لعله ضابط؟

وأجابت سلمى، دون أن تفهم ماذا يعني هذا الحديث.

ـــ أظن أن أبي لم يفعل قط في حياته شيئاً آخر غير الاهتمام بأحصنته.

وصادقت السيدات على قولها هذا، وقلن: طبعاً، فهو أمير...

ـــ إنه ليس إلا داماداً، ولكن أمي سلطانة.

داماد، سلطانة، هنالك شيء غير منسجم في هذا الكلام، فلعلها تسخر منا!...

ـــ وإذن فلست فرنسية؟

ـــ طبعاً لا، فأنا تركية.

تركية! وتتجعد الأفواه، محتقرة: تركية! لقد ضحكت علينا تماماً. ولكن أين مضت لتحصل على هذا اللون القيشاني، فالأتراك أقرب إلى السواد. وهذا معروف. لا ريب إذن أن أمها اقترفت الإثم، مع واحد من جنودنا، عندما كنا نحتل استامبول...

وتصدت امرأة أكثر طيباً من الأخريات، لإنقاذ هذه الصغيرة المسكينة من هذا الوضع الحرج.

ـــ تريدين أن تقولي إنك تركية من أصل إغريقي، ومسيحية؟

ـــ لا، أبداً، فأنا تركية مئة بالمئة ـــ وقالت سلمى مستنكرة.

ـــ وجدي هو السلطان مراد.

ولكن هذا لا يؤثر أبداً في الحاضرات. إذ لا يصل أي مسلم، في رأي هؤلاء البريطانيات البورجوازيات الإنكليزيات، إلى كعب حذاء أي بريطاني، حتى ولو كان سلطاناً.

وترق لحالها السيدة الطيبة، فتقول لها:

ـــ وماذا تفعلين هنا.

ـــ لست هنا وحدي. أنا متزوجة.

ــ وإذن فيمكن أن تكون ممن يزار. لا بدّ أن زوجها فرنسي.

ــ إني متزوجة من راجا بادالبور.

أمتزوجة من واحد من السكان المحليين! طبيعي، إذن ... هي تركية ... ومسلمة فوق ذلك. فماذا كان يمكن أن تأمل أكثر من هذا؟ فيدرن إليها ظهورهن. وفجأة ظهرت أشياء شخصية جداً بينهن، فهن يتحدثن عنها. أما السيدة اللطيفة، فإنها لم تعد تجرؤ على توجيه الخطاب إليها، خوفاً من استنكار صديقاتها، فتعود إلى تطريزها.

وحتى في بيروت، وفي المدرسة الفرنسية، لم يحدث قط أن كانت ضحية عرقية صريحة إلى هذه الدرجة، فكظمت بسمة عندما فكرت بأن نساء الموظفين من نوع هؤلاء، ما كن ليحلمن، وهي في استامبول، بالاقتراب منها. إن هذا حقاً لغريب...

غريب؟

وفجأة لم تعد واثقة من ذلك إلى هذه الدرجة. وكان من حظها أنها رُبِّيت في المستوى اللائق بمكانتها، وبعرقها. ولكن ماذا سيكون من شأن هؤلاء الذين أدخل في روعهم، جيلاً بعد جيل، أنهم متخلفون؟ هؤلاء الذين أُقنعوا بأن لون بشرتهم، وعقيدتهم، وصورة حياتهم المختلفة، كانت تجعل منهم أناساً دون مستوى البشر؟

ولم تعد بسلمى رغبة في الضحك. فحتى الآن كان الأوروبي، ذلك الخصم الذي نحاربه بأسلحة متكافئة، أو متكافئة تقريباً. أما أننا غلبنا على أمرنا، فذلك أمر يتعلق بأمور مشخّصة، قابلة للقياس ــ كأن تكون عُدَدُنا (أو عِدّتنا) أقل، وتجهيزاتنا أدنى، واقتصادنا خرباً، أو أن نكون قد ارتكبنا أخطاء استراتيجية، أو سياسية. أما خلال هذه السهرة، فقد اكتشفت العار، والفضيحة الكبرى: فهنالك شعب يخضع، لأنه، في أعماق نفسه، مقتنع بأنه أدنى، حتى ولو أعلن العكس، شعب يقول إنه يريد الاستقلال، ولكنه أضاع روحه، ولم يعد يطمح لشيء آخر غير التشبه بالسادة الذي يدعي أنه يريد التخلص منهم.

إنها تحتقرهم جميعاً: «أمير» وزملاءه، الذين تشبهوا بالبريطانيين، والسير هاري الذي يشرفهم بمودته، والليدي فيوليت التي تريد، في هذه اللحظة، أن تكلمها، كرماً منها ونبلاً. وما من مرة شعرت بمثل هذه الكراهية.

ويقول لها أمير، في السيارة التي أقلّتهما إلى القصر.

— انتبهي، يا عزيزتي، لقد ابتسمت لهذا الشاب الهندي، وبكل براءة. وأنا أعرف ذلك. ولكنك لا تعرفين هؤلاء الناس، فقد يقدرون وراء ذلك أشياء.

هؤلاء الناس...

ولم تحدث مشاجرات في لوكنوف، لدى قيام مهرجان هولي Holi وبالمقابل فإنها كثرت في المدن والقرى المجاورة: ففي «باتنا» و «باريلي» و «راتنا غاري»، وفي كل مكان آخر، تجابهت الطائفتان؛ هنا لأن عازفاً هندياً عزف بقيثارته وطنبوره أمام الجامع، في اللحظة التي كان فيها المؤمنون يُصلون، وهناك، لأن شباناً متحمسين في عيد الربيع، رشوا التازيات بالألوان. أما الحادث الأخطر فقد وقع قرب أورانغاباد، عندما قام ثمانمئة هندي مسلحون بالعصي والمداري، بمحاصرة قرية مسلمة، حيث ضحّى القوم بثور على شرف أعياد محرَّم. وقد أنقذت القرية في آخر لحظة على يد الشرطة. ولكن عشرين رجلاً جرحوا أو قتلوا. ويدين الرأي العام المسلم نهرو بهذا، لأنه صرّح أنه «لا يستطيع احتمال المرور أمام مسلخ، وهو يدعم جميع الذين وجدوا ذلك أمراً مخيفاً» وهو كذلك يتهم غاندي نفسه لأنه لم يقل شيئاً، كما لو أنه لا يدعو إلى ترك العنف، إلا أمام الإنكليز.

فمن الطرفين تزداد الضغائن، والتعصب ينمو ويزداد.

٥

ها هو النهار قد أدبر إلا قليلاً ، والشمس الموشكة على المغيب تذهّـب ماء البحيرات . وهذه سلمى متمددة على الرخام الأبيض ، لتسعد بلحظات الجو اللطيفة . ولم تعد الخادمات بعد الآن لتزعجها في هذه الحديقة الداخلية ، الأخيرة بعد أفنية النساء . فجعلت لنفسها منها معبداً . فهنا تحلم ، وهنا تبكي ، وأحياناً تكتب الرسائل إلى أمها ، تتحدث لها فيها عن سعادتها .

واليوم ، هو الذكرى الشهرية لزواجها : فلقد مضى شهران ، شهران فقط ! ... وعندما أخذت الكآبة تستبـدّ بها ، انتصبت واقفة . لتتساءل فجأة عما تعمله هنا ، وما تعمل بحياتها ... هنالك شاي ... ثم شاي . وعشرات من النساء اللطيفات ، ممن لا ترغب في أن تحدثهن بشيء ، وهناك بسمة زهراء ، ولعبة الورق مع الراني ، ثم ... أمير ، أمير في النهار ، وأمير في الليل ، هذا الراجا المغري ، الجنتلمان الكامل ، المنشغل بالسياسة ، وبإدارة شؤون دولتـه ، وهـذا الجسم القـاتم ، الصامت ، الشره ، اللا مبالي ... فمنذ صدمة الليلة الأولى تعـوّدت ، تلك الكلمة الفظيعة ... ولكن ماذا تستطيع أن تفعل ، إذا كان زوجها أصماً ، وأخرساً ، وأعمى .

وها هي تسمع وقع خطوات على البلاط . من يجرؤ ؟

ـــ آه زينيل ، يا زينيل الطيب ، لم هذه السحنة الحزينة ؟

ـــ الهم ، يا أميرة . فالسلطانة وحدها في بيروت ... وصحتها ..

مسكين هذا الزينيل. كم هو قلق! إن لدى الأيندجيم، كالفاتين تحيطانها بكل حب، ولكن منذ بدأ مرضها، أصبحت وكأنها ولده. لكن المرأة الشابة لا تملك أن تكبت رغبتها في مناكاته.

ـــ أتريد أن تتخلى عني؟ ألم تعد تحب سلماك؟

فيحمر خجلاً، ويعض شفتيه. فتأسف هي.

ـــ ولكن لم أنت هكذا، كنت أمزح. فأنا أيضاً أريد أن تعود إلى بيروت. وأكون أكثر اطمئناناً إذا عرفت أنك بقرب أمي.

فينظر إليها، ويبدو وكأنه يائس.

ـــ ولكن أنت، يا أميرة؟

ـــ كيف أنا، أيها العجوز المغرور؟ أتظن إذن أنه لا يستغنى عنك؟

وضحكت ضحكة كأنها خارجة من حنجرتها.

ـــ أفلا ترى كم أنا محاطة، ومدلّلة. فقل لأيند-جيم أني زوجة تغمرها السعادة.

فتدمع عينا زينيل.

ـــ عديني إذن، أنه إذا حدث ما لا يرضيك، أن تعلميني به، عندئذ سأعود مباشرة.

ـــ أعدك. ولكن توقف عن تعذيب نفسك، وإلا فإنني سأستاء. وعندما أستاء... أوه، زينيل، إنك تتذكر غضباتي عندما كنت صغيرة. كنت تقول: إن أنفي يتطاول، وإنني أوشك أن أشبه السلطان عبد الحميد... كان ذلك جذرياً، وكنت أهدأ... تعال، واجلس بجانبي، وقل لي: هل تظن أننا سنعود فيرى كل منا الآخر في استامبول؟

فيسكت. وهو يعرف أنها لا تنتظر جواباً، وأنها بحاجة فقط إلى من يشاطرها ذكرياتها. وهو هنا الشخص الوحيد الذي يربطها بالماضي. ولهذا فإنه سيكون عسيراً عليها ألا تفتقده. ولهذا، أيضاً، فإن من الأفضل أن يسافر.

ـــ كنت على وشك أن أنسى. إن السيدة غزاوي تريد أن تكلمك.

ـــ هل تريد هي أيضاً، أن تسافر.. لها الحق، فليس لديها هنا ما تعمله.

ذلك أن اللبنانية أتعبت سلمى بنقدها، وشكاواها المتتابعة. ومنذ أن أنبتها زهرا تأنيباً صريحاً، على أنها تزرع الشقاق، لجأت إلى الحرد. والحق أن سلمى تريد أن تبقى وحدها. فحياتها هي هنا منذ الآن. وهي تدع الحنين للضعفاء والأغبياء. وهي تريد أن تناضل؛ فهناك الكثير مما يجب عمله في هذا البلد، والكثير مما يجب عمله للشعب. وماذا يهم أن تكون هنالك الراني عزيزة. فالراني، الآن، هي هي.

وكادا أن يفوتهما القطار. فهناك حقيبة ضاعت، ثم وجدت، في آخر لحظة، فلم تتح المجال للكثير من البوح العاطفي. وها هما الآن مستقران في عربة القطار. وتقف سلمى في حرّ مايو الخانق على الرصيف، وقفة مستقيمة، وتبتسم لهما. ولم يفهم أمير لماذا شعرت زوجته بالحاجة إلى مرافقة «خدمها» إلى المحطة. مسكين أمير!

ــ إلى اللقاء يا أميرتي...

ومن النافذة، كان زينيل وعيناه منتفختان من كثرة البكاء، يهز منديله. وينطلق القطار، ويزداد سرعة. «إلى اللقاء، إلى اللقاء!» وكانت حنجرة سلمى منقبضة، فهل انقبضت لأنهما سافرا، أو لأنها لم تسافر...؟

ــ لا تكوني حزينة، فلديك هنا أصدقاء.

وأخذت البيجوم ياسمين يدها، وضغطت عليها برقة. فالتفتت سلمى، وكانت قد نسيتها، مع أنها استطاعت الذهاب، إلى المحطة، بواسطتها. وهي التي حملت زوجها على إقناع الراجا.

ــ إني أفهم ما تعانيه من الاضطراب. فكل شيء هنا هو حديد جداً بالنسبة إليك. وأمير طيب جداً، ولكن طبعه ليس بليّن. تعالي لعندي كلما شعرت بالوحدة، فأسعد أنا بزيارتك.

وتفكر سلمى: «كم هي مخلصة. والغريب أنها، في البداية، لم تكن توحي بأدنى ثقة».

وفي الأيام التالية، ستكثر سلمى من زياراتها للبيجوم ياسمين، لقلة ما لديها من الأعمال، في البداية، ثم لأنها وجدت المسرّة في هذه الزيارات. فالجو لديها لا يشكو من توترات القصر، ولا تنقصه المتعة.

والبيجوم، ذكية، وطُلَعة. وقد عرفت كيف تجمع حولها، دون أن تهتم بالمرتبة الاجتماعية، عدداً من السيدات المثقفات. وهي نفسها لا تنتسب إلى الطبقة الأرستقراطية، ولكن إلى أسرة من الجامعيين والكتاب المشاهير، وزوجها هو المحامي الأول في لوكنوف، بلا منازع. وقد حَصَّل ثروته بجهده الشخصي. واليوم تتمتع هذه الأسرة بثروة ضخمة. وكل ما في بيتهم الأنيق من أشياء كبيرة أو صغيرة يبرهن على ذلك. ولكن على الطريقة الحديثة، الموفرة لشروط الراحة، لبورجوازية لا يعنيها أن تتقيد بقيود الماضي. ولولا أن البيجوم تضع البرداه على جسمها ــ ولا يأتيها إلا النساء، فإن في وسع سلمى أن تظن وهي عندها، أنها في بيروت.

ولقد سعد أمير بهذه الصداقة الجديدة. فامرأته الشابة بدأت تتلاءم، وتنسجم مع الناس، وتتلاءم مع العادات. وقد أصبح هو نفسه، في هذه الأيام مشغولاً عن زوجته، لأن شؤون الدولة، تستغرق القسم الأكبر من وقته.

ورغبة من حزب المؤتمر بكسب أصوات الفلاحين، فإنه بالفعل قد قام بإثارتهم على الأمراء، الذين صوّرهم كأعداء للإستقلال. وقد كثَّف المؤتمر دعايته في المحافظات التي تقف طبقتها الحاكمة، المسلمة في أكثريتها، ضد السياسة التي تعتبرها خطرة، لقيامها على الديانة الهندية، أو النزعة الهندية، وتؤيد بنوع من ردّ الفعل، سياسة الرابطة الإسلامية بزعامة محمد علي جناح.

ولقد تمرَّد فلاحون كثيرون على حكامهم، وأبوا دفع الضرائب. بل لقد نهبوا في المقاطعة المجاورة لبادالبور، احتياطي القمح. أما بادالبور، نفسها، فتبدو، في الوقت الحاضر، على الأقل هادئة. لكن الشرطة السرية التي تعمل لحساب الراجا، أخبرته، أن مجهولين قاموا، في القرى، بعقد اجتماعات سرية.

وتندهش سلمى التي انتهى زوجها إلى البوح لها بهمومه، وتقول له:

ــ لماذا لا تذهب أنت نفسك لتحكم على الموقف، وتتحدث مع الفلاحين؟

وكان ردُّه الضحك من مثل هذه السذاجة أو البراءة. وعلّق قائلاً:

ــ أتكلم مع الفلاحين؟ ولكن لأقول ماذا؟ بأنهم يلعبون بهم؟ إنهم لن يصدقوني. وقد يقضي هذا على التوازن الذي لا يزال قائماً، وربما أبرهن لهم على أنني قلق. وفي الحال سيستفيدون من ذلك: فالناس الأكثر انقياداً وخضوعاً، يصبحون وحوشاً إذا كشف السيد عن بعض الضعف. وكنت أظن أن تاريخ الأمبراطورية العثمانية، قد علّمك ذلك.

ـــ إنه علّمني ، بشكل خاص ، أنه لو كان السلطان أقرب إلى الشعب ، فإن هذا الأخير لم يكن ليسمح لأمثال مصطفى كمال بالتمرّد عليه ، وسلب عرشه منه ... وأنا أخشى أن تكرر هنا نفس الخطأ !

وبحركة رقيقة ، غير منتظرة ، انحنى أمير على سلمى وقال :

ـــ إنك ترين أني طاغية ، أليس كذلك ؟ ومع هذا ، فقد كنت أكثر مثالية منك ، من قبل ...

وقد يكون مما لا بدَّ منه أن تقع حوادث أكبر خطورة من بعض الاضطرابات المهنية ، أو بعض التمردات الفلاحية ... أي حوادث لا يمكن أن نتخيلها سلفاً ، حتى تعدل لوكنوف عن حياة المرح . وهذا الظرف ، الآن ، هو موسم معارك الطائرات الورقية . فمنذ أسبوعين تجري معركة عنيفة تستهوي المدينة كلها . فما من أسرة أميرية ، ولا بيت أرستقراطي ، لا يشاركان فيها . ولوكنوف معروفة بهذه المبارزات التي تدوم أحياناً عدة أشهر ، والناس يأتونها من بعيد لمشاهدتها .

وفي شرفة البيجوم ياسمين المغطاة بسجاد من خراسان ، يدور نقاش حاد بين نساء ، يراقبن السماء . وما من مرة رأتهن سلمى في مثل هذه الحماسة . فيُري بعضهن البعض الآخر « طيارة » راجاه مهرار المطرّزة بهدب من الذهب الخالص ، ومزيّنة بقطع نقدية من ذات العشر روبيات : والإنسان الذي يصل إليها ، يحفظها عنده ؛ وهذه هي القاعدة . ولقد أضاع عدة مئات من نوعها في هذا الموسم . ولما كانت مزيّنة بهذه الصورة ، فلا ريب أنها تكون أثقل من غيرها . وليست طياراته لكي تربح ، بل لكي تكون الأجمل أمام عيون المدينة التي تفهم من ذلك درجة غناه ، ومستوى كرمه .

وقالت إحدى النساء : « يقال إن الرجل قد أشرف على الإفلاس تقريباً ، وأنه سينتهي كما انتهى النواب يوسف علي خان » .

يوسف علي خان ! لقد دخل هذا الرجل في الأسطورة منذ أن قام ، قبل خمس عشرة سنة ، ببيع ثمان وأربعين قرية ، ليتابع الإنفاق على اصطبله : وكان يملك مئة ألف « طيارة » وكان في كل عام يتحدّى لوكنوف كلها ليأتي منها من يحاربه هو وحده . ولقد استمرت أعظم مباراة له ستة أشهر . وكان قد خطر بباله أن يربط بذنب « طياراته » مصابيح صغيرة كيلا يكون عليها أن تتوقف في

الليل. ولقد أورث ابنه ديوناً كثيرة كما أورثه هوايته ذاتها: فهو يشارك في كل المباريات، ويحتل فيها مكاناً بارزاً. ولكن أصدقاءه الصميميين يقولون إنه لا يفعل ما يفعل إلا على سبيل الاحترام لأبيه، حتى لا يقال بأنه يتنكر له. ولقد تزوج واحدة من بنات عمه. وهي عنية جداً، لكنه في سبيله إلى أن يبدِّد ثروتها.

وكثيرون أولئك الذي بدّدوا أموالهم في هذه اللعبة. ذلك أن إنشاء «طيارة» عظيمة إلى هذه الدرجة يكلف أموالاً طائلة. وعلى الرغم من أن الدين الإسلامي يحرِّم الرهان، فإن الناس يراهنون على أموال طائلة. أما هؤلاء الذين يفلسون في هذه المراهنات فإنهم يقبلون ذلك بصورة فلسفية، ذلك أنهم متى كسبوا الشعبية والاحترام، فسيظلون مكرَّمين مبجّلين طيلة حياتهم، في أرفع الأوساط مقاماً في المدينة.

وتفكر سلمى: «إن هذا ليبدو وكأنه سخف مضحك» ومع ذلك فإنها لا تملك دفع الإغراء الذي يداخلها بمنظر هذه الطيور الكبيرة، الملونة، التي تتحرك في السماء بهذه النعومة، ثم تنقض فجأة على الخصم، وبحركة ماهرة تقطع الحبال التي تصله بالأرض. وتجد من يشرح لها أن فن إنشاء الطائرات قد تطوَّر: فلم تعد الطائرات أمتن وأخف فقط، عاماً بعد عام، بل إن الحبل أصبح أخطر بكثير مما كان، وأقتل لمن يريد قطعه. إذ يغمسونه في بياض البيض، وتوضع فيه قطع صغيرة من الزجاج، ذات أطراف حادة، كشفرات الحلاقة، مؤذية بشكل مخيف.

ــ وقديماً، كان الناس يكتفون بتطيير طائراتهم، كما تقول البيجوم، وكانت غايتهم الوحيدة هي الجمال. وكان منها ما يحمل صورة بعض المشاهير. وكان الهنود، بصورة خاصة، يحبون أن يُصوّروا عليها آلهتهم. ثم جاءت موضة (درجة) المعاركة، من دلهي، وتبنيناها نحن. وأرجح الظن أن ذلك حدث، لأن هذه المعارك هي الوحيدة التي يمكننا القيام بها.

وكانت المجموعة الموجودة من النساء اليوم مختلفة عن تلك التي تعوّدت أن تراها عندها. وهي تتألف من بنات ونساء الطبقة النبيلة من الأود. وتعجب سلمى من أن تكون للبيجوم كل هذه الشعبية في أوساط مختلفة جداً. ويقول أمير إنها ديبلوماسية ممتازة، وعون رائع لزوجها، ويقول... ولكن كيف يعرف ذلك؟ وعندما طرحت سلمى هذا السؤال عليه، ضحك.

ــ إن الهاتف، ياعزيزتي، آلة شيطانية يدينها مولويونا، وتأبى النساء المتدينات حقاً، استخدامها. وهنّ على حق، على الأرجح. وقد يدل الصوت أحياناً على أكثر مما يشير إليه الوجه، وربما جعل الإنسان يحلم... فلا تغضبي، ولا تستائي، ذلك أن علاقاتي مع صوت البيجوم ليست

إلا علاقات مهنية... وكما تعرفين، فإنني على اتصال دائم بزوجها، لا لأنه أفضل أصدقائي وأحسنهم، بل لأنه كذلك مستشاري القانوني.

وطبيعي أن سلمى تعرف هذا. ومع ذلك فإنها تشعر بشيء من الغيرة. فمن بين هؤلاء النساء اللواتي يضعن البرداه، من لها من القوة والتأثير ما يحسدنها عليه الكثيرات من الأوروبيات. وأزواج هؤلاء ممن يشاركون في الحياة العامة بنشاط، وتألق، ويتخذون قرارات هامة، والحقيقة أن نساءهم هن اللواتي يناورن، ويحرّكن. ولما كنّ خصوماً مجهولات مختبئات وراء الحجاب، فإن ذلك يزيدهن نجعاً وتأثيراً. إن تعطشهن للسلطة هائل، وذلك لأنهن يعشن في حلم، ما من حقيقة تعترضه. وأزواجهن ليسوا إلا الأدوات الطيّعة التي تسمح لهن بالسيطرة على العالم.

وقد جاء من يحمل إلى البيجوم علبة فضية، مطعّمة بالذهب. وهذه هي علبة البان Pân، أي الأداة التي لا يستغني عنها أي بيت هندي. وهي مقسّمة إلى عليبات عديدة توضع فيها كل المواد الضرورية لتحضير هذه الحلوى الوطنية. والهنود لا يستغنون عنها. ويوجد من يدَّعي أنه إذا أراد الإنكليز حقاً شلّ الحركة المطالبة بالاستقلال، فليس عليهم إلا أن يقضوا على حقول التنبول bétel: وخلال أربع وعشرين ساعة بعد ذلك سيستسلم الشعب كله.

ولم تفهم سلمى قط ما في هذا النبات الليفي والمر، من إغراء. وهي تنظر إلى الراني عندما تختار بعناية أوراق هذا النبات الأكثر خضرة، وتدهنها بشيء من الكلس، ثم بالكتها Katha، وهي معجون نباتي يُستمَدُّ من قشرةٍ تعطي للبان لونه الأحمر، ومرارته العظمى، وتضيف بعض قطع نويات البيتل (التنبول)، وقبضة من التبغ، وحبتين من الهال، وشيئاً من الأفيون، فيما يرى بعضهن، وأخيراً تطوي ورقة التنبول، على صورة مخروط كامل، تقدمه بأصابعها المرهفة، للمدعوات، التي تود تكريمهن بشكل خاص.

إن مضغ البان عادة ترجع في أصولها إلى الهند القديمة، ولكن لم تعرف شهرتها الكبرى إلا في بلاط ملوك المغول، على الأرجح. وعندما كان يريد السلطان أن يعرب عن تقديره للخدمات المؤداة له، كان يقدِّم وريقات التنبول، بالإضافة إلى هدايا أخرى فخمة.

لكن سلمى تفضل الهوكاه Hookah. فتستند إلى أرائكها، وتتمتع بلحظات غريبة ولذيذة. وما من مكان غير لوكنوف، دخّنت فيه مستحضراً في مثل هذه العظمة. إذ ليس التبغ مخلوطاً بتفل قصب السكر فحسب، مما يعطيه طعماً قريباً بعض الشيء من طعم العسل، بل إنه يخلط بعد ذلك ببهارات وعطورات مختلفة، يحتفظ معلمو (الكار) بأسرارها.

وتنظر سلمى، من خلال جفونها المغمضة نسبياً، إلى النساء المتمددات قريباً منها. وقد أرغمهن الحر على خلع أكثر ملابسهن. وبعضهن رائعات. فيمشطن شعورهن الطويلة المزيّنة، وتدلّك كل منهن الأخرى، سيقاناً، وأذرعاً وأكتافاً، بالحرية التي يبيحها غياب أنظار الرجال. ويتمازحن، ويتبادلن مسارات سعيدة.

وهنالك امرأة شابة، تجلس لوحدها بعيدة قليلاً عنهن، فتراقبهن، مستمتعة. ولها لون بشرة أبيض، وعيناها فاتحتان. ويقال لسلمى، إن هذه هي الزوجة الجديدة لراجاه خامبور الذي اختارها لجمالها، على الرغم من أنها ليست من أسر الأمراء. ويضفن إلى ذلك، مع تكشيرة خاصة، أن أمها إنكليزية. وعندما التقت نظراتها بنظرات سلمى نهضت وجلست بجانبها. وقالت لها:

ــ كنت أشتهي أن ألقاك. فكيف تشعرين بحالك هنا؟ ألست شديدة الضيق بغربتك؟

وفوراً تتعاطف سلمى مع هذه الراني الصبيّة، لأن لها وجهاً محبباً، طلقاً، وكذلك، لأن الأخريات يتجاهلنها، على الأرجح. وتشتهي سلمى أن تسألها عما إذا كانت تلقى بعض العناء من كون أمها إنكليزية، وعما إذا كانت لا تشعر بأنها مقسّمة بين أصليها: ولكن التجربة علمتها أن الحساسيات العرقية في الهند، عنيفة. وهي تخشى أن تجرحها.

ــ يجب أن تأتي لعندنا. سترين حماتي وهي امرأة خارقة للعادة، هاوية سياسة، وإحدى كبريات المعجبات بمحمد علي جناح، والرابطة الإسلامية. وهي لا تضيع وقتها في اجتماعات من هذا النوع، وتقول، إن لنا، نحن معاشر النساء دوراً يجب أن نلعبه في مستقبل هذه البلاد.

وتسأل سلمى:

ــ ألا تحتفظ بالبرداه؟

ــ بلى، بطبيعة الحال. وما هي أهمية ذلك؟

وسلمى لا تفهم. إن البيجوم قد قالت لها الشيء نفسه، في آخر مرة. وها هي قادمة.

ــ أهكذا، يا صديقتي السيئة، تستولين على ضيفة الشرف عندي! تعالي إذن واجلسي بجانبي، يا أميرة!

ويبرز شيء من الاستياء، من وراء اللهجة المحبّبة. ترى هل هي غيرى؟

وبدأ الليل يهبط. وتحمل الخادمات مصباح الزيت، ويَضَعْن الصواني الكبيرة من أجل العشاء. وتبدو «الطائرات» في السماء، كأنها كرات من النار.

ــ انظري، كم هو جميل هذا المنظر!

وتلف يدا البيجوم خصر سلمى، من فرط الهيجان:

ــ انظري إلى هذه الطائرة الصغيرة، كم هي سريعة. وأرى أنها ستقضي حتماً على هذه الكبيرة. ها قد حصل. ولقد سبق أن قلته لك!

وكانت ترتعش حماسة. لكن سلمى المذهولة، تحاول برقة أن تتخلص منها. ولكن البيجوم تشـدّد قبضتها عليها، وهي لا تريد أن تسيء إليها. وهي تلوم نفسها، في أعماقها، على هذا الضيق: فهل أثرت تربية الراهبات، وجعلت هذه المخاصرات غير طبيعية بالنسبة إليها، أو معيبة؟ ومن الجهة الأخرى، فهي ترى أن هذه الحرية طبيعية جداً، وكذلك الحركات الناعمة المتبادلة بين النساء، بلا خلفيات مقلقة، بل إن هذا هو الأسلم نفسياً! لقد أفسدت المسيحية حقاً كل شيء. وفي الإسلام لا حجل من الجسم. إذ إن معنى الخجل يضمر الإساءة للخالق...

ونهضت البيجوم، بخفتها المعهودة، لكي تهتم بضيفاتها الأخريات. وخجلت سلمى من أنها شكّت، ولو للحظة، في نقاء صداقتهما.

اركضي يا أحصنتي الجميلة، أسرعي، وأسرعي أكثر!

وكانت العربة الأنيقة تجري في ممرات قيصر باغ، خلال الحدائق المزهرة، والقصور النائمة في خدر ساعات القيلولة. أسرعي، فما من شيء نقوم به، غير تنفس الهواء، من خلال النوافذ. والساعة ليست فوق الرابعة، وما بعد الظهر سيطول. وسلمى ذاهبة إلى أميناباد، لتختار فيه باقات الورد. لأنها هنا هي الأنضر عوداً.

ودخلت العربة من الباب الغربي، إلى أزقة المدينة القديمة وكانت الخيل تمشي مشية بطيئة، متجنبة الباعة الصغار الجالسين القرفصاء بين سلال فواكههم، والأبقار النائمة بكل عظمتها على قارعة الطريق. وإلى جانب هذا كله، هنالك أطفال نصف عراة يلعبون، جارين بين الدواليب.

وسوق أميناباد، ساحة واسعة، محاطة ببيوت ذات لون أصفر، منـمّـقة، تحملها أقواس،

تحتمي بها مئات من الدكاكين . وهذا هو المركز التجاري الأول للمدينة ، والأحفل بالزبائن ، والأكثر بضائع ، إذا نحن استثنينا ، بطبيعة الحال ، سوق هازير غانج ، حيث توجد المخازن الأنيقة ، التي تبيع البضائع المستوردة ، ولا يزورها إلا الإنكليز . وتحب سلمى التجوّل في أرجائها ، والانتقال من دكان إلى دكان ، والنظر فيما تراه ، وقد تطلب أن ترى بعض الحاجات ، فيأتي بها صاحبها ، ويضعها أمامها . ويحدث أحياناً ألا تشتري منها شيئاً . وما من أحد ينزعج من ذلك . تلك هي العادة هنا . فالزبائن من النساء ، لهن طبع متقلب . وهذا حق معترف به . ويسعد التجار الكبار أن يبرزوا مواهبهم ، أمام وجه بهذا البياض .

ذلك أنه إذا كانت سلمى قد قبلت أخيراً بالبركاه (البرقع في الأصل) فإنها متى دارت في زاوية القصر ، تراها وقد حَلّت الأشرطة ، ورفعت الحجاب ، فتحولت الخيمة المخيفة السوداء إلى ثوب طويل ، الحقيقة أنه أنيق . أما الخادمة التي ترافقها في نزهاتها ، فإنها شديدة الحذر من أن تقول كلمة واحدة حول ذلك ، لأنها تعرف أنها ستسرّح فوراً . ولقد اختارتها سلمى لخدمتها الشخصية ، لأنها كانت جديدة ، وغير واقعة تحت تأثير الراني عزيزة . وما من شيء قيل بينهما . ولكن الأميرة تغدق عليها الكثير من الهدايا الصغيرة .

ولا يوجد في السوق اليوم زوار كثيرون . ونصف الدكاكين مغلق . وكانت سلمى لا تعرف أن هذا اليوم يوم عيد . فشهر محرّم لا ينتهي إلا غداً . وكان هنالك ، في حديقة غير بعيدة عن الجامع ، رجل يخطب ، محاطاً بمجموعة كثيفة من الناس ، مشدودة الانتباه إليه .

وفجأة ، وفي الطرف الآخر من الساحة ، دوت بعض الصرخات . وظهر بعدها حوالي المئة من المسلحين بالعصي والهراوات . وعلت أصواتهم ، وقلبوا معروضات الدكاكين ، وبدأوا يضربون بصورة عمياء من يلقونه من كهول ، ونساء ، وأطفال . أما في الحديقة الصغيرة فقد وقف أفراد المجموعة . وانتظموا بهدوء ، وانتظروا الهجوم .

ــ هوزور ، أسرعي وتعالي .

وشدّ السائق المرعوب سيدته من الكم . ونظرت سلمى حولها ، فوجدت أنهم وحيدون . ففي بضع ثوان خلت الساحة ممن فيها ، وأرخى أصحاب الدكاكين ستائر دكاكينهم . وبسرعة ، دخلت الأميرة في العربة . وكان ذلك في الوقت المناسب . لأن الحجارة بدأت تتطاير ، وسمع الناس بعض الطلقات . فخافت الأحصنة وعلا صراخ السائق ، وبدأ يضرب أحصنته بالسوط . ومن خلال

النافذة الصغيرة المشبكة رأت سلمى بعض البيوت تحترق ، وأناساً يركضون في كل الاتجاهات ، كما لو أنهم أصيبوا بالجنون . وما هي إلا ثوان ، حتى تحولت السوق ، إلى ساحة قتال .

واندفعت الأحصنة ، وعلى أفواهها الزبد ، ولم يَـعُـد في وسع السائق أن يضبط حركتها . أما في الطرق ، فإن المارة الخائفين ، يرتدون إلى جدران البيوت ويحتمون بها . وأما سلمى فإنها تغلق عينيها ، وتنتظر الأسوأ . وأخيراً توقفت العربة ، وظهر من النافذة وجه السائق ، ولكنه شاحب اللون ، يتصبب منه العرق . ومن الزاوية الأخرى ، كانت الخادمة تشهق من البكاء . فإذا كنا نريد تجنب الأسئلة واللوم ، فسيكون من الأفضل ألا نعود إلى القصر في هذه الحال .

ــ لنمض إلى بيت البيجوم . فبيتها ليس بعيداً . ولكن قل لي ياأحمد علي ، من ذا الذي هجم ، الإسلام أو الهنود ؟

ــ إنهم المسلمون هوزور ، كلهم مسلمون . ولم يكن هنالك هنود .

فاستاءت سلمى ، وأعادت سؤالها . وعندها أن هذا الرجل اشتد خوفاً ، فلم يعد يعرف ماذا يقول .

ــ إنهم مسلمون ، وأؤكد لك ، هوزور ، ولكنهم ليسوا بمؤمنين حقاً . وها إنهم يتقاتلون منذ يومين في حارات تشوك القديمة ، ولكني لم أقدر قط أنهم سيصلون حتى إلى أميناباد ، القريبة جداً من القصور .

ــ ولكن لِـمَ يقتتلون ؟

ــ إنهم السنة الذين بدأوا ، فقد هاجموا مظاهرة دينة شيعية ، مدّعين أنها تشتم حظرة عمر ، الخليفة الثاني . ووقع على ما يظهر ، حوالي عشرين قتيلاً ، ومئات من الجرحى . فهم لم يوفروا لا النساء ، ولا الأطفال . وقد أحرق قسم من تشوك[1] ... وبطبيعة الحال ، فإن الشيعة لم يسكتوا ! وفي الوقت الحاضر ، فإن حي تشوك لا يسمح فيه بالدخول والخروج . ولكن ما من أحد يعرف لماذا تأخر تدخل الشرطة إلى هذه الدرجة ...

(١) التشوك : حي من أحياء لوكنوف الشعبية .

وحزنت سلمى حزناً عميقاً، والتفت على نفسها في زاوية العربة، كما لو أن المجابهات بين الهنود والإنكليز، وبين الهنود والمسلمين، لم تكن كافية. فلتقم الحرب إذن بين المسلمين والمسلمين. ولم يكن ينقصنا إلا هذا.

وفي هذه الفترة الأخيرة من العصر، كان صالون بيجوم ياسمين على درجة متميزة من النشاط. ذلك أن الصحف أشارت إلى النتيجة التي اقترنت بها رواية حب، كانت منذ أشهر، من شرق الأمبراطورية إلى غربها، تغذي كل المحادثات، وتوقع الخلاف بين الأصدقاء، وتقسم أفراد كل أسرة، وتحمل على البكاء، والحلم، والحماسة، والاستنكار حول ما يتصل بهذه الشجاعة، أو ذلك الجبن، أو ذلك الاحترام لما هو أنبل شيء في الإنسان، ولما هو إساءة لله وللواجب: وهي تنازل إدوار الثامن، الملك ــ الأمبراطور عن عرشه، إكراماً لعيني امرأة أمريكية طلقت مرتين، وقراره النهائي بالزواج منها «في جو خالص الصميمية» يوم ٣ حزيران في قصر كاندي Candé، في فرنسا.

وعندما دخلت سلمى، كانت هنالك امرأة بـضّـة تشرح أن الحب... الحب! «وماذا تعلم عن الحب؟» وجلست من هذا الجمع، على طرف بعيد بعض الشيء، مهتاجة، ويدهشها أن ترى هؤلاء الهنديات يبدين اهتماماً وتعاطفاً مع الحياة الخاصة، لأسرةٍ، ما زالت منذ مئة وخمسين سنة، لا تملك زمام الأمر في بلدهم فقط، بل تقيم جيشاً، يوقف، ويسجن، وأحياناً يقتل من يتصدى لسيطرته.

وفي هذه الأيام الأخيرة، وعلى حين أن مجابهات دامية تقوم بين الهندوس والمسلمين، فإن الموضوع الرئيسي للمناقشات، كان يظل يدور حول علاقات الحب الإنكليزية، وكانت سلمى تستنكر ذلك أشد الاستنكار، ولكنها تسكت، أدباً منها. أما اليوم، فقد أفرط القوم، فتنفجر:

ــ وماذا يَـهُـمنا من هذه التفاهات! فانظرن إلى ما حولكم، وفي مدينتكم، وتحت نوافذكم: فالناس يقتتلون فيما بينهم، وأنا عائدة من أميناباد، حيث كنت أكاد أشنق.

وتخونها أعصابها فجأة. وهي تكاد تختنق، فتحيطها النسوة من كل جانب، وتؤتى بالماء البارد، والأملاح... وتندهش النسوة، ويستنكرن. إذ إن مثل هذا الأمر لم يحدث منذ ثلاثين سنة، أو منذ منعت في عام ١٩٠٨ القراءة العامة لتاريخ الصحابة، وهي نصوص سنية، تحكي فضائل ومزايا الخلفاء الأول، «مما تعتبره الطائفة الشيعية إساءة لشهدائها، وترد عليه بقراءة التبارة Tabarrah التي توضح أن هؤلاء الخلفاء كانوا مغتصبين» ولكن ماذا يجري الآن؟ ولِـمَ هذه الاضطرابات من جديد؟

غير أن البيجوم ياسمين تنظر إلى راني خامبور الجديدة نظرة قاسية ، وتقول :

ــ وهذه لعبة أخرى للإنكليز ، على ما أفترض : وهي أن يثيروا الانقسامات بين الهنود لكي يقولوا لنا ، عندما نطالب بالاستقلال ، إنهم يريدون أن يقدموه لنا ، ولكن شريطة أن نتفق أولاً فيما بيننا .

وترد الراني ، بهدوء ، فتقول :

ــ إن هذا ، فيما أرى ، هو حيلة أو خدعة يقوم بها حزب المؤتمر ، الذي له مصلحة في أن يختلف المسلمون ، ويعجزوا عن تنظيم أنفسهم لكي يدافعوا عن مصالحهم ، ضدّ الهيمنة الهندية .

ولنلاحظ الآن أن زوج الراني شاهينا ، هو أحد مسؤولي الرابطة الإسلامية ، وزوج البيجوم ، هو أحد المسلمين النادرين الذين يعملون في إطار حزب المؤتمر . ويرى أن الشيء المهم هو التحرر من الإنكليز ، وأن الهنود ، فيما بعد ، سيسوون المشكلات الطائفية . وهكذا فإن النساء يعكسن بالحجج السياسية ، ما يقوم بين أزواجهن من منافسات شخصية .

وحباً بإزالة التوتر ، من الجو ، تسأل إحدى السيدات عمن سيذهب من الأمراء إلى لندن لحضور حفلة تتويج الملك الجديد . وفجأة تنسى النسوة السياسة ، ويذكرن ، وعيونهن لامعات ، أسماء المهراجات غوالبور ، وباتيالا ، وجيبور ، وإيندور ، وكاربوتالا ونظام حيدر آباد طبعاً ، وهؤلاء كلهم سيشكلون وفداً ، برئاسة المهراجا العجوز بارودا . وتفكر سلمى بأن نيلوفر ودورو شيهفار ستحضران أيضاً . وهي تتمنى أن يدعوها الإنكليز ، لكي تهينهم عن طريق رفض الدعوة . ولكنها تعرف أنها لن تحظى بهذه المسرة . فتلوم أمير بسبب ذلك من حيث أنه ليس أميراً إلا على دويلة صغيرة .

وفي ١٢ مايس (مايو) ، وهو يوم تتويج الملك جورج السادس الذي يحل محل أخيه إدوار السابع ، تزدهي لوكنوف بأنوارها وباقات أزهارها . وفي ذلك المساء سيكون استقبال الحاكم حافلاً ، وسيجتمع لديه الأرستقراطيون ، والوجهاء ، ليقدموا له التهاني ، ويتمنوا السعادة والازدهار للملك ــ الأمبراطور .

وقرع أمير الباب على سلمى ، وهو في شرواني الغالا ليسألها :

ــ أما زلت غير جاهزة. أسرعي. إذ سنتأخر!

وتجيب سلمى:

ــ اذهب وحدك. فأنا لن أرافقك.

فصعق الرجل من هذا الجواب. فأية حشرة قرصت زوجته؟ إذ لا يمكن أن نوجِّه هذه الإهانة للحاكم.

ــ ألا تفهم؟ أما أنا فإني لا أفهم كيف يمكنكم أن تحضروا هذا الاستقبال. فكل خطاباتكم ضد الاستعمار الإنكليزي، والنضال من أجل الاستقلال، ليس إلا كلاماً. ومتى صفق الحاكم بيديه، انطلقتم أنتم إليه ساجدين، وها إنكم تحتفلون بتتويج السيد الأجنبي، الذي تدّعون بالكلام أنكم تريدون التخلص منه. بنفس الحماسة التي كنتم ستحتفلون بها لو أنه من دمكم، أو لو أنكم اخترتموه أنتم!

فاحمرّ وجه أمير. وتقدم بخطوة نحو هذه المرأة التي تشتمه. فهل سيضربها؟ ولكنه يمسك عن ذلك، ويضغط قبضتيه.

ــ إنك تخلطين، يا أميرة. فالهند ليست تركيا المحتلة. وقد عمل الإنكليز الكثير لتنمية هذا البلد. غير أننا نعتبر، ببساطة، أننا كبرنا بدرجة كافية لأن نحكم أنفسنا بأنفسنا. ولسنا في حرب ضدهم. بل نحن نتفاوض على نقل السلطات، في أفضل الشروط الممكنة.

ــ أوَتسمي باسم المفاوضات هذا الواقع الذي يتجلى فيه أن الإنكليز يحبسون، ويقتلون كما يشاؤون؟

ــ إن هذا بسبب هذا المجنون الذي يسمى غاندي، هذا المهووس الذي يستمر في عزمه على زج الشعب في المعركة، على حين أن كل شيء يمكن أن يُسوّى بهدوء بين أناس محترمين.

وبعد أن يتوقف عن الكلام قليلاً يسألها:

ــ أولا تريدين أن تأتي معي إذن؟ حسناً.

ويخرج غاضباً، وبصورة غامضة، نسبياً، غير مرتاح.

ـ ٦ ـ

في الماضي، كانت الرحلة من لوكنوف إلى بادالبور تستغرق ثلاثة أيام، ثلاثة أيام لاجتياز مسافة مئة ميل على النسق البطيء للفيلة التي ترفع علم الدولة، والمتبوعة بهوادج يحملها ثمانية عبيد أقوياء، وجمال تنوء بأحمالها.

وكانت القافلة تبدأ رحلتها عند الصبح. ثم تتوقف في منتصف النهار متى اشتد الحر، وصعب احتماله. وكان الخدم ينصبون في أرض البريّة خياماً واسعة، ويغطون العشب ببسط مزهرة. وكانوا ينامون حتى غياب الشمس؛ ولا يمضون في رحلتهم إلا مع غياب الشمس، ورقة الجو. أما الحرس المسلحون فكانوا يؤلفون سياجاً على طول الموكب الذي يتقدم، تحت النجوم.

أما اليوم فإن المسافة تقطع في أربع ساعات بسيارة إيزوتا فراشيني البيضاء، الفسيحة كبهو صغير مع باره، وطويلاته المصنوعة من الأكاجو، وما يحتاج إليه لتقديم الشاي، وزجاجات الكريستال الملأى بماء الورد. وتأسف سلمى على ماكان لرحلات الماضي من شاعرية عظيمة، مما لا يزال بعض الأمراء المسنين يحنون إليها. ولكن الراجا رجل عصري. فهو يحب التنقل بسرعة، وبصورة مريحة.

ومع ذلك فإنهم يتسامحون الآن مع التقاليد ومع متعة الشعب. فتقف السيارة على مسافة ميل من حدود الدولة لكي يتاح للفيلة الملكية، التي رحلت منذ الفجر، من قصر بادالبور، أن تصل إلى السيارة، وأن تواكبها.

ويشرح أمير لزوجته، بكل فخر، أن بادالبور التي لم يعد فيها مع عاصمتها ذات الثلاثين ألف ساكن، إلا حوالي مئتي قرية، كانت في الماضي إحدى أكبر دول الهند.

ــ لكن الحروب التي لا تحصى التي قام بها أجدادي ضد ماهرات ديكان Mahrattes Dekkan، ثم ضد الإنكليز، قد أنهكتنا. وما من مرة خنعنا للقوة. وفي عام ١٨٥٧ فقد جد أبي ٢٦٠٠ قرية ومساحة تعادل مساحة سويسرا. وقد أشار الجنرال الإنكليزي في ذلك العهد، ضمن مذكراته، إلينا، فقال: يجب ألا نطمئن مطلقاً، وبأي حال من الأحوال، إلى راجاهات بادالبور: «فسيظهرون أنهم يقبلون سلطتنا، ولكنهم سيتمردون دوماً».

ويضحك أمير، وهو يشعر إلى حدٍ ما بالحنين.

ــ إن كلامه هذا هو شهادة على أمجادنا، بل أجمل شهادة... ولكننا بعد عدة سنوات، كنا ننتقل لنصبح في حماية العرش[1].

وكانت السيارة تنزلق تحت الأقواس المجدولة بالأزهار، مسبوقة بستة فيلة محلاة الظهور بالذهب، بينما كانت أوركسترا الراجا، تعزف نشيد الدولة. أما الجمهور، المتجمع على طرفي الطريق، من هندوسيين ومسلمين مختلطين، فكان ينحني، بلا صراخ ولا هتافات: وفي مثل هذه البلاد التي تعج بالضجيج والسكان، يكون الصمت أفضل احترام نقدمه للآخرين.

وكان الراجا جالساً في مقـدَّم السيارة، فلا يتحرك. ونظراته تتجه إلى الفضاء البعيد. وماذا يهم، إن كان الإنكليز منذ قرن تقريباً، قد أصبحوا سادة البلد الحقيقيين، ومادام يظل هو، بالنسبة لرعاياه، السيد الشديد القوة الذي يهب كل الخيرات، ويطبقُ مختلف العقوبات. وكانت سلمى في المقعد الخلفي، محجوبة بستائر البروكار الثقيلة والتي لا يستطيع الهواء تحريكها، تراقب هذا الشعب الذي هي ملكته، والذي لا يمتلك الحق في رؤيتها.

ويصل الركب إلى أطراف العاصمة، فأصبح الجمهور أكثر كثافة. وكان تحت القوس المصنوع من الحجر الأحمر، والذي يتحكم في مدخل المدينة، رجل عجوز يرفع يده عدة مرات إلى

---

(١) إن الذي حدث ما بين عام ١٨٥٧، تاريخ أول تمرد ضد الإنكليز، وتاريخ ١٩٤٧، سنة الاستقلال، هو أن أكثر الدول الهندية انتقلت إلى الإدارة البريطانية. وكان عليها أن تدفع الضرائب. ولم يعد لها الحق بأي جيش لها. ولئن كان الراجاهات قد استمروا، فذلك لكي يضمنوا مسيرة دولتهم أمام الحاكم الإنكليزي.

جبينه ، كإشارة احترام ثم يفتح كيساً ، ويرمي بملء قبضتيه روبيات من الفضة ، مثيراً بذلك تجمهراً كثيفاً . وأمير ذو الوجه الشبيه بالمرمر آنئذٍ ، يبدو وكأنه لا يرى شيئاً . ولكن سلمى تسمعه يتمتم :

ــ أي عطف يرجوه هذا المجنون العجوز حميد الله ، لكي يكشف بهذه القوة عن كرمه ؟

واتجه الموكب إلى الشارع الرئيسي ، الممتلىء الجانبين بمخازن مزيّنة بأشرطة هي أعلام الدولة . وفي كل مكان تُرى صورة الراجا . ومن الشرفات ، ترش النساء السيارة بوابل من حب الأرز ، رمز الازدهار والخصوبة ، وهن يصرخن : « راجاه صاحب زينداباد ! ــ أطال الله حياة راجانا ! » ، وتفيض الحماسة ببعضهن فيهتفن « راني صاحبة زينداباد ــ أطال الله حياة رانيتنا » . وبسرعة يشار إليهن بالصمت : فأي عار ! وكيف يستطيع هؤلاء الفاقدات المخ أن يقلّلن من الاحترام ، إلى الدرجة التي يشرن فيها علانية إلى زوجة ملكنا ؟ أولا يستاء هذا منا ويحقد علينا لهذا السبب ؟

وخرجت السيارة من المدينة ، واتجهت نحو القصر الواقع على مسافة عشرة أميال . وحتى القرن الماضي ، كان راجاهات بادالبور ، يسكنون القلعة القديمة الموجودة وسط المدينة . ولكن حدث ذات ليلة صيفية ــ إما كعمل إجرامي ، وإما نتيجة قلة الحذر ــ حدث حريق . قضى على الحصن ، وعلى جزء من الحارة القديمة التي كانت تحيط به . وحرصاً على الأمن ، من جهة ، وحباً بالهدوء من جهة أخرى ، أمر راجاه تلك الأيام أن يبنى له قصر في الريف أمام البحيرة التي يَكثر حولها النيلوفر .

وهناك جدران عالية تحمي القصر ، وتحجبه عن الأنظار . وفي وسط الحديقة المغولية تنتصب أقواس بيضاء ، وشرفات مشقّبة الجدران متوجة بإفريز من السيراميك الأخضر والذهبي يصوّر سهاماً موجهة إلى السماء ، وقرون خصوبة ، وطائفة من الحيوانات الفخمة أو المفيدة ، كالطواويس ، والنمور ، والأسماك . والقصر محاط من جهاته الأربع بشرفات ومصاطب تطل على الحقول والقرى . ومن بعيد ، يلاحظ الظل الأزرق لأولى سلاسل جبال الهملايا . وعلى شيء من البعد عن القصر الرئيسي ، نجد ثلاثة قصور أخرى ، تبدو الآن مهملة . وكان الراجاه العجوز قد خصَّ بها زوجاته وزوجات وريثه . أما الآن فهي تستخدم لاستقبال المدعوين .

وأحبّت سلمى مباشرة ، جوّها الجديد ، وهذا البياض الهادىء ، وهذه المساحات المزروعة بالأزهار والتي تجتازها أقنية ضيقة من الموزاييك ، يجري فيها ماء شفاف ، وهذه الممرات المظلّلة والمزروعة بنباتات عطرية ، وهذه الأشجار ، أشجار التمر العالية التي تمتد نحو السماء كطيور شعثاء .

وأمام القصر ، اصطف الحرس بثيابهم الرسمية وأدّوا التحية . وهم حوالي خمسين جندياً ، بجاكيتات وعمائم زرقاء ، وشوارب ملمّعة جداً ، يمسكون بأيديهم بنادق من نوع موزير ، تعود إلى القرن الماضي . وكان ينحني احتراماً في أول الدرج جيش الخدم ــ بثيابهم البيضاء التي ازدادت جمالاً بالحزام الأزرق وبالعمامة ــ فمن جهة نجد السُواس ورجال الفيلة ، والطباخين ومساعديهم ، والحلاقين ومديري الخدم العاديين ، بل لقد اصطف معهم ، ولكن في صف متأخر قليلاً ، الكناسون ونافضو الغبار ، والمساحون . ومن الجهة الأخرى من الدرج ، تقف النساء ، ووجوههن مكشوفة ، على أكبر دهشة من سلمى . ولكنهن لا يزدن على العشرين ، ما بين وصيفة ، وخادمة غرف ، وغسالات ، لكنهن جميعاً قد حجزن لخدمة الراني الجديدة .

ــ هوزور ، أي سعادة ، أي شرف !

وانقضت كتلة من الحرير الأحمر على سلمى ، وملأت يديها بالقبل ، إنها البيجوم نُصرة ، زوجة حاكم بادالبور ، تلك التي كانت قد استقبلت الأميرة يوم وصولها . أما زوجها الديوان فيجب أن يكون هذا السيد الرزين ، الذي يلبس الشرواني الأسود ، والذي يتحادث مع أمير . ولكن لِمَ لم يحيني ؟ على ما تساءلت عنه سلمى ؟ . وقام في خاطرها أنها شفافة ؛ إذ ما من رجل من الحاضرين ، أصحاب المقامات أو الخدم ، بدا عليه أنه يراها . وهذا موقف تكريم واحترام ، بلا شك ، ولكن المرأة لا يمكن أن تدفع عن نفسها ، ذلك الشعور المزعج ، الذي هو شعورها بأنها غير موجودة بالنسبة إلى هؤلاء . ويجب أن تتعوّد على ذلك . وكيفما كان الأمر فإنها تفضل هذا كله ، على لبس البراكاه ! ففي بادالبور ، ليس لبس السجن الأسود ، بالأمر الضروري ، كما هي الحال في المدن حيث على الآباء والأزواج أن يحموا نساءهم من النظرات الغريبة . أما هنا ، فما من شخص ، يجرؤ على التفكير بأقل صلة معها . فهنا ، ليست سلمى امرأة ، بل هي الراني .

وتأتي البيجوم نُصرة فتستعجلها .

ــ تعالي ، هوزور ، فالراني سعيدة شديدة الحرص على معرفتك . وعليَّ أنا واجب تقديمك . ولن يكون مناسباً أن تذهبي إليها مع الراجا . وعلى الزوج وامرأته ألا يظهرا معاً . فهذا معيب . وعندما تكون المرأة موجودة مع حماتها ، ثم يُعلَن عن قدوم زوجها ، فإن عليها أن تحجب وجهها وتخرج ، قبل أن يدخل .

والراني سعيدة ، هي جدة أمير . ولقد بقيت خمسة عشر عاماً أثناء غيابه في إنكلترا ، وهي

تصـرّف شؤون الدولة من وراء البرداه (البردة) على حين أن الراني عزيزة كانت تهتم بقصر لوكنوف. إنها امرأة سيدة، كما يقال. ولكن سلمى، هي أيضاً، تحب أن تعرفها.

وصعدت سلمى على الدرج الرخامي، ومعها البيجوم نُصرة. من هنا هوزور ــ، وتجتاز بهو الاستقبال الصغير، المفعم بالمقاعد، والقنصليات المصنوعة من الخشب المذهب، ثم قاعة المجلس ذات الأثاث الشرقي الذي يتألف من دواوين واطئة، وسجاد عجمي، وطاولات من كشمير، وأخيراً تصل إلى قاعة العرش القديمة. وكانت البيجوم، تفخر بأن تلفت نظرها إلى المقعد الضخم، المصنوع من العاج الذي نُـحتت عليه مشاهد من رحلات الصيد والحرب، والمحاط بأعمدة صغيرة مجدولة تسند قبة من المخمل الأزرق. وتسكت سلمى، فقلّـما رأت شيئاً في مثل هذه البشاعة، وتمضي بانتباهها إلى صور الأجداد التي تملأ الجدران، وكان كل راجاهات بادالبور هنا، منذ عهد أقدمهم الذي وصل إلى العرش عام ١٢٣٠ حتى والد أمير، الذي مات عام ١٩١٢. وإنه لغريب أن يتشابهوا إلى هذا الحد. وتنحني سلمى لترى هذه الصور من قرب، وفجأة تعض شفتيها، حتى لا تنفجر ضاحكة: فكل هؤلاء الملوك، خلال سبعة قرون من التاريخ، قد رسموا بيد الرسام نفسه، ويسمى عزيز خان. فإما أن هذا الرجل قد عاش مدة طويلة، بصورة استثنائية، وإما أن والد الأمير أحـسّ ذات يوم، لسبب مجهول، بالحاجة إلى إنشاء هذه المجموعة من الأجداد، ولكنه نسي أن يمحو اسم الرسام أو توقيعه. إنه كبرياء من جهة، وسذاجة عجيبة من جهة أخرى... فهل إن أمير... وتكبت سلمى هنا شعوراً بعدم الارتياح. كلا. فما من مرة فكرت «بأمير» في مثل هذا الإطار، أو في مثل هذه الحدود.

ــ اقتربي يا بنيتي.

ولأول نظرة، كان إغراء العجوز لسلمى كبيراً؛ وكانت تلبس أشياء بيضاء، كما ينبغي للأرامل، وبدون أي حلية. والتأنق الوحيد المطل على المرأة فيها هو أن في شعرها المردود إلى الوراء، في كعيكة خلف الرأس، مشطاً مزيناً بالأحجار الكريمة من الفيروز الأزرق، وهو اللون المفضل لدى الشيعة.

ــ تعالي، تعالي قبليني!

وكانت عيناها تتألق داخل الوجه الصافي الملـطّـف بألف تجعيدة تزينه كوشاح ناعم. ويجب أن يكون أصلها من كشمير على ما حسبت سلمى. فما من مكان آخر، تجد فيه نساءً بهذا

البياض. فَلِم ذهب الراجاه الراحل يبحث عن امرأة في مثل هذا البعد، على حين أن العرف في أيامه، وأمن الحدود، كانت ترجح الزيجات بين دول متجاورة؟

وانحنت باحترام. فتُنهضها الجدة، وتضمها لصدرها الواسع. وتشم سلمى رائحة زهرة الحلوة. فتحس بأريجها اللطيف. وتشعر بأنها عادت إلى البيت.

ــ كنت أخشى ألا تكوني إلا جميلة... ــ وأخذت الراني بذقنها، وبدأت تتفحصها طويلاً ــ ولكني أرى أنك أكثر بكثير من هذا. وأمير محظوظ. وهو بحاجة إلى امرأة مثلك. ستساعدينه، أليس كذلك؟ وستطمئنينه عندما لا أكون موجودة لأقوم بذلك؟

أأطمئن أمير؟ لا بد أنه بدا على وجه سلمى شيء من الدهشة.

ــ إني أعرف عمّ أتكلم. فلقد نقص أمير الحب وهو صغير. ومنذ أن كان عمره ست سنوات، لدى موت أبويه، كان محاطاً بندامى كانوا يتملقونه في حضوره، ويسخرون منه في غيابه. وكان يشعر بذلك بوضوح، دون أن يفهمه. فلقد كان طفلاً حسّاساً ومبكّر الذكاء. وكنت الوحيدة التي لا تطمع بشيء منه. وحتى أخته عزيزة كانت تبذل جهدها، في أن لا تعارضه أو تناقضه، لخوفها أن يتذكر ذلك في المستقبل...

ولكن الصدمة الرهيبة وقعت يوم كان في الخامسة عشرة، إذ قام عمه، الذي كان أمير يحبه حباً جماً بمحاولة لتسميمه، طمعاً بأن يستبد وحده بالحكم. وخلال أسابيع كان يبكي ويعيد بلا انقطاع: « أنا لا أريد أن أكون راجاه. وسأسافر بعيداً بعيداً، أي إلى حيث لا يعرفني أحد، وحيث ربما وجد من يحبني لذاتي».

وترتجف سلمى: فكم من مرة تمنّت، هي أيضاً أن تكون يتيمة، بلا اسم، ولا أصل، لكي تثق بأن الناس يحبونها لذاتها.

وتابعت الراني كلامها، فقالت: «وفي ذلك الحين، قرّرنا أن نرسله إلى إنكلترا: من أجل أمنه الشخصي، أولاً، ومن أجل توازنه العقلي: ذلك أن موت أبويه الذي كان يشعر به وكأنه يعني التخلي عنه، بصورة لا شعورية، وازدواجية الخلان، وخيانة عمه، وفوق ذلك كله، حب بائس، تعيس لابنة عمه التي كانت «تتغنج» له، وتعطي مواعيد لشخص آخر غيره، إن هذا كله انتهى إلى أن يفقد ثقته بنفسه، وقدرته على النضال، على حسن تقبله للخيبة، وبالجملة فقد كاد أن يفقد ثقته بنفسه كرجل».

« وعندما تركنا ، كان مراهقاً حذراً ، أعصابه سريعة العطب . فعاد إلينا راشداً ، نشيطاً ، متحمساً ، وفي الوقت نفسه كان متزناً ، عقلانياً ... وربما أكثر مما يجب . ولديّ انطباع دائم بأنه يلجم نفسه ، وأخاف أن يتأثر بفرط حساسيته . أفيكون الصدع ما زال باقياً ؟ أو أنه تعلّم أن يخفيه فقط ؟ يا أميري المسكين ، كم أتمنى أن يسمح لنفسه بأن يكون سعيداً ! » .

وكانت الدموع تنهلّ من عيونها ، وسلمى تنظر إليها .

ــــ عديني بأنك ستساعدينه !

ولقد أصبحت الحرارة خانقة ، في آخر شهرنا هذا حزيران / يونيو / . وكانت الحيوانات والناس تتفحص السماء ، التي تبقى زرقاء ، تبعث على اليأس . وستبقى زرقاء خلال عدة أسابيع أيضاً ، ولا يمكن أن نأمل ، بصورة معقولة ، هبوب الرياح الموسمية بهذه السرعة . ما لم ينظر الله بعين الرحمة إلى هذه الحقول المحروقة ، وهذه الأرض التي تتشقق ، وهذه المخلوقات المرهقة التي تجر نفسها جراً ، في هذا السعير .

وعشرين مرة في اليوم تغمر سلمى نفسها بالماء ، في هذا الحوض النحاسي الكبير ، المملوء بالماء البارد . وهذه فترة حلوة تشعر فيها بالراحة ، وبأنها عادت إلى إنسانيتها من جديد . ولكن ما إن تخرج حتى تتبخر حبيبات الماء الباقية على جسمها ، وتجد نفسها مرة أخرى في هذا الجو الجهنمي .

وتتمـدّد على السرير ، وتظل حريصة على أن تتحرك أقل ما يمكن ، وتمد وجهها ، بشراهة ، إلى هذا الهواء القليل الذي يصدر عن البانكا ، أو المروحة القديمة ، التي تتحرك باليد ، بواسطة الحبيلات ، عن طريق صبي ، يجلس القرفصاء ، خارج الغرفة . ومع ذلك فإن الكهرباء موجودة في القصر . إذ منذ أن عاد أمير من إنكلترا جهزه كله بمراوح ضخمة من الفولاذ ، من آخر وأحدث النماذج . ولكن الكهرباء لم تعمل إلا يوماً واحداً بعد وصولهم ، وفقدت سلمى كل أمل في أن ترى مراوح السقف تتحـرّك . أما الآن فإنها هناك لكي تنكد عليها العيش .

ومع ذلك ، ورغم شدة الحر ، فإن سلمى تحب بادالبور ، أكثر بكثير مما تحب لوكنوف . فالحياة هنا بسيطة ، بعيدة عن « مسكنات » الراني عزيزة ، والهذر والمؤامرات . وعلى رغم المشاكل الحكومية ، يبدو أمير أكثر ارتياحاً . وفي الصباح الباكر ، وعندما يكون الجو لا يزال لطيفاً ، يمضيان معاً لنزهة على ظهر الحصان في الحقول والغابات . وقد تصحبهما زهراء أحياناً ، وترى ضحكتها

الشفافة تتلألأ نوراً. وهكذا تأخذهم نشوة الحرية، ويعدون بأحصنتهم، ويراهم الفلاحون يمرون، وهم مندهشون.

وهذه هي المرة الأولى التي يقيم فيها الراجاه في بادالبور أثناء الصيف. والعادة أن هؤلاء الذين يستطيعون الهرب، يهربون من الحرارة الخانقة الموجودة في السهل الهندي ــ الغانجي، ويلجؤون إلى مصايف هملايا الأنيقة. بل إن نائب الملك وحكومته كلها، ينتقلان، ليستقرّا في مقراتهم الصيفية في سريناغار SRINAGAR، عاصمة دولة كشمير.

أما هذه السنة، وبتأثير حزب المؤتمر، فإن الأرياف كلها تتحرّك. ولقد رأى أمير أن من الأفضل أن يبقى بين رعاياه، ويبحث مطاليبهم، لا لأن لدى فلاحي بادالبور ما يشكونه، بشكل خاص، ذلك أن حاكمهم رجل عادل وأكرم من أكثر ملوك الدول المجاورة: فإن كانت المواسم سيئة فإنه لا يطلب الضريبة كاملة، وإذا استدان بعضهم ليزوج ابنته، أو لأن المرض أصابه ومنعه من العمل، فكثيراً ما يقوم هو بتسديد الدين، للمدين في القرية، الذي يتقاضى الفوائد على ما يدينه. ولكن حدث أن جاء بعض الناس منذ عدة أشهر، من المدينة، وممن يعرفون القراءة والكتابة، وادّعوا أنه لم يعد يجوز أن يدفعوا الضريبة، وأن للفلاحين الحق بالاحتفاظ بمحاصيلهم حتى آخر سنبلة من الذرة الصفراء، وحتى آخر حبة من القمح. وبديهي أنه ما من أحد يصدق مدعياتهم، وما من إنسان يجرؤ على مفاتحة السيد بكلامهم هذا. ومع ذلك فإن هذا الكلام نفسه يدعو للتأمل.

وبانتظار ذلك، يكتفي الناس بالادعاء أن المطر والبرد، والحر، والجفاف هي السبب في امتناعهم هذا العام عن دفع الضرائب. وهكذا، فإن الراجا، يقوم كل صباح، بعد أن يكون قد جمع مجلسه، وناقش مع الديوان، وأمين المال، ورئيس الشرطة، ما تجب مناقشته، بفتح بابه للجميع. فلا يكون أحد بحاجة إلى طلب المقابلة: وكل من يرغبون في المقابلة، من مُلاك، ورؤساء قرى، وفلاحين بسطاء، يمكنهم أن يأتوا لشرح مشكلتهم، وطلب مساعدة الراجا، أو تحكيمه في تسوية النزاع.

وتحب سلمى أن تنظر إلى أمير، وهو يستقبل رعاياه. وبصمت تنزلق، وتتسلل إلى الشرفة، وتراقبه. فهو يجلس تحت الشرفة الرئيسية، لابساً «كرتاه» بسيطة من الموسلين المطرّز بلآلىء ناعمة. ولديه خادمان معممان يحركان له الهواء. على حين أن هنالك ستة حراس مسلحين، يظلون واقفين وراءه. وهذا أمر يتصل بالديكور، أكثر مما هو حاجة ضرورية، على ما يرى أمير ــ إذ يجب ألا يخيّب آمال الشعب. فهو على كل حال، يأتي ليرى راجاهه.

وفي هذا الصباح ، دهشت سلمى لأنها رأت امرأة بين الشاكين . فماذا جاءت تفعل هنا ؟ إذ أن القضايا تُسـوّى دوماً بين الرجال . وها إن القسم الأدنى من وجهها مغطى بقماش أسود . ينزل مستقيماً ، بصورة غريبة . وهذا أمر كريه ، لا سيما وأن الفلاحات لا يضعن حجاباً ، وذلك لأن عليهن ، أن يفرغن ، مع الرجال ، لأعمال الحقل . ثم إن الحجاب والبقاء في البيت ، أو البعد عن الناس ، رموز تدل على الوضع الاجتماعي ، وتبرهن أن المرأة ليست بحاجة للعمل .

وهنالك حول هذه المرأة ذات الحجاب ، رجال يقومون بحركات ، وإشارات ، ويبدو أنهم يتشاتمون . ثم يأتي رجال آخرون فينضمون إليهم ، وكل منهم يروي قصته ، ويقول رأيه . أما المرأة فإنها تتصاغر جداً . وبكل رزانة ، يطرح الراجا بعض الأسئلة ، ويصغي . وأخيراً يصدر حكمه : التغريم ثلاث روبيات . وهكذا يهدأون ، وينسحبون ، وتتبعهم هذه المرأة التي تجري وراءهم ، خرساء لا تقول شيئاً .

وتسأل سلمى الحائرة :

ــ ماذا حدث إذن ؟ وذلك عندما يعود أمير أخيراً فيصعد إلى الغرفة .

ــ آه ، لا شيء عظيم الأهمية . إذ يتهم الرجل زوجته بأنها كانت تخونه ، وعقاباً لها ، قطع أرنبة أنفها بضربة سيف . وهي تقسم أغلظ الايمان أنها بريئة . وجاءت أسرتها تتظـلّـم .

وتنظر سلمى إلى أمير ، بهلع .

ــ كيف ؟ أتغـرّمهم ثلاث روبيات كمقابل لأنفها المقطوع ؟

ــ إنها تتخلص من ورطتها تخلصاً حسناً . إذ لو صدق عليها الاتهام ، لكان قتلها دون أن يكون لي الحق ، في إدانته . وهذا هو العرف .

ــ ولكن إذا كانت بريئة .

ــ إنها على كل حال متهمة ، من حيث أنها أيقظت بسلوكها شكوك زوجها ، وأساءت بذلك إلى شرف زوجها .

فنظرت سلمى زوجها وحملقت فيه ، وقالت في نفسها : إن هذا غير ممكن ! إنه رجل ذو فكر حديث ، متطور ، درس في إنكلترا ، في أحسن المؤسسات ، ثم يصادق ويوافق على أنواع من السلوك من مخلفات القرون الوسطى . ويلاحظ هو اضطرابها .

ــ لم يكن في وسعي أن أصدر حكماً آخر . ولو أنني كنت أشد قسوة مع الرجل ، فإنه ما من إنسان ، حتى المرأة وأسرتها ، كان يمكن أن يفهم ذلك .

ــ ولكن يجب أن تفهمهم ذلك . فأنت وحدك في الوضع المناسب للتصرف بهذا الشكل !

ــ أأغيِّر تكوين عقليتهم ؟ إنك تمزحين ولا شك . إذ لا بد من قرون ليتم ذلك . وأصلاً ، فمن أنا لكي أستطيع الحكم على قيمهم ، وقانون الشرف لديهم ، أو أتصدى لتغييرها ؟ وكل ما أستطيع فعله ، هو أن أحاول أن يحترموها .

ــ ولكنك لا تستطيع أن توافقهم على ذلك ؟ وهنا أصبح صوت سلمى مضطرباً .

وأجاب الراجاه ، وهو ينظر إليها من طرف عينه :

ــ اطمئني يا عزيزتي . إني أفضل أن أراك ميتة على أن أراك بدون أنف . وهؤلاء الناس لا يفهمون أي شيء من مفهوم الجمال ! أما حول الكثير من النقاط الأخرى ــ وهنا يلهو بمسبحته العنبرية الحبات ، وعليه هيئة الحالم ــ فأنا غير متأكد بأنهم مخطئون ...

وتقع قرية أوجبال على مسافة ميل واحد تقريباً من القصر . ومن الشرفات ، تستطيع سلمى أن ترى البيوت المصنوعة من اللِّبن ، وسقوفها المصنوعة من القش والطين ، والأفنية الداخلية التي تجلس فيها النساء القرفصاء ، أمام النار ، ويحضرن الشابتيس ، أي فطائر من القمح إذا أُكل معها البصل ، شكّلت القسم الأساسي من الطعام اليومي .

ومنذ أسبوع ، وهي في بادالبور . وباستثناء النزهات على ظهر الحصان ، مع أمير ، فإن سلمى لم تخرج عن حدود القصر . ولذلك فهي تشعر وكأنها منفية عن الحياة الحقيقية ، تلك التي تدور هناك ، في هذه القرية التي يقوم بها النساء بعملهن بين الأطفال ، الذين يلعبون وحيث يجتمع الرجال حول كأس من الشاي ويتناقشون إلى ما لا نهاية ، في حين أن فتيات ناعمات ، وعلى رؤوسهن إناء من النحاس يتوازن تماماً مع حركاتهن ، يذهبن ليأتين بالماء ، ويتبعهن من بعيد شباب وكأنهم غير مبالين .

وفي الأيام الأولى ، كانت الجدّة ، وسحر الريف ، وهذا القصر الأبيض ، واللذة في أن تكون سلمى هي الراني ، بلا منازع ، وليست تلك الغريبة التي تقبل بعض نزواتها على مضض . ولقد

تمتعت بهذا كله متعة كاملة. أما الآن فإن الزمن يطول عليها، لا سيما وأن زهراء عادت من جديد إلى لوكنوف لمتابعة دراستها!

وتريد سلمى أن تعمل.

ولكن كيف؟

ونصحتها الراني سعيدة التي أصغت إلى حديثها حول هذا الموضوع، بأن تبدأ باستقبال النساء بعد الظهر، لأنهن يكنّ مشغولات قبل ذلك بأعمال البيت، أو بأعمال الحقول.

— أخبري الناس، أن كل أولئك اللواتي يرغبن بالمجيء لعندكِ فإنكِ مستعدة لاستقبالهن ومساعدتهن... وتضحك وتضيف، قائلة: إنه سيكون لديك جمهور كبير، فلا تعرفين أين تديرين رأسك! ولكنك على حق، لأن هذا هو واجبك كراني. وأنا نفسي عملت هذا في الماضي. أما الآن فأنا عجوز، جد عجوز.

وكأن الحزن غطّى لحظة تلك الزرقة العنيفة التي في عينيها.

— إنهم أبناؤنا، على ما ترين، وهم ينتظرون كل شيء منا. وكنت أتمنى أن أعمل أكثر. أما في زمن الراجا زوجي، فلم يكن هذا موضوع بحث. وفيما بعد، تضاءلت حماستي. وأما أنت، فإنك شابة، وقد رأيت العالم. وفي وسعك أن تغيِّري الكثير من الأشياء. وهكذا أستطيع أن أموت هادئة، مطمئنة، وأنا عارفة بأن النساء والأطفال في بادالبور، لن يُهملوا أبداً.

وكما تنبأت الراني سعيدة، فإن البهو الذي طلبت إعداده في الطابق الأرضي، لم يكن يفرغ أبداً. إذ تصل القرويات في أية ساعة من النهار يشأنها، ومع كل واحدة مجموعة أولاد، فيجلسن على مقربة من الراني ويحدثنها بقصص لا تنتهي، ولا تفهم منها شيئاً. وهكذا فقد طلبت مساعدة البنت الكبرى للبيجوم نُصرة، التي تعلّمت الإنكليزية في مدرسة الراهبات، أفضل مؤسسة في لوكنوف. ثم عيّنت خادمتين لتقديم الشاي، مما أثار الكثير من الاحتجاجات والحركات المزاجية. ذلك أنهما إن كانتا فخورتين بخدمة الراني الشخصية، فإن من المحِط بكرامتهما هي أن تشغل نفسها بهؤلاء القرويات القذرات والبدائيات. ولكن سلمى بدت عنيدة. ذلك أن قانون الضيافة

يقضي أن يقـدّم لهؤلاء النسوة الآتيات لرؤيتها كأس الشاي على الأقل، هذا الشاي المشـرّب بالسكر، والمغلي مع كميات من الحليب، والذي يرشفنه بكثير من المتعة واللذة.

ومنهن من يأتين من قرى بعيدة. ومن أجلهن فرشت أرض غرفة كبيرة، يستطعن فيها قضاء ليلتهن قبل العودة. فيجدن أنهن هناك في راحة، لا يشتهين معها الرحيل، ولا سيما أولئك العجائز اللواتي لا زوج لهن ولا أولاد، تجب العناية بهن. أوليست الراني أمهن وحاميتهن؟ وعندئذ بدأت سلمى تنظر بعين القلق إلى القصر الذي يمتلىء بالناس. وكذلك أمير فإنه أخيراً سيرى ذلك. ويغضب، ويطردهن. فما العمل؟ فأسـرّت إلى الراني سعيدة بما في نفسها، فبدأت هذه تضحك.

ـــ ولكن يا بنيّتي، إنهن لا يستطعن الرحيل قبل أن تقدّمي لهن هدية صغيرة! فحضّـري علباً من الورق المقوى فيها بعض الكباب والبورفي(٢)، وأضيفي خمس روبيات، وأفهميهن أن هذه هدية الوداع.

ـــ ولكن، ألن ينزعجن من ذلك؟

ـــ ينزعجن؟ أية فكرة؟ بل بالعكس، سيُـشَـرَّفن، وأنا واثقة أنهن سيحتفظن بالعلبة ليرينها لجاراتهن. فاجعلي عليها شريطاً أحمر يكون عقدة حلوة، فهذا هو لون السعادة...

السعادة... أويملكن، هؤلاء النساء اللواتي يأتين طول النهار إلى القصر، أبسط فكرة أن لهذه وجوداً، أي للسعادة؟

وكلهن يقلن، بعضهن بعد البعض الآخر، ما لديهن من مآسي الفقر. فهذا الطفل الوحيد تأثر بالبرد وأصبح على وشك الموت، رغم صلوات البراهمين. وهذه بنت طلقت لأنها لم تحمل. ويقال إن في المدينة سيدات طبيبات. ولكن أين نجد المال لهن؟ وهذا الذي يقرض بالربا، والذي هـنّ مدينات له بخمسين روبية، يهـدِّد بالاستيلاء على البيت. وينظرن إلى الراني، مفعمات بالأمل: إذ يبدو أنها طيبة جداً، ولا بـدّ أنها ستساعدهن.

وفي الأيام الأُولى، لبّـت سلمى الطلب، فدفعت هنا ٢٠ روبية، وهناك ٣٠. وهذا قليل من أجل تخفيف شقائهن. ثم إنها فهمت أن موكب البائسات يكبر، وأن هذا شقاء لا آخر له، وهاوية لا قرار لها، وحتى لو فتحت صناديق الدولة، على فرض أن لديها صناديق فإنها لا يمكن أن تكفي.

---

(٢) حلوى مصنوعة من السكر والقشدة.

وإذن فهي عاجزة. وتفهم أنها عاجزة عن حل المشكلات التي لا تحصى والتي تغمرها. فكيف يمكن إفهامهن أنها لا تستطيع مساعدتهن جميعاً؟ إنهن لن يصدقنها، ولن يقلن شيئاً، ولكن سيحسبن أن الراني ككل الأغنياء، وأنهن أخطأن عندما وضعن آمالهن فيها، وسيحملقن فيها بنظرة حزينة، مستسلمة... إنها نظرة الفقراء، الذين تعودوا ذلك.

وقال لها أمير، ذات مساء، عندما أسَرّت إليه بما في نفسها، بلهجة حزينة:

ــ لكنك ستتعودين، مثلنا جميعاً. وهذا هو الأكثر مأسوية: فأفضلنا ينتهون بأن تقسو قلوبهم. وماذا عسى الإنسان أن يفعل غير هذا؟ أينفي نفسه؟ أم ينتحر، أم يسكر من الصباح حتى المساء، حتى لا يرى وضعاً، إن هو نظر إليه مواجهة، جعله محنوناً. وما من محاكمة، ولا شيء مما تعلمناه، وفيما نؤمن به، وفيما يُكوِّننا من حيث أننا كائنات إنسانية، ما من شيء يمكنه أن يبرِّر هذا العذاب، وهذا النزع اللامتناهي لشعب كامل.

«وعندما كنت طالباً في إنكلترا، كنت أظن أن الإشتراكية هي الحل. وكان أصدقائي يسخرون مني، ويسمونني «الراجاه الأحمر» وعندما عدت، أيقنت أنه ما من أحد يريد التورة، وأن الفلاحين أقل رغبة فيها من الآخرين. فقرون من العبودية والعجز أقنعتهم أنهم مهما يعملوا، فما من شيء سيتغيّر».

ــ إن هذا خطأ، لأنهم ينقادون للمهاتماه.

ــ فعلاً. وهم على خطأ. إن غاندي، في نظريته ضد العنف. هو حتماً أفضل حصن استطاعت بورجوازية «الأعمال» أن تجده، لمقاومة الثورة الاجتماعية. ولهذا فإنها تموّلهم بهذا السخاء، هو وحزبه، من أجل هذا، وبطبيعة الحال من أجل طرد الإنكليز الذين يهيمنون على اقتصاد البلاد ويمنعون هؤلاء البانياس (كبار التجار الهنود) من أن يملؤوا جيوبهم، بقدر ما يريدون. ولكن لا تتوهمي: إذ متى رحل الإنكليز، فإن الشعب سيجد نفسه في مثل الشقاء الذي كان فيه، مع إضافة واحدة، هي أن الذين يستغلونه هم أناس من نفس اللون..

ــ وحالياً، فإن الذين يستغلونه، هم أناس من نفس اللون، مثل كبار الملاكين، والأمراء...

وأجاب أمير وهو يُمَلِّس عينيه بخبث:

ـــ فعلاً ، هم أنا وأنت . وإذن؟ فماذا تنتظرين حتى تتركي القصر ، وترتدي سارياً من «القطن» وتذهبي فتنادي بالمساواة والثورة ، في أوساط الفلاحين؟ إنهم سيظنون أنك مجنونة ، وينتهون ، على الأرجح ، إلى قتلك! ... فصدقيني ، ليس الأمر بهذه البساطة التي نتمناها ... فالتضحية الشخصية يمكنها أن تسُرَّنا ، ولكنها لا تنفع في شيء ، إن لم يكن في زيادة الشر شراً .

ـــ ألا تصدقينني؟ ـــ ويهز كتفيه ـــ حسناً ، جرِّبي ، وسترين!

ولاحظت سلمى أنه كان بين النساء اللواتي يزرنها بانتظام ، فتاتان ، رائعتان . ولعل أكبرهما في السادسة عشرة من عمرها ، وتلمع التيكا الحمراء(٣) الخاصة بالنساء المتزوجات ، فوق جبينها . أما الثانية ، فهي لا تكاد أن تكون إلا مراهقة في بداية المراهقة . وهي تضع «سارياً» أبيض ، من دون أية زينة . حتى ولا الأساور الزجاجية التقليدية التي تشعر المرأة الهندية أنها ، تكون عارية ، إذا لم تكن في يديها . وتستمر الاثنتان ، ساعات ، وهما تتأملان رانيتهما . فحارت سلمى في الأمر ، وانتهت بأن تسألهما ، عما إذا كانتا تريدان خدمة ما .

وتجيبان :

ـــ كلا ، كلا يا هوزور ، إننا نرغب في رؤيتك فقط . فهذا يفرحنا ، لأنك على درجة عظيمة من الجمال .

ثم تشرحان لها أن الكبرى ، واسمها بارفاتي ، متزوجة من رجل أكبر منها بأربعين سنة ، وهو طيب النفس معها ولا يدعها تعمل في الحقول ، وفي كل سنة ، وبمناسبة الديوالي ، عيد الأنوار ، يقدِّم لها سارياً من الحرير . أما الصغرى ، أي سيتا ، فهي أرملة ؛ وقد تزوجت في عمر الحادية عشرة ، وفقدت زوجها بعد ستة أشهر تقريباً . وهي تسكن الآن لدى أسرة زوجها ، وتتفرغ للأعمال المنزلية ، ولكن لا لأعمال المطبخ ، بطبيعة الحال ... مسكينة هذه الصغيرة . وسلمى تنظر إليها بإشفاق . وهي لم تأت إلى الهند إلا منذ مدة قريبة ، ولكنها تعرف المصير الذي يخص به الهنود ، جماعة الأرامل . فإذا هن رزقن الحظ بالنجاة من السوتيه Suttée ، التي تقضي بأن يحرقن في المحرقة إلى جانب أزواجهن ـــ وهي عادة أبطلها الإنكليز منذ عام ١٨٢٩ بالقوة ، ولكنها لا تزال

(٣) التيكا : إشارة تضعها الهنديات على الجبين ، وهي تعني ، بآن واحد ، السعادة ، وعين الحكمة . ولا يضعنها إلا المتزوجات .

مهيمنة حتى بعد مرور قرن كامل ــ ، فإنهن يعشن بقية أيامهن عيشة الباريا (المنبوذين) . ذلك أن الناس يعتقدون أنهن مسؤولات شخصياً عن موت أزواجهن ، نتيجة لخياناتهن الزوجية ، التي ارتكبنها في حياة سابقة . ولما كـنّ غير طاهرات ، فإنه ليس لهن الحق في الاقتراب من المطبخ ، وأقل من ذلك ، في المشاركة في الطعام ــ فيعطين البقايا ــ بل إنه ليس من حقهن أن يربين أطفالهن .

وتبتسم سيتا ، وتقول : من حسن الحظ أني لم أرزق ولداً . ثم إن حماتي ليست سيئة جداً ؛ إذ إنها لم تحبسني ، ولا حلقت لي شعري ، كما يفعل عادة بالأرامل . ولكن الأمر الذي ينقصني هو المشاركة في الأعياد . وكنت أحب الموسيقى والألوان ، ولن يقدّر لي أن أحضرها ، ويقولون إني نذير شر .

وتقول سلمى ، مستاءة ، مستنكرة :

ــ أية حماقة . تعالي واجلسي بجانبي .

فتتردّد سيتا وتلقي نظرة خائفة على النساء الأخريات . وتودّ لو وجدت بعيداً عن هنا ، ولكن أنّى لها أن لا تطيع رانيتها ؟ فتقترب ، مرتجفة .

وتقول امرأة تلبس الغارارا ، بصوت عال :

ــ مسكينة هذه الطفلة ! فعندنا لا تعامل الأرامل معاملة سيئة . بل بالعكس ، فنحن نرى أن من واجبها أن تتزوج من جديد . بل إن نبيّنا قـدّم المَثَـل : فامرأته الأولى خديجة كانت أرملة .

ويعلو الهمس بين الحاضرات . وما من واحدة تجرؤ على التعليق ، أوليست الراني بمسلمة ؟

وتقدمت وراء سيتا رفيقتها بارفاتي .

ــ هوزور ، لماذا لا تاتين أنت إلى القرية . فهناك عدد كبير من النساء اللواتي يردن أن يرينك ، ولكنهن لا يجرؤن على الاقتراب من القصر . ثم هنالك الأخريات ، جماعة اللامساس ، اللواتي منعهن رئيس القرية من المجيء لإزعاجك .

ــ جماعة اللامساس ؟

ــ بلى ، إنهن اللواتي لا يجوز الاقتراب منهن ؛ بل إن ظلهن نفسه يُلَوِّثنا . وبديهي أنك لن تستطيعي الذهاب لزيارتهن ، ولكنهن على الأقل سيرونك عن بعد ، وهذا وحده يسعدهن !

ولكن، كيف تقول لهذه الطفلة، وهي رانيتها، أنها لا تملك الحق في الخروج من دائرة القصر؟

ــ سآتي، يا بارفاتي. أعدك بذلك.

ــ لن تذهبي. وهل تعتقدين أنك ستحملين شيئاً إلى هؤلاء الناس، بالاختلاط بهن. إنك ستجرحينهن، وتؤذين مشاعرهن، وهذا كل شيء.

ــ سأذهب.

فامتلأ أمير غضباً. ولكن سلمى قرَّرت ألا تهادن. فهنالك نساء، من أكثر النساء شقاءً، ينتظرنها. فهل يمكنها أن تخيّب آمالهن؟ أو أن تحملهن على الظن أنها غير مبالية؟

ــ نيلوفر ودورو شيهفار يذهبن لزيارة المستشفيات والمياتم.

ــ ولكن لا القرى.

ــ بلى، ولديّ صور!

ولقد كذبت، ولكن ماذا يهم ذلك. فقد سجّلت نقطة. فكنائن نظام، موضع إعجاب الهند كلها؛ أما ما يعملنه، فما من أحد يجد فيه ما يلام.

ويتردّد أمير.

حسناً، لنسأل الراني سعيدة، عن رأيها في هذا الموضوع. وهو واثق تماماً من حسن محاكات السيدة العجوز. أوَلم تصرِّف شؤون الدولة، خلال خمسة عشر عاماً. وهي أفضل من يعرف ردود فعل الريفيات اللواتي يبقين، في رأي أمير المقسَّم بين ثقافته الإنكليزية، وحساسيته الهندية، يبقين ألغازاً لا تكتشف.

وتجيب الراني:

ــ لتذهب. فقد تغيَّرت الدنيا هذه الأيام. وحتى أنا، كنت على الأرجح، سأرتكب عدداً أقل من الأخطاء، لو ذهبت فتحققت مما يقال لي.

فيقطب الراجا حاجبيه ، ويعجب لهذه الحرية في الرأي لدى جـدّته ، التي لم تخرج قط من القصر . ولكنه تعهد بأن يعمل بنصيحتها .

فقال لسلمى بلهجة جافة :

ـــ حسناً . ستذهبين ، ولكن سيصحبك حارسان مسلحان .

٧

وتكتب سلمى لأمها ، فتقول : إنك لا تستطيعين أن تتخيّلي ما هي القرية الهندية . فمن شرفات القصر ، تبدو جدران الطين المدكوك ، وسقوف القش والتراب ، ذات شاعرية خاصة بها . ولكن إذا نحن اقتربنا منها . . . فأية رائحة حريفة تصدر عنها ، فتمسك بخناقك ، إنها رائحة الفضلات الإنسانية التي ستغوصين فيها ، إن لم تحسني الانتباه . فالفلاحون يتخففون من فضلاتهم ، حيثما كان ، وفي أقرب مكان من القرية ، إذا أمكن . وهم لا يتحرجون من ذلك ، لأن هذا الأعمال طبيعية جداً ، أليس كذلك ؟ وهكذا فإنك عندما تمرين في هودجك ، فسترين أنهم جلسوا لحاجتهم هذه ، على طول الطريق ، وعلى وجوههم سيماء التأمل العميق . ومع ذلك فإني لم أر بينهم امرأة .

وليس للبيوت من نوافذ . ولكن لها باباً صغيراً يطل على الفناء الداخلي ، حيث يعيش كل الساكنين . وهذا الفناء يستخدم كمطبخ ، وكغرفة طعام ، وغرفة استقبال ، وكغرفة عادية أثناء الصيف . بل إنه ليس في البيت إلا غرفة واحدة ، أو اثنتان ، إذا كان أصحابه أغنياء ، وفيهما أو فيها يعيش الرجال والنساء بعضهم إلى جانب بعض ، ومتزاحمين عندما يأتي الفصل البارد . ولكن الغرفة كبيرة بدرجة كافية ، إذ ليس هنالك من أثاث ، غير السرير الواحد أو السريرين من الحبال ، وصندوق لحفظ ثياب الأعياد .

«ومن بعيد ، كنت أستغرب أن أرى نساءً يقضين ساعات وساعات في عجن **نوع من**

الطين ، ويجعلن منه مكعبات مبسّطة ، كن يلصقنها على جدران بيوتهن . وعندما تيبَسُ هذه المكعبات في الشمس ، كن يكدسنها في الفناء ، على صورة أهرامات ، فنية تماماً ، على ما أعتقد . حسناً ، وهل تعرفين ماذا يعجننّ بأيديهن ، بكثير من العناية ؟ فضلات البقر ! ويبدو أن هذا من أحسن ما يستعمل كمحروقات . فيدفىء الإنسان نفسه ، ويطبخ به . أفتضحكين ؟ ولكن ربما كنا نحن المضحكين ، بتقززنا من كل ما يخرج من الجسد .

« ويجب أن تقرأي في الصحف أخبار الاضطرابات القائمة بين المسلمين والهندوس . فاطمئني . إن القرى هنا هي نماذج للتسامح بين الطوائف . ففي مدينة أوجبال ٦٠٪ من الهندوس و ٤٠٪ من المسلمين ، وهؤلاء الناس يتعايشون بصورة سلمية . لا شك أن المساكن والآبار مفترقة ، فبعضها يقوم حول المسجد ، والآخر حول المعبد . ولكن الناس يتزاورون ؛ لا من أجل الغداء أو العشاء بطبيعة الحال ، من حيث أن الهنود يعتبرون المسلمين غير طاهرين ، وأنا منهم ، ولو كنت رانيتهم . وعلى كل حال فإنهم مقسَّمون في عدة طبقات ، وكل منها يعتبر الأخرى غير طاهرة باستثناء البراهمان المنحدرين من الطبقة العليا ، والذين يشتركون في الجو الإلهي ، ويسمون أنفسهم بانديت ، أو « العلامة » ، حتى ولو كانوا أميين .

« وفي أسفل السلم الاجتماعي توجد مخلوقات محتقرة من الناس جميعاً . وهم ــ بالكاد ــ كائنات إنسانية . وهؤلاء هم كل من كان خارجاً عن الطبقات hors Castes ولا مكان لهم في المجتمع . وهكذا كان يطلق عليهم اسم « اللا مساس » ، وكل من أصيب بالاتصال بهم ، عليه أن يقوم بشعائر تطهيرية . ونراهم يقيمون حوالي القرية ، في أكواخ بائسة ، ويكلفون بالأعمال الموصوفة بأنها مخجلة كتنظيف المراحيض وتصليح الأحذية . وليس لهم الحق في الصلاة في المعبد ، ولا استقاء الماء من نفس البئر ، كالآخرين . فإذا جفت آبارهم ، وهذا ما كانت عليه الحال ، في الأيام الأخيرة ، فإن على النساء أن يقطعن أميالاً وأميالاً ليجدوا بئراً يستقون منها .

« وعندما ذهبت للمرة الأولى إلى القرية ، أثرت ثورة حقيقية عندما طلبت الذهاب إليهم لأراهم . وكنت أظن أنني أسرّهم ولكني أظن أنني أخفتهم ، لا من نفسي ، ولكن من أن ينتقم منهم الآخرون ، بسبب هذه المخالفة للقواعد . أما الآن فقد تعودوا . ليتك تعرفين كم هم ممتنون ، لا مما أحمله إليهم ، ولكن من وجودي بينهم ! وكم هم ناعمون لطفاء ! فما من مرّة قدّموا إليّ فيها كأساً من الشاي (مخافة أن أتلوث بهم) .

« ولكي لا ألوث بيوت الآخرين ، تعودت ألا أزورهم إلا كآخر من أزور . وأظن أن هذا حل

المشكلة. ولأول مرة، منذ وصولي إلى الهند، أشعر أني حقاً سعيدة. وأخيراً فأنا أشعر أني نافعة ومحبوبة».

ومنذ الآن تذهب سلمى عدة مرات في الأسبوع إلى القرية؛ وتحمل معها أدوية وثياباً وكذلك دفاتر وأقلاماً للأطفال. ولقد رَتَّبَتْ الأمورَ بحيث يتركها الحرس، بدءاً من باب الدخول، ويذهبون ليشربوا الشاي مع القدماء.

وهكذا تتحرّر هي، وتذهب فتجالس النساء ساعات وساعات. وتتنازع البيوت شرف استقبالها، وعليها أن تكون شديدة الانتباه حتى لا تثير الحساسيات. ومع ذلك فإن لها من تفضلهن على غيرهن: كالفتاتين الهنديتين اللتين كانتا أول من أوحى لها بزيارة القرية، ولا سيما سيتا، الأرملة الصغيرة، التي وضعتها تحت حمايتها، ثم كانيز فطمة، وهي مسلمة شديدة العزم، حادة الذهن، لا تتردّد في إبداء رأيها حتى ولو كان ذلك يثير عليها ثائرة الآخرين. وهذه المرأة، ذات الجسم الضخم، على وجه لا يزال ناعماً، رزقت أحد عشر ولداً وبنتها التي عمرها أربعة عشر عاماً، رزقت من جديد طفلاً. ولما كانت سلمى فضولية، فإنها لم تتردّد في سؤالها عن عمرها. ففكرت كانيز فطمة، وقالت:

ـــ أتذكر أني كنت أبكي، عندما تركنا أبي، في بداية الحرب العالمية، ليقاتل مع مفرزة إنكليزية. ويجب أن أكون يومئذ في الثالثة من العمر.

ثلاث سنوات في عام ١٩١٤. تنظر إليها سلمى مذهولة فإن كلاً منهما في السابعة والعشرين من عمرها.

وذات يوم جاءت كانيز فطمة وإحدى عشرة امرأة أخرى، عليهن سمة التواطؤ، وأخذن سلمى على حدة.

ـــ راني «صاحبة»، إنك تعرفين الكثير من الأشياء، ونحن فلاحات مسكينات، جاهلات.

وضحكت سلمى من هذه المقدّمة . ولقد أدركت منذ مدة طويلة أن هؤلاء النسوة يتفوقن على الكثيرات من المتقفات ، فيما يتصل بالحكمة ، ووضوح الرؤية . ولكن إذا نحن قلنا لهن ذلك ، خطر ببالهن أننا نسخر منهن ، لأنهن يحتفظن بأكبر الإعجاب ، لأي إنسان يقرأ ويكتب . وتابعن حديثهن ، فقلن :

ـــ نحن نريد أن تعيش بناتنا حياة أفضل من حياتنا . ولكن كيف يتأتى لهنّ ذلك ، إذا كنّ لا يعرفن غير عزق الأرض ، وطبخ الشاباتيس . وكان الراجاه العجوز قد أمر ببناء مدرسة للصبيان . والنتيجة الآن ، هي أن رجالنا يحتقروننا ، حتى ولو كانوا لا يعرفون إلا التوقيع باسمهم . فيا راني « صاحبة » ، نريد نحن مدرسة لبناتنا .

وينظرن إلى سلمى ، وعيونهم تلمع بالأمل . فالمدرسة بالنسبة إليهن ، هي الحل لكل المشكلات ، أي الدخول إلى الجنة .

ـــ وماذا يرى أزواجكن في هذا الأمر .

ـــ إننا لم نقل شيئاً . ولو فعلنا ، لضربونا . فنرجو ، بصورة خاصة ، أن لا يعرفوا أننا كلمناك في هذا الموضوع .

ـــ وهل النساء الأخريات متفقات معكن في هذا الرأي ؟

ـــ تقريباً كلهن ، ولكنهن يدّعين أن رجالهن لن يسمحوا لهن بذلك أبداً . ولكن إذا قرّر الراجاه ذلك ، فما عساهم أن يفعَلوا ؟

وتعد سلمى بأنها ستكلمه في هذا الأمر . فأقبلت النساء يقبلن يديها ، من فرط حماستهن وفي رأيهن أن المشكلة محلولة . فبدأن يناقشن في التفاصيل . فأين تبنى المدرسة ؟ وكم من الطالبات ؟ وأين سنجد المعلمين . وتؤخذ سلمى باللعبة : فكلما فكرت في الأمر أكثر ، ازدادت قناعتها بأن المدرسة ، هي فعلاً أحسن وسيلة لمساعدتهن .

وسلمى مستهامة الفؤاد بنشاطاتها الجديدة ، حتى إنها مساء ذلك اليوم ، عندما التقت بزوجها أمير ، وأحاطها علماً بالأحداث التي تهز العالم ، وقلقه من جراء ذلك ، وجَدَتْ الكثير من العناء في الاهتمام بما قال . وبمتابعته في كلامه . فنجاحات هتلر العسكرية ، والتهديد الذي يثقل

كاهل أوروبا ، والحرب المدنية في إسبانيا ، والمشروع الإنكليزي في تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، كل ذلك يبدو لها وكأنه يجري في عالم آخر ، عالم ليس بينها وبينه أية علاقة . ثم إنها لا تفهم ، ولم تفهم قط ، أن يقلق الإنسان من جراء حوادث ليس له عليها أي سلطان . فتنظر إلى أمير ، ببعض الشفقة ، ويقول هو لنفسه ، بشيء من الغضب ، إن النساء هنّ حقاً حيوانات صغيرة معنيّات فقط بجحورهن .

لكن جحر سلمى الآن ، هو بادالبور كلها ، وهو الهند أيضاً . وهكذا فقد تخلّت عن لا مبالاتها عندما حدّثها أمير عن المواقف التي اتخذها حزب المؤتمر .

ـــ إن رجال الرابطة الإسلامية ، غاضبون ، وذلك لأن المؤتمر قرّر تشكيل حكومات محلية مؤلفة حصراً من عناصره هو . ولكن الحزبين كانا قد اتفقا ، في هذا الشتاء ، على توحيد قواهما ضد الحركات الرجعية التي يؤيدها البريطانيون . وكان من المفهوم ضمنياً أن يشارك منتخبون من الرابطة في تشكيل الحكومة . وفيما يتعلق بلوكنوف وحدها ، على سبيل المثال ، فإن من حق الرابطة أن تعيّن اثنين من الوزراء ، من أصل سبعة .

ولكن رئيس المؤتمر ، نهرو ، يدّعي اليوم أن هذا الأمر مستحيل . وأن هذا لا يتفق مع قواعد حزبه ، وأنه إذا كان يجب أن يوجد مسلمون في الحكم ، فإن على هؤلاء أن يتركوا الرابطة ، ويصبحوا أعضاء في المؤتمر . بل لقد كان من الوقاحة بحيث كرّر جملته المشهورة : « إنه لا يوجد إلا حزبان في الهند هما المؤتمر والحكومة (أي الإنكليز) ، وعلى الباقين أن يكونوا تبعاً » . وهو يأبى أن يفهم أن ذلك يسبب قلقاً للأقلية المسلمة .

ترى ماذا سيكون وضع هذه الأقلية في هندٍ يقودها الهندوس ؟ إن محمد علي جناح يطلب أن يُحدَّد هذا الوضع بصورة مسبقة . ويجيبه نهرو بشيء من الاحتقار : إنه ليس هنالك أية مشكلة بين الطوائف ، وإن الرابطة الإسلامية ليست أكثر من منظمة من مخلفات القرون الوسطى ، وليس لها أي مبرِّر في الوجود .

وماذا يقول غاندي ؟

إن غاندي لا يدخل في مثل هذه التفاصيل . وهو يبحث عن الحقيقة : وفي كل صباح يقرأ الباغافادـــ جيتا ، والتوراة والقرآن . وعنده أن كل الناس إخوة . وتُحل كل المشاكل ، إذا هم اتبعوا وصاياه ، وبذلوا جهدهم في الوصول إلى النقاء الأخلاقي .

لكن « جناح » وعدداً متزايداً من المسلمين ، يـدّعون أن المهاتما هو رجل كذاب ، يستخدم الدين لغايات سياسية . وأنا لا أظن ذلك صحيحاً . وعندي أن غاندي مجنون ، يتابع تحقيق طوبياء غير واقعية . ولكن هذا النوع من الطوبياء مغر ، ونموده هو عظيم في الجماهير . إن غاندي هو الشرارة التي تشعل النار . أما المؤتمر فإنه يُـحـدِّد بعناية ، نوع الطريق الذي يجب أن تسلكه هذه النار . والواقع أن غاندي لا يعي الصورة التي يستخدم بها .

وفي هذا المساء اجتمع كهول المدينة ، ودعوا إلى الاجتماع رؤساء الأسر . ودعوا الجميع ، مسلمين وهندوس ، باستثناء جماعة اللامساس بطبيعة الحال . إذ يحدث شيء خطير جداً ، في البلد ، لم تستطع النساء ، بالرغم من كل جهودهن ، أن يعرفن عنه شيئاً .

وكان الرجال جالسين ، يفكرون ، على أكياس من القنب . وكانت الهوكاه تنتقل من فم إلى فم . وما من إنسان يتكلم كيفما اتفق ، أو بخفة ، لأن القضية جديّة ، ويمكن أن تكون لها نتائج خطيرة بالنسبة لمستقبل الجماعة .

ــ إن الزمان قد تغـيَّـر . إذ لم أفكر قط أن أمراً كهذا قد يحدث ، في حياتي أنا .

ــ يحدث مادا ، يا عم ؟ إنه ما من شيء قد تقـرّر .

وقال آخر :

ــ منذ البداية عرفت أن هذا الأمر ستكون له عواقب سيئة . فهذه الطريقة في المجيء إلى القرية ، شيءٌ جديدٌ ، ما من راني قد فعلته في الماضي قط . ولو أنها اكتفتْ بزيارة الأسر المحترمة ، لما ساءنا ذلك ، ولكنها تذهب وتجلس مع « اللامساسيين » لقد رمتنا بالعار ، وأصبحنا أضحوكة في القرى الأخرى .

وقبل الرجال وجهة النظر هذه ، وعليهم سمة الغضب .

ويعود أحد الحاضرين ، فيقول :

ــ إنها ليست بسيئة . إذ لم يحدث قط أن راني قبلها اهتمت كما اهتمت هي بنسائنا وأطفالنا . . .

ــ نعم ، إنها تهتم بنسائنا ، وتزرع في عقولهم أفكاراً جديدة ! وأصلاً ، فمن يرجو الخير من واحدة إنكليزية ؟

ــ إنها ليست إنكليزية ، بل هي مسلمة .

ــ ربّما ... ولكنها في الأعماق إنكليزية مع ذلك .

ونهض رئيس القرية وقال :

ــ أقترح أن نرسل وفداً من أكثر الناس حكمة ، ليذهبوا معي ويكلموا الراجاه . وأوصي بالسرعة ، قبل أن يتخذ القرار . إذ متى تأخرنا ، فلن يكون أمامنا إلا أن نطيع .

ويوافق الحاضرون جميعاً على اقتراحه : فشيخ القرية رجل يقظ . وهو يعرف كيف يجد الحلول حتى لأكثر المشكلات تعقيداً . فيختار بعض الرجال . ولا يناقش أحد في ذلك . إذ يعرف كل إنسان من هم الأكثر حكمة . وأخذوا يتهيؤون ، وقلوبهم مطمئنة : إذ إن الراجاه لا يمكن إلا أن يكون من رأيهم . وبالرغم من ثقافته الإنكليزية فإنه على كل حال ، واحد منا .

ــ كان عليك أن تخبرني سلفاً . فماذا يكون وضعي ، عندما يأتونني فيكلمونني عن « المشروع » وأنا لا أعرف شيئاً عن الموضوع ؟

وخرج أمير عن طوره ، إذ إن سلطته عيبت ، أمام فلاحيه ، وبسبب من امرأة ! .

ــ لقد حدثت الراني سعيدة بالأمر ، وكنت على وشك أن أكلمك به .

ولكن الراجاه يمتنع عن السؤال عن رأي جدّته في الموضوع ؛ إذ إن السيدة العجوز واقعة تحت سحر سلمى .

ــ وبديهي ، أني أكّدت للفلاحين أن ذلك لم يكن إلا فكرة عابرة ، وأن عليهم أن يطمئنوا ، بأنها لن توضع موضع التطبيق .

فانتصبت سلمى ، محمرة جداً من الخجل وقالت :

ــ ولِمَ إذن ؟

ــ لأن مجتمعنا ليس المجتمع الغربي ؛ فهنا لا تذهب البنات إلى المدارس .

ـــ ولكني لم أكن أنا الذي أثرت هذه الفكرة . بل إن الفلاحات هـنّ اللواتي قلنها لي .

ويرفع الراجاه حاجبيه ، مذهولاً .

ـــ وهذا يعني أن الهند في طريقها إلى التغيّر . وهذا ما لم تُقنِـعُني به خطب رجال السياسة .

ويتنهد .

ـــ كنت أتمنى أن أسمح بهذه المدرسة . ولكن على الرغم من أنني الراجاه ، فإن ذلك لم يكن من سلطتي . ولقد شعرت من حديث الوفد ، أن الرفض كامل . فهم يظنون أن تعليم النساء يؤدي إلى تمردهن ، وفساد الأخلاق ، وانحلال الأسرة ، وشقاء الأطفال ، وبكلمة واحدة ، يؤدي إلى خراب المجتمع . ولن أستطيع أبداً إقناعهم بالعكس !

« هيا الآن ، واكتفي بعمل الإحسان ، فهذا لا يحل شيئاً . إني أعرف ذلك ، ولكني كنت حـذّرتك : إنه لا يمكن أن نفعل شيئاً ضد إرادتهم . وعندي من القضايا الآن ، ما لا أحتاج معه إلى المزيد ... » .

ويشرح أمير لسلمى أن حكومة المؤتمر صوتت على قانون يمنع الأمراء ، وكبار الملاكين من طرد فلاحيهم الذين لا يدفعون أجور بيوتهم .

ـــ وهذا يعني أنه لن يكون لنا أية وسيلة للضغط عليهم ، وأنهم إذا قـرَّروا ألا يدفعوا ، فبين يوم وآخر ، ستفرغ خزائن الدولة ، لأنني أرفض أن أستخدم العنف .

وأخذ يُـفَـتِّـل شاربيه .

ـــ إنه لأمر غريب حقاً ، فلقد كنت دوماً من القائلين بالإصلاح الزراعي ، بغية توزيع أفضل للثروات . لكني لا أحتمل أن يفرض ذلك علـيَّ فرضاً ، لا سيما وأن أولئك الذين يقـرّرونه ، أي الرجال الشرفاء من أعضاء المؤتمر والصناعيين ورجال الأعمال ، هم غالباً أغنى بكثير من أغنياء ملاكي الأراضي ، ومن ملوك الدول الصغيرة . ولكن بطبيعة الحال نحن الذين نُـتّـهم بأننا المستغلون الحقيرون ...

وفي الأسابيع التالية ، بدأت قرى بادالبور تستقبل زيارات غريبة . وكان هذا يحدث مع هبوط

الليل. فيأتي رجلان أو ثلاثة، ويطلبون مقابلة رئيس القرية، وهم يعرفون اسمه. ويعـرِّفون بأنفسهم على أنهم موفدو حزب المؤتمر، حزب الحرية الذي سيطرد الإنكليز من الهند. ثم يخرجون من حقائبهم الجلدية أوراقاً مسودّة بإشارات صغيرة، تحمل أختاماً فخمة. ويقولون إن هذه هي القوانين الجديدة التي صـوّت عليها الشعب. ويطلبون دعوة رجال القرية، ويشرحون لهم أن ساعة العدالة قد أزفت، وأن عليهم أن يتمـرّدوا على راجاتهم الذين يستغلونهم بصورة مخجلة، وأن يأبوا دفع الضرائب. ولا يمكن أن يصيبهم أحـدٌ بأذى، إذ إن القانون الجديد يحـرِّم الطرد، وحتى الملاحقة. فإذا حاول الراجاه أن يخيفهم، فإن حزب المؤتمر القوي، يهب لمساعدتهم.

ويصغـي إليهم الفلاحـون مذهـولين، وبعضهـم يغريـه الكـلام ولـكنهم يظلـون كثيري الشكوك ـــ إذ كيف يطمئن الإنسان إلى قوم جاؤوا ولم يعرفهم أحد من قبل؟ ـــ ويظل البعض الآخر معادين: فكل هذه القصص لن تحمل إليهم إلا المزيد من المشاكل. والراجاه أقوى من حزب المؤتمر، هذا فضلاً عن أنه ليس لديهم ما يلومونه عليه: فلقد ظهر دوماً أنه رجل عادل، وحسن الفهم.

ويجيب هؤلاء الغرباء:

ـــ أيكون إذن راجاهكم عادلاً؟ ولكن العدل يقتضي أن تكون الأراضي ملكاً لكم. وهذا ما يعدكم به حزب المؤتمر. ولهذا يكرهنا سيدكم، ويدعم الإنكليز. وهو لا يريد للهند الاستقلال، لأنه يعرف أنه سيفقد كل ممتلكاته، وأنكم أنتم سترثونها منه. فقولوا لنا: ألا يغريكم أن تسكنوا قصره.

وأمام مثل هذه الفرضية، يبدأ الفلاحون بالضحك. ولكن الحجج بدأت تؤثر في العقول.

ـــ إن البرهان على أن الراجاه ضد الحركة الاستقلالية، هو أنه تزوج من إنكليزية. فكيف يمكن أن يطلب طرد الإنكليز من الهند؟

فيتهامس القوم: وبعضهم يوافق بصوت عالٍ.

ويتابع الغرباء القول:

ـــ إن الذين يقبلون بدفع الضريبة، ليسوا بأناس وطنيين. بل هم خونة للقضية. وهم يقضون لا على مستقبلهم وحده، بل على مستقبل أولادهم، وأحفادهم. هـيّـا. كونوا رجالاً!

وحزب المؤتمر سيساعدكم. وعليكم أن تتبعوا تعليماته بكل إخلاص، لأنه لا همّ له إلا مصالحكم.

ـــ بعد مصالحه طبعاً!

وفي الحقيقة، فإن هذا الاستغراب أو التساؤل قد ذاع، بما يرافقه من النقد الجارح. وهو يتألف من ثلاث كلمات. ولكنها كانت كافية، فيفحم الغريب الذي كان يتكلم، ويحس بأن الفلاحين عادوا إلى الشك فيه، والحذر منه، فيخفّض صوته.

ـــ وبطبيعة الحال، فأنتم أحرار. ففكروا في الأمر، وسأعود إليكم.

وهكذا، فإن الفلاحين ظلوا عدة أسابيع، يتناقشون فيما بينهم، ويصغي بعضهم إلى بعض، وترتفع أحياناً حدة النقاش. ثم ترسل وفود إلى القرى الأخرى لسؤالها عما تراه في هذا الموضوع. ولكنهم لا يصلون إلى قرار. ولا يبقى إلا القليل، حتى يذهبوا ويسألوا الراجاه: فلقد بدا دوماً حسن النصح.

وأمير يعرف كل ما يجري، في كل قرية، إذ إن له جواسيس، يسمونهم «أهل الثقة». ولكن هل يقلون له الحقيقة كلها؟ ربما كانوا يخفون عنه الخطر لكي يحسن الظن فيهم، وربما، على العكس، يضخمونه، لكي يعطوا لأنفسهم أهمية يحبونها؟ ولقد اعتاد أن يلتمس النصح من سلمى التي تصلها الأخبار، عن طريق النساء، بصورة أوثق وأكثر إخلاصاً. وأكثرية هؤلاء تدين تردد الأزواج. إذ ليس لهن أدنى علاقة بحزب المؤتمر الذي لم يسمعن عنه شيئاً قط، ولا بالإنكليز، لأنهن لم يرينهم قط، ولأن سلطتهم، شيء مجرَّد بالنسبة إليهن. أما الشيء الحقيقي، بالمقابل، والشيء الذي يؤثر في حياتهن كل يوم، فهو قوة الراجا، وطيبُ الراني. وهنّ عازمات على البقاء وفيات لهما، كما كان عليه الحال لدى أمهاتهن وجداتهن، والأجداد جملة، منذ قرون عديدة. وكيف ينسى هؤلاء الحمقى، من أزواجهن هذا كله، ويَـدَعون للآخرين أن يقلبوا عقولهم، بالأحاديث المنمقة، لهؤلاء الغرباء الزائرين؟ وسيعرفن كيف يرغمنهم على العودة إلى العقل!

وأخيراً جاءت الرياح الموسمية، وبدأت السماء تتخلص من هذه الحرارة الثقيلة التي كانت ترهق الناس والحيوانات منذ شهرين. وانهالت الأمطار على القرى، وثقبت سقوف القش، وأغرقت ما كان داخل البيوت. وقامت النساء بوضع الصناديق وأكياس الحب على سقائف صنعنها كيفما اتفق. ولكن على الرغم من كل هذه التدابير، فإن الثياب وما ادّخر من مواد التموين، قد أصابها العفن، وأفسدها بما لا إصلاح معه.

وأصبح الريف أسود، محزوناً. وأحياناً، وبين عاصفتين، كانت السماء تضاء بقوس كبير يختلط فيه لون البنفسج، والذهب، والورد، وكان الأطفال يصفقون بالأيدي من فرط الفرح. ثم إن الشمس تعود فتظهر مداعبة، محسنة. فتلمّع الأوراق المغسولة من الغبار المتراكم عليها، وتسترد الطبيعة ألوانها، ويخرج الرجال لكي يتنفسوا الهواء الصافي، ورائحة الأرض الطيبة. فيبدو العالم وكأنه خلق من جديد.

وتستفيد سلمى من هذه الفترات الهادئة، فتعود لزيارة القرى، وتوزّع الأغطية والثياب الناشفة، المُرَحّب بها أكثر من أي يوم آخر. ولكن لا مجال لاستخدام العربات في الطرق التي تحولت إلى مستنقعات. وإذن فلا بد من التنقل على الداندي وهو نوع من الكراسي يحملة أربعة رجال يعرقون في الوحل حتى الركب. وخلال ستة أشهر قصتها في الهند، ما زالت تحس دوماً بالعار، عندما ترى كائنات إنسانية تقوم مقام الحيوانات. وحيوانات الحمل خاصة. ولكن الناس جميعاً، والحمالين على رأسهم يرون أن هذا عمل كغيره، وكان أمير قد أوضح لها أن الإفراط في التحسّس لا يفيد إلا في جعل هؤلاء يفقدون ما يكسبون منه عيشهم. واقتنعت نصف قناعة، وقبلت ذلك، محاولة بالكثير من البسمات، والهدايا، أن تتستر على آثامها.

ومع موسم الشتاء بدأت تظهر الزواحف والجرذان السوداء، في القرى. وكان الفلاحون يطردونها برميها بالحجارة. ولكن لا يمضي يوم إلا وطفل قد عُضّ. وعلى الرغم من اللزقات، والمراهم التي يستخدمونها لهذه المناسبة والدواء الذي يصفه «الحكيم» أي الطبيب البلدي الذي يعالج بالنباتات، فإن الطفل لا يكتب له الحظ دوماً في البقاء على قيد الحياة.

وذات يوم، وعندما كانت سلمى تستريح، رأت كانيز فطمة تصل، ووجهها مضطرب.

ــ راني «صاحبة»، إن امرأتين قد ماتتا في القرية. ومنذ يومين كانتا تتقيآن قيئاً أسود. فليحمنا الله. وأظن أن هذا هو المرض.

ــ أي مرض؟

ــ المرض، هو داك الذي لا نبرأ منه.

فنهضت سلمى، قلقة. إذ يجب أن تكلّم أمير بأقصى سرعة. فيصل هذا فوراً، ويسأل الفلاحة، ويطلب التفاصيل وكان وجهه يظلم أكثر فأكثر كلما أمعنت في وصفها لما يحدث. وقال:

ـــ يجب علينا فوراً أن نأتي بطبيب من المدينة ، وأنا أخشى أن يكون المرض هو الطاعون .

ـــ الطاعون ... ؟

وتفاجأ سلمى بهذا الخبر ، وتتجمد فرقاً منه . أهو الطاعون ؟... ولكنها كانت تظن أن هذا مرض خُصّت به الأزمنة الغابرة ! وتعود إليها قصص العدوى المخيفة ، والمدن المصابة ، والجثث الملقاة على الأرض بالآلاف . وأخذت تنظر إلى كانيز فطمة ، هلعة : يجب الهرب ، والهرب بأقصى سرعة ! وعندما رأى أمير ما حل بها من الاضطراب ، أخذ يطمئنها .

ـــ إن المرض خطير ، ولكننا لسنا في القرون الوسطى . والطاعون وباء مهلك ، ولكننا تعلمنا طريقة مكافحته : ونحن بحاجة إلى أدوية ، وتدابير صحية عنيفة . فهل تريدين العودة إلى لوكنوف ؟

ـــ وأنت ؟

ـــ يجب عليّ ، أولاً ، أن أهتم بوضع الأمور في نصابها ، ولا أستطيع أن أتخلّى عن فلاحيّ بلا عون مني ، ذلك أنني إذا تخليت ، فلن يكون لهم أدنى حظ في النجاة منه .

الهرب .

وتغلق سلمى عينيها ، إنها خجلة . ولكن الخوف أكبر .

ـــ أحسب أني ... أني سأبقى .

ولكن ما الذي دفعها إلى التلفظ بهذه الكلمات ؟ ذلك أن العكس هو ما أرادت قوله . وهذه صورة أخرى لزهوها الملعون ! أفيكون ذلك من جراء التعطف الذي برز في لهجة أمير ، أم من جراء نظرة كانيز فطمة ؟...

وستتذكر سلمى تلك الأيام التي تَبِعتْ هذا النبأ ، كما لو أنها ليلة طويلة قضتها مع الكوابيس . وكان الطبيب الذي جاء من المدينة شاباً . ذلك أن زملاءه الأكبر عمراً ، والذين أصبحوا من ذوي الخبرة ، لم يعد يعنيهم أن يمضوا إلى الريف ، لا سيما إن كان ذلك من أجل مكافحة وباء في مثل هذه الخطورة . وهم لا يرون أي مبرِّر للمغامرة بحياتهم . ولكن الدكتور رضا (رزا) طبيب

متفـرّد. فهو يغلق عيادته مرتين في الأسبوع، ويدهب إلى القرى. وكان الراجاه قد سمع به، ورجاه الآن أن يأتي.

وبعد أن زرق سلمى بمصل — «موثوق بسبة ٩٥٪» — طلب منها، كما لو أن الأمر طبيعي تماماً، ما إذا كانت تريد أن تساعده.

— وإلا فإنني سأجد الكثير من العناء في الدخول على الفلاحات: فأكثريتهن ترضى بالموت، وتفضله على أن يقوم رجل بفحصها. ولم أجد زميلة من الزميلات ترضى بأن ترافقني...

ويبغي أن يكون الذهول قد ظهر على سلمى. فابتسم، وقال بصوت عذب:

— وعلى كل حال، فأنت راثيتهن، وكما يقول المسيحيون عندما يتزوجون: «للخير كما للشر...».

وقالت سلمى، على الرغم من أن جسدها يتأبى على هذه الفكرة: بلى.

وخلال أيام وأيام، كانت تتبع الطبيب، كآلة أوتوماتيكية، ويداها مغطاتان بالقفازات. وأدنى الوجه مستور بالقطن. وكانا يدخلان البيوت. ولسوء الحظ كان الأضعف مقاومة، من الأطفال والنساء، قد أصيبوا. وكانت وجوههم مصبوغة بلون قريب من البنفسجي. ويكادون يختنقون، ويتبرزون برازاً سائلاً أسود. أما الرائحة فهي لا تحتمل. وتقف سلمى عن التنفس، من شدة الهلع. وبهدوء يتلمس الطبيب النبض، ويفحص الحنجرة، والإبطين، والأعين، ويشق الغدد التي يتفجر منها القيح، ويطـهّـر الجروح، ويجفف العرق، ويشجع، ويطمئن. وعرضت كانيز فطمة وامرأتان أخريان أن تساعداها. فتنظر سلمى إليهما، يمسكن بالأحواض، ويغلين الماء، ويغسلن الصديد والبراز. أما هي فإنها تعجز عن القيام بأدنى حركة، فتتذكر استامبول، ومستشفى هاسيكي، حيث كانت أمها تأخذها معها لزيارة الجنود الجرحى. وتتذكر خوفها وغثيانها.

ولكن الدكتور رضا لا يراعيها.

— إني بحاجة إلى مساعدتك، فأعطيني الضمادات.

وينتظر. فتقترب من السرير شبه مرغمة، وتقدم القطن ولفائف التضميد.

— تفضلي بالبقاء إلى جانبي، وإعطائي الأدوية.

فتنقاد لما يطلبه منها ، وكأنها مسحورة . وخلال دقائق تبدو وكأنها لا تنتهي ، تراه يقبل على عمله برقة ونعومة . ثم إنه ينتصب ، ولأول مرة تبتسم عيناه عندما يرى سلمى ، ويقول :

ــ ... شكراً .

فتهز رأسها ، وقد فوجئت بهذا الطبيب ، وهذا الذكاء .

ــ كلا ، إن عليّ أنا أن أشكرك .

وفي الأيام التالية ، يراها تبقى إلى جانبه . وما من مرة طلب منها أن تمسّ المرضى ، بل اكتفى منها بأن تكون هنا ، حيث هو ، للحديث معهم ، والابتسام لهم .

وعندما مضى أسبوعان ، كان الوباء قد أوقف . ومن ألفي قرية مات خمسون : إنها أعجوبة . فيقـرِّر أمير عندئـذٍ أن يعود إلى لوكنوف . أما الدكتور رضا فيبقى بضعة أيام أخرى في القرية لمزيد من الاطمئنان .

وفي صباح يوم السفر ، جاء لتحية سلمى. فقالت له :

ــ أيمكن أن تصدقني . إني حزينة تقريباً أني أسافر .

ــ وأنا إذن ! إنني أفقد أفضل ممرضة عندي !

ويتمازحان . لكن ضحكاتهما تبدو مزيّـفة . فلقد كانا قريبين جداً ، بصورة يندر أن توجد . ولكن كل واحد الآن مضطر للعودة إلى العالم الذي يخُـصُّـه . وعلى الأرجح فإنهما لن يلتقيا أبداً . وهو الأفضل ــ إذ ماذا عسى الراني والطبيب الصغير ، أن يقول أحدهما للآخر ؟

وكان المطر يسقط مدراراً ، عندما تركت السيارة القصر . ومن خلال الستائر تنظر سلمى ، والقلب منها منقبض ، إلى الزول الساكن الواقف تحت هذه الأمطار .

٨

ـــ إنك لمصفرّة جداً، يا بنيتي .

وتتفحص الراني ، بعينها الثاقبة ، وجه سلمى التي جاءت تقدم احتراماتها بعد عودتها مباشرة من بادالبور .

ـــ أرجو ألا تكوني قد عُديت بالمرض ! أو أنك بالمصادفة ـــ وكانت نظرتها تدقق في الزول الرقيق ـــ في وضع ... ممتع ؟

وتَتَنهّد الراني ، عندما لاحظت المرأة الشابة ما لدى المرأة من دهشة وذهول .

ـــ أعتقد أن الأمر ليس هذا . إنه مضجر . فمنذ ستة أشهر أنت متزوجة ! وأنا أخبرك وأحذرك . فالناس قد بدؤوا يهذرون ...

ولكن لماذا تتدخل ؟ وفي أي شيء تتدخل ، وما لها ولهذا ! وعادت سلمى إلى غرفتها مستاءة . ذلك أنها لم تعد تتحمل هذا الجو الثقيل ، جو قصر لوكنوف وسوء نيّة بنت حماتها ، بعد نصف الحرية ، الذي تمتعت به في بادالبور . وهذه الشقة التي لا باب فيها ، والمفصولة بالستائر عن شقة الراني عزيزة ! لقد حان الحين ، لكي يقف هذا عند حده ! فتدعو الخصيّ الذي يتناعس على مدخل الغرفة .

ـــ امض وجئني بنجار ، فوراً !

وبعد عدة ساعات ، عاد الخصي ليقول : إن النجار ينتظر حارج القصر . وليس له الحق في الدخول إلى الزينانا . وكانت سلمى ، في ثورة أعصابها ، قد نسيت هذا الأمر التفصيلي ، فمن يستطيع أن يساعدها ؟ أما أمير فإنه مشغول مع مستشاريه ، فهي لا ترى إلّا رشيد خان ، هذا الرشيد الطيب ، الدائم الاستعداد لتقديم خدماته : ولا ينبغي أن تُعلم الراني نشيء قبل أن يكون الباب قد وُضع . وبسرعة تخط سلمى كلمة .

ـــ امض واحمل هذه الورقة إلى رشيد خان .

وينحني الخصيّ ، ودون أي تأثّر . وما من لحظةٍ يكشف وجهه عن الدهشة من هذه الجريمة التي لا توصف . أتكتب الراني لرجل ! فما من مرة في عهد السيد المرحوم ، كان يمكن أن تحصل هذه الفضيحة . وأولاً ، لأنهم في ذلك العهد ، الذي كانوا فيه يريدون منع هذه العلاقات الخصوصية ، كانوا لا يعلّمون المرأة القراءة والكتابة ، وبهذا قضت حكمتهم .

وفي المساء ، عندما جاء أمير ، وخلا بزوجته مساءً ، قال لها :

ـــ يا عزيزتي ، لقد أحدثت ثورة حقيقية . فما من مرة وضع هنا باب في القصر . وأكثر من ذلك فإن عدم وجود الأبواب يتيح للهواء أن يدور . وأختي الكبيرة مستاءة جداً . وهي تعلن لكل من يريد أن يسمعها أنها لن تسمح لأحدٍ بأن يجعل القصر على مثال البيت الإنكليزي .

ـــ ولكن هل أحصل على بابي هذا ؟

ـــ إن كنت تحرصين على ذلك حقاً ، فإنك ستحصلين عليه . ولكن هل ترين أن هذا الأمر التافه جدير بأن تثيري عليك غضب الجميع ؟

ـــ أوتقول : إن هذا شيء تفصيلي ؟ أولا تفهم أن هذا يمس حياتنا الشخصية في الصميم ؟

ويبدو أمير متأثراً ، ولكنه غير مقتنع .

ـــ ربما ... ولكنك تعرفين أننا هنا لا نعرف معنى للحياة الخاصة . فنحن أسرة كبيرة . وأخيراً سنرى ...

وبعد عدة أيام حصلت سلمى على بابها . ولكنها ستعرف عن طريق البيجوم ياسمين ، التي

جاءت لزيارتها ، أنها مدينة لرشيد خان بذلك : فلقد أقنع الراجاه أن من الأفضل أن يقبل بهذه التوافه ، حتى لا يضطر في المستقبل إلى القبول ، بأشياء أخطر بكثير .

وهكذا فقد جلست في بهوا الصغير ، تتذوق متعة الهدوء الذي عاد إليها . ولكنها ستحتاج إلى عدة أسابيع لكي تعلِّم الخدم ، ألا يدخلوا إلا بعد استئذان . وكثيراً ما يحدث أنهم يقرعون الباب بضمير مرتاح ، ونفس مليئة بسلامة النيّة ، ولكن بعد الدخول لا قبله . أما الراني عزيزة التي تعتبر أن هذا الباب إهانة شخصية لها ، فإنها ستبقى عدة أسابيع دون أن توجه الكلام إلى سلمى ، السعيدة بذلك جداً .

وعادت السيدة الشابة إلى زياراتها المألوفة للبيجوم . وبدأت تدرك أنها مفرطة بعض الشيء في نزوعها إلى التملك ، وربما آثرت أن تخرج مع زهراء . ولكن هذه تدرس طول النهار : وخلال عدة أسابيع ، يجب أن تقـدِّم فحوصها . ولقد تابعت زهراء البرنامج كـلّـه ، من داخل القصر ، مع أساتذة خصوصيين ، وستذهب إلى الكلية ، لتقديم الامتحان . ولكن شريطة أن تلبس البركاه ، وأن يكون معها مربيتاها . فالراجاه حريص على أن تتلقى أخته ثقافة قوية . ولئن كان هذا مما يُعاب عليه في الأوساط التقليدية ، فإنه في الأوساط الأرستقراطية المتطورة ، علامة على علو المستوى الاجتماعي . غير أنه لا يخطر في بال أحد أن تفيد هذه المعلومات المتراكمة أية فائدة ، بل إن مفهوم الفائدة نفسه ، هو أعلى درجات العامية .

وأمير الآن مشغول إلى أبعد حد بتهيئة اجتماع للراجاهات ، والنواب ، وكبار الملاكين الذين تناولتهم القوانين الجديدة حول حقوق الفلاحة والفلاحين . أضف إلى ذلك أنه ، كعضو في الجمعية التشريعية ، عليه أن يجابه طائفة من المشكلات الجديدة .

وكانت حكومة المؤتمر ، قد اتخذت في غمرة الانتصار بعض التدابير اللا مقبولة من جانب الشعب ولقد فرضت على المدارس الذي يدرس فيها أطفال كل الأديان والمذاهب ، أن ترفع علم المؤتمر . كما فرضت (البانـدي ماتـارام Bandé Mataram) نشيـداً وطنيـاً . وهـذا مما يثير غضب المسلمين الذين يعتبرون هذا النشيد شتيمة للإسلام ، ولطائفتهم كلها . والحق أن كلماته كانت قد استمدت من رواية بنغالية من القرن الثامن عشر ، حيث كان الزامندار المسلمون يوصفون كطغاة ، يستغلون الهنود . هذا وإن الأغنية نفسها نوع من الصلاة للأرض الهندية ، الإلّهة الأم . ويعتبر هذا لدى المسلمين شيئاً أشبه ما يكون بعبادة الأوثان .

وهكذا فقد سارت المظاهرات ، في أنحاء الهند كلها ، احتجاجاً على هذه التجاوزات . أما في

المدارس والجامعات ، فإن الطلاب يتضاربون . وفي مدراس ، اضطر النواب المسلمون لمغادرة قاعة مجلس النواب .

— فهل علينا أن نفعل مثلهم؟

لقد جمع أمير في بهوه ببعض أصدقائه من النواب . وكانت المناقشة حامية . أما على الموقف الصلب ، فإن بعض الناس يعترضون بالقول : إن نواب المؤتمر سيكونون سعداء جداً أن يجتمعوا فيما بينهم ، وسيصدرون القوانين التي يريدونها دون مجابهة أي اعتراض ، ويجيب الآخرون بالقول إن نواب المؤتمر ، باعتبارهم الأكثرية ، سيفعلون على كل حال ما يريدون ، ولا ضغط عليهم إلا الضغط المعنوي : أمّا إذا أبى نواب الأحزاب الأخرى ، حضور الجلسات ، وقالوا علناً لماذا لا يحضرونها ، فإن نواب المؤتمر الذين يريدون الاحتفاظ بصورتهم كممثلين لحزب كبير يُـمـثّـل كل الطوائف ، سيكون عليهم أن يهادنوا .

وكانت سلمى ، الجالسة في بهو محاذ صغير ، تصغي بانتباه فتبارك المشربيات التي تتيح لها أن تسمع كل شيء أو تلاحظ كل شيء من غير أن تُـرى . ولئن كانت موجودة بين هؤلاء الرجال ، فسيظنون أن عليهم أن يتحـدّثوا حديثاً سطحياً . ملائماً للآذان النسوية . وهكذا بدأت تفهم ملاحظة البيجوم حول فوائد البرداه . أولم تكن قوة النساء ، نساء السلطان ، اللواتي لم يكـنَّ يخرجن من دار الحريم ، هي التي تؤثر ، وأحياناً تضع سياسة الأمبراطورية الخارجية ، جزئياً على الأقل؟ ولئن كانت تربيتها لدى راهبات بيروت ، قد جعلت منها امرأة أوروبية تقريباً ، فإنها ، هنا ، في الهند ، وفي هذا المجتمع التقليدي النسوي ، تفاجأ بالعثور على ردود الفعل الموروثة عن الأجداد .

وفجأة سمعت أصواتاً عالية ، جعلتها ترتعش . فاندهشت . ذلك أن أعنف المناقشات السياسية في لوكنوف ، لم تكن تخلو من المجاملات التي كانت بورجوازية بومباي ، أو دلهي ، تصفها بكونها تراخياً أو لا مبالاة . فتقترب سلمى لكي تسمع بصورة أوضح . فتدرك أجزاء من بعض الجمل :

— «أعظم سرعة ، ولكن مع صبر أقل ... أحتج . إنه أكثر مقاومة . إنه حيوان أصيل رائع . ففي العام الماضي حصل على جائزة الحمال ... إنك لا تعرف من الأمر شيئاً ، ياعزيزي ، فالأقدر على المقاومة هي الكلاب السلوقية الأفغانية ذات الشعر الطويل ، ولكن الأسرع هي الكلاب الروسية ! » .

ولكن ما للكلاب الروسية ولسياسة المؤتمر ؟ وتقترب سلمى أكثر أيضاً ، فترى ثلاثة وجوه جديدة : راجاه حيها نراباد ونوابين من أصدقائه . أما راجاه جيها نراباد ، فإنه أحد الأمراء الواسعي الثروة في المنطقة ، وهو هاوٍ من هواة الكلاب الأصيلة ، وأحد منظمي المسابقة التامنة والثلاثين للكلاب ، التي ستقام قريباً في لوكنوف . ولقد كفى أن يتحـدَّث هو عن الكلاب الأصيلة ، لكي ننسى القضايا السياسية وأن تنطلق الأهواء ، بين من متحمس لهذا النوع من الكلاب ، أو لذاك النوع الآحر : نوع الكلاب الإنكليزية ، أو الكلاب اللبرادورية .

وقالت سلمى : وهي تلتف على نفسها في مقعدها : « إنهم مجانين ، فيهم من اللاوعي والخفة ، ما كان في المجتمع العثماني قبيل سقوطه . وقد يمكنهم ، كما كان يمكننا ، إعادة توجيه الدفة ، وتجنب الكارثة ، ولكن هل هم فاعلون ؟ وهل يفهمون شيئاً من القوى التي تهز الهند ، بغض النظر عن الأحزاب السياسية . ولئن كانوا يفهمون ، فهل هم أصحاب كفاءة ؟ أو هل بهم من رغبة ، في تغيير صورة حياتهم ، لمجابهتها ؟ » .

وتكاد سلمى أن تبكي من الغضب .

وردّ أمير في المساء ، عندما التقيا ثانية :

ــ « مهما يقل لهم ، فإن هذا لا يجدي . وهم لا يصغون » .

ولقد بدا رجلاً حريصاً على الواقعية حرصاً خاصاً أمام ضعف المنطق الذي لوحظ لدى أضرابه . لكنه شاب ، وقليل التأثير فيمن هم أكبر منه .

وبدت لسلمى مشاهد التمرد ، أو الثورة .

ــ سيفقدون كل شيء ، كما فقدنا نحن كل شيء قبلهم ...

وفي الأيام الأخيرة من آب /أغسطس/ ١٩٣٧ ، كان جواهـر لال نهرو ، زعيم المؤتمر ، يصـرِّح علناً بأن غاية حزبه هي القضاء على الملكية الكبيرة وتوزيع الأراضي على الفلاحين .

وبعد ثلاثة أسابيع ، اجتمع ثلاثة آلاف مندوب في القصر الأحمر في « لال بارادري » ، وفيهم مهراجات كبار ، وفيهم أشباه نبلاء ، وهم يمثلون أرستقراطية الأرض في المنطقة كلها . والواقع أنهم يُمثلون المنطقة ، وليس هناك من فدان ، يملكه أحد غيرهم .

وتفكر سلمى التي كانت تشهد جلسات المؤتمر، من الشرفات العالية المطلة عليه، وتفكر... لو أن النار اندلعت في هذه القاعة، فإن مشاكل الفلاحين ستحل تلقائياً: فملايين الفدادين الموجودة بين أيدي المجتمعين في هذه القاعة، ستنتقل إلى أيديهم، هذا إن كان حرب المؤتمر يفي بوعوده.

وبصفته المضيف ــ وهو رئيس النادي الهندي البريطاني ــ يفتتح راجاه حيها نراباد جلسته الأولى. وهو رجل عظيم الهامة، له بشرة بيضاء وأنف ينحني انحناءة حلوة على الذقن، فيقول:

ــ أصدقائي، ما من مرة في هذا البهو التذكاري، كان علينا أن نحل مشكلة في خطورة مشكلتنا الحالية. ولم نكن نفهم أن طبقتنا ماضية إلى الاختناق، مع تفتح الديمقراطية، واستقلال المناطق. وكنا الرؤساء الطبيعيين لملايين من الفلاحين. ولكن هذا الآن موضوع مماراة وجدل بسبب الوعود الخداعة التي يقـدّمها هؤلاء الذين يعربون عن رغبتهم في الخير. وعلينا أن نتحد لمواجهة هذا الخطر، وأن نترك جانباً تلك المنازعات التي تضعفنا. وعلينا أن نقوم ــ إذا شئنا استرداد ثقة الفلاحين ووفائهم، وهم العمود الفقري لسلطتنا ــ نقوم بإصلاحات يرضون عنها.

وينهض زول يلبس البراكاه الأسود، في الجمعية ليقول كلمته. إنه «راني» مات زوجها، وهي الآن هنا، بكامل الحق، لكي تمثل دولتها، فتقول:

ــ إن الاشتراكية، والشيوعية والثورة تقرع أبوابنا وتهـدّد وجودنا. والوسيلة الوحيدة لصيانة هويتنا، هي أن ننظم أنفسنا كطبقة.

ويصادق الجميع على هذا الكلام. ويقوم شخص آخر فيقترح إنشاء ميليشيا من الملاكين الشباب، للدفاع عن البلاد، في هذه الفترة المتأزمة. فيقبل الاقتراح بالإجماع. ووجد كذلك من يوحي بإنشاء علم، كرمز للاتحاد الجديد: وسيكون ذلك محراثاً يجـرّه جاموسان. فيصفق الجميع: العلم، هو تماماً ما نحتاج إليه!

ولكن من هو هذا الإنسان العجيب الذي يثير الفوضى ويزرع المشاكل، ويـدّعي أننا نحل مشكلاتنا بالأقوال، وأنه يجب علينا أن نتخذ فوراً تدابير متـخّصـة. تُرى هو راجاه لأية دولة؟ وكيف؟ آه، إنه راجاه بادالبور، هذه الدويلة الشمالية؟ وماذا يقول؟ أيقول إن علينا إذا شئنا ألا نفقد كل ممتلكاتنا، أن نقوم منذ الآن بتوزيع قطع من الأرض على فلاحينا؟ إن هذا الرجل مجنون خطر! إنه شيوعي! لا، إنه تعلم وتثقف في إنكلترا... يبدو أن الاشتراكية هناك، على الموضة،

بين الشباب ، ولكن ليس هذا عذراً لهذه الأفكار المريضة . فهو راجاه ، وليس من حقه ، أن يخون طبقته .

وما كاد أمير أن ينهي كلامه حتى علت صيحات الاستنكار ، لتخرسه . فعاد إلى الجلوس ، وقد ثبطت همته . ففي هذا الجو من الفوضى ، واختلاط الآراء ، والمسخرة ، حاول الرجل أن يُسمع الناس صوت العقل . ولكن هذا ، على ما كان يخشاه ، لم يُفد إلا بجعله هدفاً لاستنكار الجميع . فيا للأسف ! إنه كان عليه أن يحاول رغم كل شيء .

وفي الأعلى ، كانت سلمى تشعر بضيق . وفهمت فجأة أن أمير أصبح غريباً ، بين قومه . فإخلاصه وحماسته ، واندفاعه إلى فرض أفكار أحدث وأكثر خصوبة اجتماعية ، وهي الأفكار التي كانت تعرض وتشرح أمام أصدقائه الأرستقراطيين ، الإنكليز في ايتون وكامبريدج . إن هذه الأفكار غير مقبولة في المجتمع الذي ينحدر منه ، والذي هو ، رغم كل شيء ، جزء منه .

وفي المساء ، عندما عاد مرهقاً ، قالت له ، بنوع من الخجل ، إنه يجب ألا يعدل عن أفكاره . فهو الرجل الذي يقول الحق . وهي معه . فينظر إليها ، ساخراً . ويقول لها :

ــ وإذن فسنغير العالم ، نحن الإثنين . يا للأسف ، يا عزيزتي ، إذا كان الإنسان وحده ، هو العاقل ، الصائب الرأي ، فهذا يعني أنه على خطأ . إن هذه هي إحدى القواعد المرة في الحياة الاجتماعية . ولقد حاولت إقناعهم ، فأخفقت . إن هذا مؤسف لي ، ومؤسف لنا جميعاً ... ولكن الشيء الذي أرجوك أن توفّريه عليّ ، ــ وينظر خلال ذلك ، إلى سلمى فائر الدم ــ هو شفقتك .

وخرج . «لِـمَ أنا حرقاء إلى هذا الحد معه؟ إنه مبقور حيٌّ صلب ، وسريع العطب ، كطفل تعيس . وما من لحظة يدع نفسه على سجيتها ، كما لو أنه لا يثق بي » .

وفي اليوم التالي ، جاءت الراني شاهينا لتأخذ سلمى إلى السينما . وهذه إحدى تسليات لوكنوف القليلة ، النادرة . والعادة أن الأفلام الإنكليزية والأمريكية تصل إلى سينما آكشيون هارزاتغانج ، مع شيء من التأخر . وكانت غريتا غاربو ومارلين ديتيريش في قمة المجد . وكان تيرون بوور وكلارك غابل ، يمثّلان أحلام النساء ، كل النساء . وقد يحدث أن تفكر سلمى بالأيام التي قدَّمت لها هوليود ، فيها ، عقداً . فهل هي آسفة عليها ؟ إنها لا تريد أن تطرح المشكلة .

ولقد اقترحت على زهراء أن تصحبهما، لكي تستريح من العمل. فلم تعد الفتاة تقف على قدميها من شدة الفرح: فهذه هي المرة الأولى التي تذهب فيها إلى السينما. ويركب هؤلاء الثلاث في العربة التي تقف أمام مدخل القاعة، المحجوزة للنساء وحدهن. وهناك، يصعدن سلماً صغيراً، حتى الشرفة الأولى، ويجلسن في «لَوْجٍ» محاط بستائر، لا تكشف إلا ساعةَ يَعُمّ الظلام في القاعة، ويبدأ عرض الفيلم. فإنه ما من أحد يراهن.

ويعرض فيلم الملكة كريستين، وزهراء ممتلئة فرحاً وإعجاباً ولا يقف لسانها عن مديح غريتا غاربو التي تراها في مثل جمال سلمى.

وعندما عدن إلى القصر، كان الجو مشحوناً بالتوتر. فقد أخبرت الراني عزيزة أن زهرا قد رافقت سلمى، واندفعت بسرعة إلى أمير لتشكو له أن زوجته تفسد الفتاة.

وردّت سلمى بقولها: إننا كنا في «لوج» ولم يرها أحد.

— ولكنها هي، رأت رجالاً. وإني لأتساءل: كيف كانوا.

— رجالاً، ولكن أين؟

— كيف أين. على الشاشة! وكانت الراني مرهقة بكل هذا القدر من سوء النية.

وبين المرأتين، كان أمير صامتاً، مزعوجاً. فمنذ أسابيع وأخته تعيد عليه القول: إنه لا يجوز أن يترك لزوجته كل هذه الحرية، وان الناس بدؤوا يهزؤون به، وانه لا سلطة له على زوجته، أكثر من سلطة الزوج الإنكليزي.

— إنها تتنزه حيثما كان، والوجه مكشوف. ولم يسبق قط أن وُجد مثل هذا اللااحتشام والسفاهة في أسرتنا. إنها أجنبية. ولتكن. ولكن عليها أن تأخذ بعاداتنا. فافعل شيئاً، يا أخي. ذلك أن القضية قضية شرفنا جميعاً.

لكن عندما عرض هذه الفكرة، وهو نصف مقتنع بها، وطلب منها أن تضع البركة، تأبت عليه كما يتأبى الحصان الأصيل على اللجام الذي يريدون وضعه له.

— ليس هناك مجال بحث في هذا الأمر. فأنا أحترم البرداه، ولا أخرج إلا في عربة مغلقة، وأقضي وقتي بصحبة نساء يجعلنني أصرخ من الضجر. فلا تطلب مني، زيادة على هذا، أن ألبس هذا القفص الكريه. وأخبرك أنني لن ألبسه أبداً.

ومن شدة مالقي من هذه الحِدّة، رأى أمير أن يستشير في أمره رشيد خان.

ــ ليس الأمر أنني أحرص على أن تحتجب. ذلك أن النساء في أفضل العائلات يمضين والوجه مكشوف، كأن ذلك علامة على التربية الحديثة. ولكن الناس في لوكنوف كثيرو المحافظة على التقاليد وجهلة.

يا صاحب السموّ، أظن أن الراني عزيزة مضطربة، على غير حق. فكل إنسان هنا يعرف إلى أية أسرة عظيمة تنتسب روجتك. وبنات عمها، أميرات حيدر آباد، سافرات يراهن الناس في كل مكان، وما من إسان يفكر بنقدهن. فإذا كنت سترغم الراني على لبس البراكاه، فأنا شديد الخوف من أن...

ويقف عن الكلام ــ فلقد صعقه الراجاه بنظراته ــ والاثنان يعرفان حدودهما: فإذا بدا أمير شديد القسوة مع الأميرة، فإنها ستترك ــ وعلى الأقل ما دام ليس لها ولد يستبقيها. وإذا تركت الزوجة زوجها كان ذلك مخجلاً، ويأبى هو أن يتصور ذلك. وعلى الرغم من احتجاجات الراني عزيزة، فإنه سيتساهل.

ثم إن لديه هموماً أخرى في رأسه. ففي المناطق التي يحكمها حزب المؤتمر، تدهور الوضع في ثلاثة أشهر، وخاصة في المحافظات المتحدة. حيث لا تزيد نسبة المسلمين عن ١٤٪ من مجموع الشعب، ولكنهم يعتبرون بمثابة العقل والقلب، من الإسلام الهندي.

ولكن القرار الذي صدَر بفرض الكتابة الهندية في المدارس والإدارة، إلى جانب الأوردو المستخدم منذ قرنين، هو الذي يثير الناس. ومن جهة أخرى، فإن كثيراً من الإدارات المدنية، قد وضعت حداً لاستخدام العناصر المسلمة ــ ولا سيما في الشرطة، حيث سرِّح الكثيرون، بمبررات تافهة. وتعتبر الحكومة الجديدة أنها على حق في إقامة توازن يقابل نسبة المسلمين إلى الهنود، أو نسبة هؤلاء الأخيرين إلى المسلمين، دون النظر إلى التقاليد والحقوق المكتسبة، منذ قرون عديدة.

لكن الذي أشعل النار في البارود، وخاصة في القرى، هو حرص المنظمات الهدية ذات الاتجاه اليميني المتطرف على رد الإسلام إلى الدين الهندي. وعندها أن الأربعة والعشرين مليوناً من المسلمين، هم في الحقيقة هنود اعتنقوا الإسلام، بالإكراه؛ وعليهم أن يعودوا إلى ديانتهم الأصلية. ويتضح رأيهم فيما قالته جريدة الميها صباح: «إن مسلمي اليوم ليسوا إلا معترضة. أما مستقبل الهند فهو في إقامة دولة وطنية هندية، قائمة على أساس المؤسسات الهندية».

ولا تعكس هذه المنظمات وجهات نظر حرب المؤتمر الذي يعتبر نفسه علمانياً ؛ ولكنه لا يدينها . أما عاندي ، فإنه في حماسته إلى الدعوة للرجوع إلى القيم الهندية الأصيلة ، يصف بعض العناصر المتعصبة ، من الزعماء ، بأنها عناصر وطنية (مثل مالافيا) . وهذا يكفي لزيادة مخاوف المسلمين .

ولقد برهنت الأحداث الأخيرة لهم على أنهم أطالوا الانتظار : ولقد آن الأوان لكي ينظموا أنفسهم .

وفي هذا اليوم ، يوم الجمعة ١٣ / ١٠ / ١٩٣٧ ، تعج المدينة الهادئة ، لوكنوف ، بالحركة : ذلك أن محمد علي جناح سيفتتح الجلسة الإستثنائية للرابطة الإسلامية . ولقد وصل حوالي ٥٠٠٠ مندوب لحضور هذا الاجتماع . وستسكن العناصر البارزة في قصور الأمراء ، أما الآخرون فستُعد لهم خيامٌ متعدّدة الألوان تنصَبُ في حدائق قيصر باغ .

أما الذي نَظّم كل شيء ، ودفع كل النفقات فهو الراجاه مهداباد . وكثيراً ما رأته سلمى من بعيد ؛ إنه صديق لأمير على الرغم من أنه لا يشاركه نفس الآراء . والراجاه رجل تقيٌّ ، ومثالي . وهو يعيش عيشة التقشف ، في غرفة واحدة من قصره الواسع . والأرض عنده مغطاة بأكوام وأكوام من الكتب : وبينها القرآن ، والتوراة ، والكتب المقدسة الهندية ، لكن بينها أيضاً كتب ديكنز التي تجعله يبكي ، على ما يعترف هو ، عندما تصف بؤس الشعب ، الإنكليزي في القرن التاسع عشر ، وكتب تولستوي ، وهو مؤلف يشعر أنه قريب منه ، ذلك أنه يثور ، مثله ، على الطبقة الإقطاعية ، التي ينحدر هو منها . ويتغذى الراجاه بخبز الشعير الذي تخبزه له زوجته — وهذا ، في رأيه ، ما كان النبي (ﷺ) يأكله . وعندما يكون موجوداً في دولته ، كثيراً ما يحدث له أن يساعد الفلاحين على فلاحة الأرض . بل لقد أقام مزرعة لتربية الأغنام ، ويريد أن يتفرغ لها . ومثله الأعلى هو العودة إلى الحياة الريفية . ولكن جناح الذي كان واحداً من الأوصياء عليه ، لدى موت أبيه مهراجاه مهداباد ، المحترم جداً ، حمله على الإقلاع عن هذه الفكرة . وقال له : « إنك ستعمل معي . وواجبك هو النضال من أجل تحرير الجماهير الإسلامية » ، وهكذا فقد أصبح الشاب الذي كان يحلم بالطبيعة ، والفنون ، والفلسفة ، أحد الركائز الأساسية في الرابطة .

وفي هذا اليوم ، ذهب يستقبل جناح في المحطة . وعندما ظهر الزعيم ، فإن حرس الشرف — وهم متطوعون ، يلبسون القمصان الخضراء — لم يعد قادراً على ضبط الأمور ، من كثرة

الجماهير التي جاءت لتراه، مردّدة الهتافات التي تقول: «ليعش جناح! لتعش الرابطة الإسلامية!»، بل لقد حملت السيارة التي كانت تقله على الأيدي، حتى أوصلته إلى الباندال[1].

وكانت الباندال ملأى، تغص بمن فيها: وهرع المندوبون إليها من كل أطراف الهند. ويلاحظ بشكل خاص، وجود رئيسي وزراء البنغال والبنجاب ــ وهما مقاطعتان تسكنهما أكثرية إسلامية ــ وقد جاءا، على ما يقال، لدعم الرابطة. أما حول المنبر وفي الرواق المخصّص للشخصيات البارزة، فإن النساء يتزاحمن وراء المشربيات، من شدة حبهن لرؤية هذا المحامي القادم من بومباي، الذي أصبح في عضون سنتين بطل القضية الإسلامية.

ومحمد علي جناح رجل طويل، نحيف، شعره أبيض، ونظرته ثاقبة. وبالتالي فإنه عظيم التأثير فيمن يراه. ونراه يتقدمُ منتصب القامة إلى المنبر، ويظل واقفاً وراءه، وبدون أية حركة، يبدأ الكلام بصوته القوي، المؤثر. فيسحر الجماهير. وبغير مقدمات يضيع بها الوقت عبثاً، نراه يمضي مباشرة إلى الهدف.

ــ يا إخوتي: عندما اتبع المؤتمر سياسة هندية بحتة، استبعد عنه الجماهير المسلمة، وخالف وعوده الانتخابية، ورفض الاعتراف بوجود طائفتنا، والتعاون معنا. والولاة الذين يعيّنهم لا يحمون الأقليات. وأعمالهم تثير المجابهات بين الطوائف، وهي بالتالي تعزّز سلطة الأمبرياليين. وعلى المسلمين أن يثقوا بأنفسهم، وأن لا يبحثوا عن سلامهم، في التعاون مع الإنكليز أو مع المؤتمر. وإن أولئك الذين ينضمون لهذا الحزب هم خونة.

وهكذا فإن القطيعة التي كانت تتخمّر منذ عدة أشهر، قد أصبحت واقعاً تماماً.

أما في الخارج. فإن الجمهور يعبّر عن معارضته بشعارات مناقضة مثل:

ــ جاني هند! لتحيا الهند.

ويرد الآخرون بهتاف آخر.

ــ تقسيم الهند.

---

(١) الباندال: خيمة واسعة متعددة الألوان، تنصب بمناسبة المؤتمرات والأعراس.

وهذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها سلمى هذا الهتاف، الذي سيصبح في السنوات القادمة «هتافاً شائعاً» جداً.

وكانت فكرة الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، حول تجميع المسلمين في الهند، في كيان جغرافي مستقل، لم تشق طريقها بعد. بل إن جناح نفسه يعتبر أن هذه الفكرة غير جـدِّية. ولكنها وسيلة حسنة لممارسة الضغط، ضد عناد حزب المؤتمر.

ويتقـدّم الآن إلى المنبر فضل الحق، رئيس وزراء البنغال. وهي دولة تضم ثلث مسلمي الهند. فيعلن أن حزبه، أمام الخطر، قـرَّر أن يندمج بالرابطة الإسلامية. وانفجر الهذيان. فيقرر الحاضرون أن شعار الرابطة سيكون علماً أخضر يتوسطه هلال أبيض، وأما النشيد الذي ألف لهذا المؤتمر، فسيكون نشيد الحزب، وصرخة الائتلاف بين كل المسلمين.

ثم صـوّت المؤتمر بالإجماع على القرار المنتظر منذ مدة طويلة، وهو القرار القائل: إن رغبة الرابطة لم تعد الحصول على حكومة مسؤولة تماماً، حرة تماماً، بل هي الاستقلال. ولهذا فإن جناح يعلن عن صهر الحزب على أساس أكثر ديمقراطية: وعلى حين أنه كان يضم، بصورة خاصة تلك النخبة التي تعيش في المدن، فإنه منذ الآن، سيكون في كل قرية فرع للرابطة مفتوح الأبواب للناس جميعاً، ويستطيع كل إنسان أن ينضم إليه مقابل دفع مبلغ يساوي ثمن الروبية. وعـيّـن راجاه مهداباد، مسؤولاً عن هذا التنظيم الشعبي الجديد. ثم إن للنساء دوراً هاماً، يجب أن يقمن به: وهكذا فإنه سيُنشأ فرع نسوي تحت رئاسة راني نامبور العجوز.

وعندما انتهى المؤتمر، بعد يومين، كان كل إنسان يعي بأنه شهد ولادة حادث تاريخي: هو تحـوُّل الرابطة إلى حزب جماهيري، في وسعه منذ اليوم أن يستجيب لمطامح المسلمين في الهند. وفعل البرنامج الجديد في الشعب، ما يفعله السحر: فخلال ثلاثة أشهر، وفي المناطق المتحدة وحدها، افتتح تسعون فرعاً، وانتسب إليها أكثر من مئة ألف عضو. بيد أن نهرو يستمر في القول: إن الرابطة الإسلامية تدافع عن مصالح رجعية، ويصفها بأنها هسترية.

وبعد الحمى التي أثارها انعقاد المؤتمر، عادت لوكنوف فاستأنفت حياتها الطبيعية. ومع ذلك فإن المجابهات والحوادث، تتكاثر في المدن والقرى. ولكن أخطر ما وقع هو المذبحة التي ارتكبها الهنود عندما قتلوا أربعين لحاماً مسلماً كانوا مجتمعين في المعرض السنوي لباعة المواشي، في باليا.

وقد أثار هذا الحادث البربري، في عاصمة الولايات المتحدة، أكبر الاستنكار. وكانت

الصحف تبرزه في عناوينها الكبيرة. ولكنه سرعان ما نُسي لصالح دورة البولو التي تبدو لامعة، هذه السنة. ثم إن الأرستقراطية كلّها تنصرف إليها. وتنتهز الحكومة هذه الفرصة لتقرّر إعفاء الفلاحين مما هو متأخر من ديونهم. ولم يصغ أحد لأولئك النفر من الملاكين الذين طالبوا برد فعل فوري: إذ لا مجال للإهتمام بقضايا مالية قذرة، عندما يتعلق الأمر بممارسة رياضة في هذا المستوى من النبل!

أما في السينما فإن فيلم رماة البنغال — وهو فيلم يقوم على حوادث وقعت منذ قرن — يجعل الناس يبكون. وتعود القضية فتصبح القضية الأولى فيما تعالجه المجلات. والمشكلة عندئذ هي أن نعرف ما إذا كانت نجمة السينما، الجديدة، شيرلي تامبل، هي حقاً بنت صغيرة، أو قزمة في الخامسة والأربعين...

٩

إن الشرف العظيم الذي توليبا إياه سعادتكم ، وصاحبة السموّ ...

كانت قاعة الطعام في قصر جيها نراباد ، تتألق بكل أضوائها . وكانت المشاعل ، التي يحملها خدم معمّمون بالبروكار ، تتنافس مع مئات الشموع الموضوعة فوق شمعدانات فخمة من الفضة ، تجعل الزمرد والماس يتوهجان لمعاناً وبريقاً .

أما زهرة الأود الناعمة ، فهي هنا . فالراجاهات والنواب ، حكام الدول الصغيرة أو الكبيرة ، كلهم جاؤوا تكريماً للحاكم الإنكليزي السر هاري ويغ ، وزوجته . وهما يقفان منتصبين على أفضل وجه ، والذقن مرتفعة لفوق ، وعليهم جميعاً سيماء التفاخر اللامبالي الذي تهبه قرون من السلطة والضجر . ولكن السلطة لم تعد قائمة ؛ فلقد قصت أظافر هذه النمور الملكية ؛ وبقي الضجر وزهو لا حدود له .

ـــ إن أسرتنا قد خدمت العرش دوماً بإخلاص ...

لكن راجاه جيها نراباد بدأ ، بعد ما أزجى التهاني وأشار إلى علامات الوفاء ، بدأ يتحدث عن تاريخ أجداده العظماء . وكان السر هاري يمسك نفسه عن التثاؤب بصعوبة كبرى : « ترى إلى أي شيء يهدف من وراء ذلك ؟ إنهم لا يستطيعون أبداً أن يطلبوا شيئاً بصورة مباشرة ، وهذا مزعج جداً ، آخر الأمر ! » . وإذا هو حكم على الأمر ، من خلال فخامة الاستقبال ـــ ذلك أن خمسين

أميراً جاؤوا لاستقباله على ظهور فيلتهم، وكان هنالك أربع أوركسترات، وعرض للرماة — فإن الراجاه يريد أن يطلب خدمة هامة. «فلنأمل أن نستطيع تلبيتها له: إذ أني لا أريد أن أفقد واحداً من أخلص حلفائنا».

وشعرت الليدي فيوليت أن زوجها عيل صبراً. «فهاري لا يبدو أنه يستمتع. أما أنا فأرى هذا العشاء ساراً جداً. وأحب أن أكون السيدة الوحيدة بين هؤلاء الرجال، وأن أحس تحت نظراتهم الملأى بالاحترام، بما يشبه الارتعاش... وهو يـدّعي أنه ليس لي أن أعـرّي كتفي، إلا أنني لن أمضي إلى حد التبهرج، كما كانت تفعل المرحومة الملكة فيكتوريا، بحجة أن الهنود يبقون زوجاتهم سجينات، محجوبات! ولديّ فستان مزلّـط جميل، وأحب أن يروه!.. فأنا غزالة بين هؤلاء الوحوش المدجّـنين. ولكن هل استطعنا تدجينهم، أم أبقيناهم مربوطين بالرسن؟».

— ... ولهذا فإننا نطلب من إرادتكم الطيبة، العالية، الترخيص اللازم، والتسهيلات المناسبة لإنشاء هذه الطريق الخاصة التي تمضي من القصر إلى الطريق الكبيرة، طريق لوكنوف — دلهي. وسيكون هذا خدمة كبيرة لفلاحينا.

ولكن السر هاري يظل بكامل برودته! «فللفلاحين ظهر جيد! والسكة الحديدية تكفيهم بدرجة مناسبة، مع عرباتهم الصغيرة. ولنـرّ معاً، واعترف معي: هل الطريق الذي تريده، تريده لفلاحيك أم لعرباتك الجميلة، الرولز الاثنتا عشرة، واللينكولن والبنتلي، حتى لا يوسخها الغبار والطين؟... إنك تعرف ذلك، وتعرف أنني أعرف. ولكن المشكلة ليست هنا: فإذا أنا لم أقبل بإنشاء هذه الطريق، فإن هذا الشيطان سيذهب ويتقرب من حزب المؤتمر؟».

وتحملق الليدي فيوليت في وجوه (الوحوش): «فلهذا الراجاه الشاب، راجاه بادالبور، عينان رائعتان: ومن المؤسف أنه تزوج هذه الحمقاء الصغيرة التي تملك الجرأة على التعالي علينا، كما لو أننا كنا «وحوشاً». إن هذا هو العالم مقلوباً، حقاً. وبمناسبة الوحوش يجب أن أذهب بعد العشاء، فأزور هؤلاء النساء المسكينات. إنهن يمتن من الضجر وراء برداهاتهم. وستشعر الراني بأنني أكـرّمها، وأنني لم أنسها». وتنحني باتجاه راجاه جيها نراباد. ويتقطب الحاجبان، غير أنها أصلحت ذلك مباشرة ببسمة عريضة.

— ولكن كيف حدث ذلك! وأي انتباه لطيف! سأقول للراني، مباشرة.

ونهض السر ويغ، الرشيق القوام بطقمه الأسود، الذي يُـمـثّـل أعلى درجات الأناقة، بين

كل هذه البروكارات. وكان كأس الشمبانيا في يده على استعداد ليشربه بسكون على نخب... ناظراً إلى الحضور تلك النظرة الأليفة، مع شيء قليل من التعالي، المميِّز لكل موظف بريطاني مقيم في الهند. وهو برهان واضح على الشعور بالتفوق، تماماً كهذا المحك الذي يكشف أين يوجد الذهب الحق، لأولئك التوافه العاجزين عن التعرّف علينا.

ـــ صاحب السعادة، أيها الأمراء... بفرح كبير. إن هذا شرف عظيم... الأمبراطورية... جلالته... مهمتنا...

والليدي فيوليت تصغي إليه، بلا انتباه. «هاري يبالغ، ويلقي دوماً نفس الخطاب... لو كانوا ينتبهون؟ إن هؤلاء الناس الملونين على درجة كبيرة من الحساسية بحيث... على الرغم من أن راجاه جيها نراباد، متمدنٌ أحسن التمدن... ولولا لونه، لأمكن أن يقال إنه إنكليزي. إذ حتى لدى هذه النخبة الصغيرة التي ثـقّـفت في إيتون واكسفورد، فإن شيئاً ما يبدو نشازاً، فاللهجة مفرطة في إنكليزيتها، والحماسة مفرطة للعبة الكريكي، ولا سيما في علاقاتهم بنا، فإما أنها خاضعة كل الخضوع لنا، وإما أنها متعالية جداً علينا. إن هذا لأمر مدهش، حتى لكأنهم لا يستطيعون أن يكونوا طبيعيين!».

وهمس الخصيّ بشيء إلى الراجا، الذي رَدّ بحركة تدل على الاستياء البالغ. وما كاد حديث الحاكم ينتهي، ويُحيا بتصفيق مهذب، حتى نهض، مشيراً إلى انتهاء حفلة الغداء... وينتقل هؤلاء السادة إلى قاعة التدخين.

ـــ هل يمكن لسماحتك، أن تنتظر قليلاً؟ إن الراني لسعيدة بزيارتكم، سعادة جعلتها تطلب منكم بضع دقائق لكي تتهيأ لاستقبالكم بشكل لائق....

وفي الطرف الآخر من القصر، وفي القاعة ذات الأقواس، كانت راني جيها نراباد، متمددة على ديوانها، وهي تتحدث مع رفيقاتها. وخلافاً للمراسم القاسية التي اتبعت في حفلة الغداء، كان كل شيء هنا يتم في أبسط صورة. ولما كان المدعوون كلهم من أصل أميري، أو صديقات، وأكثر الأحيان من ذوات القرابة، فإن الشكليات (الاتيكيت) هي أن يُستغنى عنها. فقد أنشأت قرون من الزواج داخل هذه الأرستقراطية، شبكة من العلاقات المعقدة والكثيفة، تغطي كل المنطقة، كشبكة من العنكبوت. أما أن تكون بعض الأسر أغنى أو أكثر حظاً من غيرها، فذلك أمر يعرفه كل إنسان، ومن غير المناسب أن يشار إليه، أو أن يجعل محسوساً. إلا أن الباتياس أي

هؤلاء التجار الذين يجرؤون على التنافس في الثروة مع الأمراء، هم وحدهم الذين يستيطعون التصرف بمثل هذه العامية... ثم كذلك الإنكليز...

ويأتي أحد الخصيان فيعلن عن وصول الراجاه. فيتفرق النساء، كالعصافير الفزعة، في الغرف المجاورة. ولا يبقى إلا الراني وبنتاها. فيصل الراجاه، والعرق يتصبّب من تحت عمّته، ويبدو عليه أنه شديد الاضطراب.

ــ ماذا أسمع يا راني صاحبة؟ أتعانين من متاعب صحية، ثم لا يمنعك هذا أن تستقبلي الليدي فيوليت؟

ــ إنني على أفضل حال يا راجاه صاحب، ولكن منظر هذه... الليدي...ــ وهنا تُقطّع الكمات بهيئة المصاب بالغثيان ــ يجعلني أمرض.

ولقد اعتاد الراجاه على نزوات زوجته. ولما كانت جميلة جداً، فإنها تستفيد من فرق العمر لتسلك سلوك الطفل المدلّل. وهو لا يملك أن يرفض لها طلباً، في أكثر الأوقات. أما في هذا المساء، فإنها تتجاوز الحدود.

ــ أيمكنك أن تهيني زوجة الحاكم؟ وإذن فلن يغفر ذلك لنا أبداً.

ــ يغفر؟

وكأن استخدام هذه الكلمة قد وخز الراني في جرحها. فمنذ أشهر وهي تجتر غضبها، وتكظم غيظها، وتتماسك حتى لا تنفجر؛ أما هذه المرة، فقد تجووزت الحدود أيضاً!

ــ وأية حاجة بنا إلى مغفرتهم؟ هؤلاء الأشقياء الذين جرّدونا من السلطة، ووضعوا دولنا تحت الوصاية، ويكلفوننا كل عام بدفع الغرامات، تحت اسم الضريبة؛ هؤلاء السفلة، شريبي الماء الأسود، آكلي لحم الخنزير، الذين يغوون بناتنا، وبالإضافة إلى هذا كله يحتقروننا!

ولقد أمسكت في الوقت المناسب، عن القول: «يحتقرونك، أنت يا راجاه جيها نراباد، السعيد جداً بأن يكون، بين كل أمراء الأود، أفضل صديق لهم». آه، كم تكره هؤلاء الإنكليز! ولكن ليس تماماً لأنهم يحتلون بلدها ــ ذلك أن الحركات الاستقلالية التي تتنامى حالياً، تبدو لها تافهة ــ وعلى كل حال فإن الهند قلّما كانت مستقلة، ولم يكن حكم المغول بألطف، من حكم الإنكليز ــ بل لأنهم غيّروا لها زوجها. فأميرها، الفخور جداً بأصوله، وبالأعمال العظيمة

التي قام بها أجداده ، والمحاط باحترام أفراد رعيته ، لم يعد ، تجاه هؤلاء البيض الشديدي التعاظم ، إلا صبياً صغيراً شديد الاحترام ، كبير الانقياد .

ولكن لماذا؟ إنها لا تستطيع أن تفهم ، لا هي ولا صديقاتها ، ولا زوجات الأمراء المسلمين أو الهندوس ، الذي يرون ، بأكبر الاستغراب والمرارة « سيّدهم » يجامل الغريب . وكذلك هو حال هؤلاء الأزواج الذين تعلموا إكبارهم ، من حيث هم رجال وملوك حتى قبل أن يعرفوهم ، هؤلاء الذين شَرَفُهم يضمن شرفَهن وشرفَ أسرهن . ومن المرجّح أن تكون لديهم مبرراتهم . ولا يردن أن يَشككن فيهم ، إذ لا يستطعن أن يسمحن لأنفسهن بذلك . من المؤكد إذن أن هذا كله تم ويتم بسبب الإنكليز !

ــ لن أستقبل الليدي فيوليت !

ــ أرجوك ، يا راني صاحبة . كوني عاقلة ! فالطريق ...

وبلحظة فهمت .

ــ آه يا راجاه صاحب ، ما لك لم تقل هذا من قبل؟ إن كان هذا لمجرّد خداعها ، فالشرف يظل سليماً ! إذ كنت أظن أن لا غاية أخرى غير مَسَرّتها هي ...

والآن فإن الراجاه المذهول بأخلاق زوجته ، يحذر من مناقضتها ، وهو جد سعيد بأنه ربح المعركة ... فلو أنه شرح لها أنه ليس في نيته أن يخدع الحاكم ، وأن علاقاتهما مبنية على مصالح متبادلة وكذلك على صداقة حقيقية ، وتقدير يُظن أنه متبادل ، فإنها ستكون قادرة على العدول عن قرارها .

وعندما دخلت الليدي فيوليت على الراني ، دهشت من أن تراها محاطة بنساء معمّرات فقط . فتعلّل هذا الحادث ، بكونه علامة احترام : ولئن اختيرت الجدّات للقائها ، فلا ريب أنهم أرادوا تكريمها . وكيف يسعها أن تفهم أن الراني قضت على الصبايا أن ينسحبن ؟ ذلك أن ظل هذه المخلوقة اللاأخلاقية نصف العارية ، إن وقع عليهن ، كرثهن بمصيبة .

والاستثناء الوحيد ، هو حضور راني بادالبور ، إذ أنها « تعرف الدنيا » وكذلك فإنه لا بدّ من مترجم . وكانت سلمى قد بدأت تتكلم الأوردو بشكل مناسب ، ولن تدع فرصة جميلة للتسلية كهذه تفوتها . وتهمس الراني قائلة :

ـــ ما ألطفه من انتباه ، من ناحية سعادتك ، أن تتفضلي بزيارة خادمتك في منزلها المتواضع . فأرجو أن تعذري ساقي المسكينة التي تمنعني من القيام لاستقبالك...

وتتساءل الليدي فيوليت داخل نفسها : «أكلهن يتألمن من سوقهن؟» وذلك بعد أن لاحظت أنه ما من واحدة منهن نهضت لتحيتها ، وبقين جميعاً جالسات . على مثال الراني ، وتبتسم الراني محزونة ، وتنحني حرم الحاكم لتقبيلها . وتلاحظ أنها تتراجع ، فلم تمس شفتاها إلا الوشاح . «فكم هن خجولات ، هؤلاء النساء المسكينات . إذ أنهن لم يعتدن أن نبدي لهم ، نحن الإنكليز ، تعابير المودة . ولقد وجدت أن من واجبات الشرف بالنسبة لي ، أن أجعل نفسي ، قريبة منهن ، وأن أبيّـن لهن أني أعتبرهن مثلي في القيمة . ويرى هاري أنني أبالغ ، وأن على الإنسان أن يرغم الآخرين على احترامه . ولكنهن يثرن فـيَّ الشفقة ، لأنهن سجينات ، مقطوعات عن كل شيء في العالم ، وإماء في عالم الرجال ! » .

وتنطلق المناقشة حول المشروبات التي تصنع من المانجة : وحول الطقس الذي كان ، والطقس الذي سيكون ، وحول جمال ثياب البلاط ، وحول صحة الأطفال . وتبحث الليدي فيوليت في رأسها : فأي المواضيع يمكن البحث فيها مع هؤلاء النساء غير المثقفات؟

وعندئذ تقول الراني :

ـــ إني أحب شعراءكم محبة كبيرة ، ولا سيما اللورد بيرون بصورة خاصة .

وتعجب الليدي فيوليت ، فتقول :

كيف ؟ أتعرفين الإنكليزية ؟

ـــ أقرؤها ، ولا أتكلمها . ولكن اشرحي لي ماذا يريد أن يقول اللورد ميلتون في الفردوس المفقود...

ـــ آه ، إن هذه نظرية غامضة جداً حول الحياة والموت ، وتقول الليدي هذا وهي تتمنى أن تُفـرَم في مكانها ، بدلاً من أن تعترف بأنها لم تقرأ قط ميلتون . وعلى كل حال فإن هذا الشاعر قد تجاوزه العصر ؟ .

ـــ أحقاً ؟

وتنظر إليها الراني وعليها سمات الدهشة، وكأنها تقرأ في دهشتها هذه بعض السخرية. «فأية متحذلقة هي هذه الراني الصغيرة؟ وعليّ أن أضعها في مكانها!».

ـــ إن زوجك الراجا رجل رائع، فنحن نقضي الساعات في المناقشة معاً، لا سيما وأن زوجي لا يهتم أبداً بالأدب، ويدعنا وشأننا، ليمضي فيلعب الجولف.

ـــ أعرف ذلك، فالراجا يقضي من الوقت عندك، أكثر مما يقضيه معي، بل إني لغيورة من جراء ذلك. فهو لا يفتأ يحدثني عن الجميلة...

وتحتج الليدي، متواضعة:

ـــ ولكن لا، أرجوك.

ـــ ولكن بلى... الجميلة سارة! إن هذا هو اسم ابنة أختك، أليس كذلك؟

وامتقع لون امرأة الحاكم، وعضّت سلمى شفتيها. ولكن الراني تتابع الحديث، بصورة طبيعية جداً، كما لو أنها لا تتكلم عن أشياء لها ما وراءها.

ـــ إن الراجا يفكر في الزواج، ألم يحدّثك بذلك؟

ـــ ماذا... عن زواج؟

وبتأثير الصدمة، بدأت الليدي تتأتيء. ثم عادت فتماسكت، وقالت:

ـــ أتوافقين على ذلك؟

ـــ أوه، أنت تعرفين. إن عقلي واسع! وأظن أن هذا سيكون أمراً جيداً.

ويبدو الأمر من السخف، بالنسبة للسيدة زوجة الحاكم، على درجة كبيرة، جعلتها تطلق ضحكة. أشقراؤها سارة تتزوج أحد السكان المحليين! إن هؤلاء الهنود لا يشكون في شيء، حقاً. ومن حسن الحظ أنها وجدت عذراً جاهزاً. فقالت:

ـــ إني حقاً لمسرورة أن الراجاه قد فكّر بابنة أختي. ولكنها ليست إلا في العشرين من عمرها. والفارق في العمر كبير، وأكبر مما يجب.

ـــ كيف، إن ابني لا يزيد على الخامسة والعشرين عمراً.

ـــ ابنك ، ولكن . . .

ـــ كيف أذهلت إلى هذه الدرجة ؟ طبعاً ، أنت لا تعرفينه . ولا يسعك أن تقرري شيئاً دون معرفته اسمعيني . انظري أي يوم ، بعد الظهر ، أنت حرة فيه ، وننظم لقاءً . وأنا واثقة أنه سيعجبك . بل أي زوجين جميلين سيكونان ، وأية نتيجة حلوة للصداقة التي تربط بين أسرتينا . إن هذا برهان على أن البشر المتميّـزين يعرفون كيف يتجاوزون المستبقات السخيفة السائدة لدى الجمهور العادي . و . . .

وتقف هنا عن الكلام ؛ ولكن سلمى أخبرتها ، بنظراتها ، أنها تسرف فيما تقول ، وأن الليدي ستنتهي حتماً إلى ملاحظة ما ينطوي عليه الحديث من سخرية .

ولكن هذه في حالة من الاضطراب يصعب معها أن تلاحظ أي شيء . ولم يعد لديها إلا فكرة واحدة : هي الهرب ! فأخذت قفازها وحقيبة يدها ، وأوسعت الراني ومن لديها ، شكراً ، ووعدت بأن تعود قريباً جداً ، لكي تلقى الأمير ولي العهـد ، وتقبّـل الـراني ثلاث مرات ، وتقبّـل سلمى أيضاً ، بسائق الاضطراب ، وتمضي آيبة .

أما في البهو ، فقد تبع ذلك ضحك كثير .

وقالت الراني :

ـــ لقد أصبحنا ، على الأقل ، واثقين بأننا لن نرى وجهها ثانية . ثم أضافت ، وعليها لوائح التقـزّز .

ـــ هيا ، أحضروا لي قطعة قماش ، وماء الورد ! فأي هوس يتملك هؤلاء الإنكليزيات لكي يقبلوكِ .

وعندما رأتها سلمى تفرك بقوة جلدها لتمحو عنه آثار التلوث ، كانت تفكر بخالة أمها ، زوجة السلطان عبد العزيز ، التي كانت جرحت خدها جرحاً بليغاً بضربة سكين ، لتتطهر من قبلة إحدى « الكافرات » . وهذه الكافرة ، بالمناسبة ، كانت تزور استامبول زيارة رسمية . وكان اسمها الأمبراطورة أوجيني ، زوجة نابليون الثالث .

وكانت الإيزوتا فراشيني تمضي على الطريق الأغبر ، دائرة مرتين بعنف ـــ إذ من يتنازل فيبطىء ـــ حول قطعان الجواميس والجمال الضخمة ، والمسيرات الجنائزية ، والأبقار المقدسة ،

وموكب الخطيب المرح، الذي يمضي على حصانه الأبيض إلى بيت الصبية الموعودة. إنها معجزة دائمة هذه السيارة الفائقة السرعة التي تتسلل بسرعة ٥٠ ميل في الساعة، من خلال العوائق اللطيفة التي تنشأ عن الرحلات التي تتم على الطريق الهندية الكبيرة، وتجعل مسيرة السيارة شبه مباراة في تجاوز العقبات.

ولكن جيهانراباد مضطر إلى تنظيم رحلة صيد للنمور على شرف الحاكم. فإذا كان يريد طريقه، فهذا أسهل الأشياء، على حسب تعليق أمير الدي يقول هذا ضاحكاً. إن هؤلاء يظنون أنهم جميعاً صيادون ماهرون (رماة ماهرون). فليتهم يعرفون كم نفعل لإصناء هذه النمور المسكينة! ففي اليوم السابق ليوم الرحلة، تترك قريباً من مجاري الماء التي يردها النمور، جواميس صغيرة، عُلفت علفها مع كميات مناسبة من الأفيون. وفي الحالة التي لا يكفي فيها هذا، نضع دوماً حارساً، يختفي في غويبة، ويطلق النار في نفس الوقت هو والحاكم العظيم. وهكذا فإن كل الناس يكونون مسرورين. أي الصياد الذي يصيد الوحوش، والذي يطلب تصويره، وهو يضع قدمه المنتصرة على جثة الوحش — والذي يحتسو رأسه همما بعد بالتبس، ويجعل قلوب النساء تمتلىء بالهلع، من رؤيته — ثم ضيفه الذي لا يستطيع، في فرحه هدا، أن يأبى تقديم خدمة صغيرة له.

— هل تحتقرهم؟

فيرتجف أمير، ويحملق في وجه زوجته.

— الإنكليز؟ أنا لا أحبهم، ولكني معجب بهم، فلو أننا ملكنا نصف طاقتهم، أو صبرهم، أو انضباطهم ووفاءهم...

— وفاءهم؟

— تجاه الأمبراطورية. فمن أجلها تراهم مستعدين لكل النذالات. والخدمات التي يقدّمونها لنا لا تتعارض أبداً مع مصالح العرش. وفيما عدا ذلك، فإن في وسعهم أن يكونوا قليلي الشرف، أما على مستوى إخفاء ما في النفس، الذي يسمى شرقياً، فإنه ليس عندنا ما نعلّمهم إياه. وأصلاً، فإن هذا ما يجعل العلاقات... مثيرة.

وتتساءل سلمى:

«عندما يلعب القط مع الفأرة، فأين هو الهيجان المفرح لدى الفأرة؟ أولا يلاحظون إلى أي

حيد يهزأ الإنكليز منهم، ويستخدمونهم؟ أما نساؤهم، فوراء الحجاب، تَـراهُـنّ واضحات الرؤية أكثر منهم ».

ـــ وتكره راني جيهانراباد هؤلاء الإنكليز الذيـن يقدرهـم زوجهـا تقديـراً عظيمـاً. إذ تـدّعي هي وصديقاتها أنهم أكثر بياضاً مما يجب ليكونوا كائنات بشرية. وهـنّ يؤكـدن أن أشجاراً ضخمة تحمل بيوضاً، تنمو في جزيرتهم، وأنهم يولدون هم من هذه البيوض.

ويرفع الراجا عينيه إلى السماء قائلاً:

ـــ إن حماقة هؤلاء النساء ليست مما يقبل القياس!

ـــ وبالمناسبة كنت أريد، يا عزيزتي، أن أخبرك بأني تلقيت رسالة من واحد من أصدقائي القدامى من كامبريدج، هو اللورد ستيلتلتون. فقد تزوج حديثاً من فيكونته هي الليدي غريس، ويحبان أن يقضيا شهر العسل في الهند. وسيصلان إلى لوكنوف، خلال بضعة أيام، وينزلان في قصرنا. ويضيف ساخراً قوله: أرجو ألا تحول قناعاتك الوطنية دون حسن استقبالهما.

« ما أجملهما من زوجين، وكم يبدوان عاشقين! ». فقد راقبتهما سلمى، طيلة السهرة، بحنين، كطفل وجد نفسه أمام حانوت مفعم بأشياء رائعة وممنوعة معاً. إن هذه الشقرة العابثة، وهذا التفاهم الضمني القائم بينهما، وهذه الضحكات تدخل في قلبها اليأس.

ومع ذلك فقد كان العشاء مرحاً جداً، جاء فيه حديث لندن وباريس، والمسرحيات الجديدة التي أصبحت مهوى الأفئدة. وحفلات البال الموسمية، وأشير كذلك إلى آخر الفضائح. ويسأل أمير عن أخبار كل واحد، ويدهش، ويضحك. وما من مرة رأته سلمى مرتاحاً كهذه المرة، بلا توتر، وقد أذهلها أنه يعرف كل الناس.

وينبئها اللورد ستيلتلتون:

أن زوجها كان عنوان المرح في كل المجموعة التي كانت تشتمل على عدد لا بأس به من الشباب المرحين. ولكن أمير يتميـّز بطريقة شعرية خاصة به في قلب أية سهرة مضجرة إلى مغامرة. وكان الناس جميعاً يتخاطفونه، هذا إن لم نتحدث عن النساء اللواتي جنـنّ به!

أمير والمرح؟ إن سلمى لا تصـدّق أذنيها. وأخذت تحلم: فلو أنهما تعارفا في لندن، فلربما تحابا. لربما؟... فما هي إذن الآن تلك العاطفة التي تصل بينهما. آه، لو أنه وافق على التخلص من هذا الدرع الذي وضعه على نفسه. ولكنه يـدّعي أن الحب مرض في العقل. وفي المرة الوحيدة التي تجرأت فيها على سؤاله عن عاطفته تجاهها، أجابها بأنه يعجب بها ويحترمها. ولم تعد بعد ذلك إلى مثل هذا السؤال.

وها هي الآن تتجه ببطء إلى البيانو، الملجأ المبارك الذي تستطيع أن تعزل نفسها فيه دون أن يظهر أنها تهرب. وهذا البيانو، إنما هي مدينة به إلى تدخل رشيد خان، على الرغم من ثورة الراني عزيزة.

أيها العزيز رشيد خان! لقد حظيّت هذا المساء بمفاجأة سعيدة، هي أنها رأته للمرة الأولى منذ وصولها إلى لوكنوف. وعلى الرغم من أنه أكبر عمراً، فإنه هو الآخر صديق لضيفها اللورد، الذي لم يكن يرى من مبـرّر لغيابه عن العشاء. وكذلك فإن أمير لم يشعر بالشجاعة الكافية لكي يشرح لرفيقه القديم أنه هو ذو الفكر القوي، العقلاني المتحرر من المستبقات، كان يحتفظ بامرأته في البرداه[1].

وبدأت تداعب بأصابعها، أصابع البيانو العاجية وأخذت تعزف الضربات الأولى من إحدى ليليات (سمر) شوبان. فمن اكتئاب إلى أمل، إلى هوى يتحطم ويعود فيولد من جديد، مرتجفاً، عاصفاً، ثم من جديد يتجلى في شهقة بكاء، في شكوى مرهفة، كخد وردة، أو كنقطة ندى تموت.

وكانت تحس على يديها، وعنقها، نظرة رشيد، الحارة الرقيقة إلى ما لا نهاية. وكانا خلال تلك السهرة يتجافيان، والآن فقط، الآن إذ يظنها ضائعة في أحلامها المنسجمة، يجرؤ أن ينظر إليها. وهي تقطع أنفاسها، لكي تتلقى كل جزيء من هذا الهيجان، وهذه العبادة، التي تجعلها تتفتح، وتُـعطِّر، وتحيا مرة أخرى، كشعاعات الشمس على زهرة الحقل.

غير أنها مع ذلك، لا تحبه، وهي تعرف ذلك، وهو بعيد عن أن يملك ما لزوجها من إغراء. ولكنها في هذه اللحظة لا ترغب إلا في شيء واحد: هو أن (تتلفلف) بين ذراعيه، وأن تهدهد.

---

(١) كثيراً ما كان الهنود المثقفون يحرصون على أن لا تظهر زوجاتهم بلا برداه أمام الهنود مع التسامح بذلك أمام الأجانب.

ولقد كان كافياً أن ينظر إليها بعينيه المتفهمتين، المحبتين، لكي يعود فجأة فيجد السلمى التي عهدها منذ ثمانية أشهر تقريباً، أي تلك المرأة السعيدة التي كان يستقبلها في مرفأ بومباي.

لكن صوت اللورد عاد فاقتلعها من أحلامها.

ـــ أمير، ماذا ترى، إن ذهبنا فأنهينا سهرتنا في نادي شاتر منزيل؟ لقد قيل لي إنه مكان فخم، لعله هو قصر من قصور ملوك الأود، أليس كذلك؟

واصفرّ أمير، وقال:

ـــ لست عضواً في هذا النادي.

ـــ لا أهمية لذلك، فأنا أدعوك. فالحاكم الذي زرته هذا الصباح كرّمني بأن أعطى اسمي للاستقبال.

وابتسم أمير قليلاً.

ـــ إنك جديد على هذه البلاد يا إدوار. ولكنك مررت بكلكوتا، على ما أظن، فهل ذهبت إلى يخت ـــ كلوب؟

ـــ بالتأكيد، وهو ممتع جداً.

ـــ هل تعرف الفرق بين يخت ـــ كلوب، والشاتر منزيل؟

وكان أمير يتكلم ببطء، وهو يدير كأس البراندي في يده، كما لو أنه غاب في لونه العنبري.

ـــ حسناً، ها هو الفرق: إن اليخت ـــ كلوب في كلكوتا محرَّم على الهنود والكلاب. أما في لوكنوف فإنهم أكثر تسامحاً: لأنهم يقبلون الكلاب.

وكان الصمت عندئذ عظيماً. ذلك أن العيون كلها اتجهت إلى اللورد الذي انفتح فمه تلقائياً من شدة الاستغراب. وما من مرة وجد اللورد نفسه في مثل هذا الحرج.

ـــ إنك تمزح. لا بد أن هذا النظام لسكان البلد، أريد أن أقول ... هو، للشعب، وليس لأناس من نوعك.

ـــ وماذا تريد أن تقول؟ وهل أنا في رأيك غير هندي.

ــ عفواً، يا أمير، إنك من أسرة من أقدم الأسر الهندية. وفي لندن كانوا يسمونك «الأمير». وكانت الدوقات تتنازع على لقائك واستقبالك...

ــ هذا في لندن. أما هنا فكما ترى.

وحار الرجل في أمره، ولم يجد ما يفعله غير أن يضع رأسه بين يديه.

ــ ويستغربون، مع ذلك، أن الهنود يطالبون باستقلالهم!.. إن كل هؤلاء الموظفين الإنكليز هم من جماعة السمانين! وعندما أفكر أنهم يجرؤون على احتقارك، والتصغير من شأنك... إن هذا ما لا يتصور أي إنسان أنه يقع. تعال معي، وسندخل قسراً، ولن يجرؤوا على قول شيء، أو أنهم سيجدون من يتصدى لهم!

وينظر أمير إلى صديقه. ويتردّد. إذ ليس له أية رغبة في المغامرة بإثارة هذه الفضيحة. ولكنه عندما فكر بالأمر جيداً، وجد أنها ربما كانت الفرصة التي يحلم بها لإحراج السلطات. فاللورد معروف؛ ورغم صغر سنه، فإنه عضو بارز في مجلس اللوردات. فلماذا لا يجرّب؟ وعلى كل حال، سيخرج في النتيجة رابحاً. فإما أن صديقه يرغم الندي على قبوله، وينشيء بذلك سابقة تهز كيان الرأي السائد حول تفوق البريطانيين، وإما أنهم سيجبرونهم على الرحيل، وعندئذ تحدث الفضيحة. وفي مثل هذه المرحلة من النضال من أجل الاستقلال، فإن هذا النوع من الفضائح يمكن أن يكون رابحاً.

وفي هذه الليلة المقمرة، كانت الرولز تنزلق في الممر الرئيسي بين أشجار النخيل ذات الجذوع الفضية، وبين البانيان[2] التي يزيد عمرها عن ثلاث مئة عام. وكانت الواجهة الطويلة لقصر شاتر منزيل مضاءه، كما أن القباب البرونزية المذهبة الثلاث، تتألق. وتعجب الليدي أشد الإعجاب، وتقول:

ــ كم هذا جميل!

وامتنع أمير عن أن يوضح لها أن هذه القباب في الماضي كانت من الذهب الخالص، وأن مواطنيها قد... ترى كيف نقول الكلمة بتهذيب؟... وأخيراً، سرقوها.

---

(٢) أشجار كبيرة تسمى «نين البنغال».

ووقفت السيارة عند مدخل النادي الفخم، حيث تقف حوالي عشرين سيارة. وهناك ستارة من الخضرة والأزهار تهبط حتى الأرض، وتشكل كُنّةً (أو طنفاً) لطيفة، معطّرة.

وأخذ اللورد بيد صديقه واتجه بعزم نحو المدخل، فإذا بالبواب يعترضهما.

ـــ معذرة أيها السر، ولكنّ من الممنوع...

وبكل تعال، نظر إليه اللورد، حتى بدون أن يتوقف.

ـــ هل تعرف مع من تتكلم؟ إنه لا شيء ممنوع عليّ!

وبحركة واحدة من يده، كنس اللورد القوانين، وهذا الحرثوم الذي يدعي أنه يريد ضمان احترامها.

وتفكر سلمى، وتقول في نفسها: «هذه بداية طيبة» وهذه أول مرة تجد فيها إنكليزياً محبّباً. وما من شيء يروقها بقدر هذا النوع من التحدّي. وتشعر أن الليدي غريس، بجانبها تتيبّس وتتصلّب: ويقترب الجمع من الأبهاء، وهناك مجموعة من خدم المطاعم والمقاهي، أقوى وأدعى إلى الخوف، من مجرّد بواب، لوحده.

وكانت قاعة الاستقبال الكبرى لشاتر منزيل، مزدانة، هذا المساء، بالورود. وكان على المصطبة الصغيرة أوركسترا تعزف بنعومة. وهناك خدم معمّمون يتسللون، حاملين صواني ثقيلة من الفضة، ملأى بزجاجات مختلفة الألوان. والطاولات في أكثرها مشغولة، وخلافاً للعادة، كان عدد النساء كبيراً. أما من الأحاديث، فلا تسمع إلا ضجّة صماء، أُخفتت بالسجاد السميك، وبالزينة الخشبية التي تغطي الجدران.

وتفكر سلمى: «يجب أن يكون هنالك عيد أو احتفال ما، ولا فرصة مناسبة أكثر من هذه أو أفضل. وغداً سيذاع الخبر في المدينة كلها». وها هي رعشة صغيرة تجتاز عنقها، ويدخل في روعها أنها تدخل حلبة.

وتوقف الناس عن الكلام، عند وصولهم. وبَدَتْ الموسيقى أقوى في إطار هذا الصمت. وتركزت الأنظار كلها عليهم. أما اللورد، فإنه يسأل عن الطاولة التي حجزها، وهو في أحسن أحواله. غير أن رئيس الخدم هناك، وهو إنكليزي من المدرسة القديمة، تقدّم نحوهم. ومرات عديدة فتح فاه دون أن يجرؤ على التلفظ بكلمة واحدة. فجاءه زميلان لمساعدته.

ــ إن طاولتك هي هنا، يا سر، بعيدة قليلاً عن الأوركسترا ولكن...

ويرد اللورد، بكل تعالٍ :

ــ ولكن ماذا؟ إن لكم هنا أساليب غريبة!

ــ سر، إن هذا مستحيل... هذا الرجل الذي يرافقك... فقواعد النادي لا تسمح بذلك...

ــ إنك بدأت تزعجني، يا غلام. فراجاه بادالبور هو ضيفي. فإذا لم تحترموه، فكأنكم لم تحترموني..فهل في نيتكم، مثلاً، أن تشتموني؟

وبدا رئيس الخدم مكتئباً. ومن دون أن يطيل النقاش، يذهب فيختفي.

ويجيل اللورد نظراته في الحاضرين، ساخراً، فلا يلقى نظرة: وكل واحد شغل نفسه بمحادثته.

ــ حسناً يا أمير، تعال نجلس. فالسيدتان ينبغي أن تكونا قد تعبتا.

وبعد لحظات، جاء خادم هندي لسؤالهم عما يطلبون. ذلك أنهم بعد التشاور فيما بينهم، قرروا إرسال الأصغر بينهم: وكان قلمه يرتجف بين أصابعه. وهو يتجنب أن ينظر إلى الراجاه. وحولهم كان الناس قد بدؤوا يغادرون طاولاتهم: بعضهم يتصنع الصمت الجليدي، وبعضهم الآخر يعرب عن استنكاره. ولكن أحداً لا يجرؤ على أن يجابه هذا الشاب السليط الذي يبدو ــ وما أعظم العار ــ وكأنه يستمتع متعة كبيرة، على حين أن زوجته التي احمرّ خداها، بقوة، تخفض عينيها، وتلتزم بهذا الوضع.

ولم يكن قد استقر بهم المقام خمس دقائق حتى اقترب رجل في غاية التميّز، وهو في السموكينغ السكري اللون.

ــ أظن أنني أمام اللورد ستيلتلتون، على ما أعتقد. مرحباً بكم في الشاتر منزيل. أنا جيمس بيلي، رئيس النادي.

ــ تشرفنا يا سيد بيلي. دعني أقدّم لك زوجتي الليدي غريس، وصديقي راجاه بادالبور وراني بادالبور.

فانحنى الرجل باحترام، أمام السيدات، وتجاهل الراجاه، عمداً.

ـــ إنه لشرف لنا أن نستقبلكم، ميلور، ونستقبل السيدتين. ولكن من المستحيل علينا أن نقبل هذا السيد في نادينا. ذلك أن هذا النادي لا يستقبل أبداً، أياً من السكان المحليين.

ولفظ الكلمة الأخيرة بوقاحة، جعلت سلمى تقفز من مكانها.

ـــ السكان المحليين. ولكنني أنا أيضاً من هؤلاء، بحكم زواجي من الراجاه. فهل يجب أن أفهم أنك تطردني أيضاً؟

فيعض المدير شفتيه:

ـــ لا، يا سيدة، إن في وسعك البقاء إذا أردت.

وقاطعه اللورد إدوار، وهو أهدأ ما يكون. قائلاً:

ـــ ياعزيزنا السيد بيلي. إعلم أننا باقون هنا. ما لم ترغمونا بالقوة على مغادرة المكان. ولكن تصوّر الفضيحة التي ستحدث من جرّاء ذلك.

ـــ إني لآسف جداً، ميلور، ولكنّ عليّ أن أضمن احترام القواعد المرعية هنا.

ويتجابه الرجلان بالنظرات، وما من واحد منهما مستعد للتنازل. لقد أصبحت القضية قضية شرف. أما الراجاه، فإنه يبدو كما لو أنه ليس شيئاً في هذا النقاش، وهو يتجرّع البراندي رشفة بعد رشفة. والعيون كلها متجهة نحو هذه الطاولة. وهناك في إحدى الزوايا نحو من عشرة خدم ينتظرون.

وهذه هي اللحظة التي تختارها الليدي غيس لكي تتدخل.

ـــ إدوار، إنني أشعر بالدوار... فالجو هنا حار جداً... فأرجوك، دعنا نخرج من هنا، وإلا فإنني أكاد أصاب بالإغماء. ويلقي اللورد نظرة على زوجته الشابة، وهو يكظم ما لديه من فقدان الصبر.

فتبدو فعلاً وكأنها على حافة الإغماء. وراودته لحظة فكرة رجاء سلمى أن تصحبها إلى استراحة النساء، ولكنه يعدل عن ذلك: «أي نذل أنا، فعزيزتي الغالية غير متعودة على مثل هذه المجابهات. وليس لي الحق أن آتي بها إلى هنا في شهر العسل. وأجعلها تتحمل كل هذه الرزايا».

وأسرع السيد بيلي، فقال:

ـــ هل يمكنني أن أساعدك؟

ـــ كلا، بل بلى، اطلب لي السيارة. وبهذا ردَّ اللورد عليه، حتى دون أن ينظر إليه.

ـــ أي جبان!

والآن وقد عادوا، فإن سلمى تطلق العنان لغضبها. وهي لا تدري ما هو الشيء الغالب عليها، أهو المرارة، أم الغثيان. ذلك أن مسيرة العودة تمت في جو من الصمت اللامريح. وأقسم اللورد أنه سيثير المشكلة في لندن. ولكن أحداً لم يجبه عن هذا ـــ فهم جميعاً يعرفون أن هذه الشكوى في غير مكانها، إذا هو لم ينس منذ زمن طويل، ما لم يكن بالنسبة إليه، إلا شبه حادث. وافترق الجمع على كلمة: طابت ليلتكم، على كونهم يعرفون أنها لن تطيب.

ويدور أمير في الغرفة، وأسنانه يصطك بعضها ببعض. فمنذ أن دخلا النادي، لم ينبس هو ببنت شفة. وتشعر سلمى أنه يكرههم جميعاً: أي صديقه الذي جرّه إلى هذه المغامرة وخانه لدى أول مبرر، وامرأته هو التي خانته أيضاً، دون أن تريد، بحكم هذه البشرة البيضاء التي جعلت لها حقاً في أن توجد في الناحية الأخرى من الحاجز.

وهي تتمنى أن تكلمه، وتقول له: إنه لا يمكن الرد على الاحتقار إلا باحتقار أشد. وهي لا تفهم، بعد كل هذه الإساءات أن يظل هو وأصدقاؤه من الأرستقراطية الهندية، يترددون على هؤلاء الإنكليز، وعقد عرى المودة بينهم. فمن أين جاء هذا التواضع الغريب، لدى رجال في مثل هذا الزهو بالنفس؟ أولا يرون أنهم لن يعودوا فيجدوا قوتهم إلا إذا هم اطّرحوا، لا البريطانيين وحدهم، بل كل منظومة القيم التي يدعي هؤلاء أنهم يريدون فرضها على الناس، كما لو أنها منظومة عالمية.

فتسكت. وهي تعرف أنه في هذه اللحظة، لا يحتملها إلا ساكتة. ولكن ربما حسبها غير مبالية؟ بحكم الإساءة التي تلقاها... فتقترب، وتلمس ذراعه، فيتخلص منها بعنف.

آه، لا، دعيني هادئاً.

هاتان العينان مفعمتان بالكراهية. كما لو أنها هي العدوة أو الند في مباراة سخيفة، يريد فيها كل واحد أن يبرهن على تميّزه، خوفاً من أن يسحق. فهي مجرمة، هي أيضاً، ومسؤولة عن هذه المهزلة التي بدءا يلعبانها منذ بداية زواجهما، كلّ على الآخر — فهي تقدّم عراقة المنشأ، وهو يقدّم الثروة — بسبب فقدان الثقة، إذ أنهما، لا هو، ولا هي، بقادرين على الاعتقاد، بأنه يُحَبُّ، لنفسه، لذاته. فهل طمح هو، مثلها، إلى شيء آخر؟ أو أن تسقط عنهما قشرتهما الخارجية، ويعود كل منهما إلى براءته الذاتية؟ فلقد حبسها في دورها كأميرة وامرأة جميلة، وأم مقبلة لأولاده. وهو لا يريد منها، شيئاً آخر، وبصورة خاصة لا يريد منها تفهماً قد يكسر الدرع الذي صنعه لنفسه. بل إن هذا الدرع، مما يجب عليه تعزيزه. والحادث الذي وقع هذا المساء، يبرهن لها على ذلك، إذ إن اعتقاده الساذج بوجود الصداقة، هو الذي جعل هذا الإذلال ممكناً.

وها هي سلمى الآن في سريرها الكبير، تبحث عن النوم. وكانت قد أوشكت أن تنام، عندما لحقها إليه أمير. أما أنفاسه ففيها رائحة الكحول. ومن دون أية كلمة، تراه يبدأ مداعبته لها، وتصعد يده الخرقاء على طول ساقي المرأة الشابة. فتتصلب، وهو يؤلمها، فتحاول استبعاده.

وكان هذا أكثر مما يجب لكي يتفجر غضبه. أوَهي تردّه عن نفسها؟ سترى إذن!

وأحاط يديها بيديه القاسيتين، ومدّدها على ظهرها، واخترقها بعنف، كما لو أنه يريد الانتقام منها. ثم استدار، وبلحظة نام.

وتندهش سلمى، وعيناها مفتوحتان جداً، من أنها لا تبكي. فمنذ أشهر، كانت بكت طيلة الليل في مثل هذه المناسبة. أفتكون قد يئست إلى هذه الدرجة، وصلُب عودها خلال ذلك؟ أم أنها فهمت هذه الليلة غضب أمير، واستوعبته؟

هذا المساء... فما من مرة من قبل كان يمثل هذه العدوانية. وما من مرة أراد عامداً أن يجرحها... وعندما تراه جميلاً إلى هذا الحد، تأخذ نفسها بالحلم، وتتخيل تلك الضمات الحلوة، اللامتناهية. وهو لا يعرف كيف يرضيها، ولكنه أثار حساسيتها إلى أبعد مما يجب. ففي كل مساء تأمل وتيأس. وإن رغبتها لمن القوة بحيث شملت كل أجزاء جسمها حتى في الساقين والركب والبطن.

ووحدها في الظلام، تمسك نفسها عن الصراخ.

ـ ١٠ ـ

وكانت الشمس عالية في السماء، عندما استيقظت سلمى . ولا شك أن أمير كان قد خرج منذ مدة طويلة . ولكنها غير راغبة في النهوض ، فهي تشعر بأنها متألمة جداً .

ويقرع الباب قرعاً خفيفاً .

ـــ هل أزعجك ؟

إنها زهراء التي تأتي ، كل صباح ، لتكون معها على الفطور . ولقد تعاطفت سلمى مع هذه البنيّة التي تهزها براءتها ، وتسلّيها . ولقد أصبح فطور الصباح ، بينهما ، كواحد من الطقوس التي لا تتخيلان بدء النهار بدونه .

وحينما كانت إحدى الخادمات تحمل صينية كبيرة ، مترعة بآنية الفضة والبورسلين الناعم ، كانت زهراء ، على مألوف عادتها ، تستقر على السرير .

وبدأت بقولها :

ـــ لو تعرفين أي حلم غريب حلمت . كنا نتنزه معاً ، ويدي في يدك . وفجأة تغيرتِ . فاكتسى ثوبك بالأحجار الكريمة ، وتألقت وأصبحت في درجة من الجمال بهرتني ، ولم أعد أستطيع أن أراك . وكنت أتعلق بيدك ، ولكنها صارت كقطعة من الجليد . وشعرت بأنك كنت تدفعينني عنك ، فانفجرت باكية . وعندئذ استيقظت . وتصوري أنني كنت أبكي .

وتبتسم سلمى، وتتمطى.

ـ أحقاً كنت جميلة جداً؟

فأمسكت زدراء بيديها وأخذت تقبّلها قبلات صغيرة. وقالت:

ـ أقل مما أنت في الحقيقة. أما الثانية، فكانت تلمع ككوكب ميت. أما أنت، فأنت النور، الحار، المذهّب. (وقالت وهي تعض على قطعةِ خبزٍ مغطاة بمربى البرتقال)، وأنت تعرفين. ولقد قلته مئة مرة، فقد كنت الأجمل.

وأخذت الاثنتان تضحكان. وكان هذا الإعجاب اللا مشروط، قد أصبح موضوعاً للمزاح. حتى إن أمير نفسه قال: إنه عندما يريد شيئاً من أخته، فيجب أن يتوسل إليها عن طريق زوجته.

وتنهّدت زهراء، وقالت:

ـ إنني جد سعيدة. ولقد تغيّرت حياتي تماماً منذ جئت أنت. وقبل ذلك كنت أشعر بالوحدة، ولم يكن لي من أفضي إليه بسريرة نفسي. وكان أخي قليل الحضور في البيت، أو أنه مرهق بالعمل فلا أريد أن أزيد عليه مشاكله.

وخلعت صندلها، وتمدّدت على السرير بالعرض، وأسندت رأسها، اللطيف، إلى القسم الأعلى من ردف سلمى. وبصورة آلية بدأت هذه تداعب الخصل السوداء، والجبين المحدّب الشبيه بجبين أمير. وأغمضت زهراء عينيها، وأخذت تهمهم همهمة خفيفة، تعبيراً عن اللذة، ورفعت نفسها قليلاً، ووضعت رأسها في القسم الأجوف من الردف الحار. فارتعشت سلمى، وعرتها رجفة قلبتها، واستبدت بها رغبة بمسك هذا الرأس الحريري، والضغط عليه بقوة فوق بطنها.

وفجأة، تركت هذا كله، لتقول:

ـ تكفينا الآن هذه «الطفوليات». فدعيني الآن، لأن عليّ أن ألبس لكي أذهب إلى بيت الراني شاهينا.

فانتصبت زهرا مضطربة. فما من مرة كلمتها سلمى بلهجة قاسية كهذه. أفتكون قد قالت لها شيئاً أثارها؟

ووقفت سلمى أمام المرآة. وكانت وحيدة. فأخذت رأسها بيديها، وكانت تتنفس بصعوبة،

لأنها ما تزال طائشة من هذه الدوخة التي كادت منذ قليل تغمرها . وكان عليها أن تجمع كل مصادر القوة في إرادتها كيلا تستسلم إليها . أما الآن فإن الجسد ينتقم : وجاءها مغصٌ ، فيبّس لها بطنها ، وصلّبه . وكان من العنف بحيث جعلها تبكي ، وحاولت أن تسترد أنفاسها شيئاً فشيئاً ، وأن تتحكم في الألم . وقليلاً فقليلاً تنزاح قبضة المغص ، وتتركها بلا دم . وعندما رفعت رأسها ، عكست لها المرآة صورة واحدة مجهولة ، ذات وجه استولت عليه دوائر زرقاء ، حول العيون وعلى الفم ثنيات مرة .

وعلى مدخل قصر نامبور . كان هنالك نمران يستقبلان سلمى : عيونهما زجاجية ، وسوفهما مقروض بالعث بعض الشيء . ومع ذلك فإن عليهما سيماء الزهو . وجاءت السيدة المرافقة ، فقدمت اعتذارها : ذلك أن الراني صاحبة ، ليست مستعدة أتم الاستعداد . فهل تستطيع صاحبة السموّ أن تنتظر بضع دقائق في البهو . وهم سيقدّمون لها بعض المرطبات . فتقبل سلمى ، وهي سعيدة بأن تبقى وحدها ، بعض اللحظات .

لكن الصمت في هذه القاعة الكبيرة ، ذات النوافذ المغطاة بستائر ثقيلة ، مريح للأعصاب بالقياس إلى ما يشبه جلبة قفص الدجاج ، السائدة في قصر بادالبور . وتلاحظ سلمى فيه بعض الحزن الهادىء الذي يعيد إليها الاطمئنان . وتأتي خادمتان ومعهما فطور يكفي لاثني عشر إنساناً ، يكادون يموتون من الجوع ، ثم تغيبان بصورة لطيفة . وتندهش سلمى : فهذه أول مرة ، في الهند ، تقدّم لها هدية : هي الفرصة التي تترك فيها لوحدها . لا بدّ أن ذلك تم بحكم أن سيدة البيت نصف إنكليزية ، وعرفت كيف تفرض احترام الحياة الخاصة ، مما لا مجال لتخيّله في بيت هندي .

وعندما كانت تتذوق الشاي المعطّر ، بجرعات صغيرة ، بدا لها أنها تسمع شيئاً من الحركة وراء الستار الخشبي في آخر القاعة . فتصيخُ السمع : ولكن لا شيء . لا بدّ أنها أخطأت السمع . ومع ذلك ... إنها تحسّ حضوراً ، ويمكن أن تقسم أنهم يتجسّسون عليها . ولكن لندع هذا ، وسخرت من نفسها . ربما كان لهذا البهو سمة إنكليزية ، ولكن نحن ، رغم ذلك ، في الهند .

وقد يكفيها أن تقول : من هناك ، لكي تهرب المتجسّسة . ولكن هذا سيكون غير لائق في بيت صديق . وأصلاً ما الفرق في أن تراقب من وراء ستار ، أو أن تراقب والرقيبة قائمة بين قدميها ؟ يجب التسليم بذلك : ففي هذا البلد لا مجال للهرب من الفضول .

لكن ذلك الضجيج أصبح أقوى من قبل ، كما لو أن أصحاب العلاقة ، لم يعد يعنيهم أن

يتخفّوا. ومن المؤكد أنه يصدر عن حفيف الحرير، من غاراراة ما. وقماشته ثقيلة تشير إلى أن صاحبته من نوع متميّز، لا من التفتا الخفيفة التي تلبسها الخادمات. وسلمى تنتظر، محتارة. وفجأة تظهر يد نحيلة جداً، فتتعلق بالستارة، وهي بيضاء وراء الحلك الأسود. ومن شدة الإغراء لم تعد سلمى تنزع عينيها عن هذه الراحة الساكنة، التي لا يبدو أن وراءها يداً تدعمها.

— اذهبي!

ودوى الصوت، شاكياً، كأنه صوت امرأة عجوز. فترتعد سلمى. وهي لا تؤمن بالأشباح. ولكن هذا الحضور اللامرئي والمعادي، وجو هذا الصالون الغريب... فالتصقت بمقعدها أكثر وأكثر، وثبتت نظرها على الزاوية المظلمة التي جاء منها الصوت، وهذه اليد التي تبدو لها وكأنها يد شبح من الأشباح.

— اهربي، اهربي بسرعة!

وها هو شخص يظهر، وعليه شعر أبيض كالثلج يتموج على الكتفين.

وكانت هذه المرأة تتقدّم بصعوبة كما لو أن الثوب المصنوع من البروكار الثقيل كان أكثر مما يتحمله هذا الجسد المرهق. وكانت العينان ذات اللون الشبيه بزهر الدفلى، تنظر إلى سلمى بإلحاح، وكانت الشفاه ترتجف.

— اهربي يا بنيّتي... فإذا تأخرت فسيكون ذلك بعد فوات الأوان.

واضطربت النظرة، كما لو أنها غُلّفَت بالسحاب. وببطء بدأت ترجّح رأسها من طرف إلى آخر.

وأعادت قولها:

— سيكون ذلك متأخراً جداً، جدّ متأخر

— آه، أرى أن الماما جاءت تزورك!

ودخلت الراني شاهينا. فجاء صوتها الصافي، ووجهها المرح ينتزعان سلمى من الإغراء المرضي الذي تركت نفسها تنجر إليه. ومن جديد تلوح الشمس من النوافذ.

وأمسكت الراني ، بحب ، يـدَ السيدة العجوز .

ـــ هيا ، يا ماما ، أنت تعبة . ويجب أن ترتاحي .

وترن الجرس . فتحضر امرأة .

ـــ اصحبي البيجوم صاحبة إلى جناحها ، ولا تتركيها وحدها ، ولقد قلت لك ذلك مئة مرة .

ثم عادت إلى سلمى ، وقالت لها :

ـــ إنني آسفة . فأنت شاحبة اللون . فماذا قالت لك أمي لكي تخيفك بهذه الصورة ؟ إنها لم تعد تملك عقلها ، كما تعرفين .

وتهمس سلمى ، وهي تفكر ، بالقول :

ـــ أتعتقدين ذلك ؟ إنها أوصتني بالهروب من هذا البلد قبل أن يفوت الوقت .

ـــ مسكينة أمي . فلقد ذكّـرتِـها بشبابها ، عندما وصلت إلى الهند ، كغريبة . ولقد أرادت أن تحـذّرك حتى لا تقعي فيما وقعت هي فيه . ولكن الوضع مختلف جداً . فقد كان ذلك منذ أربعين سنة . وتغـيَّـرت العادات بعد ذلك ، لا سيما وأنك نصف شرقية ، وتفهمين ثقافتنا .

ويبدو أن الراني شاهينا تقوم بجهد لمتابعة حديثها .

ـــ الماما كانت شابة إنكليزية ، بسيطة جداً ، ومن البورجوازية اللندية . وكانت قد وقعت في غرام أبي الذي كان يتابع دراسته في الجامعة . وكان جميلاً ، غنياً ، ساحراً . فتزوجا . وبعد سنة من ذلك ، عاد بها إلى لوكنوف ، وإلى أسرة لم تقبلها قط ، من حيث أنها رأت أن من واجب الابن الأكبر أن يتزوج هندية .

وأخال أنها في البداية ، ظنت أنها بشدة اللطف ، والطاعة ، يمكنها أن تقضي على عواطفهم العدائية . ولكن سرعان ما أدركت أن ذلك مستحيل . وأنها ستعتبر دوماً تلك الدخيلة . فلِـمَ بقيت ؟ ولِـمَ قَـبـلت حياة السجن ، التي كانت أقسى منها الآن ؟ ألأنها كانت تحب أبي ؟ كان هذا صحيحاً في بداية الأمر . أما بعد ذلك ، فسرعان ما زهد بها ، لقد بقيت بسببنا نحن ، أولادها . وأبي الذي كان قلما يراها ، كان يثقلها بالحمل كل عام ، كما لو أنه كان يدرك أن هذه هي الوسيلة

الوحيدة لبقائها واستبقائها . ولقد ولدت سبع عشرة مرة . ولسنا الآن غير ستة ، استطاعوا أن يعيشوا .

وبدا صوت الراني شاهينا كما لو أنه يتحطم .

ــ والأسوأ من ذلك ، أنهم كانوا يأخذون منها الأولاد ، ساعة ولادتهم . وكانت جدتي تأبى أن تربي واحدةٌ إنكليزية ، أحفادها . وكانوا يضعوننا لدى نساء يخدمن في البيت ، ويرضعننا . ولم يكن لدينا الحق في أن نراها ، إلا مرة واحدة في الشهر . وأنا أتذكر كم كنت أبكي ، وأنا طفلة ، عندما كانوا يفصلونني عنها بعد زيارة تدوم عدة ساعات . كنت أتخبط ، وأعوي ، وأشهق بكاء ... وكانت هي ، ترجوني ، وعيونها ملأى بالدمع ، أن أبقى عاقلة .

وكانت السيدتان تنظر كل منهما إلى الأخرى بصمت ، في حالة تأثر شديد . ولكن هل تطوّرت الدنيا عن ذي قبل ؟ إن سلمى لا تعتقد ذلك . ولكنها لن تدع نفسها تنقاد بهذه الصورة . وستعرف كيف ترغم الآخرين على احترامها .

واقترحت الراني شاهينا نزهة تقومان بها على سبيل التسلية ، وتغيير الحديث ، إلى هازراطانغ المركز الأنيق في لوكنوف ، لكي تستعرضا واجهات المخازن أيام عيد الميلاد .

ــ إن ما نراه جميل جداً . فالإنكليز يبذلون الكثير من الجهد ، لكي يخلقوا الجو الذي يعرفونه في بلادهم . ولا ينقص إلا الثلج .

ولقد أضيء هازراطانغ بأكاليل من النور ، فمن رصيف إلى آخر تتصالب هذه الأكاليل وتنشيء قبة ملونة وهناك أشجار نخيل قصيرة تتألق كأشجار عيد الميلاد في أحواض من الخشب .

وسلمى لا تأتي لزيارة هذا الحي ، إلا نادراً على مثال النساء الهنديات . وهو حي يقصده البريطانيون حصراً ، في أغلب الأحيان . وأكثر المتاجر ، والمطاعم ، ودور السينما تعود إليهم . والخدم ، إن لم يكونوا من الإنكليز فهم إنكليز ــ هنود ، أو هنود إنكليز .

وفي هذه المدينة المختلفة بأعيادها ، يلاحظ الإنسان حركة شديدة . إذ تقف السيارات الطويلة أمام المخازن ، وبعض العربات أيضاً . ولكن أحداً لا يرى هودجاً ، ولا دولي ، أي هذا الهودج المتواضع الذي له حاملان ، ولا طنابر ملونة يجـرّها حصان ، تسمى هنا باسم التونكا . فوسائل النقل هذه ، أي التقليدية والشعبية ، تبدو هنا في غير مكانها .

وتقترح راني شاهينا زيارة أخرى ، فتقول :

ــ ما رأيك في أن نذهب إلى محل الطريق ابيضاء White Way . أريد أن أشتري شرائط ودانتيلات إذ سنجد كل البضائع المستوردة ، بدءً من القبعات التي تملأ هذا العام إلى المواد الضرورية لتحضير البودينغ .

وتقف بهما العربة تماماً أمام المدخل الرئيسي . وتخلصت سلمى من برقعها ، ذاك البرقع الذي لم تضعه قط إلا أثناء الخروج من قصر نامبور . فهنا أوروبا ، بالنسبة إليها ، وتشعر أنها في جو الحرية . أما رفيقتها فقد أسدلت حجابها على وجهها بكل عناية .

وعندما دخلتا الهول ، اتجهت الأنظار كلها إليهما . ذلك أنه إذا كان الرجال يأتين طوعاً إلى معبد الأناقة هذا ، لكي يشتروا قمصاناً من عند هارولد ، وطقوماً من عند بوب وبرادلي ، أو أحذية من عند لوب Loeb ، فإن من النادر أن تغامر النساء بمثل ذلك .

والواقع أن العين لا ترى هناك إلا هنديتين أو ثلاثاً ، في ثيابهن الوطنية « الساري » . وهنّ المسلمات الوحيدات . وتحب سلمى أن تتأخر في جولتها هذه ، لترى التايورات ، وفساتين السهرة ، وحتى فرو الأعناق (الذي لا يوضع هنا) في رأيها ــ ولو أن هذا ليس رأي كل السيدات اللواتي لا يتوانين عن عرض دثار الثعالب ، أو مانطو الزيبلين . لكن الراني لا تشعر بالراحة فيما يبدو . فتأخذ بيد سلمى وتجرّها إلى جناح البياضات ، الموجود في آخر المخزن .

وتلاحظ وراء الكونتوار ثلاث بائعات ، شابات ، لطيفات في روبهن الحريري الأسود المحلّى بأربطة عنق بيضاء . وعندما يلاحظ الإنسان لون بشرتهن الشاحب ، لا سيما إذا أضاءه التزيين الخارجي ، ولهجتهن في الكلام ، ` . أنهن إنكليزيات ، ولكن عيون الظبية ، والشعر الأسود ، يكشفان عن اختلاط الدماء .

وكان هؤلاء قد أنهين خدمة الزبائن ، فبدأن يتحادثن ، متصنعات أنهن لا يرين هاتين السيدتين اللتين تنتظران .

واعترضتهن الراني شاهينا قائلة :

ــ يا أوانس

فتتقدم أصغرهن عمراً ، متململة ، وتقول :

ـــ ماذا عندكن؟ ولكن بلهجة متعالية، شادة على لهجتها لتكون في أصفى أسلوب أوكسوني.

وتنظر سلمى إليها مذهولة. ترى ماذا تظن نفسها؟ ولكنها تمسك عن التدخل: فعلى الراني أن تردها إلى حقيقتها. ولكن يبدو أن هذه الأخيرة لم تلاحظ شيئاً.

ـــ كنت أريد أن أرى آخر ما جاءكم من الشرائط والدانتيلات.

ـــ من أي الألوان؟

ـــ من اللون الزهري والسكري. فهل يمكنك أن ترينا ما عندك.

فترفع البائعة عينيها إلى السماء وتقول:

ـــ إن كنتما تظنان أنه ليس لديّ ما أعمله غير هذا، فـ... فقولا لي اللون الدقيق. ولا يخطر ببالكما أنه لا وجود في المتجر لغيركما.

وقفزت سلمى.

ـــ إن هذا يكفي، فاعتذري فوراً من الراني!

ـــ ولكن....

ـــ فوراً، أو أنني أذهب مباشرة إلى مديرك، وأتعهد لك بأنك ستسرّحين فوراً.

فتتمتم الفتاة كلماتها وتقول:

ـــ إنني آسفة.

وتتابع سلمى حديثها وهي تتوهج غضباً، فتقول:

ـــ والآن أرينا كل ما لديك من دانتيلات، وكل الأشرطة، من كل الألوان! ومع البسمة، إن أردت. فمن تظنين أنك هو، حتى تتصرفي بهذه الصورة مع نساء بلدك؟ فأنت إنكليزية ـــ هندية، أليس كذلك؟

وبدت البائعة مكتئبة. فملاحظة سلمى ليست بريئة. ففي الهند يعتبر الدم ـــ الخليط، علامة شبهة. ذلك أن الذين يولدون من هذا النوع، يولدون من زواج عابر بين العاهرات والجنود

الإنكليز . ولهذا فهم محتقرون في البلد ، وأذلاء تجاه الإنكليز الشديدي التعاظم على الهنود ، فيستخدمهم الأولون ، ويكرههم الهنود لأنهم يتعالون عليهم ، ويسمونهم « بأشباه السود » .

ولامت الراني شاهينا ، سلمى على قسوتها ، عندما خرجتا من المخزن ، وقالت :

ـــ هذه المسكينة الصغيرة ! إنه لم يكن لك أن تكوني قاسية معها إلى هذه الدرجة . فهؤلاء « الإنكليز ـــ الهنود » يعيشون في وضع صعب ، ويقولون عن أنفسهم : إنهم إنكليز من الهند . وعندما يتكلمن عن أصلهن ، ويقلن « عندنا » فهنّ يردن أن يقلن : إنكلترا ! حيث لا مجال ، دات يوم ، لأن يدهبن إليها . وهنّ لا يفهمن أنهن لن يقبلن أبداً من قبل الإنكليز الذين يفخرون « ببياض » ألوانهم . إنهن أجدر بالرثاء منهن باللوم .

وتهز سلمى رأسها . لا شك أنها مخطئة ، ولكنها لا تشعر بأي عطف على أولئك الذين يتنكرون لأصولهم . هي تتساءل عما إذا كان فهم الراني شاهينا لا ينشأ عن أنها هي نفسها نصف إنكليزية ، لا « إنكليزية ـــ هندية » بطبيعة الحال ، ذلك أن هذا النعت مقصور على فئة محتقرة . ذلك أن بعض الزيجات التي تمت بين فئة من الأرستقراطيين الهنود وبين بعض الإنكليزيات ، المنتسبات إلى أسر طيبة ، زيجات ينظر إليها نظرة حسنة ، على العكس من تلك . وهذه المرأة الشابة هي البرهان على ذلك : فقد نشأت من متل هذا النوع من الزواج . واختيرت لكي تكون زوجة لراجاه نامبور . ولكن في الحقيقة ، كيف تتحمله ؟

ـــ أرجو أن تسامحيني ، إذا كنت متطفلة بعض الشيء ، ولكنك تقولين دوماً : « هؤلاء الإنكليز هم كذا ... وهؤلاء الإنكليز هم كذاك ... ولكن ألا تشعرين أنت نفسك بأنك إنكليزية إلى حد ما ؟

ووقفت الراني . ونظرت إلى سلمى ببسمة حزينة ، وقالت :

ـــ لا أنت ولا أنا سنشعر بأننا ننتسب حقاً إلى شيء ما . إن هذا عذاب دائم لا نستطيع إلا أن نحاول أن نجعل منه ثروة وإغناءً . إذا كنا نملك القوة على ذلك !

وكان سائق العربة ينتظرهما على جانبها . فتتهيأ الراني للصعود .

وتتوسل إليها سلمى ، قائلة :

ـــ لنمش قليلاً ، فأنا بحاجة إلى التنفس .

ـــ أتمشين في الطريق؟ أولا تفضلين أن نمضي إلى حديقة (الريزيدانس)[1]. سيكون ذلك أهدأ بالنسبة لنا.

ولكن كيف تشرح أن ما هي راغبة فيه هو الجمهور. ذو الوجوه المختلفة، والغبار، والبشاعة؛ حتى ولو كان عليها أن تزاحم على طريقها ـــ وماذا يهم؟ فهي تختنق في الجو المحمي الذي تحبس فيه، وهي بحاجة إلى أن تعود فتغوص في الحقيقة. وهي بشيء من الانقباض في القلب، تتذكر بيروت، والحرية التي كانت تتمتع بها. وفي ذلك الحين، لم تكن تتخيّل قط أن مجرَّد النزهة في الشارع، يصبح بالنسبة إليها مغامرة.

وعلى الرغم من احتجاجات المربيتين اللتين كانتا تصحبهما، واللتين كانتا تصلحان وضع الحجاب على شعر سلمى، ذلك الحجاب الذي يأبى إلا أن ينزلق، فهما ستمشيان بعض الخطوات. وفي كل لحظة، كانتا عرضة لنداء الباعة الصغار الذين يملؤون الرصيف، ويعرضون السكاكر، ودقيق البخور، وأكاليل الياسمين المعطر، غير أنهما كانتا تتعرضان كذلك لجماعات من المتسولين المتضورين جوعاً ـــ أكثرهم من النساء اللواتي يصحبن أطفالهن. وتعجب سلمى من أنها تراهن على درجة محترمة من النظافة، مع شيء من الشعور بالكرامة، غير مألوف، لدى هؤلاء الذين يعيشون من الصدقات العامة.

وتشرح لها الراني شاهينا الأمر فتقول:

ـــ إن هؤلاء فلاحات من القرى المجاورة. وكانت المجاعة فظيعة هذا العام: وبعد جفاف طويل طويل، جاءت أمطار غزيرة سبّبت فيضانات رهيبة. وتلك المزروعات التي لم تكن قد احترقت، تلفت وهي واقفة. وهؤلاء الناس هم فقراء أكثر مما يجب، لادخار بعض القوت، من سنة إلى أخرى. وعندما تكون السنة خصبة، فإنهم يعيشون عيشة الكفاف. وعندما تكون السنة جافة، فإن أملهم الوحيد بالحياة، هو أن يأتوا إلى المدينة يطلبوا الصدقات.

وعندئذ تشير إلى مربيتها، بأن توزّع المال الذي بقي من المشتريات على هؤلاء المتسولين.

---

(١) كانت الريزيداس هذه الحصن القديم للجيش الإنكليزي. وقد هُدم عام ١٨٥٧ عندما شبّت ثورة السيباي (أي ثورة بعض عناصر الجيش الإنكليزي في الهند). وهم هنود طبعاً.

فتسرع سلمى إلى تقليدها، وهي خجلة من ثيابها الفخمة المطرزة بالذهب. ولما شعرت النسوة بما لديها من الشفقة، تزاحمن حول هذه السيدة البيضاء، ودفعن نحوها أولادهن. بل إن واحدة منهن أبت الدراهم، وهي شابة. ولا بد أنها كانت حسناء، ولكن الإرهاق، والحرمان خطّا في وجهها أخاديد عميقة.

ونظرت إلى سلمى، نظرة بائسة، ووضعت في يدها يد طفلتها. وسألت سلمى:

ـــ ولكن لماذا لا تأخذ الدراهم؟ وماذا تريد مني؟

ـــ إنها تريد أن تأخذي ابنتها، لكي تتغذى. ويعتنى بها، وأن يكون فوقها سقف. وفي الماضي، عندما كانت تحدث المجاعات، كانت الأسر الغنية تحصل على أطفال هؤلاء، مقابل مبلغ صغير يُدفع إلى الأبوين، ثم يعلّمون القيام بمختلف الحاجات المنزلية. وكانوا بصورة عامة، يعاملون معاملة حسنة، ولكنهم ليسوا أحراراً في ترك المنازل التي هم فيها. وفيما عدا بعض الاستثناءات، فإن هؤلاء قلّما يفكرون بمغادرتها، لأنهم أصبحوا جزءاً منها.

«ولكن الإنكليز، منذ بضع عشرات السنين، منعوا هذه العادة، التي يقولون إنها عبودية متنكرة، وربما كان ذلك صحيحاً. وعلى كل حال فإن هؤلاء النساء لا يفهمن لماذا نأبى ما أصبح تقليداً، وربما حقاً، من وجهة نظرهن».

وحاولت بصوتها الناعم، ولهجتها الحازمة أن تشرح لهن ذلك، باللغة الأردية جزئياً، وبلغتهن في الجزء الآخر. ولقد سمعت سلمى هذه المرأة تلفظ كلمة الإنجريزي (الإنكليزي) عدة مرات. ورأت أن الوجوه حولها تنغلق عليها.

ـــ لنمض فوراً، وإلا فإننا لن نستطيع ذلك أبداً، فسَيتعلقن بنا ويشعرن بأنك الحلقة الضعيفة.

فتصعدان إلى العربة، في الحين الذي تقوم فيه المربيتان بإغلاق الأبواب. وصارت هؤلاء النسوة تنظر بحزن إلى رحيل هاتين السيدتين، بعد أن اعتقدن للحظةٍ ما، أنهما قادرتان على انتزاع أبنائهن من الموت.

وعندما عادت سلمى إلى بيتها، حبست نفسها في غرفتها. فهي بحاجة إلى أن تبقى وحدها. إذ أنها لا تستطيع احتمال وأوأة نساء القصر اللواتي يقضين وقتهن، في تذوق الحلوى. إنها

تكرههن. وتكره نفسها. وماذا تفعل أكثر منهن؟ إنها بائسة ــ وأية مشكلة! فعلى بابها، نساء وأطفال يموتون من الجوع...

وقال أمير:

ــ إن الإنسان يتعوّد...

أبداً!. وليجعلها الله لا تنسى حزنها على هذا الشقاء، وأن لا تنسى نظرات هؤلاء الفلاحات، وهي نظرات ملأى بالأمل، أولاً، ثم باللوم عندما أغلقت أبواب العربة. وحتى اللوم لم يكن قائماً، بل كان البديل هو الاستسلام ــ أي الاتهام الأقسى والأعنف من الشتيمة أو التمرد. وهو تمرد ليس لهن عليه القدرة، ولا تخطر ببالهن فكرته. ترى هل يعرفن أن لهن ــ كغيرهن ــ ا لحق في الحياة؟

وفي استامبول، رأت سلمى، خلال طفولتها، الشقاء، وفي درجة من القسوة، مثل التي تراها في الهند. ولكن هذا الشقاء كان بسبب الحرب التي كانت منذ سنين تعصف بالبلاد. كان ذلك «وضعاً استثنائياً» يناضلون ضدّه، ويعرفون أنهم سيتغلبون عليه.

أما هنا، ففي كل يوم، يموت آلاف الأطفال من الجوع، وهذا واقع مقبول، متوقّع، داخل في عادات الناس. والعكس هو الذي يستغربه الناس. وتتساءل سلمى: من يعرف؟ ربما أن الأغنياء تقوى شهيتهم لأنهم يعلمون أن الطعام امتياز، وفرط السِمن علامة على الوضع الاجتماعي؟ أو يكون هنالك لذة للأغنياء بالغنى، لو لم يكن هنالك فقراء يذكرونك في كل لحظة، بأنك من المحظوظين؟

ويُقرع الباب.

ــ راني صاحبة، لدينا متسولة مع ثلاثة أطفال. وهي تلح علينا لكي تقابليها. وأجبناها بأن هذا مستحيل. ولكنها تقول: إنها تعرفك وتأبى أن تتركنا.

ــ أدخليها.

فإذا بها أمام الفلاحة التي رأتها منذ قليل، تلك التي رمت بابنتها بين ذراعي سلمى. ولما كانت خائفة، فقد وقفت على عتبة الغرفة. فتبتسم لها سلمى، كأنها سعيدة بمقدمها. وسترمّم

ما كان قد بدا لهذه المرأة ، وكأنه اللامبالاة ، أو قسوة القلب . وستأخذ هذه البنت الرائعة ، وستعلّمها صور أداء الحاجات الخاصة بها ، وستكون لها وحدها . ولن يأبى أمير ذلك عليها .

وفهمت الفلاحة . وبدأت تبكي من الفرح . فقد أُنقذت ابنتها .

وأعلم الراجاه بالأمر . فجاء مسرعاً . وبكلمة شرحت له سلمى الموضوع . وقالت :

ــ إني أعرف أننا أمام مثل هذه المصيبة لا نستطيع أن نفعل الكثير . ولكن لنأخذ هذه الطفلة على الأقل . فواحدة بزيادة ، لا يشعر بها أحد في هذا القصر .

ويهز أمير رأسه ، وعليه سيماء الضجر .

ــ إني آسف . فهذا مستحيل . لأن القانون الإنكليزي يحرِّمه وسينقل الخبر إلى الإنكليز : فأنا غير واثق من جماعة القصر كلهم . وليس الذي يهمني هو القانون ، بل النتائج السياسية التي ستترتب عليه في اللحظة التي يحاول فيها كل واحد تسقط سيئات الأمراء . وتخيّلي ما يمكن أن يفعله حزب المؤتمر ، إذا علم بأني أستخدم أطفال الناس كعبيد . إن الإنكليز سيرغمون على العسف بنا ، حتى لا يتهموا بالتحيز للأرستقراطية على حساب الشعب . وسيرى قسم من الرأي العام البريطاني أن هذا وحده يكفي للبرهان على أننا لسنا أهلاً للاستقلال . لا ، لا ، حقاً ، فأنا أريد أن أسُرَّ قلبك بالاستجابة لطلبك ، ولكن الموقف ، حالياً ، حرج جداً .

ويشير إلى الفلاحة ، ويأخذ من جيبه قطعة ذهبية من النقد . أما سلمى التي غشيها الاضطراب ، فإنها لن تنظر إليهما وهما تغادران المكان .

وبعد عدة أسابيع ، وعندما كانت سلمى ، ومعها المربية ، تشتري حاجاتها من سوق أمينا آباد ، جاءتها متسولة عجوز تدفع أمامها بنيّة تلبس كيساً من القنب ، تخرج منه يدان مقطوعتان . وترتجف سلمى وتقول : « هذه الطفلة المسكينة » ، وتشير إلى المربية بأن تكون أكرم من العادة . ولكن البنيّة لا تترك لها المجال ، وتنقض على سلمى ، صارخة صرخات صغيرة غير مفهومة ؛ أما فمها المفتوح فيُلاحظ فيه لسان مقطوع . فتتراجع سلمى قليلاً . وقد أخافها الألم والكره اللذان يصدران عن العينين القاتمتين ، ولكنها تتماسك مباشرة وتقول : « كم أنا جبانة . إذ يبدو أن هذه الطفلة تقول لي شيئاً » . وتبذل بعض الجهد ، وتنظر إلى الوجه الصغير . فبدا لها أنها قد رأته سابقاً . ولكن أين ؟

وفجأة ترى أنها مرغمة على إخفاء استغرابها. فتستبعد بيديها الاثنتين، ذلك الشعر الأشعث، وترفعه عن الجبين، وتقف يملؤها الرعب: إنها هي، هذه البنيّة الصغيرة التي لم تستطع في ذلك اليوم أن تؤويها عندها.

ـــ ترى ماذا جرى؟ وأين الأم؟ هذا ما حاولت أن تستوضحه من الطفلة التي كانت تحملق فيها.

والتفتت إلى المرأة العجوز، وأخذتها من كتفها، وهزتها قائلة:

من أنتِ؟ وماذا حدث لهذه الطفلة؟

وفجأة دفعتها المتسولة، وأخذت منها البنت التي كانت تتخبط، واختفتا معاً بين الجمهور. ولا جدوى هنا من الإلحاح، فإنها لن تستطيع العثور عليها ثانية. وليس من أمل ممكن إلا عن طريق الشرطة.

وكان مركز الشرطة يجاور السوق. وكان العريف الهندي الذي يؤمن المناوبة، يتأمل بفضول هذه المرأة البيضاء التي تلبس لباس الهنديات، ولكنه لا يفهم سبب اضطراب المرأة التي كانت تكلمه.

ـــ لئن فهمت جيداً، يا ميم صاحب[٢]، فإن الطفل من أفراد أسرتك؟

ـــ لا، ولكن...

وإذن فلماذا أنت في هذه الحال؟ وأين هي المشكلة. لئن كنت تهتمين بكل بائسي هذه البلاد، فلا يمكنك العيش أبداً.

وتقاطعه سلمى المنزعجة، وتقول:

ـــ أنا لا أطلب رأيك. ولكني أطلب أن تقوم بواجبك، أي أن تأخذ بعض رجالك، وتفتش السوق.

---

(٢) ميم صاحب. تسمية تطلق على النساء البيض. وهو تحريف لكلمة، مدام صاحب، مدام السيد.

ويهز الشرطي رأسه ويقول :

ــ حسناً ، سنحاول .

ولكن البنيّة لم يُعثر لها على أثر .

ويعلق أمير على ما حدث ، بعد أن أطلعته عليه زوجته .

ــ كان ذلك مما يجب أن يتوقعه الإنسان . فهؤلاء المتسولون هم أشخاص محترفون . وهم ينشئون شبكة حسنة التنظيم . والشرطة تتلقى إتاوة منتظمة لكي تتركهم وشأنهم ، وليس لها أية رغبة في أن تجلب لنفسها المشاكل .

ــ ولكن ...

وخشيت سلمى أن تطرح السؤال ... ولكن كان يجب أن تعرف .

ــ ماذا يمكن أن يكون قد حدث لهذه البنيّة ؟ أهو حادث مثلاً ؟

وينظر الراجاه بشفقة إلى امرأته الشابة .

ــ لماذا تسألينني عن ذلك ؟ لقد حزرت ... فهنالك الكثير الكثير من المتسولين في الهند . ولكن يداً واحدة ممدودة لا تضمن ما يكفي من الموارد . وهكذا فإن بعضهم يشتري أطفالاً من أهلهم ، ليحتفظوا هم بهم . ومن أجل أن يستثيروا الشفقة ، يشوهونهم (فيقطعون أيديهم أو أرجلهم ، أو يعمونهم . الخ ....) إن هذه حادثة كثر أمثالها منذ منع الإنكليز العبودية .

واصفرّ لون سلمى اصفراراً كبيراً ، وأمسكت بذراع زوجها .

ــ أمير يجب أن نفعل شيئاً .

وأظلمت عيناه السوداوان أكثر فأكثر . إذ إن أمير كان مرهقاً حتى الأعماق .

ــ ولكن ماذا نفعل ، أنعود فنسمح بالعبودية ؟ إنك تتخيلين الفضيحة التي سنكون ضحاياها « في العالم المتمدن » . فالناس يعيشون على أفكار محنطة ، مصنوعة سلفاً . ولا يريدون أن

يروا الحقيقة . والشيء المهم بالنسبة للدولة ، هو أن الهند تبدو للعالم الخارجي بوجه مناسب .

« وصدقيني ، إن اللعبة مزورة ، ولا مجال لعمل شيء » .

ــ ١١ ــ

ـــ هل أُصيب الإنكليز ليلة البارحة ، بالحـمّـى ؟

هكذا طرحت السيدة الوصيفة السؤال على سلمى ، وعليها سيماء القلق : فنظرت إليها سلمى مذهولة وقالت لنفسها : « وماذا تريد مني هذه المجنونة ؟ وكيف أعرف أنا ، أن الإنكليز أصيبوا بالحـمّـى ؟ إن هذا ، رغم كل شيء ، مبالغة ، ولعل من الأفضل أن تسألني عن أخبار صحتي ! » .

وكانت سلمى ، منذ البارحة ، مريضة . ذلك أن هيجانات الأسابيع الأخيرة قد نالت من صحتها . فهي تسبح في العرق ، وكأن رأسها ، على وشك الانفجار .

وعادت الوصيفة إلى الكلام ، فقالت :

ـــ إن للإنكليز دوماً خدوداً حمراً . فلقد سمعتهم يسعلون .

وانفجرت سلمى ، تقول :

ـــ آه ، ولكن دعيني مرتاحة من هؤلاء الإنكليز ! وماذا يهمني من هذا الأمر ؟

فانفجرت زهراء الجالسة بجانبها ، ضاحكة .

ـــ هـدّئي نفسك يا أبا . فهذه المرأة تتبع التقاليد : فهم يظنون أن الجمع بين الشر وبين اسم الأشخاص الذين نحبهم ، يجلب لهم الشر . ولهذا فإنهم لا يقولون : « هل أنت مريضة ؟ » ولكن

يقولون : « هل أعداؤك مرضى ؟ » والنساء اللواتي يكرهن الإنكليز في لوكنوف ، اعتدن على وضع كلمة الإنكليز ، مكان كلمة « العدو » . ولهذا ، فبدلاً من القول : هل أصابتك الحـمّـى ؟ يقولون : « هل أصابت الحـمّـى الإنكليز ... » .

ويقرع الباب : ذلك أن الحكيم صاحب ، قد وصل . وهذا الرجل هو طبيب الأسرة . وفيما ترى فإن له من العمر ما لا يقل عن ثمانين سنة . وكانوا البارحة قد حاولوا الاتصال به ، إلا أنه كان مشغولاً براحته الشخصية . فأرسل واحداً من مساعديه ، يحمل ثلاث حبات ، في قطعة من ورق الصحف ، وأعلم أنه سيزور البيت في الغد .

وكانت الخادمات يصخبن ، حول سلمى . وكانت اثنتان منهما قد أمسكتا بغطاء تقباه ، بعناية ، ثقبين مختلفي القطر . وبسطتاه بصورة عمودية على السرير ، فاخفيتا سلمى ، وزهراء ، كما أخفتا نفسيهما ، معاً ، إخفاءً تاماً .

وسألت سلمى المذهولة :

ــ ماذا تفعل هاتان ؟

ــ أرجوك يا أبا . ولكن يجب أن تستبقي البرداه .

ــ أبرداه ، من أجل رجل بهذا العمر ؟

وأجابت زهراء مذهولة من دهشة زوجة أخيها .

ــ إنه رجل على كل حال !

ــ وكيف يستطيع إذن أن يفحصني .

ــ إن الأمر بسيط جداً . إذ تعطيه يدك من الثقب الكبير لقياس نبضك ، والتحقق من ردود فعلك . أما الثقب الصغير فإنه يستطيع من خلاله فحص لسانك ، وفحص حنجرتك .

وعندئذ تدع سلمى نفسها تستريح على وسائدها .

ــ حسناً ، أرجو مع مثل هذا الفحص ألا يكون لدي شيء خطير ...

ومن خلال الغطاء ، تلاحظ سلمى وصول الحكيم . ويبدو أنه يجد شيئاً من العناء في المتي على رجليه ؛ فقد كان هناك صبيان يسندانه ، ويحملان سلتين مملوءتين بزجاجات كبيرة ، بألوان

مختلفة. ذلك الحكيم صاحب لا يداوي إلا بالطريقة الفيدية، أي بهذا الفن الطبي المنحدر من الهند القديمة، والقائم حصراً على شرب مشروبات هي نتيجة غلي بعض أنواع الأعشاب، وبعض قشور جذوع الشجر... وأوراقها.

وبنعومة، أخذ يقلّب يد سلمى، ويطلب منها تحريك كل اصبع من أصابعها، ويضع باهمه على شريان مفصل المرفق. وكان متى انتهى من عملية ما، قطعها عن غيرها بكلمة «هم». وبأوامر موجزة لمساعديه اللذين يخطان على الورق، ملاحظات «المعلّم».. وفي آخر الفحص يُخرج من إحدى جيوبه «مكشطاً فضياً».

ــ هل توافق الراني صاحب على فتح فمها؟

وبحركة سريعة، يأخذ شيئاً من المادة البيضاء التي تغطي لسان المريضة ويشم رائحتها، وحاجباه مقطّبان. ويبقى بعد ذلك لحظة، وعيناه نصف مغمضتين. وأخيراً، وبصوت أجش، يدلي بتشخيصه:

ــ إن الكبد مسدودة تبعاً لتهيج في الأعصاب، وهو انسداد يؤدي إلى تباطؤ في جريان الدم، وطرح غير سليم للسوائل، وبالنتيجة إلى حمّى وأوجاع في الرأس. وعلى الراني صاحب أن تأخذ زجاجة من هذا السائل الأصفر في كل ساعة بين ساعتين. وزجاجة من هذا السائل الزهري في الساعات الفاصلة. ولكن عليها ألا تخطىء! أما في المساء، فيجب أن تبلع شيئاً من هذا الدقيق الأزرق، مخلوطاً بضعفه من هذا الدقيق الأبيض. وكذلك الأمر في الصباح. وهذا علاج بسيط لمرض بسيط، ستبرأ منه سعادتها، عندما يبدأ القمر بالتناقص.

وتستنكر سلمى هذا كله، منذ أن أدار الحكيم ظهره.

ــ ما هي هذه الوصفات السحرية التي يصفونها لي.

ــ صححي خطأك يا أبا. فلقد قدّم الطب الفيدي براهينه. وهي في أغلب الأحيان أكثر نجعاً من الطب الأوروبي. ففي العام الماضي، شفيت من اليرقان في خمسة عشر يوماً، على حين أن آخرين عولجوا من قبل أطباء إنكليز، ما كانوا يستطيعون النهوض إلا بصعوبة بعد شهرين.

ــ وهذه القصة، حول القمر المبدر؟

ــ عندما يبدأ البدر بالتناقص، تهدأ الأمزجة أو الأخلاط. وهذا أمر معروف، على ما تقول

زهراء بأكبر الجد . هيا أبا أريحي نفسك من هذا التوتر . فنحن محظوظون ، أتعرفين ؟ ففي أيام أمي ، لم يكن للحكيم الحق في أن يرى ، لا الذراع ولا اللسان ، وأقل من ذلك أن يلمس جسم المريضة . وكانوا يُـمِـرون من قبضة المريضة خيطاً كان هو يُمسك بطرفه ، وهو جالس على الطرف الآخر من الباب . وكان عليه أن يحزر من اهتزازات هذا الخيط ، درجة الحـمّـى ، ويحـدّد تشخيصه .

ــ وأتخيّـل أن عدداً قليلاً من النساء ، كان يشفى من المرض …

ــ وفعلاً ، فإنه كان هنالك موتى كثيرون ، كما ترى زهراء ، دون أن تلاحظ السخرية . ومن حسن الحظ أننا حققنا تقدماً كبيراً منذئذ !

واستغلت سيدات القصر مرض رانيتهم لكي يهاجموا غرفتها . والباب الذي كانت سلمى تبقيه مغلقاً ، على أكبر استنكار منهن ، لم يعد ، وهو يضطرب تبعاً لتيارات الهواء ، إلا زينة لا جدوى منها ، وهن ينتقمن منها ، بضربات أقدامهن . وكـنّ يسرعن بعطف كبير ، إلى التجمع حول سرير المريضة . ذلك أن أبسط مرض تصاب به الراني ، كان بالنسبة لهؤلاء النساء اللواتي لا عمل لهن ، فرصة سعيدة ، ومناسبة للبرهان لها على إخلاصهن ، والكشف عن أهميتهن . وكـنّ يتنازعن حول من ينبغي لها أن تحمل لها الدواء أول من يحمل ، ومن تصلح وضع الوسادة ، ومن تغسل لها الصدغين بماء الورد ، أو تدلك لها رجليها ، وهي تنشدها القصائد . وكـنّ كالنحلات التي تـدِنُّ ، وتشغل نفسها أمام ملكتها العاجزة عن المقاومة .

لكن وصول البيجوم ياسمين أنقذ سلمى من هذا الإفراط في الحرص . وكان قد مضى شهران على آخر لقاء بينهما ، مفضلة عليها زهراء أو راني نامبور . وكانت تقدر أنها متألمة من صمتها ، ولكن البيجوم تتصـرّف وكأنهما كانتا معاً البارحة .

وبسرعة قامت هذه السيدة القوية بطرد كل من كان في الغرفة ، وقالت :

ــ إن المريضة بحاجة إلى الهدوء . أفتردن قتل رانيتكن بهذركن الذي لا ينقطع ؟

وهكذا فقد استبعدت ، بلا رعاية لخاطر أحد ، كل من كان في الغرفة من خدم وحشم ، وردّت إلى الباب اعتباره .

ــ مسكينة يا بنيّـتي . لا بد أنك مرهقة ! هيا . فاستريحي …

وجلست على حافة السرير ، حضوراً صامتاً ، مهدئاً . وتغلق سلمى عينيها ، وكأن هناك ملزمة (كماشة) تضغط رقبتها والجبهة .

ـــ دعيني أُدَلِّكُك ، إذ يقولون إن لي يد الساحرة .

يد الساحرة ؟ كان ذلك حقاً ، فهي قوية وخفيفة ، رطبة وساخنة معاً . وقليلاً فقليلاً ، تضاءلت أوجاع الرأس ليحل محلها إحساس بالراحة . وبدأت سلمى تشعر بذلك ، فكتفاها ، بل جسمها كله ، قد استراح وكان منذ قليل يؤلمها ألماً شديداً .

وتوقفت اليدان الشفيقتان ، بسرعة مع الأسف !

ومضت الساحرة بعد قبلة صغيرة على الصدغ .

ـــ والآن ستنامين . وأتركك ، لأعود غداً .

وقد عادت في اليوم التالي . وكانت الآلام تغيب ، تحت يديها الخبيرتين وكانت الحمى نفسها تتضاءل وتتضاءل حتى لم يبق منها إلا بقية ضعيفة . وكانت سلمى ، وعيناها مغلقتان ، تستسلم لهذه العذوبة القاسرة ، التي تستولي على جسدها كله ، وكانت تأخذ العضو بعد العضو ، وتعجنه ، وتكهربه ، ثم تهدئه ، كما لو أنك تصب عسلاً في عروقها . فهي لا تعرف الآن أين هي ، ولا من إلى جانبها ، بل تشعر بأنها على أحسن حال .

وكانت اليدان ، الخبيرتان ، تنزلقان على طول العمود الفقري ، وتطيلان البقاء فوق الردفين ، بجانب الخاصرة ، كما لو أنهما تريدان الاستيلاء عليهما ، ثم تأخذان بكل ساق على حده ، فترفعانه ، وتوقظانه بضربات صغيرة جافة . وأخيراً فإنهما تتركزان على الضفيرة ، والمركز العصبي الذي يقع فوق الصرة .

وتشرح البيجوم الموضوع ، فتقول :

ـــ هنا يتراكم الاكتئاب ، وأنت تحسّينه عندما تثارين من هيجان ما ، فتنعقد معدتك ، ويصبح التنفس عسيراً عليك .

والآن ، وبحركة منتظمة ، تمس اليدان البطن ، بدوران خفيف ، ثم بصورة غير محسوسة ، تصبح أبطأ ، وأشد تركيزاً . وتشعر سلمى بأن رعشة اعترتها . فاضطربت ، وألقت نظرة على البيجوم . ومن حسن الحظ أنها لم تلاحظ شيئاً . إنها جديّة ، منظمة ، تتابع عملها .

وقد خجلت سلمى بعض الشيء. فما الذي يحدث لها حتى تَـرُدّ بهذه الصورة على مجـرّد التدليك، وتأخذ بأهداب الحلم، وتتخـيّـل أن أمير هو الذي يداعبها، وأن يديه هما يدا رجل حبيب... يدان حساستان، قويتان تنزلان من بطنها، إلى الحرج العميق حيث يجري نهر المسك.

ـــ أعطني عينيك، يا روحي.

وبقفزة، انتصبت سلمى، وقد زال عنها السكر بسبب هذه الكلمات التي جعلت حلمها يتطاير كالشرر. وماذا تعمل، وهي نصف عارية بين يدي هذه المرأة التي تترع جسدها قبلاً؟

فتتملص منها فجأة.

ـــ توقفي! توقفي! هل أنت مجنونة؟

فأصلحت قميصها وبدأت تتأمل بدهشة ذلك الوجه الأشعث الذي يتوسل إليها.

ـــ أرجوك. لا تعبثي بي. إنك تعرفين جيداً أنني أحبك.

وفي هذه المخلوقة التي تـمُـدّ إليها يديها، وقسماتُـها تشي بألمٍ فارقَ الحياء، لا تستطيع سلمى إلا بكثير من العناء أن تتعرف على البيجوم المزهوة بنفسها، والتي اعتادت أن تراها قادرة على التحكم في نفسها.

ـــ أتعرفين، يا سلمى، أتعرفين فقط ما هو الهوى؟

وكانت يداها ترتجفان، ولكنها لا تعترف بأنها خسرت الرهان. إذ لقد طال الصمت عليها وطال. أما اليوم فإنها تتكلم، وهذه الطفلة الحمراء التي تنظر إليها باشمئزاز، على وشك أن تصغي إليها هذه المرة.

ـــ لقد قضيت ليالي وليالي، وأنا أحلم بك، ثم قضيت أياماً وأياماً وأنا أتألم من بطلان آمالي. أفتفهمين الآن، لماذا كنت أسرع إليك، كلما ناديتني؟ ومع ذلك فأنا لست من الذين تروقهم خدمة الآخرين! وأنت... يا إلهي، بأي لا مبالاة كنت تستقبلينني!...

«أوتتذكرين عيد «الطيارات»؟ فعندما كنت ألعب، ضممتك من خصرك، فتراجعت عني، وكان ذلك أسوأ من صفعة. ومنذ ذلك الحين، قـرّرت أن أنساك، كما لو أن الإنسان ينسى بفعل إرادته... وأولئك الذين يظنون ذلك لم يحبوا قط...».

«ثم إني من جديد، في هذه الأيام الأخيرة، أخذت آمل. وكنت تبدين سعيدة بأن تريني. وكأن جسمك يقول لي ما كانت روحك تأباه عليّ... أرجوك، لا تنفي ذلك، ولا تنحطي إلى مستوى الكذب! ولك الحق في إطّراح حبي، ولكن ليس لك الحق، في الهبوط بالمرأة التي أحب، إلى مستوى البورجوازية الصغيرة المرائية! أوَتظنين أني لم أحس تحت أصابعي، بثدييك، وبطنك، تهتز، ثم تعود فتهدأ سعومة؟ وبسرعة هتف لي جسمك، وطلب مداعبتي، وكان يتجه إليّ، كما لو أنه يتضـوّر جوعاً...».

وتعترف سلمى داخل نفسها «بأن هذا صحيح». ولكن لِـمَ اقتضى الأمر أن تتكلم البيجوم، وأن تنتزعها من هذا الغسق ذي الألوان اللامحدودة. حيث كانت تدع لنفسها حق الانزلاق؟ أهو الزهو بالنفس، والحاجة إلى امتلاك ما هو أكثر من جسد؟ أو هو الهوى الذي يأبى أن يُـحَـدّ؟ ولكن أليس كل هوى بزهو بالنفس لا يقبل القياس، بحكم اقتضائه كلية الآخر؟ ولئن كانت قد سكتت... وبطبيعة الحال فإن كل شيء في غموض الحلم، يختلط، وينصهر دون ما اصطدام... لكن مداعباتها لـم تدهش سلمى. وكانت، بلا ريب، تنتظرها منذ زمن طويل. ترى هل حَـرَّضت عليها. أو كان ذلك بدافع الفضول، أو التحدي، أو الحاجة إلى تجاوز الحدود، أو اكتشاف مناطق جديدة؟ أو أن الأمر ببساطة أكبر، كان أنها تعرف كم ستكونان طيبتين...

أما منذ الآن فقد ذهب السحر، وتكـوَّرت سلمى على نفسها، وقالت بصوت جاف:

ــ إنك تهذين، فأنا أحب زوجي.

ــ حقاً؟ وهو، أيحبك؟

وانتقل صوت البيجوم من صورة التوسل إلى البرودة الكبيرة:

ــ إذن فانظري إلى نفسك في المرآة. فأنت تشبهين الزهرة العطشى. وعلى شفتيك آثار الذبول. أهذا هو الوجه، والجسد المتفتح للمرأة التي تعرف أنها محبوبة؟ وأنا حيث ينبغي لكي أعرف أن (أمير) يهملك، وأنه تزوجك لكي يضمن لنفسه الذرية. أما حبه، فيمضي بعيداً عنك.

«إنها تكذب لكي تنتقم، ولن أطرح أي سؤال».

ــ لست بذات فضول!

وضاقت عينا البيجوم، كالحية التي تستعد للدغ فريستها. وهي تنظر إلى المرأة الشابة،

وتحملق فيها. وهي تعرف كيف تنتقم من هذه المزهوة بنفسها. ستزرع في عقلها شكاً، لن تستطيع أبداً أن تتخلّص منه.

ـ ألم تفكري قط بأن الصداقة الحميمة القائمة بين زوجك وزوجي، يمكن أن تكون أكثر من مجرَّد الصداقة. لا ترتعشي، فهذه الميول كثيرة الانتشار في مجتمعاتنا التي لا تعرف شيئاً ساراً، كالملتبس، والذي لا جدوى فيه، والغريب؟ أما نحن النساء، فإننا اللواتي يلدن الذرية. أما كحبيبات، فإننا نكون مزعجات...

وهل لنا من خيار آخر غير السكوت؟ إننا ممتلكات لأزواجنا، ولكننا لا نملك من الجنون القدر الكافي للاعتقاد بأننا نملكهم. وهم يحموننا، ويهبوننا أطفالاً، ويقبلون بناتنا. وعندما كنت لا أزال عروساً، انتظرت ليالي لا تنتهي عدداً. وكنت أعبد زوجي، بل كنت مستعدة لسمّ الرجل الذي كان يفضله عليّ، بلا أدنى حرج، لو لم يكن هنالك إلا رجل واحد. ولكنهم كانوا كثيرين، متغيرين. فتعودت. والآن فقط، أراني أتابع، بشيء من المتعة مغامراته، ولقد لاحظت ـ وتنظر الآن إلى سلمى، وتشعر بلذةٍ أن هذه توقفت عن التنفس ـ أقول لاحظت أنه أصبح وفياً، منذ بعض الوقت.

ـ إنك تكذبين!

ولم تستطع سلمى أن تمنع نفسها عن الصراخ: أمير بين ذراعي رجل! إن هذه الفكرة تثير فيها الاضطراب. وهذه المرأة إنما تخترع أقاويل وأقاويل لكي تنتقم مني، لأني رفضتها. إن ذلك مجرّد غيظ من جانب المحب الذي لا يقابَل على حبه إلا بالرفض والتأبي.

ـ تكلمي بصوت أخفض من هذا، يا عزيزتي، إذ قد يسمع الخدم ما تقولين. وهنا تطبّق القاعدة الذهبية: فكل شيء مسموح به شريطة أن يبقى سراً. وهذا ما حاولت أن أشرحه لك ذات يوم عندما قلت لك إن البرقع الذي يخفينا هو أداة حريتنا. ولعلك بعد أن رفضته ستتعلمين أن تحسني تقديره.

وعاد صوتها فصار أجش.

ـ سلمى، أنت تعيسة، وأنا أتعذب لأني أراك هكذا، ولأني أعرف كم نستطيع أن نكون سعيدتين معاً. وهذه ليست نزوة من ناحيتي: فأنا أحبك. فكّري في الأمر.

ونهضت، ومن جديد نراها تملك نفسها تماماً، وللحظة واحدة التقطت عيناها نظرات سلمى، ثم خرجت، محترمة جداً.

ويقترب وجه زهراء أكثر فأكثر. وفي الحدقتين المتشذرتين بالذهب، واللتين تتسعان إلى ما لا نهاية، كانت سلمى تنظر إلى نفسها، شعلة متراقصة حول الشجيرة، فتمد يدها، والوجه يبتعد. وثديان ناهدان يأتيان فيمسان شفتيها الغضتين. وتحاول بلسانها أن تداعب منهما الحلمة، المنتصبة، الضعيفة، الوقحة. ولكن زهراء تتملص، خفيفة، وتمضي فتتكور على ركبتي أمير، وتقبلهما بشوق.

ــ تعالي، زهراء.

ترى لم تستمتع هذه الطفلة بتعذيبها؟

ــ تعالي، فأنت التي أحبها وها هذا أمير ينظر إليها بعين ساخرة، وماذا يهمها. إنها لم تعد تخاف. فلقد تجاوزت المرحلة التي يمكن فيها أن تنالها السخريات، والتهديدات. وما من مرة شعرت بمتل هذه الرغبة، التي تجعلها غير قابلة للتجريح. فضم هذه الطفلة بين ذراعيها، للحظة واحدة فقط، والانصهار فيها، والموت بسعادة، بعد ذلك، هو ما لا تطلب أكثر منه.

وتتردد زهراء: فمن تختار بين هذين الكائنين التي تحبّهما. فتتأملهما، هذا مرة، وتلك أخرى، مدلهة. وينفصل ذراعها ببطء عن الصدر الواسع، وتمتد يدها إلى صدر المرأة الشابة، ولكن السيقان تتقلص، بعزم من لا يريد التساهل. ويصبح التوتر غير محتمل. أما الهواء فقد تضاءل، وسلمى تختنق. وهي تضطرب في هذه الرطوبة الكثيفة، وتتخبط، وحنجرتها تحرقها...

واستيقظت، مبلّلة بالعرق. شكراً لله. لم يكن هذا إلا حُلماً! إنها الحمى ولا ريب، والمشهد المرهق الذي كانت فيه البارحة مع البيجوم. إن عقلها المتعب، قد خلط كل شيء. ومن جديد تحسّ على شفتيها نعومة ثديي زهراء ويَعود إليها، كهبّة ريح ساخنة، اضطرابها ذلك الصباح عندما وضعت المراهقة رأسها الحريري في جوف وركها.

«زهراء، إنني أحبك، وأنا أعرف ذلك الآن».

ويدوي الاعتراف الذي تم في الحلم في أذنيها، كما لو أنها تلفظت به بصوت عال، منذ قليل.

«كل هذا مضحك بسخفه. وهذ الطفلة هي مثل أختي!» ... أخت بالتأكيد ... ولكن هل كانت تستطيع مقاومة يدي زهراء وفمها؟

وهزّت سلمى حبل الجرس، بغضب، وأنّبت الخادمات اللواتي تدافعن، مذعورات.

— هيئن لي حمامي بسرعة، وأخبرن الراجا أني أريد رؤيته قبل أن يخرج.

وهي لا تعرف تماماً، لماذا، ولكن يجب أن ترى أمير.

— تهانيّ يا عزيزتي، إن ألوان وجهك على أحسن ما يرام اليوم. وأرى أنه كان لأدوية حكيم وزيارات صديقاتك أثر طيب جداً.

ترى هل لاحظت تلك اللمعة الساخرة لعينيه عندما تحدَّث عن «صديقاتها»؟ ولكن ما أهمية ذلك. فالأمر الذي تريد أن تقوله له أخطر بكثير. وقد خطرت ببالها فكرته في الحمام، وفرضت نفسها كالحل الوحيد لتجنب كارثة.

— أمير، لقد حلمت هذه الليلة حلماً يدفعني إلى أن أكلمك، دون تريّث، والقضية هي قضية زهراء.

— قضية زهراء؟ ولكن بماذا حلمت إذن؟

وتهز سلمى رأسها، كما لو أنها تريد أن تبقى غامضة.

— إنه لا ينبغي أن نروي الأحلام السيئة، وإلا فإنها يمكن أن تتحقق، هكذا كانوا يقولون لنا، أثناء الطفولة. فليكفك أن تعرف أنها كانت في خطر. ومن حسن الحظ أنه كان هناك رجل مستعد لإنقاذها.

— رجل؟ أم أنا؟

— لا، بل رجل أكبر منك سناً، لم أستطع أن أتبيّن معالم وجهه.

وبدا أمير يزداد نرفزة. وهو يكره هذه الأحلام المنبئة عن المستقبل، لأنها عبث نسوي. وقد أدهشه ذلك من سلمى، التي ظن أنها أقل سخفاً...

— ما زلت يا عزيزتي متعبة، صدقيني. فليس هناك أي خطر يهدّد زهراء.

ـــ ربما كنت على حق ، ولكنك تعلم كم أحب هذه الطفلة (لو كنت تعلم ...) وأنا قلقة من شدة حساسيتها ، وسرعة عطبها ، ووحدتها . وعلى الرغم من الحب الذي نحيطها به ، فنحن لا نستطيع أن نُعوِّض عن الأهل ، أو عن زوج مثلاً ...

وارتعش أمير .

ـــ زوج ! أية فكرة هذه ... إنها ما تزال صغيرة جداً !

ـــ أصغيرة ؟ إنها في السادسة عشرة . وفي هذا العمر ، في الهند ، تكون أكثرية البنات ، قد تزوجت .

ونهض الراجا ، واجتاز البهو بخطوات عصبية ، وهو يعلم أنه سيأتي يوم ينفصل فيه عن أخته الرائعة . ولكنه يكره هذه الفكرة . فهي الكائن الوحيد الذي يُعزّه حقاً . والموصول به بعواطف الدم والحب ـــ مما لا يجتمع في العادة ، إلا قليلاً ـــ وقد برهنت المآسي العائلية التي قلبت مجرى حياته على ذلك . ثم إن في صلته بزهراء ـــ وهو يعترف بذلك ـــ جانباً من الأنانية : فالمراهقة هي الشخص الوحيد في العالم الذي يحبه بلا تحفظ . وهو في نظرها إله ـــ يجمع بين الجمال ، والذكاء ، والطيب الهائل ـــ وعندما يشعر بشيء من النقص في شجاعته ، فإنه يتغذى من هذه العبادة .

وما هي الحال مع زوجته ؟ إنه يحبها بطبيعة الحال ، ولكن ليس له بها هذه الصلة الحميمة ، وهذا التواطؤ العميق الذي يمكن أن يكونا للإنسان مع امرأة لها نفس الأصل ، ونفس الدم .

ـــ أَوَ أزوجها ؟ ومع من ، فأنا أعرف كل أبناء الراجات ، وأبناء أصدقائي : فهم تافهون ، وأطفال مدللون ومغرورون . لم يخرجوا قط من منطقتهم . وهم يتخيلون أنهم مركز العالم . وما منهم واحد يصل إلى كعب زهراء !

ـــ من يكلمك حول الشباب ؟ إن زهراء بحاجة إلى أن تُدلّل . وستكون أغنى سعادة إن هي تزوجت برجل ناضج .

ـــ ولكن الراجاهات كلهم تقريباً متزوجون . وليس من المعقول أن تكون أختي الزوجة الثانية أو الثالثة !

ويقطب حاجبيه .

ـــ هنالك ، ولا شك ، راجاه لاراباد Larabad . ولكنه يميل إلى السكر ؛ وراجاه كوترا رائع ،

ولكنه تقريباً عجوز ؛ ونواب داليور Dalior له عقل كعقل العصفور ، كأبيه . ومَـنْ غير هؤلاء؟ آه ، نعم ، نعم ، هناك راجاه بيلينير Bilinir ، ولكنه عاش بصورة غريبة ، حتى إنه اليوم شبه مفلس . لا ، حقاً ليس هنالك من شخص مناسب . ثم ـــ ويهز رأسه بشيء من الغضب ـــ لا أرى حقاً من ضرورة لننفصل عن زهراء .

ـــ ومن يتحـدّث عن الانفصال ؟

ـــ وأخيراً ، يا أميرة ، أنت تعرفين عاداتنا : فالزوجة يجب أن تعيش لدى زوجها .

ـــ ولئن كان منزل الزوج هو ... هذا القصر ؟

وينظر الراجاه ، بانتباه ، إلى زوجته : ترى هل ذهبت الحمى بتوازنها العقلي ؟

ـــ تصـوَّر أني فكّـرت برشيد خان . وأنا أعرف أنه ليس بأمير ، ولكنه ابن أخت مهراجا بيبال ، إحدى أكبر دول الهند . وفيما يتعلق بنقاء الدم ، فإن أحداً لا يجد ما يلومه عليه . ولكن هذا رجل ذكي ، حديث ، طيب إلى أبعد الحدود ، وشرفه غال عليه . وأنت تعرف ذلك جيداً ، إذ لقد اخترته ليكون أول مستشار لك . وسيكون لهذا الزواج مزايا كثيرة : إذ لن تفقد زهراء ، ولا تغامر بأن تفقد رشيد .

وهذه الفكرة الأخيرة ، هي آخر حجة بين يديها . فسلمى تعرف أن رشيد خان قد تلقى عروضاً من دول أقوى من دولة بادالبور ؛ ثم إن رجلاً لا مجال للفساد عنده ، وناجعاً إلى هذه الدرجة ، في الأوضاع المضطربة التي تمر بها الهند ، بضاعة نادرة . وحتى الآن ، فإنه رفض ، بحكم الصداقة ، لأمير ، ولكن إلى متى أيضاً ؟ والراجاه الذي يعتمد كل الاعتماد عليه ، يرتجف هلعاً من فقدانه .

ها هي إذن قد سـجّـلت نقطة . فعاد أمير وجلس ، ليفكر . وبطبيعة الحال فإن سلمى تحرص على أن تذكر اسم رشيد ، وتحرص هي أيضاً عليه . ذلك أنه حليفها الوحيد في هذا القصر . وكثيراً ما دافع عنها أمام أمير . وهي قـلّـما تراه ، ولكنها تعرف أنه يسهر على راحتها .

والواقع أن المرة الوحيدة التي تلاقيا فيها ، منذ زواجها ، كانت يوم تلك الليلة المأسوية على شرف اللورد (ستيلتلتون Stiltelton) ولقد أحـسّـت بعاطفته ، ودُهشت من أنها اضطربت لذلك . وفي تلك اللحظة شَـعَـرَتْ كم كانت متعطشة إلى الحب ، وإلى أي حد شعرت بأنها معرَّضة لأخطاره ، كما هي حال زهراء وما لديها من شهوانية لا مبالية .

ويومئذ خافت . أما الآن فقد خطر ببالها أن تجمع بين هذين الإنسانين اللذين يحبانها ، أي أن تحتفظ بهما ، وتبعدهما في آن واحد . أفتراها أنانية شيطانية أن تلعب بحياة الآخرين كي تصون هي راحتها . ولكن لا . فلِمَ تبحث هنا ؟ وكلما فكرت في الأمر ، زادت قناعتها بنجاح مثل هذا الزواج . أما رشيد فإنها واثقة بأنه سيجن غراماً بهذه الزوجة الطفلة . أما هي ، سلمى ، فإن في وسعها أن تراه على راحتها ، لأنه سيكون جزءاً من الأسرة ؛ وأخيراً فإنها ستحظى بصديق يكون موضع سرّها .

ـــ ولكن ماذا ترى زهراء في هذا ؟

لقد استعاد أمير برودة دمه . وشعرت سلمى بأن اللعبة قد نجحت .

ـــ وكيف أكلمها في هذا الموضوع قبل أن أستشيرك ؟ وتنتزعج من سؤاله ، كزوجة نموذجية .

وعلى أمير أن يعترف بأن هذا الزواج يغريه .

ـــ وأخيراً ، ربما لم تكن الفكرة سيئة .

وتكبت سلمى بسمة . وحقاً فإن ربطها بضربة واحدة ، ذينك الإنسانين ، اللذين تحبهما أكثر من كل الآخرين ، أمر ....

ويعود الراجاه فيقول :

ـــ بطبيعة الحال ، سيوجد من يوجه إليّ النقد بأنني لم أختر لأختي أحد الأمراء . ولكن الوضع القائم الآن قلق ، فمن يعرف ماذا ستكون غداً ... ؟ سأكلّم رشيد في هذا الموضوع . فهل تريدين أن تتولي أمر زهراء ؟ و ... ـــ بحركة غير متوقعة ـــ بدأ يداعب شعر سلمى ـــ شكراً . إني لسعيد بأن تحملي أمور أسرتنا على محمل الجدّ . إنك تصبحين امرأة هندية حقيقية !

ولكن سلمى تأخذ عليه أن يكون كبير الثقة إلى مثل هذه الدرجة .

ـــ لا تزيدي الكلام حول هذا الموضوع ، فالأمر واضح : أتريدين أن تتخلصي مني !

وكانت الفتاة تقوم بجهد يتجاوز طاقة الإنسان لكي توضّح صوتها ، وتحبسَ دموعَها .

ومن الركبتين تبدأ رجفة تعمّ الجسد كلّه: فيتصلب، ويستقيم. ولكن المهم عندها ألا تنهار أمام هذه المرأة!

ـــ زهراء، بنيتي الصغيرة.

ورفعت المراهقة رأسها. وكان يتجلى في نظراتها الألم واللافهم: ترى ما الذي فعلته لكي تستحق هذه الخيانة؟ وأية خطيئة ارتكبت حتى تُطرح من قبل من تبنتها كأخت، أو كأم؟ وها إنها تشعر بالتمزق. وتعود فتجد نفسها يتيمة، للمرة الثانية.

وتنظر إليها سلمى، متأملة فيها، ومضطربة مما قوبلت به. ذلك أنها لم تتوقع مثل هذا الأسى. وهذا اليأس، ولم ترد أن تتوقعه.

ـــ زهرا، ما من أحد يفرض عليك شيئاً. وأنت التي تختارين... وكل ما في الأمر أننا فكّرنا...

ولكن زهراء لا تصغي إليها، وتحملق في وجه سلمى، هذا الوجه الذي كان يخفي الكثير الكثير من الرقة، قديماً.

ـــ قولي... هل أحببتني يوماً ما، أو أنك كنت تكذبين عليّ؟

«أيتها البنت الصغيرة، لو كنت تعلمين كم أحبّك، وأن هذا لأنني أحبّك كثيراً، ولكنك لا تستطيعين أن تفهمي، وكم أتألم لأني أجعلك تتعذبين».

ـــ زهراء، لا تتصرفي كطفلة، فأنت تعرفين الحنان الذي أشعر به تجاهك.

وبدت الجملة ثقيلة، مستعارة. والمراهقة لم تشر إليها، وسكتت، وعلى شفتيها بسمة مرة. وسلمى في هذه اللحظة، تهب الدنيا وما فيها، لكي تأخذها بين ذراعيها، وتُقبّلها، وتقول لها: إن هذا حلم سيء، وأنها تحبّها، وبدلاً من ذلك تسمع نفسها تقترح اقتراحاً:

ـــ إن لديّ صورة لهذا الشخص. فهل تريدين أن تريها؟

ـــ ولماذا؟ لقد قررتِ أنتِ وأقنعتِ أخي، فليس لي ما أضيفه.

وتشعر سلمى بالغضب يجتاحها. فهذه الفتاة، تلعب دور الشهيدة، وتضعها هي، زعيمة الحريات، في الدور البغيض كزوجة الأب (أو الأخ).

ـــ ما من شيء قُـرِّر ، وأنت تعرفين ذلك ! إنك حـرّة في أن تفعلي ما تريدين .

ورفعت صوتَها ، وضخّمت استنكارها ، وتعلقت بهذا الغضب الذي تعرف أنه أفضل دفاع ضد التعطف .

وظلت زهراء في صمتها . لكن المرارة في نظرتها ، تحـوّلت إلى احتقار .

وقليلاً فقليلاً تحطم غضب سلمى بين قدمي هذا الصمت . وسبق السيف العذل . وما من كلمة تستطيع أن تمحو الأثر . فطرح الاختيار كان يعني نفيه . ومهما تقل سلمى من كلام ، بعد الآن ، فإن المراهقة ستشعر أنها عبء زائد . وانغلق الباب وراء زهراء .

ــ١٢ــ

وتم الزواج على ما ينبغي . وكان أمير يتمـدّد على ديوان في البهو الصغير ، الذي هيء ، على مقربة من غرفتهما . وكان يتنفس براحة . فبعد ذينك الأسبوعين المرهقين ، اللتين تعاقبت فيها الاحتفالات والاستقبالات ، بلا انقطاع ، كان يتذوق الهدوء الذي عاد فوجده .

وهو سعيد . وإلى جانبه كانت زوجته الشديدة الحرص عليه ، تهيء له مضغة البان (قات) ؛ وكان هو يراقبها بارتياح ، وعيناه نصف مغلقتين : ذلك أنها كانت على أحسن ما يمكن ، خلال كل هذه الفترة ، التي بدأت مع ذلك بداية سيئة .

وكما توقع هو ، فإن إعلان خطبة أخته الصغيرة للرجل الموثوق عنده ، جعل المدينة كلها تتير الإشاعات والأقاويل ، على الرغم من أن الناس يتفقون على الاعتراف للخطيب بأنه « من العظم الجيد » على ما يقولون للدلالة على أصل نبيل . ولكن عندما رُئيت الأسرة الملكية كلها في بيبال BIPAL ، تنتقل من أجل هذا الزواج ــ ومعها المهراجاه ــ وهذا تكريم لم يسمع به من قبل ــ وعندما لوحظت الهدايا الفخمة التي حملوها للعروس الفتية ، فإنهم نسوا بعض الشيء هذا الزواج اللامتكافىء . وكانوا يحسبون ، أن الزوج هو الولد الأكبر للفرع الأصغر ، وأنه ليس للراجاه إلا ولدان لا يبدو أن صحتهما جيدة ، فلربما جاءت مصيبة ، ونال الزوجان الجديدان نصيبهما من الحلول محلهما !

ولا يجهل أمير هذه الإشاعات ، ولا ما قيل عن أن هذا الزواج لم يتم إلا بعد أن استشير العـرّافون . ويضحك من ذلك ، ويحذر من التكذيب .

لكن المعركة الأكثر صعوبة ، كان يجب أن تتم داخل القصر : فقد كان يجب تهدئة الأخت عزيزة . ولم تجد سلمى أن من الضروري ذلك الفصل الذي شهد الراني عزيزة تتهمها صراحة ، بأنها أرادت ، بحكم الغيرة ، إبعاد أخته . وعندما عـدّدت سلمى مزايا رشيد خان ، وتحدثت عن السعادة التي سيعرف كيف يضمنها لزهراء ، أملاً بإقناعها ، فإنها اعتقدت أن الراني ستختنق نفسها .

ـــ ومن تحدّث عن السعادة ؟ وهل يتزوج الإنسان لكي يكون سعيداً ؟ إن الناس يتزوجون لتخليد الاسم ، وإيجاد وريث للدولة ! مسكينة زهراء ، إذ ليس عليها أن تعنى بمثل هذا .

وبعدوانية قاتلة ، حملقت في سلمى .

ـــ وعندما أرى أن هؤلاء اللواتي هـنّ قادرات على تخليد الاسم ، لسن ، بقادرات على ذلك ...

وخرجت قبل أن تستطيع المرأة الشابة الجواب . وكانت سلمى ، على كل حال ، تتوقّـع صدور مثل هذه الملاحظة عنها . وهي تعرف أنهم بدؤوا يتهامسون ، ويقلقون ... فكيف لم تحمل ، وقد تزوجت منذ سنة تقريباً .

وحتى أمير نفسه ، يبدو أحياناً مشغول البال . ولقد علمت أن الراني عزيزة نصحت أخاها بالزواج مرة ثانية ، وأنه ألزمها الصمت ، بصورة صريحة . وسلمى ممتنة منه ، ذلك أنها تتخيّـل ما حول الراجاه ، من غمز ، ولمز ، وصمت مريب ، مما هو أسوأ من الكلام .

ولكن الشيء الذي رأته أقسى عليها من سائر الأشياء ، إنما هو برودة زهراء . ذلك أن هذه الفتاة لم تعد تبدي تجاهها إلا اللامبالاة المهذبة . ودهشت سلمى من أنها تتألم من ذلك ، بهذه القوة ، كما لو أن القصر ، بدون ضحكات زهراء ، وثقتها ، وعطفها ، قد أصبح قصراً من الجليد ، لا حرارة فيه .

ولقد سافرا البارحة لقضاء شهر العسل . ويريد رشيد أن يعـرّف زوجته بأوروبا . وسيبقيان هناك ثلاثة أشهر . وقد ارتاحت سلمى لغيابهما : فما دامت زهراء ليست هنا ، فإن في وسعها أن تتخيل أنها ستعود إليها .

ولكن أحلام يقظتها انقطعت بظهور أحد الخصيان الذي جاء يُعلن أن بائع العطور قد وصل .

والعطور في حياة الراجاه أمر هام، وليست بمتعة تافهة، أو عابرة، بل هي هوى حقيقي. ولديه في ذلك حماسة الباحث، وصلابة المحترف، والعاطفة الجمالية التي يملكها الخبير. وهكذا فإن سلمى استقبلت البائع ببسمة كبيرة، وكان معه مساعد يحمل صندوقين جلديين. وهو يعرفه، منذ زمن طويل، وكان يقـدِّم خدماته لأبيه.

ويشرح أمير لزوجته المندهشة مما يبدو لها أنه تذوق نسوي بعض الشيء، هذا الأمر، فيقول:

ـــ إن حب الروائح الذكية سمة من سمات الأسرة. وجـدّي، المهراجاه، كان صياداً خشناً وكان لا يكاد يعرف القراءة، ولكنه كان من هواة العطور. وكان لديه منها أجمل المجموعات في الهند. وكانوا يأتونه من كل مكان بعيد ليتذوقوا هذه النسمات الإلَهية، التي كان بعضُها موجوداً منذ مئتي سنة.

«ومن المؤسف أن هذه المجموعة قد ضاعت اليوم بفعل حريق مفتعل بالتأكيد. وذلك للإستفادة مما يسببه الحريق من هيجان وانشغال بال، والاستيلاء خلال ذلك على هذا الكنز الخيالي. وأظن أن الحزن الذي استولى على جـدّي من جراء ذلك قد عجل في نهايته، على كونه قد بدا، لدى موت زوجته رواقياً، إلى درجة تثير الإعجاب».

وجاء البائع فوضع قماشة من المخمل الأسود، وصَـفّ عليها عشرين زجاجـة صغيرة، بعضها صغير جداً. وكلها من روائع الأعمال الفنية. وكان بعضها من الكريستال المزيّـن بالذهـب، والآخر من الجاد (أو اليشـب) أو المرجان المحفور حفراً دقيقاً.

ويقول أمير: إن على الزجاجة أن تكون جديرة بالمحتوى، لا أكثر بكثير، ولا أقل. ولا بد من الانسجام بين الخارج والداخل. وهذا ما علمنا إياه حكماؤنا؛ وهم، بطبيعة الحال، يتحدثون عن الجسم والروح، التي هي جوهر الإنسان. وهذه الروائح هي جوهر الطبيعة. فلا يجوز أن تحفظ في آنية تافهة.

ويمسك البائع، بحركات تشبه حركات الكاهن الأكبر، كل زجاجة على حدة، بنعومة، ويأخذ عصيته العاجية، فيضع من محتوى الزجاجة، كمية ضئيلة جداً على يد الراجاه. ويقوم هذا الأخير، والعينان مغلقتان بشم الأريج. ويقول: أخ، قالباً رأسه إلى الوراء، كما لو أن لذة عنيفة تغشاه ـــ «أخ». وبأصابعه، الملأى بالخواتم، تراه يداعب الزجاجات الثمينة، وتمضي دقائق طويلة

في تذوق هذه المتعة. أما البائع فينتظر باحترام. ولعله يستطيع الانتظار النهار كـلّـه، لأنه يستمتع بملاحظة التقدير الذي يحيط بزجاجاته، من قبل خبير مرهف.

وعلى أسف، يعود أمير فيهبط إلى الأرض. وبحركة سريعة يشير إلى نصف دزينة من هذه الزجاجات. وينحني الرجل العجوز، ويمنحه بسمة عطوفاً، ويقول:

ـــ سمـوُّك لا يخطىء أبداً، وأنت تأخذ مني أجمل أولادي!

ويسخر منه أمير، ويردّ عليه قائلاً:

ـــ أيها الفاسق العجوز، إني أحسبك تخفي عني الأعظم شأناً. وتحتفظ به لنفسك، وهذا أمر أفهمه، لأني أشاركك في هوايتك، ولكني أحـذّرك، فإن بعتها لغيري، فلن أغفر لك ذلك أبداً.

وبفضول تلاحظ سلمى الصندوق الثاني، الأكبر من الأول، والذي لا يبدو أن أحداً يهتم به.

وتسأله سلمى:

ـــ ألا يمكن أن نرى روائعك الأخرى.

ـــ إن هذا، يا صاحبة السمـوّ، ليس جديراً بأمثالك. فهذه عطورات أقل قدماً، أقـدّمها لزبائن أقل متطلبات من الراجاه الصاحب.

ـــ ولكني لم أكن أعرف أن لقدم العطر أثراً في قيمته.

ويرد عليها الرجل، وهو سعيد بأن يثقف بمادته، نصيرة جديدة إلى حدٍ ما. وهنالك، ولا ريب، تلك الأصول التي تهب العطر، رائحته النوعية، كالمواد النباتية ـــ من سوسن أو ياسمين، وصبر، وباتشولي ـــ أو المواد الحيوانية، من عنبر أو مسك أو طيب الزبّاد. وقلّـما تكون الرائحة من هذه أو تلك. بل هي في الأعـمّ الأغلب مقطر يتألف من مجموعة من هذه المواد. ولكن هذه الروائح، سرعان ما تزول، إذا لم نثبتها بصورة ما، دون أن نفسدها!

«إنها نور جيهان، الزوجة المعبودة، للأمبراطور جيهانجير، التي اخترعت طريقة المحافظة على هذه الروائح التي كانت تحب أن تسكر بها. فكانت تعطّـنها خلال أسابيع وأسابيع في زيت نقي

تماماً. وللأسف، فإن الطريقة الصحيحة ضاعت، على الرغم من أن بعض الخبراء وصلوا إلى إعادة اكتشافها جزئياً.

«والواقع أن تراث العطور قد قُضي عليه، في القرن الثامن عشر، عندما اتبعا الطريقة الغربية، في إضافة الكحول إليها. فهذا السائل العدواني الذي يزيد من شدة الرائحة في البداية، يُحوِّلها تحويلاً تاماً خلال بضعة أشهر، ويقضي عليها خلال بضع سنين. ولكنهم يستمرون في هذه الطريقة، لأنها صالحة للتجارة. إذ يمكن أن ننتج كميات كبيرة منها بسرعة».

وتقلق سلمى من هذا، فتقول:

ــ ولكن إذا كانت الرائحة في البداية هي هي تقريباً، فكيف نعرف؟

ــ الأمر بسيط جداً، فانظري.

ويقوم البائع بوضع نقطتين على يدي سلمى، أخذهما من زجاجتين مختلفتين. ويقول لها:

ــ مدّي هذا السائل على بشرتك، ثم شمّي. فالرائحتان أصلهما من الزينب (المسك الرومي). فلا فرق إذن في الرائحة. والآن، انفخي على الرائحة الموضوعة على يدك اليمنى، إنها باردة، أليس كذلك؟ وهذا يعني أن الرائحة الأساسية ممزوجة بالكحول. ولكن انفخي على اليد الأخرى، وسترين أن الحرارة تبقى هي هي، ذلك أن الجوهر هنا نقي، وسيعطر جلدك خلال أيام وأيام، وعندما يكون في الزجاجة، فإنه يحتفظ بأرجه خلال عشرات السنين، وحتى خلال قرون.

وأخذت سلمى تضحك: فهي لا تحتاج إلى كل هذا الشرح! ولكن عندما رأت ما دفعه زوجها للبائع، فهمت بأن الأمر عظيم الأهمية. إذ لقد دفع خمسين ليرة ذهبية.

ولكنها ستندهش أكثر عندما بقيا لوحدهما، ورأت أمير يصفُّ الزجاجات بعناية كبيرة، إلى جانب مئات أخرى، في صندوق حديدي مخبأ في الجدار.

وشرح الزوج هذا الموضوع فقال:

ــ إن لبعض هذه الروائح قيمة كقيمة الماس، وعندي أنها أثمن من الماس أيضاً. والحقيقة أنها سحرية: فنقطة واحدة تكفي لتحويل يوم نشعر بأنه سيكون بائساً، أو عسيراً، أو رتيباً فقط، إلى عيد. وأحسب أن هذه الحساسية المفرطة تأتيني من طفولتي، حيث الرائحة العطرة كانت تشكل أحد العناصر الأساسية من حياة حلوة سعيدة.

ــ أسعيدة؟ ومع ذلك فقد فقدت أبويك، وعمرك لا يتجاوز السادسة.

ــ إني لأذكرهما بصعوبة. ولقد رُبيت على يد جـدّتي، وأختي عزيزة، اللتين كانتا تعبداني، هذه وتلك. ولما كانت أمي قد فقدت ولديها الأولين، فقد ظنوا أنها تصيب بالعين. أما أبي فإنه كان مشغولاً جداً بأعمال الدولة بحيث لم يكن يتفرغ قط لتربية طفله. وأصلاً، فإن الصبيان عندنا لا يغادرون الزينانا إلا في عمر السابعة. وبعدئذ يقوم الرجال على تربيتهم.

وتمـدَّد أمير على الوسائد إلى جانب سلمى. وأخذ يدخن الهوكاه، وهو يتأمـل آخر الشعاعات التي كانت تلهب قمم السرو.

ــ وكانت مرضعتي، التي كنت شديد الحب لها، تأخذني مرة كل أسبوع لزيارة أبويّ. وأنا أتذكر تلك المقابلات السريعة، والشكلية. وكان علي أن أسميهما آبا هوزور، صاحب السعادة، أبي، وأمي هوزور صاحبة السمـوّ أمي. أما هما فلا يسمياني أبداً «أمير»، بل والي آهيد أي الأمير ولي العهد. وكان كل منهما ينادي الآخر، ساركار، أي صاحب السمـوّ. وكانت كل هذه الألقاب تضايقني، وكنت أتعجل العودة إلى ألعابي في البيت.

وفيما بعد، وعندما قضى أبواي نحبهما في حادث، تولى أمري نساء القصر. وحتى عمر الخامسة عشرة، كنت ألعب مع بنات الخادمات. وكنا نخترع ألف قصة. وفي أكثر الأحيان، كنت أنا الملك، وكـنّ هـنّ الراقصات. وكنت أحبهن بكل براءة.

«ولما كنت الوريث الذكر الوحيد، فقد كنت مُـدَلّلاً جداً. وأتذكر بأنني كنت أرفض أن آكل، وكانوا يأتونني بإحدى نساء الحاشية لتغني لي أثناء الوجبات. وهكذا فقد أحببت الموسيقى منذ عمر الخامسة.

«ولم يكن موضوع بحث أن أدخل الحمام وحدي. بل إن أربع نساء أو خمساً كـنّ يعنين بي، ويغسلنني بالصابون، ويُـدَلكنني، ويعطرنني. وكنت أجد ذلك ساراً جداً. وقد استمر هذا طول طفولتي ومراهقتي، حتى سافرت إلى إنكلترا.».

وابتسم أمير عندما لاحظ الدهشة بادية على وجه سلمى. فقال لها:

ــ أرجوك يا عزيزتي ألا تبدي مثل هذه الدهشة، فأنا أؤكد لك أن ذلك كله كان يتم في جو كامل من العفة.

ــ هُـمْ ... وإذن فقد كنت تقضي وقتك في الدلال على يد هؤلاء النسوة ؛ ودراساتك ، ماذا كان شأنها ؟

ــ في عمر السابعة ، عينوا لي معلماً ، ليعلمني البدايات . وبطبيعة الحال فإنه لم يكن يستطيع الدخول إلى الزينانا . ولهذا فقد كنت أقضي بضع ساعات كل يوم في الماردان خانة ، أي في المكان المخصّص في القصر للرجال . غير أنه لم يكن يشغل ذهني إلا شيء واحد ، هو العودة إلى رفيقاتي في اللعب ، ولم أكن أُسَرّ إلا معهن .

« وعندما كبرت ، كنت أشعر تجاههن بعواطف رومانتيكية . ولكني كنت أجهل ماذا تعني كلمة القبلة ، أو ما هي القبلة نفسها . وعندما بلغت الثامنة ، وجدت جـدّتي أن علـيّ بالإضافة إلى اللغة الإنكليزية والرياضيات ، أن أتعـلّـم العادات والأعراف . ولما كان هذا مفروضاً على كل الشباب من ذوي الأسر المتميّـزة ، حتى وقت قريب جداً ، فقد وظفوا لي بعض نساء الحاشية لتعليمي .

« وكـنّ نساءً أكبر مني عمراً ، وكـنّ جميلات جداً ، وعلى درجة راقية من التهذيب . وكـنّ بحديثهن ، وأساليبهن الحلوة ، يعلمنني كيف أتكلم ، وكيف أجلس ، وبالجملة كيف أصبح رجلاً أهلاً للإختلاط بالناس . وكان بعضهن ممن يعرفن الموسيقى ، وبفضلهن تعلمت كيف أحلم على مستوى قصائد الغازال (الغزل ؟) أي الشعر الكلاسيكي ، ومستوى التومري ، أي الموسيقى الكلاسيكية ذات الأسلوب الخفيف ، أو حتى مستوى الراغا[1] . ولكن لم يكن موضوع بحث أن أغني أنا ، أو أعزف على آلة : إذ أن على الأمير أن يتذوق التسلية والسمر ، لا أن يقوم هو بتسلية الآخرين أو مساعدتهم .

« وكان بين هؤلاء النساء شاعرات معروفات ؛ فثقفونني في الشعر ، وهو فن اشتهرت مدينتنا لوكنوف به ، ويمكن للرجال المنتسبين إلى الطبقة العليا ، أن يمارسوه ، من دون أن يؤاخذوا عليه .

« لقد كانت حياتي حلماً ...

« وعندما بلغت عمر الثانية عشرة . رأت جـدّتي أن أبدأ الدراسة الجديّـة . فأرسلوني إلى « كلية الأُمراء » . وفي كل صباح كان مربيّ ، وأستاذي في اللغة الإنكليزية ، وأستاذي في الأوردو ، والخادم الموظف لكتبي ، والسائق بطبيعة الحال ، يأخذونني إلى المدرسة . وكلما كان علي أن أعود

---

(١) موسيقى تتغير حسب أوقات النهار .

بعد الظهر ، كانوا يأتون ليأخذوني إلى القصر . ولم يكن لديّ أية فرصة للاتصال بصبية آخرين. ولكني كذلك لم أكن أحفل بهذا الأمر . لم أكن معتاداً على رفاق ذكور ، ولم أكن أرتاح لذلك ، ولم أكن أحلم إلا بالعودة للقاء رفيقاتي ؛ وقررت جدتي أن يقوم مؤدبي بشرح « أمور الحياة » لي . وبدءً من ذلك اليوم ، لم يعد لي الحق بلقاء صديقاتي .

وعلى كل حال ، وبعد عدة أشهر ، قام عمي بدس السمّ في طعامي لكي يستولي هو على الدولة . فرئي أن من الأضمن أن أرسَل إلى إنكلترا لمتابعة دراستي فيها .

وتنظر سلمى إلى أمير نظرة الإشفاق .

ــ تلك المتزمتة إنكلترا ! إيتون ، وكامبريدج ! بعد الحياة التي كنت تعيشها ؟ لا بد أن ذلك كان صدمة رهيبة !

ــ رهيبة ، لا أدري . فقد كان كل شيء جديداً ، محبّباً . ولكن الواقع هو أنني لم أكن أعرف من أنا : أمير هندي ، أم لورد إنكليزي ؟

وتفكر سلمى : « يا مسكين يا غالي . ولا تعرف ذلك حتى الآن ! » ولكنها تحذر من أن تقول فكرتها هذه بصوت عال . فتكتفي بتقبيل يد أمير . وهو ، من غير أن يشعر أن هذه هي المرة الأولى التي يكشف فيها عن نفسه ، ويثق بها ، يتأثر من هذا الحنان اللامألوف . فتتملكه مشاعر حب عميق ، ويشتهي أن يأخذها بين ذراعيه . ولكنه لا يجرؤ . فهو لا يريد أن يفسد هذه اللحظة الهانئة .

وكان منذ زمن طويل قد فهم أن الحب بالنسبة إلى زوجته هو نوع من السخرة ، لا تقبلها إلا لترضيه . وكانت خيبةُ أمله حادة . ذلك أن كل شيء في امرأته كان يهتف بالمتعة : في جسمها الرشيق ، وشفتيها البضتين ، وعينيها العميقتين اللتين تضطربان أحياناً . ولكنه متى ضمّها إليه ، أو قبّلها ، أو زاد في مداعباته ، شعر بأنها تتصلّب . ولقد حاول مرات ومرات أن يوقظ شهوانيتها ، ويقسر لذتها ، ولكنه خاب مسعاه ، وبقي في اللعبة وحيداً . فانتهى إلى الحقيقة البديهية : وهي أن امرأته الرائعة ، إنما هي تمثال من الرخام !

ولما كان مشوقاً إلى ذلك ، فقد ترك ليده أن تضيع بين خصل شعرها الأحمر ، وتفتلها حول أصابعه . فوضعت سلمى رأسها على كتفه وكان شفيف السماء يجعلها ترتجف ، فتنتظر .

وانزلقت اليد إلى النُقرة ، ولمت بالفص العاجي من الأذن ، ومست الخد ، وجوانب الشفتين : والتفتت إليه ، مرتجفة ، وفي وسط الظلام الشاحب ، كانت تبحث عن نظراته .

أتراه ظن أنها تتهرب منه ؟ إنها لا تدري ولكن يده ارتفعت عنها ، وأخذ يتمطى ، وقال :

ـــ ما أجملها من ليلة .

وأجابت بخشونة :

ـــ انها ليلة من ليالي الشتاء ، وأعادت إلى كتفيها وشاحهما الحريري . وأخذت تتأمل ، بشيء من الحقد ، تلك اليد المغطاة بالخواتم التي يجعلها ضياء القمر تلمع . وفجأة عادت إلى ذهنها تلميحات البيجوم ، بأنها لا تقوى على شيء ، باستثناء التعبير عن الغيظ . فإذا كان ذلك صحيحاً ؟ وإذا كان زوجها الجميل يفـضّـل عليها ضمات رجل ؟ وإذا لم يكن يقاسمها المضجع إلا بحكم الواجب ، لكي يحصل على وريث ؟ إن هذا يمكن أن يعـلّل تـنـقّـله بين اللا مبالاة ، وبين الامتلاك العنيف والسريع ... لا ، إن هذا مستحيل ! فتهز رأسها محاولة استبعاد هذه الصور التي تغزوها ، وتشعر بالخجل . ولكن كلما أمعنت في استبعادها ، أمعنت هي في فرض نفسها .

وبقفزة ، نهضت .

ـــ أكاد أختنق هنا ، وسأبحث عن مكان أرطب .

وفي ذلك الليل المضيء ، مشت سلمى من شرفة إلى شرفة ، حتى وصلت إلى الطرف الغربي من القصر ، أي إلى جناح الشمس الغاربة . الذي يشرف على المدينة .

واستندت إلى عمود من الرخام ، وأخذت تتأمل لوكنوف الجاثية تحت قدميها ، وهي تضج بأشباح مفضضة . وعلى مسافة بعيدة ومن فوق الأقواس الإكليلية ، وركائز المساجد ، المشيقة ، ينتصب الشبح الأبيض المتوج بالذهب ، شبح إمام بارا حسين آباد ؛ وإلى جانبه تلك الصورة التي رسمها خيال مهندس كان في حالة هذيان ، أي ذاك « الباب التركي » الذي يندفع إلى السماء بما فيه من آلاف زهرات اللوتوس ، وهي زهرات السلام ، التي تبدو في الليل ، كأعلام حروب وانتصارات .

إنها مدينة باروكية ، مخـطّـطة بالألوان ، كأنها خليط من الفخفخة المغولية ، والفوران الهندي ، والتحذلق الفرنسي ، والبلادة الفيكتورية المذهولة كل الذهول أن توجد في مثل هذه الصحبة العابثة . أما في النهار ، وتحت الشمس التي لا ترحم ، فإنها تبدو كواحدة من بنات الهوى ، شاخت ، ولم تعد

الثياب الغنية المحيطة بها، تستْتر الانحلال والهرم. ولكنها في الليل تعود فتجد ألقها، وأريجها المرهف، وسحرها، والبطء المسكر في حركة من تظن أنها الأجمل.

إنها الحبيبة التي يحلم بها كل إنسان، لوكنوف المسلمة، المتوحشة، السرية، الهويَّة، لوكنوف الهندية، اللطيفة، المثيرة، لوكنوف التي تشتد شهوانيتها لتصل إلى حدود الصوفية، والتي تخفي صوفيتُها أعظمَ المتع، لوكنوف السريّة... الخفيّة...

وعندما انحنت على الدرابزين الحجري لتلك الشرفة، طار خيالها، من وراء هذه المدينة الخرافية، الغريبة، إلى عذوبة مدينة يهدهدها لونا اللازورد والذهب... اسمها استامبول.

١٣

— إنهم ذبحوا النساء والأطفال، وأولئك الذين لم يكونوا إلا جرحى، رموهم في الآبار. ثم أشعلوا النار في المنازل. ونحن من القلائل الذين استطاعوا الهرب. فلقد اختبأنا في أحد الحقول. وعندما حلّ الظلام، زحفنا إلى الغابة. ثم مشينا ومشينا أياماً حتى وصلنا إلى هنا.

وكان الرجل يترنح من التعب. وكان إلى جانبه زوجته وطفلان صغيران يبكيان في صمت.

— هوزور، ماذا ستكون حالنا؟ إنه لم يعد لنا سلام، في أي مكان.

فأجلسهم الراجاه، وطلب أن يقدّم لهم الطعام، ثم بدأ يسألهم أسئلته بكل هدوء.

إنها مرة أخرى، في ذلك التاريخ المؤلم للاضطرابات التي تقوم بين الطوائف التي كانت، حتى ذلك الحين، تتعايش دون كبير عناء. إنها اضطرابات تنشأ عن توافه ثم تؤدي إلى مذابح، في جو التوتر الذي تنشئه وتغذّيه الحركات المتطرفة.

وفي هذه القرية التي تسمى لاكهبور، كانت فرقة ماهاصباح، النشيطة جداً، ترهب الأقلية المسلمة، مدّعية أنها تريد ردّها إلى دينها القديم، أي الهندوسية. وكان المسلمون قد شكوا أمرهم إلى المسؤولين المحليين عن حزب المؤتمر، الذين أبوا أن يصغوا إليهم.

وانفجرت المأساة لدى تشييع الجنائز في المسجد. وحدث أن تَوَقّف المشاركون في عرس هندي، أمام مدخل المسجد، ليعبروا عن فرحهم، بالضرب على الدفوف، والمزامير، والصنوج،

بأقوى ما يستطيعون . فخرج إليهم فلاحون يطلبون منهم الذهاب إلى مكان آخر ليلهوا ويلعبوا . وعندئذ وجهت الشتائم ؛ وأهين اسم النبيّ . فتطايرت الحجارة ، وسُحبت السكاكين ، وذهب الناس من الجانبين ليتسلحوا بالأوتاد ، والمذاري والمناجل . ودامت المعركة ساعات ، وعـمّـت كل القرية . ولم تصل الشرطة إلا عندما انتهى كل شيء .

ويتألم الرجل ، ويفرك بيديه ، ويقول :

ـــ هوزور ، لم نعد نحتمل ، نحن فلاحون فقراء . ولا نريد إلا أن نعمل ، فلِـمَ لا يتركوننا نعمل بهدوء؟ إن الهنود يقولون إن المسلمين خونة ، وأن راجاهاتنا أصدقاء للإنكليز ، وأن علينا أن نطلب بطاقة المؤتمر ، وأن نحارب من أجل الاستقلال ...

« ولكن السياسة ، هوزور ، ليست من اختصاصنا . إنها من شأن رجال المدن ، والناس الأغنياء ، المتعلمين ، ونحن لسنا ضد الاستقلال ، غير أننا مع الإنكليز ، كنا أكثر أمناً . فما من مرة تجرأ الهندوس على مهاجمتنا ، على نحو ما يفعلون بنا منذ سنة ، بعد أن ربحوا الانتخابات ، وظنوا أنهم المسيطرون ... وهم أكثر عدداً منا بكثير ، فماذا سيكون شأننا؟ » .

وبكلمات قليلة ، وصف هذا الفلاح الوضع القـائم ، بأكثر من كل خطابـات رجـال السياسة .

وأمير لا يهدهد نفسه بالأوهام : فلو أن المسلمين كانوا هم الأكثرية ، إذن لتصـرّفوا تجاه الأقلية الهندوسية ، كما يتصـرَّف الهنود الآن . ولكن القضية ، بالنسبة إليه ليست من الحكم على الفضائل العائدة لكل دين من الأديان التي أنتجت ، خلال التاريخ ، فلاسفة ، وصوفيين ، وطغاة ، بل هي شيء آخر . وفي هذه السنة ، عام ١٩٣٨ ، تتكاثر الاضطرابات والمذابح في شمالي الهند كلها . لكن قرية لاكهبور التي يعيش فيها هذا الرجل ، لا تعود إلى دولة بادالبور ـــ ولم يأت هذا التعيس إليها ، ليبحث عن ملجأ فيها ، إلا لأن أخاه طباخ فيها ـــ ولكنها تعود إلى الدولة المجاورة ، كالاباغ . وتكاد هذه الأخبار المنقولة من قرية إلى قرية ، والمضخمة بصور مختلفة ، أن تلهب الدول القريبة كـلّـها .

وكان أمير من انشغال البال ، بحيث لم يجد بدأ من مفاتحة سلمى بهذا الموضوع .

ـــ إنه لا بـدّ من اتخاذ تدابير لمنع النار من الانتشار . ويجب إخمادها بأقصى سرعة ، قبل أن يصبح من المستحيل أن نسيطر عليها . ولربما استطعنا أن نناقش هذا الموضوع في حفلة الاستقبال

التي يقيمها راجاه مهداباد. ذلك أن أرستقراطية الإقطاع كلها في المنطقة، سواء أكانت هندية أم مسلمة، ستكون حاضرة هناك. آه، وأنا أعرف جيداً أن الحديث في أمور السياسة، في مثل هذه الموشائيرا، نوع من الجريمة. ولكن ليكن ما يكون. أنا سأثير الموضوع. إذ يجب أن يستيقظ هؤلاء الناس.

وهذه الموشائيرات أو الكونسيرات الهندية الضخمة التي يجتمع فيها نبلاء الأود كلهم، هي الشيء الوحيد الذي يُرَخِّص به راجاه مهداباد، في حياته الفقيرة الجديدة، لا لأن كرم الضيافة واجب مقدّس فقط، بل لأن هذه المباريات الشعرية التي يدعو إليها أرق الفنانين في البلاد، مناسبة للتلاقي بين الهنود والمسلمين، والجلوس بعضهم إلى جانب بعضهم الآخر، ليحلموا، ويبكوا، ويتقاسموا العواطف نفسها، ويكونوا أخيراً أناساً فقط يشتركون في تقديس الجمال.

ومنذ قرنين ولوكنوف تفخر بأنها مركز هذه الحضارة الهندية ــ الإسلامية التي تضيء الهند كلها في الشمال. وهي نوع من التأليف بين ثقافتين، يبدو أن كل شيء يجعلهما متعارضتين.

وقد بدأ هذا الرهان منذ ثلاثة قرون على يد «أبكار» أكبر الأباطرة المغول. فقد كان يجمع، في بلاطه، الفلاسفة، والعلماء، والصوفيين لكي يحاولوا معاً الوصول إلى الشيء النهائي: أي البحث في قلب المعتقدات المختلفة أي في قلب الهندوسية، والبارسيس، والإسلام، والمسيحية، عن تلك النواة الصافية التي تلتقي فيها جميعاً، ثم تأسيس الدين الإلهي، اعتماداً على هذه النواة.

وكانت هذه المحاولة العظيمة جداً، قد أخفقت، بعد خمسين سنة، على يد الأمبراطور أورانغزيب الذي هاجم هذا النوع من المصالحة، وأعاد فأقر الإسلام في كل ماله من صلابة وقوة. وفي ذلك الحين هرب المثقفون والفنانون من دلهي التي استقر فيها حكم القناعات المطلقة، ولجؤوا إلى لوكنوف، عاصمة ملوك الأود. وهي أسرة ملوك من الذين اعتنقوا المذهب الشيعي. وكانت مشهورة بألقها وغرابتها وكرمها.

ولكن لئن تميز ملوكها بتسامح «أبكار» فإن ذلك لم يكن حرصاً على البحث الصوفي بقدر ما كان نوعاً من الانتقائية المتشوّقة لكل صور التجديد، وكل المسرّات، المسرّات الحسيّة والمسرات الفكرية. وهكذا فإن لوكنوف ستصبح البوتقة التي تنصهر فيها العبقرية الهندوسية، والعبقرية الإسلامية، حيث تنضج أكبر منجزات الموسيقى، والرقص، والشعر، وأكثرها نعومة.

وهناك وصلت اللغة الأوردية إلى أرقى أشكالها، كما بلغ الغزال (أي هذا النوع من الشعر الآتي من بلاد الفرس، بدءاً من القرن الثالث عشر) ذلك الشكل المزركش، الذي تقول العقول الحزينة ان وظيفته هي إخفاء ما في الفكر من نقص.

والغزل، أي الحديث مع المحبوب، هو ملك الموشائيرات. وقد تعلمت سلمى تذوّق هذه القصائد، التي يكون فيها المحبوب هو الله أحياناً، أو حلم مجد، أو رنين أساور امرأة، أو الإطلالة المتقزّحة لعالم لا يريد أن ينكشف.

غير أنه يبدو لها اليوم أن من غير المعقول، وغير الطبيعي أن نطرب بالكلمات، على حين أن الاضطرابات الدامية تلهب القرى والمدن. وقد كافأتها راني مهداباد التي لم تستطع الامتناع عن مكاشفتها بقلقها، ببسمة متسامحة، كتلك التي يقابل بها الأطفال العاطفيون الذين يراد تهدئتهم.

— فما العمل؟ ولكن، يا بنيتي الصغيرة، ما من شيء نفعله غير ما نقوم به الآن: أي عدم الدخول في مناقشات عقيمة، وأن نعطي، على مستوى كمستوانا، مثالاً على الانسجام والتسامح. إنه يجب أن نعتقد أن هذا ناجع، لأن لوكنوف هي المدينة الوحيدة في المنطقة، التي لم تقع فيها حوادث مؤسفة.

ومن خلال المنربية الرخامية المثقّبة، أشارت هذه الراني، إلى رجل طويل القامة، يحيط به كثيرون، وأرته لسلمى.

— إن هذا هو راجاه كالاباغ الذي حدثت في منطقته هذه الحوادث التي تخبرينني بها. وهو محاط بأصدقائه الهندوس والمسلمين. وصدقيني أن التعرف على عقلية «الآخر» يؤدي بنا إلى احترام قيمه: وهذا هو السلاح الوحيد الذي نتوسل به لبلوغ السلام الحق. ولولا أن أمراءنا غير مقتنعين بما لمختلف المعتقدات من فضائل ومزايا، ولولا أنهم، بسلوكهم، يبرهنون لرعيتهم يومياً، على ذلك، فعندئذ لن تقع بعض الاضطرابات التي تثير أسفنا، بل إن الهند كلها ستشتعل ناراً.

ولكن سلمى غير مقتنعة بقوة المَثَل. ولربما كان هذا المفهوم الأرستقراطي مقبولاً في عهدٍ كانت فيه مراتب الناس لا تمارى، ولكن هل هو اليوم شيء آخر غير الوهم الذي تغذّي به نفسها طبقة النبلاء التي لاتملك أية رغبة — ولا أدنى عزم — في تغيير قناعاتها، وصورة حياتها؟

وكانت تتابع بنظراتها حركات أمير، الذي كان يقترب من راجاه كالاباغ، ويحاول أن يكلّمه، ولكن هذا الأخير يهزّ رأسه، وعلى وجهه علائم المتضايق المزعوج. ولكن أمير يلح عليه.

وعندئذ يأخذ راجاه كالاباغ، وهو يضحك، بيد أمير، ويمضي إلى مضيفه، ويرحوه أن يفصل بينهما.

وتحاول سلمى، ووجهها ملتصق بالمشربية أن تقرأ ما يدور من كلام على الشفاه. ولكن عبثاً. ومع ذلك فهي تحكم من خلال وضع راجاه كالاباغ، أنه يحاول تهدئة هذا الأمير الشاب العائد حديثاً من إنكلترا، والذي يبدو أنه يأخذ الأمور مأخذ الجد، بصورة مفرطة.

وانتهى أمير بعد بعض الاحتجاجات، إلى السكوت. فانحنى ومضى ليضيع في الجمهور. كشكل نحيف في الشرواني الحريري الأبيض، الشبيه بالآخرين والغريب عنهم في الوقت نفسه.

وترتجف سلمى. وتشعر بأنها تشهد نهاية العالم، وهي تلومهم على هذه العماية، وهذا الجبن، وهذه الرهافة المنحطة التي تقطعهم عن الحقيقة الواقعة، وتشلّهم.

أما حولهم، فإن النضال ضد الاحتلال البريطاني، بتأثير من حزب المؤتمر، قد اتخذ صورة الثورة الشعبية ضد كبار الملاكين والأمراء، المعتبرين كأصدقاء للإنكليز. ولما كانت الأرستقراطية، في منطقة الأود، مسلمة في أكثريتها، فإن المعركة الوطنية، التي أصبحت، صراعاً اجتماعياً، تتعزّز، أو على وشك أن تتعزّز بحرب دينية تستقطب الجماهير.

ويسود الصمت فجأة، ذلك أن المشايرة[٢] تكاد أن تبدأ. وكان الضيوف الشديدو الانتباه والمتكئون على أرائك متفرقة فوق البسط الحريرية السميكة، ينظرون إلى راعي الاحتفال الذي يتقدّم نحو المنبر. إنه عجوز، حاد العين، تعترف به المنطقة كلها، كالسيد الأكبر في هذا الموضوع.

ذلك أن رئاسة مجلس المشايرة ليست بالأمر السهل. إذ يجب أن يكون الإنسان حاد الانتباه، خلال ليلة كاملة، وأن يحمس الجمهور الذي يتألف من عارفين خبراء، متطلباتهم كبيرة بشكل خاص. وبين الثلاثين شاعراً الذين سيتتابعون في الوقوف على المنبر، بدءً من غروب الشمس حتى اللحظات الأولى الصفراء من الصبح، يجب عليه أن يحسن الترتيب، ويقدّم المتكلمين، على حسب درجاتهم، ويدخل الأقل كفاءة بين الأكفأ منهم، لحفز الاهتمام الذي قد يجفو، وأن يثير الحساسية، لا بدرجة مفرطة، بل بدرجة كافية لتجعلها يقظة. ويجب عليه أن يكون قادراً على

---

(٢) نظن أن أصل الكلمة هو عربي، وهو المسايرة. وهنا تعني المباراة الشعرية ـــ الغنائية.

الابتسام لشعر تافه، لكي يؤخذ الحضور بالوزن الشعري، ولا يلاحظوا الغثانة، ولا يذهلوا عن المتابعة. وأخيراً يجب أن نقطر العسل، ونجمع الحضور في راحة اليد. فإذا ما استسلموا، مأخوذين بسحر ما يسمعون، فوجئوا بضربة ناعمة في القلب، وملئوا حبوراً.

ويرتفع الغزل، مشهياً، ساحراً، مدعوماً من وراء ستار، بتأوهات القيثارة وضربات التابلا أو (الدربكة). وفي دلهي يكتفى عادةً بالإنشاد. أما في لوكنوف، فإن الناس يفضلونه مُغَنّى، ولماذا نحرم أنفسنا من التلذذ بالانسجام الذي يقوم بين الموسيقى والشعر؟

وكانت سلمى قد عزمت على الاختفاء، بحجة المرض. ولكن النظرة اليقظة في عين الراني استبقتها في الحلقة:

ـــ ابقي، فالشعر سيخفف عنك التوتر.

وعادت فجلست، خجلة من أن قصدها قد حُزر بسهولة. وقليلاً فقليلاً بدأت تنساق مع جمال هذه الأشعار التي لا تفهم معناها، والتي تهدأ بموسيقاها. وتحت قدميها أرض من الشيروانيات، تتماوج على أوزان القصائد كحية من الذهب والفضة. فترى الناس يتذوقون ما ينشد، ويأخذ بهم الحنين وتطير بهم الدهشة. وتبلغ المتعة أعلى قممها، عندما تقوم امرأة، متنكرة تحت براكاه سوداء، وتغني، بصوت أجش قصيدة تمزق عذوبتها شغاف القلب. إنها شاهناز بيجوم، وهي واحدة من أكبر الفنانين، في صناعة الغزل. وهي لا تظهر بين الناس إلا محجبة، لأنها بنت أسرة محترمة، على ما قيل لسلمى. ولكن هتافها، يهز، من خلال الحجاب، بشدة أكبر لأنه محاط بالحرمات، والسر، ويُحـرِّك الخيال والحواس من أعمق الأعماق.

وها إن الليل ينقضي أكثره، ونامت بعض البيجومات العجائز في الجناح المخصص للنساء. وسلمى التي خـدّرت بما سمعت، لم تعد تدرك إلا الهمس المداعب الشبيه بخرير ماء الساقية في مجراه الحجري، فهو خرير من خلال تكاثف أوراق الشجر ينتشر بين الطحالب في أرض لا زرع فيها، ثم يقفز من جديد في شلالات بلورية.

وفجأة يأتي صوت واضح، ويوقظها من حلمها.

«إني أنا الذات التي تقوم في قلب المخلوقات، وأنا البداية، والوسط، والنهاية لكل الكائنات».

وسكتت الموسيقى، وغاب سيد المشايرة وهاهما على المنصة مراهقان يلبسان الشرواني المصنوع من الكتان الأبيض ودونما حلي ويتجابهان. ولكن هذه الكلمات تعرفها سلمى. إنها كلمات صوفي كبير. ولكن من هو؟ فتسأل جارتها، التي تحملق فيها، مندهشة:

ـــ ولكن، ياأميرة، إن هذا هو الباغافادـــ جيتا، الكتاب الكبير المقدس، في الديانة الهندوسية!

الهندوسية؟ إن سلمى لا تصـدِّق ذلك؛ فهذه الكلمات تعرفها منذ زمن طويل. وتنحني أكثر بقليل وراء المشربية؛ فيتابع المراهق نثر الكلمات الإلهية، وعيناه زائغتان في ذاته.

ـــ إنني السيادة والقوة اللتين يملكهما كل من يحكمون، ويضبطون الأمور، وينتصرون؛ وأنا سياسة الذين ينجحون ويغزون. وأنا الصمت، صمت الأشياء الخفية، ومعرفة كل من يعرف.

أما رفيقه الجالس بصورة مستقيمة تماماً، ويداه مفتوحتان على ركبتيه، فإنه يتابع:

المجد لله الذي لا سابق على وحدته، إلا هو الذي هو الأول؛ والذي ما بَـعـدَ تفردّه، من بَعـدُ.، إلا إذا كان هو التالي. فبالنسبة إليه، لا يوجد قبلُ ولا بعـدُ، لا عال ولا هابط، لا قريب ولا بعيد، ولا كيف، ولا ماذا، ولا أين، ولا حالة، ولا تتابع لحظات، لا زمان ولا مكان، ولا من وجود متغـيِّـر.

«إنه الواحد، والقاهر.

«إنه الأول والآخر، الباطن والظاهر.

«إنه يظهر في وحدته، ويحتجب في تفرده.».

وارتعدت سلمى... إن هذا من كلام ابن عربي، وهو من أكبر النصوص الصوفية في الإسلام.

وسيقول المراهقان، بهدوء تلك الكلمـات المقـدّسـة، التـي يرتـد بعضهـا على بعض كالصدى، خلال القرون والقارات، وتردد الحدوس العميقة، الصادرة عن نفس الحقيقة.

«بعضهم يعبدونني في وحدتي، وفي كل كائن متميّـز، وكل وجه من ملايين الوجوه

الشاملة. وكل وجود للمجد أو الجمال مما تراه في العالم، وكل وجود للقوة أو القدرة، ألا فاعلم أنه ألق، ونور، وطاقة مني، نشأت من جزيء قوي، ومن قوة عنيفة تصدر عن وجودي ».

« وما نفكر أنه غيره، ليس هو، ذلك أن القول بأن شيئاً ما، يوجد بذاته، يعني الاعتقاد بأن هذا الشيء قد خلق نفسه بنفسه، وأنه لا يدين بوجوده لله، مما هو بلا معنى (لأنه هو كل شيء). فاحذر أن تؤمن بشريك لله، من أي نوع، لأنك عندئذ ستنحط إلى درك عباد الأوثان ».

« فبي أنا مُـدَّ كل هذا العالم في سر وجودي الذي لا يفهم. والإنسان الذي يراني أنا في كل الكائنات، ويرى كل الكائنات فـيَّ، والذي يعتمد على وحدة كياني ويحبني في كل الأحلام، وكيفما كان يعيش ويعمل، فإنه يعيش ويعمل دوماً فـيّ أنا ».

« ذلك أن ما تحسبه شيئاً غير الله ليس شيئاً غير الله. ولكنك لا تعلم. وأنت تراه، ولا تعلم أنك تراه. وعندما تحيط علماً بما هو نفسك، تتخلص من ثنائيتك، وتعلم بأنك لست بغير الله. ولقد قال النبي (ﷺ)، من عرف نفسه فقد عرف ربّـه ».

« والحكماء اليوغين الذين يحاولون معرفة ما في أنفسهم، يرون الرب داخل نفوسهم ».

« ومتى انكشف السر لعينيك وعلمت أنك لست غير الله، تعرف أنك غاية في نفسك، وأنك لست بحاجة لأن تفتي نفسك، وأنك لم تكن منقطعاً قط عن الوجود. وكل صفات الله هي صفاتك. ولهذا فإن من المسموح به لهذا الذي بلغ الحقيقة، أن يقول: « إنني أنا الإله الحق، أو يقول: المجد لي، وكم هي كبيرة قناعتي ».

« وعندما يصل إنسان بالتقوى إلى معرفتي، ومعرفة من أنا، وكم أنا، ومعرفتي في الحقيقة كلها، وفي كل مبادىء وجودي.. فإنه متى عرفني على هذه الصورة، دخل في « الأنا العليا ». وإذا عمل كل الأعمال، وبقي ساكناً فـيّ، فإنه يصل بعفوي إلى شرط الخلود الذي لا يهلك ».

وتترقرق الدموع على وجه سلمى كله. ولا يهمها أن يراها أحد الناس على هذه الحال، لأنها في سلام مع نفسها لم تكن في مثله منذ مدة طويلة.

وخلال اليوم كانت تتخبط في كابوس من العنف والبغضاء. ذلك أن مذبحة الفلاحين الأبرياء على يد مجموعة من المتعصبين، أثار فيها لأول مرة، فضلاً عن مشاعر التأذي البغيض واللافهم، رغبة في الانتقام: ولئن كانت العدالة لا تملك الإحترام إلا إذا كان الإرهاب ثمناً، فإنه ينبغي أن

نكون نحن الأقوى. وأن نَقتُلَ، حتى لا نُقتل. وكانت تشعر أن هذا «الحل اليائس» لا يمكنه إلا أن يؤدي إلا إلى مزيد من الشقاء، ولكن ما العمل؟

وكانت قد جاءت إلى هذه المشايرة، آملة أن الحفلة الشعرية هذه ستؤجل، وأن بين الناس الحاضرين من يتصدى لوضع استراتيجية دفاعية. فخاب أملها. ذلك أن المضيف أبى أن يجري أي نقاش.

وها هو في آخر السهرة، يقدّم جوابه النيّر: فهذه الديانات التي يمزق أتباعها بعضهم — بعضاً، تعبّر عن حقيقة واحدة. فوراء الطقوس التي هي شكليات مضافة إلى الأديان، لجعلها غامضة ولتتيح المجال لقيام الناس بعضهم على بعض، تؤدّي كلها إلى الكائن الأعظم، الكائن المطلق الذي ينحدر منه كل إنسان متكوّن. وهي تضغط علينا بأن لا ننسى، في جنوننا التهديمي، أن اللا نهائي موجود فينا، وأننا نحن الجمال، والمعرفة اللا محدودة، وذرة تافهة من التراب، ولكننا ننطوي على العالم الأكبر، لأنه جزء صغير من الله. ولكن هل نحن جزء؟ كلا! نحن الله؛ فاللا متناهي لا ينقسم.

يجب ألا ننسى ذلك: فكيف إذن نيأس من الإنسان، ونرى أن الآخر هو العدو الذي يجب سحقه، ليس إلا أنا نفسه، كما أنني أنا هو.

— إن هذا المسكين راجاه مهداباد على وشك أن يصبح خرفاً! هذا ما يعلّق به أمير، على طريق العودة. فما أغربها فكرة أن تنهي مشايرة برقى دينية!

وانتفضت سلمى.

— ألم تفهم إذن!

— أفهم؟ ماذا؟

— لا شيء... ليس الأمر بمهم.

وأدار رأسه، متضايقاً من سكوت سلمى، ومن لهجتها كملكة أسيىء إليها، تلك اللهجة التي تُسمع منها أحياناً.

وحردت سلمى في مكانها، في آخر المقعد. وهي لا تشعر بتعاسة، حتى ولا بالانزعاج، تجاه

اللافهم الذي بدا على أمير. ولكنها شعرت بتعب كبير، أو بملل. وجـرَّبت أن تتذكر ما يقوله الباغافاد ـــ جيتا.

«أن أُرى في الكائنات كلها، وأن أُحب فيها جميعاً».

وتغلق عينيها، وتتساءل: أتراها تصل إلى هذا يوماً ما؟

١٤

ــ ولكن أين اختفت عائشة .

فمنذ أكثر من أسبوع لم تر سلمى تلك البنيّـة التي كانت تأتيها كل يوم ببعض الزهر لشعرها . إنها طفلة رائعة في السابعة من عمرها ، وصلت في الشهر الماضي ، مع أهلها الذين هربوا من الاضطرابات التي وقعت في قريتهم . ومنذ ذلك الحين ، والأسرة تعيش في القصر : فالأب يعين أخاه في المطابخ ، والأم تشتغل في أعمال الخياطة .

ولقد سمعت سلمى خادمة تروي أن هذه المرأة المزهوة بنفسها ، لا تشعر براحة ، في أن تعيش على حساب الآخرين ، وأنها تدفع بزوجها ، إلى العودة إلى القرية التي عاد إليها الهدوء . ذلك أن راجاه كالاباغ قد مضى هو شخصياً ليرى المسؤولين المحليين عن حزب المؤتمر . وحصل على ضمانات ، وبدأ المسلمون يعودون إلى بيوتهم ، ويبنون من جديد ما كان قد أحرق . إذ ليس لهم في الدنيا أي مكان آخر يلجؤون إليه . فمنذ أجيال وأجيال ، كانت عائلاتهم تفلح هذه الأراضي التي يملكها الأمير . إلا أن لهم الحق في زرعها واستثمارها : فهم إذن في بيوتهم .

ثم ، أين يكونون آمنين أكثر ؟ في المدينة ، أم في الريف ، حيث تنفجر أعمال الشغب في كل لحظة ؟ وكيف يكونون آمنين إن لم يكن هناك سيد يتولى الدفاع عنهم . فما من شيء أدهى من أن يصبح الإنسان جوالاً بلا عمل ، وألا يتعلق بشخص معيَّـن ، وألا يكون له الحق في طلب الحماية .

وعلقت هذه السيدة على الكلام الذي سمعته بقولها :

ـــ إن لهم الحق في ذلك . إنهم في مثل وضعي إذا أنا فكرت بالرحيل . فلقد أكلت أسرتي من ملح هذا البيت منذ خمسة أجيال . فكيف أستطيع أن أترككم؟ ولكن الأم قلقة على عائشة . فعندما يصاب الرجال بالجنون ، فإنه يمكن أن تحدث أمور محزنة ، بشعة .

وكانت سلمى قد استمعت إلى هذا الحديث بأذن طائشة . فهي لا ترى لماذا تحب هذه الأسرة أن تعود . ذلك أنها تعيش هنا حياة طيبة ، وربما بشيء من الضيق ، لأنها تشارك أخا الزوج منزله ، في الجناح المخصّص للخدم ، قريباً من المستودعات ، فهل جعلتهم كـنّـتُـهم يشعرون بأن المكان لا يتسع لهم؟ ..

وكانت سلمى قد قالت في نفسها يجب أن أهتم بذلك ، وعادت إلى نص الباغافادـــ جيتا وكتابات سري أوربيندو التي طلبتها منذ اليوم التالي لتلك المشايرة . وحبست نفسها عدة أيام . وكانت تحاول ، من خلال هذا الكلام المختلف جداً أن تفهم ، وأن تعود إلى المنبع ، وأن تجد هي بنفسها ذلك الحدس الذي قلبها رأساً على عقب ، عندما حضرت ذات يوم في استامبول رقص الدراويش .

ولكنها اليوم ، وعدت بزيارة ماهاراني كاريمبور Karimpour . وشهر نيسان / أبريل / هو الشهر الذي يسبق الحرارة الخانقة ، وهو شهر الأعياد ، فتتابع الاستقبالات التي يجب عليها أن تحضرها .

فأي غارارا إذن ستضعها على جسمها؟ لا بد على كل حال من طاقة من الياسمين . تظهر بها في منتهى البساطة ، فتدهش الناس بذلك .

وتعيد مرة أخرى ، قولها :

ـــ ولكن أين هي عائشة؟

إلا أن الخادمة التي تساعدها في لباسها ، ابتسمت ، وبصوت الفرحة بما تـسِـرُّ به ، أعلنت الخبر الجميل .

ـــ لقد زوّجوها .

ـــ زوّجوها؟

وتنظر إليها سلمى مذهولة . فلا شك أنها أساءت الفهم .

ـــ بلى ! زوّجوها ، وزوّجوها زواجاً جيداً جداً ! لرجل أرمل في حوالي الأربعين من عمره . وهو تاجر غني من أحمد آباد . وهو يعرف كيف يعتني بها .

ـــ يعتني بها ؟

وكادت سلمى أن تختنق .

ـــ إن هذا جريمة . فهذه الصغيرة لا يزيد عمرها عن سبع سنوات !

وأجابتها الخادمة ، كما لو أنها تريد طمأنتها :

ـــ لا تقلقي ، هوزو . فهو سيدعها تلعب بلعبتها . إذ من النادر أن يولد ولد قبل أن تبلغ البنت العاشرة أو الحادية عشرة .

ونظرت سلمى إليها ، بنوع من الرعب ... فعائشة لم تكن إلا طفلة صغيرة ، نحيفة ، وليست واحدة من هذه البنات اللواتي نضجن بسرعة ، بقوة الشمس ، على نحو ما يتخيّلهم الأوروبيون في تصوراتهم حول الشرق ....

ـــ هيا اذهبي ، وجيئيني بالأم فوراً .

وأمام أنواع اللوم التي وُجهت إلى الأم ، لم تحن هذه رأسها . وبكل عناد ، كانت تنظر إلى الراني . وكان في عينيها شيء من الحقد ، يكاد أن يكون تحدياً .

وانتهت سلمى إلى القول ، وهي منزعجة ، مشوشة :

ـــ ولكن أخيراً ، لماذا لم تطلبي مني شيئاً ؟

ـــ إن الراني ساهيبا (صاحبة) مشغولة جداً بأشياء هامة ، فلا مجال لأناسٍ من نوعنا أن يتجرؤا ويزعجوها .

وكان الاتهام واضحاً : إذ لما انصرفت سلمى إلى دراساتها الصوفية نسيت واجب الحماية لهؤلاء النسوة ، وهؤلاء الأطفال ، المتعلقين بها . وبسبب أنانيتها ، ولا مبالاتها ، تعتبر هي المسؤولة عن مصير عائشة .

« فمن لا يتأثر بأي شيء ، حتى ولو كان يصيبه هذا الشر أو ذاك الخير ، والذي لا يكره ،

ولا يستمتع ، هذا الرجل هو حكيم » . فما هو رأيك ، أيتها الصغيرة عائشة ، بحكمة البراهمين ؟ وما هو رأي ملايين البؤساء الذين يسكنون هذه البلاد ؟ وعندئذ تلقي سلمى بنظرة حاقدة على الكتب المقدّسة التي تعمر مكتبها . فتتجه إلى الخادمة وتقول لها :

ــ ضعي كل هذه في الخزانة .

وكانت رغبتها في البكاء ، غضباً ، كبيرة جداً . لا ، إنها لم تصل إلى الزهد الأعظم الذي يتيح للإنسان أن ينصهر في الذات الإلهية ، ولم تبلغ « هذا الصفاء النفسي الواسع والعذب ، الذي ينفي كل هوى وكل حزن » . وهي سعيدة بذلك . أو يمكن أن نتجرّد ، ونحلّق فوق مصائب الناس جميعاً ، بحثاً عن السلام الشخصي ؟ فبأي حق ، يا ربي ، بأي حق ؟

وبعصبية تروح وتجيء داخل غرفتها : « سيقال إني لا أفهم من هذه الأمور شيئاً ، وإنني لم أبلغ المستوى الروحي الضروري . وفي وسع الإنسان أن يفهم أخيراً كل شيء ، وأنا أعرف ذلك جيداً ، كل شيء ، ولكن للإنسان الحق أيضاً في أن يأبى هذا الفهم .

ــ امض ، سيكاندر ، يا ابني ، لا توفره !

ــ اذهبي ، يا حلوة ، يا لؤلؤة عيني ، اجعليه يجرب منقارك . بقوة ، وبقوة أكبر !

وكان المدربون يُحَمّسون المتبارزين بالصوت والحركة ، في الحين الذي كانت تنطلق فيه الحماسة ، وترتفع المراهنات . وما من مرة رأت سلمى المجتمع الراقي اللوكنوفي ، اللا مهتم عادةً ، ينفلت بهذه الصورة . وكان سُمانيان ، ريشهما منفوش ، والأظافر غاضبة ، يتحدّى كل منهما الآخر ، ويعلو الصراخ . وكانت العيون تلمع ، والأيدي المثقلة بالخواتم تتشنج ، والشفاه تتضاغط ، في توقع قلق ، ثم تنفتح لتطلق صرخات فرح أو أسف وغيظ . أما المبالغ المراهن عليها ، فقد كانت ضخمة ؛ ولن يستطيع بعض هؤلاء أن يفوا ديونهم ، هذا المساء : وعليهم أن يرهنوا حليّ زوجاتهم ! وماذا يهم ! فالساعة الآن ليست بالساعة المناسبة للاهتمام بمثل هذه التفاصيل .

والشيء المهم في هذه اللحظة ، هو المعركة . وعندما ترى هذه الأرستقراطية هذه الطيور متصبة على شوكاتها ، وتختصم بهذا العنف ، وهذه الحمية الضارية ، وهي التي لم تعد تحارب ، بعد أن ضبطتها السلطة البريطانية ، منذ قرن ، وروّضتها ، وعندما يرى هؤلاء الأمراء الذين تناعسوا في حياة

الترف واللذات، جيلاً بعد جيل، وفقدوا لذة الحرب، تراهم يشعرون بغليان الدم في عروقهم، ذلك الدم البطولي الذي ما زالوا يحملونه من أجدادهم المغول. وها هي الطيور الآن تنتصب ببسالة، وتحمل على عدوها، وتنقض دون اهتمام بالخطر، وتضرب ضربات جريئة، مميتة ... ذلك أن عليها إما أن تنتصر أو أن تموت. فشجاعتها بلا حدود، وأمجادها عظيمة.

ولقد انفجر الدم على القماشة البيضاء. وذلك الطائر الجريح، المستنزف القوى، يتخبط بدمه تحت ضربات خصمه الهائجة، ذلك الخصم الذي أقبل بمنقاره الحاد، كالخنجر، ليقضي عليه.

وتعلو صرخات الألم، والبقع الحمراء تتسع ... عائشة، أيتها الصغيرة عائشة.

ولقد عضت سلمى على شفتيها كيلا تصرخ. فهنا على هذا القماش الأبيض، رأت الطفلة يسيل دمها، وتتخبّط ضد هجمات شيطانية، رأتها وهي توشك أن تموت.

وحولها، على المقاعد المخصّصة للنساء، كان الهيجان في أعلى ذراه: وهؤلاء النسوة الرقيقات، يتمتعن بهذه المعارك كما يتمتع رجالهن على الأقل، ويتراهَنّ على أساورهن الذهبية، لعدم وجود النقد في جيوبهن.

وتأتي ماهاراني كاريمبور Karimpour، فتسأل سلمى:

ـــ كيف تجدين هذه الألعاب، أيتها الأميرة؟ فلوكنوف مشهورة بمعارك سمانييها، الأندر بكثير من معارك الديكة. فالسمانيات حيوانات مسالمة، ومن الصعب أن نجعلها عدوانية، وهذا يقتضي تدريباً طويلاً، كما يقتضي موهبة كبيرة. إذ يجب أن نجعلها تجوع مرة، وأن نداعبها مرة أخرى، حتى تصبح هذه الطيور السمينة، حيوانات قوية ومحاربة.

وتندهش سلمى، وتسأل:

ـــ ولكن لماذا؟ ألا يوجد ما يكفي من الحيوانات التي تدفعها غرائزها. إلى التقاتل؟

وقطّبت الماهاراني حاجبيها أمام هذا السؤال المستهجن.

ـــ عفواً، يا أميرة، فالفن لا يقوم على اتباع الطبيعة، بل على تغييرها! ولم تكن معارك الفيلة التي كان أجدادنا يستمتعون بها، إلا اختبارات للقوة الصرفة. وكذلك الأمر في المعارك الدقيقة جداً، بين النمور والرينوسيروس. وما هي المتعة بأن نشهد مجابهة بين أعداء طبيعيين! إن مجتمعنا بحاجة إلى

مسرات ولذائذ أكثر نعومة : أي إلى دفع الأصدقاء والمتحالفين إلى التخاصم ، وهذا هو الأمر الأصعب ، والأكثر إثارة !

وبدت ابتسامتها عندئذ وكأنها تحمل شيئاً من السخرية . وشعرت سلمى شعوراً واضحاً بأن مضيفتها لا تتكلم على السماني ، بل على الكائنات الإنسانية . وتتساءل ما إذا كان ذلك تحذيراً أو مجـرّد اعتراف بالتسليات اليومية في مجتمع يشعر بالضجر .

وتابعت الماهاراني كلامها ، فقالت :

ــ إن أهل لوكنوف لا يأخذون أي شيء مأخذ الجد ، باستثناء ألهياتهم . ذلك أننا مدينة قديمة جداً . ولقد عملنا كل شيء ولم نعد نؤمن بشيء هام . أفترين ذلك مدعاة للأسف ؟ إني لا أظن ذلك . فهذا يوفر علينا السخف والذوق الأعوج في التخاصم من أجل أفكار نأخذ بها اليوم ، ونهملها غداً . ونحن نقـدِّر ما تنطوي عليه المعركة من جمال . ولكننا لا نبحث لها عن مبـرّر : فهذه لعبة مثل غيرها . أفترين أنها انحطاط أرستقراطية تتضاءل قواها ؟ كلا . ذلك أن هذه العقلية ترينها سائدة في الشعب ، وحتى بين الفقراء . ولكن لما كانوا لا يملكون الكفاية من الدراهم لمشاهدة معارك الديكة ، فقد اخترعوا معارك البيض .

ــ معارك البيض ؟

ــ بلى ، إذ يضعون بيضتين ، الواحدة أمام الأخرى ، وتتم الرهانات ، ثم يلقون الواحدة على الأخرى : فالبيضة التي تنكسر هي المغلوبة بطبيعة الحال ، والدراهم التي روهن بها عليها ، تمضي إلى جيوب الذين راهنوا على التي لم تنكسر .

« ويرى الإنكليز أنهم مجانين ، وأن من الأفضل أن يأكلوا هذا البيض ، بدلاً من أين يفسدوه . إنهم لن يفهموا من شعبنا شيئاً أبداً . وأية حقارة أن نردّ هؤلاء ، بحجة أنهم فقراء ، إلى مجـرّد أنابيب هضمية ! فلندعهم يتمتعون ويحلمون ، كما يحلو لهم » .

وقد جاءت بعد معارك السماني الآن ، استعراضات الحمام . ولما كانت النساء فضوليات ، فإنهن يزدحمن لكي يعجبن بآخر حوادث العام . وفي الشرق كله ، يغرم الناس بهذه الطيور التي تجمع الوفاء إلى الذكاء . وتتذكر سلمى بأنواع الطيور العديدة والنادرة التي كانت تربى لمسـرّة السلطان ، في قصر يلديز وضولمة باهتشه . ولكنها لم تر قط حمائم عجيبة كهذه التي تراها اليوم :

فلبعضها جناح أخضر ، وجناح آخر بلون زهري حار . ولبعضها الآخر ، على أعناقها أشكال زهرية ذات ألوان حلوة جداً .

وتشرح لها الماهاراني الأمر وتقول :

ــ لا تظني أن هذه ألوان مصبوغة . فذلك عمل تافه ولا يدوم طويلاً . وحتى تنشأ هذه الروائع ، كان لا بدَّ من اختصاصيين ينتزعون الريش ، ريشة بعد ريشة من الحمام ، ويضعوا مكانها ، ريشاً ملوناً من طيور أخرى ، أو من ريش وُضع أياماً كثيرة في حمامات صباغ نباتي . وتحتفظ هذه الطيور التي زينت بهذه الصورة ، بريشها الضخم سنوات عديدة . وتباع بثمن غال .

وتقدَّم عبدان يحملان قفصاً مذهباً . وبعد أن اتخذا احتياطات كبيرة ، أخرجا حيواناً غريباً ، واندفع بعضهن حول سلمى يصرخن صرخات إعجاب . فإذا بالطير ــ يطير ويقف على كتف سيده ، الراجاه العجوز ، راجاه ويرغبور ، وهناك ، بقي ساكناً ، وأخذ يهدل لمدة طويلة . وعندئذ فقط أدركت سلمى أن الأمر يتعلق بطائر ذي رأسين .

وتتعجب جارتها ، وتتحمس ، وتقول :

ــ أليس هذا عجيباً ، فهل رأيت يوماً ما في البلاط العثماني حمامات لها أكثر من رأس؟

ومن القفص نفسه ، يخرج العبدان نصف دزينة من هذه العجائب الثمينة ، فتنتقل من يد إلى يد ، ويمسونها بنعومة ، ويعجبون .

ــ أية مهارة هذه ! فالناس لم يصلوا إلى إنتاج مثل هذه الطرائف منذ عهد الملك ناصر الدين حيدر . وحقاً فما من بلد غير لوكنوف ، يستطيع فيها الناس أن ينتجوا مثل هذا ...

وسلمى التي ظنت أنها أمام غرائب أنتجتها الطبيعة ، تفهم الآن بدهشة ، أن هذه الحمائم المزدوجة الرؤوس ، قد نشأت على يد الإنسان . وكانت جارتها لطيفة ، فشرحت لها العملية التي تبدو نظرياً ، بسيطة جداً .

ــ يكفي أن نأخذ حمامتين صغيرتين ، ونقطع لأحداهما جناحها الأيمن ، وللأخرى جناحها الأيسر ، ثم نخيطهما بقوة معاً . ولكن الأمر بعد ذلك يصبح صعباً ، لأن الطيور التي تعامل بهذه الصورة قلما تعيش . ويجب أن تحاط بأكبر العناية . وعندما يلتئم الجرح ، وتصبح الحمامتان في عمر النضج ، تعلّمان الطيران ، مما يحتاج إلى الكثير من الصبر والمهارة .

وتذهل سلمى مما تسمع، وتقول مستنكرة :

ـــ أية وحشية !

ودهشت النسوة، وأخذن يحملقن فيها. وتصدّت واحدة منهن، وهي هندية، للجواب، وانحنت باتجاه سلمى، وقالت :

ـــ أهذا أكثر وحشية من قتل الحيوانات لأكلها؟ وهل تعتقدين ذلك، يا صاحبة السمو؟

ولكن بمَ تجيب؟ أتجيب بأن التشويه لتتلذذ العيون، شيء آخر غير القتل من أجل الطعام، وأن الفرق ... الفرق ... إنها لم تعد تعرف كيف تكمّل جملتها، فتؤثر الصمت.

وكما لو أنها تحلم، سمعت اللواتي حولها يتناقشن حول الثمن الذي يدفع لمثل هذه الغرائب : فنواب داليور دفع ١٠٫٠٠٠ روبية، ولكن عبثاً ... «يا عائشة، كم واحدة من نوعك يمكن إنقاذها بثمن واحدة من هذه الحمائم؟» وشاءت الماهاراني أن تخفف عنها كآبتها، فاقتربت منها، وقالت :

ـــ هل تعرفين بأن بهادور شاه، آخر سلاطين المغول في دلهي، كان يملك آلافاً من الحمائم، وأنه في كل مرة كان يخرج من القصر، كانت هذه الحمائم تطير فوق رأسه في صفوف متراصة، لحمايته من ضربات الشمس؟ أما الرجل الشاذ ماجد علي شاه، آخر ملوك الأود، فإنه كان يملك ٢٤٠٠٠، كان بينها نوع نادر جداً، ريشه من الحرير. ولقد اضطر إلى التخلي عنها عندما أزاحه البريطانيون عن عرشه، وفقد كل ثروته. أما أحفاده، فإنهم يعيشون في البؤس. وانظري الآن إلى هذا السيد العجوز، الذي يرتدي لباساً من الزي القديم، أي ثوباً من البروكار المثني؟ إنه حفيده، الأمير شاهاد Shaad. وهو رجل لا يتراجع عن رأيه. وقد أبى أن يتعلم أولاده الإنكليزية خوفاً من أن يسوقهم القدر ذات يوم لخدمة المغتصب. وهكذا فإنهم بدلاً من أن يُعيّنوا في وظائف محترمة في الإدارة، يرهقون أنفسهم وعيونهم بتطريز أثواب الساري، بأجر تافه قدره ثلاث روبيات في اليوم الواحد ... أي ما لا يكاد يكفي إلا بالجهد لطعام أطفالهم، ولا يكفي على كل حال، للعناية بالأميرة، أمهم، التي تقبل على الموت، من مرض السل.

ـــ ولكنه يستطيع على الأقل أن يبيع الفيروزة الكبيرة التي تغطي تقريباً كل بنصره.

ـــ أبداً. فهذا الحجر الأزرق هو آخر مورد له. وهو الذي يتيح له أن يعيش.

وتتخيل سلمى لحظة، هذا الأمير، يأكل دقيق هذا الحجر الكريم، كما كانوا يفعلون في الماضي، لتقوية رجولتهم، عندما يَسْتُفُون دقيق اللآلىء الناعمة، المحلول في الخل.

وتتابع الماهاراني كلامها، فتقول:

ـ إن هذا الفيروز هو الحجر الذي يجلب السعادة، في رأي الشيعة، وأهل التيبت معاً. ويحمل أمراؤنا حجارة كريمة من هذا النوع، جميلة جداً. وهذه الهواية للعب، التي كنت أتحدّث لك عنها منذ قليل، تفسح المجال لمعارك فيروزية. فإذا اجتمع الناس في مكان ما، اعتبر من يحمل أجمل حجر، هو المنتصر ويتملك كل الحجارة الأخرى. ولكي يساعد الناس الأمير شاهاد Shaad، دون أن يجرحوا كرامته، يزورونه أحياناً وفي أصابعهم حجارة فيروز عادية، يفقدونها بطيبة خاطر لكي يسدّدوا عنه أكثر الديون إلحاحاً.

فأي مفهوم غريب للشرف! إن تركه زوجته تموت من قلة العناية، وحبسه أولاده في حياة بائسة، وحجبهم عن كل مستقبل، عوضاً عن التلاؤم مع الشروط الجديدة.... وبين هذين الموقفين ـ موقف المرونة الكبرى، والتذلل الخانع، لهؤلاء الراجاهات، تجاه المحتل البريطاني، والصلابة التي لا تنحني لدى مثل هذا الأمير العجوز، تحار سلمى في أيهما هو الأسلم. ولكن أليس هناك من حل وسط؟ إن أولئك الذين ظنوا ذلك، وأخذوا به، ضاعوا في متاهة الحلول الوسطى التي تؤدي إليها كل صلة مع القوة المستعمرة، وجلبوا على أنفسهم أخيراً، حذر الهنود وحذر البريطانيين.

أوليس هذا هو الخطر الذي يترقب أمير، وهو الذي سبر، بأكبر الجهد، جوانب القوة والضعف لدى الخصم، والذي تملّك بالصبر أسلحته، بأمل الانتصار عليه ذات يوم، أمير، الإنكليزي أكثر من الإنكليز في الظاهر، والمقتنع بأن عليه أن يحارب هؤلاء على الأرض التي هو فيها، أمير هذا، الذي سيحضر غداً مع كبار أمراء الأود، حفلة الاستقبال الكبرى (الدوربار) التي سيُوَزّع فيها الحاكم هاري ويغ، كما هي العادة في كل عام، الألقاب، والامتيازات على الخدم الأوفياء للعرش؟

وكان تحت الخيمة ذات الألوان الصارخة، المنصوبة في حديقة مسكن الحاكم، مجموعة متميّزة ـ باللباس الرسمي، والشيرواني البروكار ـ تتبادل فيما بينها أحاديث لطيفة بانتظار سعادته.

وفجأة، وفي نوع من التبادل بين قرع الطبول، والصنوج، الذي أرغم الرؤوس كلها على الانتصاب، بدأت الأوركسترا ذات اللباس الأحمر المذهّب، تعزف النشيد البريطاني: ليحفظ الله الملك: إنها الساعة التاسعة والنصف تماماً.

وظهر الحاكم، في اللحظة الدقيقة المعينة، كما ينبغي لممثل من ممثلي جلالته، وكان شاحباً في ثيابه الرسمية العظيمة، السوداء، التي كانت تلمع عليها أوسمته، وظهرت الليدي فيوليت، وعلى رأسها قبعتها، وعلى يديها قفازاها، ووراءها مجموعة من الحاشية والمساعدين والموظفين الملط، الجرد، في أرقى وأفضل أحوالهم.

ونهض كل الناس، على حين أن السر هاري وزوجته كانا يتخذان مكانهما تحت القبة الذهبية، وهي القبة نفسها التي كان يجلس تحتها ملوك الأود، منذ أقل من قرن، في العصر الخرافي، لشدة ما يبدو بعيداً، أي عندما كانت الهند لا تحكم بسلطة بيضاء.

ثم أعلن عن افتتاح الاستقبال.

«خان بهادور... والرائي بهادور، والسردار صاحب..» بهذا دوى الصوتُ معلناً عن الألقاب الممنوحة مقابل الخدمات الطيبة والمخلصة. وتقدّم المختارون فوق البساط الأحمر، بعد أن انتفخوا شعوراً بأهميتهم. وانحنوا باحترام أمام العرش حيث يتفضل ممثل الملك الأمبراطور فيقدّم إليهم، بكرم، ذلك الوسام الذي يكرّم حياة كلُّها إخلاص، لأنبل قضية، أي لذلك التحالف الذي لا ينفصم بين أمبراطورية الهند وبين العرش البريطاني.

وفي هذا العام، مُنح عشرون لقباً، بدءً من أكثرها تواضعاً، وهو ما حصل عليه «خان صاحب» ـــ السيد ـــ «حتى أعظمها شأناً، أي لقب الفارس، صاحب رتبة نجمة الهند». ولقد كرّمَ بعضَ الراجاهات بالإنعام عليهم بلقب المهراجا الذي يعني «الأمير الكبير». وكان كل لقب يُمنح، يُحيّا من قبل الحاضرين بتصفيق خفيف. فيبتسم الناس، ويهنىء بعضهم بعضاً.

فهل يمكننا أن نتخيّل، أنه بينما كانت هذه الحفلة تتابع مسيرتها، أي حفلة الولاء والتبعية، كانت هنالك جماهير واسعة، يقودها المهاتما غاندي، تتمرد على المحتل، وكان الجنود البريطانيون يطلقون الرصاص على المتظاهرين، وكان عشرات الملايين من المسلمين المتجمعين حول قيادة محمد علي جناح، قد انضمت إلى الهندوس، مطالبة برحيل البريطانيين، وإعلان الاستقلال؟

الاستقلال؟ كلمة تجمّع من أجلها، منذ سنين، أهل البلاد جميعاً، وصارت شعاراً

يهتِفُ له كل قلب، وتحييه الجماهير من كل صوب، ولا يستطيع الرصاص أن يقضي عليه، كما يعزِّزه ما يُسفك من الدماء يوماً بعد يوم. الاستقلال! إنه كلمة سحرية لشعبٍ مضطّهد، يتوقع أجمل الوعود، في المستقبل، بعده.

وهنا، على هذا العشب المقصوص جيداً، وبين أحواض البيجونيا، تجلس النخب جلسة مهذّبة، معترفة بالجميل، أو شديدة الاحترام! ويظن الإنسان أنه يتخيّل. فهل هذا جبن أو لا مبالاة؟

وفجأة تتملّك سلمى رغبة غاضبة في شتمهم، هؤلاء القرود المروّضة جيداً، والتي لا تفكر إلا بتقليد سادتها. «تُرى كم يجب أن يحتقرنا الإنكليز؟» ولماذا قبلت المشاركة في هذه المسخرة؟ ولم أصرَّ أمير على حضورها؟

وتبحث بعينيها عنه، في الجانب الآخر من المساحات المعشبة. فرأته بين جمع صغير من أصدقائه، والأمراء الذين، كما تعلم هي، يدعمون الحركة الاستقلالية، ويُموِّلونها. فلِمَ إذن هذه الازدواجية. ولم يحدث قط أن قبلوا بأي تميّز للتاج البريطاني، ولكنهم مع ذلك يقيمون مع المحتل أفضل العلاقات. أتراهم يفعلون ذلك ليحملوه على النوم، وضربه بعد ذلك بالخنجر في الظهر؟ إن هذا ما يدّعيه أمير الذي يُحبُّ أن يبرهن على أن الإنكليز أقوياء جداً، وأنه ليس من السهل طردهم بالقوة.

ــ ولكنها كانت قد ألحّت مرة أخيرة قبل المضي في الطريق من أجل الوصول إلى الدوربار، وقالت: أحقاً هنالك حاجة ماسة لحضور احتفالات تؤذي السمعة إلى هذا الحد؟

ــ إن منظر تقاعس البعض منا، وتعاظم سادتنا، أمر مفيد جداً، وصدقيني فيما أقول: إنه يغذي الكراهية.

ولقد رأت أن سلاميات أصابعه تبيضّ فوق القبضة الزمردية التي تعلو سيف الحفلات الرسمية.

وفي هذا المساء، بعد الدوربار، يقيم الحاكم حفلة راقصة كبيرة، دعيت إليها أكثر شخصيات المنطقة. وسيكون فيها تقريباً حوالي ألفي مدعو، من هنود وإنكليز.

وقضت سلمى، كل ما بعد الظهر، في تأنيق نفسها، مهتاجة كفتاة تبدأ التعرّف على العالم. ومنذ وصولها إلى الهند، وها قد مضى على ذلك أكثر من سنة، كانت هذه الحفلة الراقصة أول حفلة تحضرها. ولقد قـرّرت أن تكون أجمل واحدة بين النساء لحمل هؤلاء الإنكليزيات اللواتي يتظاهرن بأنهن لا يعرفنها، على أن تصفر ألوانهم، من الغيرة.

وبعناية فائقة، اختارت «ساري» أزرق اللون، مطـرّزاً بقطع صغيرة من الماس، وحقيبة يد قاتمة، لإبراز بياض بشرتها. ثم أضافت إلى عنقها، وقبضتي يديها، وثنايا شعرها، بعض أحجار الزمرد التي تعرف كيف تتألق.

ووقف أمير على عتبة البهو. فما من مرة رآها جميلة إلى هذا الحـدّ. فتراه يتأمل، بزهو واعتزاز. ففي هذا المساء ستغار منها المدينة كلها. وما من أمير، وما من واحـد من الإنكليز، يستطيع التفاخر بأنه يملك مثل هذه الجوهرة.

وينتصب قصر الحاكم عظيماً، أبيض، في آخر ممر لا ينتهي، محاطٍ بأشجار النخيل. وعلى المدخل، الشديد الإضاءة، يقف الحرس، بوجوه لا حركة فيها، تحت العمائم السوداء والحمراء المزيّـنـة بشعار التاج البريطاني، ليؤدوا التحية. وفي أعلى السلم، يستقبل المدعوين أمينـا سر سعادتـه، بالفـراك الأسود والياقـة المنشّـاة، على الرغـم من الجو الحار في هذه الليلـة من نيسان / أبريل /. ولن يأتي السيد الحاكم السر هاري، والليدي فيوليت، ممثلا جلالتيهما، إلا عندما يجتمع هؤلاء كلهم. وهناك عشرات من الخدم منتشرون بين المدعوين. وهؤلاء يوجّـهـونهم، من خلال الممر ذي الأعمدة التي تعلوها تيجان كورنثية، ذات لون زهري شاحب، إلى صالون الشرف.

وهذا البهو خليط جنوني من الفيروز والذهب. يقف على أقواس ناعمة، تبرزها أكاليل من عجين المرمر. وفوقه، على عشرة أمتار من الارتفاع، ينفتح بهـوٌ دائري قصير بين ألواح صغيرة تعلوها قباب نُـحتت بنعومة كبيرة.

ويبدو المكان هائل الاتساع، بالرغم من الجمهور المحتشد فيه. وهناك تجد الفراك الأسود يختلط بالشرواني، وباللباس العسكري الفخم، الذي يتميّـز به جيش الهند: جاكيتات قصيرة، قرمزية اللون للضباط المشاة، أو زرقاء مطـرّزة بالفضة، بالنسبة لضباط سلاح الفرسان.

وكان هناك عدد قليل ممن يحملن الساري على ما كانت تتوقع سلمى ـــ ذلك أنهم قلائل فعلاً

أولئك الهنود الذين يقبلون أن يعرضوا نساءهم على الناظرين الغرباء . وبالمقابل نجد كثيراً من لابسات ثياب السهرة ، ذات الألوان المدهشة أحياناً . « وتفكر سلمى وتقول : إنه لغريب حقاً أن تستعير الإنكليزيات من هذا البلد ، حتى ألوانه الأكثر عنفاً ، كهذه الفساتين الشديدة الصفرة ، أو ذات اللون الزهري الحاد ، أو البنفسجي المعمي . أتراهن يبحثن عن إخفاء بلادتهن الطبيعية ؟ ولكن ماذا أتخيّل هنا ؟ أوليس كل ما هو إنكليزي « أعظم من كل شيء » ؟ فهذا الذي يبدو لنا نحن البشر العاديين ، تافهاً ، بشعاً ، لا يُحتمل ، ينبغي أن يبدو لهم قمة في التميّز . ومن هنا جاءت قوتهم : فليس لديهم حالات نفسية متميّزة ، ومهما يحدث فإنهم مقتنعون ، فإنه لا يمكنهم إلا أن يكونوا الأفضل . » .

ــ أميرة !

وبصورة لطيفة يدفعها أمير بالمرفق ، لكن سلمى الشاردة في أفكارها ، لم تر الحاكم الذي وصل ، لا هو ولا زوجته ، وها هما الآن واقفان ، في منصة الشرف ، في الحين الذي تعزف فيه الأوركسترا النشيد الوطني . أما حفلة التعريف ، وهي القسم الأهم من الأمسية ، فإنها ستبدأ عما قريب .

ويقوم المعرِّف ، بذكر الأسماء والألقاب العظيمة للشخصيات الحاضرة . ويتقدم الأزواج ، الواحد بعد الآخر ، بين صفين من الفضوليين . ويُرى بعضهم وقد منح كلمة ، أو ابتسامة تلاحظ فوراً من قبل الحاضرين ، وتكون موضوع تعليقات لا تنتهي فيما بعد « تماماً كما كان يجري في البلاط العثماني ، ولكن بصورة ريفية طبعاً » ، على ما تفكر به سلمى ، مضيفة إليه حركة ما في وجهها ، تنمّ عن الاشمئزاز .

ــ صاحبا السموّ راجاه وراني بادالبور .

وساد الصمت ، حين كانا يجتازان الصالة الواسعة ، ببطء . وهما يلفتان النظر بجمالهما ، فاتجهت الأنظار كلها نحوهما ، مذهولة بما هما عليه من عظمة وسموّ .

وعندما وقفا أمام المنبر ، وابتسما ، برقة هادئة ، للحاكم ، شعر الجمهور أنهما هما المضيفان الملكيان ، وأن السر هاري وزوجته ، هما من رعاياهما . ويحزر أمير ما تعنيه التمتمة . فلو استطاع أن ينتصب أكثر ، إذن لفعل . ذلك أنه في هذه اللحظة أمبراطور ، وسلطانته ليست إلا التاج الإضافي المضاف إلى ألقابه وثرواته .

— يا عزيزي أمير ، تصوّر أنني كنت أقول لليدي فيوليت إنك أنت وزوجتك لستما جميلين فقط ... بل أنتما تجسّدان الجمال .

وامتقع وجه الراجا . ذلك أن الإشارة إلى جمال الزوجة ، شتيمة بالنسبة للهندي . ولا بدَّ أن السر هاري يعرف ذلك . والحقيقة أنه ينتقم ، بمكر بريطاني تماماً ، من وقاحتهما .

وألقى أمير ، بسرعة ، نظرة على من حوله . وفيما عدا المرافق العسكري ، فإنه ما من أحدٍ يبدو أنه سمع ما قيل . فيتنفس الصعداء . ولكن الدرس حُفظ تماماً : فلن يغامر بعد الآن باصطحاب الأميرة لزيارة هؤلاء البرابرة !

ويخطر بباله عندئذ ، أن كل رجل حاضر يعرّي زوجته ، بعينيه . فيشد قبضتيه : ويتمنى لو أن الناس جميعاً يرونها ، ولكنه لا يستطيع أن يحتمِل أن ينظر إليها أحد . ويلاحظ عندئذ غاضباً مشيتها المتثنية ، المتموجة ، وجسمها المياس المتفتح الذي يبرز الساري قسماته . فأين تظن أنها موجودة ؟ وعليه أن يوصيَها ببعض الاحتشام . وفجأة ، يفاجىء نفسه ، وهو يتمنى أن تكون بشعة .

وانتهت حفلة التقديم . وتعزف الموسيقى فالساً لشتراوس ، وينحني الحاكم أمام الليدي فيوليت ، مفتتحاً البال ؛ وعلى الحلبة ، يظهر أوائل الراقصين . ومضى أمير للقاء أصدقائه ، تاركاً سلمى وحدها بلا رفيق ، جالسة بصحبة بعض النساء الثريات . وكانت قد أملت أن يدعوها للرقص ، ولكن الفكرة لم تخطر له على بال . فمنذ أيامه الحلوة في أكسفورد ، لم يمارس الرقص ، وعلى كل حال ، فما من رجل يوافق على عرض زوجته أمام الناس . أما الهندوس ، فيرون أن الرقص هو أمر خاص بالعاهرات .

وتنظر سلمى إلى الراقصين يلفون ويدورون ، وبها رغبة إلى الرقص ، وغيرة ممن يرقصن . وتنظر كذلك إلى النساء يضحكن وقد أسكرهن النغم ، واستسلمن لذراعي مراقصيهم . فالسمينات ، والهزيلات ، والبشعات ، هؤلاء اللواتي ليس لهن أدنى حظ في أن يدعين إلى مثل هذا الاحتفال ، يكنّ في الهند أشياء نادرة ، يبحث عنها . وهنّ لا يتنازلن عن أية رقصة .

وتتابعهن سلمى بنظراتها . فأي ظلم ! فهي هنا محكومة بالبقاء مع العجائز والعاجزات . فماذا يجدي عليها أن تكون الأجمل ، والأكثر فتنة ؟ إن كل الناس يستمتعون ، وما من أحد يعيرها الانتباه ، ما عدا بعض « النوريات » اللواتي يتعلقن بفارسهن ، ويلقين إليها ببعض النظرات الساخرة ، أو اللواتي يقعن مرهقات وسعيدات ، على كرسي ، ويتصنّعن الدهشة أمامها :

ـــ كيف؟ أفلا ترقصين؟ ولماذا؟

وتحاول هي أن تتخذ وضع اللامبالية . ولكن هذا لا يخدع أحداً . فتلوم أمير على أنه تركها وحدها، فريسة لهذا السم، ولهذا السوء في النية . لقد اختفى . والأرجح أنه في بهو المدخنين . مشغول بالمناقشة؛ وهو قادر على البقاء فيه الليلة كلها ، تاركاً زوجته تنتظر ، وتعاني من السخرية .

ولكن ماذا لو تركت الحفلة؟ سيكون ذلك فضيحة؟ وماذا يكون من جرّاء ذلك؟ أوَليست لا مبالاة أمير بها، فضيحة أيضاً؟ إن هذا الأمر مسجم، فيما تعلم، مع العادات الهندية . ولكن أمير لا يستطيع أن يلعب باستمرار على الحبلين : فإذا هو اصطحبها إلى بيوت الإنكليز ، فليكن من الحياء بحيث يتصرف معها كرجل مهذب لطيف . وهؤلاء الأجانب يعتبرون أن موقفه تجاه زوجته برهان على اللامبالاة ، بل شتيمة وإساءة .

ـــ أوَ تمنحينني الشرف ، يا سيدتي؟

فارتعدت سلمى . ورأت أمامها شاباً ، شديد الشقرة ، يبتسم لها . وعندما لاحظ دهشتها ، اضطرب عليه الأمر؟

ـــ أرجو أن تغفري لي جرأتي ، إذ لم نكن يَـعْـرف أحدنا الآخر وأنا أدعى روي ليندون . وقد وصلت منذ مدة قريبة إلى الهند . وعليّ أن أتسلّم وظيفتي غداً لدى سعادته . وأنا لا أعرف أحداً هنا . وتساءلت عما إذا كنت تقبلين ...

وكانت سلمى على وشك أن تسمعه ما ينبغي له . ولكنه يبدو خجولاً جداً . فحملها ذلك على أن تبتسم .

ـــ أنا لا أرقص ، أيها السر .

ـــ حقاً؟

واحمرّ وجهه كطفل تلقى التأنيب . ولكنه لا يقول لها إنه يراقبها منذ مدة ، ورآها ملأى بالرغبة في الرقص . فكم كان غبياً عندما تخيَّل أن هذه السيدة الرائعة ... فاعتذر بنوع من التمتمة ، وكاد يستأذنها بالانصراف ، لولا أنها أشارت عليه بالبقاء .

ـــ تفضل فاجلس لحظة .

وكانت السيدات حولها لا يصدقن آذانهن. فأي امرأة قليلة الحياء، هذه الراني، هذه الراني الصغيرة! وبدأن يتبادلن النظرات ويترقبن الفضيحة.

« ترى كيف سيردّ أمير، إن أنا قبلت بمراقصة هذا الشاب؟ » بهذا كانت تفكر سلمى وهي تسـرّح النظر في هذا الشاب. « سيجعل من ذلك مأساة، هذا أمر بديهي! » وترى نفسها من جديد في لبنان، في الليلة التي قضتها في البارجة جان دارك، وتذكرت جنون وحيد، عندما رآها ترقص مع ضابط فرنسي. وعلى كل حال، فإن فكرة المأساة ليست، آخر الأمر، مما يسوءها؛ فهذا يقلب بعض الشيء هذه الحياة المصطنعة التي بدأت... تتعودها.

والشيء الذي أغراها لم يكن هو الرقص بالدرجة الأولى، بل هو الخوف من أن تدع نفسها تُبتلع، وغريزة البقاء، التي جعلتها تنتصب وتقول: « هيا نرقص! ».

فهل روي ليندون هذا راقص فالس استثنائي، أو اللحظة المسروقة، هي الشيء الاستثنائي؟ وماذا يهم! فتستسلم وعيناها نصف مغلقتين، للعاصفة التي تحملها، بسرعة، ثم بسرعة أكبر، وقد طاش عقلها من الموسيقى، ومن كل هذه الشموس، وهذه الزخارف الحلزونية المتألقة، التي تتراقص في السماء الفيروزية.

ولكن لِـمَ توقفت الموسيقى؟ إن اللا حركة جعلتها فجأة تترنح. فتقبض بيدها على ذراع مراقصها الذي يبدو أنه ابتعد عنها، بدلاً من أن يسندها. فأصابتها الدهشة، وفتحت عينيها، فإذا بهما أمام أمير، وقد امتقع لونه إلى أبعد الدرجات.

واستبعد أمير هذا الشاب بقفا يده وحتى من غير أن يلقي إليه بنظرة. فمثل هذه الأمور تُسـوّى بين الرجال، بعضهم مع بعض.

— ستقدم لي الحساب عن هذه الإهانة، أيها السيد، بدءً من صباح الغد. وأترك لك الخيار في السلاح.

ودهش الرجل، وبدأ يحملق في الرجل الذي يواجهه. فهل هو مجنون، أو أن الأمر صار إلى ما صار إليه بمحض المصادفة...؟ واجتمع حولهم رهط صغير من الفضوليين، ولكن ما من أحد سيغامر بالتدخل، لأن الناس يفهمون خطورة الموقف، ويتعاطفون مع الراجاه. بل إن في هذه القضية ما يمس شرفهم جميعاً.

ــ ياعزيزي الراجاه ...

ولفت صوت الحاكم كل الرؤوس . ذلك أن السر هاري أنبىء بما وقع . ورأى أن من المفيد أن يتدخل في الأمر ، هو بنفسه . إذ لا مجال لترك هذا الحادث السخيف ــ أي قصة امرأة ، كما هي العادة ــ ينقلب إلى مقتلة . وهو يجد نفسه مُحرجَاً ، في أن يشرح لوالد ليندون أن وريثه قد هلك في مبارزة لأنه تجرأ ودعا امرأة متزوجة إلى الرقص معه . ذلك أنه لا يشك لحظة واحدة في أن الراجاه سينتصر فيها ، وهو يعرفه كرجل يحسن التصويب ، بصورة مخيفة .

وعدا ذلك ، فلو فرضنا أن الراجاه هو الذي قُتل ، فإن الأمر لا يكون إلا على درجة أكبر من الخطورة : ففي الجو السياسي الحالي ، سيكون قنبلة حقيقية . وستجعل الحركة الاستقلالية من الراجاه شهيداً اغتيل من قبل السلطة الاستعمارية ، لأنه أراد الدفاع عن فضيلة زوجته . وسيصبح الزوجان رمزاً للفضيلة ، بالنسبة لكل هذه الزوجات الهنديات ، ولشرف كل الأزواج ... مما يكفي لقيام ثورة .

وخلال ساعة كاملة ، بذل الحاكم جهده لتهدئة الراجاه . واستخدم كنوزاً من الديبلوماسية . ذلك أن البرهان على حسن نية الشاب دون اتهام الراني ، شيء يتطلب مواهب لا تتوفر إلا بصورة استثنائية . أما براءة ليندون فمؤكدة . وكما شرحها هو ، بشيء من الخجل ، فإنه لاحظ امرأة شابة وحدها ، وكان يبدو أنها ضجرة . ولم يخطر بباله قط ... ويتقدم بكل ما لديه من قوة بالاعتذار ، وهذا ما أثار أمير أكثر فأكثر ، بدلاً من أن يهدئه . ذلك أنه يجب أن يوجد في هذا الموقف واحد مذنب : فإذا كان هذا الشاب يقول الحقيقة ، فهو مضطر إلى القول إن الراني هي المسؤولة الوحيدة ، وأنها أمام الألفي مدعو المجتمعين هذا المساء ، داست كرامته ، بصورة متعـمّـدة ! ليس له إذن من خيار . ويجب أن يقتل هذا الإنكليزي .

وبدأ السر هاري يفقد هدوء أعصابه : فلئن أصر الراجاه على غسل العار بالدم ، فسيكون أسلم منطقاً وأكثر نجعاً ، إذا هو قتل زوجته ! ولكنه يكتفي بملاحظة أن حسن الحظ جعله بين أناس متمدنين ، ولولا ذلك لانقلب هذا الحادث إلى مأساة . وطبيعي أن هذا ليس خطأ الراني ، ذلك أن تربيتها الغربية لم تهيئها للحياة في الهند . ومع ذلك ، فإنه إذا أمكن أن نشرح لها بعض الأشياء ...

وكأنما ضرب أمير على جرحه ، فانتصب قائلاً :

ــ يكفي هذا، ياصاحب السعادة. فهذا الأمر لا يتعلق بأحد غيري. ولن تكون هناك مشكلة: بل سأقضي عليها من جذورها.

وارتعد السر هاري: «أيكون في وسعه أن يقتلها؟ أوه، وعلى كل حال، فإن هذا ليس بالأمر الذي يعنيني، وما دام الهدوء يسود في الخارج، فغير مهم ما بعده!».

ــ اعتباراً من اليوم لن تخرجي من غرفتك. وسيحمل إليك طعامك هنا. وممنوع عليك أيضاً أن تتنزهي في حديقة القصر، أو أن تستقبلي صديقاتك: إذ ستعرفين كيف تقنعينهن بإيصال الرسائل. ومنذ الآن ستضعين البرداه الأكثر احتشاماً.

وكانت الراني عزيزة، الواقفة بجانب أخيها، والتجسيد الحي للفضيلة، مبتهجة تماماً: فلقد توقعت هذا، وكانت قد عرفت أن هذا الأمر سينتهي نهاية سيئة.

ويتابع أمير كلامه، بصوت مرهق، فيقول:

ــ لقد كنت مفرط الطيب معك. وكنت أثق بك، وقد خنتني، وأذللتني. ولما كنت عاجزة عن السلوك بشكل محتشم، فإنك ترغمينني على إرغامك عليه. ولا أفكر في أن أدع امرأة تهين شرفي.

وتركا الغرفة، وأغلقا الباب. وسمعتهما سلمى يديران المفتاح.

أسجينة أنا إذن؟ كيف يجرؤون. ستشكو الأمر إلى العدالة، وإلى نائب الملك نفسه. وإذا كان هذا لا يكفي، فأمي في بيروت تعرف كيف تثير الرأي العام!

ويعود إليها منظر هذه المرأة العجوز، نصف المجنونة، التي كانت تهتف بها قائلة: «اهربي، بسرعة، قبل أن يفوت الأوان!» فيتملكها الرعب؛ فتندفع إلى الباب، وتقرعه. ولا من مجيب.

ولأول مرة، تخاف سلمى؛ فمن يستطيع أن يساعدها. إذ ما من إنسان يظن أنها سجينة. وسيعرف أمير والراني عزيزة كيف يوجدان ألف مبرر لغيابها عن الاجتماعات العامة. ولن يعجب من ذلك أحد. ذلك أن النساء في الهند قلّما يخرجن. وحتى إذا كان الناس في البداية يطرحون بعض الأسئلة، فمن سيفكر بالتحقيق عما يجري داخل القصر؟ وسرعان ما تُنسى كما نُسيت أم راني

نامبور . وارتعدت سلمى عندما خطرت ببالها هذه الفكرة . ولكن أبداً . وربما ماتت ، ولكنها لن تدع نفسها تقبر حيّـة .

١٥

ــ لا أستطيع ، هوزور ، فالراجاه ربما قتلني .

وتراجعت الخادمة إلى الوراء ، وهي تهزّ رأسها ، واليدان منقبضتان وراء الظهر ؛ كلا ، إنها لن تأخذ العقد الذهبي ، ولن تحمل الرسالة . فالسيد سينتقم . وهو من القوة على جانب عظيم : إنه يعرف كل شيء .

ــ كلا ، هوزور ، إن هذا مستحيل ...

ومن شدة التعب ، تدع سلمى العقد يسقط . وقد بدأت تفقد الأمل ، لأنها سجينة منذ ثلاثة أيام . ورغم الخوف ، فإنها لاحظت في نظرة هذه الخادمة الصبية ، التي جاءت حديثاً ، شيئاً من التعاطف . ولكن الخوف كان الأقوى . فبأي عقوبة مخيفة هـدّدهم أمير ، حتى بدا الطعم عاجزاً ؟

أأمير أم الراني عزيزة ؟ إنها الأخيرة حتماً ، التي سَعدت بكونها استطاعت أخيراً أن تنتقم ، وأن تكون السيدة من جديد . ولم يكن أمير لبفكر مطلقاً في أن يمنع عن سلمى خادماتها ، أو ليكون من السخف بحيث يضع أمام باب غرفتها هذا الخصيّ الطويل الأسود ، المسلّح بسيف هائل ، كما لو أنه غول مهزلة مكلّف بإخافة البنت الصغيرة .

ومنذ تلك الليلة المشؤومة ، لم تر سلمى زوجها ، إذ لقد نقل حاجاته الشخصية ، وعاد إلى

جناحه الذي كان فيه أيام العزوبة. ولو استطاعت أن تكلمه، إذن لأمكنها أن تثنيه عن هذا كله، لأنه يحبها، رغم كل شيء، لكن اتصالاتها الوحيدة، تمر بطريق الراني عزيزة؛ فأخت الراجاه هي التي تراقب الأخبار التي تخرج من الزينانا. وهنا يكمن الخطر. وربما تركت سلمى نفسها تموت، وأمير لا يعرف شيئاً عن ذلك.

وفي اليوم الأول، صاحت صياحاً شديداً من الغضب، والدهشة: ذلك أنها لم تكن تتصوَّر أنهم سيحبسونها كحيوان مؤذٍ، فلم تزد على أن بُح صوتُها، ومزّقت يديها على الباب الخشبي الذي بذلت أقصى الجهد للحصول عليه، هذا الباب الذي أرادته سميكاً، ليصون «صميميتها»، فإذا به اليوم يخنق نداءاتها. وفكرت بأن تهرب من نافذةٍ ما. ولكن النوافذ عالية أولاً، ثم إنها محروسة من قبل خصيّ لا ينقطع، ليلاً ونهاراً، عن مراقبة ما يحدث.

ولكن سلمى قررت أن لا تنحني أمام أي شيء يثبّط العزم. وعليها في هذه المجابهة، أن تحتفظ بكل قواها. ومع ذلك، فكلما مرّت الأيام، رأت أن الوضع الذي ظنته عابراً، يفرض نفسه، كحياة يومية لا تغيير فيها.

ولقد قال أمير: «لن تخرجي أبداً من غرفتك». ولكن ماذا تعني هذه «الأبداً»؟ وما من لحظة تتخيل أن هذا الوضع يمكن أن يكون نهائياً؛ وعليها خاصة ألا تدع نفسها فريسة للرعب، كالليلة الأولى، عندما أغلق الباب عليها. إن عليها... وإن عليها... إنها لم تعد تعرف ماذا يجب أن تفعل، وماذا يجب ألا تفعل.

وتمرّ الأيام، فترفض سلمى أن تأكل، لا لأنها تريد الابتزاز ــ فمع الراني، سيكون هذا عبثاً ــ بل لأنها لا تحسّ بالجوع؛ ويكفي أن ترى الطعام لتصاب بالغثيان.

وعندما طلب الراجاه من أخته، أن تزوده بأخبار زوجته، أجابت هذه بأن العزلة الإرغامية ستكون طيبة النتائج عليها، وأنها تفكر، وأنها بدأت تفهم. فإذا تركناها تخرج الآن، فسيكون ذلك جنوناً. إذ لن تزداد إلّا تمرّداً عندئذ، تماماً كهذه الأحصنة الوحشية التي لم تذق النظام إلا قليلاً، فلم تتعوّد عليه، وتصبح بعد ذلك عصيّة على الانضباط. وعلى سلمى أن تفهم بوضوح، مدى خطئها، وأن تندم عليه. وإلا فإن العقوبة لن تجدي شيئاً.

ويجيب أمير: وماذا لو أنني كلمتها، وقلت لها إنني أعفو عنها هذه المرّة وأنها إذا أعادت الكرّة، فسوف أطلقها؟

وإنه لبعيد عن تخيّـل ضحك سلمى ، إذا هي سمعته يقول ذلك . فهو لا يعلم أن الأميرات ، في الأسرة العثمانية ، هـنّ اللواتي يطلقن أزواجهن، إذا سمح السلطان بذلك . وما من مرة سُـمح لداماد بالانفصال عن زوجته ذات الدم الملكي . إذ كان ذلك يعتبر إهانة للسلطان نفسه .

وليست سلمى من هؤلاء الزوجات الهنديات اللواتي إذا هـنّ طُـلّـقن ، فإن هذا يعني الموت ، ذلك أن أسرة الزوجة لن تقبل بعودتها إليها . والبنت المطلقة ، هي العار بالنسبة إلى كل الأقرباء ، والبرهان على أنها خالفت القواعد التي تنـظّـم حياة الجماعة : وإذن فلم يعد لها مكان ، في أي مكان . وإذن فمن الأفضل للفتاة أن تقبل بشرط العبودية ، والخنوع ، لا لزوجها فقط ، بل لأسرته كـلّـها ، بدلاً من أن تكون منبوذة .

والراني عزيزة أكثر فطنة ؛ فلقد أدركت مدى الزهو الذي لا يقـدَّر ، لدى هذه الغريبة . وهي تتمنى ، أكثر من أي شيء آخر ، أن ترحل عنها هذه المصيبة ، العاجزة حتى عن إنجاب وريث للتاج . والحل الوحيد هو أن تمرض سلمى ، بصورة لا شفاء منها . ولكن هذا لن يكون سهل التدبير .

وبنظرة الأخت العطوف ، تداعب وجه أخيها ، المعـذّب .

ــ لا تخف . فأنا سأهتم بها على أفضل الصور . فإذا تدخّـلت أنت ، فعلينا أن نستأنف بعد ذلك عملنا ، كأننا لم نفعل من قبل شيئاً . فصبراً : وخلال أسبوعين ستعود فترى الزوجة الأكثر حباً ، والأكثر إطاعة ، مما حـلِـمـتَ به طولَ حياتك .

ومن يوم إلى آخر ، كانت سلمى تضعف جسدياً . ولقد حاولت أن تقسر نفسها على الطعام ، ولكن معدتها لم تعد تتحمل شيئاً . وحتى الشاي نفسها ، فإنها تسبب لها الغثيان . ورقبتها تؤلمها ، وعندما تنهض ، فإنها تترنح ، وتقع فريسة لصور مختلفة من الدوار . ولهذا فإنها تقضي أكثر الوقت وهي متمددة على سريرها . وسلمى التي كانت تحب القراءة ، أصبحت تعافها ، إنها لم تعد تشتهي شيئاً ، وهي تنتظر ، وتنتظر فقط . وفي البداية حاولت أن تكافح هذه المشاعر ، وهذه الإحساسات المزعجة ، التي كانت تضعها على حساب الحبس . أما الآن فإنها تدع نفسها تنهار ، وهي سعيدة بأنها لم تعد أسيرة التقيؤات التي كانت ترهقها أشد الإرهاق .

وراسّـولان ، الخادمة الصبية ، التي جاءت ذات يوم ، ورأت سلمى تعاني أزمة مرهقة بشكل خاص ، هي التي أوحت لها بأن الطعام الذي يقـدَّم لها ، هو الذي لا يناسبها ، على ما تقـدِّر .. ولم

تزد على ذلك شيئاً . ورأت سلمى أنها مجنونة إن هي تخيّلت ... ولكنها على مدى يومين ، كانت تردّ الطعام كما جاء ، وانقطع التقيؤ .

ومنذ الآن تكتفي سلمى بشرب الماء من الصنبور ، وببعض اللوز الذي تحمله راسّولان إليها ، خفية . فتشعر أنها أفضل مما كانت . ولكن تعوزها القوة التي تساعدها على النهوض ، أو حتى على إصلاح زينتها . وها هي ثلاثة أسابيع لم تخرج خلالها من غرفتها . ولكن تساوى عندها الآن الماء والحطب ؛ وكأنها تشعر بأنها حائمة في السماء ، فلا شيء يقلقها ، ولا شيء يغضبها . وهي تحلم بأمها ، وباستامبول ، وبطفولتها . ويمرّ أمام عينيها فيلم بألوان الباستيل ، هو فيلم السعادة . فهي مطمئنة داخل نفسها ، هادئة ، ومستريحة ، أخيراً .

ـــ إن هذا جريمة ! فمن أمر بهذا .

وفي وضع متوسط بين النوم واليقظة ، تدرك سلمى أن حولها صخباً ، وتسمع بعض الأصوات التي تكاد ترهق طبلة أذنيها . ولكن لماذا لا يدعونها تنام ؟ فتئن ، وتتحرّك قليلاً ، ثم تعود إلى الصمت ، الذي هو الشرنقة الدافئة التي تتكوّر داخل متعها .

وتقف زهراء الخجول أمام راني عزيزة ، متهمة !

ـــ لو أننا لم نختصر رحلتنا ، لعدنا ووجدناها ميتة !

وحقاً ، فإن طبيباً شاباً استُدعي على عجل لزيارتها ، أكّد أن وضعها خطير : فعدة أيام أخرى بلا طعام ، والقلب عندئذ يتوقف .

ووقف الراجاه ، ممتقع الوجه أمام أخته عزيزة التي تقابل أسئلة زهراء بالصمت الذي ينطوي على الاحتقار . ولكن أيهما هو المجرم ؟ أهو أم هي ؟ إنه يعرف أنها تكره سلمى ، ومع ذلك فقد وكّل إليها السهر عليها ، وصدّق كلماتها المطمئنة ، دون أن يحاول التحقق منها . أوَكان ذلك خوفاً من التراخي ، أمام دموع سلمى ؟ أم اعتداد الزوج الذي أهين في كرامته ؟ أم بحكم الحاجة إلى الانتقام ؟

وبشيء من الضيق ، ينظر إلى هذا الجسد الهزيل ، وهذا الوجه الذي يشبه وجه العصفور ، ويتخيّلها ميتة ، ويجرب أن يتصوّر الألم الذي كان سيسحقه ، لو ... ولكنه رغم جهوده هذه ،

فإنه لا يشعر إلا باللا مبالاة . فهو مستاء من ذلك : وإذا هو لم يشعر قط بهذا المرض الذي يسمى باسم «الحب» فإنه ، على الأقل ، شعر بالحنان تجاه زوجته .

وهذا الرجل الذي كان يسيطر بقوة على أفكاره ، لم يعد الآن قادراً على السيطرة عليها : فهو يرى جنازة عظيمة ، وخلال عدة أشهر سيبقى أرمل لا سبيل إلى مواساته . ثم إنه يقتنع بما يقول الأهل والأصدقاء — عندما يؤكدون ضرورة الوريث — فيتزوج ثانية ، بهندية هذه المرة ، شابة تماماً ، تعبده ، كإله . ويكونان سعيدين ، ويرزقان بأولاد كثيرين .

— أمير باي[1] .

وتنظر زهراء بشيء من العتاب إلى أخيها الذي يبتسم لها باغتباط .

— يقول الطبيب إن آبا بحاجة إلى ممرّضة تبقى دائماً إلى جانبها ، ليلاً ونهاراً ، وتعلّمها من جديد أن تتغذى . ويقول بأن العناية المناسبة تجعلها خلال أسبوعين تنهض على قدميها ... ولكن ينبغي أن تغيِّر المنظر أمام عينيها ، وأن يكون لها نشاط يُخرجها من اكتئابها ، ويَظن أنها أرادت أن تموت ، وأنه يجب أن نساعدها على العودة إلى تذوق الحياة .

— يظن ؟ ...

ويكاد الراجاه أن يختنق من الغيظ — فمن هو هذا الغرّ الذي يجرؤ على الظن ؟

— إن زوجتي سعيدة هنا تماماً ! فإذا انتهينا من هذا ، قلنا إن هواء الريف سيفيدها ، بلا ريب . سنسافر إذن إلى بادالبور ، متى أمكن ذلك .

فبادالبور هي الحل . وعندما يعودون إلى لوكنوف ، فإن فضيحة البال ربما تكون قد نُسيت لدى الحاكم .

كل لحظة هي خطوة نحو الموت
نعيشها فارغة لجعلها تدوم
فلا نتحرك ، ولا نفعل شيئا

(١) باي تعني الأخ الأكبر .

لكي لا نمحو شيئاً، ولا نحطم
الوقت الذي يبقى أيضاً،
وخاصة، أن لا نقتل الحياة
ونحن نعيش.

ووضعت سلمى قلمها. ومن النافذة كانت تنظر إلى الصباح الذي يطلع، وفي الأفق، وبعيداً جداً، هناك ضباب يرتجف. إنها هضاب الهملايا الأولى، الجبل المقدّس الذي ينسحب إليه، ليعيش فيه أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة، أي أولئك الذين لا يتردّدون في وضع حياتهم على كفة الميزان، ويغامرون بأن يفقدوا كل شيء، كيلا يكسبوا شيئاً، ويفقدوا حتى الأمل. ولكنها لا تملك الشجاعة، أو لعلها كانت تكون كذلك، لو أنها واثقة...

ومرة أخرى، هذه الحاجة إلى الأمن، وعقلية المحاسب هذه القائمة فيها، والتي تفاخر بستة قرون من الدم الأمبراطوري! ومع ذلك فإنها لم تكن خائفة. بل إنها شعرت أنها هادئة إلى أبعد مدى، عندما اعتقدت أنها على حافة الموت، وهي تحب أن تظن أن ذلك كان شجاعة، ولكنها تتساءل عما إذا لم يكن ذلك، هو التنعم الجبان، بالوصول، في نهاية الطريق المتعب، إلى وضع لا يعود في وسعها أن تضعه موضع التساؤل. حافة الموت؟... إن هذه الكلمة لترنّ في أذنها بشكل رائع الكمال، بلا ثغرات، ونهائي، بالنسبة إليها هي، التي لم تعرف قط كيف تعرِّف نفسها، وأنها طول حياتها حاولت أن تجد لنفسها هدفاً، أو قناعة. آه، ماذا لا تعطيه، أو ماذا تحجب لكي تكون مثل هؤلاء البطلات، بطلات الروايات، اللواتي يعرفن، ماذا يردن، ويناضلن من أجل الحصول عليه! وهي تندهش وتعجب من قوة طموحهن، وعنف رغباتهن هذه التي يبدو كل شيء لها أحياناً تافهاً.

وهذه اللامبالاة، هل هي الحكمة، والانفصال عن العالم، عالم الظواهر، الذي ينبئنا عنه الصوفيون؟ إنها تريد أن تظن ذلك، ولكنها أصفى فكراً من أن تُجامل. ذلك أن ملكة الاعتقاد، والانخراط في هوى ما، قد فارقتها، منذ سنين، في ذلك اليوم من أيام الربيع التي فقدت فيه بلدها وأباها معاً. وهي تعيش إرواءً لرغبة الآخرين، ولحاجتهم إليها، فقط. ولهذا فإن بادالبور تبقى بالنسبة إليها مبرّر وجود. وكل هؤلاء الفقراء الذين يتزاحمون حولها، أتراهم يعرفون أنها بحاجة إليهم، بأشد مما هم بحاجة إليها؟ ذلك أنها إذا كانت تعطيهم شيئاً من المال فإن نظراتهم المملوءة بالثقة، وانتظارهم، تعطيها الحياة.

ولقد شعرت سلمى البارحة بدفء في قلبها عندما جاءت مساءً ووجدت القرويات مجتمعات لاستقبالها. وكانت سيتا، الأرملة الصغيرة، تقف جانباً، وراء الشباك، وتبتسم لها. وقد أرادت النساء الأخريات طردها: ذلك أن الأرملة نذير شؤم، وكان ينبغي ألا تقترب من رانيتها. ولكن سيتا، لمرة واحدة، قاومت، وتعلقت بقضبان الحديد، وهي تصرخ. فتركوها خوفاً من عين السوء. وخلال لحظة لم تتعرّف سلمى عليها: ذلك أن وجهها تغضن، وهذه الصبية التي بلغت الرابعة عشرة، والغضة جداً، في العام الماضي، ها هي الآن تصبح شبه عجوز. فأي حشد من العذاب، والمعاملة السيئة، أوصلاها إلى ما هي فيه؟ وفكّرت سلمى بأن تأخذها معها إلى لوكنوف: ولكنها تعرف أن سيتا حيثما وجدت، ستظل الأرملة، وستظل مستبعدة.

وسألتها ــ وقد خاب أملها أنها لا تجد رفيقتها معها في الاستقبال ــ:

ــ ولكن أين هي بارفاتي؟

وتجيب الأخرى:

ــ إن لديّ رسالة، راني الصاحبة. فبارفاتي تتوسل إليك أن تسامحيها. فهي لا تستطيع أن تترك زوجها لحظة واحدة. فهو مريض جداً، ومنذ الشهر الماضي بدأ يبصق دماً، ولم تُجدِ عليه شيئاً أدوية الحكيم.

ــ إن ذلك لمحزن جداً. ولقد قالت ذلك وهي تشعر بالراحة نيابة عن بارفاتي إذا هو تركها ومات.

وقرّرت ألّا تبقيها في بادالبور، فريسة بين أيدي أسرة زوجها، ومن حولهم. وستخرجها كما تخرج سيتا، من هذا الكابوس. وستجد الوسيلة لذلك. ففي الرابعة عشرة من العمر، لا يمكن للحياة أن تتوقف.

أما بقية الليلة، فقد قضتها سلمى في توزيع الهدايا المجمّعة في حقائب كبيرة حملتها معها من لوكنوف. وكان ذلك في البداية، مجالاً لفوضى كادت أن تصل إلى حد النهب، إلى أن وصل الخدم وأكثروا من الصراخ، وضرب العصي، حتى استقام لهم أمر هؤلاء النسوة، وضبطوا الموقف، وأفهموا النساء والأطفال أن هنالك من الهدايا ما يكفي الجميع. وأخيراً ذهبت كل امرأة إلى بيتها، واضعة هديتها على قلبها، وتركن سلمى مرهقة، متعبة، ولكن بعد أن ضمنت الانسجام مع نفسها.

وكان الليل قد أقبل ، عندما سمعت صوت حصاة أصابت ستار البامبو في غرفتها . ولم تنتبه في البداية لهذا الأمر . ثم تكرر الصوت ، فخرجت سلمى إلى الشرفة .

ـــ راني صاحبة ؟

واندهشت سلمى ، وانحنت تبحث ، في ظلام الحديقة ، عن الشخص الذي يكلمها .

ـــ راني صاحبة ، أنا بارفاتي .

ورأت سلمى ملتصقة بالعمود ، تماماً تحت نافذتها ، صورة الفتاة التي تولت هي حمايتها .

ـــ بارفاتي . ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة . إن هذا أمر غير سليم . فقد كان في وسع الحرس أن يرموك بنارهم .

ـــ ولكن لا . راني صاحبة ، إذ ليس على إنسان أن يعرف أني جئت . وكنت أريد أن أراك .

لا تخافي من شيء ، يا بارفاتي . وأعدك بأنه إذا جرى شيء ، ومات زوجك ، فسأتكفل بك .

ـــ ولكن لا ، يا راني صاحبة ، إنهم يريدون ... (ذلك أن وصول أحد الحرس جعل بارفاتي تهرب) .

ولكن سلمى لم تعرف ماذا تعني هذه « ألإنهم يريدون » .

وفي هذا الصباح عندما أعادت التفكير في ذلك الحديث ، لم تستطع سلمى أن تمنع نفسها من الشعور بشيء من القلق . فقد كانت بارفاتي مرعوبة . ولم تكن طمأنة الراني لتجعلها تشعر بالأمن . ومع ذلك فإن سلمى تتذكر امرأة شابة ، متوازنة ، عاقلة . وقد دهشت من أنها وجدتها « انفعالية » بهذه الدرجة . ويجب أن تسأل سيتا إن كانت تعرف شيئاً .

وكانت الحرارة شديدة بعد الظهر . ولقد حلا لسلمى أن تقضي هذا الوقت مع الجـدّة ، جدة أمير . ولكن الراني سعيدة منذ آخر زيارة ، ظهرت وكأنها ضعفت كثيراً . فلم تعد تتبع ما يجري في الدولة .

وقالت الجدة ، مبتسمة :

ـــ على أمير الآن أن يحل محلي ، وكذلك عليك أنت ، يا طفلتي ، وكانت عيناها الزرقاوان تلمع لمعة ناعمة ، ذلك أن جمالها الآن قد أصبح ذلك الجمال الأبيض ، والأملس الذي تتميز به

العجائز اللواتي يعرفن أن النهاية غدت قريبة ، فينتظرنها بهدوء . وكانت سلمى جالسة على آخر السرير تتأمل الجدة بحنان . وكانت هنالك هالة من الرصانة تنساح من الراني ، وفي مثل هذا الإشعاع ، تـمّـحي الأسئلة والمشاكل ، كنفايات لعالم يبدو فجأة تافهاً ، غير واقعي .

وستبقى جالسة معها حتى الغسق ، تتنشق رائحة الغليسين الخفيفة ، فلا تنصرف إلا إذا رأت أن العجوز قد نامت . فتتأخر بضع لحظات ، لتغمر نفسها بهذا الصمت الذي يحـدِّثها أكثر من كل الحكايات .

ولقد احمرت الأرض الريفية بشعاعات الشمس الأخيرة . وأمام المسجد ، ينـادي المؤذن للصلاة ، ومن الطرق القريبة ، كانت بعض الأشباح تسرع لتسبِّـح بمجد الله ، شكراً له على اليوم الذي انقضى .

وكانت سلمى في الطرف المقابل جالسة بجانب أمير ، على أعلى شرفة في القصر ، مغمورة بالنداوة والسلام . وهذه هي أول مرة يجلسان معاً ، وليس معهما أحد ، منذ الأمسية المعهودة أمسية الحاكم . ولم يتعـرّض أي منهما لذكر الأسابيع الماضية . ولن يتعرضا لها أبداً . فالشرح ، والاعتذار ، والعفو ، كل ذلك هذر لا يحتمل ، غير لائق ، بأي منهما . إنهما جالسان في هذه الليلة الصيفية الجميلة ؛ وهما يتذوقان ، بصمت ، هذا الهدوء الذي عادا فوجداه .

وبعيداً عنهما ، وإلى جانب القرية ، يلمح احمرار نار يعلوها دخان كثيف ، كان الريح يحمل رائحتها الحامزة (الحـرِّيفة) ، بنفثات متتابعة .

ــ أمير ، أتظن أنهم يحرقون الأعشاب السيئة ، أم أن هناك حريقاً يندلع ؟

ــ يا عزيزتي ، لا هذا ، ولا ذاك . إن هذه نار حرق الموتى . فهناك إنسان مات . أوَلا تسمعين التراتيل .

وحقاً فإن بعض أجزاء هذه التراتيل تصل إليها . أفيكون الميت ذلك العجوز ، زوج بارفاتي ؟ وهل أصبحت هذه المسكينة حرة أخيراً .

وفجأة ، تسمع أصواتاً في الحديقة . إنها أصوات إنسان يمر بين الأوراق ، أصوات واخزة تصدر عن امرأة . وينهض أمير مباشرة ، ويهتف بالحرس .

وما هي إلا ثوان حتى ظهر أربعة أجسام ضخمة تسوق أمامها الفريسة. وهي شكل صغير أبيض، يتخبط وهو يشتمهم.

وتسأل سلمى، عندما ترى الساري الممزق، والوجه تجري فيه الدموع.

ــ سيتا، ماذا يجري؟

ــ بارفاتي، راني صاحبة. بارفاتي. وتقول ذلك وهي تحزق. وكأنما خرجت عيناها من رأسها.

ــ ماذا بها بارفاتي؟ ماذا هنالك؟

فأخذتها سلمى من يدها، وألحّت عليها بالأسئلة. ولكن الصبية ترتجف بقوة رجفاناً يجعلها عاجزة عن الكلام. فيجلسونها، وتأتي خادمة فتغسل لها صدغيها بالماء البارد، في حين أن سلمى ظلّت تمسك بيدها بنعومة.

ــ هدئي نفسك يا سيتا، يجب أن تقولي لي أين هي بارفاتي.

وتئن أنيناً، وتحزر عندئذ أكثر مما تسمع:

ــ هناك، على المحرقة... مع زوجها... تحترق...

فيرتعد أمير.

ــ إنها السوتيه Suttee! هؤلاء البرابرة. ويجرؤون أيضاً! أيها الحرس، إلحقوا بهم مباشرة. وحاولوا إنقاذها!

ووصل الحرس متأخرين: ولم يجدوا على مكان الحرق إلا شكلين أسودين يشرفان على التفحم، وسط جمهور يصلي.

وفي الغد، عند الفجر، نهضت سلمى، والوجه متورم من شدة البكاء.

ــ إنهم أرغموها. أنا واثقة من ذلك. ولم تنتحر قط. إنها كانت شديدة الحب للحياة. وكان موت هذا الرجل، المتذمر دوماً، خلاصاً لها.

ــ ربما، ولكن كيف نبرهن؟

ولما كان أمير سلطاناً مسلماً، فإنه يأبى التدخل في شؤون رعاياه الهنود.

ــ لقد جاءت إليّ بارفاتي لتطلب مساعدتي، ولم أفهم... إذ لم أتخيّل مطلقاً أن شيئاً كهذا يحدث...

ولم تستطع سلمى أن تنام لحظة واحدة في الليل. وكان شبح بارفاتي يحوم حولها باستمرار، وهي تحاول أن تهرب من القتلة الذين كانوا يدفعون بها، رغماً عنها، إلى المحرقة.

ــ أمير، يجب أن ننتقم لها، ونجعل منها مثلاً، ونمنع ارتكاب مثل هذه الحماقة في المستقبل. فادع إليك الأسرتين. واسألهما عما حصل. فلا بد أن يعترف أحدهم أخيراً. أتوسل إليك أن تفعل هذا!

ــ أخشى أنك تنشئين لنفسك أوهاماً. ولكنني من أجلك سأحاول.

وها هم الآن مجتمعون أمام السيد. وجاء كل منهم فانحنى انحناءة مسّت الأرض أمام قدميه. ثم وقفوا، وعيونهم في الأرض ــ ذلك أن النظر إلى الحاكم مباشرة، يعني اللا احترام ــ وانتظروا.

وكانت الراني جالسة إلى جانب الراجاه. وكان حضورها هذا ــ كمخالفة استثنائية للقواعد ــ علامة مقلقة على أن هذه المجابهة ليست روتيناً عادياً.

وبكل انتباه، كانت سلمى تنظر إلى وجوه أعضاء الأسرة. وكانت بارفاتي قد حدّثتها عنهم، وأكثرت، بحيث أنها ليست بحاجة إلى أسمائهم لكي تتعرف عليهم. فها هي الحماة. وهي عجوز هزيلة تماماً، وأكثر تجاعيد، على وجهها، من امرأة بلغت المئة من العمر. والفم الذي فقد أسنانه، محمرٌّ من مضغ التنبول. وها هما الأخوان، الثقيلا الجثة، المتضايقان من أيديهما الضخمة. ولم يأتيا معهما بالزوجات. وماذا عساهما أن تقولا أفضل مما يقوله الزوجان أحسن منهما؟ وهناك أخيراً ذلك الصبي الوحيد لأبيه ذي الوجه المشرق، والبادي البلاهة، والشاب السفيه الذي كانت بارفاتي تشكو منه، ذلك أنه حاول عدة مرات، أثناء غياب أبيه، أن يغتصبها.

وأمام هذه الأسرة، وقفت أسرة المرأة الشابة. وهي مجموعة صغيرة كثيفة من الأقرباء، والإخوة، والأخوات. ولكن لِمَ يبدون وكأنهم مرعوبون؟ ما دمنا نريد الانتقام لهم؟

وكان الراجاه قد طلب أن يأتي الجميع : فهم تحت حمايته . وفي وسعهم دون خوف ، أن يتكلموا .

وخلال ساعة ، كان أمير يحقق معهم . أما العجوز ، فكانت تقسم ، وهي تبكي ، أنها فعلت كل شيء لإقناع كنتها بألا تقدم على هذا الفعل . ولكن هذه كانت من اليأس ، بعد موت زوجها الذي كانت تعبده ، بحيث انتهزت أول فرصة من عدم الانتباه ، لتلقي بنفسها في المحرقة . وقد جرّب الرجال إنقاذها ، منها ، وهم يغامرون بحياتهم . ولكن عبثاً . فبارفاتي التهبت مباشرة كشعلة . وعندما تذكرت العجوز هذا المنظر ، بدأت تئن وتعول ، وتنتزع الشعر من رأسها ، مقسمة بالآلهة على… وظلت كذلك حتى أمرها أمير ، بجفاف ، أن تهدأ .

ولقد أعجبت سلمى بهذه المهزلة : وبطبيعة الحال فإنها لا تتوقع من المجرمين أن يتهموا أنفسهم . وإذن فالحقيقة يجب أن تأتي من طرف الأسرة الضحية . ولكنها دهشت من أن هذه تلتزم الصمت ، بعناد . ولما ألحّ عليها بالأسئلة ، انتهت إلى القول : إن بارفاتي حدّثتهم عن مشروعها هذا . وصادق الآخرون على ذلك ، وهم يبكون .

إنهم يكذبون . وسلمى مقتنعة بذلك . والأسوأ أنهم يكذبون ، ويعرفون أنها تعرف . فلقد لاحظت نظرات التواطؤ المتبادلة بين إخوة الميت : وهم يسخرون منها . ويسخرون من سيدهم .

وانحنت ، باكتئاب ، على أمير .

— كيف نرغمهم على الكلام ؟

— إنهم لن يتكلموا إلا تحت السياط . وهذا ما أكرهه . ويقول زملائي إن الإنسانية وممارسة السلطة لا يمكن أن توجدا معاً . ولطالما رفضت هذه الأفكار المبسّطة ؛ ولكني بدأت أتساءل عما إذا كانوا ليسوا على حق… ذلك أنني عندما رفضت استخدام القوة لإرغام هؤلاء على الكلام ، والاعتراف ، فإنني فقدت هيبتي .

وانتهت القضية بالإعلان عن عدم وجود قضية . وبعد الكثير من التحيات ، والإعلان عن الولاء ، عاد الفلاحون إلى بيوتهم .

وطفح الكيل بأمير ، فبدأ يمشي جيئة وذهاباً ، وهو يلعب بعصاه .

ـــ كنت أعرف أن هذا الأمر سينتهي بهذه الصورة . ولكنك لم تكوني لتصدقيني . ولهذا فقد قبلت النزول عند إرادتك . وكنت على خطأ .

ـــ ولكن لِـمَ كذبت أسرتها هي ؟

ـــ ولكن ماذا كان يجدي اعترافها . لقد ماتت ابنتهم ، فهل في وسع الكلمات أن تردّها إليهم حية ؟ ومنذ الآن تصبح ذكراها مقدّسة ، وستطهر بطولتُـها أقرباءَها على سبعة أجيال صاعدة ، وسبعة أجيال هابطة . فإذا هم أبوا الاعتراف بأنها ضـحّـت بنفسها ، فهذا يعني خسارة هذا المجد ، والقبول ضمنياً بأن الفتاة كانت زوجة سيئة ، مما يُسـوِّد سمعة الأُسرة ، ويحول دون زواج أخواتها الأصغر منها . وكانت الحكمة تقضي بعدم الكلام . ولو أنهم تكلموا ، لتم الانتقام منهم بمجرد أن أدير ظهري . ففي قرانا ، لا تنتهك قوانين الجماعة ، بلا عقاب ، حتى ولو كان الإنسان صاحب حق .

ـــ وإذن فأنت لن تستطيع منع زوجات أخريات من أن يصرن إلى ما صارت إليه بارفاتي ؟

والتفت أمير إليها غاضباً وقال :

ـــ إن هذه أعراف هندية . فمن أنا حتى أغـيِّـرها ؟ وهل يجب أن أعذب فلاحـيّ لإرغامهم على التخلي عن تقاليد مألوفة منذ آلاف السنين . وأفرض عليهم أخلاقاً أكثر « حداثة » ؟ وباسم من ؟

ـــ عفواً ، أمير ... إن هذه هي البداهة ...

ـــ في هذه البلاد ما من هو بديهي . أوَتظنين أني لم أفكر بهذا ؟ وفي البداية ، كنت أفكر بأنه يكفي أن يكون الإنسان شريفاً ، وأن لكل مشكلة حلاً عادلاً ! وهذا خطأ . وإن الأُمور لتصبح سهلة جداً لو أن الاختيار يقوم بين أمرين ، أحدهما خير ، والآخر شر !

وأخذ رأسه بين يديه وقال :

ـــ من يدري أين هو الخير ، وأين هو الشر ؟ إن الذين يعرفون ذلك هم إما الأغبياء ... وإما الله ...

«أما نحن ، الأمراء والملوك ، المكلفين بتصريف شؤون الشعب ، فهل يمكننا أن نحصل على هذه المعرفة ؟ .. إننا لسنا إلا مجموعة دجالين : والحقيقة أننا لا نعرف شيئاً » .

وخلال الأيام التي تلت السوتّيه وتلك المحاكمة المزعومة، كان أمير يعيش في كآبة غاضبة.

ولقد زاد في كآبته، أنه أمر بأن يطرد من القرية، مجموعة من أصحاب الشغب المنتسبين إلى الماها صباح، وهذه منظمة متطرفة تدعو إلى رد المسلمين إلى الهندوسية.

وشغل بال كبار رجال القرية. وجاؤوا لمقابلة الراجاه، الذي غضب غضباً شديداً.

ــ أهؤلاء مناضلون سياسيون؟ إنهم مجرمون، فقط، يريدون أن يزيدوا الحقد بين الطوائف. وأنا لا أسمح بحرب بين الأديان عندي!

وكان قد أمر الحرس، بتوقيف هؤلاء الرجال، وتكبيلهم بالقيود، وإيصالهم إلى حدود الدولة.

وما من مرة رأته سلمى في مثل هذه الحالة من الغضب.

ــ إن حزب المؤتمر الذي يعلن عن علمانيته، يدع هؤلاء يتصرفون على هواهم (أو على هواه!!). إنه يلعب بالنار، وغاندي نفسه ــ من دون أن يشعر، وعندما يدعو إلى العودة إلى القيم الهندوسية الدينية كسلاح أعظم، ضد الاحتلال البريطاني ــ يشجعهم. وهو يهمل، في حماسته، ورغبته في إعادة الهنود إلى حكم الراما، الذي يعتبر هو وحكم الفضيلة شيئاً واحداً، ويتجاهل قلق ٨٥ مليون مسلم، يشعرون أكثر فأكثر أنهم مهـدّدون.

ويتنهد، ويقول:

ــ إن هذا مجـرَّد تخريب. ففي العشرينيات كانت أغلبية المسلمين، تعجب بالمهاتما وتتبعه. والآن وصل بهم الأمر إلى اعتباره، مكاراً مخادعاً، ينادي بالوحدة، ولكنه يهيء في الواقع لبسط سيطرة الهندوسيين الأكثرية، على الأقلية المسلمة.

وارتعدت سلمى، مستنكرة.

ــ إن هذا مضحك. فالمهاتما قديس، وكل الذين عرفوه من قرب...

ــ هدئي نفسك يا عزيزتي. ليست قضيتنا قضية حكم أخلاقي. فقليل الأهمية أن نعرف ما إذا كان المهاتما غاندي يغش نفسه، أو يخدع الآخرين. ذلك أن النتائج، على كل حال، ستكون مخيفة. والمشكلة هي أنه يقيم عمله على «الكرم» و «التسامح» والحب الشامل. ولكن قولي لي أين ترين الحب والتسامح في هذا البلد؟ فلكل يوم حصيلته من الشغب والاضطرابات، واغتصاب

النساء، والقتل. والمسلمون يخافون من الهنود، ويحتقرونهم؛ أما الهنود فإنهم يحلمون بالانتقام لـ قرون من السيطرة الإسلامية، وبالقضاء على أسيادهم القدماء. وحتى الأقلية المسيحية، تجدينها قلقة. وهي تشكو من إرغام المسيحيين على العودة إلى دين الهندوس. وقد قـرّرت، على مثال المسلمين، أن تطالب بدائرة انتخابية على حدة، حتى لا تتبـدَّد أصواتها في كلية الجماهير.

«ولكن نهرو وغاندي يتابعان العمل على أساس رفض كل شيء، مـدّعين أنه لا وجود لمشكلة طائفية في الهند، أفيكون ذلك عن عماية، أو عن نـيّـة سيئة؟ وعندما يكون هنالك بدلاً من مئات القتلى، مئات ألوف، فماذا يهم أن يكون ذلك عن حسن نيّة أو سوء نيّة».

ولكن سلمى لا تريد أن تقتنع. وتقول:

ــ لماذا تلوم عنادهم؟ فجناح مثلهم عناداً. بل إن الرابطة بدأت تقول، إنها إذا لم تحصل على ضمانات كافية، فستطالب بدولة مستقلة للمسلمين. أوَليس في هذا شيء من المغالاة؟

وبسخرية، ردَّ أمير على هذا الاعتراض.

ــ إنه يجب أن نطلب الكثير، لنحُصل على القليل. ولكن ما من لحظة فكر فيها جناح، جدياً، بتقسيم الهند. ولقد قال ذلك حديثاً لبعض الأصدقاء. ومع ذلك فإنه يلـوّح بهذا الشبح، حتى يقـدّم المؤتمر ضمانات كافية للمسلمين. الذين لن يجدوا، في دولة مستقلة لهم، أن هناك مواطنين من الدرجة الأولى، وآخرين من الدرجة الثانية. إن هذا هو الحرب العادلة.

وامتدت المناقشة مدة طويلة في الليل. وعندما يتكلم أمير عن المهاتما، تدرك هي أنه يتحدث عن محبٍ خاب أمله. وليس هو أول واحد تشعر بأن لديه مثل هذه المرارة. وتدهش لذلك: ترى هل اتبعوا غاندي لأنهم يعتقدون أن الدين وسيلة لبلوغ مآربهم، وتحقيق غايات سياسية؟ أوَلم يفهموا أن المهاتما يهدف إلى ما هو أعلى، وما هو أساسي؟.

— ١٦ —

إنها البداية الأولى للصباح . وسلمى جالسة على الشرفة المستديرة التي تستطيل بها غرفتها ، وحدها . ولقد سافر أمير أول البارحة ليقوم بجولة في القرى الأكثر بعداً عن مركز الحكم . ولقد اتخذ هذا القرار ، على دهشة من الوجهاء ، وعلى الرغم من امتناع مستشاريه من الإدلاء برأيهم حول هذا الموضوع : فهذا غير لائق براجاه ! إذ لن يكون محترماً بعد الآن ! فما من أحد رأى سيّده ينتقل من مكانه ليرى رعاياه . والصحيح أن على الفلاحين ، إن كان لديهم طلب ما ، أن يأتوا هم إلى القصر : ففي كل صباح ــ وهم يعرفون ذلك ــ تكون الأبواب مفتوحة أمامهم .

غير أن الفقراء جداً ، أولئك الذين هم بحاجة إلى أكبر العون ، كيف تكون معهم الروبيات التي لا بد منها للسفر ؟ وكيف يتسع لهم الوقت عندما يكون عليهم أن يعملوا النهار كله ، في أرض الجار الذي استدانوا منه بعض المال . وأصلاً ، فكيف يكون المرابي ، وشيخ القرية ، من الغباء بحيث يتركونهم يغادرون القرية للشكوى عليهما .

وهكذا فإن الراجاه ، في مقابلاته العامة ، يرى الشخصيات بشكل خاص : كمعلمي المدارس ، والتجار ، وممثلي البانشايات ــ أعضاء مجالس القرى ــ وقلّما يرى فلاحاً بسيطاً ، ولا يرى أبداً عاملاً زراعياً . ويقول الوجهاء : « إن هذا النوع من الناس لا يحبون التنقل والسفر ، وهم يكلفوننا بعرض مشاكلهم عليكم » . وهذا صحيح ... ولكن الراجاه قرّر أخيراً أن يقوم بهذه الرحلة . وسلمى ، التي ما تزال نصف نائمة تتذكر صورة سفره على الحصان مع أولى شعاعات

الفجر . وكانت السماء قد أمطرت ، وفاحت رائحة الأرض العطرة ، كما هي الحال اليوم . وكان أمير فخوراً بنفسه ، ومسروراً منها لأنها هي التي دفعته إلى القيام بهذه الرحلة . وكان على أن يغيب أسبوعاً ، وحملها على أن تعده بعدم ترك القصر .

ــ إني أخشى أن تحاول جماعة الماهاصباح (أو الماهاساباه) الانتقام . فضاعفت عدد الحرس . ولكني أرجوك ، ألا تتجاوزي حدود الحديقة .

وكانت قد وعدته ، وسافر وهو مطمئن ، بعد أن أعطى توجيهاته للديوان ، أي للراجيف ميترا العجوز .

وكان الجو لطيفاً بشكل رائع . وسلمى على كرسيها الطويل تتمطى بمتعة . أما في الشرق ، فإن السماء تتخذ ببطء لونها البنفسجي . وهذه هي اللحظة التي تؤثرها ، أي عندما تعود البراري فتولد من الليل ، مطهّرة .

ومن بعيد ، يدوي صوت المؤذن . وفي الجانب الآخر من القرية تجيبه أجراس المعبد المكرّس لدرغاه Durgah ، إلّهة الخصوبة ، وتصعد أول سحب الدخان من الأكواخ . وتقوم النساء بتحضير الشاي المسكَّر والشاباتيس لرجالهن الذين يذهبون إلى الحقول ؛ ويضفن إليه ، إذا كان المحصول جيداً ، قطعة بصل ، وفليفلتين حمراوين ، من النوع الذي يحرق البلعوم ، ويصون من الأمراض .

وتمدّ إليها إحدى الخادمات فنجاناً شفافاً مملوءً بشراب مذهّب . وكانت سلمى ترشفه ، جرعات صغيرة ، وتتذوق طعمه ، وتفكر بأن العمل الوحيد الذي يعطي الحق للإنكليز بأن يُسَمّوا باسم الإنسانية ، هو أنهم سرقوا من الصينيين الشاي ، ذلك النبات السحري الذي يسمونه تشاي Tchai .

وسلمى التي لا تشتهي أن تتحرك . وهي تتنفس بنعومة ، منتبهة إلى عدم نسيان الصمت . وفجأة ندّت صرخة جعلتها ترتعش ، وتبعتها أصوات تعجب حلقية . وترى أمام المسجد رجالاً مجتمعين وهم يقومون بحركات ، يرفعون معها أيديهم إلى السماء . ومن الجهة الأخرى من القرية ، وكنوع من الصدى ، تطرق مسامعها أصوات أخرى ، حادة ، عصبية ، وصنوج المعبد ، تستمر في الدوي .

ــ ترى ماذا يجري ؟ هل مات أحد ؟ هل وقعت جريمة ؟ لا بدّ من إرسال أحدهم على جناح السرعة لتقصّي الأخبار .

وصعدت سلمى إلى الشرفة العليا ، متبوعة برئيس الديوان الذي أيقظوه . فمن هناك تستطيع أن ترى القرية بكاملها . والخبر ـــ وهو مأساة مخيفة ، وهذا مؤكد ـــ قد انتشر . وفي بضع دقائق ، كانت المواقد النائمة قد اتخذت هيئة المعسكرات المقتطعة . أما في أفنية البيوت والساحات فإن الرجال يصحبون ، على حين أن النساء المعلقات بأذرعهم ، كأنهن يتوسلن إليهم ، وأن الأطفال الذين أخافتهم هده الضجة اللا مألوفة ، يتعلقون بثياب أمهاتهم .

وعاد الحرس المرسلون يركضون ، وعيونهم كأنها خرجت من تجاويفها ، ليقولوا :

ـــ إن المسجد قد اعتدي عليه : فقد وجدوا فيه خنزيرة وأربعة خنازير . والهندوس هم الذين قاموا بهذه الفعلة ، مثارين على الأرجح ، من قبل جماعة الماها صباح . والرجال يتسلحون ، وقد طار صوابهم من الغضب ، وهم يريدون الانتقام .

وما كاد هؤلاء يسكتون ، حتى وصل حرس آخرون ، وهم يلهثون :

ـــ إن الهنود على أهبة الحرب . فلقد وجدوا بقرة مذبوحة في المعبد وأقسموا أنهم سيقتلون المسلمين جميعاً !

وفعلاً ، فإن سلمى تستطيع أن تلاحظ ، في كل طريق ، جماعات تتألف ، وتتضخم في كل دقيقة . ويتجمع الرجال حول المعبد وحول المسجد : سواء أكانوا شيوخاً أم شباباً ، أي كل من هو قادر على استخدام عصا ، أو مذراة .

ـــ يا صاحب الديوان ، يجب أن نفعل شيئاً ما ، فوراً ، وإلا فإنهم سيذبحون بعضهم بعضاً !

والتفتت سلمى إلى الوزير الأول . ذلك أنه متى غاب الراجاه ، فإنه هو الذي يصبح مسؤولاً عن النظام . ويجب أن يجد وسيلة لإيقاف هذا الجنون !

ويحني الرجل العجوز رأسه .

ـــ ماذا يمكن أن نفعل ، هوزور ؟ إنهم خمس مئة على الأقل ، وليس لدينا هنا إلا خمسون حارساً ، ينبغي أن يبقوا في القصر للمحافظة عليه في حالة قيام خطر .

وفوجئت سلمى بهذا الرد ، واستنكرته ، وقالت :

ـــ القصر ؟ من الذي يهـدِّد القصر . هيا أرسلهم إلى القرية . فليس لدينا دقيقة واحدة نضيعها .

وينظر صاحب الديوان إلى نهاية بابوجيه المذهّبين ، ويقول :

ـــ إن حراسنا قلائل ، هوزور ، فإن أرسلناهم دفعنا بهم إلى موت محقق . والراجاه وحده هو الذي يستطيع اتخاذ مثل هذا القرار .

ـــ أوَ موت مئات من الفلاحين ، والنساء ، والأطفال يعتبر عندك كلا شيء ؟ وإذن فستقف لتراهم يقتل بعضهم بعضاً ؟ فكر ، يا صاحب الديوان . فأنا لا أحب أن أكون مكانك ، عندما يأتي الراجاه ، ويعلم بما حصل ... وأمام هذا التهديد ، تغيَّر وجه الوزير وتغيَّرت ألوانه ، وتمتم قائلاً :

ـــ سأعلم قوى الشرطة في لاريمبور . وليسوا ببعيدين عنا بأكثر من خمسة وعشرين ميلاً ، و ...

ـــ أوَلا تحسب الوقت اللازم لوصولهم ؟ وإذن فسيكون وصولهم متأخراً جداً ، وفات أوانه . إسمع !

وعلا الصخب ، وصار يشتد أكثر فأكثر . وكانت تتجمع من طرفي القرية جماعات كثيفة ، وبدأت تمضي . وخلال بضع دقائق ، سيكونون بعضهم أمام بعض ، وجهاً لوجه .

ويتمتم الوزير ثانية .

ـــ إن الحل الوحيد ...

وهتفت سلمى :

ـــ حسناً ، سأمضي أنا ، وسأحاول تهدئتهم . إنهم يحبونني . وربما أصغوا إليّ .

ـــ أرجو ألا تفكري بهذا ، هوزور . فهؤلاء الناس فقدوا عقولهم ، وفي وسعهم أن يقتلوك !

ـــ إني أصحبك ، يا صاحبة السموّ .

وانبرى واحد من المجموعة ، طويل القامة ، يوحي شارباه بالرجولة . إنه سعيد أحمد ، العقيد قائد الحرس .

ـــ شكراً يا عقيد . خذ أيضاً أحد رجالك ، مع الطبل (أو الطنبور) .

ـــ تحت أمرك ، يا مولاتي .

ويتردد لحظة ، ثم يقول :

ـــ كنت أريد أن أقول لك أنني تصرفت تلقائياً ، وأرسلت رسلاً إلى الراجاه صاحب . ويجب أن يصل إلى هنا ، خلال بضع ساعات ، مع قوى إضافية .

وضحكت العينان الزمرديتان .

ـــ سأتذكرك يا حضرة العقيد ، وأتذكرك أنت يا صاحب الديوان .

وكانت الأحصنة الثلاثة تـغُـذُّ السير في التـراب . «أسرع ، باغيرا Bagherra [1] ، أسرع أكثر ! » وكان المهماز يخمش الجوانب القاتمة للحصان الأصيل ، فيقف على قائمتيه الأخيرتين ، ذلك أن سيدته لم تعوده على مثل هذا العنف .

واجتازوا المسجد دون أن يروا في طريقهم كائناً حياً . أما في الطرقات ، التي تعج عادةً بالأطفال ، فإنه ليس فيها إلا كلاب صفراء تنتظر ، حتى ليظن الإنسان أنه في قرية أخلاها أصحابها ، لولا أن الصخب يتعالى هناك .

ـــ يا صاحبة السمـوّ ، يجب أن نمشي في الحقول ، وإلا فإننا سنحاط بالجمهور ، ولن يدعونا نمـرّ .

ويصلون أخيراً ، من خلال المستنقعات إلى الشارع الرئيسي ، وهو شريط طويل من التراب الممهد يصل الطرف المسلم ، بالطرف الهندوسي ، من بادال ر .

ويصلون في الوقت المناسب .

وكانت أمامهم جماعتان تتجابهان ، مسلحتان بالمعاول والمناجل ، والهراوات ، والحِراب . إنهما جيشان يلبسان الخرق البالية ، والأفراد حفاة الأرجل ، خشنو الأيدي ، يظهر عليهم البـؤس ،

---

(١) اسم الحصان .

والبغضاء، والاحتقار. لكنهم ارتقوا إلى مرتبة الجنود العاملين في سبيل الله، والمدافعين عن الإيمان، والقضاة، فيتقدمون للقيام بهذا الواجب، وهم الذين حنوا ظهورهم طول عمرهم، وتمرغوا بالوحل، وكانوا كآنية تمتلىء بالعرق.

وتراهم على خطوات قليلة بعضهم من بعض. وعما قريب ستتطاير الحجارة: بلى! وستتكسر رؤوس: بلى، وستدخل الحِراب في الصدور: بلى! وسيموتون! ولكن ماذا بهم؟ وفي هده اللحظة، لم يعودوا مساكين، بؤساء، متعبين، مرهقين، بل هم أمراء.

ولكن ما هو هذا الطبل الذي يدوي، ويفسد عيد الانتقام؟ إنه شيطان أسود قفز في المكان الذي ما يزال يفصلهم، وعليه شكل أبيض يُخيِّل عليه. وفاجأهم الذهول، وعرفوا أنها رانيتهم. وتمر بعض الثواني ... وهي تعلم أنه ليس لديها إلا بعض الثواني لتثنيهم عن عزمهم، مستفيدة من ذهولهم، والصمت الذي ران عليهم، ولفهم جميعاً.

وصرحت سلمى:

ـــ قفوا. لقد خدعوكم. فرجال السياسة يحاولون أن يوقعوا بينكم، ودفعوا بمجرمين ليدنسوا أماكنكم المقدسة. فلا تقعوا في الفخ! ثم قالت بصوت حاولت فيه أن تدخل كل ما لديها من قوة إقناع:

ـــ لقد عشتم دوماً جنباً إلى جنب، في انسجام ومودة، على ما كان عليه آباؤكم وأجدادكم قبلكم. فماذا يحدث لنسائكم وأطفالكم، وهم وحدهم على قيد الحياة، إن متم أنتم، وتركتموهم في البؤس والشقاء، وكيف سيكون حال أولادكم؟

وتردّد القوم ونظروا إلى هذا الشخص المنتصب فوق الحيوان القاتم. فلا يفهمون. فعمَّ تتكلم؟ ومن هم السياسيون؟ وأي مجرمين؟ أما أولادهم، فهذا شأنهم.

ـــ إننا من أجلهم نقاتل، لكي يستطيعوا أن يعيشوا بكرامة، وبلا خوف! ولكن من الذي تكلّم؟ أهندي هو، أم مسلم؟ لكن الطرفين يصادقان. وبصورة تدريجية، قام الحذر مقام التردد. وتحاول سلمى أن تعود إلى الكلام. ولكن السحر زال. ولم يعد حولها إلا وجوه عدائية، ومهدّدة تقريباً.

ـــ يا أصدقائي.

وتردّدت هتافات غـطّـت على صوتها ، وفجأة نـدّت صرخة تقول :

ـــ اخرجي يا أجنبية . ودعيا نحن نسوي قضايانا .

ـــ أجنبية ؟

وشعرت سلمى بضربة تصيب قلبها ، وبانبهار . وكان أمامها رجل كهل أمسك بزمام حصانها .

ـــ اذهبي من هنا يا صاحبة السمـوّ . فلن تستطيعي أن تفعلي شيئاً .

ـــ ربما أساؤوا إليك .

أساؤوا إليّ ... إنها الآن تود أن تضحك ، ولكن عينيها امتلأت بالدموع .

أما فيما بعد ، فإنها لم تعد تتذكر ، كيف تخلصت من الجمهور ، وعادت إلى القصر . ولكنها تتذكر أن أحدهم مزق الطبل ، وأن هذا أخاف العقيد .

ومنذ ساعات ، والمعركة قائمة . وسلمى ، الحزينة في غرفتها ، لا تدرك منها إلا صخباً بعيداً ، مقطعاً أحياناً بصرخة ، بعواء كلب ، ثم تأتي لحظات صمت ، مخيفة ، غير محتملة .

وظنت في البداية أن هناك هدنة ، وأملت أن يكون الناس قد أفاقوا من جنونهم ، وأنهم بعد أن تعبوا من إراقة الدماء ، قرروا التفاوض . أما الآن ، فإنها ترى المعارك قد حمي وطيسها ، بعنف أكبر وأكبر . وإذن فعليها بعد الآن أن تخاف من لحظات الصمت . وتحزر فيها توسلات النساء وحشرجات الجرحى ، والموتى الذين يحملهم الآخرون باكين ، والتجمعات البطيئة ، العنيدة ، لأناس سليمين ، يستعدون لمعركة أخرى ، أعنف من الأولى . وعليها هذه المرة ، أن تقضي على الخصوم .

ولم تعد سلمى تشعر بمرور الزمن ، وتوقفت عن عد الدقائق والأميال التي يجب على أمير أن يقطعها رملاً . ولم تعد تنتظره مطلقاً . فقد فات الوقت . وكذلك فإنها لم تعد تقوم بأي حساب محزن للأمل ، ولا للإحصاء المهووس ، لعدد الضحايا ، في كل ساعة تمر ، ولعدد الأحياء الذين ...

فكل شيء قد تهـدّم . وهي تعرف ذلك . تهدمت القرية ، قريتها وتهـدّمت الهند ، هندها . ولم تعد إلا كومة من الحجارة . ويساورها البرد . هذه الأجنبية .

ودوت بعض طلقات الرصاص. ترى ماذا يجري أيضاً؟ ودخل صاحب الديوان، متألقاً.

ـــ إن السيد قد وصل، هوزور.

ـــ أين هو؟ ومن يطلق الرصاص؟

وينتصب الرجل العجوز، ويمنحها بسمة عريضة.

ـــ إنه الراجاه الصاحب! ولقد مضى إلى القرية، مع مئة من الحرس. ولن يقضوا وقتاً طويلاً!

ونهضت سلمى، بقفزة واحدة، إنها تختنق.

ـــ كيف؟ ولكن لماذا؟ لِـمَ يطلق الرصاص؟ كان يكفي أن يكلمهم. ولربما أصغوا إليه.

ـــ لقد حاول، هوزور. ولكن الفلاحين كانوا كالمجانين. فهو يكلمهم، وهم لا يسمعون شيئاً. وإذن فلا بد من قتل بعضهم. إن هذه هي الطريقة الوحيدة لحملهم على الإطاعة.

وتتالت الطلقات، جافة، محتومة. وسلمى متكورة في سريرها، تسدّ أذنيها. فكل طلقة تدخل إلى جسمها، وتثقبه. أما أمير الذي كانت تنتظره لإنقاذهم، فإنه يكمّل المذبحة. فأية فظاعة. ولقد كان في وسعه أن يهدئهم، وهي مقتنعة بذلك، ولكنه اختار العنف، الأسهل، والأسرع. وأمير الذي كان ينقد زملاءه باستمرار، وعلى الرغم من خطاباته الإنسانية الجميلة، أصبح الآن مثلهم! وهي تكرهه. لقد خان هؤلاء الرجال الذين كان يقول إنه الأب، بالنسبة لهم. ولقد خان الثقة والطموح الذي كان لكليهما، إلى إخراج بادالبور من القرون الوسطى، وتكوين حياة جديدة لرعاياه.

ولن تستطيع أبداً مسامحته على ما يفعل.

وفي هذا الصباح، كانت القرية تدفن موتاها، في صمت حزين. فالطرق خالية. ويرى الإنسان أحياناً خيالاً رمادياً يتسلّل من بيت إلى آخر، ليسأل عن جريح، أو ليلقي على ميت ما، تحية الوداع.

ومن شرفتها ، كانت سلمى ، الساكنة ، تتأمل هذا المكان الذي طالما أحبته ، والذي تعرف كل كوح من أكواحه ، والذي تعرف أنها لن تعود إليه أبداً .

وعليها أن تسافر هذا المساء . فلقد جاء رشيد خان من لوكنوف ليصحبها في سفرها . وكان وصوله دعماً غير متوقع ، لها ، كما أن بسمته الطيبة ، كانت نوراً تتعلق به في هذا الثقب الأسود ، الذي تشعر أنها تنزلق فيه .

ولم تر أمير من جديد . والبارحة حبست نفسها في غرفتها . لكن غضبها تبخّر الآن ، فلم تعد تشعر إلا بتعب كبير ، وطنين جارح في الرأس يقول باستمرار : اتركي البلد ، ياأجنبية .

ولم تعد تبكي . ذلك أنها حتى في بيروت ، في دير راهبات بيزانسون ، كانت الطالبات يستبعدنها لأنها كانت « التركية » . ومنذ جاء المنفى ، صارت تسمى في كل مكان ... « بالأجنبية » .

أما هنا ، في بادالبور ، فلم يكن الأمر شبيهاً بما كان من قبل . فلقد اعتقدت أنها ستجد بلداً لها ، وكان الفلاحون إلى حدٍ ما أسرتها ، وظنت أن تبنيها قد تم .

وأحسّت بيد توضع على كتفها .

ــ لاتكوني حزينة ، ياأميرة ، لأنك سترين أن كل شيء قد عاد إلى نصابه .

وأجابت سلمى دون أن تلتفت .

ــ شكراً يارشيد بك . وعندما تكون أنت هنا ، فإن كل شيء يبدو وكأنه يسير إلى الأفضل .

ــ انظري ، لدينا زوار .

وفعلاً ، فقد كان هناك بعض الكهول ، يلبسون التنورة الناصعة البياض (أي الدوبتس) وكانوا يجتازون الحديقة ، ويتجهون إلى القصر .

ــ إنهم هنود ومسلمون معاً ! ويبدو لي أنهم وفد . فماذا عساهم أن يريدوا ؟

وأخبر أمير بأمرهم ، فخرج يستقبلهم على الدرج الخارجي . فانحنوا انحناءة كبيرة له ، وقبّلوا التراب بين قدمي الراجاه ، الذي أخذهم بين ذراعيه ، لينهض بهم . وعندئذ تكلّم الأكبر عمراً ، باسم زملائه ، الذين وافقوا على ذلك ، بالتمتمة وهز الرؤوس . وتكلم طويلاً . ولاحظت سلمى ،

مندهشة ، إن أمير يبدو متأثراً . فيشكرهم ، برزانة ، ويقـدّم لهم الشاي التي يشربونها في صمت .

وقالت سلمى ، وهي تلتفت إلى رشيد .

ــ كأنهم يعقدون حلفاً جديداً .

ــ إن الأمر هكذا إلى حـدٍ ما .

وكان هو أيضاً يبدو مضطرباً ، بل مضطرباً جداً .

ــ إنهم جاؤوا لشكر الراجاه على أنه أوقف الشغب ، وعمل كما كانوا ينتظرون أن يعمل . وهم واثقون أن لهم سيداً قادراً على حمايتهم ، وحماية الطائفتين ، بعدل وإنصاف . وطلبوا منه الصفح عن شكهم فيه ، وأنهم فكروا بأنه يحمل أفكاراً مفرطة في صفتها الإنكليزية . أما الآن فإنهم سعداء . فلدولة بادالبور رئيس يعرف كيف يهتم بأولادهم ، وأحفادهم . وفي وسعهم الآن أن يموتوا بسلام .

ــ ماذا؟ أجاؤوا ليشكروا على أنه أمر حرسه بإطلاق النار عليهم؟

ونظر رشيد إليها ، وكأنه يلومها ، وقال :

ــ أيتها الأميرة ! لا تكوني قاسية بهذه الصورة ، وأنا أعلم كم كان صعباً عليه ، أن يتخذ مثل هذا القرار . ولكنه أراد إيقاف المجزرة . فاتخذ من القرارات ما لا ينسجم مع ميوله وقناعاته ، ومع ما كان دوماً يدافع عنه . غير أن إنقاذ النساء والأطفال كان يتطلب قتل زعماء الشغب . ومسكين أمير . فما من شيء أقسى على النفس من القيام بعكس ما يظن الإنسان أنه العدل . وأنا معجب بشجاعته . ولا أظن أنني كنت قادراً على أن أفعل مثله .

١٧

إنها الآن وحدها أمام أبي الهول، الذي يطرح عليها، بقوة واحدة، ذلك اللغز النهائي: «فأيهما أفضل: أن يكون الإنسان ميتاً في عالم حي، أم أن يكون حيّاً في عالم ميت؟». وليس في وسعها أن تزيح عينيها عن ذلك الوجه الحجري. فهي تحاول أن تهدىء روحها التي تجن في الفراغ.

ولقد استفاقت سلمى، وهي تتصبّب عرقاً. ذلك أن السؤال يرن في أذنيها بوضوح لا مجال معه للقول: إن ما رأته كان حُلماً، أو أنه يجب أن يكون الحلم بالمعنى الذي كان يفهمه القدماء: «كرسالة من الآلهة».

وفجأة تتذكر آخر جملة للراني سعيدة، التي ذهبت إليها لتبثّها همّها، قبل أن تترك بادالبور: «إن السعادة هي أن نحب، قبل أن تكون في أن نُحَبّ».

ولم تكن قد فهمت، وهي التي كانت قد عرفت، وهي فتية، عذاب حبها، من غير أن تُحَب. وكان في وسعها أن تعيش ولو كان زوجها لا يبالي بها، أما خيبة أملها في بادالبور...

وكانت ترجو أن تغيِّر حياة الفلاحين. فاطّرحوها جانباً، ونبذوها.

لكن الراني سعيدة التي أنّبتها بعطف، قالت لها:

ــ ولكن ماذا تظنين؟ فأمير وأنا معه، غرباء كذلك، بالنسبة لهؤلاء الناس. وسنظل كذلك حتى ولو تخلينا عن قصورنا وعشنا مثلهم، لكي نفهمهم بشكل أفضل، ونساعدهم

مساعدة أكبر. فذلك لن يكون في نظرهم إلا مهزلة، وشتيمة. وعلى فرض أننا فقدنا كل شيء، فما من شيء يمكنه أن يمحو ماضينا: وسيستمرون في الحذر منا، وسيكونون على حق!

« فافهمي يا بنيتي: إن تغيير الإنسان جلده يظل شيئاً كالياً. ونحن نعتبره حقاً، ونعجب وننذهش إذا هم أبوه علينا، ولكنك كأميرة، وإن فقدت ما كنت فيه من ثراء ونِعم، تظلين أميرة. وكذلك الفلاح إذا اغتنى، فإنه يظل نذلاً على كل حال، وهم يعرفون ذلك، في أعماق نفوسهم، وبسبب هذه الهوة التي لا يمكن اجتيازها، ترينهم ينظرون إلينا نظرة الحقد.

« إنه لا يسعهم أن ينسوا هذا الحقد، إلا إذا قتلونا جميعاً، وهذه هي الوسيلة الجذرية لحذف الفرق. ولقد أحسّ الشعب الفرنسي بذلك، منذ بدأت السيدة المقصلة تعمل ليلاً ونهاراً: ولم يكن الأرستقراطيون، ولا الأغنياء، هم الذين يريدون القضاء عليهم، بل كانوا يريدون القضاء على هذه النظرات التي تشعرهم بوجود هذا الفرق. ولسوء حظهم فإنهم ارتكبوا خطأً آخر، هو أنهم لم يقضوا على البورجوازية. بل لقد استطاعت هذه تنويمهم بخطبها الجميلة، حول المساواة، والإخاء. وعادوا فاستيقظوا مع الأمبراطورية ».

وفتحت سلمى عينيها بقوة.

ــ راني صاحبة، لم أكن أعرف أنك ثورية!

ــ آه، ولكنني محافظة على أحسن صورة، وأعتقد أن الله خلقنا في مكان ما، لكي نقوم بدور ما، وكل محاولة لجعل هذا الأمر موضوع بحث، لا بد وأن تخفق. ولئن أراد الشعب أن يحل محلنا، فعليه أن يعُدَّ العدة لذلك، ويستغني عن الخطابات، والتمرد. فإذا استطاع أن يكتسب المزايا الضرورية للإستيلاء على الحكم، والاحتفاظ به، فإن السلطة تصبح من حقه شرعاً. والله القادر على كل شيء، والعادل كل العدل، لا يملك إلا أن يسجل هذا الاهتزاز الخفيف على السلم اللا متناهي لتغيرات العالم.

ــ ولكن أنّى لهم أن يصلوا إلى الحكم، بدءً من لا شيء؟ فانفجرت الراني ضاحكة.

ــ أتقولين بدءً من لا شيء. تلك هي المجاملة الملأى بالإحسان! كنت أحسب أنك قلت إنهم رجال، مثلنا. فكيف وصلنا إذن نحن إلى الحكم؟ ومنذ قرون، كنا نحن أيضاً جماعة مسكينة... إن هذا قد يكلّفهم بعض الوقت. فإذا هم وصلوا، فهذا برهان على أن لهم الحق في السلطة، وبرهان على أننا فقدنا الفضائل التي كانت تتيح لنا الغلبة، والقيام على شؤون الحكم.

وأنهت الحديث متمنية ألا ترى ذلك اليوم الذي يدل على انحطاط طبقتها، هذا الانحطاط المؤكد، إلى الدرجة الأخيرة.

ـــ ذلك أن الله عادل، ولا تسقط عن الشجرة إلا ثمارها الفاسدة.

والعادة أن يأتي الباعة، في «بعد الظهر هدا» ويحملوا معهم أفضل ما لديهم من الأقمشة. وكانت سلمى قد تلقت من باريس آخر مجلات الموضة، وقـرَّرت أن تغير محتويات خزانتها. وهي التي كانت، منذ وصولها، تتسلى بلبس الساري والغاراراة التقليديتين، وتلاحظ بمتعة أن صديقاتها الهنديات يحاولن أن يسبغن عليها بسمة «باريسية»، بإضافة ثنيات، أو التوشية بأحجار كريمة. لكنها تشعر الآن أنها متعبة وبها رغبة إلى أن تكون من جديد هي نفسها. وفي بداية أيامها هنا، كانت تلبس ثياباً أوروبية عندما كانت تريد التأكيد على استقلالها تجاه أمير. واستمرت على ذلك حتى فاجأت الراجاه يُسِرُّ لرشيد خان أن ثياب زوجته هي أفضل صورة لمزاجها في الساعة التي هي فيها. وشعرت بأنها سخيفة. وفي تلك الليلة نفسها، كانت خزانتها فارغة من كل أثر من آثار هذا التمـرّد الطفولي.

وكما كانت في بيروت، عندما كان أبوها يتخلى عنها نهائياً، ثم عندما خانها وحيد، فإنها تجد في الخفة ما يهدىء نفسها. فكل ما حاولت إنجازه، في لوكنوف، ثم في بادالبور، لقي الخيبة. ولم تنجح إلا في إدخال بعض الاضطراب على عادات تقليدية قديمة، وأثارت آمالاً لم تستطع أن تحققها، ووصلت إلى إثارة العنف بين الطبقات، والنزاع داخل الأسر، حيث اعتقدت النساء لحظة ما، أنهن يستطعن رفع رؤوسهن. وحتى الشغب الذي ثار بين الهندوس والمسلمين، أليست هي المسؤولة عنه بصورة غير مباشرة. وهي التي حفزت الأمير على القيام بجولة في القرى البعيدة. ولو أنه كان هنا، إذن لما حدثت المأساة. ولقد أرادت مساعدتهم، فلم تزد على أن زرعت الشقاق ثم رحلت عنهم وتركتهم أتعس حالاً مما وجدتهم. وكان يجب أن ترحَـل. وحتى النساء اللواتي كـنّ يحببنها، فهمن ذلك: فما من واحدة طلبت بقاءها...

وفي البهو المجاور، سمعت أمير يتناقش مع صهره. وكان في وسعها أن تنضم إليهما ـــ إذ لم يعد هنالك من مانع يمنع الالتقاء برشيد ـــ ولكن ليست بها رغبة في ذلك: إنهما يتحدثان في السياسة. ومن الغريب أن هذا النوع من النقاش الذي كانت مولعة به، بدأ الآن يضجرها. ومع ذلك فإنها عندما تسمع اسم غاندي، تصيخ السمع. ذلك أن هذا الرجل العجوز ما زال يستهويها. وعلى الرغم من خيبات الأمل، والتكذيبات التي تحملها كل يوم تلك الحوادث الدامية،

فإنه يستمر في الدعوة إلى اللاعنف؛ فيصوم ... ومتى صام، تسكن الجماهير، بشبه أعجوبة، وتعود إلى الهدوء.

ويقول رشيد خان:

ـــ في هذه المرة فقد غاندي عقله. فهل تعرف ماذا كتب في آخر عدد من أعداد الهاريجان، بمناسبة الحديث عن اضطهاد اليهود في ألمانيا؟ إنه ينصحهم بعدم اللجوء إلى العنف، وهو الوسيلة الوحيدة للانتصار على النازيين.

ـــ ما أتعس هؤلاء اليهود! إني آمل أن يناضلوا. وتخيّل نتائج موقف كموقف غاندي، إنها لن تكون إلا مجزرة.

ـــ والمشكلة أننا هنا، نحن أيضاً، أمام نازيينا.

ويتكلم رشيد خان، ولكن بصوت أجش، فيقول:

ـــ هل سمعت تصريح ماهاصباح في مؤتمره في نقرور NAGROUR، إنهم يقولون أن مسلمي الهند، كاليهود في ألمانيا، هم أقلية لا تملك أي حق. ولم يُدن غاندي هذا الكلام، ولا نراه يثور على المسيرات التي تنادي بأن «الهند هي للهندوس». ولا أعرف ما يدور في رأسهم. ولكني أقول إن المسلمين يتزايد خوفهم كل يوم، وأننا خمسة وثمانون مليون نسمة، أي أننا كتلة لا يمكن تجاهلها، وأن هذا كله، مما يخشى شره.

«يخشى ...؟» وتهز سلمى رأسها في بهوها الصغير. «إن هذا سينتهي إلى أبشع نهاية!» وهي غير بعيدة عن نسيان العنف، والبغضاء اللذين اكتشفتهما معاً في بادالبور، بين فلاحين ما يزالون يعيشون معاً بهدوء منذ قرون. وكان يكفي أن يدخل الساحة تحريض سخيف، لكي يجرّهم إلى التذابح.

أما التحريضات، فإنها ستزداد، لتعجل بقرار سياسي، أو بمنعه. وإنه لمن السهل أن نجعل المنزان يميل باتجاه ما، بتحريك الجماهير الساذجة، بل إنه مغر جداً.

ولكن لِـمَ تهتم بهذا كله؟ فهي لا تملك من الأمر شيئاً. ولو كانت هندية على الأقل، لكانت تدخلت. ولكنها ... أجنبية. ولقد أفهموها ذلك بوضوح. وعلى الأجنبية، في الإطار المتفجر القائم

حالياً، ألا تتدخل في السياسة، وعليها كذلك أن لا تتدخل لتغيير عادات متأصلة منذ القدم، وعليها يقوم التوازن الاجتماعي. والإحسان هو وحده الشيء المقبول. أما الباقي فهو ديناميت.

وكانت تأبى أن تقبل ذلك، ولكنها منذ الآن تنزل على حكم الواقع. فليست القضية أن بعض الفلاحين اطّرحوها كأجنبية فقط، بل إنهم عبّروا بفجاجة عما يشعر به كل إنسان عادي. وبدأت تتذكر تقطيب الحاجبين، والشفاه المعضوضة عندما كان يحدث لها أن تعبِّر — وبأية أناة — عن بعض سمات المجتمع الهندي. بل لقد سمعت، ذات يوم، من يقول: إذا كان هذا لا يعجبها، فليس عليها إلا أن تعود من حيث أتت. وكانت تظن أن هذا رد فعل شبيه برد فعل المرأة التي تشعر بالغيرة. أما الآن، فإنها عندما تصل بين هذه الأحداث المتناثرة، وبين نصائح أمير بالاعتدال، مما كانت ترى أنه ضعف، تفهم أنه كان يريد حمايتها من فرط حماستها، وصراحتها. وهذه مزايا تعتبر في الهند أخطاءً لا تحتمل، لأنها تهدّد النظام القائم الذي أنشأته الآلهة.

— راني صاحبة. لقد وصل الباعة.

— من؟

ومضت بضع لحظات قبل أن تعود سلمى إلى كامل وعيها.

— آه، بلى، البائعات... فليدخلن.

وهذا هو مجال المرأة وميدانها. لقد أوشكت أن تنساه. حسناً، فما دام كل شيء محرَّماً عليها، فقد بدأت تشعر بأنها ستهوى الانشغال... بالزينة الفارغة.

وفي دقائق، فرشت الأرض بنماذج من الأورغاندي، والساتين، والمخمل الموشّى — أي من أفضل ما يُصنع في أوروبا — ذلك أن مصانع النسيج الهندية، ذات الشهرة العالمية في الماضي، قد أغلقت منذ زمن طويل، لأن مصانع النسيج الإنكليزية لم تعد تتقبل أية مزاحمة. وقد جاءت الراني، راني نامبور، التي عادت حديثاً من السفر، لتساعد صديقتها في الاختيار. وأي اختيار؟ وها إن سلمى تشير، وعيناها تلمعان، إلى القطعة بعد القطعة، حتى تألف من ذلك ما يُلبس كل نساء القصر. وما من مرة رأت الراني صديقتها تسرف كل هذا الإسراف؛ بل إنها لا تتردد، وتطلب بحماسة ما تطلبه، حتى اجتمع من ذلك أكوام من الحرائر، وضعت على الديوان، على أكبر مسرة من البائعات.

ـــ ماذا ستصنعين بهذا كله ؟

ـــ سأصنع ... فساتين . وهل في هذا البلد من شيء آخر أعمله . وما كادت الراني شاهينا تبدأ الجواب ، حتى أعلن عن وصول باعة الحلي . وهم الباعة الثلاثة الأعظم شأناً في البلد . ذلك أن نوع حجارتهم ، وإتقان صناعتهم ، أمران ذائعا الصيت ، في الهند كلها . بل إن المحلات العظيمة في دلهي تأتي إلى هنا لتتموّن .

وأوضحت راني بادالبور أنها لا تريد إلا قطعاً من الدرجة الأولى . وكانوا يضعون بعناية ، علبهم المخملية ، ويصفونها تباعاً . وتسرع البائعات ، مبهورات : فما من مرة رأين اجتماع مثل هذه الحلي الفخمة . فتشير سلمى إلى بعض العلب . ولاحظت راني شاهينا أنها لا تكاد أن تكون رأت محتويات هذه العلب . فانحنت بنعومة ، نحو المرأة الشابة .

ـــ سلمى هل أنت مريضة ؟

ورأت عينين حزينتين تنظران إليها ، بصمت .

وبالغ باعة الحلي في تحياتهم ، واستأذنوا بالانصراف ، وتبعتهن البائعات مذهولات : فشراء الحلي ، أمر جدي ، لا يتم في بضع دقائق . وحتى ماهاراتي جيها نراباد ، على كونها الأغنى بين جميع زميلاتها ، فإنها تخصص ساعات كثيرة لشراء قطعة حلي جديدة .

وفي هذا المساء ، ستعرف البلد كلها ، بفضل الإشاعات المتناقلة ، ما ارتكبته الراني الصغيرة من حماقات . ولكن ما لا يعرفه الناس ، هو دهشة الراجاه نفسه ، عندما جاء باعة الحلي يقدمون له احتراماتهم ... وفواتيرهم . فمنذ أن صادق المؤتمر على القوانين الماضية ، أصبحت صناديق الدولة ، فارغة . ذلك أن الفلاحين يمتنعون عن دفع أجور أراضيهم . ومن الأمراء من يرشي رجال الشرطة ، ويستخدم القوة في الإرغام على الدفع ؛ أما أمير فكان يأبى ذلك دائماً .

وسرعان ما استعاد أمير انتباهه ، أمام باعة الحلي . ولكن هؤلاء كانوا قد لاحظوا اضطرابه .

ـــ يا صاحب السمـوّ ، ما من شيء مستعجل . ونحن نعرف أن لدى سعادته ، أشياء كثيرة تشغل باله ... ولكن إذا كان يتنازل ، ويرضى أن يعوضنا ، نحن الناس العاديين ، عن هذا المبلغ الموقوف المجـمّـد .

ولكن الراجاه ، أوقفهم عن الكلام وسألهم :

ـــ كم تريدون ؟

ـــ لا شيء ، يا صاحب السمـوّ . ونحن مستعدون للانتظار بقدر ما يريد . وإنه لشرف لنا . غير أننا نطلب بعض التعويض : ١٠٪ ... بالشهر طبعاً .

« ١٠٪ فقط ، ويحسب الراجاه ، فيرى أن المبلغ سيتضاعف خلال عشرة أشهر . ياهم من قوم قذرين » .

ـــ حسناً ، والآن أدعكم أيها السادة . فلديّ أشياء أخرى أفكر فيها .

وهكذا يطلق سراحهم بحركة مجاملة لا تخدع أحداً . فلأول مرة ، يجد راجاه بادالبور أنه تحت رحمة المرابين .

وكانت سلمى تجلس أمام المرآة تغني غناءً خفيفاً . وهي تشعر أنها مرتاحة ، وأنها ليست بحاجة إلى التساؤل عما إذا كان ذلك بسببٍ من رجاجة الشمبانيا ، نصف الفارغة ، والموضوعة على منضدة الزينة . فمنذ أسابيع تغيَّـرت صورة حياتها تغيّـراً تاماً . أي منذ قام أمير ...

وكان ذلك ـــ وهو مما لا تنساه أبداً ـــ في المساء الذي تبع شراءها كل هذه الحلي . فقد وصل أمير ، ودخل غرفتها كأنه مجنون . وعندئذ انفجرت هي ، وصرخت وهي تقول : إنها تريد الطلاق ، والعودة إلى بيروت فوراً ، وإذا هو حاول منعها فستقتل نفسها ، وأنها لم تعد تطيق الحياة التي يجعلها تعيشها . فوقف جامداً مذهولاً .

ـــ كيف ؟ إن لديك كل ما تريدين وترغبين به . أما بالنسبة للحلـيّ ، فأنا أرجوك أن تكوني عاقلة .

وفي هذه اللحظة ، كانت قد كرهته .

ـــ إنك لن تفهم أبداً شيئاً ! فأنا لا تعنيني الحلي ، ولا الفساتين ، ولا قصرك . فأنا بحاجة إلى أن أحيا ، أحيا ! ولقد قبلت بألا أخرج إلا لحضور اجتماعات الرانيات اللواتي يأكلن حتى يُتخمن ، ويتناقلن الأقاويل . قبلت أن أقضي وقتي بشراء التوافه ، وانتظارك . والمكان الوحيد الذي كنت أتنفس فيه ، وأشعر بأني أقـدِّم خدمة نافعة ، هو بادالبور . وقد امتنع هذا علـيّ ، أيضاً ...

وأخذت تبكي ، ولم تعد تستطيع التوقف . وعبثاً حاول تهدئتها ومواساتها . ولكنه لم يكن يجد ما يقول . وكان يعلم أن هذا ليس بحزن بنيّـة صغيرة ، تكفي بعض الكلمات لكي يُنسى . فقد

كانت سلمى مرتبطة عاطفياً بيادالبور، مثله تماماً. وأعجب هو بإخلاصها، وصبرها، ولكنها أرادت تحقيق ما أرادته بأسرع مما ينبغي. ولكن أيمكن القول: «بأسرع مما ينبغي؟» لا ريب أنهم كانوا سيطّرحونها على كل حال، ولو انتظرت مدة أطول.

وعندما أخبر الراجاه رشيد خان بما كان من أمر سلمى، وما بلغته من اليأس، نصحه هذا قائلاً:

ـــ يجب حتماً أن تسلّيها. فامضوا هنا وهناك، وتسلّوا، وتنهّد الراجاه، وعلا صدره قليلاً، كتعبير عما هو فيه من حرج. وقال:

ـــ أنخرج؟ إن هذا مستحيل. فبنات الهوى وحدهن...

ـــ إني لا أطلب منك أن تمضي بها إلى بيوت مواطنيك، وذلك لأن من المؤسف أننا لا نزال ننظر إلى المرأة كفريسة جنسية. فامض بها إلى بيوت أصدقائك الإنكليز! فمنهم من تطيب عشرتهم دون أن يكونوا عرقيين في الظاهر. وسيسعدون باستقبالكما، وستجد الراني، شيئاً من جو بيروت. وهذا يساعدها على استبعاد الأفكار السوداء من رأسها.

ومنذ ذلك الحين، صارا يخرجان كل مساء تقريباً: ولكن لا إلى استقبالات كبيرة، بل إلى عشاءات، يلتقي فيها الناس على أساس المودة. وتغلبت سلمى على مستبقاتها، وانتهت إلى ملاحظة أنه يمكن للإنكليز أن يكونوا لطيفين، ممتعين، وأحياناً فكهين. وبين أصدقاء زوجها من هم مولودون في الهند، وهم يحبون هذا البلد بقوة، ويعتبرونها بلدهم، وكثيراً ما يعرفونها أكثر من الهنود.

وهذه هي حال الميجر روستيك الذي دعاهم إلى بيته هذا المساء. ويقول أمير إن جدّه وصل إلى كلكوتا عام ١٨٥٠، شاباً وعيّن كإداري في شركة الهند الضخمة. ولكن مزاياه الكثيرة، وقدرته على الصبر، وبرودة دمه، التي صُقلت بعناية في إيتون وكامبريدج، جعلته يرتقي درجات السلم بسرعة، في الشركة. وفي عام ١٨٥٨ تزوج من بنت العقيد، الذي تميّز، في العام الماضي، بقمعه ثورة السباهي (الفرسان) في لوكنوف. وكان ولدهما غيدون المولود في بومباي، والذي ثُقّف في إيتون وكمبريدج، قد قرّر أن يحتذي حذو جدّه لأمه وعاد إلى بلده الأصلي كضابط في جيش الهند. وكان الوقت يومئذ وقت هدوء. وكانت السلطة الإسلامية قد استؤصلت، وجُرِّدت أكثر الأسر من أملاكها لحساب أولئك الذين ظلوا على ولائهم تجاه البريطانيين، وانعزلت

انعزالاً عنيفاً ، وبلا جدوى ، على حين أن الهندوس الذين لم يتغيَّر عليهم شيء إلا وجه السيد ، كانوا يتلاءمون أفضل التلاؤم مع الموقف ، ويتعلمون الإنكليزية ، وينشئون لأنفسهم مكاناً في المجتمع الجديد .

ولم تتح الظروف لغيدون أن يُبرز مواهبه العسكرية . وبالمقابل فقد عرفوا كيف يستخدمون معلوماته عن اللغة الأردية ، التي هي لغة مربيته ، وخدمه ، الذين رافقوا طفولته : وهكذا فقد أصبح ضابطاً في المخابرات ، مما جعله يكثر التردد على مختلف الأوساط الهندية والإسلامية ، ويغدو واحداً من أفضل من يعرف التيارات التي تهزّ البلاد . لكن الوقت لم يتسع له لنقل معلوماته إلى ابنه إدوار ، لأنه مات ، وعمر هذا لم يتجاوز الثامنة ، لكنه نقل إليه حبه للهند وقناعته بأن على الإنكليز مسؤولية أخلاقية تجاه هذا البلد ، الغني بإمكانياته ، والمغري بتنوع أراضيه وسكانه . والبلد الذي يجب إحلال السلام بين مختلف فئاته ، وتربيته وتثقيفه لإبلاغه ما يسمى بالمدنية الحديثة .

ويشك أمير في صديقه روستيك ، أنه ، هو أيضاً ، عميل للمخابرات ولكن هذا لا يزعجه إلى أكثر من الحدّ المناسب ، ذلك أن الإنكليز جميعاً هم كذلك ، بل إنهم يرون أن من مصلحة سكان الهند ، أن نتوقع ما قد يحدث لديهم من أعمال طائشة ، يمكن أن تؤدي إلى ردود فعل عنيفة .

وهكذا فإن الميجر والراجاه يتفاهمان ، وكل منهما يعرف آراء الآخر . ولما كان كل منهما يحتل موقعه ، فإنهما يقبلانهما كشيء طبيعي .

وفي هذا المساء سيدور الحديث عن الخبر اللامتوقع واللا معقول : فلأول مرة ، يتقدّم فرع من فروع الرابطة الإسلامية ، هو فرع منطقة السند ، بطلب تقسيم الهند ، إلى دولتين ، وبشكل واضح ، إعطاء الاستقلال للمسلمين .

ويعلِّق الميجر قائلاً :

ـــ ما كان لهذا الفرع أن يتقدَّم بطلبه هذا ، من دون موافقة جناح . فهل تظنون أن هذا رائز أو تهديد ؟

ـــ أعتقد أن هذا ، بكل بساطة ، نتيجة لتصاعد الاستياء الشعبي ، الذي يرغم « جناح » على أخذه بعين الاعتبار . إذ لقد فقد المسلمون ثقتهم بإخوتهم الهندوس . ثم إن عدد الذين يرون أن فكرة « الباكستان » أو « بلاد الأتقياء » التي اقترحها الشاعر إقبال ، منذ عشر سنين ، والتي كانت تبدو آنذاك غريبة ، يزداد أكثر فأكثر ، لأنها ربما كانت الحل الوحيد .

ـــ وأنتم تطلبون الاستقلال ! ولكن يا عزيزي أمير ، في اليوم الذي نرحل فيه ، ستندلع الحرب الأهلية ! فاعترف أن مواطنيك ليسوا مهيئين بعد لهذا الاستقلال . وإذن فابدؤوا بالاتفاق . ثم نستطيع نحن بعد ذلك أن نناقش الأمر .

ولكن أمير لا يجيب بأن هذه الانقسامات إن لم تكن من صنع الإنكليز فإنها ، على الأقل ، قد زيدت حِـدّةً عن طريقهم ، أملاً بإضعاف الحركة الاستقلالية . ويكتفي بهـزّ كتفيه ، قائلاً :

ـــ دعونا نسوي مشاكلنا لوحدنا. أفيكون هذا إفراطاً في المطالب ؟

وكانت سلمى ، داخل نفسها ، توافق أمير : فهؤلاء الأوروبيون مقتنعون دوماً أنهم يعرفون ، أكثر من صاحب العلاقة ، ما يحسن له ، وبه . ولا يكتفون بفرض قوانينهم السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، بل إنهم يريدون فرض صورة تفكيرهم . وأخطر هؤلاء ، هم الذين يحبون الهند ، كهذا الميجر روستيك ؛ خلافاً للواقعيين الذي يتخلون عن الهند ، عندما لا يكون الموقف في مصلحتهم ، فأولئك سيحاربون حتى النهاية ، بل ويضحون بأنفسهم ، لكي يفرضوا خيراً لا يريده النـاس لأنفسهم .

«وهذا تماماً ، ما فعلته في بادالبور . لقد كنت مقتنعة ، أنا أيضاً بأنني كنت على حق ، وأنه توجد قيم عالية ، شاملة . أما الآن فإنني لم أعد أعرف ... فهل هنالك نقطة واحدة لا جدال فيها يمكن أن نعود فنبني ما نريد بناءه ، بالاعتماد عليها ... وما هي ؟ وحتى احترام الحياة ، هو أمر قد تكون له نتائجه المشؤومة » .

ـــ إن هذه المسكينة مثقلة نفسياً ، ولعلّـها فـكّـرت حتى بقتل نفسها .

وارتعدت سلمى ، ولاحظت النساء ، اللواتي يتحادثن ، أمامها . ولكن لا . فلسن يتحـدّثن عنها . أما الانتحار ... فإنها قد فـكّـرت فيه في الأيام الأخيرة ، وتخيّـلت كيف تكون ساعاتها الأخيرة ودقائقها الأخيرة . بعنف مؤلم ؛ ولقد عاشت هذا النزاع مرات عديدة ، ولكن هل كان في نيتها العزم على الانتحار ؟ الحقيقة ، أن ما تحبه ، هو أن تتذوق الموت ، وتلتف به ، وتتبـدّد فيه ، حتى ولو كانت تشعر بأنها تخدع نفسها وتخدع الآخرين .

ـــ أقترح أن نترك هؤلاء الرجال يتحدثون في السياسة ، وننتقل نحن إلى البهو الآخر .

وتقبل السيدات بذلك : إذ سيقلن لبعضهن أشياء ممتعة . فسلمى تحب لوسي ، سيدة المنزل . وهي فرنسية قصيرة القامة ، ملأى بالحيوية ، وتحب الصراحة في القول : ولا يضجر الإنسان في صحبتها ، أبداً .

وبصورة طبيعية، أخذت يد سلمى.

ـــ يا عزيزتي، يجب أن أعترف لك بأني غيرى.

ـــ ؟

ـــ فأنا لست الوحيدة. ذلك أن زوجك أحد الرجال الأكثر إغراء، بين من عرفتهم. إن حظك لكبير: ويجب أن يقوم بأعمال رائعة!

وبدأت النساء جميعاً يضحكن، مسرورات بهذا الفجور. وخلال العشاء سالت الشمبانيا بسخاء. وشعرت النساء بالحاجة إلى الإفضاء بما في أنفسهن، وإلى المسارّات. ومَنْ غير لوسي تستطيع الإصغاء لهن؟ ذلك أن لهذه الفرنسية فن الحفز، وهي نفسها لا تخفي أنه كان لها عدد غير قليل من العشاق. وتدّعي أن احتقار الحب، هو نوع من الشتيمة الموجّهة إلى الخالق.

أوَلم يكن المسيح نفسه يشعر بعاطفة ما، نحو المجدلية؟

وأخذت المدعوات يبتسمن، أمام ما رأينه من انزعاج سلمى: فهذه الراني الجميلة، ساحرة، خجول كفتاة لم تتزوج. وهنّ أبعد ما يكون الإنسان من التفكير بأن ما يسمينه خجلاً، إنما هو الجهل. أوَليس الشرقيون معروفين بأنهم عشاق كبار؟ والمسلمون بشكل خاص ـــ أوَلم يضرب لهم النبي المثل؟

ـــ أوَصحيح أن كل شيء بين الأزواج مسموح به، عندكم، كل شيء؟

وتنظر سلمى إلى هذه السمراء الحلوة التي تطرح عليها هذا السؤال الغريب؟ ترى ماذا تريد أن تقول؟

وتدخلت المضيفة قائلة:

ـــ عفوك يا آرماند. دعي صديقتنا هادئة، وحدّثيـ عن هذا «الابن العم» الذي يبدو أن له تجاهك بعض العواطف؟

ـــ عواطف؟ ويضحكن من جديد. وتطلب لوسي من النادل أن يترك لها الشمبانيا هناك، حتى يكون في وسع السيدات أن يشربن على حريتهن، ويهذرن على راحتهن.

ويشعرن بشيء من نشوة السكر، وهذا سار جداً. وهذا الذي يظهر من جرأتهن يعطيهن

الانطباع بأنهن قويات، مستقلات، متواطئات فيما بينهن على أزواجهن، الذين يُحدث بعضهم بعضاً بمغامراتهم الناجحة، بمجرّد أن يدرن لهم ظهورهن. وهم لا يتخيلون مطلقاً، أن زوجاتهم، مثلهم في ذلك. ولماذا لا يقابلنهم بالمثل؟ ولا يخطر في بالهن أبداً أن يتركنهم، أما أن يخدعنهم، بالفعل، أو بالكلام، على الأقل،.... كيف يقول الإنسان هذا؟.. فذلك قضية مستوى، وكرامة. وهذا ارتواء رائع، لا سيما وأن رجالهن لن يشكّوا فيهن أبداً، وأنهن، لهذا، يخدعنهم، بصورة مزدوجة.

وتتناول سلمى كأساً من الشمبانيا، لتخفي اضطرابها، ولكن من غير أن تضيع كلمة واحدة من المسارّات المتبادلة. وهي تتذكر، يوم حفلة حمام قصر أورطاكوي، صور الضحك، والتوريات التي كانت تثير خيالها؛ ولكن لا شيء قيل مطلقاً يومئذ. ولا شيء يشبه ما تقول هؤلاء السيدات اللواتي يلبسن الحزام على خصورهن، ويضعن القفازات الطويلة على أيديهن... فيستولي عليها شيء من الحقد فجأة: فهل ستشيخ دون أن تعرف هذه اللذة التي يتحدّثن عنها، والعيون مغمورة بالدموع، كما لو أنه لا شيء في الدنيا يقارن بها؟ إن هذا سيكون إجحافاً كبيراً، وهي جميلة، وتعرف أنها تُشتهى، وهي تشتهي أمير، زوجها الجميل، الذي يحسدنها عليه جميعاً. فهل يجب أن تصارحه، لا، إنها لن تجرؤ على ذلك أبداً.

وتعود فتشرب الشمبانيا.

ولن تكون سلمى بحاجة إلى الكلام، بعد ذلك. ففي هذه الليلة، جاءت مخلوقة مجهولة لتجر أمير إلى ما وراء أحلامهن الأكثر جرأة. وهي امرأة شرهة وكريمة، عبدة في المتناول، وكاهنة عليمة بالتضحيات الغامضة، والهذيانات المتأنية، وهي تخترع ألف مداعبة، ولا تعرف أين تضل يداها، وشفتاها، وجنسها، ولا تعترف بهذه الشكوى الغريبة التي ترتفع من أعماق حنجرتها؛ وهما معاً، سيدعان المجال لنفسيهما أن تسيلا هوى، ويهتزا معاً، ويغوصا في أمواج خفية، بعيداً، وجد بعيد عن ظاهر الأرض، وفي أعماق أحشائها، محمولين بنهر أعمى، يقتل أو يهب الحياة، تبعاً لما يدع الإنسان نفسه تنساق إليه. وهما الاثنين، يمضيان، مرتجفين، من خلال زخات العاصفة التي تغمرهما، باتجاه الشمس التي انبثقت فجأة، وفجرّتهما ألف نيزك ونيزك، وفي مطر من النجوم.

... يا حبيبي، أنت حبيبي ... المختبىء وراء اسم الزوج، لِمَ لم أتعرّف عليك من قبل؟ يداي كانتا

تحزرانك ولكنني لم أكن أجرؤ ... فكل شيء كان سيصبح أكثر ساطة، بدون هذا الاحترام، وهذا الاحتقار لجسدينا.

وكان النور يدخل كطوفان إلى الغرفة. والعينان ما زالتا مغمضتين. فتمد ذراعها إليه ــ آملة أن تشعر بوجوده ــ أوَليس هذا الصباح مختلفاً عما كان؟ إن هذا هو صباحهما الأول ... فلا تعثر إلا على برودة الغطاء. فتعيد يدها إلى تحت الوسادة، وتظل تحلم.

وتحلم بالراجاه الغامض، الذي وقعت في حبه هذه الليلة، بالسيد الذي استبقت رغباته، وحزرت، كل خلجة، وكل توقع أو انتظار من جانبه، كأنهما صادران عنها. وعندما تذكرت بعض المداعبات، التي قامت هي بها، أو استقبلتها هي منه، شعرت بحرارة تلفها، بما يشبه الرجفة في بطنها... فيتفتح جسدها كله ... وتعود فتنام.

واستيقظت قبيل الظهر، ونادت الخادمات: ليهيئن لها الحمام، ولينسقن شعرها، وليعطرنها، بسرعة! وكأن حدسها يقول لها: إن أمير قادم. واعتذرت عن دعوة تلقتها من راني جودبار Jodbar ــ ذلك أنها ترغب في أن تكون وحدها، لكي تفكر به، وبهم، وستنتظره طيلة ما بعد الظهر، ولكنها للمرة الأولى، تجد في الانتظار عذوبة. إنه سلفاً شيء من حضوره هو. وتتلـذّذ بهذا الشعور الجديد بأنها خاضعة، يملأ السلام نفسها، بسعادةٍ. إنها سعادتها بأنها ملك له.

وعندما جاء وقت العشاء، لم يحضر أمير. فبدأت سلمى تقلق: وكان دائماً يخبرها عندما يتغيّـب في المساء. وهكذا فقد جلست أمام البيانو، لتهدىء به عصبيتها. وأخذت تعزف النغمات الأولى من المرايا؛ فيستولي عليها السحر الحزين لرافيل Ravil[1] ولم تعد يداها، وأحلامها، هي التي تهب الحياة للموسيقى، بل إن جسمها كله، حيث كل نغمة ترن كمداعبة، وكأن تحليقات بلورية، جادة، تقلب كيانها.

ــ ها أنت يا حلوتي!

ويقف أمير على العتبة. وينظر إليها، مثبتاً عينيه عليها، فتحزر سلمى فيها، وهي لا تصـدّق، نظرات الكراهية.

ــ كيف؟ ألا تأتي المرأة فتقبل سيـدّها؟

---

(١) رافيل: موسيقي فرنسي (١٨٥٧ ــ ١٩٣٧)، والمرايا من ألحانه.

وأمسك بكتفيها، وبحث عن شفتيها، وتحس هي رائحة الخمر. إنه سكران. فتخبطت بين يديه مزعوجة، وحاولت التخلص منه، ولكنه يمسك بها بقوة.

ـــ آه، لا. لا تتصنعي هذه الحركات! واحتفظي بوضعك كأميرة مستاءة، لآخرين غيري!

ودهشت، ثم جمدت في مكانها. أتراه أصبح مجنوناً؟

ـــ إني لست أنا الذي سينزعج من حسن تصرفك. فأنا أحب النساء اللواتي ينطلقن، كما فعلت مساء البارحة. وكان يجب أن أكون سكراناً بدرجة مناسبة، لأنني ظننت أنني دخلت مع واحدة أخرى، واحدة من هؤلاء العاهرات الخبيرات في منح اللذة. وتخيَّلي، يا أميرتي، تلك الدهشة التي اعترتني عندما اكتشفت أن هذه المرأة هي زوجتي.

فانحنت له، ساخرة لاذعة.

ـــ ويجب أن أعترف بأنك أخفيت لعبتك، إخفاءً جيداً. وعندما أفكر بأني، خلال سنتين، أبيت أن أجرح براءتك، يتبيَّن لي كم أني كنت غبياً.

وتشعر سلمى كما لو أنها سحقت، فتنظر إليه وقد وهن منها العزم، وتعطلت لغة الكلام، ونضبت الينابيع. وفي بضع ثوان أتت رياح الصحراء، فقضت على السهول الخضراء.

وعندما جاء يأخذها، بعنف، محاولاً أن يُذلها، تركت نفسها بين يديه، كما لو أنها فقدت رشدها من شدة الذهول. ولن يحتاج حتى إلى إرغامها على ما يريد، لأنها انقادت له طواعية.

١٨

ـــ هوزور ، هوزور ، أرجوك . استيقظي !

وعبثاً حاولت راسولان أن ترفع الستائر ، وأن تركِّز السعال ، وأن تفتح وتغلق أبواب الخزائن ، واحداً بعد آخر ، وأن تصدم الطشوت والأباريق بعضها ببعض فوق الأرض الرخامية لقاعة الحمام ؛ بل لقد غنّت بصوتها الهزيل ، وانحنت على السرير ، فوق سيدتها ، إذ لقد ظلت هذه تكتفي بالأنين وتخفي رأسها أكثر تحت الوسادة . وبدأت راسولان تضطرب . وها إن ساعة الظهر قد مضت ، ومضت معها ساعة أخرى أو أكثر على إلحاح أمير بأن يكلِّم الأميرة . ولم تعد تعرف هذه الخادمة من أيهما تخشى الشر أكثر : أمن غضب سيدتها ، أم من غضب سيدها ؟

وجثت على ركبتيها على قدم السرير ، وأخذت تتأمل الخصل الحمراء ، وهي موزعة ما بين النزق واليأس ، فإذا بها ترزق الإلهام ، وتقول :

ـــ هوزور ، اسمعي هذا الخبر المخيف ـــ وبدأت تفصّل المقاطع واحداً بعد آخر ، لتقول كل كلمة :

ـــ إن ملك تركيا قد مات !

فإذا بالوسادة تطير من خلال وجهها ، وإذا بالعينين الخضراوين يتثبتان عليها .

ـــ ماذا تقولين ؟ وأي ملك ؟

ـــ إنه ملك تركيا ، هوزور . أوَلا تسمعين المؤذن . فمنذ الصباح بدأ المؤذنون ، يدعون الناس للصلاة .

واستيقظت سلمى يقظة كاملة . وانتصبت : لقد مات إذن الخليفة عبد المجيد ؟ وفكرت ، وتذكرت تلك اللحية البيضاء كالثلج ، وتلك النظرة البنفسجية التي كانت تخيفها عندما كانت صغيرة . ولقد مضى أربعة عشر عاماً لم تره خلالها ، لأنه في فرنسا ، وفي نيس بالذات ، اختار أن يقيم بلاطه في المنفى . وهي لا تحسُّ بحزن ـــ لأنها لم تكن تحبه قط ـــ بل بشيء من الحنين فقط ، كما لو أن موت آخر خليفة ، كان يؤذن بموت الأمبراطورية ... وكان قصر ضولمة باهتشه ، ببياضه العجيب ، يتراءى في مياه البوسفور . وكانت تتقدم بنت صغيرة ، من خلال الأبهاء التي يُسمع فيها حفيف آلاف أوراق الكريستال ، وسط هالة من الثياب الرسمية الفخمة ، والحلي المتألقة ، إلى العرش الذهبي الذي يجلس عليه أمير المؤمنين ، ظل الله على الأرض .

ـــ إنك تبدين غارقة في الأحلام ، هذا الصباح ...

وهكذا دخل أمير ، وعليه شرواني أسود ضيق .

ـــ ها ، إني أرى . إنك علمت بالخبر . وسيبدأ الاحتفال في غضون ساعة . في المسجد الكبير . فهل تعـدِّين نفسك لحضوره .

أي سؤال ؟ بطبيعة الحال سأحضر . فلِـمَ تبدو مندهشاً ؟

أوه ، لا شيء ... كنت أعرفك ملأى وطنية ، ولكني لم أكن أعرف فيك هذا الاحترام للجنرال .

ـــ الجنرال ؟

ـــ طبعاً ، الرئيس ، مصطفى كمال .

ـــ أكمال هو الذي مات ؟

وانفجرت سلمى تضحك بعصبية ، وتركت نفسها تغوص بين وسائدها .

ـــ « ملك تركيا ! ... » ، وأنا الذي كنت أظن ... إن هذا مضحك جداً ، وبطبيعة الحال لن أشارك في الاحتفال ، ولن أذهب لأصلي من أجل كمال .

وتلقي بنظرة على الشرواني الأسود .

ـــ وأنت لن تذهب ، على ما أتأمل !

وبدت نظرة الراجاه باردة جداً .

ـــ إنك تنسين ، يا أميرة ، أن الجنرال مصطفى كمال ، بالنسبة لنا ، نحن الهنود المسلمين ، يعتبر بطلاً . إذ لقد حقق لبلده ما نحلم نحن بأن نحققه لبلدنا : فلقد طرد الإنكليز من بلده . وفي كل المدن الهندية اليوم ، تمتلىء المساجد بالمؤمنين الذي يبكون ويصلّون على روح هذا البطل .

وتشت سلمى عليه ، نظراتها ، محتقرة :

ـــ ولكن أنت ، أيها السيد ، كيف توفّق بين حماستك لمصطفى كمال ، وبين حبك للأسرة العثمانية ؟

ولا يمكن أن تكون الفكرة أوضح من هذا . فهي تتهمه بأنه يلعب على الحبلين . وفي وسعه أن يصفعها ، بلذة كبيرة وفرح ، ولكنه يملك سلاحاً أقوى .

ـــ كنت أعتقد أنك ، كعثمانية ، ستكونين على الأقل معترفة بالجميل للجنرال ، لأنه أنقذ بلدك . ولا تنسي أنه لولاه ، لما بقي أثر لشيء اسمه تركيا .

ـــ إن هذا خطأ . فالسلطان نفسه طلب إلى الجنرال تنظيم المقاومة ، في الأناضول ، من حيث أن عليه هو أن يبقى في استامبول ، رهينة بيد الإنكليز ، الذين هـدّدوا بتسليم المدينة إلى الأغارقة ، إذا هو لم يُعَقِّل سلوكه . وكيف تفهم أن كمال أثار الجماهير ، في البداية ، باسم السلطان ، ولكنه عندما لاح له النصر انقلب عليه . وكانت اللعبة عندئذ سهلة عليه ، في السكوت عن الاتفاق السري المعقود ، واتهام الباديشاه بأنه استسلم للعدو . وفي كل مرة كانت سلمى تحاول فيها أن تكشف الحقيقة حول هذه الفترة من تاريخ بلادها ، كانت لا تلقى إلا نظرات مشفقة ، وبسمات متكلّفة ، وكانوا لا يصدقونها ، ويظنون أنها تريد الدفاع عن شرف عائلتها . وفهمت أخيراً ، بمرارة ، أن المنتصر وحده ، هو الذي يملك أن يفرض حقيقته .

ولكن ما شأن أمير ؟ فما من مرة تخيّلت أنه ، وهو زوجها ، يمكن أن يفكر أن السلطان قد خان ، وأنه يعتبره هو وأسرته ، كمجموعة من الجبناء ... واشتدت عندئذ رغبتها إلى التقيؤ . فهي لم تعد تحتمل نظراته الساخرة أو هذه «الكذبة» التي يتهمها بها ، مصحوبة بصفعات كثيرة من

الاحتقار. آه. لقد وجدتها، أو وجدت تلك الوسيلة لحبسها، هي المتمردة! وما هي جدران الزينانا بجانب هذه النظرة التي تسجنها، وهذه القناعة الباردة التي يتحطم عليها كل احتجاج أو تكذيب.

فتسكت، مرهقة: فهذه الصورة التي يملكها عنها، وهذا العار الذي يحاول أن يجلّلها به... ما عساها أن تجد كردٍّ عليهما؟

وإذا... وإذا كانت تأبى عليه حق الحكم عليها؟ وإذا كان المجرم والمجنون، في أعماق زنزانتيهما، يطّرحان القيود المطمئنة، للإتهام المقبول، وللندم، وإذا كان يجرؤان على اتهام متهميهما الفضلاء؟... إن عيون الميدوز لا تُذهل إلا أولئك الذين يؤمنون بقوتها.

ورفعت سلمى رأسها ببطء، ونظرت إلى أمير، وشعرت بأن مشاعر الانتصار تغزوها تدريجياً، فتقول له ببسمة هادئة:

ـــ حسناً. عندما تكون في صلاتك، فإني سأدعو أصدقائي لتناول الشمبانيا للاحتفال بهذا الحادث السعيد.

وتقلصت اليدان الناعمتان، واستدار أمير عنها، دون أن يقول شيئاً، ولربما اعتقد أنها تمزح.

وأرسلت بعض خدمها، مع رسائل منها، إلى لوسي وزوجها الميجر وإلى راني نامبور ورشيد خان وزهراء. وأقامت سلمى في بهوها مائدة مزهرة، تعلوها، في سطول الفضة، ست زجاجات من الرودرير ROEDERER الزهري اللون، وهو الشمبانيا المفضّلة في لياليها البيروتية. فمن أجل الاحتفال بالذي مات احتفالاً لائقاً، لا بدّ من علامة تدل على الاحترام، بمعنى ما...

على الاحترام، لذاك الذي خانهم؟ بلى، ولكن بأية مهارة، وأية برودة! إنها تكرهه، هذا الروزدور الذي طالما حملها على أن تحلم. ومع ذلك فإنها لا تملك إلا أن تعجب بجرأته، وعدم وجود أي حاجز أخلاقي لديه، وهذه مزايا لا بد منها لكل من يريد أن ينتصر.

«لا يمكن أن يكون للمرأة طفل، وأن تبقى عذراء» إن هذه الجملة ترن في أذني سلمى، وتستعيد صورة أمها في قصر أورطاكوي، يوم مات السلطان عبد الحميد: فأمام الأسرة المجتمعة، كانت تقدم احترامها لذاك الذي كان قد حبسهم جميعاً حوالي الثلاثين سنة. وكانت تنصح أبناء

أخيها أن ينسجوا على منواله، وليس على منوال جدّهم، السلطان مراد الخامس، الشديد الحساسية، والمغالي في الإحساس بالشرف، مما لا يستقيم مع لعبة السلطة.

ــ يا أميرة؟

وكان رشيد خان يقف على العتبة. ولما كانت شاردة في ذكرياتها، فإنها لم تسمع خطوات دخوله. ماذا؟ أهو أيضاً يلبس الشرواني الأسود. وبنوع من المجاملة، تبتسم له.

ــ دع عنك، يا رشيد بك، هذه الشكليات، ألسنا الآن أخاً وأختاً؟ أين هي زهرا؟

ــ في المسجد... وأنا عائد منه. ورأيت أن أمرّ بك لأعتذر عن حضور حفلتك.

ــ ولماذا؟

ــ سلمى، أرجوك، انتهي من هذه اللعبة. إنها لا تناسبك.

وجلس رشيد إلى جانبها وحملق فيها بقلق.

ــ إن عليك ملامح التعاسة منذ بعض الوقت، فما الذي لا يستقيم لك؟

«أوه، ما أجمل أن أنطوي بين ذراعيه، وأدعه يهزهزني، وأصبح من جديد تلك البنيّة الصغيرة التي تواسى...». ويتضاعف سحرها.

ــ أي خيال خيالك؟ ألا تعلم أنني المرأة المدلّلة أكثر من كل امرأة أخرى في العالم، والمحبوبة أكثر منهن جميعاً.

وأخذ رشيد يدي سلمى، وبدأ يضغطهما بقوة. فتنظر إليه مندهشة؛ فما من مرة قبل ذلك تجرأ على مثل هذا، ويبدو أنه مضطرب جداً.

ــ كم تغيّرتِ... فالفتاة المتحمسة التي كنت أستقبلها في بومباي، ولم تمض بعد سنتان، أين هي الآن؟ سلمى، إن عليك أن تقاومي: فأنت في الطريق إلى تهديم نفسك...

ــ وما أكبرها خسارة!

ــ أتوسل إليك، إن كنت تحبينني قليلاً..

ثم سكت، فبقيت صامتة، تراقبه: أيظن، حقاً، أنها تحبه كأخت؟ وبحركة واحدة تستطيع

أن تردّه إلى رشده، وتنتقم من أمير ومن زهراء معاً. ومن زهرا؟ إن (أمير) ليس أخيراً إلا رجلاً، وما من رجل يستطيع الآن أن يخيّب أملها، على حين أن زهرا!... وتفهم مرة أخرى من الألم الذي يعتريها فجأة، كم أحبت تلك المراهقة، وحماستها، وبراءتها، ونظرتها المستهامة، ولِمَ تلومها الآن على هدوئها، واستقرارها الغبي كامرأة متزوجة، وعلى هذه السعادة الممتلئة غبطة، والمتركّزة حول بطن ينتفخ.

فأسندت خدها، على الكتف العريض.

ــ خذني، رشيد بك، إني لم أعد أحتمل.

ترى أقالتها له؟ أم فكرت بها تفكيراً؟ وماذا يهمّ. فهذه يد تمس شعرها مهدئة، وهي يد تذكّرها بتلك اليد الأخرى، منذ زمن بعيد. وفي شهقة بكاء، شدّت نفسها إليه، وأحاطته بذراعيها.

ــ لا تتخل عني أبداً!

وأخفت وجهها المبلل بالدموع في عنقه، ولم يعد لها إلا رغبة واحدة: هي أن يحملها، دون أن تسأله عن شيء.

وقالت له، لكي تأسف مباشرة على ما قالته، في جوها المضطرب:

ــ إني أحبك.

فأخذها من ذقنها، وتناول منديلاً، ومسح لها دموعها كيفما اتفق؛ واصفرّ لونه.

ــ سلمى، أنا أيضاً أحبك، فمنذ رأيتك تنزلين من هذا المركب الكبير، وأنت فيما كنت فيه من الضياع، والرقة. ولكن ذلك كان مستحيلاً: كنت تأتين لتتزوجي صديقي. والآن...

ــ الآن...

ــ ربما كنت أحبك أكثر، الآن، ولكن...

ــ ولكنك لا تحبني بدرجة كافية!

فصدرت عنه ابتسامة مرّة.

ــ هذه هي قصة حياتي : فكل الناس يحبونني ، ولكن ما من أحد يحبني بدرجة تكفي ليستبقيني عنده ...

ــ وأمير ؟

فابتعدت سلمى قليلاً . وشعرت فجأة بأنها متعبة جداً .

ــ إنك تعرف جيداً أن أمير تزوج أسرتي .

ومضى رشيد ، حائراً . وهي تلوم نفسها على أنها جعلته تعيساً ، على حين أنه الوحيد الذي لم يقـدِّم لها إلا الخير .

وتنظر في المرآة إلى نفسها ، فترى وجهاً ازداد هزالاً ، وعينين محاطتين بالزرقة . وصحيح أنها تغـيَّـرت ــ أو اكتهلت ؟ ربما . أما الخـدّان المدوران اللذان كانا يدخلان اليأس إلى قلبها عندما كانت تحلم بالتمثيل في السينما ، فقد تجوفا ، ونعُمت ، كما لو أنها منحوتة نحتاً ، وشفتاها اللتان كانت تراهما رقيقتين أكثر مما يجب ، على سبيل التضاد مع الخـدّين ، فيبدو أنهما تفتحتا ، وهي تحب صورتها الآن ، هذه الصورة التي تشبه فيها ... المرأة المشوّومة ... أو الحيوان الجميل ، كما يقول أمير .

ها هي الساعة وقد بلغت السادسة . ولم يصل بعد أي مدعـوّ . وهي تعلم الآن أن أحداً لن يأتي . والأرجح أنهم ظنوا أنها تقيم هذه الحفلة ، على سبيل الإثارة ، أو الانتقام الذي لا يعرف الخجل ــ أو هي خـسّـة من يجرؤ فيتحدى ميتاً ! إنهم لم يفهموا شيئاً : فهل من رجل هو أغنى حياة في يوم ، منه ، يوم موته ؟ وهل هو أعظم في يوم ما ، منه عندما تسيل الدموع فترفع من شأن أصغر انتصاراته ، وأقل حركاته الإنسانية وزناً ، وتمحو سقطاته ، ومَـسْكناته ، وأكاذيبه ؟

وبنوع من عمى أولئك الذين يبقون ، نلاحظ أن الإنسان الذي يموت ، يبدو كائناً استثنائياً لعدة ساعات ، أو عدة أيام ، أو المدة الكافية لنضوب الدموع .

وفي هذه اللحظة التي يفرض فيها مصطفى كمال نفسه ، ضخماً ، عظيماً ، وجدت سلمى أنها تريد مجابهته ، وأمام بعض الشهود ، ليكونوا حكاماً في هذه المبارزة ، اللا متعادلة فعلاً ، بشكل مستغرب . ولكنهم لم يأتوا ، وخافوا هذا التدنيس . وهذا الاحترام الذي يعلنونه ، ينبغي أن يكون رقيقاً

جداً ، إذا كانوا يخشون أقل الأذى . بل إن سلمى لأشد احتراماً له ؛ ولم تكن تستبعد الهزيمة . ولكن البدء بهذه المعركة كان في ذاته نصراً . . .

إنها تجابه هذا الذي فجّر حياتها في كل أنحاء العالم ، أو هذا الذي قدَّر لها مصيرها ، كالخالق ، دون أن يفكر حتى بوجودها ، وغيَّر حياتها ، في كل تفاصيلها ، وبالدرجة الأولى طريقة شعورها ، وأسلوب تفكيرها . ولقد حطر ببالها أحياناً أن تكون له شاكرة : فبعد كل حساب ، تراه هدّم لها عشها ، وأرغمها على أن تطير . ولكنه في الوقت نفسه ، عندما استولى على الجانب الذي يخصّها من السماء ، حطّم لها جناحيها .

والمنفى . . . أتراه كان يخشى إلى هذه الدرجة ، تلك الأسرة ، حتى اضطر إلى نفيها ؟ وكان ، مع ذلك ، قوياً جداً ، كقوة أولئك الذين لا يغامرون بخسارة أي شيء . وهؤلاء الذين لا يملكون أي ماض ، هم بحاجة إلى أن ينشئوا لأنفسهم حاضراً . وهي تحسده على هذا التعطش إلى القوة : ذلك أنها هي التي تتيح الغلبة ، أكثر من الشجاعة والذكاء . وهذا ما كان ينقص السلاطين العثمانيين ، كما نقص هؤلاء الأمراء الهنود الذين لا يتنازلون أن يقاتلوا ، وشيئاً فشيئاً ، يرون أنهم يغلبون على أمرهم : ذلك أن عدداً غير قليل من القرون ، كان كافياً لإرواء عطشهم .

وهكذا تتجدد المجتمعات ويتغيّر من يملك السلطة . فهي لا تؤخذ بقدر ما تدع نفسها تؤخذ ، بنوع من الكسل من جانب الذين لم يعودوا يؤمنون بها بدرجة كافية .

وكمال كان يريد التسلط على الحكم ، أكثر من السلطان . ولكن هل مست الحاجة إلى طردهم ، ومنعهم نهائياً من مسِّ أرض وطنهم ، وقلع الأموات منهم ، بحيث أنه لم يعد لجثثهم الحق في الاستراحة على شواطىء البوسفور الهادئة ؟ . . .

فهذه الصباحات الشفافة في استامبول ، وشوارعها الضيقة ، المحاطة ببساتين مغلقة ، وبيوتها الخشبية ، ومساجدها البيضاء ، وصورتها المرتجفة في مياه القرن الذهبي . . . ترى بأي حق استبعدهم كمال عن هذا كله ؟

وكان الأمير الوارث قد تنازل عن العرش ، بالنسبة له ولسلالته ؛ فحبس في قصره ، وروقب ، وأحيط بالجواسيس لتسجيل أبسط أحاديثه شأناً ، ولم يعد إلا شبح خليفة . فالحكومة ، والموظفون ، والجيش ، والبلد كله ، على ما كان يقال ، كانت كمالية . وإذن فمِمّ كان الرجل يخاف ؟ وهذا الذي سمى نفسه أبا الأتراك ، أكان ، يا ترى ، يخشى أن يرفض الشعب هذه الأبوّة ؟

وهذا هو السؤال البسيط جداً الذي كانت سلمى تريد طرحه عليه ــ فهي تدعو الجنرال الميت ، أمام شهود ، كما حدث في الماضي ، عندما دعا الفارس أمير المؤمنين إلى مائدته . لقد كان في وسعها أن تنتزع منه الحقيقة . فالموتى لم يعودوا بحاجة إلى الكذب .

وهذه كأس أخرى من هذه الشمبانيا الرائعة . وفتحت سلمى الزجاجة الثانية . وأخذت ، بشيء من الحنان ، تنظر إلى السائل المذهّب الذي يسيل ، ذلك السائل الذي يساعدها على نسيان خيبة أملها في بادالبور ، ويتيح لها أن تتجاوز الغثيان الذي يتملكها أحياناً ، عندما يحاول أمير ...

ولم يعد أحدهما يكلِّم الآخر تقريباً . ويبدو لها أنه يريد تحطيمها ، وسحقها . في كل ليلة ، عندما يعودان من هذه العشاءات الحلوة ، حيث تطيش من كونها امرأة ، جميلة ومشتهاة ، يعاقبها هذا الأمير . إذ أنه يهال على جسمها ، ويستمتع به طويلاً ، وبصمت .

وبالتدريج بدأت تتذوّق هذه العبودية ؛ وبدهشة كبيرة ، واستغراب كبير ، وجدت أنها كانت تحب هذا الخضوع . وكشيء فاقد الإرادة ، مطاوع ، كانت تستسلم إلى متعةٍ مجهولة كانت تدعها مرهقة . وقد أرعبها ذلك ، من حيث أنها لا تستطيع أن تقبل أن يخونها جسمها ، وأحلامها ، وأنينها ، وصراخها ... فمن أين جاءت امرأة الليل هذه التي تستمتع بالعبودية ليلاً ، فلا تستطيع في الصباح أن تتذكرها إلا وترى جسدها يرتعش منها ، وتحتقرها بكل كيانها تماماً كما كانت تحتقر نساء الحريم ، المنصرفات إلى اللذة وحدها ، تلك اللذة التي يقدمنها للسيد . إذ ما من شيء مشترك بين هذه المخلوقات وبينها . فهي مزهوة بنفسها ، طموح ، وليست كهؤلاء النساء ..

وجلست سلمى أمام المرآة ، ورفعت كأسها ، بتفاخم ، وقالت : «على كأس مصيري المجيد ! » ، ثم بدأت تضحك ، وتضحك ... آه ، كم تتألق هذه الشمبانيا ، فرحة ! وكم تريق من العذوبة في الرأس ! إنها « رجل لطيف » لا يثير مشكلة ، وهو يهزأ من المآسي ، ويسخر من كل ما هو جدّي . إنه حليفها . فهي تحيطه بالمخمل ، وهو يحميها ، ويعلّمها شيئاً فشيئاً أن لا أهمية لأي شيء . لا أهمية مطلقاً . حتى ولا موت أعدى أعدائها . وكم كانت حمقاء منذ قليل عندما أرادت تحدّي مصطفى كمال ! ومرة أخرى بدت الحاجة إلى تبرير نفسها ، والبرهان للآخرين أن ... أما الآن ، فإنها لم تعد تكترث بالآخرين ، ومايفكرون به ، بهؤلاء الحمقى الذين يتخيّلون أنهم يفهمونها ، على حين أنها تشعر بأكبر العناء في ... وتنتبه ، وتتأمل في المرآة : أهي أميرة ــ أم عاهر ؟ أميرة ــ أم من بنات الهوى ؟ ... ولِمَ لا . فإذا استثنت أمها ، وهي بنت السلطان ، أفلم تكن جداتها جميعاً ، إماءً ، هن أجمل من في الحريم ، وأكثرهن خبرة في شؤون المتعة ، وحسن تقديمها ؟ أولم

يكـنّ يصلن إلى قلب السلطان ، ويصبحن في عداد زوجاته ؟ ولقد تحـدّث الناس عن ذكائهن ، ومهارتهن ، وقدرتهن على حبك المؤامرات ، ودسّ الدسائس ، وهي مزايا لا شك في ضرورتها للوصول إلى المركز الأول ، وضرورية أكثر للبقاء فيه ! ولكن يجب أولاً ، أن تُحسن الإغواء : ففي البلاط العثماني كانت مسألة الجنس هي الفن الأول الذي يجب أن تبرع فيه . وإذن ففي عروق سلمى يجري دم ثمانية وثلاثين سلطاناً ــ أي ستة قرون من الحكم المطلق ــ وكذلك طبعاً ستة قرون من بنات الهوى . وهي تنحدر ، بدرجة متساوية ، من هذين الفرعين : وهي في الحين نفسه ملكة وأمة معاً .

وجاءت يد فجعلت قميص الموسلين ينحدر ، وينزلق . وها هما ثديان أبيضان يمتدان باتجاه المرآة ، واهتز الوركان الناعمان بتأثير المداعبة : وخيط من الشمبانيا يجري على طول البطن ، ويتناثر نقاطاً مضيئة ، في حين أن يدين عصبيتين تطويان الخصر الرقيق ، وتصعدان نحو العنق ، والكتفين ، وتتجولان في هذه النداوة ، وهذه الحرارة ، وهذه العذوبة المسكرة ، وهما يدان تعرفان كيف تتملقان ، يدان ، تستسلم إليهما وهي لاهثة .

ولكن ما هاتان العينان الحزينتان اللتان تحملقان فيها ــ هاتان العينان الطويلتان الزمرديتان ؟ إنها تود أن تمحوهما . وألا تعود فتراهما ــ وألا يوجد إلا هذا الجسد المشتهى إلى هذا الحـدّ ــ ولكنهما تلـحّـان . إنهما عينان من المرارة غريبتان عن الحفلة ــ عن العيد ، وما من شيء غير شراب الذهب يحملهما على الاختفاء .

وتشرب ، ورأسها متدل إلى الخلف ، جرعات طويلة ، ملقية بنظرات عينيها أحياناً إلى المرآة ، حلسة . ولكن العينين باقيتان هناك . وهما عنيدتان ، وتعرفهما . ولكي تقتلهما ، يجب أن تشرب أيضاً . « سلمى : إنك في الطريق إلى تهديم نفسك ... ــ ولكنني يا رشيد بك ، أعيش ، أحيا ! انظر كم أضحك ! لست خائفة ، ولست خجلة . إنني امرأة . انظر » .

واحتجبت العينان في المرآة . وجاء فم فرسم قبلة . وها إن جسماً عارياً هبط وانهار .

كم أشعر براحة ... ترى هل أنا ميتة ؟ إن الدنيا ظلام ، فهل هم قبروني إذن ؟ وبدا أمير كأنما طار صوابه عندما وجدني ، وكان هنالك دم . ذلك أني عندما وقعت ، فلا بد أن كأس الشمبانيا قد انكسر وجرحني ... أما بعد ذلك ، فلم أعد أذكر شيئاً ، ولا بد أن أمير قد بكى ... كان عليه أن يحبني ، رغم كل شيء . ما أدعى ذلك إلى الأسف .

ـــ اسحبي عنها عصابتها . وأظن أنها ستستيقظ !

ورفعت يد رقيقة النقرة ، وبألف حذر ، سحبت القماش القاتم ، وردّت سلمى إلى النور . ولكن كم تشعر بثقل جفنيها .

ولاحظت ، وعيناها نصف مغلقتين ، صورة الراني شاهينا ، الجالسة في آخر السرير ، وهي تبتسم .

ـــ ولكنك غضة كوردة . فبعد الليلة التي جعلتنا نقضيها عندك ، ها نحن في الأوج . آه ، ياعزيزتي . إن في وسعك أن تفخري بأنك جعلتنا نقلق قلقاً بالغاً . وكان أمير قد جُـنّ تماماً . وأي تفكير قادك إلى حبس نفسك في غرفتك ! كان يجب أن نصل إليك عن طريق الشرفة . وكنت ملقاة على الأرض ، مغميً عليك . وظن زوجك المسكين أنك أصبت بأزمة في القلب . ولهذا بيّـنت له أن هناك ثلاث زجاجات من الشمبانيا . واضطررنا إلى جعلك تشربين مقيئاً . وجعلناك تنامين وعلى رأسك خرقة تحتوي قطعاً من الجليد والحشائش . وهذا شيء حاسم في مثل هذه الأحوال . فكيف أنت الآن ؟

ـــ أشعر الآن أني خفيفة ... مغسولة ... كأني جديدة . أوه ، راني شاهينا ، إن هذا عجيب ، إذ يبدو لي أن كل شيء حولي يعيش ويحيا !

ونهضت ومشت ثلاث خطوات ثم عادت فوقعت في السرير منهوكة القوى . وجاءت الراني شاهينا فجلست قريباً جداً منها ، وقالت :

ـــ سلمى ، إنك بحاجة إلى تغيير جوك ! فهذه السهرات الطويلة ، وهذه الأيام التي تقضينها في السرير ، لاتعود عليك بأي خير ، لقد أصبحت نحيلة بشكل مرعب : ويقول أمير ، إنك لاتأكلين شيئاً ، وتكتفين بالشرب ، إنك في الطريق إلى ...

ـــ إلى تهديم نفسي ، إني أعرف ذلك ، ولقد وجد من يقوله لي !

ـــ سلمى ، اتركي لوكنوف ، لعدة أسابيع . اذهبي لرؤية أمك . وحاولي أن تستعيدي ثقتك بنفسك ، وأن تقـرّري ماتريدينه حقاً .

ـــ ماذا أريد ؟ ... وهل لي من خيار ؟

وأخذتها راني شاهينا بنعومة ، من كتفيها .

ــ إن الإنسان يملك دوماً هذا الخيار. والمشكلة الآن هي: هل لك الشجاعة على الاختيار، والإصرار عليه؟ وعلى كل حال، لا يمكنك أن تستمري في الحياة على هذه الصورة. فاستفيدي من هذه الأزمة، ومما يبدو أنها تعطيك من القوة والطاقة: ابتعدي لمدة ما.

وتنظر سلمى في المرآة، وتلاحظ تفاصيل وجهها الكآبي، وتتنهد:

ــ لن أستطيع أبداً أن أتقدم بهذه الصورة لأمي، إنها ستفهم فوراً...

ــ إنها ستفهم وستساعدك.

ــ أنت لا تعرفين أمي. فلقد عاشت أسوأ الأحداث، وظل رأسها عالياً. وهي تحتقر الضعف. وأنا لا أجرؤ على تخيّل نظرتها إليّ، عندما تراني في هذه الحال.

ــ عفوك يا سلمى، إنها أمك، وهي تحبك!

ــ إني أخشى أنها لا تحب إلا الصورة التي صنعتها لنفسها عني...

«الواحد من أجل الكل، والكل من أجل الواحد!» حروف حمراء، على أرضية بيضاء. والعلم الضخم يقطع طريق قيصر باغ، على حين أن أصوات الأبواق تنفجر في كل مكان. وها هم الخدم، في ثيابهم الرسمية، يبعدون المارة، ويرغمون الباعة الصغار على جمع معروضاتهم: وتصل المسيرة، فيفسح المجال للسادة! والأبقار وحدها تستمر في اجترار طعامها في وسط الطريق، غير مبالية بالتوسلات.

وحرّك الضجيج فضول سلمى، فانطلقت إلى الشرفة: فرأت السماء تعج بالأعلام، ويسمع الناس من بعيد صهيل الخيول، وصيئ الفيلة، وتتموج، مقابل الشمس، مظلات مذهّبة ومفضضة فوق رؤوس المشاركين في المسيرة التي تتقدم ببطء. ثم يلاحظ الناس مجموعة الفيلة الملكية، المغطاة الظهور بقماش من البروكار: وعلى رأسها الفيل الأبيض فيل راجا نامبور، الذي يجلس في هودجه المزركش بالأحجار الكريمة. وحوله تنتشر اللافتات التي كتب عليها:

«الوحدة ضد البولشفيك»، و «الراجاوات والمهرجاوات موحّدوا الكلمة للدفاع عن الشعب».

ويتبعه أنداده ، من أمراء وزاميندارات ، جاؤوا من كل مكان من المحافظة : وها هم يسيرون ، بفخفخة كبيرة ، للاحتجاج على القوانين الظالمة التي تبناها حزب المؤتمر ، هؤلاء الشيوعيون الذين يحاولون دفع رعاياهم المخلصين إلى التمرد . ولقد خطرت هده الفكرة « لنقابة الراجاوات » التي قـرّرت هذه المظاهرة ، وهي أول مظاهرة معـدّة للتأثير في خيال شعب موزّع بين دعايات خفية مغرضة .

ولقد تشكّـلت هذه النقابة في لوكنوف ، قبل عدة أشهر ، أثناء انعقاد جمعية ، كانت تضم عدة مئات من صغار الحكام ، وقررت القيام بالنضال . وقام رئيسها راجا نامبور بإلقاء خطاب صُـفِّـق له طويلاً . وكان يلح فيه على ضرورة الوحدة لمجابهة الحكومة الجديدة : « إن علينا أن ننسى خلافاتنا ، وأن نكون مستعدين لكـل التضحيـات للحفـاظ على وضعنـا التقليـدي المشرف كرعماء » . ولقد اتخذوا جميعاً ، ذلك الشعار الذي تروقهم جرأته الثورية ، بمقدار ما تصدمهم : « الواحد من أجل الجميع ، والجميع من أجل الواحد ! » . وما من أحد يؤمن به حقاً ، ولكن ماذا يعني الشعار ؟ إن عليه فقط أن يرنّ جيداً في الأسماع .

ــ المجانين !

وخرج أمير ، وراء سلمى ، ليقف على الشرفة . وكان ينظر إلى زملائه ، ووجهه متقـلّـص .

ــ ترى ألا يفهمون ما يضحك الناس في نشر كل هذه الفخامة لإعلان أن الدولة تودي بهم ؟ إن هذا نوع من الإثارة والتحريض ! ولقد حاولت أن أشرح ذلك لهم ، فلم يريدوا الإصغاء إليّ ، وأجابوني ، قائلين : « إن شعبنا طفل لا يحترم إلا القوة والفخامة . فإذا بدا لهم أن علينا سيماء الضعف ، فإنه سيحاول سحقنا . وبالمقابل ، فإننا إذا أظهرنا قوتنا ، فإنه يخشى أن يعصي أوامرنا ، ويخرج عن طاعتنا ، ويتردّد في الانقياد لتعاليم المؤتمر » . وعبثاً ما قلته لهم إن الشعب في سبيله إلى التغير ، وأنه بدأ يعي حقوقه ، فلم أنجح إلا في حملهم على توجيه الشتائم إليّ . ثم إنهم اعتبروني عميلاً للإنكليز !

وكان في صوت أمير من المرارة ما تأثرت به سلمى . فهذه أول مرة منذ أشهر ، يصارحها بما عنده . وتريد أن تقول له : إنها تفهمه ، ولكنها لا تجرؤ على ذلك . فمنذ تلك الليلة التي سكرت فيها ، قام بينهما نوع من القبول بحالة واقعية . فهما يعيشان الواحد ، قريباً من الآخر ، بوضع المجاملة ، واللياقة ، ولكنهما غريبان ، أحدهما عن الآخر . وهو لم يوجِّـه إليها أي لوم ، ولم يطرح عليها أي سؤال ، واكتفى بنقل أمتعته إلى أجنحته القديمة . وانقطع نهائياً عن الاتصال بها ، ولم يعد يحاول

أن يمسَّها، فخفف ذلك عنها، كما لو أن الحمّى الشهوانية التي استولت عليهما، وتجابها وشقيا وغرقا فيها، جانبتهما الآن، فجأة، فلم يعودا يذكرانها تقريباً.

وكأنما اتفقا ضمنياً على بعض الأشياء. فهما لا يخرجان مطلقاً، وهي نفسها لم تعد راغبة في أن ترى أحداً. وهي تستغرب أن تراه ـــ وهو الذي كان حريصاً على أناقته ـــ يتجول في أنحاء القصر بالبيجاما، ويقضي أيامه في تدخين الهوكاه، ويلعب بالشطرنج بصورة لا متناهية، مع بعض النواب أو أصدقائه الحميمين.

أما الآن، فقد بدأت تفهم.

وأمير يظل يتكلم، كما لو أنه لا يستطيع أن يمسك على الفائض من مرارته.

ـــ إن بعض الأمراء لم يعودوا يحبونني. ويعتبرون أني خنتهم، وأني عندما أردت أن أتنازل عن بعض حقوقي، فكأنما تواطأت مع المؤتمر. وحتى مع بعض الأصدقاء القدامى، لم أعد أستطيع النقاش. فهل أنا الذي يخطىء عندما أحسب أن الديمقراطية هي الوسيلة الوحيدة لتقدم الهند؟

وشدَّ على قبضتيه، وأخذ يزرع القاعة جيئة وذهاباً.

ـــ وأتساءل أحياناً عما إذا كانت هذه السنوات التي قضيتها في إنكلترا لم تكن لعنة. ففي البداية كنت أتمثّل أفكارهم، لكي أحسن محاربتها، ولكنني تغيَّرت، على غير وعي مني. وانتهوا إلى إقناعي بأن قيمهم شاملة، وأن الأخلاق كانت «بيضاء»! أما الآن، الآن، فلم أعد أعرف... إني أكرههم، وفي الوقت نفسه أشعر أنهم على حق، ضد أفكاري أنا... ومن هنا جاء انتصارهم. وأغلب الظن أنهم سيزاحون عما قريب، ولكنهم في الحقيقة باقون ـــ وهنا يضرب على جبينه ـــ هنا في أدمغتنا، في أدمغتنا كبيض. فنحن جميعاً الذين سنتولى قيادة الأمور في هذا البلد، لأننا تلقينا ثقافة حديثة، ترى من نحن؟ أنحن هنود قادرون على الفهم، وعلى تحقيق مطامح شعبنا؟ أم أننا نسخ سيئة عن الإنكليز تفخر بأنها حققت الاستقلال، ولكنها ستعمل على إدامة العبودية؟

«وأنت أيضاً، أنت إذن، تشعر بأنك أحنبي؟».

وفي تلك الليلة، نام أمير وسلمى معاً، وتحابا بنعومة، كما لو أن كلاً منهما يحاول أن يواسي الآخر.

ــ لا ، ياعزيزتي ، إنك لا تستطيعين الخروج . فهناك مظاهرات في كل حي أميناباد .

فمنذ أكثر من شهر ، فرضت الحكومة تطبيق (المادة ١٤٤) وهي تقضي بإعلان حالة الطوارىء نصفياً ، لكي تمنع الهنود والمسلمين من التخاصم فيما بينهم . وكانت لوكنوف قد بقيت حتى ذلك الحين ، هادئة نسبياً . ولكن المذابح في المدن والقرى المجاورة ، زادت التوتر بصورة خطيرة . وعلى الرغم من التدابير البوليسية ، فإن الناس كلهم يتظاهرون : فالطلاب المسلمون يتظاهرون ، لأنه يُرفع على سطوح المدارس علم المؤتمر ، ويُمنع علم الرابطة من أن يكون إلى جانبه أو مكانه . والفلاحون يتظاهرون ، لكي تقوم الدولة بإرغام الأمراء على احترام القوانين الجديدة التي صدرت لمصلحتهم ، والأمراء يتظاهرون ، لكي يعلنوا رفضهم ، وجماعة اللامساس يتظاهرون لكي يسمح لهم بالذهاب إلى المعبد ليؤدوا الصلاة ــ وهذا حق يجردهم منه الهندوس ــ والمسلمون يتظاهرون لأنهم يقسرون على تربية ذات طابع هندوسي ، والهنود يتظاهرون ، لأن المسلمين يعاندون ويستمرون في ذبح البقر وأكلها .

وحتى الآن ، أمكن تجنب المجابهات ، ولكن إلى متى تظل الأمور على ما هي عليه الآن ؟ وكان المستاؤون يستخدمون استراتيجية اللاعنف ، ضد المؤتمر ، تلك الاستراتيجية ، التي ظهر نجعها ضد المحتل البريطاني ، فيكتفون مؤقتاً بالتظاهر ، والمسيرات . ويوماً بعد يوم يزداد عدد المساجين ؛ ولم يعد في طاقة الشرطة أن تجابه الموقف .

وتفقد سلمى صبرها .

ــ يجب أن أخرج . ولا تنس أني سأسافر إلى بيروت في بحر أسبوع ؛ وعلي أن أشتري هدايا لأمي .

وهذه أول مرة ، منذ زواجها ، تعود فيها إلى لبنان ، وترى السلطانة . وهي من السعادة بحيث لا يستقر بها المكان . وتنوسيت كوابيس الأشهر السابقة . وعادت تأكل بصورة طبيعية ، ولا تفكر في الشمبانيا أبداً . وقليلاً فقليلاً تغيّرت نظراتها ، ولم تعد يظهر فيها القلق ، كما أن وجهها لم يعد كالقطة المبقورة .

ولقد تطوّرت العلاقات مع أمير . وخلت من العنف والمآسي . وتعلق سلمى على موقفها هذا ، فتقول : « نحن تماماً كزوجين قديمين » ساخرة من جهة ، ومندهشة من أنها تشعر من جراء

ذلك بشيء من التخفف من همومها . وهي تتذوق الآن بحلاوة هذه اللا مبالاة ، المريحة جداً ، على كونها شعرت ببعض الخيبة في آمالها ، لأن أمير يتقبل هذا الوضع بكثير من اليسر .

غير أنها لم تعد تشتهي أن تطرح الأسئلة على نفسها ، ولم تعد تفكر إلا في بيروت ، والبيت الأبيض الذي يحسن الاستقبال ، وابتسامات أمها ، ودلال الكالفات ، وعبادة زينيل ، وأصدقائها ، وإلى كل شبابها الذي ستعود فتلقاه !

ـــ هوزور ، هذه رسالة لك . هذا ما يقوله الخصيّ بصوتٍ خشن بعض الشيء .

وكان على الصينية الفضية ورقة زرقاء صغيرة . إنها برقية من بيروت .

وتصيبها الحيرة ، وتنظر إلى أمير .

ـــ حسناً ، يا أميرة ، افتحي ! لا ريب أنها من السلطانة التي تؤكد أنها ستكون في استقبالك لدى وصول الباخرة .

ـــ تؤكد ؟ ولِـمَ تؤكد ؟ طبعاً سيكونون في استقبالي . ولعلهم يكونون قد هيأوا حفلة ، لاستقبالها . فهذه هي العادة هناك . وحسن الضيافة شيء مقـدّس : فكل الأعمال تتوقف ، ويسرع الأصدقاء إلى المرفأ وأيديهم عامرة بطاقات الزهر .

وتقلب سلمى البرقية مرة بعد مرة بين أصابعها . وبالاستناد إلى خاتم البريد ، فقد ظلت البرقية أحد عشر يوماً حتى وصلت إلى لوكنوف ، وقد مضى أسبوعان تماماً على إخبارها هي بأنها قادمة ...

وتتنفس نفساً عميقاً ، وتمـزّق الغلاف الأزرق ، بحركة دقيقة .

« السلطانة ماتت هذا الصباح قف كلنا ملتاعون قف نفكر فيك قف بكل وفاء . زينيل » .

وتروي زهراء لسلمى فيما بعد أنها كانت قد سمعت عويلاً ، فأسرعت ورأتها ممزقة الوجه ، ضاربة جبينها بالجدار . وحاول أمير وإحدى الخادمات أن يمنعوها عن هذا ، ولكنها كانت تدفعهما برفس من أرجلها . وظنت زهراء أنها أزمة جنون . فقد كان وجه سلمى دامياً ، ولم تكن تسمع شيئاً .

وكانت زهراء ، المختنقة حزناً ، قد رأت أخاها يمسك بالكوداك التي كانت موجودة على

إحدى الطاولات، ويستعد لأخذ الصور. وما كاد يأخذ الصورة الثانية، حتى كانت هذه المرأة التي ظُن أنها صماء عمياء، عن كل ما هو غير ألمها، قد تجمّدت، ثم انقضّت، كاللبوة، على الرجل، ولكنها قبل أن تصل إليه سقطت على الأرض، مغشياً عليها.

وخلال أسبوع، كان الخوف كبيراً على عقلها. وتتابع أحسن الأطباء في البلد لزيارتها. وعالجوها بخليط من الأفيون وبعض الأعشاب التي يعرفونها هم وحدهم أياماً بلياليها، حتى استطاعوا حملها على النوم. وكانوا يقولون: «إن الألم المفرط الشدة، لا ينبغي أن يُجابَه مباشرة، وإلا فإن العقل يتمرّد ويهرب.». وكانوا يشرحون هذا بقولهم، إنه يجب لتهدئة آلام النفس، أن نعدم الشعور، وإبقاء الجسم في مستوى الحياة النباتية، وحتى إضعافه، كيلا يجد الألم، عند اليقظة، ما يتغذى به.

«ترى كيف استطاع؟ إني لن أسامحه أبداً».

وبالتدريج كانت سلمى تخرج من هذا الضباب المزعج الذي كان يحيط بها منذ أيام. وكانت أول حركة لها تعبّر عن الاستنكار، استنكار موقف هذا الشيطان الذي لم تعد تقول: إنه زوجها!

فكيف جرؤ، بدلاً من مساعدتها، على السخرية منها؟ وهو يعرف تماماً، كم كانت تحب أمها.

وعندما قضت أيندجيم نحبها، استقر في ذهن سلمىٰ، أن طفولتها، وشبابها، هما اللذان ماتا. وأصبح ماضيها كله مهدداً بالزوال؛ إذ لم يعد هنالك من شخص يتذكر معها، ويتذكر بها — فهما لحم واحد، وذاكرة واحدة. وكانت عيناها عينيها، وكانت أنفاسها تتملك العالم، وتعيده إليها، مدجّناً، مرحباً بها. وكانت شهقاتها تخنقها. وهي لا تقبل هذا التخلي عنها. وماذا كان يُهمّ، إذا كانت لم تر السلطانة منذ سنتين: إذ إن مجرَّد معرفتها بأنها موجودة على قيد الحياة، كان يشد من عزمها. «فبماذا كانت تفكر حولي؟» وماذا كانت ستفعل لو كانت مكاني؟ وهكذا كانت تتساءل دوماً؛ ذلك أن أمها كانت باستمرار إلى جانبها، حتى هذه الأشهر الأخيرة التي حاولت فيها أن تنساها، إذ ما كانت لتحتمل نظراتها، أو لعل نظراتها هذه هي التي لم تعد تحتملها؟ ولم تكن لتجد فرقاً بين الأمرين، إذ حتى إذا كانت تتمرد في بعض الأحيان، فإنه كان بينها وبين أمها هذا النوع من الحلول، وهذا الاتفاق على الشيء الأساسي.

ولقد قتلتها... بلى إنها هي، سلمى، التي قتلتها؛ وخلال هذه الأشهر المجنونة التي كانت

تحاول فيها تهديم نفسها، كانت تهـدّم السلطانة في الحقيقة. والعلاقة التي كانت تصلها بأمها، علاقة الحياة الأقوى من قرب المكان، على كونها ضعيفة إلى درجة اللا مبالاة، هي التي تحطمت الآن. وقد ماتت أمها من جـرّاء ذلك...

وكانت قبل ذلك بكثير، قد قتلتها بضربات صغيرة، أو قل جرحتها تماماً كالشجرة التي قلمت فتقص منها بالتدريج، تلك الأغصان، التي تحجب النور أكثر مما يجب. ولقد بدأ هذا، منذ زمن طويل. وحتى في استامبول، وهي تتذكـر ذلك: فهذا الحقد الذي شعرت به يوم كانت تلعب دور السلطان، وبدأت تمعن في ضرب أحمد الذي كان يمثل دور الجنرال اليوناني؛ كان قد أثار في السلطانة أعظم الاستياء وحملها على أن لا تصغي لمبرراتها، وحبستها في غرفتها. وكان ذلك عقوبة غير مهمة بالقياس إلى اليأس الذي شعرت به، يأس الطفل، وهو يواجه ظلم هذه الأم، تلك الأم التي بلغت درجة عليا من الكمال.

وفي لبنان... كانت قصة رسائل الأب التي كانت السلطانة تخفيها عنها ــ لمصلحتها ــ ثم بعد ذلك فرضها على ابنتها أن تتزوج من أحد الأمراء، فرضاً صامتاً، ولكنه لا يلين. كل ذلك كانت سلمى تنقاد له دوماً، ولكنها رغم هذه الإطاعة ــ أو بسببها ــ كانت تتمـرّد في أعماق نفسها.

أيكون أمير إذن قد فهم ذلك قبلها؟ أو هذا هو المبـرّر لسلوكه المستغـرَب؟ وهل اكتشف من وراء الألم، تخففاً من عبء كانت تحمله، وتخفيه حتى عن نفسها، وهي تعول أكثر فأكثر، وتشكو يأسها؟ وهل كان يملك كل هذه الرؤية الواضحة التي تنشأ عن تجربة طويلة في التنكر، أو في التباس العواطف، ليلاحظ في جنون سلمى ومحاولتها جرح نفسها، تلك الحاجة إلى أن تعاقب نفسها، لأنها لم تتألم بما فيه الكفاية؟

ويرتجف صوت زهراء قليلاً، ويهتف:

ــ آبا، إن أمير ياي يريد أن يراك. ولقد رفضت البارحة، وقلت له إنك ما تزالين متعبة جداً. أما اليوم... آبا، فإنه لن يصدقني... إنه يبدو تعيساً جداً. وهو لا يفتأ يكـرِّر أنك قد مرضت، بسبب ما ارتكبه بحقك من الأخطاء. فأرجوك، آبا، إنه لشد ما يحبك!

ــ أيحبني؟ حسناً... إن كان يحبني فسينتظر حتى أكون أنا راغبة في رؤيته.

وتسند رأسها إلى الوسادة، وتغلق عينيها: إذ يجب ألا تدع نفسها تلين، أو أن تتساهل.

فإذا كان عليها أن تعيش هنا ــ وأين ستذهب الآن ؟ ــ فإن عليها أن تفرض هي القواعد التي تناسبها . فلقد قضت حياتها كلها ، وهي تحاول أن تعجب الآخرين ، وكانت تريد أن تكون الفتاة الصغيرة التي تعشق ، والزوجة التي يذوب الزوج من حبه لها ، والراني التي تحترم . أما بعد الآن ، فقد انتهى هذا كله ! وذهب مع السلطانة ، ذلك الكائن الوحيد الذي كان يمكن أن يفرض عليها قانونه .

وكأنما وُجد من يحمل سلمى على التنهد ، من مكان بعيد ، فنفخ لها صدرها : إنها حرة ! ولأول مرة تشعر بأنها حرة تماماً .

ومضى أسبوع ، ولا يزال الغثيان الذي يعتريها ملازماً لها ، ويستبقيها في سريرها . وقد فرض الحكيم الصاحب حمية قاسية ، لأنه يُشخّص بداية يرقان : ففي البلد حالياً ، عدوى من هذا المرض .

ــ أيرقان ؟ ما أكثره حمقاً . فما كنت في أي يوم من الأيام ، مثلك الآن ، تورّد وجه !

وجاءت لوسي لتزور سلمى ، وعندما تحدثت هذه عن معاناتها ، ظهر عليها لوائح من فهم .

ــ أولا يكون ذلك ، على الأرجح ... حادثاً سعيداً ؟

وارتعشت سلمى .

ــ حادثاً سعيداً ؟ كلا ، بالتأكيد . إن هذا مستحيل !

وعضت سلمى شفتيها ، أمام الدهشة التي ظهرت على صديقتها : ولا يسعها على كل حال أن تشرح لها أنها منذ أشهر ، وخاصة منذ أن سكرت احتفالاً بموت كال ، لم تعاشر أمير ... لا ، بل فعلت ذلك ... مرة واحدة . وكان ذلك مساء مظاهرة الأمراء . فقد كان يبدو تعيساً جداً ، فتلاقيا ... كطفلين ضائعين ، على ما كانت تقدِّر . أفيمكن أن يكون هذا قد تم ... في تلك الليلة ؟

وتقرّر لوسي أن تتولى الأمر بنفسها بعد أن رأت ما رأت من دهشة سلمى ، واضطرابها . فقالت لها :

ــ سأرسل لك طبيبتي بعد هذا الظهر . وهي امرأة متميّزة ، وأرجوك أن لا تظهري بهذه السحنة اليائسة : فليس بالمصيبة الكبرى أن تنتظر المرأة طفلاً .

وبعد أن ضـمّـت سلمى إليها ، قليلاً ، خرجت وهي تنفجر ضحكاً .

وما كادت الطبيبة تترك الغرفة حتى هُرعت النساء إليها ، وكخلية من النحل تزاحمن حول السرير لتهنئة سيدتهن الراني . فمنذ سنتين ، وهـنّ ينتظرن ويراقبن أدنى الشحوب في وجهها ، وأقل علامة من علامات التعب ، ولا يرين شيئاً مما يتوقعنه ، ففقدن الأمل . وكن يتألمن ، ويقلن : ما أكبرها مصيبة أن تكون امرأة بهذا الجمال ، وهذا النبل ، ولا يكون لها حظ في الإنجاب ! ... وماذا يستطيع السيد أن يفعل ، فيما عدا الطلاق ؟ وكثيرات كن أولئك الطامحات ، المختارات سلفاً ، ليكن البدائل نيابة عن الأميرة ــ فالراني عزيزة لم تعد تريد أية غريبة .

ولكنه الآن هنا ، ذلك الوريث ، والسيد المقبل ، أخيراً ، أو تقريباً هنا . ومن شدة الفرح ، والاعتراف بالجميل ، تراهـنّ يقبلن يدي الأميرة ، ويُـنَـقّـلن حبات المسبحة ، وهن يتمتمن الأدعية التقليدية بهذه المناسبة .

وسلمى ، المتمـدّدة في سريرها ، لا تراهـن ، ولا تسمعهن ، وتتأمل في الطرف الآخر من الغرفة شعلة الشمعة التي تتردد في لفظ آخر أنفاسها . وهذه هي اللحظة التي تفضلها ، أي لحظة النضال الشجاع للهب الذي يأبى أن ينطفيء . وعندما كانت طفلة ، كانت تحبس أنفاسها وتثبت نظرها عليه ، لكي تدعمه بقوتها . وعندما كان يموت ، كانت تبكي في بعض الأحيان .

وانطفأت الشمعة . فأحـسّـت سلمى على خديها ببرودة رطبة . ماتت ... أيندجيم ماتت في اليوم نفسه الذي وهبت فيه حياةً تحل محلها ، كما لو أنها كانت تزول لتخلي لي المكان ، أو كما لو أني انتظرت اختفاءها ، لكي آخذ مكانها ...

ولقد حَسَبت ، ثم حسبت حساباتها ، وما من شك رأته ممكناً : كان ذلك في مساء اليوم الذي ماتت فيه أمها صباحاً ... فكأن للجسد من هذا العلم السابق ، ما لا تدركه عقولنا ... فقبل أن تعرف هي ، عرف هو . وفجأة لاح لها أنه ما دامت أمها تعيش ، فهي ، سلمى ، لا يمكنها إلا أن تكون بنتاً . أما الأم فكانت السلطانة ؛ ولم يكن في وسعها قط أن تأخذ مكانها .

أوَلا تراها تعود إلى الهذيان من جديد ؟ فالاعتقاد بأن جسدها كان يمتنع عن الإنجاب ، حتى ذلك اليوم الذي أدرك فيه على بعد آلاف الأميال ، تلك العلامة التي تسمح بأن يتفتح ؟ بيد أن الحقيقة ....

وبتردد، وخجل، وضعت يدها على بطنها. فالحقيقة، هي هنا الآن، وهذه المرة لا تستطيع، وكذلك لا تريد أن تهرب منها! وبكل انتباه، تتحسّس، رجفة ما تحت راحة يدها، فيبدو لها أنها تدرك عالماً يتفتح. فتغلق العينين، لتغرق في السعادة.

ــ يا عزيزتي، إن هذا أمر رائع!

وأقبل أمير مبتهجاً، متألقاً، واقترب من السرير، وبدا أنه شديد الاضطراب: وكأنما كانت قد أساءت الحكم عليه، ولكنها لم تفكر قط بأنه سيشارك بهذه الصورة في سعادتها.

ــ إنه يجب أن تعتني بنفسك، لا سيما، وأني أريد من ابني...

«ابني...؟» ولم تسمع سلمى نهاية الجملة. وفجأة تصلّبت وقالت لنفسها: «ولكنه مجنون، إذ لا علاقة له بهذا الذي يوجد داخل جسمي، وما لأحد من علاقة، إنه ابني فقط!» وبدأت ترتعد من الخوف: إنهم لن يأخذوا منها وليدها! وليس لهذا الرجل الذي شاركها مضجعها أن يدعي لنفسه حقوقاً فيما حصل! فتنظر إليه محملقة، وبعدوانية: فكل ما حصل هو أنه كان زوجاً مقبولاً، وحبيباً سيئاً، أما أنه كان أباً؟ ولكن هل كان أباً لولدها؟ وبصورة غريزية وضعت ذراعها حول بطنها، وضغطته قليلاً. فهو القلعة التي تنعزل، وتتحصّن، وتحمي الكنز الثمين الذي يترقبه الأجنبي، ويطمع فيه.

ذلك أنها، فجأة، لم تعد تشعر أنها «الأجنبية» ولم تعد تشعر أنها «زائدة»، فهي هنا، مغروسة الجذور في هذه الأرض التي استقر في ذهنها فجأة أنها جزء لا يتجزأ منها، وأنها مشدودة إليها بألف جذر، فهي الطين الأسمر، والعشب الذي يتثنى من أثر الرياح، وهي الغابة العظيمة والحرارة الهادئة لهذه النهاية لأمسيتها هذه.

وقليلاً فقليلاً عادت إلى هدوئها، واندهشت من أنها خافت إلى هذه الدرجة: فهذه الحياة في أعماق بطنها، من تراه يستطيع أن ينتزعها منها؟ وفي وسعهم أن يتحدثوا، ما شاؤوا، فهي لا تسمعهم. بل إنها لا تفهم حتى تلك الأهمية التي كانت تمنحها لهن، من قبل، كما لو أن وجودها يتعلق بما يقلن، وما يقررن، أو كما لو أنها قوقعة فارغة.

وتُعلّق نظرتها بالرجل الجالس إلى جانبها، فتبتسم له، غير مبالية.

ــ ولكن إياك إياك أن تأكلي السمك. فهذا يجعل بشرة الرضيع بشرة بشعة! وعليك أن لاتعطري نفسك بعد الآن، ولا تتزيني، ولا تضعي على شعرك زهراً، فهذا كله يثير حسد الجن، ويمكنهم أن ينقموا على الطفل، ويجعلوا حظه أسود.

وتعدِّد البيجوم نعمة، بلهجة هادئة، مجموعة الوصايا والممنوعات ـــ مما يجب أن تعرفه كل امرأة حامل ـــ وكانت النساء حولها يوافقنها بهز رؤوسهن. فمن غير الجدة يمكن أن ينصح الراني؟ فأحفاد أحفادها لم يعودوا يحصون، وكلهم على درجة عالية من القوة والجمال، وهذا برهان على أن أمهاتم عملن بدقة برأي الأجداد أو الجدات.

وهكذا فلكل ساعة من النهار، وكل مناسبة أو ظرف، نظام دقيق، ينبغي أن يرعى. ثم إنه يكفي أن يفكر الإنسان قليلاً لكي يفهم. لكن صبايا هذه الأيام لا يثقن إلا بالطب الإنجريزي (الإنكليزي)، ويحسبن أن الوصفات القديمة قد تجاوزها الدهر، وأية مصيبة! وها نحن نلاحظ نتائجها الكارثية: فالإجهاضات تتكاثر، وهؤلاء الأطفال الذين يولدون نصف مشوّهين، وطفل نشأة، الذي غطّي نصف وجهه ببقعة شبه بنفسجية... على أنهم قالوا لها، مع ذلك، إنه اعتباراً من الأسبوع الحادي عشر، ينبغي ألا تأكل الشوندر.

وكانت سلمى تصغي، مكتئبة، وتطرح بعض الأسئلة، لتَسُرَّ من حولها. ومع ذلك فقد كانت رعاية هؤلاء السيدات تمس شغاف قلبها. فمنذ أن انتشر الخبر، بدأت تصبح قبلة الأنظار، والموضوع الرئيسي لكل المحادثات، والآمال، والقلق. وأصبح القصر يعيش على نسق رغائبها، وكل واحدة فيه لاتنتظر إلا أن تقدِّم خدمة. وحتى الراني عزيزة التي أمرت بأن يغلف كل صحن، وليس الصحن الرئيسي وحده، بالورق المذهّب، ذلك أن الذهب ـــ وهذا شيء معروف ـــ يهب **القوة** للأم، ويقوي عظام الـ «بيبي BEBÉ» الجنين.

ولو أنها في وضع عادي، لاستاءت أكبر الاستياء مما تحاط به، أو يقال لها، أو توصى به. أما الآن فإن ذلك يطمئنها. فلولاها لما كانت متأكدة من أنها حامل. وعبثاً سألت كل مساء، المرآة، واستوضحت بطنها، وثدييها، فما رأت أنها تشعر بشيء. وحتى الغثيانات، فإنها قد تباعدت. أتكون الطبيبة قد أخطأت؟ فقلقت سلمى، وأصبح أقل ماتشعر به من الوجع، موضوعاً يشد منها الاهتمام.

ومنذ الآن، نراها تقضي أكثر يومها، متمددة على السرير المترجح في بهوها الذي أعيد

تنسيقه ليكون مناسباً للغرض . ومن هناك ، لا ترى إلا قمم الأشجار ، وزوايا من السماء ، من خلال أوراق الشجر . ولم تعد لها أية رغبة بالخروج ، وأقل من ذلك أن تقوم بزيارة الصديقات ... وصار كل همها أن تحلم .

لئن كان الجنين صبياً ، فسوف تسميه سليمان ، باسم جدها الشهير سليمان الكبير أو العظيم . وستربيه بصورة يصبح معها ملكاً عظيماً . وسيقوم بإصلاحات جريئة ، وسيفهم الشعب أن هذه الإصلاحات تتم من أجله ، وسينقاد له . وقليلاً فقليلاً ، وبالتدريج ، سيحرِّر النساء ، ذلك أنها تكون قد جعلته حساساً لما يعانين من شقاء . وكل ما كان أمير يتردّد فيه ، لأنه متقاسم بين ردود فعله الإقطاعية ، وقناعاته الليبرالية ، وكل ما حاولت هي ، الغريبة ، أن تفعله ، فلم تنجح ، سيحققه ابنها . وستكون إلى جانبه لتنصحه . وهما وحدهما ، سيغيران صورة الحياة في بادالبور ، وينشئان دولة عصرية ، تحسدها الدول الأخرى ، وتجرب أن تقلدها . وسيكونان رائدين ، ويبرهنان أن الهند ، من غير أن تفقد روحها ، ومن غير أن تنسج على مثال الإنكليز بالضرورة ، ستصبح بلداً عظيماً .

وإذا جاء المولود أنثى ؟ ...

هنا (يتأرجح) تفكير سلمى ... ذلك أن ذكريات الحبس في البيت ، والبراكاهات السوداء ، والزواج ، والأطفال ، تحتشد في نفسها . والبنت ... المحجبة ، والمبيعة ... فترتجف .

وفي الأيام التالية ، تعود الفكرة إليها ، فتعـذّبها . ترى كيف لم تفكر بالأمر قبل الآن ؟ فجميع الناس في القصر واثقون أن المولود لن يكون إلا ذكراً ، وأنها هي نفسها مقتنعة . ولكن إذا كان بنتاً ، فماذا يفعل أمير ؟

ولكي تطرح عليه السؤال ، اختارت أمسية بدا فيها حسن المزاج بشكل خاص . فارتعد كما لو أنها تشتمه ، ولكنه سرعان ما عاد فتماسك .

ـــ بنت ؟ حسناً . سأجد لها العريس الأغنى ، والأنبل ، في الهند كلها !

ـــ وإذا لم تكن تريد الزواج ؟

فنظر إليها مندهشاً ، ثم بدأ يضحك .

ـــ أية فكرة ! أرأى الناس بنتاً لا تتمنى الزواج ؟ إن الزواج هو غاية كل امرأة ، وشرط

سعادتها. وهي مخلوقة لكي تنجب الأطفال. وأنت نفسك، ياعزيزتي، ومنذ أن صرت حاملاً، بدأت تتألقين.

وتسكت سلمى عن الجواب. فليس هذا هو الوقت المناسب لإغضاب أمير، ولكنها بحاجة إلى أن تعرف.

ـــ وإذا كانت بنتاً، فهل سيكون عليها أن تضع الحجاب وتبقى سجينة؟

ويهز أمير رأسه، وعليه هيئة المثقل بالهم.

ـــ سلمى، لماذا تطرحين عليّ هذه الأسئلة. أنت تعرفين أنه يجب... وإلا فإن سمعتي وسمعتها، ستمرغان بالتراب. فما من شخص يقبل أن يستقبلها لديه، ومجتمعنا لا يمزح حول فضيلة النساء. ولكن اطمئني. إنها لن تتألم من ذلك، ذلك أنها لا تكون أبداً قد عرفت، ولا يتاح لها أبداً أن تعرف شيئاً آخر.

« اطمئني »... ولكن هذه الملاحظة المعدّة لتهدئة سلمى، أرعبتها: فابنتها لن تكون قادرة إذن على تخيّل الحرية! وهذا مستحيل، فهي لن تلد ابنة ليجعلوها سجينة. وطفلتها لن تكون واحدة من هؤلاء الفتيات الصغيرات النفوس، المحدودات، اللواتي ينحصر أفقهن في خير الأسرة. بل ستكون امرأة قادرة على العمل، وستساعد رفيقاتها على التحرّر من الضغوط التي ما فتئت منذ قرون تعمل لخنق ذكائهن، وإرادتهن. إن ابنتها ستناضل... ولا يمكن معاملتها كأجنبية. ذلك أنها، هي على الأقل، سيكون لها الحق في أن تناضل.

ولكن هل ستكون لها رغبة في ذلك؟ وهذا التمرّد الذي يسكن سلمى، ترى هل تكون قادرة على نقله إليها؟ أو يمكن أن نُفهِم الظلم، لمن لم يعرف العدل؟

وسلمى يخيفها ما للهند من وزن. وبنعومة، ويوماً بعد يوم، تضعف الحماسة، والقدرة على الاستنكار، وببطء، وبلا ضجيج، تقضي على الإرادة، بقضائها على الرغبة.

وتتساءل:

« كيف سيكون لابنتي، هذه القوة؟ فأنا التي عرفت الحرية، ينطبع في ذهني أحياناً... » وتتردد سلمى، حول هذه الكلمة التي تحتقرها، ومع ذلك فإن من الصحيح أنها منذ بعض الوقت، بدأت تتلاءم. إذ لقد وصل الأمر بالمرأة الشابة، القليلة الصبر، الصلبة العقيدة، العنيدة، إلى أن

تقـدِّر الراحة التي تحيط بها ؛ وتشعر بأنها محمية . وقليلاً فقليلاً تنزلق إلى حب الرفاهية ، على كونها تهدهد نفسها بالتوهم بأنها لا تزال هي ، هي .

وقد قرعت جرس الإنذار عليها ملاحظة صدرت عن إحدى الخادمات ، إذ قالت :

ــ نحن سعيدات جداً ، فرانيتنا تغـيّـرت كثيراً . إنها الآن امرأة هندية حقيقية .

وعادت إليها الآن صورة أم راني شاهينا . فقد كانت صورة الهزيمة ، والتعاسة ، ذلك أنها استغنت عن حبّـها للمغامرة ، والأهواء ، لكي تبقى قريبة من أطفالها . ولكنها لم تقبل قط هذه الخيانة لنفسها ، وأخيراً هربت ... إلى الجنون !

« سافري ، أنقذي نفسك . فما فاتك الوقت بعد ! » إن هذا الصوت الأجش يرن في أذني سلمى . ويومئذٍ لم تأخذ هذا التحذير مأخذ الجـدّ ، معتبرة أنها قادرة على مقاومة أي نوع من الضغوط .

والإنسان يقاوم القوة . ولكن هل يقاوم الرقة والنعومة ؟ فشعرت سلمى فجأة بالخوف . وهي تعلم أنه ما من شيء أكثر خطورة من هذا الدفء السارّ ، وهذه الغبطة المرتوية ، التي يسميها الناس باسم السعادة . وتكاد هي أن تقع في مصيدتها ، إما بحكم التعب ، أو ربما بحكم فقدان الأمل . ويجب أن تسافر ، وتهرب ، قبل أن يفوتها الوقت . وستهرب لا لأنها بائسة تعيسة ، بل لأنها لا تريد هذا النوع من السعادة .

ـ ١٩ ـ

ــ وإذن فماذا اخترت ؟ أباريس ، أم لوزان ؟

وتجمّـدت أصابع سلمى على البيانو . والتفتت باتجاه لوسي : ترى كيف استطاعت هذه الشيطانة أن تحزر ؟ وحباً بإخفاء اضطرابها ، تظاهرت بأنها مشغولة بتأمل حجرة من الياقوت الأحمر ، غير المصقول ، قـدَّمه إليها أمير منذ قليل ، وتمتمت :

ــ السفر ؟ ليس موضوع بحث ، في حالتي أنا !

ــ في حالتها ! ...

ورفعت الفرنسية عينيها إلى السماء ، كما لو أن الكيل قد طفح بها .

ــ أولا يقال إنك أول امرأة في العالم تنتظر مولوداً ؟ ففي مثل حالك هذا ، يجب أن تسافري ، أما فيما بعد ، ففي الأمر بعض المغامرة . فالأطباء ، حول هذه النقطة ، متفقون ، لمرة واحدة : قبل الشهر الثالث . وأظنك لا تريدين أن تلدي هنا ، على كل حال ؟

ــ ولكن بلى سألد هنا ... فلماذا ؟

ــ إنها حلوة حلوة ، ولكنها مجنونة تماماً ، يا عزيزتي ، ما من إنسان يتحمّـل الولادة في هذا المكان الحقير ! ذلك أنه إذا حدث بعض التعقيد ، فهل تظنين أن حكيمك الذي لا يفرّق بين

الحمل واليرقان، يستطيع أن ينقذك من الورطة؟ والآن لا يوجد مكان للولادة إلا في باريس أو لوزان.

وتكبت سلمى بسمة كادت أن ترتسم على شفتيها، وهي تفكر في كل الذاهلات في أنحاء العالم، ممن تجرأن على الولادة في عير هذين المكانين؛ ولكن لسنوبية لوسي، جانبها الحسن، لأنها ربما جاءت، دونما قصد، لتقـدِّم لها حلاً للمشكلة.

فمنذ ليال عديدة، لم تعد تنام: أفتبقى أم تسافر؟ ولئن كان صبياً، فليس لها الحق في أن تحرمه من السلطة، ولكن إذا كانت بنتاً، فماذا تفعل؟ أما أن تترك القصر ولوكنوف، فليس ذلك بالأمر الصعب ـــ ويكفي أن يشتري الإنسان بضع خادمات ـــ ولكن أتترك الهند؟ ولقد تخيّـلت أنواعاً من السيناريوهات ـــ كالتنكر والحصول على أوراق مزيفة ـــ ولكن أمير يقيم السماء ويقعد الأرض، لكي يجدها، ويرسل تعليماته إلى الحدود كلها.

ولكن إذا هي سافرت إلى فرنسا، رسمياً، لكي تلد فيها، ثم أبت العودة، فمن يستطيع إرغامها عليها. ففرنسا بلد اللجوء، وأرض الحرية. وهناك لا يستطيع الراجا أن يفعل شيئـاً، ضـدّها.

ـــ إن رانيات بادالبور قد وضعن دوماً مواليدهن في القصر. وهذا الذي كان يصـحّ بالنسبة لنساء أسرتنا، ينبغي له، على ما أتخيّـل، أن يصح بالنسبة لك.. يا أميرة!

ولقد دوى اللقب في فم الراني عزيزة، كما لو أنه ضربة سوط: فجرأة هذه الغريبة أمر لا حـدّ له! ومن حسن الحظ أن واحدة من الحشم حـذّرتها مما يحاك لها. وقد وصلت في الوقت المناسب، وكان أخوها الأحمق على أن يوافق هو أيضاً.

أما الراجاه، فكان يتمنى أن يوجد في أي مكان في العالم غير مكانه الحالي. وسواء أوافق على رأي أخته، أم على رأي زوجته، فإنه ضامن على كل حال، لأنه لأشهر عديدة سيسمع شكاوى كثيرة، وسيكون تجاه مزاج غاية في السوء. ولكنه، في الأعماق، غير مستاء من تدخل أخته الكبيرة؛ ذلك أنه هنا تجاه أمور نسوية، بعد كل حساب. وكان هو نفسه ضـدّ هذه الرحلة ولكنه ربما انتهى إلى الاقتناع: فقد استطاعت سلمى أن تشعره بالقلق عليها...

وخطرت بباله فكرة، حملت الجميع على القبول، إذ قالت:

ـــ لنأت بطبيب إنكليزي إلى القصر. ولئن لم يوجد واحد مناسب في لوكنوف، فإننا نأتي بواحد من بومباي أو من كلكوتا. وهكذا فإننا نحتاط لكل احتمال، ونحترم التقاليد. ذلك أني أعترف بأن ملكاً لبادالبور يجب ألا يولد في الخارج. وفي هذه الأوقات العصيبة، ويستطيع بعضهم أن يجد في ذلك مجالاً، لانتزاع كل مشروعية عنه.

وعندما ارتاح إلى هذا الحل الذي لا يفكر في إعادة البحث فيه، مضى إلى سبيله واختفى، دون أن يعير انتباهاً لسحنة زوجته المذهولة أو أن يصغي إلى احتجاج أخته التي ترى أن أميراً مسلماً يجب ألا يولد على يد واحد كافر.

وكان لا بدّ من أحداث خطيرة، حتى يَعدل الراجاه عن قراره. ففي شهر آذار/مارس/ من عام ١٩٣٩، عندما كان هتلر قد ضمّ إليه تشيكوسلوفاكيا، وكانت الديمقراطيات الغربية تتساءل، في الحين الذي كان فيه المهاتما غاندي يقترح على الطرفين معاً، نزع السلاح بصورة متواقتة، نزعاً سيفتح، بالتأكيد، عيني الهر هتلر، ويُفقده السلاح الذي بين يديه (١)، كانت لوكنوف تشهد تصاعد التوتر بين طائفتيها السنّية والشيعية، المتعاديتين، تاريخياً.

وكانت النقطة التي أثارت الخلاف هي «الماد والصحابة» وهي قصيدة مدح للخلفاء الثلاثة الأول، تصرُّ السنّةُ على إنشادها علناً، وهذا ما تحتج عليه الشيعة، وتراه صورة من صور الإثارة والتحدّي: ذلك أن هؤلاء الأخيرين يعتبرون هؤلاء الثلاثة مغتصبين، على حين أن علياً وحده هو الوحيد الذي يحق له أن يرثه، ويقوم مقامه.

وفي ١٩٠٥، وبعد الاضطرابات التي وقعت فيها عشرات الضحايا، أمر الحاكم الإنكليزي بتحريم إنشاد ماد والصحابة. ولكن منذ أن أصبح حزب المؤتمر في الحكم، بدأت جماعة السنّة تطالبه بإلغاء هذا التدبير «الظالم» ويحتجون، في مطالبتهم هذه، بأن الشيعة ينشدون «التباراه» التي يعتبر السنّة، أنها مسيئة لذكرى خلفائهم.

وهنالك سياسيون هنود يؤيدون السنّة الذين هم أكثر من الشيعة بثلاث مرات، آملين، من وراء ذلك، أن يكسبوا أصواتاً أكثر في المؤتمر. أمّا أن هذا يمكن أن يثير الاضطرابات، فهذا

---

(١) مقابلة نيويورك تايمز ٢٤ آذار ١٩٣٩.

آخر همومهم: أوليست كل معركة تقوم بين المسلمين، تضعف الرابطة الإسلامية وزعيمها المكروه (جناح). وعندما شعر المسلمون بأن الحكومة متردّدة، بدؤوا في الأسابيع الأخيرة يكثرون من المظاهرات، ويوقف منهم المئات، والشرطة التي ينبغي لها أن تجابه هؤلاء المستائين بالإضافة إلى كل الآخرين، لم تعد تطيق هذه المواجهة.

وفي يوم ٣١ آذار /مارس/، قررت الحكومة، على عجب واستغراب من الجميع، أن تستجيب لمطلب السنّة. وهكذا فإن الماد والصحابة يمكن أن تنشد في كل مكان، وكل لحظة، شريطة أن تخبر السلطات المحلية بذلك. فثار الرعب فوراً. إذ يجابه رجال الشيعة السنيين بالصلوات والحجارة، في شوارع لوكنوف. وكانت المجابهات الكبرى تقع أمام الإمام بارا، وتطلق الشرطة الرصاص، فتوقع القتلى والجرحى. فتقرّر الحكومة منع التجول، ولكن أحداً لا ينقاد لقرارها. وصار أصحاب الدكاكين يرخون الستائر الحديدية على متاجرهم، وتتوارى أكثرية السكان، وتطوف في المدينة فئات مسلّحة. وخلال عدة أيام أوقف آلاف من المسلمين، دون أن يكون لذلك أي أثر آخر، غير زيادة الشغب والاضطراب. بل إن مجموعة من المسلحين، تصل إلى مقر المجلس، وتعتقل رئيس الوزراء الذي لا يؤذى، ولكنه امتلأ رعباً. وقرّرت النساء أن الوقت قد حان لدعم الرجال، والتظاهر في الشارع، محجبات ببركاهن السوداء. وكان سبعة آلاف شيعي قد دخلوا السجون، وبضع مئات من السنّة؛ فإذا تدخل الهندوس في الأمر — في مثل هذا الجوّ المشحون والمكهرب — فإن كل شيء ممكن الوقوع. ولكن حتى الجيش لن يكون في وسعه منع الحرائق والمذابح.

وتقع كيسر باغ (أو قيصر باغ) على مقربة من سوق آميناآباد، أحد الأمكنة الكبرى لقيام المعارك. وقام الراجاه بتعزيز الحرس. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل هؤلاء الرجال القلائل، إذا ما هاجمت القصر الجماهير الغاضبة؟

وفي بداية هذا الربيع، ما من إنسان في لوكنوف يستطيع التنبؤ إلى أين ستمضي هذه الاضطرابات. ولا يريد أمير، أن يغامر بأي شيء. وعليه أن يبقى. أما زوجته الشابة فستسافر. ذلك أن أعصابها سريعة العطب، وهو يخشى عليها من الأذى، وهي في حالة الحمل. وإذا لم تكن لوكنوف آمنة، فما من بلد في الهند يمكن أن يكون كذلك. والحقيقة أن إرسال سلمى إلى فرنسا، ليس بالفكرة السيئة، إذ سيرسل معها زينيل الذي لم يعد له ما يعمله في بيروت بعد موت السلطانة.

الجو مشحون بالغبار وبالحرارة الجافة في منتصف شهر نيسان /أبريل/. ومحطة لوكنوف، تقضي يوماً عادياً، مع جماهير حماليها المتضورين جوعاً، ومتسوليها الذين يرافقـون، إلى البهو الكبير المبني بالحجر الرملي، أولئك المسافرين الغارقين في عقود الزهر المحيطة بأعناقهم.

وتقف الإيزوتا فراشيني البيضاء المذهّبة أمام الباب الفيكتوري الهائل، المحاط بأجنحـة مغولية. وهناك حرس يحيطون بها، ويحملون شارات دولة بادالبور. وهم يحمـونها من فضول الجماهير، التي تحاول من خلال الستائر الدمشقية، أن تلمح الراني ذات الشعر الذهبي.

ذلك أن الخبر انتشر منذ أول الصباح، عندما جاء خدم القصر ليقيموا ممراً طويلاً من البروكار، تستخدمه الأميرة لكي تصل بصورة بعيدة عن الأنظار إلى العربة الملكية. وكان جمالها قد أصبح أسطورياً في المدينة؛ ولكنهم قلائل جداً أولئك الذين رأوها. ولكن ما نقلته الخادمات من وصف لهذا الجمال، ظل يثير خيال الناس. ثم إن كرمها مشهور أيضاً. ومن يدري ما إذا كان سفرها سيكون مناسبة لتوزيع بعض المال؟ وتنطلق من الجمهور المزدحم بعض الهتافات بحياة الأميرة، وبعض الأدعية الطيبة...

وكانت سلمى الجالسة إلى جانب أمير، قد عيل صبرها، فتبذل جهدها لكبت عواطفها. إنها لم تعد تعرف أبداً لماذا كانت تريد السفر، بهذه الحماسة. ذلك أن الرحيل عن القصر كان تجربة قاسية لم تكن لتتخيّـلها، وهي التي كانت تحلم بتركه منذ مدة طويلة. وكل المبررات التي كانت تظهر لها واضحة، تبدو لها الآن تافهة. ذلك أن العواطف الحارة التي أحيطت بها في الأيام الأخيرة، والحب الذي شعرت به لدى هؤلاء النساء والأطفال، الذين يظهرون فجأة من كل زوايا القصر، والذين كانوا يتعلقون بثوبها، وهم يبكون، كانت نزيهة. إنهم لم يريدوا أن تسافر. وكانوا يتوسلون إليها أن تعدل عن السفر. وكانت العجائز تسمينها «الأم» وهن يضغطن على يديها بأصابعهن الضئيلة اللحم. أما الأكثر شباباً فإنهن كـنّ ينظرن إليها بسحنة تعيسة، كما لو أنهن يلمنها على أنها تتخلى عنهن.

وعندما عرفن أخيراً أنهن لن يثنينها عن عزمها، وعندما قال الراجاه بصوت قاس، إن الأميرة، يجب أن تسافر «لأسباب صحية»، فقد حرصت كل واحدة على أن تقدم لها هدية صغيرة، وهي جزيىء صغير منهن كان على رانيتهن أن تحمله معها، وأن تحميها في هذا العالم الذي لم يكن يستطعن تخيّـله، لأنهن لم يكُـنّ هناك للقيام بهذه الحماية. وعلى الرغم من نصائح أمير وقوله، إن هذه الأباطيل مزعجة جداً، فإن سلمى لم تشأ أن تتخلى عنها. لأن معنى ذلك أن تخون

ثقتهن، وهذا وحده سيجلب عليها الشقاء. وهكذا فقد وضعت المناديل المطرّزة، والحصيّات ذات الألوان الغريبة، وقطع الخشب المنحوتة، في حقيبة تحملها إلى باريس. وإذا حدث أنها شعرت بالوحدة هناك، فليس علها إلا أن تفتحها لتمسّ وتتنفس شهادات الحب هذه.

ــ نحن جاهزون، ويمكننا أن نمضي.

وقفز أمير خارج العربة. وتدهش سلمى وتقول: «ما أكثر ما هو جزع (فاقد الصبر)، حتى إن من يراه، يظن أنه مستعجل في أن يراني أرحل...». وهي تعلم أن هذا غير صحيح، وأنه مغلوب على أمره، وأنه يفعل كل ما يستطيع لإخفاء ما هو فيه، ولكنها تحقد عليه، لرفضه أن يترك أمره لله، ولهذه الرصانة التي يبدو بها معها، كما يبديها مع الأجانب. وتلك المرات القليلة التي بدا فيها مكشوف القناع، جعلها في الأيام التالية، تدفع ثمنها ببرودة مضاعفة.

وبخطوات خفيفة، سبقها الراجاه في هذا الممرّ الحريري الذي سلكته، منذ سنين، بالاتجاه المعاكس. كانت يومئذ تصل، مخطوبة، متألقة بالأمل الذي تحمله، وتتقدم بثقة لكسب زوجها الجميل، ووطنها الجديد.

والآن... فإنها تستمر في السير إلى عربة القطار المصنوعة من المعدن، والخشب، التي ستنقلها بعيداً عن أولئك الذين يعرفونها، والذين يحبونها على طريقتهم. وكانت تمشي بعدها زهراء، زهراء تلك الفتاة النحيلة التي أحبتها من أعماق قلبها والتي لا تسامحها على أنها قد أصبحت هذه المرأة الهادئة والسمينة. ولكن ربما كان عليها، بالعكس، أن تكون لها شاكرة للتحذير من أثر السعادة في المرأة، في هذه البلاد... وكان وراء زهراء رشيد خان، رشيد الأمين، الذي تابع كل شيء وفهم كل شيء منذ وصولها. ترى هل يحزر أنها ربما كانت تسافر نهائياً؟...

وفاحت رائحة ياسمين قوية، فانتزعتها من أفكارها. ووصلوا جميعاً إلى العربة النيلية المطلية بألوان الدولة. وكان على الدرجات الموصلة إلى القاطرات طاقات زهر بيضاء يُعطّر الجو أريجها اللطيف. تُرى من هو الذي فكر بأن يصحبها بأزهارها المفضلة؟ وأجابت زهرا مبتسمة، عن سؤالها الصامت بقولها: إنها باقات أمير. وعندئذ فاضت الدموع التي طال حبسها، من عيني سلمى. أهو أمير إذن... ولكن لِمَ جعلها متأخرة إلى هذا الحد؟ أتراه استطاع، أخيراً، أن يعبّر عن شيء من الحب، لأنها مسافرة؟

ودخلت العربة، مضطربة، وتقدمت نحوه. ولو أنه في هذه اللحظة طلب منها البقاء، إذن لرمت نفسها بين ذراعيه.

ولكنه اكتفى بالنظر إليها، وتراجع، بصورة لا يُشعر بها.

وفيما بعد، سنراه يفكر كثيراً في تلك اللحظة التي مهما تكن الرغبة التي تشدّه إلى روجته ساعتئذ، فإنه لم يستطع تجاوز المنعكس المكتسب، أو القاعدة الذهبية التي تحول بين الأزواج المسلمين، وبين أن يُبدوا شيئاً من العلاقة الحميمة التي تربطهم بزوجاتهم، على أنه لا يوجد، في هذه المرة، إلا أفراد الأسرة، وزيبيل الذي وصل لتوّه من بيروت، وبعض الخادمات... ثم امرأته الشابة التي تتوسّل إليه، بصمت، أن يقوم بحركة ما، للتعبير عن عواطفه.

وأخذت سلمى، وهي ترتجف، كأس الشمبانيا التي تفضل أمير، باعتباره زوجاً محباً ووفياً، بتقديمها لها. واستعاد برودة دمه، وطلب أن يُشرَب على صحة الأميرة، وحسن تمام الرحلة، وحسن الإقامة بفرنسا. ولكنه لم يشر قط إلى التعاسة التي يسببها له غيابها، ولا إلى الأمل باللقاء القريب. وكذلك لم تلمح على وجهه مطلقاً، لوائح الهيجان.

ودوت صفارة رئيس المحطة لتعلم الناس بحركة القطار الفورية، فقطعت حفلة الوداع هذه. وفيما عدا زينيل الذي وصل لتوه من بيروت، فإن الناس المودعين جميعاً نزلوا إلى الرصيف. وكان أمير آخر من بقي. أتراه سيقبّلها؟

وبنعومة، ينحني أمامها، كما لو أنه سيغيب عنها لعدة أيام.

ـــ إلى القريب العاجل، ياأميرتي.

ـــ أمير!

ونادته، فالتفت إليها. ونظر كل منهما إلى الآخر، لمدة طويلة، وبألم. وشعرت هي بأنهما لن يلتقيا أبداً، وأنها أبداً لن تعود فترى الهند.

وانحنت من نافذة القطار الذي تحرّك في طوفان من الدخان، وثبتت نظراتها على ذلك الزول الأبيض، الواقف على الرصيف، الذي يبتعد، ويبتعد، ويغيب....

القسم الرابع

فرنسا

١

٢ نيسان / أبريل / ١٩٣٩

«إني أكتب إليك يا محمودي، من باريس، التي ها نحن نقيم فيها الآن، أنا والأميرة سلمى، منذ أسبوعين. بلى! إنك لا تحلم، إنه زينيل الذي قـرّر أن يظهر من جديد بعد خمسة عشر عاماً من الصمت.

«لا تلمني إذا كنت لم أجب عن رسائلك العاطفية التي كنت ترسلها إليّ بعد افتراقنا. لم يكن ذلك نوعاً من اللا مبالاة. كنت أشعر أنه كان من العبث أن أحـرّك الذكريات السعيدة القديمة. أما بالنسبة إليك، وقد كنت فتى في أول عمرك: فقد كان عليك أن تنساني وتنشىء حياة جديدة.

«أما من جهتي أنا، فإني لم أكن فارغ البال. إذ كنت أكـرّس وقتي كله، وطاقتي كلها، وأفكاري جميعها لهذه الأسرة التعيسة الذي جعلني القدر مسؤولاً عنها، ولا سيما... كنت أكـرّس نفسي للسلطانة خديجة التي كانت رغم شجاعتها لا تستطيع تجاوز صدمة المنفى..

«إن سلطانتي... لا أستطيع تذكرها من دون أن تطفر الدموع من عيني، وتغشي على بصري، ولقد مضت الآن عدة أشهر، على رحيلها عنا... ولقد اعتقدت أنني سأصبح مجنوناً من الألم! ومنذ أن أصابها المرض، تقاربنا أكثر، ولم تكن توليني ثقتها فحسب، ولكنها كان تمنحني هدية، لا تقـدّر بثمن، هي مودتها وعطفها.

« لقد كان رحيلها ، بالنسبة إليّ ، وأنا أستطيع الاعتراف بذلك الآن ، نهاية قصة حبٍّ طويلة جداً. ولكنك على الأرجح ، كنت قد حزرت ذلك منذ زمن طويل.

« وعندما دخلت في خدمتها ، في قصر تشيراغان ، حيث كانت سجينة مع أبيها ، سرعان ماوقعت في حبّها . ولم يكن عمري يزيد عن خمسة عشر عاماً . وكان يمكن أن تكون أمي . ولكني شعرت بأني أنا الذي يجب أن أحميها . فلقد كانت حزينة جداً ! وخلال سنوات كثيرة ، كانت تأمل باسترداد حريتها ، ثم انتهى بها الأمر إلى اليأس من ذلك . فجدران هذا القصر هي التي ستكون قبرها . ولم تكن تطيق أسرها : وكانت بها رغبة جامحة إلى الحياة ، حتى لقد ظننت أنها ستقتل نفسها ذات يوم .

« وأعلمت بذلك الطبيب الذي كان يرسله السلطان عبد الحميد ، مرة كل أسبوع ، إلينا . وعجب هذا الرجل كل العجب من جرأتي . ولكنه اضطر إلى مكاشفة جلالته ، بهذا الأمر ، ذلك أنه تقـرّر بعد عدة أشهر أن يزوجوا السلطانة .

« وكنت أمر عندئذ بأسوأ حالات القلق ، ذلك أني كنت أخشى أن أنفصل عنها ؛ ومن حسن الحظ ، وضعوني في سلة جهازها . ومنذ ذلك الحين لم أتركها قط .

« ولكن هل كنت سعيداً بذلك؟ كلا ، بل كنت أغار من زوجها ، حتى فهمت بأنها كانت تكرهه أكثر مني ، وكنت أغار من الباشا الجميل ، زوج نعيمة السلطانة التي كانت تغازله بعينيها ، حتى اكتشفت بأنها لم تكن تبحث إلا عن الانتقام من السلطان عبد الحميد . وفي هذه الناحية كنت أساعدها بكل حماسة . فقد كان انتقامها انتقامي ، لأننا كنا نحن الاثنين ، من ضحايا هذا السلطان الذي كان المسيحيون يسمونه « بالسلطان الأحمر » .

« ولكن ذاك الذي لم أستطع تقبله قط ، كان زوجها الثاني ، خيري رؤوف بك الشديد الإغراء . إذ كيف تستطيع امرأة بهذه الرقة ، وبهذا الذكاء أن تقع في حب هذا الرجل المغرور الذي لم يكن يحب غير نفسه ؟

« ولقد تألمت من ذلك ألماً شديداً . وكانت ، مع ذلك ، قريبة مني أكثر منها في أي وقت آخر . ذلك أن السعادة كانت تجعلها طيبة القلب . وكنت أكره طيب القلب هذا ، وهذه الملاطفات التي تسمح لنفسها بها ، كعلامة على ثقتها بي ، كما كانت تظن ، وهي في الحقيقة علامة على اللا مبالاة . وهكذا فإنه عندما كان يغيب زوجها ، كانت تستبقيني إلى جانبها ، مع نسائها ، في

بهوها الصغير. واعتادت ذلك. وكانت تتمـدّد أمامي، وتحل قميصها، وتمشط شعرها الرائع، وتطلب مني أن أحكي لها أحاديث القصر وما فيه من نمائم. وكانت تضحك، وتضحك، ورأسها منقلب إلى الوراء، بكل ما تستطيع من قوة... تلك الذاهلة! تماماً كما لو أني، رغم كل شيء، لم أكن رجلاً. وكما لو أنني لم أكن أحس بأية رغبة. وكان وضعها كوضع حشمها، أيام اشتداد الحر، أي أنهن كنّ نصف عاريات، وكان وضعهن ذاك يصرخ بي، بما يكفي لفلق رأسي: «أنت مخصيّ، ولست إلا مخصيّاً!».

«وعندئذ كرهتها، ورجوت الله أن يعاقبها على سعادتها الوقحة. وقد تقبّل دعائي... بأكثر مما كنت أستطيع تخيّله. فأية فظاعة! وكنت في ذهولي، أستنزل اللعنة على تلك التي كنت أحبّها أكثر من حياتي، إذ لم يعد هنالك من أمل بالعودة إلى الوراء.

«أما في بيروت فقد كنت سعيداً، مع ذلك. إذ لقد جعل المنفى منا، أسرة واحدة، وكانت السلطانة تركن إليّ أكثر فأكثر. لأني كنت الرجل الوحيد في البيت.

«وأنا أحزر الآن ابتسامتك. ولكن، أيها البريء المسكين، هل تظن أن رجولة الرجل تقوم على إنزال بعض قطرات ذات لون كثيف؟ وأصلاً كيف تعرف أنت أني لست قادراً على ذلك؟ لقد حدث أكثر من مرة أن يد الحكيم وهي تقوم بعملها البائس، ارتجفت، بحيث أنه شعر بالشفقة.

«وعلى كل حال، فقد كنت شاباً وسيماً، ولم يكن لي من العمر إلا ثلاث عشرة سنة. وأنا أتذكر الآن ذلك الربيع، وذلك الوقف بجارة شقراء، وبأحلام ومداعبات خرقاء، غريبة، وبذلك القسم من جسدي الذي كان يبدأ الحياة، مشعاً على جسمي كله، رجفات حلوة، عذبة.

«وكنا نسكن الريف. وكان أهلي فلاحين صغاراً. وكان لديهم بعدي ستة أطفال. وعندما وصل رسل السلطان لعندنا، تلك السنة، كما في كل سنة، فإن أبي — لا سامحه الله — اختارني للرحيل معهم. وكان يحلم أن يصبح ابنه الأكبر رئيساً للوزراء، أو على الأقل، موظفاً عالي الشأن في ديوان الصدر الأعظم، آملاً أن لا تعاني أسرته أي نوع من الشقاء بعد ذلك. وطبعاً، لم يكن الوحيد الذي تصرّف بهذه الصورة! فمنذ قرون كان أجمل الأطفال وأذكاهم، من جميع أطراف المملكة، يختارون، لكي يثقفوا، في مختلف مدارس القصر، وكل حسب مواهبه.

«ترى هل فكر أن هنالك من الوظائف العظيمة التي طمع بها لي، وظيفة، كانت فيها «القوة الجنسية» هي الأعظم شأناً — ذلك أن من يتحكم في الحريم، يتحكم بقلب السيد وعقله.

ولكن بأي ثمن! ولم يكن بحيث يجهل ذلك. وما زلت أسمع صرخات أمي ترن في أذني، كما لو أنها كانت تستبق الإحساس باقتطاع شيء من لحمها.

« ولكن لماذا أقص عليك هذا كله اليوم، على حين أنك كنت تتمدّد إلى جانبي، وترجوني أن أكلمك عن حالي، وتستاء من رفضي ذلك، وتظن أن ذلك ضعف ثقة؟ ربما لأني أصبحت عجوزاً، ولأني في هذه المدينة، لا أعرف أحداً أبادله الحديث. فأميرتي كثيرة الأصحاب، وهي تخرج كل يوم. وأنا بذلك سعيد. ذلك أني عندما عدت فلقيتها بالهند، بعد سنتين من زواجها، أخافني ما كانت فيه من بؤس. أما أنا، فلأول مرة، منذ تركت استامبول، أشعر بأني معزول جداً.

« وإنني لأستطيع الآن أن أبوح لك بما في نفسي، لأني أعرف أن فراقنا أبدي، وأن ضعفي تجاهك لا يزيدك قوة عليّ... بلى، لقد خفت منك، على طريقتي أنا، وخشيت من شبابك الفياض، ومن جمالك اللذين كانا يذكراني بما كنت عليه أنا. كنت أخاف أن أتبدّد في إغراء صورتي التي عدت فوجدتها. وكان الإشفاق عليك نوعاً من الإشفاق على نفسك، ولم أكن أستطيع أن أسمح لنفسي بذلك. فكيف تظن أني شققت طريقي في مثل هذا البلاط الفظيع؟ إني فعلت ذلك بالقضاء بلا شفقة على ما آسف عليه، وأحلم به. ذلك أني في البداية انتبهت جيداً لما فعلوه بي، كموضوع للضحك والسخرية، والاحتقار، وكذلك، وهو الأسوأ، كموضوع للشفقة. وكالكثيرين منا، أردت أن أموت.

« والشفقة... كانت بالنسبة إليّ كما لو أنهم يبقرونني، أو كما لو أنهم، إذ ينظرون إليّ كمخصيّ مسكين، يعودون فيخصونني ثانية. وكثيراً ما كنت أرتاح إلى جعل الآخرين أشقياء لكي أستطيع، أنا بدوري، أن أشفق، وأرد على الشتيمة... وكنت أكره السعداء، الواثقين من أنفسهم، ومن الحياة، بكل إمكاناتها المتاحة. ولهذا كنت أكره الشباب، ولم أكن أشعر بالتعاطف، إلا مع أولئك الذين كانوا يمضون في طريقهم إلى الموت، والذين إذ يعرفون ذلك، كانوا يلاحظون أثره في جسدهم كله، ومسيرته الباردة في كل أنحائه.

« أتراني أحببتك، لأنك كنت بائساً؟ حقاً أكان في وسعي، أن أحب مراهقاً عزيز الجانب؟... وإذا كنت مخصياً منذ الطفولة، فإنك كنت ستجهل كل شيء من عالم الرغبة، وكنت أمام طلبك الملح، أبذل الجهد، لكي أفهمك ذلك. وكلما زدتك حديثاً، كان وجهك يزداد اغبراراً، ذلك أنك كنت تفهم أنك فقدت ثروة لم تكن قط قادراً على تخيّلها. وكنت تصغي إليّ بحزن ورغبة، كذلك الأعمى منذ الولادة، فإنه يغار من ذلك الذي عميَ بمحض المصادفة، أو

عرضاً، والذي يستطيع متى تجاوز يأسه، أن يعود فيتصور عالماً أجمل بما لا يقاس من العالم الذي عرفه.

« وكنت أرسم لك، بالألوان الأكثر إغراءاً، تصاعد الرغبة، وقوتها، وبسمة اللحم الذي يشعر بقرب تفتحه، والدم الذي يصعد إلى الرأس، ويجعل الخدود زهرية الألوان، ويدخل البريق إلى العينين، والسائل الخفي الذي يرطّب الشفاه، ويجعل البشرة أرق وأنعم، والأعضاء فاترة، إلى درجة الدوخان: مما يعني القناعة بأن الإنسان ليس إلا شيئاً واحداً هو والعالم في استجلاء الجمال، وأنه هو الحياة، الخالقة والمخلوقة معاً، بل والإله نفسه.. للحظة على الأقل.

« الإله؟ كنت تفكر بأني أبالغ. وربما كنت أبالغ. لكن هذا كله لم أشعر به، بل توقعته في ألعابي كمراهق. ولكن لما كنت منذ ذلك الحين، لا أزيد على أن أتخيّل، فإني كنت أخترع لنفسي المتعة العظمى، تلك التي كنت أنصهر فيها، وأختلط، مع اللا نهائي. وربما عُـذِّبت لهذا السبب، وبهذه القوة... ولو كان لي أن أتمتع، إذن لتمتعت بشكل صغير، عادي، على نحو ما يتناول الإنسان طعامه اليومي، ككل اللا واعين.

« إنهم لا يعرفون، وأنا أعرف. وأعرف المتعة من الأعماق، لأنها حُجبت عني، على نحو ما يحدث عندما نرغب في امرأة، فنعرفها أكثر من تلك التي نملكها.

« وأولئك الذين يـدّعون أن الرغبة عمياء لا يفهمون منها شيئاً: فهم يتكلمون عن الدافع العابر، لا عن الرغبة العميقة التي يمكن أن تكون تملكاً أكمل من التملك نفسه.

« وربما حسبت أنني أهذي لكي أعزي نفسي عن أنني لا أستطع الامتلاك ــ امتلاك المرأة. ولكن اعرف أنه لم تعد لي به من رغبة. ولقد ملكت! ملكت المرأة الأجمل والأنبل والأعظم فضيلة، وملكتها بالعقل والقلب.

« ولقد ملكتها أكثر من أي إنسان آخر. وكنت ألاحظ كل رعشة من ارتعاشاتها، وأهتز معها. وكانت عواطفي على مثال عواطفها، كما لو أنني جزء منها، لا كشخص مستقل... بل كما لو كنت فيها، أو كما لو كنت أسكن جسدها.

« ولقد مزقني موتها. ولكن لا تخف، فأنا لا أدع نفسي تنهار. ومنذ الآن، لديّ أميرتي، وعليّ حمايتها.

« وليتك تعرف كم أصبحت جميلة ، سلماي ... ويخطر ببالي أحياناً أني أعود فأرى السلطانة أيام تألقها ، على الرغم من أنها في الواقع مختلفة جداً . إن ما فيها من سرعة العطب ، يهزني وشيئاً غير مكتمل ، وكأنه يتردد بين الضحك والبكاء . وحتى عندما تتظاهر باستقلاليتها ، أكبر التظاهر ، فإني أشعر كم هي بحاجة إلى عجوزها زينيل . فأنا الوحيد ، منذ الآن ، الذي يصلها بماضيها . وهي تعرف أنني سأبقى وفياً لها ، حتى الموت .

« أما أنت ، يا محمودي ، فإن لي طلباً عندك : فإذا أنت تلقيت هذه الرسالة ، فأرجوك ألا تجيبني عنها ، وبصورة خاصة ، ألا ترسل صوراً . فأنا أريد أن أحتفظ داخل قلبي بغضاضة جسدك ، ونفسك كمراهق . وربما بدا لك ذلك كعلامة على أنانيتي الشيطانية ، هذا إن لم تفهم إن هذا هو البرهان ، على طريقتي أنا ، أنني ما أزال أحبك .

زينيل ــ زينيلك »

ـ٢ـ

ـــ بائعة الماهاراني[١] من فضلك !

وفي البهو الأبيض المذهّـب ، في متجر نيناريشي NINA RICCI ، حيث تتبادل النساء آخر الأقاويل ، بانتظار افتتاح معرض الثياب الربيعية ، في ذلك البهو كان على الحضور جميعاً أن يتلفتوا برؤوسهم : ذلك أن امرأة شابة دخلت لتوها ، إلى المتجر ، متبوعة برجل مسن ، يلبس قميصاً أسود ، وتبدو شاحبة في ساريها الأزرق . أهي ماهاراني ؟ إنهم كانوا ينتظرون امرأة جميلة قاتمة اللون ، كملكات جودبور Jodbpour أو كابورتالا Kapourthala . ولكن هذه الماهاراني تبدو وكأنها فرنسية ، لولا خداها المرتفعان قليلاً ، وعيناها المشدودتان إلى صدغيها بعض الشيء؛ لابد أنها روسية .

وتهمس امرأة متميّـزة جداً ، لجارتها ، فتقول لها :

ـــ ولكن لا ، يا عزيزتي ، تصـوّري أنها تركية ! ولقد قابلناها عرضاً ، في آخر عشاء لدى أسرة النوواي Noailles . أما زوجها فهو مهراجاه بادالبور وهي ـولة في شمالي الهند .

ـــ إنه كبير بعض الشيء عليها .

(١) كان الفرنسيون قد اعتادوا أن يطلقوا اسم المهرجاه والماهاراني على الأمراء والأميرات الهنود حتى ولو كانوا راجاه وراني أو مجرد نواب .

ــ لم تحزري ، إن ... أخيراً إن الشخص الذي يصحبها ليس بزوجها .

وخفضت السيدة صوتها ، على حين أن جاراتها المرتبكات ، يمددن آذانهن .

ــ إنه ... خصيّـها .

وتنهال الهمسات ، غير مقتنعة بصدق هذا القول : « أية بربرية ! » فهذا أمر يجعل الإنسان يرتجف استنكاراً . وعندئذ تنسى السيدات كل قواعد التهذيب ويحملقن بهذين الزوجين الفاضحين .

ــ ولكن تلوح عليها لوائح الرقة ! أما هو فلا يبدو أنه بائس . وعلى الغالب ، فإنه لا يلاحظ ما فيه من نقصٍ . فهؤلاء الشرقيون متعودون على هذا الأمر . ومع ذلك ، فإن التجرؤ على الظهور مع الخصيّ ، أمر لا تنقصه الوقاحة .

لكن وراء هذا النقد كان يكمن الإعجاب الممتلىء بالغيرة : إذ لا يحدث في كل يوم أن نصادف شيئاً في مثل هذه الغرابة ، حتى في باريس التي يرى الإنسان فيها ما هـبّ ودبّ ... وكانت الكثيرات يفكرن بالنجاح الذي يحصلن عليه ، لو أنه أمكن ، في إحدى الليالي ، أن نعرض هذه الماهاراني الحلوة ... متبوعة بخصيّـها طبعاً !

ولما كانت سلمى تجلس بصورة جانبية ، فإنه لا يبدو عليها أنها تلاحظ الفضول الذي أثارته ؛ والواقع أنها تتمتع متعاً كثيرة . ففي باريس ، ومنذ مدة شهر تقريباً ، تعـوّدت أن تكون الشخص الذي تتجه إليه الأنظار في كل مكان ، وعليها أن تعترف بأنها تحب ذلك حباً جماً ! وخطر ببالها أنها في بيروت من جديد . ولكن الحفلات اللبنانية ، التي كانت تبدو لها رائعة جداً ، تكاد أن تعتبر ريفية في باريس . فالرهافة والتنوع في المتع هنا ، هي بحيث لا يعرف الإنسان أين يحشر رأسه فيها . وهي تشتهي أن تتذوق كل شيء ، وأن تعرف كل شيء . وماذا يهمها أن يروق لبعض الناس أن يعجبوا بسواريها وخصيّـها ؟ إنها لم تعد تلك البنت الغضوب التي كانت تحرص أشد الحرص على أن تُحـب ، بل هي امرأة الآن ، وامرأة غنية ! وطبيعي أن تكون لديها رغبة ملحة إلى الحياة المتفتحة بعد سنتين مما يشبه السجن ، في الهند .

ومنذ وصولها إلى باريس ، استأجرت شبه شقة في بلازا آتيني وطبعت باسمها بطاقات تعـرّف بها ــ وهي مفيدة ، ولكنها غير كافية ــ وسرعان ما لاحظت ذلك ــ لمن أراد التعرف على المجتمع الباريسي .

وها هي « الساعة الزرقاء » و « النسيم » و « وردة الرمال » ... وقد بدأت معارض الأزياء. وها قد بدأ الاستعراض الأول . فعلى المنصة تظهر العارضات ، فيمشين رشيقات ، ويدرن ، وينزلقن ، ويملن على اليمين ، ثم على اليسار ، ويظهرن مفاتن الثوب ـــ أو مفاتنهن ـــ من كل ناحية .. وهنا تعود سلمى فتفكر بماري لور ، عدوتها القديمة الحميمة في مدرسة راهبات بيزانسون في بيروت . إذ بفضلها بدأت تستقبل ، في الحفلات .

ومع ذلك فإن المراهقتين كانتا تتزاوران ، في بيروت . وقد تعلمتا بعد مجابهة قاسية ، أن تحترم كل منهما الأخرى ، وعرفت كل منهما ما لدى الأخرى من زهو ، وعزة نفس ، وشجاعة قلب . غير أنه لم يكن بينهما ، فيما خلا العلاقات المدرسية ، أية علاقة . فكثيرة هي الأشياء التي كانت تفصلهما في هذا اللبنان الذي كان الفرنسيون فيه ، هم الحكام ، والسادة .

وكانت ماري لور هي التي غادرت لبنان أولاً . وبعد أن أقامت في الأرجنتين مدة ما ، عادت لتعيش في فرنسا ، وتزوجت بالكونت دوسيير ، وهو من الأسر النبيلة أيام الأمبراطورية ـــ أمبراطورية نابليون الأول ـــ ومن كبار الأغنياء . وقد جاءته الثروة من زيجات تمت بين أجداده وبين عدد من فتيات الأوساط المالية ، وأوساط الصناعات النسيجية في الشمال . ولكن هذه الماري لور لم تنس « التركية الصغيرة » ، وكانت ترسل إليها كل عام ، بطاقة تهنئة برأس السنة . ولهذا فقد كان طبيعياً ، وسلمى تصل إلى باريس لأول مرة ، ولا تعرف أحداً في العاصمة ، أن تهتف إليها .

وكانتا لم تلتقيا منذ عشر سنوات ، فلما تلاقتا ، وجدتا أنهما صديقتان قديمتان ، كما لم تكونا في أي يوم من الأيام .

وقامت ماري لور ، بكل ما لباريسية الأصل من اعتزاز بنفسها وبما حولها ، بتعريف سلمى على « بلدها » . وعلّمتها ، بشكل خاص ، ما لا بدّ منه لتنفتح لها أبواب المجتمع الراقي الصعبة . إذ لا يكفي أن يكون الإنسان مشهوراً أو غنياً . بل يجب أن نعرف في أي مساء ، وعلى أي طاولة عشاء لدى ماكسيم ، يجب أن نكون حتى لا نلقى أناساً مزعجين ، بل أصدقاء مثل الروتشيلد ، أو الويندسور « الذين هم البساطة نفسها » . ويمكن أيضاً ، بعد العرض الفني أن يذهب الإنسان مرتاح البال ، فيأكل طعاماً خفيفاً لدى فيبر ، وهو « مطعم ـــ مشرب » يقصده الرومانتيكي ، الوحيد ، شارل بوابيه . وما لم يكن الإنسان ميتاً ، فإنه لا بدّ من أن يُرى في حفلات السباق في شانتيي ، الأخيرة والأكثر أناقة في الموسم ، وأن يضع على رأسه أغرب قبعة يشتريها من عند غالوا أو سوزي روبو . أما ما يحتاج إليه الإنسان من مشتريات ، فليس هناك إلا مكانان ممكنان : شارع السلام

La rue de la Paix وساحة الفاندوم Vendôme . وبالمقابل فإنه ليس محرَّماً أن يذهب الإنسان هو ومجموعة من الأصدقاء، ليعاشر السفلة في البول بلانش Baule blanch ، حيث توجد أوركسترات سوداء، تجعلك ترقص البيغوين Beiguine . ولكن حتى هناك، وهناك خاصة، يجب على الإنسان أن يحتفظ بكرامته. ثم إن هذا كله لا يجدي شيئاً، إذا لم يعرف الإنسان، لدى استقبال ما، كيف يحسب ساعة وصوله تبعاً لأهمية المدعوين الآخرين، وكيف — وهذه بصورة خاصة — كيف يتناسى الثناء على عشاء سيدة المنزل، الذي لا يمكن إلا أن يكون المجلّي دائماً، وأن يرسل إليها، منذ اليوم التالي، ثلاث دزينات من الورد من عند لاشوم Lachaume ، كما لو أن هناك مواضعات كثيرة، غير مكتوبة، تعتبر بمثابة كلمات السر لفتح الأبواب، وتؤلف ما يسمى «بالمراسم» التي لا يجوز عدم التقيد بها، تحت طائلة أن يصنف الإنسان في عداد «سكان الأقاليم» أو في عداد «الأغنياء الجدد»، وهذا ما هو أسوأ. فإذا وضع الإنسان في هذا التصنيف، فإنه مهما يبذل من جهد، لن تقوم له قائمة.

وكثيرون هم الناس الذين قد يعطون نصف ثروتهم ليتعلموا ما تعلمته سلمى من ماري لور، في عدة أسابيع. غير أن على الإنسان أن يستحق هذا التعليم. والحقيقة أن على الإنسان إذا أراد أن يتعلّم، أن يعرف سلفاً، هذا الذي سيتعلمه. ولئن كانت ماري لور كريمة إلى هذا الحدّ مع سلمى، فذلك لأنها كانت واثقة بأن تلميذتها ستشرِّفها، بإتقان ما تعلمته منها. وذلك لأن هذه كانت تملك ما لا يمكن أن يُنقل بالتعليم، أي الصفة المحبّبة التي لا تخلو من بعض البعد، والتهذيب اللا متناهي، مع المرح، وهذا الشيء الذي لا يقلّد، والملاحظ لدى الأشخاص الكريمي الأصول. وهكذا فإنها كانت تصحب «لؤلؤتها الشرقية» إلى كل مكان، وتعرِّف أصحابها بالماهاراني، على ما كانت تدعوها، عندما كانت تقدمها. أما أنها أميرة عثمانية، فإن ذلك لم يكن موضوع بحث قط، ومن كان يتذكر يومئذ ألق الأمبراطورية العثمانية؟ — وبالمقابل فإن الهند كانت تجعل الناس يحلمون، بثرواتها الخرافية، غرابة أمرائها، أولئك الأمراء الذين لم تكن تسوِّد وجوههم، وغرابة أطوار ذلك الإنسان، نصف العاري، الذي كانت له طريقة يستحيل تقليدها، في السخرية من هؤلاء الإنكليز الذين كان الفرنسيون يكرهونهم، على الرغم من معاهدات التحالف الجديدة.

وكانت الأرواب الجديدة الرائعة الحلاوة، تتتابع في العرض. فهذا الروب اسمه «العشب الوحشي»، هذا الثاني اسمه «حلم القمر».. الخ. وكانت العارضات يظهرن وكأنهن يرقصن. وما أجملهن في هذه التنورات التويجية التي تبرز من تحتها تنورات داخلية من الدانتيل! وتسرع سلمى، فتسجّل على دفترها بعض الأزياء؛ ولكنها عما قريب ستجد الحيرة كبيرة، فيما عليها أن

تختار ... أفتشتريها جميعاً؟ إن ذلك سيكون جنوناً، ولكنها تحب أن تكون مجنونة. ففي الأشهر الأخيرة التي قضتها في الهند، ظنت أنها تغرق؛ أما الآن فإنها تريد أن تنسى، وتدع نفسها تسكر بمرح هذا الربيع الباريسي، حيث كل إنسان يتناسى الأخبار الواردة من الشرق، ولا يفكر إلا بقضاء أوقات ممتعة.

ولم تشغل بالها أخبار احتلال ألبانيا من قبل الجيش الإيطالي، ولا هرب الملك أحمد زوغو والملكة جير الدين، إلى اليونان، ولا أعارتها إلا انتباهاً خفيفاً ساخراً، فلقد كان يمكن بسهولة أن تكون هي المنفية مرة أخرى (لأنها رشِّحت طبعاً كزوجة لأحمد زوغو). أما الحرب، فإن بعض المتشائمين كانوا يعتقدون أنها آتية لا ريب فيها، وأنها ستلهب أوروبا كلها. ولكن أحداً لا يصغي إليهم. وطبعاً لو أن الرئيس دالادييه لم يملك الحكمة اللازمة للتوقيع على معاهدة تحالف مع هتلر في ميونيخ، فإنه كان يمكن أن يخاف الإنسان. ولكن كل شيء قد سُوِّي الآن، لحسن الحظ. وفي وسع الإنسان أن يرمي عن كاهله الأفكار السوداء، وأن يستمتع بازدهار المسرحيات والاستعراضات، التي تجعل من باريس، تلك العاصمة الرائعة للعالم كله.

وتظل ماري لور تصحب سلمى إلى كل مكان. ولأول مرة رأت المرأة الشابة صالة راقصة؛ فأعجبت بجوزفين باكر وموريس شوفالييه، هذين الكوكبين اللذين كانا يؤلفان جزءً من عالمها في لبنان واللذين كانت تعرف كل أغانيهما عن ظهر قلب. أما اليوم، فإنها تفضل عليهما هذه المريئة التي تلبس ثوباً أسود، ويلقبها الناس باسم «الأم الشحرورة la Môme Momeou» والتي تقسر دموع السامع بصوتها المؤثر؛ وكذلك هذا الشاب الأشقر، وهو شاعر مجنون، الذي كان آخر منحزاته الناجحة، أغنية أصبح يرددها الجميع بعنوان Ya d'la gaie (هناك فرح).

ولئن كانت سلمى تخرج في كل ليلة، فإنها بالمقابل، كانت تكرِّس بعد ظهر كل يوم لهوايتها القديمة، أي السينما. ولقد افتقدتها في لوكنوف أكبر افتقاد، وحُرمت منها، فجعلها ذلك تذهب كل يوم تقريباً، مع زينيل، إلى إحدى قاعات السينما الكبرى، مثل بيارتيز والكوليزيه. وكانت البارحة قد رأت فيلم «رصيف السحب Quai des Brumes»، ووقعت في غرام جان غوبان، عندما همس بصوته الأجش، يقول: إن لك عيوناً حلوة، أتعرفين T'as de beaux Yeux tu sais، لهذه الغلامة، الممثلة الجديدة ذات النظرة المقلقة.

ويدّعي بعض أصدقائها الباريسيين، أنها تشبه ميشيل مورغان، ظانين أنهم يسرونها. آه، لو كانوا يعرفون أي نوع من الذكريات كانت تحركه هذه الملاحظة، ولم أسفت أحياناً، على أنها لم تقبل

عقد هوليود ، الذي كانت تفضله على موقعها كملكة . ولكن هل كان لها الخيار ؟ ففي ذلك الحين كان مصيرها كملكة ، يبدو لها واجباً ، ولم يكن في وسعها أن تأباه من دون أن تسيء إلى ذكرى أجدادها الذين ضحّوا بكل شيء في سبيل القيام بواجبات السلطة . ولكن أكان ذلك واجباً ؟ وأين هي الحدود ؟ إنها لا تعرف . أوَلا يختار كل منا طريقه ، و « واجبه » ، تبعاً لحاجته الأقوى ، أو الأكثر إلحاحاً ؟ ولقد طالما اعتقدت سلمى أنه كان يجب التعالي فوق الحاجات ، ولكنها بالتدريج فهمت أنه يجب أن نعيش هذه الحاجات ، لا لأنها حيوية ، بل لأنها مميتة . ويجب أن نعيشها لنتخلص منها .

ـــ حسناً ، يا صاحبة السموّ ، ترى كيف تجدين مجموعتنا ؟

وبهذاالكلام ، بدأت الأولى ، الآنسة أرماند ، حديثها ، مقتربة من زبونتها العظيمة : فمنذ بعض الوقت ، كانت هذه تبدو لها حالمة . ولقد حان الوقت لأخذ الأشياء مأخذ الجدّ ، وأخذت ، بزلاقة لسانها ، الحلوة ، تمتدح جمال الترصيع ، ونعومة التطريز ، وبصورة خاصة ، جرأة الخط الجديد الذي يعلو بقيمة الأنوثة :

ـــ وخلافاً لبعض الخياطين ، فإن السيدة نينا ريتشي تحب النساء ، وتأبى أن تجعلهن مضحكات بدعوى التفرّد والأصالة !

ولكن سلمى لا تسمعها . بل هي تنظر إلى العروس التي تتقدم في لباس أبيض يتألف من القماش المحزّم والتولة ، في الحين الذي ينفجر فيه التصفيق . فأغراها ما ترى ، وتابعت بعينيها هذا البياض المشعّ ، وتبكي في داخل نفسها ، على فتاة تلبس الغاراراة الحمراء أو المذهّبة ، والوجه مختبىء وراء ستارة من الورد ، وهي عروس صغيرة ترتجف وسط الضحك وقعقعة الصنوج ، بانتظار ذلك المجهول الذي سيصبح سيّدها عما قريب .

وفي هذا اليوم ، بعد الظهر ، كان لسلمى موعد مع ماري لور ، لدى السيدة كادول ، أشهر صانعة مشدّات في باريس . وهناك تتزاحم الأنيقات ، ليؤخذ قياسهن ، فيجعل خصر هذه أضيق ، ويُعَلى بصدر هذه أكثر . ذلك أن السيدة كادول هي التي ابتكرت « سلة ريكامييه » أي أول مشدّ أثداء مدعّم ، يمكنه أن يجعل الثديين أكثر استدارة ، وأقوى .

ومع أن سلمى حامل في الشهر الثالث ، فإنها ليست بحاجة إلى هذه الحيل ، التي تكيّف الجسم على صورة أرق من صورته الفعلية . ذلك أنها ما تزال نحيلة الجسم ؛ ولقد صحبت صديقتها

بداعي الفضول وحده، ولأنها تريد أن تعود مرة أخرى وحدها. وما من إنسان هنا يعرف أنها تنتظر مولوداً، ومن دون أن تعرف لماذا، فإنها لم تقل ذلك لماري لور. والواقع أنها تشعر بارتياح كبير، من الوجهة الصحية، حتى إنها نسيت حملها تقريباً. وحتى غثياناتها في الأسابيع الأولى، زالت تماماً.

أما الهند وأمير، فإنهما يبدوان بعيدين جداً. ويخيّل لها أحياناً أنها كانت تحلم خلال هاتين السنتين. إنها تشعر بأن عمرها الآن عشرون عاماً، وأنها تبدأ الحياة.

وعندما أنهت الصديقتان مشترياتهما، ذهبتا تشربان الشاي في الريتز Ritz. والمكان، كالعادة، مزدحم بمن فيه. ولكن انطوان النادل الأول، يعرف كيف يجد طاولة لزبائنه المألوفين.

وكانت ماري لور تتذوق بعض الحلوى، عندما تذكرت أن تسأل سلمى عن الساري الذي ستلبسه هذا المساء. إنه سيكون أنيقاً جداً، على ما تقول. والـ: Lady Fellows مضيفة مرهفة الذوق. وهي تملك منزلاً كبيراً خاصاً، وفيه أوركسترا، فإذا انقضى العشاء، ففي وسعهما أن ترقصا.

وتقول سلمى:

ـــ إني أحب أن أدشن «الروب» الذي اشتريته من عند Lanvin ذلك أن له ثنيات «درابيه Drapé» غير عادية.

وتقاطعها ماري لور، وكأنها أُغضبت غضباً شديداً، وتقول لها:

ـــ أروب يا عزيزتي؟ إنك مجنونة. البسي من عند لانفان في لوكنوف، إذا كان يشتهيه قلبك، أما هنا فإن عليك أن تلبسي كماهاراني. وإلا فإن كل الناس سيشعرون بخيبة الأمل. فماذا؟ إنها ماهاراني في ثوب مسائي؟ وأنا كيف تكون عيني من عيونهم؟ إن الليدي فيللو تظن أنني أمزح معها مزحة سيئة.

وبدت سلمى، كأنما خاب أملها أيضاً، وقالت:

ـــ كنت أظن أني، في باريس على الأقل، أستطيع أن ألبس ككل الناس...

ـــ ولكن ألا تفهمين أن كل هؤلاء السيدات يحسدنك، فقط. لأنك مختلفة عنهن؟ عفوك يا سلمى. إنك في باريس منذ شهر، ومع ذلك فإن الناس لا يتحدثون إلا عنك؛ أفتظنين أن أوروبية ما، حتى ولو كانت جميلة جداً، تستطيع الوصول بسهولة إلى مثل هذه الشهرة؟ إن المجتمع

الباريسي قاس جداً ، ولكي يحتل فيه الإنسان مكاناً ما ، يجب أن يكون قد وُلد فيه ، أو أن يُسَلّي ، أو أن يجعل الناس يحلمون !

وعندما نهضت ماري لور طبعت على جبين سلمى قبلة .

ــ إن علي أن أهرع إلى الحلاق . فإلى المساء . ولا تنس خصيّك . ولن يصحبك إلا إلى مدخل القاعة ، ولكن يجب أن يراه الناس .

ولم تجب سلمى ، بل عادت فتكوَّرت في مقعدها . « مسكين أنت يا زينيل ! » ومن حسن الحظ أنه لا يفهم الفرنسية كما ينبغي ، ليعرف أي دور يطلب منه أن يلعبه ... فهؤلاء الباريسيون هم فعلاً غير معقولين ! إذ لم يخطر ببالها قط أنهم سيبتهجون إلى هذا الحد بخصيّها . وهي من ذلك بين طرفين هما الغضب والخجل ، ولكن ماذا تفعل ؟

إن زينيل ، حتى وهو في الستين من عمره ، ما يزال يحتفظ بهيبة واضحة ، وعندما قدّمته في البداية ، على أنه أمين سرها ، فإنها اصطدمت بابتسامات ساخرة ، وتقوَّل الناس الأقاويل . إلا أن ماري لور ، حباً بإنقاذ محميتها ، أسرعت وحكت الحقيقة .

ماري لور ... إن سلمى بدأت تتعب من هذه المساعدة المتسلطة ، فهي لم تترك الهند وجو القصر الخانق ، لكي تخضع لمواضعات باريس ، ونزواتها . وليكن ما يكون ، فإنها هذا المساء لن ترضي صديقتها ولا الليدي فيللو Fellows . وفي هذا المساء لن تصحب معها زينيل .

« أي نذل ! » .

وثنت سلمى رأسها ، عن ذلك الرجل الذي كان يحملق فيها ، وهو جالس أمامها . واتجهت إلى الجار الأخير الذي على اليمين ، الماركيز الشاب ، ماركيز دو بيلارد ، وتصنّعت أنها تتحرّق شوقاً إلى قصة آخر سباق في لونغشان ، الذي كاد أن يفوز فيه حصانه الأصيل راكام بالمرتبة الأولى . أما على يسارها ، فإن الأمير فوسيني ــ لوسينج Faucigny-Lucinge ، وهو فارس كبير ، من نظام مالطا ، يروي حكاية المعارك التي خاضها أجداده ضد الكفرة . وما من لحظة خطر بباله أن الماهاراني الجالسة بجانبه ، أميرة من أميرات هذه الأمبراطورية العثمانية التي حاربها أصحابه ، حرباً لا هوادة فيها . ولو علم ذاك ، إذن لما برىء طول حياته من هذه الغلطة . ذلك أنه جنتلمان من الطراز الأول .

وبالمقابل فإن هذا الرجل الذي يحملق فيها منذ بداية العشاء ، ولا يريد أن يذهل عنها لحظة ،

حتى بدون أن يوجّـه إليها الكلام، ليس بجنتلمان قطعاً. وهي تتمنى لو أنها كانت تؤمن بخجله، ولكن لا يبدو عليه أنه لَمن النوع الذي يذهب بعقله، جمال امرأة فتانة. ثم إنه ليبرز بين هؤلاء الحضور المتميزين، وكأن المكان ليس مكانه. إنه رجل مربّـع القامة، والفك فيه فك رجل قوي الإرادة. ومن الواضح أنه يصلح للأحاديث المرهفة التي تتم أثناء العشاءات الباريسية، أقل بكثير مما يصلح للجولات البحرية، أو للغارات في صيد الخنازير.

إنه أمريكي. وهذا ما فهمته سلمى عندما تم تقديم الناس بعضهم لبعض. فأخذت تمـلّس أنفها، متعالية عليه. ترى هل هو كوبوي؟ بلى! إنه من نوع الناس الذين ليس لديها ما تقوله لهم. والشيء الوحيد الذي يقف ضد هذه الفرضية، المريحة، هو هذه الأيدي الطويلة، الناعمة، التي تميّـز الأرستقراطي، وكذلك هاتان العينان الحادتان، الوقحتان، لرجل اعتاد السيطرة. أما النساء الأخريات الموجودات على الطاولة، فيبدو أنهن يرتحن إليه؛ وما من مرة رأت سلمى هذه المرأة الطويلة المشـوّهة التي اسمها الكونتيس دونيفيل de Neuveille تهتم برجل بهذه الصورة، أو هذه الحمقاء إميلي فياني Vianney التي تضحك من كل قلبها لأقل حديث يصدر عنه، وتصرخ صرخات نورس يثيره هواء البحر.

وسرعان ما أرهق سلمى هذا العشاء. فهي تجد نفسها وحيدة، غريبة عن هذه الطرائف. وتودّ لو عادت إلى بيتها... وتتخيّـل نفسها في بادالبور، في ضوء الصباح الأول، جالسة مع الفلاحات حول كأس من الشاي، وهن يتكلمن، ولا ينتهين من الكلام، وكم من أشياء يجب أن تقال، وكم من مشكلات مزعجة، وآمال حلوة، ودفء يتبادلنه... ففي بادالبور، لم تكن تضجر أبداً... «ولكن ماذا أتخيّـل أيضاً؟» فأمرّت سلمى يدها على جبينها. بادالبور... لقد أوشكت أن تموت منها.

ـــ مليون، هذا شيء رسمي. ساقاها مؤمّـنة مقابل مليون واحد.

ـــ وصدرها.

ـــ عشرة فرنكات...

وتضحك السيدات ضحكاً خبيثاً. ذلك أن ميستانجيت Mistinguette ـــ إذ أن الحديث يدور حولها ـــ تفوز حالياً بنجاح باهر في الطاحونة الحمراء؛ وما من شخص هنا له مأخذ على هذه

النجمة. ولكن المهم هو أن تَضحَك. ولكي تقول نكتة حلوة، لا بأس أبداً من خيانة أفضل أصدقائنا.

وتبقى سلمى صامتة، لأنها لا تحسن التلاؤم مع حرية اللغة التي تميّز هذه الليالي الباريسية، وتندهش بصورة خاصة من السهولة التي تتقبل بها هؤلاء النسوة الراقيات، أن تعرّى مثيلاتُهن، ويُقيّمن لدى هؤلاء الحاضرين.

وعندما تقرّب أنفها من صحنها، تحسّ من جديد هذه النظرة الرمادية، التي تقف عندها. ثم إن الأوركسترا بلباسها الاحتفالي تأتي أخيراً لتحتل محلّها على المنصة المرتجلة، داخل الصالون المستدير الكبير. وكانت الليدي فيللو قد أعلنت عن سهرة حميمة: وحقاً فإنه ليس هناك إلا مئة مدعوّ، يعرف بعضهم بعضاً، كما يقال، منذ المهد. وإذن فيستمتع الناس فيما بينهم، دون احتشام كبير.

ويسبغ الموسيقيون على الحفلة اللون السائد، بعزفهم «الشامبيرلان»[٢] التي أطلق عليها هذا الاسم، اشتقاقاً من اسم نيفيل شامبرلان، الوزير البريطاني الأول. وهذه الأوركسترا هي التي يشرف عليها ري فانتورا RAY VENTURA الذي أنشأها منذ فترة قليلة. فيرقص الناس مصحوبين بمظلة، هي مظلة (شامبرلان) التي يعلقونها على يد من يريدون انتزاع مراقصته منه. ولكن الطرافة التي تنال إعجاب كل الناس، هي «اللامبثووك Lambethwalk» التي جاءت مباشرة من وراء الأطلنطي. ففي ربيع ١٩٣٩، كانوا يرقصونها على الطريقة الألمانية، ويتهزهزون ويترجرجون عندما يهتفون: آين فولك، آين ريخ، آين فوهرر، آين فيغ «Ein Volk, Ein Reich, Ein Fuhrer, Ein Weg» أي شعب واحد، بلد واحد، رئيس واحد، خطوة واحدة!.

ولقد ضحكت سلمى وزميلها في الرقص ضحكاً كثيراً. ولما كانا قد تعبا بعض الشيء، فقد استرخيا على الفوتويات الموضوعة حول طاولات صغيرة، مزيّنة بزهر السحلبية. وكأنما يشعران بالخفة، بصورة لذيذة، فالحياة الآن جميلة، وباريس بلد باركتها الآلهة.

— أيمكن أن تمتعني السيدة بمراقصتها؟

— تمتعني؟ ولم تكن سلمى بحاجة إلى رفع عينيها لتحزر من هو هذا الذي يكلمها بمثل هذه

---

(٢) هذا الوزير الأول هو الذي وقّع مع هتلر معاهدة استسلام تبعتها الحرب.

الخفة. وكانت تريد أن تأبى عليه ذلك، غير أنها لا تفعل، احتراماً لجلسائها، وخشية أن ينشأ عن ذلك بعض الجلبة. ثم إن هذا الرجل يحيّرها. وهي تشتهي أن تعرف ماذا يختبىء وراء هذه النظرة.

وكان الرجل أطول مما كانت تتخيّل. وهي تشعر أنها نحيلة بين ذراعيه. وهذا الانطباع يقلقها، ويجعلها تتصلّب. وليته على الأقل لا يضمّها بكل هذه القوة... فليس من التهذيب في شيء أن يضمّها بهذه الصورة، حتى لكأنه يريد ابتلاعها. وتحاول عبثاً أن تبعد هذا الجسد الذي يلتصق بها، وهذا الجذع القوي الذي بدأت تدرك أطرافه من خلال ساريها الموسلين. أما هو، فيحتفظ بصمته، ويستمر في الرقص. فتشعر سلمى بشيء من الحرارة في جسدها، وفي الوقت نفسه تحزر النظرات المصوّبة إليها. «إن هذا غير معقول! إذ يبدو أن في استطاعته أن يضاجعني علنياً!».

وبحركة جافة، خلّصت سلمى وجهها المضغوط على طرف كتفه: فلتتكلم، ولتقل أي شيء لا على التعيين، لإرغامه على النظر إليها، والتخفيف من ضغط ضمّته. فسألته:

ـــ هل أنت في فرنسا لمدة طويلة؟

وحملقت عيناه الساخرتان الرماديتان في وجهها.

ـــ لماذا تسألين أيتها السيدة النبيلة هذا السؤال؟ وهل تفضلين أن أبقى؟

وغضبت سلمى، وحاولت أن تدفعه عنها، ولكنه من جديد شدّد عليها قبضته. وشعرت بأنها تختنق، ولكن من الغضب هذه المرة، وبكل قوتها وضعت كعب حذائها على رجله.

فتركها بصورة مفاجئة جداً، أوشكت معها أن تسقط على الأرض، وها هما الآن يتواجهان. فتنظر إليه بخوف: ترى ماذا سيفعل؟ واكتفى الرجل بالابتسام، ساخراً.

ـــ أي مزاج!

ثم أراد أن يلقي عليها سؤالاً، في حيرة الباحث في مشكلة يريد أن يحلّها بأي ثمن:

ـــ اسمحي، أيتها السيدة، لمجرّد رجل فان أن يطرح عليك السؤال الذي ما زال في ذهنه

منذ عدة ساعات. فلقد لاحظتك طيلة العشاء، وأنت تتدلعين على هؤلاء التوافه الذين يحيطون بك. فقولي لي هل يسلّيك حقاً أن تلعبي دور «الأميرة»؟

وكانت سلمى في سبيلها إلى الردّ «ولكني أنا..» غير أنها توقفت في الوقت المناسب، خشية من هذا التعبير الساخر الذي لا يحاول الرجل أن يخفيه. فاحمرّ وجهها. وحاولت أن تجد الجملة التي توقفه عند حدّه.

ـ أيها السيد، إنك... إنك.

فلا تجد الكلمة المناسبة. إنها مضحكة، هي حقاً مضحكة! وتركته هناك، بكل التعالي التي هي قادرة عليه. ولكنها تشعر، من وراء ظهرها، بهذا الضحك الصامت الذي يتبعها.

وسترقص خلال السهرة كلها، وتحاول أن تكون الأكثر إغراءً، من دون أن تنقطع عن مراقبة هذا الرجل الغريب بطرف عينها. ويبدو كأنه لا يعيرها انتباهاً، ولكنها مقتنعة أنه يلاحظها. وإذن فسيأتي ليطلبها للرقص معه. وعندئذ ستعرف، بدورها، كيف تُذِلّه.

ولكنه لم يعد إليها. فقد مضى مع واحدة سمراء رائعة، حتى بدون أن ينظر إليها.

وفي اليوم التالي سألت سلمى ماري لور، متظاهرة باللامبالاة.

ـ من كان هذا الكوبوي؟

وكانتا منذ ساعة متكورتين، كل منهما على كنبة، تتسليان باستعراض أصغر تفاصيل الأمسية الأخيرة، منتقدتين فستان هذه، وهيئة التعاظم التي بدت على ذاك؛ ولا سيّما وأنه ليس من إنسان كصديقتها، لمتابعة وملاحظة التفاهات في كل مكان. ذلك أن عينيها الحادة تلاحظ الثغرات الأكثر تنكراً.

وعلى ذلك فإن سلمى، على الرغم من أنها تتحرّق شوقاً، حذرت من أن تركّز الحديث على الأمريكي.

ـ تسألين عن الكوبوي؟ آه، إنه الدكتور كرمان، ذاك الذي كان يضمّك بين ذراعيه بكل قوة. وكانت تبدو عليك سيماء الغضب. وكان ذلك مضحكاً جداً، على أن ذلك لم يكن مزعجاً، فهو أقرب إلى أن يكون رجلاً وسيماً.

وتتنفس سلمى الصعداء وتقول : إن الدبابة الرهيفة لم تحزر شيئاً .

ـــ كان كرمان واحداً من أعظم جراحي نيويورك . وهو في باريس ، لحضور مؤتمر دولي . ولكن مضى عليه ما يقرب من سنتين ، زهد خلالهما بالشهرة لكي يهتم بالهنود في نواح ضائعة من المكسيك . ويبدو أن زوجته غاضبة وهي ، هي نفسها ابنة أحد كبار الأطباء ، ولقد تزوجته خلافاً لرأي أسرتها ، لأنه من وسط متواضع جداً : ويبدو أنهم لا يعرفون له أباً ، وأن أمه كانت خادمة في مطعم في مدينة صغيرة من وسط الغرب !

ودهشت سلمى ، وقالت :

ـــ ولكن كيف دعته الليدي فيللو الدقيقة جداً فيما يتصل بقضية الأنساب العائلية ؟

ـــ لقد لقيته في نيويورك ؛ وهناك يعتبر الدكتور كرمان شخصية عظيمة . ولا بد أنها فكّرت أنه سيكون مثل البهارات لتلك الأمسية ؛ ولم تخطىء : فكل هؤلاء النسوة كن يدرن حوله ، كالذباب . ذلك أن العالم يتغيَّر يا عزيزتي . ومع كل ما يحدث ، فإن الضرورة تقضي بالبحث عن المتعة والتسلية . وربما لم يبق لنا هذا ، لمدة طويلة ؛ فمن الناس من يؤكد أننا مع كل هذه النقابات التي تصخب ، ماضون باتجاه ثورة ، وآخرون يتوقعون قيام الحرب . لا ريب أن في هذا مبالغة ، ولكن هذا يزيد الحمّى . فكل إنسان يريد الاستفادة من كل لحظة ، حتى ولو جرحوا بعض المستبقات ! وأجد أنا أن هذا أمر سليم جداً ، إذ يجب أن نحسن العيش حتى ولو كنا على عتبة الكارثة .

ولطالما أغريت سلمى بهذا الخليط من الحماسة ، والتهكم لدى رفيقتها ماري لور . ولو أننا في زمان آخر ، إذن لكانت المرأة الشابة ، بدلاً من سيدة الصالونات ، إحدى المغامِرات الكبيرات .

وتمطّت ماري لور على الديوان ، ورفعت كأس عصير البرتقال . وقالت :

ـــ أقترح أن نشرب على شرف الحرب لأنها هي وحدها القادرة على إنقاذنا من الضجر .

وشربتا النخب ، وهما تضحكان .

٣

أعطى زينيل خمسةَ فرنكات للخادم الدي جاء يقـدِّم له على صينية من الفضة، رسالة عليها شارات حكومة بادالبور. وأخيراً جاءت رسالة الراجاه. فمنذ ثلاثة أسابيع، لم يصلهما أي خبر عنه، فبدأ يشعر بالقلق. وكان سمـوّه قد وعد بأن يأتي في أول حزيران / يونيو /؛ ولا ريب أنه في رسالته هذه يحـدِّد موعد وصوله. وزينيل ينتظر بفارغ الصبر: فهو، على الأقل، يعرف كيف يعيد سلمى إلى جادة العقل. ذلك أنها لا تنقطع عن الخروج، على حين أن عليها، وهي في حالتها هذه، أن تستريح. وكان في بداية الإقامة في باريس لا يقول شيئاً، لأنه سعيد برؤيتها من جديد تضحك. ولكنها لا تعرف حداً، وترقص طول الليل، ولا تعود إلا عند الفجر... وعندما يدفعه القلق إلى تنبيهها وتحذيرها، تسخر منه بلطف:

ـــ يا عزيزي زينيل الطيب، إنك لا تفهم من هذه الأمور شيئاً! فالشيء الذي يهم بالنسبة للجنين، هو أن أكون سعيدة.

وإمعاناً في إقناعه، تعطيه قبلة صغيرة. وعندئذ ينسى الحجج التي طالما كـرَّرها ساعات وساعات، وهو ينتظرها؛ ولا يغضب ولا ينزعج، إلا إذا وجد نفسه وحيداً، ورأى أنها مرةً أخرى نجحت في جعله يدور كالخاتم في إصبعها! ومهما يمعن في تذكّـر ما كانت عليه في الماضي، يرى أنها دائماً كانت كذلك: وحتى عندما كانت بنتاً صغيرة، في استامبول، كانت تصل إلى أن تحصل منه على كل ما تريد.

وصرخت «ادخل»، ولكن زينيل ظل واقفاً على عتبة الغرفة، مذهولاً: ذلك أنها كانت تقف أمام النافذة المفتوحة تماماً، وعليها بنطال واسع، وقميص مخطط، وتحرِّك يديها ورجليها.

ـــ أغلق الباب يا زينيل. إنك ترى جيداً أنني أقوم برياضتي اليومية!

وتمتم:

ـــ ومرة أخرى جاءتنا موضة من أمريكا! ولكن لا السلطانة أمك، ولا أخواتها قمن بمثل هذه الحماقات، والله يشهد أنهن كن جميلات! أوَ حقاً تحرصين على أن تشبهي الرجل؟

وتضحك، وتأخذ منه الرسالة باليد، على حين أنه يبقى واقفاً في وسط الغرفة، آملاً أن تطلب منه أن يبقى. ولكنها تنظر إليه وهي ترفع حاجبيها، تماماً كما كانت تفعل السلطانة، فينسحب، رغماً عنه.

ومزقت سلمى الغلاف. وخلال فترة وقفت تتأمل الكتابة العالية التي تريد أن تمضي بلا تردد.

٢/٥/١٩٣٩

عزيزتي الغالية:

خلافاً لما كنت آمل، لديَّ الآن خبر سيء أعلمك به. فأنا لا أستطيع أن ألحق بك في الشهر القادم، على ما كنا قد اتفقنا عليه. ولا بدَّ أنك قرأت في الصحف أن الهند تعيش حياة محمومة، ذلك أن الإنكليز قرروا التجنيد العام، من دون أن يعودوا في ذلك إلى الحكومة المحلية. وفي كل مكان يدور النقاش بعنف حول ما إذا كان على الهند، لدى وقوع الحرب، أن تدعم إنكلترا، أو على العكس، أن تستفيد من الموقف، لانتزاع استقلالها الذي تطالب به، بلا نجاح، منذ سنين. وحزب المؤتمر منقسم على نفسه. أما الرابطة الإسلامية فتقدّر أنه يجب أن ندعم الديمقراطيات ضد الخطر النازي. أما نحن الأمراء، فإن نائب الملك اللورد ليلنغتوي **Lilingtow** طلب منا شخصياً أن نجنّد عدداً من الرجال، وجعلهم مستعدين للسفر إلى الجبهة، في أية لحظة. وهذه مسألة حرجة، لم أتخذ فيها قراري بعد؛ ولكن في دولة بادالبور الآن ما يقرب من ثلاثة آلاف متطوع! وإنه لمن المدهش كم أن فلاحينا مستعجلون على الذهاب لاستقبال القتل، ما لم يكن ذلك ناشئاً عن هيبة اللباس العسكري، أو عن إغراء الأجور التي تبدو لصعاليكنا المساكين وكأنها ثروة كبيرة.

« ولكن لنتحدّث عنك ، ياعزيزتي . إني قلق . إذ يقال إن الهر هتلر يريد تصحيح الحدود التي فرضتها معاهدة فرساي . وفي هذه الحالة ستكون فرنسا في الخط الأول . فأنصحك بالذهاب إلى سويسرا . فلوزان مدينة رائعة ، وستكونين فيها هادئة .

« وفي رسالتك الأخيرة ، تطلبين مني أن أرسل إليك بعض المال ؛ وأعترف بأني لاأفهم كيف استطعت ، خلال شهر واحد ، أن تصرفي مايكفيني للإنفاق على قصر لوكنوف وسكانه المئتين ، مدة ستة أشهر . سأقوم بما ينبغي ، ولكني أرجوك أن تكوني عاقلة : فأنا لست نظام حيدر آباد الذي يستطيع ، كما يقول صديقي آغا خان ، أن يملأ بحيرة سباحته بالأحجار الكريمة ... ولو أن أجدادي ، تحالفوا ، كأجداده ، مع الإنكليز ، إذن لما فقدنا ثلاثة أرباع أملاك الدولة ، ولكان في وسعك اليوم أن تشتري كل بيوت الخياطة في باريس . ولكني فخور بأنهم حاربوهم ، وأحسب أن عليك أن تفخري بهذا مثلي .

وتقطع سلمى القراءة ، لتقول : « لا بدَّ من دروس في الأخلاق ! يارب كم يكون رجال الواجب متعبين ! » . والحقيقة ، أنها تعرف أنها لاتصدِّق أية كلمة مما تقول ، فمفاهيم الشرف والشجاعة ، أثمن من أن لاتفهم اعتزاز زوجها بماضي أسرته . بل إن هذه واحدة من المزايا التي تفضلها لديه . وبالمقابل ، فإنه ليس موضوع بحث أن تذهب إلى سويسرا ، لتقبر نفسها فيها !

وعلى كل حال ، فإنه ليس هناك أي خطر . ذلك أن المختصين يؤكدون أن ألمانيا ، التي أضعفتها الأزمة الاقتصادية ، غير قادرة على مجابهة الجيش الفرنسي ، وأنها إذا حدث عرضاً ، أن تجرأت على ذلك ، فإن قضيتها ستسوّى خلال أقل من أربع وعشرين ساعة .

« وتحدثينني قليلاً عما تفعلين ، ماعدا حفلات السينما ، وجولاتك مع صديقتك ماري لور . ولكني أوصيك ألا تتعبي نفسك : إذ يقول الأطباء ، إن امرأة في مثل وضعك يجب أن تبقى متمدّدة على سريرها نصف النهار . وتوصيك البيجوم نعمة بألا تأكلي البطيخ ، إذ أن ذلك سيؤثر تأثيراً سيئاً في رئتي الطفل ،

« ولا بدّ أنك تشعرين بعزلتك ، الكبيرة ، ياعزيزتي ... وأرجو أن لاتكوني ضجرة جداً . والقصر فارغ من دونك . وأهله يأسفون على فراقك . وأقبل يديك .

أميرك »

ووضعت سلمى الرسالة إلى جانبها : « مسكين أمير ، هذا الذي لا يجرؤ حتى على أن يقول

لي ، بكل بساطة ، أو حتى أن يعترف ، بأنه يفتقدني ، وإنه لقلق علـيّ ! ولكنه سيكون أكثر قلقاً لو عرف كم أستمتع ... ولكني على كل حال ، لا أفعل شيئاً منكراً . وكل هؤلاء الناس الذين يتقربون إلي ، أعرف كيف أُبعدهم عني ، وأصلاً فإني لست هنا ممن يستحقون الثناء ، لأنهم ... ترى كيف كان يسميهم الأمريكي ؟ ها لقد فطنت ، إنهم توافه ! » .

ولم تر هذا الرجل ثانية ، هذا الكوبوي ، منذ ليلة البال لدى الليدي فيللو . لا بـدَّ أنه عاد إلى بلده . حسناً . فلقد تصـرّف تصرفاً سيئاً جداً تلك الليلة ، مما جعلها لا ترغب مطلقاً في أن تجده أمامها . .

وأسدل الستار مرة ثانية على مسرح المادلين ، في الحين الذي كانت فيه الأيدي تطيل التصفيق . ففي هذا المساء باريس كلها هنا : وهم يقـدّمون لساشا غيتري ، مسرحية جديدة باسم : « زوج من الصفعات » .

وعادت ثريات الكريستال فاشتعلت لتضيء على الحضور ، في الحفلات الكبرى الأولى . وها هم في المقاعد الأولى من الصالة مجموعة من الرجال يركّـزون مرة أخيرة مناظيرهم باتجاه اللوجات التي ترى فيها أجمل نساء باريس .

ويهمس أحدهم لجاره في المقعد ، وهو شاب مرح .

ــ إن ساشا ضرب بالفعل ضربة معلم !

ــ الحقيقة ، أن المسرحية مسـلية .

ــ من يكلمك عن المسرحية ؟ انظر ! لقد استطاع أن يجمع كل زوجاته القديمات : إيفون برنتان ، المصحوبة بزوجها الجديد بيير فريني ، والجميلة جاكلين دولوباك التي طلقها حديثاً ، ليتزوج جنفييف دوسيريفيل . واحزر كيف أخبرها أنه تاركها ؟ كان ذلك خلال الفصل الثالث من مسرحية كانا يلعبانها معاً : فقد صـرّح لها عندئذ بقوله : « أيتها السيدة ، سأقـدِّم لك هدية لا تقدر بثمن : إني أرد لك ... حريتك ! » .

ــ إنه رائع ، وأعتقد أن النساء يعبدنه .

ـــ إنهن مجنونات به . وبالمقابل ، فإنه يغضب الرجال كثيراً ؛ فقد ادّعى لي أحد الأصدقاء أنه عندما يخرج ليتنفس الهواء الطلق في شرفة بيته ، فإنه يكفي أن يَـمُـرَّ كلبٌ ، ليتخذ وضعاً رسمياً .

وكانت السيدات ، في الألواج ، قد بدأن بالنهوض . وكانت تلاحظ البيجوم ، ملكة الجمال السابقة ، لفرنسا ، وهي اليوم زوجة محترمة للآغا خان ، الرئيس الديني للطائفة الإسماعيلية ، ومارسيل مارغو نوبلمير ، الزوجة الساحرة لمدير دائرة « العربات ـــ الأسـرّة » . وكذلك الماهاراني الصغيرة ذات العينين الخضراوين ، ولكن لأي راجا ؟ إن هذا غير مهم . وهي حلوة جداً في ساريها الدانتيل الأسود المطـرّز بالذهب ، الذي يبرر لون بشرتها الشبيه بلون الزنبق .

وقال الرجل لرفيقه الشاب :

ـــ يقال إنها لا تقارب ، وإنها نموذج الفضيلة ! ويبدو أنها تحمـرّ عندما يمزح بعضهم مزحات ثقيلة . وهذا رائع ، أليس كذلك ؟ لقد حجزت مكاناً في مطعم ماكسيم ، لأني أعرف أنها تتعشى فيه هذا المساء ، مع الأمير والأميرة دو بروغلي . فهم أصدقاء قدماء ، وطاولاتنا متجاورة ، على ما أكـدّه لي ، البير ، النادل الأول . ورغبتي عظيمة في التعرف إليها ؛ فهل ترافقني ؟

وبدأ محادثه يُـمـلِّـس جفونه ، حالماً .

ـــ إني أعرفها ، وأخشى ألا تقـدِّرني تقديراً حسناً . .

ـــ وهذا أفضل ، لأنك ستبرزني أكثر .

ويأخذ صديقه من كتفه ، ويخرجان وهما يضحكان .

ويَـصـعـبُ على سلمى أن تتذكر أحداث هذه الليلة وهي تعرف فقط أنها رأته يصل ، وأن تياراً من الحياة بدأ فجأة يجري في القاعة عندما مرَّ . فشعرت أنها فرحة ، وقالت في نفسها :

« سأعرف الآن كيف أنتقم منه » ولم تستطع أن تمنع نفسها من نظرة خبيثة إليه . ترى هل ظن أنها تشـجّـعه ؟ فجاء إليها . . . .

ـــ ثم . . . فلم تفهم من ذلك شيئاً ، ومن غير إرادة منها ، رأت أنها بين ذراعيه ، ورقصا مدة طويلة . ولكنه لم يعد يضمها بقوة كما لو أنها له ، بل بنعومة ، وكما لو أنه يخشى تحطيمها . وكانت عيناه تبتسمان لها بعذوبة لا متناهية . وكانت تشعر أنهم يرونها ، وأن الناس حولها يتهامسون . ولكن الأمر بالنسبة إليها سواء . فهي لم تكن تملك منه شيئاً . وكان في وسعه أن يقبلها في وسط الحلبة ، وأنها على

الأرجح، لا تحاول أن تفلت منه. فقد فارقتها الإرادة والمبادىء، وكان الشيء المهم بالنسبة إليها، هو تلك الحرارة الماثلة في نظراته، وذراعاه اللتان كانت تحس أنها تنصهر فيهما.

وفجأة بدا أن الوقت متأخر جداً؛ وكان قد اقترح أن يصحبها إلى منزلها، وعلى الرغم من الوجه العابس الذي قابلته به الأميرة دو بروغلي، التي كانت هي مدعوة إلى مائدتها، فإن سلمى قبلت، قاضية بذلك، وبحركة واحدة، على سمعة «الجديّة» التي اكتسبتها، خلال أسابيع من السلوك الذي لا غبار عليه. فهل سيتحدّث الناس عن هذا؟ ليكن! كانت تندهش وتعجب من أنها تشعر باستقلالها عن القيل والقال.

ومن الطريق الملكية، إلى شارع مونتيني، كانت باريس صورة للتألق. وكانت ساحة الكونكورد خالية، وكان هو يقود السيارة ببطء، ويتناغم مع ضجة الماء الذي يعود فيسقط كرذاذ ناعم، على طرف البحيرات. وكانا قد صعدا في الشانزيليزيه، كما لو أنه في كنيسة. ولم يكن يقول شيئاً، وكانت جالسة بجانبه تنظر إلى جانبيته الحادة التي يتقاسمها الظل والنور، وكانت تتخيّل أنهما مسافران سفرة طويلة جداً. وأمام البلازا آثيني، أوقف سيارته، والتفت إليها. ومرة أخرى شعرت أن الاضطراب داخلها من تأثير القوة والرقة اللتين تصدران عنه. وفي هذه اللحظة، لم تكن لتأبى عليه شيئاً. ولم تفدها كل الألعاب التي كانت تعرفها جيداً، أية فائدة، في هذا المضمار، وكذلك لم تكن لتطلب أن تساعَد على الموقف الدي هي فيه، مقابل أي شيء تعطاه. فأخذ وجهها بين راحتيه، ونظر إليها مدققاً فيها، كما لو أنه أراد أن يتملك كل رجفة من رجفاتها، ثم طبع على جبينها قبلة خفيفة.

وتمتم:

— إلى الغد.

ومضى، بعد أن تركها مترجحة، والعينان نصف مغلقتين على حلم، كانت تخشى أن تتركه يهرب منها.

و H... (أي هارفي) ذراعان يحيطان بالسماء، وساقان قائمتان بقوة على الأرض، وتوازن مطمئن، لا استدارة فيه، بل تناظر كامل، وخطوط واضحة معتدلة، قوية في رفضها للخداع، وبساطتها الهادئة، وشدتها القاسية بعض الشيء... إنه H بدلاً من هارفي.

وتمسك سلمى بين أصابعها تلك البطاقة التي حملتها إليها خادمة الفندق مع طاقة من

الأزهار الوحشية. وتقرأ عليها اسم «هارفي كرمان». هارفي... وبصمت تكـرِّر هذا الاسم الذي لم تسمعه قط من قبل، والذي يبدو لها، مع ذلك، أليفاً، كإلفة هذه الأزهار المجهولة من قبلها، والتي تحمي تويجاتها القرمزية الميالة إلى الزرقة، مدقاتٍ طويلة ميالة إلى اللون البنفسجي. ويرن جرس الهاتف. فتندفع سلمى إليه.

وتسمع:

ـــ هل أزعجك؟

ـــ أبداً، كنت أنهض.

ـــ وإذن.

ويهتز الصوت من فرط الهيجان.

ـــ عفواً؟

ـــ أرجوك، لا تتصنّعي البراءة. ترى هل كوبويك الجميل خارق للعادة بالقدر الذي يبدو فيه؟

ـــ ولكن... إنك تتصورين ما لا حقيقة فيه. فلقد تركنا بعضنا أمام الفندق، في أسلم حال؟

وسمعت ضحكاً منزعجاً في الطرف الآخر من الخط: فمن المؤكد أن ماري لور لا تصـدِّق من ذلك شيئاً، ولا تعترف لسلمى بالحق في إخفاء شيء ما عنها؛ وبعد كل حساب، يجب الاعتراف بأنها إذا لقيت هذا الأمريكي، كما لقيت الكثيرين آخرين، منذ وصولها، فذلك بفضلها.

ـــ إذا كنت تريدين الاحتفاظ بالسر، فاحفظيه على راحتك (وتقول هذا بلهجة المزعوجة). ولكن افعلي ما تفعلين بشيء من الكتمان؟ إذ لقد سلكت البارحة سلوك المتطرّف في الإعلان عن نياته. ولقد تلقيت حتى الآن أربعة اتصالات هاتفية حولك.

ـــ أوليس للناس ما يفعلونه غير هذا؟

ـــ يمكن أن يفعل الإنسان كل شيء في باريس، شريطة أن ينقذ المظاهر. وأخيراً، فعندما

يسافر حبيبك العظيم إلى بلده ليلقى زوجته ــ حلال أسبوع على ما يظهر ــ فعودي للاتصال بي. ولكني أنبهك، فأنا لست من النوع الذي يمسح الدموع.

وأنهت المحادثة. وتلاشي فرح سلمى، لا لأنها تهتم بعواطف ماري لور ولكن يجب أن تعترف أن هذه، في الأعماق، ليست على خطأ: فهي على وشك أن تصبح عشيقة لرجل متزوج سيعود من جديد إلى الطرف الآخر من العالم، ولن تراه أبداً على الأرجح.

وبصورة آلية، أشعلت سيغارة، مع أنها تكره التدخين. ودهشت من أن ترى يدها ترتجف. ولماذا تضع نفسها في مواقف كهذه من أجل رجل، لقيته عرضاً، والبارحة فقط؟ ألأنه مختلف جداً عن أولئك الذين يعازلونها بصورة بطيئة؟ أما هو فقد هجم رملاً فأذهلها عن نفسها كما لو أن جسمها كلّه كان قد تعرف على السيّد، وبعد أن حزنت قليلاً، ولكن عبثاً، تركت نفسها على سجيتها. لقد حلمت، وتخيّلت له أنواعاً من المزايا، وذلك على الأغلب تبريراً لهذا الافتتان الذي قلبها رأساً على عقب. أما الآن وقد عادت إلى رشدها، بعد ملاحظات ماري لور، فإن عليها أن تعترف أنها صعقت: فهذا الأمريكي مغر ــ وهذا حق ــ ولكنه ليس من النوع الذي تحبه. ولن يكون بينهما ما يقولانه لبعضهما بعد أربع وعشرين ساعة. وانتصبت، بعزم: إن عليها أن تضع حداً لهذه المغامرة.

وعاد الهاتف يرن. وشعرت سلمى بأن قلبها توقف عن الخفقان. فهذه المرة، سيكون هو الذي يهتف. وهي تعرف ذلك. فتنقض على الهاتف.

ــ صباح الخير، أيتها الإلّهة. سأمر لآخذك حلال ساعة، لنتغدى في مطعم باريسي حقيقي، أي في مكان لم تطأه رجلاك قط.

ــ ولكني لا...

ــ لست جاهزة؟ وإذن فخلال ساعة ونصف الساعة... ما أطولهما!

و «لانفونتين دو مارس» الواقعة على طرف شارع سان دومينيك، مطعم صغير، يضع أغطية ذات مربعات حمراء وبيضاء على طاولاته، وقوائم طعامه، إنما يكتبها ابن البيت الذي هو في الثانية عشرة من عمره، وهذا ما يشرحه في الطريق، هارفي لسلمى. وهو يقلّد بحماسة صاحب المطعم الذي يأبى أن يقدّم للشراب خمراً آخر غير الكاهور Cahors، أو يمتدح صحناً من الكاسوليه أي «يخنة الفاصولياء» بقوله: ستأكل وراءها أصابعك.

ولقد أثار وصول سلمى بالساري استغراب الجميع. ذلك أن المجيء إلى الغداء في روب ليلي، أمر لم ير قط في الحي! وتضطر إحدى الأمهات أن تخرس طفلها الذي يسأل: «لماذا تتنكر هذه السيدة؟» على حين أن صاحب المطعم، وهو رجل أحمر الوجه والشعر، جريء يستعجل — ذلك أن «الأمريكي» واحد من زبائنه الممتازين. ولكي يبرهن أنه يعرف عادات العالم المتأنق، نراه يمسك بيد سلمى، ويطبع عليها قبلة ذات صوت، ثم يأخذ بيدها ويده، بخفة الراقصة، على الرغم من سمنه، وبابتسامات كثيرة، يجلسهما على الطاولة الموجودة في آخر المطعم. أي على الطاولة التي يحتفظ بها للزبائن المتميزين. وهكذا فإن الزبائن الآخرين يمكنهم أن يلاحظوا أنهم لدى الأب بولاك، يجاورون الأكابر ولا يتجرؤون على الاحتجاج إذا بدا لهم الحساب ثقيلاً نوعاً ما.

ويخطر في بال سلمى أنها موجودة في قلب فيلم «لمارسيل كارني Marcel Carné». وما من مرة جال في خاطرها أن الفرنسيين، يشبهون حقاً تلك الشائعة التي تردد عنهم: فهؤلاء السادة الضخام، الذين يربطون المنشفة حول العنق، ويتذوقون الطعام، وعيونهم لامعة، والشفة نهمة... وهؤلاء الأطفال الغارقون إلى رقابهم في ثياب يوم الأحد، وهؤلاء العشاق الذين يقبلون بعضهم بعضاً، بعد كل لقمة، على مرأى من السيد بولاك، المنزعج، والناقم لأن هؤلاء يدعون الصحون الصغيرة التي صنعتها سيدة المطعم، تبرد، ولا يتردد هو في أن يصيح أنه: «عندما يأكل الإنسان فليتفرغ للأكل!» وتحب سلمى أن تعقد الحديث، ولكنها تشعر أنها قد تزعج. أما في المرة الثانية، فإنها ستلبس ثوباً عادياً.

في المرة القادمة... ولكن لن يكون هناك من مرة قادمة. وهذا ما يجب أن تقوله لهارفي. وحتى الآن، فإنه لم يترك لها المجال، فهو يفيض بهجة، ولا يقف عن المزاح. وعليها أن تبدِّد سوء التفاهم مباشرة، أما بعد قليل فسيكون ذلك أكثر صعوبة. ومع ذلك فإنها تتردد. إذ يبدو أنه جد سعيد.

— هارفي، يجب أن أكلمك.

وتندهش من لهجة صوتها، ومن انطلاقه السريع، وأكثر من ذلك، من أنها نادت الرجل باسمه الصغير، وهو بالنسبة إليها مجهول تقريباً. أتراها إلفةً تخفف بها وطأة الحديث الذي سيجرحه؟ أم هي مجرَّد رغبة في التلفظ باسم، ظلّت تحلم به طيلة الصباح؟

وانتبه الرجل، وأخذ ينظر إليها، ويشير بغمزة عين، يبدو أنها تعني: «إني أعرف، لا تخافي. كل شيء سيُسوّى على أحسن وجه»، ولكنه يكتفي بالقول:

ـــ بطبيعة الحال، ياإلهتي، ولكن ألا تريدين أن تطلبي طعامك أولاً؟ إن هذا المكان لا يبدو شيئاً هاماً، ولكن لا تنخدعي بالمظاهر. فهو أحد أفضل المطاعم في باريس. ومن حسن الحظ أن «الدرجة ـــ الموضة» أبقته على حاله، ويجب أن تعديني بأنك لن تأتي إليه بأصدقائك، ذلك أن لديهم «لورانهم» (مطعمهم الذي اسمه Laurent)، وبرجهم الفضي، وحبيبهم ماكسيم، وهذا يكفي. ولا أريد أن يأتوا هنا ليوقعوا الاضطراب في هؤلاء الناس الدراويش، الذين لا يرون أن الطعام هو أن يكونوا في استعراض، بل هو أمر أكثر جدية.

ونظرت سلمى بانتباه إلى قائمة الطعام، كما لو أنها أمام مسألة رياضية، ولكن عبثاً مافعلت. فهي لا تفهم منها شيئاً بين ما يسمى الأرز المنقوع، وفرخ دجاج مكمّأ (معه كمأة) وطاسة كبد بالفطور... وهكذا فإن الكلمات تتراقص أمام عينيها: «أيها السيد»... لا، «أيها السيد العزيز»... إن من الأفضل أن تختفي دونما شرح. أوليست كل رسالة تعلن القطيعة دعوة لاستئناف العلاقات؟ وهي قطيعة، كما تسميها هي! إذ لا يمكن أن يكون بينهما من قطيعة، فما بينهما من شيء.

وتسمع نفسها تقول:

ـــ لا شيء.

ـــ عفواً؟

فاحمرّت وجنتاها، وتمتمت ما تعني به أنها كانت تفكر بشيء آخر. وحباً لتوفير المشقة عليها، طلب الطعام هو بدلاً عنها، دون أن يسألها عن رأيها.

ـــ والآن قولي، ماهو هذا «اللاشيء» الذي كنت تؤكدينه بمثل هذا العزم؟

وتسكت سلمى. إذ هل في وسعها أن تقول له، إنها لا تريد منه شيئاً، على حين أنه لم يعرض عليها شيئاً؟

واستأنف الحديث هو، فقال:

ـــ لك الحق. فالشيء الظاهر هو أنه ليس بيننا من شيء مشترك. وهذا ماتفكرين به، أليس كذلك؟ وربما تساءلت: «ماذا أفعل أنا، الأميرة، مع هذا اليانكي».

وأخذ يديها ليمنعها من الاحتجاج.

ـــ والواقع أن هذا ليس ما تفكرين به ، ولكنه ما يفكر به الآحرون نيابة عنك . أولا تظنين أنه آن الأوان لكي تفكري أنت بنفسك ، حول ما يخصّك ؟

ـــ وما الذي يسمح لك بهذا القول ؟

ولقد وخزت بكلامها تماماً في المكان المؤلم ، فحاولت أن تتملص . ولكن هارفي يمسك بها بحزم .

ـــ وحقاً ، فإني ظالم : فلقد بدأت . ولولا ذلك لما كانت لنا سهرة البارحة ، ولما كنا معاً اليوم . ولكنك قلما تعودت أن تفعلي ما ترغبين أنت بفعله ، بحيث أنك الآن لا يشتغل بالك إلا فكرة واحدة ، هي الهروب .

وترك يديها .

ـــ إنك حرة ، يا سلمى ، ولكن فكّري . فالهرب مني قد لا يكون شيئاً هاماً . ولكن أنت ، هل تقضين حياتك بالهرب من نفسك ؟

وسلمى هنا تقف حائرة . فهذا الرجل خطر . إنها لا تكاد تعرفه ، ومع ذلك فإنه ينقضّ كثور على حدائقها الأكثر صميمية . ومع ذلك ، فبدلاً من أن تنهض وتمضي ، تسمع نفسها تقول بصوت بنت صغيرة عنيدة :

ـــ إنك مخطىء . فأنا لا أهرب من نفسي . ولقد بحثت مدة طويلة عن نفسي ، وعمن أكون ، وماذا أريد . ولكن كلّما أمعنت في البحث ، كنت أضيع أكثر . ولهذا فقد عدلت عن التفكير ، وقرّرت أن أعيش .

ـــ تريدين أن تقولي إنك عدلت عن أن تعيشي ! هذا إن لم تكوني قد سميت باسم الحياة ، ما تفعله اللعبة الميكانيكية ! سلمى ـــ وانحنى باتجاهها ، وبدأ ينظر إليها بشدة ـــ سلمى مِمَّ تخافين ؟

ولكن لماذا تدع نفسها ، تُطرح عليها الأسئلة ؟ وهي الآن تريد أن تذهب ، ولكنها لا تستطيع أن تقوم بأية حركة . وكما لو أنها ، رغماً عنها ، تتمتم :

ـــ كثيراً ما يدور في ذهني أني لست شيئاً ، وفي الوقت نفسه ، أني كل شيء . وأنا لا أعرف ماذا يخيفني أكثر ، لأني في الحالين ، أذوب وأختفي ...

ولكن ما الذي يدفعها إلى الإسرار لهذا الأجنبي بما في نفسها؟ على حين أنها تحذر حتى من أفضل أصدقائها الباريسيين. أهو هدوءه الذي يذكر بالسماء بعد العاصفة، أكثر من بحيرة هادئة؟

ـــ كل شيء ولا شيء، وأعاد هذا الكلام مرة أخرى وهو يتبّت عليها نظراته بجدّية، ولكن هذا هو تماماً حالنا جميعاً. وأنا أصادق على قولك، إن هذا مخيف لأنانا الصغيرة!

ولما كانت تنظر إليه، مندهشة من هذه الكلمات المتفاصحة بعض الشيء، على كونها ترنّ في أعمق أعماق نفسها، فإنه أخذها من الكتفين، وقال لها:

ـــ اخرجي من حلمك، يا سلمى، إنك امرأة. فهل أنت شاعرة بما يعني ذلك؟ إن هذا هو أجمل لقب من ألقاب النبالة. وما الباقي كله إلا الزبد التافه الذي يعرقل جريان الحياة. أفسألت نفسك مرة، لماذا أدعوك إلّهة لا أميرة؟ ذلك أني أحب أن تتحرري من هذا اللقب الذي يَحدُّك، لأنك أكثر بكثير من أميرة، فأنت مخلوق إنساني مع ما فيه من لا نهائية الممكنات.

«ولكن يجب ألا يكون هذا مما يقطع الشهية». وقال هذا وهو ينفجر ضاحكاً، ويضع في صحنها قطعة رائعة من الفروج المكمأ.

ويسكن هذا الإنسان في الرقم ٢٠ من طريق Montepensier، الذي يُطل على القصر الملكي (باليه روايال)، تماماً مقابل النافورة. فأخذها إلى هناك، بعد الغداء، دون أن يسألها شيئاً، كما لو أن ما كان يصلهما الواحد بالآخر، كانت له قوة الأمر البديهي. وقضى كل ما بعد الظهر، على السرير الكبير، فقبلها، وداعبها بنعومة، ولكنه لم يضاجعها، على الرغم من أن جسدها كله كان يرجو منه ذلك بكل قواه.

ثم عندما وهجّت الشمس الغاربةُ غرفته، نهضا، ونزلا يستنشقان رائحة المساء إذ تفوح من العشب الذي يسقيه بعناية حدائقي عجوز. ووقفا أمام بار صغير تحت القناطر وطلبا زجاجة من السانسير وبعض حبات الفستق التي رموا بها إلى الحمائم.

وكان الليل لا يزال مضيئاً عندما أعادها إلى منزلها. وكانت ترتجف، وساقاها تلقيان العناء من حملها، وعندما انحنى ليقبلها، أغمضت عينيها لكي لا يرى فيها لمعان الدموع.

ـــ سلمى، انظري إليّ!

وحملتها الموجة السمراء وأحاطتها بحنان لا متناه.

وتمتمت قائلة:

ــ أحبك.

فدفعها عنه وحملق فيها بقسوة، ثم إنه تلاطف، عندما رأى وجهها مختبطاً.

ــ سلمى، حاولي أن تفهمي أنك حرة بأن تفعلي ما يحلو لك، دون أن تتخذي عذراً من عواطفك الكبيرة. فأنا مستعد لأقبل منك كل شيء، ما عدا أن تكذبي على نفسك.

ــ ولكني لم أكن أكذب.

ــ كنت تكذبين على نفسك. ولست مضطرة لأن تقولي الحقيقة، إلا لنفسك. إني أعرف، أنك بشوق إلى أن تحبي، وربما إلى أن تحبيني، ولكن حتى في اللحظة التي تظنين فيها أنك تستسلمين، تظل عينيك مفتوحة عليك لكي تلاحظي الأثر الحادث. وأنا لا ألومك على ذلك؛ فمنذ الطفولة دربوك على أن تُعجِبي، وزادوا فأمعنوا في التنعيم والصقل وإعادة تشكيل كل ما كان عفوياً فيك، لكي تستطيعي أن تقومي، بلا جهد، بدورك كأميرة. وما دمت لم تتخلصي من هذا، فلن تستطيعي أن تحبي.

واقترب منها، وأخذها من جديد بين ذراعيه، وهدهدها بحنان.

ــ إن هذا صعب. ولكن لا تخافي، سأفعل كل شيء لأساعدك عليه ــ ويضحك ــ لأساعدك عليه، أنانية مني، ذلك أني أنا أحبك، وآمل أن تحبيني أنا ذات يوم، لا أن تحبي صورة سلمى الواقعة في الغرام.

وعادت في اليوم التالي إلى جادة مونتبانسية Montepensier. ودون أن تهتف، إذ لو فعلت، لما عرفت ماذا تقول. وصعدت السلم في نوع من الحلم؛ وفي كل درجة كانت تشعر أنه ينزل من على كتفيها قطع من الثياب المهترئة. وكلما علت صعوداً، شعرت بأنها أكثر خفة. وعندما كان عليها أن ترن الجرس، شعرت بلحظة من الرعب: فكيف سينظر إلى امرأة تأتي هكذا... لتقدم نفسها؟ ولكنه عندما فتح الباب، استقبلها ببسمة كانت من الرقة، والروعة، بحيث أنها عرفت

مباشرة أن هذا هو حقيقتهما، وأنه ما لشيء آخر عيره من أهمية. وأخذ يعرّيها، بشيء من الخجل تقريباً، فقام في ذهنها أن هذه هي المرة الأولى التي كان فيها رجل يراها بهذه الصورة، وعندما مس بشفتيه، ثديها — وهو جالس على ركبتيه أمامها — وأخذها من خصرها بين يديه القويتين، ومن انحناءة كليتيها، فهمت بما يشبه الانبهار، أنها ما من مرة تملكها إنسان، قبل هذه المرة.

وفي نوع من السحر الحار والصامت، وخلال ساعات، تداعبا، مرتجفين، لا من انكشاف كل منهما للآخر، بل من التعارف الذي بدا لها، وكأنهما تحابا من قبل في عالم آخر، ولم يعد هناك وجود للمكان ولا للزمان — وأن الأبدية وحدها كانت موجودة في كل لحظة.

ومنذ الفجر، استيقظت على زقزقة العصافير، وبقيت مدة طويلة، ساكنة لا تتحرك، لتدع شعاعات الشمس الشاحبة تتسلّل من بين جفونها، منتبهة، خلال ذلك، إلى عدم إزعاج اليد العارية الموضوعة على بطنها. وكانت تستمتع بالشعور أنها له، وكانت ممتنة له لهذا السبب، وبصوت ضعيف، كانت تقول له، إنها تحبّه.

وأطالت النظر إلى الشفتين المليئتين، والتجاعيد الصغيرة الرائعة، الموجودة على زاوية كل عين. ترى، أسيحبها هذا الرجل، يحبها هي سلمى. ويقول إنه يريدها عارية، ويريدها امرأة، ويقول لها: كوني واثقة. ويقدّم لها الهدية التي لم تعد تحلم بها، والتي ردّتها منذ زمن طويل إلى أوهام الطفولة، بل إنه ردّها إلى ما كانته، كبنيّة شرهة إلى الفهم، وكان العالم بالنسبة إليها مصدراً لا ينضب لكل أنواع التجارب، كما أنه ليس هناك من شيء يبدو له مستحيلاً.

ومنذ تلك اللحظة، لم يعودا يفترقان. وألغت سلمى كل دعواتها، مدعية أنها مسافرة. وعلى زنيل أن يجيب على الهاتف، ويقول إن موعد عودتها غير محدّد. ولقد حاول هذا الخصيّ أن يردّ أميرته إلى العقل — فهذا الأمريكي لا يبدو بذي قيمة في نظره — ولكن أميرته أسكتته بخشونة لم يعهدها لديها من قبل؛ وهي لا تسمح لأحد بالتدخل في سعادتها.

وخلال أيام مشيا، واليد باليد، خلال المدينة. وأتاح هارفي لسلمى أن تكتشف «باريس» أخرى، غير التي تعرفها، وتنزها تحت أشجار الكستناء في جزيرة الجات la Jatte، التي تتمطى في منتهى النعومة، بين ذراعي السين، وأخذ يحلمان وهما يجلسان على المقعد الخشبي، المضاء بالمصباح ذي الأربعة أقمار، في ساحة فورستنبرغ Fürstenberg.

وفي صباح أحد الأيام، وباكراً جداً، أيقظها ليمضي بها إلى رصيف الأزهار quau'aux fleurs في الساعة التي تأتي الشاحنات، فتصب فيه كنوزها من الباقات الناعمة، المعطّرة في ظل كاتدرائية نوتردام؛ ثم إنهما خطوا بضع خطوات، ووجدا نفسيهما في سوق الطيور. حيث اشترى لها قرقفاً Mesange في قفصه الأبيض.

وكانا في المساء، عند الغروب، يمضيان إلى مقبرة مونتمارتر الصغيرة (وليتها فيها) فتتذكر سلمى بحنين مقبرة أيوب الضاحكة، المطلة على البوسفور، حيث كانت تتنزه وهي طفلة. وعندئذ، كان هارفي، حباً في تسليتها يأخذها إلى «الأرنب الماهر Lapin Agile». وهناك يجلسان حول طاولة، بين شبان نحيلين ذوي عيون حادة، تتخيلهم هي، موسيقيين أو شعراء، فيستمعان إلى أغاني فريدي Fredé المكرورة. وكانت هي قد أهملت سواريها لتلبس مكانها طقوماً ذات تنورات مثناة، كانا قد ذهبا معاً لاختيارها. وأخيراً، ما عاد إنسان ينظر إليها.

وذات يوم، عندما جلسا على مقعد خشبي على ضفة السين، قصّ عليها هارفي حكاية طفولته في بلدة صغيرة من الأوهيو، ومطعم السائقين الذي كانت أمه تعمل فيه، وتخدم في قاعته، ذلك أنه كان يجب أن تعول الأسرة. أما أبوه فقد كان فناناً. وعندما كان يواتيه الإلهام، كان يلقي على القماشة لمعات مُـلـوّنة معـدّة، على ما كان يقول، لجعل العيون والقلوب تنفجر. وكان يعلن «أن هذا هو المهم، إذ يجب أن نوقظها، هذه الحيوانات المجترة، ونملأ بها أفواههم، ويجب أن لا يناموا بعدها بهدوء!». وكانت هذه اللوحات، في الواقع، مناسبة جداً لإثارة الكوابيس؛ ولهذا فإنه لم يوجد من يشتريها.

وكان هارفي يعجب بأبيه إعجاباً لا حَـدَّ له. وكثيراً ما تضارب هو وصبيان أكبر منه ممن كانوا يقولون عن أبيه، إنه الفنان الذي «لا يصلح لشيء». وكان قد أخذ عن أمه هذا الشعور بالكبرياء، التي كانت ترى أنه ما من فلاح حولهم، حتى الأكثر غنى، كان يصل إلى كعب زوجها، وكانت ستندهش حقاً لو أنها سمعت بأن الناس يشفقون عليها.

وذات يوم، كما في كل يوم، ألبسه أبوه ما ينبغي، ليذهب إلى المدرسة، وذلك لأن الأم كانت تمضي إلى عملها منذ الفجر. وضمه إليه بين ذراعيه؛ ويتذكر هارفي كل التفاصيل الصغيرة، واحدة واحدة، بدءً من جاكيتة التويد التي كانت تحك له خـدّه، والتي كان يحب رائحتها العنيدة، رائحة التيريبانتين المرافقة في نظره للعبقرية، ويسمع، كما لو أن الأمر جرى البارحة، ذلك الصوت الأجش يهمس قائلاً: «عدني بأن أكون فخوراً بك».

وسافر أبوه يوماً ما، ولم يعد قط. وبحثت عنه الأم في السماء والأرض، وهي مقتنعة بأنه كان ضحية لحادث ما، لكن ما من أحد عثر له على أثر. واليوم أيضاً، وبعد ثلاثين سنة، لا يعرف هارفي ما إذا كان أبوه ميتاً أم حياً.

ـــ فبدأت أعمل كمجنون لأفي بوعدي لأبي. وكان يجب أن أكون الأول في كل شيء. وكنت مقتنعاً بأن أبي سيعود إلى الظهور، ليربت على كتفي، كما كان يفعل، في كل مرة كان يُسَرُّ فيها مني.

«وكنت أقضي لياليّ كلها في مكتبة البلدية. وكنت أذهب إليها بعد المدرسة. وعندما كان جرس الإغلاق يرن، كنت أختفي وراء جناح ما من أحد أجنحة الكتب، وأحبس نفسي هناك. ولا يمكنك أن تتصوري فرحي بأن أجد نفسي وحيداً في مستودع المعرفة هذا. وفي البداية كنت أقرأ كل شيء. ولكن سرعان ما أصبحت كتب الفلسفة والطب هي التي تستهويني. وكنت أظن أني سأجد فيها تفسيراً ما لسر الحياة. ولقد ورثت من أبي هوى الفهم، ورفض الاكتفاء بالمظاهر، وهو الذي كان يريد إثارة العين، ومسّ شغاف القلب».

ويقف هارفي مفكراً لحظة ما.

ـــ وعندما حصلت على شهادتي في الجراحة، ولم يأت، فهمت أنني لن أراه أبداً. ومع ذلك... ومنذ بضع سنوات، أقمت معرضاً في نيويورك للوحاته. فهتف الناقدون، لهذه العبقرية. وكانوا يقولون إن هذه اللوحات تنزع نزوع المذهب التعبيري قبل الأوان. وكانت عينا أمي غارقتين في الدموع. وكنت أقول لنفسي، لئن كان حياً، فربما حفزه هذا إلى العودة إلينا. إن الإنسان لا يفقد أبداً، أمله بلقاء أبيه.

وأزاحت سلمى نظرها عنه، لتخفي اضطرابها. وتعود فترى خيري رؤوف بك، جميلاً جداً في الريدنجوت الرمادي الصافي، وتفكر أنها لم تسامحه قط على تخلّيه عنها، وأنها انطوت على حزنها، وأن حياتها كامرأة قد تحدّدت بحكم ذلك؛ وفي حين أن هذا الصبي الصغير، استمد قوته، من مصيبة مماثلة. فلماذا؟ أفيمكن أن يكون للإنسان أن يختار أن يكون بائساً أو سعيداً؟ وتحاول أن تدفع هذه الفكرة، عبثاً، وبدا لها أن سعادتها الحالية قد خالطها الحنين، وأنها على وشك أن تلوم هارفي على أنه جعلها سعيدة، وذلك لأنه جعلها تلاحظ مقدار ما بدّدته من سنين في الحياة من دون هذه السعادة. ولكنه هو أيضاً أفسد حياته جزئياً، عندما تزوج من هذه البنت، ابنة المعلم

الكبير ، منذ تركه العمل الداخلي في المستشفى . وفي اليوم التالي عزمت بعد شيء من التردد ، على أن تكلمه في هذا الشأن .

وتأمل هارفي فيها ، بهيئة المندهش .

ـــ ماذا تريدين أن تعرفي ؟ لقد كنا شابين في أول العمر ، متحابين وعاشقين . وكان الناس يقولون : إن هذا الزواج كان بالنسبة إلي ، فرصة غير مأمولة . ولكني لم أكن أفهم ـــ فيما أنا فيه من بساطة ـــ ما كانوا يخفونه وراء هذا الكلام . وهذا ما يبدو أنه لا يمكن تصديقه . ولكني كنت مزهواً بنفسي ، كبير الثقة بما عندي ، وأفكر بالمسافة التي قطعتها وحدي ! ولم أكن أفكر أنه كان بيننا كل هذه الهوة ، في نظر الناس . وكانت أورسولا جميلة ، ذكية ، متحمسة . وكان هذا يكفي لأعتقد أنها كريمة الطبع ، مثالية . ولسوء الحظ ...

وفجأة يتوقف عن الكلام ، ويقول :

ـــ إني لا أفهم لماذا أقص عليك هذا كله ...

وتلح سلمى على المتابعة ، وليكن ما يكون من أمر التدخل في قضايا الآخرين . وتقول :

ـــ لقد سمعت أنها لم تكن تطيق غيابك المتكرر للعناية بالهنود في أعماق المكسيك ، أو في منطقة الأمازون ، وأنها تطلب الطلاق ، وأنك لا ترضى بذلك لها .

فلمعت عينا هارفي .

ـــ إنهم يقولون أشياء كثيرة . ولو أن هذا صحيح ، فلماذا أرفض إذن ؟ إنك تخيبين أملي ، يا أميرة ، وتهبطين بقيمة نفسك . وهكذا فإنك تفتتنين برجل تافه ، يبقى مع زوجته ، من أجل المال . أفلا تفكرين بأنك تساوين أكثر من هذا ؟ وأنك تستحقين ما هو أفضل ، يا إلّهتي ، وأنك كنت على حق في اختياري ... لأنني « الأفضل » !

ـــ وإذن فماذا ؟

حسناً . فما دمت تحرصين على ذلك كل الحرص ، فاعرفي أني أقمت منذ سنة ، دعوى طلاق ، على الرغم من أن أورسولا تعارض في ذلك . وتركت الأمر يطول . ذلك أني لم أكن أفكر مطلقاً بزواج ثان ... ولكن ....

ـــ ولكن؟

وينظر إليها نظرة الفضول .

ـــ أتساءل أحياناً ، عما إذا كنت تستطيعين ذات يوم ، أن تتخلي عن لقبك كأميرة ، أو كماهاراني ، لكي تكتفي باسم : السيدة هارفي كرمان .

ولم تغب عنه الانتفاضة الخفيفة التي حاولت إخفاءها عنه . وظهرت على وجهه هيئة الساخر ، الحزين بعض الشيء .

ـــ إن هذا ما كنت أفكر به ... إن عليك أن تكبري أكثر .

وعضت سلمى شفتيها ... فلِمَ بدت عليها حركة التراجع هذه؟ ومع ذلك فإنها جد راغبة بالإجابة بنعم ، وأن تنسى كل شيء ، وأن تسافر معه . وهي تعلم أن هذه هي فرصتها العظيمة ، وتعلم أن هذه هي الحياة ، وأنه على حق عندما يسخر من هذا « التاج الذي يحاصر رأسها ، ويمنعها من التفكير » . ولكن عبثاً ما تخبّطت ، ومنذ ثمان وعشرين سنة وهي تزن وتوازن ؛ فكأن هذا كان لاصقاً بجمجمتها .

وتعود إليها صورة أمير الذي صرخ ذات يوم من أيام اليأس ، وقال : « وماذا يجدي علينا الاستقلال . إذ ليس هم الإنكليز الذين يجب طردهم ، بل كذلك هذا الدماغ الذي يجب أن نقتلعه من رؤوسنا ، هذا الدماغ الذي صنعوه لنا هم ، هذا الدماغ الأبيض ! » ، وهي تفهم الآن تماماً ماذا كان يريد أن يقول . إنما هي أيضاً سجينة أفكار لم تعد تؤمن بها أبداً ، على كونها تشعر كل يوم ، مع هارفي ، بأنها صدّتها عن الحياة (كما تريد) .

وأخذها بين ذراعيه وبدأ يداعب شعرها بحنان .

ـــ بلى ، يا حبيبتي ، إن الحياة ، الحياة مباشرة . وكأنه يحزر ما في نفسها . وكثيرون أولئك الناس الذين أدركوا متأخرين ، أنهم انخدعوا بحياتهم ... ودب اليأس في قلوبهم .

ويهز رأسه .

ـــ ولكم رأيت من هؤلاء الشياطين المساكين الذين لم يكونوا يريدون أن يموتوا ، لأنهم كانوا يقولون إنهم لم يعيشوا . ولكننا نحن ، يا إلهتي ، الأبواب كلها مفتوحة أمامنا ! إن كنت تريدين ذلك .

وانقضت ثلاثة أسابيع ، كانت كل لحظة من لحظاتها تنقش في عقلها . فما من مرة حسبت سلمى فيها أن السعادة يمكن أن تكون بهذه القوة وبهذه الرصانة في آن واحد .

وفي هذا المساء ، أراد هارفي أن يعود إلى « الفونتين دومارس » واليوم هو الاثنين ، والمطعم شبه خال . فأجلسهما « الباترون » على طاولتهما ، ومدّت سلمى له يدها كما لو أنه كان صديقاً قديماً . ثم التفتت إلى هارفي فرحة ، وقالت :

ـــ إن هذا هو فألنا السعيد ، أليس كذلك ؟

ـــ موافق .

ـــ يجب أن تأتي إلى هنا ، من وقت لآخر ، أنت وزينيل . . .

ـــ أنا وزينيل ؟

ـــ عندما أكون قد سافرت .

ورسم على وجهه ابتسامة أراد لها أن تكون تشجيعاً .

ـــ سلمى ، يجب عليّ أن أعود بالضرورة إلى نيويورك لأرتب أموري . ثم إن علـيّ أن أرأس بعثة إلى المكسيك ، ذلك أني التزمت بهذا الأمر ، ستة أشهر . ولكنني أكون قد عدت في بداية ايلول / سبتمبر / . ستنتظرينني . أليس كذلك ؟

وكأن البرد دخل إلى أعماقها ، على كونها تعرف ذلك ، وتعرف أن عليه أن يسافر ، وأنه أخـرّ موعد سفره عدة أسابيع بسببها . وهي تعرف أنه يحبها ، ولكنها لا تستطيع أن تقاوم الرعب الذي يستولي عليها .

ـــ هارفي ، خذني معك !

وقالت هذا ، وكأنها صرخته صراخاً ، تقريباً . فحملق فيها ، مذهولاً ، من هذا الخوف الطفلي !

ـــ يا عزيزتي ، هذا مستحيل ، وأصلاً أنت بحاجة إلى أن تبقي وحيدة ، لكي تفكري . فأنا أعرض عليك حياة مختلفة جداً عن التي تعودتها . وأنا أعيش حياة المتشردين . ولن يكون هذا سهلاً . . .

ولما لم تجب ، أضاف هو قوله :

ـــ من حسن الحظ أننا لا أنت ولا أنا ، مقيّدان بأطفال . وما نقرّره لا يُلزم أحداً غيرنا .

وامتقع لون سلمى . ذلك أنها منذ بدأ التعارف بينهما ، كانت تريد أن تقول ذلك له . إذ لم تعد تستطيع النوم لهذا السبب . لا ريب أنه مختلف عن الرجال الآخرين . ولكن هل هو مختلف إلى هذا الحد؟ أوَيقبل أن تحمل المرأة التي يحبّها طفل رجل آخر؟ وخافت . ولم تعد تستطيع أن تحتمل فكرة فقدانه . آه ، لو كان يستطيع أن يفهم أن هذا الولد هو ولدها هي ، سلمى ، وأنه لا علاقة له ، أو قل إنه قليل العلاقة بأمير .

وحتماً فالمسألة شيء آخر ، عندما يكون الزوجان متحابين : فتحت نظر الأب ، وفي حرارة اليد التي تداعب بطنه ، وعلى الاستماع لصوته ، ينمو الطفل ، ذلك الكائن الصغير ، بفضل الحب الذي تتفتح فيه المرأة . عندئذ يمكن القول إنه ثمرة تلاحم هذين الكائنين . آه ، كم تحب أن يكون هذا الطفل ، من هارفي لا من أمير ! ..

وأخذت تبكي . فيلاحظها وهو حائر قلق . فما من مرة خطر بباله أنها حساسة جداً لذكر الولد . فيسألها بحنان .

ـــ سلمى ، أتريدين طفلاً؟

فرفعت رأسها ، وحملقت فيه من خلال دموعها . وعليها أن تكلمه الآن . ولكن الشجاعة تنقصها ، فتكتفي بأن تهمس :

ـــ وأنت يا هارفي؟

ـــ إنني ، بحكم الحياة التي أعيشها ، لم يخطر هذا في بالي قط ، بصورة جديّة . ولكن عندما أفكر في الأمر ، فإن ولداً منك ومني ، سيكون روعة !

وأشرق وجهه . ولكن لِـمَ عادت سلمى إلى البكاء؟ فيلح عليها بالأسئلة . وتجيب هي أنه ليس هناك من شيء . وأنه مجرَّد الهيجان . وقرّرت ألا تتكلم ، ولن تفسد أيامهما الأخيرة . أما فيما بعد ، وعندما يكون هو في أمريكا ، فإنها ستكتب له . فلقد عرفت دائماً أن تشرح أوضاعها بالكتابة ، بصورة أفضل بكثير ، مما تفعله بالكلام .

٤

وتمر في سماء الشانزيليزيه ، المزينة بآلاف الأعلام ، دورية من الطائرات المطاردة ، بضجة ضخمة ، يتبعها سرب ، من « باصقات اللهب Spitfire » البريطانية ، بجناحين ، أحدهما أبيض ، والآخر أزرق . وتأتي بعدها مباشرة ، وبالعشرات ، طائرات من نوع Breguet ٦٩٠ . ومارسيل بلوخ ١٥١ ، وليوري أوليفييه ٤٥ Lioré Oliveir ، وكان الجمهور المجتمع هناك منذ الساعات الأولى للصباح ، يشعر « برعشة الاعتزاز » : ولقد قالوا لها ذلك ، ولكنها حتى تلك الساعة ، لم تكن قد قدَّرت حق التقدير ، قوة سلاح الطيران الفرنسي .

وجَلَس على المنصة الرسمية ، الرئيس لوبران Lebrun ، محاطاً بوزرائه الذين يلبسون جاكيتات قاتمة . ووراء هؤلاء كان يجلس الرؤساء المحليون في المستعمرات والمحميّات ، وهم يلبسون الجلابيات المطرّزة بالذهب ، أو بجلابيات طويلة مخططة ومشجّرة .

ويبدأ الآن استعراض ١٤ تموز / يوليو » من عام ١٩٣٩ ، المقابل لانقضاء مئة وخمسين عاماً ، على الاستيلاء على الباستيل .

وكان في ذلك الجمهور الكثيف آلاف من المكبرات ترتفع . واستطاعت سلمى ، بفضل مساعي زينيل ، أن تجد مكاناً فوق علبة صابون ، دفعت أجرته عشرين فرنكاً لأنها وصلت متأخرة . ولقد كانت تحثم على رؤوس رجليها ، وتلاحظ المغفر اللامع لأفراد الحرس الجمهوري الذين يفتتحون الاحتفال ، ويتبعهم في العرض أصحاب الريشة الحمراء ـــ البيضاء التي يضعها طلاب سان سير ،

المدرسة العسكرية المشهورة، وذوو قبعة القرنين السوداوين المزينين بشريطة حمراء، أي طلاب مدرسة البوليتكنيك. ماأجملهم! وكانت سلمى شديدة الحب للإستعراضات العسكرية. فقرع الطبول، والأناشيد الوطنية، من أي مكان صدرت، تثير فيها رعشة غريبة، في جوف معدتها، وتجعل دموعها تنهال من عينيها.

وها قد جاء دور الإنكليز: وجاء رماة الرمانات كأنما خرجوا مباشرة من الرسوم القديمة، تحت طرابيشهم العالية المصنوعة من الفرو الأسود. فتقدموا بخطى موزونة، على حين أن الحرس الإيقوسي في التنانير، يبدون وكأنهم يرقصون على صوت مزاميرهم. ويهتف الجمهور: لتعش إنكلترا، ذلك أن الناس كانوا مسرورين بهؤلاء الحلفاء الجدد. واطمأنوا قليلاً، عندما بدؤوا ينظرون إلى استعراض المشاة. ولكن رجال البحرية سيجدون ما يستحقون من التصفيق، وعما قريب سيمس الناس شراريبهم، لكي تأتيهم بالسعادة.

وأخيراً يظهر الفرنسيون الذين وفدوا من أنحاء العالم، في أعلى الشارع: كالرماة بالرشاشات الآتين من الهند الصينية، أو من ماداغسكر، والرماة الجزائريين، والسنغاليين المهيبين... وختاماً لهذه المسيرة الغريبة يأتي رجال الفرق الأجنبية، ذوو الخطوات البطيئة، مكلّلين بغار أولئك الذين جابهوا الصحراء والموت. وتنظر إليهم سلمى بفضول: وكانت قد سمعت من يقول إن مارلين ديتريش، التي جاءت البارحة من أمريكا لكي تشارك في الاحتفال، وتغني: قريباً من شقرائي Auprés de ma blonde قد علقت بهوى واحد من هؤلاء.

وكانت العيون ملأى بأخيلة المغامرات، عندما وصلت فرق الخيالة، وهي فرقة أرستقراطية تسمع أصوات حوافر خيولها، بما فيها من هوسار Hussards، وفرسان، وتنانين، يجعلون كل هؤلاء الكسالى الذين لا يجرؤون على ركوب حمار، ينتصبون واقفين. وجاء وراء هؤلاء، فرق الخيالة الميكانيكية، التي تمثل نقطة اعتزاز الجيش الفرنسي الذي لا يغلب. وكانت الدبابات تجري في الشانزيليزيه كما لو أنه ما من شيء يوقف زحفها أبداً. «إنها دبابات خط ماجينو، وعندنا منهم الآلاف» على ما يتهامس الناس، وهم خائفون بغموض أمام هذه الشياطين المصنوعة من الصلب، على حين أن رجلاً مهيباً جداً، كان يعلن بصوت عال، ما كان يدور في خلد كل إنسان، ولكن في السر: «إن البوش (الألمان)، مع هذه، يمكن أن يذهبوا، ليصلحوا أوضاعهم».

وكان الاستعراض على وشك الانتهاء، كما أن الجماهير قد تجاوزت حبال الشرطة، لكي تذهب فترى هؤلاء الجنود الجميلين الذي يدخلون الدفء إلى قلبها. وكانت سلمى لا تزال واقفة على صندوق الصابون، وهي تبحث في منصة الهيئة الدبلوماسية عن بعض من تعرفهم. آه. هذا هو

لوكا ، وكم يبدو سعيداً. إن هذا هو اسمه بالنسبة للحميمين من أصدقائه . أما اسمه الحق فهو جول لوكا سييويكس Lukasiewics ، سفير بولونيا : وكان قبل عدة أيام قد قـدَّم في منزله الرائع ، الذي يطلق عليه اسم أوتيل ساغان ، واحداً من آخر أكبر البالات في ذلك الموسم. وقلما رقص الناس بمثل هذا الانطلاق. وكان هنالك آنق نساء باريس. وانطلقـن جميعـاً إلى رقصة « البولونـر » « الشيطانية » مقودات من قبل سيرج ليفار الدي كان يقـدِّم الإيقاع . فيارب كم كان الناس يحبون بولونيا وسفيرها صاحب السحر السلافي ، وكم كان مضحكاً ذلك الغول الألماني الصغير ، صاحب الشاربين الأسودين. وقد استمتعت سلمى متعة كبيرة ، ذلك المساء، ونظرت بغضب إلى رجل مزعج كان يهمس لجاره قائلاً : « أي عدم مبالاة ! إن هذا هو حقاً ، بال العميان » .

وكانت قد مضت ثلاثة أسابيع على سفر هارفي. وكانت سلمى التي خشيت من هذا الغياب ، تلاحظ بدهشة ، أنها ليست بتعيسة . ولا ريب أنها كانت تفتقده ، وكثيراً ما فاجأت نفسها تبحث عنه في الجمهور المحيط بها . غير أن هذا الافتقاد عَـذْبٌ على قلبها ، لأنه يجعلها تعرف كم هي تحبه . ولأول مرة ، تجد أن هذا الحب لا يخيفها : ذلك أن لها ثقة كاملة به ، لأنه جعلها تثق بنفسها . وهي مقتنعة الآن بأنها وجدت أخيراً مكانها ، بعد لَفّـة طويلة جداً.

وهكذا فإنها تعيش لحظتها بهدوء جديد تماماً ، وتعجب أن تكون في آن واحد عنيفة وبسيطة ، وربما كانت عنيفة لأنها بسيطة ؟ على الأرجح.

وكانت باريس في هذه الأيام الأولى من الصيف قد تجاوزت المألوف بهذه التظاهرات الرائعة ، كما لو أنها ، في الحين الذي يتهيأ فيه أصدقاؤها الحيميون لمغادرتها ، في رحلة الصيف ، والعطلة ، كانت تريد أن تحمل المغادرين على الأسف عليها . وكانت سلمى تدعى إلى كل الحفلات . وما من أحد عتب عليها أنها غابت شهراً كاملاً ، تقريباً ، بل بالعكس ، كانت تستقبل بأكبر المسرة ، بمقدار ما أصبحت نادرة الوجود.

وكان أحد أحداث هذا الشهر ، حزيران / يونيو / ، هو « العرس الذهبي لبرج إيفل » . وكان هذا السيّـد العظيم يحتفل بعيده الخمسيني ، في الحين الذي كان فيه دوق وندسور يحتفل بعيد ميلاده الخامس والأربعين . وكانت باريس كلها تحتفل بهذه المصادفة السعيدة في الطابق الأول من البرج . وكانت النساء قد لبسن الثياب التي كانت دارجة عام ١٨٨٩ ، ويرقصن ببهجةٍ ، رقصة

المربع le quadrille بكل صورها ، في الحين الذي كانت فيه السماء تتوهج بالألعاب النارية التي كانت تطلق من قصر Chaillot .

ثم إنهم في الخامس والعشرين من هذا الشهر عادوا فاحتفلوا بجائزة السباق في « لونشان » واستطاعوا أن يروا بين القبعات الأكثر غرابة لكثرة ما فيها من قنازع وريش النعام الزهري والأزرق ، الأمير رونيه دو بوربون بارم ، والآغا خان ، والسلطان المراكشي ، مجتمعين في المنصة الرسمية ، تمتقع ألوانهم ، مرة أخرى بفضل الحصان الكراك le Crack الذي هو ملك مارسيل بوساك ، والذي كان وعلى ظهره الجوكي إيليو ، في آخر الخط الأيمن ، قد انطلق وكسب الجائزة . وسط الحماسة العامة .

ولكن روعة الموسم ، كانت بلا جدال ، ذلك « البال المتنكر » الذي دعا إليه الكونت إيتيين دو بومون على شرف مرور ثلاث مئة عام على ولادة راسين . أما الكونت ، الخفيف والسمين معاً ، فقد كان متنكراً بأردية لولي Lulli ، وكان صديقه موريس دو روتشيلد ، يتنكر بصورة بايازيه رائع Bayazet ، وبعمة مُـوَشّـاة بالماس . أما جان ماري Jean Marais آخر ما اكتشفه الشاعر جان كوكتو ، والذي كان مغرماً بحبه إلى حد الجنون ، فقد ظهر كـ هيبوليت Hyppolite ، عارياً تحت ردائه المصنوع من جلد النمر . وأما السيدة شكيا باريللي Schia parelli فكانت متنكرة في ثياب الأمير Condé ، وكوكو شانيل Coco-Chanel كان إنساناً مجهولاً رائعاً ، على حين أن مهراجاه وماهاراني كابورتالا ، في ثيابهما الفخمة المصنوعة من المخمل القرمزي ، كانا يمثلان دوق ودقة لورين . وكان هنالك كونتيسة دو سيفيني ، وأوانس من سان سير ، وسفارة كاملة لسيام ، في وسطها الآنسة إيف كوري والأميرة بونيا توفسكا ، تختبئان وراء أظافرهما الطويلة المعقوفة . أما سلمى فكانت تمـثّـل بيرينيس المؤثرة ، في أوشحة سوداء ، وجبهتها محاطة بأكليل بربري . وقد لوحظت بشكل واضح ، بين الحاضرين . ولم تتساءل ، إلا فيما بعد ، لماذا اختارت دور هذه الملكة التي تخلّى عنها الرجل الذي كانت تحبه .

ولكن سلمى ، في هذا النصف من تموز / يوليو / ، في الحين الذي أفرغت فيه باريس من كل طيورها الحلوة ، الذين هجروها إلى مناطق حمامات البحر ، على الشاطىء ، أو نحو المدن ذات المياه المعدنية ، كانت فرحة كل الفرح بأن تشعر بأنها حرة باستخدام وقتها ، كسائحة تستقر في مدينة ، لا تعرف فيها أحداً ، وحيث تستطيع أن تكيّـف أيامها تبعاً لحاجات اللحظة التي هي فيها . ولقد دعتها ماري لور إلى عزبتها في إيدن روك Eden Rock ، ولكنها فضلت ألا تقبل الدعوة . فهي بحاجة إلى أن تبقى وحدها ، ووحدها مع هذا التثاقل الغريب والحار الذي بدأت تحس بأنه يستقر في بطنها ، وهي في حاجة إلى أن تتجـمّـع على نفسها ، وأن تصيخ السمع إلى نداء جسمها ، وأن

تنطوي على نفسها. وكانت في الأيام الأخيرة قد رفضت الانتباه إلى التغيرات التي تتم تدريجياً في داخلها، إلا إذا كان الأمر يتعلق بتغيير مكان أبازيم تنوراتها، عندما لاحظت أن خصرها بدأ يسمن ويعرض، ولكن هارفي لم يلاحظ شيئاً. وظن أنها بضة بطبيعتها، وهذا كل شيء. وبطبيعة الحال فإنه اتهم المطبخ الفرسي بما فعله بها.

وهارفي... كانت قد وعدت نفسها بالكتابة إليه، وأن تقول له الحقيقة... ولكنها كانت مشغولة، ومشغولة إلى الحدّ الذي ألهاها عن الوفاء بوعدٍ، تتردّد الآن في الوفاء به. أو يَفهـمُ أنها لم تصارحه؟ وكلّما مضى الوقت، وجدت أن من الصعب تبرير سكوتها: وقد أخطأت في السكوت عندما سنحت لها الفرصة بالكلام: عندما يكون الرجل بين ذراعي امرأة يحبُّها، يقتنع بصورة أسهل، مما لو قرأ عدة جمل على قطعة من الورق. وأية قوة تملكها الآن عن بعد؟ وهي تخشى أن يضع هارفي صمتها على حساب التردّد العاطفي بينه وبين أمير. ومتى شعر أنه جُرح، فإنها تخشى أن يحسم المسألة حالاً، ويفعل كل ما بوسعه لينساها. وهو قادر على ذلك. لا، إنه لا ينبغي لها أن تكتب إليه. فإذا عاد في ايلول، وإذا بقي على حبها، فإنه سيفهم.

والآن، وقد اتخذت قرارها، فإنها تشعر بأنها أهدأ بالاً، ولم تلق عناءً في خنق الصوت الصغير الذي يهمس في أذنها: «وإذا كان صبياً فماذا تقرّرين أنت؟ وهل يسمح لك الحب بأن تحرمي ولدك من حقه الوراثي، في تاج بادالبور؟».

ولا يجدي في شيء أن تشغل ذهنها بجملة «إذا.. يأت» فلقد قال لها هارفي دوماً: «إن عليها أن تعيش في الحاضر».

وتمضي الأيام الأولى من شهر آب /أغسطس/ كحلم. وباريس فارغة تقريباً: وقد أحصي حوالي ١٢٠ ألف مسافر، على نظام العطل المأجورة. وطمأن الراديو ــ سيتي Radio—Cité كل الناس: ذلك أن منـجّـميه قالوا إنه لن يكون هنالك حرب هذا العام.

أما في الشوارع، فإن حراس المنازل سحبوا كراسيهم، وأخذوا ينظرون إلى المارة القلائل، بقلب طيّـب، كما لو أن مجرَّد البقاء كان يُوحدهم في جماعة الباريسيين الحقيقيين. أما في أكشاك الحدائق العامة، فإن الأوركسترات البلدية، تعزف قطعاً موسيقية لغونو Gounod وبيزيه Bizet ولكن لا وجود لمؤلفين موسيقيين ألمان، بل إن بيتهوفن نفسه وضع على قائمة المنبوذين.

وبناءً على إلحاح زينيل الذي يساوره القلق من تضاؤل موارد الأميرة ــ ذلك أن الحوالات

الصادرة من الهند تتباطأ مدة طويلة ـــ فقد قررت سلمى التخلي عن شقتها في البلازا آتيني. وأعلمت الحارس أنها تترك باريس، لبعض الوقت، وطلبت أن تحفظ لها رسائلها.

ولم يكن عليهما إلا أن يجتازا السين، ليجدا في شارع RAPP فندقاً ريفياً بعض الشيء، ولكن وسائل الراحة متوفرة فيه. وكان قربه من الشان دو مارس Champ-de-Mars هو الذي حمل سلمى على القبول به. إذ ستذهب فتتنزه هناك كل يوم، لأن في ذلك خيراً للجنين. ولقد استقر في عزمها أن تكـرّس، منذ الآن، نفسها له: ذلك أنها شعرت بأنها أساءت إليه بإهمالها له. ولعلها حالت دون نمو رئتيه نمواً سليماً، بالضغط بشدة على الخصر. ولكن هل لهذا الجنين رئتان الآن؟ وهي خالية الذهن من كل فكرة عما يكونه الجنين الذي يبلغ عمره الآن خمسة أشهر ونصف الشهر.

أما زينيل فهو في غاية السرور: فلأول مرة كانت سلمى كـلّـها له. وكان قد استاء كل الاستياء من مغامرتها مع ذلك الأمريكي. إذ لقد كرهه من أول نظـرة، على الرغـم من أن هارفي ـــ وقد شعر بعدائه له ـــ بدا لطيفاً جداً معه. ولكن هذا، بالضبط، هو ما احتقره الخصيّ لديه: أي إلفة هذا الأجنبي له! فهؤلاء الأمريكيون مجـرَّدون من حسن أسلوب التعامل: «إنه ليس من عالمنا، يا أميرة» على ما كان يقول ويكـرِّر قوله لسلمى، «ويلاحظ بسهولة أنه لم يُعـتَـنَ به ». وعندما فهم أن العلاقة تصبح جديّـة، هـدّد بأن يكتب إلى الراجاه الذي جعله مسؤولاً عن زوجته. ومن أول كلمة، صعقته سلمى بنظراتها، ومـدَّت إليه قلماً ليكتب به.

ـــ اكتب، وستحمل مسؤولية موتي في ضميرك، ذلك أنك تعرف جيداً أن الراجاه سيقتلني! وعلى الأرجح فإنه سيقتلك بعدي، لأنك أسأت المراقبة.

وخفض زينيل رأسه. وكان يعرف أنه لن يستطيع إخافة سلمى. ذلك أنها حتى وهي طفلة، لم يكن أحد غير أمها يستطيع التأثير فيها. ولكنه على الأقل كان مرتاح الضمير داخلياً: فلقد حاول. وانقلب غضبه على الراجاه، وقلة حكمته في إبقاء زوجته وحدها في باريس، بعد أن استبقاها سنتين شبه سجينة. وأضافت سلمى، كما لو أنها تحزر أفكاره، وببرودة دم أحزنته، بقدر ما لاحظ فيها من المرارة، أضافت القول:

ـــ إن الشيء المهم بالنسبة إلى زوجي العزيز، ليس وفائي له، ولكن سمعته. وهذا هو الذي

طلب منك حمايته. وعلى ذلك فإن واجبك هو أن تساعدني، في أن لا يعرف عني شيئاً. وكنت أظنك أكثر رهافة، يا زينيل.

وهزّ رأسه كما لو أن هذا الحديث أقنعه. والحقيقة أنه فعل ذلك معبراً عن ارتياحه، إذ لم يطق أن تستعمل سلمى في حديثها إليه فعل الجمع. وكان مستعداً لقبول كل شيء منها، ماعدا هذا الوضع الشديد البرودة، الذي كانت تحسن اتخاذه عندما يعارضون إرادتها.

وأصلاً فإن الذي كان يلومها عليه، ليس المغامرة التي أوقعت نفسها فيها. إذ أنها، آخر الأمر، ليست بفتاة، ثم إذا كان الراجاه يجعلها تعيسة... بل إن لومه ينحصر في أنها تبدو عاشقة. ذلك أنه كان يعرف أنها ذات مزاج كلي، وأنها مستعدة للتخلي عن كل شيء.

غير أنه مادام الأمريكي، قد سافر الآن، فكل شيء سائر نحو الأفضل. ومنذ الآن، يجد زينيل أنه الوحيد مع سلمى. وهي في وضعها هذا، سريعة العطب، وبها حاجة إلى أن تُدَلّل، وتحاط، وتُحَبّ. إذ ليس لها من شخص آخر غيره. فهو في آن واحد أبوها وأمها وأخوها وزوجها. وربما تمنى وقوع كارثة ما، ينقذها منها، حتى تفهم أخيراً إلى أية درجة، هي بحاجة إليه، هذا الوفيّ الوحيد، الذي صحبها كل عمرها، وسيبقى إلى جانبها، مهما يحدث.

وفي كل صباح، كانت خادمة الفندق (أو النادل) تحمل مع فطور الصباح جريد الفيغارو، وكانت سلمى تقرض هلاليتها (Croissant) وفي الوقت نفسه تطّلع على الأخبار. ومنذ عدة أيام، ولا حديث إلا عن البعثة العسكرية المرسلة إلى موسكو، وتكتب الجريدة، وهي باستمرار حسنة الاطلاع، أن ستالين يحرص على توقيع اتفاق مع بريطانيا وفرنسا.

وفي يوم ٢٢ آب /أغسطس/ ١٩٣٩، كان الناس أميل إلى التفاؤل. وقد صرّح بول كلوديل، وهو شاعر وديبلوماسي عظيم، «أن هذا الغول المنفوخ، سيفقد انتفاخه». والغول بطبيعة الحال هو هتلر، الذي يسخر منه كل الناس، بدءً من المغنين الساخرين الذين إذ يقلدونه، يكسبون أكبر نجاحاتهم، حتى طلاب المدارس. فهؤلاء الفرنسيون ذوو روح فكهة ذكية! ومنذ أسبوع أرسلت «لجنة ورود خط ماجينو» أول طاقاتها من الزهر إلى الرئيس لوبران. وسألت سلمى عن هوية هذه اللجنة، وضحكت ضحكاً كثيراً عندما علمت أنهم، وسط المدافع، على طول خط الدفاع، زرعوا آلاف الشجيرات من الورد... وأنه لا مجال لتركها تسحق!

أما في الزاوية الخاصة بالأخبار الاجتماعية، في الجريدة، فقد توقفت عن مقال يصف «بال

الأسرة الصغيرة البيضاء » الذي أضاء البارحة البالم بيش Palm Beach ، في كان : وكان قد جمع كل الأسماء الكبيرة في الغوتا Gotha ، وأصحاب المليارات بعدد كبير ، وكان تحت رعاية حرم الماريشال بيتان . الذي كانت سماته اللائقة تذكّر بأن هذا الاحتفال ، احتفال لعايات الإحسان .

الأخبار طيبة إذن ، والشمس رائعة ، ونهضت سلمى ، وكان أثناء عنايتها بنفسها تصغي إلى المذياع الذي يذيع الأغنية الدارجة : « كل شيء على أحسن حال ، يا مدام الماركيزة » ! وكل شيء على أحسن حال . وخلال عدة أيام سيصل هارفي . وخلال هذا الغياب لم تتلق منه سلمى إلا بطاقتين صغيرتين . ولكنه كان قد أخبرها ، أنه لن يستطيع الكتابة ، وهو في أعماق المكسيك . وعلى كل حال فإن سيكون هنا في بداية ايلول / سبتمبر / ، ذلك أنه وعدها بأن يأخذها إلى هذه الكان نفسها ، حيث سيقام الاحتفال الدولي الأول للسينما . وستحضره أكبر النجوم في هوليود ــ وكان الأمريكيون قد أعلنوا أنهم استأجروا عابرة للمحيط لكي يرسلوا فيها حمولة كاملة .

لكن هذه الحمولة المذهّبة ، لم تصل إلا بعد ست سنوات ...

وفي الواقع ، فإن سلمى ستعلم عند نزولها من غرفتها خبراً مزعجاً ، سيقلب كل الأوضاع . فلقد انتهى ستالين إلى التوقيع على معاهدةٍ ، ليست مع الإنكليز ولا مع الفرنسيين ، بل مع هتلر ! وكانت الصدمة قاسية : فهل يمكن بعد الآن أن نتجنب الحرب ؟

وعلى حين أن رئيس الوزراء ، إدوار دالاديه ، يذيع على موجات الإذاعة ، ما لدى فرنسا من حرص على السلام ، كانت شوارع باريس تغطى بإعلانات تستدعي الاحتياطيين . وخلال أربع وعشرين ساعة انتظمت مراكز توزيع للأقنعة الواقية من الغاز : وكان على كل باريسي أن يحصل على واحد منها ، وأن لا يفارقه ؛ ذلك أنه ما زال يجول في خواطر الناس ما كان من تسمم بالغاز بين عامي ١٩١٤ــ ١٩١٨ . ثم إن الإذاعة والصحف تقـدِّم النصائح اللازمة لإصلاح الكهوف ، وسـدّ المنافذ ، وستر المداخل بأغطية مبـلّلة : وكل هذه احتياطات لا جدوى منها ، على الأرجح ، ذلك أن الحكومة تعرف كيف تفاوض ، لمنع الحرب . ولكن من الأفضل أن يكون الإنسان جاهزاً .

وهذا الأسبوع ، بالنسبة إلى سلمى ، أسبوع غريب ؛ فهي لا تصل إلى معرفة ما إذا كان هنالك خطر حقيقي ، ذلك أن كل شيء حولها ، يشير إلى اختلاط الخوف بعدم التصديق . وكانت السيارات التي تعود بالمصطافين إلى باريس ، تؤلف خطوطاً طويلة ، ومن جهة أخرى ، وبالمقابل ، فإن كثيرين يتركون العاصمة . وجيء بعمال وُظّـفوا لجمع تحف اللوفر ، وانتزاع زجاجيات السانت

شابيل Sainte Chapelle (الكنيسة المقدسة). وكذلك فإنهم كانوا يفرغون حدائق الحيوانات من ضيوفها، وبعد عدة أيام، رحّلوا ثلاثين ألف طفل. وكانت المحطات تغص بالمسافرين: وهم الطلاب الذين يبعدونهم إلى المحافظات، بالإضافة إلى مجموعات خائفة من اللاجئين اليهود الآتين من بولونيا، وألمانيا.

وأخيراً، وفي ٢ ايلول / سبتمبر /، أذيع الخبر الذي ما كان أحد ليتوقع حدوثه: فلقد اكتسح هتلر بولونيا! فهل ستدخل فرنسا الحرب. إن كثيرين يحسبون أن من واجبها ذلك. وهكذا يكتب فالديمير أورميسون في الفيغارو، مقالاً جاء فيه قوله: «إن ضميرنا بريء، وكذلك واجبنا أيضاً: فنحن سننتصر».

وكالملايين من الفرنسيين، في هذه الليلة، فإن سلمى لا تنام. وتتقلب ثم تتقلب في فراشها، متسائلة، عما إذا كان عليها أن تسافر. ومنذ أسبوع، كان زينيل يلح: إن عليهما أن يذهبا إلى لوزان بأسرع ما يمكن؛ وإذا كانت لا تهتم هي بأمنها وسلامتها، فلتفكر على الأقل بالصغير الذي سيأتيها! ولكن سلمى لا تستطيع أن تقرِّر. فهارفي سيصل بين يوم وآخر، وهي تريد انتظاره، فإذا ازدادت الأمور سوءاً، سافرا معاً.

وفي اليوم التالي صباح الأحد، كان الفرنسيون يتخاطفون الصحف: فقد أرسلت إنكلترا إنذاراً إلى ألمانيا! فماذا ستفعل فرنسا؟ وحوالي الظهر، علم الناس، كما لو أنهم تخفّفوا من همٍّ، بأن فرنسا انضمت إلى إنكلترا، ودخلت الحرب. وهكذا فبعد هذه الأيام الطويلة من الخوف والشكوك، أصبح الموقف واضحاً.

وجاءت الشمس فمزّقت ضباب الصباح، وخرج الباريسيون، والأقنعة الواقية محمولة في أعناقهم، إلى الشوارع. ومضت سلمى مصحوبة بزينيل، الشاعر بالمصيبة، إلى الشانزيليزيه، على الأقدام: فهي بحاجة إلى أن تتحسّس الجو، وأن تسمع، وتحاول أن تفهم ما عساه أن يجري. أما مصاطب المقاهي فهي غاصة بزبائنها. ومن طاولة إلى أخرى، تدور المناقشات، ملأى بالأهواء. وكلّ إنسانٍ يقدِّم رأيه، ويمضي إليه بما يتنبأ به.

ويناقش الناس بصورة خاصة، موقف الولايات المتحدة: فهل تبقى على الحياد، أو تنحاز إلى جانبنا؟ وعندما ترى سلمى الخط الطويل من المنتظرين أمام مراكز التطوع الخاصة، بالأجانب، كانت تفكر بهارفي. وفي هذا المابعد الظهر المشمس، كان عليه أن يكون هنا، إلى جانبها؛ فهل سيصل عما قريب؟ كعسكري؟ وتعتريها رعشة وتقول: «هذا غير ممكن، وفي وسع الآخرين أن

يَمضوا ليقتلوا، أما هارفي فلا». وأصبحت سلمى تتمنى بكل قواها ألا تدخل أمريكا الحرب.

وفي بضعة أيام تغيَّر وجه باريس. إذ إنهم أحاطوا الأوابد بأكياس من الرمل، حماية لها، وطلوا باللون الأزرق زجاج المنازل. وفي كل مكان، تجد نساءً بعمرة (كسكيت) مزيّنة بشرائط، وساعدة، حللن محل الرجال. فهن شرطة سير، وعمال بريد، وجباة في الباصات، ورؤساء محطات، وسائقات شاحنات ثقيلة.

ولكن الإنسان يفاجأ بتغير مدينة النور، في الليل خاصة. إذ منذ الساعة الواحدة والعشرين، يكون الظلام كاملاً، ذلك أن الطريق لا تضاء، خوفاً من الغارات. وحتى السيارات، أُمرت بألا تضيء مصابيحها، وعليها أن تمشي على ضوء قناديلها المخففة. أما سلمى التي كانت تذهب أحياناً، مع زينيل للعشاء، فلم تعد تخرج أبداً. وكانت المطاعم تفتح أبوابها حتى الساعة الثالثة والعشرين، وأقفلت أبواب المسارح وقاعات الموسيقى والمنوّعات. وفي كل حي، ظهر في الشارع رجال على يد كل منهم ساعدة صفراء؛ ولما كانوا أكبر عمراً مما يجب للمشاركة في الحرب، فقد كـلّـفوا بالدفاع المدني، وها هم يذرعون الطرق ليلاً، جيئة وذهاباً، ويصفرون، تنبيهاً لمن ترك أضواء سيارته دون إطفاء. وحتى في النهار تراهم يحفظون النظام، ويحرصون بالدرجة الأولى، على ردّ الناس إلى منازلهم، متى سمعوا صفارات الإنذار.

ولن تنسى سلمى بسرعة ذلك الإنذار الأول. وكان ذلك في الساعة الواحدة صباحاً. فاستفاق سكان المنزل على غير توقع، وخرجوا من غرفهم وهم يصرخون، ويتزاحمون لكي ينزلوا على درجات السلالم الضيقة التي تؤدي إلى الكهوف. وتجمع الناس كلهم في هذه الملاجىء التي جُـهـزّت على عجل، ببعض المقاعد القديمة. وكان الأطفال يبكون. وكانت هناك امرأة، ذات قوة وعزم، فيما يظهر، قـرَّرت أنه ينبغي الدعاء إلى الله في مثل هذه الظروف، وهكذا، فمع أن الناس كانوا يلاحظون ضجة الطائرات القاذفة، فقد كانوا في الوقت نفسه يردّدون أدعية من نوع «أبانا الذي،...» و «السلام عليك يا مريم» بنوع من التقوى والحماسة، كانوا قد نسوهما منذ زمن طويل. وعندما أطلقت الصفارة التي تعلن نهاية الغارة، عاد كل إنسان إلى غرفته، مع الشعور بأنه هرب من الموت.

وقضت سلمى بقية الليل في اللعب بالورق مع زينيل، على نحو ما تعودته منذ بعض الوقت

عندما كان يصيبها الأرق . ولكن حتى لو أيقظته ، فإنه كان دوماً سعيداً بهذه اللحظات التي يقضيها معها . وكان ذلك كهدايا تقـدّمها له . وفي هذه الليلة ، كانا قد تناقشا مطـوّلاً ، وقبلت سلمى أخيراً أنه من الأفضل أن تسافر إلى سويسرا . وطلبت من زينيل أن يتدبر أمر البطاقات .

ولكن الصحف ، في اليوم التالي ، أعلنت أن الإنذار لم يكن إلا تجربة ، استجاب لها الشعب بصورة مرضية ، وأنه ، والحمد لله ، ما من طائرة ألمانية ، حـلّـقت في السماء الفرنسية . وعبثاً توسل الخصـيّ وتضـرَّع ، واحتج ، وأظهر العضب ، ذلك أن سلمى قـرّرت البقاء . ولم يكن يفهم معنى عنادها ، أما هي فإنها لم تكن ترى أي واحد من أصدقائها الباريسيين ، بدعوى أنهم كانوا يشعرونها بالملل . بل إنها لم تشر بشيء إلى ماري لور ، التي كان ينبغي أن تكون قد عادت إلى منزلها منذ أسبوعين على الأقل . وفي لحظة ما ، كان يرى أنها تنتظر أحد الناس ، ولعله هو الأمريكي ! ولكنه سرعان ما استبعد هذه الفرضية الغريبة . ذلك أن الرواية التي بدأها هذا الأخير مع سلمى ، مضت وانقضت . ولقد راقب البريد ولم يـرَ فيه أية رسالة من أمريكا ، منذ شهرين على الأقل . وكان يعرف سلمى بدرجة كافية ليرى أنها أعقل من أن تكون عاشقـة لرجـل غائب ، وفضلاً عن ذلك لا يكتب .

وفي أحد الأيام التالية ، كانت صفارات الإنذار تطلق في كل ساعة من النهار أو من الليل . وعلى حين أن الشوارع كانت تفرغ من جُـوّابها ، لأن كل واحد كان يعود على عجل إلى بيته ، فإن الناس انتهوا من ذلك إلى التعـوّد على هذه الحال ؛ على يأس من رؤساء المناطق ، الذين لم يعودوا قادرين على ضمان احترام أي نظام ، ذلك أن هؤلاء الناس يقولون في دخيلتهم ، إننا لن نمضي إلى حد إفساد الحياة ، على أنفسنا ، في الحين الذي تعلن فيه الصحف والإذاعة أن كل شيء هادىء .

وكانت الحرب إنما تجري على الجبهة الشرقية . فمنذ ٩ ايلول / سبتمبر / كانت المعركة صاخبة ، من أجل فرسوفيا . وكانت المدينة محاصرة ، تضربها الطائرات ، وتهاجمها الجيوش من كل ناحية ، فانتهت إلى التسليم بعد ثمانية عشر يوماً من المقاومة . وللمرة الخامسة ، قـسِّـمت بولونيا ، ولكن بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي ، هذه المرة .

ولقد بكى الناس قليلاً على هذه البلاد المخنوقة من « ضغط ابن آوى والخنزير عليها » ، على نحو ما أعلنت جريدة الماتان (الصباحية) ، وهـنّـأ الناس بعضهم بعضاً على أن فرنسا ليس لديها ما تخشاه مع وجود ١٥٠ كم من خط ماجينو . أولم يكن جيش الريخ الثالث أقل عدة وعدداً من الجيش الألماني عام ١٩١٤ ؟ وكانوا يعرفون أن الجنود يتلقون طعاماً وتجهيزات ضئيلة جداً .

أما الباريسيون الذين هربوا من العاصمة، لدى إعلان الحرب، فإنهم عادوا إليها. وعادت دور اللهو إلى سابق عهدها، وبدأت درو الخياطة تطلق ما ابتكرته من ثياب شتوية، وعادت الحياة في شهر تشرين الأول / اكتوبر / المشمس إلى ما كانت عليه من قبل. غير أن فناني الخياطة بسّطوا الفساتين، لكي تروق الأوانس لهؤلاء الجنود الشباب العائدين بأذون إلى البلد. إذ يجب أن تكون المرأة أنيقة، على بساطة، وسيكون ذلك «درُجة الحرب» التي تذيع الطقوم ذات اللون الأزرق R.A.F.[1]، ومانطويات «التعمية» ذات البقع الشبيهة بجلود النمور، والأقمشة المطبوعة «الدبابات» و «الإنذار الكاذب» و «الهجوم» بالإضافة هنا، وهناك، إلى برندوريات (أشرطة عرضانية على الصدر)، وبنود أكتاف، وأشرطة، هنا وهناك. وكما كتبت مجلة «حديقة الموضات»: «عليكن أيتها الآنسات أن تبقين جميلات، كما ترغب عيون أولئك الموجودين في الجبهة أن تراكن». ثم إن الإنفاق واجب وطني. وعليكن أن تقمن بهذه المهمة الأساسية التي تستطعن وحدكن القيام بها: أي «العمل على إبقاء الصناعة الكمالية حية لا تموت!».

ولكن سلمى لن تدعم هذا الجهد الحربي الجميل. ولم يعد معها شيء من المال، تقريباً. وعلى الرغم من البرقيات المرسلة إلى أمير، فإنها لم تتلق منه شيئاً. وتقول لزينيل الذي يعتريه القلق: إن هذا الأمر طبيعي ــ لأن البريد أصابه الاضطراب ــ ولكن كل شيء سيعود إلى ما كان، قريباً. والحقيقة أنها تتساءل عما إذا كان زوجها لم يسمع شيئاً عن علاقتها بهارفي.

ولكن مهما يكن من أمر، فإنها لا تريد أن تطلب منه مالاً. وليس في وسعها أن تفعل ذلك مع رجل تخدعه، وقرّرت تركه. ولقد كان أمير دوماً سليم النية معها. فهي تدين له على الأقل بهذا الاحترام.

وليكن ما يكون، فستتدبر أمرها بنفسها. وستبيع حليها كما فعلت أمها.

وتعود سلمى إلى ذكرياتها في بيروت، وترى نفسها في البهو الأصفر، مع السلطانة وسورين آغا، وترى قطع الحلي الفخمة التي تختفي تباعاً، الواحدة بعد الأخرى، في الكيس الجلدي لذلك الأرمني الصغير. وكانت قد أقسمت عندئذ أن هذا لن يقع لها، وأنها عَوْضُ لن ينقصها المال.

وها هي القصة تتكرّر.

وفي اليوم التالي، صباحاً، تمضي سلمى وزينيل إلى جاده Gadet حيث توجد سوق

(١) Royal Air Force أي بلون سلاح الجو البريطاني.

الحلي ــ بالرخصة ــ ودخلا واحدة من هذه الدكاكين القاتمة ، حيث يوجد رجال بلباس مصقول ، والمكبر مربوط على عيونهم ، ليفحصوا الحلي بوضع من يشك في سلامتها . آه ، ما أبعد ذلك الزمان ، زمان سورين آغا اللطيف ! ذلك أن هؤلاء التجار المتميزين بالفظاظة يجعلون السيدة الشابة تشعر بأنها سارقة تحاول أن تصرِّف ثمرات سرقاتها . حتى إن اثنين أو ثلاثة صرحوا بأن أكثر الحجارة مزيّفة ، أو من نوعية رديئة . ومن حسن الحظ أن زينيل هناك . فغضب ، وضرب على الطاولة ، وهـدَّد باستدعاء الشرطة . وعندئذ بدأ هؤلاء الرجال القاتمون بالتلاطف ، وقال أحدهم إنه يستطيع شراء الحلي كلها بخمسين ألف فرنك ، لا لشيء ، إلا لأنه يريد أن يساعد «السيدة» . وظنت سلمى بادىء الأمر ، أنه يهزأ منها ، وتقول :

ــ إن هذا لا يساوي حتى الواحد من العشرين من قيمتها !

ــ هذا هو الثمن فإما أن تقبليه ، أو ترفضيه ، وعاد إلى القسم الخلفي من دكانه .

وتتردد في الانصراف . ولكنها تفهم أنه لا خيار آخر أمامها . فخلال بضعة أسابيع ، سيولد الجنين . وهي بحاجة ماسة إلى المال . فتقوم بحساب سريع : إن هذا المال الذي يقدمه هذا الشقي ، يستطيع أن يقوم بأددها ثمانية أشهر ، وربما عشرة ، بالكثير من الحرص والانتباه . ومن الآن ، حتى نهاية هذه الأشهر ، يكون هارفي قد عاد . وتشير إشارة تعني أن في وسعه أن يأخذها . ولا تحتفظ من حليها إلا بعقد اللؤلؤ الذي جاءها من السلطانة ، وخاتم الزمرد الذي يحبه هارفي ، لأن له لون عينيه .

وهارفي ! إنه يبقى أملها الوحيد . ولقد كتبت إليه عدة رسائل ، بقيت كلها بلا جواب ، دون أن يساورها القلق ، وهي تكتب ، بصورة خاصة ، لكي تقضي بعض الوقت معه ، ذلك أنها تفهم أن الاتصالات بين باريس وقرى المكسيك الهندية ، ينبغي أن تكون كالأعجوبة . وبانتظار ما سيأتي ، تتحدث لعصفورها (القرقف) عن حبيبها الذي وضعته على مقربة من نافذة غرفتها . وفي كل مساء تنام وهي تضغط بيدها على الولاعة التي تركها لها . إنه سيصل عما قريب . وهي واثقة من ذلك ، لا سيما وأن أمريكا أعلنت حيادها . وليس عليه إلا أن يجد الوقت المناسب ليعثر على مركب ، وهذا قضية معقدة : فقلائل هم الذين يغامرون بالسفر منذ أن أغرق ، يوم ٥/٩/١٩٣٩ ، ذلك المركب الإنكليزي Athénia الذي كان ينقل المدنيين ، بفعل غواصة ألمانية . وكانت سلمى كثيرة الشك ، طيلة حياتها . أما هذه المرة فإنها تأبى هذا الشك : إذ إن مجرَّد وضع حبه مَوضعَ التساؤل ، يعني أنها خانته ... وهل تخون هارفي ؟

وحتى ذلك الحين ، كانت ترسل زينيل إلى بلازا آتيني ، ليأتيها ببريدها . ولكنها بدأت تشك

أنه توجد فيه رسائل من أمريكا ، يخفيها خصيّها . ولهذا قررت أن تذهب هي بنفسها ، غير عابئة ببسمة الحارس ، التي تبدو لها في كل مرة ، أكثر سخرية ، ولا سيما بعد ذلك اليوم الذي أشار عليها فيه بألا تزعج نفسها ، ويكفيه أن يعرف عنوانها ، ليكتبه على الرسائل التي تردها ، وستصل إليها بالبريد حتماً . فلما فوجئت بهذه الملاحظة ، احمرّت خجلاً وتمتمت بأنها دائمة التنقل : فعض شفتيه ، وشعرت هي بأنه فهم كل شيء وأن اللآلىء والفرو التي آلت على نفسها أن تضعها عندما تأتي لتراه لم تعد تعني شيئاً كثيراً بالنسبة إليه .

وما من تعاظم أكبر من تعاظم الذين يخدمون الأغنياء . ولكن سلمى مستعدة ، من أجل هارفي ، لتحمّل كل شيء ، حتى احتقار ذلك الخادم . ومع ذلك ، وحباً بالانتقام منه ، رأت أن تقدم له « بخشيشاً » عظيماً لا يملك الشجاعة لرفضه : وهو كل المال الذي أعطاها إياه زينيل ، لتشتري به « ديارة » لطفلها ، أي أقمطته .

ولم يعد لديها مسافة من سنتيم واحد ، ولم يبق أمامها إلا أن تعود إلى الفندق ماشية على قدميها . وببطء ، تجتاز جسر آلما ، وتمشي بحذر ، حتى لا تهز الجنين الذي تشعر أنه يتحرك في بطنها . ذلك أن الرفسة الأولى التي تلقتها في اليوم التالي لعرض ١٤ تموز / يوليو / ، قد سبّبت لها خوفاً شديداً ، فهرعت إلى الطبيب الذي طمأنها ، وهو يضحك . وأوضح لها أن الأمر كذلك لدى كل اللواتي سيصبحن أمهات . ولقد شكرته ، ولكنها لم تصدّق من كلامه شيئاً . وحقاً فإن هذا الجنين يجب أن يكون أقوى من الآخرين . ويكفي أن تخلد إلى النوم حتى يذكّرها برفسة قوية ، كما لو أن الراحة في هذا البطن ، تفقده الصبر ، وأنه ما دام لا يستطيع أن يرى العالم ، فليشعر على الأقل ، بأن هذا العالم يتحرّك حوله . وهكذا فقد عوّدت سلمى نفسها على إطالة النزهات في الحدائق والمتاحف ، لأنها مقتنعة بأن الهيجان الذي تشعر به أمام هذا الجمال ، كان ضرورياً للطفل ، كالهواء وكالغذاء الذي تنقله إليه بسيرورة لم يكن لها أدنى رغبة في فهمها .

وفي هذا اليوم ، ولدى عودتها من نزل بلازا ، كانت تقول لنفسها ان مبادرتها إلى إعطاء الخادم ذلك البخشيش ، والتي قد يعتبرها زينيل عملاً غير معقول ، كانت أكبر أهمية للطفل من كل أقمطة العالم ، لأنه ملتف على نفسه فيها ، متعلق بقوة بها ، وإذن فلا يمكن إلا أن يتأثر بما يساورها من مشاعر الثورة أو الزهو .

— إنك أيها السيد ، أب ، لبنت صغيرة حلوة .

وخرجت القابلة، مشرقة الوجه، من الغرفة التي كان زينيل يقطعها ذهاباً وإياباً، منذ الصباح، ذاكراً كل أسماء الله الحسنى، مستعيناً بها. وكانت الشمس قد غابت منذ مدة طويلة، فتتنفس القابلة مرتاحة، بعد أن أرهقت نفسها، تقريباً كالأم التي ظنت عدة مرات أن قلبها على وشك أن يتوقف. فلقد كانت الولادة صعبة بشكل خاص: فهي نحيلة والوليدة ضخمة (ثلاثة كيلويات ونصف الكيلو) «أيها السيد: في وسعك أن تكون فخوراً».

ومشى زينيل على رؤوس أصابع رجليه، ودخل الغرفة التي كانت فيها الوالدة تستريح، وهي شاحبة اللون كالميتة. وبدا له من خلال دموعه، أنه في استامبول من جديد، وأن هذا الشكل الساكن في السرير، إن هو إلا السلطانة، وأن هذه الحزمة الحمراء التي (تفحّ) هي طفلتها، سلمى الصغيرة...

ـــ وإذن يا زينيل، ألا تهنئني؟

وأخرجه هذا الصوت المرهق، الساخر قليلاً، من حلمه.

سلمى! أيّ غبي هو إذ يكرِّر الماضي على حين أن ابنته الصغيرة هنا، هذه الابنة التي طالما تعذبت، واشتد عليها الندم، فاندفع نحو السرير وأخذ يديها، وبدأ يقبلهما وهو يتمتم بكلمات شكر لم تفهمها.

ولما كانت القابلة حريصة على سرية العلاقات الحميمة، فقد استأذنت بالانصراف. وستعود غداً صباحاً.

ـــ ومن الآن حتى الغد، فكّري بالاسم الذي ستسمينها به، ذلك أنه يجب عليّ أن أذهب إلى دار البلدية، لأخبر بولادتها.

وأجابت سلمى ببسمة لا مجال لتحديدها:

ـــ لا تحملي هذا العناء. فزينيل سيقوم عنك به.

وكان قنديل النوم يضيء الغرفة بلون مائل إلى الحمرة. فمنذ مدة طويلة مضى زينيل لينام بعد أن حطمته هيجانات النهار؛ وكانت سلمى وحدها مع الوليدة التي ترقد إلى جانبها.

إنها بنت صغيرة : والقـدَر هو الذي قـرَّر ذلك . وربما هو الذي يرشدها إلى الطريق . **كل** شيء الآن ، إذن ، بسيط ، بديهي . فطفلتها ستكون حـرّة ! وحتى لو اضطرت سلمى إلى الاختباء ، فإنها لن تعود إلى الهند . وأقسَـمَـت على ذلك ، على سرير ابنتها .

٥

أول كانون الأول / ديسمبر / ١٩٣٩ .

« صاحب السمو

« نخرج الآن من كابوس طويل ، ولهذا لم نرسل إليك أخبارنا منذ بعض الوقت . فالراني كانت مريضة جداً ، وظننا أننا سنفقدها ، على الرغم من أنها ما تزال ضعيفة جداً . ومن المؤسف أنه حدث أمر رهيب ، وعلى الأرجح فإنك حزرته . وفي يوم ١٤ تشرين الثاني / نوفمبر / ، تمت ولادة الأميرة ».

ووقف زينيل ، وفي يده القلم الذي يرتجف : إن هذا مستحيل ، فلا يمكن أن يكتب هذه الكلمات المخيفة . إذ إن هذا سيحمل الشر إلى الطفلة . وسيُعاقبهم الله ! وقد اعترت جسمه كله رعشة طويلة ، وهو خائف ، خائف من الجريمة التي يتهيأ لارتكابها . ولكنه إذا تراجع ، فماذا ؟ إنه يعرف سلماه . إذ لن تغفر ذلك له أبداً . وستقدِّر أنه خانها . وبدلاً من أن تكاشفه بما يحدث لها ، كما صارت تفعل أكثر فأكثر منذ أن صارا وحيدين في باريس ، فإنها ستعامله كأجنبي . وهذا مما لا يقوى عليه . وعلى كل حال ، فإنها ربما كانت على حق في أن تريد الانفصال عن الراجاه ، إذ هو كان يشقي حياتها . أولم يسجنها أسبوعين ، لأنها قبلت دعوة إلى الرقص ؟ أولم تشرف على الموت لهذا السبب ؟ إن على زينيل أن يحميها ، تماماً كما وعد السلطانة بذلك ، وهي على فراش الموت .

فيضغط على أسنانه ، ويعود فيخط هذه الكلمات :

« في يوم ١٤ / ١١ / ١٩٣٩ ، ولدت الأميرة طفلة ، ميتة » .

لقد كتب ذلك . وبنوع من الخجل ، بدأ الخصيّ ينظر إلى هذه العلامات السوداء ، التي تغيِّر ، دفعة واحدة ، مصير كائن إنساني . فعند الراجاه ، هذه الطفلة لم تعد موجودة . وبكلمة واحدة ، جعلها تزول .

وعندما كلمته سلمى ، عن مشروعها ، قبل عدة أيام ، قدّر هو أنه مخاوف الولادة قد أفسدت عقلها ؛ ثم إنه كان لا بدَّ من الإقرار بالواقع ؛ إذ لم يكن ذلك مجرَّد نزوة عارضة ، على نحو ما كان يحدث لها أحياناً ، ولكنه قرار فكّرت فيه مدة طويلة ، واستقرّ رأيها حوله . كانت تخشى أن يرغمهما ، بنوع من المساومة على الطفلة ، على العودة إلى الهند .

وكان قد رفض ذلك بوضوح ، مرعوباً من هذا المشروع الذي كان يرى أنه إجرامي . إذ كيف تستطيع أم أن تعلن أن وليدها مات فور ولادته ؟ إن هذا ليبدو له في مثل النذالة التي قد توصف بها ، إذا هي قتلته فوراً . ولما رأى أنها معاندة ، حاول أن يردّها إلى رشدها ، مقدِّماً حججاً عملية : فليس لها هي أية ثروة شخصية ، فمِمّ سيعيشون هم الثلاثة ؟ وأجابت سلمى بأنها ستعيش مما بقي من بيع مجوهراتها . ويمكنها أن تكتفي بها لمدة ستة أشهر على الأقل . ثم سيكون هنالك مورد البترول .

ــ البترول ؟

ــ إنك تعرف جيداً أن بترول الموصل في العراق ، اشتراه السلطان عبد الحميد ، وهو ثروة خاصة بالأسرة . وقبل أن أترك الهند ، تلقيت رسالة من عمي سليم يعلمني فيه أن الحكومة العراقية ، قبلت بأن تعوضنا عنه . وجاءت هذه الحرب البشعة ، فأخّرت كل شيء . ولكنها لن تدوم إلى الأبد . وعما قريب ، سنكون أغنياء يا زينيل !

فأخذ بيديها ضاحكاً ، ولم يطاوعه قلبه بالحديث عن شكوكه إذ أن وسع الحكومة العراقية أن تضم إليها الأراضي التي يوجد فيها النفط دون أن تدفع أي تعويض . ومن ذا الذي سينهض للدفاع عن حقوق أسرة منفيين ، لم تعد على المستوى السياسي ، تُمثّل شيئاً ؟

وتمتم :

ــــ حسناً ، فلعلك سترثين . ولكن هذا لن يغـيِّـر موقفي : وأنا لن أكون من المتواطئين في أمر شيطاني بهذا القدر .

وصرخت سلمى ، والدموع تغرورق في عينيها .

ــــ إنك لا تفهم شيئاً . وأنا الذي كنت أعتقد أنك تحبني ! أفتريدني أن أصبح سجينة من جديد ؟ وهل تريد لابنتي ألا تعرف من الدنيا إلا الحجاب ، والجدران المغلقة ، والخضوع لراجاه عجوز سيزوجونها له منذ أن تبلغ الثانية عشرة ، بحجة أنه غني ؟ إنني لن أقبل بهذا أبداً . وإن شئت التخلي عني ، فليكن ما يكون . سأبقى هنا ، وحدي مع طفلتي . وأضافت تقول : ولكن مما يجرحني ويعذبني ، هو أنك أكثر ولاءً للراجاه الذي لا يُمثِّل شيئاً بالنسبة إليك ، منك لأسرتنا ...

وأدارت له ظهرها . وخلال أيام بقيت لا تكلمه ، باكية ، وترفض كل طعام ؛ وكان يعرف هو أنها تفعل ذلك لكي ترغمه على القبول . ولكنه يعرف أيضاً أنها قادرة على أن توقع نفسها في المرض . فماذا يفعل عندئذ بالطفلة ؟ ولما كانت سلمى تلاحظ تردد زينيل ، فقد عمدت إلى تغيير أسلوبها ، بوصفها له الحياة الحلوة التي سيعيشونها في هذه البلد حيث لا توجد أية مستبقات متخلفة من عهد سابق ، تضـيِّـق عليهم أبواب الحياة . وسيؤلفون معاً ما يشبه الأسرة .

غير أنها لم توضح شيئاً . ولكنه كان من السهل أن يَفهم ما تعنيه : كانت تعـلّله بهروب كثيراً ما كان يحلم به ، ولكنه كان يعرف أنه أمر مستحيل . ذلك أن سجنه هو ، كان محفوراً في جسده . أو قل إن هذا ما اعتقده دائماً حتى مجيئه إلى أوروبا . ولكنه عندما لاحظ أن الناس يعتبرونه أباً لسلمى أو زوجها أحياناً ، فإن العالم تغيّـر لونه . وفجأة لم يعد حصـيّـاً ، بل رجلاً ، يبدو وسيماً ، وكانوا يحيطونه بالاحترام ، على حين أنه في الهند ، حيث يعرف كل الناس وضعه ، كان يحزر الضحك الذي تخفيه عنه بأيديهن ، النساء والشباب . فهناك ، كما في كل مكان ، اندرست عادة الخصيان ، ولم يبق من هؤلاء إلا عدد قليل من السود ، بلا تربية ولا رهافة ، وكل ما هم قادرون عليه هو حراسة أبواب الحريم ، وأصلاً فإن زينيل يحتقر هؤلاء كل الاحتقار . أما في تركيا فقد كان الأمر مختلفاً جداً ! فخصيان القصر كانوا موضع خوف النساء ، لأنهم يمثِّـلون أذني السـيِّـد ، وكثيراً ما كانوا مستشاريه . فقيصر آغا ، رئيس الخصيان السود عند السلطان ، كان أحد الشخصيات الكبرى في المملكة . وربما كان أقوى من الوزراء ... ولكن هذا العهد مضى وانقضى ، مع الأسف ! إذ لم يبق شيء من المجد والسلطة ، أو لا شيء غير التشويه الذي يجعل من الخصـيّ موضع احتقار .

وبعد أن فـكّـر زينيل في أمره هذا أياماً وليالي ، عاد إلى سلمى ليقول لها : إنه لا يحتمل أن

يراها تعيسة ، وأنه سيعمل طبقاً لرغباتها . وهو يجهل أنها كتبت لهارفي ، ولكن الأسرة التي عرضتها عليه ، والمؤلفة من ثلاثة أعضاء هي في الحقيقة أربعة أعضاء . ولكنها حذرت من أن تقول هذا له : فاو فعلت ، لكان هذا أضمن وسيلة لإبقاء زينيل ثابتاً في موقفه .

ذلك أن فكرة مجنونة عرضت لها ، ودفعتها عنها أول الأمر ، ولكنها بالتدريج فرضت نفسها عليها وانتهت بالاستيلاء على كامل عقلها . وكان ذلك عندما كانت تجهز سرير ابنتها ، وتتأمل في عينيها البنيتي اللون ، اللتين كانتا بدأتا تميلان إلى اللون الذهبي . وكانت مندهشة من ملاحظتها أنهما تشبهان عيني هارفي بشكل غريب ، كما لو أن رغبتها بأن تكون مه ، قد انطبعت على سمات الطفلة .

ولكن هب أنها قالت له : إن هده طفلته ؟ دلك أن هذه الطفلة بحاجة إلى أب . وأي أب يمكن أن تحصل عليه ، أفضل من هارفي ؟ وهو نفسه ، كيف يعرف جلية الأمر ؟ فمع تقلب الأحوال ــ إذ ظن الناس في بداية تشرين الثاني / نوفمبر / ، أن الألمان سيهاجمون فرنسا ــ لم يعد هارفي يستطيع العودة إلى فرنسا قبل عدة أشهر . فإذا وصل ، وجد أمامه بنتاً صغيرة حلوة ، على نحو ما حلم بمثلها له ، ولو أنها أنمى بقليل مما يجب لعمرها ، وهذا كل شيء !

وترتعد سلمى . إن هذا مستحيل ، إذ أنها لا تستطيع أن تكذب هكذا على الرجل الذي تحبه ... ولكن هل هذا كذب ؟ ... أوليست هذه الطفلة أقرب إلى هارفي منها إلى أمير ؟ ... أمير الذي يبدو لها بعيداً جداً ، والذي تكاد أن تكون نسيته ... فهذه الطفلة تفتّحت في بطنها على مداعبات هارفي : وهذه الحرارة التي كانت تشعر بها ، وتنقلها إليها ــ كالشمس التي تجعل من العشبة الصغيرة شجيرة ــ كانت تأتيها من حنانه . فلو أنها بقيت في الهند ، قلقة ، يائسة من هذا الحمل الذي يبقيها أسيرة لزوجٍ لم يكن يحسن حبها ــ إذن لولدت الطفلة ــ وهي متأكدة من ذلك ــ هزيلة ، معجونة بآلام أمها ، هذا إن لم تثبّط عزيمتها على الطريق .

لكن هذه الطفلة صورة للسعادة ، تلك السعادة التي منحها إياها هارفي . فإذا قالت له : إنها منه ، أفلا يكون ذلك إثباتاً لحقيقة أعمق من تلك التي تأتي بها المصادفات ، أو الأحداث التي وصلت بها ، من دون أن تشارك هي فيها ؟ وهي لا تعرف كيف تشرح هذا الأمر ، ولكنها تعرف فقط أن التواريخ والمنطق عاجزان عن أن تعلّل ما تشعر في أعماق نفسها ، أنه هو الحقيقة . إنها حقيقة متحرّرة من ماضٍ مرَّت به ، كغريبة عنه ، وهي حقيقة متجذرة بقوة في هذا الحاضر الذي تحياه بكامل كيانها .

ولهذا فقد كتبت وهي مطمئنة النفس إلى هارفي تقول : إنها تنتظر طفلاً منه .

ـــ أدوماً بلا بريد؟

ـــ لا، يا سيدة، لا شيء لك.

وها نحن الآن في أول شباط / فبراير /، وسلمى لم تتلق أي جواب من هارفي، على كونها قد كتبت له أربع رسائل إلى مسكنه في نيويورك، دون أن تنسى تشويه كتابتها، حتى لا تتير غيرة زوجته. وهي لا تعرف شيئاً عن وصعه الحالي: فهل تم الطلاق؟ وهل يسكن دوماً مع أورسولا؟ لا بدّ لاصطراب البريد من أن يفسِّر فقدان بعض الرسائل، ولكنه لا يفسِّر فقدانها كلها.

وبدأت تشعر بالقلق. وها قد مضت الآن خمسة أشهر ولم تتلق أي خبر. فهل يكون هارفي مريضاً، بدرجة لا تسمح له بالكتابة؟ أو ربما يكون قد حدث له حادث خطير؟

ومن حسن الحظ أن الطفلة تشغل سلمى بدرجة كافية، وتمنعها من الملل. إنها لطيفة جداً! وهي تضحك متى عرفت صوت أمها، وتبكي أيضاً بعض التيء ـــ وعمرها الآن تسعة أشهر، وبدأت بعض أسنانها بالظهور.

ـــ يا سيدة!

وكان هذا صوت رب الفندق الذي استوقفها قليلاً في اللحظة التي كانت فيها على وشك الصعود في المصعد.

ـــ سيدتي، هل في وسعك أن تقولي لي، كم ستبقين عندنا؟

ـــ ... ولكني لا أعرف ... ربما بقيت شهرين أو ثلاثة، على ما أظن.

ـــ ذلك أني ... سأكون بحاجة إلى هذه الغرف. فلدينا زبائن يـ ...

وكانت سلمى تنظر إليه بازدراء، مدهوشة.

ـــ إن الفندق ليس ممتلئاً، فيما أعلم. والسواح ليسوا بهذه الكثرة حالياً!

ـــ لا، ولكن ... هاك حقيقة الأمر: إن طفلتك توقظ الزبائن. وقد رحل عنا كثيرون. وأنا آسف، يا سيدتي، ولكن يجب أن تبحثي عن فندق آخر، او بانسيون للأسر ... وأنا أعرف واحداً منها، كما ينبغي. يقع في جادة سكريب Scribe، على مقربة من الأوبرا.

فشعرت سلمى بأنها مسحوقة. فلقد كانت على ما يرام هنا، مع هذه الحديقة. وعندما رأى المدير اضطرابها، وما هو بالرجل السيء، فقد حاول أن يبرِّر موقفه.

ـــ لقد عملنا ما نستطيع. ذلك أننا لا نرضى أن نأبى استضافة سيدة شابة. أما حول الولادة، فإننا لم نقل شيئاً. ولكننا لم نفكر قط في أن الأمر سيتطور إلى هذه الحال! فلو أنك أنت، أو الطفلة، قد حدث لكما حادث ـــ لا سمح الله ـــ إذن لقدَّرتِ كم هي صور التعقيد التي تنشأ لنا عن ذلك.

فانتصبت سلمى.

ـــ وحقاً، فقد كان يمكن أن نموت؛ فتأكد، أيها السيد، أنني كنت سآسف جداً، من أجلك! ولكن لا تخف. سنرحل عنك بعد هذا الظهر. ولكن تفضل فاهتف إلى هذا الفندق في شارع سكريب، لكي نعرف ما إذا كان لديهم مكان لنا.

ـــ ذلك... أني قد هتفت مسبقاً. ولديهم غرف حرّة.

ـــ حسناً، هيء لي الحساب.

وخجل الرجل، وأخذ يعتذر بقدر ما يستطيع.

ـــ ليس الأمر بمستعجل، وفي وسعك البقاء يوماً أو أكثر إن شئت...

ـــ أما بالنسبة إليّ فالأمر مستعجل، حتى بالساعة.

وفندق جادة السكريب، المسمى على سبيل التفخيم «فندق الملك Hotel du Roy» فندق من الدرجة الثالثة، تقصده البورجوازية الصغيرة القادمة من المحافظات لقضاء بضعة أيام في باريس، كما يقصده أزواج ينتظرون شققهم، ويستأجرون الغرفة شهرياً. وليس فيه قاعة استقبال، بل فيه غرفة طعام صغيرة، يقدّمون فيها طعامهم بسعر ثابت. وعندما رأى الحارس هذه السيدة الأنيقة، ظنّ أنها ضلّت الطريق، ثم إنه لمح السيد ومعه الصغيرة، وفهم أن هؤلاء هم الغرباء الذي أُعلم بأمرهم.

ـــ من هنا، أيتها السيدة، إذ لقد حجزنا لك أفضل غرفتين لدينا، مع غرفة حمام!

وفهمت سلمى من اللهجة التي قال بها كلمة « غرفة » أنه يجب أن يكونوا الوحيدين الذي يتمتعون بهذه النعمة . فتلتفت إلى زينيل ، وتقول له بشيء من الخبث :

ـــ إنك مسرور الآن ، كما أرجو . فهذا النوع من الفنادق لن يثقل على موازنتنا !

ولكن زينيل لا يسمعها : فهو في غاية السرور ، ذلك أنه وهو يجتاز الممر ، رأى امرأة من خادمات الغرف ، تكيل له المديح ، بسبب « طفله » .

وكان لهذا الفندق ميزة أخرى : هي الابتعاد عن عون القابلة التي ساعدت على ولادة الطفلة . ذلك أن سلمى لم تكن قد أبلغت الجهة المسؤولة بولادتها ، وليس لها أي نية في أن تفعل ذلك قبل ١٥ شباط / فبراير / ذلك أن هذا الموعد ينتزع من الراجاه كل حق (إن عاد ليجدهما) على الطفلة ـــ فمن المؤكد أن زوجته لا يمكن أن تكون قد حملتها اثني عشر شهراً ـــ وبالمقابل فإنه يجعل أبـوّة هارفي مقبولة .

وتلاءمت بلا صعوبة ، مع حارتها الجديدة ، التي هي آخر الأمر ، أقرب إلى النفس من الحي السابع ، الأرستقراطي والمتصنع . ثم إن الحياة عادت إلى مجراها الطبيعي تقريباً . فالمسارح ودور السينما لا تفرغ ، والمراقص التي كانوا قد أغلقوها ثلاثة أشهر ، احتراماً للمحاربين ، عادت ففتحت أبوابها ، في كانون الأول / ديسمبر / ، لأن أحداً لا يحارب ! ويمكن أن يظن الإنسان أنه يعيش في زمن السلم ، لولا قلة سيارات التاكسي ، التي صودر نصفها ، ولولا وجود أيام لا حلوى فيها ولا مشروبات روحية ولا لحم . لكن الباريسيين يجدون في ذلك سبيلاً إلى المزاح : فإذا لم يكن هنالك لحم ، فسنأكل اللانغوست . بل إن الحكومة توقفت الآن عن إطلاق صفارات الإنذار ، إلا ظهر يوم الخميس ، على سبيل التجربة ، كما في أيام السلم .

ولا يكاد الإنسان يتذكر أنه في أيام الحرب ، إلا في الليل فقط ، وذلك بسبب المصابيح التي طليت باللون الأزرق . ولكن الناس اعتادوا ذلك ، كما يعتادون على كل شيء . ويكفي أن لا ينسى الإنسان مصباح الجيب . بل إن الخياطين أخذوا يطلقون موضة القبعات ذات الأزهار الفوسفورية التي تضمن للإنسان إضاءة لطيفة ... وكانت الفكرة بذاتها مضيئة .

والحقيقة أنه ما من أحد يأخذ مأخذ الجد هذه الحرب التي يسمونها باسم : « الحرب الغريبة » . وتأتي الصحف فتساهم في تعزيز هذا التفاؤل السائد . وفي اليوم الأول من كانون الثاني

/ يناير / عام ١٩٤٠ ، وعلى سبيل ما يسمى بهدايا رأس السنة قامت جريدة الماتان بتقديم « النصر » كهدية إذ تقول : « إن أعداءنا ، مغلوبون ، من الوجهة المعنوية . ويمكن القول إننا كسبنا الحرب سياسياً ، ولم يبق إلا أن نكسب النصر العسكري : ولن نقصِّر في ذلك » .

غير أن الناس أصبحوا يشكّون في أن تغامر ألمانيا بمهاجمة فرنسا التي يكشفون كل يوم ، في الأخبار المصوّرة ، عن عظمة قوتها . ثم إن هناك إنكلترا ، ووراءها أمبراطوريتها ، المستودع الذي لا تنضب فيه الجنود . حتى إن صاحب الفندق الذي رأى جواز السفر البريطاني العائد لسلمى ، اعتبرها إنكليزية ، ولم يعد يُقصّر كلما رآها ، في التحدث إليها عما سيفعله نشرشل ، وجلالته ، التي لا بد من أن تكون قريبة لزبونته هذه ، أو على الأقل ذات علاقة حميمة به . وبطبيعة الحال فقد حذرَتْ سلمى من أن تبدِّد له هذا الخطأ ، وانتهزته فرصة ، ليمنحها بعض الامتيازات . كتحسين غرفتها ، التي أصبحت شبه معقولة ، وتقديم طعام الصباح على السرير . وغار الزبائن الآخرون من هذه الامتيازات بعض الشيء . ولكن صاحب الفندق ، سرعان ما ردَّ عليهم بلهجة لا تقبل الردّ ، بأنه لا يستطيع ، على كل حال ، أن يأبى على شخصٍ في مثل هذا التميّز ، بعض الخدمات الصغيرة .

ومن بين زبائن هذا الفندق ، عرفت سلمى امرأة سمراء ، تمتهن التمثيل كمهنة ، وكذلك فإنها كما تقول : ساحرة بعض الشيء . وقد كسبت شيئاً من الشهرة بحكم موهبتها في هذا الباب . فهي تستقبل بعد الظهر زبائنها في إحدى زوايا غرفة الطعام ، حيث أقامت مكتبها ، بموافقة من صاحب الفندق الذي وجد في هذا الأمر ، وسيلة لاجتذاب الناس إلى تناول الشاي أو الأشربة المشهية .

وكما يحدث عادة للكثيرين من الذين يملكون مواهب طبيعية ، فإن جوزيان هذه تحتقر موهبتها ، ولا تطمح إلا إلى أمجاد التمثيل . فهي تعرف كل شيء عن المسرح ، وهوس الممثلين ، ومكائدهم العاطفية ، ولا يمكن أن تفرغ جعبتها من هذا النوع من القصص . وهكذا فإنها استهوت سلمى التي لم تفقد فضولها كمراهقة ، لعالم المسرح وحلفياته . وقد اقترحت على سلمى مرّة أن تيسّر لها اللقاء بالفنانين الجدُد . فلأول مرة منذ الوضع ، تركت ابنتها في رعاية زينيل ، بالرغم من احتجاجاته ، لا سيّما وأنه لا يحب هذه « التاتورحية » . ولكنها تعوّدت ذلك منه . فرينيل لا يحب أبداً أصدقاءها الجدُد . وقامت جوزيان بمهمتها ، فجعلتها تقضي ليلة كاملة في كباريهات غامضة في مونبارناس ، والحي اللاتيني ، حيث تقوم « أمجاد الغد » بالعزف على القيثارة ، أو بحكها على الأقل . ولم تتأثر سلمى كثيراً بهذا الذي رأته ، ولكنها تمتعت متعة مناسبة . ذلك أن هذه التسليات مما

يُرَحّب به ، لا سيّما وأنها أخذت تشعر بأن « العصبيّة » بدأت تأخذ بتلابيبها : ذلك أن شهر شباط / فبراير / أوشك على الانتهاء ، ولم تتلق بعد أي خبر من هارفي .

وسلمى تقضي الساعات ، وهي جالسة بقرب ابنتها الصغيرة النائمة ، في تذكّر الأسابيع الأربعة التي قضتها مع صاحبها هارفي . وهي تتذكر كل لحظة ــ وكل كلمة من كلماته ، وكل بسمة من بسماته ــ وكل واحدة من مداعباته ، طبعاً ــ بدقةٍ تستغربها . وهي واثقة بأن هارفي ، هو أيضاً ، لا ينساها . وتدهش لهذه القناعة لا سيّما وأنها لم تكن قط لتثق بأحد ! واليوم ، وكل الظواهر ، تدل على انقضاء هذا الحب ــ فإنها إذا جاءتها صديقةٌ تقصّ عليها ، مثل قصّتها هذه ، فإنها ستنظر إليها ، ولاريب ، بعين الإشفاق ، مقتنعة بأن حبيبها ذاك قد تخلّى عنها . أما هي فلا تشك مطلقاً في هارفي ، لأنه هارفي . ذلك أن ما حدث بينهما مختلف : فهما لم يختر كل منهما الآخر ، بل إنها نوع من « القبلية » التي ساقت أحدَهما إلى الآخر ، من دون أن تترك لأيٍ منهما أيّ سبيل إلى المقاومة . وتشعر باكتمال لا تستطيع أن تفسِّره ؛ وتقول لنفسها : إنه عندما يعيش الإنسان بهذا الاكتمال ، حتى ولو دام ذلك عدة لحظات فقط ، فإنه يذوق الخلود ، وعندئذ لن يكون للموت من معنى .

وأنّت الطفلة في مهدها . فانحنت سلمى ، مذهولة ، عليها ، وبدأت تداعب شعرها الحريري ، بحنان . ولكن كيف تجرؤ على التفكير بالموت عندما تكون ابنتها هنا ، وهي بأمسٌ الحاجة إلى أمّها ؟ لا سيما وأنها أخذت تشبه هارفي أكثر فأكثر . وقد حان الوقت الآن للتصريح عنها . ولكن كيف تفعل ؟ وكيف تبرّر أمام السلطات تأخرها عن ذلك مدة ثلاثة أشهر . وكانت سلمى لا تفتأ منذ عدة أيام ، تبحث عن حلٍ لهذه المشكلة .

وجاءت جوزيان ، فعرضت عليها خدماتها .

ــ إني لا أريد أن أكون فضولية . ولكني إذا استطعت أن أساعدك ... فأنا أعرف باريس ، كما أعرف ما في جيبي . فقد وُلِدت فيها .

ولم يكن لسلمى أي خيار . فصرّحت لها بمشكلتها ، دون أن تذكر هارفي . وكانت تعزو إلى جهلها بالقانون الفرنسي ، أنها لم تصرّح عن المولود منذ ولادته .

فنظرت جوزيان إليها نظرة من يتفرّسُها .

ــ حسناً ! إنك لم تصرّحي عنها . ولكنّ علينا الآن أن نجد قابلة تشهد بأنها ولّدتك .

وهذا صعب ، على الرغم من أني أعرف واحدة ، ربما ... ولكنها تغامر ، وإذا هي افتضح أمرها ، فإنها لن تستطيع بعد ذلك أن تمارس مهنتها . لا ريب أنها ستطلب الثمن غالياً .

ولما رأت سلمى مترددة ، عادت إلى الكلام .

ــ الحقيقة ، أن من الأفضل أن تذهبي إلى دار البلدية مع القابلة التي عُنيت بأمرك ، وستقولين بأنك لا تعرفين القانون ، أو أنك نسيتِ ، أو شيئاً ما من هذا النوع ، لا على التعيين !

ــ إن هذا مستحيل .

وتتفرس جوزيان وجه سلمى المحمرّ . وأصبحت تعرف ما كانت تريد أن تعرفه : فهذه الأميرة ، ذات النظرات البريئة عازمة على إعطاء تصريح مزيّف . ولهذا فإنها لا تستطيع أن تطلب شيئاً من المرأة التي ولّدتها .

ــ هيّا ، لا تقلبي سحنتك . وسنُسوِّي الأمر .. وأنت تعرفين أنني سأفعل كل شيء لإنقاذك من هده الورطة . فمنذ الغد ، سأذهب لأرى هذه المرأة .

وفي الغد ، عادت جوزيان ، وعليها سماتُ الانزعاج ، وقالت لسلمى :

ــ إن هذه المرأة مجنونة . وهي تطلب مبلغاً ضخماً . ولا أظن أن من المجدي أن نبحث فيه .

وسألتها سلمى ، وقد تجمّد الدم في عروقها .

ــ كم طلبت ؟

ــ لا ، لا . ليس الأمر موضوع بحث . إنه مبلغ كبير جداً ... إنها تطلب مبلغ عشرين ألف فرنك .

ــ ٢٠٫٠٠٠ فرنك ؟ هذا مبلغ ضخم !

ــ هذا غير معقول ، وتقول إنها تكرِّمني ، لأنها تعرفني ، وأظن أن من الأفضل أن لا تصرّحي بالطفلة . وأخيراً ، فما من أحدٍ يطالبك بشيء . وطبعاً ، إدا حدث ذات يوم أن كانت هناك مراقبة ــ وفي زمن الحرب ، فإن المسؤولين يميلون إلى مراقبة الأجانب ــ فقد تلقين بعض المتاعب : وقد يظنون أنك سرقت الطفلة ، ويستردونها منك . فلقد سمعت من يقول ...

وقاطعتها سلمى قائلة :

ــ هذا يكفي . سأدفع . فهل يمكن أن نذهب لنراها غداً بعد الظهر ؟ أي ما يكفي من الزمن لأمُـرّ بالمصرف ؟

ودهشت جوزيان وقالت :

ــ نحن ؟ لا أظنك تفكرين بهذا ، لأنها لن تقبل أبداً أن تلقاك . فهي شديدة الحذر ، ولا تقبلني كوسيطة ، إلا لأنها تعرفني منذ مدة طويلة .

وتستسلم سلمى ، رغماً عنها . وهي تفكر أن جوزيان لا تقول لها كل الحقيقة ، وأنها تدوِّر الرقم المطلوب ، لكي تحتفظ لنفسها بجزءٍ منه . وعلى كـلِّ حالٍ ، فإنها لا ترى حلاً آخر .

وفي اليوم التالي ، تدفع لجوزيان المبلغ المتفق عليه . ثم تذهب مع زينيل والطفلة في نزهة ، لإراحة أعصابها . وعندما عادت ، علمت بأن المرأة تركت الفندق ، ولم تترك عنواناً .

غير أن الخبر الذي أذيع ، والقائل : إن ألمانيا تعتمد على الغواصات لتعوق تسليح إنكلترا وتموينها ، بواسطة الولايات المتحدة ، كان أسعد خبر تلقته ذلك العام : ذلك أنها أصبحت تفهم بصورة أفضل ، لماذا لا تتلقى الرسائل من هارفي . ومن جديد تشعر بأنها خفيفة ، لا سيما وأن الحرب على وشك الانتهاء : والمشكلة كلها هي مشكلة عدة أشهر ، وما هي بحرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ ! وكانت سلمى صغيرة جداً ، ولكنها تتذكر ، كما لو أن الأمر تـمّ البارحة ، تتذكر التعاسة التي خيّمت على استامبول ، والمستشفيات الممتلئة بالجرحى ، وبالأسر المحزونة لقتل أبنائها . أما هنا فما من أحد يأخذ الأحداث مأخذ الجد . وبالعكس ، فالناس يسخرون من الضعف العسكري الملاحظ ، في الاتحاد السوفييتي الذي ظل ثلاثة أشهر يقاتل ويهاجم ، حتى قضى على فنلندا الصغيرة . ثم إن الناس يتحدثون عن الحرمان الذي يعيش فيه الجنود الألمان الذين يقاتلون ، وهم يلبسون الخرق البالية ، وبطونهم خاوية . ومع ذلك فإن هذا الجيش هاجم الدانمارك التي لم تستطع الوقوف لحظة واحدة . وكذلك كانت النرويج على الرغم من الحملة العسكرية الفرنسية ــ البريطانية التي أرسلت لدعمها ، فقد استسلمت هي الأخرى .

وكانت سلمى ، الحريصة على تكوين فكرة دقيقة عن الموقف ، تقرأ كل يوم جريدتين أو ثلاثاً ، وتستمع للإذاعة . ولكنها جميعاً لا تتحدث إلا عن المجاعة التي تجتاح الريخ ، وعن الاستياء المتزايد ضد النظام النازي ، وعن المرض الخطير الذي أصيب به هتلر ، والذي ربما أرغمه على

الانسحاب من الحكم . أما رجال السياسة ، فإنهم يستمرون في التصريح بأنه لا يوجد أي مبـرِّر للقلق .

وعلى ذلك فإنه ما من أحد يشعر بالقلق . وها قد حَلَّ الربيع . وظهرت الثياب الصافية الألوان ، والقبعات المزيّـنة بالزهر . أما في سباقات أوتوي Auteuil ولونشان Longchamp ، فإن النساء لم يفقدن شيئاً من أناقتهن ، وكذلك فإن الحانة الريفية عادت وفتحت أبوابها ، على نحو ما يغني الناس على ضفاف المارن .

وذات يوم ، مضت سلمى مع زينيل الذي يحمل الطفلة ، مضت تتشمس على مصطبة الكافيه دولا بي Café de la Paix (وهي قهوة مشهورة في با ريس تطل على الأوبرا) ، فما شعرت إلا ويدان توضعان على عينيها ، وكلمة « كوكو » ترنّ في أذنها . وبقفزة واحدة تخلّـصت مما وضع على عينيها .

ـــ أورهان !

ـــ سلمى !

وتعانق الاثنان عناقاً ضخماً ، وكل منهما يعجب من هذه المفاجأة ، الممتعة . ذلك أن كلاً منهما لم ير الآخر منذ كانا في لبنان .

ـــ ولكن ماذا تفعلين هنا ؟ كنت أظنك تلبسين التاج في قصرك الذهبي ، في أعمق أعماق الهند .

ـــ وأنت ؟

ـــ أما أنا ؟ فلقد لحقت بالملك أحمد زوغو إلى المنفى . وبدأت أتعود على ذلك ! لاحظي أنني لم آسف على ألبانيا . لقد كانت هذه بلداً جميلاً ، ولكنها بدائية بعض الشيء بالنسبة لذوقي . وخلال ذلك تزوجت ، ثم طلقت ، وأنا الآن حر . وكذلك طلقت الملك . فلقد استقر في الريف ، وأنا ، والريف كما تعلمين ، لسنا أصحاباً . وعلى ذلك فقد عدت إلى مهنتي القديمة ، ولكن على مستوى أرقى : فأنا مواكب للسيارات بين كل أنحاء أوروبا !

ويضحكان ؛ إذ كم هو جميل أن يلتقي الأهل بعد فراق .

ويلتفت أورهان إلى زينيل الذي يصغي إليهما ، وهو مشروح الصدر تماماً .

ـــ صباح الخير يا آغا . إن وجهك روعة ! ولكن ـــ ويشير إلى الرضيع ، بهيئة المذهول ـــ ولكن ما هذا ؟

ـــ هذا ، هذا لي ... هكذا أجابت سلمى بنعومة .

ـــ وأين هو البابا ؟

ـــ سأشرح لك . فالمسألة طويلة قليلاً .

ـــ أنت دوماً محاطة بالأسرار . وبهذا أعرف ابنة عمي الصغيرة . وينظر إلى الساعة .

ـــ اعذريني ، فقد تأخرت ، ولي موعد مع امرأة أنا ... عاشق لها ، بجنون .

وتسخر سلمى وتقول :

ـــ كالعادة دوماً ، إني أعرف ابن عمي من هذا !

ـــ أعطني رقم هاتفك . سأتصل بك بعد عدة أيام . والآن وقد وجدتك ، فلن أتركك .

وأمـرّ يده في خصل شعرها ، كما كانا يفعلان عندما كانا مراهقين ، ويهمس بين المازح والجاد .

ـــ الحقيقة أنك أنت المرأة التي كان يجب أن أتزوجها .

ثم قبّـلها على طرف الأنف ، وانطلق مسرعاً ، وهو يهـزّ قبعته .

وبعد يومين ، وفي ١٠ أيار / مايو / ، علم الفرنسيون باستغراب كبير أن الجيوش الألمانية هاجمت هولندا ، واللوكسمبورغ ... وبلجيكا ! وخلافاً لكل التنبؤات ، فإنها دارت حول خط ماجينو ، وخلافاً لكل قاعدة ، دخلت بلداً كان قد أعلن وقوفه على الحياد . وأكثر من ذلك ، فإنهم انتهزوا عيد العنصرة ، ليهاجموا ، يا لهم من جبناء ! ولكنّ كلاً يطمئن الآخر : فالجيش الفرنسي ، المدعوم بعدة كتائب إنكليزية ، سارعت إلى دعم الجيران البلجيك . وسيحملون هؤلاء البوش[١] ، على الهزيمة .

---

(١) البوش Boche ، كلمة تستعمل لتعني الألمان ، عند الهجاء والسخرية والعضب .

وفي الأيام التالية، ظلّت أخبار الجبهة غامضة، ولكن عندما استسلم الهولنديون في ١٣ أيار/مايو/، بدأ القلق يتسرّب إلى قلوب الباريسيين، لا سيما وأن أوائل اللاجئين كانوا يجتازون العاصمة، على مرأى من العيون المذهولة لهؤلاء، في عربات محمّلة بكل ما استطاعوا حمله. واستدعت الحكومة من بيروت الجنرال ويغان لكي يتسلّم قيادة الجيوش، وسمّت الماريشال بيتان، نائباً لرئيس الوزراء. وهكذا فإن الشعب استقبل بطل فردان، بارتياح، وعرفان للجميل: فالبلد أصبحت منذ الآن بين أيد أمينة. ولكن هذا لا يحول ــ تأميناً للتوازن ــ دون إقامة صلوات في الكنائس: بل إن الناس يمشون في الشوارع، وراء بقايا جسد القديس لويس، وجسد القديسة جنفييف، التي حمت في القرن الخامس، لوتيس Lutèce[٢] من هجمات قبائل آتيلا.

وفي ٢٦/٥، وضعت جريدة الماتان في صدر صفحتها الأولى، عنواناً كبيراً جاء فيه: «أن جيوش الحلفاء أوقعت خسائر مادية جسيمة في العدو. والمشاة الفرنسيون لم يفقدوا أي شيء من مزاياهم». وهكذا فإنه عندما جاء الغد وعلم الناس باستسلام بلجيكا، انفجر فيهم الغضب: ذلك أن الملك الخائن استسلم حتى بدون أن ينبيء بذلك القيادة الفرنسية والإنكليزية! وأصبح الموقف خطيراً، وتراجعت قوات الحلفاء لحماية الطرق التي تؤدي إلى العاصمة، أمام جيش ألماني، أصبح الباريسيون الآن يشكّون في أنه بلغ من الإنهاك ما قالوه عنه.

أما في أوتيل لوروا، فقد كان بعض الأزواج يتحدّثون عن تقصير مدة إقامتهم، والعودة إلى الريف. ولكنّ صاحب الفندق يثني عزمهم بضحكة طيبة ويقول:

ــ هيا، هيا. إنه ليس لديكم ما تخافونه، فهؤلاء البلجيكيون، لا دم في عروقهم. أما الجيش الفرنسي، فإنه شيء آخر!

وتعبت سلمى من تبجج هذا الرجل، وصعدت إلى غرفتها، وتبعها زينيل، مع البنت الصغيرة. ولقد تناقشوا خلال السهرة كلها. فما زال الوقت متسّعاً للسفر إلى لوزان، ولكن هل هذا فعل حميد؟ فلقد خرق النازيون اتفاق الحياد الذي عقدوه مع بلجيكا. فمن يعرف ما إذا كانوا سيخرقونه غداً إذا قرروا مهاجمة سويسرا؟ إذ ليس لهذه مثل القوة التي لفرنسا للدفاع عن نفسها. وتتردّد سلمى، وليس عندها أيُّ عنصرٍ من العناصر الضرورية للحكم على قيمة الخطر: فالأخبار

---

(٢) لوتيس: هو الاسم القديم الذي كان يطلق على باريس.

الوحيدة هي التي تقدمها الصحف. وهي تعرف الآن انها أخبار كاذبة، وتستنكر ذلك كل الاستنكار. مع ذلك فإن عليها أن تقـرّر وبسرعة.

وأخذت تنظر، وهي مشغولة البال، إلى الرجل العجوز، والبنت الصغيرة، التي تتعلق بركبتيه، وتضحك ضحكات كبيرة. وهما يمنحونها ثقتهما. وربما تعلّـق مصيرهم كله على القرار الذي ستتخذه. آه، لو أن هارفي كان هنا! أو حتى أورهان... وهي لا تعرف كيف تتصل به. ذلك أنه لم يتصل بها، وهذا شيء لا تستغربه أبداً. ولا بـدّ أنه الآن يتمتع بلذات الحب، وفي هذه الحال يمكن أن تتهدم الدنيا حوله، ولا يشعر بشيء من ذلك.

وأخذت سلمى رأسها بين يديها: فممن تطلب النصيحة؟ أمن ماري لور؟ إن هذا مستحيل. فمنذ عشرة أشهر، اختفت سلمى ولم تترك لها عنواناً. ولا بـدّ أن هذه السيدة الشابة تلومها أشد اللوم، وتشعرها بذلك. ثم إنها ستطرح أسئلة كثيرة حول الطفلة... كلا، كلا، لن تذهب إلى بيت ماري لور.

وفجأة تذكرت الآنسة روز. إذ لقد كتبت لها إلى لبنان عدة مرات، ثم إلى الهند. ولكن ما من طفل من أطفالها الذين عنيت بهم، عوّضها عن سلمى، أو احتل مكانها، في قلبها، وكانت ترجو الله أن تأتي لتراها. أيتها العزيزة الآنسة روز! كيف لم تفكر بها قبل الآن؟ فالمسكينة لا تكون على علم بأي شيء — إذ إنها لم تملك قط حسن الإحساس بالواقع — غير أن الأسر التي تعمل عندها، ربما تعرف ما ينبغي أن يُفعل.

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت سلمى إلى جادة آبيس Abbesse، أي إلى العنوان الذي كانت الآنسة روز قد كتبته في رسالتها إليها. وستكون سعيدة إذا هي رأتها من جديد. إن ذلك يذكّـرها باستامبول وبطفولتها... وتبتسم عندما تتذكّـر قبعات المربية، التي كانت تحمل الكالفات على الارتعاش، كما تتذكر أغلاطها التي أصبحت مضرب المثل. ولكنها كانت طيبة. وكان الناس جميعاً يحبونها. وسلمى خجلة من أنها لم تقم بزيارتها، منذ ما يقرب من عام قضته كله في باريس. ولقد شغلتها الحياة الباريسية أيما شغل، ثم شغلت بهارفي، وأخيراً بالطفلة، حتى لقد نسيتها تماماً. وهكذا فقد ذهبت إلى محل الماركيز دو سيفيني، لتشتري أكبر علبة شوكولا موجودة، تكفيراً وتعبيراً عن ندمها — ذلك أن الآنسة روز عرفت دائماً بالنهم.

ووقفت سلمى أمام الرقم ١٢ من جادة آبيس هذه، مترددة. فهل من الممكن أن تسكن الآنسة روز هنا؟ ذلك أن البناية متشققة الجدران، وتبدو على وشك السقوط، كما أن طلاء الواجهة

يتقشّر قطعاً رمادية اللون. وحبَست سلمى أنفاسها، واجتازت المدخل الذي استقرت فيه أواني الأقذار المملوءة إلى أعلاها، وظلت رائحتها تلاحقها حتى إلى قفص السلّم. وبدأت تصعد درجاته الملوثة بالشحم ببطء: ترى كيف استطاعت الآنسة روز التي كانت جد حريصة على النظافة، أن تقع على هذا الكوخ القذر؟ لا بدّ أن المال كان ينقصها. فلِمَ لم تتحدث قط عن ذلك في رسائلها؟

وفي الطابق الثاني، قرعت سلمى باباً من الأبواب الأربعة التي تطل على المسطحة. ولكن المرأة التي فتحت لها الباب ليست الآنسة روز، ولكنها تعرفها، أو على الأصح، كانت تعرفها جيداً.

وسألت سلمى:

ـــ حسناً، وإذن فقد غيَّرت مسكنها.

ـــ إذا أمكن القول... فالمسكينة قد ماتت، منذ ثلاثة أشهر.

وشعرت سلمى بأنها على وشك بأن يصيبها الإغماء، وتقول:

ـــ أماتت؟... ولكن مِمّ ماتت؟

ـــ أو! من الكل، من السل، ومن البؤس... وعندما عرف مشغّلوها أنها مريضة، صرفوها من الخدمة... بسبب الأطفال، طبعاً! وعندئذ فقد جاءت لتستقر هنا، منذ سنة فقط. لم يكن لديها من عمل، ولا مال، لكي تداوي نفسها، ولكن كان لديها بعض ما اقتصدته مما يسمح لها بأن تستمر في الحياة. وكانت مهذّبة جداً، ومحبّبة جداً. وكنا ندعوها أحياناً للغداء، يوم الأحد، ذلك أنها كانت تعيش في وحدة قاتلة. ولكنك تعرفين، أن لكل إنسان شؤونه وشجونه الخاصة، ولا يمكنه أن يفعل الكثير.

وخلال الكلام، كانت هذه المرأة، تتفرس وجه سلمى بفضول، وفجأة، ضربت جبينها، بأصابع يدها.

ـــ ولكنني أتعرفك! فلقد كان لديها صورة كبيرة لك في غرفتها. وإذن، فأنت الأميرة؟ والله يعرف كم كانت تتحدّث عنك. تلك المسكينة، ويمكن القول: إنها كانت تحبك.

واغرورقت عيناها بالدموع. فوضعت علبة الشوكولا في يد المرأة، وهربت. وهبطت الشارع

كله ، وهي تشهق من البكاء . ليتها جاءت مبكّـرة أكثر ، فلربما استطاعت إنقاذها . ولربما أخذتها وعرضتها على أفضل الاختصاصيين ، وساعدتها على العناية بنفسها ... ولربما لم تمت أيضاً . وحتى لو كان حالها ميؤوساً منها ، فإنه كان في وسعها ، هي سلمى ، أن تدخل بعض الدفء الإنساني إلى قلبها ، وشيئاً من السعادة إلى نفسها .

ولا تعرف سلمى كيف عادت إلى فندق لوروا . أما زينيل فقد قضى كل ما بعد الظهر ، وهو يمسح دموعها ، ويقول لها : إنها غير مسؤولة ، وإن كـلّ إنسانٍ منا ينسى بعض الأشياء ، ويفكر بنفسه بالدرجة الأولى ... وأخيراً ، وعندما رأى أنها مستمرة في اتهام نفسها ، جاءها بالطفلة ، ووضعها بين يديها . فلما رأت هذه أن أمها تبكي ، بدأتْ هي تصرخ أيضاً . فأرغم نفسه على الكلام بصورة خشنة ، وقال لها :

ــ أنت الآن مسؤولة عن هذه . فماذا علينا أن نفعل؟ وماذا قررت؟

وتنـهّـدت ، ثم قالت :

ــ يا زينيل ، إنني مرهقة . لننتظر أيضاً بضعة أيام . وعلى كل حال فإنه ما من أحد يسافر !

ولكن عندما هجم السلاح الجوي الألماني على باريس يوم ١٣ حزيران / يونيو / ، وقذفها ببعض القنابل ، واضطرت هي ، مع سكان الفندق ، إلى أن تقضي الليلة في الكهف ، عندئذ أسفت على تردّدها .

وفي اليوم التالي ، حزم الزبائن الآتون من المحافظات ، حقائبهم ، وتركوا فندق لوروا . وبدأ الناس يشهدون مرور سيارات عظيمة آتية من الأحياء الحلوة ، تكاد تنهار مما حشيت به من الحقائب ، وغير ذاهبة ، بالتأكيد إلى عطلة الأسبوع ، في فونتنبلو . ولكن الحكومة التي خشيت أن تفرغ باريس من سكانها ، وأن تصبح فريسة سهلة للعدوّ ، عادت تكثر من التصريحات المهدئة ، وتعـظّم من شأن شجاعة « شعب باريس الذي لا يعرف الخوف » . بل إن راديو ــ سيتي يصف المقاومة البطولية لقوات الحلفاء ، التي باتت في الشمال ، على وشك أن تحمل العدو على التراجع : ولم يعد النصر إلا مسألة عدة أيام .

وتكـلّـم سيّـد الفندق ، فقال :

ــ لقد قلت ذلك لكم . وعندما أفكر بالرعاديد الذين هربوا ، لأنهم لم يكونوا واثقين بجيشنا ...

وأمسك هنا عن الكلام . ولكن الناس جميعاً فهموه ، وأدركوا أنه لا يعتبر هؤلاء الناس جبناء فقط ، بل خونة أيضاً .

أما في الغد ، فإنه سيفقد بعض الشيء من تعاليه . ذلك أن الصحف أعلمت الناس ، بعناوين سوداء كبيرة ، « بأن جبهة السوم قد انهارت » .

وسألت سلمى ـــ التي لا تعرف شيئاً ـــ عما هو السوم ، ولكنها قلقت مما رأته على وجوه الناس من كآبة :

ـــ هل هذا أمر خطير ؟

وضحك رجل عجوز من سؤالها هذا ضحكة صفراء ، وبدأ يتفرّس في وجهها ، وعليه سيماء العداء ، وقال :

ـــ أخطير فقط ؟ يا سيدتي الصغيرة . إن هذا يعني أن طريق باريس أصبحت منذ الآن مفتوحة أمام العدو .

فاصفر وجه سلمى ، وقالت :

ـــ أيصل الألمان إلى باريس ؟ ولكنهم كانوا يقولون : إن الجيش . . .

ـــ كانوا يقولون . فالسياسيون يقولون ما يناسبهم . وأنا حيث ينبغي لكي أعرف ذلك . فلقد حاربت عام ١٩١٤ ، يا سيدتي . فإذا نحن سمعناهم وأصغينا إليهم ، حسبنا أن القضية هي قضية نزهة !

أما في الأيام التالية ، فإن الصحف والإذاعات ، بذلت جهدها كله . لتطمين الباريسيين : « فجيوشنا تحاصر العدو ، ويقوم عشرات الألوف من الرجال ، بإنشاء تحصينات لا يستطيع العدو خرقها ، حول العاصمة . وليس لباريس ما تخشاه ، وسندافع عنها مهما كان الثمن » . وفي ٨ حزيران / يونيو / صرّح الجنرال ويغان : « إن العدو خسر خسائر جسيمة . ونحن في ربع الساعة الأخيرة فقاوموا جيداً ! » ولكن الناس بدؤوا يلاحظون وصول الجماعات الأولى من الجنود المهزومين . كانوا منهوكين ، والمرارة تملأ نفوسهم ، ويصرِّحون بصوت عال : أنه غـرّر بهم ، وأن عدم التكافؤ في القوى هائل ، وأن كل أمل قد ضاع .

أما شركة الخطوط الحديدية ، فقد ضاعفت عدد القطارات لأولئك الذين يريدون السفر .

ولكن الأكثرية ما تزال تتردّد : فالسفر ، يعني أن ندع كل شيء للمسافرين الذين يتكاثرون في ظروف الاضطراب . ومع ذلك ، فإلى أين يسافر الإنسان ؟ إنهم قلائل أولئك الباريسيون الذين يملكون مساكن ثانوية ، أو أصدقاء في الريف يحسنون استقبالهم . والفنادق تكلف الإنسان كلفة غالية . وسلمى تريد الآن ترك العاصمة . لكن زينيل مُسمّر في سريره منذ يومين بنوبة رئية عنيفة . وهو يتوسل إليها أن تسافر ، مؤكداً لها أنه سيلحق بها ، بأسرع ما يمكن .

وربما كان الحل يكمن في العثور على سيارة . وهنا لا يمكن أن تجد العون إلا لدى ماري لور . فتجاوزت سلمى شعورها الشخصي بكرامتها ، ومضت إلى شارع هنري مارتان Henré Martin ، لتخبرها حارسة البناية «أن السيدة الكونتيسة سافرت منذ أسبوع» . وعندما عادت إلى الفندق ، ادّعت ، لكي تطمئن زينيل ، أن ماري لور هزئت بها ، وأقسمت لها بأنه ليس هناك أي خطر : فالألمان لن يصلوا إلى باريس .

وفي هذه المرة فكّرت بصورة جدّية ، قبل أن تتخذ قرارها . فمنذ أشهر ، وهما يعيشان معاً ، ويوماً بعد يوم ، استطاعت أن تقدّر قيمة إخلاص الخصيّ لها . فليس موضوع بحث أن تتخلى عنه . وعلى كل حال ، فإنه إذا كان يستمر معها في هذه المغامرة ، بدلاً من أن يعيش حياة هادئة في الهند أو في لبنان ، فذلك خدمة منه لها ! ولكنها هي ، في بقائها في باريس ، تعرّض ابنتها للخطر ... وماذا كان يمكن أن تفعل أمها لو كانت مكانها ؟ إنه لا مجال مطلقاً للظن بأنها كانت ستتخلى عن زينيل . وإذن فهي أيضاً ، لن تتخلى . فإذا قام خطر ، فسيجابهانه معاً .

وفي ١٠ حزيران ، وفي الساعات الأولى من الصباح استيقظت سلمى على جلبة غامضة تصدر عن الشارع . فاندفعت إلى الشرفة لترى على الرصيف جماعات في أقصى درجات التهيج والاضطراب ، وأناساً يعدون بسرعة وهم يصرخون . غير أنها لا تميّز بوضوح ما كانوا يقولونه . وبحركة سريعة ، لبست ثوبها ، ووضعت ابنتها الصغيرة في غرفة الخصيّ ، وانطلقت باتجاه السلّم . وهناك التقت بجيرانها وهم يجرون حقيبة تكاد تتمزق ، من فرط ما حشيت به من متاع .

وصرخ هؤلاء بها :

ــ إن الحكومة هربت في الليل . فأسرعي ، إن البوش واصلون عما قريب .

أما في الشارع ، فإن الناس يتنادون :

ـــ من أي محطة تذهبون؟ من أوسترليتز؟ إذن أسرعوا. فالقطارات ستكون ملأى.

ـــ أما أنا فسأسافر على الدراجة، إذ يقال إن الطائرات ستهاجم خطوط السكك الحديدية.

ويصرخ رجل منادياً امرأته المتجمدة على مدخل بابها.

ـــ وإذن فستهيئين حقائبك! وأنذرك بأننا سنسافر خلال نصف ساعة!

وبدأت السيارات والشاحنات المحشوّة بالحزم، والفُرش، الملفوفة بالخيطان، والموضوعة على السقف، تمضي على مرأى من عيني سلمى المنذهلة. واتجهت نحو الطريق الملكية، لكي تجتاز السين، والوصول من هنالك، إلى بابي أورليان وإيطاليا. وكلما انقضت الساعات، كان السير يتضاعف كثافة؛ أما بعد الظهر، فإن السير ازدحم، حتى لا يكاد يتحرك. لا سيما وأن الباريسيين استخدموا في سفرهم هذا كل ما عثروا عليه من السيارات، وكانت القديمة منها لا تمشي عدة مئات من الأمتار، إلا وتتوقف عن الحركة. أما العربات ذات السواعد، المحمّلة ببعض الحاجات التي أبى أصحابها أن يتخلوا عنها، فإنها ترهق الرجال والنساء بجرّها. وكانت مديرية الشرطة لا تنقطع طوال النهار عن تقديم النصائح، مثل قولها: «لا تذهبوا باتجاه المحطات، إذ لا يمكن الاقتراب منها، ولا تمضوا باتجاه شارع سان ميشيل، ولا باتجاه سان جيرمان. وشارع هنري الرابع مسدود تماماً». ولما كان الناس في حالة الهيجان الجنوني، فإنهم لم يعودوا يسمعون شيئاً. وما في أذهانهم إلا فكرة واحدة هي: الهروب.

وكانت سلمى ترى من نافذة غرفتها الجمهور الذي امتلأ رعباً. وقد تعودت أن تحتفظ في الأوقات العصيبة ببرودة دمها، كما لو أن الانسياق إلى الخوف، يصبح شيئاً كمالياً، إذا كان الموقف مأساوياً فعلاً. وماذا عساها أن تفعل في مثل هذا المدّ البشري، وسط هؤلاء الناس المذهولين، مع ابنتها التي لم تتجاوز الشهر السابع من عمرها، ومع زينيل الذي لا يملك أن يَجُرّ نفسه إلا بعناء؟

أما اليومان التاليان فسيكونان كابوساً حقيقياً. فقد أعلن الجنرال ويغان أن باريس «مدينة مفتوحة» وأدّى ذلك إلى أن يتملك الرعب حتى أولئك الذين كانوا لا يزالون يتردّدون في الهروب. وتعني كلمة «المدينة المفتوحة» أنها لن يُدافع عنها، وأنها متروكة لرحمة المنتصرين ـــ والبوش أناس نعرفهم جيداً، وسيقضون على كل أولئك الذين كانوا من الجنون، بحيث أصروا على البقاء.

ولكنّ سلمى والأشخاص الستة المعمّرين الذين ـــ سواء استسلموا للقدر أم خافوا من الموت مما سيلاقونه من الإرهاق على الطرق ـــ فضّلوا البقاء في الفندق، وقرّروا أن ما أعلن هو

أقرب إلى أن يكون خبراً جيداً. فإذا كانت باريس بلدة لا يدافع عنها، فهذا يعني أنها بلدة استسلمت. فلِمَ يقوم الألمان بتهديم مدينة رائعة تقدّم لهم على صينية من الفضة؟

ولقد اجتمعوا في قاعة الطعام الصغيرة، كلهم معاً، لكي يتشجعوا فيما بينهم ــ وقام صاحب الفندق ــ لمرة واحدة، والمرة الواحدة ليست عادة ــ بفتح زجاجة من الأرمانياك. وكانوا ممتنين منه، لأنه لم يغلق الفندق، ولكنه تعب كل حياته لكي يحصل عليه: ولم يحصل عليه ليسلّمه للنهابين! وصرّح قائلاً، وصدره منتفخ:

ــ سأدافع عما أملك، حتى ضدّ البوش. وأصلاً فإني لا أعرف لماذا يهاجمون مجموعة تجار مسالمين.

وأصبحت باريس الآن مدينة هادئة بشكل غريب، تخلى عنها ثلاثة أرباع سكانها. وقضت سلمى بعد ظهر ذلك اليوم في البحث عن حليب، لابنتها الصغيرة، ولكنها وجدت الدكاكين كلها مغلقة. ومع ذلك فقد عثرت على سمان باعها، بسعر عال جداً، حلويات جافة وعلبتي حليب مركّز. ثم عادت إلى الفندق من الطرق الخالية، مندهشة من الضجة الغريبة التي يحدثها مشيُها على أرض الطريق: وقد لاحظت أن النوافذ كلها مغلقة، وشعر الناس أن المدينة انقطعت عن التنفس. وهم ينتظرون قدوم الألمان غداً.

وسهرت سلمى طوال الليل، في غرفتها المضاءة بشمعة واحدة، وهي تنظر إلى طفلتها النائمة.

وكأنما جاء هدير أصم، فجعلها ترتعش. لا بدّ إذن أنها نامت، وانطفأت الشمعة، وها هي الشمس تتسلّل من عوارض النافذة. وبقفزة واحدة، كانت على النافذة، لتلاحظ من خلال المغالق أو الستائر المعدنية ما في الشارع... فإذا هم أمامها فيه.

ومرّت أمامها موكبة من الدبابات التي كانت تلمع في ضوء الصباح، كما لو أنها خنافس كبيرة. وكانت قد أحاطت بساحة الأوبرا، كما أنها كانت مسبوقة بجنود يركبون الدراجات النارية، ومتبوعة برجال مسلحين بالرشاشات، وبدؤوا جميعاً يمشون بتثاقل على طريق ساحة الكونكورد.

وقضت سلمى كل الصباح في النظر إليهم، مأخوذة بهذا الهدوء، وبهذه القوة. وقليلاً فقليلاً تعود إليها صورة فتاة صغيرة حمراء متعلقة بتنورة أمها، تنظر من خلال منافذ قصر أورطاكوي، إلى

المراكب الكبيرة المسلحة بمدافع كثيرة ، وهي تنزلق على مياه البوسفور الهادئة . فتضم طفلتها إلى صدرها ضمة قوية ، وتنزل فتنضم إلى رفاقها في الفندق ، في غرفة الطعام .

وكانوا هؤلاء ملتصقين بالنوافذ ، ويراقبون بصمت حركات العدو الذي يدخل إلى المدينة . ورأوا حول الظهر مجموعة من ضباط الطيران الحربي ، في لباسهم الحربي الرمادي ، وهم على أروع ما يمكن أن يكون الضباط ، مظهراً ، وكانوا يدخلون الفندق الكبير ، الموجود على الطرف الآخر من ساحة الأوبرا .

ودمدم صاحب الفندق قائلاً :

ـــ حسناً ، فنحن مدلّلون . وإذا شاء الإنكليز أن يفعلوا شيئاً ، فسنكون هنا في أحسن المواقع .

وما من أحد أجاب هذا المدير على ما قاله : فهم مرهقون ، وينظرون إلى العلم الأحمر ذي الصليب المعقوف الأسود ، الذي يرفع بهدوء في السماء . وحدثت ضجة غريبة جعلت سلمى تلتفت . فإذا بالمحارب القديم في الحرب العالمية الأولى ، يبكي وراءها .

— ٦ —

وفي يوم ١٤ حزيران / يونيو / ، كانت هنالك سيارات مجهزة بمكبرات ، تجوب الشوارع ، وتأمر الباريسيين بالبقاء في بيوتهم . « إذ ما من مظاهرة يسمح بها . وكل عدوان على جنود ألمان سيعاقب بالموت » . ولكن ما جاء الغد ، ورأى الألمان أن الشعب الذي سحقته هذه الهزيمة ، لا يفكر مطلقاً بالمقاومة ، إلا ورفع هذا الخطر . وكان لا بدَّ لاستقرار جيش الاحتلال ، من أن تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي ، وأن تقوم الإدارات المختلفة بنشاطها العادي . وقد طلب إلى الخازين والتجار وأصحاب المطاعم ، أن يزاولوا أعمالهم كالمعتاد . « فعلى كل إنسان أن يعود إلى مركز عمله ، ويقوم بواجبه » على ما أذاعه محافظ السين . وهكذا فكل شيء سيبدأ بالعمل ، بالقدر المستطاع ، كالمترو ، وبعض مكاتب البريد ، والمصارف ، وحتى المحاكم .

ونامت سلمى في هذه الليالي الأخيرة ، نوماً قليلاً ؛ وهكذا ففي اليوم السابع عشر من حزيران / يونيو / ، عندما ظهر زينيل في غرفتها لكي يكلّمها في أمرها ، رآها تدسّ أنفها من جديد في وسادتها . لكنه يلح . ثم اتخذ ملامح المتواطىء ، وأخبرها أن مكاتب البلديات قد فتحت ، وأن الوضع سيكون على أسوأ حال من الفوضى ، فتجلس سلمى ، متكئة على مرفقها ، وتنظر إليه مذهولة : أفيقلقها ليحدّثها هذا الحديث ! ولكن الخصيّ لا يتراجع ، ويشرح لها أن هذا هو الوقت المناسب للإعلان عن ولادة الطفلة .

ـــ ذلك أن نصفَ المستخدمين غائبون . والآخرون إنما يصرِّفون الأعمال كيفما اتفق

ليتابعوا النقاش فيما بينهم حول الأحداث الجارية. ولقد مررت هذا الصباح ببلدية الحي الحادي عشر: ويجب أن تنتهز الفرصة، سأقول إن الطفلة ولدت صباح ١٤ــ ١٥ حزيران / يونيو /، وإن القابلة جُنّ جنونها، واختفت، ونسيت أن تنظم شهادتها. وأنت تفهمين جيداً أنهم في هذه اللحظة لا يرغبون في التحقق، ولا يملكون الوسائل لذلك. فأسرعي وأعطني أوراقك، وسأعيد لك شهادة الميلاد هذه.

وسارت الأمور على النحو الذي تخيّله زيبيل تماماً. فأمام هذا الرجل العجوز الشديد التهذيب والذي ينظر إلى موظفة البلدية الموجودة أمامه، كما لو أنها الإله العلي القوة، شعرت هذه بشيء من الشفقة عليه، وفوق ذلك فإنه لا يتكلم الفرنسية إلا بصورة ضعيفة جداً، حتى إنها لا تفهم شيئاً مما يقول ــ وطبعاً لا تريد أن تضيع معه صباحها كلّه ــ وليكن ما يكون، ستستغني عن الشهادة، فهذا اليوم ليس كالأيام الأخرى!

ــ حسناً. لننظر إذن في أوراق هوية الأم، لأنك لا تملك غيرها. الاسم: سلمى. زوجة: أمير، راجاه بادالبور.

وسجّلت بكتابة حلوة اسم أمير، وظنت أن الاسم الشخصي هو اسم الأسرة. فيحبس زينيل أنفاسه.

ــ حسناً! والآن: راجاه بادالبور، فما هذا؟ هل هذا هو مهنة الأب. وماذا تعني كلمة الراجاه؟

ويتردد زينيل. فإن قال تعني: الملك، فمن المؤكد أنها ستظن أنه عجوز مجنون.

وعيل صبرها، فقالت:

ــ لا بدّ أن له مهنة. فهل هو تاجر؟

ويوافق الخصيّ، خافضاً رأسه، على حين أن الموظفة تكتب بكامل الكفاءة المسلكية:

ــ هذا هو. إنه تاجر.

وشعر زينيل أنه يخون الراجاه. أكثر مما فعل عندما رأى أن يقول له: إن الوليد، مات فوراً. وهو لا يجرؤ على تخيّل رد فعل الأميرة.

وخلافاً لتوقعاته، فإن سلمى وجدت في حديثه ما يسليها كل التسلية وقالت:

ـــ لو قدِّر لأمير، ذات يوم، أن يعرف هذا، إذن لأمر بشنقك. ولكن لا تكترث بذلك (وقالت هذا عندما رأت لونه يغبرّ). فمع هذه الشهادة بالولادة، ما من إنسانٍ يمكن أن يتخيّل أن هذه الطفلة هي طفلته! وهذا هو المهم.

وكان مزاجها حسناً هذه المرة؛ إذ بعد مخاوف هذه الأيام الأخيرة، فإن الأمور، تميل إلى الأفضل. وستترك الطفلة في حراسة زينيل، وتمضي فتتنزه قليلاً.

ومشت في الطرق الجانبية، تجنباً للمرور بساحة الأوبرا، التي أصبحت ساحة ألمانية، مع لافتاتها الجديدة التي كتبت فيها: «Coyucine Strasse» و «Concerde Platy» ولكنها وجدت أن أغلب الباريسيين لا يعبؤون بمثل هذه القضايا. فحول الجنود الألمان الذين يتشمسون على أرصفة المقاهي، تزدحم جماعات نشيطة. فدفعها فضولها ـــ لمعرفة ما يمكن أن يقولوه لبعضهم البعض ـــ إلى الاقتراب. وها هما فتيان طويلان أشقران، بالثياب العسكرية، قد حلقا ذقنهما من قريب، يضحكان للصبية الذين يقفون أمامهم.

ـــ ليس هناك ما تخافونه. ولن نؤذيكم أي أذى. لقد خدعكم الإنكليز الذين جرّوكم إلى مثل هذه الحرب الخاسرة سلفاً. ولكن هذا كله سينتهي بسرعة. وأنتن أيتها السيدات، أترغبن في أن تروا أزواجكن؟ حسناً، ونحن أيضاً نشتهي العودة إلى بيوتنا ونرى نساءنا!

ويذهل الإنسان مما يسمع، ولكنه يتخفف من الهم: فهؤلاء الألمان، محبّبون جداً؛ وكان الناس ينتظرون برابرة سيحرقون المدينة، ويملؤونها بالدم، ولكن ها هم أمام جنود منظّمين وإذا هم لم يكونوا في الخدمة، فإنهم يتصرفون كالسواح، ومعهم آلات التصوير يحملونها على أكتافهم، ويشترون من المخازن أكثر بضائعها من الكلسات الحريرية، والروائح، ويدفعون قيمتها كاملة.

وكان الطقس جميلاً، فتابعت سلمى سيرها حتى حدائق التويلري. وكان الناس الجالسون في الشمس يتناقشون، على حين أن أوركسترا عسكرية على بعد خمسين متراً تعزف سمفونية بيتهوفين الخامسة. ويتظاهر الناس بأنهم لا يرونها، ولكنهم يصغون إليها بآذانهم، ويعلقون على ذلك بقولهم: «الحق يقال، إن لهؤلاء الناس حساً موسيقياً رائعاً، ما في ذلك ريب!» ولقد أذاع الراديو منذ قليل تصريحاً للماريشال بيتان جاء فيه أنه يجب وضع حد للمعارك، إذ إننا سنوقّع الهدنة. وإذا كان بعض الناس بدؤوا يبكون عندما سمعوه، فذلك من الفرح، أكثر مما هو من الخجل.

ـــ الشكر لله ، فقد انتهت الحرب . وأصلاً ، فإنه ما كان لهم أن يعلنوها . ولئن وصلنا إلى هنا ، فذلك ذنب هذه الحكومة ، المؤلفة من عناصر متفسخة ، وذنبُ دعايتها الكاذبة !

ـــ كانوا يصفون لنا الجيوش الألمانية في لباسٍ ممزّق كالخرق البالية . وينقصهم كل شيء . فانظروا إليهم الآن ! ترى هل رأيتم سابقاً جيشاً جميلاً بهذه الدرجة ؟

ـــ كانوا يقولون : ما من خطر ، وما من شيء يخشاه الإنسان ! ولكن عندما ساءت الأمور بهذه الصورة ، فإنهم ذهبوا واختفوا كاللصوص ، وتركونا نتدبر أمورنا بأنفسنا وحدنا .

وهذه المرارة التي شعر بها الناس من خداع قادتهم لهم ، جعلتهم ينظرون إلى العدو بكراهيةٍ أقل . وكان هذا العدو لا ينسى أن يلعب بهذه الورقة . فقد امتلأت الجدران بلافتات فيها مثل هذه العبارات : « أيها الشعب الذي تخلى عنه قادته ، ثق بالجيش الألماني » و « إن الباريسيين لا ينقصهم شيء ، لأن السلطات الألمانية تراقب ذلك » .

وبدأت سلمى تذرع الممرات ذهاباً وإياباً وهي تفكر . وتعود إليها صور مدينة أخرى محتلة ، وشعب حزين ، ورجال ونساء يمكرون بالمحتل ، لينضموا ، في الطرف الآخر من البلاد ، إلى لواء كان يأبى الهدنة ، ويطلب من الشعب أن يقاوم . ترى أيكون لفرنسا مصطفى كمالها ؟

وعندما عادت إلى الفندق ، وجدت مديره مع زوجته يتناقشان . لا ريب أنهما كانا يتحدثان حولها ، إذ سرعان ما سكتنا عندما لمحاها ، وذهبت المرأة باتجاه المطبخ وهي تهز كتفيها .

وفي صباح اليوم التالي ، اقترب المدير من سلمى : إن امرأتي تريد أن أعلم القيادة الألمانية بأمرك (الكومانداتور) .

ـــ الكومانداتور ؟ . . .

ـــ لقد أعلنوا أن كل من يؤوي أجانب في بيته أو فندقه ، يجب عليهم أن يخبروا عنهم ، تحت طائلة العقوبات القاسية . وأكثر من ذلك ، أنك إنكليزية ، وإذن . . .

بلى ، إنها تفهم . فالبارحة كانت الحليفة ، أما اليوم ، وقد استسلمت فرنسا ، على حين أن إنكلترا ما زالت مستمرة في الحرب . وإذن فقد أصبحت . . . العدو .

ـــ ولقد أجبتها بأنه يمكننا أن نحتفظ بك ، وأنهم إذا جاؤوا يحققون ، فإن من السهل

إخفاءك . وهي لا تريد أن تفهم شيئاً . وأنا أعرفها . ذلك أنها على درجة من الخوف تستطيع معها أن تذهب بنفسها لتشي بك !

وكان العرق يتصبّب من وجه الرجل بحبات كبيرة ، فيشيح بنظرته .

ـــ والأفضل أن تتركي من عندنا .

وشعرت سلمى بأن دمها كله ينسحب من شرايينها ، وأصابها الدوار . فاستندت إلى ظهر كرسي ، وقالت :

ـــ ولكن أين نذهب ؟

ويتنفس المدير الصعداء . وكان يخشى أن يكون هنالك هياط ومياط . ولديه حل جاهز تماماً : ذلك أن الناس يجدون دائماً حلولاً سهلة لمشاكل الآخرين .

ـــ لا تبقي في مركز المدينة ، فهو مفعم بالألمان . اذهبي إلى الشمال ، باتجاه بيغال أوكليشي . هناك ستجدين فنادق صغيرة ، ولا يُسألون عن شيء .

وخلال شهر واحد ، تنتقل سلمى من فندق إلى فندق ثلاث مرات . وترتعش كلما رأت أحداً من الناس ينظر إليها . وأصبحت ترى في كل مكان أناساً مستعدين للوشاية بها ، على كونها تدفع ضعف أجرة الغرفة . ويقولون : «إن هذا طبيعي . فنحن نغامر ، وإنما نحتفظ بك عندنا من أجل الطفلة » . ولكن من يدري ، إذ قد تشي بك جارة ، أو خادمة في الفندق . وفعلاً فإن الألمان وعدوا بجائزة لمن يصرِّح لهم عن المشبوهين ، أوَليست بين هؤلاء في المقام الأول باعتبارها إنكليزية ؟

وتدريجياً أصبحت مخاوفها رعباً حقيقياً عندما أشيع بأنهم يوقفون كل المواطنين الإنكليز ، أو من يحمل الجنسية البريطانية ، ويرسلونهم إلى المعسكرات . وتتخيّل هي الأسلاك الشائكة ، والأسر المفصولة عن الأفراد ، والأبناء الأطفال المنتزعين من أمهاتهم ... فتضمّ ابنتها الصغيرة إلى صدرها ، وتقول لنفسها بأنها ستقاتل ، ولكنهم لن يأخذوها منها .

وفي مثل هذا الجوّ القائم على فقدان الثقة والكذب ، فإن جمالها ، وطريقتها في الإحساس والشعور ، وسمتها « المختلفة » التي كثيراً ما كانت رصيداً لها ، أصبحت الآن مصدر خطر . ومهما تفعل لتكون كسائر الناس ، فإنها تظل موضوع ملاحظة . وذات يوم ، صادفها رجل يحب المغامرة مع النساء ، وكانت قد أوقفته عند حدّه ، فقال لها ، غاضباً :

ــ آه ، إنك شديدة الزهو بنفسك ، ولكن إذا رحت أخبر الألمان عنك ، ومن أنت ، فلن تكوني بعد ذلك في مثل هذا الزهو ، فما رأيك ؟

ولم تشأ سلمى أن تخاطر بنفسها من حديد ؛ فأرسلت زينيل يسدِّد الحساب . وبعد نصف ساعة ، غادرت الفندق ، ولفّت البنت الصغيرة بشال .

وانتهى الأمر بها وبزينيل إلى جادة الشهداء Rue des Martyrs في بيت حقير دلّوها عليه ، لأنه يقبل الأجانب ، متى كانوا قادرين على الدفع . وعندما رأت حقارة الغرف ، وقذارتها ، فهمت : ترى من يمكن أن يسكن في مثل هذه الكهوف الحقيرة ، إن لم يكن مرغماً عليها بالضرورة ؟ لا سيما وأن المالكة وهي امرأة مسنة ، مهيبة ، تتقاضى مثل الأجر الذي يدفع في فندق محترم ، ولا يساورها أي خجل أو حياء . ولـمَ تخجل ؟ وإذن فلتدفع ، لأن المحل مشهور بأنه موثوق . أما الشرطة ــ ترى بأي معجزة عجيبة ــ فلا تزوره أبداً . وكذلك حال الجنود الألمان ، الدين لا يعنيهم أن يزوروا مثل هذه الأحياء الصاخبة ، الكريهة الرائحة . وهم لا يجتازونها إلا ليلاً ، وبالسيارة ، لكي يصلوا إلى المحلات التي يستمتعون فيها ، في البيغال والساحة البيضاء . وقلّما حصلت دور الملاهي والكباريهات على أرباح من النوع الذي تحصل عليه الآن . وسواء أكنا في Éve أو في التباران Tabarin أو الكباريت مايول Kabarett Mayol ــ فإنها جميعاً غاصة بزبائنها ، غير أن هؤلاء ضباط ألمان حصراً بالإضافة إلى البنات . ذلك أن باريس ، فضلاً عن كونها المركز المدني والعسكري الهام ، الذي أقيم فيها ، أصبحت مدينة المجازين ، وترى أن عليها أن لا تخون سمعتها « كعاصمة للذائذ والمتع » .

أما المحلات الأعلى مستوى ، مثل كباريه مونسينيور Monseigneur الواقعة في شارع أمستردام ، أو النسر L'aiglon الموجودة في الشانزيليزيه و كذلك المطاعم الأنيقة ، مثل ماكسيم والفوكيه Fouqyet's ، حيث كانت باريس كلها تجتمع في الماضي ، فإنها تظل محجوزة للضباط ذوي المراتب العليا . غير أن الناس يرون فيها عدداً كبيراً من شخصيات عالم المسرح والصحافة . وأكثر هؤلاء عادوا منذ شهر تموز / يوليو / : ذلك أنه يجب على الإنسان أن يحيا حياة حلوة ، كما أن الفن أمر لا حدود له ! أما في الأوبرا ، فإن سيرج ليفار ، سيرقص رقصة جيزيل ، مع إيفيت شوفيريه Yvette Chouviré ؛ وأما في كارينو باريس ، فإن موريس شوفالييه وميستنغيت ، يحرزان حاحاً ضخماً ، ثم إن ساشا غيتري عاد وفتح مسرحه في المادلين .

ولم تعد سلمى تذهب إلى هذه الأحياء الجميلة إلا قليلاً ، خوفاً من أن يخطر في بال أحد الشرطة أن يطلب منها أوراقها . ولكنها أحياناً لا تقاوم الرغبة في زيارتها زيارة خاطفة ، لا لتتيء غير

التمتع بشرب فنجان من القهوة بين أشخاص أنيقين ، مرحين ، وغير الرغبة في نسيان حقارة العيش في جادة الشهداء، مدة ساعة أو ساعتين.

ومع ذلك فقد حدث أن أصابها ، ذات يوم ، ذعر شديد : ذلك أن الممثلة آنابيلا التي كانت تعرفها معرفة جيدة لأنها تعشت معها عدة مرات ــ في ظروف أخرى ــ دخلت إلى قاعة الشاي التي كانت موجودة فيها . ونظرت كل منهما إلى الأخرى لحظة ثم إن الممثلة تحولت عنها ، ولكنها بعد عدة لحظات ، مرّت بجانبها بحجة أنها بحاجة إلى إصلاح شعرها ، وهمست في أذنها بسرعة وهي ماشية ، قائلة :

ــ هل أنت مجنونة؟ إن المكان مملوء بالجواسيس .

ولو أن سلمى كانت وحيدة ، إذن لما قاومت الهيجان الخاص الذي يأتيها به مجرّد تحدي الخطر . ولكنها لم تعد تستطيع أبداً أن تسمح لنفسها به : إذ ما الذي يحدث لطفلتها إذا هي تعرَّضت للتوقيف؟

ماذا يحدث لهذه الطفلة التي تصبح شيئاً فشيئاً بنتاً صغيرة حلوة ، لم يؤثر الرحيل ــ من فندق إلى آخر ، لتكون نهاية المطاف فيه في هذا الكوخ الحقير الذي يستخدمونه الآن كغرفة ــ في مرحها وبهجتها . وفي كل مرة ، تعود فيها سلمى إلى هذا الكوخ تستقبلها هذه البنيّة تعدو يتخلله السقوط ، وبتلفظ كلمة « ماما » ! عدة مرات ، تفصل بينها زقزقات خفيفة بهيجة ، تجعلها تنسى كل همومها . وما كانت سلمى لتحسب أنها قد تملك عاطفة الأمومة هذه ، وبهذه القوة ، ولا أن تتعلق بهذا القدر ، بمثل هذا الكائن الصغير . إنه يؤلف جزءً منها ، وكأن بينها وبينه رابطة جسدية تجمع أحدهما إلى الآخر ، بقوة تحسب معها أنها متى ضمتها إلى صدرها ، وأغمضت عينيها ، فإن طفلتها هذه تتحرك من جديد داخل بطنها ، وأنهما معاً ، كيان واحد .

وفي مثل هذه اللحظات ، تشعر داخل نفسها بسلام كامل ، وبعاطفة عنيفة تشعر معها أنها ملك لآخر . كما تشعر أنه ينمو في داخلها ، على أنقاض تردداتها القديمة ، نوع من القوة تتيح لها أن تجابه العالم كله .

والحياة ، وهذا ما تكتشفه ، هي هذا الطفل (أي الطفلة) الذي يتعلق بالحاضر ، والذي لم ينسج لنفسه ماضياً ، يبرِّر به نفسه ، ولا مستقبلاً ليضمن نفسه فيه . فهل تستطيع أن توفر عليه أخطاءها ، وتعَلّمه أنه لا يكسب في لعبة السعادة ، إلا من يقبل أن يضيع ويتبدّد؟

ـــ ستوقعينها في الأرض ، هذه الأميرة الصغيرة ، ذلك أن ساعة الرضاعة قد مضت منذ زمن طويل !

وزينيل هو صورة الاستنكار نفسه . فمنذ الولادة ، تحوّل الخصيّ إلى « نونو » مربية حقيقية . فلا يجد له الإنسان مثيلاً للعناية بالطفل طعاماً ولباساً . ولاحظت سلمى بشيء من « غصّة القلب » أن طفلتها تفرح به غالباً أكثر مما تفرح بها .

ولئن تأخرت عن ابنتها ، فذلك لأنها قضت كل ما بعد الظهر ، في الوقوف في الطابور لكي تحصل على نصف لتر من الحليب ، هذا فضلاً عن أنها دفعت ثمنه مضاعفاً خمس مرات ـــ وكما يقولون : « أنت حرٌّ في أخذه أو تركه » ـــ وهذا هو التعبير الذي استخدمته صاحبة الدكان التي تبيع الحليب ومشتقاته .

ولقد أصبح التجار ملوك شعب يعرف كيف يحني هامته . وهو مستعد من أجل الحصول على كيلو من السكر أن يتحمل كل الإهانات . ذلك أن الناس بدؤوا يحسون بنقص في كل مواد التموين تقريباً . ويأتي المحتل كل صباح ، فيقوم بغزو في سوق الهال . ثم إن فرنسا التي انقسمت قسمين ، لم تعد تموِّن باريس تموينًا طبيعياً . وعدا ذلك فإن النية متجهة إلى توزيع قسائم التموين على الناس . وباعتبار سلمى أجنبية ، فإنها ليست بذات حق فيها . وهي تتساءل بقلق كبير ، كم من الوقت تستطيع أن تقاوم .

أما ثمن المجوهرات ، فقد نفد ، واضطرت إلى بيع لآلئها ، ولم يبق لديها إلا الخاتم الزمردي . وغداً سترسل زينيل إلى المجوهراتي في جادة كادي Cadet . وستتقاضى من ثمنه ما يعيلها قرابة شهرين . ولكن بعد ذلك ، ماذا سيكون من أمرهما ؟ ولو أنها وحدها ، لاستطاعت أن تحرم نفسها ، وزينيل ليس بعظيم الشهية . أما ابنتها الصغيرة فماذا تفعل بها . وسلمى لا تحتمل أن ترى ابنتها جائعة .

ولقد وُجد من يحدثها عن القنصلية السويسرية التي تهتم بأمر الأجانب الذين يعانون بعض الصعوبات . ولكنها لا تجرؤ على الذهاب إليها ، خوفاً من الألمان ، الذين يراقبونها : ذلك أنها تغامر بأن تتعرض للتوقيف .

ومنذ أن ولدت الطفلة ـــ التي ماتت فوراً ، بالنسبة إلى أبيها ـــ فإن سلمى لم تتلق أي خبر من الهند . ويخطر في بالها أحياناً قصر لوكنوف المفعم بالنساء اللواتي كن يحطنها بعونهن الصاخب ، كما يخطر ببالها بصورة خاصة قرية أوجبال والبسمة الحارة التي ترتسم على وجوه قروياتها . ولكنها

لا تأسف على شيء، غير أنها لا تستطيع دفع شيء من الحنين يخامرها، كذاك الذي يشعر به الإنسان، إلى أيام مراهقته، حتى ولو لم تكن سعيدة.

وتتساءل أحياناً عن حال أمير. والآن حين لم يعد لها أن تدفع عنها صورة السلمى التي كان أمير يريد أن تكونها، فإنها تعود وتفكر به بشيء من الحنان. فخلال السنتين اللتين قضياها معاً حاولا عبثاً أن يلتقيا. ولقد أرادت أن تحبه، أي أن تحب هذا الكائن الغريب الذي كان يستهويها، وكان مع ذلك يجرحها فيما هو أثير وغال عليها. ولا بدّ أنه الآن يشعر بذلك، وقد حاول أن يفهمها، وإسكات ردود فعله الموروثة من نظام قديم، كانت المرأة فيه لا توجد إلا لتعين الرجل. وكثيراً ما مضى كل منهما باتجاه الآخر. ولكن الهوة التي كانت تفصلهما كانت كبيرة جداً، عميقة جداً. وكانت الجهود التي يبذلها أمير لملئها، والأغصان التي كان يضعها فوقها، لم تكن بالنسبة إلى سلمى إلا غصينات غضة جداً. وهي الآن تنظر وتتأمل، فيما يجب أن تكون جرحته به. ولم يستطيعا أن يريا اليد التي كانت تمتد من كل منهما إلى الآخر، بحكم الزهو، وفقدان الثقة، ثقة كل منهما بالآخر، وثقة كل منهما بنفسه. لقد كان عالماهما مختلفين، أما هما، فكان يتشابهان كثيراً.

وبعد عدة أيام، وعندما كانت سلمى تمر أمام المكتب الذي تجلس على عرشه السيدة إيميلي، المشرفة على الفندق، رأت هذه توقفها، وكأن في عينيها تهمة تلقيها عليها. وتسألها:

ـــ أأنت يهودية، أنت؟

وتجيب سلمى، مذهولة.

ـــ كلا، ولكن لماذا؟

ـــ حسناً، إن هذا أفضل بالنسبة لك، لأنهم أخبروني بأنهم سيقضون ربع ساعة قذرة هنا. أفلم تسمعي بخبر ما حدث من تكسير وتحطيم في الشانزيليزيه؟

وبدأت تصف، وعينها تلمع، ككل هؤلاء الناس الذين لا يحبون شيئاً بقدر ما يحبون مصائب الآخرين ـــ لا لأن هؤلاء الآخرين هم أعداؤهم، بل لأنهم آخرون فقط ـــ كيف أن جماعة من الشباب كانوا قد ساروا في الشارع، من ساحة النجمة إلى النقطة المستديرة. وهم يصرخون: «الموت لليهود ـــ اليوبان»[1]، وحطّموا كل واجهات المخازن العائدة لليهود. ثم أتت على ذكر

---

(١) يستخدم الفرنسيون كلمة Youpins لتسمية اليهود، كلقب جارح.

بعض الأسماء الهامة ، بكثير من الغبطة ، مثل سيد ريك ، وفانينا ، وبرنشفيع ، كما لو كانت تذكر أسماء مجرمين خطيرين .

وخلصت من هذا إلى القول ، بعظمة : لقد استحقوا ذلك . فكم من زمن عاشوا فيه وهم يأكلون زبدتهم ، من ظهور الناس الشرفاء .

وتكبت سلمى ما ظهر على وجهها من آثار العثيان . وهي لا تفهم هذه الشراسة . فاليهود في تركيا إنما كانوا مواطنين كالآخرين . وكان الناس يقـدِّرونهم لما فيهم من ذكاء ، وحب للعمل ، وتفـرّد في بعض المواهب . ولكنها تفهم من حديث هذه المطرونة ما كان يقال في صحف تلك الأيام ، من أمثال هذه الأفكار ضد اليهود(٢) .

وفي باريس المحتلة ، عادت الصحف إلى الظهور ، ووضعت نفسها إما بحكم المصلحة ، أو عن اقتناع ، في خدمة السادة الجـدُد . وكانت سلمى تقرأ أحياناً جريدة الماتان الموجودة في الفندق ، ولا يقرؤها أحد ، وذلك لأنها ولو كانت تقـدِّم القليل من الأخبار السياسية ، فإنها على الأقل ، تعلن عن الأيام التي تُمـوَّن فيها السوق بالبيض ، والبطاطا أو القهوة وكل السلع الأخرى التي تصبح مفقودة .

ولا حظت سلمى أن هذه الجريدة بدأت حملة ضخمة ضد اليهود ، تصف فيها حي الماري Quartier Marais وما فيه « من أشخاص ملتحين ، يلبسون معاطف طويلة قذرة ، وأطفال يلعبون في الساقية بقشور الفواكه ، وجباه واطئة ، وشعر قصير أجعد ، وأنوف طويلة ، وتجار يضاعفون ثمن الأشياء بنسبة ٨٠٪ ... » ويخلص الصحفي في مقاله هذا إلى القول : « كل شيء هنا يهودي . فكيف يمكن ، عندما يجب علينا أن نقاوم ما يسيء إلى الصحة ، أن نترك في قلب العاصمة ، هذه البقعة المقرفة ؟ » .

وكان صحفي آخر ، يعالج الأشياء والقضايا من وجهة أقرب إلى السياسة ، ويتحـدّث عن أن مصائب فرنسا كلها جاءت من اليهود : « ففي عام ١٩٣٦ كانوا هم الذين دعوا إلى وضع القوانين التي سُـمّيت باسم القوانين الاجتماعية ، تلك القوانين التي أفسدت العلاقـات القائمـة بين المستخدمين ، والمستخـدَمين ، وأدّت إلى الخراب والبطالة » .

وبدأت بعض المخازن تعلن في لافتاتها ، أن المحـلّ « لا يستقبل اليهود » مما كان أمعن في

(٢) وسلمى هنا طيبة جداً : ذلك أن ما كان يقال عن اليهود في الدعاية ، كان دائماً موجوداً في الضمير الفرسي وعيره .

الشتيمة ، منه في التأثير . ذلك أنه لم يكن بوسع أصحاب المحل أن يسألوا الناس جميعاً عن هوياتهم . ولكن الخطوة الجدية التي خُطيت في هذا الموضوع ، تمت يوم ٢٧ / ٩ / ١٩٤٠ ، إذ صدر أمر من القيادة الألمانية ، يقضي بأن يأتي كل يهودي ، فيسجّل اسمه في سجلٍّ خاص .

وقالت شارلوت ، بالحزم المألوف لديها .

ـــ في وسعهم دوماً أن يأمروا بما يشاؤون . فأنا لن أذهب .

وكانت شارلوت هذه خياطة صغيرة لدى Maggi Rouf ، تستأجر غرفة في حادة الشهداء . وكانت أشد ما تكون إعجاباً بأناقة سلمى . وكانت السيدتان الشابتان قد ارتبطتا بروابط الصداقة ، منذ أن قامت ذات يوم بتأمل سلمى من الرأس إلى الأرجل ، لتصرّح بعد ذلك ، قائلة : « إن هذا الثوب ، أنا التي خطته ! » ، وركعت على رجليها ، أمام سلمى المذهولة ، وقلبت ثنية الروب . وأكدّت : « إنه من صنعي أنا بالتأكيد . ويقول رئيس المعمل إني الوحيدة عنده القادرة على عمل هذه « الطُعن » الصغيرة جداً ! وكانت تزهو بعملها هذا زهواً كبيراً » .

ثم إن سلمى سلّمت إليها أروابها المسائية ، طالبة منها أن تبيعها لها . وهذا ما قامت به خير قيام . ولما كانت تأبى قبول أية مكافأة من سلمى ، فإن هذه كانت تدعوها من حين لآخر ، للعشاء معها . وكانت الفتاة ، تروي لها ، بكل ما لدى الشقي الباريسي من روح فكهة ، ما يقال ويسمع من فضائح عالم ، لم تعد هي تتردد عليه . وكانت ممتنة منها بشكل خاص ، منذ أن وزّعوا على الناس قسائم التموين ، ذلك أنها أعطت سلمى ما لديها من قسائم تتعلق بالحليب ، وتقول :

ـــ أما أنا ، فالحليب يمرضني في القلب .

وعلى ذلك فإن شارلوت قرّرت أن لا تضع اسمها في السجل الخاص باليهود . « إذ كيف يمكن أن يحزروا . إن لي اسماً فرنسياً أما الباقي ، فمن حسن الحظ أني امرأة » . وبدأت تضحك ، مسرورة من مزحتها هذه .

وبعد ثلاثة أسابيع قامت حكومة فيشي بإصدار قانون ينظم « وضع اليهود » . وهو يمنع ، « لدواعي الأمن الوطني » كل اليهود من العمل كمحام ، أو قاض ، أو مدرس ، أو ضابط ، أو صحفي أو في الإذاعة ، أو ممثل في السينما أو في المسرح ، أو في عالم الصيدلة ، أو طب الأسنان ...

وقالت شارلوت :

ــ إنكم ترون الآن أني على حق ، لا لأن في عزمي أن أكون وزيرة . ولكن على كل حال ، هل نحن من المصابين بالطاعون ؟

وفي ذلك اليوم ، ومن أعلى مكتبها ، ومن حيث هي فرنسية حقيقة ، صـرّحت مدام إيميلي بقولها :

ــ لا مجال بعد الآن للمراوغة : فالماريشال رجل عظيم !

وانتهزت الفرصة ، وزادت أجور الأسرتين الإسرائيليتين اللتين كانتا تسكنان هناك . أما من شارلوت ، فإنها لم تطلب شيئاً . ترى هل كانت تجهل أنها يهودية ؟ إن هذا ، لو صـحّ ، لكان أمراً غريباً . ذلك أن هذه المديرة كانت تعرف كل شيء عمن عندها . ولكن ربما حسبت أن من العبث أن تحاول . ذلك أنه لم يكن للفتاة من مصدر عيشٍ غير أجرتها التي لا تكاد تفي إلا بما يكفي لبقائها حية ؟

وقالت سلمى لنفسها :

« الحقيقة أنني أسأت الحكم عليها » .

والواقع أنه لم يمض إلا عدة أيام بعد ذلك ، حتى جاء شرطيان ، واقتادا شارلوت . وكانت هذه تتخبّـط وتصرخ ، أمام المستأجرين . وتقول :

ــ إن هذا خطأ . فإني فرنسية !

ويرد الشرطيان :

ــ ستشرحين لنا هذا في القسم . وأخذاها بالقوة وهما يضحكان .

ولكن الفتاة استطاعت ، قبل أن يعتقلوها ، أن تقول لسلمى همساً :

ــ انتبهي إلى العجوز !

ولم تعد شارلوت قط . ولكن العجوز ، في اليوم التالي ، عرضت نفسها في ثوب جديد !

وكانت سلمى ، في الأيام التي كانت ما تزال تملك بعض المال ، تذهب فتغيّـر جـوّ أفكارها ، في الهضبة في مغنى الأرنب الماهر Lapin Agile ، وتقضي فيـه أمسيتها . وكانت تستمـع فيـه إلى

فريدي Fredé الذي يعزف بالقيثارة، ويغني أغاني قديمة معروفة، وتستمتع بهذه المجموعة من الناس المرحين والفوضويين. الذين كانوا يتردّدون على ذلك المغنى (الكباريه). والواقع أن ما كان يجذبها إلى هناك هو، بشكل خاص، صورة هارفي، وذكرى لياليهما في هذا المكان.

وحديثاً، تعـرّفت إلى مجموعة من الشباب، تبنوها، وصارت واحدة منهم... وكان بينهم إسبانيون هربوا من نظام فرانكو، وتشيكيون، وبعض البولونيين، وكلهم من اللاجئين إلى فرنسا، وفوجئوا بوصول الألمان إلى باريس. كانوا مرتاحين، غير معـقّـدين، ومنفتحين بحرارة للآخرين. وكانت القاعدة الوحيدة فيما بينهم، هي التستر على ما لدى كل منهم. فما من أحد يطرح سؤالاً في هذا الوسط الذي يتعاطى التهريب، والذي تفد إليه بعض الوجوه أحياناً، وتختفي وجوه أخرى. ومن الذي لا ريب فيه أن أسماءهم مستعارة. ولكن مم يعيشون؟ لا ريب أنهم كانوا يقومون بمتاجرات صغيرة. واستطاعت سلمى أن تقـدّر مدى مهارتهم في تدبير أمورهم، وذلك بعد مدة من الوقت ــ وجدوا خلاله أنها عنصر موثوق. ذلك أنهم جاؤوها ببطاقات تموين مزيّـفة، ووجدوا الوسيلة لبيع معطفها الفيزون الأبيض، بثمن مقبول، كما باعوا لها بضع حقائب يد من عند هيرمس، وحوالي العشرين زوجاً من الأحذية الكبيرة القيمة. ذلك أن الجلد أصبح مادة لا يُعثر لها على أثر.

وكانوا لا يبحثون أبداً في قضايا السياسة. ولكنها لاحظت أنهم يعرفون أشياء كثيرة، قبل الآخرين، مثل مظاهرة ١١ تشرين الثاني / نوفمبر / أمام قوس النصر، حيث أطلق الألمان النار على المتظاهرين من الطلاب. وقد اطلعت سلمى، مرة أو مرتين، على أحاديث تدور بينهم، من نوع غريب. وتساءلت عما إذا كان هؤلاء الشباب المجانين الذين لا هـمّ لهم إلا كسب بعض المال، والاستمتاع بالحياة، ليسوا على صلة بالمقاومة، التي بدأ الناس يتهامسون أنها أخذت تنتظم.

وكانت هذه المجموعة تلتقي أحياناً للرقص في كهف أُعِـدّ خـصّـيصاً لهذا الغرض، وسـدّت منافذه بإحكام، إخفاءً للنور، وطمساً للضجيج. وهم بذلك يتعرضون للأخطار، لأن هذا الأمر ممنوع. ولما كان منع التجول يبدأ من منتصف الليل، فإن هؤلاء الناس يرقصون حتى الفجر، ويرقصون بحرارة أكبر، لأنهم غير واثقين بأنهم سيظلون أحراراً في الغد.

وفي المرة الأولى التي عادت فيها في أول الصباح، وجدت زينيل جالساً على كرسيّـه، مرتدياً ثيابه. وكان لم ينم من شدة القلق. فنظر إليها دون أن يقول شيئاً، وهذه أحسن طريقة عنده للإعراب عن استنكاره. فجاءت، مرتبكة، وجلست بجانبه.

ـــ آغا ، افهمني . فأنا أختنق في هذه الغرفة . أما في النهار فإن الطفلة تفرحني فرحاً أنسى معه كل همومي . وأما في المساء ، عندما تكون نائمة ، وأجد نفسي وحيدة في هذا الكوخ القذر ، فإني أتعرض لأفكار سوداء تحجب عني النوم .

وحمل زينيل يد سلمى إلى شفتيها ، وقال لها :

ـــ غفرانك ، ياأميرتي . فأنا أناني عجوز ، وأنت شابة في مقتبل العمر . وصحيح أن هذا النوع من الحياة قاسٍ عليك ، وأنك بحاجة إلى تسلية نفسك ... وتعرفين أنني أقدِّم حياتي لكي تكوني سعيدة ، ولكن ... ـــ وهنا اضطرب صوته ، ونفرت الدموع من عينيه ـــ ولكني خائف . فإذا حدث لك حادث ما ، فماذا يكون من أمر ابنتنا الصغيرة ؟

فبدأت تضحك ، لتطمئنه . وقالت :

ـــ ليس هنالك أدنى خطر . إني أظل يقظة الانتباه !

ولكنها كانت تعرف أنه على حق . فباعدت طلعاتها هذه ، وطلبت منه أن يساعدها في تغطية حدران الغرفة . وتخفيف النور بسواريها . لا شك أن هذا يعطي العرفة طابع الغجريات ، من كثرة الألوان ، ولكنه بهيج على الأقل . ومنذ الآن تشعر بأنها أفضل حالاً .

أما مديرة الفندق (المطرونة) التي تلاحظ ملاحظات خبيثة حول كل هذا القماش الجميل المهدور ، على حين أن الكثيرين لا يجدون مايضعونه فوق أجسادهم ، فإن زينيل يتصدّى لها ويقول : «إنه ليس لأحد حق في محاسبة الأميرة على ماتفعل » . ويظل يسميها أميرة ، على الرغم من ملاحظات سلمى التي تنهاه عن هذه التسمية ، خوفاً من أن تضاعف عليها الأجور .

ـــ إنك لاتفهمين شيئاً من هذه الأمور . أما أنا ، فإني أعرف هؤلاء الناس : ويجب أن تتكبّري عليهم ، وإلا فإنهم يسحقونك .

وهو على حق : لا لأن الأسعار لم ترتفع ، ذلك أن العجوز تفهم أنه ليس لسلمى موارد مالية . ولكن بدلاً من أن تجعل الحياة صعبة عليها ، نراها تراعيها ، وترعاها ، مشيرة مع بسمة كبيرة ، إلى أنه عندما تصبح الحياة طبيعية ، فإن « السيدة تعرف كيف تتذكر التضحيات التي قدِّمت لها » ، وتوافق سلمى ، على ما قالته ، من شدة التعب وتعدها بأنها ستكافأ مكافأة جيدة ، دون أن تسأل عن تلك التضحيات التي تشير إليها المطرونة . إلا أن يكون عدم توجيه الشتائم إليها ، هو هذه التصحيات .

ومع وجود قسائم التموين المزيّفة ، فإن التموين يصبح أكثر فأكثر صعوبة . فما من شيء يجده الإنسان إلا في السوق السوداء ، حيث كل شيء موجود ، ولكن بأسعار لا تقارب . وتشتري سلمى ما لا بـدَّ من شرائه من أجل الطفلة ، أما هي ورينيل ، فإنهما يكتفيان بالقلقاس الرومي (وهو نوع من البقول) . والملفوف . وحتى البطاطا ، فإنها قد أصبحت من عالم الكماليات العظيمة ، حتى إن الصحف تعلن عن قدومها إلى السوق قبل ثلاثة أسابيع . وللإنسان الحق في ٢٨ غراماً من اللحم و ٥٠ غراماً من الخبز الأسود القاسي . أما السكر فإن حصة الإنسان هي نصف كيلو في الشهر . لكن القهوة ذكرى قديمة العهد . وليس ذلك بالأمر الخطير ، ذلك أن الصحف تقـدّم وصفات من نوع خاص لعمل قهوة « لذيذة » من الشعير المشوي أو من البلوط . أما الدخان الذي يستهلكه زينيل بمقادير كبيرة ، فيجب أن يُعـوَّض عنه « بتراشيب العرانيس » .

وأخذ الخصـيّ على نفسه أن يقوم بتدبير الحاجات ، ذلك أن الحصول على هذه الحصص التافهة ، يحتاج إلى الوقوف في الصف طول النهار . ويرى أن هذا هو وظيفته ، وليس وظيفة الأميرة . وتراه يلـحّ على مثل هذه التفاصيل العائدة لعهد آخر ، وانتهت سلمى إلى القبول بذلك ، لأنه في أيام الشقاء التي هو فيها ، يتعلق بقيم يجد أنها ضرورية له كالهواء . أما الشيء الذي لا يقوله ، فذلك هو أنه يظل قلقاً عليها . وحقاً فإنها لم تكن قط سمينة . أما الآن فإن نسمة من الهواء كافية لجعلها تقع على الأرض . وكثيراً ما انتابتها ــــ وهي في الطريق ــــ آلام غير واضحة ، ودُهش الناس من حولها ، لأنهم لا يتخيّـلون أن سيدة في مثل هذه الأناقة يمكنها بكل بساطة أن تتألم من الجوع . ولكنها لا تتألم من ذلك : فمع قلة الطعام ، تتعود المعدة على ذلك ، وتتلاءم معه . وكان شتاء هذا العام ١٩٤٠ مخيفاً . فالناس في الخارج يرتجفون من البرد ، كما يرتجفون منه داخل الغرف . وما من فحم للتدفئة هذا العام ، حتى إن سلمى لا تجرؤ على فتح نوافذ الغرفة ، لتهويتها ، لأنها ملتصقة من الخارج بطبقة من الجليد . وذات صباح وجدت عصفورها الذي اشتراه لها هارفي ، ميتاً في قفصه من شدة البرد . فهطلت دموع عينيها هذه المرة ، وهي التي تحـمّـلت حتى الآن كل شيء . إنه شيء من هارفي قد مضى ... وتأبى بطبيعة الحال أن ترى في ذلك فألاً سيئاً . ولكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من هذا التفكير : ففي الشرق ، ينتبه الناس إلى مثل هذه الأشياء ...

ولم يفهم زينيل هذا الحزن من أجل مجـرَّد عصفور . وبالمقابل فإنه يظل قلقاً على البنيّـة ، لأنها سريعة العطب في هذا العمر . وهكذا فقد تعودت سلمى أن تأوي إلى السرير بكامل لباسها ، وتضم الطفلة إلى صدرها ، وتجن عندما تفكر بأنها قد تصاب بأذى . ذلك أنها إذا هي استطاعت أن تغذيها بشكل مقبول ، على حساب حرمانها هي نفسها من كل شيء تقريباً ، فماذا عساها أن

تفعل ضد هذا البرد الرطب ، الذي ينفذ إلى أعماق الشرايين ، لا سيما وأن المرسى الكبير قد كلفها آخر معطف عندها من الفرو .

ففي تموز / يوليو / عام ١٩٤٠ ، عندما هاجم الطيران البريطاني الأسطول الفرنسي الراسي في هذه القاعدة ، في الجزائر ، وأغرق نصفه حتى لا يستولي عليه الألمان ، كان الاستياء كبيراً لدى جماعة بيتان وفي ذلك الحين كان أكثر الباريسيين من هذه الجماعة .

ومنذ ذلك الحين ، كانت المطرونة إيميلي لا تدع فرصة تفوتها لتهاجم هؤلاء الخونة « الإنكليز » وتُشفع ذلك بنظرات غاضبة باتجاه سلمى (باعتبارها من الرعوية البريطانية) . وهكذا فقد أوصت سلمى زينيل بترطيب خاطرها ، بتقديم بعض الهدايا الصغيرة لها ، كشال منسوج باليد ، وعقد من اللآلىء الملونة ، وكأي شيء آخر من تلك الهدايا ، التي قُـدِّمت لها من قبل نساء بادالبور ، وحملتها معها في حقيبة كبيرة ، كما حملت شيئاً من تراب الهند . وأحياناً ، كانت المطرونة تضع على سبيل الزينة ، ما كانت تسميه « حليّـها الشرقية » وعندئذ كانت سلمى تشعر بشيء من الانقباض في قلبها . ولكنها تعرف أن صديقاتها هناك ، كن سيفهمن لماذا استغنت عن هداياهن لحساب هذه المطرونة .

واستمر الأمر كذلك حتى صباح يوم من أيام تشرين الأول / أكتوبر / ، عندما كانت سلمى تتهيأ للخروج ، وتدثّرت لذلك بمعطفها المصنوع من فرو ثعلب الماء . فلقيت في طريقها المطرونة إيميلي ، فاستوقفتها لكي تمتدح ذوقها في اللباس ، ولاحظت بضحكة مزيّـفة ، ملاحظة خبيثة ، قالت فيها :

ـــ ما كنت أعرف أن الإنكليزيات يُـحسنن مثل هذه الأناقة .

وكانت هذه هي المرة الأولى التي تشير فيها إشارة مباشرة إلى جنسية سلمى . وكان هذا واضحاً كشفرة السكين . ومن دون أن تقول سلمى أية كلمة ، خلعت عنها معطفها هذا ، وأعطتها إياه ، وصعدت مباشرة إلى غرفتها حتى لا تسمع شكرها المزيّف .

أما الآن فإنها تخرج في معطفها الصوفي ، المناسب للأيام نصف الباردة ، لا للأيام التي تهبط فيها الحرارة إلى ما دون الدرجة ١٥ ، تحت الصفر . وكان الحـلّ هو المشي بسرعة ، بل والعدو أيضاً ، ولكنها لم تَـعُـدْ تستطيع ذلك . ومنذ ذلك الحين ، وهي تشعر بتعب كبير . وكانت أحياناً تشعر بألم يعتري جانبها الأيمن . ولكنه لا يبقى إلا بعض الثواني . غير أنها في الأسابيع الأخيرة ، تكاثرت عليها

السوبات وتقاربت . ولم تحدّث زينيل بشأنها : فماذا يستطيع أن يفعله من أجلها ، غير أن يحمل مريداً من الهموم ؟ وتعرف سلمى أن عليها أن تستشير طبيباً ، وتأخذ الأدوية الضرورية . لكن ذلك يكلف غالياً ، ولم يعد معها مه إلا القليل . وعدا ذلك ، فإنها كانت مقتنعة أن هذا كله سيزول لو أنها كانت تأكل أفضل بقليل . ولا بدّ أن هذا ينشأ عن الزيت الذي يباع في السوق السوداء ، والذي تطهو به الطعام ، ذلك أن كبدها كان دوماً سريع العطب .

وتضم ابنتها إلى صدرها ، وتقول لها : « ليس هذا بخطير ، أليس كذلك يا جوهرتي ؟ فأنت على الأقل في صحة جيّدة كالسحر الحلال . أنت أجمل بنت صغيرة في هذا العالم . إن أمك هي التي تقول ذلك لك ، وهي لا تكذب إلا نادراً . وسترين متى انتهت الحرب كم سنكون سعيدتين نحن الاثنتين » ! ثم أجلستها على ركبتيها ، وجعلت تقفز بها ، بصورة منتظمة : ففرحت الطفلة بذلك ، وأخذت تطلق صرخات حلوة ، وتغضب عندما يتباطأ حصانها المتعب ، في إرقاصها . « إن للآنسة مزاجها ! وهي على حق : فأنا لن أحاول أن أُلح عليك بالتنعيم والتلطيف ، ولن أجعل منك فتاةً كلُّ وظيفتها أن تعجب الآخرين . فلك الحق في أن تكوني كما أنت ، ولست بحاجة إلى تبرير نفسك عندما تعيشين على طريقتك . وعندما أفكّر أن أمّك كانت من الغباء بحيث قضت تسعة وعشرين عاماً من عمرها ، كي تفهم هذا .... » .

ولكن أكانت تفهم هذا يوماً ما ، لولا هارفي ؟ ... هارفي ... والله يعلم ما إذا كانت في البداية تلومه على إرغامه إياها ، على أن تكون حرّة ، وأن يجيبها عندما طلبت منه النصيحة ، بأن الغايات كلها تتساوى وتتعادل متى كان الإنسان يعيشها بعمق ، وأن المهم ليس الوصول ، بل المشي ، وبصورة خاصة ، أن يقع ، ذلك أن هذا يرغمنا على أن نضع أنفسنا موضع التساؤل . وكان يقول أيضاً إن المثل العليا توابيت تشلّنا ، وتمنعنا من أن نرى أو نسمع ، وأن الأغبياء والضعفاء يعملون من أجل مثلٍ أعلى — استعاروه استعارةً أو صنعوه لأنفسهم تلقائياً — وذلك لأنه ليس لديهم الشجاعة الكافية ليقفوا على أقدامهم ، بلا وصيّ . ثم إنه كان يتحدّث عن السعادة التي لا تنشأ عن هذا الحادث أو ذاك ، ولكن عن قدرتنا على أن نعيش اللحظة التي نحن فيها ، مهما تكن ، وذلك لأننا وحدنا ، الذين نهب الأشياء لونها الحزين أو البهيج .

« أو أقول بأنني الآن فقط أفهم ما كان يريد أن يقوله لي ، وأنني احتجت إلى الحرب ، والفقر ، والوحدة ، لكي أجد السعادة داخل نفسي؟ ذلك أنني سعيدة . فما من مرّة أحببتُ الحياة كما أحبّها الآن ، وما من مرة ، أبداً ، رغم الحرمان والخوف ، بدا لي العالم مُضيئاً ، بهذه الدرجة ! » .

ومع ذلك فإن سلمى تشعر منذ مات العصفور، أنها لن ترى هارفي مطلقاً، وهناك شيء يتهيأ حدوثه، بصورة مستقلة عن إرادتيهما، ويوشك أن يفصلهما إلى الأبد. ومنذ بضعة أسابيع فقط، كانت مثل هذه الفكرة تدخل اليأس إلى أعماق قلبها. أما الآن فإنها تشعر بهدوء من نوعٍ ما. ومهما يحدث فإنها تعرف أنها قادرة على مجابهته. ولم تعد تلك السلمى السريعة العطب، المعـذّبة. بل هي امرأة وهبها هارفي أجمل هدية في العالم. لقد علمها أن تنسى نفسها وأن تُـحب.

«آه، يا أيها الغالي، أيها الغالي!». وبدأت سلمى تدور وهي تدور، ممسكة بالطفلة بين ذراعيها، على نغم فالس لستراوس كان ينطلق من الراديو. «سترين كم أن الحياة جميلة! والآن صرت أعرف السـرّ، وأعدك بأننا لن نكون أبداً من التعساء!».

ووضعت البنـيّـة ذراعيها حول عنق أمها، وضحكت من أعماق قلبها، على حين أن سلمى كانت تدور، وتدور، ببطء أول الأمر، ثم أسرع فأسرع، وكانت الأزهار الحمراء الموجودة فوق البساط تتراكض بعضها وراء بعض كسربندة[٢] فرح.

وفجأة تشعر بألم، كأنه ضربة خنجر في البطن، يحملها على الترجح (التأرجح). فتحس باختناق، وتريد أن تصرخ... لكن الطفلة بين يديها، ويجب ألا تدعها تقع. واستنهضت كل قواها، وحاولت أن تتعلق بالطاولة، هناك، على مقربة منها، فتمايلت، وشعرت بحرقة لا تحتمل، وكأنها تمزقها... كما لو أن هناك موقداً، وستارة من الرماد... ولم تر شيئاً... وتشعر بأنها تسقط، ولا تتوقف عن السقوط...

وكان الفالس يتتابع، بهيجاً، مغرياً، في الحين الذي كانت فيه الطفلة تبكي أشد البكاء وتعول، إلى جانب أمها الغائبة عن الوعي.

ولم يكتشفها زينيل إلا بصورة متأخرة، بعد أن عاد من شراء حاجاته. وها هي سلمى متمـدّدة على الأرض، بيضاء، شديدة البياض. لكنها خلال سقوطها حمت الطفلة التي تبكي من شدة الخوف.

---

(٢) سربندة (رقصة من رقصات القرنين السابع والثامن عشر) تتميّز بالصخب.

— ٧

وفي مستشفى الأوتيل — ديو ، كان الجراح يذرع مكتبه جيئة وذهاباً . وكان ينظر بمرارة إلى يديه القويتين اللتين توصفان عند الناس ، بأنهما أعجوبتان : أما هذه المرة ، فإنهما لم تستطيعا الإنقاذ .

بيد أنه منذ أن وصلت سلمى ، فيما يشبه نصف الإغماء ، أمر بأخذها إلى غرفة العمليات . وكانت مصابة بالتهاب حاد في الصفاق . ففتح البطن ، وقص ، وربط ، وخاط ، خلال ساعتين ؛ وقد استبسل في العمل ، وحوله ممرضات صامتات . فالسيدة المريضة شابة . ويجب أن يخرجها مما هي فيه ، بأي ثمن . وعندما عاد فأغلق البطن الرقيق ، مسح عن جبينه العرق ، وهو يتنهّد ، تنهّد من تخلّص من حمل ثقيل : ذلك أن خصْمه القديم لن ينتصر .

غير أن الحمى عادت في الليل ، وفهم أن تسمّم الدم بدأ . وكان هنالك شيء واحد يستطيع إنقاذها ، هو هذه الأدوية الجديدة « المضادات الحيوية » التي كانوا يصنعونها في أمريكا . أما في فرنسا ، فإنها لم تكن قد وُجدت بعد .

ولقد وقف يشهد تصاعد الخطر ، وهو في حالة العجز . وكان التسمم يزداد ويستولي على هذا الجسد الشديد البياض ، بصورة حتمية ، بعد أن ظن أنه خطفها من الموت .

أما الآن فقد انتهى الأمر . وعلى كل حال فإن المرض لم يكن يمهلها أربعاً وعشرين ساعة .

ذلك أن الالتهاب امتد بسرعة. ولم تستطع العضوية أن تقاوم، لشدة ما عاشت في الحرمان، على ما يُرجَّح. فيشدّ الأستاذ على قبضتيه. فها قد بدأ يُجري العمليات منذ عشرين سنة، وكلما خسر معركة الحياة، يقف وقفة المتمزق هذه. وأكثر من ذلك ــ وعلى الرغم من أنه يؤاخذ نفسه على ما أتى ــ فإنه عندما يكون أمام إنسان شاب يُودى به هكذا، كما هي حال هذه السيدة الشابة، في أرقى درجات تألق جمالها، يشعر بأن ذلك تبديدٌ لحياة ثمينة، لا يحتمل.

والآن يجب أن يكلِّم الأب، الذي بقي لا يتحرك منذ البارحة، في الممر. وعندما خرج من العملية، ابتسم له قائلاً: «إن الشر سيذهب». فأشرق ذلك الوجه المتجعد عرفاناً بالجميل، قبل أن يَفهمَ الأستاذُ ما كان يجري، وانقض على ركبتيه، وقبّل يديه باكياً من الفرح. وكان الطبيب خشناً، فدفعه عنه، ورفعه، وسمح له بأن يدخل عدة دقائق إلى الغرفة. وكانت سلمى لا تزال نائمة؛ وقد دهش الطبيب من هذا الحب القريب من العبادة، الذي كان يفيض من هذا الرجل، ومن خفقات العاطفة المتدفقة منه، والتي كان يبدو أنها تدفىء غرفة المستشفى الباردة. ولم يستطع إلا أن يفكر بأنه لو كان البشر قادرين على الشعور بجزء ولو بسيط من مثل هذا الحب، إذن لما حدثت حرب أبداً. وعلى أسفٍ منه، استبعد الأب عن تأمل ابنته الغالية، ونصحه بأن يأخذ قسطاً من الراحة. وفيما بعد، علم من الممرضات أنه بقي الليل كله، جالساً على الأرض في الممر.

وفي اليوم التالي، كان باب الغرفة مغلقاً في وجه الجميع. أما في الداخل، فإن الأطباء والممرضات كانوا منشغلين بالمريضة. بل إن الجراح هو نفسه، جاء يتفقدها مرتين أو ثلاثاً، بين العمليات. وفي كل مرة كان يلقي النظرة المتوسلة، لذلك الرجل، ويرغم نفسه على الابتسام له أو يقول: «إننا نفعل كل ما بوسعنا».

والآن ماذا سيقول له؟

ولم يكن بحاجة إلى الكلام، لأن زينيل كان يعرف. ولقد عرف ما جرى، في اللحظة التي كانت فيه ابنته الصغيرة، تلفظ نفسها الأخير. فشعر، في جسمه كله، بهزة، بدت له وكأنها تنزع شيئاً ما منه. فترك نفسه ينزلق على الأرض، وصدم جبينه باب الغرفة.

وجاءت الممرضة، فوجدته هناك، فيما يشبه الإغماء. فأجلسته وغسلت له صدغيه، حتى يعود إلى كامل وعيه. ذلك أن عليه الآن أن يعمل، ويتخذ بعض القرارات. فماذا يجب أن يفعل بالجثة؟ وهم أجانب، وليس لديهم كهف عائلي. فأين إذن يقبرونها؟

وهذا كله ليس من اختصاص الأستاذ ، بل إن إدارة المستشفى ستتكفل به . ومع ذلك فإنه يشفق على هذا الرجل المتألم ، وهيأ بعض كلمات المواساة . ولكنه عندما وجد نفسه أمام نظرة الرجل الفارغة ، التي يبدو أنها تنظر إلى مكان آخر ، بعيد جداً ، شعر أنه لا لزوم له ، فضغط على يد الرجل العجوز ، وخرج دون أن يبس ببنت شفة .

ولا يتذكر زينيل ماذا جرى خلال الساعات التالية ، ولا يعي شيئاً آخر غير أن امرأة في ثياب بيضاء تطرح عليه بعض الأسئلة ، لم يكن يفهم منها شيئاً ، وكان يقول فقط : إنه يريد أن تدفن ابنته في مقبرة إسلامية ، بعد أن قدم لها محفظة أوراقه .

ورأى بعد الظهيرة عربة موتى يشدها حصان هزيل ، ثم حَمّـلها الرجال الذين رافقوها ، صندوقاً من الخشب الأبيض . وأشاروا إليه بأن يتبعهم .

ولكن كم من الوقت مشى وراء سلمى ؟ لقد كان المطر المثلج ، مطر كانون الثاني / يناير / يتسرّب إلى ما تحت ثيابه ، ولم يكن يشعر بذلك وكان يتذكر النزهات الطويلة التي كانا يقومان بها ، كما يتذكر بسمتها المداعِبة ، عندما كانت تطلب منه أن يعدها بأن يكون معها حتى نهاية العالم .

وأخيراً وصلوا إلى أرض ضخمة ، غامضة ، مقلقة بجدرانها المهلهلة ، وعلى مدى النظر ، كانت هنالك صفوف من الشواهد ، تبرز من العشب : وكان هذا هو المقبرة الإسلامية ، مقبرة بوبينيي Bobegny . ولم يستطع زينيل أن يكبت شهقة بكاء ، عندما فكر بالمقابر الحلوة التي تشرف على البوسفور ، والتي كانت سلمى تحب النزهة فيها .

ولكن إمام المقبرة عيل صبره : ذلك أن الوقت أصبح متأخراً ، ويجب بسرعة أن نصلي صلاة الميت ، لا سيما وأن هذا الرجل المسكين لا يملك المال الكافي لكي يدفع تكاليف احتفال أهم من هذا ، بل إنه لم يكن معه ما يشتري به شاهدة قبر ينقش عليها إسم المرحومة . وليكن ما يكون ، فإننا سنكتبه على قطعة من الخشب ، حتى إذا ما نبت العشب ، لم تختلط القبور على أصحابها . فالعائلات لا تحب هذا الخلط . وأية تعاسة !

وينظر زينيل إلى الحفرة السوداء التي حفرها رجلان في القسم المخصص للنساء ، وإلى النعش الذي سينزلونه إلى مكانه بالحبال . ولكن لماذا حبسوا ابنته الصغيرة في هذه العلبة ؟ لا بـدَّ أنها ستختنق فيها ، وهي التي لم تحتمل قط أن تحبس . ففي عالم الإسلام ، يلف الجسد في قماش أبيض ثم يوضع هذا على التراب مباشرة . ولكنهم يقولون : إنه ليس لهم الحق ، في فرنسا ، أن يفعلوا هذا .

وعندما انتهى رجال المقبرة من عملهم ، كان الظلام قد حَـلَّ تقريباً . أما صاحب العربة فقد هجر المكان منذ مدة طويلة وبقي زينيل وحده في المقبرة ، بين آلاف القبور ، أو قل بقي وحده مع سلمى . وكان يفكر ، وهو أمام هذا المربع من التراب المطروق ، بالأوابد الرخامية الفخمة التي كانت تستمر ، قرناً بعد قرن ، في استامبول ، في التذكير بأمجاد السلطانات العظيمات ، فيرتعد ... ومن يستطيع أن يحزر أن أميرته تنام في هذا القبر المسكين؟ بل من سيتذكّر؟

وتمدَّد على الأرض التي حفرت من جديد . مغطياً ابنته الصغيرة بجسمه ، ومحاولاً أن ينقل إليها شيئاً من حرارته الحية ، ومن حبه . إذ لم يعد لها الآن غيره . ولن يتخلى عنها . إذ لقد وعد السلطانة بذلك .

ــ آغا!

وتعدو سلمى نحوه من آخر الحديقة ، وهي أحلى ما تكون في ثوبها الحريري ، وخصل شعرها الحمراء تتطاير في الهواء .

ــ آغا ، خذني معك . أريد أن أرى الألعاب النارية على البوسفور! وتعلقت برقبته . وأخذت تتسلى بشد شعره .

ــ تعال بسرعة ، يا آغا ، إن هذا ضروري! إنني أريده!

ــ ولكنّ من الممنوع أن تخرجي من الحديقة ، أيتها الأميرة الصغيرة!

ــ أوه ، آغا ، إنك لم تعد تحب سلماك . وماذا تعني كلمة : ممنوع؟ آغا ، هل تريد أن أكون تعيسة؟..

ومرة أخرة ، عاد فقبل . فهو لن يستطيع أن يخالف لها أمراً .. فيهبطان ، يداً بيد ، من خلال الممرات التي تعطرها الميموزا والياسمين ، باتجاه الشاطىء الذي ينتظرهما فيه القايق الأبيض والذهبي .

وقفزت ، بخفتها المعهودة . وكانت السهام النارية تلهب شعرها ، وحينما كان يستقر في مكانه كانت عيناها تلمعان وتهمس في أذنه قائلة:

ــ والآن ، يا آغا ، نسافر نحن الاثنين معاً ، فى رحلة طويلة جداً .

واستيقظ زينيل بضربة خفيفة على كتفه . فقد كان النهار على وشك أن يطلع . وكان فوقه رجل ينظر إليه بفضول .

ـــ يجب ألا تبقى هنا ، لأن المرض سيصيبك من جراء ذلك !

وساعده على النهوض ، وعلى نفض التراب الذي يُلوث ثيابه . وقاده بيده ، وهو يرتجف من البرد ، إلى العريفة التي يضعون فيها أدوات الحفر ، في مدخل المقبرة . وهناك أشربه قدحاً كبيراً من القهوة الساخنة . وكان يسمى « علي » وهو حارس المقبرة . وجلس بجانبه كأنما هو متضامن معه على الضراء .

ـــ وإذن فهكذا ياأخي ، ماتت السيدة ؟

وتأتأ زينيل وهو يصك أسنانه بعضها ببعض .

ـــ إنها ابنتي .

ـــ ولم تضع شاهدة باسمها ، لابنتك ؟ ...

ويهز زينيل رأسه ، وفجأة يشعر أنه ضعيف . ذلك أنه منذ ثلاثة أيام لم يأكل ، منذ اللحظة التي رأى فيها سلمى ...

ـــ خذ ، وكل . ثم إن العامل الذي يُصنّع الرخام صديقي ، وفي وسعه أن يعطيك رخامة صغيرة ، بثمن رخيص . وهكذا فقد سحب زينيل بعناء ، ساعته من جيب صدرته . وكان هذا كل ما بقي له من أيام العظمة في أورطاكوي . وكان قد احتفظ بها لليوم الذي لا يبقى معه شيء . أما الآن ...

ـــ ليس عندي غير هذا . أفيقبل ؟

ـــ احفظ ساعتك ، ستكون إليها بحاجة ، فيما بعد . ولا يزعجك فأنا سأتولى شأن الشاهدة . ويجب أن يتساعد المسلمون فيما بينهم .

وعلى الرغم من احتجاجات زينيل ، فإنه خرج . وبعد عدة لحظات ، عاد وهو يحمل حجرة صغيرة بيضاء ، قطعت على شكل القوس . ونقش عليها بتعليمات من الخصيّ ، وبأحرف عرجاء ما يلي :

سـلمى

١٣ ـ ٤ ـ ١٩١١ / ١٣ ـ ١ ـ ١٩٤١

ولكن شيئاً ظل يزعج زينيل، فقال لصديقه:

ـــ إنهم لم يدفنوها كمسلمة. إذ وضعوها في علبة بيضاء. فهل تظن أننا نستطيع؟...

وأشرق وجه عليّ، ذلك أنه يحب على المؤمنين الحقيقيين. وبقفزة واحدة، مضى يبحث عن معول. ووجد في المستودع غطاءً أبيض. وذهب الاثنان معاً إلى القبر. ولم يحتاجا إلا إلى ربع ساعة لكي يزيحا التراب الجديد، ورفع النعش، وانتزاع المسامير.

وقال علي:

ـــ حسناً، سأتركك الآن، واختفى في الوقت الذي كان فيه زينيل يفتح النعش. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يراها فيها، ما أجملها في قميص نومها الطويل الأبيض؛ أما خصل شعرها المذهبة فكانت متدلية على كتفيها، وعليها كل سمات الفتاة الشابة. فانحنى وهو يرتعد وطبع قبلة رقيقة جداً، على خـدّها.

وعندما نهض، كانت عيناه جافتين. وبلحظة واحدة، فارقه الهيجان. ذلك أن هذه الراقدة الباردة غريبة عنه. أما ابنته الصغيرة فإنها لم تعد هنا. لقد مضت مع ضحكاتها ونزواتها، وألوان أشواقها، وكرمها، وكل ما كان يجعل منها «سلمى». مضت وفارقت هذه الدنيا...

وبنعومة، لـفَّ الجسد بالقماش الأبيض، واتخذ كل الاحتياطات، كيلا يجرحها. وعاد فأنزلها في الحفرة، أو قل في هذه الأرض التي كانت سلمى تحب أن تستنشق رائحتها، والتي تستقبل الآن جمالها. وترى أنها ابنتها. فذراعاها، وشفتاها، وثدياها، وجسدها الرائع، كل ذلك سينحـلّ فيها، ويعود فيتفتح في آلاف الأزهار والثمار.

ويكاد زينيل يشعر أن سلمى وراءه تلاحظ ما يفعله وتبتسم له: فهذا حقاً ما كانت تريده. وعما قريب سيلحق بها، وسيجتمعون معاً هم الثلاثة: هو وابنته الصغيرة، والسلطانة، وسيبقون إلى الأبد في قصر من الدانتيل، شبيه بقصر أورطاكوي، يستحمون في الأمواج الشفافة، لنهر يشبه البوسفور...

وفجأة انقطعت أنفاسه، وجحظت عيناه من الرعب. والطفلة!... لقد نسي. فمنذ ثلاثة أيام بقيت وحدها، دون أي إنسان يغـذّيها. أو يسهر عليها... ولعلها قد ماتت...

ورفع صوته، متوسلاً إلى الله، أن يحميها!

ولم يعد يعرف كيف عاد إلى الفندق . ويبدو له أن (علي) أوقف سائق عربة من عربات الموتى . كان يعود إلى باريس ، فوضعه بدلاً من النعش في عربة ، وبعد ذلك جرى كعجوز مجنون راجياً من الله أن يرأف بالصغيرة .

وعندما دخل الغرفة ، وجد الصغيرة متمدّدة على السرير وكأنه لم يعد فيها دم . وكانت عيناها مغلقتين ، ورأسها مقلوباً إلى الخلف ، والفم مفتوحاً ، وتنفسها عسيرا .

فصرخ بدرجة من القوة حملت جارةً في الدور الذي هو فيه على أن تهرع إليه . فقالت له : إن من الضروري أن لا تحرّك الطفلة من مكانها ، وإن عليه أن يرفع رأسها قليلاً لكي تشرب بعض الماء ، لكن الصغيرة ترفض كل شيء . . .

وعندئذ أخذها زينيل بين ذراعيه . فوجد أنها باردة كالثلج . فغطاها بغطاء ، وهبط السلم كالعاصفة ، ومرّ بالمطرونة ايميلي ، التي حاولت اعتراضه .

ـــ قف ، قف ، إنك مدين لي بأجرة أسبوعين !

وبدأ يجري ، ونزل في جادة الشهداء ، ولا تكاد ساقاه تحملانه . ووجد على الطريق جملة عيادات طبية . ويرن الجرس ، ويقرع الباب ، فلا يرد أحد . كان ذلك يوم الأحد . وأخيراً ومن شدة اليأس ، اتجه إلى أحد رجال الشرطة الذي دلّه على القنصلية السريسرية ، حيث يوجد دوام طبي في كل يوم من أجل الأجانب .

ومضى الخصيّ حتى وصل إلى جادة غرينيل Rue Grenelle وهناك شعر أن قلبه على وشك أن يفارقه . ولكن يجب أن يقاوم . إذ ليس له الحق في أن يموت قبل أن ينقذ ابنة سلمى .

ولكنه عندما دخل قنصلية سويسرا واستقبلته سكرتيرة ذات خدّين مدورّين ، وسألته عما يريد ، لم يسعه إلا أن يضع الطفلة بين ذراعيها ، ويقع على الأرض ، عاجزاً عن أن يقول أية كلمة .

ومرت بعد ظهر ذلك اليوم مدام نافيل ، زوجة القنصل ، لتبحث عن قائمة عناوين لتلك السوق الخيرية القريبة التي يقيمها الصليب الأحمر ، وما كادت ترى الطفلة ، حتى أخذت الهاتف ، وطلبت طبيبها الشخصي . ثم إنها أعطت للعجوز المسلم كأساً من الفودكا . وكاد زينيل يختنق منها ، وأراد أن يردّها ، ولكنها تطمئنه .

ــ إن هذا ليس بكحول! إنه دواء.

وبسرعة، شعر بتحسن، وقصَّ على هذه السيدة حكايته كلها: لقد ماتت أميرته، وتركت الطفلة لحالها في الفندق ثلاثة أيام. وبعد عدة دقائق وصل الطبيب.

ودمدم قائلاً، وهو يرى حالة الطفلة:

ــ من حسن الحظ أن الوقت لم يفت! وأخرج من محفظته إبرة، وحقنها بالمصل. ثم فحصها بنعومة. وقال:

ــ إنها ضعيفة جداً. وقد تأثرت الرئتان.. ويبدو أنها لم تأكل شيئاً ولم تشرب، منذ عدة أيام.

وسمع أنيناً حمله على أن يلتفت برأسه. ونظر بإشفاق إلى الرجل العجوز وهو متهاو على كرسيه، وقال له:

ــ لا تقلق يا أيها الرجل الطيب. سننقذها إن شاء الله. ولكن لا بدَّ من عناية مشدّدة. وكأنما كان يتجه بكلامه هذا إلى السيدة نافيل، ذلك أن مصلحة الاسعاف مرهقة جداً بما لديها من أيتام الحرب. وهذه الطفلة بحاجة إلى أن يكون هناك إنسان إلى جانبها دوماً. وإلَّا فإني أخشى أن...

وقاطعته زوجة القنصل، بقولها:

ــ سآخذها إلى بيتي، يا دكتور، طول المدة اللازمة. فلقد هبطت عليّ هذه البنيّة من السماء. ولا أستطيع تركها تموت.

وخلال عدة أسابيع كان زينيل يأتي كل يوم ليزور الطفلة. وسرعان ما عادت الطفلة إلى السلامة، بفضل الغذاء الصحي المتوفر في قنصلية سويسرا. هذه الجزيرة من البحبوحة والخيرات، في وسط باريس المحتلة. وها هي الآن بنيّة بضّة الجينات والخدود، تستقبل بفرح هذا الخصيّ وتسميه «زيزل».

ولقد قصّ كل شيء على زوجة القنصل، غاضاً النظر بطبيعة الحال عن مرحلة الرجل الأمريكي، والرسالة التي أرسلت إلى الراجاه. وهو يرجو أن لا يكون الراجاه قد تلقاها، لأنه لم يجب قط. فإذا انتهت الحرب، فإنه يستطيع استعادة طفلته. وهذا هو الحل الوحيد، ما دامت

سلمى قد عادرتنا إلى دار الآخرة . وستكبر الأميرة الصغيرة في الزينانا ، وتتزوج ، وستكون حياتها مريحة وبلا مشاكل .

أوليس هذا ما أرادت أن تقوله سلمى وهي على فراش موتها ؟ إن الخصيّ يتذكر تلك الممرضة الشابة التي هرعت إليه في اللحظة التي كان فيها ينزل المستشفى ، وقالت :

ـــ أيها السيد ! انتظر ، فأنا التي كنت قريبة من ابنتك ، عندما .. أخيراً ، أي قبل ذلك بلحظة ، تعلقت بيدي وتمتمت : « عفوك ، يا أمير ... الطفلة .. لقد كذبت ... » وكانت هذه آخر كلماتها .

وارتعش زينيل . وبدأ يفكر بالكآبة التي ينبغي أن تكون استولت على المرأة الشابة ، عندما وجدت أنها تموت ، تاركة طفلتها بلا أب ... لقد فعلت كل شيء لكي تبقى ابنتها حرة . ولكنها لم تتخيَّل لحظة واحدة ، أنها هي نفسها يمكن أن تموت ، وأن الطفلة عندئذ ستجد نفسها وحيدة .

... يا أميرتي الجميلة ، أيتها الصغيرة المسكينة ... هكذا كان يقول زينيل ، وهو يرى البنيّة في الجانب الآخر من الغرفة ، تلعب مع دماها . ومنذ الآن فإنها في أمان ، ولم تعد بحاجة إليه . وقد فعل من أجلها كل ما كان يجب أن يفعله ، وبقدر ما استطاع ، سواء أأحسن أم أساء . أما الآن فإن به رغبة ملحة ، هو أيضاً ، لكي يمضي ويستريح .

وقبّـل الطفلة على جبينها بنعومة كيلا يزعجها ، وتركها وخرج ، بخطوات بطيئة .

ثم لم يره أحد بعد ذلك قط .

خـــاتمـــة

وهكذا تنتهي حكاية أمي .

وبعد قليل من موتها ، تقـدّم زائر إلى قنصلية سويسرا . وكان هذا ، أورهان ، ابن عم سلمى . وكان قد كتب على بطاقته هذه الجملة فقط : « من قِـبَـل الأميرة الميتة » .

وأُعلم الراجاه ، بالطرق الديبلوماسية أن له ابنة . وكانت العلاقات الديبلوماسية مقطوعة بين الهند ، كمستعمرة بريطانية ، وفرنسا المحتلة . فلم يستطع استعادتها إلى بادالبور . ولم يلتقيا إلا بعد انتهاء الحرب . ولكن لهذا قـصّـة أخرى .

أما زينيل ، فإنه لم يُعثر له على أثر ، تُـرى هل مات من شدة الحزن ، أو من البؤس ، أو أنه غريب بين الغرباء ، سيق بين من سيقوا في عربة مرصّـصة ، كغيرها من العربات ؟

أما هارفي فإنه لم ينس . غير أنه لم يتلق رسائل سلمى إلا عند موت زوجته . وكانت قد أخفتها ، مدة ثلاث سنوات .

وما كادت الحرب تضع أوزارها ، وفرنسا تتحـرّر ، إلا وهرع إلى باريس . وعندما علم بموت سلمى ، أراد أن يهتم بالطفلة . ولكن ما كاد أن يبدأ عملية تحضير الأوراق الرسمية ، حتى مات هو أيضاً بسكتة قلبية .

وفيما بعد ، وبصورة متأخرة جداً ، أردت أن أفهم أمي . فسألت أولئك الذين عرفوها ، وقرأت كتب التاريخ ، وصحف ذلك الزمان ، والوثائق المبعثرة المتصلة بالأسرة ، ووقفت طويلاً في الأماكن التي عاشت فيها ، وجرّبت أن أعيد تركيب مختلف أطر وجودها ، التي انقلبت اليوم انقلاباً لا سبيل إلى معرفة أصله ، وأن أحيا من جديد ما كانت قد عاشته هي نفسها .

وأخيراً ، وحبا بالتقرب منها بدرجة أكبر ، طمعاً بأن أعود فأجدها كما هي ، تركت لحدسي وخيالي أن يرمما الثغرات التي لم تعن الوثائق على ملئها .

المحتوى

حياة أميرة عثمانية في المنفى / كينيز مراد؛ ترجمه عن الفرنسية حافظ الجمالي .ـ دمشق: دار طلاس للدراسة والترجمة، ١٩٩٠ .ـ ٧٦٠ ص؛ ٢٤ سم.

١ ـ ٨٤٣ ف م راح ٢ ـ العنوان ٣ ـ مراد ٤ ـ الجمالي
مكتبة الأسد

ع ـ ٤٧٦ /٥/ ١٩٩٠

رقم الإصدار ـ ٤٨٧